رَوَائِعُ التَّفْسِيرِ

الجَامِع لِتَفْسِيرِ الإِمَام ابن رَجَب الحَنبَلي

تَفْسِيرُ

ابن رجب الحنبلي

للإمام العلَّامة

الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي

جمع وتأليف وتعليق

أبي معاذ

طارق بن عوض الله بن محمد

المُجَلَّدُ الأَوَّلُ

دار العاصمة

للنشر والتوزيع

الطَّبعَةُ الأُولَى
١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

دَارُ العَاصِمَة
المملكة العربية السعودية
الرياض - ص.ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١
هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

رَوَائِعُ التَّفْسِيرِ

الجَامِعُ لِتَفْسِيرِ الإِمَامِ ابْنِ رَجَبٍ الحَنْبَلِي

تَفْسِيرُ

ابْنِ رَجَبٍ الحَنْبَلِي

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنَّ الحمدَ للَّه تعالى نحـمدُهُ، ونستعينُهُ ونستغـفرُهُ، ونعُوذُ باللَّه تعالى من شُرورِ أنفسنَا ومن سَيئات أعـمَالنا، مَنْ يَهده اللَّهُ فلا مضل لَهُ، ومن يُضْلِلْ فـلا هاديَ له، وأشْـهـدُ أن لا إله إلا اللَّهُ وحـدَهُ لا شـريكَ له، وأشْهدُ أنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورسولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

[آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أمَّا بعدُ:

فإنَّ خيرَ الكلامِ كَلامُ اللَّهِ تعالى، وخيْرَ الهَدْيِ هَدْىُ محمدٍ ﷺ، وشرَّ الأُمورِ مُحْـدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعـةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النارِ.

اللَّهمَّ صلِّ على مُحَمدٍ، وعَلى أهْلِ بَيْتِـه، وعَلى أزْواجه وذرِّيته، كما

صلَّيْتَ على آلِ إبْراهيمَ، إنَّك حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وبَارِكْ علَى مُحَمد، وعلَى آلِ مُحَمدٍ، وعلَى أزْوَاجِهِ وذُرِّيَّتِه، كما بَارَكْتَ على آلِ إبراهيمَ، إنَّك حميدٌ مَجيدٌ.

وبعدُ..

فممَّا لا شكَّ فيه، أنَّ أفضلَ ما صُرفت إليهِ الهممُ، وبذلَ له الوقتُ، وأنفقَ من أجلِه المالُ، هو كتابُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، فهو الذي ﴿**لا يأْتيه الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يدَيْه وَلا مِنْ خَلْفِه تنزيلٌ مِّنْ حكيمٍ حَمِيدٍ**﴾ [فصلت:٤٢]، وهو كتابُ اللَّهِ، فيه نبأُ ما قبلنَا، وخبرُ ما بعدَنَا، وحكمُ ما بينَنَا، هو الفصلُ ليسَ بالهزلِ، من تركَهُ من جبارٍ قصمَهُ اللَّهُ، ومن ابتغَي الهُدَي في غيرِه أضلَّهُ اللَّهُ، وهو حبلُ اللَّهِ المتينُ، وهو الذكرُ الحكيمُ، وهو الصراطُ المستقيمُ، وهو الذي لا تزيغُ به الأهواءُ، ولا تلتبسُ به الألسنُ، ولا تنقضي عجائبُهُ، ولا تشبعُ منهُ العلماءُ، من قالَ به صَدَقَ، ومن عملَ بهِ أُجِرَ، ومن حكَمَ به عَدَلَ، ومن دَعَا إليهِ هُدِي إلى صراطٍ مستقيمٍ.

وهوَ الذي تكفلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لمنْ قرأهُ وعملَ بمَا فيه، أن لا يضلَّ في الدُّنيا، ولا يشقَى في الآخرةِ كما قالَ تعالى: ﴿**فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ**﴾ [طه:١٢٣-١٢٦].

وليسَ من شكٍّ، أنَّ المقصودَ من قراءةِ كتابِ اللَّهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ ليسَ

فقط مجردُ الترديدِ والقراءةِ، بل المقصودُ الأعظمُ، والغايةُ الأهمُّ: فهمُ معانيهِ، وتدبرُ آياتِهِ، فإنَّ القرآنَ هو عصمةُ المؤمنِ، وبه نجاتُهُ وسعادتُهُ، وقيامُ دينِهِ ودنياهُ.

قالَ تعالَى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩].

وقد كانَ لإقبالي على كتبِ الإمامِ ابنِ رجبٍ الحنبليِّ ـ رحمهُ اللَّهُ تعالى ـ واهتمامِي بها، كبيرُ الأثرِ في الوقوفِ على محاسنِ تفسيراتِهِ للقرآنِ العظيمِ، وبدائعِ تأويلاتِهِ لكثيرٍ من آياتِهِ، وكنتُ كثيرًا ما أنجذبُ نحوهَا، متأمِّلاً، متفكِّرًا، متدبِّرًا، متذكِّرًا، معتبرًا.

وكانَ مما يلفتُ نظري كثيرًا حرصُ الإمامِ ابنِ رجبٍ الحنبليِّ على عدمِ الاسترسالِ في تفسيرِ القرآنِ العظيمِ بغيرِ ما ينبغي أن يفسَّرَ القرآنُ به، وقد كانَ ـ رحمهُ اللَّهُ ـ بإمكانِهِ أن يسترسلَ، فقد كانَ ـ رحمهُ اللَّهُ ـ واسعَ الاطِّلاعِ، عالمًا بالمذاهبِ المختلفةِ في التفسيرِ وغيرِهِ، ولكنَّه وقفَ عند ما وقفَ عندهُ السلفُ الصالحُ ﷺ أجمعين، فاكتفَى بتفسيرِ القرآنِ بالقرآنِ والسنةِ الصحيحةِ، وأقوالِ الصحابةِ والتابعينَ والأئمةِ المتبوعينَ، وما تقتضيه دلالاتُ اللغةِ غيرِ المتكلفةِ، أو المتعسفةِ، أو المستبعدةِ.

هذا هو المنهجُ القويمُ في تفسيرِ كتابِ اللَّه العظيمِ، فإنَّ أصحَّ الطرقِ في التفسيرِ: أن يفسرَ القرآنُ بالقرآنِ، فما أُجْمِلَ في مكانٍ فإنَّهُ قد فُسِّرَ في موضعٍ آخرَ، وما اختُصِرَ مِنْ مكانٍ، فَقَدْ بُسِطَ في موضعٍ آخرَ.

فإنْ أعياكَ ذلكَ، فعليكَ بالسنةِ، فإنَّها شارحةٌ للقرآنِ وموضحةٌ له، بل

قالَ الإمامُ الشافعيُّ ـ عليه رحمةُ اللَّه ـ: «كُلُّ ما حكَمَ به رسولُ اللَّه ﷺ فهوَ مما فـهِمَهُ من القرآن؛ قـال اللَّه تعالى: ﴿إنَّا أنزلْنا إليْكَ الْكتابَ بالحَقّ لتحكُمَ بيْنَ النَّاسِ بمَا أَرَاكَ اللَّهُ ولا تَكُن لّلْخائنينَ خصيماً﴾ [النساء:١٠٥]، وقالَ تعالى: ﴿وما أنزلْنا عليْكَ الْكتابَ إلاَّ لتبيّنَ لهُمُ الَّذي اخْتلفُوا فيه وهُدًى ورحْمةً لّقوْمٍ يؤْمنُونَ﴾ [النحل:٦٤]، ﴿وأنزلْنا إليْكَ الذّكْرَ لتُبيّنَ للنَّاسِ ما نُزّلَ إليهِمْ ولعلَّهُمْ يتفكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤]، ولهذا؛ قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «ألا إنِّي أوتيتُ القرآنَ ومثلَهُ معَهُ» ـ يعني: السنةَ».

وحينئذ؛ إذا لم نجدِ التفسيرَ في القرآنِ، ولا في السُّنّة، رجعنا في ذلكَ إلى أقوالِ الصحابةِ ـ رضي اللَّه عنهم جميعًا ـ؛ فإنَّهم أدْرَى بذلكَ، لمَا شاهدوهُ مـن القرآنِ، والأحوالِ التـي اختصُّـوا بهَا، ولما لهم من الـفهم التامِّ، والعلمِ الصحيحِ، والعملِ الصالحِ، لا سيَّما علماؤُهم وكبراؤُهم، كالأئمـةِ الأربعةِ الخلفاءِ الراشدينَ والأئـمةِ المهديينَ، مثلِ: عـبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ، والحبرِ البحرِ عبدِ اللَّهِ بنِ عباسٍ، رَضي اللَّهُ عنهم جميعًا.

وما ينقلُ عنهـما، أو عن غيرِهمَا ممَّا يَحْكُونَهُ مـن أقاويلِ أهلِ الكتابِ التي أباحَهَا رسولُ اللَّهِ ﷺ، حيثُ قال: «بلِّغُوا عنِّي ولو آية، وحدِّثُوا عن بني إسرائيلَ ولا حرجَ، ومن كـذبَ عليَّ متعمِّـدًا فليتبـوَّأْ مـقْعَـدَهُ من النارِ»، فهذه الأحاديثُ الإسرائيليَّةُ إنَّما تذكرُ للاستشهادِ، لا للاعتقادِ؛ فإنَّها على ثلاثةِ أقسامٍ:

أحدِها: ما علمنَا صحتَهُ مما بأيدنَا ممَّا يشهدُ لهُ بالصدقِ؛ فذاكَ صحيحٌ.

والثاني: ما علمنَا كذبَهُ بما عندنا مما يخالفُهُ.

والثالثُ: ما هوَ مسكوتٌ عنهُ، لا من هذا القبيلِ، ولا من هذا القبيلِ، فـلا نؤمنُ بهِ ولا نكذبُهُ، ويجـوزُ حكايتُهُ لمـا تقدَّم، وغـالبُ ذلكَ ممَّا لا فائدةَ فيه تعودُ إلى أمرٍ دينيٍّ.

وإذا لم تجـدِ التـفسـيـرَ في القـرآنِ، ولا في السُّنةِ، ولا وجـدتَهُ عن الصـحابةِ، فـقد رجعَ كـثيـرٌ من الأئمـةِ في ذلكَ إلى أقوالِ التـابعينَ، كمجاهدِ بنِ جبرٍ، فإنَّهُ كانَ آيةً في التفسـيرِ، وكسعيدِ بنِ جبيرٍ، وعكرمة مولى ابنِ عباسٍ، وعطاءِ بنِ أبي رباحٍ، والحسنِ البصريِّ، ومسروقِ بنِ الأجدعِ، وسـعيدِ بنِ المسـيبِ، وأبي العاليةِ، والربيعِ بنِ أنسٍ، وقـتادةَ، والضحاكِ بنِ مزاحمٍ، وغيرِهم من التابعينَ ومن تابعَهُم ومن بعدَهُم.

وهؤلاءِ التابعونَ؛ إذا اجتمعُـوا على الشيءِ فلا يرتابُ في كونِهِ حجةً، فإن اختلفُوا فلا يكونُ قولُ بعـضِهم حجةً على قولِ بعضٍ، ولا علَى من بعـدَهُم، ويرجعُ في ذلكَ إلى لغـةِ القـرآنِ، أو السُّنةِ، أو عـمـومِ لغـةِ العربِ، أو أقوالِ الصحابةِ في ذلكَ.

وأما تفسيرُ القرآنِ بمجـردِ الرأيِ؛ فحرامٌ؛ لأنَّه قد تكلَّفَ ما لا علمَ له بهِ، وسلكَ غيرَما أُمـرَ بهِ، فلو أنَّهُ أصابَ المعنى في نفسِ الأمرِ لكانَ قد أخطأَ؛ لأنَّهُ لم يأتِ الأمرَ من بابِهِ، كمن حكمَ بينَ الناسِ على جهلٍ فهو في النارِ، وإن وافقَ حُكْمُهُ الصوابَ في نفسِ الأمـرِ؛ لكن يكونُ أخفَّ جرمًا ممن أخطأَ. واللَّهُ أعلمُ.

وهكذا سمَّى اللَّهُ ـ عـزَّ وجلَّ ـ القَذَفَةَ: كاذبينَ؛ فـقالَ: ﴿**فإذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ**﴾ [النور:١٣] ، فالقاذفُ كاذبٌ، ولو كانَ

قد قذفَ مـن زنَى في نفس الأمرِ، لأنَّهُ أخبرَ بما لا يحلُّ له الإخـبارُ به، ولو كانَ أخبرَ بما يعلم؛ لأنَّه تكلَّفَ ما لا علم له بهِ، واللَّه أعلمُ.

ولهذا؛ تحرَّجَ جـماعةٌ من السلفِ عن تفسيرِ مـا لا علمَ لهم بهِ، كما قال أبو بكرٍ الـصديقُ ﷺ: أيُّ أرضٍ تقلُّني؟! وأيُّ سمـاءٍ تظلُّني؟! إنْ قلتُ في كتابِ اللَّه ما لم أعلمْ.

وقالَ أنسٌ: كنَّا عندَ عـمرَ بنِ الخطابِ ﷺ، وفي ظهرِ قمـيصِه أربعُ رقاعٍ، فقرأَ: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس:٣١]، فقالَ: ما الأبُّ؟ ثم قالَ: إنَّ هذا لهو التكلُّف، فما عليكَ ألا تَدْرِيه!

وروي نحُوُه عن أبي بكر الصديقِ.

وهذا كلُّه محمولٌ على أنه ﷺ إنَّما أراد استكشافَ علمِ كيفيةِ الأبِّ، وإلاَّ فكونُهُ نبـتًا من الأرضِ ظاهرٌ لا يُجـهلُ؛ لقولِه تعـالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا﴾ [عبس:٢٧-٣٠].

وقالَ ابنُ أبي مليكةَ: سـألَ رجلٌ ابنَ عباسٍ عن: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [السجدة:٥]؟ فقالَ لَهُ ابنُ عـباسٍ: فما ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج:٤]؟ فقالَ له الرجـلُ: إنَّما سألتُك لتحدِّثـني. فقال ابنُ عبـاسٍ: هما يومانِ، ذكرَهُمـا اللَّهُ في كتابِهِ، اللَّهُ أعلمُ بِهـما؛ فكرِهَ أن يقولَ في كتابِ اللَّه بما لا يعلمُ.

وقالَ عُبـيدُ اللَّهِ بنُ عمرَ: لقـد أدركتُ فقهاءَ المدينةِ، وإنَّهم لـيعظِّمونَ القولَ في التـفسـيرِ، منهُم: سالـمُ بنُ عبدِ اللَّهِ، والقـاسمُ بنْ محـمدٍ،

وسعيدُ بنُ المسيِّبِ، ونافعٌ.

وقالَ محمدُ بنُ سيرينَ: سألتُ عَبيدةَ السلمانيَّ عن آيةٍ من القرآنِ، فقالَ: ذهبَ الذين كانُوا يعلمونَ فيمَ أُنزلَ القرآنُ، فاتَّقِ اللَّهَ وعليكَ بالسَّدَادِ.

وقالَ مسروقٌ: اتَّقُوا التفسيرَ، فإنَّهُ الروايةُ عن اللَّهِ.

فهذهِ الآثارُ الصحيحةُ وما شاكلَهَا عن أئمةِ السلفِ محمولةٌ على تحرُّجِهِم عن الكلامِ في التفسيرِ بما لا علمَ لهُم بِهِ، فأمَّا من تكلَّم بما يعلمُ من ذلكَ لغةً وشرعًا فلا حرجَ عليهِ، ولهذا رُوي عن هؤلاءِ وغيرِهم أقوالٌ في التفسيرِ، ولا منافاةَ؛ لأنَّهم تكلَّموا فيما علمُوه، وسكتُوا عما جهلُوه، وهذا هو الواجبُ على كلِّ أحدٍ، فإنَّه كَمَا يجبُ السكوتُ عمَّا لا علمَ لَهُ بِهِ، فكذلكَ يجبُ القولُ فيما سئلَ عنهُ بما يعلمُهُ؛ لقولهِ تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقد قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: التفسيرُ على أربعةِ أوجهٍ: وجهٌ تعرفُهُ العربُ من كلامِهَا، وتفسيرٌ لا يُعذرُ أحدٌ بجهالتِهِ، وتفسيرٌ يعلمُهُ العلماءُ، وتفسيرٌ لا يعلمُهُ إلا اللَّهُ، واللَّهُ أعلم(١).

* * *

(١) هذا الفصلُ اختصرتُهُ من كلامٍ لشيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ في «مجموعِ الفتاوى» (١٣/٣٦٣ - ٣٧٥)، وقد اقتبسَهُ منهُ الحافظُ ابنُ كثيرٍ - مع بعضِ الزياداتِ - في مقدمةِ «تفسيرِهِ» (١/١١١ - ١٢٥).

ومن هُنا قويَ عـزمي على جمعِ تفسيـرٍ للإمامِ ابنِ رجبٍ الحنبليِّ من بطونِ كتبِهِ الكثـيرةِ المتفرقةِ، على غرارِ ما صنَـعَ بعضُ الفضلاءِ من جمعِ تفسيرِ شيخِ الإسلامِ ابنِ تيميةَ وتلميذِهِ ابنِ قيمِ الجوزيةَ.

فأخـذتُ في جمعِ مادةِ هذا التفـسيرِ من كـتبِ الإمامِ ابنِ رجبٍ التي وُفِّقْتُ للوقوفِ عليـها، وهي تبلغُ نحـوَ خمسينَ كـتابًا؛ منهـا ما هوَ في مجلداتٍ كـ«فتح البـاري» له، ومنها ما هو في رسالةٍ صغيـرةٍ، ومنها ما هُوَ مخطوطٌ لم يطبعْ بعدُ؛ فيما أعلمُ.

ولـم أكتفِ بالاعـتمـادِ على النسخِ المطبوعةِ من كـتبِـهِ، بل حصلتُ ـ بفضل اللَّهِ تعالى ـ على بعض المخطوطاتِ لبعضِ هذهِ الكتبِ ، استعنتُ بها في ضبطِ وتصحيحِ ما اخترتُهُ مادةً لهذا التفسيرِ من هذه الكتبِ.

وقد كـان اختياري لمادةِ التـفسيرِ من كـتبِ الإمامِ على أساسِ اعتـبارِ مواضعِ التفسيرِ فقط، أمَّا إذا تعرَّضَ الإمامُ للآيةِ مستدِلاً أو مستشهِدًا بها على حكمٍ ما أو مـعنًى ما، من غيرِ أن يتـعرضَ إلى تفسيـرِها، فهذا لا يدخلُ في خطَّتي، فقط يدخلُ ما تعرضَ لهُ الإمامُ بالتـفسيرِ، سواءٌ قصدَ إلى ذلكَ قصدًا، أو تضمنَهُ كلامُهُ.

هذا؛ والإمامُ ابنُ رجبٍ كثيرُ الاستطرادِ في كلامِهِ، فإذا تعرضَ لتفسيرِ آيةٍ ربَّما اسـتطردَ إلى تفصيلِ القـولِ فيمـا يتعلقُ بها من أحكامٍ وغـيرِهِ، وكثيـرًا ما يكونُ هذا الاستطرادُ مهمًّا في التفسيرِ، بل ربَّـما يكونُ تفسيرُ الآيةِ لا يتمُّ إلا بمثلِ هذا التفصيلِ، وحـينئذٍ؛ فإنَّ هذا كلَّهُ يدخُلُ في هذا التفسـيرِ، فلم أرَ أن لا يتضمنَ كـتابِي هذا مثلَ هذهِ المادةِ لا سيَّـما وأنَّها

تتماشى مع عادةِ الإمامِ ابنِ رجبٍ في التفسيرِ فيما أفردَهُ من رسائلَ في التفسيرِ، كـ «تفسيرِ سورةِ النصرِ» وغيرِهَا، فضلاً عن كونِهَا في الأعمِّ الأغلبِ تتضمنُ مباحثَ للإمامِ هي في غايةِ الأهميةِ للقارئِ، كمثلِ كلامه في المحبة في غضون تفسيرِ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١].

هذا؛ وقد قابلتني عقبةٌ أمام ترتيبِ هذه المادةِ، فالإمامُ ابنُ رجبٍ - رحمه اللَّه - كثيرًا ما يفسِّرُ أكثرَ من آيةٍ في موضعٍ واحدٍ، فكنتُ أترددُ في الموضعِ الذي أضعُ فيه هذا التفسيرَ، ثمَّ رأيتُ آخرًا بعد تأملٍ ونظرٍ واستشارةٍ أن أضعَ مثلَ هذه المادةِ في موضعٍ واحدٍ، تفسيرًا لبعضِ هذه الآياتِ التي تناولها جملةً، ثم يكونُ فهرسُ الآياتِ القرآنيةِ مرشدًا إلى بقيةِ الآياتِ التي تناولَهَا في هذا الموضعِ أيضًا، وإنما لجأتُ لِهَذَا تجنُّبًا للتكرارِ، وباللَّه التوفيقُ.

وقد خرَّجتُ أحاديثَ الكتابِ وآثارَهُ، وعلَّقْتُ على الكتابِ بحسبِ الحاجةِ، من دونِ تطويلٍ مملٍّ، أو اختصارٍ مخلٍّ.

كما صنعتُ فهارسَ علميةً للكتابِ تعينُ على الانتفاعِ بهِ، هي كالآتي:

١ - فهارسُ للآياتِ القرآنيةِ.

٢ - فهارسُ للموضوعاتِ والفوائدِ العلميةِ.

وَقَد سَمَّيْتُهُ:

«رَوَائِعُ التَّفْسِيرِ، الجَامِع لِتَفْسِير الإمامِ ابنِ رجبٍ الحنبليِّ»

هَذا؛ ويَنْبَغِي أن يُعْلَم أن بعضَ الكتبِ التي هي من موضوعِ هذا العملِ، لَمْ نَجِدْ فيهَا مادةً للتفسيرِ، بَعْدَ البحثِ والتنقيبِ فيهَا.

وهذا ثبتٌ بأسماءِ الكتبِ التي اعتمدتُ عليها، مع بيانِ محقِّقِ النسخةِ وناشرِها:

اسم الكتاب	اسم المحقق والناشر
● أحكام الخواتِيمِ.	دار الكتب العلمية
● اختيارُ الأَولَى في شرح حديثِ اختصامِ الملإِ الأعلى.	مراجعة وتصحيح: طه يوسف.
● الاستخراجُ لأحكامِ الخَراجِ.	تصحيح: عبد اللَّه الصديق - دار المعرفة.
● الاستغناءُ بالقرآنِ.	تحقيق: يُسري عبد الغني البشري - طبع بمصر.
● استنشاقُ نسيمِ الأُنْسِ من نفحاتِ رِيَاضِ القُدْسِ.	تحقيق: مجدي قاسم - دار الصحابة.
● أهوالُ القبورِ وأحوالُ أهلها إلى النشورِ.	تحقيق: بشير محمد عيون - مكتبة المؤيد.
● البشارةُ العُظْمى للمؤمنِ بأنَّ حظَّه من النَّارِ الحُمَّى.	تحقيق: سامي بن محمد بن جاد اللَّه - دار الوطن.
● التخويفُ من النارِ.	طبعة مصرية.
● تسليةُ نفوسِ النِّساءِ والرِّجالِ عندَ فقدِ الأطْفَالِ.	تحقيق الوليد بن عبد الرحمن آل فريان - مكتبة الراية.
● تفسيرُ سورةِ النَّصرِ.	تحقيق: محمد بن ناصر العجمي - الدار السلفية.
● تفسيرُ سورةِ الإخلاصِ.	تحقيق: محمد بن ناصر

	العجمي ـ الدار السلفية
● جامعُ العلومِ والحكمِ.	بتحقيقي ـ دار ابن الجوزي.
● الذُّلُ والانكِسَارُ للعزيز الجبَّارِ.	تحقيق: الشيخ محمد بن عمرو عبد اللطيف وحسين بن إسماعيل الجمل ـ مكتبة التوعية الإسلامية
● ذمُّ الخَمرِ.	تحقيق: مختار الجبالي ـ مجلة الحكمة ـ عدد (١٥).
● ذمُّ قسوة القلْبِ.	تحقيق: دكتور الوليد بن عبد الرحمن آل فريان ـ دار عالم الفوائد.
● ذيلُ طبقات الحنابلة.	دار المعرفة.
● الرَّدُّ على من اتَّبَع غيرَ المذاهب الأرْبَعَةِ.	تحقيق: دكتور الوليد بن عبد الرحمن آل فريان ـ دار عالم الفوائد.
● رِسَالةٌ في رُؤْيَةِ هلالِ ذِي الحجَّةِ.	تقديم: محمد بن صالح بن علي الدحيم.
● سِيرةُ عبدِ الملكِ بنِ عمرَ بنِ عبد العزيزِ.	تحقيق: عفت وصال حمزة ـ دار ابن حزم.
● شرح علل الترمذي.	تحقيق: نور الدين عتر ـ دار الملاح.
● شرحُ حديثِ أبي أمامة: «إنَّ أغبَطَ	

أولِيائي عندِي. . .».	مخطوط.
• شرحُ حـديثِ شدَّادِ بنِ أوْسٍ: «إذا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهبَ والفِضَّةَ. .».	تحقـيق: أبي سليمـان سـامي ابـن مـحـمـد بن جـار اللَّه ـ دار الوطن.
• شـرحُ حديثِ عـمارِ بنِ ياسـرٍ: «اللَّهمَّ بعلْمِكَ الغَيْبَ. .».	تحقـيق: أبي عـبـد الـرحـمن إبراهيم بن مـحـمـد العـرف ـ مكتبة السوادي.
• شرحُ حديثِ: «لبَّيك اللَّهُمَّ لبَّيْكَ. .».	تحقيق: الدكتـور الوليد بن عبد الرحمن آل فريان.
• شرحُ حديثِ: «ما ذِئْبَانِ جَائِعَانِ. .».	بتـحـقـيـقي ـ مكتـبـة الوعي الإسلامي.
• شرحُ حديثِ: «مَثَلُ الإسْلامِ. .».	تحقيق: الدكتـور الوليد بن عبد الرحـمن آل فـريان ـ دارعـالم الفوائد.
• شرحُ حـديثِ أبي الدرداءِ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فيه علْمًا. .».	تحقيق: أشرف بن عبد المقصود ـ مكتبة التراث.
• شرحُ حديثِ: «يَتْبَعُ الميِّتَ ثلاثٌ. .».	تحقـيق: سعد بن عبـد الرحمن الحمدان ـ دار طيبة.
• صَدَقَةُ السِّرِّ وفَضْلُها.	تحقيق: الوليد بـن عبد الرحمن آل فريان .
• غَـايةُ النَّفعِ في شرح حـديثِ: تَمْثـيلِ المؤمن بِخَامةِ الزَّرْعِ.	تحقيق: أشرف بن عبد المقصود ـ مكتبة الإمام البخاري.

• فائدةٌ حولَ حديثِ النزُولِ.	بتحقيقي: دار ابن الجوزي.
• فتح الباري في شرح صحيحِ البخاريِّ.	بتحقيقي ـ دار ابن الجوزي.
• الفَرْقُ بين النصيحةِ والتَّعْييرِ.	تحقيق: علي حسن علي عبد الحميد ـ دار عمار.
• فضلُ علم السَّلَفِ على الخَلَفِ.	تحقيق: يحيى مختار غزاوي ـ دار البشائر.
• قاعدةٌ في إخراجِ الزَّكاةِ على الفَوْرِ.	تحقيق: الوليد بن عبد الرحمن آل فريان ـ دار عالم الفوائد.
• القَواعِدُ الفِقْهِيَّةُ.	تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان ـ دار ابن عفان.
• القولُ الصواب في تزْويجِ أمهاتِ أولادِ الغُيَّاب.	تحقيق: عبد اللّه بن محمد بن أحمد الطريقي ـ دار الراية.
• كشْفُ الكُرْبَةِ في وصفِ حالِ أهلِ الغُرْبَةِ.	تحقيق: بدر بن عبد اللّه البدر ـ مؤسسة الريان ـ ودار النفائس.
• الكلامُ على قولِهِ تعالى: ﴿إنما يخشى اللّه من عباده العلماء﴾.	دار الصحابة.
• كلمةُ الإخْلاصِ وتحقيقُ مَعْنَاهَا.	تحقيق عماد طه فرّة ـ دار الصحابة.
• لطَائف المعارفِ فيما لمواسِمِ العَامِ من الوظَائفِ.	تحقيق: ياسين محمد السواس ـ دار ابن كثير.
• مختصرٌ فيما رُوي عن أهلِ المعْرِفَةِ	تحقيق الوليد بن عبد الرحمن

والحقَائقِ في مُعَامَلَةِ الظَّالمِ السَّارِق.	آل فريان ـ دار الراية.
● مقدمةٌ تشتَمِلُ على أنَّ جميعَ الرُّسُلِ كانَ دينُهم الإسْلامَ.	دار الصحابة.
● نزهةُ الأسْمَاعِ في مسألةِ السَّمَاعِ.	تحقيق: الدكتورالوليد بن عبد الرحمن آل فريان ـ دار طيبة.
● نورُ الاقتباسِ في مِشْكَاةِ وصيَّةِ النبيِّ ﷺ لابنِ عباسٍ رضي الله عنهما.	تحقيق: عز الدين البدوي ـ دار المدني.

وصلَّى اللَّه على سيِّدنا محمدٍ وعَلَى آلِهِ وصَحْبِهِ وسَلَّمَ.

وكتب

أبو معاذ

طارق بن عوض الله بن محمد

• ترجمة ابن رجب الحنبلي •

من «إنباء الغُمر» لابن حجر (٣/ ١٧٥ ـ ١٧٦)

• نسبه:

عبدُ الرحمن بن أحمدَ بنِ رجبِ البغداديُّ، ثم الدمشقيُّ الحنبلي الحافظ، زين الدين.

• مولده:

ولد ببغداد سنة ست وثلاثين وسبعمائة.

• شيوخه:

وسمع بِمصرَ من المَيدوميِّ[(١)]، وبالقاهرةِ من ابنِ الملوكِ[(٢)]، وبدمشق من ابن الخبَّاز[(٣)] وجَمعٍ جَمٍّ.

ورافق شيخَنا زينَ الدين العراقيَّ في السماع كثيرًا.

• علمه:

ومهَرَ في فنون الحديث: أسماءً، ورجالاً، وعللاً، وطُرقًا واطِّلاعًا على معانيه[(٤)].

---

(١) هو: صدر الدين أبو الفتح: محمدُ بن محمد بن إبراهيم الميدومي المتوفى سنة (٧٥٤هـ).

(٢) هو: نَاصرُ الدين محمد بن إسماعيل بن عبد العزيز بن عيسى بن أبي بكر بن أيوبَ، ينتهي نسبُهُ بالعادل الأيوبيِّ، ويُلَقَّب بـ: ابن الملوك» تُوفي سنة (٧٥٦هـ).

(٣) هو: المسْنِدُ المُعَمَّرُ: شمْس الدين محمد بن إسماعيل بن إبراهيمَ بنِ سالمِ الدمشقيُّ الأنصاري العُبَادي.

(٤) ومما يمْتازُ به ابنُ رَجب: سَعةُ اطِّلاعِهِ على أقوالِ المتقدمين، وطولُ نَفَسِهِ في الكلام على الأحاديث؛ عللاً، ورِجالاً، وفِقْهًا.

• أشهر مؤلفاته:

صَنَّفَ: «شرح الترمذي» فأجاد فيه في نحو عشرة أسفارٍ[١] .

وشرح قطعةً كبيرةً من البخاري[٢] .

وشرح الأربعين للنووي، في مجلد[٣] .

وعمل وظائف الأيام، سمَّاه: «اللطائف»[٤] .

وعمل طبقات الحنابلة، ذَيْلاً على طبقات أبي يعلى[٥] .

• عبادته:

وكان صاحبَ عبادةٍ وتَهجُّدٍ.

• مذهبُهُ:

ونقِمَ عليه إفتاؤهُ بمقالاتِ ابن تيميةَ، ثم أظهرَ الرجوعَ عن ذلك، فنافرَهُ التَّيميون، فلم يكن مع هؤلاءِ، ولا مَع هؤلاءِ. وكان قد ترك الإفتاء بآخرة[٦] .

(١) وهذا الكتابُ، فُقِدَ من الكتبِ في فتنة التَّتَرِ، سنة (٨٠٣ هـ)، ولم يبقَ سوى قطعة من كتاب اللِّباس، تقع في عشر ورقات، وشرح العلل الذي في آخر: «الجامع» للترمذي. وقد طُبِع «شرح العلل» عدة طبعاتٍ، ومن نظر فيه عَلِمَ كَم خَسرَ المسلمونَ بفُقدانِ هذا الكتاب، الذي لو سَلِمَ منَ الضياعِ، لكانَ فيه غَناءٌ أيَّ غَناء عن كل الشروحِ التي انتهت إلينا.

(٢) بَلَغَ فيه إلى كتاب الجنائز، وهو كتابٌ عظيمٌ، بلغ فيه الغايةَ، وقد طبع بتحقيقي في سبع مجلدات، وهو من منشورات دار ابن الجوزي ـ السعودية.

(٣) وقد طبع بتحقيقي في مجلدين، وهو من منشورات دار ابن الجوزي أيضًا.

(٤) طُبِعَ بمصر سنة (١٣٤٣هـ) ، ثم طُبع حديثًا في «دار ابن كثير» بدمشق، بتحقيق ياسين محمد السواس.

(٥) مطبوع.

(٦) لم تكن مُوافقتُهُ لابن تيمية عن تعصُّبٍ له، ولا مخالفتُهُ عن بُغضٍ ومُنافرةٍ له. وإنما هذا شأنُهُ =

• ثناء العلماء عليه:

قال ابن حِـجِّي: أتقنَ الفنَّ، وصارَ أعرفَ أهلِ عصـرِهِ بالعللِ، وتَتبُّعِ الطرقِ.

• أخلاقُهُ:

وكان لا يخالطُ أحدًا، ولا يترددُ إلى أحدٍ.

• وفاتُهُ:

ماتَ في رمضان، رحمه اللَّه(١).

• تلاميذُهُ:

تخرج به غالبُ أصحابنا بدمشق.

= كشأنِ أيِّ عالمٍ مُطَّلِعٍ يَتَغيرُ اجتهادُهُ بحسب الدلائلِ والبراهين التي تظهر له، فهو يدور مع الدليل حيث دار، ولا بدَّ لمثل هـذا أن يُوافِقَ بعضًا وأن يخـالفَ بعضًا، وربَّمـا وافقَ في مسـألة مَن قد خالفَهُ في أخرى، والعكس؛ إذْ ليس غَرَضُ هؤلاء العلماء الفـضلاء مُوافقة أحد من الناس، وإنما غرضُهُم الوقوفُ على الحقِّ حيثُ كان. واللَّه يجزي المُصيب إحسانًا والمخطئَ غُفرانًا.

وقد ترجم ابنُ رجب لابن تيمـية في «ذيل طبقات الحنابلة» بترجـمة حافلة، في عشرين صـفحة (٢/ ٣٨٧ ـ ٤٠٨)، وهي ترجمة حافِلةٌ بالثناءِ والإطنابِ والاعـترافِ بمنزلةِ هذا الإمامِ، فقال في صدرِهَا:

«الإمامُ الـفقيـهُ المجتـهدُ المُحـدّثُ، الحافظُ، المفُـسر، الأُصـولي، الزاهدُ شيخ الإسـلام، وعَلَمَ الأعْلامِ، وشهرتُهُ تُغني عن الإطنابِ في ذكره، والإسهاب في أَمْرِهِ».

واللَّه الهادي، لا ربَّ سواه.

(١) وذلك سنة (٧٩٥ هـ).

وقال ابن ناصر الدين في كتابه «الرد الوافر» (ص ١٠٧):

«حدَّثني من حـضر لَحْـدَ ابنِ رجبٍ: أنَّ الشيخ زين الدين ابن رجب جـاءَهُ قبل أن يموتَ بأيامٍ. قال: فقال لي: احْـفُرْ لي هنا لَحَدًا، وأشار إلى البقـعة التي دُفن فيها. قال: فحـفرتُ له، فلما فرغ نزل في القبر، واضطجع فيه، فأعجبه، وقال: هذا جيِّد، ثم خرج، قال: فواللَّه ما شعرتُ به بعدَ أيامٍ، إلا وقد أُتِيَ به ميتًا محمولاً في نعشِهِ، فوضعتُهُ في ذلك اللحد، ووَارَيْتُه فيه».

رَوَائِعُ التَّفْسِيرِ

الجَامِعُ لِتَفْسِيرِ الإِمَامِ ابْنِ رَجَبٍ الحَنْبَلِيِّ

جَمْعُ وَتَأْلِيفُ وَتَعْلِيقُ
أَبِي مُعَاذ
طارق بن عوض الله بن محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةٌ في فَضائلِ القُرْآن

الحمدُ للّه جابرِ القلوبِ المنكسرةِ من أجلِه، وغافرِ ذنوبِ المستغفرينَ بفضله وأشهدُ أنَّ لا إله إلا اللّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، ولا شيءَ كمثلِه، وأشهدُ أنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ، أرسله بالهُدى ودينِ الحقِّ ليظهرَهُ على الدِّينِ كلِّه، وخيَّرهُ بين أن يكونَ مَلِكًا نبيا أو عبدًا رسولاً، فاختارَ مقامَ العبوديةِ مع رسلِه.

أما بعدُ:

اعلم؛ أنَّ هذا البابَ واسعٌ كبيرٌ، أَلَّفَ فيه العلماءُ كتبًا كثيرةً، وصنفوا فيه تصانيفَ عديدةً نذكرُ من ذلك نكتًا تدلُّ على فضلِه، وما أعدَّ اللّه لأهلِه إذا أخلصُوا الطلبَ لوجهِهِ وعملُوا به، فأوَّلُ ذلك: أنْ يستشعرَ المؤمنُ من فضلِ القرآنِ أنه كلامُ ربِّ العالمينَ غيرُ مخلوقٍ، كلامُ منْ ليس كمثلِه شيءٌ، وصفةُ من ليس له شبيهٌ ولا ندٌّ، فهو من نورِ ذاتِه عزَّ وجلَّ، وأنَّ القرَّاءَ ونغماتِهم، وهي أكسابُهم التي يُؤمرونَ بها في حالٍ، إيجابًا في بعضِ العباداتِ، وندبًا في كثيرٍ من الأوقاتِ، ويُزجرون عنها إذا أُجنبوا، ويُثابون عليها ويُعاقبون على تركِها، وهذا مما أجمع عليه المسلمونَ أهلُ الحقِّ ونطقتْ به الآثارُ، ودلَّ عليها المستفيضُ من الأخبارِ، ولا يتعلقُ الثوابُ والعقابُ إلا بما هو أكسابُ العبادِ، ولولا أنه ـ سبحانه ـ جعلَ في قلوبِ عبادِه من القوةِ على حملِه ما جعله ليتدبَّروه وليعْتَبروا وليتذكروا ما فيه من طاعتِه وعبادتِه، وأداءِ حقوقِه

وفرائضِه، لضعفت ولاندكتْ بثقله، أو لتضَعْضَعَتْ له، وأنَّى تطيقُه، وهو يقولُ - تعالى جدُّه - وقوله الحقُّ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

فأين قوةُ القلوبِ من قوةِ الجبالِ؟! ولكنَّ اللَّهَ تعالى رزقَ عبادَهُ من القوةِ على حملِه ما شاءَ أن يرزقَهُم، فضلاً منه ورحمةً.

قال ابنُ عباسٍ: القرآنُ هو المهيمنُ الأمينُ على كلِّ كتابٍ قبله.

وجاءَ في «البخاريِّ»(١): حدثنا عبيدُ اللَّه بنُ موسى، عن شيبانَ، عن يحيى، عن أبي سلمةَ، قال: أخبرتني عائشةُ وابنُ عباسٍ ﭬ قالا: لبث النبيُّ ﷺ بمكةَ عشرَ سنينَ ينزلُ عليه القرآنُ وبالمدينةِ عشرًا.

وجاء عن موسى بن إسماعيلَ عن معتمرٍ، قال: سمعتُ أبي عن أبي عثمان قال: أنبئتُ أن جبريلَ أتى النبيَّ ﷺ وعنده أمُّ سلمةَ فجعلَ يتحدثُ، فقال النبيُّ ﷺ لأم سلمة: «من هذا؟» أو كما قال، قالت: هذا دحيةُ، فلمَّا قامَ قالتْ: واللَّه ما حسبتُه إلا إياهُ حتى سمعتُ خطبةَ النبيِّ ﷺ يخبرُ خبرَ جبريلَ أو كما قال: قال أبي: قلت لأبي عثمان: ممن سمعتَ هذا؟ قال: من أسامةَ بنِ زيدٍ(٢).

وقال النبيُّ ﷺ: «ما منْ الأنبياءِ نبيٌّ إلا أُعطيَ ما مثلُهُ آمنَ عليه البشرُ وإنما كان الذي أوتيتُ وحيًا أوحاهُ اللَّهُ إليَّ فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعًا يوم القيامة»(٣).

وقال أنسُ بن مالكٍ ﭬ: إنَّ اللَّه تعالى تابع على رسولِه ﷺ الوحيَ قبلَ

(١) «صحيح البخاري» (٦/ ١٩ - ٢٢٣).

(٢) أخرجه: البخاري (٤/ ٢٥٠)، (٦/ ٢٢٣)، ومسلم (٧/ ١٤٤).

(٣) أخرجه: البخاري (٦/ ٢٢٤)، (٩/ ١١٣)، ومسلم (١/ ٩٢) من حديث أبي هريرة ﭬ.

وفاتِهِ حتَّى توفاه، أكثرَ ما كان الوحيُ ثمَّ توفيَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بعدُ[١] . (أي أن أكثر فترةِ تتابعِ الوحي على الرسولِ فترةُ قبل وفاته ﷺ).

وقال الأسودُ بن قيس: سمعتُ جندبًا يقولُ: «اشتكى النبيُّ ﷺ فلم يقمْ ليلةً أو ليلتينِ فأتتْه امرأةٌ فقالتْ: يا محمدُ، ما أرى شيطانك إلا قد تركَكَ، فأنزل اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿**وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ**﴾[٢] [الضحى: ١ - ٣].

نزلَ القرآنُ بلسانِ قريشٍ والعربِ، قرآنًا عربيًّا بلسانٍ عربيٍّ مبين.

قال أنسُ بن مالكٍ: فأمرَ عثمانُ زيدَ بنَ ثابتٍ وسعيدَ بنَ العاصِ وعبدَ اللَّه ابنَ الزبيرِ وعبدَ الرحمنِ بنِ الحارثِ بنِ هشامٍ أن ينسَخُوا المصحفَ، وقال لهم: إذا اختلفتُم وزيدَ بنَ ثابتٍ في عربيةٍ من عربيةِ القرآنِ فاكتبُوها بلسان قريشٍ، فإنَّ القرآن أنزلَ بلسانِهم ففعلُوا[٣] .

وكان يعْلى بنُ أميةَ يقولُ: ليتني أرى رسولَ اللَّه ﷺ حين ينزلُ عليه الوحيُ؛ فلمَّا كان النبيُّ ﷺ بالجعرانةِ عليه ثوبٌ قد أظلَّ عليه ومعه ناسٌ من أصحابِهِ إذ جاءَهُ رجلٌ متضمخٌ بطيبٍ، فقال رسولَ اللَّه: كيفَ ترى في رجلٍ أحرمَ في جبةٍ بعد ما تضمخ بطيبٍ؟ فنظر النبي ﷺ ساعة، فجاءه الوحيُ فأشارَ عمرُ إلى يَعْلى أن تعالَ: فجاءَ يعْلى فأدخلَ رأسَهُ فإذا هو مُحمَرُّ الوجه يغط كذلك ساعةً ثم سُرِّي عنه فقالَ: «**أين الذي يسألني عن العمرة آنفًا**»، فالتُمسَ الرجلُ فجيءَ به إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: «**أما الطيبُ الذي بك فاغسلْهُ** ثلاثَ مرَّاتٍ

---

(١) أخرجه: البخاري (٦/ ٢٢٤)، ومسلم (٨/ ٢٣٨).

(٢) أخرجه: البخاري (٢/ ٦٢)، (٦/ ٢١٣ - ٢٢٤)، ومسلم (٥/ ١٨٢).

(٣) أخرجه: البخاري (٦/ ٢٦٦).

وأمّا الجبةُ فانزَعْها، ثم اصنعْ في عمرتِكَ كما تصنعُ في حجِّك»(١) .

قال زيدُ بنُ ثابتٍ رضي الله عنه: أُرسِلَ إلى أبي بكرٍ مقتلُ أهلِ اليمامةِ فإذا عمرُ ابنُ الخطابِ عندَهُ، قال أبو بكرٍ رضي الله عنه: إنَّ عمرَ أتاني فقال: إنَّ القتلَ قد استحرَّ يومَ اليمامةِ بقرَّاءِ القرآنِ، وإني أخْشى أن يستحرَّ القتلُ بالقرَّاءِ بالمواطنِ فيذهبُ كثيرٌ من القرآنِ، وإني أرى أنْ تأمرَ بجمعِ القرآنِ، قلتُ لعمرَ: كيفَ تفعلُ شيئًا لم يفعلْه رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم؟ قال عمرُ: هذا واللَّهِ خيرٌ فلم يزلْ عمرُ يراجعُني حتى شرحَ اللَّهُ صدري لذلك، ورأيتُ في ذلكَ الذي رأى عمرُ، قال زيدٌ: قال أبو بكرٍ: إنك رجلٌ شابٌ عاقلٌ لا نتهمُكُ، وقد كنتَ تكتبُ الوحيَ لرسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فتتبعِ القرآنَ فاجْمعهُ فواللَّهِ لو كلَّفوني نقلَ جبلٍ من الجبالِ ما كان أثقلَ عليَّ مما أمرَني به منْ جمعِ القرآنِ، قلتُ: كيفَ تفعلونَ شيئًا لم يفعلْه رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم؟ قال: هو واللَّهِ خيرٌ، فلم يزلْ أبو بكر يراجعُني حتى شرحَ اللَّه صدري للذي شرح له صدرَ أبي بكرٍ وعمرَ رضي الله عنهما، فتتبعتُ القرآنَ أجمعُه من العسبِ واللخافِ وصدورِ الرجالِ حتى وجدتُ آخرَ سورةِ التوبةِ مع أبي خزيمةَ الأنصاريِّ لم أجدْها مع أحدٍ غيرِه: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ**﴾ [التوبة:١٢٨] حتى خاتمةِ براءة، فكانت الصحفُ عند أبي بكرٍ حتى توفاهُ اللَّهُ، ثمَّ عند عمرَ مدةَ حياتِه، ثم عندَ حفصةَ بنتِ عمرَ رضي الله عنه(٢) .

وقدمَ حذيفةُ بنُ اليمانَ على عثمانَ وكانَ يغازِي أهلَ الشامِ في فتحِ أرمينيةَ وأذربيجانَ مع أهلِ العراقِ فأفزعَ حذيفةُ بنُ اليمانِ اختلافُهم في القراءة، فقالَ

---

(١) أخرجه: البخاري (٢/ ١٦٧)، (٣/ ٦ ـ ٢١)، ومسلم (٤/ ٣ ـ ٤ ـ ٥).

(٢) أخرجه: البخاري (٦/ ٢٢٥).

حذيفةُ لعثمانَ: يا أميرَ المؤمنينَ، أدركْ هذه الأُمَّةَ قبلَ أن يختلفُوا في الكتابِ اختلافَ اليهودِ والنصارى، فأرسلَ عثمانُ إلى حفصةَ أنْ أرسلي إلينا بالصحفِ ننسخُهَا في المصاحفِ ثمَّ نردُّها إليكِ فأرسلتْ حفصةُ إلى عثمانَ فأمرَ زيدَ بن ثابتٍ، وعبدَ اللَّه بنَ الزبيرِ، وسعيدَ بنَ العاصِ، وعبدَ الرحمنِ بنَ الحارثِ بنِ هشامٍ، فنسخوها في المصاحفِ، وقال عثمانُ للرهطِ القرشيينَ الثلاثةِ: إذا اختلفتم أنتم وزيدُ بنُ ثابتٍ في شيءٍ من القرآنِ فاكتبوه بلسانِ قريشٍ فإنما نزلَ بلسانِهم، ففعلوا حتَّى إذا نسخُوا الصحفَ في المصاحفِ ردَّ عثمانُ الصحفَ إلى حفصةَ وأرسلَ إلى كلِّ أفقٍ مما نسخُوا، وأمرَ بما سواهُ من القرآنِ في كلِّ صحيفةٍ أو مصحفٍ أن يحرَّق(١) .

ويقولُ زيدُ بنُ ثابتٍ: إنَّ آيةً فُقدتْ من الأحزابِ حين نسخُوا المصحفَ، وقد كنتُ أسمعُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقرأُ بها فالتمسنَاها فوجدْنَاها مع خزيمةَ بنِ ثابتٍ الأنصاريِّ: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٢٣] فألحقْناها في سورتِها في المصحفِ(٢) .

أرسلَ أبو بكرٍ رضي الله عنه إلى زيدِ بنِ ثابتٍ قائلاً: إنك كنتَ تكتبُ الوحيَ لرسولِ اللَّهِ ﷺ، فاتبعِ القرآنَ، فتتبعتُ ـ القائل زيد ـ حتى وجدتُ آخرَ سورةِ التوبةِ آيتينِ مع أبي خزيمةَ الأنصاريِّ لم أجدْهما مع أحدٍ غيرِهِ ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ...﴾ إلى آخرِها(٣) .

ويقولُ البراءُ: لما نزلتْ: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ

(١) أخرجه: البخاري (٦/ ٢٢٦).
(٢) المصدر السابق.
(٣) أخرجه: البخاري (٦/ ٢٢٧).

وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ قال النبيُّ ﷺ: «**ادعُ لي زيداً وليجئْ باللوحِ والدواةِ والكتفِ أو الكتفِ والدواةِ**» ثم قال: اكتبْ: «**لا يستوي القاعدونَ**» وخلفَ ظهرِ النبيِّ ﷺ عمرُو بنُ أمِّ مكتومٍ الأعمَى، قال: يا رسولَ اللَّهِ فما تأمرُوني؟ فإنِّي رجلٌ ضريرُ البصرِ، فنزلتْ مكانَها: **﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾**[1] [النساء:٩٥].

ويتحدثُ عبدُ اللَّهِ بنُ عباسٍ ﷺ: أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**أقرأني جبريلُ على حرفٍ فراجعتُه فلمْ أزلْ استزيدُه ويزيدُني حتَّى انتهى إلى سبعةِ أحرفٍ**»[2].

ويتكلمُ كلٌّ منَ المسورِ بنِ مخرمةَ وعبدِ اللَّهِ بنِ عبدِ القاري، أنَّهما سمعا عمرَ بنَ الخطابِ يقول: سمعتُ هشامَ بنِ حكيمٍ يقرأُ سورةَ الفرقانِ في حياةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، فاستمعتُ لقراءته فإذا هو يقرأُ على حروفٍ كثيرةٍ لم يُقْرِئنيها رسولُ اللَّهِ ﷺ، فكدتُ أساورُهُ في الصلاةِ، فتصبرت حتى سلَّمَ، فلبَّبْتُه بردائه، فقلتُ: منْ أقرأكَ هذه السورةَ التي سمعتُك تقرأُ؟! قال: أقرأنيها رسولُ اللَّهِ ﷺ، فقلتُ: كذبتَ، فإنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قدْ أقرأنيها على غيرِ ما قرأتَ، فانطلقتُ به أقودُهُ إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ فقلتُ: إني سمعتُ هذا يقرأُ بسورةِ الفرقانِ على حروفٍ لم تُقرئنيها، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**أرسلْه، اقرأْ يا هشامُ**» فقرأ عليه القراءةَ الَّتي سمعتُه يقرأ، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**كذلك أنزلتْ، ثم اقرأ يا عمرُ**» فقرأتُ القراءةَ التي أقرأني، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**كذلك أنزلتْ، إنَّ هذا القرآنَ أنزلَ على سبعةِ أحرفٍ فاقرؤُا ما تيسر منه**»[3].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) أخرجه: البخاري (٤/ ١٣٧)، (٦/ ٢٢٧)، ومسلم (٢/ ٢٠٢).

(٣) أخرجه: البخاري (٣/ ١٦٠)، (٦/ ٢٢٧ ـ ٢٣٩)، (٩/ ١٩٤)، ومسلم (٢/ ٢٠٢).

جاء رجلٌ إلى عائشةَ أمِّ المؤمنينَ ﵂ من العراقِ، فقال: أيُّ الكفنِ خيرٌ؟ قالتْ: ويحك!! وما يضرك؟! قال: يا أمَّ المؤمنينَ أريني مصحفك، قالتْ لِمَ؟ قال: لعلِّي أؤلفُ القرآنَ عليه، فإنه يُقرأ غير مؤلَّف. قالتْ: وما يضرُّكَ أيَّهُ قرأتَ قبلُ، إنما نزل أولُ ما نزلَ منه سورةٌ من المفَصلِ فيها ذكرُ الجنة والنارِ، حتى إذا ثابَ الناسُ إلى الإسلامِ، نزلَ الحلالُ والحرامُ ولو نزل أولَ شيءٍ: لا تشربوا الخمرَ لقالوا: لا ندعُ الخمرَ أبدًا، ولو نزل: لا تزنُوا، لقالوا: لا ندعُ الزِّنا أبدًا، لقد نزلَ بمكةَ على محمدٍ ﷺ، وإنِّي لجاريةٌ ألعبُ: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر:٤٦] وما نزلتْ سورةُ البقرةِ والنساءِ إلا وأنا عندَهُ، قال: فأخرجتْ له المصحَفَ فأملتْ عليه آيَ السُّورِ(١).

ويقول ابنُ مسعودٍ في بني إسرائيلَ والكهفِ ومريمَ وطه والأنبياء: إنَّهنَّ من العتاقِ الأولِ وهنَّ من تلادي(٢).

وقال البراءُ: تعلمتُ سبِّح اسمَ ربِّك قبلَ أن يقدمَ النبيُّ ﷺ(٣).

وقال عبدُ اللَّهِ: قد علمتُ النظائرَ التي كانَ النبيُّ ﷺ يقرؤُهنَّ اثنينِ اثنينِ في كلِّ ركعةٍ، فقامَ عبدُ اللَّهِ ودخلَ معه علقمةُ، وخرجَ علقمةُ، فسألنا، فقال: عشرونَ سورةً من أولِ المفصلِ على تأليفِ ابنِ مسعودٍ آخرُهنَّ الحواميمُ حم الدخان، وعمَّ يتساءلون(٤).

وسأل قتادةُ أنسَ بنَ مالكٍ ﵁: مَنْ جمعَ القرآنَ على عهدِ النبيِّ ﷺ؟ قال: أربعةٌ كلُّهم من الأنصارِ: أُبيُّ بنُ كعبٍ، ومعاذُ بنُ جبلٍ، وزيدُ بنُ

---

(١) أخرجه: البخاري (٦/ ١٧٩ ـ ٢٢٨).

(٢ ـ ٣) أخرجهما: البخاري (٦/ ٢٢٨).

(٤) أخرجه: البخاري (٦/ ٢٢٩).

ثابتٍ، وأبو زيدٍ[١].

وقال أنسُ بنُ مالكٍ: لم يجمعِ القرآنَ غيرُ أربعةٍ: أبو الدرداءَ ومعاذُ بنُ جبلٍ، وزيدُ بنُ ثابتٍ، وأبو زيدٍ، ثم أضاف أنس: ونحن ورثناه[٢].

وقال عمرُ بنُ الخطابِ: أُبيٌّ أقرؤُنا، وإنَّا لندعُ من لحنِ أُبيٍّ، وأُبيٌّ يقولُ: أخذتُه منْ فِيِّ رسولِ اللَّهِ ﷺ فلا أتركُه لشيءٍ، قال اللَّه تعالى: ﴿**مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا**﴾[٣] [البقرة:١٠٦].

حدثنا أبو نعيمٍ، قالَ: حدثنا شيبانُ، عن يحيى بن أبي كثيرٍ، عن أبي سلمةَ، عن عائشةَ وابنِ عباسٍ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ لبثَ بمكةَ عشر سنينَ ينزلُ عليه القرآنُ وبالمدينةِ عشراً[٤].

حدثنا الحسنُ بنُ موسى: قال: حدثنا حمادُ بنُ سلمةَ، عن عليِّ بنِ زيدٍ، عن أنسِ بنِ مالكٍ، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**رأيتُ ليلةَ أُسْرِي بي رجالاً تُقرضُ شفاهُهُم بمقاريضَ من نارٍ فقلتُ لجبريلَ: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء خطباءُ من أمَّتِكَ يأمرونَ بالبرِّ وينسونَ أنفسَهم وهو يتلونَ الكتابَ أفلا تعقلون**»[٥].

حدثنا أبو عاصمٍ، عن عبيدِ اللَّه بنِ أبي زيادٍ، عن شهرِ بنِ حوشبٍ، عن أسماءَ بنتِ يزيدَ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**اسمُ اللَّه الأعظمُ في هاتينِ الآيتينِ: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾** [البقرة:٢٥٥]، **﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾**» [البقرة:١٦٣][٦].

---

(١) أخرجه: البخاري (٦/ ٢٣٠).

(٢) المصدر السابق. (٣) المصدر السابق.

(٤) أخرجه: البخاري (٦/ ١٩ ـ ٢٢٣).

(٥) أخرجه: أحمد (٣/ ١٢٠ ـ ١٨٠ ـ ٢٣١ ـ ٢٣٩).

(٦) أخرجه بهذا الإسناد الدارمي في «سننه» (٢/ ٤٥٠)، وهو عند أبي داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٧٨).

حدَّثني ابنُ أبي شيبـةَ، قال: حدثنا أبو خالد الأحمرُ سليـمانُ بنُ حيانَ، عن مجالـدٍ، عن الشعبيِّ، عن جابرٍ قـال: كنَّا جلوسًا عند النبيِّ ﷺ فخطَّ خطا هكذا أمامَهُ فقال: «**هذا سبيلُ اللَّه**» وخطين عن يمينِهِ، وخطين عن شمالِهِ فقالَ: «**هذه سبلُ الشيطانِ**» ثم وضعَ يدَهُ في الخطِ الأوسـطِ ثمَّ تلا هذه الآيةَ: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾[1] [الأنعام:١٥٣].

حدثنا يحيى بنُ إسحاقَ، قال: أخبـرنا ابنُ لهيعةَ ، عن أبي الزبيرِ، قال: سمعتُ جابرَ بن عبدِ اللَّه بعدَما رجِعنا من غزوةِ تبوكٍ، قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إن بالمدينةِ لأقوامًا ما سِرْتُم ولا قطعتُم واديًا إلا كانُوا معكم، حبسهُمُ المرضُ**»[2] .

حدثنا يحـيى بن إسحاقَ، قال: أخبـرنا ابنُ لهيعةَ عن أبي الـزبيرِ، قال: سمعتُ جابرَ بن عبدِ اللَّه بعدما رجِعنا من غزوةِ تبوكٍ، قال: . .

وحدثني مـحاضرٌ ، قـال: حدثنا الأعمـشُ، عن ابنِ سفيـانَ، عن جابرٍ قال: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ ونحنُ في سفرٍ: «**إنَّ بالمدينةِ لرجالاً ما تقطعونَ واديًا ولا تسلكون طريقًا إلا وهُم معكُم، حبسهُم عنكُم المرضُ**»[3] .

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**ستكونُ فتنٌ**» قلتُ: فما المخـرجُ منها يا رسولَ اللَّه؟ قال: «**كتابُ اللَّهِ فيه نبأ ما قبلـكُم، وخبرُ ما بعدكم، وحكمُ ما بينكم، وهو الفصلُ ليس**

---

(١) أخرجـه: من طريق ابن أبي شيبـة المذكور أحمـد في «مسنده» (٣/٣٩٧)، وهو عند ابن مـاجه (١١).

(٢) أخرجـه من طريق يحيى بن إسـحاق عبـد بن حمـيد (١٠٥٧)، وهو عند أحمـد في «المسند» (٣/٣٤١) قال: حدثنا حسن.

كلاهما عن ابن لهيعة بالإسناد المذكور.

(٣) طريق محاضر أخرجه: عبد بن حميد (١٠٢٧)، والحديث عند مسلم (٦/٤٩).

بالهزلِ، من تركَهُ من جبارٍ قصمهُ اللَّهُ، ومَنْ ابتغى الهُدَى من غيرِه أضلَّه اللَّهُ، وهو حبلُ اللَّه المتين، وهو الذكرُ الحكيمُ وهو الصراطُ المستقيمُ، وهو الذي لا تزيغُ به الأهواءُ، ولا تلبسُ به الألسنةُ، ولا تشبعُ منه العلماءُ، ولا يخلَقُ على كثرةِ الردِّ، ولا تنقضي عجائبُه، من قالَ به صدَقَ، ومن عملَ به أُجِرَ، ومن حكمَ به عدلَ، ومن دعا إليه هُدي إلى صراطٍ مستقيمٍ»(١) .

وقال: «من قرأ القرآنَ في سبيلِ اللَّهِ كُتِبَ مع الصديقينَ والشهداءِ والصالحينَ وحسنُ أولئك رفيقًا»(٢) .

وقال: «أيحبُّ أحدُكم إذا رجعَ إلى أهله أنْ يجدَ ثلاثَ خلفاتٍ عظامٍ سمانٍ؟» قلنا: نعم، قال: «ثلاثُ آياتٍ يقرأُ بهنَّ أحدُكم في صلاةٍ، خيرٌ له من ثلاثِ خلفاتٍ سمانٍ»(٣) .

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «لو كانَ القرآنُ في إهابٍ ما مستْهُ النارُ»(٤) .

وقال: «لو جُمع القرآنُ في إهابٍ ما أحرقتْهُ النارُ»(٥) .

وقال: «لو كان القرآنُ في إهابٍ ما أكلتْهُ النارُ».

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «ما أنزلَ اللَّهُ في التوراةِ ولا في الإنجيلِ مثل: أمِّ القرآنِ وهي السبعُ المثاني»(٦) .

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٩١)، والترمذي (٢٩٠٦) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٣٧) من حديث معاذ بن أنس الجهمي بلفظ: «من قرأ ألف آية في سبيل اللَّه.. الحديث».

(٣) أخرجه: مسلم (٢/ ١٩٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ١٥١ ـ ١٥٤ ـ ١٥٥) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٥) أخرجه: الطبراني في «المعجم الكبير» (١٧/ ١٨٦) من حديث عصمة بن مالك.

(٦) أخرجه: الترمذي (٣١٢٥)، والنسائي (٢/ ١٣٩) من حديث أُبيِّ بن كعب رضي الله عنه.

وقالَ: «أخيرُ سورةٍ في القرآن: الحمدُ للَّهِ ربِّ العالمينَ».

وقالَ: «أفضلُ القرآنِ: الحمدُ للَّهِ ربِّ العالمينَ».

وقالَ: «أعظمُ سورةٍ في القرآنِ: الحمدُ للَّه ربِّ العالمينَ»(١).

وقالَ: «فاتحةُ الكتابِ تعدلُ بثلثي القرآنِ»(٢).

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «ما من مسلمٍ يأخذُ مضجَعَهُ فيقرأُ سورةً من كتابِ اللَّه؛ إلا وكَّلَ به ملكًا يحفظهُ فلا يقربُهُ شيءٌ يؤذيه حتَّى يهبَّ متى هبَّ»(٣).

وقال: «إنكم لا ترجعون إلى اللَّهِ بشيءٍ أفضلَ مما خرجَ منه» يعني القرآن(٤).

وقالَ: «الصيامُ والقرآنُ يشفعانِ للعبدِ»(٥).

وقال: «يجيءُ صاحبُ القرآنِ يومَ القيامةِ، فيقولُ القرآنُ: يا ربِّ حلِّه، فيلبسُ تاجَ الكرامةِ، ثم يقولُ: يا ربِّ زِدْه، يا ربِّ ارضَ عنه، فيرضَى عنه، ويقالُ له اقرأْ وارْقَ، ويُزادُ له بكلِّ آيةٍ حسنةٌ»(٦).

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «خيرُكم من تعلَّم القرآنَ وعلَّمَهُ»(٧).

وفي لفظٍ: «إنَّ أفضلكم من تعلَّم القرآن وعلَّمه».

---

(١) أخرجه: البخاري (٦/ ٢٠ - ١٠١ - ٢٣٠) من حديث أبي سعيد بن المعلى.

(٢) أخرجه: عبد بن حميد (٦٧٨).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٥)، والترمذي (٣٤٠٧) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه: الترمذي (٢٩١٢) من حديث جبير بن نفير مرسلاً، وأخرجه أيضًا (٢٩١١) من حديث أبي أمامة بلفظ: «وماتقرب العباد إلى اللَّه بمثل ما خرج منه».
وهو عند الحاكم (١/ ٥٥٥) من حديث جبير بن نفير عن أبي ذرٍّ مرفوعًا.

(٥) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ١٧٤)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٥٤) من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٦) أخرجه: أحمد (٢/ ٤٧١)، والترمذي (٢٩١٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) أخرجه: البخاري (٦/ ٢٣٦)، وأحمد (١/ ٥٨ - ٦٩) من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وزاد البيهقيُّ في «الأسماء»:

«وفضلُ القرآنِ على سائرِ الكلامِ كفضلِ اللَّهِ على سائرِ خلقِهِ».

وقالَ: «من جمعَ القرآنَ كانتْ له عندَ اللَّهِ دعوةٌ مستجابةٌ إن شاءَ عجَّلها في الدنيا، وإن شاءَ ادَّخرها له في الآخرةِ»[(١)] .

قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «ما مِنْ رجلٍ يُعلِّمُ ولدَه القرآنَ إلا تُوِّجَ يومَ القيامةِ بتاجٍ في الجنةِ»[(٢)] .

قالَ ﷺ: «إنَّ اللَّه كتبَ كتابًا قبلَ أن يخلقَ السمواتِ والأرضَ بألفَي عامٍ، فأنزلَ منه آيتينِ فختمَ بهما سورةَ البقرةِ»[(٣)] .

وقال عبدُ اللَّهِ بنُ مسعودٍ: أُعطي رسولُ اللَّهِ ﷺ ثلاثًا، أُعطي الصلوات الخمس، وأُعطي خواتيمَ سورةِ البقرةِ، وغُفر لمنْ لم يشركْ باللَّه من أمتهِ شيئًا[(٤)] .

وقال ﷺ: «أعطيتُ خواتيمَ سورةِ البقرةِ الآيتينِ...» .

وقال: «هذه الآياتُ من آخرِ سورةِ البقرةِ من بيت رحمة اللَّه».

وقال: «هذه الآياتُ من آخرِ سورةِ البقرةِ من خزائنِ رحمة اللَّه تعالى».

وقال: «هذه الآياتُ من آخرِ سورةِ البقرةِ من كنزٍ».

---

(١) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٦٦٠٦) من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٩٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٧٤)، والترمذي (٢٨٨٢)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٦٧) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٤) أخرجه: مسلم (١/ ١٠٩).

وقال: «هذه الآياتُ من آخرِ سورةِ البقرةِ من تحت العرشِ»[(١)] .

وقال ﷺ: «من قرأ أولَ سورةِ الكهفِ، وآخرها، كانتْ له نُوراً منْ قدمِهِ إلى رأسِهِ، ومن قرأها كلَّها كانتْ له نوراً ما بين الأرض والسماءِ»[(٢)] .

وقال ﷺ: «من قرأ في ليلة: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ..﴾ الآيةَ [الكهف: ١١٠]، كانَ له نورٌ من عدن أَبْيَنَ إلى مكةَ، حشوهُ الملائكةُ»[(٣)] .

يقول ﷺ: «إنَّ اللَّه تبارَكَ وتعالى قرأ طه ويس قبل أن يخلق السموات والأرضَ»[(٤)] .

وكان ﷺ يقرأُ في الركعة الأولى الفاتحةَ وسورةَ يس[(٥)] .

وصلَّى بالصحابةِ الظهرَ، فحسبوا أنَّهم سمِعُوا منه آياتٍ من يس[(٦)] .

وقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «اقرؤوها عند موتاكُم»[(٧)] ـ يَعْني: يس.

وفي كسوفٍ للشمسِ صلَّى عليٌّ ـ كرَّم اللَّه وجهه ـ للناسِ، فقرأ يس أو نحوَها[(٨)] .

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٤٧ ـ ١٥٨) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، و(٥/ ١٥١ ـ ١٨٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٣٩) من حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: البزار في «مسنده» (ح ٢٩٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) أخرجه: الدارمي في «السنن» (٢/ ٤٥٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه: الترمذي (٣٥٧٠).

(٦) أخرجه: أحمد في حديث طويل (٤/ ٢٨٨) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٧) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٦)، وأبو داود (٣١٢١)، وابن ماجه (١٤٤٨) من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه.

(٨) أخرجه: أحمد (١/ ١٤٣) وابن خزيمة في «صحيحه» (١٣٨٨ ـ ١٣٩٤)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٣٣٠ ـ ٣٣١).

ويقولُ الرسولُ ﷺ: «بلغني أنَّ يس تعدلُ القرآنَ كلَّه»[(١)] .

وقالَ: «من قرأ يس حينَ يصبحُ، أُعطي يسرَ يومِه» [(٢)] .

وقالَ: «من قرأ يس في ليلةٍ ابتغاءَ وجهِ اللَّهِ غُفِرَ له» [(٣)] .

وقالَ: «من قرأ يس في صدرِ النهارِ، قُضيتْ حوائجُهُ»[(٤)] .

وقالَ: «من قرأ يس كتب اللَّه له بقراءتِها، قراءةَ القرآنِ عشرَ مرَّاتٍ»[(٥)] .

كان النبيُّ ﷺ يسجدُ إحْدى عشرةَ سجدةً وسجدةَ الحواميمِ[(٦)] .

ويقالُ: عشرونَ سورةً من أولِ المفصلِ على تأليفِ ابنِ مسعودٍ وآخرُهن الحواميمُ[(٧)] .

والحواميمُ هي المسبحاتُ.

وكان الرسولُ ﷺ يقرأ المسبحاتِ قبلَ أن يرقدَ[(٨)] .

وكان النبيُّ ﷺ لا ينامُ حتَّى يقرأَ المسبحات.

والمسبحاتُ آيةٌ خيرٌ من ألفِ آيةٍ.

وجاء عن النبيِّ ﷺ : «إنَّ لكلِّ شيءٍ لُبابًا، ولبابُ القرآنِ الحواميمُ».

---

(١) أخرجه: الدارمي في «سننه» (٢/ ٤٥٦) عن الحسن مرسلاً.

(٢) المصدر السابق.

(٣) أخرجه: الدارمي في «سننه» (٢/ ٤٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه: الدارمي (٢/ ٤٥٧) عن عطاء بن أبي رباح مرسلاً.

(٥) أخرجه: الترمذي (٢٨٨٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٦) أخرجه: ابن ماجه (١٠٥٦) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٧) أخرجه: البخاري (٦/ ٢٢٦).

(٨) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٨)، وأبو داود (٥٠٥٧)، والترمذي (٢٩٢١ ـ ٣٤٠٦)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٧١٥) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه.

وقالَ: «الحواميمُ ديباجُ القرآنِ»(١) .

وقالَ: «من قرأ حم (الدخان) في ليلةٍ، أصبحَ يستغفرُ له سبعونَ ألف ملَكٍ»(٢) .

وقال ﷺ: «إنَّ لكلِّ شيءٍ لباباً وإن لبابَ القرآنِ المفصلِ»(٣) .

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «لكلِّ شيءٍ عروسٌ، وعروسُ القرآنِ الرحمنُ».

ويقالُ: لكن النبيَّ كان يقرأ النظائرَ، النظرُ: الرحمنُ والنجمُ(٤) .

والنظائرُ التي كان رسولُ اللَّهِ ﷺ يقرنُ: الرحمنُ والنجمُ.

وكانَ أولُ مفصلِ ابنِ مسعودٍ: الرحمنُ.

نزلتْ سورةُ الحشرِ في بني النضيرِ.

وسماها البعضُ سورةُ النضيرِ.

وقالَ ﷺ: «من قال حين يصبحُ أعوذُ باللَّه السميعِ العليمِ من الشيطانِ الرجيمِ، وثلاثَ آياتٍ من آخرِ سورةِ الحشرِ، وَكَّلَ اللَّهُ به سبعينَ ألفَ ملَكٍ يصلُّونَ عليه»(٥) .

وقالَ: «من قرأ ثلاثَ آياتٍ من آخرِ سورةِ الحشرِ إذا أصبحَ فماتَ من يومِهِ ذلكَ طُبع بطبائعِ الشهداءِ»(٦) .

قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «من القرآنِ سورةٌ ثلاثونَ آيةً شفعتْ لرجلٍ حتى غُفر له: تباركَ الذي بيده الملك»(٧) .

---

(١) أخرجه: الحاكم (٢/ ٤٣٧) موقوفًا على عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه .

(٢) أخرجه: الترمذي (٢٨٨٨).

(٣) أخرجه: الدارمي (٢/ ٤٤٧) موقوفًا على ابن مسعود رضي الله عنه .

(٤) أخرجه: أحمد (١/ ٤١٨)، وأبو داود (١٣٩٦) من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه .

(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٦)، والترمذي (٢٩٢٢) من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه .

(٦) أخرجه: الدارمي (٢/ ٤٥٨).

(٧) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٩٩ ـ ٣٢١)، وأبو داود (١٤٠٠)، والترمذي (٢٨٩١)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٧١٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

وقالَ: «هي المانعةُ، هي المنجيةُ، تنجي من عذابِ النارِ»(١) .

وقالَ: «وددتُ أنَّها في قلبِ كلِّ مؤمنٍ: تباركَ الذي بيده الملك»(٢) .

وقالَ: «من قرأ تباركَ الذي بيدهِ الملكُ كلَّ ليلة، منعهُ اللَّهُ من عذابِ القبرِ»(٣) .

قال ﷺ: «إني نسيتُ أفضلَ المسبحاتِ» قال أُبيُّ بنُ كعبٍ: فلعلها: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾؟ قال: «نعم».

قالَ ﷺ: «إن الشيطانَ يخرجُ من البيتِ إذا سمعَ سورةَ البقرةِ تُقرأُ فيه»(٤) .

وقالَ: «من قرأ سورةَ آلِ عمرانَ يومَ الجمعةِ صلَّتْ عليه الملائكةُ إلى الليلِ»(٥) .

وقالَ: «أعظمُ آيةٍ في كتابِ اللَّه آيةُ الكرسي»(٦) .

وقالَ: «إنَّ لكلِّ شيءٍ سنامًا، وإنَّ سنامَ القرآنِ البقرةُ، وفيها آيةٌ هي سيدةُ آي القرآنِ آيةُ الكرسي»(٧) .

وقالَ: «أفضلُ القرآنِ سورةُ البقرةِ وأعظمُ آيةٍ فيها، آيةُ الكرسي».

وقالَ: «من قرأ آيةَ الكرسي دُبرَ كلِّ صلاةٍ مكتوبةٍ لم يمنعْه من دخولِ الجنةِ إلا أن يموتَ»(٨) .

---

(١) أخرجه: الترمذي (٢٨٩٠) من حديث عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه: عبد بن حميد (٦٠٣)، والحاكم (١/ ٥٦٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه: النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٧١١).

(٤) أخرجه: مسلم (٢/ ١٨٨) من حديث أبي هريرة بمعناه.

(٥) أخرجه: الطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٤٨).

(٦) أخرجه: مسلم (٢/ ١٩٩).

(٧) أخرجه: الترمذي (٢٨٧٨).

(٨) أخرجه: النسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٠٠) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

وقالَ: «آيةُ الكرسي ربعُ القرآنِ»(١) .

وقالَ: «من قرأ الآيتينِ من آخرِ سورةِ البقرةِ في ليلةٍ، كفتاهُ»(٢) .

«من قرأ آخرَ آلِ عمرانَ في ليلةٍ، كُتبَ له قيامُ ليلةٍ».

«إن اللّه كتبَ كتابًا قبل أن يخلَق السماواتِ والأرضَ بألفي عامٍ، وأنزلَ منه آيتينِ ختمَ بهما سورةَ البقرةِ، ولا يُقرآنِ في دارٍ فيقربُها شيطانٌ ثلاثَ ليالٍ»(٣) .

قال ﷺ: «الأنعامُ من نواجبِ القرآنِ» .

وقالَ: «من أخذَ السبعَ الطوالَ فهو حبرٌ»(٤) .

وقالَ: «لا يحفظُ منافقٌ سورَ: براءةَ، وهودَ، ويس، والدخانَ، وعمَّ يتساءلون»(٥) .

وقالَ: «آيةُ العزِّ: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [الإسراء:١١١] . . إلخ السورةِ(٦) .

قالَ ﷺ: «ألا يستطيعُ أحدُكُم أنْ يقرأ ألفَ آيةٍ في كلِّ يومٍ؟» قالُوا: ومن يستطيعُ أن يقرأ ألفَ آيةٍ؟ قال: «أما يستطيعُ أحدُكُم أن يقرأ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ﴾»(٧).

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٤٦ ـ ٢٢١)، والترمذي (٢٨٩٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) أخرجه: البخاري (٥/ ١٠٧)، (٦/ ٢٣١ ـ ٢٣٩ ـ ٢٤٢)، ومسلم (٢/ ١٩٨) من حديث أبي مسعود الأنصاري ﷺ.

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٧٤)، والترمذي (٢٨٨٢) من حديث النعمان بن بشير ﷺ.

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ٧٢ ـ ٨٢) من حديث عائشة ﷺ.

(٥) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٧٥٧٠) من حديث علي بن أبي طالب ﷺ.

(٦) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٤٩) من حديث معاذ بن أنس ﷺ.

(٧) أخرجه: الحاكم (١/ ٥٦٧) من حديث عبد اللّه بن عمر ﷺ.

المعوذتان:

المقصودُ بهما سورةُ الفلق وسورةُ الناسِ.

وقال ﷺ: «أُنزلَ (أو أنزلتْ) عليَّ آياتٌ لم يُرَ مثلُهُنَّ قطُّ: المعوذتين»(١).

وكان رسولُ اللَّهِ ﷺ: يقرأُ في الركعة الثالثةِ المعوذتينِ وقل هو اللَّهُ أحدٌ(٢).

وكان يطلبُ من الصحابةِ القراءةَ بالمعوذتين في دبرِ كلِّ صلاةٍ(٣).

وكان النبيُّ ﷺ إذا مرضَ قرأ على نفسِهِ بالمعوذتين(٤).

وكان إذا أخذ مضجعَهُ إذا أوى إلى فراشِهِ نفثَ في يديهِ بالمعوذتين(٥).

وكان يتعوذُ حتَّى نزلتْ المعوذتانِ، فلمَّا نزلتْ أخذَ بهما وترك ما سواهما(٦).

وكانَ ابنُ مسعودٍ لا يكتبُ المعوذتينِ في مصحفِهِ.

حدثنا يزيدُ بنُ أبي حكيمٍ، قال: حدثنا سفيانُ، عن عاصمٍ الأحولِ قالَ: سألتُ أنسًا عن الصفا والمروة، فقال: كانا من شعائرِ الجاهليةِ فلمَّا كانَ الإسلامُ أمسكْنا عنهما، فأنزلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ

---

(١) أخرجه: مسلم (٢/ ٢٠٠) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٢٢٧)، وأبو داود (١٤٢٤)، والترمذي (٤٦٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه: الترمذي (٢٩٠٣) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه: البخاري (٦/ ١٣ ـ ٢٣٣)، (٧/ ١٧٠ ـ ١٧٣)، ومسلم (٧/ ١٦ ـ ١٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) أخرجه: البخاري (٦/ ٢٣٣)، (٨/ ٨٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٦) أخرجه: الترمذي (٢٠٥٨)، والنسائي (٨/ ٢٧١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾(١) [البقرة:١٥٨].

حدثني أبو بكرِ بنُ أبي شيبةَ، قال: حدثنا كثيرُ بنُ هشامٍ، عن أبي الزبيرِ، عن جابرٍ، قال: اشتكيتُ وعندي سبعَ أخواتٍ لي فدخلَ عليَّ رسولُ اللَّهِ ﷺ فنفخَ في وجهي فأفقتُ، فقلتُ: يا رسولَ اللَّهِ ألا أوصي لإخوتي بالثلثينِ، قال: «**احبِسْ**» قلتُ: الشطرُ، قال: «**احبِسْ**»، ثم خرجَ وتركني فقالَ: «**يا جابرُ إني أراكَ ميتًا من وجعك هذا وإنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ قد أنزلَ فبين لأخواتكَ فجعلَ لهنَّ الثلثينِ**» قال: فكان جابرٌ يقولُ: نزلتْ هذه الآيةُ فيَّ **﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ﴾**(٢) [النساء:١٧٦].

حدثني محاضر، قال: حدثنا الأعمشُ، عن ابنِ سفيانَ، عن جابرٍ، قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، ونحنُ في سفرٍ: «**إن بالمدينة لرجالاً ما تقطعونَ واديًا ولا تسلكون طريقًا إلا وهم معكُم حبسهُم عنكم المرضُ**»(٣).

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**القرآنُ أحبُّ إلى اللَّهِ من السمواتِ والأرضِ ومن فيهنَّ**»(٤).

قالَ ﷺ: «**حملةُ القرآنِ في ظلِّ اللَّهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه**».

وقالَ: «**إنَّ هذا القرآنَ سببٌ طرفُهُ بيدِ اللَّهِ، وطرفُه بأيديكُم فتمسَّكوا به، فإنَّكُم لن**

---

(١) أخرجه: البخاري (٢/ ١٩٥)، ومسلم (٤/ ٧٠) من حديث أنس بن مالك.

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٣٧٢)، وأبو داود (٢٨٨٧)، والنسائي كما في «تحفة الأشراف» (٢٩٧٧) من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه.

(٣) أخرجه عبد بن حميد (١٠٢٧)، ومسلم (٦/ ٤٩).

(٤) أخرجه الدارمي في «سننه» (٢/ ٤٤١).

تضلُّوا ولنْ تهلكُوا بعدَهُ أبدًا»(١).

وقالَ: «منْ تعلَّم كتابَ اللَّه ثم اتَّبع ما فيه، هداهُ اللَّهُ به من الضلالةِ، ووقاه يومَ القيامةِ سوءَ الحسابِ».

وقالَ: «لأن تغدو فتتعلمَ آيةً من كتابِ اللَّهِ خيرٌ لك من أن تصلِّي مائةَ ركعةٍ»(٢).

وقالَ: «إنَّ الذي ليسَ في جوفهِ شيءٌ من القرآنِ كالبيتِ الخربِ»(٣).

قال ﷺ: «الماهر بالقرآنِ مع السفرة الكرامِ البررةِ، والذي يقرأ القرآن ويتتعتعُ فيه، وهو عليهِ شاقٌّ له أجرانِ»(٤).

وقالَ: «من تعلَّم آيةً من كتابِ اللَّهِ استقبلتْه يومَ القيامةِ تضحكُ في وجهه»(٥).

وقالَ: «من قرأ القرآنَ فاستظهرَهُ، فأحلَّ حلالَهُ، وحرمَ حرامَهُ أدخله اللَّهُ الجنةَ، وشفَّعه في عشرةٍ من أهلِ بيتِه، كلِّهم قد وجبتْ لهم النارُ»(٦).

وقالَ: «من قرأ القرآنَ فأكملَهُ وعملَ به أُلبسَ والداه تاجًا يومَ القيامةِ، ضوءُه أحسنُ من ضوءِ الشمسِ في بيوتِ الدُّنيا لو كانتْ فيكم فما ظنُّكم بالذي عمل بهذا؟!»(٧).

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «خيرُ الحديثِ كتابُ اللَّه».

وقالَ: «حملةُ القرآنِ عُرفاءُ أهلِ الجنةِ»(٨).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ١٢٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢١٩) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٩١٣)، والدارمي في «سننه» (٢/ ٤٢٩) من حديث عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري (٦/ ٢٠٦)، ومسلم (٢/ ١٩٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٥) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ١٥٢). من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٦) أخرجه الترمذي (٢٩٠٥)، وابن ماجه (٢١٦) من حديث علي بن أبي طالب.

(٧) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤٠)، وأبو داود (١٤٥٣) من حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه.

(٨) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (٣/ ١٣٢) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقالَ: «أهلُ القرآنِ هم أهلُ اللَّهِ وخاصتُه»(١).

وقالَ: «القرآنُ شافعٌ مشفعٌ، وماحِلٌ مصدَّقٌ، من جعلَه أمامَه قادَهُ إلى الجنةِ، ومن جعلَهُ خلفَهُ ساقَهُ إلى النارِ»(٢).

وقال: «من قرأ القرآنَ يقوم به آناءَ الليلِ والنهارِ، يُحلُّ حلالَهُ ويحرِّمُ حرامَهُ، حرَّمَ اللَّهُ لحمَهُ ودمَهُ على النارِ، وجعلَهُ مع السفرةِ الكرامِ البررةِ حتَّى إذا كان يومُ القيامةِ كانَ القرآنُ حجةً له»(٣).

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «القرآنُ غِنًى لا فقرَ بعده، ولا غِنًى دونَهُ»(٤).

وقالَ: «ثلاثةٌ لا يهولهم الفزعُ الأكبرُ، ولا ينالُهم الحسابُ، هم على كثيبٍ من مسكٍ حتَّى يُفرغَ من حسابِ الخلائقِ: رجلٌ قرأ القرآنَ ابتغاءَ وجهِ اللَّهِ، وأمَّ به قومًا وهم به راضونَ»(٥).

وقالَ: «من قرأ القرآنَ فقد استدرجَ النبوةَ بين جنبيه غيرَ أنَّه لا يُوحى إليه».

«لا ينبغي لصاحبِ القرآنِ أن يجدَ مع من يجدُ، ولا يجهلَ مع من يجهَلُ وفي جوفِهِ كلامُ اللَّهِ».

قالَ ﷺ: «من صلَّى صلاةً لم يقرأ فيها بأمِّ القرآنِ فهي خِداجٌ»(٦).

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٢٧ ـ ٢٤٢) والنسائي في «فضائل القرآن» (٥٦)، وابن ماجه (٢١٥) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) أخرجه: البزار (١٢٢ ـ كشف الإستار)، وابن حبان في «صحيحه» (١٢٤).

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (٢/ ١٢٦).

(٤) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١/ ٢٥٥).

(٥) أخرجه الطبراني في «الصغير» (٢/ ١٢٤).

(٦) أخرجه مسلم (٢/ ٩ ـ ١٠) من حديث أبي هريره ﷺ.

وقالَ: «**من لم يقرأ بأمِّ القرآنِ فلا صلاةَ له**»[(١)] .

وقالَ: «**من صلَّى ركعةً لم يقرأ بأمِّ القرآنِ فلم يصلِّ**» .

وقالَ: «**ومن فاتَهُ قراءةُ أمِّ القرآنِ فقد فاتَهُ خيرٌ كثيرٌ**» .

وكان النبيُّ ﷺ يقرأُ بأمِّ القرآنِ وسورتينِ معها في الركعتينِ الأوليينِ من صلاةِ الظهرِ وصلاةِ العصرِ، وكان يقرأ في الركعتينِ الأخريينِ بأمِّ القرآنِ وكان يخففف الركعتينِ[(٢)] .

فصلَّى ركعتينِ خفيفتين قبلَ صلاةِ الفجرِ حتَّى كانَ الصحابةُ يقولونَ: هلْ قرأ فيهما بأمِّ القرآنِ؟[(٣)] .

وسمعتُ الحجاجَ يقولُ على المنبر: لا تقولوا: سورةَ البقرةِ، قولوا: السورةُ التي يُذكر فيها البقرةُ.

ويقالُ: إن عبدَ اللَّهِ بن عمرَ مكثَ على سورةِ البقرةِ ثماني سنينَ يتعلمُها.

ويقولُ أنسٌ ﷺ: كان رجلٌ يكتبُ بين يدي رسولِ اللَّهِ ﷺ: وكانَ الرجلُ إذا قرأ البقرةَ وآلَ عمرانَ يُعدُّ فينا عظيمًا.

وكان رسولُ اللَّهِ ﷺ يقرأُ في الصلاةِ دائمًا آيةَ: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا**﴾ [آل عمران: ٦٤] من آلِ عمرانَ[(٤)] .

ويقولُ ابنُ عباسٍ: إنَّ رسولَ اللَّهِ كان ينامُ حتَّى منتصفِ الليلِ، فيستيقظُ،

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٨ ـ ٩) من حديث عبادة بن الصامت ﷺ.

(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٩٣ ـ ١٩٧)، ومسلم (٢/ ٣٧) من حديث أبي قتادة الأنصاري ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٢/ ٧٢)، ومسلم (٢/ ١٦٠) من حديث عائشة ﷺ.

(٤) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٥) من حديث عبد اللَّه بن عباس ﷺ.

ثمَّ يقرأُ الخمسَ أو العشرَ الآياتِ الأواخرِ، الخواتيمِ من سورةِ آلِ عمران[(١)] .

ويقولُ ابنُ عباسٍ أيضًا: قامَ رسولُ اللَّهِ من الليلِ فخرجَ فنظرَ في السماءِ ثم تلا هذه الآيةَ التي في آلِ عمرانَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ..﴾[(٢)] الآية [آل عمران: ١٩٠].

ويقول رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**من قرأ البقرةَ وآلَ عمرانَ جاءَتا يومَ القيامةِ تقولان: ربَّنا لا سبيلَ عليه**»[(٣)] .

وقال ﷺ: «**تعلَّمُوا واقرؤُوا سورةَ البقرةِ وآلِ عمرانَ فإنَّما الزهراوانِ**»[(٤)] .

وسمعتُ الحجاجَ على المنبرِ يقولُ: قولُوا السورةُ التي يُذكرُ فيها آلُ عمرانَ.

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**من قرأ سورةَ الكهفِ في يوم الجمعةِ، أضاءَ له من النورِ ما بينه وبين الجمعتينِ**».

وقال: «**من قرأ سورةَ الكهفِ ليلةَ الجمعةِ، أضاء له منَ النورِ فيما بينه وبين البيتِ العتيقِ**»[(٥)] .

وقالَ: «**من قرأ الكهفَ لساعةٍ يريد يقوم من الليل قامها**»[(٦)] .

وقال: «**من قرأ عشر آياتٍ من الكهفِ لم يخفِ الدَّجالِ**»[(٧)] .

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٥٧) وغيرها من المواضع، ومسلم (٢/ ١٧٩ ـ ١٨٠).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ١٥٢).

(٣) أخرجه الدارمي في «سننه» (٢/ ٤٥٢) موقوفًا على كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٣٤٨)، والدارمي (٢/ ٤٥٠) من حديث بريدة من الحصيب رضي الله عنه.

(٥) أخرجه الدارمي موقوفًا على أبي سعيد الخدري (٢/ ٤٥٤).

(٦) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٢٤٦)، والدارمي في «سننه» (٢/ ٤٥٤) موقوفًا على زرِّ بن حبيش.

(٧) أخرجه بهذا اللفظ الدارمي موقوفًا على خالد بن معدان (٢/ ٤٥٤).

وقالَ: «من حفظَ عشرَ آياتٍ من أولِ الكهفِ عُصِمَ من فتنةِ الدجال»(١) .

وقالَ: «من قرأَ ثلاثَ آياتٍ من أوَّلِ الكهفِ عُصِمَ من فتنة الدجال»(٢) .

وقالَ: «من قرأَ أوَّلَ سورةِ الكهفِ وآخرَها، كانتْ له نورٌ من قدَمِه إلى رأسِه»(٣) .

قال ﷺ: «تجِيءُ آلم السجدةُ يومَ القيامةِ لها جناحانِ تُظلُّ صاحبَها، تقولُ: لا سبيلَ عليك، لا سبيلَ عليكَ»(٤) .

وقالَ: «في تنزيل (السجدة) وتباركَ (المُلْك) فضلُ ستينَ درجةٍ على غيرِهما من سورِ القرآنِ»(٥) .

وجاء عن رسولِ اللَّه ﷺ: «يس قلبُ القرآنِ لا يقرؤُها رجلٌ يريدُ اللَّهَ والدارَ الآخرةَ إلا غفَرَ اللَّه له، اقرؤوها على موتاكم»(٦) .

وقالَ: «إنَّ لكلِّ شيءٍ قلبًا، وقلبُ القرآنِ يس، من قرأها كتبَ اللَّه له بقراءتِها قراءةَ القرآنِ عشرَ مراتٍ»(٧) .

وقالَ: «من قرأ يس في ليلةٍ ابتغاءَ وجهِ اللَّهِ تعالى، غُفِرَ له»(٨) .

وقالَ: «من دامَ على قراءةِ يس كلَّ ليلةٍ ثمَّ ماتَ، ماتَ شهيدًا»(٩) .

(١) أخرجه مسلم (٢/ ١٩٩) من حديث أبي الدرداء.
(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٨٦) وهي رواية لحديث أبي الدرداء المتقدم.
(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤٣٩) من حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه.
(٤) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص٢٥١)، وابن الضريس في «فضائل القرآن» (ص١٠٠).
(٥) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» موقوفًا على عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنه (ص٢٥١).
(٦) أخرجه أحمد (٥/ ٢٦)، وأبو داود (٣١٢١) من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه وقد تقدم.
(٧) أخرجه الترمذي (٢٨٨٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٨) أخرجه الدارمي (٢/ ٤٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٩) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٧٠١٨).

ويقولُ: سمـعنا رجلاً يقرأ (حم) الثلاثينَ يعني سورةَ الأحـقافِ. ونقولُ: قرأنا (حم) الدخان.

ونقول: قرأنا (حم) المؤمن.

ويقولُ النبيُّ ﷺ: «**من قرأ آيةَ الكرسي وفاتحةَ حم المؤمنِ، لم يرَ شيئًا يكرهُهُ**»[1].

والقرائنُ التي يقـرنُ بينهنَّ رسولُ اللَّهِ ﷺ ثماني عشـرةَ سورة من المفصلِ وسورتينِ مِنْ آلِ حم.

يقالُ: إنما نزلَ أولُ مـا نزلَ منه (أي من القرآنِ الكريمِ) سـورة من المفصلِ فيها ذكرُ الجنةِ والنارِ.

ويقولُ صحابي من أصحابِ النبيِّ ﷺ: قرأتُ سبح اسمَ ربِّك الأعلى في سورٍ من المفصلِ.

قال رجلٌ: قرأتُ المفصلَ البارحةَ كلَّه.

وقال بعضهم: إنه لا يَرى السجودَ في المفصلِ.

وسجدَ الرسولُ ﷺ إحدى عشرةَ سجدةً ليسَ فيها من المفصلِ شيءٌ[2].

وكان الرسولُ ﷺ لا يسـجدُ في شيءٍ من المفـصلِ منذُ تحـوَّل إلى المدينةِ (هاجرَ إلى المدينة) فليس في المفصلِ سجدةٌ.

كـان النبيُّ ﷺ يقـرأُ في العشـاءِ بسورٍ مـن أوساط المفـصلِ نحوِ سـورةِ المنافقينِ، وحزب المفصلِ من قافٍ، حتى يختم.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٧٩)، والدارمي في «سننه» (٢/ ٤٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٠٥٦) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه.

كان النبيُّ ﷺ يقرأ المسبحاتِ كلَّ ليلةٍ قبلَ أن يرقدَ ويقولُ: «فيهنَّ آيةٌ خيرٌ منْ ألفِ آيةٍ»[١] .

وأوصى النبيُّ ﷺ رجلاً إذا أتى مضجعَهَ أن يقرأ سورةَ الحشرِ، وقال: «إنْ متَّ متَّ شهيدًا».

وقال الرسولُ ﷺ: «من قرأ حين يصبحُ ثلاثَ آياتٍ، من آخرِ سورةِ الحشرِ وكَّلَ اللَّهُ به سبعينَ ألفَ ملكٍ يصلُّون عليه حتَّى يُمسي وإن ماتَ في ذلك اليومِ ماتَ شهيدًا، ومن قالَها حين يُمسي كانَ بتلكَ المنزلةِ»[٢] .

وقالَ: «من قرأ خواتيمَ الحشرِ في ليلٍ أو نهارٍ فماتَ في يومِهِ أو ليلتِهِ، فقدْ أوجبَ اللَّهُ له الجنةَ».

قال ﷺ: «من قرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ عدلتْ له بنصفِ القرآنِ»[٣] .

وقالَ: «﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾ تعْدلُ بنصفِ القرآنِ، و ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ تعدلُ بنصفِ القرآنِ»[٤] .

ويقال: إنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قرأ يومَ الجمعةِ تباركَ وهم قائمٌ[٥] .

وقيل: كان رسولُ اللَّهِ ﷺ في ليلةِ الجمعةِ يقرأ في الركعةِ الرابعةِ بفاتحةِ الكتابِ وتبارك المفصلِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/١٢٨)، وأبو داود (٥٠٥٧)، والترمذي (٢٩٢١) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه وقد تقدم.

(٢) أخرجه أحمد (٥/٢٦)، الترمذي (٢٩٢٢) من حديث معقل بن يسار وقد تقدم.

(٣) أخرجه الترمذي (٢٨٩٣) من حديث أنس بن مالك، و(٢٨٩٤) من حديث عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه أبو عبيد في «فضائل القرآن» عن الحسن مرسلاً (ص٢٦٣).

(٥) أخرجه ابن ماجه (١١١١) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

قال ﷺ: «إنَّ اللَّهَ لَيسمعُ قراءةَ ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيقول: أبشر عبدي، لأمكنَنَّ لكَ في الجنةِ حتى ترضَى»(١).

قال ﷺ: «﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ربع القرآن»(٢).

وقال: «﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ تعدل ربع القرآن»(٣).

وقال: «اقرأ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ثم نم على خاتمتِها، فإنها براءةٌ من الشركِ»(٤).

وقال: «ألا أدلكم على كلمة تنجيكُم من الإشراكِ باللَّهِ؟ تقرءون ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ عند منامكُم».

وقال ﷺ لعقبةَ بن عامرٍ: «ألا أُعلمُكَ سوراً، ما أُنزل في التوراة ولا في الزبورِ ولا في الإنجيلِ ولا في الفرقانِ مثلُها؟» قلتُ: بلى، قال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾»(٥).

وقال لعقبةَ بن عامرٍ أيضًا: «ألا أخبرُكَ بأفضلَ ما تعوَّذَ به المتعوذونَ؟» قال: بلى، قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾»(٦).

وقالَ: «اقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، والمعوذتين حين تمسي وحين تصبحُ ثلاثَ مراتٍ

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١/ ٣٥٠ ـ ٣٥١) من حديث إسماعيل ابن أبي حكيم المدني الصحابي.
وقال: وهو عندي اسناد منقطع لم يذكر أحد الأئمة إسماعيل في الصحابة.

(٢ ـ ٣) أخرجهما الترمذي (٢٨٩٣ ـ ٢٨٩٤) من حديث أنس رضي الله عنه وحديث عبد اللّه بن عباس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٤٥٦)، وأبو داود (٥٠٥٥)، والترمذي (٣٤٠٣) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٠١ ـ ٨٠٢) من حديث نوفل الأشجعي رضي الله عنه.

(٥) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٨) (٥/ ٢٥٩)، والترمذي (٣٤٠٦) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

(٦) أخرجه النسائي (٨/ ٢٥٣) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه.

تكفيكَ من كلِّ شيءٍ»(١) .

وقال: **«من قرأ بعدَ صلاةِ الجمعةِ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ سبعَ مراتٍ أعاذَهُ اللَّهُ من السوءِ إلى الجمعةِ الأُخرى»**.

كان أسيدُ بنُ حُضيرٍ يقرأ من الليلِ سورةَ البقرةِ، وفرسُهُ مربوطٌ عندَهُ إذْ جالتِ الفرسُ فسكتَ، فسكتتْ فقرأ فجالتِ الفرسُ، فسكتَ، وسكتت الفرسُ، ثم قرأ فجالتِ الفرسُ فانصرفَ، وكان ابنُه يحيى قريبًا منها فأشفق أنْ تصيبَه، فلمَّا اجتره رفعَ رأسهَ إلى السماءِ حتَّى ما يراها، فلمَّا أصبح حدث النبيَّ ﷺ: فقال: **«اقرأ يا ابن حُضيرٍ، اقرأ يا ابن حُضيرٍ»** قال: فأشفقتُ يا رسول اللَّه أن تطأ يحيى وكان منها قريبًا، فرفعتُ رأسي فانصرفتُ إليه، فرفعتُ رأسي إلى السماءِ، فإذا مثل الظلةِ، فيها أمثالُ المصابيحِ، فخرجتُ حتى لا أراها، قال: وتدري ما ذاك؟ قال: لا، قال: **«تلك الملائكةُ دنَتْ لصوتِك ولو قرأتَ لأصبحتْ ينظرُ الناسُ إليها لا تتوارَى منهم»**(٢) .

دخل عبدُ العزيزِ بنُ رفيعٍ وشدادُ بنُ معقلٍ على ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما فقال له شدادُ بنُ معقلٍ: أتَرَكَ النبيُّ ﷺ منْ شيءٍ؟ قال: ما تركَ إلا ما بين الدفتين.

ودخل عبدُ العزيز بنُ رفيعٍ وشدادُ بن معقلٍ على محمدِ بنِ الحنفيةِ فسألاه فقال: ما ترك إلا ما بين الدفتين(٣) .

قال رسولُ اللَّه ﷺ: **«مثلُ الذي يقرأُ القرآنَ كالأترجةِ طَعْمُها طيبٌ وريحُها طيبٌ، والذي لا يقرأُ القرآنَ كالتمرةِ طعمُها طيبٌ ولا ريحَ لها، ومثلُ الفاجرِ الذي يقرأُ**

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٨٢)، والترمذي (٣٥٧٥)، والنسائي (٨/ ٢٥٠).
(٢) أخرجه مسلم (٢/ ١٩٤) من حديث أسيد بن حضير رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٢٣٤).

القرآنَ كمثلِ الرَّيحانة ريحُهَا طيبٌ وطعْمُهـا مرٌّ، ومثلُ الفاجرِ الذي لا يقرأ القرآنَ كمثلِ الحنظلة طعْمُها مُرٌّ ولا ريحَ لها»[١] .

ويقولُ ابنُ عمرَ رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: «إنما أجلُكُم في أجلِ من خلا من الأممِ كما بين صلاةِ العـصرِ ومغربِ الشمسِ، ومثلُكُم ومثلُ اليهـودِ والنصارى، كمثلِ رجلٍ استعـملَ عمالاً فقال: من يعـملُ لي إلى نصفِ النهارِ على قيراطٍ قيـراطٍ؟ فعملتِ اليهـودُ فقـال: من يعمل لي من نصفِ النهـارِ إلى العصـرِ؟ فعملت النصـارى، ثم أنتم تعملونَ من العـصرِ إلى المغـربِ بقيراطينِ قـيراطينِ» قالوا: نحنُ أكثـرُ عملاً وأقلُّ عطاءً، قال: «هل ظلمتُكم من حقِّكم؟ قالوا: لا ، قال: فذاكَ فضْلِي أوتيه من شئتُ».

وسـألَ طلحـةُ عـبدَ اللَّهِ بـنَ أبي أوفى: أأوصى النبيُّ ﷺ؟ فقـال: لا ، فقلتُ: كيف كـتبَ على الناسِ الوصيةَ، أُمِروا بـها ولـم يوصِ؟ قال: أوصَى بكتابِ اللَّه[٢] .

قال تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ..﴾[العنكبوت:٥١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «لم يأذن اللَّهُ لشيءٍ مـا أذِنَ لنبيٍّ أن يتغنَّى بالقرآنِ» وقالَ صاحبٌ له: يريدُ يجهرُ به[٣] .

وقال أبو هريـرة: إن رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «مـا أذِنَ اللَّهُ لشيءٍ مـا أذِنَ لنبيٍّ أن يتغنى بالقرآنِ».

(١) أخـرجه البـخـاري (٦/ ٢٣٤ ـ ٢٤٤) (٩/ ١٩٨)، ومسلم (٢/ ١٩٤) مـن حديث أبي مـوسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ٣) (٦/ ١٨ ـ ٢٣٥)، ومسلم (٥/ ٧٤).

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦) (٩/ ١٧٣ ـ ١٩٣)، ومسلم (٢/ ١١٩).

وقال سفيانُ: تفسيرُه يستْغنِي به.

وسمعَ عبدُ اللَّهِ بنُ عمرَ ﷺ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «**لا حسدَ إلا على اثنتينِ: رجلٌ آتاهُ اللَّهُ الكتابَ وقامَ به آناءَ الليلِ، ورجلٌ أعطاه اللَّهُ مالاً فهو يتصدَّقُ به آناءَ الليلِ والنَّهارِ**»(١).

وقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**لا حسدَ إلا في اثنتينِ: رجلٌ علَّمه اللَّهُ القرآنَ فهو يتلوهُ آناءَ الليلِ وآناءَ النهارِ، فسمعَهُ جارٌ له، فقال: ليتني أوتيتُ مثلَ ما أوتي فلانٌ، فعملتُ مثلَ ما يعملُ، ورجلٌ آتاهُ اللَّهُ مالاً فهو يهلكُه في الحقِّ، فقال رجلٌ: ليتني أوتيتُ مثلَ ما أوتي فلانٌ فعملتُ مثلَ ما يعملُ**»(٢).

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**خيرُكُم من تعلَّم القرآن وعلَّمَهُ**» وقيلَ: إنَّ أبا عبدِ الرحمنِ أقرأ في إمرةِ عثمانَ بن عفَّانَ حتَّى كان الحجّاجُ، قال: وذاك الذي أقعدَني مقْعدي هذا.

وقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**أفضلكُم من تعلَّم القرآنَ وعلَّمَهُ**»(٣).

وأتتِ امرأةٌ النبيَّ ﷺ فقالتْ: إنَّها قدْ وهبتْ نفسَهَا للَّه ولرسولِه ﷺ فقال: «**ما لي في النساء من حاجة**»، فقال رجلٌ: زوِّجنيها، قال: «**أعطِهَا ثوبًا**» قال: لا أجدُ، قال: «**أعْطِها ولو خاتمًا من حديد**»، فاعتلَّ له فقال: «**ما معك من القرآنِ؟**» قال: كذا وكذا، قال: «**فقد زوجتُكَها بما معك من القرآنِ**»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٣٦) (٩/ ١٨٩)، ومسلم (٢/ ٢٠١)

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٢٣٦) (٩/ ١٠٤ ـ ١٨٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٢٣٦) من حديث عثمان بن عفان ﷺ.

(٤) أخرجه البخاري (٣/ ١٣٢) (٦/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧) (٧/ ٨ ـ ١٧ ـ ١٩ ـ ٢١ ـ ٢٢ ـ ٢٤ ـ ٢٦ ـ ٢٠١) (٩/ ١٥١)، ومسلم (٤/ ١٤٣) من حديث سهل بن سعد ﷺ.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل:٩٨].

وقال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٩].

وقال: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر:١٥-١٨].

وقال: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق:٤٥].

وقال: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾[ق:١-٤].

وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد:٢٤].

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾[الأحقاف:٢٩].

﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[الزخرف:٣١].

﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ [ص:١، ٢].

واعلمْ أنَّ اللَّه تعالى صرَّفَ في هذا القرآنِ ليذَّكَّروا، ولكن ما زادَهُم إلا نفُورًا وجُحودًا ففي قلوبِهم أقفالٌ مغلقةٌ، وإذا قرأ محمدٌ ﷺ القرآن جعلَ اللَّهُ تعالى بينه وبين الذين لا يؤمنونَ بالآخرةِ حجابًا مستورًا، ولتقمِ الصلاةَ لدلوك الشمس إلى غسقِ الليل وقرآنَ الفجرِ، ما أروعَهُ! إن قرآنَ الفجرِ كان مشهودًا.

وأنزلَ اللَّهُ من القرآنِ ما فيه شفاءٌ ورحمةٌ للمؤمنينَ، ولئن اجتمعتِ الإنسُ

والجنُّ على أنْ يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلِهِ ولعجزُوا عجْزًا أبديا.

وصرَّفه اللَّهُ للناسِ، صرفَ القرآنَ من كُلِّ مثل. ولكنْ ما أنزلَهُ اللَّه ليشقى أحدٌ من الناسِ، ويطلبُ ربُّ العزة من محمدٍ ﷺ ألا يعْجلَ به من قبلِ أن يُقضى إليه وحيُه بإذنه تعالى ـ جلَّ شأنُه ـ.

ويقولُ الرسولُ: ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان: ٣٠] ويطمئنه اللَّهُ فعلى محمدٍ ﷺ ألا يخافَ ولا يحزنَ فهم يقولونَ: لولا نزل عليه القرآنُ جملةً واحدةً؟ وهم لا يعرفونَ أن تلك الآياتِ حكيمةٌ من لدنْ حكيمٍ عليمٍ، وكلامُهُم غثاءٌ أحْوى. القرآنُ الذي يقصُّ على بني إسرائيل أكثرَ الذي هم في يختلفونَ دائمًا، ولقد أُمرتَ يا محمدُ أن تكونَ من المسلمينَ تاليًا للقرآنِ والذي فرضَهُ عليك لرادُّك إلى معادٍ. في هذا القرآنِ ضربَ اللَّه للناسِ كلَّ الأمثالِ لعلَّهم يتفكرونَ ويعقلونَ. والذين كفرَوا قالُوا: إنَّهم لن يؤمنوا بهذا القرآنَ ولا بالذي بين يديه، بئس قولُهم، فالقرآنُ حكيمٌ، ومحمدُ ابنُ عبدِ اللَّه لا ريبَ من المرسلينَ، ما علَّمه اللَّهُ الشعْرَ وما ينبغي له، إن هوَ إلا ذكرٌ وقرآنٌ مبين. القرآنُ ذو الذكر ولكنَّ الذين كفروا في عزةٍ مزعومةٍ وشقاقٍ. القرآنُ يسره اللَّه للذكرِ فهلْ من مدَّكرٍ، ولنذكر ثمودَ وقومَ لوطٍ وآل فرعونَ إذ جاءهم النذرُ.

فالرحمنُ علَّم القرآنَ، فهو قرانٌ كريمٌ في كتابٍ مكنونٍ لو أنزله اللَّهُ على جبلٍ لرأيناه خاشعًا متصدِّعًا، أقبلْ عليه يا محمدُ ورتِّلْه ترتيلاً.

واقرءوا في السرِ والجهرِ ما تيسرَ منه. وهو قرآنٌ مجيدٌ، في لوحٍ محفوظٍ، فد نزَّله اللَّه تنزيلاً، ولكنْ ما عسَاهم لا يسجدونَ إذا قُرِئَ عليهم القرآنُ؟ إنه

قرآن عـربيٌ مبـينٌ لعلنا نعقلُ، ولو أنَّ قـرآنًا سيـرتْ به الجبـالُ أو قُطِّعَتْ به الأرضُ أو كلِّم به الموتَى بل للَّهِ سبحانه الأمرُ جـميعًا أفلم يعرفِ الذين آمنُوا أن لو يشاءُ اللَّهُ لهدى الناسَ جميعًا؟ ولا يزالُ الذين كـفرُوا وجحدُوا تصيبُهم بما صنعُوا قارعةٌ، أو تحلُّ قريبًـا من دارهم حتَّى يأتي وعدُ اللَّهِ المحتومُ، واللَّهُ لا يخلفُ الميعادَ.

ولقد اسـتهزِئَ برسـلٍ من قبل محـمدٍ ﷺ فـأملى اللَّهُ للذين كفـروا ثم أخذتْهم الصيحةُ، فانظرْ كيفَ كان عقاب اللَّه لهم جزاء فعْلِهِم ونُكرانِهِم.

لقد أنزلَهُ اللَّهُ على رسولِهِ محمدٍ ﷺ على مُكْث فرَّقَهُ، ليقْرأه محمدٌ على الناسِ على مُكْثٍ أيضًا في هدوءٍ ودرسٍ وتؤدةٍ كي تعم الفائدةُ.

وكذلك أنزلَهُ اللَّهُ قرآنًا عربيًا لقومٍ يعلمـونَ، ولو جعلَهُ اللَّهُ قرآنًا أعجميًا، لقالُوا: لولا فُـصِّلَتْ آياتُه، أعجميٌّ وعـربيٌّ، قل لهم يا محـمد: هو للذين آمنوا هُدًى وشفاءٌ والذين لا يؤمنونَ في آذانِهِم وقـرٌ وهو عليهم عمًى أولئك يُنادَوْن من مكانٍ بعيدٍ ومَنْ عملَ صالحًا فلنفسِهِ، ومن أساء فعليها، وما ربُّك بظلام للعبيدِ.

لقد أوحينا إليك يا محـمدُ قرآنًا عربيًا لتنذرَ أمَّ القرى، جـعلْناه قرآنًا عربيا لعلنا نعقلُ. نعقلُ هذا العجبَ الذي سمعنَاه، وعلينا جمعهُ وقرآنهُ وإذا قرأناه فلنتَّبِعْهُ ونعملْ في دنيانا كي ننالَ الجزاءَ الأوفى في أُخْرَانا.

قال رسـولُ اللَّهِ ﷺ: «**من قرأ حـرفًا من كـتابِ اللَّه فله حسنةٌ: والحسنةُ بعشرِ أمثالِها، لا أقول آلم حرفٌ، ولكن ألفٌ: حرفٌ، ولامٌ: حرفٌ، وميمٌ: حرفٌ**»(١).

(١) أخرجه الترمذي (٢٩١٠) من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

وعن عقبةَ بنِ عامرٍ رضي الله عنه، قال: خرج رسولُ اللَّهِ ﷺ ونحن في الصُّفَّة فقال: «أيكم يحبُّ أن يغدوَ كلَّ يومٍ إلى بُطحانَ، أو إلى العقيق فيأتيَ منه بناقتين كوماوين في غيرِ إثمٍ ولا قطعِ رَحِم؟». فقلنا: يا رسولَ اللَّه، نُحبُّ ذلك، قال: «أفلا يغدو أحدُكُم إلى المسجدِ فيعلمَ أو يقرأ آيتينِ من كتابِ اللَّه عزَّ وجلَّ خيرٌ له من ناقتين، وثلاثٌ خيرٌ من ثلاثٍ وأربعٌ خيرٌ له من أربعٍ ومن أعدادهنِّ مِنَ الإبلِ»[(١)] .

عن أبي أُمامة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «اقرءوا القرآنَ فإنه يأتي يومَ القيامةِ شفيعًا لأصحابِه»[(٢)] .

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤتَى يومَ القيامةِ بالقرآنِ وأهله الذينَ كانُوا يعملونَ به في الدُّنيا تقدَّمُه سورةُ البقرةِ وآلُ عمرانَ، تحاجَّانِ عن صاحبِهما»[(٣)] .

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «خيرُكُم من تعلَّم القرآنَ وعلَّمَهُ»[(٤)] .

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «الذي يقرأ القرآنَ وهو ماهرٌ به مع السفرةِ الكرامِ البررةِ، والذي يقرأ القرآنَ ويتتعتعُ فيه وهوَ عليه شاقٌ له أجرانِ»[(٥)] .

وقال ﷺ: «إنَّ اللَّه يرفعُ بهذا الكتابِ أقوامًا ويضعُ به آخرينَ»[(٦)] .

وقال ﷺ: «إنَّ الذي ليسَ في جوفِهِ شيءٌ من القرآن كالبيت الخربِ»[(٧)] .

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ١٩٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ١٩٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢/ ١٩٧) من حديث النَّواس بن سمعان رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٦/ ٢٣٦) من حديث عثمان بن عفان وقد تقدم.

(٥) أخرجه البخاري (٦/ ٢٠٦)، ومسلم (٢/ ١٩٥) من حديث عائشة رضي الله عنها وقد تقدم

(٦) أخرجه مسلم (٢/ ٢٠١) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٧) آخرجه أحمد (١/ ٢٢٣)، والترمذي (٢٩١٣) من حديث عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنه

وقال عليه الصلاةُ والسلامُ: «**يقالُ لصاحبِ القرآنِ: اقـرأْ وارتقِ ورتِّلْ كما كنتَ ترتِّلُ في الدنيا، فإنَّ منزلتَكَ عندَ آخرِ آيةٍ تقرؤها**»[١] .

قال النبيُّ عليه الصلاةُ والسلامُ: «**تعاهدُوا هذا القرآنَ فوالذي نفسُ محمدٍ بيده لهو أشدُّ تفلُّتًا من الإبلِ في عُقُلِها**»[٢] .

وقالَ: «**إنما مثلُ صاحبِ القـرآنِ كمثلِ الإبلِ المعقَّلة، إن عاهدَ عليهـا، أمْسكَها، وإنْ أطْلقَها، ذهبتْ**»[٣] .

وقالَ: «**ما أذَنَ اللَّهُ لشيءٍ ما أذِنَ لنبيٍّ حسنِ الصوتِ يتغَنَّى بالقرآنِ يجهرُ به**»[٤] .

قال ﷺ: «**لقد أُوتيتَ مِزماراً منْ مزاميرِ آلِ داودَ**»[٥] .

ويقول البـراءُ بن عازبٍ رضي الله عنهما: سـمعتُ النبيَّ ﷺ قرأ في العـشاء بالتين والزيتون ، فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا منه[٦] .

وقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**من لم يتغنَّ بالقرآنِ فليس منَّا**»[٧] .

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ لابنِ مسـعودٍ: «**اقرأْ علـيَّ القرآنَ**» قال ابنُ مسـعودٍ: يا رسولَ اللَّه، أقرأ عليك وعليكَ أُنزِلَ؟ قال: «**إني أحبُّ أنْ أسمعَهُ من غيرِي**».

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ١٩٢)، والترمـذي (٢٩١٤)، والنسائي في «فضائل القرآن» (٨١) من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٢٣٨)، ومسلم (٢/ ١٩٢) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٢٣٧)، ومسلم (٢/ ١٩٠) من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري (٦/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦) (٩/ ١٧٣ ـ ١٩٣)، ومسلم (٢/ ١١٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقد تقدم.

(٥) أخرجه البخاري (٦/ ٢٤١)، ومسلم (٢/ ١٩٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٦) أخرجه البخاري (١/ ١٩٤)، ومسلم (٢/ ٤١).

(٧) أخرجه البخاري (٩/ ١٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فقرأ ابنُ مسعودٍ عليه سورةَ النساءِ حتَّى جاء إلى هذه الآية: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلاءِ شَهِيداً ﴾ [النساء: ٤١].

قال الرسولُ: «حسبُكَ الآنَ» فالتفت إليه ابنُ مسعودٍ، فإذا عيناهُ تذرِفَانِ[١].

ويقولُ رسولُ اللَّه ﷺ لأبي سعيدٍ رافع بنِ المعلَّى رضي الله عنه: «إنَّ أعظمَ سورةً في القرآنِ هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُه»[٢].

ويقولُ: «قل هو الله أحد، تعدلُ ثلثُ القرآنِ»[٣].

ويقولُ: «قل هو الله أحد، الله الصمد: ثلثُ القرآن».

ويقولُ: «والذي نفسي بيدِهِ، إنها لتعدلُ ثلثَ القرآن».

ويقولُ: «إنها تعدلُ ثلثَ القرآنِ».

ويقولُ: «إنَّ حبَّها أدخلك الجنة»[٤].

ويقولُ رسولُ اللَّه لعقبة بن عامرٍ رضي الله عنه: «ألم ترَ آياتٍ أُنزلتْ هذه الليلةَ لم يُرَ مثلُهنَّ قط؟ قلْ أعوذُ برب الفلق، وقل أعوذ برب الناس»[٥].

وكان رسولُ اللَّهِ ﷺ يتعوَّذُ من الجانِّ، وعينِ الإنسانِ، حتَّى نزلتِ المعوِّذتانِ، فلما نزلَتَا أخذ بهما وتركَ ما سواهُمَا[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٥٧ ـ ٢٤١ ـ ٢٤٣)، ومسلم (٢/ ١٦٥) من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٢٠ ـ ١٠١ ـ ٢٣٠) وقد تقدم، من حدث أبو سعيد بن المعلى رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٢٣٣) من حديث أبي سعيدالخدري رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذي (٢٩٠١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) أخرجه مسلم (٢/ ٢٠٠) من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه، وقد تقدم.

(٦) أخرجه الترمذي (٢٠٥٨)، والنسائي (٨/ ٢٧١) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقد تقدم.

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «من القرآنِ سورةٌ ثلاثونَ آيةً شفعتْ لرجلٍ حتَّى غُفر له، وهي تبارك الذي بيده الملك»(١).

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «لا تجعلُوا بيوتَكم مقابِرَ، إنَّ الشيطانَ ينفرُ من البيتِ الذي تُقرأ فيه سورةُ البقرةِ»(٢).

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ لأُبي بنِ كعبٍ رضي الله عنه: «يا أبا المنذرِ أتدْرى أيَّ آيةٍ منْ كتابِ اللَّه معكَ أعظمُ؟» قلتُ: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥] فضربَ في صدْرى وقال: «ليهنك العلمُ أبا المنذرِ»(٣).

وفي الأثر أن الرسولَ ﷺ كان يعلِّم أبا هريرة رضي الله عنه أن يقرأ آيةَ الكرسي من أوَّلها إلى آخرِها إذا أوى إلى فراشِهِ، وبها لن يقربَهُ شيطانٌ حتى يصبح ويكون اللَّه حافظًا له.

ويقولُ الرسولُ ﷺ: «من حفظَ عشرَ آياتٍ من أوَّلِ سورةِ الكهفِ، عُصِمَ من الدَّجالِ»(٤).

وفي روايةٍ: «منْ آخرِ سورةِ الكهفِ».

ويقولُ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: بينما جبريلُ ـ عليه السلام ـ قاعدٌ عند النبيِّ ﷺ سمعَ نقيضًا من فوقِهِ، فرفع رأسَهُ فقال: هذا بابٌ من السماءِ فُتح اليومَ، ولم يُفتح قط إلا اليومُ، فنزلَ منه ملكٌ، فقال: هذا ملكٌ نزل إلى الأرضِ لم

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٩ ـ ٣٢١)، وأبو داود (١٤٠٠)، والترمذي (٢٨٩١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقد تقدم.

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ١٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٢/ ١٩٩) من حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم (٢/ ١٩٩) من حديث أبي الدرداء، وقد تقدم.

ينزلْ قط إلا اليومَ، فسلَّم، وقال: أبشرْ بنورينِ أُوتيتَهما، لم يُؤْتَهما نبيٌّ قبلك: فاتحةُ الكتابِ، وخواتيمُ سورةِ البقرة، لن تقرأ بحرفٍ منها إلا أُعطيته[(١)] .

قال ﷺ : **«وما اجتمعَ قومٌ في بيت من بيوتِ اللَّه يتلونَ كتابَ اللَّه، ويتدارسُونَه بينهم إلا نزلتْ عليهم السكينةُ، وغشيتْهُمُ الرحمةُ، وحفتْهُمُ الملائكةُ، وذكرَهُمُ اللَّه فيمن عندَه»**[(٢)] .

كان جبريلُ يعرضُ القرآنَ على النبيِّ ﷺ، عن فاطمة ـ عليها السلام ـ : فقد أسرَّ إليَّ النبيُّ ﷺ : **«أن جبريل يعارِضُني بالقرآنِ كلَّ سنة، وإنَّه عارضني العامَ مرتينِ ولا أراهُ إلا حضرَ أجلي»**[(٣)] .

وكان النبيُّ ﷺ أجودَ الناسِ بالخيرِ، وأجودَ ما يكونُ في شهرِ رمضانَ، لأنَّ جبريلَ كان يلقاهُ كلَّ ليلةٍ في شهرِ رمضانَ حتى ينسلخَ، يعرضُ عليه رسولُ اللَّه ﷺ القرآنَ فإذا لقيهُ جبريلُ كان أجودَ بالخير من الرِّيحِ المرسلةِ[(٤)] .

وكان القرآنُ يُعرضُ على النبيِّ ﷺ مرتين في العامِ الذي قُبضَ وكان يعتكفُ كلَّ عامٍ عشراً فاعتكفَ عشرينَ في العامِ الذي قُبضَ.

يقولُ الرسول ﷺ : **«خذوا القرآنَ من أربعةٍ: من عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ، وسالمٍ، ومعاذٍ، وأُبيِّ بنِ كعبٍ»**[(٥)] .

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ١٩٨).

(٢) أخرجه مسلم (٨/ ٧٢) من حديث أبي هريرة وأبي سعيد الخدري رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري (٤/ ٢٤٧) (٨/ ٧٩)، ومسلم (٧/ ١٤٢ ـ ١٤٣).

(٤) أخرجه البخاري (١/ ٤) (٣/ ٣٣) (٤/ ١٣٧ ـ ٢٢٩)، ومسلم (٧/ ٧٣) من حديث عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه البخاري (٥/ ٣٤ ـ ٤٥) (٦/ ٢٢٩) ومسلم (٧/ ١٤٩) من حديث عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما.

وخطب عبدُ اللَّه بنُ مسعودٍ بعضَ الصحابةِ قائلاً: واللَّه لقد أخذتُ من فيِّ رسولِ اللَّه عليه الصلاةُ والسلامُ بضعًا وسبعينَ سورةً، واللَّه لقد علمَ أصحابُ النبيِّ ﷺ أنِّي من أعلمِهم بكتابِ اللَّهِ. وما أنا بخيرِهم.

ويقولُ شقيقُ بنُ سلمةَ الذي كان من حضورِ هذه الخطبةِ: فجلستُ في الحلقِ، أسمعُ ما يقولونَ: فما سمعتُ رادًّا يقولُ غيرَ ذلك[1].

ويحكي إبراهيمُ عن علقمةَ أنهم كانوا بحمْص، فقرأ ابنُ مسعودٍ سورةَ يوسفَ، فقالَ رجلٌ: ما هكذا أنزلتْ قال: قرأتُ على رسولِ اللَّه ﷺ فقالَ: «**أحسنتَ**» ووجدَ منه ريحَ الخمرِ، فقال: أتجمعُ أن تكذبَ بكتابِ اللَّه وتشربَ الخمرَ؟ فضربَهُ الحدَّ[2].

يقولُ عبدُ اللَّهِ بنُ مسعودٍ رضي الله عنه: واللَّه الذي لا إله غيرُه ما أُنزلتْ سورةٌ منْ كتابِ اللَّه إلا أنا أعلمُ أينَ أُنزلتْ؟ ولا نزلتْ آيةٌ من كتابِ اللَّه إلا أنا أعلم فيم أنزلت؟ ولو أعلمُ أحدًا أعلمُ مِنِّي بكتابِ اللَّه تبلُغهُ الإبلُ لركبتُ إليه[3].

قال أبو سعيدٍ بن المعلَّى: إنَّه كانَ يصلِّي فدعاهُ النبيُّ ﷺ فلم يجبْهُ، قالَ: يا رسولَ اللَّه إنِّي كنتُ أصلِّي، قال: «**ألم يَقُلِ اللَّهُ: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾** [الأنفال:٢٤]؟» ثمَّ قال: «**ألا أعلمُكَ أعظمَ سورةٍ في القرآنِ، قبلَ أنْ تخرجَ من المسجدِ**» فأخذَ الرسولُ بيدِ ابنِ المعلَّى، فلمَّا أرادُوا الخروجَ قال: يا رسولَ

(١) أخرجه البخاري (٢٢٩١٦)، ومسلم (١٤٨/٧) من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٢٣٠)، ومسلم (١٩٦/٢).
(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٢٣٠)، ومسلم (١٤٨/٧).

اللَّه، إنَّك قلتَ: لأعلمنَّك أعظمَ سورةٍ من القرآنِ، قال: «**الحمدُ للَّه ربِّ العالمينَ هي السبعُ المثاني والقرآنُ العظيمُ الذي أوتيتُه**»(١).

قال أبو سعيد الخدري: كنا في مسيرٍ لنا فنزلنا فجاءتْ جاريةٌ فقالتْ: إنَّ سيِّد الحيِّ سليمٌ، وإنَّ نفرنا غيبٌ فهلْ منكم راقٍ؟ فقامَ معها رجلٌ ما كنَّا نأبنُهُ برقيةٍ فرقاه، فبرأَ، فأمر له بثلاثينَ شاة وسقانا لبنًا، فلمَّا رجع قلْنا له: أكنتَ تحسنُ رقيةً؟ أو كنتَ ترقي؟ قال: لا ما رقيتُ إلا بأمِّ الكتابِ، قلْنا: لا تُحدِثُوا شيئًا حتى نأتيَ أو نسألَ النبيَّ ﷺ، فلما قدمنا المدينةَ ذكرناهُ للنبيِّ ﷺ فقال: «**و ما كان يُدْرِيه أنَّها رقيةٌ؟ اقسمُوا واضربُوا لي بسهمٍ**»(٢).

قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**من قرأ بالآيتينِ من آخرِ سورةِ البقرةِ في ليلةٍ كفتاهُ**»(٣).

وقال أبو هريرة: وكَّلني رسولُ اللَّهِ ﷺ بحفظِ زكاةِ رمضانَ، فأتاني آتٍ، فجعلَ يحثو من الطعامِ، فأخذتُهُ فقلتُ: لأرفعنَّك إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ فقصَّ الحديثَ، فقال: «**إذا أويتَ إلى فراشكَ فاقرأ آيةَ الكرسي، لن يزالَ معك من اللَّه حافظٌ ولا يقربُك شيطانٌ حتى تصبحَ**»، وقال النبيُّ ﷺ: «**صدقك وهو كذوبٌ، ذاك شيطانٌ**»(٤).

كان رجلٌ يقرأ سورةَ الكهفِ، وإلى جانبِه حصانٌ مربوطٌ بشطنينِ، فتغشتْه سحابةٌ جعلتْ تدنُو وتدنُو وجعلَ فرسُهُ ينفرُ فلما أصبحَ أتى النبيَّ ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٠ - ١٠١ - ٢٣٠) وقد تقدم.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٢٣١)، ومسلم (٧/ ٢٠).

(٣) أخرجه البخاري (٥/ ١٠٧) (٦/ ٢٣١ - ٢٣٩ - ٢٤٢)، ومسلم (٢/ ١٩٨) من حديث أبي مسعود الأنصاري، وقد تقدم.

(٤) أخرجه البخاري تعليقًا (١٣٢١٣) وهو عند النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٥٩)، وابن خزيمة في «صحيحه» (٢٤٢٤).

فذكر ذلك فقال: **«تلك السكينة تنزَّلتْ بالقرآنِ»**(١) .

كان رسولُ اللَّه ﷺ يسيرُ وعمرُ بنُ الخطابِ يسيرُ معه ليلاً، فسأله عمرُ عن شيءٍ فلم يجبْه رسولُ اللَّه ﷺ، ثم سألُه فلم يجبْه، ثم سأله فلم يجبْه، قال عمرُ لنفسه: ثكلتْك أمُّكَ، نزرتَ رسولَ اللَّه ﷺ ثلاثَ مراتٍ كلَّ ذلك لا يجيبُك، قال عمرُ: فحركتُ بَعيري حتى كنتُ أمامَ الناسِ، وخشيتُ أن ينزلَ فِيَّ قرآنٌ، فما نشبتُ أن سمعتُ صارخًا يصرخُ، قال: فقلتُ: لقد خشيتُ أن يكونَ نزلَ فِيَّ قرآنَ، قال: فجئتُ رسولَ اللَّه ﷺ، فسلَّمتُ عليه، فقال: **«لقد أنزلتْ عليَّ الليلةَ سورةٌ لهي أحبُّ إليَّ مما طلعتْ عليه الشمسُ، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾(٢)»**.

وسمعَ رجلٌ رجلاً يقرأُ: **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾** يردِّدُها، فلما أصبحَ جاء إلى رسولِ اللَّه ﷺ فذكرَ ذلك له وكأنَّ الرجلَ يتقالُّها، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«والذي نفسي بيده إنَّها لتعدلُ ثلثَ القرآنِ»**(٣) .

وقامَ رجلٌ في زمنِ النبيِّ ﷺ يقرأ من السَّحرِ: **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾** لا يزيدُ عليها فلمَّا أصبحَ أتى رجلٌ النبيَّ ﷺ... نحوه.

وقال النبيُّ عليه الصلاةُ و السلامُ لأصحابِهِ: **«أيعجزُ أحدُكم أن يقرأ ثلثَ القرآنِ في ليلة؟»** فشقَّ ذلك عليهم، وقالُوا: أينا يطيقُ ذلك يا رسولَ اللَّه؟ فقال: **«الله الواحدُ الصمد ثلثُ القرآنِ»**(٤) .

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ٢٤٥) (٦/ ٢٣٢) ومسلم (٢/ ١٩٣ ـ ١٩٤) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه

(٢) أخرجه البخاري (٥/ ١٦٠) (٦/ ٢٣٢) من حديث عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه

(٣) أخرجه البخاري (٦/ ٢٣٣) من حديث أبي سعيد الخدري، وقد تقدم

(٤) المصدر السابق.

تقول عـائشة رضي الله عنها: إنَّ رسـولَ اللَّه ﷺ كان إذا اشـتكَى يقرأُ على نفـسِه بالمعوذاتِ، ويـنفثُ، فلمَّا اشـتدَّ وجعُـه كنتُ اقرأُ عليـه وأمسحُ بيـدِهِ رجاء بركَتِها[١] .

وعنها أيضًا: كان رسولُ اللَّهِ ﷺ إذا أوَى إلى فراشِهِ كلَّ ليلةٍ، جمعَ كفَّيه ثمَّ نفثَ فيهما فـقرأ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثمَّ يَمسحُ بهما مـا استطاعَ من جسدِهِ يبـدأُ بهما على رأسِهِ ووجهِهِ وما أقبلَ من جسدِهِ، يفعلُ ذلكَ ثلاثَ مراتٍ[٢] .

* * *

(١) أخرجه البخارى (٦/ ١٣ ـ ٢٣٣) (٧/ ١٧٠ ـ ١٧٣)، ومسلم (٧/ ١٦ ـ ١٧) من حديث عائشة رضي الله عنها .

(٢) أخرجه البخارى (٦/ ٢٣٣) (٧/ ١٧٢) (٨/ ٨٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

سُورَةُ الفَاتِحَة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

[قال البخاري]: حَدَّثَنَا عبدُ اللَّه بن يُوسُف: ثنا مالكٌ، عنْ أبي الزِّناد، عنِ الأعرجِ، عنْ أبي هريرةَ، أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قالَ: «**إذا قالَ أحدكمْ: آمينَ وقالتِ الملائكةُ في السماءِ: آمينَ، فوافقتْ إحْداهمَا الأخْرَى غُفرَ لهُ ما تقدَّمَ منْ ذنبِه**»(1).

وخرَّج مسلمٌ من روايةِ أبي يونسَ، عن أبي هريرةَ، أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: «**إذا قالَ أحدُكُم في الصلاة: آمينَ، والملائكةُ في السماءِ: آمينَ، فوافقَ إحداهمَا الأخرى غُفرَ له ما تقدَّمَ منْ ذنبِه**»(2).

ومن روايةِ سهيلٍ، عن أبيه، عن أبي هريرةَ، أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قال: «**إذا قالَ القارئُ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، فقالَ منْ خلفَهُ: آمينَ. فوافقَ قولُهُ قولَ أهلِ السماءِ، غُفرَ لهُ ما تقدَّمَ منْ ذنبِه**»(3).

---

(1) البخاري (1/198).

(2) مسلم (2/17).

(3) مسلم (2/18).

وروى إسحاقُ بنُ راهويه: حدثنَا جريرٌ: ثنا ليثٌ، عن كعب، عن أبي هريرةَ، قالَ: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: **«إذا قالَ الإمامُ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ فقالَ: آمينَ، فوافقَ آمينُ أهلِ الأرضِ آمينَ أهلِ السماءِ، غفرَ اللَّهُ للعبدِ ما تقدَّمَ منْ ذنبِهِ. ومثلُ من لا يقولُ: آمينَ كمثلِ رجلٍ غزا مع قومٍ فاقترَعُوا، فخرجتْ سهامُهُم ولم يخرجْ سهمُه، فقال: لِمَ لَمْ يخرجْ سَهْمِي؟ فقيل: إنَّكَ لم تقلْ آمينَ»**.

قال أبو هريرةَ: وكانَ الإمامُ إذا قالَ: ﴿وَلا الضَّالِّينَ﴾ جهرَ بآمينَ.

كعبٌ هذا، قالَ أحمدُ: لا أدْري منْ هوَ. وقالَ أبو حاتمٍ: مجهولٌ لا يعرَفُ.

وقد ذكرْنا ـ فيما تقدَّمَ ـ أنَّ الحديثَ على ظاهرِه، وأن الملائكةَ في السماءِ تؤمِّنُ على قراءةِ المصلِّينَ في الأرضِ للفاتحةِ.

وفي «صحيح مسلمٍ» من روايةِ العلاءِ، عن أبيه، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: **«قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: قسمتُ الصلاةَ بيني وبينَ عبدِي نصفَيْنِ، ولعبدي ما سألَ، فإذا قالَ العبدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قالَ اللَّهُ: حمدني عبْدِي، فإذا قالَ: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قالَ اللَّهُ: أثْنَى عليَّ عبدي، فإذا قالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: مجَّدني عبدي ـ وقالَ مرةً: فوَّضَ إليَّ عبدي ـ فإذا قالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قالَ: هذا بيني وبينَ عبدي، ولعبدي ما سألَ: فإذَا قالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ قالَ: هذا لعبدي ولعبدِي ما سألَ»**[1].

فهذا الحديثُ يدلُّ على أنَّ اللَّهَ يَستَمِعُ لقراءةِ المصلِّي حيثُ كان مناجيًا له،

---

(١) مسلم (٢/٩).

ويردُّ عليه جوابَ ما يناجيه به كلمةً كلمةً، فأولُ الفاتحةِ حمدٌ، ثم ثناءٌ، وهو تثنيةُ الحـمدِ وتكريرُهُ، ثم تمجيـدٌ، والثناءُ على اللَّهِ بأوصافِ المجـدِ والكبرياءِ والعظمةِ، ثم ينتقلُ العـبدُ منَ الحمدِ والثناءِ والتمجـيدِ إلى خطابِ الحضورِ، كأنه صلُحَ حيـنئذ للتقريبِ منَ الحضـرةِ فخاطبَ خطابَ الحاضـرينَ، فقال: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾.

وهذه الكلمةُ قدْ قيلَ: إنَّهَا تجمعُ سرَّ الكتبِ المنزلةِ منَ السماءِ كلِّها؛ لأنَّ الخلقَ إنما خُلقُوا ليـؤْمَروا بالعبادةِ، كـما قالَ: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات:٥٦]، وإنما أُرسلتِ الرسلُ وأُنزلتِ الكتبُ لذلكَ، فـالعبادةُ حقُّ اللَّهِ على عـبادِه، ولا قدرةَ للـعبادِ عليـها بدون إعـانة اللَّهِ لهم، فلذلك كـانتْ هذه الكلمةُ بينَ اللَّهِ وبـين عبـدِه؛ لأنَّ العبـادةَ حقُّ اللَّهِ على عبـدِه، والإعانةُ من اللَّهِ فضلٌ من اللَّه على عبْدِه.

وبعد ذلك الدعـاءُ بهدايةِ الصراط المسـتقيمِ؛ صـراطِ المُنْعَم عليهم، وهم الأنبياءُ وأتباعُهم منَ الصديقين والشهداء والصالحين، كما ذكرَ ذلكَ في سورة النساءِ.

فمنِ استقـامَ على هذا الصراطِ حصلَ له سعادةُ الدنيا والآخـرةِ، واستقامَ سيْرُه على الصراطِ يومَ القيامةِ، ومن خـرجَ عنه فهو إما مغضوبٌ عليه، وهو من يعـرفُ طريقَ الهُـدَى ولا يتبعُـه كاليـهود، أو ضـالٌّ عن طريقِ الهُـدَى كالنصارى ونحوِهم منَ المشركين.

فإذا ختم القـارئُ في الصلاة قراءةَ الفاتحةِ، أجابَ اللَّهُ دعـاءَه فقال: «**هذا لعبـدي ولعبدي مـا سألَ**»، وحينئـذٍ تؤمِّنُ الملائكةُ على دعـاءِ المصلِّي، فيـشرعُ

للمصلِّين موافقتُهم في التأمينِ معهم، فالتأمينُ مما يستجابُ به الدعاءُ.

وفي «صحيح مسلمٍ» عن أبي موسى الأشعريِّ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**إذا قالَ الإمامُ: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ﴾ فقُولُوا: آمينَ، يُجِبْكُم اللَّهُ**»(١).

ولما كانَ المأمومُ مأمورًا بالإنصاتِ لقراءةِ الإمامِ، مأمورًا بالتأمينِ على دعائه عندَ فراغِ الفاتحةِ، لم يكنْ عليه قراءةٌ؛ لأنَّه قد أنصتَ للقراءةِ، وأمَّنَ على الدعاءِ فكأنَّهُ دعا؛ كما قالَ كثيرٌ منَ السلَفِ في قولِ اللَّهِ تعالَى لموسى وهارونَ: ﴿**قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا**﴾ [يونس:٨٩]. قالُوا: كانَ موسى يدعُو، وهارونُ يُؤَمِّنُ، فسمَّاهُما داعِيَيْنِ(٢).

* * *

وقولُه ﷺ: «**إذا سألتَ فاسألِ اللَّهَ، وإذا استعنتَ، فاستعنْ باللَّهِ**»، هذا مُنْتَزَعٌ من قولِهِ تعالَى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾، فإنَّ السؤالَ للَّهِ هو دعاؤه والرغبةُ إليهِ، والدُّعاءُ هو العبادةُ، كذا رُوِيَ عنِ النَّبيِّ ﷺ من حديثِ النعمانِ بنِ بشيرٍ، وتلا قولَهُ تعالَى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر:٦٠] خرَّجَهُ الإمامُ أحمدُ، وأبو داودَ، والترمذيُّ، والنسائيُّ، وابنُ ماجه(٣).

وخرَّجَ الترمذيُّ من حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ عنِ النبيِّ ﷺ: «**الدُّعاءُ مُخُّ العبادة**»(٤)، فتضمنَ هذا الكلامُ أن يُسألَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ، ولا يسألَ غيرُه، وأن

---

(١) مسلم (٢/ ١٤ ـ ١٥).

(٢) «فتح الباري» (٤/ ٤٩٨ ـ ٥٠١).

(٣) أحمد (٤/ ٢٦٧ ـ ٢٧١ ـ ٢٧٦)، وأبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٢٤٧)، (٣٣٧٢)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ٤٥٠)، وابن ماجه (٣٨٢٨).

(٤) الترمذي (٣٣٧١).

يُستعانَ باللَّهِ دونَ غيرِه.

فأمـا السؤالُ، فـقد أمـرَ اللَّهُ بمسـألتِه، فـقالَ: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢].

وفي الترمذيِّ[١] عنِ ابنِ مسعودٍ مرفوعًا: «**سَلُوا اللَّهَ منْ فَضـلِهِ، فإنَّ اللَّهَ يُحبُّ أن يُسألَ**».

وفيه - أيضًا - عن أبي هريرةَ مرفُوعًا: «**من لم يسألِ اللَّهَ يغضبْ عليه**»[٢].

وفي حديـثٍ آخرَ: «**ليسـألْ أحدُكُمْ ربَّه حـاجَتَه كلَّهـا حتَّى يسألَهُ شِسْعَ نعلهِ إذا انْقطعَ**»[٣].

وفي النَّهي عن مسألةِ المخلوقينَ أحـاديثُ كثيرةٌ صحيـحةٌ، وقد بايعَ النبيُّ ﷺ جـماعـةً من أصحـابِه على أن لا يسـألُوا النَّاسَ شيـئًـا: منهم أبو بكرٍ الصدِّيقُ، وأبو ذرٍ، وثوبانُ، وكان أحدُهم يسـقطُ سوطُه أو خِطامُ ناقتِه، فلا يسألُ أحدًا أن يُناولَه إيَّاه[٤].

وخرَّج ابنُ أبي الدُّنيـا من حديثِ أبي عـبَيدةَ بن عـبدِ اللَّهِ بنِ مسـعودٍ أنَّ رجلاً جـاءَ إلى النبيِّ ﷺ، فقـالَ: يا رسولَ اللَّهِ، إنَّ بَني فُـلانٍ أغارُوا عليَّ فذهبُوا بابنِي وإبلِي، فقالَ له النبيُّ ﷺ: «**إنَّ آلَ محمَّدٍ كذا وكذا أهلَ بيتٍ. ما لهُم مدٌّ منْ طعامٍ أو صاعٍ، فـاسألِ اللَّهَ عزَّ وجلَّ**»، فرجعَ إلى امرأتِه، فقالتْ: ما قالَ لكَ؟ فأخبرَها، فقالتْ: نِعْمَ ما ردَّ عليكَ، فما لبثَ أن ردَّ اللَّهُ عليه ابنَه وإبلَهُ أوفرَ ما كانتْ، فأتى النبيَّ ﷺ فأخبرَهُ، فصعـدَ المنبرَ فحَمِدَ اللَّهَ وأثنى عليه،

---

(١) الترمذي (٣٥٧١). (٢) الترمذي (٣٣٧٣).

(٣) الترمذي (٣٦٨٢) «تحفة» وابن حبان (٨٦٦) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٣٥٤).

(٤) راجع «صحيح مسلم» (٣/ ٩٧).

وأمرَ الناسَ بمسألة اللَّهِ عزَّ وجلَّ والرغبة إليه، وقرأ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [١] [الطلاق: ٢].

وقد ثبتَ في «الصحيحين»[٢] عنِ النبيِّ ﷺ «إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ ينزلُ كلَّ ليلةٍ إلى سماءِ الدُّنيا حينَ يبْقَى ثلثُ اللَّيْلِ الآخرِ، يقولُ: هلْ من داعٍ، فأستجيبَ لهُ؟ هلْ من سائلٍ فأُعْطِيَهُ؟ هلْ منْ مُستغفرٍ فأغْفِرَ لهُ؟».

وخرَّج المحامليُّ وغيرُهُ من حديثِ أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «قالَ اللَّهُ تعالَى: من ذا الَّذي دعانِي فلمْ أُجِبْهُ؟ وسألَني فلمْ أُعطِهِ؟ واستغفرَنِي، فلمْ أغفرْ له، وأنا أرحمُ الراحمين؟».

واعلمْ؛ أنَّ سؤالَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ دونَ خلقِهِ هو المتعينُ؛ لأنَّ السؤالَ فيه إظهارُ الذلِّ من السائلِ والمسكنةِ والحاجةِ والافتقارِ، وفيه الاعترافُ بقدرةِ المسئولِ على رفعِ هذا الضُّرِّ، ونيلِ المطلوبِ، وجلبِ المنافعِ ودرءِ المضارِّ، ولا يصلحُ الذلُّ والافتقارُ إلا للَّهِ وحدَه؛ لأنَّه حقيقةُ العبادة.

وكانَ الإمامُ أحمدُ يدعُو ويقولُ: اللَّهمَّ كمَا صُنتَ وجهِي عنِ السُّجودِ لغيرِكَ فصُنْه عن المسألةِ لغيرِك. ولا يقدرُ على كشفِ الضرِّ وجلبِ النفعِ سواهُ، كمَا قالَ: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: ١٠٧]، وقالَ: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٥٤٣)، والبيهقي في «الدلائل» (٦/ ١٠٦) وأخرجه ابن ماجه (٤١٤٨) من طريق المسعودي، عن علي بن بذيمة، عن أبي عبيدة، عن عبد اللَّه بن مسعود مرفوعًا: «ما أصبح في آل محمد إلا مدٌّ من طعامٍ» أو «ما أصبح في آلِ محمدٍ مدٌّ من طعامٍ» ولم يذكرِ القصة.

(٢) هو قطعة من حديث النزول المشهور، وهو حديث متواتر.
رواه البخاري (٣/ ٢٩)، ومسلم (٢/ ١٧٥) من حديث أبي هريرة.

يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [فاطر: ٢].

واللَّهُ سبحانهُ يحبُّ أن يُسألَ ويُرْغَبَ إليهِ في الحوائجِ، ويُلَحَّ في سؤالهِ ودُعائِهِ، ويغضَبُ على من لا يسألُه، ويستدْعِي مِنْ عبادِهِ سؤالَهُ، وهو قادرٌ على إعطاءِ خلقهِ كُلِّهم سؤْلَهُم من غيرِ أن يَنْقُصَ منْ ملكِهِ شيءٌ، والمخلوقُ بخلافِ ذلكَ كلِّه: يكرهُ أن يُسألَ، ويُحبُّ أن لا يُسألَ، لعجزِهِ وفقرِهِ وحاجتِهِ. ولهذا قالَ وهبُ بنُ منبه لرجلٍ كانَ يأتي الملوكَ: ويحكَ، تأتي من يُغلِقُ عنكَ بابَه، ويُظهِرُ لك فقرَهُ، ويواري عنك غناهُ، وتَدَعُ من يفتحُ لكَ بابَه بنصفِ الليلِ ونصفِ النهارِ، ويُظهرُ لك غناهُ، ويقولُ: ادعُنِي أستجبْ لكَ؟!.

وقالَ طاووس لعطاءٍ: إياكَ أن تطلبَ حوائجَكَ إلى من أغلقَ دونَكَ بابَهُ ويجعلُ دونَهَا حجابَهُ، وعليكَ بمَنْ بابُهُ مفتوحٌ إلى يومِ القيامةِ، أمركَ أن تسألَهُ ووعدَكَ أن يُجيبَكَ.

وأما الاستعانةُ باللَّهِ عزَّ وجلَّ دونَ غيرِهِ من الخلقِ، فلأنَّ العبدَ عاجزٌ عن الاستقلالِ بجلبِ مصالحِهِ، ودفعِ مضارِّه، ولا معينَ لهُ علَى مصالحِ دينِه، ودنياهُ إلا اللَّهُ عزَّ وجلَّ، فمنْ أعانَهُ اللَّهُ، فهو المُعانُ، ومن خذَلَهُ فهو المخذولُ، وهذا تحقيقُ معنى قولِ: «لا حولَ ولا قوَّةَ إلا باللَّه»، فإنَّ المعنى لا تحوُّلَ للعبدِ منْ حالٍ إلى حالٍ، ولا قُوَّةَ له على ذلكَ إلا باللَّه، وهذه كلمةٌ عظيمةٌ وهي كنزٌ من كنوزِ الجنةِ، فالعبدُ محتاجٌ إلى الاستعانة باللَّهِ في فعلِ المأموراتِ، وتركِ المحظوراتِ، والصبرِ على المقدوراتِ كلِّها في الدنيا وعندَ الموتِ وبعدَهُ من أهوالِ البرزخِ ويومِ القيامةِ، ولا يقدرُ على الإعانةِ على ذلكَ إلا اللَّهُ عزَّ وجلَّ، فمنْ حقَّقَ الاستعانةَ عليه في ذلكَ كلِّه أعانَهُ. وفي

الحديثِ الصحيحِ عَنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «**احْرِصْ على ما ينفعُكَ، واستعنْ باللَّهِ ولا تعجَزْ**»(١).

ومن تركَ الاستعانةَ باللَّهِ، واستعانَ بغيرِه، وكَلَهُ اللَّهُ إلى منْ استعانَ به فصارَ مخذُولاً. كتبَ الحسنُ إلى عُمَرَ بنِ عبدِ العزيزِ: لا تستعنْ بغيرِ اللَّهِ فيكلَكَ اللَّهُ إليهِ. ومن كلامِ بعضِ السلفِ: يا ربِّ عَجبتُ لمن يعرفُك كيفَ يرجُو غيرَك، عجبتُ لمن يعرفُك كيفَ يستعينُ بغيرِكَ(٢).

* * *

خرَّجَ الإمامُ أحمدُ والنسائيُّ، والترمذيُّ(٣) من حديثِ النوَّاسِ بنِ سمْعَانَ، عنِ النبيِّ ﷺ، قالَ: «**ضربَ اللَّهُ مثلاً صراطًا مستقيمًا، وعلَى جنبتيِّ الصراطِ سُوران فيهمَا أبوابٌ مفتحةٌ وعلَى الأبوابِ سُتورٌ مرخاةٌ، وعلى بابِ الصراطِ داعٍ، يقولُ: أيُّها الناسُ ادْخُلُوا الصراطَ جميعًا ولا تعوجُوا، وداعٍ يدْعُو من جوفِ الصراطِ. فإذَا أرادَ أن يَفتحَ شيئًا منْ تلكَ الأبوابِ، قالَ: ويحكَ لا تَفْتَحْهُ فإنَّكَ إنْ تفتَحْهُ تلجْهُ. والصراطُ: الإسلامُ. والسورانِ: حُدودُ اللَّهِ. والأبوابُ المفتَّحةُ: محارمُ اللَّهِ. وذلكَ الداعِي علَى رأسِ الصراطِ: كتابُ اللَّهِ - عزَّ وجلَّ - والداعِي من فوقٍ: واعظُ اللَّهِ في قلبِ كلِّ مسلمٍ**» وهذا لفظُ الإمامِ أحمدَ.

وعندَ الترمذيِّ زيادةُ: «﴿**وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ**

---

(١) قطعة من حديث: «**المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى اللَّه من المؤمن الضعيف**»، أخرجه مسلم (٨/ ٥٦).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١ - ٥٠٧).

(٣) «المسند» (٤/ ١٨٢ - ١٨٣)، والنسائي في «الكبري» (تحفة الأشراف) (٩/ ١١٧١٤)، والترمذي في «الجامع» (٢٨٥٩).

مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس:٢٥]».

وحسَّنه الترمذيُّ (١)، وخرَّجه الحاكمُ (٢)، وقالَ: صحيحٌ على شرطِ مسلمٍ، لا أعلمُ له علَّةً.

ضربَ النبيُّ ﷺ في هذا الحديثِ العظيمِ -الذي حكاهُ عن ربِّه - عزَّ وجلَّ - مَثَل الإسلامِ: بالصراطِ المستقيمِ. وقد سمَّى اللَّهُ دِينَهُ الذي هوَ دينُ الإسلامِ صراطًا مستقيمًا في مواضعَ كثيرةٍ من كتابِهِ، كقولِه تعالَى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:٦-٧].

وقد فُسِّر الصراطُ هُنا: بكتابِ اللَّهِ. وكتابُ اللَّهِ فيه شرحُ دينِ الإسلامِ، وبيانُه وتفصيلُه والدعوةُ إليهِ.

وعنِ جابرٍ، قالَ: الصراطُ المستقيمُ: هو الإسلامُ، وهوَ أوسعُ ممَّا بينَ السماءِ والأرضِ.

وقالَ تعالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ۝ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٥-١٦]. وقالَ تعالَى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ والنسائيُّ في «تفسيرِهِ»، والحاكمُ (٣) من حديثِ ابنِ

(١) كما في «التحفة» (٨/ ١٥٣) حيث قال: هذا حديث حسن غريب. والذي وقع في «الترمذي» أنه غريبٌ فقط.

(٢) الحاكم (١/ ٧٣).

(٣) أحمد (١/ ٤٣٥، ٤٦٥)، والنسائي في «الكبرى» (تحفة الأشراف) (٧/ ٩٢٨١)، والحاكم (٢/ ٣١٨).

مسعود، قالَ: خطَّ رسولُ اللَّهِ ﷺ خطًّا بيدِهِ ثمَّ قالَ: «**هذا سبيلُ اللَّهِ مُستقيمًا**» وخطَّ عن يمينِهِ وشمالِهِ، ثم قالَ: «**هذه السبلُ ليسَ منْهَا سبيلٌ إلا عليه شيطانٌ يدْعُو إليهِ**» ثمَّ قرأ: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُل فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾.

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ، وابنُ ماجه[١]، من حديثِ مُجاهدٍ، عن الشَّعبيِّ، عن جابرٍ، قالَ: كُنَّا جلوسًا عندَ النبيِّ ﷺ، فخطَّ خطًّا هكذا أمامَهُم، قالَ: «**هذا سبيلُ اللَّهِ**» وخطينِ عن يمينِهِ، وخطينِ عن شمالِهِ، وقالَ: «**هذه سبيلُ الشيطانِ**» ثم وضعَ يدَهُ في الخطِّ الأوسطِ، ثمَّ تلا هذه الآيةَ: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ**﴾ [الأنعام:١٥٣] الآية.

وقد رُوِيَ عن ابنِ مسعودٍ، أنَّه سُئِلَ عن الصراطِ المُستقيمِ فقالَ: تركَنَا محمدٌ ﷺ في أدناهُ وطرفُه في الجنةِ، وعن يمينِهِ جوادٌّ وعن شمالِهِ جوادٌّ، وثمَّ رجالٌ يدعونَ من مرَّ بِهِم. فمن أخذَ في تلكَ الجوادِ انتهتْ بِهِ إلَى النَّارِ، ومن أخذَ علَى الصراطِ انتهَى بِهِ إلى الجنَّةِ. ثمَّ قرأَ ابنُ مسعودٍ: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ**﴾ خرَّجه ابنُ جريرٍ[٢] وغيرُه.

وإنَّما سُمِّيَ الصراطُ صِراطًا: لأنَّه طريقٌ واسعٌ سَهْلٌ، يُوصِّلُ إلى المقصودِ. وهذا مَثَلُ دينِ الإسلامِ في سائرِ الأديانِ، فإنَّه يُوصِّلُ إلى اللَّهِ وإلَى دارِهِ، وجوارِهِ، مع سهولَتِهِ وسعتِهِ.

وبقيةُ الطرقِ وإنْ كانتْ كثيرةً، فإنَّها كلَّها مَعَ ضيقِهَا وعُسْرِها لا تُوصِّلُ

---

(١) أحمد (٣/ ٣٩٧)، وابن ماجه (١١).

(٢) «تفسير الطبري» (٨/ ٨٨ - ٨٩).

إلى اللَّهِ، بل تقطعُ عنه وتُوصلُ إلى دارِ سخطِه وغضبِه، ومجاورةِ أعدائه؛ ولهذا قالَ تعالَى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]، وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران:١٩].

والإسلامُ العامُّ: هو دينُ اللَّهِ الَّذي كانَ عليهَ جميعُ الرسلِ، كما قالَ نوحٌ: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٧٢]، وقالَ تعالَى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨]، وقالَ تعالَى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢]، وقالَ عن يوسفَ إنَّه قالَ: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]، وقالَ تعالَى عن ملكةِ سبأ: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل:٤٤]، وقالَ عنِ الحواريينَ: إنهم قالُوا: ﴿آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة:١١١].

وقد وصفَ اللَّهُ في سُورةِ الفاتحةِ الصراطَ بأنَّه: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الآية:٦].

ثم سمَّى الذينَ أنعمَ عليهم في سُورةِ النساءِ، وجعلَهُم أربعةَ أصنافٍ: النبيينَ والصِّديقينَ والشُّهداءَ والصالحينَ. فدلَّ على أنَّ هؤلاءِ كلَّهُم علَى هذا الصراطِ المستقيمِ، فلا يخرجُ عنهُم إلا: إمَّا مغضوبٌ عليه، وهو من عَرفَ الصراطَ وسلكَ غيرَهُ عمْدًا كاليهودِ والمشركينَ. وإمَّا ضالٌّ جاهلٌ يسلكُ غيرَ الصراطِ جَهْلاً، ويظنُّ أنَّه الصراطُ.

وحقيقةُ الإسلامِ: الاستسلامُ للَّهِ تعالَى والانقيادُ لطاعتِهِ. وأمَّا الإسلامُ

الخاصُّ، فهو دينُ مُحَمَّدٍ ﷺ.

ومُنذ بَعثَ اللَّه محمَّدًا ﷺ لم يقبلْ من أحد دينًا غـيرَ دينِه. وهوَ الإسلامُ الخاصُّ [وجعل][1] بقية الأديانِ كفرًا؛ لما تضمَّنَ اتباعُهَا من الكفرِ بدينِ محمدٍ والمعصيةِ للَّهِ في الأمرِ باتباعه، فإنَّه ليسَ هناكَ إلا أحدُ أمرينِ:

إمَّا الاستـسلامُ للَّهِ والانقيادُ لطاعتِهِ وأوامـرِهِ، وهوَ دينُ الإسلامِ الذي أمرَ اللَّهُ تعالَى بِهِ.

وإمَّا المعـصيةُ للَّـهِ والمخالفةُ لأوامـرِهِ، وذلكَ يستلزمُ طاعـةَ الشيطانِ؛ لأن الشيطانَ يأمرُ بسلوكِ الطرقِ التي عن يمينِ الصراطِ وشمالِه، ويصدُّ عن سلوكِ الصراطِ المسـتقيمِ؛ كَمَا قـالَ تعالَى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٦٠ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس:٦٠-٦١]، قالَ تعالَى حاكيًا عنِ الشيطانِ: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۝١٧ قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأعراف:١٦-١٨]، وقالَ تعالَى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٣٩ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝٤٠ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر:٣٩-٤٢].

وصحَّ عن ابنِ مـسعـودٍ، أنَّه قالَ: إنَّ هذا الصـراطَ مُحـتضـرٌ، تحضـرُهُ الشياطينُ.

يا عبدَ اللَّهِ، هذا الطريـقُ، هلُمَّ إلى الطريقِ، فاعتصِمُـوا بحبلِ اللَّه، فإنَّ

---

(١) زيادة يقتضيها السياق.

حبلَ اللَّهِ هو القـرآنُ، وهذا كَمَا أنَّ الكتبَ المنزَّلة، والرسلَ المُرسلةَ وأتبـاعَهُم يدعـونَ إلى اتِّباعِ الصـراطِ المسـتقيمِ، فـالشيطانُ وأعـوانُهُ وأتباعُـهُ من الجنِّ والإنسِ يدعونَ إلى بـقيةِ الطرقِ الخـارجةِ عن الصـراطِ المستقـيمِ، كمـا قالَ تعالى: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٧١].

والإسلامُ لهُ: هوَ الاستسلامُ، والإذعانُ، والانقيادُ، والطاعةُ.

والإسلامُ قد فسَّره النبيُّ ﷺ في حديثِ جبريل[١] بالشهادتينِ، معَ إقامِ الصلاةِ، وإيتاء الزكاة، والحجِّ، والصيامِ.

وأخبرَ ﷺ في حديـثٍ آخرَ [٢] : أنَّ الإسـلامَ بُني علـى هذهِ الخـمسِ: يعني: أنه أركانُ بنائِهِ التي لا يقومُ البناءُ إلا عليهـا، وبقيةُ الأعمالِ داخلةٌ في مسمَّاهُ أيضًا.

ورُويَ من حديـث أبي الدرداءِ مرفـوعًا[٣] ومن حديثِ حُـذيفةَ مرفـوعًا وموقوفًا، وعدَّ من سهامِهِ الجهادَ[٤].

وأفضلُ الإسلامِ: أنْ يسلمَ المسلمونَ من لسانِهِ ويدِهِ[٥]، ومن حُسنِ إسلامِ المرءِ تركُه ما لا يعنيهِ[٦].

---

(١) أحمد (١/ ٢٨، ٥١، ٥٢)، ومسلم (١/ ٢٨)، وأبو داود (٤٦٩٥).
(٢) البخاري (١/ ٩)، ومسلم (١/ ٣٤).
(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» كما في «مجمع الزوائد» (١/ ٤٧).
(٤) أخرجه البزار، كما في «كشف الأستار» (٣٣٦، ٣٣٧).
(٥) البخاري (١/ ٩)، ومسلم (١/ ٤٧ ـ ٤٨).
(٦) الترمذي (٢٣١٧، ٢٣١٨)، وابن ماجه (٣٩٧٦).

وفي «صحيح مسلمٍ»[1] عن عبدِ اللَّهِ بنِ سلامٍ، قالَ: بينمَا أنا نائمٌ، إذْ أتَانِي رجلٌ، فقالَ لي: قُمْ: فأخذَ بيدي فانطلقتُ معهُ فإذا أنا بجوادَّ من شمالي. قالَ: فأخذتُ لآخذ فيها، فقال: لا تأخذْ فِيها فإنَّها طُرقُ أصحابِ الشمالِ، فإذا جوادُّ منهجٌ عن يمِيني، فقالَ لي: خذْ هاهُنا، قال: فأتِي بي جبلاً، فقال لي: اصعدْ. قال: فجعلتُ إذا أردتُ أن أصعدَ خررتُ على استِي. قالَ: حتَّى فعلتُ ذلك مرارًا، قالَ: ثمَّ انطلقَ حتَّى أتى عمودًا رأسُهُ في السماءِ وأسفلُهُ في الأرضِ، في أعلاهُ حلْقةٌ، قالَ لي: اصْعَدْ فوقَ هذا. قلتُ: كيفَ أصعدُ هذا ورأسُهُ في السماءِ، قالَ: فأخذَ بيدِي فزجلَ بي، فإذا أنا متعلِّقٌ بالحلْقةِ، ثمَّ ضربَ العمودَ فخرَّ وبقيتُ متعلِّقًا بالحلْقةِ حتى أصبحتُ، قال: فأتيتُ النبيَّ ﷺ فقصَصْتُها عليه، قالَ: **«أمَّا الطريقُ التي رأيتَ عن يسارِك: طريقُ أصحابِ الشمالِ. وأمَّا الطريقُ التي رأيتَ عن يمينِكَ، فهي طريقُ أصحابِ اليمين، وأمَّا الجبلُ: فهو منزلُ الشهداءِ ولن تنالَهُ، وأمَّا العمودُ: فهو عمودُ الإسلامِ وأمَّا العروةُ: فهي عروةُ الإسلامِ، ولن تزال متمسكًا بها حتَّى تموتَ»**.

وقال تعالى: ﴿**وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [النحل: ٩].

فأخبرَ أنَّ قصدَ السبيل ـ وهو الطريقُ القاصدُ ـ عليه، يعني: أنه يُوصِّلُ إليه، وأنَّ من السبيلِ ما هو جائرٌ عنْ القصدِ غيرُ مُوصِّلٍ.

فالسبيلُ القاصدُ: هو الصراطُ المستقيمُ. والسبيلُ الجائرُ: هو سبيلُ الشيطانِ الرجيمِ. وقد وحَّدَ طريقَهُ في أكثرِ المواضعِ، وجَمَعَ طرقَ الضلالِ؛

---

(١) البخاري (٩/ ٤٦)، ومسلم (٧/ ١٦٠، ١٦١).

لأنَّ طريقَ الحقِّ أصلُهُ شيءٌ واحدٌ، ودينُ الإسلامِ العامُّ كما سبقَ وهو توحيدُ اللَّهِ وطاعتُهُ، وطُرقُ الضلالةِ كثيرةٌ متبوعةٌ، وإنْ جمعَهَا الشركُ والمعصيةُ.

قولُهُ: «**وعلى جَنْبتي الصراط سُورانِ**» ثم فسَّرها بحدودِ اللَّهِ.

والمُرادُ: أنَّ اللَّهَ تعالى حـدَّ حدودًا، ونهى عن تعدِّيهَـا، فمنْ تعدَّاهَا فـقدْ ظلمَ نفسَهُ وخرجَ عن الصراطِ المستقيمِ الَّذي أُمِرَ بالثبوتِ عليهِ.

ولمَّا كـانَ السورُ يمنعُ مـن وراءَهُ مِنْ تعدِّيه ومـجـاوزَتِه: سمَّى حـدودَ اللَّهِ سُورًا؛ لأنه يمنعُ منْ دخلَهُ من مجاوزتِهِ وتعدِّي حدودِهِ.

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا**﴾ [البقرة:٢٢٩]، وقال: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾ إلى قوله: ﴿**وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ**﴾ [النساء:١٣-١٤]، وقال: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [البقرة:٢٢٩] وقالَ: ﴿**وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ**﴾ [الطلاق:١].

وفي حديثِ أبي ثعلبـةَ الخُشنيِّ، عنِ النبيِّ ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ فرضَ فـرائضَ فلا تضيِّعُوها وحرَّمَ أشياءَ فلا تنتهِكُوها وحدَّ حدودًا فلا تعتدُوها**»[1].

فحدودُ اللَّه تطلقُ ويُرادُ بها غالبًا: ما أذنَ فيه وأباحَ فمن تعدَّى هذه الحدودَ فقدْ خرجَ ممَّا أحلَّه اللَّهُ إلى ما حـرَّمهُ؛ فلهذا نُهِي عن تعدِّي حدودِ اللَّهِ، لأنَّ تعدِّيهَا بهذا المعنى محرَّمٌ.

ويُرادُ بها تارةً ما حرَّمَهُ اللَّهُ ونَهَى عنه.

(١) البيهقي (١٠/١٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٢/ح ٥٨٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٩/١٧).

وبهذا المعنى، يُقال: لا تقربُوا حدودَ اللَّه؛ كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧] بعد أن نهى عن ارتكابِ المفطراتِ في نهارِ الصيامِ، وعن مباشرةِ النساءِ في الاعتكافِ في المساجدِ.

فأرادَ بحدودِهِ هاهُنا: ما نَهَى عنه؛ فلذلكَ نَهَى عن قُربَانِهِ.

فإنَّه تعالى جعلَ لكلِّ شيءٍ حدًّا، فجعلَ للمباحِ حدًّا، وللحرامِ حدًّا، وأمرَ بالاقتصارِ على حدِّ المباحِ وأنْ لا يُتعَدَّى. ونَهَى عن قربانِ حدِّ الحرامِ.

وممَّا سُمِّي فيه المحرماتُ حُدودًا: قولُ النبيِّ ﷺ: «**مثلُ القائمِ على حدودِ اللَّهِ والمدهنِ فيها كمثلِ قومٍ استهمُوا سفينةً**»[(١)] الحديثُ المعروف. والمرادُ بالقائمِ على حدودِ اللَّهِ: المنكرُ للمحرَّماتِ والناهي عنها.

وفي حديثِ ابنِ عباسٍ، عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «**أنا آخذٌ بحُجزِكُم اتَّقوا النارَ اتقوا الحدود**» قالَها ثلاثًا. خرَّجه الطبرانيُّ والبزار[(٢)]. ومرادُهُ بالحدودِ: محارم اللَّه ومعاصيه، وقد تُطلقُ الحدودُ باعتبارِ العُقوباتِ المقدَّرةِ الرادعةِ عن الجرائمِ المغلَّظةِ. فيُقالُ: حدُّ الزِّنا، حدُّ السرقة، حدُّ شربِ الخمر، وهو هذا المعروف من اسمِ الحدودِ في اصطلاحِ الفقهاءِ، ومنهُ قولُ النبيِّ ﷺ لأسامةَ: «**أتشفعُ في حدٍّ من حدودِ اللَّهِ؟**»[(٣)] لَمَّا شفع في المرأة التي سرَقَتْ.

وفي حديث: «**أقيموا الحدودَ في الحضرِ والسفرِ على القريبِ والبعيدِ**»[(٤)].

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١٨٢)، والترمذي (٢١٧٣).

(٢) أحمد في «المسند» (٢/ ٣١٢)، (٣/ ٣٦١، ٣٩٢)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ح١٠٩٥٣)، و«الأوسط» (٢٨٧٤)، والبزار (٣٤٨٠) «كشف الأستار».

(٣) البخاري (٤/ ٢١٣)، (٥/ ٢٩)، (٨/ ١٩٩، ٢٠١)، ومسلم (٥/ ١١٤، ١١٥).

(٤) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٣١٤، ٣١٦، ٣٢٦)، وهو جزء من حديث طويل وفيه: «**وأقيموا حدود اللَّه في الحضر والسفر..**».

وقالَ عليٌّ: أقيمُوا الحدودَ على ما ملكتْ أيمانُكُم(١) .

وأمَّا قولُه ﷺ في حديثِ أبي بُردةَ: «**لا يُجلَدُ فوقَ عشرِ جلداتٍ إلا في حدٍّ من حدودِ اللَّـهِ عزَّ وجلَّ**»(٢) ، فقـد اختَلَفُـوا في المراد بالحدِّ هُنا: هـل هو الحدودُ المقدَّرةُ شرْعًا، أم المُرادُ بالحدِّ ما حدَّه اللَّهُ ونهـى عن قُربانِه، فيدخلُ فيه سائرُ المعاصِي، ويكونُ المرادُ: النهيَ عن تجاوزِ العـشرِ جلداتٍ بالتأديبِ ونحوِهِ، مما ليسَ عقوبةً على محرَّمٍ.

هذا فيه اختلافٌ مشهورٌ بين العلماءِ.

وقالَ تعالى: ﴿**وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة:٢٣٠].

وقال تعالى: ﴿**الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ**﴾ [التوبة:٩٧].

والمُرادُ بحدودِ اللَّهِ هَاهُنا: ما يفصلُ بينَ الحلالِ والحرامِ، ويتميَّزُ به أحدُهُما من الآخرِ.

وقـد مدحَ اللَّـهُ الحافظينَ لحـدودِهِ في قـولِهِ: ﴿**وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ**﴾ [التوبة:١١٢].

وفي الحديث المرفـوعِ منْ حديثِ عمـرِو بنِ شعيبٍ، عنْ أبيـه عنْ جدِّه: «**يمثَّلُ القرآنُ رجُـلاً يومَ القيامةِ فـيُؤْتَى بالرجلِ قدْ حـمَلَهُ فخالفَ أمـرَهُ ونهيَهُ، فيـمثَّلُ له خَصْمًا فيقولُ: يا ربِّ حمَّلْتَـهُ إيَّاي فبئس حَامِلٍ. تعدَّى حدُودِي وضيَّعَ فرائِضي وركبَ**

---

(١) أخـرجه أحـمـد في «المسند» (١/ ٨٩، ٩٥، ١٤٥)، والنسـائي في «الكبرى» كـمـا في «تحفـة الأشراف» (١٠٢٨٣) عن عليٍّ مرفوعًا.

(٢) البخاري (٨/ ٢١٥، ٢١٦)، ومسلم (٥/ ١٢٦).

معصيتي. وقالَ: ويُؤتى بالرجلِ الصالحِ كانَ قدْ حملَه، فيمثَّلُ خصْمًا دونَه، فيقولُ: يا ربِّ حمَّلْتَهُ إيَّاي فخيرُ حاملٍ حفظَ حدودي وعمِلَ بفرائضي واجتنبَ معصيتي»[(١)].

والمراد بحفظِ الحدودِ هُنا: المحافظةُ على الواجباتِ والانتهاءُ عن المحرَّماتِ.

وفي حديثِ النُّعْمانِ بنِ بشيرٍ، عن النبيِّ ﷺ: **«الحلالُ بيِّنٌ والحرامُ بيِّنٌ وبينهُما أمورٌ مشتبهاتٌ لا يعلمُهُنَّ كثيرٌ من الناسِ، فمنِ اتَّقى الشبهاتِ استبرأ لدينِه وعرْضِه، ومنْ وقَعَ في الشبهاتِ وقَعَ في الحرامِ كالرَّاعي يرعَى حولَ الحِمَى يُوشكُ أن يخالطَهُ. ألا وإنَّ لكلِّ ملِكٍ حِمىً، ألا وإنَّ حِمَى اللَّهِ في أرضِه محارمُهُ»**، وهو حديثٌ متفقٌ على صحتِه[(٢)].

فمثَّلَ المحرَّماتِ في هذا الحديثِ: بالحِمَى، وهو ما يحميهِ الملوكُ وتمنعُ من قُربانِه، وجعلَ الحلال بيِّنًا والحرامَ بيِّنًا، ومُرادُهُ: الحلالُ المحضُ والحرامُ المحضُ، فإنَّ لكلٍّ منهَا حُدودًا معروفةً في الشريعةِ. وجعلَ بينهُمَا أمورًا مشتبهةً على كثيرٍ من الناسِ، لا يدرونَ هلْ هيَ من الحلالِ أم منَ الحرامِ. فدلَّ على أنَّ من الناسِ من لا يشتبِهُ عليهِ حُكْمُها، فيعلمُ أنَّها حلالٌ أو أنَّها حرامٌ.

فأمَّا من اشتبهَ عليه حُكْمُها: فإنَّ الأولَى لهُ أنْ يتَّقيَهَا ويجتنبَهَا، كما قالَ عُمَرُ: ذَرُوا الرِّبا والرِّيبة[(٣)].

وأخبر أنَّه منْ وقعَ في الأمورِ المُشتبهةِ وقعَ في الحرامِ، والمُرادُ: أنَّ نفسَهُ

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» برقم (٣٠٠٤٤).

(٢) البخاري (١/ ٢٠)، (٣/ ٦٩)، ومسلم (٥/ ٥٠ ـ ٥١).

(٣) أحمد في «المسند» (١/ ٣٦، ٤٩ ـ ٥٠)، وابن ماجه (٢٢٧٦).

تدعُوه من ارتكابِ الشبهاتِ إلى ارتكابِ الحرامِ.

ومثَّله بالراعي حولَ الحِمَى يُوشكُ أنْ يرتَعَ فيه، فأمَّا منْ بعُدَ عَنِ الحِمَى فإنَّه يبعُد وقوعُه في الحرامِ؛ ولهذا قالَ منْ قالَ من السلفِ: اجعلْ بينَكَ وبينَ الحرامِ شيئًا من الحلالِ.

وفي الحديثِ المرفوعِ، الَّذي خرَّجهُ الترمذيُّ: **«لا يبلغُ العبدُ أن يكونَ من المتقينَ حتَّى يدعَ ما لا بأسَ بِهِ حذرًا ممَّا به بأسٌ»**(١).

وهذه الأمورُ المشتبهاتُ: منْهَا ما يَقْوَى شبهُه بالحرامِ، ومنها ما يبعُد شبهُهُ بالحرامِ، ومنها ما يترددُ، لشبهةٍ بين الحلالِ والحرامِ.

فالأولُ: يَقْوَى فيه التحريمُ، والثاني: يَقْوَى فيه الكراهةُ، والثالثُ: يترددُ فيه، واجتنابُ الكلِّ حسنٌ، وهو الأفضلُ والأولَى.

وقولُهُ: **«فيهمَا - يعني: السورينِ - أبوابٌ مفتحةٌ، وعلى الأبوابِ سُتورٌ مُرخاةٌ»**.

ثم فسَّرَ الأبوابَ المُفتحةَ: بمحارمِ اللَّهِ، لما شبَّه حدودَ اللَّهِ بالسورينِ المكتنفينِ للصراطِ يَمْنَةً ويَسْرةً - والسورُ يقتضي المنع، وأصلُ الحدِّ في اللغةِ المنعُ - شبَّه المحارمَ بالأبوابِ المفتحةِ في السورينِ اللَّذَيْنِ هُمَا حدُّ الصراط المستقيمِ ونهايتُهُ، وجعلَ الأبوابَ مفتحةً غيرَ مغلَّقةٍ ولا مُقفلةٍ، وجعلَ عليها ستورًا مُرخاةً بحيثُ يتمكنُ كلُّ أحدٍ من رفعِ تلك الستورِ وولوجِ تلكَ الأبوابِ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥١)، وابن ماجه (٤٢١٥).

وهكذَا الشهواتُ المحرَّمـةُ، فإنَّ النفوسَ متطلعةٌ إليها وقـادرةٌ عليها، وإنَّما يمنعُ منها مانعُ الإيمانِ خاصةً، والنفوسُ مولعةٌ بمطالعةِ ما مُنعتْ منه؛ كَما في الحديثِ «**لو يُمنعُ الناسُ فتَّ البعرِ لقالُوا فيه الدرُّ**»[١] .

وفي حديثٍ آخـر مرفوعٍ: «**لو نهيتُ أحدَهم أنْ يأتيَ الحجونَ لأوشكَ أنْ يأتيَه مِرَارًا وليسَ له إليه حاجةٌ**»[٢] .

وحكايةُ ذِي النونِ المصريِّ مع يوسفَ بن الحسينِ الرازيِّ ـ في الطبقِ الذي أرسلَهُ، وأمرَهُ أنْ لا يكشفَهُ ـ معروفةٌ.

والمحرَّماتُ أمانةٌ مِنَ اللَّهِ عندَ عبدِه، والسمعُ أمانةٌ، والبصرُ واللسانُ أمانةٌ، والفرجُ أمانةٌ، وهو أعظَمُهَا.

وكذلك الواجبـاتُ كلُّهـا أماناتٌ: كالطهـارةِ، والصيـامِ، والصلاةِ، وأداءِ الحقوقِ إلى أهلهـا؛ قالَ اللَّهُ تعالَى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾ [الأحزاب:٧٢] ثم ذكرَ حُكْمَهُ، فقالَ: ﴿**لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾ [الأحزاب:٧٣].

وفي الحـديثِ الصحـيحِ عن النبيِّ ﷺ: «**حُـفَّتِ الجنةُ بالمكارِهِ وحـفَّتِ النارُ بالشهواتِ**»[٣]، وفي روايةٍ: «**حُجبتْ**»[٤] بدل: «**حُفَّتْ**».

فاللَّهُ سـبحانَهُ امـتحنَ عبادَهُ في هذهِ الدارِ بـهذهِ المحرَّماتِ من الشـهواتِ

---

(١) قال في «كشف الخفاء» (٢/ ٢١١): ذكره الغزالي فـي «الإحياء»، وقال العراقي لم أجده. وذكره الهروي في كتابه «المصنوع في معرفة الحديث الموضوع» (١/ ١٥٠).
(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ١٢٣) من حديث أبي جحيفة.
(٣) مسلم (٨/ ١٤٢ ـ ١٤٣). (٤) البخاري (٨/ ١٢٧).

والشُّبـهاتِ، وجعلَ في النَّفْسِ داعِـيًا إلى حبِّهـا مع تمكّنِ العبدِ منهَـا وقُدرتهِ عليْهَا.

فمن أدَّى الأمانةَ، وحـفظَ حدودَ اللَّهِ ومنعَ نفسَهُ ما يُحبُّـه من محارمِ اللَّهِ كانَ عاقبتَهُ الجنةُ؛ كما قالَ تعالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]، فلذلك يحتاجُ الـعبدُ في هذهِ الدارِ إلى مُجـاهدةٍ عظيمةٍ، يُجاهدُ نفـسَهُ في اللَّهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ كمـا في الحديثِ: «المجاهدُ مَنْ جاهَدَ نفسَهُ في اللَّهِ ـ عزَّ وجلَّ»(١).

فمنْ كانتْ نفسُه شريفةً، وهمَّتُهُ عـاليةٌ لم يرض لَهَا بالمعاصِي، فإنَّها خيانةٌ ولا يَرْضَى بالخـيانةِ إلا مَن لا نفسَ لهُ. قـال بعضُ السلفِ: رأيتُ المعـاصِي نذالةٌ، فتركتُها مروةً فاستحالتْ ديانةً.

وقالَ آخرُ منهُم: تركتُ الذنوبَ حياءً أربعينَ سنةً، ثم أدركنِي الورعُ.

وقالَ آخرُ: مَـنْ عمِلَ في السرِّ عمـلاً يستحيي منهُ إذا ظَهَـرَ عليه، فليسَ لنفسِهِ عندَهُ قدرٌ.

قالَ بعـضُهُم: مـا أكرمَ العـبادُ أنفـسَهُم بمثلِ طاعـةِ اللَّهِ، ولا أهانُوها بمثلِ معـاصِي اللَّهِ عـزَّ وجلَّ. فمنِ ارتكبَ المحـارمَ فقـد أهانَ نفسَـهُ. وفي المَثَلِ المضروبِ: أنَّ الكلبَ قـالَ للأسدِ: يا سيـدَ السباعِ، غيِّـر اسمي فإنَّه قـبيحٌ. فقالَ لهُ: أنتَ خائنٌ، لا يصلحُ لكَ غيـرَ هذا الاسمِ. قالَ: فجرِّبْني. فأعطَاهُ شقةَ لحمٍ، وقالَ: احفظْ لي هذهِ إلى غدٍ، وأنا أغـيِّرُ اسمَكَ. فجاعَ، وجعلَ

---

(١) أخـرجـه: أحمـد (٦/ ٢٠ ـ ٢٢)، وأبو داود (٢٥٠٠)، والتـرمـذي (١٦٢١)، والنسـائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٨/ ١١٠٣٨).

ينظرُ إلى اللحمِ ويصبرُ. فلما غلبتْهُ نفسُهُ قالَ: وأيُّ شيءٍ أعملُ باسمِي. وما كلبٌ إلا اسمٌ حَسَنٌ فأكَلَ.

ولهذَا المَعْنَى: شبَّه اللَّهُ عالمَ السُّوءِ الَّذي لم ينتفعْ بعلمِه بالكلبِ؛ فقالَ تعالَى: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ** ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٧].

والمُرادُ بهذا المثلِ: أنَّ منْ لم يزجرْهُ علمُه عن القبيحِ، صارَ القبيحُ عادةً لهُ ولم يؤثرْ فيه علمُه شيئًا، فيصيرُ حالُه كحالِ الكلبِ اللاهثِ؛ فإنَّه إنْ طُردَ لَهِثَ، وإنْ تركَ لَهِثَ، فالحالتانِ عنده سواءٌ.

وهذا أخسُّ أحوالِ الكلبِ وأبشعُهَا، فكذلكَ من يرتكبُ القبائحَ مع جهلِه ومع علمِه، فلا يؤثِّرُ علمُه شيئًا؛ وكذلكَ مثل مَنْ لا يرتدع عن القبيحِ بوعظٍ ولا زجرٍ ولا غيرِه. فإنَّ فعلَ القبيحِ يصيرُ عادةً، ولا ينزجرُ عنه بوعظٍ ولا تأديبٍ ولا تعليمٍ. بل هو متبعٌ للهَوى على كلِّ حالٍ، فهذا كلُّ من اتَّبعَ هواهُ، ولم ينزجرْ عنهُ بوعظٍ ولا غيرِه.

وسواءٌ كانَ الهَوى المُتبَع داعيًا إلى شهوةٍ حسيةٍ، كالزنا والسرقةِ وشربِ الخمرِ، أو إلى غضبٍ وحقدٍ وكبرٍ وحسدٍ، أو إلى شُبهةٍ مضلةٍ في الدِّينِ.

وأشدُّ ذلكَ: حالُ من اتَّبع هواهُ في شبهةٍ مضلةٍ، ثمَّ من اتبع هواهُ في غضبٍ وكبرٍ وحقدٍ وحسدٍ، ثم من اتَّبع هواهُ في شهوةٍ حسيةٍ.

ولهذَا يُقالُ: إنَّ مَن كـانتْ معصيتُهُ في شهـوةٍ فإنَّه يُرجَى له، ومن كانتْ معصيتُهُ في كبرٍ لم يُرج.

ويُقالُ: إنَّ البـدعَ أحبُّ إلى إبليسَ من المعاصِي؛ لأنَّ المعاصِيَ يُتـابُ منها والبدعَ يعتقِدُهَا صاحبُها دِينًا فلا يتوبُ مِنهَا.

والمقـصودُ: أنَّه لَمَّا كـانتِ النفسُ والهَوى داعـيينِ إلى فتحِ أبـوابِ المحارمِ وكشفِ سـتورِها وارتكابِها، جعلَ الـلَّهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ لها داعيَـيْنِ يزجرانِ مَن يُريدُ ارتكابَ المحارمِ وكشفَ ستورِهما.

أحدُهما: داعِي القرآنِ، وهو الداعِي على رأسِ الصـراطِ يدعُو الناسَ كلَّهم إلى الدخولِ في الصراطِ والاستقامةِ عليه، وأنْ لا يَعْوَجُّوا عنه يمنةً ولا يسرةً، ولا يفتـحُوا شيئًـا من تلكَ الأبوابِ التي عليهَا الـستورُ المُرخاةُ؛ قـالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ حاكيًا عن عبادِهِ المؤمنينَ أنَّهم قالُوا: ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ﴾ [آل عمران:١٩٣] والمُرادُ به القرآنُ عندَ أكثرِ السلفِ.

وقالَ حاكـيًا عنِ الجنِّ الذين استمـعُوا القرآنَ، أنَّهُم لَمَّا رجعُـوا إلى قومِهِم قالُوا: ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ ﴾ [الأحقاف:٣٠ـ٣١].

وقد وصفَ اللَّهُ نبيَّه ﷺ بأنَّه يدعُو الخلقَ بالكتابِ إلى الصـراطِ المستقيمِ؛ كما قالَ اللَّهُ ـ تعالَى: ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [إبراهيم:١].

وقالَ تعالَى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾ [المؤمنون:٧٣ـ٧٤].

وقد كانَ النبيُّ ﷺ يدعُو الخلقَ بالقرآنِ إلى الدخولِ في الإسلامِ، الَّذي هو الصراطُ المستقيمُ؛ وبذلكَ استجابَ له خواصُّ المؤمنينَ كأكابرِ المهاجرينَ والأنصارِ. ولهذا المعْنَى قال مالكٌ: فُتحت المدينةُ بالقرآنِ.

يعني: أنَّ أهلَهَا إنَّما دخلُوا في الإسلامِ بسماعِ القرآنِ.

كما بعثَ النبيُّ ﷺ مُصعبَ بنَ عميرٍ، قبلَ أنْ يُهاجرَ إلى المدينةِ. فدعَا أهلَ المدينةِ إلى الإسلامِ بتلاوةِ القرآنِ عليْهِم، فأسلمَ كثيرٌ منْهُم.

قال بعضُ السلفِ: من لم يردعْهُ القرآنُ والموتُ، لو تناطحتِ الجبالُ بين يديهِ لم يرتدعْ.

وقالَ آخرُ: من لم يتَّعِظْ بثلاثٍ، لم يتعِظْ بشيءٍ: الإسلامِ والقرآنِ، والمشيبِ؛ كما قيلَ:

كفى الشيبُ والإسلامُ للمرءِ ناهيًا

قال يحيى بنُ معاذٍ: الإسلامُ نقيٌّ فلا تدنِّسْهُ بآثامكَ.

منع الهَوى مِن كاعبٍ ومدام … نورُ المشيبِ وواعظُ الإسلامِ

ومَن كان في الدنيا قد خرَجَ عن الاستقامةِ على الصراطِ، ففتحَ أبوابَ المحارمِ الَّتي في ستورِ الصراطِ يمنةً ويسرةً، ودخلَ إليْهَا ـ سواءٌ كانتِ المحارمُ من الشهواتِ أو منَ الشبهاتِ ـ أخذتْهُ الكلاليبُ الَّذي على ذلك الصراطِ يمنةً ويسرةً، بحسبِ ما فتحَ في الدنيا من أبوابِ المحارمِ ودخلَ إليْهَا. فمنهُم المكدوشُ في النارِ، ومنهم من تخدشُهُ الكلاليبُ وينجُو.

رأى بعضُ السلفِ ـ وكانَ شَابا ـ في منامِه: كأنَّ الناسَ حُشرُوا، وإذا بنهرٍ من لهبِ النارِ عليه جسرٌ يجوزُ الناسُ عليهِ يُدْعونَ بأسمائِهم. فمنْ دُعِيَ

أجابَ، فناجٍ وهالكٌ. قالَ: فدُعِيَ باسْمِي، فدخلتُ في الجسرِ فإذَا حدٌّ كحدِّ السيفِ يمورُ بي يمينًا وشِمالاً. فأصبحَ الرجلُ أبيضَ الرأسِ واللحيةِ، ممَّا رأى.

سمعَ بعضُهم قائِلاً يقولُ شعرًا:

أمــامِي مــوقفٌ قُــدَّام ربِّي ... يُســائِلُنــي وينكشفُ الـغطاءُ
وحسْـبِي أنْ أمرَّ علـى صراطٍ ... كـحـدِّ السـيفِ أسـفلُه لَظاءُ

فغُشِي عليه.

قال الفُضَيلُ لبِشرٍ: بلغَني أنَّ الصراطَ مسـيرةَ خمسةَ عـشرَ ألف فرسخٍ، فانظرْ كيفَ تكونُ عليه.

قـال بعضُ السلـفِ: بلغَنا أنَّ الصـراطَ يكونُ على بـعضِ الناسِ أدقُّ مِنَ الشعرِ، وعلَى بعضِهِم كالوادِي الواسعِ.

قال سهلٌ التسـتُريُّ: مَن دقَّ على الصراطِ في الدُّنيـا عرضَ له في الآخرةِ ومن عرضَ له في الدنيا الصراطُ دقَّ عليهِ في الآخرةِ.

والمعنى: أنَّ مَنْ صبَّر نفسَهُ على الاستقامةِ على الصراطِ ولم يعرجْ عنه يمنةً ويسرةً، ولا كشفَ شيئًا من الستورِ المُرخاةِ على جانبيهِ ـ مما تهواهُ النفوسُ من الشهـواتِ أو الشبهَـاتِ ـ بلْ سارَ علَى متنِ الصـراطِ المستقـيمِ حتَّى أتَى ربَّه وصبرَ على دِقَّـةِ ذلكَ، عرضَ له الصراطُ في الآخرةِ. ومن وسَّعَ عـلى نفسه الصراطَ في الدُّنـيا، فلم يستـقمْ على جادَّتِهِ ـ بل كـشفَ ستـورَهُ المُرخاةَ من جانبيهِ يمنةً ويسرةً، ودخلَ ممَّا شاءتْ نفسُه من الشهواتِ والشبهاتِ ـ دقَّ عليه الصراطُ في الآخرةِ، فكانَ عليه أدقَّ من الشَّعرِ.

أمَا آنَ يا صاحِ أنْ تستَفيقَا ... وأنْ تتناسَى الهَوى والفُسوقَا
وقد ضحِكَ الشيبُ فاحزنْ لهُ ... وصارَ مساؤُكَ فيه شُروقَا
ألاَ فازجرِ النفسَ عنْ غيِّها ... عساكَ تجوزُ الصراطَ الدَّقيقَا
ودونَ الصراطِ لَنَا موقف ... به يتناسَى الصديقُ الصَّديقَا
فتُبصرُ ما شئتَ كَفًّا تُعضُّ ... وعينًا تسحُّ وقلْبًا خَفُوقَا
إذا أطبقتْ فوقَهُم لم تكنْ ... لسَمع إلا البكاء والشهيقَا
شرابُهُم المُهْلُ في قعرِهَا ... يقطِّعُ أوصالَهُم والعُروقَا

قال إبراهيمُ بنُ أدهمَ: كُلِ الحلالَ، وادعُ بما شئتَ.

وقالَ لرجلٍ: اعبدِ اللَّهَ سرًّا، حتى تخرجَ على الناسِ يومَ القيامةِ كمينًا.

ومما أنشدَ بعضُهم شِعْرًا:

أروحُ وقد ختمتُ على فؤادِي ... بحبِّكَ أنْ يحلَّ به سِواكَا
فلو أنِّي استطعتُ غضضتُ طَرفِي ... فلم أبصرْ به حتَّى أراكَا
أحبُّكَ لا ببعْضِي بل بكُلِّي ... وإنْ لم يُبقِ حبُّك لي حِراكَا
ويقبُحُ مِن سواكَ الفعلُ عندِي ... وتفعلُه فيحسُنُ منكَ ذاكَا
وفي الأحبابِ مخصوصٌ بوجدٍ ... وآخرُ يدَّعي معه اشتراكَا
إذا اشتبكتْ دموعٌ في خدود ... تَبَيَّن مَن بكى مِمَّنْ تباكَى
فأمَّا منْ بكَى فيذوبُ وجْدًا ... وينطقُ بالهَوى من قد تَشَاكَا(١)

* * *

(١) رسالة شرح حديث «مثل الإسلام».

سُورَةُ البَقَرَة

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾

[قالَ البخاريُّ]: «بابٌ: ما يَقُولُ إذَا أمْطَرَتْ»:

وقال ابنُ عباسٍ: ﴿كَصَيِّبٍ﴾ [البقرة:١٩]: المطرُ.

وقالَ غيرُهُ: صابَ وأصَابَ يَصُوبُ.

حدَّثَنَا مُحمَّدُ بنُ مُقاتلٍ أبو الحسنِ المروَزِيُّ: أنا عبدُ اللَّهِ ـ هُوَ: ابنُ المباركِ ـ: أنا عُبَيْدُ اللَّهِ، عنْ نافعٍ، عنِ القاسمِ بنِ مُحمَّدٍ، عنْ عائشةَ، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ كانَ إذا رأى المَطَرَ قالَ: «**صيِّبًا نافعًا**»[1].

تابَعَهُ: القاسمُ بنُ يحيى، عنْ عبيدِ اللَّهِ.

ورواهُ الأوزاعيُّ وعُقيلٌ، عنْ نافعٍ.

أمَّا ذكر المتابعاتِ على هذا الإسنادِ، لاختلافٍ وقعَ فيه:

فإنَّه رُوي عن عبيدِ اللَّهِ، عن القاسمِ، عن عائشةَ، أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ من غيرِ ذكرِ: «نافعٍ».

والصحيحُ: ذكرُ: «نافعٍ» فيه.

وقد رواه ـ أيضًا ـ يحيى القطانُ وعبدةُ بن سليمانَ، عن عبيدِ اللَّهِ، كذلك ـ: ذكره الدارقطنيُّ في «عللِه».

---

(١) البخاري (٢/ ٤٠).

فإن كان ذلك محفوظًا عنهما، فكيفَ لم يذكرِ البخاريُّ متابعتَهما لابنِ المباركِ، وعدلَ عنه إلى متابعةِ القاسمِ بن يحيى؟

وأما عقيلٌ، فرواهُ عنْ نافعٍ، عنِ القاسمِ، عنْ عائشةَ.

ورواه - أيضًا - أيوبُ، عنِ الفاسمِ، عنْ عائشةَ.

خرَّجه الإمامُ أحمدُ (١)، عنْ عبدِ الرزاقِ، عنْ معمرٍ، عنه، ولفظُ حديثِهِ: «**اللَّهُمَّ صيِّبًا هنيئًا** - أو - **صيِّبًا هنيئًا**».

وأمَّا الأوزاعيُّ، فقد رواهُ عن نافعٍ، عنِ القاسمِ، عنْ عائشةَ، كما ذكرهُ البخاريُّ، ولفظُ حديثِهِ: «**اللَّهُمَّ اجعلْهُ صيِّبًا هنيئًا**»(٢).

وقد خرَّج حديثَهُ كذلكَ الإمامُ أحمدُ وابنُ ماجه.

وفي روايةِ ابنِ ماجه: أنَّ الأوزاعيَّ قالَ: «أخبرني نافعٌ»، كذا خرَّجه من طريقِ عبدِ الحميدِ بنِ أبي العشرين، عنه.

وقد رُوي التصريحُ بالتحديثِ فيه عنِ الوليدِ بن مسلمٍ، عنِ الأوزاعيِّ أيضًا.

ورواه إسماعيلُ بنُ سماعةَ، عنِ الأوزاعيِّ، عنْ رجلٍ، عنْ نافعٍ، عن القاسمِ، عنْ عائشةَ.

وقالَ البابْلُتِّيُّ: عنِ الأوزاعيِّ، عنْ محمدِ بنِ الوليدِ الزبيديِّ، عنْ نافعٍ، عنِ القاسمِ، عنْ عائشةَ.

وقالَ عقبةُ بنُ علقمةَ: عنِ الأوزاعيِّ، عنِ الزهريِّ، عنْ نافعٍ، عنِ

---

(١) «المسند» (٦/ ١٦٦).

(٢) «المسند» (٦/ ٩٠) وابن ماجه (٣٨٩٠).

القاسمِ، عنْ عائشةَ.

قالَ الدارَقُطنيُّ: وهو غيرُ محفوظٍ.

وقالَ عيسى بنُ يونسَ (١) وعبادُ بنُ جويريةَ: عنِ الأوزاعيِّ، عنِ الزهريِّ، عنِ القاسمِ، عنْ عائشةَ - منْ غيرِ ذكرِ: «نافعٍ».

وكذا رُوي عنِ ابنِ المباركِ، عنِ الأوزاعيِّ.

قالَ الدارقطنيُّ: فإنْ كانَ ذلك محفوظًا عنِ الأوزاعيِّ، فهو غريبٌ عنِ الزهريِّ.

وخرَّجه البيهقيُّ (٢) منْ روايةِ الوليدِ بنِ مسلمٍ: نَا الأوزاعيُّ: حدثني نافعٌ. ثم قالَ: كانَ ابنُ معينٍ يزعمُ أنَّ الأوزاعيَّ لم يسمعْ من نافعٍ شيئًا.

ثمَّ خرَّجه من طريقِ الوليدِ بنِ مَزْيَد: نَا الأوزاعيُّ: حدثني رجلٌ، عن نافعٍ - فذكرَه.

قالَ: وهذا يشهدُ لقولِ ابنِ معينٍ.

قلتُ: وقد سبقَ الكلامُ على روايةِ الأوزاعيِّ عنْ نافعٍ في «بابِ: حملِ العنزة بين يَدَي الإمامِ يومِ العيدِ»، فإنَّ البخاريَّ خرَّج حديثًا للأوزاعيِّ عنْ نافعٍ مصرحًا فيه بالسماعِ.

وقد رُوي هذا الحديثُ عنْ عائشةَ من وجهٍ آخَر:

خرَّجه الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ والنسائيُّ وابنُ ماجه(٣) من حديثِ المقدَامِ بنِ

(١) «المسند» (٦/ ٩٠).

(٢) البيهقي (٣/ ٣٦١).

(٣) أحمد (٦/ ٤١)، وأبو داود (٥٠٩٩)، والنسائي (٣/ ١٦٤)، وابن ماجه (٣٨٨٩).

شُرَيْحٍ، عـنْ أبيهِ، عنْ عائشـةَ، أنَّ النبيَّ، كانَ إذا أُمـطرَ، قالَ: «**اللَّهُمَّ صيِّبًا هنيئًا**» - لفظُ أبي داودَ.

ولفظُ النسائيِّ: «**اللَّهُمَّ اجعلْه سيبًا نافعًا**».

ولفظُ ابنِ ماجه(١): «**اللَّهُمَّ سيبًا نافعًا**» - مرتينِ أو ثلاثًا.

وفي روايةٍ لابنِ أبي الدنيا في «كتاب المطرِ»: «**اللَّهُمَّ سقيًا نافعًا**».

وخرَّج مسلمٌ(٢) من طريقِ جعفر بنِ محـمدٍ، عن عطاءٍ، عن عائشةَ، أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يقول إذا رأى المطرَ: «**رحمةٌ**».

وقد أشارَ البـخاريُّ إلى تفسيـرِ قولِه ﷺ: «**صيِّبـا هنيئًا**»، فذكـرَ عنِ ابنِ عباسٍ، أنَّ الصيِّبَ هو المطرُ.

وقد خـرَّجه ابنُ أبي الدنيـا في «كتابِ المطر» من روايةِ هـارونَ بنِ عنترةَ، عن أبيه، عنِ ابنِ عباسٍ.

وقالَ غيرُهُ: هو المطرُ الشديدُ.

وقد ذكرَ البخاريُّ عن بعـضِهِم، أنَّ الفعلَ الماضِي منه: «صابَ وأصابَ»، والمضارعُ منه: «يصوبُ».

وهذا عجيبٌ: فإنَّ «أصابَ» إنما تقـالُ في ماضِي «يصيبُ»، مِنَ الإصابةِ التي هي ضدَّ الخطإِ.

وأمَّا «صابَ يصوبُ»، فمعناه: نزلَ من علوٍ إلى سفْلٍ.

وأمَّـا روايـةُ مـن روى «سيِّبـا» بالسـينِ، فيـجـوزُ أنَّ تكـونَ السـينُ مبدلةً

---

(١) ابن ماجه (٣٩٨٩). (٢) مسلم (٣/ ٢٦).

مـن الصادِ.

وقيل: بل هو بسكونِ الياءِ، ومعناه: العطاءُ.

ورُوي عنْ محـمدِ بنِ أسلـمَ الطوسيِّ، أنَّه رجَّح هذه الروايةَ؛ لأنَّ العطاءَ يعمُّ المطرَ وغيرَهُ منْ أنواعِ الخيرِ والرحـمةِ، وفي هذه الأحاديثِ كلِّها: الدعاءُ بأن يكونَ النازلُ من السماءِ نافعًا، وذلك سقيا الرحمةِ، دون العذابِ.

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسنادِهِ، عنْ عبدِ الملكِ بنِ جابرِ بنِ عتيك، أنَّ رجلاً من الأنصـارِ كانَ قـاعداً عند عُـمرَ في يومِ مطرٍ، فـأكثـرَ الأنصاريُّ الدعـاءَ بالاستسقاءِ، فضربَه عمـرُ بالدِّرةِ، وقالَ: ما يدريكَ ما يكونُ في السقْيا، ألا تقول: سقْيا وادعةً، نافعةً، تسعُ الأموالَ والأنْفُسَ (١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾

قالَ اللَّهُ تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: ٦].

وقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

واختلفَ المفسرونَ في هذهِ الحجـارةِ، فقالتْ طائفةٌ منهم الربيعُ بنُ أنسٍ: الحجارةُ هي الأصنامُ التي عبدَتْ من دونِ اللَّهِ، واستـشهدَ بعضُهم لهذا بقولِهِ

(١) «فتح الباري» (٦/ ٣١٠ ـ ٣١٣).

تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء: ٩٨ - ٩٩].

قالَ ابنُ أبي حاتمٍ: حدثنا أبو صالحٍ، حدثنا معاويةُ بنُ أبي صالحٍ، عنْ أبي بكرٍ بنِ أبي مريمَ، عنْ أبيه أنَّ رسولَ اللَّهِ صلَّى عليه وآلِه وسلَّم قالَ في قولِه: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوير: ١] قالَ: «**كورتْ في جهنمَ**»، ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢] قال: «**انكدرتْ في جهنمَ، وكلُّ من عُبِدَ من دونِ اللَّهِ فهو في جهنمَ، إلا ما كانَ مِنْ عيسى وأمِّه ولو رضيا لدخلاهَا**» غريبٌ جدًّا، وأبو بكرٍ بنُ أبي مريمَ فيه ضعفٌ.

وقد رُوِيَ أنَّ الشمسَ والقمرَ يكورانِ في النارِ.

ورواه عُبدُ العزيزِ بنِ المختارِ عنْ عبدِ اللَّهِ - هو ابنُ فيروزَ الداناجِ - قالَ: سمعتُ أبا سلمةَ بنَ عبدِ الرحمنِ يحدثُ عن أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «**الشمسُ والقمرُ ثورانِ يكورانِ في النارِ يومَ القيامةِ**» خرَّجه البزارُ[١] وغيرُه.

وخرَّجهُ البخاريُّ مختصرًا[٢]، ولفظُه: «**الشمسُ والقمرُ يكورانِ يومَ القيامةِ**».

وخرَّج أبو يَعْلَى[٣] منْ روايةِ درستْ بنِ زيادٍ عن يزيدَ الرقاشيِّ عن أنسٍ عنِ النبيِّ ﷺ، قالَ: «**الشمسُ والقمرُ ثورانِ عقيرانِ في النارِ**» وهذا إسنادٌ ضعيفٌ جدًّا.

وقد قيلَ: إنَّ المعنى في ذلكَ أنَّ الكفارَ لَمَّا عبدُوا الآلهةَ من دونِ اللَّهِ واعتقدُوا أنها تشفعُ لهم عندَ اللَّهِ وتقرِّبُهم إليه عوقِبُوا بأن جعلتْ معهم في

---

(١) «مجمع» (١٠/ ٣٩٠)، ولم يعزه للبزار!!.

(٢) البخاري (٤/ ١٣١).

(٣) «المسند» (٧/ ٤١١٦).

النارِ إهانةً لهـا وإذلالاً، ونكايةً لهم وإبلاغًـا في حسـرتِهم وندامـتِهم، فـإنَّ الإنسانَ إذا قرنَ في العذابِ بمنْ كانَ سببَ عذابِه كانَ أشدَّ في ألَمِه وحسرتِه.

ولهذا المعنى يقرنُ الكفارُ بشياطينهم التي أضلتْهُم. قالَ اللَّهُ تعالَى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦ - ٣٩].

قالَ مَعْمرٌ عنْ سعيدٍ الجريريِّ في هذه الآياتِ: بلغنَا أن الكافرَ إذا بُعثَ يومَ القيامةِ منْ قبرِه، شُفِعَ بشيطانِه فلم يفارقْه حتى يصيرَهُما اللَّهُ إلى النارِ، فذاكَ حينَ يقولُ: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨].

وقالَ أبو الأشهبِ عن سـعيدٍ الجريريِّ عن عباسٍ الجـشميِّ: إنَّ الكافرَ إذا خرجَ من قبـرِه وجَدَ عندَ رأسِه مثـلَ السرحة المحترقـة شيطانةً فتـأخُذُ بيده، فتقولُ: أنا قرينتُكَ أدخلُ أنا وأنتَ جهنَّم، فذاك قولُهُ: ﴿يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨] خرجهما ابنُ أبي حاتمٍ وغيرُهُ، والسرحةُ: شجرةٌ كبيرةٌ.

وقد أخبرَ اللَّهُ تعالى عن حنقِ الكفارِ على من أضلَّهُم بقولِه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ﴾ [فصلت: ٢٩].

فإذا قُرن أحدُهُم بمن أضلَّه في العذابِ كـانَ أشدَّ لعذابِه، فإنَّ المكانَ المتسعَ يضيقُ على المتباغِضينِ باقترانِهما في المكانِ الضيقِ.

وأخبرَ اللَّهُ تعالى عن اختصامِ الكفـارِ معَ من كانَ معهُم من الشياطينِ ومن

عبدُوه من دونِ اللَّه تعالى. قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ﴾ الآيات [الشعراء:٩١-٩٩].

ومن جملةِ أنواعِ عذابِ أهلِ النارِ فيها: تلاعنُهم وتباغضُهم، وتبرؤُ بعضِهم من بعضٍ، ودعاءُ بعضِهم على بعضٍ، بمضاعفةِ العذابِ، كما قالَ اللَّه تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّىٰ إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ﴾الآيات [الأعراف:٣٨].

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ الآيات [غافر:٤٧].

وقال اللَّهُ تعالى: ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ﴾ إلى قولِه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ [ص:٥٩-٦٤] وحينئذٍ لا يبعدُ أن يقرنَ كلُّ كافرٍ بشيطانِه الذي أضَلَّهُ وبصورة من عَبَدَهُ من دونِ اللَّهِ من الحجارةِ.

وقالَ ابنُ أبي الدنيا: حدثنا عبدُ اللَّه بنُ وضاحٍ، حدثنا عبادةُ بنُ كليبٍ عن محمدِ بنِ هاشمٍ، قالَ: لما نزلتْ هذه الآيةُ: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤]. وقرأها النبيُّ ﷺ فسمعَهَا شابٌّ إلى جنبِه فصُعِقَ، فجعلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ رأسَهُ في حجرِه، رحمةً لَهُ، فمكثَ ما شاءَ أن يمكثَ، ثم فتحَ عينيهِ، فقالَ: بأبي أنتَ وأمِّي مثلَ أيِّ شيءٍ الحجرُ؟ قالَ: «أما يكفيكَ ما أصابَكَ، على أنَّ الحجرَ الواحدَ منها لو وُضِعَ عن جبالِ الدنيا كلِّها لذابتْ منه، وإنَّ مع

كلِّ إنسانٍ منهُم حجراً وشيطانًا».

وقالَ الحسنُ في موعظَته: أذكركَ اللَّهَ ما رحمتَ نفسَكَ، فإنَّك قد حذرتَ نارًا لا تطفأ، يهوي فيها من صارَ إليها، ويترددُ في أطباقِهَا قرينُ شيطانٍ، ولزيقُ حجرٍ يتلهبُ في وجههِ شعلُها ﴿لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦].

وأكثرُ المفسرينَ على أنَّ المرادَ بالحجارةِ حجارةُ الكبريتِ توقدُ بها النارُ. ويقالُ: إنَّ فيها خمسةُ أنواعٍ من العذابِ ليسَ في غيرِها من الحجارةِ: سرعةُ الإيقادِ، ونتنُ الرائحةِ، وكثرةُ الدخانِ، وشدةُ الالتصاقِ بالأبدانِ، وقوةُ حرِّهَا إذا أحميتْ.

قالَ عبدُ الملكِ بنُ عميرٍ عنْ عبدِ الرحمنِ بنِ سابطٍ عنْ عمرِو بنِ ميمونَ عنِ ابنِ مسعودٍ في قولِه تعالى: ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤] قالَ: هي حجارةٌ من الكبريتِ خلقَهَا اللَّهُ يومَ خلقَ السموات والأرضَ في السماءِ الدنيا يُعدُّها للكافرينَ. خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ والحاكمُ في «المستدركِ» وقالَ: صحيحٌ على شرطِ الشيخينِ.

وقالَ السُّديُّ في «تفسيرِهِ» عنْ أبي مالكٍ وعنْ أبي صالحٍ، عنِ ابنِ عباسٍ وعن مرَّة عن ابنِ مسعودٍ، وعن أناسٍ من الصحابةِ: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤]. أما الحجارةُ حجارةٌ في النار من كبريتٍ أسودَ يعذَّبونَ به مع النارِ. وقالَ مجاهدٌ: حجارةٌ من كبريتٍ أنتنُ من الجيفةِ، وهكذا قالَ أبو جعفرٍ وابنُ جريجٍ، وعمرُو بنُ دينارٍ وغيرُهم.

وقالَ ابنُ وهبٍ: أخبرَني عبدُ اللَّهِ بنُ عياشٍ، أخبرَني عبدُ اللَّهِ بنُ سليمانَ عنْ درَّاجٍ عن أبي الهيثم، عن عيسى بنِ هلالٍ الصدفيِّ، عنْ عبدِ اللَّهِ بنِ

عمرو[١]، قالَ: قالَ رسـولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليه وآلِهِ وسلَّم: «إنَّ الأرضينَ بينَ كلِّ أرضٍ إلى التي تليهَا مـسيرةُ خمسمـائة سنة، فالعُلْيا منها على ظهرِ حـوتٍ قد التقى طرفَاهُ في السماءِ، والحوتُ على صخرةٍ، والصخرةُ بيدِ ملكٍ، والثانية سجنُ الريحِ، فلما أرادَ اللَّهُ إهلاكَ عـادٍ أمرَ خـازنَ الريحِ أن يرسلَ عليـهم ريحًـا تهلكُ عادًا، قـالَ: يا ربِّ أرسلْ عليهم من الريحِ قـدرَ منخرِ ثورٍ، قالَ له الجبارُ تبـاركَ وتعالى: إذنْ يكفي الأرضَ ومن عليها، ولكنْ أرسِل عـليهم بقدرِ خاتمٍ، فهي التي قـالَ اللَّهُ في كتابه: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢]، والثالثةُ فيها حجارةُ جهنَّم، والرابعةُ فيها كبريتُ جهنمَ» قالُوا: يا رسولَ اللَّهِ أللنارِ كبريتٌ؟! قالَ: «نعم، والذي نفسي بيدِهِ إنَّ فيـها لأوديةً من كبريتٍ لو أرسلتْ فيهـا الجبالُ الرواسيّ لماعَتْ، والخامسـةُ فيها حياتُ جـهنمَ وإنَّ أفواهَها كالأوديةِ تـلسعُ الكافرَ اللسعةَ فـلا يبْقى منه لحمٌ على وضَمٍ، والسادسـةُ فيها عـقاربُ جهنَّم، وإنَّ أدنى عقـربة منها كالبـغالِ الموكفة، تضـربُ الكافرَ ضربةً تنسيه ضربتُهـا حرَّ جهنَّم، والسابعةُ سقرُ، وفيها إبليسُ مـصفدٌ بالحديد أمامَهُ ويدُه من خلفِه، فـإذا أرادَ اللَّه أن يطلقَهُ لما يشـاءُ من عبـاده أطلَقَهُ» خرَّجه الحاكمُ في آخرِ: «المستدركِ»[٢] وقالَ: تفـرَّدَ به أبو السـمحِ، وقد ذكرتْ عـدالتُه بنـصِ الإمامِ يحـيى بنِ معـينٍ، والحديثُ صـحيـحٌ ولم يخرِّجـاه، وقـالَ بعضُ الحفـاظِ المتأخرين: هو حديثٌ منـكرٌ، وعبدُ اللَّهِ بنُ عياشٍ القتبـانيُّ ضعَّفهُ أبو داودَ، وعندَ مسلمٍ أنَّه ثقةٌ، ودرَّاجٌ كثيرُ المناكيرِ، واللَّهُ أعلمُ.

قلتُ: رفْعُـه منكرٌ جدًّا، ولعله موقـوفٌ، وغلطَ بعضُهم فرفَـعَه، وروى

---

(١) في المطبوع: «عـبد اللَّه بن عـمر» وهو خطأ؛ لأن الحـديث بهذا الإسناد من رواية عـبد اللَّه بن عمرو، كما في «المستدرك» (٤/ ٥٩٤).

(٢) «المستدرك» (٤/ ٥٩٤).

عطاءُ بنُ يسارٍ عن كعبٍ من قولِهِ نحوَ هذا الكلام أيضًا.

وعن عبدِ العزيز بن أبي رواد قالَ: بلغني أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ تلا هذه الآيةَ: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦] وعندهُ بعضُ أصحابِهِ وفيهم شيخٌ، فقالَ الشيخُ: يا رسولَ اللَّه حجارةُ جهنَّم كحجارةِ الدُّنيا؟ فقالَ النبيُّ ﷺ: «**والذي نفسي بيدِه، إنَّ صخرةً من صخرِ جهنَّم أعظمُ من جبالِ الدنيا كلِّها**» فوقعَ الشيخُ مغشيًّا عليه، فوضعَ النبيُّ ﷺ يدَهُ على فؤادِهِ، فإذا هو حيٌّ فناداه قلْ: «**لا إله إلا اللَّهُ**» فقالَهَا، فبشَّره بالجنة، فقالَ أصحابُهُ: يا رسولَ اللَّهِ أمِنْ بيننا؟ قالَ: «**نعم، يقولُ اللَّه تبارك وتعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾** [إبراهيم:١٤]» خرَّجه ابن أبي الدنيا[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾

وروى ابنُ جريرٍ في «تفسيرِهِ»[(٢)]: نا يُونُسُ: نا ابنُ وهْبٍ، عنْ عبدِ الرحمنِ بنِ زيدِ بنِ أسلمَ، في قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ [البقرة:٢٥]، قال: المطهرةُ: التي لا تحيضُ، قالَ: وكذلكَ خُلقَتْ حواءُ عليها السلامُ حتى عَصَتْ، فلمَّا عصتْ قالَ اللَّهُ تعالى: «**إني خلقْتُك مطهَّرةً، وسأُدْميك كما أدْميت هذه الشجرة**».

وقد استدلَّ البخاريُّ لذلكَ بعمومِ قولِ النبيِّ ﷺ: «**إنَّ هذا شيءٌ كتبه اللَّهُ على بنات آدمَ**»[(٣)]، وهو استدلالٌ ظاهرٌ حسنٌ، ونظيرُهُ: استدلالُ الحسنِ على

(١) «التخويف من النار» (١٠٤ ـ ١٠٩).
(٢) «تفسير الطبري» (١/ ١٧٦).
(٣) البخاري (١/ ٨١).

إبطال قولِ من قال: أوَّل مــن رأى الشَّيْبَ إبراهيمُ عليه السلامُ، بعــمومِ قولِ اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم:٥٤] (١).

* * *

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٨١].

وفُسرتْ إحاطةُ الخطيئــةِ بالموتِ على الشركِ، وفسِّرتْ بالموتِ على الذنوبِ الموجبةِ للنارِ من غيرِ توبةٍ منْهَا.

فكأنَّ ذنوبَهُ أحــاطتْ به من جــميعِ جــهاتِهِ، فلم يــبقَ لَهُ مَخلصٌ منهــا. فالخطايا تُحيطُ بصاحبِهَا حتى تُهلكهُ؛ وقد ضربَ النبيُّ ﷺ مثلَ الخطايَا التي يتلبَّسُ بها العبدُ بمثل درعٍ ضيقةٍ يلبسُــهَا، فتضيقُ عليهِ حتى تخنقَهُ، ولا تنفكَّ عنهُ إلا بعــملِ الحــسناتِ من توبةٍ أو غــيرِهَا من الأعــمــال الصــالحةِ، فــفي «المسند»(٢)، عن عُقبــةَ بن عامرٍ، عنِ النبيِّ ﷺ، قالَ: «**إنَّ مثلَ الذي يــعملُ السيئاتِ ثمَّ يعملُ الحسناتِ كمثلِ رجلٍ كانتْ عليه درعٌ ضيقةٌ ثم خنقتْهُ، ثم عملَ حسنةً فانفكتْ حلقةٌ ثم عملَ حسنةً أخرى فانفكتْ حلقةٌ أخرى حتى يخرجَ إلى الأرضِ**».

فلا يَخلُصُ العبدُ من ضيقِ الذنوبِ عليــهِ وإحاطتِهَا بهِ، إلا بالتوبةِ والعملِ الصالحِ.

---

(١) «فتح الباري» (١/ ٣٩٧).

(٢) أحمد في «المسند» (٤/ ١٤٥).

كانَ بعضُ السلفِ يُردد هذينِ البيتينِ بالليلِ، ويبكِي بكاءً شديدًا شعر:

ابْكِ لذنبكَ طولَ الليلِ مجتهدًا   إنَّ البكـاءَ مـعـولُ الأحـزانِ
لا تنسَ ذنبكَ في النهارِ وطولِهِ   إنَّ الذنوبَ تحـيطُ بالإنسانِ(١)

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾

وقدْ دلَّ قولُهُ تعالى في حقِّ اليهودِ: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة:٩٤] على أنَّ منْ كانَ على حالةٍ حسنةٍ من الاستعدادِ للقـاءِ اللَّهِ فإنَّه يتمنَّى لقاءَ اللَّهِ ويحبُّه، وأنَّه لا يكرهُ ذلكَ إلا من هوَ مريبٌ في أمرِهِ. ولهذَا قالَ: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[البقرة:٩٥] ثم قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ﴾ [البقرة:٩٦] فذمَّهم على حرصِهم على الحياةِ الدنيا.

وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ» (٢) عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «لا يتـمنَّيَنَّ الموْتَ إلا منْ وَثَقَ بعَمَلِه».

وقد كـان كثيـرٌ من السلفِ الصالحِ يتمـنونَ الموتَ شوقًا إلى لقـاءِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ(٣).

---

(١) شرح حديث: «لبيك اللهم لبيك» (ص ١١٠ ـ ١١١).
(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٥٠) بلفظ مُقارب، عن أبي هريرة.
(٣) «استنشاق نسيم الأنس» (ص ١٣١ ـ ١٣٢).

قوله تعالى: ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

مَن آثرَ المعصيةَ على الطَّاعةِ فإنَّما حملَهُ على ذلكَ جهلُهُ وظنُّه أنَّها تنفعُهُ عاجلاً باستعجالِ لذَّتِها، وإن كانَ عندهُ إيمانٌ فهو يرجُو التخلُّصَ من سوءِ عاقبَتِها بالتوبةِ في آخرِ عمرِه؛ وهذا جهلٌ محضٌ، فإنَّه يتعجَّلُ الإثمَ والخزي، ويفوته عزُّ التقوى وثوابُها ولذَّةُ الطاعة، وقد يتمكَّنُ من التوبةِ بعد ذلك، وقد يعاجلُهُ الموتُ بغتةً، فهو كجائعٍ أكَلَ طعامًا مسمومًا لدفع جوعِهِ الحاضر، ورجَا أن يتخلَّص من ضررِه بشُربِ الدِّرياق بعدَه، وهذا لا يفعلُه إلا جاهلٌ، وقد قالَ تعالَى في حقِّ الذين يؤثرون السحرَ: ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (١٠٢) وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٢-١٠٣].

والمرادُ: أنَّهم آثرُوا السحرَ على التقوى والإيمان، لما رجُوا فيه من منافعِ الدنيا المعجلة، مع علمِهِم أنَّهم يفوتُهم بذلكَ ثوابُ الآخرةِ، وهذا جهلٌ منهم، فإنَّهم لو علِمُوا لآثرُوا الإيمانَ والتقوى على ما عَداهُما، فكانُوا يُحرِزون أجرَ الآخرةِ ويأمنونَ عقابها، ويتعجَّلون عزَّ التقوى في الدنيا، وربَّما وصلُوا إلى ما يأمُلُونه في الدنيا أو إلى خير منه وأنفعُ، فإنَّ أكثرَ ما يطلبُ بالسِّحرِ قضاءُ حوائجَ محرَّمة أومكروهةٍ عند اللَّه عزَّ وجلَّ.

والمؤمنُ المتقي يُعوِّضُه اللَّهُ في الدنيا خيرًا مما يطلبُه السَّاحرُ ويؤثرُه، مع تعجيلِه عِزَّ التَّقوى وشرفها، وثوابَ الآخرةِ وعُلُوَّ درجاتِهَا، فتبيَّنَ بهذا أنَّ إيثارَ المعصيةِ على الطاعةِ إنما يحملُ عليه الجهلُ، فلذلكَ كان كُلُّ مَنْ عصى

اللَّهَ جاهلاً، وكُلُّ مَنْ أطاعَه عالمًا، وكفى بخشيةِ اللَّه علمًا، وبالاغترار به جهلاً. وأمَّا التوبةُ من قريب فالجمهورُ على أنَّ المرادَ بها التوبةُ قبلَ الموت، فالعمرُ كلُّه قريبٌ، والدنيا كلُّها قريبٌ. فمن تابَ قبل الموتِ فقد تابَ من قريبٍ، ومن ماتَ ولم يتُبْ فقد بَعُدَ كلَّ البُعد(١) .

* * *

عن جابرِ بنِ عبدِ اللَّهِ رضي الله عنه: أنَّ رجلاً سألَ رسولَ اللَّهِ ﷺ فقالَ: أرأيتَ إذا صلَّيتُ المكتُوباتِ، وصُمْتُ رمضانَ، وأحْلَلْتُ الحلالَ، وحرَّمْتُ الحرامَ، ولم أزِدْ على ذلك شيئًا، أأدخلُ الجنَّةَ؟ قال: «**نعَمْ**» رواه مسلم.

هذا الحديثُ: خرَّجه مسلمٌ(٢) من روايةِ أبي الزبيرِ عن جابرٍ، وزادَ في آخرِه: قال: واللَّهِ لا أزيدُ على ذلكَ شيئًا. وخرَّجه(٣) - أيضًا - من روايةِ الأعمشِ عن أبي صالحٍ وأبي سفيانَ عن جابرَ قالَ: قال النعمانُ بنُ قوقل: يا رسولَ اللَّهِ، أرأيتَ إذا صليتُ المكتوبة، وحرمتُ الحرامَ، وأحللتُ الحلالَ ولم أزدْ على ذلكَ شيئًا أأدخُلُ الجنَّةَ؟ قال النبيُّ ﷺ: «**نعم**».

وقد فسرَ بعضُهم تحليلَ الحلال باعتقادِ حلِّه، وتحريمَ الحرامِ باعتقاد حُرمته مع اجتنابِهِ، ويُحتملُ أن يرادَ بتحليلِ الحلالِ إتيانُه، ويكونُ الحلالُ ههنا عبارةً عمَّا ليس بحرامٍ، فيدخلُ فيه الواجبُ والمستحبُّ والمباحُ، ويكونُ المعنى أنَّه يفعلُ ما ليس بمحرَّمٍ عليه، ولا يتعدَّى ما أُبيحَ له إلى غيرِه، ويجتنبُ المحرَّماتِ. وقد رُوي عن طائفةٍ من السلف، منهم ابنُ مسعودٍ وابنُ عباسٍ في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿**الَّذينَ آتَيْنَاهُمُ الْكتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تلاوَته أُوْلَئكَ يُؤْمنُونَ به**﴾

(١) «لطائف المعارف» (ص٥٧٠ - ٥٧١).
(٢) مسلم (١/ ٣٤). (٣) مسلم (١/ ٣٣).

[البقرة:١٢١] قالُوا: يُحلُّونَ حلالَهُ ويحرِّمون حرامَه، ولا يُحرِّفونه عن مواضعِهِ.

والمرادُ بالتحليلِ والتحريمِ فعلُ الحلالِ واجتنابُ الحرامِ كما ذُكرَ في هذا الحديث. وقد قالَ اللَّه في حقِّ الكفارِ الذينَ كانُوا يُغيِّرونَ تحريمَ الشُّهورِ الحُرُم: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة:٣٧] ، والمرادُ: أنَّهم كانُوا يُقاتلونَ في الشهرِ الحرامِ عامًا، فيُحلونهُ بذلكَ، ويمتنعونَ من القتالِ فيه عامًا، فيحرِّمونَهُ بذلكَ.

وقالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [المائدة:٨٧ - ٨٨] وهذهِ الآيةُ نزلتْ بسببِ قومٍ امتنعوا من تناولِ بعضِ الطيباتِ زهدًا في الدنيا وتقشفًا، وبعضُهم حرَّمَ ذلكَ عن نفسِه، إمَّا بيمينٍ حلَفَ بها، أو بتحريمِهِ على نفسِهِ، وذلكَ كلُّه لا يوجبُ تحريمَهُ في نفسِ الأمرِ، وبعضُهم امتنعَ منه من غيرِ يمينٍ ولا تحريمٍ، فسمَّى الجميعَ تحريمًا، حيثُ قصدَ الامتناعَ منه إضرارًا بالنفسِ، وكفًا لها عن شهواتِهَا. ويقالُ في الأمثالِ: فلانٌ لا يحلِّلُ ولا يحرِّمُ، إذا كان لا يمتنعُ من فعلِ حرامٍ، ولا يقفُ عندَ ما أُبيحَ له، وإن كان يعتقدُ تحريمَ الحرامِ، فيجعلونَ من فعلَ الحرامَ ولم يتحاشَ منه مُحلِّلاً له، وإن كانَ لا يعتقدُ حلَّه. وبكلِّ حالٍ، فهذا الحديثُ يدلُّ على أنَّ من قامَ بالواجباتِ، وانتهى عن المحرَّماتِ، دخلَ الجنَّةَ.

وقد تواترتِ الأحاديثُ عنِ النبيِّ ﷺ بهذا المعنى، أو ما هو قريبٌ منه(١).

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٥٤٢ ـ ٥٤٤).

قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾

[قالَ البخاريُّ]: «بابُ: قولِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥].

حديثُ عمرَ في سببِ نزولِ هذه الآيةِ، قد خرَّجهُ البخاريُّ فيما بعد، وسيأتي في موضعهِ قريبًا - إن شاء اللَّه تعالَى.

[قال البخاريُّ]: حدَّثنا الحُمَيْديُّ: ثنا سفيانُ: ثنا عمْرُو بنُ دينارٍ، قالَ: سألنا ابنَ عُمَرَ عن رجلٍ طافَ بالبيتِ العُمْرةَ، ولمْ يطفْ بيْنَ الصَّفا والمرْوةِ، أيأتي امرأتَه؟ فقالَ: قدِمَ النبيُّ ﷺ فطافَ بالبيْتِ سبْعًا، وصلَّى خلفَ المقامِ ركْعتينِ، وطافَ بيْنَ الصَّفا والمرْوةِ، وقدْ كانَ لكُمْ في رسولِ اللَّهِ أسْوَةٌ حسنةٌ.

وسألنا جابرَ بنَ عبدِ اللَّهِ، فقالَ: لا يقْربنَّها حتَّى يطوف بيْن الصَّفا والمروة[(١)].

مقصودُهُ من هذا الحديثِ هاهنا: أنَّ النبيَّ ﷺ لما اعتمرَ طافَ بالبيتِ وصلَّى خلف المقامِ ركعتينِ، وكذلك فَعلَ في حَجَّتِهِ - أيضًا.

وقد رَوى جابرٌ أنَّ النبيَّ ﷺ تلا هذهِ الآيةَ عندَ صلاتِهِ خلفَ المقامِ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥].

خرَّجه مسلمٌ[(٢)].

وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ المرادَ بمقامِ إبراهيمَ في الآيةِ: مقامُه المُسمَّى بذلكَ

---
(١) البخاري (١/١٠٩).
(٢) مسلم (٤/٣٩).

عندَ البيتِ، وهوَ الحَجَرُ الذي كانَ فيه أثرُ قـدمِه عليه السلام، وهذا قولُ كثيرٍ منَ المفسرينَ.

وقال كثيرٌ منهم: المرادُ بمقامِ إبراهيمَ: الحجُّ كلُّه.

وبعضُهم قالَ: الحرمُ كلُّه.

وبعضُهم قالَ: الوقوفُ بعرفـةَ، ورميُ الجمارِ والطوافُ، وفسَّرُوا المصلَّى: بالدعاءِ، وهو موضعُ الدعاءِ.

ورُوي هذا المعنى عن ابنِ عباسٍ ومجاهدٍ وغيرِهما.

وقد يُجْمعُ بين القولينِ، بأنْ يُقالَ: الصلاةُ خلفَ المقامِ المعروف داخلٌ فيما أُمِرَ به من الاقتـداءِ بإبراهيمَ عليه السلامُ مما في أفعـالِه في مناسكِ الحجِّ كلِّها واتخاذِهَا مواضعَ للدعاءِ وذكرِ اللَّهِ.

كما قالتْ عائـشةُ - ورُوي مرفوعًا -: «**إنَّما جُعِلَ الطوافُ بالـبيتِ والسعيُ بينَ الصفا والمروةِ ورَمْيُ الجمارِ لإقامةِ ذِكْرِ اللَّهِ**».

خرَّجه أبو داودَ والترمذيُّ (١).

فدلالةُ الآيةِ على الصلاةِ خلفَ مقامِ إبراهـيمَ عليه السلامُ لا تُنافي دلالتَها على الوقوفِ في جـميعِ مواقـفِه في الحجِّ لذكـرِ اللَّهِ ودعائِه والابتهـالِ إليهِ. واللَّه أعلمُ.

وبكلِّ حالٍ؛ فالأمرُ باتـخاذِ مقامِ إبراهيمَ مُصلًّى لا يدْخلُ فيـه الصلاةُ إلى البيتِ إلا أن تكونَ الآيةُ نزلتْ بعد الأمرِ باستقبالِه، وحديثُ عمرَ قد يُشْرِعُ بذلك.

(١) أبو داود (١٨٨٨)، والترمذي (٩٠٢).

فيكون حينئذٍ مما أُمِرَ به من اتخاذ مقامِ إبراهيمَ مُصلًّى: استقبالُ البيتِ الذي بناهُ في الصلاةِ إليه، كما كانَ إبراهيمُ يستقبلُهُ، وخصوصًا إذا كانتِ الصلاةُ عندَهُ.

وعلى هذا التقديرِ يَظْهرُ وجهُ تبويبِ البخاريِّ على هذهِ الآيةِ في «أبوابِ استقبالِ القبلةِ»، وإلا ففيه قَلَقٌ. واللَّه أعلمُ[(١)].

* * *

[قال البخاريُّ][(٢)]: حدَّثنا عمْرُو بْنُ عونٍ: ثنا هُشَيْمٌ، عنْ حُميدٍ، عنْ أنسٍ، قالَ: قالَ عُمَرُ: وافقتُ ربِّي في ثلاثٍ: قُلتُ: يا رسولَ اللَّه، لو اتَّخَذْنَا منْ مقامِ إبراهيمَ مُصلًّى، فنزلَتْ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥]، وآيةُ الحجابِ، قُلتُ: يا رسولَ اللَّه، لوْ أمرتَ نساءَكَ أن يحْتَجِبْنَ، فإنَّه يُكلِّمُهُنَّ البَرُّ والفاجرُ، فنزلَتْ آيةُ الحِجابِ، واجْتَمعَ نساءُ النبيِّ ﷺ في الغيْرةِ عليْهِ، فقُلْتُ لهُنَّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم٥]، فنزلتْ هذهِ الآيةُ.

وقالَ ابنُ أبي مريمَ: أبنا يحيى بنُ أيوبَ: حدَّثني حُميدٌ، قالَ: سمعتُ أنسًا ـ بهذا[(٣)].

هذا الحديثُ مشهورٌ عن حميدٍ، عنْ أنسٍ، وقد خرَّجَهُ البخاريُّ ـ أيضًا ـ في «التفسيرِ»[(٣)] من حديثِ يحيى بن سعيدٍ، عنْ حُميدٍ.

ورواه ـ أيضًا ـ يزيدُ بن زُرَيْعٍ وابنُ عُليَّةَ وابنُ أبي عديٍّ وحمادُ بنُ سلمةَ

---

(١) «فتح الباري» (٢/ ٢٩٩ ـ ٣٠١).
(٢) البخاري (١/ ١١١).
(٣) البخاري (٦/ ٢٤).

وغيرُهُم، عن حميدٍ، عنْ أنسٍ.

وإنَّما ذكرَ البخاريُّ روايةَ يحيى بنِ أيوبَ: حدثني حميد، قالَ: سمعتُ أنسًا؛ ليبينَ به أنَّ حميدًا سمعَهُ من أنسٍ، فإنّ حميدًا يروي عن أنسٍ كثيرًا.

ورُوي عن حمادِ بنِ سلمةَ، أنَّه قالَ: أكثرُ حديثِ حميدٍ لم يسمعْه من أنسٍ، إنَّما سمعه من ثابتٍ، عنهُ.

ورُوي عن شعبةَ، أنه لم يسمعْ من أنسٍ إلا خمسةَ أحاديثٍ.

وروي عنه، أنَّه لم يسمع منه إلا بضعة وعشرينَ حديثًا.

وقد سبقَ القولُ في تسامحِ يحيى بنِ أيوبَ والمصريينَ والشاميينَ في لفظةِ: «ثنا» ـ: كما قاله الإسماعيليُّ.

وقالَ عليُّ بنُ المدينيُّ في هذا الحديثِ: هو من صحيحِ الحديثِ.

ولم يخرِّجْ مسلمٌ هذَا الحديثَ، إنَّما خرَّجَ[1] من روايةِ سعيدِ بنِ عامرٍ، عن جُويريةَ، عن نافعٍ، عن ابنِ عمرَ، عن عُمرَ، قالَ: وافقتُ ربِّي في ثلاثٍ: في الحجابِ، وفي أُسارَى بَدْرٍ، وفي مقامِ إبراهيمَ.

وقد أعلَّه الحافظُ أبو الفضلِ بنُ عمارٍ الشهيدُ[2] ـ رحمه اللَّهُ ـ بأنَّه روي عن سعيدِ بنِ عامرٍ، عن جُويريةَ، عن رجلٍ، عن نافعٍ، أنَّ عُمرَ قالَ: وافقتُ ربِّي في ثلاثٍ: فدخَلَ في إسنادِهِ رجلٌ مجهولٌ، وصار منقطعًا.

وروى ابنُ أبي حاتمٍ[3] من طريقِ عبدِ الوهابِ بنِ عطاءٍ، عن ابنِ جُريجٍ،

---

(١) (٧/ ١١٦).

(٢) في «علل مسلم» (ص ١٣٩).

(٣) في «التفسير» ـ كما في «التفسير» لابن كثير ـ (١/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤).

عن جعفرِ بنِ محمدٍ، عن أبيه: سمعتُ جابراً يُحدِّث عن حجةِ الوداعِ قالَ: لما طافَ النبيُّ ﷺ قالَ له عُمرُ: هذا مقامُ إبراهيمَ؟ قالَ: «نعمَ»، قالَ: أفلاَ نتخذُهُ مُصلَّى؟ فأنزلَ اللَّهُ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥].

وهذا غريبٌ، وهو يدلُّ على أنَّ هذا القولَ كانَ في حجةِ الوداعِ، وأنَّ الآيةَ نزلتْ بعد ذلكَ، وهو بعيدٌ جدًّا، وعبدُ الوهابِ ليسَ بذاك المتقنِ.

وقد خالفَهُ الحفاظُ، فرووا في حديثِ حجةِ الوداعِ الطويلِ، عن جعفرِ بنِ محمدٍ، عن أبيه، عن جابرٍ، أنَّ النبيَّ ﷺ أتى إلى المقامِ، وقرأ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥]، ثم صلَّى ركعتينِ، والمقامُ بينه وبينَ البيتِ.

وروى الوليدُ بنُ مسلمٍ، عنْ مالكٍ، عن جعفرٍ، عن أبيهِ، عن جابرٍ، قالَ: لمَّا وقفَ النبيُّ ﷺ يومَ فتحِ مكةَ عندَ مقامِ إبراهيمَ، قالَ له عُمَرُ: يا رسولَ اللَّهِ، هذا مقامُ إبراهيمَ الذي قالَ اللَّهُ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥]؟ قال: «نَعَمْ».

قال الوليدُ: قلتُ لمالكٍ: هكذا حدَّثك؟ قال: نعَمْ.

وقد خرَّجه النسائيُّ [(١)] بمعناه.

والوليدُ كثيرُ الخطأِ ـ: قاله أبو حاتمٍ وأبو داودَ وغيرُهُما.

وذكر فتحِ مكةَ فيه غريبٌ أو وهْمٌ، فإنَّ هذا قطعةٌ من حديثِ جابرٍ في حجةِ الوداعِ.

---

(١) النسائي (٥/ ٢٣٦).

وقد رُويَ حديثُ أنسٍ، عن عُمرَ من وجهٍ آخر:

خرَّجه أبو داودُ الطيالسيُّ [(١)]: ثنا حمـادُ بنُ سلمةَ: ثنا عليُّ بنُ زيدٍ، عن أنسٍ، قالَ: قالَ عمرُ: وافقتُ ربِّي في أربع ـ فـذكرَ الخصالَ الثلاثَ المذكورةَ في حديثِ حميدٍ، إلا أنَّه قال في الحِجابِ: فأنزلَ اللَّهُ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ [الأحزاب:٥٣]، قال: ونزلتْ هذه الآيةُ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ الآية [المؤمنون:١٢]، فلما نزلتْ قلـتُ أنا: تباركَ اللَّهُ أحسنُ الخالقينَ، فنزلَ: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون:١٤].

وقولُ عُمرَ: «وافقتُ ربِّي في ثلاثٍ»، ليسَ بصيـغةِ حصرٍ، فقدْ وافقَ في أكثرَ من هذه الخصالِ الثلاثِ والأربعِ.

ومما وافقَ فيه القرآنَ قبلَ نزولِهِ: النهيُّ عن الصلاةِ على المنافقينَ.

وقولُهُ لليهودِ: من كانَ عدوًا لجبريلَ، فنزلتِ الآيةُ.

وقولُهُ للنبيِّ ﷺ لما اعتـزل نساءَه ووَجَدَ عليـهنَّ: يا رسولَ اللَّهِ، إنْ كنتَ طلقتَهَنَّ، فإنَّ اللَّه معكَ وملائكتَه وجبريلَ وميكائيل، وأنا وأبو بكر والمؤمنونَ معك. قالَ عمرُ: وقلَّ ما تكلمتُ ـ وأحمدُ اللَّهَ ـ بكلامٍ إلا رجوتُ أن يكونَ اللَّه يصدِّقُ قولِي الذي أقولُ، فنزلتْ آيةُ التخييرِ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ الآية [التحريم:٥].

وقد خرَّج هذا الأخيرَ مسلمٌ [(٢)] من حديثِ ابنِ عباسٍ، عن عمرَ.

وأمـا مـوافـقـتُهُ فـي النهيِّ عنِ الصـلاةِ على المنافـقينَ، فـمـخـرَّجٌ في

(١) «المسند» (١/٤١).

(٢) مسلم (٤/١٨٨ ـ ١٨٩).

«الصحيحين» (١) من حديثِ ابنِ عباسٍ، عن عُمرَ ـ أيضًا.

وأما موافقتُهُ في قولِهِ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ﴾ [البقرة:٩٧]، فرواه: أبو جعفرٍ الرازيُّ، عن حُصينِ بنِ عبدِ الرحمنِ، عنْ ابنِ أبي ليلى، عن عُمرَ. ورواه: داودُ، عن الشعبيِّ، عن عمرَ، هما منقطعانِ.

وقد رُوي موافقته في خصالٍ أخرَ، وقد عدَّ الحافظُ أبو موسى المدينيُّ من ذلك اثنتي عشرةَ خصلةً.

وتخريجُ البخاريِّ لهذا الحديثِ في هذا البابِ: يدلّ على أنه فسر قولَهُ تعالَى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥] بالأمرِ بالصلاةِ إلى البيتِ الذي بناهُ إبراهيمُ، وهو الكعبةُ، والأكثرونَ على خلافِ ذلكَ، كما سبقَ ذكرُهُ(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾

خرَّج البخاريُّ ومسلمٌ (٣): من حديثِ: أبي إسحاقَ، عنِ البراءِ، أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ أولَ ما قدمَ المدينةَ نزلَ على أجْدادِهِ ـ أوْ قالَ: أخوالِهِ ـ من الأنْصارِ، وأنَّه صلَّى قِبَلَ بيتِ المقْدسِ ستَّةَ عشرَ شهرًا ـ أوْ سبعة عشْر شهْرًا ـ وكان يُعجِبُهُ أنْ تكونَ قبْلَتُهُ قِبَلَ البيتِ، وأنَّه صلَّى أوَّل صلاة صلاَّها صلاةَ العصرِ، وصلَّى معه قومٌ، فخرجَ رجلٌ ممَّنْ صلَّى معه، فمرَّ على أهْلِ مسجدٍ وهُمْ راكعُونَ، فقال: أشْهَدُ باللَّه، لقدْ صلَّيْتُ مع رسولِ اللَّهِ ﷺ قِبَلَ مكَّةَ،

(١) البخاري (٢/ ١٢١)، ولم نجده في مسلم، ولم يعزه المزيُّ في «التحفة» لمسلم، بل للبخاري فقط.

(٢) «فتح الباري» (٢/ ٣١٦ ـ ٣٢٠).

(٣) البخاري (١/ ١٦)، ومسلم (٢/ ٦٥).

فداروا كما هُمْ قِبَلَ البيْتِ. وكانتِ اليهودُ قد أعْجبَهُم إذْ كانَ يُصلِّي قِبلَ بيتِ المقدسِ، وأهلُ الكتابِ، فلمَّا ولَّى وجهه قبل البيتِ، أنكروا ذلك.

قال زُهيْـرٌ: ثنا أبو إسحاقَ، عنِ البـراءِ ـ في حديثِـهِ هذا ـ أنَّه ماتَ على القبْلةِ قبْلَ أن تُحوَّل رجالٌ وقُتِلُوا، فلم نَدْرِ ما نقولُ فيهم، فأنزلَ اللَّه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣].

قالَ البخاريُّ: يعنِي: صلاتكُمْ.

وبوَّبَ على هذا الحديثِ: «بابُ: الصَّلاةِ منَ الإيمانِ».

والأنصارُ للنبيِّ ﷺ فيهم نسبٌ؛ فإنَّهم أجدادُه وأخـوالُه من جهةِ جدِّ أبيه هاشمِ بنِ عبدِ منافٍ، فإنه تزوَّج بالمدينة امـرأةً من بني عديٍّ بنِ النجارِ، يُقالُ لها: سلمَى، فولدتْ له ابنَه عبدَ المطلبِ، وفي رأسِهِ شيبةٌ، فسمِّي شيبةً.

وذكرَ ابنُ قتيبةَ: أن اسمَهُ عامرٌ، والصحيحُ: أن اسمَه شيبةٌ.

وإنَّما قـيل له: عبدُ المطلب؛ لأنَّ عـمَّه المطلبَ بنَ عبـدِ منافٍ قدمَ به منَ المدينةِ إلى مكة، فقـالتْ قريشٌ: هذا عبدُ المطلبِ، فقـالَ: ويحكُم، إنَّما هو ابنُ أخي شيبةُ بنُ عمرو، وهاشمٌ اسمُه عمْرو.

ففي حديث البراءِ هذا: أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا قدِمَ المدينـةَ نزلَ على أجدادِهِ ـ أو قالَ: أخوالِهِ ـ منَ الأنصارِ.

وظاهرُهُ: يدلُّ على أنَّه نزلَ على بني النجارِ؛ لأنَّـهم هُمْ أخوالُه وأجدادُه، وإنما أرادَ البراءُ جنسَ الأنصارِ دونَ خصوصِ بني النجارِ.

وقد خرَّج البخـاريُّ في «كتاب الصلاةِ»[١] و«أبواب الهجرةِ»[٢] من حديثِ

---

(١) البخاري (١/ ١١٧).
(٢) البخاري (٥/ ٨٦).

أنسٍ، أنَّ النبيَّ ﷺ لما قدمَ المدينةَ نزلَ في علوِ المدينة، في حيٍّ يقالَ لهمْ: بنُو عمْرو بنِ عوفٍ، فأقامَ فيهم أربعَ عشرة ليلةً، ثم أرسلَ إلى ملإٍ بني النجارِ، فجاءُوا متقلِّدينَ سيوفهم. قال: وكأني أنظر إلى رسولِ اللَّه ﷺ على راحلته وأبو بكرٍ ردفَه وملأُ بني النجارِ حولَهُ، حتى ألقى بفناءِ أبي أيوبَ - وذكرَ الحديثَ.

وخرَّج - أيضًا (١) - معنى ذلك، من حديث الزهريِّ، عن عروةَ بنِ الزبيرِ.

وأما ما ذكرَهُ البراءُ في حديثِهِ: أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى بالمدينةِ قِبَلَ بيت المقدسِ ستةَ عشرَ - أو سبعة عشرَ - شهرًا، فهذا شكٌّ منه في مقدارِ المدة.

ورُوي عن ابنِ عباسٍ، أنَّ مدةَ صلاتِهِ بالمدينةِ إلى بيتِ المقدسِ كانت ستةَ عشرَ شهرًا.

خرَّجه أبو داودَ (٢) .

وخرَّج - أيضًا (٣) - من حديثِ معاذٍ، أنَّ مدةَ ذلك كانَ ثلاثةَ عشرَ شهرًا.

وروَى كثيرُ بنُ عبدِ اللَّهِ المُزنيُّ - وهو ضعيفٌ -، عن أبيه، عن جدِّهِ عمرِو ابنِ عوفٍ، قالَ: كنَّا معَ رسولِ اللَّهِ ﷺ حينَ قدمَ المدينةَ، فصلَّى نحو بيتِ المقدسِ سبعةَ عشرَ شهرًا(٤) .

(١) البخاري (٥/ ٧٦).
(٢) لم أجدْه في أبي داود، والحديث أخرجه أحمد (١/ ٣٢٥) من حديث ابن عباس.
(٣) أبو داود (٥٠٧).
(٤) أخرجه البزار (٤١٧) «كشف الأستار»، وعزاه الهيثمي في «المجمع» للطبراني في «الكبير»، ولم تُطبع أحاديث عمرو بن عوف.

وقالَ سعيدُ بن المسيبِ: صلَّى رسولُ اللَّه ﷺ نحوَ بيت المقدسِ تسعةَ عشرَ شهرًا، ثم حُوِّلتِ القبلةُ بعدَ ذلكَ قِبَلَ المسجدِ الحرامِ، قبْلَ بدرٍ بشهرينِ[١] .

ورواه بعضُهم، عن سعيدٍ، عن سعدِ بنِ أبي وقاصٍ[٢] .

والحفاظُ يروْن، أنَّه لا يصحُّ ذكرُ: «سعدِ بنِ أبي وقاصٍ» فيه.

وقيلَ: عن سعيدِ بنِ المسيبِ ـ في هذا الحديثِ ـ: ستةَ عشرَ شهرًا.

وكذا قالَ محمدُ بنُ كعبٍ القرظيُّ وقتادةُ[٣] وابنُ زيدٍ[٤]، وغيرُهُم: إنَّ مدةَ صلاتِه إلى بيتِ المقدسِ كانتْ ستةَ عشرَ شهرًا.

وقالَ الواقديُّ: الثبتُ عندنا أنَّ القبلةَ حُولِّتْ إلى الكعبةِ يوم الاثنينِ، للنصفِ من رجبٍ، على رأسِ سبعةَ عشرَ شهرًا.

وعن السُّدِّيِّ[٥]، أنَّ ذلكَ كانَ على رأسِ ثمانيةَ عشرَ شهرًا.

وقيلَ: كانَ بعدَ خمسةَ عشرَ شهرًا ونصف.

ولا خلافَ أنَّ ذلك كانَ في السنةِ الثانيةِ منَ الهجرةِ، لكن اختلفوا في أيِّ شهرٍ كانَ؟

فقيلَ: في رجبٍ، كما تقدمَ، وحُكي ذلك عن الجمهورِ، منهم: ابنُ إسحاقَ.

وقيلَ: في يومِ الثلاثاءِ نصفَ شعبانَ، وحُكيَ عن قتادةَ، واختارَه محمدُ

(١) أخرجه مالك في «الموطإ» (ص ١٣٨)، والطبري في «التفسير» (٢/ ٣)، وابن سعد (١/ ٢/ ٤).
(٢) البيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٣).
(٣) الطبري في «التفسير» (٢/ ٥).
(٤) الطبري في «التفسير» (٢/ ٢٠).
(٥) الطبري في «التفسير» (٢/ ١٩).

ابنُ حبيبٍ الهاشميُّ وغيرُهُ.

وقيلَ: بل كانَ في جُمادى الأولِ، وحُكيَ عن إبراهيمَ الحربيِّ، ورواه الزهريُّ عن عبدِ الرحمنِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ كعبِ بنِ مالكٍ.

وقولُهُ: «وكان يعجبُه ـ يعني: النبيَّ ﷺ ـ أن تكونَ قبلتُه قبلَ البيتِ» ـ يعني: الكعبةَ.

هذا؛ يشهدُ له قولُ اللَّه تعالى: ﴿**قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ [البقرة:١٤٤].

وروى معاويةُ بنُ صالحٍ، عن عليِّ بنِ أبي طلحةَ، عن ابنِ عباسٍ، قالَ: لما هاجرَ النبيُّ ﷺ إلى المدينةِ، وكانَ أكثرَ أهلِهَا اليهودُ، أمرَهُ اللَّهُ أنْ يستقبلَ بيتَ المقدسِ، ففرحتِ اليهودُ، فاستقبلَها رسولُ اللَّه ﷺ بضعةَ عشرَ شهرًا، فكانَ رسولُ اللَّه ﷺ يحبُّ قبلةَ إبراهيمَ، فكانَ يدعو وينظرُ إلى السماءِ، فأنزلَ اللَّهُ: ﴿**قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ**﴾(١) الآية [البقرة:١٤٤].

وقالَ مجاهدٌ: إنَّما كان يحبُّ أنْ يُحوَّلَ إلى الكعبةِ، لأنَّ يهودَ قالُوا: يخالفُنا محمدٌ ويتبعُ قبلَتنا(٢).

وقالَ ابنُ زيدٍ: لَمَّا نزلَ: ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾ [البقرة:١١٥] قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**هؤلاءِ قومُ يهود يستقبلون بيتًا من بيوت اللَّه ـ لبيتِ المقدسِ ـ لو أنَّا استقبلناه**»، فاستقبلَه النبيُّ ﷺ ستةَ عشرَ شهرًا، فبلغَه أن اليهود تقولُ: واللَّهِ، ما درى محمدٌ وأصحابُهُ أين قبلتُهُم حتَّى هديناهم، فكرهَ ذلك النبيُّ ﷺ ورفعَ وجهَه إلى السماءِ، فنزلتْ هذه الآيةُ: ﴿**قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي**

(١) الطبري في «التفسير» (٢/ ٢٠).
(٢) الطبري في «التفسير» (٢/ ٢٠).

السَّمَاءِ﴾[(١)] [البقرة:١٤٤].

ويشهدُ لهذا: ما في حديثِ البراءِ: «وكانتِ اليهودُ قد أعجبَهم إذْ كان يصلِّي قِبلَ بيتِ المقدسِ وأهل الكتابِ ـ يعني: من غيرِ اليهودِ، وهُم النصارَى ـ فلمَّا ولَّى وجهَه قِبلَ البيتِ أنكرُوا ذلك».

وقد اختلفَ الناسُ: هل كانَ النبيُّ ﷺ بمكةَ قبلَ هجرتِهِ يصلِّي إلى بيتِ المقدسِ، أو إلى الكعبة؟

فرُوي عن ابنِ عباسٍ، أنَّه كانَ يصلِّي بمكةَ نحوَ بيتِ المقدسِ، والكعبةُ بينَ يديْه.

خرَّجه الإمام أحمدُ[(٢)].

وقالَ ابنُ جُرَيج[(٣)]: صلَّى أولَ ما صلَّى إلى الكعبةِ، ثم صُرِفَ إلى بيتِ المقدسِ، وهو بمكةَ، فصلَّتِ الأنصارُ قبْلَ قدومِهِ ﷺ إلى بيتِ المقدسِ ثلاثَ حججٍ، وصلَّى بعد قدومِهِ ستةَ عشرَ شهرًا، ثم وجَّههُ اللَّهُ إلى البيت الحرامِ.

وقال قتادةُ[(٤)]: صلتِ الأنصارُ قبلَ قدومِهِ ﷺ المدينةَ نحوَ بيتِ المقدسِ حولينِ.

واستدلَّ من قالَ: إنَّما صلَّى النبيُّ ﷺ إلى بيتِ المقدسِ ستةَ عشرَ شهرًا، أو سبعةَ عشرَ شهرًا، فدلَّ على أنَّه لم يصلِّ إليه غيرَ هذه المدة.

ولكن قد يقال: إنَّه إنَّما أرادَ بعدَ الهجرةِ.

---

(١) الطبري في «التفسير» (١/ ٥٠٢ ـ ٥٠٣).
(٢) أحمد في «المسند» (١/ ٣٢٥).
(٣) الطبري في «التفسير» (٢/ ٥).
(٤) الطبري في «التفسير» (٢/ ٥).

ويدلُّ عليه ـ أيضًا ـ: أن جبريلَ صلَّى بالنبيِّ ﷺ أولَ ما فُرضت الصلاةُ عند بابِ البيتِ، والمصلِّي عند بابِ البيتِ لا يستقبلُ بيتَ المقدسِ، إلا أن ينحرفَ عن الكعبةِ بالكليّةِ، ويجعلُها عن شمالِه، ولم ينقلْ هذا أحدٌ [ ][1].

وهؤلاءِ؛ منهم مَن قال: ذلكَ كانَ باجتهادٍ منه لا بوحيٍ، كما تقدمَ عن ابنِ زيدٍ.

وكذا قالَ أبو العاليةَ: إنَّه صلَّى إلى بيتِ المقدسِ يتألفُ أهلَ الكتابِ[2].

وفي «صحيحِ الحاكمِ»[3] عن ابنِ جريجٍ، عن عطاءٍ، عن ابنِ عباسٍ: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة:١١٥]، فاستقبل رسولُ اللَّه ﷺ، فصلَّى نحوَ بيت المقدسِ، وتركَ البيتَ العتيقَ، فقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ [البقرة:١٤٢] يعنونَ: بيتَ المقدسِ، فنسخَها اللَّهُ وصرفَه إلى بيتِ العتيقِ.

وقال: صحيحٌ على شرطِهِما.

وليس كما قال؛ فإنَّ عطاءً هذا هو الخُراسانيُّ، ولم يلقَ ابنَ عباسٍ.

كذا وقعَ مصرَّحًا بنسبَتِهِ في «كتاب الناسخِ والمنسوخِ» لأبي عبيدٍ، ولابنِ أبي داودَ، وغيرِهِما.

وقولُ البراءِ: «وكانَ أولَّ صلاةٍ صلاها العصرَ».

يعني: إلى الكعبةِ، بعدَ الهجرةِ.

وقد رُوي عن عمارةَ بنِ أوسٍ ـ وكانَ قد صلَّى القبلتينِ ـ، قالَ: كنّا في

---

(١) بياض بالأصل.
(٢) الطبري في «التفسير» (٢/ ٤).
(٣) الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨).

إحـدى صلاتَي العـشيِّ ونحنُ نصلِّي إلى بيت المقـدسِ، وقـد قضـيْنَا بعضَ الصلاةِ، إذْ نادى منادٍ بالبابِ: إنَّ الـقبلةَ قد حُوِّلتْ، فأشـهدُ على إمامِنا أنَّه تحرَّف.

خرَّجه الأثرمُ وغيرُه[(١)].

وخرَّج الأثرمُ وابـنُ أبي حاتمٍ[(٢)] من حـديثِ تُوَيْلة بنت أسلمَ، قـالت: صليتُ الظهرَ - أو العصرَ - في مـسجدِ بني حارثةَ، فاستقبلْنَا مـسجدَ إيلياءَ، فصلينَا سـجدتينِ، ثمَّ جاءنا مَن يخبـرُنا أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قد استقبلَ البيتَ الحـرامَ، فـتحـوَّلَ النسـاءُ مكانَ الرجـالِ، والرجـالُ مكانَ النسـاءِ، فـصلَّيْنَا السجدتينِ الباقيتينِ، ونحنُ مستقبلو البيتِ الحرامِ.

وقد رُوي أن هذه الصلاةَ كانتْ صلاةَ الفجرِ.

ففي «الصحيحينِ»[(٣)] عن ابنِ عـمرَ، قـالَ: بينَا الناسُ بقـباءَ في صـلاةِ الصبحِ، إذ جاءهم آتٍ، فقالَ: إنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قدْ أُنزل عليه الليلةَ قرآنٌ، وقد أُمِـرَ أن يستـقبلَ الكعـبةَ، فاسْـتَقْبِـلُوها، وكانتْ وجوهُهُـم إلى الشامِ، فاستداروُا إلى الكعبة.

وخرَّجَ مسلمٌ[(٤)] - معناه - من حديثِ أنسٍ - أيضًا.

---

(١) أورده الحافظ في «الإصابة» (٤/ ٥٧٧)، وعزاه لابن أبي خـيثمـة والبغوي من طـريق قيس بن الربيع، عن زياد بن علاقة، عن عمارة بن أوس.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٢٠٧) مختصرًا بمعناه.
وراجع «الإصابة» (٧/ ٥٤٦).

(٣) البخاري (١/ ١١١)، (٦/ ٢٧)، (٩/ ١٠٨)، ومسلم (٢/ ٦٦).

(٤) مسلم (٢/ ٦٦).

وقد قيلَ - في الجمعِ بينَ الأحاديثِ -: إنَّ التحويلَ كان في صلاةِ العصرِ، ولم يبلغْ أهلَ قباءَ إلا في صلاةِ الصبحِ.

وفيه نظرٌ.

وقيلَ: إنَّ تلكَ الصلاةَ كانتِ الظهرَ.

وقد خرَّجه النسائيُّ في «تفسيرِه»(١) من حديثِ أبي سعيدِ بنِ المعلَّى، عن النبيِّ ﷺ.

ورُوي عن مجاهدٍ.

وحديثُ البراءِ: يدلُّ على أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى صلاةَ العصرِ كلَّها إلى الكعبةِ، وأنَّ الذين صلَّوْا إلى بيتِ المقدسِ ثمَّ استداروُا إلى الكعبةِ هُم قومٌ كانوا في مسجدٍ لهمْ، وراءَ إمامٍ لهم، وفي حديثِ ابنِ عمرَ: أنَّهم أهلُ مسجدِ قباءَ، وفي حديثِ تويلة: مسجدِ بني حارثةَ.

وقد رُوي أنَّ النبيَّ ﷺ ومَن صلَّى معه هم الذينَ استداروُا في صلاتهم، وأنَّ الكعبة(٢) حُوِّلتْ في أثناءِ صلاتِهم(٣).

وقد رُوي نحوُه عن مجاهدٍ وغيرِه(٤).

وقد ذكرَ ابنُ سعدٍ في «كتابِه»(٥)، قال: يقالُ: إنَّ رسولَ اللَّه ﷺ صلى ركعتين من الظهرِ في المسجدِ بالمسلمين، ثم أُمِرَ أن يتوجهَ إلى المسجدِ الحرامِ، واستدارَ إليه ودارَ معه المسلمون، ويقال: بل زارَ رسولُ اللَّهِ ﷺ أمَّ بشرِ بنِ

---

(١) «السنن الصغرى» (٢/ ٥٥) مختصرًا. (٢) لعل الأشبه: «القبلة».

(٣) الطبري في «التفسير» (٢/ ٣ - ٤) عن أنس بن مالك.

(٤) الطبري في «التفسير» (٢/ ١٢) من حديث السدي.

(٥) «الطبقات» (١/ ٢/ ٣ - ٤).

البراءِ بنِ معرورٍ في بني سلمةَ، فصنعــتْ لهم طعامًا، وكانت الظهرُ، فصلَّى رسولُ اللَّهِ ﷺ بأصحابِهِ ركعتينِ، ثم أُمِرَ أنْ يوجِّـه إلى الكعبةِ، فاستدارَ إلى الكعبةِ، واستقبلَ الميزابَ، فسُمِّي المسجدُ مسجدَ القبلتينِ.

وحكَى عن الواقديِّ، أنَّه قال: هذا الثبتُ عندنا.

وروى أبو مالكٍ النخَـعيُّ عبدُ الملكِ بنُ حسينٍ، عن زيادِ بنِ عِـلاقةَ، عن عمـارةَ بنِ رُويبةَ، قال: كُـنَّا معَ رسولِ اللَّهِ ﷺ في إحدى صـلاتَي العشيِّ، حينَ صُرِفتِ القبلةُ، فدارَ النبيُّ ﷺ ودُرْنَا معه في ركعتينِ.

خرَّجه ابنُ أبي داود[1].

وأبو مالكٍ، ضعيفٌ جدًّا.

والصـوابُ: روايةُ قيسِ بنِ الربيعِ، عـن زيادِ بنِ علاقـةَ، عن عمـارةَ بنِ أوسٍ، وقد سبق لفظُه.

ورَوى عثمانُ بنُ سعدٍ، قال: ثنا أنسُ بنُ مالكٍ، قالَ: انصرفَ رسولُ اللَّهِ ﷺ نحوَ بيتِ المقدسِ وهو يصلِّي الظهرَ، وانصرفَ بوجهه إلى القبلةِ.

خرَّجه البزارُ[2] وغيرُهُ.

وعثمانُ هذا، تُكُلِّمَ فيه.

وخرَّج الطبرانيُّ[3] من روايةِ عـمـارةَ بنِ زاذانَ، عن ثابتٍ، عن أنسٍ،

---

(١) أورده الحافظ في «الإصابة» (٤/ ٥٧٧)، وعـزاه للطبراني من حديث عبـد الملك بن حسين، عن زياد بن علاقة، عن عمارة بن رويبة.

(٢) «كشف الأستار» (٤٢٠).

(٣) الطبراني في «الصغير» (١/ ١٤٥).

قال: صُرِفَ النبيُّ ﷺ عن القبلةِ وهم في الصلاةِ، فانحرفُوا في ركوعِهم.

وعمارةُ، ليسَ بالقويِّ.

وخالفَه حمـاد بنُ سلمةَ، فروى عن ثابتٍ، عن أنسٍ، أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ كانَ يصلِّي نحوَ بيتِ المقدسِ، فنزلتْ: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ﴾ الآيةَ [البقرة:١٤٤]، فمرَّ رجلٌ من بني سلمةَ وهم ركـوعٌ في صلاةِ الفجرِ، فنادَى: ألا إنَّ القبلةَ قد حُوِّلت، فمالُوا كما هُمْ نحوَ القبلةِ.

خرَّجه مسلم[(١)].

وهذا هو الصحيحُ.

فإنْ كـانَ التحويـلُ قد وقعَ في أثناءِ الصلاةِ، وقـد بنى النبيُّ ﷺ على ما مضى من صـلاتِه إلى بيت المقدسِ؛ استـدلَّ بذلكَ على أنَّ الحكمَ إذا تَحوَّلَ المصلِّي في أثناء صلاتِهِ انتقلَ ما تحوَّل إليه، وبنى على ما مضى من صلاتِهِ.

فيـدخلُ في ذلكَ الأَمَـةُ إذا أُعتِـقَتْ في صلاتِهـا وهي مكشوفـةُ الرأسِ، والسترة قريبةٌ، والمتيممُ إذا وجدَ الماءَ في صلاتِهِ قريبًا، وقدرَ على الطهارةِ بهِ، والمريضُ إذا صلَّى بعضَ صلاتِهِ قاعدًا، ثم قدرَ على القيامِ.

وإنْ كـانَ التحـويلُ وقعَ قبلَ صـلاةِ النبيِّ ﷺ بأصحـابِهِ، ولكن لم يبلغْ غيـرَهم إلا في أثناءِ صلاتِهِم فـبنَوْا؛ استدلَّ به علـى أن من دخلَ في صلاته باجتهادٍ سائغٍ إلى جهةٍ، ثمَّ تبينَ لهُ الخطأُ في أثناءِ الصلاةِ، أنَّه ينتقلُ ويبني.

ويستدلُّ به على أنَّ حكمَ الخطابِ لا يتعلقُ بالمكلفِ قبلَ بلوغِهِ إياهُ.

---

(١) مسلم (٢/ ٦٦).

ويستدلُّ به ـ على التَّقْديرَينِ ـ على قبولِ خبرِ الواحدِ الثقة في أمورِ الدياناتِ، مع إمكانِ السماعِ منَ الرسولِ ﷺ بغيرِ واسطةٍ، فمع تعذرِ ذلكَ أولَى وأحرى.

وما يقالُ من أنَّ هذا يلزمُ منه نسخُ المتواترِ ـ وهو الصلاةُ إلى بيتِ المقدسِ ـ بخبرِ الواحدِ، فالتحقيقُ في جوابِهِ: أنَّ خبرَ الواحدِ يفيدُ العلمَ إذا احتفتْ به القرائنُ، فنداءُ صحابيٍّ في الطرقِ والأسواقِ بحيثُ يسمعُهُ المسلمونَ كلُّهم بالمدينةِ، ورسولُ اللَّهِ ﷺ بها موجودٌ لا يتداخلُ مَن سمعَه شكٌّ فيه أنَّه صادقٌ فيما يقولُهُ وينادي به. واللَّهُ أعلم.

وقولُ البراءِ: «إنَّه ماتَ على القبلةِ قبلَ أن تُحوَّل رجالٌ وقُتلُوا، فلم ندرِ ما نقولُ فيهم، فأنزلَ اللَّهُ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]».

فهذا خرَّجه مسلمٌ [(١)] من طريقِ إسرائيلَ، عن أبي إسحاقَ، عنِ البراءِ ـ أيضًا.

ورواه شريكٌ، عن أبي إسحاقَ، عن البراءِ [(٢)] ـ موقوفًا ـ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] قالَ: صلاتكُم إلى بيتِ المقدسِ.

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ والترمذيُّ [(٣)] ـ وصحَّحه ـ من حديثِ سماكٍ، عن عكرمةَ، عنِ ابنِ عباسٍ، قال: لَمَّا وُجِّه النبيُّ ﷺ إلى الكعبةِ، قالُوا: يا رسولَ اللَّهِ، كيفَ بإخوانِنا الذيْنَ ماتُوا وهُم يصلونَ إلى بيتِ

---

(١) هذه الرواية ليست في «مسلم» من هذه الطريق، وأخرجه أحمد (٤/ ٣٠٤)، والبخاري (١/ ١١٠)، والترمذي (٣٤٠)، و(٢٩٦٢).

(٢) الطبري في «التفسير» (٢/ ١٧).

(٣) أحمد في «المسند» (١/ ٣٤٧، ٢٩٥، ٣٠٤، ٣٢٢)، وأبو داود (٤٦٨٠)، والترمذي (٢٩٦٤).

المقدسِ؟ فأنزلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ الآية [البقرة: ١٤٣].

قالَ عبيدُ اللَّه بنُ موسى: هذا الحديثُ يخبرُكَ أنَّ الصلاةَ من الإيمانِ.

وهذا هو الذي بوَّبَ عليه البخاريُّ في هذا الموضعِ؛ ولأجلهِ ساقَ حديثَ البراءِ فيه.

وكذلك استدلَّ به ابنُ عيينةَ وغيرُهُ من العلماءِ على أنَّ الصلاةَ من الإيمانِ.

وممَّن رُويَ عنه أنَّه فسَّر هذه الآيةَ بالصلاةِ إلى بيتِ المقدسِ: ابنُ عباسٍ(١) من روايةِ العوفيِّ، عنه - وسعيدُ بنُ المسيبِ(٢)، وابنُ زيدٍ(٣)، والسُّدِّيُّ(٤) وغيرُهُم(٥).

وقال قتادةُ والربيعُ بنُ أنسٍ(٦): نزلتْ هذه الآيةُ لَمَّا قالَ قومٌ من المسلمينَ: كيف بأعمالِنا التي كنا نعملُ في قبلتنا الأولى؟

وهذا يدلُّ على أنَّ المرادَ بها الصلاةُ أيضًا؛ لأنَّها هي التي تختصُّ بالقبلة من بينِ الأعمالِ، ولم يذكرْ أكثرُ المفسرينَ في هذا خلافًا، وأنَّ المرادَ بالإيمانِ ها هنا الصلاةُ، فإنَّها عَلَمُ الإيمانِ وأعظمُ خصالِهِ البدنيةِ.

وروى ابنُ إسحاقَ: حدثني محمدُ بنُ أبي محمد، عن عكرمة أو سعيدِ ابنِ جبيرٍ - ، عن ابنِ عباسٍ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]، قال:

---

(١) الطبري في «التفسير» (٢/ ١٧).
(٢) الطبري في «التفسير» (٢/ ١٨).
(٣) المصدر السابق.
(٤) الطبري في «التفسير» (٢/ ١٧).
(٥) المصدر السابق.
(٦) المصدر السابق.

أيْ: بالقبلةِ الأولى، وتصديقِكم نبيَّكم، واتِّباعه إلى الآخرةِ، أيْ: ليعطينَّكم أجرَهما جميعًا[(١)]، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣].

وعنِ الحسنِ[(٢)] في هذه الآيةِ، قالَ: ما كانَ اللَّهُ ليضيعَ محمدًا ﷺ وانصرافكم معه حيثُ انصرفَ، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣].

وهذا القولُ: يدلُّ على أنَّ المرادَ بالإيمانِ التصديقُ مع الانقيادِ، الاتباعُ المتعلقُ بالقبلتينِ معًا، فيدخلُ في ذلكَ الصلاةُ ـ أيضًا[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾

وفي «صحيحِ مسلمٍ» عن أبي هريرةَ وأبي سعيدٍ ـ كلاهُما ـ عن النَّبيِّ ﷺ، قالَ: «إنَّ لأهلِ ذكرِ اللَّه أربعًا: تنزلُ عليهمُ السَّكينةُ، وتغشاهمُ الرَّحمةُ، وتحفُّ بهم الملائكةُ، ويذكرُهُم الرَّبُّ فيمن عندَهُ»[(٤)].

وقد قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢]، وذكرُ اللَّهِ لعبدِهِ: هو ثناؤهُ عليهِ في الملإِ الأعلَى بينَ الملائكةِ ومباهاتُهُم به وتنويهُهُ بذكرِهِ.

قال الربيعُ بنُ أنسٍ: إنَّ اللَّهَ ذاكرٌ مَنْ ذكرهُ، وزائدٌ مَنْ شكَرَهُ، ومعذِّبٌ من كفرهُ.

وقالَ عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾

---

(١) أورده ابن كثير في «التفسير» (١/ ٢٧٨)، تعليقًا عن ابن إسحاق به.

(٢) «التفسير» لابن كثير (١/ ٢٧٨)، تعليقًا عن الحسن البصري به.

(٣) «فتح الباري» (١/ ١٦٤ ـ ١٧٦).

(٤) أخرجه مسلم (٨/ ٧٢).

[الأحزاب:٤١-٤٣]، وصلاةُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ على العبدِ: هو ثناؤهُ عليهِ بين ملائكته، وتنويههُ بذكرِهِ، كذا قالَ أبو العاليةَ، ذكرهُ البخاريُّ في «صحيحه»[١].

وقالَ رجلٌ لأبـي أمامةَ: رأيتُ فـي المنامِ كأنَّ الملائكةَ تُصلِّي عليكَ كـلَّما دخلتَ، وكلَّمـا خرجتَ، وكلَّما قـمتَ، وكلَّما جلستَ، فـقالَ أبو أمـامةَ: وأنتم لو شئـتم صلَّت عليكم الملائكةُ، ثم قرأ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ**﴾ [الأحزاب:٤١-٤٣] خرَّجه الحاكم[٢]،[٣].

* * *

قال تعالى: ﴿**وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ**﴾ [البقرة:١٥٢]، وقال: ﴿**وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ**﴾ [النحل:١١٤].

والشكرُ بالقلبِ واللسانِ، والـعملُ بالجوارحِ؛ فالشكرُ بالقلبِ: الاعـترافُ بالنعمِ للمنعمِ، وأنَّها منه وبفضله. وجاءَ من حديثِ عائشةَ مرفوعًا: «**ما أنعمَ اللَّهُ على عبدٍ نعمةً فعلمَ أنَّها من عندِ اللَّهِ إلا كتبَ اللَّهُ له شكرَهَا**»[٤].

ومن الشكر بالقلبِ: مـحـبةُ اللَّهِ عـلى نعمِـهِ، ومنه حـديثُ ابنِ عبـاسٍ المرفوعُ: «**أحبُّوا اللَّهَ لما يغذوكُم به من نعمه**»[٥].

قـال بعـضُهم: إذا كـانتِ القلوبُ جـبلتْ على حـبٍّ من أحسنَ إلـيهَـا فواعجبًا لمنْ لا يَرى محسنًا إلا اللَّه! كيف لا يميلُ بكلِّيته إليه! وقالَ بعضُهم:

---

(١) البخاري (٦/ ١٥١). (٢) أخرجه الحاكم (٢/ ٤١٨).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٣١ - ٣٣٢).

(٤) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٣٧٩)، (٤٣٨٠).

(٥) أخـرجه: التـرمـذي (٣٧٨٩)، والطبراني في «الـكبيـر» (٣/ ٤٦)، والحـاكم في «المستـدرك» (٣/ ١٥٠).

إذا أنتَ لم تَزْدَدْ على كلِّ نعمةٍ لمؤتيكَها حبًّا فلستَ بشاكرٍ
إذا أنتَ لم تؤثرْ رضا اللَّهِ وحدَهُ على كلِّ ما تهوَى فلستَ بصابرٍ

والشكرُ باللسان: الثناءُ بالنعمِ وذكرُها وتعدادُها، وإظهارُهَا، قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿**وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ**﴾ [الضحى:١١]. وفي حديثِ النعمانِ بنِ بشيرٍ المرفوع: «**التحدثُ بالنعمِ شكرٌ، وتركُها كفرٌ**»(١)، وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: «ذكرُ النعمِ شكرُها»؛ وكانَ يقولُ في دعائِه: «اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بكَ أن أُبدلَ نعمتَكَ كُفراً، وأن أكفرَهَا بعد معرفتِهَا أو أنساهَا فلا أُثني بهَا»(٢). قال فضيلٌ: «كانَ يُقال: مِن شكرِ النعمةِ أن تحدِّثَ بهَا»؛ وجلسَ ليلةً هو وابنُ عيينةَ يتذاكرنِ النعمَ إلى الصباحِ.

والشكرُ بالجوارحِ: أن لا يستعانَ بالنعمِ إلا على طاعةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وأن يحذرَ من استعمالِهَا في شيءٍ من معاصيه؛ قالَ تعالَى: ﴿**اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا**﴾ [سبأ:١٣]. قال بعضُ السلف: «لَّمَا قيلَ لهم هذا؛ لم تأتِ عليهم ساعةٌ إلا وفيهم مُصَلٍّ»(٣) وكانَ النبيُّ ﷺ يقومُ حتى تتورمَ قدماهُ، وقالَ: «**أفلا أكونُ عبداً شكوراً**»(٤).

ومرَّ ابنُ المنكدرِ بشابٍ يقاومُ امرأةً، فقالَ: «يا بنيَّ ما هذا جزاءُ نعمةِ اللَّهِ عليكَ».

العجبُ ممَّنْ يعلمُ أنَّ كلَّ ما بِهِ من النعمِ من اللَّهِ ثمَّ لا يستحيي من الاستعانةِ بها على ارتكابِ ما نهاهُ.

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/٢٧٨، ٣٧٥)، والبيهقي في الشعب» (٩١١٩).
(٢) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٥٤٥).
(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٤٥٢٤).
(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٢/٦٣، (٦/١٦٩)، (٨/١٢٤)، وأخرجه مسلم (٨/١٤١).

هبِ البـعثَ لم تأتِنا رسلُهُ ... وجَاحِمَةُ الجحيمِ لم تُضْرَمِ
أليسَ من الواجبِ المسْتَحِقِّ ... حياءُ العبادِ من المُنعِمِ
وحافظْ عليها بشكرِ الإله ... فشكرُ الإلهِ يزيلُ النقمِ

دخلَ خالدُ بنُ صفوانَ على عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ، إنَّ اللَّهَ لم يرضَ أن يكونَ أحدٌ فوقك، فلا ترضَ أن يكونَ أحدٌ أولى بالشكر له منكَ. فبكى عمرُ حتى غُشِيَ عليه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾

الرِّضا فضلٌ مندوبٌ إليه، مستحبٌّ، والصبرُ واجبٌ على المؤمنِ حتمٌ، وفي الصَّبرِ خيرٌ كثيرٌ، فإنَّ اللَّه أمرَ به، ووعدَ عليه جزيلَ الأجرِ. قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، وقال: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧].

قال الحسنُ: الرِّضا عزيزٌ، ولكنَّ الصبر معولُ المؤمنِ.

والفرقُ بين الرِّضا والصبرِ: أن الصَّبرَ: كفُّ النَّفسِ وحبسُها عن التسخطِ مع وجودِ الألمِ، وتمنِّي زوالِ ذلكَ، وكفُّ الجوارحِ عن العملِ بمقتضَى الجزعِ، والرِّضا: انشراحُ الصدرِ وسعتُهُ بالقضاءِ، وتركُ تمنِّي زوالِ ذلك المؤلمِ، وإنْ وجدَ الإحساسَ بالألمِ، لكنَّ الرِّضا يخفِّفُه، لما يباشر

(١) «شرح حديث شداد بن أوس» (٣٨ - ٤٢).

القلبَ من رَوحِ اليقينِ والمعرفةِ، وإذا قوِيَ الرِّضا، فقد يزيلُ الإحساسَ بالألمِ بالكليّةِ(١).

كان العقلاءُ في عهدِ النبيِّ ﷺ إذا سمعُوا كلامَهُ وما يدعُو إليه، عرفُوا أنَّه صادقٌ، وأنَّه جاء بالحقِّ، وإذا سمعُوا كلامَ مسيلمةَ، عرفُوا أنَّه كاذبٌ، وأنَّ جاءَ بالباطلِ، وقد رُويَ أن عمرَو بنَ العاصِ سمعَهُ قبلَ إسلامِهِ يدَّعي أنَّه أنزلَ عليه: يا وَبْرُ يا وَبْر، لَكِ أذنانِ وصَدْرٌ، وإنَّك لتعلمُ يا عمرُو، فقالَ: واللَّه إني لأعلم أنك: تكْذِبُ.

وقال بعضُ المتقدمينَ: صوِّرْ ما شئتَ في قلبكَ، وتفكَّر فيهِ، ثم قِسه إلى ضدِّه، فإنَّك إذا ميَّزْتَ بينهُمَا، عرفتَ الحقَّ من الباطلِ، والصدقَ من الكذبِ، قال: كأنك تصَورُ محمداً ﷺ، ثم تتفكر فيما أتى به من القرآنِ فتقرأُ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ الآية [البقرة:١٦٤]، ثم تَتَصوَّرُ ضِدَّ محمدٍ ﷺ، فتجدُهُ مسيلمةَ، فتتفكرُ فيما جاء به فتقرأُ:

ألا يا رَبَّةَ المَخْدَعْ   لقَدْ هُيِء لَكِ المَضْجَعْ

يعني: قولَه لِسجاحٍ حين تزوَّج بِهَا، قال: فترى هذا ـ يعني القرآن ـ رصينًا عجيبًا، يلوطُ بالقلبِ، ويحْسُنُ في السمعِ، وترى ذا ـ يعني قولَ مسيلمةَ ـ باردًا غثًّا فاحِشًا، فتعلمُ أن محمَّدًا حقٌّ أُتِيَ بوحيٍ، وأنَّ مسيلمةَ كذَّابٌ أُتِيَ بباطلٍ(٢).

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٥١٥).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٢٨٤).

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

[قالَ البخاريُّ]: وقولُ اللَّـهِ عزَّ وجلَّ: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ إلى قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧].

وأمور الإيمان: خصالُهُ وشُعَبُهُ المتعددة.

واستدلَّ البخاريُّ بقولِهِ تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]. وقد سأل أبو ذرٍّ النبيَّ ﷺ عنِ الإيمانِ، فتلا عليه هذه الآيةَ.

وهذا يدلُّ على أنَّ الخصالَ المذكورةَ فيـها، هي خصالُ الإيمانِ المطلقِ، فإذا أطلقَ الإيمانُ دخلَ فيـه كلُّ ما ذكـرَ في هذهِ الآيةِ، كـما سـألَ السـائلُ عن الإيمانِ، فتلا عليه النبيُّ ﷺ هذهِ الآيةَ.

وإذا قُرِن الإيمانُ بالعـملِ، فقد يكونُ من بابِ عطفِ الخـاصِّ على العامِّ، وقد يكون المرادُ بالإيمانِ حـينئذ التصـديقَ بالقلبِ، وبالعملِ عـملَ الجوارحِ، كما ذكرَ في هذهِ الآيةِ الإيمانَ باللَّهِ واليـومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيينَ، ثمَّ عطفَ عليه أعمالَ الجوارحِ[1].

---

(١) «فتح الباري» (١/ ٢٦).

والبرُّ يطلقُ بمعنيينِ:

أحدهما: بمعنى الإحسانِ إلى الناسِ، كما يُقالُ: البرُّ والصِّلةُ، وضدُّه العُقُوقُ. وفي «صحيحِ مسلمٍ»(١) أنَّ النبيَّ ﷺ سُئِلَ عنِ البرِّ، فقالَ: «البرُّ: حُسْنُ الخُلُقِ».

وكان ابنُ عمرَ رضي الله عنهما يقولُ: إنَّ البرَّ شيءٌ هيِّنٌ: وجهٌ طليقٌ، وكلامٌ ليِّنٌ.

المعنى الثاني: مما يُرادُ بالبرِّ فعْلُ الطَّاعاتِ كُلِّها، وضدُّهُ الإثمُ، وقد فسَّر اللَّهُ تعالى البرَّ بذلك في قولِه: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ الآية [البقرة:١٧٧].

فتضمَّنتِ الآيةُ أنَّ أنواعَ البرِّ ستَّةُ أنواعٍ، مَن استكملهَا فقد استكمَلَ البِرَّ.

أوَّلُها: الإيمانُ بأصولِ الإيمانِ الخمسةِ.

وثانيها: إيتاءُ المالِ المحبوبِ لذوي القُرْبَى واليتامى والمساكين وابنِ السبيلِ والسَّائلين وفي الرقاب.

وثالثُها: إقامُ الصلاةِ.

ورابعُها: إيتاءُ الزكاةِ.

وخامسُها: الوفاءُ بالعهدِ.

وسادسُها: الصَّبْرُ على البأساءِ والضَّرَّاءِ وحين البأس(٢).

---

(١) «صحيح مسلم» (٨/٦ ـ ٧).

(٢) «اللطائف» (٤١٠ ـ ٤١١) باختصار.

وقال إبراهيمُ التيميُّ: ما من عبدٍ وهبَهُ اللَّهُ صبراً على الأذى، وصبراً على البلاءِ وصبـراً على المصائبِ، إلا وقد أُوتي فضلاً، ما أوتيـهِ أحدٌ بعدَ الإيمانِ باللَّه عز وجلَّ.

وهذا منتزعٌ من قـولِه تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ إلى قوله: ﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]، والمرادُ بالبـأساءِ: الفقـرُ ونحوُه، وبالـضَّرَّاءِ: المرضُ ونحوُه، وحينَ البأسِ: حالُ الجهادِ.

وقال عـمرُ بنُ عبـدِ العزيزِ: ما أنعمَ اللَّه علَى عـبدٍ نعمـةً فانتزعَـهَا منه، فعـاضَهُ مكانَ ما انتزعَ منه الصـبرَ إلا كانَ مـا عوضَهُ خيـراً مما انتزعَ منه، ثم تلا: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر:١٠].

وكان بعضُ الصالحينَ في جيبـهِ ورقةٌ يفتحُهَا كلَّ ساعةٍ فينظرُ فيـها، وفيها مكتوبٌ: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨].

والصبرُ الجـميلُ هو أن يكتمَ العبدُ المصـيبةَ ولا يخبرَ بِهَـا. قالَ طائفةٌ من السلفِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ [يوسف:٨٣] قال: لا شكوى معه[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

وقد أمرَ اللَّه سبحانه وتعالى عبادَهُ بشُكْرِ نعمةِ صيامِ رمضانَ بإظهارِ ذكْرِهِ، وغيرِ ذلكَ من أنواعِ شكرِهِ، فقال: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ

(١) «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبيِّ ﷺ لابن عباس» (٥٩).

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥] . فمن جملةِ شكرِ العبْدِ لربِّه على توفيقِه لصيامِ رمضانَ وإعانتِه عليه ومغفرةِ ذنوبِه أنْ يصومَ له شكراً عقيب ذلكَ.

كانَ بعضُ السلفِ إذا وُفِّقَ لقيام ليلةٍ من الليالي أصبَحَ في نهارِهَا صائمًا، ويجعلُ صيامَه شكرًا للتوفيق للقيامِ.

وكان وهيبُ بنُ الوردِ يُسأل عن ثوابِ شيءٍ من الأعمالِ، كالطوافِ ونحوه، فيقول: تسألوا عن ثوابِه؟! ولكنْ سلُوا ما الذي على مَن وُفِّقَ لهذا العملِ من الشكرِ، للتوفيقِ والإعانةِ عليه؟!

إذا أنْتَ لم تَزْدَدْ على كُلِّ نعْمَةٍ ... لموليكها شُكْرًا فلسْتَ بشاكرِ

كُلُّ نعمةٍ على العبدِ منَ اللَّهِ في دينٍ أو دنيا يحتاجُ إلى شكرٍ عليها، ثمَّ التوفيقُ للشكرِ عليها نعمةٌ أخرى تحتاجُ إلى شكرٍ ثانٍ، ثم التوفيقُ للشكر الثاني نعمةٌ أخرى يحتاج إلى شكرٍ آخر، وهكذا أبداً فلا يقدرُ العبادُ على القيامِ بشُكْرِ النعمِ. وحقيقةُ الشُّكْرِ الاعترافُ بالعجزِ عن الشكر، كما قيل:

إذا كان شُكْري نعْمةَ اللَّه نعْمَةً ... عليَّ لَهُ في مثْلها يجبُ الشُّكْرُ
فكيفَ بُلُوغُ الشُّكْرِ إلا بفَضْلِهِ ... وإن طالت الأيَّامُ واتَّصَلَ العُمْرُ

قال أبو عمرٍو الشيبانيُّ: قالَ موسى ـ عليه السلامُ ـ يومَ الطُّورِ: يا ربّ! إنْ أنا صليتُ فَمِنْ قِبَلِكَ، وإن أنا تصدَّقْتُ فمن قِبَلِكَ، وإن بلَّغْتُ رسالاتك فَمِنْ قِبَلِكَ، فكيف أشكرك؟ قال: يا موسى، الآن شكرتَني، فأمَّا مقابلة نعمة التوفيق لصيامِ شهر رمضانَ بارتكابِ المعاصي بعدَه، فهو من فِعْلِ مَن بدَّلَ نِعْمةَ اللَّهِ كفراً، فإن كان قد عَزَمَ في صيامِه على معاودةِ المعاصي بعدَ انقضاءِ الصيامِ، فصيامُه عليه مردودٌ، وبابُ الرَّحمةِ في وجهِه مسدودٌ.

قال كعبٌ: مَن صامَ رمضانَ وهو يُحدِّثُ نفسَهُ أنَّه إن أفطر رمضانَ أن لا

يعصِي اللَّـهَ، دخلَ الجنةَ بغيرِ مسألةٍ ولا حسابٍ، ومَن صامَ رمضانَ وهو يحدِّثُ نفسَه أنَّه إذا أفطر عصَى ربَّه، فصيامُه عليه مردودٌ[(١)].

* * *

لَّما كانتِ المغفرةُ والعِتْقُ من النارِ كلٌّ منهما مرتبًا على صيامِ رمضانَ وقيامه، أمرَ اللَّهُ سبحانَه وتعالى عندَ إكمالِ العدَّة بتكبيرِه، وشكرِه، فقال: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥].

فشُكْرُ من أنعَمَ على عبادِه بتوفيقِهم للصيامِ، وإعانتِهم عليه، ومغفرتِه لهم بِه، وعتقِهم من النَّارِ، أن يذكُروه ويشكروه ويتَّقوه حقَّ تُقَاتِه، وقد فسَّر ابنُ مسعودٍ رضيَ اللَّهُ عنه تقواه حقَّ تُقَاتِه بأنْ يطاعَ فلا يُعْصَى، ويذكرَ فلا يُنْسى، ويُشكرَ لا يُكفَر.

فيا أربابَ الذُّنوبِ العظيمةِ! الغنيمةَ الغنيمةَ في هذه الأيامِ الكريمةِ؛ فما منها عوضٌ ولا لها قيمةٌ، فكم يعتقُ فيها من النَّارِ من ذي جريرةٍ وجريمةٍ، فمن أعتقَ فيها من النَّارِ فقد فازَ بالجائزةِ العميمةِ والمنحةِ الجسيمةِ[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

وقد أخبرَ اللَّهُ تعالَى بقربِه ممن دعاهُ، وإجابتِه لهُ، فقالَ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦].

وقد رُوي في سببِ نزولِهَا: أنَّ أعرابيًّا قالَ: يا رسولَ اللَّه، أقريبٌ ربُّنا فنناجيهِ، أم بعيدٌ فنناديه؟ فأنزل اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي

(١) «لطائف المعارف» (٣٩٤ ـ ٣٩٦). (٢) «لطائف المعارف» (٣٨١).

قَرِيبٌ﴾ [البقرة:١٨٦]. خرَّجه ابنُ جريرٍ، وابنُ أبي حاتمٍ[(١)] .

وروى عبدُ الرزاقِ، عن جعفرِ بنِ سليمانَ، عن عوف، عن الحسنِ، قال: سألَ أصحابُ رسولِ اللَّه ﷺ رسولَ اللَّه ﷺ: أين ربُّنا؟ فأنزلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾[(٢)] [البقرة:١٨٦].

وروى عبدُ بنُ حميدٍ بإسنادِه، عن عبدِ اللَّه بنِ عبيدِ بنِ عميرٍ، قالَ: نزلتْ هذه الآيةُ: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر:٦٠]، قالُوا: كيفَ لنا به أن نلقَاهُ حتى ندعُوه؟ فأنزلَ اللَّهُ عز وجلَّ على نبيِّه ﷺ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦] ، فقالُوا: صدَق ربُّنا، هوَ بكلِّ مكانٍ.

وقد خرَّج البخاريُّ في «الدعوات»[(٣)] حديثَ أبي مُوسى، أنَّهم رَفَعُوا أصواتَهُم بالتكبيرِ، فقالَ لَهُم النبيُّ ﷺ: «**إنَّكم لا تدعونَ أصمَّ ولا غائبًا، إنَّكم تدعون سميعًا قريبًا**».

وفي روايةٍ: «**إنَّه أقربُ إليكُم من أعناقِ رواحِلِكُمْ**».

ولم يكنْ أصحابُ النبيِّ ﷺ يفهمونَ من هذهِ النصوصِ غيرَ المعنى الصحيحِ المرادِ بها، يستفيدونَ بذلكَ معرفةَ عظمةِ اللَّه وجلالِه، واطلاعِه على عبادِه وإحاطتِه بهم، وقربِه من عابديه، وإجابتِه لدعائهم، فيزدادونَ به خشيةً للَّه وتعظيمًا وإجلالاً ومهابةً ومراقبةً واستحياءً، ويعبدونَهُ كأنَّهم يرونَهُ.

ثم حدث بعدَهُم من قلَّ ورعُهُ، وساءَ فهمُهُ وقصدُهُ، وضعفتْ عظمةُ اللَّه وهيبتُهُ في صدرِهِ، وأرادَ أن يُري الناسَ امتيازَهُ عليهم بدِقةِ الفهمِ وقوةِ النظرِ،

(١) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢/ ١٥٨).
(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢/ ١٥٨).
(٣) «صحيح البخاري» (٨/ ١٥٥).

فزعمَ أنَّ هذه النصوصَ تدلُّ على أنَّ اللَّهَ بذاته في كلِّ مكان، كما يحكى ذلك عن طوائفَ من الجهميةِ والمعتزلةِ ومن وافقَهُم، تعالى اللَّهُ عمَّا يقولون علوًّا كبيراً، وهذا شيءٌ ما خطرَ لمن كان قبلَهُم من الصحابة ـ رضي اللَّه عنهم، وهؤلاءِ ممن يتبعُ ما تشابَهَ منه ابتغاءَ الفتنةِ وابتغاءَ تأويلِهِ. وقد حذَّر النبي ﷺ أُمَّتَه منهم في حديثِ عائشةَ الصحيحِ المتفقِ عليه[1] .

وتعلَّقُوا ـ أيضًا ـ بما فهمُوه بفهمِهم القاصرِ مع قصدِهِم الفاسدِ بآياتٍ في كتاب اللَّه، مثل قولِه تعالى: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾ [الحديد:٤] ، وقولِه: ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ**﴾ الآية [المجادلة:٧] ، فقالَ من قالَ من علماءِ السلفِ حينئذ: إنَّما أرادَ أنَّه معهم بعلمه، وقصدُوا بذلكَ إبطالَ ما قالَهُ أولئكَ، مما لم يكنْ أحدٌ قبلهم قالَهُ ولا فهمَهُ من القرآنِ.

وممن قالَ: إنَّ هذهِ المعيةَ بالعلمِ مُقاتِلُ بنُ حيَّانَ، ورويَ عنه أنَّه رواهُ عن عكرمةَ، عن ابنِ عباسٍ.

وقاله الضحاكُ، قالَ: اللَّهُ فوقَ عرشِهِ، وعلمُهُ بكلِّ مكانٍ.

ورويَ نحوُه عن مالكٍ وعبدِ العزيزِ الماجشون والثوريِّ وأحمدَ وإسحاقَ وغيرِهِم من أئمةِ السلفِ.

وروى الإمامُ أحمدُ: ثنا عبدُ اللَّهِ بنُ نافعٍ، قال: قالَ مالكٌ: اللَّهُ في السماءِ، وعلمُهُ بكلِّ مكانٍ.

وروي هذا المعنى عن عليٍّ وابنِ مسعودٍ ـ أيضًا.

وقالَ الحسنُ في قولِهِ تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ**﴾ [الإسراء:٦٠]، قالَ:

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٤٢)، ومسلم (٨/ ٥٦).

علمُهُ بالناسِ.

وحكى ابنُ عبدِ البَرِّ وغيرُهُ إجماعَ العلماءِ من الصحابةِ والتابعينَ في تأويلِ قولِهِ: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] أنَّ المرادَ علمُهُ.

وكلُّ هذا قصدُوا به ردَّ قولِ من قالَ: إنَّه تعالى بذاتِهِ في كل مكانٍ.

وزعم بعضُ من تَحَذْلَقَ أنَّ ما قاله هؤلاءِ الأئمةُ خطأٌ، لأنَّ علم اللَّهِ صفةٌ لا تفارقُ ذاته، وهذا سوءُ ظنٍّ منه بأئمةِ الإسلامِ؛ فإنَّهم لم يريدُوا ما ظنَّه بهم، وإنَّما أرادُوا أنَّ علمَ اللَّهِ متعلِّقٌ بما في الأمكنةِ كلِّها ففيها معلوماته، لا صفةَ ذاته، كما وقعتِ الإشارةُ في القرآنِ إلى ذلكَ بقولِهِ تعالى: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨]، وقولِهِ: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧]، وقولِهِ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤].

وقالَ حربٌ: سألتُ إسحاقَ عن قولِهِ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة:٧] قال: حيثُ ما كنتَ هو أقربُ إليكَ من حبلِ الوريدِ، وهو بائِنٌ من خلقِهِ.

وروى عمرُ بنُ أبي سلمةَ، عن أبيه، أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ مرَّ بقاصٍّ وقد رفعُوا أيديهم، فقالَ: ويلكم! إنَّ ربكم أقربُ ممَّا ترفعون، وهو أقربُ إلى أحدِكُم من حبلِ الوريدِ.

وخرَّجه أبو نعيمٍ، وعندَهُ: أنَّ المارَّ والقائلَ بذلك هو ابنُ عمرَ.

وخطبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، فذكرَ في خطبتِهِ: إنَّ اللَّهَ أقربُ إلى عبادِهِ من حبلِ الوريدِ. وكانَ مجاهدٌ حاضرًا يسمعُ، فأعجبه حسنُ كلامِ عمرَ.

وهذا كلُّه يدلُّ على أن قربَ اللَّهِ من خَلْقِه شاملٌ لهم، وقربُهُ من أهلِ طاعتِه فيه مزيدُ خصوصيةٍ، كما أنَّ معيَّتَهُ مع عبادِه عامَّة حتى مِمَّن عصاهُ، قالَ تعالَى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [النساء:١٠٨] ، ومعيَّتُه مع أهلِ طاعتِه خاصةٌ لهُم، فهو سبحانه مع الذين اتقَّوا والذين هم محسنونَ. وقال لموسى وهارونَ: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦] ، وقال موسى: ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء:٦٢]، وقال في حقِّ محمدٍ وصاحبِه: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة:٤٠].

ولهذا قالَ النبيُّ ﷺ لأبي بكرٍ في الغارِ: «**ما ظنُّك باثنين اللَّهُ ثالثُهما**».

فهذه معيةٌ خاصةٌ غيرَ قولِه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة:٧] الآية، فالمعيَّةُ العامَّةُ تقتضِي التحذير من علمِه واطلاعِه وقدرتِه وبطشِه وانتقامِه، والمعيةُ الخاصةُ تقتضِي حسنَ الظنِّ بإجابتِه ورضَاه وحفظِه وصيانتِه، فكذلك القربُ.

وليسَ هذا القربُ كقربِ الخلقِ المعهودِ منهم، كما ظنَّه من ظنَّه من أهلِ الضلالِ، وإنَّما هو قربٌ ليسَ يشبهُ قربَ المخلوقينَ، كما أنَّ الموصوفَ به ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وهكذا القولُ في أحاديثِ النزولِ إلى سماءِ الدنيا، فإنَّه من نوعِ قربِ الربِ من داعيه وسائليه ومستغفريه.

وقد سئلَ عنه حماد بنُ زيدٍ، فقالَ: هو في مكانِه يقربُ من خلقِه كما يشاءُ.

ومرادُه أنَّ نزولَهُ ليس هو انتقال من مكانٍ إلى مكانٍ كنزولِ المخلوقينَ.

وقال حنبل: سألتُ أبـا عبدِ اللَّه: ينزلُ اللَّهُ إلى سماءِ الـدُّنيا؟ قال: نعمْ، قلتُ: نزولُهُ بعلـمِه أو بمَاذا؟ قـال: اسكتْ عن هذا، مـالكَ ولهـذَا؟ أمْضِ الحديثَ عـلى ما رُوي بلا كيـفٍ ولا حَدٍّ، إلا بما جاءتْ به الآثـارُ، وجاءَ به الكتابُ، قـالَ اللَّهُ: ﴿فَلا تَضْرِبُوا للَّهِ الأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤]، ينزلُ كـيفَ شاءَ، بعلمِهِ وقـدرتِهِ وعظمتِهِ، أحاطَ بكلِّ شيءٍ علمًـا، لا يبلغُ قَدْرَه واصفٌ، ولا ينأى عنه هَربُ هاربٍ، عزَّ وجلَّ.

ومرادُهُ: أنَّ نزولَهُ تعالى لـيس كنزولِ المخلوقينَ، بل هو نزولٌ يليقُ بقدرتِهِ وعظمتِهِ وعلمِـهِ المحيطِ بكلِّ شيءٍ، والمخلوقونَ لا يحيطـونَ به علمًا، وإنَّما ينتهونَ إلى ما أخبرهم به عن نفسِهِ، أو أخبرَ به عنه رسولُهُ.

فلهذا اتفقَ السلفُ الصـالحُ على إمرارِ هذهِ النصوصِ كما جـاءتْ من غيرِ زيادةٍ ولا نقصٍ، وما أشكلَ فهـمُهُ منها، وقصـرَ العقلُ عن إدراكِهِ وُكِلَ إلى عالمِهِ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾

وقد قال طائفةٌ من السَّلفِ في تفـسيرِ قولِهِ تعالَى: ﴿فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [البقرة:١٨٧]: إنه طلبُ ليلةِ القدرِ[2].

والمعنى في ذلكَ أنَّ اللَّهَ تعالى لما أباحَ مباشرةَ النِّساءِ في ليالي الصيامِ، إلى

(١) «فتح الباري» (٢/ ٣٣٠ ـ ٣٣٤).

(٢) وهو مرويٌّ عن عبد اللَّه بن عباس، راجع: «تفسير الطبري» (٢/ ١٧٠).

أنْ يتبيَّنَ الخيطُ الأبيضُ من الخيطِ الأسودِ، أمَرَ مَعَ ذلك بطلبِ ليلةِ القدْرِ؛ لئلا يشتغلَ المسلمونَ في طولِ ليالي الشهرِ بالاستمتاعِ المباحِ، فيفوتُهم طلبُ ليلةِ القدرِ، فأمرَ مع ذلكَ بطلبِ ليلةِ القَدْرِ بالتهجُّدِ من الليلِ، خصوصًا في الليالي المرجُوِّ فيها ليلةُ القَدْرِ، فمن هاهُنا كانَ النبيُّ ﷺ يصيبُ من أهلِهِ في العشرينَ من رمضانَ، ثم يعتزلُ نساءَه ويتفرَّغ لطلب ليلةِ القَدْرِ في العشر الأواخرِ(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

وقولُهُ ﷺ: «**كالراعِي يرعَى حولَ الحمَى يُوشكُ أن يرتَعَ فيه، ألاَ وإنَّ لكلِّ ملكٍ حِمَى، وإنَّ حِمَى اللَّهِ محارمُهُ**»(٢): هذا مَثَلٌ ضربَهُ النبيُّ ﷺ لمنْ وقع في الشُّبهاتِ، وأنَّه يقربُ وقوعُهُ في الحرامِ المحضِ، وفي بعضِ الرواياتِ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**وسأضربُ لكُم مثلاً**» ثم ذكرَ هذا الكلامَ، فجعلَ النبيُّ ﷺ مثلَ المحرَّماتِ كالحِمى الَّذي تحميه الملوكُ، ويمنعونَ غيرَهم من قُربانِه، وقد جعلَ النبيُّ ﷺ حولَ مدينتِهِ اثني عشرَ ميلاً حِمى محرَّمًا، لا يُقطعُ شجرُه، ولا يُصادُ صيدُه، وحَمَى عمرُ وعثمانُ أماكنَ ينبتُ فيها الكلأ لأجلِ إبلِ الصدقةِ.

واللَّهُ عزَّ وجلَّ حَمَى هذه المحرَّماتِ، ومنعَ عبادَهُ من قربانِهَا، وسمَّاها حدودَه، فقالَ تعالَى: ﴿**تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ**

(١) «لطائف المعارف» (٣٤٢ ـ ٣٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١٨٢) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٧]، وهذا فيه بيانُ أنَّه حدَّ لهم ما أحلَّ لهُم وما حرَّم عليهِم، فلا يقربُوا الحرامَ، ولا يتعدَّوْا الحلالَ، ولذلكَ قالَ في آيةٍ آخرى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٢٩]، وجعلَ من يرعى حولَ الحِمى وقريبًا منه جديرًا بأن يدخُلَ الحِمى ويرتعَ فيه، فكذلكَ منْ تعدَّى الحلالَ، ووقعَ في الشبهاتِ، فإنَّه قد قاربَ الحرامَ غايةَ المقاربةِ، فما أخلقَهُ بأن يُخالطَ الحرامَ المحضَ، ويقعَ فيهِ، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّه ينبغي التباعدُ عن المحرَّماتِ، وأنْ يجعلَ الإنسانُ بينه وبينها حاجزًا.

وقد خرَّج الترمذيُّ وابنُ ماجه[1] منْ حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ يزيدَ عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**لا يبلغُ العبدُ أن يكونَ من المتَّقين حتى يدَعَ ما لا بأسَ به حذرًا مما به بأسٌ**».

وقال أبو الدرداءِ: تمامُ التقوى أن يتقي اللَّهَ العبدُ، حتَّى يتقيَه منْ مثقالِ ذرَّةٍ، وحتى يتركَ بعضَ ما يرى أنَّه حلالٌ، خشية أن يكون حرامًا، حجابًا بينه وبينَ الحرامِ.

وقال الحسنُ: ما زالتِ التقوى بالمتقينَ حتى تركُوا كثيرًا من الحلالِ مخافةِ الحرامِ.

وقال الثوريُّ: إنَّما سُموا «المتقين» لأنَّهم اتَّقوا ما لا يُتَّقى. ورُوي عن ابنِ عمرَ قالَ: إنِّي لأحبُّ أن أدعَ بيني وبين الحرامِ سترةً من الحلالِ لا أخرقُها.

وقال ميمونُ بنُ مهرانَ: لا يسلَمُ للرجلِ الحلالُ حتى يجعلَ بينه وبين الحرامِ حاجزًا من الحلالِ.

وقال سفيانُ بن عيينةَ: لا يصيبُ عبدٌ حقيقةَ الإيمانِ حتى يجعلَ بينه وبين

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٥١)، وابن ماجه (٤٢١٥).

الحرامِ حاجزًا من الحلالِ، وحتى يدعَ الإثمَ وما تشابَهَ منه.

ويَستدلُّ بهذا الحديثِ مَنْ يذهبُ إلى سدِّ الذرائعِ إلى المحرَّماتِ وتحريمِ الوسائلِ إليها، ويدلُّ على ذلكَ أيضًا من قواعدِ الشَّريعةِ تحريمُ قليلِ ما يُسكر كثيرُه، وتحريمُ الخلوةِ بالأجنبيةِ، وتحريمُ الصَّلاةِ بعدَ الصُّبحِ وبعدَ العصرِ سدًّا لذريعةِ الصَّلاةِ عند طلوعِ الشمسِ وعندَ غروبِهَا، ومنعُ الصَّائمِ من المباشرةِ إذا كانت تحرِّكُ شهوتَهُ، ومنعُ كثيرٍ من العلماء مباشرةَ الحائض فيما بين سرَّتها وركبتِهَا إلا مِنْ وراءِ حائلٍ، كما كان النبيُّ ﷺ يأمرُ امرأتَه إذا كانت حائضًا أن تتَّزر، فيباشِرُها من فوق الإزار[١].

ومن أمثلةِ ذلكَ وهو شبيهٌ بالمثلِ الذي ضربَهُ النبيُّ ﷺ من سيَّبَ دابَّتَه ترعى بقُرْبِ زرعِ غيرِه، فإنَّه ضامنٌ لما أفسدتْهُ من الزرعِ، ولو كانَ ذلك نهارًا، هذا هو الصحيحُ، لأنَّه مفرط بإرسالِهَا في هذه الحالِ.

وكذا الخلافُ لو أرسلَ كلبَ الصَّيدِ قريبًا من الحرمِ، فدخل الحرمَ فصادَ فيه، ففي ضمانِهِ روايتانِ عن أحمدَ، وقيل: يضمنُهُ بكلِّ حالٍ[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾

وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ»[٣] عن بُرَيْدَةَ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «النفقةُ

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٨٢)، ومسلم (١/ ١٦٦) من حديث عائشة ﷺ.
(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٩٥ - ١٩٧).
(٣) «المسند» (٥/ ٣٥٥).

في الحَجِّ كالنَّفقةِ في سبيلِ اللَّهِ بسبعمائةِ ضعفٍ».

وخرَّجه الطبرانيُّ(١) من حديثِ أنسٍ رضيَ اللَّهُ عنه، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «النفقةُ في سبيلِ اللَّهِ؛ الدِّرْهَمُ فيه بسبعمائة» ويُدلُّ عليه قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٩٥ـ١٩٦]، ففيه دليلٌ على أنَّ النفقةَ في الحجِّ والعمرةِ تدخلُ في جملةِ النَّفقةِ في سبيلِ اللَّهِ. وقد كانَ بعضُ الصحابةِ جعلَ بعيرَهُ في سبيلِ اللَّهِ، فأرادتْ امرأتُهُ أن تحجَّ عليه، فقالَ لها النبيُّ ﷺ: «حجِّي عليه؛ فإنَّ الحجَّ في سبيلِ اللَّهِ». وقد خرَّجه أهلُ المسانيد والسننِ(٢) من وجوهٍ متعدِّدةٍ، وذكره البخاريُّ تعليقًا، وهذا يستدلُّ به على أنَّ الحجَّ يصرف فيه من سهمِ سبيلِ اللَّهِ المذكورِ في آيةِ الزكاةِ، كما هو أحدُ قولي العلماءِ، فيعطى من الزَّكاةِ من لم يحجَّ ما يحجُّ به. وفي إعطائِهِ لحجِّ التطوُّعِ اختلافٌ بينهم أيضًا(٣).

* * *

وقال الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾

قالَ ابن عُمرَ: الفسوقُ: ما أصيبَ مِنْ معاصِي اللَّهِ صيدًا كانَ أو غيرُهُ،

---

(١) «المعجم الأوسط» (٥٢٧٤).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣٧٥ ـ ٤٠٥ ـ ٤٠٦) وأبو داود (١٩٨٨ ـ ١٩٨٩) من حديث أم معقل رضي الله عنها.

(٣) «لطائف المعارف» (٤٠٩).

وعنه قالَ: الفسوقُ إتيانُ معاصِي اللَّهِ في الحرمِ.

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

وكانَ جماعةٌ من الصحابةِ يتَّقون سُكْنى الحرمِ، خشيةَ ارتكابِ الذُّنوبِ فيه: منهمُ ابنُ عباسٍ، وعبدُ اللَّهِ بن عمرِو بنِ العاصِ، وكذلكَ كانَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يفعلُ، وكانَ عبدُ اللَّهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ يقولُ: الخطيئةُ فيه أعظمُ. ورُوِيَ عن عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه قال: لأنْ أُخطئَ سبعينَ خطيئةً - يعني بغيرِ مكةَ - أحبُّ إليَّ منْ أن أُخطئ خطيئةً واحدةً بمكةَ. وعن مجاهدٍ قالَ: تُضاعفُ السيئاتُ بمكةَ كما تُضاعفُ الحسناتُ. وقال ابنُ جريجٍ: بلغني أن الخطيئةَ بمكةَ بمئةِ خطيئةٍ، والحسنةَ على نحو ذلكَ.

وقال إسحاقُ بنُ منصور: قلتُ لأحمدَ: في شيءٍ من الحديثِ أنَّ السيئةَ تُكتبُ بأكثرَ منْ واحدةٍ؟ قالَ: لا، ما سمعْنا إلا بمكَّةَ لتعظيمِ البلدِ «ولو أنَّ رجلاً بعدنِ أبْيَنَ همَّ». وقال إسحاقُ بنُ راهويه كما قالَ أحمدُ، وقولُهُ: «ولو أنَّ رجلاً بعدنِ أبْينَ همَّ»، هو من قولِ ابنِ مسعودٍ، وسنذكرُهُ فيما بعدُ إن شاءَ اللَّهُ تعالى[1].

وقد تضاعفُ السيِّئاتُ بشرفِ فاعلِها، وقوةِ معرفته باللَّه، وقُرْبِه منه، فإنَّ من عصى السُّلطانَ على بساطه أعظمُ جُرْمًا ممَّن عصاهُ على بُعدٍ، ولهذا توعَّدَ اللَّهُ خاصَّة عبادِه على المعصيةِ بمضاعفةِ الجزاءِ، وإن كانَ قد عصمَهُم منها، ليبيِّنَ لهُم فضلَهُ عليهم بعصمتِهم منْ ذلكَ، كما قالَ تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَن

(١) ذكره الحافظ ابن رجب في شرح الحديث السابع والثلاثين من «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٥١).

ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً ﴿٧٤﴾ إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ﴾ [الإسراء:٧٤-٧٥] .

وقال تعالى: ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٠-٣١] . وكانَ عليُّ بنُ الحسينِ يتأوَّلُ في آل النبيِّ ﷺ من بني هاشم مثل ذلك لقربِهِم من النبيِّ ﷺ[١] .

* * *

قوله تعالى: ﴿ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾

وقد رُويَ عن ابنِ عباسٍ، قالَ: كانَ أهلُ اليمنِ يَحُجُّون ولا يتزوَّدونَ، ويقولونَ: نحن متوكِّلون، فيحجُّونَ، فيأتونَ مكةَ، فيسألونَ الناسَ، فأنزلَ اللَّهُ هذه الآيةَ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧] ، وكذا قالَ مجاهدٌ، وعكرمةُ، والنخعيُّ، وغيرُ واحدٍ من السلفِ، فلا يُرخَّصُ في ترك الكَسْبِ بالكليةِ إلا لمنِ انقطعَ قلبُه عن الاستشرافِ إلى المخلوقينَ بالكليةِ.

وقدْ رُويَ عن أحمدَ أنه سُئلَ عن التوكُّلِ، فقالَ: قطعُ الاستشرافِ باليأسِ من الخلقِ، فسُئلَ عن الحجةِ في ذلكَ، فقالَ: قولُ إبراهيمَ عليه السلامُ لما عرضَ له جبريلُ وهو يُرْمَى في النارِ، فقالَ لهُ: ألكَ حاجةٌ؟ فقالَ: أمَّا إليكَ فلا.

وظاهرُ كلامِ أحمدَ أنَّ الكسبَ أفضلُ بكلِّ حالٍ، فإنَّه سُئلَ عمَّن يقعدُ ولا يكتسبُ ويقولُ: توكَّلتُ على اللَّهِ، فقالَ: ينبغي للناسِ كُلِّهم يتوكَّلونَ على

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٤٢ - ٣٤٣).

اللَّهِ، ولكنْ يعودونَ على أنفسِهِم بالكَسْبِ.

ورَوَى الخَلاَّلُ بإسناده عن الفضيلِ بنِ عيـاضٍ أنَّهُ قيلَ لهُ: لو أنَّ رجلاً قعدَ في بيتِهِ زعمَ أنَّه يثقُ باللَّه، فيأتيه برزقه، قالَ: إذا وثقَ باللَّه حتى يعلمَ منه أنَّه قدْ وثقَ به لم يمنعْهُ شيءٌ أرادَهُ، لكنْ لم يفعلْ هذا الأنبياءُ ولا غيرُهم، وقد كانَ الأنبياءُ يؤجِّرون أنفسَهم، وكانَ النبيُّ ﷺ يؤجِّرُ نفسَه وأبو بكرٍ وعمرُ، ولم يقولوا: نقعدُ حتَّى يرزقُنا اللَّهُ عزَّ وجلَّ. وقالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿**وابْتَغُوا من فَضْلِ اللَّهِ**﴾ [الجمعة:١٠]، ولا بُدَّ من طلبِ المعيشةِ.

وقد رُوِي عن بِشْرٍ ما يُشعِرُ بخلافِ هذا، فرَوَى أبو نُعيم في «الْحِلْيَةِ» أنَّ بشرًا سُئِلَ عن التوكُّلِ، فقالَ: اضطرابٌ بلا سكونٍ، وسكونٌ بلا اضطرابٍ، فقالَ له السائلُ: فسِّره لنا حتى نفقهَ، قالَ بشرٌ: اضطرابٌ بلا سكونٍ: رجلٌ يضطربُ بجوارحِهِ، وقلبُه ساكنٌ إلى اللَّهِ لا إلى عملِهِ، وسكونٌ بلا اضطرابٍ: فرجلٌ ساكنٌ إلى اللَّهِ بلا حركةٍ، وهذا عزيزٌ، وهوَ من صفاتِ الأبدالِ(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

والاستغفارُ طلبُ المَغْفرةِ، والمغفرةُ هي وِقَايةُ شَرِّ الذنوبِ معَ سَتْرِهَا وقد كثُرَ في القرآنِ ذكرُ الاستغفارِ، فتارةً يؤمرُ به، كقولِهِ: ﴿**وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [البقرة:١٩٩]، وقولِهِ: ﴿**وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه**﴾ [هود:٣].

وتارةً يمدحُ أهلَهُ، كقولِهِ: ﴿**وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ**﴾ [آل عمران:١٧]، وقوله:

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٦٤ ـ ٥٦٥).

﴿وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٨]، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾[آل عمران:١٣٥].

وتارةً يذكرُ أنَّ اللَّهَ يغفرُ لمن استغفرهُ، كقولِهِ: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١١٠].

وكثيرًا ما يُقرن الاستغفارُ بذكر التوبةِ، فيكونُ الاستغفارُ حينئذٍ عبارةً عن طلبِ المغفرةِ باللسانِ، والتوبةُ عبارةٌ عن الإقلاعِ عن الذنوبِ بالقلوبِ والجوارحِ.

وتارةً يفردُ الاستغفارُ، ويُرتّبُ عليه المغفرةُ، كما ذكرَ في هذا الحديثِ وما أشبههُ، فقد قيلَ: إنَّه أريدَ به الاستغفارُ المقترنُ بالتوبةِ، وقيلَ: إنَّ نصوصَ الاستغفارِ المفردةَ كلَّها مطلقةٌ تُقيَّدُ بما يذكر في آيةِ «آلِ عمرانَ» من عدمِ الإصرارِ؛ فإنَّ اللَّه وعدَ فيها المغفرةَ لمن استغفرَهُ من ذنوبِهِ، ولم يُصِرَّ على فعلِهِ، فتُحْمَلُ النُّصوصُ المطلقةُ في الاستغفارِ كلُّها على هذا المقيد.

ومجرَّدُ قولِ القائل: اللَّهُمَّ اغفر لي، طلبٌ منه للمغفرةِ ودعاءٌ بها، فيكونُ حكمُهُ حكمَ سائرِ الدعاءِ، فإنْ شاءَ اللَّهُ أجابه وغفرَ لصاحبِهِ، لا سيما إذا خرجَ عن قلبٍ منكسرٍ بالذنبِ أو صادفَ ساعةً من ساعاتِ الإجابةِ كالأسحارِ وأدبارِ الصلواتِ.

ويُروَى عن لُقمانَ عليه السلامُ أنّه قالَ لابنِه: يا بنيَّ عَوِّدْ لسانكَ اللَّهمَّ اغفرْ لي، فإنَّ للَّهِ ساعاتٍ لا يردُّ فيها سائلاً.

وقال الحسنُ: أكثروا من الاستغفارِ في بيوتكم، وعلى موائدكم، وفي طُرقِكُم، وفي أسواقِكُم، وفي مجالسِكُم أينما كُنتُم، فإنَّكم ما تدرونَ متى تنزلُ المغفرةُ.

وخـرَّج ابن أبي الدنيـا في كتـاب« حـسنِ الظنِّ» من حـديثِ أبي هريرةَ مرفوعًا: «**بينما رجلٌ مستلق إذْ نظرَ إلى السماءِ وإلى النجومِ، فقال: إني لأعلمُ أن لكِ ربًّا خالقًا، اللَّهُمَّ اغفرْ لي، فغفرَ له**».

وعن مُوَرِّقٍ قالَ: كـانَ رجلٌ يعملُ السيئاتِ، فخرجَ إلى البريـةِ، فجمعَ ترابًا، فاضطجَعَ عليه مستلقيًا، فقالَ: ربِّ اغفـرْ لي ذنوبي، فقالَ: إنَّ هذا ليعرفُ أنَّ له ربًّا يغفرُ ويعذِّب، فغفرَ له.

وعن مُغيثِ بنِ سُميٍّ، قالَ: بينما رجلٌ خبيثٌ، فتذكر يومًا، فقال: اللهم غُفرانَك، اللَّهمَّ غفرانَك، اللَّهمَّ غفرانَك، ثم ماتَ فغُفِر له.

ويشهد لهذا ما في «الصحيحينِ»[١] عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ: «**أنَّ عبدًا أذْنَبَ ذنبًا، فقالَ: ربِّ أذنبتُ ذنبًا فاغفرْ لي، قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: عَلِمَ عبدي أنَّ له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذُ به، غـفرتُ لعبدِي، ثمَّ مكثَ مـا شاء اللَّه، ثم أذنبَ ذنبًا آخر، فـذكرَ مثل الأوَّلِ مرتينِ أُخـريينِ**» وفي روايةٍ لمسلمٍ أنه قـالَ في الثالثـةِ: «**قد غفـرتُ لعبدِي، فليعملْ ما شاءَ**».

والمعنى مـا دامَ على هذه الحالِ كلَّـما أذنبَ استغـفرَ. والظاهرُ أنَّ مـرادَهُ الاستغفارُ المقرونُ بعـدمِ الإصرارِ، ولهذا في حديثِ أبي بكرٍ الصديقِ ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**ما أصرَّ من استغفـرَ وإن عادَ في اليوم سبعين مرّة**» وخرَّجه أبو داودَ والترمذيُّ[٢].

وأمَّا استـغفارُ اللسانِ معَ إصـرارِ القلبِ على الذنبِ، فهو دُعـاءٌ مجرَّدٌ إنْ

(١) أخرجه البخاري (٩/ ١٧٨)، ومسلم (٨/ ٩٩).
(٢) أخرجه أبو داود (١٥١٤)، والترمذي (٣٥٥٩).

شاء اللَّهُ أجابه، وإن شاءَ ردَّه.

وقد يكون الإصرارُ مانعًا من الإجابةِ، وفي «المسند»[(١)] من حديثِ عبدِ اللَّه ابنِ عمرٍو مرفوعًا: **«ويلٌ للذين يُصرُّون على ما فعلُوا وهم يَعلَمون»**.

وخرَّج ابنُ أبي الدنيا[(٢)] من حديثِ ابنِ عباسٍ مرفوعًا: **«التائبُ من الذَّنبِ كمن لا ذنبَ لهُ، والمستغفرُ من ذنبٍ وهو مُقيمٌ عليه كالمستهزئِ بربِّهِ»** ورَفْعُه منكرٌ، ولعلَّه موقوفٌ.

قال الضحاكُ: ثلاثةٌ لا يُستجاب لهم، فذكرَ منهُم: رجلٌ مقيمٌ على امرأة زِنى كلَّما قَضى منها شهوتَهُ، قالَ: ربِّ اغفرْ لي ما أصبتُ من فلانةٍ، فيقولُ الربُّ: تحوَّلْ عنها، وأغفرُ لكَ، فأمَّا ما دمتَ مقيمًا عليها، فإنِّي لا أغفرُ لكَ، ورجلٌ عندَهُ مالُ قومٍ يَرى أهلَهُ، فيقول: ربِّ اغفرْ لي ما آكلُ من مالِ فلان، فيقولُ تعالى: ردَّ إليهم مالَهُم، وأغفرُ لكَ، وأمَّا ما لم تردَّ إليهم، فلا أغفرُ لك.

وقولُ القائلِ: أستغفرُ اللَّهَ، معناه: أطلبُ مغفرتَهُ، فهو كقولِهِ اللَّهُمَّ اغفرْ لِي، فالاستغفارُ التامُّ الموجبُ للمغفرةِ: هو ما قارنَ عدمَ الإصرارِ، كما مدحَ اللَّهُ أهلَهُ، ووعدَهُم المغفرةَ، قال بعضُ العارفينَ: من لم يكنْ ثمرةُ استغفارِهِ تصحيحَ توبتِهِ، فهوَ كاذبٌ في استغفارِهِ، وكان بعضُهم يقولُ: استغفارُنا هذا يحتاجُ إلى استغفارٍ كثيرٍ، وفي ذلكَ يقولُ بعضُهم:

أستغفرُ اللَّهَ من أستغفرُ اللَّهَ ... منْ لفْظَةٍ بَدَرَتْ خالفْتُ معناها

(١) «المسند» (٢/ ١٦٥ _ ٢١٩).

(٢) من طريق ابن أبي الدنيا أخرجه البيهقي في «الشعب» (٧١٧٨).

وكيفَ أرجُو إجاباتِ الدُّعاءِ وقد سدَدْتُ بالذَّنبِ عندَ اللَّهِ مَجْرَاها

فأفضلُ الاستغفارِ ما اقترَنَ به ترْكُ الإصرارِ، وهو حينئذٍ توبةٌ نصوحٌ، وإن قالَ بلسانه: أستغفرُ اللَّهَ، وهو غيرُ مقلعٍ بقلبِهِ، فهو داعٍ للَّه بالمغفرةِ، كما يقولُ: اللَّهُمَّ اغفر لي، وهو حسنٌ، وقد يُرجَى له الإجابةُ، وأمَّا من قالَ: هو توبةُ الكذابينَ، فمرادُه: أنَّه ليسَ بتوبةٍ، كما يعتقدُهُ بعضُ الناسِ، وهذا حقٌّ، فإن التوبةَ لا تكونُ مع الإصرارِ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾

[قال البخاري] : «بابُ فضْلِ العملِ في أيَّامِ التشريقِ»:

وقالَ ابنُ عباسٍ: ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ﴾[2] [البقرة:٢٠٣] : أيامُ العشرِ. والأيَّامُ المعدوداتُ: أيَّام التَّشريقِ.

وكانَ ابنُ عمرَ وأبو هريرةَ يخرُجَانِ إلى السُّوقِ في أيام العشرِ، يُكبِّرانِ ويُكبرُ الناسُ بتكبيرِهِمَا، وكبَّر محمدُ بنُ عليٍّ خلفَ النَّافلة.

بوَّبَ على فضلِ أيام التشريق والعملِ فيها، وذكر في البابِ أيامَ التشريق وأيامَ العشرِ، وفضلَهُما جميعًا.

وذكر عنِ ابنِ عباسٍ: أنَّ الأيامَ المعلوماتِ المذكورةَ في سورة الحجِّ هي أيامُ العشرِ، والأيامَ المعدوداتِ المذكورةَ في سورة البقرةِ هي أيامُ التشريقِ.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/٤٤٨ ـ ٤٥٣).

(٢) في الأصل: «معلومات» خطأ بدليل ما بعدها.

وفي كلٍّ منهما اختلافٌ بين العلماءِ.

فأمَّا المعلوماتُ:

فـقد رُوي عن ابنِ عـباسٍ، أنَّهـا أيامُ عشـرِ ذي الحجـةِ، كمـا حكاه عنه البخاريُّ.

ورُوي - أيضًـا - عن ابنِ عُمـرَ، وعن عطاءٍ والحـسنِ ومـجاهدٍ وعكرمـةَ وقتادةَ. وهو قولُ أبي حنيفة والشافعيِّ وأحمدَ - في المشهور عنه.

وقالت طائفـةٌ: الأيامُ المعلوماتُ: يومُ النحرِ ويومـانِ بعدَهُ، رُوي عن ابنِ عمرَ وغيرِه من السلفِ، وقالُوا: هي أيامُ الذَّبحِ.

ورُويَ - أيضًا - عن عليٍّ وابنِ عـباسٍ، وعن عطاءٍ الخراسـانيِّ والنخعيِّ، وهو قولُ مالكٍ وأبي يوسفَ ومحمدٍ وأحمدَ - في رواية عنه.

ومن قالَ: أيامُ الذبح أربعةٌ، قالَ: هي يومُ النحرِ وثلاثةُ أيامٍ بعدَهُ.

وقد رُوي عن أبي مـوسى الأشعريِّ، أنَّه قـالَ - في خطبتـهِ يومَ النحرِ -: هذا يومُ الحجِّ الأكبرِ، وهذه الأيامُ المعلوماتُ التسعةُ التي ذكرَ اللَّهُ في القرآنِ، لا يُردُّ فيهنَّ الدُّعـاءُ، هذا يومُ الحجِّ الأكبرِ، وما بعـدَه من الثلاثةِ اللائي ذكرَ اللَّهُ الأيامُ المعدوداتُ، لا يُرَدُّ فيهنَّ الدُّعاءُ.

وهؤلاء جعلُوا ذكرَ اللَّهِ فيها هو ذكره على الذَّبائحِ.

ورُويَ عن محمد بنِ كعبٍ، أنَّ المعلوماتِ أيامُ التشريقِ خاصة.

والقولُ الأولُ أصحُّ، فإنَّ اللَّهَ سبحانه وتعالى قالَ بعد ذكره في هذه الأيامِ المعلوماتِ: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:٢٩].

والتفثُ: هو ما يصيبُ الحاجَّ منَ الشَّعَثِ والغبارِ. وقضاؤه: إكماله.

وذلك يحصل يومَ النحرِ بالتحللِ فيه من الإحرامِ، فقد جعلَ ذلكَ بعد ذكرِه في الأيامِ المعلوماتِ، فدلَّ على أنَّ الأيَّامَ المعلوماتِ قبل يومِ النحرِ الذي يقضى فيه التفث ويُطَّوف فيه بالبيت العتيقِ.

فلو كانت الأيامُ المعلوماتُ أيامَ الذبح لكان الذكرُ فيها بعدَ قضاءِ التفثِ ووفاءِ النذورِ والتطوفِ البيتِ العتيقِ، والقرآنُ يدلُّ على أنَّ الذكرَ فيها قبلَ ذلك.

وأمَّا قولُهُ تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٢٨].

فإمَّا أنْ يقالَ: إنَّ ذكرَه على الذبائحِ يحصلُ في يوم النحرِ، وهو أفضلُ أوقاتِ الذبحِ، وهو آخرُ العشرِ.

وإمَّا أنْ يقالَ: إنَّ ذكرَه على ما رزقَنا من بهيمةِ الأنعامِ، ليسَ هو ذكرَه على الذبائحِ، بل ذكرُهُ في أيامِ العشرِ كلِّها، شكرًا على نعمةِ رزقِه لنا من بهيمةِ الأنعامِ، فإنَّ للَّهِ تعالى علينا فيها نِعَمًا كثيرةً دنيويةً ودينيةً.

وقد عدَّدَ بعضَ الدنيويةِ في سورة النَّحلِ، وتختصُ عشرُ ذي الحجةِ منها بحملِ أثقالِ الحاجِّ، وإيصالهم إلى قضاء مناسكِهِم والانتفاعِ بركوبِها ودرِّها ونسلِها وأصوافِهَا وأشعارِهَا.

وأمَّا الدينية فكثيرةٌ، مثلُ: إيجابِ الهدْي وإشعارِه وتقليدِه، وغالبًا يكونُ ذلكَ في أيامِ العشرِ أو بعضِهَا، وذبحهُ في آخرِ العشرِ، والتقربُ به إلى اللَّهِ، والأكلُ من لحمِه، وإطعامُ القانِع والمعترِّ.

فلذلك شُرعَ ذكرُ اللَّهِ في أيامِ العشر شكرًا على هذه النعمِ كلِّها، كما صرَّح به في قولِهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ [الحج:٣٧]، كما أمرَ بالتكبيرِ عندَ قضاءِ صيامِ رمضانَ، وإكمالِ العدةِ، شكرًا على ما هدانا إليه من الصيامِ والقيامِ المقتضِي لمغفرةِ الذنوبِ السابقةِ.

وأمَّا الأيامُ المعدوداتُ:

فالجمهورُ على أنَّها أيامُ التشريقِ، ورُوي عن ابنِ عُمرَ وابنِ عباسٍ وغيرِهما.

واستدلَّ ابنُ عُمرَ بقولِهِ: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة:٢٠٣]، وإنَّما يكون التعجيلُ في ثاني أيامِ التشريقِ.

قال الإمامُ أحمدُ: ما أحسنَ ما قالَ ابنُ عمرَ.

وقد رُوي عن ابنِ عباسٍ وعطاءٍ أنها أربعةُ أيامٍ: يومُ النحرِ، وثلاثةٌ بعدَه.

وفي إسناد المرويِّ عن ابنِ عباسٍ ضعفٌ.

وأمَّا ما ذكرَه البخاريُّ عن ابنِ عمرَ وأبي هريرةَ، فهو من روايةِ سلامٍ أبي المنذرِ، عنْ حميدٍ الأعرجِ، عن مجاهدٍ، أن ابنَ عمرَ وأبا هريرةَ كانا يخرجانِ في العشر إلى السوقِ يكبِّرانِ، لا يخرجَانِ إلا لذلكَ.

خرَّجه أبو بكرٍ عبدُ العزيز بنُ جعفرَ في «كتاب الشافعي» وأبو بكرٍ المروزيُّ القاضي في «كتاب العيدين».

ورواه عفانُ: نا سلامٌ أبو المنذرِ ـ فذكره، ولفظه: كانَ أبو هريرةَ وابنُ عُمرَ يأتيانِ السوقَ أيامَ العشر، فيكبِّرانِ، ويكبِّرُ الناسُ معهما، ولا يأتيانِ لشيءٍ

إلا لذلكَ.

وروى جعفرٌ الفريابيُّ، من روايةِ يزيـدَ بنِ أبي زيادٍ، قال: رأيتُ سعيدَ بنَ جبير وعبدَ الرحـمنِ بن أبي ليلى ومجاهداً ـ أو اثنينِ من هؤلاء الثلاثةِ ـ ومن رأينَا من فقهاءِ الناسِ يقولون في أيامِ العـشرِ: «اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبرُ، لا إله إلا اللّهُ، واللَّه أكبرُ اللَّهُ أكبرُ وللَّهِ الحمدُ».

وروى المروزيُّ، عن ميمونَ بن مهرانَ، قال: أدركتُ الناسَ وإنَّهم ليكبرون في العشـرِ، حتى كنت أشبـهه بالأمواجِ من كـثرتِهَا، ويقـول: إنَّ الناسَ قد نقصُوا في تركِهمُ التكبيرَ.

وهو مذهبُ أحمدَ، ونصَّ على أنَّه يجهرُ به.

وقال الشافعيُّ: يكبَّرُ عند رؤيةِ الأضاحي.

وكأنه أدخله في التكبـيرِ على بهيمةِ الأنعـامِ المذكورِ في القرآنِ. وهو وإنْ كان داخلاً فيه، إلا أنه لا يختصُّ به، بل هو أعمُّ من ذلكَ كما تقدم.

وهذا على أصلِ الشافعيِّ وأحمدَ: في أن الأيامَ المعلوماتِ هي أيامُ العشرِ، كما سبق.

فأمَّـا من قالَ: هي أيامُ الذبحِ، فـمنهُم من لم يسـتحبُّ التكبـيرَ في أيامِ العشرِ، وحُكي عن مالكٍ وأبي حنيفةَ.

ومنَ الناسِ مَن بالغَ، وعدَّه من البدعِ، ولم يبلغْه ما في ذلكَ من السُّنَّةِ.

وروى شعبـةُ قالَ: سألتُ الحكمَ وحمـاداً عنِ التكبيرِ أيامَ العشـرِ؟ فقالا: لا؛ مُحْدَثٌ. خرَّجه المروزيُّ.

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ[١] من حديثِ ابنِ عُمرَ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**ما منْ أيام أعظم عندَ اللَّهِ ولا أحبُّ إليه العملُ فيه من هذه الأيامِ العشـرِ، فأكثروا فيهنَّ منَ التهليلِ والتكبيرِ والتحميدِ**».

ويروى نحوُه من حـديثِ ابنِ عباسٍ ـ مرفـوعًا[٢] ، وفيه: «**فأكثروا فيهنَّ التهليل والتكبير، فإنَّها أيامُ تهليلٍ وتكبيرٍ وذكر اللَّهِ عزَّ وجلَّ**».

وأمَّا ما ذكره عن محمدِ بنِ عليٍّ في التكبيرِ خلفَ النافلةِ، فهوَ في أيامِ التشريقِ.

ومرادُه: أنَّ التكبيرَ يُشْرَعُ في أيامِ العشرِ وأيام التشريقِ جميعًا[٣] .

* * *

أيام مِنًى هي الأيامُ المعدوداتِ التي قالَ اللَّهُ عـزَّ وجلَّ فيها: ﴿**وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ**﴾ [البقرة:٢٠٣] ، وهي ثلاثةُ أيامٍ بعـدَ يومِ النحـرِ، وهيَ أيامُ التشريقِ، هذا قولُ ابنِ عمرَ وأكثر العلماءِ، ورُوي عن ابنِ عباسٍ وعطاءٍ أنَّها أربعة أيامٍ: يومُ النَّحْرِ، وثلاثةُ أيامٍ بعدَه، وسمَّاها عطاءٌ أيَّامَ التشريقِ؛ والأولُ أظهرُ.

وقد قال النبيُّ ﷺ: «**أيَّامُ مِنـى ثلاثةٌ، ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾** [البقرة:٢٠٣]» خرَّجـه أهل السنن الأربعة[٤] من حديثِ عبدِ

(١) «المسند» (٢/ ٧٥، ١٣١).

(٢) «المصنف» لعبد الرزاق (٤/ ٣٧٦).

(٣) «فتح الباري» (٦/ ١٠٩ ـ ١١٣).

(٤) الترمذي (٨٨٩)، وأبو داود (١٩٤٩)، والنسائي (٥/ ٢٦٤)، وابن ماجه (٣٠١٥).

الرحمنِ بنِ يَعْمُرَ، عن النبيِّ ﷺ.

وهذا صريحٌ في أنَّها أيامُ التشريقِ، وأفضلُها أولُها، وهو يوم القَرِّ؛ لأنَّ أهلَ مِنًى يستقِرُّون فيه، ولا يجوزُ فيه النَّفر.

وفي حديثِ عبدِ اللَّهِ بن قُرْط عن النبي ﷺ: **«أعظم الأيامِ عندَ اللَّهِ يومُ النَّحرِ، ثمَّ يومُ القَرِّ»**[١]، وقد رُوي عن سعيد بنِ المسيبِ أنَّ يومَ الحجِّ الأكبرِ هو يوم القَرِّ، وهو غريبٌ. ثم يومَ النَّفْر الأوَّل، وهو أوسطُها. ثم يومَ النَّفْر الثاني، وهو آخرُها، قال اللَّهُ تعالى: ﴿**فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ**﴾ [البقرة:٢٠٣]. قال كثيرٌ من السَّلَفِ: يريدُ أن المتعجِّل والمتأخِّر يُغفَرَ له، ويذهبُ عنه الإثمُ الذي كان عليه قبلَ حجِّه، إذا حجَّ فلم يرفُثْ ولم يَفْسُقْ، ورَجَعَ من ذنوبِهِ كيومِ ولدَتْهُ أمُّه، ولهذا قال تعالى: ﴿**لِمَنِ اتَّقَىٰ**﴾، فتكونُ التقوى شَرْطًا لذهابِ الإثمِ على هذا التقديرِ، وتصيرُ الآيةُ دالَّةً على ما صرَّح به قولُ النبيِّ ﷺ: **«مَن حجَّ فلم يرفُثْ ولم يَفْسُقْ رجع من ذُنوبِهِ كيومِ ولدتْهُ أمُّهُ»**[٢].

وقد أمرَ اللَّهُ تعالى بذكْرِه في هذه الأيامِ المعدُوداتِ، كما قالَ النبيُّ ﷺ: **«إنَّها أيامُ أكْلٍ وشُرْبٍ وذِكْرِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ»**[٣] وذِكْرُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ المأمورُ بهِ في أيامِ التشريقِ أنواعٌ متعددةٌ:

منها: ذِكْرُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ عقبَ الصَّلَواتِ المكتوباتِ بالتكبيرِ في أدْبارِها، وهوَ مشروعٌ إلى آخرِ أيَّامِ التشريقِ عند جمهورِ العلماءِ. وقد رُوي عن عمرَ

(١) «المسند» (٤/ ٣٥٠).

(٢) أخرجه البخاري (٢/ ١٦٤)، و(٣/ ١٤)، ومسلم (٤/ ١٠٧ ـ ١٠٨)، بنحوه.

(٣) أخرجه مسلم (٣/ ١٥٣) بنحوه، وأبو داود (٣/ ٢٨١٣).

وعليٍّ وابنِ عباسٍ، وفيه حديثٌ مرفوعٌ [١] في إسنادِهِ ضعفٌ.

ومنها: ذِكْرُه بالتَّسميةِ والتكبيرِ عند ذبحِ النُّسُك، فإنَّ وقتَ ذبْحِ الهدايا والأضاحي يمتدُّ إلى آخر أيامِ التشريقِ عند جماعةٍ من العلماء، وهو قولُ الشافعيِّ، وروايةٌ عن الإمامِ أحمدَ، وفيه حديثٌ مرفوعٌ: «كلُّ أيام مِنًى ذبْحٌ»[٢]، وفي إسنادِه مقالٌ. وأكثرُ الصحابةِ على أنَّ الذبح يختصُّ بيومينِ من أيَّامِ التشريقِ مع يومِ النَّحْرِ، وهو المشهورُ عن أحمدَ، وقولُ مالكٍ، وأبي حنيفةَ، والأكثرينَ.

ومنها: ذِكْرُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ على الأكْلِ والشربِ؛ فإنَّ المشروع في الأكلِ والشربِ أن يُسمِّيَ اللَّه في أولِه، ويحمَدَهُ في آخرِه.

وفي الحديثِ عن النبيِّ ﷺ: «**إن اللَّهَ عزَّ وجلَّ يرضَى عن العبْدِ أن يأكُلَ الأكْلَةَ فيحمدَهُ عليها، ويشربَ الشَّرْبَةَ فيحمَدَهُ عليها**»[٣]. وقد رُوي أنَّ من سمَّى على أول طعامه وحمدَ اللَّهَ على آخرِه، فقد أدَّى ثمنَه، ولم يُسأَلْ بعدُ عن شكرِه.

ومنها: ذِكْرُهُ بالتكبيرِ عند رَمْي الجمارِ في أيَّامِ التشريقِ، وهذا يختصُّ بِهِ أهلُ الموسمِ.

ومنها: ذِكْرُ اللَّه تعالَى المطلقُ؛ فإنَّه يستحبُّ الإكثارُ منه في أيَّامِ التشريقِ، وقد كان عُمَرُ يُكبِّر بمنًى في قبّته، فيسمعُهُ النَّاسُ فيكبِّرون فترتجُّ منًى تكبيرًا[٤]. وقد قال اللَّهُ تعالى: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ**

---

(١) «سنن الدارقطني» (٢/ ٤٩ ـ ٥٠)، و«سنن البيهقي» (٣/ ٣١٥).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٨٢) بلفظ: «كل أيام التشريق ذبح» ، وكذا الدارقطني (٤/ ٢٨٤) من حديث جبير بن مطعم رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم (٨/ ٨٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٤) علقه البخاري في «صحيحه» (٢/ ٢٥)، وراجع «الفتح» (٢/ ٤٦٢).

آبَاءكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ﴿٢٠٠﴾ وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠٠-٢٠١]. وقد استحبَّ كثيرٌ من السَّلفِ كثرةَ الدعاء بهذا في أيام التشريقِ.

قال عكرمةُ: كان يُستحبُّ أن يُقالَ في أيامِ التشريقِ: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١].

وعن عطاءٍ، قال: ينبغي لكُلِّ من نَفَر أن يقولَ حين ينفرُ متوجهًا إلى أهله: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]. خرَّجهما عبدُ بن حُميدٍ في «تفسيرِه» وهذا الدعاءُ من أجمعِ الأدعيةِ للخيرِ، وكانَ النبيُّ ﷺ يكثرُ منه، ورُوي أنَّه كان أكثرَ دعائِه[1]، وكانَ إذا دعا بدعاءٍ جعله معه؛ فإنَّه يجمعُ خيرَ الدنيا والآخرةِ.

قالَ الحسنُ: الحسنةُ في الدُّنيا العِلْمُ والعبادةُ، وفي الآخرةِ الجنةُ[2].

وقالَ سفيانُ: الحسنةُ في الدنيا العِلْمُ والرزقُ الطيِّبُ، وفي الآخرةِ الجنةُ[2].

والدُّعاءُ من أفضلِ أنواعِ ذكْرِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ. وقد روى زيادٌ الجصَّاصُ عن أبي كنانةَ القرشيِّ أنَّه سمع أبا مُوسى الأشعريَّ، يقولُ في خطبتِه يومَ النَّحْرِ: بعد يومِ النَّحرِ ثلاثةُ أيامٍ التي ذكرَ اللَّهُ الأيامَ المعدُوداتِ لا يُرَدُّ فيهنَّ الدُّعاءُ، فارفعُوا رغبتكُم إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

وفي الأمرِ بالذكرِ عند انقضاء النُّسُك معنًى، وهو أنَّ سائرَ العباداتِ

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٨/ ٦٨ ـ ٦٩)، وأحمد في «المسند» (٣/ ١٠١).
(٢) «تفسير الطبري» (٢/ ٣٠٠).

تنقضِي ويُفرغُ منهـا، وذِكْرُ اللَّه باقٍ لا ينقضي ولا يفرغ منه، بل هو مستمرٌ للمؤمنينَ في الدنيا والآخرةِ.

وقد أمـرَ اللَّه تعالى بذكـرِه عند انقضـاءِ الصلاةِ، قال اللَّـهُ تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء:١٠٣]، وقال تعالى في صلاةِ الجمعةِ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الجمعة:١٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح:٧-٨]، رُوي عن ابنِ مسعودٍ، قـالَ: فإذا فـرغتَ من الفرائضِ فانْصَبْ[1].

وعنه في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح:٧-٨]، قال: في المسألةِ، وأنتَ جالسٌ.

وقال الحسنُ: أمرَه إذا فرغَ من غزوِه أن يجتهدَ في الدُّعاءِ والعبادةِ[2].

والأعمـالُ كلُّها يُفرغُ منـهَا، والذِّكْرُ لا فـراغَ له، ولا انقضاءَ، والأعـمالُ تنقطعُ بانقطاعِ الـدنيا ولا يبـقى منها شـيءٌ في الآخرة، والذِّكـرُ لا ينقطعُ. المؤمنُ يعيشُ على الذكرِ، ويموتُ عليه، وعليه يُبعثُ.

أحسِبْتُمُ أنَّ الليـاليَ غَيَّـرَتْ ... عـهْدَ الهَـوى لا كانَ مَن يتـغيَّـرُ
يفنى الزَّمانُ وليـس يفنى ذِكْرُكُمْ ... وعلى مـحبَّتِـكُم أمُوتُ وأحْـشَرُ

قال ذو النون: ما طابتِ الدُّنيا إلا بذكره، ولا الآخرةُ إلا بعفوِه، ولا الجنَّةُ إلا برؤيتِه.

(١) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٤٥٥).
(٢) «تفسير الطبري» (٣٠/ ٢٣٧).

بذكـــر اللَّـهِ ترْتَاحُ القُـلُوبُ ودُنيـــانـا بذكـــراهُ تطـيبُ
إذا ذُكِرَ المحـبوبُ عندَ حبيـبِهِ ترَنَّح نـشـــوانٌ وحنَّ طُروبُ

فأيَّامُ التشريقِ يجتمعُ فيـها للمؤمنينَ نعيمُ أبدانِهِم بالأكْل والشُّربِ، ونعيمُ قلوبهِم بالذِّكرِ والشكرِ، وبذلكَ تتمُّ النِّعمةُ، وكلَّما أحدثُوا شُكرًا على النِّعمةِ كان شكرُهُم نعمةً أخرى، فيحتاجُ إلى شكرٍ آخرَ، ولا ينتهي الشكرُ أبدًا.

إذا كان شُكْرِي نعْـمةَ اللَّهِ نعْـمَةً عليَّ لَهُ في مِـثْلِهـا يجبُ الشُّكْرُ
فكيف بـلوغ الشُّكْر إلا بفــضلِهِ وإنْ طالتِ الأيَّامُ واتَّصلَ العُـمْـرُ

وفي قولِ النبيِّ ﷺ: «**إنَّها أيامُ أكْلٍ وشُرْبٍ وذِكْرِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ**»[1]، إشارةٌ إلى أنَّ الأكل في أيام الأعـيادِ والشُّـربَ إنَّمـا يستـعانُ به عـلى ذِكْرِ اللَّهِ تعـالى وطاعتِهِ، وذلكَ من تمامِ شُكْرِ النِّعْمةِ أن يستـعانَ بها على الطاعاتِ. وقد أمرَ اللَّهُ تعالى في كتـابِهِ بالأكلِ من الطيِّباتِ والشكرِ لَهُ، فمنَ اسـتعانَ بنعمِ اللَّهِ على معاصِيـه فقدْ كفرَ نِعْمـةَ اللَّهِ وبدَّلَها كُفْرًا، وهو جديرٌ أن يُسْلَبَـها، كما قيل:

إذا كنتَ في نعْـمـةٍ فـارْعَهـا فـــإنَّ المعـــاصي تُزيلُ الـنِّعم
وداوِمْ عليـــهـــا بشُـكْر الإلهِ فـــشُـكْرُ الإله يـزيلُ النِّـقَم

وخصوصًا نعمةُ الأكلِ من لحومِ بهيمةِ الأنعامِ، كما في أيامِ التشريقِ، فإنَّ هذه البهائمَ مطيـعةٌ للَّه لا تعصيه، وهي مُسـبِّحةٌ له قانتةٌ، كمـا قال تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾ [الإسراء:٤٤]، وأنَّها تسجد لَهُ، كما أخبرَ بذلكَ

---

(١) تقدم قريبًا.

في سورةِ النحلِ وسورةِ الحجِّ، وربما كانت أكثر ذكرًا للَّهِ من بعضِ بني آدمَ.

وفي «المسندِ»(١) مرفوعًا: «**رُبَّ بهيمةٍ خيرٌ من راكبِها، وأكثرُ للَّه منه ذكرًا**».

وقد أخبر اللَّه تعالى في كتابِهِ أنَّ كثيرًا من الجنِّ والإنسِ كالأنعامِ بل هم أضلُّ.

فأباحَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ ذبحَ هذه البهائمِ المطيعةِ الذاكرةِ له لعبادِهِ المؤمنينَ حتى تتقوى بها أبدانُهم، وتكملَ لذَّاتُهم في أكلِهِم اللحومَ، فإنَّها من أجلِّ الأغذيةِ وألذِّها، مع أنَّ الأبدانَ تقومُ بغيرِ اللحمِ من النباتاتِ وغيرِها، لكن لا تكمُلُ القوَّةُ والعقلُ واللذةُ إلا باللحمِ، فأباحَ للمؤمن قَتْلَ هذه البهائمِ والأكْلَ من لحومها، ليكمّل بذلك قوَّةَ عبادِهِ وعقولَهم، فيكونُ ذلك عونًا لهم على علومٍ نافعةٍ وأعمالٍ صالحةٍ يمتازُ بها بنو آدمَ على البهائم، وعلى ذكْرِ اللَّه عزَّ وجلَّ، وهو أكثرُ من ذكرِ البهائم، فلا يليقُ بالمؤمن مع هذا إلا مقابلةُ هذه النعمِ بالشكرِ عليهَا، والاستعانةُ بها على طاعةِ اللَّه عزَّ وجلَّ، وذكْرِه حيثُ فضَّلَ اللَّهُ ابنَ آدمَ على كثيرٍ من المخلوقاتِ، وسخَّر له هذه الحيوانات، قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿**فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾ [الحج: ٣٦].

فأمَّا من قَتَلَ هذه البهائمَ المطيعةَ الذَّاكرة للَّهِ عزَّ وجلَّ، ثم استعانَ بأكلِ لحومِهَا على معاصِي اللَّهِ عزَّ وجلَّ، ونسِي ذكرَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، فقد قَلَبَ الأمرَ وكفرَ النِّعمةَ، فلا كانَ من كانتِ البهائمُ خيرًا منه وأطوعَ.

نهارُك يا مَغْرُورُ سهْوٌ وغَفْلَةٌ ... ولَيلُك نَوْمٌ والرَّدَى لكَ لازِمُ

---

(١) لم أجده في «المسند» بهذا اللفظ، وراجع «المسند» (٣/ ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١).

وتتعبُ فيما سَوْفَ تَكْرَهُ غِبَّهُ   كذلك في الدُّنيا تعيشُ البهائمُ

وإنَّما نُهيَ عن صيامِ أيامِ التشريقِ، لأنَّها أعيادٌ للمسلمينَ مع يومِ النَّحرِ، فلا تُصامُ بمِنًى ولا غيرها عندَ جمهورِ العلماء، خلافًا لعطاءٍ، في قولِه: إنَّ النهي مختصٌّ بأهل منًى، وإنَّما نُهِي عن التطوُّع بصيامها، سواء وافقَ عادةً أو لم يُوافق.

فأمَّا صيامُها عن قضاءِ فرضٍ أو نَذْرٍ، أو صيامُها بمِنًى للمتمتعِ إذا لم يجدِ الهَدْيَ، ففيه اختلافٌ مشهورٌ بين العلماءِ، ولا فرقَ بينَ يومٍ منها ويومٍ عند الأكثرين، إلا عندَ مالكٍ، فإنَّه قال: في اليومِ الثالثِ منها يجوزُ صيامُه عن نَذْرٍ خاصةً.

وفي النهي عن صيامِ هذه الأيامِ والأمرِ بالأكْلِ فيها والشُّربِ سِرٌّ حسنٌ، وهو أنَّ اللَّهَ تعالى لمَّا علِمَ ما يُلاقي الوافِدون إلى بيتِهِ من مشاقِّ السَّفرِ وتعبِ الإحرامِ وجهادِ النفوسِ على قضاء المناسك، شرَعَ لهم الاستراحةَ عقيبَ ذلك بالإقامةِ بمِنًى يومَ النَّحْرِ وثلاثةَ أيامٍ بعدَه، وأمرَهُم بالأكْلِ فيها من لحومِ نُسُكِهم، فهم في ضيافةِ اللَّه عزَّ وجلَّ فيها، لطفًا من اللَّه بهم، ورأفةً ورحمةً. وشاركَهُم أيضًا أهلُ الأمصارِ في ذلكَ؛ لأنَّ أهلَ الأمصارِ شاركُوهم في حصولِ المغفرةِ والنَّصَبِ للَّهِ والاجتهادِ في عشْرِ ذي الحجَّة، بالصَّومِ والذِّكْرِ والاجتهادِ في العباداتِ، وشاركُوهم في حُصولِ المغفرةِ وفي التقرُّبِ إلى اللَّهِ تعالى بإراقةِ دماءِ الأضاحي، فشاركُوهم في أعيادهم، واشتركَ الجميعُ في الراحةِ في أيامِ الأعيادِ بالأكْلِ والشربِ، كما اشتركُوا جميعًا في أيامِ العشْرِ في الاجتهادِ في الطاعةِ والنَّصَبِ، وصارَ المسلمونَ كلُّهم في ضيافةِ

اللَّهِ عزَّ وجلَّ في هذه الأيامِ، يأكلونَ من رزقِه، ويشكرونَهُ على فضلِه.

ونُهوا عن صيامِها؛ لأنَّ الكريمَ لا يليقُ به أن يُجيعَ أضيافَهُ، فكأنَّه قيل للمؤمنينَ في هذه الأيامِ: قد فَرَغَ عملُكم الذي عَمِلْتُموه، فما بقي لكُم إلا الرَّاحةُ؛ فهذه الرَّاحةُ بذلك التعبِ، كما أُريح الصائمونَ للَّه في شهر رمضانَ بأمرِهم بإفطارِ يومِ عيدِ الفطر. ويؤخذُ من هذا إشارةٌ إلى حالِ المؤمنِ في الدنيا، فإنَّ الدُّنيا كلَّها أيامُ سفرٍ كأيَّامِ الحجِّ، وهي زمانُ إحرامِ المؤمنِ عمَّا حرَّم اللَّهُ عليه من الشهواتِ، فمن صبرَ في مدَّةِ سفرِه على إحرامِه وكفَّ عن الهوى، فإذا انتهى سفرُ عمرِه، ووصلَ إلى مِنَى المُنَى، فقد قضى تَفَثَه ووفَّى نذْرَه، فصارتْ أيامُه كلُّها كأيامِ مِنًى، أيامُ أكل وشُربٍ وذكر اللَّه عزَّ وجلَّ، وصارَ في ضيافةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ في جوارِه أبدَ الأبدِ، ولهذا يُقال لأهلِ الجنة: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٩]، ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤] وقد قيل: إنَّها نزلتْ في الصُّوَّامِ في الدنيا(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾

وقولِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ إلى قوله: ﴿وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

---

(١) «لطائف المعارف» (٥٠٠ ـ ٥٠٧).

خرَّج مسلمٌ في «صحيحه» (١) من حديثِ حمَّـاد بن سلَمَةَ: نا ثابتٌ، عن أنَسٍ، أنَّ اليهودَ كانوا إذا حاضتِ المرأةُ فيهم لم يُؤاكلُوها ولم يُجامعُوهُنَّ في البـيوت، فسـأل أصحـابُ النبيِّ ﷺ النـبيَّ ﷺ، فـأنزلَ اللَّـهُ عـزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقرة:٢٢٢] إلى آخرِ الآيةِ، فقـالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**اصْنَعُـوا كُلَّ شَيْءٍ إلا النِّكَاحَ**» ـ وذكر بقيَّةَ الحديث.

فقولُهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ [البقرة:٢٢٢]، أي: عن حُكمِهِ والمباشرةِ فيه.

و«المحيضُ»، قـيل: إنَّه مَصْدَرٌ كـالحَيْضِ، وقيلَ: بـل هو اسمٌ للحيض. فيكونُ اسمَ مصدرٍ.

وقولُهُ تعالى: ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ [البقرة:٢٢٢]، فُسِّر الأذى بالدَّمِ النَّجسِ وبما فيه من القَذَرِ والنَّتَنِ وخروجِهِ من مَخرَجِ البَوْلِ، وكل ذلك يُؤذِي.

قال الخطَّابيُّ (٢): الأذى هو المكروهُ الذي ليسَ بشـديدٍ جدًّا، كقولِهِ: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى﴾ [آل عمران:١١١]، وقـولِهِ: ﴿إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ [النساء:١٠٢]، قال: والمرادُ: أذًى يعتزِل منها مَوْضِعَه لا غيره، ولا يتَعدَّى ذلك إلى سائرِ بدنِها، فـلا يُجْتنَبْنَ ولا يُخْرَجْنَ من البيوت كـفعلِ المَجُوسِ وبعض أهلِ الكتابِ، فالمرادُ: أن الأذى بهنَّ لا يبلغ الحـدَّ الذي يُجاوِزُونه إليه، وإنَّما يُجْتنب منهنَّ موضعُ الأذى، فإذا تطهَّرنَ حلَّ غِشْيانُهنَّ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [البقرة:٢٢٢]، قد فـسَّره النبيُّ ﷺ باعتزالِ النكاحِ، وسيأتي فيما بعدُ ـ إنْ شاء اللَّهُ تعالى ـ ذِكْرُ ما يَحرُم من

---

(١) (١/١٦٩).

(٢) في «شرح البخاري» له (١/٣١٢).

مباشرةِ الحائضِ وما يَحِلُّ منه في البابِ الذي يخْتَصُّ المباشرةَ من الكتابِ.

وقد قيلَ: بأن المرادَ بالمحيضِ ها هُنا: مكانَ الحيضِ، وهو الفَرْجُ، ونصَّ على ذلكَ الإمامُ أحمدُ، وحكاه الماورْديُّ عن أزواجِ النبيِّ ﷺ وجمهورِ المفسرينَ، وحكى الإجماعَ على أنَّ المرادَ بالمحيضِ المذكورِ في أولِ الآية: الدَّمُ.

وقد خالفَ في ذلك ابنُ أبي موسى من أصحابِنا في «شرح الخِرَقي»، فزعم أن مذهبَ أحمدَ أنَّه الفرجُ ـ أيضًا ـ، وفيه بُعدٌ.

وجمهورُ أصحابِ الشافعيِّ على أنَّ المرادَ بالمحيضِ في الآيةِ الدَّمُ، في الموضعينِ.

وقولُهُ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ﴾ ، نهيٌ بعدَ الأمرِ باعتزالِهنَّ في المحيضِ عن قرْبانهنَّ فيه، والمرادُ به: الجماعُ ـ أيضًا ـ، وفيه تأكيدٌ لتحريمِ الوَطْءِ في الحيضِ.

وقولُهُ: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ فيه قراءتان: «يَطْهُرْنَ» ـ بسكُونِ الطاءِ وضمِّ الهاءِ ـ، و«يَطَّهَّرْنَ» ـ بفتحِ الطاءِ وتشديدِهَا وتشديدِ الهاءِ.

وقد قيل: إنَّ القراءة الأولى أُريدَ بها انقطاعُ الدَّمِ، والقراءةُ الثانيةُ أُريدَ بها التَّطَهُّر بالماءِ.

وممن فسر الأولى بانقطاعِ الدمِ ابنُ عباسٍ ومُجاهدٌ وغيرُهما.

وابنُ جريرٍ وغيرُهُ: يشيرونَ إلى حكايةِ الإجماعِ على ذلكَ.

ومنَعَ غيرُه الإجماعَ، وقال: كلٌّ من القراءتينِ تحتملُ أن يُراد بها الاغتسالُ بالماءِ، وأنْ يُراد بها انقطاعُ الدمِ، وزوَالُ أذاهُ.

وفي ذلك نظرٌ، فـإنَّ قراءةَ التـشديدِ تدلُّ على نسـبة فِعْـلِ التطهر إليـها، فكيف يُراد بذلكَ مجردُ انقطاعِ الدمِ ولا صنْعَ لها فيه.

وقولُهُ: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة:٢٢٢] غاية النَّهْي عن قربانهن، فيـدل بمفهومِهِ على أنَّ ما بعد التطهير يزولُ النهي.

فعلى قـراءةِ التشديدِ المُفَـسَّرة بالاغتـسالِ إنَّما يزولُ النَّهْيُ بـالتطهرِ بالماءِ، وعلى قراءةِ التخفيفِ يدلُّ على زوالِ النهي بمجردِ انقطاعِ الدمِ.

واستدلَّ بذلكَ فرقةٌ قلـيلةٌ على إباحةِ الوطْءِ بمجرد انقطاعِ الدمِ، وهو قولُ أبي حنيفةَ، وأصحابِهِ، إذا انقطعَ الدمُ لأكثرِ الحيضِ، أو لدونِهِ، ومضَى عليها وقتُ صلاةٍ، أو كانتْ غيرَ مخاطبةٍ بالصلاةِ كالذِّمِّيَّة.

وحُكي عن طائفـةٍ إطلاقُ الإباحةِ، منهم: ابنُ بُكَيْـرٍ وابنُ عبـدِ الحكَـم، وفي نقله عنهُما نظرٌ.

والجـمهـورُ على أنَّه لا يبـاحُ بدونِ الاغـتسـالِ، وقـالُوا: الآيةُ وإنْ دلَّتْ بمفهـومِهَا عـلى الإباحةِ بالانقطاعِ إلا أن الإتيانَ مـشروطٌ له شَـرْطٌ آخرُ وهو التَّطَهُر، والمرادُ به: التطهـرُ بالماءِ؛ بقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ [البقرة:٢٢٢]، فدلَّ على أنَّه لا يكفي مـجردُ التطهـرِ، وأن الإتيانَ متوقـفٌ على التطهرِ، أو على الطُهْرِ والتَّطَهُّرِ بَعْدَه، وفسَّر الجمهـورُ التَّطَهُّرَ بالاغتسالِ، كما في قولهِ: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة:٦].

وحُكي عن طائفةٍ من السَّلَفِ: أنَّ الوضـوءَ كافٍ بعد انقطاعِ الدمِ، منهم: مُجاهدٌ، وعِكْرمةُ، وطاوسٌ، على اختلافٍ عنهم في ذلك.

قال ابنُ المنذرِ: رُوِّينا بإسنادٍ فـيه مقالٌ عن عطاءٍ وطاوسٍ ومـجاهدٍ، أنهم

قالُوا: إذا أدركَ الزوجَ الشَّبَقُ أمرَها أنْ تتوضأ، ثم أصابَ منها إنْ شاءَ.

وأصحُّ من ذلكَ عن عطاءٍ ومجاهدٍ موافـقةُ القولِ الأولِ ـ يعني: المنعَ منه وكراهتَه بدونِ الغُسلِ ـ، قال: ولا يثبتْ عن طاوسٍ خلافُ ذلك. قال: وإذا بطَلَ أن يَثبت عن هؤلاء قولٌ ثانٍ كان القولُ الأولُ كالإجماعِ، انتهى.

ولذلك ضَعَّفَ القاضي إسماعيلُ المالكي الروايةَ بذلكَ عن طاوسٍ وعطاءٍ، لأنَّها من روايةِ لَيْثِ بنِ أبي سُلَيْمٍ عنهما، وهو ضعيفٌ.

وحُكي عن بعضِ السلفِ أن التطهرَ غَسْلُ الفرْجِ خاصَّة، رواه ابنُ جُرَيْجٍ، ولَيْثٌ عن عطاءٍ، ورواه مَـعْـمَـرٌ عن قـتـادةَ، وحكاه بعض أصـحـابنا عن الأوزاعيِّ، ولا أظنُّه يصحُّ عنه، وقاله قومٌ من أهل الظاهرِ.

والصحيحُ الذي عليـه جمهورُ العلماءِ: أنّ تطَهُّر الحـائضِ كتطهر الجُنُب، وهو الاغتسالُ.

ولو عَدِمَتِ الماءَ، فهل يُباح وطؤهَا بالتيممِ؟ فيه قولان:

أحـدهما: يبـاحُ بالتـيممِ، وهو مـذهبُنا، ومـذهبُ الشافـعيِّ وإسحـاقَ والجمهورِ، وقولُ يحيى بن بُكَيْرٍ من المالكية، والقاضِي إسماعيلَ منهم أيضًا.

وقالَ مكْحُولٌ ومالكٌ: لا يُباح وطْؤُها بدون الاغتسال بالماءِ.

وقوله: ﴿فَأْتُوهُنَّ﴾ [البقرة:٢٢٢] إباحةٌ، وقولُهُ: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٢٢] أي: باعتزالِهنَّ، وهو الفَرْجُ، أو ما بين السُّرَّةِ والرُّكْبةِ، على ما فيه من الاختلافِ كما سيأتِي، روي هذا عن ابنِ عباسٍ، ومُجاهدٍ وعِكْرِمةَ.

وقـيلَ: المرادُ: من الفَـرْجِ دون الدبُرِ، رواه علـيُّ بنُ أبي طلْحـةَ عنِ ابنِ عباسٍ.

وروى أبانُ بنُ صالحٍ، عن مجاهد، عن ابنِ عباسٍ، قال: ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ أن تعتزلوهنَّ. ورواه عِكْرمةُ، عن ابنِ عباسٍ - أيضًا.

وقيل: المرادُ من قِبَلِ التطهرِ لا من قِبَلِ الحيض، ورُوي عن ابن عباسٍ - أيضًا -، وغيرِه.

و«التوابون»: الرَّجَّاعونَ إلى طاعةِ اللَّهِ من مخالفتِه.

و«المتطهرونَ»: فسَّره عطاءٌ وغيرُهُ: بالتطهرِ بالماءِ، ومجاهدٌ وغيرُهُ: بالتطهرِ من الذنوبِ.

وعن مجاهدٍ، أنَّه فسَّره: بالتَّطهرِ من أدبارِ النساءِ.

ويشهدُ له قولُ قومِ لُوطٍ: ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [الأعراف:٨٢][١].

* * *

والاعتزالُ الذي أمرَ اللَّهُ به: هو اجتنابُ جماعِهِنَّ، كما فَسَّره بذلك رسولُ اللَّهِ ﷺ.

وقال عِكْرمةُ: كان أهلُ الجاهليةِ يصنعونَ في الحيضِ نحوًا من صنيعِ المَجُوسِ، فذكرُوا ذلكَ لرسولِ اللَّهِ ﷺ، فنزلتْ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ الآية[البقرة:٢٢٢]، فلم يَزِدِ الأمرُ فيهن إلا شدَّةً، فنزلتْ: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٢٢]: أن تعتزِلُوا.

أخرجهُ القاضِي إسماعيلُ، بإسنادٍ صحيحٍ.

وهو يدلُّ على أنَّ أولَ ما نزلَ الأمرُ باعتزالِهنَّ فَهِمَ كثيرٌ من الناسِ منه

(١) «فتح الباري» (١/٣٩١ - ٣٩٥).

الاعتزالَ في البيوتِ والفرش كـما كانوا يصنعونَ أوّلاً، حتى نزلَ آخرُ الآيةِ: ﴿فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٢٢]، فـفُـهِم مـن ذلك أنَّ اللَّهَ أمـر باعتزالِهنَّ في الوطْءِ خاصةً.

وفسَّر النبيُّ ﷺ ذلك بقـولِهِ: «اصنعـوا كلَّ شيءٍ غيـرَ النِّكاح»، وبِفـعْله مع أزواجِهِ؛ حيث كان يباشرهنَّ في المحيضِ(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾

[قال البخاريُّ]: «بابُ: قولِ النبيِّ ﷺ «أنا أعلمكُـمْ باللَّهِ»، وأنَّ المعرفةَ فعْلُ القَلْبِ، لقوْلِهِ تعالى: ﴿وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥].

مرادُه بهذا التـبويبِ: أن المعرفةَ بالقلبِ التي هي أصلُ الإيمانِ فـعلٌ للعبدِ وكسبٌ له، واستـدلَّ بقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٥] فجعلَ للقلوبِ كسبًا، كما جعل للجوارحِ الظاهرةِ كسبًا.

والمعرفةُ: هي مركبةٌ من تصور وتصديقٍ، فهي تتضمنُ علمًا وعملاً، وهو تصديقُ القلبِ، فإن التصورَ قد يشتركُ فيه المؤمنُ والكافرُ، والتصديقُ يختصُّ به المؤمنُ، فهو عملُ قلبِهِ وكسبُهُ.

وأصلُ هذا: أن المعرفةَ مكتسبـةٌ، تُدركُ بالأدلةِ، وهذا قولُ أكثرِ أهلِ السنةِ من أصحابِنا وغيرِهِم، ورجَّحه ابنُ جريرٍ الطبريُّ.

---

(١) «فتح الباري» (١/ ٤٢٠).

وروى بإسنادِهِ، عن الفضيلِ بنِ عياضٍ، أنَّه قال: أهلُ السنةِ يقولونَ: الإيمانُ: المعرفةُ والقولُ والعملُ.

وقالت طائفةٌ: إنَّها اضطراريةٌ، لا كسبَ فيها. وهو قولُ بعض أصحابِنا، وطوائفَ منَ المتكلمينَ والصوفيةِ وغيرِهِم.

وخرَّج البخاريُّ في هذا البابِ:

حديثَ: هشامٍ، عنْ أبيه، عنْ عائشةَ، قالتْ: كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إذا أمرَهُم أمرَهُم منَ الأعمالِ بما يطيقُونَ، قالُوا: إنَّا لسْنا كهيْئتكَ يا رسولَ اللَّه، إنَّ اللَّهَ قد غفرَ لكَ ما تقدَّم من ذنْبِكَ وما تأخَّرَ، فيغضبُ حتَّى يُعرفَ الغضبُ في وجْهِهِ، ثمَّ يقولُ: «**إنَّ أتقاكم وأعلمَكُم باللَّه أنا**»[1].

كانَ النبيُّ ﷺ يأمرُ أصحابَه بما يطيقونَ من الأعمالِ، وكانوا لشدةِ حرصِهِم على الطاعاتِ يريدونَ الاجتهادَ في العملِ، فربما اعتذرُوا عن أمرِ النبيِّ ﷺ بالرفقِ، واستعمالِهِ له في نفسه، أنَّه غيرُ محتاجٍ إلى العملِ بضمانِ المغفرةِ له، وهم غيرُ مضمونٍ لهم المغفرةُ، فهم محتاجونَ إلى الاجتهادِ، ما لا يحتاجُ هوَ إلى ذلك، فكانَ ﷺ يغضبُ من ذلك، ويخبرُهُم أنَّه أتقاهم للَّهِ وأعلمُهُم به.

فكونُه أتقاهُم للَّهِ يتضمنُ شدةَ اجتهادِهِ في خصالِ التقوى، وهو العملُ، وكونُه أعلمُهُم به يتضمنُ أنَّ علمَه باللَّهِ أفضلُ من علمِهِم باللَّهِ.

وإنَّما أراد علمَه باللَّهِ، لمعنيينِ:

أحدُهما: زيادةُ معرفتِهِ بتفاصيلِ أسمائه وصفاتِه وأفعالِه وأحكامِه وعظمتِه

(١) «صحيح البخاري» (١/ ١١ ـ ١٢).

وكبريائِه، وما يستحقُّه من الجلالِ والإكرامِ والإجلالِ والإعظامِ.

والثاني: أن علمَهُ باللَّهِ مستنـدٌ إلى عينِ اليقينِ؛ فإنَّه رآه، إما بعينِ بصرِه، أو بعينِ بصيرتِه.

كما قال ابنُ مسعودٍ وابنُ عباسٍ وغيرُهما: رآه بفؤادِه مرتينِ.

وعلمُهم به مستندٌ إلى علمِ يقينٍ، وبينَ المرتبتينِ تباينٌ.

ولهذا سألَ إبراهيمُ ـ عليه السلامُ ـ ربَّه أن يرقـيه من مرتبةِ علمِ اليقينِ إلى مرتبةِ عينِ اليقينِ، بالنسبةِ إلى رؤيةِ إحـياءِ الموتى، وقد سبقَ التنبيهُ على ذلكَ والكلامُ في تفاصيلِ المعرفةِ القائمةِ بالقلبِ.

فلمَّا زادتْ معرفـةُ الرسولِ بربِّه، زادتْ خشيتُه له وتقـواه، فإنَّ العلمَ التامَّ يستلزمُ الخشيةَ، كما قالَ تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر:٢٨]، فمن كـان باللَّهِ وبأسمـائِه وصفـاتِه وأفعـالِه وأحكامِه أعلم، كـان له أخشى وأتقى، وإنَّما تنقص الخشيةُ والتقوى بحسبِ نقصِ المعرفةِ باللَّهِ.

وقد خرَّجَ البـخاريُّ في آخرِ: «صحـيحِه»(١) عن مـسروقٍ، قالَ: قـالتْ عائشةُ: صنعَ النبيُّ ﷺ شيئًا، ترخَّصَ فـيه، وتنزَّه عنه قومٌ، فبلغ ذلك النبيَّ ﷺ، فحَمدَ اللَّهَ، ثمَّ قالَ: «**ما بالُ أقـوامٍ يتنزَّهون عن الشيءِ أصنَعُـه، فواللَّهِ؛ إنِّي لأعلمُهُم باللَّهِ وأشدُّهم له خشيةً**».

وفي «صحيحِ مسلمٍ»(٢) عن عائشـةَ، أنَّ رجلاً قـالَ لرسولِ اللَّه ﷺ: يا رسولَ اللَّهِ إني أصـبحُ جنبًا، وأنا أريدُ الصيامَ. فـقالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «**وأنا**

(١) البخاري (٩/ ١٢٠).
(٢) مسلم (٣/ ١٣٨).

أصبحُ جنبًا، وأنا أريدُ الصيامَ، فأغتسلُ وأصومُ» . فقال الرجلُ: يا رسولَ اللَّهِ، إنك لستَ مثلَنا ، قد غُفرَ لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّرَ، فغضبَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، وقال: «**إنِّي لأرجو أن أكونَ أخشاكُم للَّهِ وأعلَمكُم بما أتَّقِي**».

وفي حديثِ أنسٍ، أن ثلاثةَ رهطٍ جاءُوا إلى بيوتِ أزواجِ النبيِّ ﷺ، يسألونَ عن عبادةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، فلمَّا أُخبروا بها كأنَّهم تقالُّوهَا، فقالُوا: وأينَ نحنُ منَ النبيِّ ﷺ، قد غفَرَ اللَّهُ له ما تقدَّم من ذنبِه وما تأخَّرَ، فقالَ أحدُهم: أمَّا أنا، فإنِّي أصلِّي الليلَ أبدًا، وقالَ آخرُ: أصومُ الدهرَ ولا أفطرُ. وقال الآخرُ: أنا أعتزلُ النساءَ ولا أتزوّجُ أبدًا. فجاءَ النبيُّ ﷺ إليهم، فقالَ: «**أنتم الذين قلتُمْ كذا وكذا؟ أما واللَّهِ، إنِّي لأخشاكُم للَّهِ، وأتقاكُم له، لكن أصومُ وأُفطرُ، وأصلِّي، وأرقدُ، وأتزوجُ النساءَ، فمن رغبَ عن سنتي فليسَ منِّي**».

وقد خرَّجاه في «الصحيحينِ»(١) بمعناه.

ففي هذه الأحاديثِ كلِّها: الإنكارُ على مَن نسبَ إليه التقصيرَ في العملِ للاتكالِ على المغفرةِ، فإنَّه كان يجتهدُ في الشكرِ أعظمَ الاجتهادِ، فإذا عُوتبَ على ذلكَ، وذُكرتْ له المغفرةُ، أخبرَ أنَّه يفعلُ ذلك شكرًا.

كما في «الصحيحينِ»(٢) عن المغيرةَ، أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقومُ حتَّى تتفطَّر قدمَاه، فيقالَ له: تفعلُ هذا، وقد غُفرَ لك ما تقدَّم من ذنبكَ وما تأخَّرَ؟ فيقولُ: «**أفلا أكونُ عبدًا شكورًا**».

وقد كان يواصلُ في الصيامِ وينهاهم، ويقول: «**إنِّي لستُ كهيئتِكُم، إنِّي أظلُّ**

(١) البخاري (٣/ ١٢)، ومسلم (٣/ ١٦٢).
(٢) البخاري (٢/ ٦٣)، ومسلم (٨/ ١٤١).

عند ربي يطعمني ويسقيني»(١) .

فنسبةُ التقصيرِ إليه في العملِ لاتكالِه على المغفرةِ خطأٌ فاحشٌ، لأنه يقتضي أن هديَه ليسَ هو أكمل الهديِ وأفضلَه، وهذا خطأٌ عظيمٌ، ولهذا كانَ ﷺ يقولُ في خطبته: «**خيرالهدي هديُ محمدٍ**».

ويقتضي - أيضًا - هذا الخطأ أنَّ الاقتداءَ بهديِه في العملِ ليس هو أفضلَ، بلِ الأفضلُ الزيادةُ على هديه في ذلك، وهذا خطأٌ عظيمٌ جدًّا؛ فإنَّ اللَّهَ تعالى قد أمرَ بمتابعتِه، وحثَّ عليها، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ**﴾ [آل عمران: ٣١].

فلهذا كان ﷺ يغضبُ من ذلك غضبًا شديدًا، لما في هذا الظنِّ من القدحِ في هديه ومتابعتِه والاقتداءِ به.

وفي روايةٍ للإمامِ أحمدَ(٢): «**واللَّهِ، إنِّي لأعلمُكُم باللَّهِ، وأتْقَاكم له قلبًا**».

وقولُه في الروايةِ التي خرَّجها البخاريُّ في هذا الباب: «**إنَّ أتقاكُمْ وأعلمكُم باللَّهِ أنا**»، فيه: الإتيانُ بالضميرِ المنفصلِ مع تأتِّي الإتيانِ بالضميرِ المتصلِ، وهو ممنوعٌ عند أكثرِ النحاةِ، إلا للضرورةِ، كقولِ الشَّاعرِ:

ضَمِنَتْ إيَّاهُمُ الأرْضُ في دَهْرِ الدَّهَارِيرِ

وإنَّما يجوزُ اختيارًا، إذا لم يتأتَّ الإتيانُ بالمتصلِ، مثلُ أن تبتدئ بالضميرِ قبلَ عاملِه، نحوُ: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ [الفاتحة: ٥]؛ فإنَّه لا يُبتدئ بضميرٍ متصلٍ، أو يقعُ بعدَ نحوِ: «**إلا إياهُ**».

---

(١) البخاري في «صحيحه» (٣/ ٣٧، ٤٨)، ومسلم (٣/ ١٣٣).
(٢) «المسند» (٦/ ٦١).

فأمَّا قولُ الشاعر:

أنْ لا يُجَاوِرُنَا إلاكِ دَيَّارُ

فَشَاذٌّ.

وأمَّا قولُهُ:

وإنَّما يُدَافِعُ عنْ أحْسَابِهِم أنا أوْ مثْلي

فهو ـ عندهم ـ متأوَّلٌ على أنَّ فيه مَعْنى الاستثناءِ، كأنَّه قال: ما يدافعُ عن أحْسابهم إلا أنا.

ولكن؛ هذا الذي وقعَ في هذا الحديثِ يشهدُ لجوازه من غيرِ ضرورةٍ، ويكون حينئذٍ قولُهُ: «إنَّما يدافعُ عن أحْسابِهم أنا» شاهداً له، غيرَ محتاجٍ إلى تأويلٍ. واللَّهُ أعلمُ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾

أما قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]، فإنَّه يدلُّ على أنَّ المرأةَ مؤتمنةٌ على الإخبار بما في رَحِمِها، ومُصَدَّقَةٌ فيه إذا ادَّعَتْ من ذلك مُمْكِنًا.

روى الأعْمشُ، عن مُسْلمٍ، عن مسروقٍ، عن أبيِّ بنِ كعْبٍ، قال: إنَّ من الأمانةِ أن ائتمنتِ المرأةُ على فَرْجِها.

(١) «فتح الباري» (١/ ٨٠ ـ ٨٥).

وقد اختلفَ المفسرونَ من السلفِ فمن بعدَهم في المرادِ بقولِه تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ [البقرة:٢٢٨]، ففسَّره قومٌ بالحملِ، وفسَّره قومٌ بالحيضِ.

وقال آخـرونَ: كلٌّ منهما مـرادٌ، واللَّفظُ صالحٌ لهمـا جميـعًا، وهذا هو المروِي عن أكثرِ السلفِ، منهم: ابن عمرَ، وابنُ عـباسٍ، ومجاهدٌ، والحسنُ والضَّحاكُ(١).

وأمَّا ما ذكره عن عَليٍّ وشُرَيْحٍ:

فقـال حَرْبٌ الكرمـانيُّ: ثنا إسحـاقُ ـ هو: ابن راهويه ـ: ثنا عيـسى بن يونسَ، عن إسماعيلَ بنِ أبي خالـدٍ، عن الشَّعْبيِّ، أنَّ امرأةً جاءت إلى عليِّ بن أبي طالبٍ فقـالت: إني طُلِّقْتُ، فحضْتُ في شـهرٍ ثلاثَ حِيَضٍ؟ فـقال عليٌّ لشريح: قُل فيها، فقالَ: أقول فيها وأنت شاهد، قال: قُلْ فيها، قال: إنْ جاءت ببطانة مـن أهلها ممن يُرضى دينُهنَّ وأمانتـهن فقلن: إنَّهـا حاضت ثلاثَ حيضٍ طَهُـرت عند كل حيـضة، صُدِّقَتْ، فـقال عليٌّ: قـالون. قال عيسى: بالرُّوميَّةِ: أصبتَ.

قال حرْبٌ: وثنا إسـحاقُ: أبنا محمدُ بن بكرٍ، ثنا سعـيدُ بنُ أبي عَرُوبةَ، عن قتادةَ، عن عزرةَ، عن الحسنِ العُرَنيِّ، أنَّ امـرأةً طلَّقها زوجُها، فحاضت في خمس وثلاثينَ ليلةً ثلاثَ حـيضٍ، فرفعتْ إلى شُريحٍ فلم يَـدْرِ ما يقول فيـها، ولم يَقُل شيـئًا، فرُفـعت إلى عليِّ بنِ أبي طالبٍ، فقـال: سلُوا عنها جاراتِها، فإنْ كان هكذا حيضُها فقد انْقضَتْ عدَّتُها، وإلا فأشهرٌ ثلاثٌ.

وهـذا الإسنادُ فيــه انقطاعٌ، فإنَّ الحسنَ العُرني لم يــدرك عليًّـا ـ: قالـه

(١) الطبري في «التفسير» (٢/ ٤٤٧ ـ ٤٤٨).

أبو حاتمٍ الرازيُّ.

وأمَّا الإسنادُ الذي قبله، فإنَّ الشعبيَّ رأى عليًّا يرجُم شُراحة ووصفَه. قال يَعْقُوبُ بنُ شيْبةَ: لكنه لم يُصحَّح سماعُه منه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾

قال تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة:٢٣١]، وقال: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾ [البقرة:٢٢٨].

فدلَّ ذلكَ على أنَّ من كانَ قصدُه بالرَّجعةِ المضارَّةَ، فإنَّه آثمٌ بذلكَ، وهذا كما كانُوا في أوَّلِ الإسلامِ قبل حصرِ الطَّلاقِ في ثلاثٍ، يطلِّقُ الرَّجلُ امرأتَه ثمَّ يتركُها حتى تقاربَ انقضاءَ عدَّتِها، ثمَّ يراجعُها، ثم يطلِّقُها، ويفعلُ ذلكَ أبدًا بغيرِ نهايةٍ، فيدعُ المرأة لا مُطلقة ولا ممسكةً، فأبطلَ اللَّهُ ذلك، وحصر الطلاقَ في ثلاثِ مراتٍ.

وذهبَ مالكٌ إلى أنَّ من راجعَ امرأتَهُ قبلَ انقضاءِ عدَّتِها، ثم طلَّقها من غيرِ مسيس: إن قصدَ بذلك مضارَّتها بتطويلِ العدَّة لم تستأنفِ العدَّةَ، وبَنتْ على ما مضى منها، وإنْ لم يقصدْ ذلكَ استأنفتْ عدَّةً جديدةً، وقيل: تَبْنِ مطلقًا، وهو قولُ عطاءٍ وقتادةَ، والشافعيِّ في القديمِ، وأحمدَ في روايةٍ، وقيل: تستأنفُ مطلقًا، وهو قولُ الأكثرينَ، منهم: أبو قِلابة، والزُّهريُّ

(١) «فتح الباري» (١/ ٥١٠ ـ ٥١١).

والثَّوريُّ وأبو حنيفة والشافعـيُّ ـ في الجديدِ ـ وأحمدُ في روايةٍ وإسحاقُ وأبو عُبيدٍ وغيرُهم.

قال تعالى: ﴿لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ [البقرة:٢٣٣]، قال مجاهدٌ في قولِهِ: ﴿لا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا﴾ [البقرة:٢٣٣] قال: لا يَمـنع أمَّه أن تُرضِعَهُ ليحـزنَها، وقال عطاءٌ وقتادةُ والزهريُّ وسفيـانُ والسُّدِّيُّ وغيرُهم: إذا رضيَتْ ما يرضَى به غيرُها فهي أحقُّ به. وهذا هو المنصوصُ عن أحمدَ، ولو كانت الأمُّ في حبالِ الزَّوجِ.

وقيلَ: إن كانتْ في حبالِ الزَّوجِ، فله منعُها منْ إرضاعِهِ، إلا أن لا يُمكنَ ارتضاعُه من غـيرِها، وهو قولُ الشافعيِّ، وبعضِ أصحـابِنا، لكن إنَّما يجوزُ ذلكَ إذا كان قصدُ الزوجِ به توفيرَ الزوجة للاستمتاعِ، لا مجرَّدَ إدخالِ الضررِ عليها.

وقولـه تعالى: ﴿وَلا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ [البقرة:٢٣٣] يدخـلُ فيـه أن المطلقةَ إذا طلبتْ إرضـاعَ ولدِهَا بأجـرةِ مـثْلِـهـا لزمَ الأب إجابـتُـهـا إلى ذلكَ، وسـواءٌ وُجِـدَ غيـرُها أو لم يُوجَدْ، هذا منصـوصُ الإمامِ أحمـدَ، فـإنْ طلبَتْ زيادةً على أجرةِ مثلها زيادةً كثـيرةً، ووجدَ الأبُ منْ يُرضعُـه بأجرةِ المثلِ، لم يلزمِ الأبَ إجابتُهـا إلى ما طلبَتْ، لأنَّها تقصـدُ المضـارَّةَ، وقـد نصَّ عليه الإمـامُ أحمدُ أيضًا[١].

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٢١ ـ ٢٢٣) باختصار.

قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾

[قال البخاريُّ][1] : ثنا إبراهيمُ بنُ موسى: ثنا عيسى ـ هو: ابنُ يونسَ ـ، ثنا إسماعيلُ ـ هو: ابنُ أبي خالدٍ ـ، عنِ الحارثِ بنِ شُبَيْلٍ، عنْ أبي عمرو الشيبانيِّ، قال: قالَ لي زَيدُ بنُ أرقمَ: إنْ كُنَّا لنتكلمُ في الصلاةِ على عهدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، فيُكلِّمُ أحدُنا صاحبَه بحاجتِه حتى نزلتْ: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة:٢٣٨] فأُمِرْنا بالسُّكُوتِ.

وخرَّجه مسلمٌ[2] ، وزاد فيه: «ونُهينا عن الكلامِ»، وليس عنده: ذكرُ عهدِ النبيِّ ﷺ.

وخرَّجه النسائيُّ [3] ، وعندَهُ: «فأمِرْنا حينئذٍ بالسكوتِ».

وخرَّجه الترمذيُّ [4] ، ولفظُه: كنا نتكلمُ خلفَ رسولِ اللَّهِ ﷺ في الصلاةِ، فيكلمُ الرجلُ منَّا صاحبَه إلى جنبِه، حتى نزلتْ ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨] قال: «فأُمرنا بالسكوت، ونُهينا عن الكلامِ».

وهذه الروايةُ صريحةٌ برفعِ آخرِه.

واختلفَ الناسُ في تحريمِ الكلامِ في الصلاةِ: هل كان بمكةَ، أو بالمدينةِ؟ فقالتْ طائفةٌ: كان بمكةَ.

واستدلُّوا بحديثِ ابنِ مسعودٍ المتقدمِ، وأنَّ النبيَّ ﷺ امتنعَ من الكلامِ عند قدومِهم عليه من الحبشةِ، وإنَّما قدمَ ابنُ مسعودٍ عليه من الحبشةِ إلى مكةَ،

(١) البخاري في «صحيحه» (٢/ ٧٨).
(٢) «صحيح مسلم» (٢/ ٧١).
(٣) النسائي (٣/ ١٨).
(٤) الترمذي (٤٠٥).

ثم هاجرَ إلى المدينةِ، كذا ذكرَه ابنُ إسحاقَ وغيرُه.

ويعضدُ هذا: أنَّه رُويَ: أنَّ امتناعهم من الكلامِ كان بنزولِ قولِه: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٤]، وهذه الآيةُ مكيَّةٌ.

فروى أبو بكرِ بنُ عياشٍ، عن عاصمٍ، عن المسيِّبِ بنِ رافعٍ، قالَ: قالَ ابنُ مسعودٍ: كنا يسلمُ بعضُنا على بعضٍ في الصلاةِ، فجاءَ القرآنُ ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا﴾.

وأخرجه ابنُ جريرٍ وغيرُه.

وهذا الإسنادُ منقطعٌ؛ فإنَّ المسيبَ لم يلقَ ابنَ مسعودٍ.

وروى الهَجَريُّ، عن أبي عياضٍ، عن أبي هريرةَ، قال: كانوا يتكلَّمون في الصلاةِ، فلما نزلتْ هذه الآيةُ ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ﴾ [الأعراف:٢٠٤] والآيةُ الأخرى، قال: فأمِرْنا بالإنصاتِ.

وخرَّجه بقيُّ بنُ مخلدٍ في «مسنده». وخرَّجه غيرُه، وعنده: «أو الآيةُ الأخرى» ـ بالشكِّ. والهجريُّ، ليس بالقويِّ.

ولكن يشكلُ على أهلِ هذه المقالةِ حديثُ زيدِ بنِ أرقم، الذي خرَّجه البخاريُّ هاهنا، فإن زيدًا أنصاريٌّ، لم يصلِّ خلفَ النبيِّ ﷺ بمكةَ، إنَّما صلى خلفه بالمدينةِ، وقد أخبر أنهم كانُوا يتكلَّمون حتى نزلتْ ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]، وهي مدنيةٌ بالاتفاقِ.

وأجابَ أبو حاتمٍ ابنُ حبانِ(١)ـ وهو ممن يقولُ: إن تحريمَ الكلامِ كان

(١) في «صحيحه» (٦/ ٢٠ ـ ٢١).

بمكة ـ: وأجيبَ عن هذا بجوابينِ:

أحدُهما: أن زيدَ بنَ أرقم حكى حالَ الأنصارِ وصلاتَهم بالمدينةِ قبلَ هجرة النبيِّ ﷺ إليهم، وأنَّهم كانوا يتكلمونَ حينئـذٍ في الصلاةِ، فإنَّ الكلامَ حينئذٍ كان مباحًا، وكانَ النبيُّ ﷺ إذْ ذاكَ بمكةَ، فحكى زيدٌ صلاتَهم تلك الأيامَ، لا أنَّ نسخَ الكلامِ كانَ بالمدينةِ.

قلتُ: هذا ضعيفٌ؛ لوجهينِ:

أحدُهما: أن في روايةِ الترمذيِّ: «كنَّا نتكلمُ خلفَ النبيِّ ﷺ في الصلاة»، فدلَّ على أنَّه حكى حالَهم في صلاتِهم خلفَ النبيِّ ﷺ بعد هجرتِهِ إلى المدينةِ.

والثاني: أنه ذكرَ أنهم لم يُنْهوا عن الكلامِ حتى نزلتِ الآيةُ، وهي إنَّما نزلتْ بعدَ الهجرةِ بالاتفاقِ، فعلمَ أنَّ كلامَهم استمرَّ في الصلاةِ بالمدينةِ، حتى نزلتْ هذه الآيةُ.

ثم قالَ ابنُ حبانَ:

والجوابُ الثاني: أن زيدًا حكى حالَ الصحابةِ مطلقًا من المهاجرينَ وغيرِهم، ممن كانَ يصلِّي مع النبيِّ ﷺ قبلَ تحريمِ الكلامِ في الصلاةِ، ولم يردِ الأنصارَ، ولا أهلَ المدينةِ بخصوصِهم، كما يقولُ القائلُ: فعلْنا كذا وإنَّما فعلَه بعضُهم.

قلتُ: وهذا يردُّه قولُه: «حتى نزلتِ الآيةُ»؛ فإنَّه يصرحُ بأن كلامَهم استمرَّ إلى حين نزولِها، وهي إنما نزلتْ بالمدينةِ.

وأجابَ غيرُ ابنِ حبانَ بجوابينِ آخرينِ:

أحدُهما: أنَّه يحتملُ أنه كان نهى عن الكلامِ متـقدمًا، ثم أذنَ فيه، ثم نهى عنه لما نزلتِ الآيةُ.

والثاني: أنه يحتـملُ أن يكونَ زيدُ بنُ أرقم ومن كان يتكلَّـمُ في الصلاةِ لم يبلغْهم نهيُ النبيِّ ﷺ، فلما نزلتِ الآيةُ انتهَوْا.

وكلا الجـوابينِ فـيه بُعْـدٌ، وإنَّما انتـهوا عند نزولِ الآيةِ، بأمـرِ النبي ﷺ بالسكوتِ، ونهيِه عن الكلامِ، كما تقدمَ.

وقالت طائفةٌ أخرى: إنَّمـا حُرِّمَ الكلامُ في الصلاةِ بالمدينةِ؛ لظاهرِ حديثِ زيدِ بنِ أرقم، ومنعُـوا أن يكونَ ابنُ مـسـعودٍ رجـعَ من الحبـشـةِ إلى مكةَ، وقالُوا: إنما رجع من الحبشةِ إلى المدينةِ، قبيل بَدْرٍ.

واستدلُّوا بما خرَّجه أبو داودَ الطيالسيُّ في «مسندِه»[(١)] من حديثِ عبدِ اللَّه بنِ عتبةَ، عن ابنِ مسعودٍ، قال: بعثَنا النبيُّ ﷺ إلى النجاشيِّ، ونحن ثمانونَ رجـلاً، ومعنـا جعـفـرُ بنُ أبي طالبٍ ـ فـذكرَ الحـديثَ في دخـولِهم على النجاشيِّ، وفي آخرِهِ ـ : فجاءَ ابنُ مسعودٍ، فبادرَ، فشهدَ بدرًا.

وروى آدمُ ابنُ أبي إياسٍ في «تفسيـرِه»: حدثَنا أبو مَعْشرٍ، عن مـحمدِ بنِ كعبٍ، قال: قدمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ، والناسُ يتكلمونَ بحوائجِهم في الصلاةِ، كما يتكلَّمُ أهلُ الـكتابِ، فأنزلَ اللَّهُ: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]، فسكتَ القومُ عن الكلامِ.

وهذا مرسلٌ. وأبو معشرٍ، هو: نجيحٌ السِّنديُّ، يتكلمونَ فيه.

وقد اتفقَ العلمـاءُ على أنَّ الصلاةَ تبطلُ بكلامِ الآدمـيين فيهـا عمدًا لغـيرِ

---

(١) «المسند» (٣٤٤).

مصلحةِ الصلاةِ، واختلفُوا في كلامِ الناسي والجاهلِ والعامدِ لمصلحةِ الصلاةِ.

فأمَّا كلامُ الجاهلِ، فيأتي ذكرُه ـ قريبًا.

وأمَّا كلامُ الناسي والعامدِ لمصلحةٍ، فيأتي ذكرُه في «أبوابِ سجودِ السهوِ» قريبًا ـ إن شاءَ اللَّه تعالى(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾

[قال البخاريُّ]: «بابُ: صلاةِ الخوفِ رِجَالاً ورُكْبَانًا»:

رَاجِلٌ: قَائِمٌ.

حدَّثنا سعيدُ بنُ يحيى بنِ سعيدٍ القُرشيُّ: أنا أبي: نا ابنُ جُريجٍ عن موسى بنِ عقبةَ، عن نافعٍ، عن ابنِ عمرَ ـ نحواً من قولِ مجاهد: إذا اختلطُوا قيامًا. وزادَ ابنُ عمرَ عن النبيِّ ﷺ: **«وإن كانُوا أكثرَ منْ ذلكَ فليُصلُّوا قيامًا ورُكْبَانًا»**(٢).

وخرَّج مسلمٌ(٣) من حديثِ سفيانَ، عن موسى بن عقبةَ، عن نافعٍ، عن ابنِ عمرَ، قال: صلَّى رسولُ اللَّهِ ﷺ صلاةَ الخوفِ في بعضِ أيامِه، فقامتْ طائفةٌ معه، وطائفةٌ بإزاءِ العدوِّ، فصلَّى بالذين معه ركعةً، ثم ذهبُوا، وجاء الآخرونَ فصلَّى بهم ركعةً، ثم قضتِ الطائفتانِ ركعةً، ركعةً.

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٣٦٢ ـ ٣٦٧).

(٢) «صحيح البخاري» (٢/ ١٨).

(٣) «صحيح مسلم» (٢/ ٢١٢ ـ ٢١٣).

قال: وقالَ ابنُ عمـرَ: فإذا كان خوفٌ أكثرُ من ذلك فصلِّ راكـبًا أو قائمًا تُومِيءُ إيماءً.

فجعلَ هذ الوجهَ من قولِ ابنِ عُمرَ، ولم يرفعْه.

وروى أبو إسحاق الفزاريُّ، عن موسى بن عقبةَ، عن نافعٍ، عن ابنِ عمرَ ـ الحديثَ مـرفوعًا، ولم يذكرْ في آخـرِه: «فإذا كان خوفٌ أكـثرُ من ذلك» ـ إلى آخرِه.

وخرَّج ابنُ ماجـه وابنُ حبانَ في «صحـيحه»[(١)] من حـديثِ جـريرٍ، عن عبيدِ اللَّهِ بنِ عمرَ، عن نافعٍ، عنِ ابنِ عمرَ، عنِ النبيِّ ﷺ في صلاةِ الخوفِ ـ فذكرَ صفتِها بمعنى حديثِ مـوسى بنِ عقبةَ، وقال في آخرِ الحديثِ: «**فـإنْ كانَ خوفًا أشدَّ من ذلك فَرِجالاً أو رُكبانًا**».

وقد خـالفَ جريرًا يحـيى القطَّانُ وعـبدُ اللَّهِ بنُ نُمـيرٍ ومـحمدُ بـنُ بشرٍ وغيرُهم، روَوْه عن عبيدِ اللَّهِ، عن نافعٍ، عن ابنِ عمرَ ـ موقوفًا كلَّه.

ورواه مـالكٌ في «الموطإ»[(٢)]، عن نافعٍ، عنِ ابنِ عُمرَ ـ في صـفةِ صلاةِ الخوفِ بطولِه ـ، وفي آخرِه: «فإن كان خـوفًا هو أشدَّ من ذلك صلُّوا رجالاً قيامًا على أقدامِهم، أو ركبانًا، مستقبلي القبلةِ، أو غيرَ مستقبليها».

قال مالكٌ: قال نافعٌ: لا أرى ابنَ عمرَ ذكرَ ذلك إلا عن رسولِ اللَّهِ ﷺ.

وخرَّجه البخاريُّ في «التفسيرِ»[(٣)] من طريقِ مالكٍ كذلك.

(١) أخرجه ابن ماجه (١٢٥٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٨٨٧).

(٢) «الموطأ» (ص ١٣٠).

(٣) «صحيح البخاري» (٦/ ٣٨ ـ ٣٩).

قال ابنُ عبدِ البرِّ[١]: رواه مـالكٌ، عن نافعٍ على الشكِّ في رفعـه، ورواه عن نافعٍ جماعةٌ لم يشكُّوا في رفعـهِ، منهمُ: ابنُ أبي ذئبٍ وموسى بنُ عقبةَ وأيوبُ بنُ موسى.

وذَكَرَ الدارقطنيُّ أن إسحاق الطبَّاعَ رواه عن مالكٍ ورفعَهُ من غيرِ شكٍّ.

وهذا الحديثُ ينبغِي أن يضافَ إلى الأحاديـثِ التي اختُلِفَ في رفعِها نافعٌ وسالمٌ، وهي أربعـةٌ سبقَ ذكرُها بـهذَا الاختـلافِ في رفعِ أصلِ الحديثِ في صلاةِ الخوفِ عن نافعٍ.

وبقي اختلافٌ آخرُ، وهو في قولِهِ في آخرِ الحـديثِ: «فإنْ كان خوفًا أكثرَ من ذلك» إلى آخرِهِ؛ فـإنَّ هذا قد وقفـه بعضُ من رفعَ أصلَ الحديثِ، كـما وقفَه سفيانُ، عن موسى بن عقبةَ، وجعلَه مُدرجًا في الحديثِ.

وقد ذكـرَ البخاريُّ: أنَّ ابنَ جريجٍ رفـعَه عن موسى، وخرَّجـه من طريقِه كذلك.

وأمَّا قولُ مجاهدٍ المشـارُ إليه في روايةِ البخاريِّ: روى ابنُ أبي نجيحٍ، عن مجاهدٍ: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة:٢٣٩] إذا وقعَ الخـوفُ صلَّى على كلِّ وجهةٍ، قائمًا أو راكبًا أو ما قدرَ، ويومئُ برأسِه، ويتكلَّمُ بلسانِه.

وروى أبو إسحـاقَ الفزاريُّ، عن ابن أبي أنيـسةَ، عن أبي الزبيـرِ، قالَ: سمعتُ جـابرًا سُئِلَ عن الصلاةِ عند المسايفـة؟ قال: ركعتينِ ركـعتينِ، حيث توجهتَ على دابتكَ تومئُ إيماءً.

ابنُ أبي أنيسةَ، أظنُّه: يحيى، وهو ضعيفٌ.

---

(١) «التمهيد» (١٥/ ٢٥٨).

وخرَّج الإسماعيليُّ في «صحيحه»، وخرَّجه من طريقه البيهقيُّ[1]، من روايةِ حجاجِ بنِ محمدٍ، عن ابنِ جريجٍ، عن ابنِ كثيرٍ، عن مجاهدٍ، قال: إذا اختلطُوا، فإنَّما هو التكبير والإشارةُ بالرأسِ.

قال ابنُ جريجٍ: حدثني موسى بنُ عقبةَ، عن نافعٍ، عن ابنِ عُمرَ، عنِ النبيِّ ﷺ - بمثلِ قولِ مجاهدٍ: إذا اختلطُوا، فإنَّما هو التكبيرُ والإشارةُ بالرأسِ.

وزاد: عن النبيِّ ﷺ: **«فإنْ كثرُوا فليصلُّوا ركبانًا أو قيامًا على أقدامِهِم»** - يعني: صلاةَ الخوفِ.

وخرَّجه - أيضًا[2] - من رواية سعيدِ بنِ يحيى الأمويِّ، عن أبيه، عن ابنِ جريجٍ، ولفظُه: عن ابنِ عمرَ - نحواً من قولِ مجاهدٍ: إذا اختلطوا، فإنَّما هو الذكرُ وإشارةٌ بالرأسِ.

وزاد ابن عُمرَ: عن النبيِّ ﷺ: **«وإن كانُوا أكثرَ من ذلك فليصلُّوا قيامًا وركبانًا»**.

كذا قرأتُه بخط البيهقيِّ.

وخرَّجه أبو نعيمٍ في «مستخرجِهِ على صحيحِ البخاريِّ» من هذا الوجهِ، وعندَهُ: **«قيامًا وركبانًا»**، وهو أصحُّ.

وهذه الروايةُ أتمُّ من روايةِ البخاريِّ.

ومقصودُ البخاريِّ بهذا: أنَّ صلاةَ الخوفِ تجوزُ على ظهورِ الدوابِّ

---

(١) «السنن الكبرى» (٣/ ٢٥٥).

(٢) «السنن الكبرى» (٣/ ٢٥٥ - ٢٥٦).

للركبانِ، كمـا قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا﴾ [البقرة:٢٣٩] ويعني: «رجالاً»: قيامًا على أرجلهم، فهو جمعُ راجلٍ، لا جمعَ رجلٍ، و«الركبانُ»: على الدوابِّ.

وقد خرَّج فيه حديثًا مرفوعًا. وقد روي عن ابنِ عمرَ وجابرٍ، كما سبق.

وقـال ابنُ المنذرِ: أجمعَ أهـلُ العلمِ على أن المطلوبَ يصلِّي على دابتـهِ ـ كذلك قال عطاءُ بنُ أبي رباحٍ، والأوزاعيُّ، والشافعيُّ وأحمدُ، وأبو ثورٍ ـ ، وإذا كان طالبًا نزلَ فصلَّى بالأرضِ.

قال الشافعيُّ: إلا في حالٍ واحدةٍ، وذلك أن يقلَّ الطالبونَ عن المطلوبين، ويُقطَع الطالبونَ عن أصحـابِهم، فيخافون عودةَ المطلوبين عليـهم، فإذا كانُوا هكذا كان لهم أن يصلُّوا يُومِئُون إيماءً، انتهى.

وممن قال: يصلِّي على دابتـه ويومِئُ: الحسنُ والنخعيُّ والضـحاكُ، وزاد: أنه يصلِّي على دابَّتِه طالبًا كانَ أو مطلوبًا، وكذا قال الأوزاعيُّ.

واختلفتِ الروايةُ عن أحمـدَ: هل يصلِّي الطالبُ على دابتِه، أم لا يصلِّي إلا على الأرضِ؟ على روايتين عنه، إلا أن يخافَ الطالبُ المطلوبَ، كما قال الشافعيُّ، وهو قولُ أكثرِ العلماءِ.

قال أبو بكرٍ عبدُ العزيزِ بنُ جعفرٍ: أما المطلوبُ، فلايختلفُ القولُ فيه، أنه يصلِّي على ظهرِ الدابةِ، واختلفَ قولُه في الطالبِ، فقالُوا عنه: ينزلُ فيصلِّي على الأرضِ، وإن خافَ على نفسِهِ صلَّى وأعادَ، وإنْ أخَّرَ فلا بأسَ، والقولُ الآخرُ: أنه إذا خافَ أن ينقطعَ عن أصحابِهِ أن يـعودَ العدوُّ عليه، فإنه يصلِّي على ظهرِ دابتِه، فإنه مثلُ المطلوبِ لخوفِهِ، وبه أقولُ. انتهى.

وما حكاه عن أحمدَ من أن الطالبَ إذا خافَ فإنه يصلِّي ويعيدُ، فلم يذكر

به نصًّا عنه، بل قد نصَّ على أنه مثلُ المطلوبِ.

قال ـ في رواية أبي الحارث ـ: إذا كان طالبًا وهو لا يخافُ العدوَّ، فما علمتُ أحدًا رخَّص له في الصلاةِ على ظهرِ الدابةِ، فإن خافَ إنْ نزلَ أن ينقطعَ من الناسِ، ولا يأمنُ العدوَّ فليصلِّ على ظهرِ دابتِه ويلحقُ بالناسِ، فإنه في هذه الحالِ مثلُ المطلوبِ.

ونَقَلَ هذا المعنى عنه جماعةٌ، منهم: أبو طالبٍ والأثرمُ.

وله أن يصلِّيَ مستقبلَ القبلةِ وغيرَ مستقبلِها على حسبِ القدرةِ.

وفي وجوبِ استفتاحِ الصلاةِ إلى القبلةِ روايتانِ عن أحمدَ:

فمن أصحابِنا من قال: الروايتانِ مع القدرةِ، فأمَّا معَ العجزِ فلا يجبُ، روايةً واحدةً.

وقال أبو بكرٍ عبدُ العزيزِ عكسَ ذلك، قال: يجبُ مع القدرةِ، ومع عدمِ الإمكانِ، روايتانِ.

وهذا بعيدٌ جدًّا ـ أعني: وجوبَ الاستفتاحِ إلى القبلةِ مع العجزِ، ولعلَّ فائدة إيجابِ الإعادةِ بدونِه.

ولهم أن يصلُّوا صلاةَ شدةِ الخوفِ رجالاً وركبانًا في جماعةٍ، نصَّ عليه أحمدُ، وهو قولُ الشافعيِّ ومحمدِ بنِ الحسنِ.

وقال أبو حنيفةَ والثوريُّ والأوزاعيُّ: لا يصلونَ جماعةً، بل فُرادَى؛ لأنَّ المحافظةَ على الموقفِ والمتابعةِ لا تمكنُ.

وقال أصحابُنا ومَن وافقهم: يُعْفَى عن ذلك هاهنا، كما يُعْفَى عن استدبارِ القبلةِ والمشي في صلواتِ الخوفِ، وإن كان معَ الانفرادِ يمكن تركُ ذلك.

قالُوا: ومتى تعذَّرتِ المتابعةُ لم تصحَّ الجماعةُ بلا خلافٍ[١] .

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

وقد قيلَ في تأويلِ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة:٢٥١]: إنه يدخل فيها دفْعُـهُ عن العُصاة بأهلِ الطَّاعة، وجاءَ في الآثارِ: إنَّ اللَّهَ يدْفَعُ بالرَّجُلِ الصالحِ عن أهله وولدِه وذريَّته ومنْ حَوْله. وفي بعضِ الآثارِ يقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: «أحبُّ العبادِ إليَّ المتحـابُّونَ بجلالي المشَّاءونَ في الأرضِ بالنَّصيحةِ، المشَّاءونَ على أقدامِهِم إلى الجُمُعاتِ».

وفي روايةٍ: «المعلَّقةُ قلوبُهم بالمساجد، والمستغفرونَ بالأسحار، فإذا أردْتُ إنزالَ عذابٍ بأهلِ الأرضِ فنظَرْتُ إليهم صرفْتُ العذابَ عن الناسِ» وقالَ مكحولٌ: ما دامَ في النَّاسِ خمسةَ عشرَ يستغفرُ كلٌّ منهُم اللَّهَ كلَّ يومٍ خمسًا وعشرينَ مرَّةً لم يَهْلِكُوا بعذابٍ عامَّة. والآثارُ في هذا المعنى كثيرةٌ جدًّا[٢] .

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

[قال البخاريُّ]: وقـال إبراهيمُ عـليـه السـلامُ: ﴿وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠] وقد فسَّرها سعـيدُ بن جبيرٍ بالازديادِ من الإيمانِ[٣]، فإنَّه قالَ لَهُ:

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ١٩ ـ ٢٤). (٢) «لطائف المعارف» (٢٥٦).

(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٣/ ٥٠، ٥١).

﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠] فطلبَ زيادةً في إيمانِهِ؛ فإنَّه طلبَ أن ينتقل من درجةِ علمِ اليقينِ إلى درجةِ عينِ اليقينِ وهي أعلى وأكمل، وفي «المسندِ»[١] عن ابنِ عباسٍ عن النبي ﷺ قال: «ليس الخبر كالمعاينة»[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

في صدقةِ السرِّ، وفي فضلِهَا، نصوصٌ كثيرةٌ، فمن القرآنِ: قولُهُ: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢٧١].

ومن السنةِ: حديثُ: «رجلٌ تصدَّق بصدقة فأخفَاهَا، حتى لا تعلمَ شمالُه، ما تُنفق يمينُه»[٣]، وحديثُ: «الجاهرُ بالقرآنِ كالجاهرِ بالصدقة، والمسرُّ بالقرآنِ كالمُسرِّ بالصدقة»[٤]، وحديثُ أنسٍ: «لمَّا خلقَ اللَّهُ الأرضَ، جعلَتْ تميدُ فخلقَ الجبالَ..» الحديثَ، وفي آخرِهِ: «قيلَ: فهل منْ خلقِكَ شيءٌ أشدُّ من الريحِ؟ قالَ: نعمْ، ابنُ آدمَ يتصدقُ بيمينِه فيُخفيهَا عنْ شمالِه»[٥].

وحديثُ أبي ذرٍ[٦]، وزادَ: ثمَّ نزعَ بهذه الآية: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٢١٥، ٢٧١).
(٢) «فتح الباري» (١/ ١١ ـ ١٢).
(٣) أخرجه البخاري (١/ ١٦٨)، و(٢/ ٣٨)، ومسلم (٣/ ٩٣) من حديث أبي هريرة.
(٤) أخرجه أحمد في «المسند» (٤/ ١٥١، ١٥٨، ٢٠١)، وأبو داود (١٣٣٣)، والترمذي (٢٩١٩)، والنسائي (٥/ ٨٠) من حديث عقبة بن عامر.
(٥) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ١٢٤)، والترمذي (٣٣٦٩).
(٦) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٢٦٥) من مسند أبي أمامة.

هِيَ﴾ وحديثُ: «صدقة السرِّ، تُطفئُ غضبَ الربِّ عزَّ وجلَّ، وتدفعُ ميتةَ السوءِ» خرَّجه الترمذيُّ، وابنُ حبانٍ(١).

وحديثُ أبي طلحةَ، لَمَّا تصدَّقَ بحائطِه، وقالَ: «لو استطعتُ أنْ أُسرّه، لم أعلنْه» خرَّجه الترمذيُّ في «تفسيرِه»(٢).

واختلفُوا في الزكاةِ: هلِ الأفضلُ إسرارُها أم إظهارُها؟ فرُوِيَ عنْ عليِّ بنِ أبي طلحةَ، عنِ ابنِ عباسٍ، قالَ: جعلَ اللَّهُ صدقةَ الفريضةِ علانيتَها أفضلَ من سرِّها، يُقالُ: بخمسةٍ وعشرينَ ضعفًا، خرَّجه ابنُ جريرٍ(٣)، وفي روايةٍ، قال: وكذلك جميعُ الفرائضِ والنوافلِ في الأشياءِ كلِّها(٣). وقال سفيانُ الثوريُّ في هذه الآيةِ: هذا في التطوعِ.

وعن يزيد بنِ أبي حبيبٍ: إنَّما نزلتْ هذه الآيةُ في اليهودِ والنصارى وكان يأمرُ بِقَسم الزكاةِ في السرِّ(٤)، قالَ ابنُ عطيةَ: وهذا مردودٌ، لا سيّما عند السلفِ الصالحِ، فقد قالَ ابنُ جريرٍ الطبريُّ: أجمعَ الناسُ، أنَّ إظهارَ الواجبِ، أفضلُ(٥).

قال المهدويُّ: وقيل المُرادُ بالآيةِ: فرضُ الزكاةِ والتطوعُ، وكان الإخفاءُ فيها أفضلَ في مدّة النبيِّ ﷺ، ثمَّ ساءتْ ظنونُ الناسِ، بعد ذلك، فاستحسنَ العلماءُ، إظهارَ الفرائضِ، لئلا يُظنَّ بأحدٍ المنعُ.

قال ابنُ عطيةَ: وهذا القولُ مخالفٌ للآثارِ، قالَ: ويشبه في زمنِنا أنْ

(١) أخرجه الترمذي (٦٦٤)، وابن حبان (٣٣٠٩) من حديث أنس.
(٢) أخرجه الترمذي في «الجامع» (٢٩٩٧).
(٣) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٣/ ٩٢).
(٤) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٣/ ٩٣).
(٥) بمعناه في «تفسير ابن جرير» (٣/ ٩٣).

يحسنَ التسترُ بصدقةِ الفرضِ، فقد كثر المانعُ لها، وصار إخراجُها عُرضةً للرِّياءِ.

وهذا الذي تخيَّله ابنُ عطيةَ ضعيفٌ، فلو كانَ الرجلُ في مكانٍ يتركُ أهلُه الصلاةَ، فهل يُقال: إنَّ الأفضلَ أنْ لا يُظهرَ صلاتَه المكتوبة؟!.

وقال النَّقاشُ: إنَّ هذه الآيةَ نسخَها قولُهُ تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ الآية [البقرة:٢٧٤]. انتهى ما ذكرَهُ.

ودعوى النسخِ ضعيفٌ جدًّا، وإنَّما معنى هذه الآيةِ، كمَعنى الَّتي قبلها: إنَّ النفقةَ تُقبلَ سرًّا، وعلانيةً، وحُكي عن المهدويِّ أنَّ قولَه تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٧٢]، رخَّصَتْ في صدقةِ الفرضِ، على أهلِ القراباتِ المشركين.

قال ابنُ عطيةَ: وهذا عندي مردودٌ.

وحكي عن ابنِ المنذرِ نَقْلُ إجماعِ من يحفظُ: أنَّه لا يُعطَى الذِمِّيُّ من صدقةِ المالِ شيئًا.

قلتُ: رُوي عن ابنِ عمرَ أنَّه قال: في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ﴾ [التوبة:٦٠]: أن المساكينَ: أهلُ الكتابِ، وإسنادُهُ لا يثبتُ.

وروى الثعلبيُّ بإسنادِهِ عن سعيدِ بنِ سُويدٍ الكلبيِّ يرفعُه، أنَّ النبيَّ ﷺ سئل عن الجهرِ بالقراءة، والإخفاء فقالَ: هي كمنزلةِ الصدقة ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢٧١].

وروى الثعلبيُّ في «تفسيرِهِ»، عن أبي جعفرٍ في قولِهِ تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ﴾ قال: هي الزكاةُ المفروضةُ، ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ

﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ قال: يعني التطوعَ. هذا تفسيرٌ غريبٌ[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾

[قال البخاريُّ]: «بابُ: تحريمِ تجارةِ الخَمرِ في المسْجِدِ»:

حدثنا عبْدانُ، عنْ أبي حمْزةَ، عن الأعمش، عنْ مسلمٍ عن مسروقٍ، عن عائشةَ، قالتْ لما أُنزلتْ الآياتُ من سُورةِ البقرةِ في الرِّبا خرجَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إلى المسجدِ، فقرأهُنَّ على الناسِ، ثمَّ حرَّم تجارةَ الخمرِ[٢].

ذكْرُ الخمرِ بالتحريمِ - إما لشـربِه، أو للتجارةِ فيه - : من جملةِ تبليغِ دينِ اللَّهِ وشرعِـهِ؛ وذلكَ لأنَّه تُصان عنه المسـاجدُ؛ فـإنَّ اللَّهَ ذكرَ في كـتابه الذي يُتلى في الصلواتِ في المساجدِ: الخمرَ والميسرَ والأنصابَ والأزلامَ، كما ذكرَ: الزِّنا والرِّبا وسائرَ المحرمـات من الشركِ والفواحشِ، ولم يزلِ النبيُّ ﷺ يتلو

(١) راجع رسالة: «صدقة السر وفضلها».
(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٢٤)، (٣/١٠٨)، ومسلم (٥/ ٤٠).

ذلكَ في المسجدِ في الصلواتِ وغيرِها، ولم يزلْ يذكرُ تحريمَ ما حرَّمه اللَّهُ في المساجدِ وفي خطبِهِ على المنبرِ، وهذا البابُ مما لا تدعُو الحاجةُ إليه؛ لظهورِهِ.

ولكن يشكل في هذا الحديثِ أمرانِ:

أحدُهُما: أن تحريمَ التجارةِ في الخمرِ مما شرعَ من حينِ نزولِ تحريمِ الخمرِ، ولم يتأخرْ إلى نزولِ آياتِ الرِّبا، فإنَّ آيـاتِ الرِّبا من آخر ما نزلَ من القرآنِ، كما رَوَى البخاريُّ في «التفسيرِ»[(١)] من روايةِ الشعبيِّ، عن ابنِ عباسٍ، قال: آخرُ آيةٍ نزلتْ على رسولِ اللَّه ﷺ آيةُ الرِّبا.

وفي «الصحيحينِ»[(٢)] عن جابرٍ، أنه سمعَ النبيَّ ﷺ عامَ الفتحِ وهو بمكةَ يقولُ: «**إنَّ اللَّهَ ورسولَهُ حرَّمَ بيْعَ الخمرِ والميتةَ والخنزيرَ والأصنامَ**».

وخرَّج مسلمٌ[(٣)] من حديثِ أبي سعيدِ الخدريِّ، أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**يا أيها النَّاسُ، إنَّ اللَّهَ يعرِّض بالخـمرِ، ولعلَّ اللَّه سـينزلُ فيهـا أمرًا، فمنْ كـانَ عندَهُ منها شيءٌ فليبْعـهُ ولينتفعْ به**» قال: فما لبثنـا إلا يسيرًا حتَّى قالَ: «**إنَّ اللَّه حرَّم الخـمرَ، فمنْ أدركتْـه هذه الآيةُ وعندَهُ منهـا شيءٌ فلا يشـربْ ولا يبعْ**»، قال: فاسـتقبلَ الناسُ بما كانَ عندَهُم منها في طريقِ المدينةِ فسفكُوهَا.

وهذا نصٌّ في تحريمِ بيعِها مع تحريمِ شربِها.

والثاني: أنَّ آياتِ الرِّبا ليسَ فيها ذكرُ الخمرِ، فكيفَ ذكرَ تحريمَ التجارةِ في الخمرِ مع تحريمِ الرِّبا؟

ويجابُ عن ذلكَ: بأنَّ مرادَ عائشةَ: أنَّ النبيَّ ﷺ أخبرَ بتحريمِ التجارةِ في

---

(١) «صحيح البخاري» (٦/ ٤٠).

(٢) أخرجه البخاري (٣/ ١١٠)، (٥/ ١٩٠)، (٦/ ٧٢)، ومسلم (٥/ ٤١).

(٣) «صحيح مسلم» (٥/ ٣٩).

الخمرِ مع الرِّبا، وإنْ كانَ قد سبقَ ذكرُ تحريمِ بيعِ الخمرِ.

وقد رَوى حجَّاجُ بنُ أرطأة ـ حديثَ عائشةَ ـ، عن الأعمشِ بإسنادِ البخاريِّ، ولفظُهُ: لما نزلتْ الآياتُ التي في سورةِ البقرةِ نَهَى رسولُ اللَّهِ ﷺ عن الخمرِ والرِّبا.

وإنَّما أرادَ النبيُّ ﷺ ـ واللَّهُ أعلمُ ـ بتحريمِ التجارةِ في الخمرِ مع الرِّبا ليُعْلَمَ بذلك أنَّ الرِّبا الذي حرَّمه اللَّهُ يشملُ جميعَ أكلِ المالِ مما حرَّمه اللَّهُ من المعاوضاتِ، كما قالَ: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة:٢٧٥]، فما كانَ بيعًا فهو حلالٌ، وما لم يكن بيْعًا فهو رِبًا حرامٌ ـ أي: هو زيادةٌ على البيعِ الذي أحلَّه اللَّهُ.

فدخلَ في تحريمِ الرِّبا جميعُ أكلِ المالِ بالمعاوضاتِ الباطلةِ المحرمةِ، مثلُ رِبا الفضلِ فيما حرَّم فيه التفاضلُ، وربا النَّسَاء فيما حرَّم فيه النَّسأ، ومثل أثمانِ الأعيانِ المحرَّمةِ، كالخمرِ والميتةِ والخنزيرِ والأصنامِ، ومثل قَبولِ الهدية على الشَّفاعةِ، ومثل العقودِ الباطلةِ، كبيعِ الملامسةِ والمنابذةِ، وبيعِ حَبَلِ الحبلةِ، وبيعِ الغَرَرِ، وبيعِ الثمرة قبل بدوِّ صلاحِها، والمُخَابرةِ، والسَّلَفِ فيما لا يجوز السَّلَفُ فيه.

وكلامُ الصحابةِ في تسميةِ ذلكَ رِبًا كثيرٌ، وقد قالُوا: القَبَالاتُ رِبا، وفي النَّجشِ أنه رِبا، وفي الصفقتين في الصفقةِ أنه رِبا، وفي بيعِ الثمرةِ قبلَ بدوِّ صلاحِها أنَّه رِبا.

ورُوي: أنَّ غَبْنَ المُسْتَرسلِ رِبًا، وأنَّ كلَّ قرضٍ جرَّ نفعًا فهو رِبًا.

وقال ابنُ مسعودٍ: الرِّبا ثلاثةٌ وسبْعُونَ بابًا.

وخرَّجه ابنُ ماجه والحاكمُ عنه مرفوعًا[١].

وخرَّج الإمامُ أحمدُ وابنُ ماجه[٢]، أنَّ عمر قالَ: من آخرِ ما نزلَ آيةُ الرِّبا، وإنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قُبِضَ قبلَ أن يُفسِّرها لنا، فدَعُوا الرِّبا والرِّيبةَ.

يشيرُ عمرُ إلى أنَّ أنواعَ الرِّبا كثيرةٌ، وأنَّ من المُشْتَبِهَاتِ ما لا يتحققُّ دخولُه في الرِّبا الذي حرَّمه اللَّهُ، فما رابكُم منه فدعُوه.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[٣] عن عمرَ، أنَّه قالَ: ثلاثٌ وددتُ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ كانَ عهِدَ إلينا عهْدًا ننتهي إليه: الجَدُّ، والكَلالةُ، وأبوابٌ من أبوابِ الرِّبا.

وبعضُ البيوعِ المنهيِّ عنها نُهِيَ عنها سدًا لذريعةِ الرِّبا، كالمُحاقَلةِ، والمزَابنةِ، وكذلك قِيلَ في النهي عن بيعِ الطعامِ قبل قبضِهِ، وعن بيعتينِ في بيعةٍ، وعن ربحِ ما لم يضمنْ، وبسطُ هذا موضعُهُ «البيوعُ».

وإنَّما أشرنَا هنا إلى ما يبيِّنْ كثيرةَ أنواعِ أبوابِ الرِّبا، وأنَّها تشملُ جميعَ المعاوضاتِ المحرَّمة، فلذلكَ لَمَّا نزلَ تحريمُ الرِّبا نَهَى النبيُّ ﷺ عن الرِّبا، وعن بيعِ الخمرِ، ليبينَ أنَّ جميعَ ما نُهِيَ عن بيعِهِ داخلٌ في الرِّبا المنهيِّ عنه. واللَّهُ أعلمُ[٤].

* * *

(١) ابن ماجه (٢٢٧٥)، والحاكم (٢/ ٣٧).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٦ ـ ٥٠)، وابن ماجه (٢٢٧٦).

(٣) (٨/ ٢٤٥).

(٤) «فتح الباري» (٢/ ٥٣١ ـ ٥٣٤).

قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾

ولَمَّا نزل قولُه تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٨٤]، شقَّ ذلك على المسلمين، وظنُّوا دُخولَ هذه الخواطرِ فيه، فنزلتْ الآيةُ التي بعدَها، وفيها قولُه: ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة:٢٨٦]، فبيَّنت أنَّ ما لا طاقةَ لهُم بِهِ، فهو غيرُ مؤاخذٍ به، ولا مُكلَّف به، وقد سمَّى ابنُ عباسٍ وغيرُه ذلك نسْخًا، ومرادُهُم أنَّ هذه الآيةَ أزالتِ الإيهامَ الواقعَ في النُّفوسِ من الآية الأُولى، وبيَّنت أنَّ المرادَ: بالآيةِ الأُولى العزائمُ المصمَّمُ عليهَا، ومثل هذا البيانِ كانَ السلفُ يسمُّونَه نسخًا(١).

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/٣٤٨، ٣٤٩).

سُورَةُ آلِ عِمْرَان

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾

إنَّ الشهادتينِ منْ خصالِ الإسلامِ بغيرِ نزاعٍ، وليسَ المرادُ الإتيانَ بلفظِهِمَا دونَ التَّصديقِ بهما، فعُلِمَ أنَّ التصديقَ بهمَا، داخلٌ في الإسلامِ، وقد فسَّرَ الإسلامَ المذكورَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩] بالتَّوحيدِ والتَّصديقِ، طائفةٌ من السلفِ، منهُم محمدُ بنُ جعفرِ بنِ الزُّبيرِ.

وأمَّا إذا نُفِيَ الإيمانُ عنْ أحدٍ، وأُثبتَ له الإسلامُ، كالأعرابِ الَّذينَ أخبرَ اللَّهُ عنهُم، فإنَّه ينتفِي عنهُم رسُوخُ الإيمانِ في القلبِ، وتثبُتُ لهم المشاركةُ في أعمالِ الإسلامِ الظاهرةِ مع نوعِ إيمانٍ يُصحِّحُ لهم العملَ، إذْ لولا هذا القدرُ منَ الإيمانِ، لم يكونُوا مسلمينَ، وإنَّما نَفَى عنهُمُ الإيمانَ، لانتفاءِ ذوقِ حقائقِه، ونقصِ بعضِ واجباتِهِ، وهذَا مبنيٌّ على أنَّ التصديقَ القائمَ بالقلوبِ يتفاضلُ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

المحبةُ الصحيحةُ تقتضِي المتابعةَ والموافقةَ في حبِّ المحبوباتِ وبغضِ

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٨٦، ٨٧).

المكروهات، قـال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١]، قال الحسنُ: قال أصحابُ النبيِّ ﷺ: يا رسولَ اللَّهِ، إنَّا نُحبُّ ربَّنا حبًّا شديدًا، فأحبَّ اللَّه أن يجعلَ لحبِّه علمًا، فأنزلَ اللَّهُ هذه الآيةَ(١).

وفي «الصحيحين»(٢) عن النبيِّ ﷺ، قال: «ثلاثٌ منْ كُنَّ فيه وجَدَ حلاوةَ الإيمانِ: أنْ يكونَ اللَّهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه ممَّا سواهُمَا، وأنْ يُحبَّ المرءَ لا يُحبُّه إلا للَّه، وأنْ يكره أن يرْجِعَ إلى الكفْرِ بعد إذْ أنقذَهُ اللَّهُ منه كَما يكرَهُ أنْ يُلقَى في النارِ».

فمنْ أحبَّ اللَّهَ ورسولَهُ محبةً صادقةً من قلبِهِ، أوجبَ له ذلكَ أنْ يحبَّ بقلبِهِ ما يُحبُّه اللَّهُ ورسولُهُ، ويكرهُ ما يكرههُ اللَّهُ ورسولُهُ، ويرضَى بما يَرضَى اللَّهُ رسولُهُ، ويسخطُ ما يسخطهُ اللَّهُ ورسولُهُ، وأنْ يعملَ بجوارحِهِ بمقتضَى هذا الحبِّ والبغضِ، فإنْ عملَ بجوارِحِهِ شيئًا يخالفُ ذلكَ، بأن ارتكبَ بعض ما يكرههُ اللَّهُ ورسولُه، أو تركَ بعضَ ما يحبهُ اللَّهُ ورسولُهُ مع وجوبِهِ والقدرةِ عليه، دلَّ ذلكَ على نقصِ محبَّتِه الواجبةِ، فعليهِ أن يتوبَ من ذلكَ ويرجعَ إلى تكميلِ المحبةِ الواجبةِ.

قال أبو يعقوب النَّهْرُجُوريُّ: كلُّ من ادَّعى محبةَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ ولم يوافقِ اللَّهَ في أمرِهِ، فدعواهُ باطلةٌ، وكلُّ محبٍّ ليسَ يخافُ اللَّهَ، فهو مغرورٌ.

---

(١) أخرجه الطبري في «التفسير» (٣/ ١٥٦).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٠ ـ ١٢)، (٨/ ١٧)، (٩/ ٢٥)، ومسلم (١/ ٤٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وقالَ يحـيى بنُ معـاذٍ: ليسَ بصادقٍ من ادَّعى مـحبةَ اللَّـهِ عزَّ وجلَّ ولم يحفظْ حدودَهُ.

وسُئِلَ رُويمٌ عن المحبةِ، فقالَ: الموافقةُ في جميعِ الأحوالِ، وأنشدَ:

ولو قُلتَ لي مُتْ مِتُّ سـمـعًا وطـاعةً   وقُلتُ لداعِـي الموتِ أهــلاً ومـرْحبًـا

ولبعضِ المتقدمينَ:

تعــصي الإلهَ وأنت تزعُـم حُـبَّــه   هذا لعَـمْـرِي في القيــاسِ شَنيعُ
لو كـانَ حُبُّك صــادقًـا لأطعـتَـه   إنَّ المُـحِـبَّ لمـن يُـحـبُّ مُـطيـعُ

فجمـيعُ المعاصِي تنشأُ من تقـديمِ هوى النفوسِ على محبـةِ اللَّهِ ورسولِهِ، وقد وصفَ اللَّهُ المشركينَ باتِّـباعِ الهَوى في مواضعَ منْ كتـابِهِ، وقالَ تعالى: ﴿**فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ**﴾ [القصص: ٥٠].

وكذلكَ البدعُ إنَّما تنشأُ من تقديمِ الهَـوى على الشَّرعِ، ولهذا يُسمَّى أهلُها أهلَ الأهواءِ.

وكذلكَ المعـاصِي إنَّما تقعُ من تقديمِ الهـوى على محبـةِ اللَّهِ، ومحبـةِ ما يحبُّه.

وكذلك حبُّ الأشـخاصِ: الواجبُ فيـه أنْ يكونَ تبعًا لما جـاءَ به الرسولُ ﷺ. فيجبُ على المؤمنِ محبةُ اللَّهِ ومـحبةُ من يحبُّهُ اللَّهُ من الملائكةِ والرسلِ والأنبيـاءِ والصديقينَ والشهـداءِ والصالحينَ عمـومًا، ولهذا كانَ من عـلاماتِ وجودِ حلاوةِ الإيمانِ أن يُحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا للَّهِ، ويحرِّمَ موالاةَ أعداءِ اللَّهِ ومن يكرهُهُ اللَّهُ عمومًا، وقد سـبقَ ذلكَ في موضعٍ آخرَ، وبهذا يكونُ الدِّينُ

كلُّه للَّهِ. و«منْ أحبَّ للَّهِ وأبغضَ للَّهِ، وأعطَى للَّهِ، ومنعَ للَّهِ، فقدِ استكملَ الإيمانَ»(١).

ومن كانَ حُبُّه وبُغضُه وعطاؤه ومنعُه لِهَوى نفسِه، كانَ ذلك نقصًا في إيمانِهِ الواجبِ، فيجبُ عليه التَّوبةُ من ذلكَ والرُّجوعُ إلى اتِّباعِ ما جاء به الرسولُ ﷺ من تقديمِ محبةِ اللَّهِ ورسولِهِ، وما فيهِ رضا اللَّهِ ورسولِهِ على هوى النفوسِ ومراداتِها كلِّها.

قال وهيبُ بنُ الوردِ: بلغَنَا ـ واللَّهُ أعلمُ ـ أنَّ موسى ـ عليهِ السلامُ ـ قالَ: يا ربِّ أوصِني؟ قالَ: أوصيكَ بي، قالَهَا ثلاثًا، حتَّى قالَ في الآخرةِ: أوصيكَ بي أن لا يعرضَ لكَ أمرٌ إلا آثرتَ فيه محبَّتي على ما سِواها، فمنْ لم يفعلْ ذلكَ لم أزكِّهِ ولم أرحمْهُ.

والمعروفُ في استعمالِ الهَوى عند الإطلاقِ أنَّه الميلُ إلى خلافِ الحقِّ، كما في قولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:٢٦]، وقالَ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠ ـ ٤١].

وقد يُطلقُ الهوى بمعنى المحبةِ والميلِ مطلقًا، فيدخلُ فيه الميلُ إلى الحقِّ وغيرِهِ، وربَّما استُعْمِلَ بمعنى محبةِ الحقِّ خاصةً والانقيادِ إليه.

وسئلَ صفوانُ بنُ عسَّال: هل سمعتَ من النبيِّ ﷺ يذكرُ الهَوى؟ فقال: سأله أعرابيٌّ عن الرجلِ يُحبُّ القومَ ولم يلحقْ بِهِم، فقال: «المرءُ معَ مَنْ أحبَّ»(٢).

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٤٤٠)، والترمذي (٢٥٢١) من حديث سهل بن معاذ الجهني ﷺ.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠ ـ ٢٤١)، والترمذي (٩٦، ٢٣٨٧، ٣٥٣٥، ٣٥٣٦)، والنسائي (١/ ٨٣ ـ ٩٨).

ولَمَّا نزلَ قـولُهُ عـزَّ وجلَّ: ﴿تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [الأحزاب:٥١] ، قالتْ عائشةُ للنبيِّ ﷺ: ما أرَى ربَّك إلا يُسـارِعُ في هواك(١).

وقال عمـرُ في قصة المشاورةِ في أُسارَى بدرٍ: فـهوَى رسولُ اللَّه ﷺ ما قالَ أبو بكرٍ، ولم يَهْوَ ما قلتُ، وهذا الحديثُ مما جاء استـعمالُ الهَوى فيه بمعنى المحبـةِ المحمـودةِ. وقد وقعَ مثلُ ذلكَ في الآثـارِ الإسرائيليةِ كـثيـرًا، وكلامُ مشايخِ القومِ وإشاراتُهم نظمًا ونثرًا يكثُر فيها هذا الاستعمال.

ومَّما يناسبُ معنى الحديثِ من ذلكَ قولُ بعضهِم:

إنَّ هـواكَ الَّـذي بـقـلْـبِي ... صَـيَّـرني سـامِـعًـا مـطِـيـعًـا
أخــذتَ قلْـبي وغَـمْـضَ عـيني ... سَلَبْـــتَنِي النَّومَ والـهُــجُـوعَـا
فــذَرْ فـــؤادِي وخُـــذْ رُقـــادِي ... فـقـالَ: لا بلْ هُمَـا جـمـيـعًـا(٢)

* * *

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

[قال البخاريُّ]: وقال ابنُ عـباسٍ: ﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل

(١) أخرجه البخاري (٦/ ١٤٧)، ومسلم (٤/ ١٧٤).
(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٣٥ - ٤٣٩).

عمران:٣٥]: للمسجدِ يخدُمُها.

هذا من روايةِ عطاءِ بنِ السائبِ، عن سعيدِ بنِ جُبيرٍ، عن ابنِ عباسٍ.

وقاله - أيضًا -: مُجاهدٌ، وعكرمةٌ، وقتادةُ، والربيعُ بنُ أنسٍ وغيرُهم(١).

وقال قتادةُ والربيعُ وغيرُهما: كانوا يُحَرِّرُونَ الذكورَ من أولادِهِم للكنيسةِ يخدُمُها، فكانتْ تظنُّ أنَّ ما في بطنِهَا ذكرًا، فلمَّا وضعتْ أنثى اعتذرتْ من ذلكَ إلى اللَّهِ، وقالتْ: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران:٣٦]، لأنَّ الأنثى لا تقْوى على ما يقْوَى عليه الذكرُ من الخدمةِ، ولا تستطيعُ أن تلازمَ المسجدَ في حيضِها، فقالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ [آل عمران:٣٧]- يعني: أنَّ اللَّهَ قبِلَ نَذْرَها، وإنْ كان أنثَى، فإنه أعلمُ بما وضعتْ، وهذا كان في دينِ بني إسرائيلَ.

وقد ذكَرَ طائفةٌ من المفسرينَ: أنَّ هذا كانَ شرعًا لهُم، وأنَّ شرْعَنا غيرَ موافقٍ له.

وخالفهُم آخرونَ:

قال القاضي أبو يَعْلَى في «كتاب أحكام القرآنِ»: هذا النذرُ صحيحٌ في شريعتِنَا، فإنَّه إذا نذَرَ الإنسانُ أن ينَشِّئَ ولدَهُ الصغيرَ على عبادةِ اللَّهِ وطاعتِهِ وأنْ يعلمَه القرآنَ والفقهَ وعلومَ الدِّينِ صَحَّ النذرُ.

وهذا الذي قالَهُ حقٌّ، فقدْ قالَ النبيُّ ﷺ: «من نذَرَ أن يطيعَ اللَّهَ فليطعْه»(٢)، فلو نذرَ أحدٌ أن يخدُمَ مسجدًا للَّهِ عزَّ وجلَّ لزِمَه الوفاءُ بذلكَ مع القدرةِ،

(١) راجع: «التفسير» لابن جرير (٣/ ٢٣٦ - ٢٣٧).

(٢) أخرجه البخاري (٨/ ١٧٧) من حديث عائشة ﵂.

وأمَّا إنْ نذَرَ أن يجعلَ ولده للَّهِ ملازمًا لمسجدٍ يخدُمُه ويتعبَّدُ فيه، فلا يبعد أن يلزمَهُ الوفاءُ بذلكَ، فإنَّه نذرُ طاعـةٍ فيلزمه أن يجرِّد ولدَه لما نذرَهُ له، ويجبُ على الولدِ طاعةُ أبيه إذا أمرَهُ بطاعةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

وقد نصَّ الإمامُ أحمدُ على أنَّ الكافرينِ إذا جعَـلا ولدهُمَا الصغيرَ مسلمًا صار مسلمًا بذلكَ.

ولو وقفَ عبْدَهُ على خدمةِ الكعبةِ صحَّ ـ نصَّ عليه أحمدُ ـ أيضًا.

ونصَّ في عبدٍ موقوفٍ على خدمةِ الكعبةِ أنَّه إذا أبَى أن يخدُمَ بيعَ واشتُري بثمنِهِ عبدٌ يخدمُ مكانَهُ.

ورَوَى سعيـدُ بنُ سالمٍ القداحُ، عن ابنِ أبي نَجيحٍ، عن أبيـهِ، أنَّ معاويةَ أخدَمَ الكعـبةَ عـبيدًا بعثَ بهم إلـيها، ثم اتَّبـعتْ ذلك الولاةُ بعدَهُ. خـرَّجه الأزْرقي[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾

قال اللَّهُ تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]. قـالَ أبو هريـرةَ رضي الله عنه في هذه الآيةِ: يجيئونَ بهِم في السَّلاسلِ حتَّى يُدخلونَهُم الجنَّةَ.

وفي الحديثِ المرفوعِ: «**عجبَ ربُّك من قومٍ يُقَادُون إلى الجنَّةِ بالسّلاسلِ**»[(٢)].

---

(١) «فتح الباري» (٢/ ٥٣٥، ٥٣٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فـالجهـادُ في سـبيلِ اللَّهِ دعـاءُ الخلْقِ إلى الإيمانِ باللَّهِ ورسـولِه بالسَّيفِ واللسان، بعدَ دعائهِم إليه بالحجَّةِ والبرهانِ. وقد كانَ النبيُّ ﷺ في أولِ الأمرِ لا يقاتلُ قومًا حتى يدعُوهم.

فالجهادُ به تعلُو كلمةُ الإيمانِ، وتتسعُ رُقْعَةُ الإسلامِ، ويكثُرُ الداخلون فيه. وهو وظيفةُ الرُّسل وأتبـاعهم، وبه تصيرُ كلمةُ اللَّهِ هي العُليـا. والمقصودُ منه أن يكونَ الدِّينُ كلُّه للَّهِ، والطاعةُ له، كما قالَ تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ**﴾ [الأنفال:٣٩]. والمجاهدُ في سبيلِ اللَّهِ هو المقاتلُ لتكونَ كلمةُ اللَّهِ هي العُليا خاصَّةً[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

وقـد وصفَ اللَّهُ في كـتابِه أهلَ الجنةِ ببـذلِ النَّدى وكفِّ الأذى ولو كـانَ الأذى بحقٍّ فقال: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمران:١٣٣-١٣٤].

فهذا حالُ معاملتِـهم للخلقِ، ثم وصفَ قيامَهُم بحقِّ الحقِّ فقالَ: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ**

(١) «اللطائف» (٤٠٣).

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٥ - ١٣٦].

فوصفَهُم اللَّهُ عندَ الذنوبِ والاستغفـارِ وعدمِ الإصرارِ وهو حقيقةُ التوبةِ النصوحِ.

وقـريبٌ من هذهِ الآيةِ قولُهُ تعـالى: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾ [البلد: ١١-١٨].

والعقبةُ قد فسَّرَها ابنُ عباسٍ بالنارِ. وفسَّرها ابنُ عمرَ بعقبةٍ في النارِ كما تقدَّم، فأخبرَ سبحانَهُ أنَّ اقتحامَـهَا، وهو قطعُها ومجاوزتُها يحصلُ بالإحسانِ إلى الخلقِ، إما بعتقِ الرقـبةِ وإما بالإطعامِ في المجاعـةِ، والمطعَمُ إما يتيمٌ من ذوي القُـربى أو مـسكينٌ قـد لصِقَ بالتـرابِ فلم يـبقَ له شيءٌ، ولا بدَّ مع الإحسـانِ أن يكونَ من أهلِ الإيمانِ، والآمرُ لغـيرِهِ بالعدلِ والإحـسانِ، وهو التواصِي بالصـبرِ والتواصي بالمرحـمةِ، وأخبـرَ سبحـانَهُ أنَّ هذه الأوصافَ: أوصافُ أصحابِ الميمنةِ(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

[قال البخاريُّ](٢): «بابُ: خوفِ المؤمنِ أنْ يَحْبَطَ عملُهُ وهو لا يَشْعُرُ»:

---

(١) «التخويف من النار» (٢٢٣، ٢٢٤).

(٢) «صحيح البخاري» (١/ ١٩).

وقال إبراهيمُ التَّيْـميُّ: ما عرضتُ قوْلِي على عملي إلا خـشيتُ أن أكُونَ مُكَذّبًا.

وقال ابنُ أبي مليكةَ: أدركتُ ثلاثينَ منْ أصحابِ النبيِّ ﷺ، كلُّهم يخافُ النِّفاقَ على نفسِهِ، ما منهم أحدٌ يقولُ: إنَّه على إيمانِ جبريلَ وميكائيلَ.

ويذكَرُ عنِ الحسنِ: ما خافَهُ إلا مُؤمنٌ، ولا أَمِنَهُ إلا مُنافقٌ.

وما يحـذَرُ منَ الإصرارِ على النفـاق والعصيـانِ من غيرِ تـوبةٍ؛ لقولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

مرادُ البـخاريِّ بهـذا البابِ: الردُّ على المرجـئةِ، القـائلين بأنَّ المؤمنَ يقطعُ لنفسِهِ بكمالِ الإيمانِ، وأنَّ إيمانَهُ كإيمانِ جـبريلَ وميكائيلَ، وأنَّه لا يخافُ على نفسِهِ النفاقَ العمليَّ ما دام مؤمنًا.

فذكـر عن إبراهيمَ التـيميِّ، أنَّه قـال: ما عـرضتُ قولي على عـملي إلا خشيتُ أن أكونَ مكذّبًا.

وهذا معروفٌ عنه.

وخرَّجه جعـفر الفريابيُّ، بإسنادٍ صحيحٍ عنه، ولفظُه: مـا عرضتُ قولي على عملي إلا خشيتُ أن أكون كذابًا.

ومعناهُ: أنَّ المؤمنَ يصفُ الإيمانَ بقولِهِ، وعمَلُهُ يقصرُ عن وصفِه، فيخشى على نفسه أن يكونَ عملُه مكذّبًا لقولِه.

كما رُوي عـن حذيفةَ، أنَّه قال: المنافقُ الذي يصفُ الإسـلامَ، ولا يعملُ له.

وعن عمرَ، قالَ: إنَّ أخوفَ ما أخافُ عليكمُ المنافقُ العليمُ. قالُوا: وكيفَ

يكونُ المنافقُ عليمًا؟ قالَ: يتكلمُ بالحكمةِ، ويعملُ بالجورِ ـ أو قالَ: بالمنكرِ.

وقالَ الجعدُ أبو عثمانَ: قلتُ لأبي رجاءٍ العطارديِّ: هل أدركتَ من أدركتَ من أصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ يخشَونَ النفاقَ؟ قالَ :نعم، إنِّي أدركتُ ـ بحمدِ اللَّهِ ـ منهم صدرًا حسنًا، نعم، شديدًا ، نعم، شديدًا ـ وكان قد أدركَ عمرَ.

ومِمَّن كان يتعوذُ من النفاقِ ويتخوَّفه من الصحابةِ: حذيفةُ وأبو الدرداءِ وأبو أيوب الأنصاريُّ.

وأما التابعونَ، فكثيرٌ:

قال ابنُ سيرينَ: ما عليَّ شيءٌ أخوفُ من هذه الآية: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ**﴾ [البقرة:٨].

وقالَ أيوبُ: كلُّ آيةٍ في القرآنِ فيها ذكرُ النفاقِ، فإنِّي أخافُها على نفسِي.

وقال معاويةُ بنُ قرَّةَ: كان عُمَرُ يَخْشاهُ، وآمَنُهُ أنا؟!

وكلامُ الحسنِ في هذا المعنى كثيرٌ جدا، وكذلك كلامُ أئمةِ الإسلامِ بعدَهم.

قال زيدُ بنُ أبي الزرقاءِ، عن سفيانَ الثوريِّ: خلافُ ما بيننا وبينَ المرجئةِ ثلاثٌ: نقولُ: الإيمانُ قولٌ وعملٌ، وهم يقولونَ: الإيمانُ قولٌ ولا عملٌ. ونقولُ: الإيمانُ يزيدُ وينقصُ، وهم يقولونَ: لا يزيدُ ولا ينقصُ. ونحنُ نقولُ: النفاقُ، وهمْ يقولونَ: لا نفاقَ.

وقال أبو إسحاقَ الفزاريُّ، عن الأوزاعيِّ: قد خاف عمرُ على نفسهِ النفاقَ، قالَ :فقلتُ للأوزاعيِّ، إنهم يقولون: إن عمرَ لم يخفْ أن يكون

يومئذٍ منافقًا حين سألَ حذيفة(١) ، لكن خافَ أن يُبتَلَى بذلك قبلَ أن يموتَ قال: هذا قولُ أهلِ البدعِ.

وقالَ الإمامُ أحمدُ ـ في روايةِ ابنِ هانئٍ(٢) ـ وسئلَ: ما تقولُ فيمن لا يخافُ النفاقَ على نفسِه؟ فقال: ومن يأمنُ على نفسِه النفاقَ؟

وأصلُ هذا: يرجعُ إلى ما سبقَ ذكْرُهُ من أن النفاقَ أصغرُ وأكبرُ، فالنفاقُ الأصغرُ هو نفاقُ العملِ، وهو الذي خافه هؤلاءِ على أنفسهم، وهو بابُ النفاقِ الأكبرِ، فيُخْشى على من غلبَ عليه خصالُ النفاقِ الأصغرِ في حياتِه أن يخرجَه ذلك إلى النفاقِ الأكبرِ، حتى ينسلخَ من الإيمانِ بالكليةِ. كما قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، وقال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

والأثرُ الذي ذكرَهُ البخاريُّ عن ابنِ أبي مليكةَ، هو معروفٌ عنه، من روايةِ الصلتِ بنِ دينارٍ، عنه.

وفي الصلتِ ضعفٌ.

وفي بعضِ الرواياتِ عنهُ، عنِ ابنِ أبي مليكةَ، قالَ: أدركتُ زيادةً على خمسمائةٍ من أصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، ما ماتَ أحدٌ منهم إلا وهو يخافُ النفاقَ على نفسِهِ.

وأما الأثرُ الذي ذكرَهُ عن الحسنِ، فقالَ: ويُذْكَر عنِ الحسنِ، قال: ما خافَه إلا مؤمنٌ، ولا أمِنَهُ إلا منافقٌ(٣).

(١) هذه القصة أخرجها الفسوي في «تاريخه» (٢/ ٧٦٩)، وأنكرها إنكارًا شديدًا على زيد بن وهب.
(٢) «المسائل» (٢/ ١٧٦).
(٣) راجع «تغليق التعليق» للحافظ ابن حجر (٢/ ٥٣ ـ ٥٤).

فهذا مشهورٌ عن الحسنِ، صحيحٌ عنه.

والعجبُ من قولِه في هذا: «ويُذْكَرُ». وفي قولِهِ في الذي قبلَهُ: «وقالَ ابنُ أبي مليكةَ» جزمًا.

قال الإمامُ أحمدُ في «كتاب الإيمانِ» له: حدثنا مؤملٌ، قال: سمعتُ حمَّادَ بنَ زيدٍ، قال: ثنا أيوبُ، قال: سمعتُ الحسنَ يقولُ: واللَّهِ، ما أصبحَ على وجهِ الأرضِ مؤمنٌ، ولا أمسَى على وجهِها مؤمنٌ، إلا وهو يخافُ النفاقَ على نفسه، وما أمِنَ النفاقَ إلا منافقٌ[1].

حدثنا روحُ بنُ عبادةَ، قالَ: ثنا هشامٌ، قالَ: سمعتُ الحسنَ يقولُ: واللَّهِ، ما مضى مؤمنٌ ولا بقي إلا يخافُ النفاقَ، ولا أمِنَهُ إلا منافقٌ[2].

وروى جعفرُ الفريابيُّ في «كتاب صفة المنافقِ»[3] من حديثِ جعفرِ بنِ سليمانَ، عن معلَّى بنِ زيادٍ، قال: سمعتُ الحسنَ يحلفُ في هذا المسجدِ باللَّهِ الذي لا إله إلا هو، ما مضى مؤمنٌ قطُّ ولا بقي إلا وهو من النفاقِ مشفقٌ، ولا مضى منافقٌ قطُّ ولا بقيَ إلا وهو منَ النفاقِ آمِنٌ.

قال: وكانَ يقولُ: من لم يخفِ النفاقَ فهو منافقٌ.

وعن حبيبِ بنِ الشهيدِ، عنِ الحسنِ، قال: إنَّ القومَ لما رأوْا هذا النفاقَ يغُولُ الإيمانَ لم يكن لهم همٌّ غيرَ النفاقِ.

والرواياتُ في هذا المعنى عن الحسنِ كثيرةٌ.

وقولُ البخاريِّ بعدَ ذلكَ: «وما يحذرُ من الإصرارِ على النفاقِ والعصيانِ

---

(١) أخرجه الحافظ في «تغليق التعليق» (٢/ ٥٤).

(٢) انظر: «التغليق» (٢/ ٥٤). (٣) رقم (٨٧).

من غيرِ توبةٍ، لقـولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥]».

فمـرادُه: أنَّ الإصرارَ على المعاصِي وشـعبِ النفاق من غيـرِ توبةٍ؛ يُخشى منها أن يعاقبَ صاحبُها بسلبِ الإيمانِ بالكليّة، وبالوصولِ إلى النفاقِ الخالصِ وإلى سوءِ الخاتمةِ، نعوذُ باللَّهِ من ذلكَ، كما يقال: إنَّ المعاصي بريدُ الكفرِ.

وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ»(١) من حديثِ عـبدِ اللَّهِ بنِ عـمرٍو، عنِ النبيِّ ﷺ، قال: «ويلٌ لأقْماعِ القولِ، ويلٌ للذين يُصرُّون على ما فعلوا وهم يعلمون».

وأقماعُ القـولِ: الذين آذانهم كالقمع، يدخلُ فيه سـماعُ الحقِّ من جانبٍ، ويخرجُ من جانبٍ آخرَ، لا يستقرُّ فيه.

وقد وصفَ اللَّهُ أهلَ النارِ بالإصرارِ على الكبـائرِ، فقال: ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة:٤٦].

والمرادُ بالحنثِ: الذنبُ الموقِعُ في الحنْثِ، وهوَ الإثمُ.

وتبويبُ البخاريِّ لهذا البابِ يناسبُ أن يذكرَ فـيه حبوطَ الأعمالِ الصالحةِ ببعضِ الذنوبِ، كمـا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢].

قال الإمامُ أحمـدُ: حدثنا الحسنُ بنُ موسى، قالَ: ثنا حـمادُ بنُ سلمةَ، عن حبـيبِ بنِ الشهيـدِ، عن الحسنِ، قـالَ: ما يرى هؤلاءِ أن أعمـالاً تحبطُ أعمالاً، واللَّهُ عـزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَن تَحْبَطَ

---

(١) «المسند» (٢/ ١٦٥، ٢١٩).

أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

وما يدلُّ على أن هذا ـ أيضًا ـ قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ﴾** الآية [البقرة: ٢٦٤]. وقال: **﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾** الآية [البقرة: ٢٦٦].

وفي «صحيحِ البخاريِّ»[1]، أنَّ عمر سألَ الناسَ عنها، فقالُوا: اللَّه أعلمُ. فقال ابنُ عباسٍ: ضربتْ مثلاً لعملٍ. قال عمرُ: لأيِّ عملٍ؟ قال ابنُ عباسٍ: لعملٍ. قال عمرُ: لرجلٍ غنيٍّ يعملُ بطاعةِ اللَّهِ، ثم يبعثُ اللَّهُ إليه الشيطان فيعملُ بالمعاصي، حتى أغرقَ أعمالَه.

وقال عطاءٌ الخراسانيُّ: هو الرجلُ يختمُ له بشركٍ أو عملٍ كبيرةٍ، فيحبطُ عملَه كلَّه.

وصحَّ عن النبيِّ ﷺ، أنَّه قال: «**من ترك صلاةَ العصرِ حبطَ عملُهُ**»[2].

وفي «الصحيحِ»[3] ـ أيضًا ـ: «**أنَّ رجلاً قال: واللَّهِ، لا يغفرُ اللَّهُ لفلانٍ، فقالَ اللَّهُ: من ذا الذي يتألَّى عليَّ أن لا أغفرَ لفلانٍ، قد غفرتُ لفلانٍ وأحبطتُ عملَك**».

وقالتْ عائشةُ: أَبلِغي زيدًا، أنه أحبطَ جهادَه مع رسولِ اللَّهِ ﷺ، إلا أن يتوب[4].

وهذا يدلُّ على أن بعضَ السيئاتِ تحبطُ بعضَ الحسناتِ، ثم تعودُ بالتوبةِ منها.

---

(١) (٦/ ٣٩).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٤٥ ـ ١٥٤) من حديث بريدة بن الحصيب الأسلمي.

(٣) «صحيح مسلم» (٨/ ٣٦) من حديث جندب بن عبد اللَّه البجلي.

(٤) أخرجه الدارقطني في «السنن» (٣/ ٥٢).

وخرَّج ابنُ أبي حاتمٍ في «تفسيرِه»(١)، من روايةِ أبي جعفرَ، عن الربيعِ بنِ أنسٍ، عن أبي العاليةِ، قال: كـانَ أصحابُ رسولِ اللَّهِ ﷺ يرونَ أنه لا يضرُّ مع الإخلاص ذنـبٌ، كما لا ينفـعُ مع الشركِ عمـلٌ صالحٌ، فأنزلَ الـلَّه عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٣]، فخافُوا الكبائرَ بعدُ أن تحبطَ الأعمالَ.

وبإسنادِه، عن الحسنِ، في قولِهِ: ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾، قال: بالمعاصي.

وعن معمـرٍ، عن ا لزهري، في قولِهِ تعالى: ﴿وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ قال: بالكبائر.

وبإسنادِهِ، عن قتادةَ، في هذه الآيةِ، قـال: من استطاعَ منكم أن لا يبطلَ عمـلاً صالحًا عمـلَه بعملٍ سيءٍ فليفـعلْ، ولا قوةَ إلا باللَّهِ، فإن الخـير ينسخُ الشرَّ، وإن الشرَّ ينسخُ الخير، وإن مِلاكَ الأعمالِ خواتيمُها.

وعن السُّـدِّيِّ، قال في هذه الآية: يقـول: لا تعصـوا الرسولَ ﷺ فيما يأمرُكم به من القتالِ، فتبطل حسناتُكم

وعن مقاتلِ بنِ حـيان، قال: بلغَنَا أنها نزلتْ فشـقَّت على أصحابِ النبيِّ ﷺ وهم يومئذٍ يروْنَ أنه ليس شيءٌ من حسناتِهِم إلا هي مقبولةٌ، فلما نزلتْ هذه الآيةُ، قال أبو بكرٍ: مـا هذا الذي يبطلُ أعمالنا؟ فـبلغني - واللَّهُ أعلمُ - أنهم ذكروا الكبائرَ التي وجبتْ لأهلها النارُ، حتى جاءت الآيةُ الأخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]. فقال ابنُ عمرَ: لما جاءتْ هذه الآيةُ، كـفَفْنا عن القولِ في ذلـك، وردَدْنا إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ،

(١) وأخرجه أيضًا عن محمد بن نصر في «الصلاة» (٦٧٨) مختصرًا.

وكنا نخافُ على من رَكبَ الكبائرِ والفواحشَ أنها تهلكُه.

والآثارُ عن السلفِ في حبوطِ بعضِ الأعمالِ بالكبيرةِ كثيرةٌ جداً، يطولُ استقصاؤها.

حتَّى قالَ حذيفةُ: قذفُ المُحْصنةِ يَهدِمُ عملَ مائة سنةٍ.

وخرَّجه البزار عنه مرفوعًا[1].

وعن عطاءٍ، قال: إنَّ الرجل ليتكلَّمُ في غضبِهِ بكلمةٍ، يهدِمُ بها عملَ ستينَ سنةٍ، أو سبعينَ سنةٍ.

وقال الإمامُ أحمدُ ـ في روايةِ الفضلِ بنِ زيادٍ، عنه ـ: ما يؤمنُ أحدُكم أن ينظرَ النظرةَ، فيحبطَ عملُه.

وأمَّا مَن زعم أن القولَ بإحباطِ الحسناتِ بالسيئاتِ قولُ الخوارجِ والمعتزلةِ خاصةً، فقد أبطلَ فيما قال، ولم يقفْ على أقوالِ السلفِ الصالحِ في ذلك.

نعم، المعتزلةُ والخوارجُ أبطلُوا بالكبيرةِ الإيمانَ كلَّه، وخلَّدُوا بها في النارِ، وهذا هو القولُ الباطلُ، الذي تفرَّدُوا به في ذلك.

ثم خرَّج البخاريُّ في هذا البابِ حديثينِ:

أحدُهما:

حديث: شُعْبةَ، عن زُبيدٍ، قالَ: سألتُ أبا وائلٍ عن المُرْجئةِ؟ فقالَ: حدَّثني عبدُ اللَّهِ، أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**سبابُ المسلمِ فُسُوقٌ، وقتالُهُ كفرٌ**»[2].

فهذا الحديثُ ردَّ به أبو وائلٍ على المرجئةِ، الذي لا يُدخلون الأعمالَ في

(١) رقم (١٠٥ ـ كشف).

(٢) أخرجه البخاري (١/ ١٩)، (٨/ ١٨)، (٩/ ٦٣)، ومسلم (١/ ٥٧ ـ ٥٨).

الإيمانِ، فإن الحـديثَ يدلُّ على أنَّ بعضَ الأعمـالِ يسمَّى كـفرًا، وهو قـتالُ المسلمينَ، فدلَّ على أنَّ بعضَ الأعمالِ يسمَّى كفرًا، وبعضَها يسمَّى إيمانًا.

وقد اتهمَ بعضُ فقهاءِ المرجئة أبا وائلٍ في روايةِ هذا الحديثِ.

وأما أبو وائلٍ، فليس بمتهمٍ، بل هو الثقةُ العدلُ المأمونُ.

وقد رواه معه ، عن ابنِ مسعودٍ ـ أيضًا ـ أبو عمرٍو الشيبانيُّ وأبو الأحوصِ وعبدُ الرحمنِ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ.

لكن؛ فيهم من وقفَه.

ورواه ـ أيضًا ـ عن النبيِّ ﷺ : سعدُ بنُ أبي وقاصٍ[(١)] ، وغيرُه.

ومثلُ هذا الحديثِ: قولُ النبيِّ ﷺ: **«لا ترجعوا بعدِي كـفارًا، يضربُ بعضُكم رقابَ بعضٍ»**[(٢)] .

وقد سـبقَ القـولُ في تسمـيةِ بعضِ الأعـمالِ كـفرًا وإيمانًا مـسـتوفًى في مواضعَ.

قـال أبو الفرجِ زينُ الدِّينِ ابنُ رجبٍ: وقـد ظـهـرَ لي في القرآن شـاهدٌ لتسـميةِ القـتـالِ كـفرًا، وهو قـولُه تعـالى ـ مـخـاطبًا لأهـلِ الكتـابِ ـ : **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَؤُلاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ**

(١) أخرجه أحمد (١/ ١٧٨)، وابن ماجه (٣٩٤١).

(٢) أخرجه البخـاري (١/ ٤١) (٢/ ٢١٦) (٥/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤)، ومسلم (١/ ٥٨) من حديث جرير بن عبد اللَّه البجلي ﷺ.

إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٤ - ٨٥].

والمعنى: أنَّ اللَّهَ حرَّم على أهلِ الكتابِ أن يقتلَ بعضُهم بعضًا، أو يخرجَ بعضُهم بعضًا من دارِه، وكان اليهودُ حلفاء الأوسِ والخزرجِ بين المدينة، فكانَ إذا وقعَ بينَ الأوسِ - أو الخزرجِ - وبينَ اليهودَ قتالٌ، ساعدَ كلُّ فريقٍ من اليهودِ بحلافه من الأوسِ والخزرجِ على أعدائِهم، فقتلوهم معهم، وأخرجُوهم معهُم من ديارِهم، بعد أن حُرِّم عليهم ذلكَ في كتابِهم وأقرُّوا بِه، وشهدُوا به، ثُمَّ بعدَ أن يؤسَرَ أولئكَ اليهودُ يفدوهُم هؤلاءِ الذين قاتلُوهم، امتثالاً لما أُمِروا به في كتابِهم من افتداءِ الأسرى منهم.

فسمَّى اللَّهُ عزَّ وجلَّ فعلَهم للافتداءِ لإخوانهم إيمانًا بالكتابِ، وسمَّى قتلَهم وإخراجَهم من ديارِهم كفرًا بالكتابِ، فدلتْ هذه الآيةُ على أنَّ القتالَ والإخراجَ من الديارِ إذا كان محرَّمًا يسمَّى كفرًا، وعلى أن فعلَ بعضِ الطاعاتِ يسمَّى إيمانًا؛ لأنه سمَّى افتداءهم للأسارى إيمانًا.

وهذا حسنٌ جدًا، ولم أرَ أحدًا من المفسرينَ تعرَّض له، وللَّهِ الحمدُ والمنَّةُ.

والحديثُ الثاني:

حديث: عُبادةَ بنِ الصامتِ، أنَّ النبيَّ ﷺ خرجَ يُخبرُ بليْلةِ القدْرِ، فتلاحَى رَجُلانِ من المسلمينَ، فقالَ: **«إنِّي خرجتُ لأخْبِركُم بليلة القدْرِ، وإنَّه تلاحَى فُلانٌ وفُلانٌ فَرُفِعَتْ، فعسى أن يكون خيراً لكُم، التمسُوها في السَّبْعِ والتِّسعِ والخَمْسِ»**[1].

إنَّما خرَّج البخاريُّ هذا الحديثَ في هذا البابِ، لذكرِ التلاحي.

والتلاحي: قد فسِّر بالسبابِ، وفسِّر بالاختصامِ والمُماراةِ من دونِ سبابِ.

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٩١)، (٣/ ٦١)، (٨/ ١٩).

ويؤيدُ هذا : أنه جـاء في روايةٍ في «صـحيحِ مـسلمٍ»[١] : «**فجاء رجلانِ يحتقَّان**» أيْ: يطلبُ كلٌّ واحدٍ منهما حقَّه من الآخرِ، ويخاصمُه في ذلكَ.

فمن فسَّره بالسبابِ احتـملَ عنده إدخال البخاريِّ للحديثِ في هذا البابِ: أنَّ السبابَ تُعجِّلُ عقوبتُه حتى يُحرمَ المسلمونَ بسببِه معرفةَ بعضٍ ما يحتاجُون إليه من مصالحِ دينهم.

وإنما رجا النبيُّ ﷺ أن يكون ذلك خيرًا، لأنَّ إبهـامَ ليلةِ القدْرِ أدْعى إلى قيام العشر كلِّه - أو أوْتَارِه - في طلبِها، فيكونُ سـببًا لشدةِ الاجتهادِ وكثرتِه، ولكنَّ بيانَ تلك الليلةِ ومعرفتَهم إياها بعينِها له مزيةٌ على إبهامِها، فرُفِع ذلك بسببِ التلاحي.

فدلَّ هذا الحديـثُ على أن الذنوبَ قد تكون سببًـا لخفاءِ بعضِ معـرفةِ ما يحتاجُ إليه في الدِّينِ.

وقال ابنُ سيرينَ: ما اختلفَ في الأهلِ[٢] حتى قُتلَ عثمانُ.

فكلَّما أحدثَ الناسُ ذنوبًا أوجب ذلك خفاءَ بعضِ أمورِ دينِهم عليهم.

وقد يكونُ في خفائِه رخصةٌ لمن ارتكبَه، وهو غيرُ عالمٍ بالنهي عنه، إذ لو علِمَه ثم ارتكبَه لاستحقَّ العقوبةَ.

ومَن فسَّر التلاحـي بالاختصامِ، قال: مرادُ البخـاريِّ بإدخاله هذا الحديثَ في هذا البابِ: أنَّ التـلاحِي من غيرِ سبـابٍ ليس بفسوق، ولا يتـرتَّبُ عليه حكمُ الفسوقِ، لأنه كان سببًا لما هو خيرٌ للمسلمينَ.

---

(١) (٣/ ١٧٣) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

(٢) كذا بالأصلِ، ولعلها: «الأهلةِ».

وهذا هو الذي أشارَ إليه الإسماعيليُّ.

وفيه نظرٌ. واللَّهُ أعلمُ.

ويحتملُ أن يكونَ مرادُ البخاريِّ: أن السبابَ ليس بمخرجٍ عن الإسلامِ، مع كونِه فسوقًا، ولهذا قالَ في الحديثِ: «**فتلاحى رجلانِ من المسلمين**»، فسمَّاهُما مسلمينِ مع تلاحِيهما.

وفي «مسندِ البزارِ»(١) من حديثِ معاذٍ، عن النبيِّ ﷺ، أنَّه قالَ: «**إنَّ أولَ شيءٍ نهاني عنه ربِّي بعد عبادةِ الأوثانِ شربُ الخمرِ، وملاحاةُ الرِّجالِ**».

وفي إسنادِه: عمرُو بنُ واقدٍ الشاميُّ، وهو ضعيفٌ جدًا.

وإنما حُرمتِ الخمرُ بعدَ الهجرةِ بمدةٍ.

ولكن رواه الأوزاعيُّ، عن عروةَ بنِ رُوَيمٍ ـ مرسلاً.

خرَّجه أبو داودَ في «مراسيلِه»(٢) (٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾

فالعبدُ يحتاجُ إلى الاستعانةِ باللَّهِ والتوكلِ عليهِ في تحصيلِ العزمِ، وفي العملِ بمقتضَى العزمِ بعدَ حصولِ العزمِ، قالَ اللَّهُ: ﴿**فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ**

(١) (٣/ ٣٥١ ـ كشف).

(٢) «المراسيل» (٥٠٦).

(٣) «فتح الباري» (١/ ١٧٧ ـ ١٨٨).

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

والرشدُ: هو طاعةُ اللَّهِ ورسولِه، قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ**﴾ [الحجرات:٧].

وكان النبيُّ ﷺ يقولُ في خطبتِهِ: «**من يطعِ اللَّهَ ورسولَهُ فقدْ رَشَدَ، ومن يعصِ اللَّهَ ورسولَهُ فقد غَوَى**».

والرشدُ ضِدُّ الغَيِّ، قالَ تعالى: ﴿**قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾ [البقرة:٢٥٦]. فمن لم يكنْ رشيداً فهوَ إمَّا غاوٍ وإمَّا ضالٌّ، كما قالَ تعالى: ﴿**مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى**﴾ [النجم:٢]. فالغاوي: من تعمَّدَ خلافَ الحقِّ، والضالُّ: من لم يتعمَّدْ.

والعزمُ نوعانِ: أحدُهما: عزمُ المريدِ على الدخولِ في الطريقِ، وهو من البداياتِ.

والثانِي: العزمُ على الاستمرارِ على الطاعاتِ بعدَ الدخولِ فيها، وعلى الانتقالِ من حالٍ كاملٍ إلى حالٍ أكملَ منهُ، وهو مِنَ النهاياتِ، ولهذا سمَّى اللَّهُ تعالى خواصَّ الرسلِ وهم أُولُو العزمِ، وهم خمسةٌ، وهم أفضلُ الرسلِ، فالعزمُ الأولُ يحصِّلُ للعبدِ الدخولَ في كلِّ خيرٍ والتباعُد من كلِّ شرٍّ إذْ به يحصلُ للكافرِ الخروجُ من الكفرِ والدخولُ في الإسلامِ، وبه يحصلُ للعاصِي الخروجُ من المعصيةِ والدخولُ في الطاعةِ، فإذا كانتِ العزيمةُ صادقةً، وصمَّمَ عليها صاحبُها، وحملَ على هَوَى نفسِهِ وعلى الشيطانِ حملةً صادقةً ودخلَ فيما أُمِرَ به من الطاعاتِ؛ فقد فازَ.

وعونُ اللَّهِ للعبدِ على قدرِ قوةِ عزيمتِهِ وضعفِهَا، فمنْ صمَّمَ على إرادةِ

الخيرِ أعانَهُ وثبته؛ كما قِيل:

على قــدرِ أهلِ العــزمِ تأتــى العــزائمُ   وتأتِي على قــدرِ الكــرامِ المكــارمُ

قال أبو حــازمٍ: إذا عَزَمَ العبدُ على تركِ الآثامِ أتتْـهُ الفتوح. يشيــرُ إلى ما يفتحُ عليه بتيسيرِ الإنابةِ والطاعةِ ومقاماتِ العارفينَ، سُئِلَ بعضُ السلفِ: متى ترحلُ الدُّنيا من القلــبِ؟ قال: إذا وقعتِ العزيمةُ، ترحــلتِ الدُّنيا من القلبِ ودرجَ القلبُ في ملكوتِ السمــاءِ، وإذا لم تقعِ العزيمةُ اضطربَ القلبُ ورجعَ إلى الدُّنيا، مَنْ صدقَ العزيمةَ يئسَ منه الشيطانُ، ومتى كانَ العبدُ مترددًا طمعَ فيه الشيطانُ وسوَّفَهُ ومنَّاه، يا هذا، كلَّما رآكَ الشيطانُ قد خرجتَ من مجلسِ الذكرِ كــما دخلتَ، وأنت غــيرُ عــازمٍ على الرشدِ فرِحَ بك إبــليسُ، وقال: فديتُ من لا يفلحُ [(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾

إنَّ أعظم نعمِ اللَّهِ على هذه الأُمَّــة إظهارُ محــمدٍ ﷺ لهم وبعثتُهُ وإرسالُهُ إليهم، كــما قــال تعالى: **﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾** [آل عمران: ١٦٤].

فإنَّ النِّعْــمةَ على الأُمَّةِ بإرســالِهِ أعظمُ من النِّعْمــةِ عليهم بإيجادِ الســماءِ، والأرضِ، والشَّــمسِ، والقــمرِ، والــرِّياحِ، والليلِ، والنَّهــارِ، وإنزالِ المطرِ،

(١) راجع رسالة: «شرح حديث شداد بن أوس» باختصار (ص ٢٨ ـ ٣٠).

وإخراجِ النباتِ، وغيرِ ذلك؛ فإنَّ هذه النِّعمة كلَّها قد عمَّتْ خلقًا من بني آدمَ كفَرُوا باللَّهِ وبرُسُلِه وبلقائِه، فبدَّلُوا نعمةَ اللَّهِ كفرًا.

وأمَّا النِّعْمةُ بإرسالِ محمد ﷺ، فإنَّ بها تمَّتْ مصالحُ الدنيا والآخرة، وكَمُلَ بسببها دينُ اللَّهِ الذي رَضيَهُ لعباده، وكان قبولُه سببَ سعادَتِهم في دُنياهم وآخرتِهم، فصيامُ يومٍ تجدَّدَتْ فيه هذه النِّعمُ من اللَّه على عباده المؤمنينَ حسنٌ جميلٌ، وهو من بابِ مقابلةِ النِّعمِ في أوقاتِ تجدُّدِها بالشكر. ونظيرُ هذا صيامُ يومِ عاشوراءَ حيث أنجَى اللَّهُ فيه نوحًا من الغرقِ، ونجَّى فيه موسى وقوْمَه من فرعونَ وجنودِه، وأغرقهم في اليمِّ، فصامَهُ نوحٌ وموسى شكرًا للَّهِ، فصامَهُ رسولُ اللَّهِ ﷺ متابعةً لأنبياءِ اللَّهِ، وقال لليهودِ: **«نحنُ أحقُّ بموسى منكم»**[1] فصامَه وأمَرَ بصيامِه.

وقد رُوي أنَّ النبيَّ ﷺ كان يتحرَّى صيامَ يومِ الاثنينِ ويومِ الخميس، رُوي ذلك عنه من حديثِ عائشةَ[2]، وأبي هريرةَ[3]، وأسامةَ بن زيدٍ[4]. وفي حديثِ أُسامةَ أنَّه سأله عن ذلك، فقال ﷺ: **«إنَّهما يومان تُعرَضُ فيهما الأعمالُ على رَبِّ العالمين، فأُحبُّ أنْ يُعْرَضَ عمَلِي وأنا صائمٌ»**. وفي حديثِ أبي هريرةَ، أنَّه سُئِلَ عن ذلك، فقال: **«إنَّه يُغْفَرُ فيهما لكلِّ مسلم، إلا مُهتجِرَيْنِ، يقولُ: دعْهُما حتى يصطلحا»**.

(١) أخرجه البخاري (٣/٥٧)، (٤/١٨٦)، (٥/٨٩)، (٦/٩١ - ١٢٠)، ومسلم (٣/١٤٩ - ١٥٠) من حديث عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٨٠ - ٨٩ - ١٠٦)، والترمذي (٧٤٥)، والنسائي (٤/ ١٥٢ - ٢٠١ - ٢٠٢ - ٢٠٣ - ٢٠٤).

(٣) أخرجه ابن ماجه (١٧٤٠).

(٤) أخرجه أحمد (٥/ ٢٠٠ - ٢٠٤ - ٢٠٨)، وأبو داود (٢٤٣٦).

وفي «صحيح مسلم»[١] عن أبي هريرة مرفوعًا: «**تفتح أبوابُ الجنة يومَ الاثنين والخميس، فيُغْفَرُ لكلِّ عبدٍ لا يُشْرِكُ باللَّهِ شيئًا، إلا رجلٌ كانتْ بينه وبين أخيه شحناءُ، فيقالُ: أنظِروا هذين حتَّى يصْطلحا**».

ويُروى من حديثِ أبي أمامة مرفوعًا: «**تُرْفع الأعمالُ يومَ الاثنينِ والخميسِ، فيُغْفَرُ للمستغْفِرينَ، ويُتركُ أهلُ الحِقْدِ بحقدِهم**».

وفي «المسند»[٢] عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ: «**إنَّ أعمالَ بني آدمَ تُعْرَضُ على اللَّهِ تبارك وتعالى عشيّةَ كلِّ خميسٍ، ليلة الجُمعة، فلا يُقْبَل عَمَلُ قاطعِ رَحِم**».

كان بعضُ التابعينَ يبكي إلى امرأته يومَ الخميسِ وتبكي إليه، ويقول: اليومَ تُعْرَضُ أعمالُنا على اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

يا من يُبَهْرِجُ بعملِه، على مَنْ تُبَهْرِجُ، والناقدُ بصيرٌ؟ يا منْ يُسوِّفُ بتطويلِ أمَلِه، إلى كمْ تسوِّفُ والعُمُرُ قصير؟

صروفُ الحَتْفِ مُتْرَعَةُ الكؤوسِ ... تُدارُ على الرَّعايا والرُّؤوسِ
فلا تتْبعْ هواكَ فكلُّ شَخْصٍ ... يصيرُ إلى بِلًى وإلى دُرُوسِ
وخَفْ مِن هولِ يومٍ قمطريرٍ ... مَخُوفٍ شرُّه ضنْك عبُوسِ
فما لَكَ غيرُ تقوى اللَّهِ زادًا ... وفِعْلُكَ حين تُقْبَرُ من أنيسِ
فحَسِّنْهُ ليُعْرضَ مُستقيمًا ... ففي الاثنينِ يُعرَضُ والخميسِ[٣]

* * *

(١) «صحيح مسلم» (٨/ ١١ ـ ١٢).
(٢) «المسند» (٢/ ٤٨٤).
(٣) «اللطائف» (١٨٩ ـ ١٩١).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

أما الأنبياءُ عليهمُ الصلاةُ والسلامُ، فليسَ فيهم شكٌّ أنَّ أرواحَهم عندَ اللَّه في أعلى عليين.

وقد ثبتَ في «الصحيحِ»[1] أنَّ آخرَ كلمةٍ تكلَّم بها النبيُّ ﷺ عند موتِه أنْ قالَ: «اللَّهُمَّ الرفيقُ الأعلى» وكرَّرها حتى قبض.

وقال رجلٌ لابنِ مسعودٍ: قُبضَ رسولُ اللَّهِ ﷺ فأينَ هُو؟ قال: في الجنةِ.

وأمَّا الشهداءُ فأكثرُ العلماءِ على أنهم في الجنةِ، وقد تكاثرتِ الأحاديثُ بذلك.

ففي «صحيحِ مسلمٍ»[2] عن مسروق، قالَ: سألنا عبدَ اللَّهِ بنَ مسعودَ رضي الله عنه، عن هذه الآيةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩]، فقالَ: أما إنا قدْ سألنا رسولَ اللَّهِ ﷺ عن ذلكَ، فقال: «أرواحُهُم في جوفِ طيرٍ خضرٍ، لها قناديلُ معلقةٌ بالعرشِ، تسرحُ في الجنة حيثُ شاءتْ، ثم تأوي إلى تلكَ القناديلِ، فاطَّلع إليهم ربُّهم اطلاعةً، فقال: هل تشتهونَ شيئًا؟ قالُوا: أيَّ شيءٍ نشتهي ونَحنُ نسرحُ من الجنةِ حيثُ شئنا، ففعلَ ذلكَ بهم ثلاثَ مراتٍ، فلمَّا رأوَا أنَّهم لم يُتركوا من أنْ يُسألوا، قالُوا: يا ربَّ نريدُ أن تردَّ أرواحَنا في أجسادِنا حتى نقتلَ في سبيلِكَ مرةً أُخرى، فلمَّا رأى أنْ ليسَ لهم

(١) أخرجه البخاري (٧/ ١٥٧ ـ ١٧١ ـ ١٧٣)، ومسلم (٧/ ١٥ ـ ١٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) (٦/ ٣٨).

حاجةً تُرِكُوا».

روى الإمام أحمدُ، وأبو داودَ، والحاكمُ(١)، من حديثِ سعيدِ بنِ جبيرٍ، عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما، قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا أُصيبَ إخوانُكم بأحد جعلَ اللَّهُ أرواحَهم في أجوافِ طيرٍ خضرٍ، تردُ أنهارَ الجنة، وتأكلُ من ثمارِها، وتأوي إلى قناديلَ من ذهبٍ، معلقةٍ في ظلِّ العرشِ، فلمَّا وجدُوا طيبَ مأكلِهم ومشربِهم ومقيلِهم، قالُوا: من يبلغُ عنَّا إخوانَنا أنا أحياءٌ في الجنةِ نرزقُ، لئلا ينكُلوا عن الحربِ، ولا يزهدُوا في الجهادِ؟» قال: «فقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: أنا أبلِّغُهم عنكُم، فأنزلَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]».

وخرَّج أبو عبد اللَّهِ بن منده وغيرُهُ، حدثنا إسماعيلُ بنُ المختارِ عن عطيةَ، عن أبي سعيدٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «أرواحُ الشهداءِ في طيرٍ خضرٍ، نرعى في رياضِ الجنة، ثم يكونُ مأواها إلى قناديلَ معلقةٍ بالعرشِ، فيقولُ لهم الربُّ عزَّ وجلَّ: هلْ تعلمونَ كرامةً أكرمَ مِنْ كرامةٍ أكْرَمتكُموها؟ فيقولون: لا، إنَّا وَدَدْنا أنك رددتَ أرواحَنا في أجسادنا حتى نقاتلَ مرةً أخرى، فنقتلَ في سبيلِكَ».

وخرَّج أبو الشيخِ الأصبهانيُّ وغيرُهُ، من طريقِ عبد اللَّهِ بنِ ميمونَ، عن عمِّه مصعبِ بنِ سليمٍ، عن أنسٍ رضي الله عنه، أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «يبعثُ اللَّهُ الشهداءَ من حواصلِ طيرٍ بيضٍ كانُوا في قناديلَ معلقةٍ بالعرشِ».

وخرَّج الإمامُ أحمدُ، والترمذيُّ وصححه(٢)، من حديثِ عمرِو بنِ دينارٍ، عن الزهريِّ، عن عبد الرحمن بن كعبِ بنِ مالكٍ، عن أبيه، أنَّ رسولَ اللَّهِ

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٦)، وأبو داود (٢٥٢٠)، والحاكم (٢/ ٨٨).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٣٨٦ ـ ٤٥٥ ـ ٤٥٦)، والترمذي (١٦٤١).

ﷺ قالَ: «**إنَّ أرواح الشهداءِ في طيرٍ خضرٍ، تعلُقُ من شجرِ الجنة**». كذا رواه عمرٌو، عنِ الزهريِّ، ورواه سائرُ أصحابِ الزهريِّ عنه، ولم يذكروا: الشهداءَ، إنَّما ذكروا نسمةَ المؤمنِ وسيأتِي حديثُهم إن شاءَ اللَّهُ.

وقد ذكرنا فيما تقدمَ حديثَ أبي عبادةَ عيسى بنِ عبدِ الرحمنِ، عن الزهريِّ، عن عامرِ بنِ سعدٍ، عن إسماعيلَ بنِ طلحةَ بنِ عبيدِ اللَّهِ، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ في شهداءِ أحدٍ، وهو منكرٌ، وأبو عبادةَ هذا: ضعيفٌ جدًّا.

وخرَّج ابنُ منده، من طريقِ معاويةَ بنِ صالحٍ، عن سعيدِ بنِ سويدٍ، أنَّه سألَ ابنَ شهابٍ عن أرواحِ المؤمنينَ فقالَ: بلغني أن أرواحَ الشهداءِ كطيرٍ خضرٍ معلقة بالعرشِ، تغدُو ثم تروحُ إلى رياضِ الجنةِ، تأتي ربَّها عزَّ وجلَّ في كلِّ يومٍ تسلِّمُ عليه، وهذا أشبهُ.

وكذا قال الضحاكُ، وإبراهيمُ التيميُّ، وغيرُهما من السلفِ، في أرواحِ الشهداءِ.

وخرَّج ابنُ منده، من طريقِ عبدِ الرحمن بن زيادِ بنِ أنعمَ، عن حبَّانَ بنِ أبي جبلةَ، قالَ: بلغني أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: «**إنَّ الشهداءَ إذا استشهدُوا أنزلَ اللَّهُ جسدًا كأحسنِ جسدٍ، ثم يقالُ لروحه: ادخلي فيه، فينظر إلى جسده الأولِ ما يُفْعلُ به، ويتكلمُ فيظنُ أنهم يسمعونَ كلامَه، وينظرُ بهِم، فيظنُّ أنهم ينظرونَهُ، حتى تأتيَه أزواجُه - يعني الحورَ العينَ - فيذهبْنَ بِهِ**».

ويشهدُ لهذه النصوصِ - أيضًا - ما في «الصحيحينِ»[1] عن جابرٍ، قالَ:

(١) أخرجه البخاري (٥/ ١٢١)، ومسلم (٦/ ٤٣).

قالَ رجلٌ يومَ أُحُدٍ: أين أنا إنْ قتلتُ يا رسولَ اللَّه؟ قال: «في الجنة»، فألقى تمراتٍ كنَّ في يدهِ، ثم قاتلَ حتى قُتِلَ.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[(١)] عن أنسٍ ﷺ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال لأصحابِهِ يومَ بدرٍ: «قوموا إلى جنةٍ عرضُها السماواتُ والأرضُ»، وذكر قصةَ عميرِ بن الحمامِ.

وفي «صحيحِ البخاريِّ»[(٢)] عن المغيرةِ بن شعبةَ، قالَ: أخبرنا نبيُّنا ﷺ عن رسالةِ ربِّنا أنه من قُتِلَ صارَ إلى الجنةِ.

و«فيه» - أيضًا [(٣)]- عن المسورِ بنِ مَخْرَمَةَ، ومروانَ بنِ الحكمِ، أنَّ عمرَ ﷺ، قال للنبيِّ ﷺ يومَ الحديبيةِ: أليسَ قتلانا في الجنةِ وقتلاهُم في النارِ؟ قال: «بلَى».

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[(٤)] عن أبي مُوسى، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ أبوابَ الجنةِ تحتَ ظلالِ السيوفِ».

وفي «صحيحِ البخاريِّ»[(٥)] عن أنسٍ ﷺ، قالَ: أصيبَ حارثةُ يومَ بدرٍ - وهو غلامٌ - فجاءتْ أمُّه إلى النبيِّ ﷺ فقالتْ: يا رسولَ اللَّهِ، قد عرفتَ منزلةَ حارثةَ مِنِّي، فإن يكنْ في الجنةِ صبرتُ واحتسبتُ، وإن تكن الأُخرى ترى ما أصنعُ؟ قالَ: «ويحكِ أو هبلتِ؟ جنةٌ واحدةٌ هي؟ إنها جنانٌ كثيرةٌ، وإنهُ في جنةِ الفردوسِ».

---

(١) (٦/ ٤٤).
(٢) (٤/ ١١٨)، (٩/ ١٨٩).
(٣) «صحيح البخاري» (٤/ ١٢٥)، (٦/ ١٧٠)، ولكن هذا اللفظ من حديث سهل بن حنيف ﷺ.
(٤) (٦/ ٤٥).
(٥) (٥/ ٩٨)، (٨/ ١٤٢ - ١٤٥).

وخرَّج الترمذيُّ، والحاكمُ(١)، من حديثِ أبي هريرةَ ﵁، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «رأيتُ في الجنةِ جعفراً يطيرُ مع الملائكةِ».

وخرَّج الحاكمُ(٢) من حديثِ ابنِ عباسٍ ﵄، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**دخلتُ البارحةَ الجنةَ فنظرتُ فيها، فإذا جعفرُ يطيرُ مع الملائكةِ، وإذا حمزةُ متكئٌ على سريرٍ**».

وخرَّج الإمامُ أحمدُ، وأبو يَعْلى(٣)، وابنُ أبي الدنيا، من حديثِ ثابتٍ، عن أنسٍ ﵁، قالَ: كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ تعجبُهُ الرؤيا الحسنةُ، فكانَ فيما يقولُ: «**هل رأى أحدٌ منكم رؤْيا؟**» فإذا رأى الرجلُ الذي لا يعرفُه الرؤْيا، سألَ عنه، فإن أخبرَ عنه بمعروفٍ كان أعجبَ لرؤياه، قال: فجاءت امرأةٌ فقالتْ: يا رسولَ اللَّهِ، رأيتُ في المنامِ كأنِّي خرجتُ فأُدْخلتُ الجنةَ، فسمعتُ وجبةً ارتجتْ لها الجنةُ، فإذا أنا بفلانٍ وفلانٍ وفلانٍ، حتى عدَّتْ اثني عشرَ رجلاً - وبعثَ رسولُ اللَّهِ - ﷺ سريّة قبل ذلك فجيءَ بهم عليهم ثيابٌ طلس تشخبُ أوداجُهم، فقالَ: «**اذهبوا بهم إلى نهرِ البيذخ، فغمسُوا فيه، فأخرجُوا ووجوهُهم كالقمرِ ليلةَ البدرِ، وأُتوا بكراسي من ذهبٍ فأُقعدوا عليها، وجيءَ بصحفةٍ من ذهبٍ فيها بسر، فأكلوا من بُسره ما شاءُوا فما يقلِّبونَها لوجه إلا أكلوا من فاكهةٍ ما شاءُوا**»، قالتْ: وأكلتُ معهُم، قال: فجاءَ البشيرُ من تلك السريةِ، فقال: يا رسولَ اللَّه! كان كذا وكذا، وأصيبَ فلان وفلان حتى عدَّ اثني عشر رجلاً، فقالَ: «**عليَّ بالمرأةِ**» فقال: «**قصِّي رؤياكَ على هذا**» فقال الرجلُ: هو كما قالتْ، أصيب فلانٌ وفلانٌ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٧٦٣)، والحاكم (٣/ ٢٠٩).

(٢) «المستدرك» (٣/ ١٩٦ - ٢٠٩).

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٥ - ٢٥٧)، وأبو يعلى في «مسنده» (٣٢٨٩).

وروى ابن عيينة، عن عبدِ اللَّهِ بنِ أبي يزيدَ، سمعَ ابنَ عباسٍ، يقولُ: أرواحُ الشهداءِ تجولُ في حواصلِ طيرٍ خضرٍ، تعلُقُ في ثمرِ الجنةِ.

وروى معمرٌ، عن قتادةَ، قالَ: بلغنا أن أرواحَ الشهداءِ في حواصلِ طيرٍ بيضٍ، تأكلُ من ثمارِ الجنةِ.

وروى أبو عاصمٍ، عن ثورِ بنِ يزيدَ، عن خالدِ بنِ معدانَ، عن عبدِ اللَّه ابنِ عمرٍو، قالَ: أرواحُ الشهداءِ في أجوافِ طيرٍ كالزرازيرِ، يتعارفونَ ويرزقونَ من ثمرِ الجنةِ.

وروى ابنُ المباركِ، عن زائدةَ، حدَّثنا ميسرةُ الأشجعيُّ، عن عكرمةَ، عن ابنِ عباسٍ، عن كعبٍ ﷺ، قال: جنةُ المأوَى: جنةٌ فيها طيرٌ خضرٌ، ترعى فيها أرواحُ الشهداءِ.

كذا رواه عطيةُ، عن ابنِ عباسٍ، قالَ: قلت لكعبٍ: إني أسألُك عن أشياءَ فإنْ كانتْ في كتابِ اللَّهِ فحدِّثني، وإن لم يكنْ في كتابِ اللَّهِ فلا تحدِّثني، فذكرَ مسائلَ، فقال كعبٌ: ما سألْتَني عن شيءٍ إلا وهوَ في كتابِ اللَّهِ، قال: وأمَّا جنةُ المأوى فإنَّها جنةٌ فيها أرواحُ الشهداءِ، في أجوافِ طيرٍ خضرٍ، تأوي إلى قناديلِ الجنةِ.

وروى أبو المغيرةِ عبدُ القدوسِ بنُ الحجاجِ، حدثنا عمرُو بنُ عمرَ الأحموسي، عن السفرِ بنِ نسيرٍ، قالَ: سئلَ أبو الدرداء عنْ أرواحِ الشهداءِ فقالَ: هي طيرٌ خضرٌ، معلقةٌ في قناديلَ تحت العرشِ، تسرحُ في الجنةِ حيثُ شاءتْ، ثم ترجعُ إلى قناديلِها.

وروى ليثٌ عنِ أبي قيسٍ، عن هذيلٍ، عن ابنِ مسعودٍ، قالَ: أرواحُ

الشهداءِ طيرٌ خضرٌ في قناديلَ تحتَ العـرشِ تسرحُ في الجنةِ حيثُ شاءتْ، ثم تأوِي إلى قناديلِها.

ورُوي عن مـجاهدٍ، أنه قـالَ: ليس الشهـداءُ في الجنةِ، ولكنَّهم يرزقـونَ منها(١).

فروى آدمُ بنُ أبي إياسٍ، حدثنا ورقاءُ، عن ابنِ أبي نجيحٍ، عن مجاهدٍ في قولِه تـعالى: **﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾** الآية [آل عمران:١٦٩]. قالَ: يقـولُ: أحياءٌ عندَ ربِّهم يرزقـونَ من ثمرِ الجنةِ، ويجدونَ ريحَها وليسُوا فيها(١).

وروى ابنُ المبـاركِ، عن ابنِ جـريجٍ، عن مـجـاهدٍ، قـالَ: ليس هم في الجنةِ، ولكنَّهم يأكلونَ من ثمارِهَا، ويجدونَ ريحَهَا(١).

وقد يستدلّ لقولِه بما رواه ابنُ إسحـاقَ، عن عاصمِ بنِ عمرَ بنِ قتادةَ، عن محـمودِ بنِ لبيـدٍ، عن ابن عباسٍ رضيَ اللَّهُ عنهـما، قالَ: قـالَ رسولُ اللَّه ﷺ: **«الشهـداءُ على بارقِ نهرٍ ببابِ الجنةِ، في قبَّـةٍ خضراءَ، يخرجُ عليـهم رزقُهم من الجنةِ بكرةً وعشيًّا»**(٢).

وخرَّجه ابنُ منده، ولفظُه: **«على بارقِ نهرٍ في الجنةِ»**.

وهذا يدلُّ على أنَّ النهـرَ خارجٌ من الجنةِ، وابنُ إسـحاقَ مـدلسٌ، وليس يصرحُ بالحديثِ هنا، ولعلَّ هذا في عمـومِ الشهداءِ، والذينَ في القناديلِ التي تحتَ العرشِ خواصـُّهم، ولعلَّ المرادَ بالشهداءِ هنا من هو شهيدٌ من غـيرِ قَتْلٍ

---

(١) «الطبري» (٢/ ٣٩).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٦٦)، والحاكم (٢/ ٧٤)، والطبري (٢/ ٤٠)، (٤/ ١٧١).

في سبيلِ اللَّهِ، كالمطعونِ والمبطون والغريقِ وغيرِهم ممنْ وردَ النصُّ بأنه شهيدٌ.

والأحاديثُ السابقةُ كلُّها فيمن قُتِلَ في سبيلِ اللَّه، وبعضُها صريحٌ في ذلكَ. وفي بعضِها أنَّ الآيةَ نزلتْ في ذلك، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ الآية، والآية نصٌّ في المقتولِ في سبيلِ اللَّهِ.

وقد يطلقُ الشهيدُ على من حقَّقَ الإيمانَ وشهدَ بصحتِه بقولِه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الحديد: ١٩].

قال ابنُ أبي نجيحٍ، عن مجاهدٍ، في هذه الآيةِ يقولُ: يشهدونَ على أنفسِهِم بالإيمانِ باللَّهِ(١).

وروى سفيانُ، عن رجلٍ، عن مجاهد، قالَ: كلُّ مؤمنٍ صدِّيقٌ وشهيدٌ، ثم قرأ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾(١) [الحديد: ١٩].

وخرَّج ابنُ أبي حاتمٍ، من رواية رِشدينَ بنِ سعْد(٣)، عن ابنِ عقيلٍ، عن أبيه عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، قالَ: كلُّكم صدّيقٌ وشهيدٌ، قيلَ له: ما تقولُ يا أبا هريرة؟ قال: اقرأوا: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾.

وخرَّج ابنُ جريرٍ(٢)، من طريقِ إسماعيلَ بنِ يحيى التيميِّ، عن ابنِ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «التفسير» (٢٧/ ٢٣١).

(٢) «التفسير» (٢٧/ ٢٣١).

(٣) رشدين بن سعد هذا متروك

عجلانَ، عن زيدِ بنِ أسلمَ، عن البراءِ بن عازبٍ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «مؤمنو أمَّتي شهداءُ» ثم تلا رسـولُ اللَّهِ هذه الآيةَ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الحديد:١٩]، وإسماعيلُ هذا: ضعيفٌ جدًا.

ويَعضَـدُ هذا ما وردَ في تفـسير قـولِه تعالى: ﴿لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣] من شهادةِ هذه الأمةِ للأنـبياءِ عليهم السلامُ بتبليغِ رسالاتِهم.

وبكلِّ حالٍ فالأحاديثُ المتـقدمةُ كلُّها في الشهيدِ المقتـولِ في سبيلِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ لا تحتـملُ غيـرَ ذلكَ، وإنَّما النظرُ في حـديثِ ابنِ إسحـاقَ هذا واللَّهُ أعلمُ.

وأما بقيةُ المؤمنينَ سوى الشهداءِ؛ فينقسمونَ إلى: أهلِ تكليفٍ، وغيرِ أهلِ تكليفٍ؛ فهذانِ قسمانِ:

أحدُهما: غيرُ أهلِ التكليفِ: كأطفالِ المؤمنينَ.

فالجـمهورُ علـى أنهم في الجنة، وقد حكى الإمامُ أحـمدُ الإجـماعَ على ذلك.

وقال ـ في روايةِ جعفرِ بنِ محـمدٍ ـ: ليسَ فيهم اختلافٌ، يعني أنهم في الجنةِ.

وقالَ ـ في روايةِ الميمونيِّ ـ: لا أحدَ يشكُّ أنَّهم في الجنةِ.

وذكر الخـلالُ من طريقِ حنبلٍ، عن أحمـدَ، قالَ: نحن نقـرُّ بأنّ الجنةَ قد خلقتْ، ونؤمنُ بهـا، والجنةُ والنار مـخلوقتـانِ، قال اللَّهُ عـزَّ وجلَّ: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦]، لآلِ فـرعونَ، وقـالَ: أرواحُ ذراري

المسلمينَ، في أجوافِ طيرٍ خضرٍ، تسرحُ في الجنةِ، يكفلُهم أبوهم إبراهيمُ، فيدلُّ هذا على أنهما قد خلقَتا.

وكذلكَ نصَّ الشافعيُّ على أن أطفال المسلمينَ في الجنةِ.

وجاء صريحًا عن السلفِ على أنَّ أرْواحهم في الجنةِ كما روى الليثُ، عن أبي قيسٍ، عن هذيلٍ، عن ابنِ مسعودٍ، قالَ: إنَّ أرواحَ الشهداءِ في أجوافِ طيرٍ خضرٍ، تسرحُ بهم في الجنةِ حيث شاءُوا، وإن أرواحَ ولدانِ المسلمينَ في أجوافِ عصافيرَ في الجنةِ، تسرحُ بهم في الجنة حيثُ شاءتْ فتأوِي إلى قناديلَ معلقةٍ في العرشِ. خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ.

ورواه الثوريُّ والأعمشُ، عن أبي قيسٍ، عن هذيلٍ، من قولِه، لم يذكرِ ابنَ مسعودٍ.

وخرَّج البيهقيُّ، من طريقِ عكرمة، عن ابنِ عباسٍ، عن كعبٍ، نحوَه.

وخرَّج الخلالُ، من طريقِ ليثٍ، عن أبي الزبيرِ، عن عبيدِ بنِ عميرٍ، قالَ: إنَّ في الجنةِ لشجرةً لها ضروعٌ كضروعِ البقرِ، يغذَّى به ولدانُ أهلِ الجنةِ، حتَّى إنَّهم ليستنونَ استنانَ البكارةِ.

وخرَّج ابنُ أبي حاتمٍ بإسنادِه، عن خالدِ بن معدانَ، قالَ: إنَّ في الجنةِ شجرةً يقال لها: طُوبى ضروعٌ كلُّها، تُرْضِعُ صبيانَ أهلِ الجنةِ، وإنّ سقْطَ المرأةِ يكونُ في نهرٍ من أنهارِ الجنةِ، يتقلبُ فيه حتى تقومَ الساعةُ، فيبعثُ ابنَ أربعينَ سنةٍ.

ويدلُّ على صحةِ ذلك ما في «صحيحِ مسلمٍ»[1] عن أنسٍ قالَ: لما تُوفِّي

---

(١) (٦/ ٧٦ - ٧٧).

إبراهيمُ عليه السلامُ، قالَ النبيُّ ﷺ: **«إنَّ إبراهيمَ ابني، وإنه ماتَ في الثدْي، وإنَّ له لظئرَيْنِ فيكمِّلانِ رضاعَهُ في الجنةِ»** وخرَّجَ ابنُ ماجه(١) نحوَه من حديثِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما.

وخرَّج الإمامُ أحمدُ(٢) نحوَه من حديثِ البراءِ بن عازبٍ.

وروى سعيدُ بن منصورٍ، عن إسماعيلَ بنِ عياشٍ، عن عبدِ اللَّهِ بن عثمانَ بنِ خُثَيْمٍ، عن مكحولٍ، أن رسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: **«إن ذراري المؤمنينَ أرواحُهم في عصافيرَ في شجرٍ في الجنةِ، يلقاهُم أبوهُم إبراهيمُ عليه السلامُ»**.

وكذا رواه عليُّ بنُ عثمانَ اللاحقيُّ، عن حمَّادِ بنِ سلمةَ، عن ابنِ خُثَيْمٍ، عن مكحولٍ، إلا أنه قالَ: عصافيرُ خضرٌ في الجنةِ. وهذا مرسلٌ، ولفظه يشبهُ لفظَ الحديثِ الذي احتجَ به الإمامُ أحمدُ على خلقِ الجنةِ، كما تقدَّم.

وقد رُوِيَ متصلاً من وجهٍ آخرَ، من روايةِ عبدِ الرحمنِ بنِ ثابتِ بنِ ثوبانَ، عن عطاءِ بنِ قُرَّةَ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ ضمرةَ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: **«ذراري المؤمنينَ يكفلُهم إبراهيمُ عليه السلامُ في الجنةِ»** خرَّجه ابنُ حبانَ في «صحيحِه» والحاكمُ وقالَ: صحيحُ الإسنادِ(٣).

وخرَّجهُ الإمامُ أحمدُ(٤)، عن موسى بن داودَ، عن ابنِ ثوبانَ، إلا أنَّه ذكرَ أنَّ موسى شكَّ في رفعهِ. ولكنْ رواهُ غيرُ واحدٍ، عن ثوبانَ، ولم يشكُّوا في رفعهِ.

---

(١) «السنن» (١٥١١).

(٢) «المسند» (٤/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥ ـ ٢٩١ ـ ٣٠٠ ـ ٣٠٢ ـ ٣٠٤).

(٣) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٧٤٤٦)، والحاكم (٢/ ٣٧٠).

(٤) «المسند» (٢/ ٣٢٦).

ورُويَ من وجهٍ آخرَ، من روايةِ مؤملٍ، عن سفيانَ، عن ابنِ الأصبهانيِّ، عن أبي حازمٍ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**أولادُ المسلمين في جبلٍ في الجنةِ، يكفلُهم إبراهيمُ وسارةُ - عليهما السلامُ - فإذا كان يومُ القيامةِ دُفعوا إلى آبائِهم**»[(١)].

وكذا رواه محمدُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ نميرٍ، عن وكيعٍ، عن سفيانَ مرفوعًا.

ورواهُ ابنُ مهدي وأبو نعيمٍ، عن سفيانَ، موقوفًا، قال الدارقطنيُّ: والموقوفُ أشبهُ.

ومما يستدلُّ لهذا - أيضًا - ما خرَّجه البخاريُّ[(٢)] عن سمرةَ بنِ جندبٍ، عن النبيِّ ﷺ أنَّه رأى في منامهِ جبرائيل وميكائيل أتياه فانطلَقَا بهِ، وذكر حديثًا طويلاً، وفيه: «**فإذا روضةٌ خضراءُ فيها شجرةٌ عظيمةٌ وإذا شيخٌ في أصلِها حولَهُ صبيانُ، فصعدَا بي الشجرةَ وأدخلاني دارًا لم أرَ قط أحسنَ منها، فإذا فيها رجالٌ وشيوخٌ وشبابٌ وفيها نساءٌ وصبيانٌ**»، وذكرَ الحديثَ وفيه: «**قالا: فأمَّا الشيخُ الذي رأيتَ في أصلِ الشجرةِ فذاك إبراهيمُ، وأمَّا الصبيانُ الذي رأيتَ حولَه فأولادُ الناسِ**»، وفي روايةٍ: «**فكل مولودٍ ماتَ على الفطرةِ، وأمَّا الدارُ التي دخلتَ أولاً فدارُ عامةِ المؤمنينَ، وأمَّا الدارُ الأخرى فدار عامةِ الشهداءِ**».

ورواه ابنُ خلدةَ، عن أبي رجاءٍ العطارديِّ، عن سمرةَ، وفي حديثه: «**قلتُ: فالذينَ في الروضةِ؟ قال: أولئكَ الأطفالُ، وُكِّلَ بهم إبراهيمُ عليه السلامُ، يربِّيهم إلى يوم القيامةِ**».

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٣٨٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٢/ ٦٥)، (٤/ ١٧٠)، (٦/ ٨٦)، (٩/ ٥٥).

وخرَّج الطبرانيُّ، والحاكمُ(١)، من حديثِ سليمِ بنِ عامرٍ، عن أبي أمامةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**بينَا أنا نائمٌ انطلقَ بي إلى جبلٍ وعرٍ**»، فذكرَ الحديثَ، وفيه: «**ثمَّ انطلقَ بي حتى أشرفتُ على غلمانٍ يلعبونَ بين نهرين، قلتُ: مَنْ هؤلاءِ؟ قال: ذراري المؤمنينَ يحضنُهم أبوهم إبراهيمُ - عليه السلامُ - ثمَّ انطلقَ بي حتى أشرفتُ على ثلاثةِ نفرٍ، قلتُ: من هؤلاءِ؟ قال: إبراهيمُ وموسى وعيسى - عليهم السلامُ - وهم ينتظرونك**».

وذهبتْ طائفةٌ إلى أنَّه يشهدُ لأطفالِ المؤمنينَ عمومًا أنهم في الجنةِ ولا يُشهد لآحادِهم، كما يُشهدُ للمؤمنينَ عمومًا أنهم في الجنةِ، ولا يشهد لآحادهم وهو قولُ إسحاقَ بن راهويه، نقله عنه إسحاقُ بنُ منصورٍ وحربٌ في مسائلِهما، ولعلَّ هذا يرجعُ إلى الطفل المُعَيَّنِ لا يُشْهَد لأبيه بالإيمانِ، فلا يُشْهدُ له حينئذٍ أنه من أطفالِ المؤمنين، فيكونُ الوقفُ في آحادهم كالوقفِ في إيمانِ آبائِهم.

وحكى ابنُ عبدِ البرِّ عن طائفةٍ من السلفِ القولَ بالوقفِ في أطفالِ المؤمنينَ، وسمَّى منهم حمادَ بنَ زيدٍ، وحمادَ بنَ سلمةَ، وابنَ المباركِ، وإسحاقَ، وهذا بعيدٌ جدًا، ولعله أخذَ ذلكَ من عموماتِ كلامٍ لهم، وإنما أرادوا بها أطفالَ المشركين.

وكذلكَ اختارَ القولَ بالوقفِ طائفةٌ منهُم: الأثرمُ، والبيهقيُّ، وذُكِرَ أنَّ ابنَ عباسٍ رجعَ إليه والإمامُ أحمدُ ذكر أن ابنَ عباسٍ إنما قالَ ذلك في أطفال المشركينَ، وإنما أخذه البيهقيُّ من عمومِ لفظٍ رُويَ عنه، كما أنه رُوي في

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ١٨٢)، والحاكم (٢/ ٢١٠).

بعضِ ألفاظِ حديثِ أبي هريرةَ، أنَّ النبيَّ ﷺ سُئِلَ عن الأطفالِ ، فقالَ: «**اللَّهُ أعلمُ بما كانُوا عاملينَ**» (١) ، ولكن الحفَّاظَ الثقاتِ ذكرُوا أنه سئِلَ عن أطفالِ المشركينَ.

واستدلَّ القائلونَ بالوقفِ، بما أخرجهُ مسلمٌ (٢) ، من حديثِ فضيلِ بنِ عمرٍو، عن عائشةَ بنتِ طلحةَ، عن عائشةَ أمِّ المؤمنينَ ﵂، قالتْ: توفِّي صبيٌّ، فقلتْ: طُوبى له، عصفورٌ من عصافيرِ الجنةِ. فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**أو لا تدرينَ أنَّ اللَّهَ خلقَ الجنةَ وخلقَ النارَ، فخلقَ لهذهِ أهلاً ولهذهِ أهلاً**».

وخرَّجه مسلمٌ ـ أيضًا ـ من طريقِ طلحةَ بنِ يحيى، عن عمّته عائشةَ بنتِ طلحةَ، عن عائشةَ أمِّ المؤمنينَ رضيَ اللَّهُ عنها، قالتْ: دُعِيَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إلى جنازةِ صبيٍّ من الأنصارِ، فقلتُ: يا رسولَ اللَّهِ طُوبى لهذا، عصفورٌ من عصافيرِ أهلِ الجنةِ، لم يعملِ السوءَ ولم يدركْه، قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**أو غيرَ ذلكَ يا عائشةَ، إنَّ اللَّهَ خلق للجنَّةِ أهلاً، خلقَهُم لها وهمْ في أصلابِ آبائِهِم**».

وقد ضعَّفَ الإمامُ أحمدُ رضيَ اللَّهُ عنه هذا الحديثَ من أجلِ طلحةَ بنِ يحيى، وقالَ: قد رَوى مناكيرَ، وذكر له هذا الحديثَ، وقال ابنُ معينٍ فيه: ليس بالقويِّ.

وأما روايةُ فضيلِ بنِ عمرٍو له عن عائشةَ، فقال أحمدُ: ما أراه سمعهُ إلا من طلحةَ بنِ يحيى، يعني أنه أخذه عنه، ودلَّسهُ، حيثُ رواه عن عائشةَ بنتِ طلحةَ.

(١) أخرجه: البخاري (٢/ ١٢٥)، ومسلم (٨/ ٥٣).
(٢) «صحيح مسلم» (٨/ ٥٤ ـ ٥٥).

وذكر العقيليُّ أنه لا يُحفظُ إلا من حديثِ طلحةَ.

ويعارِضُ هذا ما خرَّجه مسلمٌ[(١)]، من حديثِ أبي السليلِ، عن أبي حسانَ، قالَ: قلتُ لأبي هريرةَ: إنه قد مات لي ابنتانِ، فما أنتَ محدِّثي عن رسولِ اللَّهِ ﷺ بحديث تطيبُ به أنفسَنا عن موتانا، قالَ: نعم، صغارُهم دعاميصُ أهلِ الجنة، يتلقَّى أحدُهم أباه - أو قالَ أبويه - فيأخذُ بثوبِه، أو قالَ بيدِه - كما آخذُ أنا بصنفةِ ثوبِكَ هذا فلا يتباهى أو قال: فلا ينتهي حتَّى يدخلَه اللَّهُ وأباهُ الجنةَ».

وفي «الصحيحين»[(٢)] عن أنسٍ رضيَ اللَّه عنه، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**ما من الناسِ مسلمٌ يموتُ له ثلاثةٌ من الولدِ لم يبلغوا الحنْثَ إلا أدخلَهُ اللَّهُ الجنةَ بفضلِ رحمته إياهُم**» . ولهذا قالَ الإمامُ أحمدُ: «هو يُرجى لأبويه، فكيف يُشكُّ فيه؟» يعني أنه يُرجى لأبويه بسببه دخول الجنةِ.

ولعلَّ النبيَّ ﷺ نهى أولاً عن الشهادةِ لأطفالِ المسلمينَ بالجنةِ قبل أن يطلع على ذلك، لأن الشهادةَ على ذلك تحتاجُ إلى علمٍ به، ثم اطلعَ على ذلك فأخبرَ بهِ، واللَّهُ أعلمُ.

القسم الثاني: أهل التكليف من المؤمنين سوى الشهداء:

وقد اختلفَ العلماءُ فيه قديمًا وحديثًا والمنصوصُ عن الإمامِ أحمدَ: أنَّ أرواحَ المؤمنينَ في الجنةِ، ذكرَ ذلك الخلالُ في كتابِ «السنة» عن غيرِ واحد عن حنبلٍ، قالَ: سمعتُ أبا عبدِ اللَّهِ يقولُ: أرواحُ الكفارِ في النارِ، وأرواحُ

---

(١) «صحيح مسلم» (٨/ ٤٠).

(٢) هو من أفراد البخاري دون مسلم، أخرجه (٢/ ٩٢ - ١٢٥).

المؤمنينَ في الجنةِ، وقال حنبل في موضعٍ آخرَ: قال: عمومُ أرواحِ المؤمنينَ في الجنةِ، وأرواحُ الكفارِ في النارِ، والأبدانُ في الدنيا يعذِّبُ اللَّهُ من يشاءُ، ويرحمُ من يشاءُ بعفوه.

قال أبو عبدِ اللَّهِ: ولا نقولُ إنهما يفنيانِ، بلْ هُما على علمِ اللَّه باقيتانِ، يبلغُ اللَّهُ فيهما عملَه، نسأل اللَّهَ التثبيتَ وأن لا يُزيغَ قلوبنا بعد إذ هدانا.

وقولُهُ: ولا نقولُ: هما يفنيانِ، يعني الجنةَ والنارَ، فإن في أولِ الكلامِ عن حنبلٍ، أن أبا عبدِ اللَّهِ حكى قصةَ ضرارٍ، وحكايتَه اختلافَ العلماءِ في خلقِ الجنةِ والنارِ، وأن القاضيَ الجمعي أهدر دمَ ضرارٍ، فلذلكَ استخفَى إلى أن ماتَ. وأن أبا عبدِ اللَّه، قالَ: هذا كفرٌ، يعني القولَ بأنهما لم يُخْلَقَا بعدُ.

قال حنبل: وسألتُ أبا عبدِ اللَّهِ، عمَّن قالَ: إنْ كانتا خلقتَا فإنهما إلى فناءٍ، ثمَّ ذكرَ هذا الجوابَ عن أحمدَ.

ولا يصحُّ أن يقالَ: إنَّ أحمدَ إنما نفى الفناءَ عنهُما معًا، فيصدق ذلك بأن تكونَ الجنةُ وحدها لا تَفْنى لأنَّ ما بعدَ هذا مبطلٌ لهذا التأويلِ، وهو قوله: بلْ هما على علمِ اللَّهِ باقيتانِ. فإنَّ هذا ينفي ذلك الاحتمالَ والتوهمَ، ويثبتُ لهما البقاءُ معًا، وهذا كما تقولُ: زيدٌ وعمرُ ولا يعلمانِ، فهذا قد يحتمل أن يرادَ به نفيُ العلمِ عنهُما جميعًا دونَ أحدِهما، فإذا قلتَ بعدَ ذلك: بل هُما جاهلانِ، زالَ ذلك الاحتمالُ، وأثبتَ الجهلَ لهما جميعًا، وأيضًا فلا يقعُ استعمالُ نفي عن شيئينِ والمرادُ نفيُ اجتماعهما خاصةً، إلا معَ ما بيَّنَ ذلك في سياقِ الكلامِ، أو عن لفظٍ يدلُّ عليه، فأمَّا مع الإطلاقِ فلا يقعُ ذلكَ، بل لا يجوزُ استعمالُهُ مع الإيهامِ، كما لا يُقالُ: الجنةُ والنارُ لا يفنيانِ، وكما لا

يُقالُ: الخالقُ والمخلوقُ لا يفنيانِ، ويرادُ به أنَّ المخلوقَ وحدَه يفْنى، ولا يقالُ: الدنيا والآخرةُ لا تبقيانِ، ويُرادُ به أنَّ الدنيا وحدها تفْنى، ولا يُقالُ: إنَّ محمدًا ومسيلمةَ لا يصدَّقانِ أو لا يكذَّبانِ، ويرادُ به صدقُ محمد ﷺ وحده، وكذبُ مسيلمة وحدَه، فإن هذا كلَّه استعمالٌ قبيحٌ ممنوعٌ، ولا يُعهدُ مثلُه في كلامِ أحدٍ ممَّنْ يُعتدُّ بهِ.

وقولُ أحمدَ بعد هذا: «نسألُ اللَّهَ التثبيتَ أن لا يُزيغَ قلوبنَا بعدَ إذْ هدَانا» يدلُّ على أنَّ القولَ بخلافِ ذلك عندَهُ من الضلالِ والزيغِ، وقد صرَّح بهذا فيما نقلَهُ عنه حربٌ، قال حربٌ في مسائلِه: هذا مذهبُ أئمة أهل العلمِ وأصحابِ الأثرِ، وأهلِ السنةِ المعروفينَ بها، المقتدَى بِهم، وأدركتُ من أدركتُ من علماءِ أهل العراقِ والحجازِ والشامِ وغيرِهم، فمن خالف شيئًا مِنْ هذه المذاهبِ أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مبتدعٌ خارجٌ من الجماعةِ، زائلٌ عن منهجِ السنة وسبيلِ الحقِّ، وهو مذهبُ أحمدَ، وإسحاقَ والحُميديِّ، وسعيدِ بنِ منصورٍ، وغيرِهم ممَّن جالسْنَا، وأخذنا عنهم العلمَ، فكانَ من قولِهِم: الإيمانُ قولٌ وعملٌ ـ وذكرَ العقيدةَ ومن جملتها ـ قالَ: ولقد خُلقتِ الجنةُ وما فيها وخُلقَتِ النارُ وما فيها، خَلَقَهما اللَّهُ ثم خلقَ الخلقَ لهما لا يفنيان، ولا يفْنى ما فيهما أبدًا، فإن احتجَّ مبتدعٌ أو زنديقٌ بقولِ اللَّه تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص:٨٨]، ونحو هذا، فقلْ له: كلُّ شيء ممَّا كتبَ اللَّهُ عليه الفناءَ والهلاكَ هالكٌ، والجنةُ والنارُ خلقتا للبقاءِ لا للفناءِ ولا للهلاكِ، وهُما من الآخرةِ لا من الدُّنيا. . . وذكر بقيةَ العقيدةِ.

فقوله في آخرِ كلامِه: «خلقتا للبقاءِ لا للفناءِ ولا للهلاكِ» يبطلُ تأويلَ مَنْ تأوَّلَ أولَ الكلامِ على أنَّ المرادَ به لا يفْنى مجموعُهُما.

وقد نُقلَ هذا الكلامُ الذي نقلَهُ حربٌ كلُّه، عن أحمدَ صريحًا.

كذلك نقلَهُ عنه أبو العباسِ أحمدُ بنُ جعفرِ بنِ يعقوبَ الأصطخريُّ، أنَّه قال: إنَّ هذه مذاهبَ أهلِ العلمِ وأصحابِ الأثرِ، وأهلِ السنةِ، المتمسكينَ بعروقِها، المعروفينَ بها، المقتدَى بهم فيها، ومن لدنْ أصحابِ رسولِ اللَّه ﷺ إلى يومِنا هذا، وأدركتُ من أدركتُ من علماءِ الحجازِ وأهلِ الشامِ وغيرِهِم، فمنْ خالفَ شيئًا من هذه المذاهبِ، أو طعنَ فيها، أو عابَ قائلَها، فهو مخالفٌ مبتدعٌ خارجٌ من الجماعةِ، زائلٌ عن منهجِ السنةِ وسبيلِ الحقِّ ـ فذكرَ العقيدةَ كلَّها ـ وفيها: وقد خُلقتِ الجنةُ وما فيها، وخُلِقَتِ النارُ وما فيها، خلقهُما اللَّهُ، وخلقَ الخلقَ لَهُما، ولا يفنيانِ، ولا يَفْنَى ما فيهما أبدًا، فإن احتجَّ مبتدعٌ أو زنديقٌ بقولِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص:٨٨]، ونحو هذا من متشابه القرآنِ، قيلَ لهُ: كلُّ شيءٍ هالكٌ مما كتبَ اللَّهُ عليه الفناءَ والهلاكَ هالكٌ، والجنةُ والنارُ خلقتا للبقاءِ لا للفناءِ ولا للهلاكِ، وهُما من الآخرةِ لا من الدُّنيا، وذكرَ بقيةَ العقيدةِ.

وقدْ رُويَتْ هذه العقيدةُ عن الإمامِ أحمدَ: أرواحُ المؤمنينَ في الجنةِ وأرواحُ الكفارِ في النارِ.

وقد حكَى القاضي أبو يَعْلَى في كتابِ «المعتمدِ» ومن تبعهُ من الأصحابِ هذا الكلامَ عن عبدِ اللَّهِ بنِ أحمدَ عن أبيه، ولم ينقلْه عبدُ اللَّهِ عن أبيهِ إنَّما نقلَهُ عن حنبلٍ.

إنما نقل عبدُ اللَّهِ عن أبيه، فقالَ الخلالُ: أنبأنا عبدُ اللَّهِ بنُ أحمدَ بنُ حنبلٍ، قال: سألتُ أبي عن أرواحِ الموتى، أتكونُ في أفنيةِ قبورِها، أم في

حواصلِ طيرٍ، أم تمـوتُ كما تموتُ الأجسادُ؟ قـال: رُوي عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «**نسمةُ المؤمنِ إذا مـاتَ طائرٌ يعلقُ في شجرِ الجنة حتَّى يرجعَـهُ اللَّهُ إلى جسدِه يومَ بعثِه**»(١).

وقد رُوي عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو(٢) قالَ: أرواحُ المؤمنينَ في أجـوافِ طيرٍ خضرٍ كالزرازيرِ ثم يتعارفونَ فيها ويرزقونَ من ثمارِهَا.

وقـال بعضُ الناسِ: أرواحُ الشهـداءِ في أجوافِ طيـرٍ خضـرٍ، تأوي إلى قناديلَ في الجنةِ معلقةٍ بالعرشِ. انتهى.

وهذا الكلامُ ـ أيضًا ـ يـدلُّ على أنَّ أرواحَ المؤمنينَ عندَ اللَّهِ في الجنةِ، لأنَّه ذكَرَ في جوابِه الأحاديثَ الدالةَ المرفوعةَ والموقوفةَ على ذلكَ. ولم يذكرْ سوى ذلكَ، ففي روايةِ حنبلٍ جزمَ بأنَّ أرواحَ المؤمنينَ في الجنةِ، وفي روايةِ عبدِ اللَّهِ ذكرَ الأدلةَ على ذلكَ.

فأمَّا الحـديثُ المرفوعُ الذي ذكرَهُ، فهو من روايةِ مـالكٍ، عن ابنِ شهابٍ، أنَّ عبـدَ الرحمنِ بنَ كـعبِ بنِ مالكٍ أخـبره أنَّ أباه كعْـبًا، كـان يحدِّثُ عن رسولِ اللَّهِ ﷺ قالَ: «**إنَّما نسمـةُ المؤمنِ طائرٌ يعلق في شجرِ الجنة، حتـى يرجعَهُ اللَّهُ إلى جسده**»، كذا رواه مـالكٌ في «الموطإ»(٣) ورواه عن مالكٍ جمـاعةٌ منهُم الشافعيُّ، ورواه الإمامُ أحـمد في «مسندِه» عن الشافعيِّ، وخـرَّجهُ الشافعيُّ من طريقِ مالكٍ أيضًا.

---

(١) أخرجـه أحمد (٣/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦)، (٦/ ٣٨٦)، والترمـذي (١٦٤١)، والنسائي (٤/ ١٠٨) من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٣١).

(٣) «الموطأ» (ص ١٦٤).

وخرَّجه ابنُ ماجه(١) من طريقِ الحارثِ بنِ فضيلٍ، عن الزهريِّ، بهذا الإسنادِ. وكذا رواه عن الزهريِّ: يونسُ والزبيديُّ والأوزاعيُّ وابنُ إسحاقَ، ورواه شعيبٌ وابنُ أخي الزهريِّ وصالحُ بنُ كيسانَ، عن الزهريِّ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ كعبِ بنِ مالكٍ عن جدِّه كعبٌ. وقال صالحٌ في حديثِه: إنَّه بلَغَه أنَّ كعبًا كان يحدِّثُ؛ وقال شعيبٌ في حديثِه: إنَّ كعبًا كان يحدِّثُ فهو على روايةِ صالحٍ ومن وافقه فهو منقطعٌ، وذكر محمدُ بنُ يحيى الذهليُّ أنَّ ذلكَ هو المحفوظُ، وخالفَهُ ابنُ عبدِ البرِّ في ذلكَ. ورجَّح روايةَ مالكٍ ومن وافقَهُ، وقد روي ـ معنى حديثِ كعبٍ ـ من وجوهٍ متعددة.

فروى حمادُ بنُ سلمةَ، عن محمدِ بنِ عمروٍ، عن أبي سلمةَ، عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ فذكرَ حديثَ القبرِ بطولِه، وفيه في حقِّ المؤمنِ، قال: «**ويُعادُ الجسدُ إلى ما بُدئُ منهُ، ويجعل روحُه في نسيمٍ طيبٍ يعلقُ في شجرِ الجنة**» خرَّجه الطبرانيُّ وغيرُهُ.

وخرَّجه ابنُ حبانُ في «صحيحِه» من طريقِ معمرٍ، عن محمدِ بنِ عمروٍ به، ولفظُه: «**وتُجعلُ نسمتُه في النسيمِ الطيبِ، وهو طيرٌ يعلقُ في شجرِ الجنةِ**» وقد سبقَ أنَّ غيرَهُما رواه عن محمدِ بنِ عمروٍ، ووقَفَهُ على أبي هريرةَ.

وقد تقدَّم حديثُ أمِّ هانئٍ الأنصاريةِ عنِ النبيِّ ﷺ قال: «**يكونُ النَّسَمُ طيرًا تعلَّقُ بالشجرِ، حتى إذا كان يومُ القيامةِ دخلتْ كلُّ نفسٍ في جسدِها**»(٢).

وخرَّج ابنُ منده، من روايةِ موسى بنُ عبيدةَ الربَذيِّ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ زيدٍ، عن أمِّ بشرِ بنتِ المعرورِ، قالتْ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إنَّ أرواحَ المؤمنينَ**

---

(١) «السنن» (٤٢٧١).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥).

في حواصلِ طيرٍ خضرٍ، تَرعَى في الجنة، تـأكُلُ من ثمارِهَا، وتشربُ مِنْ مـائها، وتأوي إلى قناديلَ مـن ذهـبٍ تحتَ العرشِ، فتقـولُ: ربَّنا ألْحِقْ بنا إخوانَنا وآتِنَا ما وعدْتنا، وإنَّ أرواحَ الكفـارِ في حـواصلِ طيـرٍ سود، تأكـلُ من النارِ، وتشـربُ مِنَ النارِ، وتأوي إلى حجرة في النارِ، فيقولونَ: ربَّنا لا تلْحِقْ بنا إخوانَنا، ولا تؤْتِنا ما وعدْتنا» . وموسى بنُ عبـيدةَ شيخٌ صالحٌ، شـغلتْه العبادةُ عـن حفظِ الحديثِ، فكثرتْ المناكـيرُ في حديثِه.

وخـرَّج ابن مُنده ـ أيضًا ـ مـن روايةِ معـاويةَ بنِ صـالحٍ، عن سمـرةَ بنِ جندبٍ، قالَ: سئلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ عن أرواحِ المؤمنينَ، فقالَ: «في طيرٍ خضرٍ تسـرحُ في الجنةِ حـيثُ شـاءَتْ»، قالُوا: يـا رسولَ اللَّهِ، أرواحُ الكفـارِ؟ قال: «محبوسةٌ في سجينٍ». وهذا مرسل.

وخرَّج أيضًا من روايةِ عيسى بنِ مـوسى، عن سفيانَ الثوريِّ، عن ثورِ بنِ يزيدَ، عن خالدِ بن معـدانَ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمروٍ، قـالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «أرواحُ المؤمنينَ في أجوافِ طيـرٍ كالزرازير تأكـلُ من ثـمرِ الجنـة». ثم قـالَ ابنُ منده: رواه جماعـةٌ عن الثوريِّ موقوفًا، يعني على عبـدِ اللَّهِ بنِ عمروٍ، قلتُ: والصوابُ وقفُه.

وقد سبقَ أنَّ الإمامَ ذكرَهُ في روايةِ ابنِهِ عبدِ اللَّهِ موقوفًا، وكذا رواهُ وكيعٌ، عن ثورِ بنِ يزيدَ، عن خالدِ بنِ معدانَ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمروٍ، قال: أرواحُ المؤمنينَ في أجـوافِ طيرٍ خضـرٍ كالزرازيرِ، يتـعارفونَ فـيهـا، ويرزقونَ من ثمارِها. خرَّجه الخلالُ.

وخـرَّج ـ أيضًـا ـ من حـديثِ أبي هاشـمٍ، عن أبي إسـحـاقَ، عن أبي

الأحوصِ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ، فذكرَ احتضارَ المؤمنِ، وأنَّ روحَهُ تعادُ إلى جسدِه عند سؤالِه في القبرِ، ثم تُرفعُ روحُهُ، فتجعلُ في أعْلى عليين. ثم تلا عبدُ اللَّهِ الآيةَ: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَابٌ مَّرْقُومٌ﴾ [المطففين:١٨ - ٢٠]، قال: في السماءِ السابعةِ، فأمَّا الكافرُ فذكرَ الكلامَ، وتلاَ: ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ﴾ [المطففين:٧ - ٨]، قالَ: الأرضُ السابعةُ.

ورُوي مثلُ هذا المعنى عن أبي هريرةَ وعبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو، وذكرَه ابنُ عبدِ البرِّ.

وروى سعيدٌ، عن قتادةَ قالَ: ذُكر لنا أنَّ عبدَ اللَّهِ بنَ عمرٍو كانَ يقولُ: في سجِّين هي الأرض السفلى فيها أرواح الكفارِ[1].

وروى ابنُ المباركِ، عن ابن لهيعةَ، عن يزيدَ بنِ أبي حبيبٍ، أنَّ منصورَ بنَ أبي منصورٍ، حدَّثه، قالَ: سألتُ عبدَ اللَّهِ بنَ عمرٍو، عن أرواحِ المسلمينَ حينَ يموتونَ، قالَ: ما تقولونَ يا أهلَ العراقِ؟ قلتُ: لا أدري. قالَ: فإنَّها صُوَر طيرٍ بيضٍ في ظلِّ العرشِ، وأرواحُ الكفارِ في الأرضِ السابعةَ.

وروى - أيضًا - عن كعبٍ، من روايةِ الأعمشِ، عن شمْر بنِ عطيةَ عنْ هلالِ بنِ يسافٍ قالَ: كنّا جلوسًا إلى كعبٍ، فجاءَ ابنُ عباسٍ، فقالَ: يا كعبُ، كلَّ ما في القرآنِ قد عرفتُ، غيرَ أربعةِ أشياءَ، فأخبرْني عنهُنَّ، فسأله عن سجِّينٍ وعلِّيين، فقال كعبٌ: أما علِّيون فالسماءُ السابعةُ فيها أرواحُ المؤمنينَ، وأمَّا سجِّين فالأرضُ السابعةُ السُّفلى وفيها أرواحُ الكفارِ تحتَ

---

(١) «التفسير» لابن جرير الطبري (٣٠/ ٩٤).

خد إبليس[١].

وقد ثبتَ بالأدلةِ أنَّ الجنةَ فوقَ السماءِ السابعةِ، وأنَّ النارَ تحتَ الأرضِ السابعةِ وقد ذكرْنا ذلك في كتابِ: «صفة النارِ» مستوفًى.

وروى أبو نُعيمٍ، من طريقِ الحكمِ بنِ أبانَ، قالَ: نزلَ بي ضيفٌ من أهلِ صنعاءَ، فقال: سمعتُ وهبَ بنَ منبه، يقولُ: إنَّ للَّهَ عزَّ وجلَّ في السماءِ السابعةِ داراً يُقالُ لها: البيضاءُ، تجتمعُ فيها أرواحُ المؤمنينَ، فإذا ماتَ الميتُ من أهلِ الدنيا تلقتْهُ الأرواحُ، فيسألونَهُ عن أخبارِ أهلِ الدنيا، كما يسألُ الغائبُ أهلَهُ إذا قدِمَ عليهم.

وخرَّج ابنُ منده، من طريقِ سفيانَ، عن يحيى بنِ سعيدٍ، عن سعيدِ بنِ المسيبِ، أنَّ سلمانَ الفارسيَّ وعبدَ اللَّهِ بنَ سلامٍ، لقيَ أحدُهُما صاحبَهُ، فقالَ: إنْ متَّ قبلي فحدِّثني بما لقيتَ، وإنْ متُّ قبلَك حدَّثْتُك بما لقيتُ. قالَ: وكيف يكونُ ذلك؟ فقال: أرواحُ المؤمنينَ تذهبُ في الجنةِ حيثُ شاءتْ.

وخرَّجه ابنُ أبي الدنيا، من طريقِ جريرٍ عنْ يحيى به.

وخرَّج - أيضًا - من طريقِ ابنِ لهيعةَ، عن يزيدِ بنِ أبي حبيبٍ، عن منصورِ بنِ أبي منصورٍ، أنه سألَ عبدَ اللَّهِ بنِ عمرٍو، عن أرواحِ المؤمنينَ إذا ماتُوا أينَ هِيَ؟ قالَ: هي صورُ طيرٍ بيضٍ، في ظلِّ العرشِ.

وروى ليثٌ، عن أبي قيسٍ، عن هذيلٍ، عن ابنِ مسعودٍ، قالَ: إنَّ أرواحَ آلِ فرعونَ في أجوافِ طيرٍ سودٍ، تغدُو على جهنَّم، وتروحُ إليها، فذلكَ عرضُها[٢].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) «التفسير» لابن جرير الطبري (٢٤/ ٧١).

وقالَ عبدُ الرحمنِ بنُ زيدِ بنِ أسلمَ، في قولِه تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ [غافر:٤٦]، قالَ: هم فيها اليوم، يُغْدَى بهم ويُراح إلى أن تقومَ الساعةُ. خرَّجهما ابنُ أبي حاتمٍ.

وخرَّج اللالكائيُّ، من روايةِ عاصمٍ، عن أبي وائلٍ، عن أبي موسى الأشعريِّ، قال: تخرجُ روحُ المؤمنِ وهي أطيبُ من المسكِ، فتعرجُ به الملائكةُ إلى ربِّه عزَّ وجلَّ، حتى تأتي ربَّه، وله برهانٌ مثلُ الشمسِ، وروحُ الكافرِ - يعني: أنتن من الجيفةِ -، وهو بوادي حضرموْت، في أسفلِ الثَّرَى، من سبعِ أرضينَ.

وقد يُستدلّ للقولِ بأنَّ أرواحَ المؤمنينَ في الجنةِ، وأرواحَ الكفارِ في النارِ، من القرآنِ بأدلة، منها قولُه تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة:٨٣-٨٥] إلى قولِه: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨-٩٤]، هو دخولُ النارِ مع إحراقِهَا وإنضاجِها، فجعل هذا كلَّه متعقبًا للاحتضارِ والموتِ.

وكذلك قولُه تعالى في قصةِ المؤمنِ في سورةِ يس: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس:٢٦-٢٧]، وإنَّما قالَ هذا بعدَ أن قتلوه، ورأى ما أعدَّ اللَّهُ له وكذلكَ قولُهُ: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر:٢٧-٣٠]، على تأويلِ من تأوَّل ذلك عند الاحتضارِ.

وكذلك قولُهُ تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ﴾ الآية: [الأعراف: ٣٧-٣٨].

ونظيرُ هذه الآيةِ قولُهُ: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٨، ٢٩].

وممَّا يُستدلُّ به - أيضًا - لذلكَ، ما رواه مجالدٌ، عن الشعبيِّ، عن جابرٍ، أنَّ النبيَّ ﷺ سُئِلَ عن خديجةَ، قالَ: «**أبصرتُها على نهرٍ من أنهارِ الجنةِ، في بيتٍ من قصبٍ، لا لغوٌ فيه ولا نصب**» خرَّجه البزارُ والطبرانيُّ[(١)].

وخرَّج الطبرانيُّ[(٢)] أيضًا بإسنادٍ منقطعٍ عن فاطمةَ رضيَ اللَّهُ عنها، أنها قالتْ للنبيِّ ﷺ: أين أُمُّنا خديجة رضيَ اللَّه عنها؟ قال: «**في بيتٍ من قصبٍ لا لغوٌ فيه ولا نصبٌ، مع مريمَ وآسيةَ امرأةِ فرعونَ**» قالتْ: ممن هذا القصبُ؟ قالَ: «**من القصبِ المنظومِ بالدررِ واللؤلؤِ والياقوت**».

وخرَّج أبو داودَ في «سننه»[(٣)] من حديثِ أبي هريرةَ، أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا رجمَ الأسلميِّ - الذي اعترفَ عنده بالزِّنا - قالَ: «**والذي نفسي بيدِه إنه الآن لفي أنهارِ الجنةِ ينغمسُ فيها**».

---

(١) الطبراني في «المعجم الأوسط» (٨١٥٣).
(٢) «المعجم الأوسط» (٤٤٠).
(٣) (٤٤٢٨).

فصلٌ

وإنَّما تدخلُ أرواحُ المؤمنينَ والشهداءِ الجنةَ إذا لم يمنعْ من ذلكَ مانعٌ، من كبائرَ تستوجبُ العقوبةَ، أو حقوقِ آدميينَ حتَّى يبرأَ منها.

ففي «الصحيحينِ»(١) عن أبي هريرةَ رضي اللَّهُ عنه، أنّ مِدْعَمًا قتلَ يومَ خيبرٍ، فقال الناسُ: هنيئًا له الجنةَ، فقال النبيُّ ﷺ: **«كلاَّ، والذي نفسي بيده إن الشَّمْلَةَ التي أخذَهَا يومَ خيبرَ لم تصبْها المقاسمُ لتشتعلُ عليه نارًا»**.

وعن سمرةَ بنِ جندبٍ، قالَ: صلَّى بنا رسولُ اللَّهِ ﷺ فقالَ: **«ها هنا أحدٌ من بني فلانٍ؟»** ثلاثًا، فلم يجبْهُ أحدٌ، ثم أجابهُ رجلٌ، فقالَ: **«إنَّ فلانًا الذي تُوفِّي احتبسَ عن الجنةِ من أجلِ الدَّينِ الذي عليه، فإن شئتم فافْتكُّوه** - أو فافدُوه - **وإن شئتُم فأسْلِمُوه إلى عذابِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ»** خرَّجه الإمامُ أحمدُ، وأبو داودَ، والنسائيُّ، بألفاظ مختلفة(٢).

وخرَّج البزارُ من حديثِ ابنِ عباسٍ، عن النبيِّ ﷺ نحوه. وفي حديثِه قالَ: **«إنَّ صاحبَكُم محبوسٌ على بابِ الجنةِ»** أحسبه قال: بدينٍ.

وخرَّج الإمامُ أحمدُ، والترمذيُّ، وابنُ ماجه(٣)، من حديثِ ثوبانَ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: **«من فارقَ الروحُ الجسدَ، وهو بريءٌ من ثلاثٍ، دخلَ الجنةَ، من الكبرِ، والغلولِ، والدَّينِ»**.

وخرَّج الطبرانيُّ(٤)، من حديثِ أنسٍ، قالَ: أُتي النبيُّ ﷺ برجلٍ يصلِّي

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ١٧٥)، (٨/ ١٧٩)، ومسلم (١/ ٧٥).
(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٠)، وأبو داود (٣٣٤١)، والنسائي (٧/ ٣١٥).
(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٧٦ - ٢٧٧ - ٢٨١ - ٢٨٢)، والترمذي (١٥٧٣)، وابن ماجه (٢٤١٢).
(٤) «المعجم الأوسط» (٥٢٥٣).

عليه، فقالَ: «**على صاحبِكُم دَيْنٌ؟**» فقالُوا: نعم، قالَ: «**فما ينفعكُم أنْ أصلِّيَ على رجلٍ مرتهنٍ في قبرِهِ، لا تصعدُ روحُه إلى السماءِ، فلو ضمنَ رجلٌ دَيْنَه قمتُ فصلَّيتُ عليه، فإنَّ صلاتِي تنفعهُ**». وفي المعنى أحاديث متعددة.

وخرَّج ابنُ أبي الدنيا، في كتابِ «من عاشَ بعد الموتِ»[1] من طريقِ سيَّارِ ابنِ جسرٍ، قالَ: خرج أبي وعبدُ اللَّهِ بنُ زيدٍ، يريدانِ الغزوَ، فهجمُوا على رَكيَّةٍ عميقةٍ واسعةٍ، فأدلَوا حبالَهُم بقدرٍ، فإذا القدر قد وقعت في الرَّكِيَّةِ، قالَ: فقرنوا حبالَ الرفقةِ بعضُها ببعضٍ، ثم دخلَ أحدُهما إلى الرَّكيِّ، فلمَّا صارَ في بعضِهِ إذا هُوَ بهمهمةٍ في الرَّكيِّ، فرجعَ فصعدَ، فقالَ: أتسمعُ ما أسمعُ؟ قالَ: نعمْ، فناولني العمودَ، فأخذ العمود ثم دخلَ الرَّكيَّةَ، فإذا هُو برجلٍ جالسٍ على ألواحٍ وتحتَهُ الماءُ. فقالَ: أجنيٌّ أم إنسيٌّ؟ قال: بل إنسيٌّ، فقالَ: ما أنت؟ قال: أنا رجلٌ من أهلِ أنطاكية، وإني مِتُّ فحبسنِي ربِّي عزَّ وجلَّ ها هُنا بدَيْنٍ عليَّ، وإنَّ ولَدِي بإنطاكية، ما يذكروني، ولا يقضونَ عنِّي. فخرجَ الذي كان في الرَّكِيَّةِ، فقال لصاحبِهِ: غزوةٌ بعدَ غزوةٍ، فدعْ أصحابَنا يذهبونَ، فسارُوا إلى إنطاكية، فسألوا عن الرجلِ وعن بَنِيه، فقالوا: نعم، إنه - واللَّهِ - لأبونا، وقد بعنا ضيعةً لنا، فامشوا معنا حتى نقضيَ عنهُ دَيْنَهُ، قال: فذهبُوا معهُم، حتى قضوا ذلك الدَّينَ، قال: ثم رجعْنا من إنطاكية حتى أتيْنَا موضعَ الركيةِ، ولا نشكُّ أنها ثمَّ، فلم يكنْ ركيةً ولا شيء فأمسُوا فباتُوا هناكَ. فإذا الرجلُ قد أتاهُم في منامِهِم، وقال: جزاكمُ اللَّهُ خيراً، فإنَّ ربِّي عزَّ وجلَّ حوَّلَني إلى مكانِ كذا وكذا من الجنةِ حيثُ قُضِي عنِّي دَيْني.

---

(١) رقم (٤٩).

وروى في كتابِ «المناماتِ» قال: حدثنا زكريا بنُ الحارثِ البصريُّ، قالَ: رُئِيَ محمدُ بنِ عبادٍ في النومِ، فـقيلَ لهُ: ما فعلَ اللَّهُ بك؟ فقالَ: لولا دَيْنِي أُدْخِلتُ الجنةَ.

وقالتْ طائفةٌ: الأرواحُ في الأرضِ، ثم اختلفُوا.

فقـالتْ فرقةٌ منهم: الأرواحُ تسـتقرُّ علـى أفنيةِ القبـورِ.. وهذا القولُ هو الذي ذكرَه عبدُ اللَّهِ ابن الإمامِ أحمدَ لأبيه في سؤالِهِ المتقدمِ. وحكى ابنُ حزمٍ هذا القولَ عن عامَّة أصحابِ الحديثِ.

وقال ابنُ عبدِ البرِّ: كان ابنُ وضَّاحٍ يذهبُ إليه، ويحتجُّ بحديثِ النبيِّ ﷺ حين خرجَ إلى المقبرةِ فقال: **«السلامُ عليكُم دارَ قومٍ مؤمنينَ»**[1]، فهذا يدلُّ على أنَّ الأرواحَ بأفنيةِ القبور.

ورجَّح ابنُ عبدِ البرِّ أنَّ أرواحَ الشهداءِ في الجنةِ، وأرواحَ غيرِهم على أفنيةِ القبورِ تسرحُ حيثُ شاءتْ.

وذَكرَ عن مالكٍ أنه قالَ: بلغَنِي أنَّ الأرواحَ مرسلةٌ تذهبُ حيثُ شاءتْ.

وعن مجاهدٍ قالَ: الأرواحُ على القبورِ سبعةُ أيامٍ، من يومِ دفنِ الميتِ، لا تفارقُ ذلكَ.

واستدلَّ هو وغيـرُه بحديثِ ابنِ عمرَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: **«إذا ماتَ أحدُكُم عُرِضَ عليه مقعدُه بالغـداةِ والعشيِّ، إنْ كانَ من أهل الجنةِ فمنْ أهلِ الجنةِ، وإنْ كانَ من أهلِ النارِ فمِنْ أهلِ النارِ، يُقـالُ له: هذا مقعدُكَ حتَّى يبعثَكَ اللَّهُ يومَ القـيامةِ»**[2] وهذا

(١) أخرجه البخاري (٢/ ١٢٤)، (٤/ ١٤٢)، (٨/ ١٣٤)، ومسلم (٨/ ١٦٠).
(٢) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٦٧٣٧)، والحاكم (١/ ٣٧ ـ ٣٨).

يدلُّ على أنَّ الأرواحَ ليستْ في الجنةِ، وإنّما تعرضُ عليها بكرةً وعشيًّا. كذلك ذكرَ ابنُ عطيةَ وغيرُه.

وهذا لا حجةَ لهم فيه لوجهين:

أحدهما: أنه يحتملُ أنْ يكون العرضُ بكرةً وعشيًّا على الروحِ المتصلةِ بالبدنِ، والروحُ وحدَها في الجنةِ فتكونُ البشارةُ والتخويفُ للجسدِ في هذينِ الوقتينِ باتصالِ الروحِ به. وأما الروحُ فهيَ أبدًا في نعيمٍ أو عذابٍ.

والثاني: أنَّ الذي يُعرضُ بالغداةِ والعشيِّ هو مسكنُ ابنِ آدمَ الذي يستقرُّ فيه في الجنةِ أو النارِ، وليستِ الأرواحُ مستقرةً فيه في مدةِ البرزخِ، وإنْ كانتْ في الجنةِ أو النارِ.

ولهذا جاءَ في حديثِ البراءِ بنِ عازبٍ، عن النبيِّ ﷺ: «**إنَّ المؤمنَ إذا فتحَ له في قبرِه بابٌ إلى الجنةِ، وقيلَ له: هذا منزلُكَ. فيقولُ: ربِّ أقِم الساعةَ حتَّى أرجعَ إلى أهلِي ومالِي**»(١).

وأمَّا السَّلامُ على أهلِ القبورِ فلا يدلُّ على استقرارِ أرواحِهم على أفنيةِ قبورِهم، فإنَّه يسلِّمُ على قبورِ الأنبياءِ والشهداءِ، وأرواحُهم في أعلى علِّيِّين، ولكنْ لها مع ذلكَ اتصالٌ سريعٌ بالجسدِ، ولا يعلمُ كُنْهَ ذلكَ وكيفيتَهُ على الحقيقةِ إلا اللَّهُ عزَّ وجلَّ.

ويشهدُ لذلكَ الأحاديثُ المرفوعةُ والموقوفةُ على أصحابِه، كأبي الدرداءِ، وعبدِ اللَّهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ رضي اللَّه عنهم، في أنَّ النائمَ يُعرجُ بروحِهِ إلى العرشِ مع تعلّقها ببدنِهِ، وسرعةِ عودِها إليه عند استيقاظِه، فروحُ الموتى

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٦٧٣٧)، والحاكم (١/ ٣٧ ـ ٣٨).

المتجردةُ عن أبدانِهِم أولَى بعروجِهَا إلى السماءِ وعودِها إلى القبرِ في مثلِ تلك السرعةِ، واللَّهُ أعلمُ.

وخــرَّج ابنُ منده، من طريقِ عليِّ بنِ زيدٍ، عن سـعـيدِ بنِ المسـيبِ، أنَّ سلمــانَ قــال لعـبدِ الـلَّهِ بنِ ســلامٍ: إنَّ أرواحَ المؤمنينَ في برزخٍ مِنَ الأرضِ تذهبُ حيثُ شــاءتْ، وإنَّ أرواحَ الكفارِ في ســجِّين، وخرَّجه ابنُ ســعدٍ في «طبــقاتِهِ» ولفظُه: «إنَّ روحَ المــؤمنِ تذهبُ في الأرضِ حيثُ شــاءتْ، وروحَ الكافر في ســجين»، وعليُّ بنُ زيدٍ ليسَ بالحــافظِ، خالفَهُ يحــيى بنُ سعـيدٍ الأنصاريُّ مع عظمتِهِ وجلالتِهِ وحفظِهِ.

فرواه عن سعــيدِ بنِ المسيبِ، قالَ فــيهِ: إنَّ أرواحَ المؤمنينَ تذهبُ في الجنةِ حيثُ شاءتْ، كمــا سبقَ ذكرهُ، وخرَّجه ابنُ سعــدٍ في «طبقاتِهِ» ولفظُه: «إنَّ المؤمنَ روحُهُ تذهبُ في الأرضِ حيثُ شاءتْ، ونسمُ الكافرِ في سجِّين».

وقــد تقدَّمَ عــن مالكٍ أنَّه قــالَ: بلغَنِي أنَّ الأرواحَ مــرسلةٌ تذهبُ حــيثُ شاءتْ، وخرَّجــه ابنُ أبي الدنيا، عن خالدِ بنِ خداشٍ، قالَ: ســمعتُ مالكًا يقولُ ذلكَ.

وخرَّج - أيـضًا - عن حسـينِ بنِ عليٍّ العجليِّ، حـدثنا أبو نعيمٍ، حـدثنا شريكٌ عن يعْلَى بنِ عطاءِ، عن أبيــه، عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمــرٍو، قالَ: مثلُ: المؤمنِ حينَ تخرجُ نفسُهُ، أو قالَ روحُــهُ، مثلُ رجلٍ كان في سجْنٍ، فأُخْرِجَ منه، فهو ينفسحُ في الأرضِ ويتقلبُ فيها.

ومما اســتدلَّ بــه على أنَّ الأرواحَ في الأرضِ، حديثُ الــبراءِ بن عــازبٍ، الذي تقدَّم سياقُ بعضِهِ، وفــيه صفةُ قبضِ رُوحِ المؤمنِ: «**فإذا انتهَى إلى العرشِ**

كتبَ كتابَهُ في علِّيين، ثم يقولُ الربُّ عزَّ وجلَّ: ردُّوا عبـدي إلى مضجعه، فإنِّي وعدتُهم أني منها خلقـتُهم، وفيـها أُعيـدُهم، ومنها أُخرِجُـهم تارةً أخرى، فيُـرَدُّ إلى مضجـعه».

وذكرَ الحديثَ. وقال في روحِ الكافرِ: «فيصعدُ بها إلى السماء، فتغلقُ دونه أبوابُ السماءِ قال: ويُقالُ: اكـتبوا كتابَهُ في سجِّين، قالَ: ثم يقـالُ: أعيدُوا عبدِي إلى الأرضِ، فإني وعدتُهُم أنِّي منها خلقتُهم، وفيها أعيدُهُم، ومنها أخرجُهم تارةً أخرى»(١).

وفي روايةٍ: «فيقـولُ اللَّهُ تعالى: ردُّوا روحَ عبدِي إلى الأرضِ، فـإنِّي وعدتُهُم أنِّي أردُّهم فيها» ثم قرأ رسولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه:٥٥].

وهذا يدلُّ على أنَّ أرواحَ المؤمنينَ تستقرُّ في الأرضِ، ولا تعودُ إلى السماء بعـد عرضِـها ونزولهـا إلى الأرضِ، ولكنَّ حديثَ البـراءِ وحدَهُ لا يعـارضُ الأحاديثَ المتقدمةَ في أنَّ الأرواحَ في الجنةِ، ولا سيما الشهداءُ.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»(٢) عن عبدِ اللَّهِ بن شقيقٍ، عن أبي هريرةَ، في صفةِ قبضِ روحِ المؤمنِ، قالَ: «ثم يصعـدُ به إلى اللَّهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ فيقـولُ: ردُّوه إلى آخرِ الأجلينِ»، وذكرَ مثلهُ في روحِ الكافـرِ، وقال فيه: وردَّ النبيُّ ﷺ ريطةً كانتْ له على أنفِهِ، يعني لمَّا ذكر نتنَ ريحِه. وهذا يشهدُ لرفعِ الحديث كلِّه.

وخرَّج ابنُ أبي الـدنيا، منْ حديثِ قـتادةَ عن قـسامةَ بنِ زهـيرٍ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ المؤمنَ إذا احتُضرَ أتتهُ الملائكةُ بحريرةٍ فيها مسكٌ وضبائرُ الريحـانِ، فتُسلُّ روحُهُ كـما تُسلُّ الشعرةُ من العـجينِ، وتقولُ: أيتـها النفسُ المطمـئنةُ اخرجي راضيةً، مرضيًّا عنكِ إلى روحِ اللَّهِ وكرامـتِه، فإذا خرجتْ روحُـه وُضِعَتْ على

(١) أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٦٧٣٧)، والحاكم (١/ ٣٧ ـ ٣٨).
(٢) (٨/ ١٦٢ ـ ١٦٣).

ذلكَ المسك والريحانِ، وطويتْ عليها الحريرةُ، وبُعثَ بها إلى علِّيين. وإنَّ الكافرَ إذا احتضرَ أتتْهُ الملائكةُ بمسحٍ فيه جمرةٌ، فتنزعُ روحُهُ نزعًا شديدًا، ويقالُ: أيتها النفس الخبيثةُ، اخرجِي ساخطةً مسخوطًا عليكِ إلى هوانِ اللَّهِ وعذابِه، فإذا أُخرجَتْ روحُه وُضِعَتْ على تلكَ الجمرةِ، فإنَّ لها نشيشًا، يُطوى عليها المسحُ ويذهبُ بها إلى سجِّين».

وخرَّجه النسائيُّ (١) وغيرُه، من حديثِ قتادةَ، عن أبي الجوزاءِ عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، ولفظُهُ مخالفٌ لما قبلَهُ، وذكرَ فيه في روحِ المؤمنِ: حين ينتهوا به إلى السماءِ العُليا، وقال في روحِ الكافرِ، حينَ ينتهوا به إلى الأرضِ السّفلى.

وقد ذكرنا فيما تقدَّم عن ابنِ مسعودٍ: أنَّ الروحَ بعدَ السؤالِ في القبرِ تُرفع إلى عليينَ، وتلا قولَهُ تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين: ١٨].

وقالتْ فرقةٌ: تجتمعُ الأرواحُ بموضعٍ من الأرضِ، كما روى همامُ بنُ يحيى المسعوديُّ، عن قتادةَ: قالَ: حدثني رجلٌ، عن سعيدِ بن المسيبِ، عن عبدِ اللَّهِ بن عمرٍو، قالَ: إنَّ أرواحَ المؤمنينَ تجتمعُ بالجابيةِ، وأمَّا أرواحُ الكفارِ فتجتمعُ بسبخةٍ بحضرموت، يُقال لهُ: برهوتُ، خرَّجه ابنُ منده.

ورواه هشامُ الدستوائيُّ، عن قتادةَ، عن سعيدِ بن المسيبِ من قولِه، ولم يذكرْ عبدَ اللَّهِ بنِ عمرٍو، خرَّجه من طريقِ ابنِ أبي الدنيا، وقد تبيّنَ أن قتادةَ لم يسمعْه من سعيدٍ، إنما بَلَغَه عنه ولا يدرِ عَمَّن أخذهُ.

وخرَّج ابنُ منده، من طريقِ فراتِ القزازِ، عن أبي الطفيلِ، عن عليٍّ، قال: شرُّ وادٍ بئرٌ في الأحقافِ: برهوتُ، بئرٌ في حضرمَوت، ترده

---

(١) «السنن» (٤/ ٨ ـ ٩).

أرواحُ الكفارِ.

قال: ورواه حـمادُ بنُ سلمةَ، عن عليٍّ بن زيدٍ، عن يوسفَ بن مـهرانَ، عن ابنِ عـبـاسٍ: عـن عليٍّ ﷺ، قـال: أبغـضُ بقـعـةٍ في الأرضِ وادٍ بحضـرموت، يُقال له: بَرهوتُ، فـيه أرواحُ الكفارِ، وفـيه بئرٌ مـاؤُه بالنهارِ أسودُ كأنه قيحٌ تأوِي إليه الهوامُ.

وروى بإسناده عن شهـرِ بنِ حوشبٍ، أنَّ كعـبًا رأى عبدَ اللَّهِ بنَ عـمرٍو، وقد تكالبَ الناسُ عليه يسألونَهُ، فقال رجلٌ لرجلٍ: سله أينَ أرواحُ المؤمنينَ؟ قال: بالجابيةِ وأرواحُ الكفارِ ببرهوتَ.

وبإسنادِهِ عن سفيانَ، عن أبانَ بنِ تغلبٍ، قالَ: قالَ رجلٌ: بتّ فيه - يعني وادي برهوت، وكأنَّمـا حُشِدتْ فيه أرواحُ الناسِ، وهم يقـولونَ: يا دومةُ يا دومةُ، قال أبانُ: فحـدثنا رجلٌ من أهلِ الكتابِ: هو المَلكُ الذي على أرواحِ الكفارِ.

قال سفـيانُ: وسألنا الحـضرميّينَ، فقـالُوا: لا يستطيعُ أن يبيتَ فيـه أحدٌ بالليلِ.

وقال ابنُ قتيـبةَ في كتابِ: «غريبِ الحديث»: ذكـرَ الأصمعيُّ، عن رجلٍ من أهلِ برهوتَ - يعني البـلدَ فيـه هذا البئـرُ - ، قـالَ: نجدُ الرائحـة المنتنةَ الفظيعةَ جدًا، ثم نمكثُ حـينًا، فيأتينا الخبرُ بأن عظيمًـا من عظماء الكفارِ قد ماتَ، فنرى أن تلكَ الرائحةَ منْهُ.

قـال: وقالَ ابن عُـيينةَ: أخـبرني رجلٌ أنـه أمْسَى ببـرهوتَ، فكـأنَّ فيـه أصواتُ الحاجّ، قال: وسألتُ أهلَ حضـرموت، فقالُوا: لا يستطيعُ أحدُنا أن

يمشي به فيه.

وقال ابنُ أبي الدنيا: حدثنا الحسينُ بنُ عبدِ العزيزِ، حدثنا عمرُو بنُ أبي سلمةَ، عن عمرَ بنِ سليمانَ، قالَ: ماتَ رجلٌ من اليهودِ وعندَهُ وديعةٌ لمسلمٍ، وكانَ لليهوديِّ ابنٌ مسلمٌ، فلم يعرفْ موضعَ الوديعةِ، فأخبرَ شعيبًا الجبائيَّ، فقال: ائت برهوتَ فإنَّ دونهُ عينٌ تسيبُ، فإذا جئتَ في يومِ السبتِ فامشِ عليها حتَّى تأتِي عينًا هناكَ، فادعُ أباكَ فإنه سيجيبُكَ، فاسألْه عما تريدُ، فعلَ ذلك الرجلُ، ومضى، حتى أتى العينَ، فدعا أباه مرتينَ أو ثلاثًا فأجابَهُ، فقالَ: أين وديعةُ فلانٍ؟ فقال: تحت إسكفةِ البابِ، فادفعْها إليه.

وفي كتابِ «الحكاياتِ» لأبي عمرٍو أحمدَ بنِ محمدٍ النيسابوريِّ، قالَ: حدثنا أبو بكرٍ بنُ محمدِ بنِ عيسى الطرطوسيُّ، حدثنا حامدُ بنُ يحيى حدثنا يحيى بنُ سليمٍ، قالَ: كانَ عندنا بمكةَ رجلٌ صدقٍ من أهلِ خراسانَ يُودَعُ الودائعَ فيؤدِّيها، فأودعه رجلٌ عشرة آلافِ دينارٍ، وغابَ، فحضرتِ الخراسانيَّ الوفاةُ، فما ائتمنَ أحدًا من ولدِهِ، فدفنَهَا في بعضِ بيوتِهِ، وماتَ، فقدمَ الرجلُ وسألَ بنيه، فقالُوا: ما لنا بها علمٌ، قال العلماءُ الذين بمكةَ، وهم يومئذٍ متوافرونَ، فقالُوا: ما نراهُ إلا من أهلِ الجنةِ، وقد بلغَنا أنَّ أرواحَ أهل الجنةِ، في زمزمَ، فإذا مضى من الليلِ ثلثُه أو نصفُهُ فائت زمزمَ، فقفْ على شفيرِهَا، ثم نادِهِ، فإنا نرجُو أن يجيبَكَ، فإنْ أجابكَ فاسألْه عن مالكَ، فذهبَ كما قالُوا: فنادَى أولَ ليلةٍ وثانيةٍ وثالثةٍ، فلم يُجَبْ، فرجَعَ إليهم، فقالَ: ناديتُ ثلاثًا فلم أُجَبْ؟ فقالُوا: إنا للَّه وإنا إليه راجعون، ما نرى صاحبَك إلا من أهلِ النارِ، فاخرجْ إلى اليمنِ، فإنَّ بها واديًا يُقالُ له: برهوتَ، فيه بئرٌ يقالُ له: يلهوتُ فيها أرواحُ الكفارِ، فقِفْ على شفيرها فنادِهِ

في الوقت الذي ناديتَـهُ في زمزمَ، فـذهب كمـا قـيل له في الليلِ، فنادى يا فلانُ يا فلانُ بنُ فـلانٍ أنا فلانُ بنُ فلانٍ، فأجابَهُ في أولِ صـوتٍ، فقال له: ويحكَ مـا أنزلَكَ ها هـنا وقـد كنتَ صـاحبَ خـيـرٍ؟ قـال: كـان لي أهلٌ بخراسانَ، فقطعتُهم حـتى مِتُّ، فأخذَنِي اللَّهُ فأنزلني هذا المنزلَ، وأمَّا مالُك فإني لم آمنْ عليه ولدِي، وقد دفنتُه في موضعِ كذا. فرجع صاحبُ المالِ إلى مكةَ، فوجدَ المالَ في المكانِ الذي أخبرَهُ.

ورجَّـحت طائفـةٌ من العلمـاء أن أرواحَ الكـفارِ فـي بئـر برهوت، منهم القاضي أبو يعْلَى من أصحابِنا في كتابِه: «المعتمد» وهو مخالفٌ لنصِّ أحمدَ: أنَّ أرواحَ الكفارِ في النارِ.

ولعلَّ لبئـر برهوت اتصالاً في جهنَّم في قـعرِها، كما رُوي في البـحرِ أنَّ تحتـه جهنَّم، والـلَّه أعلمُ. ويشـهدُ لـذلكَ ما سبقَ من قـولِ أبي مـوسى الأشـعريِّ: فـروحُ الكافـرِ بوادي حضـرَمـوت، في أسفـلِ الثَّرى من سـبعِ أرضينَ.

وقال صفـوانُ بنُ عمرٍو: سألتُ عـامرَ بنَ عبدِ اللَّه اليـمانيَّ، هل لأنفسِ المؤمنينَ مجـتمعٌ؟ فقال: يُقـالُ: إن الأرضَ التي يقولُ اللَّهُ: ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٥] ، قالَ: هي الأرضُ التي تجـتمعُ فيـها أرواحُ المؤمنينَ، حتى يكونَ البـعثُ. خرَّجه ابنُ منده، وهذا غريبٌ جدًا، وتفـسيرُ الآيةِ بذلك ضعيفٌ.

وخرَّج ابنُ أبي الدنـيا، في كتـابِ «من عاشَ بعـدَ المماتِ»[1] من طريقِ

---

(١) رقم (٤٧).

عبدِ الملك بنِ قدامةَ، عن عبدِ اللَّهِ بن دينارٍ، عن أبي أيوبَ اليمانيِّ، عن رجلٍ من قومِهِ يقال له: عبدُ اللَّه، إنه ونفرًا من قومِهِ ركبُوا البحرَ، وإنَّ البحرَ أظلمَ عليهم أيامًا، ثم انجلتْ عنهم تلك الظلمةُ، وهم قربُ قريةٍ، قالَ عبدُ اللَّه: فخرجتُ ألتمسُ الماءَ، فإذا أبوابَ المدينةِ مغلقةٌ، تجأجأ فيها الريحُ فهتفتُ بها، فلم يجبْني أحدٌ، فبينا أنا كذلك إذ طلعَ عليَّ فارسانِ، تحتَ كلِّ واحدٍ منهما قطيفةٌ بيضاءُ، فسألاني عن أمرِي، فأخبرتُهما بالذي أصابَنا في البحرِ، وإني خرجتُ أطلبُ الماءَ. فقالا لي: يا عبدَ اللَّهِ، اسْلُكْ في هذه السِّكةِ، فإنك ستنتهِي إلى بركةٍ فيها ماءٌ فاسْقِ منها، ولا يهولنّك ما ترى فيها، قال: فسألتُهما عن تلكَ البيوتِ المغلقةِ التي تجأجأ فيها الريحُ فقالا: هذه بيوتٌ فيها أرواحُ الموتى.

قال: فخرجتُ حتى انتهيتُ إلى البركةِ، فإذا فيها رجلٌ مصلوبٌ معلَّقٌ على رأسِهِ، يريدُ أن يتناولَ الماءَ بيدِهِ، وهو لا ينالُه، فلما رآني هتفَ بِي، وقال: يا عبدَ اللَّهِ اسقنِي، قال: فغرفتُ بالقدحِ لأناولَهُ فقبضتْ يدِي، قالَ لي: بلَّ العمامةَ ثم ارمِ بها إليَّ، قال: فبللت العمامة لأرمي بها إليه، فقبضت يدي العمامةَ، ثم بللتُ ثانيًا لأرمي بها إليه قبضتْ يدي. فقلتُ: يا عبدَ اللَّه غرفتُ بالقدحِ لأناولكَ فقُبِضَتْ يدي، ثم بللتُ العمامة لأرمي بها إليكَ فقُبِضَتْ يدي، فأخبرْني من أنت؟ فقال: أنا ابنُ آدم، أنا أولُ من سفكَ دمًا في الأرضِ.

خرَّجَ أبو نعيمٍ بإسنادِهِ عن ابنِ وهبٍ، حدثنا عبدُ الرحمنِ بنُ زيدٍ بنِ أسلمَ، قالَ: بينا رجلٌ في مركبٍ في البحرِ، إذ انكسرَ بهم مركبُهُم، فتعلقَ بخشبةٍ، فطرحتُه في جزيرة من الجزائرِ، فخرج يمشي، فإذا هو بماءٍ، فتبعهُ

فدخلَ في شعبٍ، فإذا رجلٌ في رجليه سلسلةٌ مربوطٌ بها، بينه وبينَ الماءِ شبرٌ، فقالَ: اسقني رحمكَ اللَّهُ، قال: فأخذتُ ملءَ كفيَّ ماءً فرفعَ بالسلسلةِ فذهبَ الماءُ، فلما ذهبَ الماءُ حطّ الرجل: قال: ففعلتُ ذلكَ ثلاثَ مرَّات، أو أربعًا، قالَ: فلما رأيتُ ذلك منه، قلتُ له: ما لكَ ويحكَ؟ قال: هو ابنُ آدم الذي قتلَ أخاهُ، واللَّه ما قُتلَتْ نفسٌ ظُلْمًا منذ قتلتُ أخي إلا يعذِّبني اللَّهُ بها، لأنِّي أوَّلُ من سنَّ القتلَ.

وروى تمامُ بنُ محمدٍ الرازيُّ في كتابِ «الرهبان» حدثنا عصمةُ العبادانيُّ، قال: كنتُ أجولُ في بعضِ الفلواتِ، إذ بصرتُ ديرًا وفيه صومعةٌ، وفيها راهبٌ، فناديتُه، فأشرفَ عليَّ، فقلتُ له: من أينَ تأتيكَ الميرةُ؟ قال: من مسيرة شهرٍ. قلتُ: حدثني بأعجبِ ما رأيتَ في هذا الموضعِ. قالَ: بينا أنا ذاتَ يومٍ أديرُ ببصري في هذهِ البريةِ القفرِ وأتفكر في عظمةِ اللَّهِ وقدرتِهِ، إذ رأيتُ طائرًا أبيضَ مثلَ النعامةِ كبيرًا، قد وقعَ على تلك الصخرةِ - وأومى بيده إلى صخرةٍ بيضاء فتقيأ رأسًا، ثمَّ رجلاً، ثم ساقًا، فإذا هو كلما تقيأ عضوًا من تلك الأعضاءِ التمتْ بعضُها إلى بعضٍ أسرعَ من البرقِ، فإذا هَمَّ بالنهوضِ نقره الطائرُ نقرةً قطعه أعضاءً، ثم يرجعُ فيبتلعه، فلم يزلْ على ذلك أيامًا، فكثرَ تعجبي منه، وازددتُ يقينًا بعظمة اللَّه، وعلمتُ أن لهذهِ الأجسادِ حياةً بعد الموت، وذكر أنه سألَ عن ذلكَ الرجلَ يومًا عن أمرِه، فقالَ: أنا عبدُ الرحمنِ بنُ مُلجمٍ، قاتلُ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ كرَّم اللَّه وجهَهُ، أمرَ اللَّهُ هذا المَلَكَ أن يعذِّبني إلى يومِ القيامة، قال: وقالَ لي الملكُ: أمرَني رسولُ اللَّه ﷺ أن أمضي بهذا الجسدِ إلى جزيرةٍ في البحرِ الأسودِ التي يخرجُ منه هوامُّ أهلِ النارِ، فأعذِّبُهُ إلى يومِ القيامةِ.

وقد رويتْ هذه الحكايةُ من وجـهٍ آخرَ، خرَّجها ابنُ النجـارِ في «تاريخه» من طريقِ السلَفيِّ، بإسنادٍ له، إلى الحسينِ بنِ محمـدِ بنِ عبيـدِ العسكريِّ، أخبرنا إسماعيلُ بنُ أحمدَ بنِ عليِّ بنِ أحمدَ بنِ يحيى بنِ النجمِ ـ سنةَ ثلاثَ عشـرةَ وثلاثمـائةٍ ـ أنه حضـر مع يوسفَ بنِ أبي التيـاحِ ببلاد سنبـاطَ حينَ فتـحَهَا، وأن سنباطَ حـضر مجلسَهُ، وحـدّثه عن راهبٍ سماه لي، فأحـضرَ يوسفُ الراهبَ، فحدَّثه الراهبُ بعد الامـتناعِ، أن مَلِكًا نفاهُ إلى جزيرةٍ على البحرِ منفردةٍ، قال: فرأيتُ يومًا طيرًا ـ فذكرَ شبيهًا بالحكايةِ.

ورُويتْ من وجهٍ آخرَ، من طريقِ أبي عبدِ اللَّهِ محمدِ بنِ أحمدَ بنِ إبراهيمَ الرازيِّ، صـاحب «السداسـياتِ» المشـهورةِ، عـن عليِّ بنِ بقاءِ بنِ مـحمـدٍ الوراقِ، حدثنا أبو محمدٍ عبد الرحـمنِ بن عمرَ البزارِ، قال: سمعتُ أبا بكر محمدَ بنَ أحمدَ بنَ أبي الأصبغِ، قال: قَدِم علينا شيخٌ غريبٌ، فذكرَ أنه كان نصـرانيًّـا سنينَ، وأنه تعبَّدَ في صومعتِـهِ قال: فبينما هو جالسٌ ذاتَ يومٍ، إذ جاءَ طائرٌ كالنسرِ، أو كالكرْكِيِّ. فذكر شبيهًا بالحكايةِ مختصرًا.

وكلُّ ما وردَ من هذه الآثارِ فإنه محـمولٌ على أنَّ الأرواحَ تنتقلُ من مكانٍ إلى مكانٍ، ولا يدلُّ على أنَّهـا تسـتقـرُ في موضعٍ مـعينٍ من الأرضِ، واللَّهُ أعلمُ.

ويشهدُ لهذا ما رُوي عن شهرِ بنِ حوشبٍ، قال: كتبَ عبدُ اللَّهِ بنُ عمرٍو إلى أبي بن كـعبٍ، يسـأله: أين تلْتَـقِي أرواحُ أهلِ الجنةِ وأرواحُ أهلِ النارِ؟ فقال: أما أرواحُ أهلِ الجنةِ فبالباديةِ، وأما أرواحُ الكفارِ، فبحضرَموت، ذكره ابنُ منْدَه تعلِيقًا.

وقالتْ طائفـةٌ من الصحابة: الأرواحُ عندَ اللَّهِ عـزَّ وجلَّ، وقد صحَّ ذلك عن ابنِ عمرٍو، وقد سبقَ قولُهُ.

وكذلكَ رُوي عن حذيفـةَ، خرَّجه ابن منده، من طريقِ داودَ الأوديِّ، عن الشـعبيِّ، عن حـذيفـةَ، قالَ: إنَّ الأرواحَ مـوقوفـةٌ عندَ اللَّهِ تعـالى، تنتظرُ موعدَها، حـتَّى ينفخَ فيها، وهذا إسنادٌ ضعـيفٌ، هذا لا ينافي ما وردتْ به الأخبارُ من محلِّ الأرواحِ على ما سبقَ.

وقال طائفـةٌ: أرواحُ بني آدمَ عند أبيهم آدمَ عليه السلامُ عن يمينـه وشماله وهذا يستدلُّ له بما في «الصحيحين»[1] عن أنسٍ، عن أبي ذرٍ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**فرج سقف بيتي وأنا بمكة**» ، فذكر الحديثَ وفيه : «**فلمَّا فتحَ، علونَا السمـاءَ الدنيا، فإذا رجلٌ قـاعدٌ عن يمينِه أسوِدَةٌ، وعـن يسارِه أسودةٌ، فإذا نـظر قِبَل يمينه ضحكَ، وإذا نظرَ قِـبَلِ شماله بكى، فقـال: مرحبًا بالنبيِّ الصـالح والابن الصالحِ، قلتُ لجبريلَ: من هذَا؟ قال: هذا آدمُ، وهذه الأسودةُ عن يمينه وعن شماله نسمُ بني آدمَ، فأهل اليمينِ منهم أهلُ الجنة، والأسودةُ التي عن شمـالِه أهلُ النارِ، فإذا نظرَ عن يمينِه ضحكَ، وإذا نظرَ عن شمالِه بكَى..**» وذكر بقية الحديثِ.

وظاهرُ هذا اللفظ يقتضِي أنَّ أرواحَ الكفارِ في السماءِ، وهذا مخالفٌ لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ**﴾ [الأعراف:٤٠]، وكذلك حديثُ البراءِ وأبي هريرةَ وغيـرِهما، أنَّ السماءَ لا تفتحُ لروحِ الكافـرِ، وأنها تطرحُ طرْحًـا، وأنَّ رسولَ اللَّه ﷺ، قرأ: ﴿**وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ**﴾ [الحج:٣١].

(١) أخرجه: البخاري (١/ ٩٧)، (٢/ ١٩١)، (٤/ ١٦٤)، ومسلم (١/ ١٠٢).

قد حملَهُ بعضُهم على أنَّ هذه الأرواحَ التي عن يمينِ آدمَ وشمالِه هي أرواحُ العصاةِ من الموحدينَ وحملَها بعضُهم على أنها أرواحُ بنيهِ الذينَ لم تُخلقْ أجسادُهُم بعد، وهذا في غايةِ البعدِ مع منازعةِ بعضِهم في خلقِ الأرواحِ قبل أجسادِها.

وقد وردَ من حديثِ أبي هريرةَ، ما يزيلُ هذا الإشكالَ كلَّه، من روايةِ أبي جعفرٍ الرازيِّ، عن الربيعِ بنِ أنسٍ عن أبي العاليةَ أو غيرِه، عن أبي هريرةَ، فذكر حديثَ الإسراء بطوله، إلى أن قال: «**ثمَّ صعد به إلى سماءِ الدنيا، فاستفتح، فقيل: من هذا؟ قال: جبريلُ، قيلَ: ومن معك؟ قال: محمدٌ، قالُوا: وقد أُرْسلَ محمدٌ؟ قال: نعمْ، قالَ: حيَّاه اللَّهُ من أخٍ ومن خليفةٍ، فنِعْمَ الأخُ، ونعمَ الخليفةُ، ونعمَ المجيءُ جاءَ، قال: فدخلَ فإذا هو برجلٍ تامِّ الخلقِ، لم ينقصْ من خلقِه شيءٌ كما ينقص من خلقِ الناسِ، عن يمينِه بابٌ يخرجُ منه ريحٌ طيبةٌ، وعن شمالِه بابٌ يخرجُ منه ريحٌ خبيثةٌ، إذا نظرَ إلى البابِ الذي عن يمينِه ضحكَ واستبشرَ، وإذا نظرَ إلى البابِ الذي عن شماله بكى وحزنَ، قالَ النبيُّ ﷺ: يا جبريلُ من هذا الشيخُ التامُّ الخلقِ الذي لم ينقصْ من خلقِه شيءٌ؟ وما هذانِ البابانِ؟ قال: هذا أبوكَ آدمُ صلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم. البابُ الذي عن يمينِه بابُ الجنةِ، فإذا نظرَ من يدخلُ الجنةَ من ذريتِه ضحكَ واستبشرَ، والبابُ الذي عن شمالِه بابُ جهنَّم، فإذا نظرَ من يدخلُ من ذريتِه النارَ بكى وحزِنَ**»، وذكر الحديثَ.

وقد خرَّجه بتمامِه البزَّارُ في «مسندِه»[1]، وأبو بكرٍ الخلالُ وغيرُ واحدٍ، وفيه التصريحُ بأن أرواحَ ذريتِه في الجنةِ والنارِ، وأنه ينظرُ إلى أهلِ الجنةِ من بابٍ عن يمينِه، وإلى أهلِ النارِ من بابٍ عن شمالِه، وهذا لا يقتضِي أن تكون

(١) عزاه الهيثمي في «المجمع» (١/ ٧٢) إلى البزار، وهو جزء من حديث طويل في قصة الإسراء.

الجنةُ والنارُ في السماءِ الدُّنيا، وإنَّما معناه أنَّ آدمَ في السماءِ الدنيا، يفتحُ له بابانِ إلى الجنةِ والنارِ، ينظرُ منهما إلى أرواحِ ولدِه فيهما. وقد رأى النبيُّ ﷺ الجنةَ والنارَ في صلاةِ الكسوفِ وهو في الأرضِ وليستِ الجنةُ في الأرضِ، ورُوي أنه رآها ليلةَ الإسراء في السماءِ وليستِ النارُ في السماءِ.

ويشهدُ لذلكَ - أيضًا - ما في حديثِ أبي هارونَ العبديِّ - مع ضعفِ حديثِه - عن أبي سعيدٍ الخدريِّ، عن النبيِّ ﷺ في حديثِ الإسراءِ الطويلِ إلى أنْ ذكرَ السماءَ الدنيا: «**وإذا أنا برجلٍ كهيئتِه يومَ خلقَهُ اللَّهُ - عزَّ وجلَّ - لم يتغيرْ منه شيءٌ، وإذا تُعْرَضُ عليه أرواحُ ذريتِه، فإذا كان روحُ مؤمنٍ قال: روحٌ طيبةٌ، وريحٌ طيبةٌ، اجعلُوا كتابَهُ في عليِّينَ. وإذا كان روحُ كافرٍ، قال: روحٌ خبيثةٌ، وريحٌ خبيثةٌ، اجعلُوا كتابه في سجِّين، قلتُ: يا جبريلُ من هذا؟ قال: أبوكَ آدمُ**»، وذكرَ الحديثَ، ففي هذا أنه تُعرَضُ عليه أرواحُ ذريتِهِ في السماءِ الدنيا، وأنه يأمرُ بجعلِ الأرواحِ في مستقرِّها من علِّيينَ وسجِّينَ، فدلَّ على أن الأرواحَ ليس محلُّ استقرارِها في السماءِ الدُّنيا.

وزعمَ ابنُ حزمٍ أنَّ اللَّه خلقَ الأرواحَ جملةً قبلَ الأجسادِ، وأنه جعلها في برزخٍ، وذلك البرزخُ عند منقطعِ العناصرِ، يعني حيثُ لا ماءَ ولا هواءَ ولا نارَ ولا ترابَ، وأنه إذا خلقَ الأجسادَ أدخلَ فيها تلكَ الأرواحَ، ثم يعيدها عند قبضِها إلى ذلك البرزخِ، وهو الذي رآها رسولُ اللَّهِ ﷺ في ليلةِ أُسْرِي به، عند سماءِ الدنيا، أرواحُ أهلِ السعادةِ عن يمينِ آدمَ، وأرواحُ أهلِ الشقاوةِ عن يسارِهِ، وذلك عند منقطعِ العناصرِ، وتُجعلُ أرواحُ الأنبياء والشهداءِ إلى الجنةِ.

قال: وذكرَ محمدُ بنُ نصرٍ المروزيُّ، عن إسحاقَ بنِ راهويه، أنه ذكرَ هذا

الذي قلنَاه بعينِه، قالَ: وعلى هذا أجمعَ أهلُ العلمِ، قالَ ابنُ حزمٍ: وهو قولُ جميعِ أهلِ الإسلامِ، هذا مختصرُ ما ذكرَهُ، ولا يُعرفُ ما قالَهُ في هذا عن أحدٍ من أهلِ الإسلامِ غيرِه.

فكيفَ يكونُ قولَ جميعَ أهلِ الإسلامِ، وكلامُهُ يقتضِي أن الأرواحَ رآها النبيُّ ﷺ ليلةَ الإسراءِ تحتَ السماءِ الدُّنيا، والحديثُ إنما يدلُّ على أنه إنما رآها فوقَ السماءِ الدنيا، وما حُكِي عن محمدِ بن نصرٍ، عن إسحاقَ بنِ راهويْهِ، فلا يدلُّ على ما قالَهُ بوجهٍ، فإن محمدَ بنَ نصرٍ حكى عن إسحاقَ بنِ راهويْهِ إجماعَ أهلِ العلمِ على أنَّ اللَّهَ تعالى استخرجَ ذريتَهُ من صلبِهِ قبلَ خلقَ أجسادِهم واستنطَقَهُم واستشهدَهُم على أنفسِهِم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف:١٧٢]. ولم يذكر أكثرَ من هذا، وهذا لا يدلُّ على شيءٍ مما قاله ابنُ حزمٍ في مستقرِّ الأرواحِ الميتةِ، بل ولا على أنَّ الأرواحَ بقيتْ على حالِها، بلْ في بعضِ الأحاديثِ أنه ردَّها إلى صلبِ آدمَ، ولم يقلْ إسحاقُ ولا غيرُه من المسلمينَ: إن مستقرَّ الأرواحِ حيثُ منقطعِ العناصرِ، بل وليسَ هذا من جنسِ كلامِ المسلمينَ، بل من جنسِ كلامِ المتفلسفةِ.

وقد خرَّج ابنُ جريرٍ الطبريُّ في كتابِ «الآدابِ» لهُ، من طريقِ أبي معشرٍ، عن محمدِ بنِ كعبٍ، عن المغيرةِ بنِ عبدِ الرحمنِ، قالَ: قالَ سلمانُ لعبدِ اللَّهِ بنِ سلامٍ: إنَّ متَّ قبلي فأخبرْني بما تلْقَى، وإنْ متُّ قبلكَ أخبرتُك بما ألْقى، فقالَ له الناسُ: يا عبدَ اللَّهِ كيف تخبرُنا وقد متَّ؟قالَ: ما منْ روحٍ تُقبضُ من جسدٍ إلا كانتْ بينَ السماءِ والأرضِ حتى تُردَّ في جسدِه الذي أخذتْ منه، وهذا لا يثبتُ وهو منقطعٌ، وأبو معشرٍ: ضعيفٌ، وقد سبقَ روايةُ سعيدِ بنِ المسيبِ لهذه القصة بغير هذا اللفظِ وهو الصحيحُ.

وقد تقدمَ في سؤالِ عبـدِ اللَّهِ بنِ الإمامِ أحمدَ لأبيهِ عن الأرواحِ هل تموتُ بموتِ الأجسادِ؟ وهذا يدلُّ على أنَّ هذا قد قيل أيضًا وهو كذلكَ.

وقد حُكِي عن طائفةٍ من المتكلمينَ وذهبَ إليه جمـاعةٌ من فقهاءِ الأندلسِ قديمًا، منهم عبدُ الأعلى بنُ وهبٍ ومحمـدُ بنُ عمرَ بن لبابة، ومنْ متأخرِيهم كالسـهيلي وأبي بكرِ بنِ العـربيِّ وغيرِهمـا، قالَ أبو الوليـد بنُ الفرضيِّ في «تاريخِ الأندلسِ»: أخـبرني سـليمـانُ بنُ أيوبَ، قـالَ: سألتُ مـحمـدَ بنَ عبدِ الملكِ بنِ أيمن، عنِ الأرواحِ؟ فـقالَ لِي: كانَ مـحمـدُ بنُ عمرَ بـنِ لبابةِ يذهبُ إلى أنها تموتُ. وسألته عن ذلكَ؟ فقـالَ: كذا كانَ عبدُ الأعْلَى يذهبُ فيهـا، قالَ ابنُ أيمن، فقلتُ له: إنَّ عبـدَ الأعْلَى كان قدْ طالعَ كتبَ المـعتزلةِ ونظرَ في كلامِ المتكلمينَ، فـقالَ: إنَّما قلدتُ عـبدَ الأعْلَى ليسَ عليَّ من هذا شيءٌ. انتهى.

وقد اسـتدلَّ أربابُ هذا القولِ بقـولِهِ تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥]، وهذا حقٌّ كما أخبرَ اللَّهُ به، لا مِـرْيَةَ فيه، ولكن الشأنَ في فهمِ معناهُ، فـإن النفسَ يُرادُ بهـا مجمـوعُ الروحِ والبدنِ. كـما في قولـهِ تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس:٧-٨]. وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم:٣٢]. وقوله تعالى: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩]. وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر:٣٨]. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل:١١١]. وقوله ﷺ: «مـا منْ نفسٍ مَنْفُوسةٍ إلا اللَّهُ خالقُها»(١).

---

(١) أخرجه: مسلم (١٥٩/٤) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.

وقوله ﷺ: «ما مِنْ نفسٍ منفُوسةٍ اليومَ، يأتي عليها مائةُ سنةٍ وهي حيَّةٌ يومئذٍ»[١].
وفي رواية: «لا يأتي مائةُ سنةٍ وعلى الأرضِ نفسٌ منفوسةٌ اليومَ».

والمرادُ موتُ الأحياءِ الموجودينَ في يومِه ذلكَ، ومفارقةُ أرواحِهم لأبدانِهِم، قبلَ المائةِ سنةٍ، ليس المرادُ عدمَ أرواحِهِم واضمحلالَهَا، فكذلك قولُهُ سبحانَهُ وتعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران:١٨٥]، إنَّما المرادُ كلُّ مخلوقٍ فيه حياةٌ فإنَّه يذوقُ الموتَ، وتفارقُ رُوحُه بدنَه، فإنْ أرادَ من قالَ: إن النفسَ والروحَ تموتُ، إنها تذوقُ ألمَ مفارقةِ الجسدِ فهو حقٌّ، وإنْ أرادَ أنَّها تُعدم وتتلاشى فليسَ بحقٍّ، وقدْ استنكرَ العلماءُ هذه المقالةَ، حتى قالَ سحنونُ بنُ سعيدٍ وغيرُهُ: هذا قولُ أهلِ البدعِ، والنصوصُ الكثيرةُ الدالةُ على بقاءِ الأرواحِ بعدَ مفارقتِها للأبدانِ تردُّ ذلكَ وتبطلُهُ.

ولكن قد تخيلَ بعضُ المتأخرينَ موتَ الأرواحِ عند النفخةِ الأولى مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨]، وردَّ عليه آخرونَ، وقالَ: إنَّما المرادُ أنه يموتُ من لم يكنْ ماتَ قبلَ ذلكَ، ولكنْ وردَ عن طائفةٍ من السلفِ في قولِهِ: ﴿إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر:٦٨] أن المستثنى هم الشهداءُ.

روي ذلك عن أبي هريرةَ وابنِ عباسٍ وسعيدِ بنِ جبيرٍ وغيرِهم ﷺ، ورُوي ذلكَ عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ في حديثِ الصورِ الطويلِ[٢]، ومن وجهٍ آخرَ بإسنادٍ أجودَ من إسنادِ حديثِ الصورِ، وهذا يدلُّ على أن للشهداءِ حياةً يشاركونَ بها الأحياءَ، حتى يحتاجَ إلى استثنائهِم ممن يصعقُ من

(١) أخرجه: البخاري (١/ ٤٠) من حديث عبد الله بن عمر ﷺ.
(٢) راجع: «التفسير» لابن جرير الطبري (٢٤/ ٣٠).

الأحياءِ وقد قيلَ في الأنبياءِ مثلُ ذلكَ أيضًا.

وعلى هذا حمَلَ طائفةٌ من العلماءِ منهمُ البيهقيُّ وأبو العباسِ القرطبيُّ قولَ النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى﴾ [الزمر:٦٨]، **فأكونُ أنا أولُ من يبعثُ، فإذا موسى آخذٌ بالعرشِ، فلا أدْري أحوسبَ بصعقةِ الطورِ أم بُعثَ قبلي**»(١)، وفي رواية: «**أَوْ كانَ ممن استَثْنى اللَّهُ**». فإن حياةَ الأنبياءِ أكملُ من حياةِ الشهداءِ، بلا ريبٍ، فيشملُهم حكمُ الأحياءِ أيضًا، ويصعقونَ مع الأحياءِ حينئذٍ، لكنْ صعقةُ غشيٍ لا صعقةَ موتٍ، إلا موسى فإنه تردَّدَ فيه هل صُعِقَ أم كان ممن استثنى اللَّهُ، فلم يُصعقْ لمجازاةِ اللَّهِ له، بصعقةِ الطورِ؟ ولكنْ على هذا التقدير فموسى مبعوثٌ قبلَ محمدٍ ﷺ، لا محالةَ، فكيفَ تردَّد النبيُّ ﷺ في ذلك في كونِ الشهداءِ لا يُصعقونَ والأنبياءُ يُصعقُونَ، إشكالٌ أيضًا، واللَّه أعلمُ بمرادِه ومرادِ رسولِه ﷺ في ذلك كلِّه.

والفرقُ بينَ حياةِ الشهداءِ وغيرِهم منَ المؤمنينَ الذين أرواحُهُم في الجنةِ، وجهينِ:

أحدُهُما: أنَّ أرواحَ الشهداءِ تُخلقُ لها أجسادٌ، وهي الطيرُ التي تكونُ في حواصِلِها، ليكملَ بذلك نعيمُها، ويكونُ أكملُ من نعيمِ الأرواحِ المجردةِ عنِ الأجسادِ، فإن الشهداءَ بذلُوا أجسادَهُم للقتلِ في سبيلِ اللَّهِ فعوّضوا عنها بها الأجسادَ في البرزخِ.

والثاني: أنهم يُرزقونَ في الجنةِ، وغيرُهُم لم يثبتْ له في حقِّه مثلُ ذلكَ فإنه

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ١٥٨)، (٤/ ١٩٢ ـ ١٩٣)، (٨/ ١٣٤)، (٩/ ١٧٠)، ومسلم (٧/ ١٠٠ ـ ١٠١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

جاءَ أنهم يُعلَّقون في شجرِ الجنةِ. ورُوي يعلقون بفـتح اللامِ وضَمِّها، فقيلَ: إنَّهما بمعنًى، وأنَّ المرادَ الأكلُ من الشجرِ، قال ابنُ عبدِ البرِّ: وقيل: بلْ روايةُ الضمِّ معناها الأكلُ، وروايةُ الفـتحِ معناها التعلُّق. وهو التسـترُ. وبكلِّ حالٍ فلا يلزم مساواتُهُم للشهداءِ في كمالِ تنعمهم بالأكلِ، واللَّهُ أعلم.

وقد ذهبَ طائفـةٌ من المتكلمينَ إلى أن الروحَ عرضٌ لا تبـقى بعدَ الموتِ، وحملُوا ما وردَ من عذابِ الأرواحِ ونعيمِـها بعدَ الموتِ على أحدِ أمرينِ: إما أنَّ العرضَ الذي هو الحياةُ يعادُ إلى جزءٍ من البدنِ، أو على أنْ يخلقَ في بدنٍ آخرَ.

وهذا الثاني باطلٌ قطْعًا، لأنه يلزمُ منه أنْ يعـذَّب بدنٌ غيرُ بدنِ الميتِ، معَ روحٍ غيرِ روحِهِ، فلا يعذَّبُ حـينئذ بدنُ الميتِ ولا رُوحُه، ولا يتنعمانِ أيضًا، وهذا باطلٌ قطعًـا، والأولُ باطلٌ - أيضًا - بالنصوصِ الدالـةِ على بقاءِ الروحِ منفردةً عن البدنِ بعد مفارقتِها له، وهي كثيرةٌ جدًا وقد سبقَ ذكرُ بعضِها.

وقد احتجَّ بعضُهم على فناءِ الأرواحِ وموتِها بما رُوي عن النبيِّ ﷺ أنَّه كانَ إذا دخلَ المقابرَ قالَ: «**السَّلامُ عليكُم أيتُها الأرواحُ الفـانيةُ، والأبدانُ الباليةُ، والعظامُ النخرةُ، التي خرجتْ من الدُّنيا وهي باللَّه مؤمنةٌ، اللَّهُمَّ أدخلْ عليهم رَوْحًا منكَ وسَلامًا منَّا**»، وهذا حديثٌ خـرَّجه ابنُ السُّنيِّ[(١)]، من طريقِ عـبدِ الوهابِ بنِ جـابرٍ التيميِّ، حدثنا حبـانُ بنُ عليٍّ، عن الأعمشِ، عن أبي رزينٍ، عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، وهذا لا يثبتُ رفعُه، وعبدُ الوهابِ لا يُعرفُ، وحبّانُ ضـعيفٌ، ولو صحَّ حُـمِلَ على أنَّه أرادَ بفناءِ الأرواحِ ذهابَهـا من الأجسـادِ

(١) «عمل اليوم والليلة» (٥٩٣).

المشاهدةِ، كما في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن:٢٦]، وبعضُ الأبدانِ باقيةٌ، كأجسادِ الأنبياءِ عليهم الصلاةُ والسلامُ وغيرِهم، وإنما تفارقُ أرواحُها أجسادَها.

وذَكَرَ بعضُهم عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنه سئل أينَ تكونُ الأرواحُ إذا فارقتِ الأجسادَ؟ فقال: أين يكونُ السراجُ إذا طُفِي، والبصرُ إذا عَمِيَ، ولحمُ المريضِ إذا مَرِضَ؟ فقالُوا: إلى أينَ؟ قال: فكذلكَ الأرواحُ، وهذا لا يصحُّ عنِ ابنِ عباسٍ رضي اللَّهُ عنهما، واللَّهُ أعلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾

إذا وفَّق اللَّهُ عبدًا: توكَّلَ بحفْظِهِ وكلاءته، وهدايتِهِ وإرشادِهِ، وتوفيقه وتسديدِهِ. وإذا أخذلَهُ وكله إلى نفسِهِ أو إلى غيرِه، ولهذا كانتْ هذه الكلمةُ: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣] كلمةً عظيمةً، وهي التي قالها إبراهيمُ عليه الصلاةُ والسلامُ حين أُلقيَ في النارِ، وقالَهَا محمدٌ رسولُ اللَّه ﷺ حين قالَ لهُ الناسُ: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣] وقالتْهَا عائشةُ حين ركبتِ الناقةَ لَمَّا انقطعتْ عن الجيشِ، وهي كلمةُ المؤمنينَ.

فمن حقَّق التوكلَ على اللَّهِ لم يكلْهُ إلى غيرِهِ، وتولاَّه بنفسِهِ.

وحقيقةُ التوكلِ: تكلةُ الأمورِ كلِّها إلى من هي بيدِهِ. فمن توكَّلَ على اللَّهِ

(١) «أهوال القبور» (١٤٠ ـ ١٦٦).

في هدايتِهِ وحراستِهِ وتوفيقِهِ وتأييدِهِ ونصرِهِ ورزقِهِ، وغيرِ ذلك من مصالحِ دينِهِ ودنياهُ تولّى اللَّهُ مصالحَهُ كلَّها، فإنَّه تعالى وليُّ الذين آمنوا. وهذا هو حقيقةُ الوثوقِ برحمةِ اللَّهِ كما في هذا الدعاءِ «**فإنِّي لا أثقُ إلا برحمتكَ**»(١).

فمن وثقَ برحمةِ ربِّه ولم يثقْ بغيرِ رحمتِه، فقد حقَّقَ التوكلَ على ربِّه في توفيقِهِ وتسديدِهِ، فهو جديرٌ بأن يتكفَّلَ اللَّهُ بحفظِهِ، ولا يكلُهُ إلى نفسِهِ(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

ومِنْ أظهرِ التَّعييرِ: إظهارُ السوءِ وإشاعتُه في قالَبِ النُّصحِ وزعْمُ أنه إنما يحملُهُ على ذلك العيوبُ إما عامًا أو خاصًا وكان في الباطن إنما غرضُهُ التعييرُ والأذى فهو من إخوانِ المنافقينَ الذينَ ذمَّهم اللَّهُ في كتابه، في مواضعَ، فإنَّ اللَّهَ تعالى ذمَّ من أظهرَ فعلاً وقولاً حسنًا وأرادَ به التوصُّلَ إلى غَرَضٍ فاسدٍ يقصدُهُ في الباطنِ، وعدَّ ذلك من خصالِ النفاقِ كما في سورةِ براءةَ التي هتَكَ فيها المنافقينَ وفضَحَهُمْ بأوصافهم الخبيثة، ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ..**﴾ [التوبة:١٠٧].

وقال تعالى: ﴿**لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا..**﴾ [آل عمران:١٨٨]، وهذه الآيةُ نزلتْ في اليهودِ لَمَّا سألهم النبيُّ ﷺ عن شيءٍ فكتموه وأخبروه بغيرِه، وقد أروْه أنْ قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدُوا بذلك عليه وفرحوا بما أتَوا من كتمانِه ما سألَهُم عنه.

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (١/ ٤١٢)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٦/ ٦٨).
(٢) «شرح حديث لبَّيك اللهم لبَّيك» (١٢٢ ـ ١٢٣).

كذلك قالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما، وحديثُه بذلكَ مخرَّجٌ في «الصحيحينِ»[١].

وعن أبي سعيدٍ الخدري: أن رجـالاً من المنافقين كانُوا إذا خرج رسولُ اللَّهِ ﷺ إلى الغزوِ وتخلَّفـوا عنه وفرِحُوا بمقعدهِـم خلافَ رسولِ اللَّهِ ﷺ، فإذا قدِمَ رسـولُ اللَّهُ اعتـذرُوا إليه وحَلَفُـوا، وأحبُّـوا أن يُحمدوا بما لم يـفعلوا. فنزلتْ هذه الآيةُ.

فهذه الخصالُ، خصالُ اليـهودِ والمنافقينَ، وهو أن يُظهرَ الإنسانُ في الظاهرِ قولاً أو فـعلاً، وهو في الصورةِ التي ظـهرَ عليهـا حسنٌ، ومقـصودُهُ بذلك التوصُّلُ إلى غَرَضٍ فاسدٍ، فيحـمدُهُ على ما أظهر من ذلك الحسَنِ، ويتوصَّلُ هو به إلى غـرَضِهِ الفـاسدِ الذي هو أبْطَنَهُ، ويفـرحُ بحمـدِهِ على ذلك الذي أظهـرَ أنه حسـنٌ وفي الباطنِ شيء، وعلـى توصُّلِهِ في البـاطنِ إلى غرضـهِ السَّيِّئ، فتتمُّ له الفائدةُ وتُنفّذُ له الحيلةُ بهذا الخداع!!.

ومَنْ كـانتْ هذه صفـتُهُ فـهو داخلٌ في هذه الآيةِ ولا بُدَّ، فـهو مُـتَوَعَّـدٌ بالعذابِ الأليمِ، ومثالُ ذلك: أن يُريدَ الإنسانُ ذمَّ رجلٍ وتنقُّـصَهُ وإظهارَ عيْبِهِ لينفر الناس عنه إما محبةً لإيذائهِ أو لعداوتِهِ، أو مخافةً من مُزاحمتِهِ على مالٍ أو رئاسةٍ أو غير ذلك من الأسبابِ المذمومةِ، فلا يتوصَّل إلى ذلك إلا بإظهار الطَّعْنِ فيـه بسببٍ دينيٍ، مثل: أن يكونَ قد ردَّ قـولاً ضعيفًا مـن أقوالِ عالمٍ مشهورٍ فـيشيعُ بين من يُعَظِّم ذلك العالِمَ، أن فلانًا يُـبْغِضُ هذا العالِمَ ويذمُّهُ ويطعنُ عليـه فيغـرُّ بذلك كلَّ من يُعظمه ويُوهمـهُم أن بُغْضَ الرادِّ وأذاهُ من أعمالِ العربِ، لأنـه ذبٌّ عن ذلك العالِمِ، ورفْعُ الأذى عنه، وذلك قُربةٌ إلى

(١) أخرجه: البخاري (٦/ ٥٠ ـ ٥١)، ومسلم (٨/ ١٢٢).

اللَّهِ تعالى وطاعتِهِ فيجمعُ هذا المظْهرُ للنصح بين أمرين قبيحين مُحَرَّمين:

أحدهما: أن يُحملَ ردُّ هذا العالِمِ القولَ الآخرَ على البُغْضِ والطَّعْنِ والهَوَى، وقد يكونُ إنَّما أراد به النُّصحَ للمؤمنينَ، وإظهارَ ما لا يحلُّ له كتمانُه من العلم.

والثاني: أن يُظهرَ الطَّعْنَ عليه ليتوصَّل بذلكَ إلى هواه وغَرَضه الفاسد في قالَبِ النُّصحِ والذَّبِّ عن عُلماءِ الشرع، وبمثلِ هذه المكيدةِ كان ظلمُ بني مروانَ وأتباعُهم يستميلونَ الناسَ إليهم ويُنفِّرون قلوبَهُم عن عليٍّ بنِ أبي طالبٍ والحسنِ والحسينِ وذريتِهم ﭬ أجمعينَ.

وأنه لما قُتِلَ عثمانُ ﭬ لم تَرَ الأمَّةُ أحقَّ من عليٍّ ﭬ فبايعوه فتوصَّلَ منْ توصَّل إلى التنفير عنه، بأنْ أظهرَ تعظيمَ قتلَ عثمانَ وقُبْحَهُ، وهو في نفس الأمر كذلكَ، ضُمَّ إلى ذلك أن المُؤلِّبَ على قتلِهِ والسَّاعِي فيه عليٌّ ﭬ، وهذا كان كَذِبًا وبهْتًا.

وكان عليٌّ ﭬ يحلفُ ويُغَلِّظُ الحَلفَ على نفي ذلكَ، وهو الصادقُ البارُّ في يمينِهِ ﭬ، وبادرُوا إلى قتالِهِ ديانةً وتقربًا ثم إلى قتالِ أولادِهِ رضوانُ اللَّهِ عليهم، واجتهدَ أولئكَ في إظهارِ ذلك وإشاعتِهِ على المنابرِ في أيَّامِ الجُمعِ وغيرِها من المجَامعِ العظيمةِ، حتى استقرَّ في قلوبِ أتباعِهِم أنَّ الأمرَ على ما قالوه، وأن بني مروانَ أحقُّ بالأمرِ من عليٍّ وولدِهِ لقُربِهِم من عُثمانَ، وأخْذِهم بثأرِه، فتوصَّلوا بذلكَ إلى تأليفِ قُلوبِ الناسِ عليهم، وقتالهم لعليٍّ وولدِهِ من بعْدِهِ، ويثبُتُ بذلكَ لهم المُلْكُ، واستوثقَ لهم الأمرُ.

وكان بعضُهم يقولُ في الخَلْوة لمن يثقُ إليه كلامًا ما معناه: «لم يكن أحدٌ

من الصحابة أكفأ عن عثمان من عليٍّ» فيقالُ له: لِمَ يسبُّونه إذًا؟ فيقول: «إنَّ المُلْكَ لا يقومُ إلا بذلك».

ومُرادُهُ أنَّه لولا تنفيرُ قلوبِ الناسِ عن عليٍّ وولَدِه ونسبهم إلى ظلمِ عثمانَ لما مالتْ قلوبُ الناسِ إليهم، لما علموه من صفاتِهم الجميلةِ وخصائصِهم الجليلةِ، فكانوا يُسرعون إلى مُتابعتهم ومبايعتِهم فيزولُ بذلك مُلْكُ أميَّة، وينصرفُ الناسُ عن طاعتِهِم[1].

* * *

ومن هذا البابِ ـ أيضًا ـ أن يحبَّ ذُو الشرفِ والولايةِ أن يُحمدَ على أفعالِه ويُثْنَى عليه بها، ويَطلبُ من الناسِ ذلك، ويَتَسببُ في أذى من لا يُجيبُه إليه، وربَّما كان ذلك الفعلُ إلى الذمِّ أقربَ منه إلى المدحِ، وربَّما أظهر أمرًا حسنًا في الظاهرِ، وأحبَّ المدحَ عليه وقصَدَ به في الباطنِ شرًّا، وفرِحَ بتمْويهِ ذلك وترويجه على الخلقِ.

وهذا يدخلُ في قولِه تعالى: ﴿**لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ**﴾ [آل عمران:١٨٨] الآية.

فإنَّ هذه الآيةَ إنما نزلتْ فيمن هذهِ صفاتُهُ، وهذا الوصفُ ـ أعني: طلبَ المدحِ منَ الخلقِ ومحبَّتَهُ والعقوبةَ على تركِهِ ـ لا يصلحُ إلا للَّه وحدَهُ لا شريكَ لهُ، ومن هُنا كان أئمةُ الهُدى ينهَوْن عن حمدِهِم على أعمالِهِم وما يَصدُرُ منهم منَ الإحسانِ إلى الخلْقِ، ويأمرُونَ بإضافةِ الحمدِ على ذلكَ للَّهِ وحدَهُ لاشريكَ لهُ، فإن النِّعَمَ كُلَّها منه.

---

(١) «الفرق بين النصيحة والتعيير» (٢٢ ـ ٢٥).

وكانَ عُمرُ بنُ عبد العزيزِ ـ رحمه اللَّهُ ـ شديدَ العنايةِ بذلكَ، وكتبَ مرَّةً إلى أهلِ الموْسمِ كتابًا يُقرأ عليهم، وفيه الأمرُ بالإحسانِ إليهم، وإزالةُ المظالمِ التي كانَتْ عليهم، وفي الكتابِ: «ولا تَحْمَدُوا على ذلكَ كُلِّه إلا اللَّه، فإنَّهُ لوْ وكَلَني إلي نفْسِي كُنْتُ كغيرِي».

وحكايتُهُ مع المرأةِ التي طلبتْ منه أن يَفرضَ لبَناتها اليتامى مشهورةٌ، فإنها كانتْ لها أربعُ بنَات، ففرض لثْنتينِ منهنَّ، وهي تحمدُ اللَّه، ثم فرض للثالثةِ فشكرتْهُ فقال: إنَّما كُنَّا نفرِضُ لهُنَّ حيثُ كُنتِ تولينَ الحمدَ أهلَهُ، فمُري هذه الثلاثَ يُواسينَ الرابعةَ. أو كما قال ـ رضي الله عنه.

أرادَ أن يُعرفَ أنَّ ذا الولايةِ إنما هو مُنتصبٌ لتنفيذِ أمر اللَّه، وآمرٌ العبادَ بطاعتهِ تعالى، وناهٍ لهم عن محارمِ اللَّهِ، ناصحٌ لعبادِ اللَّهِ بدُعائهم إلى اللَّهِ، فهو يقصدُ أن يكون الدينُ كلُّه للَّه، وأن تكونَ العِزَّة للَّه، وهو مع ذلك خائفٌ من التقصيرِ في حقوقِ اللَّه تعالى ـ أيضًا ـ .

فالمحبُّونَ للَّهِ غايةُ مقاصدِهم من الخلقِ أن يُحبُّوا اللَّهَ ويطيعُوه، ويُفردوه بالعبوديةِ والإلهيةِ، فكيفَ من يزاحِمُهُ في شيء من ذلكَ؟ فهو لا يريدُ منَ الخلقِ جزاءًا ولا شكُورًا، وإنما يرجُو ثوابَ عملِه من اللَّه كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠].

وقال ﷺ: «**لا تُطْرُوني كما أطرَتِ النصارى المسيحَ ابنَ مريمَ، إنَّما أنا عبدٌ،**

فقولُوا: عبدَ اللَّهِ ورسولَه»(١) .

وكان رسـولُ اللَّهِ ﷺ ينكر على من لا يـتأدَّبُ مـعـه في الخطابِ بهـذا الأدبِ، كما قال: «**لا تقولُوا: مـا شاءَ اللَّهُ وشاءَ محـمدٌ، بلْ قُولُوا: مـا شاءَ اللَّهُ ثم شاءَ محمدٌ**»(٢) .

وقـال: لمن قالَ: مـا شاء اللَّه وشِـئتَ: «**أجَـعلْتَنِي للَّـه ندًا؟ بل مـا شـاءَ اللَّهُ وحده**»(٣) .

فمِن هُنا كان خُلفاءُ الرُّسل وأتباعُهم من أُمراءِ العدل وأتباعِهم وقُضاتِهم لا يدْعُون إلى تعظيمِ نُفُوسهم البتَّة، بل إلى تعظيمِ اللَّه وحدَه، وإفرادِه بالعبوديةِ والإلهيةِ، ومنهُم مـن كان لا يريدُ الولايةَ إلا للاستعانةِ بهـا على الدعوةِ إلى اللَّهِ وحدَه.

وكان بعضُ الصالحـينَ يتولَّى القضاءَ ويقولُ: ألا أتولاهُ لأسـتعينَ به على الأمر بالمعروفِ والنهي عن المُنكر.

ولهذا كـانتِ الرُّسل وأتباعُـهُم يصبرونَ على الأذى في الـدعوة إلى اللَّهِ، ويتـحملونَ في تـنفذِ أوامـرِ اللَّه من الخلقِ غـايةَ المشـقةِ وهُم صـابرونَ، بل رَاضُون بذلكَ، فإنَّ المحبَّ رُبَّما يتلذذُ بما يُصيبه منَ الأذى في رضى محبوبِه، كمـا كانَ عبدُ الملك بنُ عـمرَ بنِ عبدِ الـعزيز ـ رحمه اللَّهُ ـ يقـولُ لأبيه في خلافتِهِ إذا حرصَ على تنفـيذِ الحقِّ وإقامةِ العدلِ: يا أبَتِ، لوددْتُ أنِّي غَلتْ

---

(١) أخرجه: البخاري (٤/ ٢٠٤) من حديث عمر بن الخطاب.

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٧٢)، وابن ماجه (٢١١٨) من حديث الطفيل بن سخبرة.

(٣) أخرجه: أحـمد (١/ ٢١٤ ـ ٢٨٣ ـ ٣٤٧)، وابن ماجه (٢١١٧) من حديث عبـد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما.

بي وبِكَ القُدورُ في اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

وقال بعضُ الصالحين: وددتُ أنَّ جسمي قُرِضَ بالمقاريضِ وأنَّ هذا الخلقَ كُلَّهم أطاعُوا اللَّهَ عزَّ وجلَّ، فعُرِض قولُهُ على بعضِ العارفينَ فقال: إن كان أراد بذلك النصيحةَ للخلقِ وإلا فلا أدري، ثم غُشيَ عليه.

ومعنى هذا: أن صاحبَ هذا القولِ قد يكونُ لَحِظَ نُصحَ الخلقِ والشفقةَ عليهم من عذابِ اللَّهِ، وأحبَّ أن يفديَهم من عذابِ اللَّهِ بأذى نفسِهِ، وقد يكونُ لَحِظَ جلالَ اللَّهِ وعظمتِه وما يستحقُّهُ من الإجلالِ والإكرامِ والطَّاعةِ والمحبةِ، فوَدَّ أن الخلقَ قاموا بذلك، وإن حصلَ له في نفسِهِ غايةُ الضرر، وهذا هو مشهدُ خَواصِّ المُحبين العارفينَ بملاحظتِهِ فغشي على هذا الرجلِ العارفِ.

وقد وصفَ اللَّهُ تعالى في كتابِهِ أن المحبين له يجاهدون في سبيله ولا يخافون لومة لائم.

وفي ذلك يقولُ بعضُهُم:

أجدُ الملامةَ في هَواكَ لذيذةً حُبًّا لذكْرِكَ فلْيَلُمْنِي اللُّوَّمُ[1]

* * *

(١) «شرح حديث ما ذئبانِ جائعانِ» (٣٠ ـ ٣٣).

سُورَةُ النِّسَاءِ

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا﴾

ومما يستدلُّ به على فضلِ قلة العيالِ قولُهُ تعالى: **﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلاَّ تَعُولُوا﴾** [النساء:٣] على تفسير من فسَّرَهُ بكثرة العيال، ولكنَّ الجمهورَ على تفسيرِهِ بالجورِ والحيفِ، فإنَّ ملكَ اليمينِ قد تكثرُ به الأولادُ أكثرُ من الزوجاتِ الأربعِ، فإنه لا ينحصرُ في عددٍ.

وكانَ الإمامُ أحمدُ ينكرُ على من كرهَ كثرةَ الأزواجِ والعيالِ، ويستدلُّ بحالِ النبيِّ ﷺ وأصحابه من كثرةِ أزواجِهِم وعيالِهِم، وبمثلِ قولِه: «**تزوجُوا الودودَ الولودَ، فإنِّي أكاثرُ بكُمُ الأممَ يومَ القيامة**»[١]، ولكنه يأمرُ مع هذا بطلبِ الحلالِ والكسبِ، والصبرِ على الفقرِ وإنْ شقَّ.

فالإمامُ أحمدُ أمرَ بما جاءَ الأمرُ به في الشرعِ، وسفيانُ نظرَ إلي قلَّةِ صبرِ الناسِ إلى ما يئولُ إليهِ حالُهم عند كثرةِ عيالِهم منْ تركِ الورعِ، والتكسبِ من الوجوهِ المكروهةِ، وهذا هُوَ الغالبُ على النَّاسِ لا سيَّما مع قلةِ العِلْمِ والصبرِ، وأمَّا حالُ الصابرينَ على العيالِ المحافظينَ على الورعِ معهُم فعزيزٌ جدًّا[٢].

---

(١) أخرجه: أبو داود (٢٠٥٠)، والنسائي (٦/٥٦) من حديث معقل بن يسار ﷺ.

(٢) شرح حديث: «إن أغبط أوليائي» (ق/٢/ب).

قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾

قال المباركُ بنُ كاملٍ: سمعتُ عبدَ الوهابِ بنِ قاسمِ بنِ عليٍّ الشعرانيَّ، قال: رأيتُ جعفرَ الدرزيجاني جاء إلى بغدادَ، فالتقى به أبو الحسين الدرزيجانيُّ، فقال له: كيف تركتَ الصبيانَ؟ فقال له: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا﴾ [النساء:٩] تقوى اللَّهِ لنا ولَهُم(١) .

* * *

قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (١١) وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا

---

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (٣/ ١١٠).

السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾

قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء:١١]، فهذا حكمُ اجتماعِ ذكورِهم وإناثِهم أنَّه يكونُ للذكرِ منهم مثلُ حظ الأنثيين، ويدخلُ في ذلك الأولادُ، وأولادُ البنينَ باتِّفاقِ العلماءِ، فمتى اجتمعَ من الأولادِ إخوةٌ وأخواتٌ، اقتسَمُوا الميراثَ على هذا الوجهِ عند الأكثرينَ، فلو كانَ هناكَ بنتٌ للصُّلبِ أو ابنتانِ، وكان هناك ابنُ ابنٍ مع أختِه اقتسما الباقي أثلاثًا، لدخولِهم في هذا العمومِ. هذا قولُ جمهورِ العلماءِ، منهم عمرُ وعليٌّ وزيدٌ وابنُ عباسٍ، وذهبَ إليه عامَّة العلماءِ، والأئمةُ الأربعةُ.

وذهبَ ابنُ مسعودٍ إلى أنَّ الباقي بعدَ استكمالِ بناتِ الصُّلبِ الثلثين، كلُّه لابن الابنِ، ولا يُعصِّبُ أختَه، وهو قولُ علقمةَ وأبي ثورٍ وأهلِ الظاهرِ، فلا يُعصِّبُ عندَهُم الولدُ أختَه إلا أن يكونَ لها فريضةٌ لو انفردتْ عنه، فكذلك قالُوا فيما إذا كان هناكَ بنتٌ وأولادُ ابنٍ ذكورٌ وإناث: إنَّ الباقي لجميعِ ولد الابنِ، للذكرِ منهم مثلُ حظِّ الأنثيينِ.

وقال ابنُ مسعودٍ في بنتٍ وبناتِ ابنٍ وبني ابنٍ: للبنتِ النصفُ، والباقي بين ولدِ الابنِ، للذكرِ مثلُ حظِّ الأُنثيين إلا أن تزيدَ المقاسمةُ بناتَ الابنِ على السدسِ، فيُفرضُ لهنَّ السدسُ، ويجعلُ الباقي لبني الابنِ، وهو قولُ أبي ثَوْر.

وأمَّا الجمهورُ، فقالُوا: النصفُ الباقي لولدِ الابنِ، للذكرِ مثلُ حظِّ الأنثيين عملاً بعمومِ الآيةِ، وعندهم أن الولدَ وإن نزَلَ يُعَصِّبُ من في درجتِه بكلِّ

حالٍ، سـواء كان للأنثى فرض بدونه أو لم يكن، ولا يُـعَصِّبُ من أعلى منه من الإناثِ إلا بشرطِ أن لا يكونَ لها فرضٌ بدونه، ولا يُعصِّبُ من أسفلَ منه بكلِّ حالٍ.

ثم قالَ تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ [النساء:١١]، فـهـذا حكمُ انفـرادِ الإناثِ من الأولاد أن لـلواحـدةِ النصفَ، ولما فـوقَ الاثنـتينِ الثلثـانِ، ويدخلُ في ذلك بنـاتُ الصلبِ وبناتُ الابنِ عند عدمـهنَّ، فإنِ اجتـمعنَ، فإن استكملَ بنـاتُ الصلبِ الثلثين، فلا شيءَ لبناتِ الابنِ المنفـرداتِ، وإن لم يستكملِ البناتُ الثُّلثين، بل كـانَ ولدُ الصلبِ بنتًا واحدةً، ومعها بناتُ ابنٍ، فللبنتِ النِّصفُ، ولبناتِ الابنِ السدسُ تكملةَ الثلثين، لئلا يزيدَ فرضُ البنات على الثلثين.

وبهذا قَضى النبيُّ ﷺ في حديثِ ابنِ مـسعودٍ(١) الذي تقـدَّمَ ذكرُهُ، وهو قولُ عامَّةِ العلمـاءِ، إلا ما رُوي عن أبي مسعودٍ(٢) وسلمانَ بنِ ربيـعةَ أنه لا شيء لبنتِ الابنِ، وقد رجعَ أبو موسى إلى قولِ ابنِ مسعودٍ لما بلغَهُ قولُهُ في ذلك(٣).

وإنما أُشكِلَ على العلماءِ حكمُ مـيراثِ البنتينِ، فإنَّ لهما الـثلثين بالإجماعِ كما حكاه ابنُ المنذرِ وغيرُه، وما حُكيَ فـيه عن ابن عباسٍ أنَّ لهما النِّصفَ، فقد قيل: إن إسنادَهُ لا يصحُّ، والقرآنُ يدلُّ على خـلافه، حيث قال تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ﴾ [النساء:١١]، فكيف تُورث أكـثرُ من واحـدةٍ

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ١٨٨، ١٨٩).
(٢) كذا بالأصول، ولعل الصواب عن «أبي موسى» كما في «أبي داود».
(٣) أبو داود (٢٨٩٠).

النصفَ؟ وحديثُ ابن مسعودٍ في توريثِ البنتِ النصفَ وبنتِ الابنِ السدسَ تكملة الثلثين يدلُّ على توريثِ البنتين الثلثين بطريقِ الأولى.

وخرَّج الإمامُ أحمدُ، وأبو داودَ، والترمذيُّ(١) من حديثِ جابرٍ: أنَّ النبيَّ ﷺ ورَّث ابنتيْ سعدِ بنِ الرَّبيع الثلثينِ.

ولكن أشكلَ فهمُ ذلكَ من القرآنِ لقولِه تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾ [النساء:١١]، فلهذا اضطربَ الناسُ في هذا، وقالَ كثيرٌ من الناسِ فيه أقوالاً مستبعدة.

ومنهم من قالَ: استُفيد حكم ميراث الابنتين من ميراث الأختين، فإنَّه قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ [النساء:١٧٦]، واستُفيد حكمُ ميراثِ أكثر من الأختينِ من حكمِ ميراثِ ما فوقَ الاثنتينِ.

ومنهم من قال: البنتُ مع أخيها لها الثلثُ بنصِّ القرآنِ، فلأنْ يكونَ لها الثلثُ مع أختِهَا أولى، وسلكَ بعضُهم مسلكًا آخر، وهو أنَّ اللَّهَ تعالى ذكرَ حُكمَ توريثِ اجتماعِ الذكورِ والإناثِ من الأولادِ، وذكر حُكْمَ توريثِ الإناثِ إذا انفردنَ عن الذكور، ولم ينصَّ على حكم انفرادِ الذكور منهم عن الإناثِ، وجعل حُكمَ الاجتماع أن الذكرَ له مثلُ حظِّ الأنثيين، فإن اجتمعَ مع الابنِ ابنتانِ فصاعدًا، فله مثلُ نصيبِ اثنتينِ منهنَّ، وإن لم يكنْ معهُ إلا ابنةٌ واحدةٌ فله الثلثانِ ولها الثلثُ، وقد سمَّى اللَّه ما يستحقه الذكرُ حظَّ الأنثيين مطلقًا، وليس الثلثان حظَّ الأنثيين في حالِ اجتماعِهِمَا مع الذكرِ، لأنَّ حظَّهما حينئذٍ النِّصفُ، فتعيَّن أن يكونَ الثُّلثان حظَّهما حال الانفرادِ.

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٣٥٢)، وأبو داود (٢٨٩٢)، والترمذي (٢٠٩٣) وابن ماجه (٢٧٢٠).

وبقي ها هنا قسمٌ ثالثٌ لم يصرِّح القرآنُ بذكرِه، وهو حكمُ انفرادِ الذكورِ من الولدِ، وهذا مما يُمكن إدخالُهُ في حديثِ ابن عباسٍ: **«فما بقي فلأوْلى رجلٍ ذَكَرٍ»**، فإنَّ هذا القسمَ قد بقي ولم يصرَّح بحكمه في القرآن، فيكون المالُ حينئذٍ لأقربِ الذكور منَ الولد والأمرُ على هذا، فإنَّه لو اجتمعَ ابنٌ وابنُ ابنٍ، لكانَ المالُ كُلُّه للابنِ، ولو كان ابنُ ابنٍ وابنُ ابنِ ابنٍ، لكانَ المالُ كُلُّه لابنِ الابنِ على مقتضى حديثِ ابنِ عباسٍ، واللَّه أعلم.

ثم ذكر تعالى حكمَ ميراثِ الأبوين، فقال: ﴿**وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ**﴾[النساء:١١]، فهذا حكمُ ميراثِ الأبوين إذا كانَ للولد المتوفَّى ولدٌ، وسواءٌ في الولدِ الذكر والأنثى، وسواءٌ فيه ولدُ الصلبِ وولدُ الابنِ، هذا كالإجماعِ من العلماءِ، وقد حكى بعضُهُم عن مجاهدٍ فيه خلافًا، فمتى كانَ للميتِ ولدٌ، أو ولدُ ابنٍ، وله أبوان، فلكلِّ واحدٍ من أبويه السُّدسُ فرضًا، ثم إن كان الولدُ ذكرًا، فالباقي بعد سدسي الأبوين له، وربما دخل هذا في قوله ﷺ: **«ألحقوا الفرائض بأهلِها، فما بقي فلأوْلى رَجُلٍ ذَكَرٍ»**(١).

وأقرب العصباتِ الابنُ، وإن كان الولدُ أنثى، فإن كانتَا اثنتينِ فصاعدًا، فالثُّلثان لهنَّ، ولا يَفضُلُ منَ المالِ شيءٌ، وإن كانت بنتًا واحدةً، فلها النصف ويفضلُ من المال سدسٌ آخر، فيأخذُهُ الأبُ بالتَّعصيبِ، عملاً بقوله ﷺ: **«ألحقوا الفرائض بأهلِهَا، فما بقي فلأولى رجل ذكر»**، فهو أولى رجلٍ ذكر عندَ فقدِ الابنِ، إذ هو أقربُ من الأخِ وابنِه والعمِّ وابنِه.

ثم قال تعالى: ﴿**فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ**﴾ [النساء:١١]،

---

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ١٨٧)، ومسلم (٥/ ٥٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

يعني: إذا لم يكن للميت ولدٌ، ولـه أبوانِ يرثانه، فلأُمِّه الثلث، فيُفهم من ذلك أنَّ الباقي بعد الثلث للأبِ، لأنه أثبتَ ميراثَه لأبويه، وخصَّ الأمَّ من الميراثِ بالثلثِ، فعلم أنَّ الباقي للأبِ، ولم يقُل: فللأبِ ـ مثلاً ـ: ما للأمِّ، لئلا يُوهم أنَّ اقتسامَهُما المال هو بالتَّعصيبِ كالأولاد والإخوةِ، إذا كان فيهم ذكورٌ وإناثٌ.

وكان ابنُ عباسٍ يتمسَّكُ بهذهِ الآيةِ بقولِهِ في المسألتين الملقبتينِ بالعُمريتينِ وهما زوجٌ وأبوان، وزوجةٌ وأبوان، فإن عمر قضى أن الزوجين يأخذان فرضَهُما من المال، وما بقي بعد فرضهما في المسألتين، فللأم ثلثُه، والباقي للأب(١)، وتابعه على ذلك جمهور الأُمَّة.

وقال ابن عباسٍ: بل للأم الثلثُ كاملاً، تمسُّكًا بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ [النساء: ١١].

وقد قيلَ في جوابِ هذا: إنَّ اللَّهَ إنما جعل للأمِّ الثلثَ بشرطينِ: أحدُهما أن لا يكونَ للولدِ المُتوفَّى ولدٌ، والثاني: أن يرثَه أبواه، أي: أن ينفردَ أبواه بميراثه، فما لم ينفردْ أبواه بميراثِهِ، فلا تستحقُّ الأمُّ الثلثُ، وإن لم يكن للمتوفَّى ولدٌ.

وقد يقال ـ وهو أحسنُ ـ: إن قوله: ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾ [النساء: ١١] أي: ممَّا ورثه الأبوانِ، ولم يقل: فلأمه الثلثُ مما ترك كما قال في السُّدسِ، فالمعنى أنَّه إذا لم يكن له ولدٌ، وكان لأبويه من ماله ميراثٌ، فللأمِّ ثُلُثُ ذلك الميراثِ الذي يختصُّ به الأبوان، ويبقى الباقي للأبِ.

ولهذا السرِّ ـ واللَّهُ أعلمُ ـ حيثُ ذكرَ اللَّه الفروضَ المقدَّرةَ لأهلها، قال

(١) أخرجه: عبد الرزاق (١٠/ ٢٥٢ ـ ٢٥٣).

فيها: ﴿مِمَّا تَرَكَ﴾، أو ما يدلُّ على ذلك، كقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾، ليبين أن ذا الفرضِ حَقُّه ذلك الجزءُ المفروضُ المقدَّر له من جميعِ المالِ بعد الوصايا والديونِ، وحيثُ ذكر ميراثَ العصباتِ، أو ما يقتسمُه الذُّكورُ والإناثُ على وجهِ التَّعصيبِ، كالأولادِ والإخوةِ لم يقيِّده بشيءٍ من ذلك، ليبيِّنَ أنَّ المالَ المقتسَمَ بالتَّعصيبِ ليسَ هو المال كُلَّهُ، بل تارةً يكونُ جميعَ المالِ، وتارةً يكونُ هو الفاضلَ عن الفروضِ المفروضةِ المقدَّرةِ.

وهُنا لَمَّا ذكرَ ميراثَ الأبوينِ من ولدِهِما الذي لا ولدَ لَهُ، ولم يكنْ اقتسامُهُما للميراثِ بالفرضِ المحضِ، كما في ميراثِهما مع الولدِ، ولا كان بالتَّعصيب المحض الذي يُعصب فيه الذَّكر الأنثى، ويأخذ مِثليْ ما تأخذُهُ الأنثى، بل كانتِ الأمُّ تأخذُ ما تأخذُهُ بالفرضِ، والأبُ يأخذُ ما يأخذُهُ بالتَّعصيبِ، قال: ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ﴾[النساء:١١]، يعني: أن القدرَ الذي يستحقُّه الأبوانِ من ميراثِهِ تأخذُ الأمُّ ثلثُه فرضًا، والباقي يأخذه الأب بالتَّعصيبِ، وهذا مِمَّا فتح اللَّه به، ولا أعلم أحدًا سبقَ إليه، وللَّه الحمد والمنَّة.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ﴾ [النساء:١١] ، يعني للأمِّ السدس مع الإخوةِ من جميعِ التركةِ الموروثةِ التي يقتسمُها الورثةُ، ولم يذكرْ هُنَا ميراثَ الأبِ مع الأمِّ، ولا شكَّ أنَّه إذا اجتمعَ أمٌّ وإخوةٌ وليس معهم أبٌ، فإنَّ للأمِّ السدسَ، والباقي للإخوةِ، ويحجبُها الأخوانِ فصاعدًا عندَ الجمهورِ.

وأما إن كانَ مع الأمِّ والإخوةِ أبٌ، فقال الأكثرونَ: يحجبُ الإخوةَ الأمُّ ولا يرثون، ورُويَ عن ابنِ عباسٍ أنهم يرثُون السُّدسَ الذي حجبوا عنه الأمَّ

بالفرضِ، كما يَرِثُ ولدُ الأمِّ مع الأمِّ بالفرضِ.

وقد قيلَ: إنَّ هذا مبنيٌّ على قولِه: «إنَّ الكلالة من لا ولدَ له خاصّة»، ولا يُشترط للكلالةِ فقْدُ الوالدِ، فيرثُ الإخوةُ مع الأبِ بالفرضِ.

ومن العلماءِ المتأخرين من قالَ: إذا كانَ الإخوةُ محجوبينَ بالأبِ، فلا يَحجُبُون الأمَّ عن شيءٍ، بل لها الثُّلثُ، ورجَّحَهُ الإمامُ أبو العباسِ ابنِ تيميةَ رحمة اللَّهِ عليه، وقد يُؤخذُ من عمومِ قولِ عمرَ وغيرِه من السَّلفِ: من لا يرثُ لا يَحجبُ، وقد قالَ نحوَه أحمدُ والخِرَقي، لكن أكثرَ العلماءِ يحملونَ ذلكَ على أنَّ المرادَ منْ ليسَ له أهليّةُ الميراث بالكليّةِ كالكافرِ والرقيقِ، دونَ من لا يرثُ لانحجَابِه بمنْ هو أقربُ منه، واللَّهُ أعلم.

وقد يشهدُ للقولِ بأنَّ الإخوةَ إذا كانُوا محجوبينَ لا يحجُبونَ الأمَّ أنَّ اللَّهَ تعالى قال: ﴿**فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ**﴾ [النساء:١١] ولم يذكرِ الأبُ، فدلَّ على أنَّ ذلك حكمُ انفرادِ الأم مع الإخوةِ، فيكون الباقي بعد السدسِ كلِّه لهم، وهذا ضعيفٌ، فإن الإخوةَ قد يكونون من أمٍّ، فلا يكونُ لهم سوى الثلث، واللَّهُ تعالى أعلمُ.

واعلم أن اللَّهَ تعالى ذكرَ حُكْمَ ميراثِ الأبوين، ولم يذكر الجَدَّ ولا الجَدَّةَ، فأما الجدَّةُ، فقد قال أبو بكرٍ الصديقُ وعمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنهما: إنه ليسَ لهَا في كتابِ اللَّهِ شيءٌ[١]، وقد حكَى بعضُ العلماءِ الإجماعَ على ذلكَ، وأنَّ فرضَهما إنما ثبتَ بالسُّنَّة، وقيلَ: إنَّ السُّدسَ طُعْمةٌ أطعَمَها رسولُ اللَّهِ ﷺ وليس بفرضٍ، كذا رُوي عن ابنِ مسعودٍ وسعيدِ بنِ المُسيَّبِ.

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٢٥)، وأبو داود (٢٨٩٤)، والترمذي (٢١٠١)، والنسائي في «الكبرى» «تحفة الأشراف» (١١٢٣٢).

وقد رُوي عنِ ابنِ عباسٍ من وجوهٍ فيها ضعفٌ أنها بمنزلةِ الأمِّ عند فقْدِ الأمِّ ترثُ ميراثَ الأمِّ، فترثُ الثلثَ تارةً، والسدسَ أخرى، وهذا شذوذٌ، ولا يصحُّ إلحاقُ الجدّة بالجدِّ، لأن الجدَّ عصبة يُدْلى بعصبة، والجدّة ذاتُ فرضٍ تُدلي بذات فرض فضعفت، وقد قيل: إنَّه ليس لها فرضٌ بالكليةِ، وإنما السُّدسُ طعمةٌ أطعَمَها النبيُّ ﷺ، ولهذا قالتْ طائفةٌ ممن يرى الردَّ على ذوي الفروضِ: إنه لا يردُّ على الجدةِ، لضعفِ فرضِها، وهو روايةٌ عن أحمدَ.

وأما الجدُّ، فاتَّفقَ العلماءُ على أنَّه يقومُ مقامَ الأبِ في أحوالِه المذكورةِ من قبلُ، فيرثُ مع الولدِ السُّدسَ بالفرضِ، ومع عدمِ الولد يرثُ بالتعصيبِ، وإن بقيَ شيء مع إناثِ الولدِ أخذهُ بالتعصيبِ ـ أيضًا ـ عملاً بقوله: «**فما أبقت الفرائضُ، فلأولى رَجُلٍ ذكر**».

ولكن اختلفُوا إذا اجتمعَ أمٌّ وجدٌّ مع أحدِ الزوجينِ، فرُوي عن طائفةٍ من الصَّحابةِ أن للأمِّ ثُلُثَ الباقي، كما لو كانَ معها الأبُ كما سبقَ، رُوي ذلك عن عمرَ، وابنِ مسعودٍ كذا نقلهُ بعضُهم، ومنهم من قال: إنما رُوي عن عمرَ، وابنِ مسعودٍ في زوجٍ وأمٍّ وجدٍّ: أنَّ للأمِّ ثلثَ الباقي.

ورُوي عن ابنِ مسعودٍ روايةٌ أخرى: أنَّ النِّصفَ الفاضلَ بين الجدِّ والأمِّ نصفانِ، وأمَّا في زوجةٍ وأمٍّ وجدٍّ، فرُوي عن ابنِ مسعود رواية شاذّة: أنَّ للأمِّ ثلثَ الباقي، والصَّحيحُ عنه، كقولِ الجمهورِ: أن لها الثُّلثَ كاملاً، وهذا يشبهُ تفريقَ ابنِ سيرينَ في الأمِّ مع الأبِ أنَّه إن كان معهُما زوجٌ، للأمِّ ثلثُ الباقي، وإن كان معهُمَا زوجةٌ، فللأمِّ الثُّلث.

وجمهورُ العلماءِ على أنَّ الأمَّ لها الثلثُ مع الجدِّ مطلقًا، وهو قولُ عليٍّ

وزيدٍ، وابنِ عباسٍ، والفرقُ بين الأمِّ مع الأبِ ومعَ الجدِّ أنها مع الأبِ يشملُها اسمٌ واحدٌ، وهما في القُربِ سواءٌ إلى الميتِ، فيأخذُ الذكر منهما مثلَ حظِّ الأنثى مرتينِ كالأولادِ والإخوةِ، وأما الأمُّ مع الجدِّ، فليسَ يشملُها اسمٌ واحدٌ، والجدُّ أبعدُ من الأبِ، فلا يلزمُ مُساواتُهُ به في ذلكَ.

وأمَّا إن اجتمع الجدُّ مع الإخوةِ، فإن كانُوا لأمٍّ سَقَطُوا به، لأنهم إنما يرثون من الكلالةِ، والكلالةُ: منْ لا وَلَدَ له ولا والد، إلا رواية شذَّتْ عن ابنِ عباسٍ.

وأما إن كانوا لأبٍ أو لأبوين، فقد اختلفَ العلماءُ في حكمِ ميراثِهم قديمًا وحديثًا، فمنهم من أسقطَ الإخوةَ بالجدِّ مطلقًا، كما يسقطونَ بالأبِ، وهذا قولُ الصديق، ومعاذٍ، وابنِ عباسٍ، وغيرهم، واستدلُّوا بأنَّ الجدَّ أبٌ في كتابِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، فيدخلُ في مسمى الأبِ في المواريثِ، كما أنَّ ولدَ الولدِ ولدٌ، ويدخل في مسمَّى الولد عندَ عدم الولدِ بالاتفاقِ، وبأن الإخوة إنما يرثونَ مع الكلالةِ، فيحجبُهُم الجدُّ كالإخوةِ من الأم ، وبأنَّ الجدَّ أقوى من الإخوةِ، لاجتماع الفرضِ والتَّعصيب له من جهةٍ واحدةٍ، فهو كالأبِ، وحينئذٍ، فيدخلُ في عموم قوله ﷺ: **«فما بقي، فلأولى رجلٍ ذكر»**.

ومنهم من شرَّك بين الإخوةِ والجدِّ وهو قولُ كثيرٍ من الصحابةِ، وأكثر الفقهاءِ بعدهم على اختلافٍ طويلٍ بينهم في كيفيةِ التشريكِ بينهم في الميراثِ، وكان من السلفِ منْ يتوقَّف في حكمهم ولا يُجيبُ فيهم بشيء، لاشتباهِ أمرهم وإشكالِهِ، ولولا خشيةُ الإطالةِ لبسطنا القولَ في هذه المسألةِ، ولكن ذلك يؤدِي إلى الإطالةِ جدًّا.

وأما حكمُ ميراثِ الإخوةِ للأبوينِ أو للأبِ، فـقد ذكره اللَّه تعالى في آخر سورة النساءِ في قولِه تعالى: ﴿**يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ**﴾ [النساء:١٧٦].

والكَلالةُ: مأخوذةٌ من تكلُّلِ النسبِ وإحاطتِـهِ بالميتِ، وذلك يقتضي انتفاءَ الانتسابِ مطلقًا من العمودينِ الأعلى والأسـفل، وتنصيصُه تعالى على انتفاءِ الولدِ تنبيهٌ على انتفاءِ الوالدِ بطريقِ الأوْلى، لأن انتسابَ الولدِ إلى والدِه أظهرُ من انتسـابِهِ إلى ولدِهِ، فكانَ ذكـرُ عدمِ الولد تنبيـهًا على عـدمِ الوالدِ بطريقِ الأولى.

وقـد قـال أبو بكرٍ الصـديقُ ﷺ: الكـلالةُ: مَنْ لا وَلَدَ له ولا والدَ[١]، وتابعَهُ جمهورُ الصحابةِ والعلماءِ بعدَهُم، وقد رُوي ذلك مرفوعًا من مراسيلِ أبي سلمـةَ بنِ عـبـدِ الرحـمـنِ، عن النبيِّ ﷺ، خـرَّجـه أبو داود في «المراسيل»[٢]، وخـرَّجـه الحاكم مـن روايةٍ، عن أبي سلمـة، عن أبي هريرةَ مرفوعًا، وصحَّحَه ووصْلُه بذكرِ أبي هريرةَ ضعيفٌ[٣].

فقوله: ﴿**إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ**﴾، يعني إذا لم يكنْ للميتِ ولدٌ بالكليّةِ لا ذكرٌ ولا أنثى، فللأختِ ـ حينئذٍ ـ النِّصفُ مما تركَ فرضًا، ومفهـومٌ هذا أنه إذا كان له ولدٌ فليسَ للأختِ النِّصفُ فرضًا، ثم إنْ كان الولدُ ذكرًا، فهو أولى بالمالِ كلِّه لما سبقَ تقريرُه في ميراثِ الأولاد الذُّكور إذا انفردُوا، فإنهم أقربُ العصـباتِ، وهم يُسقطُون الإخوةَ فكيف لا يُسقطون

---

(١) أخرجه: عبد الرزاق (١٠/ ٣٠٤)، وابن أبي شيبة (١١/ ٤١٥ ـ ٤١٦).

(٢) (٣٧١).

(٣) أخرجه: الحاكم (٤/ ٣٣٦).

الأخوات؟ وأيضًا، فقد قال تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾، وهذا يدخل فيه ما إذا كانَ هنـاك ذو فرضٍ كالبنات وغيرِهنَّ، فـإذا استـحقَّ الفـاضلُ ذكورَ الإخـوةِ مع الأخـواتِ، فإذا انفـردُوا، فكذلك يستحقُّـونه وأوْلى، وإن كانَ الولدُ أنثى، فليسَ للأختِ هنا النِّصفُ بالفرضِ، ولكن لهـا الباقي بالتَّـعصـيب عندَ جـمهـورِ العلماءِ، وقـد سبقَ ذكـرُ ذلك والاختلافُ فيه، فلو كانَ هناكَ ابنٌ لا يسـتوعِبُ المالَ وأختٌ، مثلُ ابنٍ نصفُه حُـر عند مَن يُورِّثه نصفَ الميـراثَ، وهو مـذهبُ الإمامِ أحـمـدَ وغيـرِه من العلماءِ، فـهل يقالُ: إن الابنَ هنا يسقط نصـفَ فرضِ الأختِ، فترثَ مـعه الرُّبعَ فرضًا؟ أم يقال: إنَّه يصيرُ كالبنتِ فتصيـرَ الأختُ معه عصبةٌ كما تصيرُ مع الأخت، لكنه يُسـقط نصفَ تعـصيـبـها، فـتأخـذُ مـعه النِّصفَ البـاقي بالتعصيب؟ هذا محتملٌ، وفي هذه المسألةِ لأصحابِنا وجهانِ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾، يعني أنَّ الأخَ يستقلُّ بميراثِ أخته إذا لم يكن لها ولدٌ ذكرٌ أو أنثى، فـإن كان لها ولدٌ ذكرٌ، فهو أوْلى من الأخِ بغير إشكال، فإنَّه أولى رجلٍ ذكرٍ، وإن كان أنثى، فـالباقي بعد فرضِها يكونُ للأخِ، لأنَّه أوْلى رجلٍ ذكرٍ، ولكن لا يسـتقلُّ بميراثِها حينئـذٍ، كما إذا لم يكن لها ولدٌ.

وقوله: ﴿فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ﴾ يعني: أنَّ فـرضَ الثِّنتين الثلثان، كـما أنَّ فرضَ الواحـدةِ النِّصفُ، فهذا كلُّه في حكم انفـرادِ الإخوةِ والأخواتِ.

وأما حكمُ اجتماعِهِم، فقد قالَ تعالى: ﴿وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالاً وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنثَيَيْنِ﴾، فيدخلُ في ذلكَ ما إذا كانـوا مفردينِ، وأما إذا كان هناكَ

ذو فرضٍ منَ الأولادِ أو غيرِهم، كـأحدِ الزوجينِ أو الأمّ أو الإخوةِ من الأم، فيكـونُ الفاضـلُ عـن فروضِـهم للإخـوةِ والأخـواتِ بينهم للذَّكَـر مثلُ حظِّ الأنثيين.

فقد تبيَّن بما ذكرناهُ أنَّ وجـودَ الولد إنما يُسقط فرضَ الأخواتِ منَ الأبوينِ أو الأبِ، ولا يُسـقط توريثـهُن بالتَّـعـصيبِ مع أخـواتِهنَّ بالإجـمـاعِ، ولا تَعْصيـبَهُنَّ بانفرادهِنَّ مع البناتِ عندَ الجمـهورِ، فالكلالةُ شرطٌ لثـبوتِ فرضِ الأخواتِ، لا لثبوتِ ميراثِهنَّ، كما أنَّه ليسَ بشرطٍ لميراثِ ذكورهم بالإجماعِ، وهذا بخلافِ ولدِ الأمِّ، فإنَّ انـتفاءَ الكلالةِ أسقطت فروضَـهم، وإذا أسقطت فروضَـهم، سقطت مواريثُـهُم، لأنَّه لا تعصيبَ لهم بـحالٍ لإدلائهم بأنثى، والأخـوات للأبوين أو للأب يدلون بذكرٍ، فـيرثْـنَ بالتَّعـصيبِ مع إخـوتِهِنَّ بالاتفاقِ، وبانفرادِهِنَّ مع البناتِ عند الجمهورِ.

وإذا كانَ الولدُ مـسقطًا لفرضِ ولد الأبـوينِ، أو الأبِ دونَ أصلِ توريثهم بغيـرِ الفرضِ، فقـد يقالُ: إنَّ اللَّهَ تعالى إنَّـما خصَّ انتفـاءَ الولدِ في قوله: ﴿لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء:١١] ولم يذكر انتفـاءَ الولدِ، أو الأبِ، لأنَّه كان يدخلُ فيـه الجدُّ، والجدُّ لا يُسقطُ مـيراثَ الإخوةِ بالكليّة، وإنَّـمـا يشتركون مـعه في الميراثِ، تارةً بالفـرضِ، وتارةً بغيرِهِ، وهذا على قولِ من يـقولُ: إنَّ الجدَّ لا يُسقطُ الإخـوةَ ـ وهمُ الجمهورُ ـ ظاهـرٌ، وهذا كلُّه في انفرادِ ولدِ الأبوينِ أو الأبِ، فإن اجتمعُوا فـإن العصباتِ منْ ولدِ الأبوينِ يُسقطونَ ولدَ الأبِ كلهم بغيـر خلافٍ حتى في الأختِ منَ الأبوينِ مع البنتِ عند مـن يجعلُها عصـبةً يُسقط بها الأخ من الأبوينِ.

وفي «المسندِ» و«الترمـذيِّ» و«ابن ماجه» عن عليٍّ قال: قَـضَى رسولُ اللَّهِ

ﷺ أن أعيانَ بني الأم يرثُون دونَ بني العـلاَّتِ، يرثُ الرَّجُلُ أخاه لأبيه وأمِّه دونَ أخيه لأبيه[١] .

وقال عمرُو بنُ شُـعيبٍ: قضى رسولُ اللَّه ﷺ أن الأخَ للأبِ والأم أولى بالكلالةِ بالميـراثِ، ثم الأخُ للأبِ، وهذا ـ أيضًـا ـ مما يدخلُ في قولِه عليـه الصلاةُ والسلامُ: «**فما بقي فلأولى رجُلٍ ذكرَ**».

والتحقيقُ في ذلك: أن كلَّ ما دلَّ عليه القرآنُ، ولو بالتَّنبيه، فليسَ هو ممَّا أبقـته الفـرائضَ، بل هوَ من إلحـاقِ الفـرائضِ المذكورةِ في الـقرآنِ بأهلِهَـا، كتـوريثِ الأولادِ ذكورِهـم وإناثِهم الفاضلَ عن الفـروضِ، للذَّكرِ مـثلُ حظِّ الأنثيينِ، وتوريثِ الإخـوةِ ذكورِهم وإناثِهم كذلك، ودلَّ ذلكَ بطريقِ التَّنبـيه على أنَّ الباقي يأخذه الذَّكـرُ منهم عند الانفرادِ بطريق الأوْلى، ودلَّ ـ أيضًا ـ بالتَّنبيه على أنَّ الأختَ تأخـذُ الباقي مع البنتِ كما كانتْ تأخـذُهُ مع أخيهَا، ولا يُقدَّمُ عليها من هو أبعدُ منـها، كابنِ الأخِ والعمِّ وابنِه، فإنَّ أخاها إذا لم يُسقِطها فكيف يُسـقِطها من هو أبعدُ منه؟ فهـذا كلُّه من بابِ إلحاقِ الفرائضِ بأهلها، ومن باب قسمة المالِ بين أهلِ الفرائضِ على كتابِ اللَّهِ.

وأمَّا منْ لم يُذكر باسمِهِ منَ العصباتِ في القرآنِ، كابنِ الأخِ والعمِّ وابنِه، فإنَّما دخلَ في عموماتِ مثلِ قولِهِ تعالى: ﴿**وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ**﴾ [الأنفال:٧٥]، وقوله: ﴿**وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ**﴾ [النساء:٣٣]، فهـذا يحـتاجُ في توريثِـهم إلى هذا الحديثِ: أعني حـديثَ ابنِ عباسٍ، فإذا لم يُوجَدْ للمالِ وارثٌ غـيرُهم، انفردُوا به، ويقدَّم منهُمُ الأقربُ

---

(١) أخرجه: أحـمد (١/ ٧٩ ـ ١٣١ ـ ١٤٤)، والترمذي (٢٠٩٥ ـ ١٢٠)، وابن مـاجه (٢٧١٥)، والبزار (٨٣٩).

فالأقربُ، لأنَّه أولى رجلٍ ذكر، وإن وُجِدَتْ فروضٌ لا تستغرقُ المالَ، كأحدِ الزوجينِ أو الأمِ، أو ولد الأمِّ، أو بناتٍ منفردات، أو أخواتٍ منفردات، فالباقي كلُّه لأوْلى ذكرٍ من هؤلاءِ. ولهـذا لو كانَ هؤلاء إخوةً رجالاً ونساءً، لاختصَّ به رجالُهم دون نسائِهم، بخلافِ الأولادِ والإخوةِ فإنَّه يشتركُ في الباقي أو في المالِ كلِّه ذكورُهم وإناثُهم، بنصِّ القرآنِ، والحديثُ إنَّما دلَّ على توريثِ العصباتِ الذينَ يختصُّ ذكورُهم دونَ إناثِهم، وهم مَنْ عدا الأولادِ والإخوةِ، فهذا حكمُ العصباتِ المذكورينَ في كتابِ اللَّهِ، وفي حديثِ ابنِ عباسٍ.

وأما ذوو الفروضِ، فقد ذكرنَا حكمَ مواريثِهم، ولم يبقَ منهم إلا الزوجانِ والإخوةِ للأمِّ.

فأما الزوجانِ، فيرثانِ بسببِ عقدِ النكاحِ، ولمَّا كان بين الزوجينِ من الألفةِ والمودةِ والتَّناصرِ والتعاضُدِ ما بينَ الأقاربِ، جُعِلَ ميراثُهما كميراثِ الأقاربِ، وجُعل للذَّكـرِ منهما مـثْلا ما للأنثى، لامـتيازِ الذكـرِ على الأنثى بمزيدِ النَّفعِ بالإنفاقِ والنصرةِ.

وأما ولدُ الأمِّ، فإنَّهم ليسُوا من قبيلةِ الرَّجُلِ، ولا عشيرتِه، وإنَّما هم في المعنى من ذوي رحمِـهِ، ففـرضَ اللَّهُ لواحدِهم السُّدُسَ، ولجماعتِهم الثُّلثَ صِلَةً، وسوَّى فيه بين ذكورِهم وإناثِهم، حيثُ لم يكنْ لذكـرِهم زيادةً على أنثاهـم في الحياةِ من المعاضدةِ والمناصـرةِ، كمـا بين أهلِ القبيلةِ والعشيرةِ الواحدةِ، فسـوَّى بينَهُم في الصلةِ، ولهذا لم تُشرع الوصـيَّةُ للأجانبِ بزيادةٍ على الثلثِ، بل كـانَ الثُّلثُ كـثيرًا في حقِّـهم، لأنَّهم أبعـدُ من ولدِ الأمِّ، فينبغِي أن لا يُزادوا على ما يُوصل به ولدُ الأمِ، بل ينقصونَ منه.

واستدلَّ بعضُهم بقولِه: «**فما بقيَ فلأوْلى رجلٍ ذكر**» على أنْ لا ميراثَ لذوي الأرحامِ، لأنَّه لم يجعلْ حقَّ الميراثِ لمنْ لم يُذكر في القُرآنِ إلا لأقربِ الذكورِ، وهذا الحكمُ يختصُّ بالعصباتِ دونَ ذوي الأرحامِ، فإنَّ منْ ورَّث ذوي الأرحامِ، ورَّث ذكورَهُم وإناثَهُم.

وأجابَ من يرى توريثَ ذوي الأرحامِ بأنَّ هذا الحديثَ دلَّ على توريثِ العصباتِ، لا على نفي توريثِ غيرِهم، وتوريثُ ذوي الأرحامِ مأخوذٌ من أدلةٍ أخرى، فيكونُ ذلكَ زيادةً على ما دلَّ عليه حديثُ ابنِ عباسٍ.

وأمَّا قوله: «**لأوْلى رجلٍ ذَكَرٍ**» مع أنَّ الرجُلَ لا يكون إلا ذكرًا، فالجوابُ الصحيحُ عنه أنه قد يُطْلَقُ الرجل ويرادُ به الشخصُ، كقولِه: «**منْ وَجَدَ ماله عندَ رجلٍ قد أفلس**» ولا فرقَ بينَ أن يجده عند رجل أو امرأةٍ، فتقييدُه بالذَّكر ينفي هذا الاحتمالَ، ويُخلصهُ للذكرِ دونَ الأنثي وهو المقصودُ، وكذلك الابنُ: لمَّا كان قد يُطلق، ويُراد به أعمُّ من الذكر، كقوله: ابن السبيل، جاء تقييدُ ابنِ اللَّبُون في نُصُبِ الزكاةِ بالذكرِ.

وللسهيليِّ كلامٌ على هذا الحديثِ فيه تكلُّفٌ وتعسُّفٌ شديدٌ ولا طائلَ تحتَه، وقد ردَّه عليه جماعةٌ ممن أدركنَاهُم[١]، واللَّهُ أعلمُ[٢].

* * *

قال تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾

وفي حديثِ أبي هريرةَ المرفوع: «**إنَّ العبد ليعملُ بطاعةِ اللَّهِ ستِّينَ سنةً، ثم**

---

(١) راجع: «الفتح» (١٢/ ١٣).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٧٠ ـ ٤٨٦).

يَحضُره الموتُ، فـيضارَّ في الوصيَّـة، فيدخلُ النارَ» ، ثم تلا : ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾، إلى قوله : ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا﴾ [النساء:١٣ - ١٤] وخرَّجه الترمذيُّ وغيرُه بمعناه[١] .

وقال ابنُ عباسٍ: الإضرارُ في الوصيةِ من الكبائرِ، ثم تلا هذه الآية[٢] .

والإضرارُ في الوصيَّةِ تارةً يكونُ بأنْ يخُصَّ بعضَ الورثةِ بزيادةٍ على فَرْضَه الذي فرَضَهُ اللَّهُ له فيتضرَّرُ بقيَّةُ الورثةِ بتخصيصه، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللَّهَ قدْ أعطى كُلَّ ذي حقٍّ حقَّه، فلا وصيَّةَ لوارث»[٣] .

وتارةً بأن يُوصِي لأجنبيٍّ بزيادةٍ على الثُّلُثِ، فتنقصُ حقوقُ الورثةِ، ولهذا قال النبيُّ ﷺ: «الثلث والثلثُ كثيرٌ»[٤] .

ومتى وصَّى لوارثٍ أو لأجنبيٍّ بزيادةٍ على الثُّلُثِ لم يـنفذْ ما وصَّى به إلا بإجازةِ الـورثةِ، وسواءٌ قصـدَ المضارَّة أو لم يقـصدْ، وأمَّـا إنْ قصـدَ المضارَّةَ بالوصيَّةِ لأجنبيٍّ بالثـلثِ فإنه يأثمُ بقصدهِ المضارَّة، وهلْ تُرَدُّ وصـيَّتُه إذا ثبتَ ذلكَ بإقـرارِهِ أم لا؟ حكَى ابنُ عطيـةَ روايةً عن مالكٍ أنـها تُرَدُّ، وقـيلَ: إنه قياسُ مذهبِ أحمد[٥] .

* * *

(١) أخرجه: الترمذي (٢١١٧)، وأبو داود (٢٨٦٧)، وابن ماجه (٢٧٠٤).

(٢) أخرجـه: عبـد الرزاق (٩/ ٨٨)، وابن أبي شيـبة (١١/ ٢٠٤)، والبيـهقي في «السنن الـكبرى» (٦/ ٢٧١).

(٣) راجع: «التـاريخ الكـبـيـر» (٣/ ٢/ ٣٠٤)، و«الجـرح والتـعـديل» (٣/ ١/ ٢٢٩)، و«الفـتح» (٥/ ٣٧٢)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (٦/ ٢٦٤).

(٤) أخرجه: البخاري (١/ ٢٢)، (٢/ ١٠٣)، (٥/ ٨٧، ٢٢٥)، ومسلم (٥/ ٧١).

(٥) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٢٠ ـ ٢٢١).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾

خرَّجَ الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ وابنُ حبانَ في «صحيحِه»(١) من حديثِ ابنِ عمرَ عن النبيِّ ﷺ، قال: «**إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يقبَلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغرغِر**» وقال الترمذيُّ: حديثٌ حسنٌ. دلَّ هذا الحديثُ على قبولِ توبةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ لعبده ما دامَتْ روحُه في جسدِه لم تبلُغِ الحُلْقُومَ والتراقي.

وقد دلَّ القرآنُ على مثلِ ذلك أيضًا، قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: **﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾** [النساء:١٧]، وعمَلُ السُّوءِ إذا أفرد دَخَل فيه جميعُ السَّيئات، صغيرُها وكبيرُها، والمرادُ بالجهالةِ الإقدامُ على عملِ السُّوء، وإنْ علِمَ صاحبُه أنه سوء، فإنَّ كُلَّ من عَصَى اللَّهَ فهو جاهلٌ، وكُلَّ من أطاعَهُ فهو عالمٌ، وبيانُهُ من وجهينِ:

أحدُهما: أنَّ من كانَ عالمًا باللَّهِ تعالى وعظمتِه وكبريائِه وجلالِه، فإنَّه يَهَابُهُ ويخشاهُ، فلا يقعُ منه مع استحضارِ ذلكَ عصيانُه، كما قال بعضُهم: لو تفكَّر الناسُ في عظمةِ اللَّه تعالى ما عَصَوهُ، وقال آخرُ: كفَى بخشيةِ اللَّه علمًا، وكَفى بالاغترارِ باللَّهِ جهلاً.

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ١٣٢ ـ ١٥٣)، والترمذي (٣٥٣١)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وابن حبان (٦٢٨).

والثاني: أنَّ مَنْ آثرَ المعصيةَ على الطاعةِ فـإنَّما حَمَلَهُ على ذلك جهلُه وظنُّه أنها تنفعُهُ عـاجلاً باستعجالِ لذَّتها، وإن كان عندهُ إيمانٌ فـهو يرجُو التخلُّصَ من سوءِ عاقبتها بالتوبةِ في آخر عمرِهِ، وهذا جَهْلٌ محضٌ، فإنَّه يتعجَّلُ الإثمَ والخزي، ويفوتُه عزُّ التقوى وثوابُهـا ولذَّةُ الطاعة، وقد يتمكَّنُ من التوبةِ بعد ذلك، وقد يعاجلُهُ الموتُ بغتةً، فهو كجـائعٍ أكلَ طعامًا مسمومًا لدفعِ جوعه الحاضر، ورجا أن يتخلَّص من ضرره بِشُرْبِ الدِّرياق بعده، وهذا لا يفعله إلا جاهلٌ، وقد قال تعـالى في حقِّ الذين يؤثرونَ السحرَ: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢-١٠٣].

والمرادُ: أنَّهم آثرُوا السـحرَ على التقـوى والإيمانِ، لما رجوا فيـه من منافعِ الدنيـا المعجلةِ، مع علمـهم أنَّهم يفـوتُهم بذلكَ ثوابُ الآخرةِ، وهذا جـهلٌ منهم، فـإنَّهم لو علمُـوا لآثرُوا الإيمانَ والتـقـوى على ما عَـداهُمَـا، فكانُوا يحرزونَ أجرَ الآخرةِ ويأمنونَ عقابَها، ويتـعجَّلونَ عزَّ التقوى في الدنيا، وربما وصلُوا إلى ما يأمُلُونه في الدنيـا أو إلى خيرٍ منه وأنفعُ، فإنَّ أكـثرَ ما يُطلبُ بالسِّحرِ قضاءُ حوائجَ محرَّمةٍ أو مكروهةٍ عندَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

والمؤمنُ المتقي يُعـوِّضُه اللَّهُ في الدنيا خـيراً مما يطلبُه السَّـاحرُ ويؤثِرُه، مع تعجيلِه عـزَّ التَّقوى وشرفِهـا، وثوابَ الآخرةِ وعلُوَّ درجاتِهَا، فتـبيَّن بهذا أنَّ إيثارَ المعصيةِ على الطاعةِ إنما يحـملُ عليه الجهلُ، فلذلكَ كان كُلُّ منْ عصَى اللَّهَ جاهلاً، وكُلُّ من أطاعه عالِمًـا، وكفى بخشية اللَّهِ علْمًا، وبالاغترارِ به جهْلاً.

وأمَّا التوبةُ من قريبٍ فالجمهورُ على أنَّ المرادَ بها التوبةُ قبلَ الموتِ، فالعمرُ كلُّه قريبٌ، والدنيا كلُّها قريبٌ، فمن تابَ قبلَ الموتِ فقد تابَ من قريبٍ، ومن ماتَ ولم يتُبْ فقد بَعُدَ كلَّ البُعد، كما قيل:

يقولون لا تبْعد وَهُم يدفِنُونني ... وأينَ مكانُ البُعْد إلا مكانِيا

وقال آخرُ:

مِن قبْلِ أن تلقِي وليـ ... ـس النأيُ إلا نأيُ دارِك

وكما قيل:

فهم جِيرةُ الأحياءِ أمَّا مزارُهُم ... فدانٍ وأمَّا المُلْتَقى فبَعيدُ

فالحيُّ قريبٌ، والميتُ بعيدٌ من الدنيا على قُربه منها، فإنَّ جسْمَهُ في الأرضِ يبْلى ورُوحَه عند اللَّهِ تُنَعَّم أو تُعَذَّبُ، ولقاؤهُ لا يرجى في الدنيا، كما قيل:

مقيمٌ إلى أن يبعثَ اللَّهُ خلْقَهُ ... لقاؤك لا يُرجَى وأنتَ قريبُ

تزيدُ بِلًى في كل يومٍ وليلةٍ ... وتُنْسَى كما تُبْلى وأنتَ حبيبُ

وهذان البيتانِ سمعَهما داودُ الطائيُّ ـ رحمه اللَّه ـ من امرأةٍ في مقبرةٍ تَنْدُبُ بهما ميّتًا لها، فوقعتا من قلبه موقِعًا، فاستيقظَ بهما ورَجَع زاهدًا في الدنيا، راغبًا في الآخرة، فانقطع إلى العبادةِ إلى أن ماتَ ـ رحمه اللَّهُ.

فمن تابَ قبل أن يغرغِر، فقد تاب من قريبٍ، فتقبَلُ توبتُهُ ورُوي عن ابنِ عباسٍ، في قوله تعالى: ﴿يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧] قال: قبل المرض والموت، وهذا إشارةٌ إلى أن أفضلَ أوقاتِ التوبةِ، هو أن يبادرَ الإنسانُ بالتوبةِ في صحتِهِ قبل نُزولِ المرضِ به حتَّى يتمكَّن حينئذٍ من العمل الصالِح.

ولذلك قَرَنَ اللَّه تعالى التوبةَ بالعملِ الصالحِ في مواضعَ كثيرةٍ من القرآنِ.

وأيضًا فالتوبةُ في الصحةِ ورجاءِ الحيـاةِ تُشبهُ الصَّدَقَةَ بالمالِ في الصِّحةِ ورجاءِ البقاءِ، والتوبةُ في المرضِ عند حضورِ أمـاراتِ الموت تشبهُ الصدقةَ بالمالِ عندَ الموتِ، فكأنَّ من لا يتوبُ إلا في مرضه قد استفْرَغَ صِحَّتَه وقوَّتَه في شهواتِ نفسه وهوه ولذَّات دنياه، فإذا أيسَ من الدنيا والحياةِ فيها تابَ حينئذٍ وتركَ ما كانَ عليه، فـأين توبةُ هذا من توبةِ مَنْ يتوبُ من قريبٍ، وهو صـحيحٌ قويٌّ قادرٌ على عملِ المـعاصي، فيتركـها خوفًا من اللَّهِ عـزَّ وجلَّ، ورجاءً لثوابه، وإيثارًا لطاعتِهِ على معصيته؟

دخلَ قومٌ على بِشْـرٍ الحافي، وهو مريضٌ، فقالوا له: عـلى ماذا عزَمْتَ؟ قال: عزَمْتُ أني إذا عُـوفيتُ تُبْتُ، فقال له رجلٌ منهم: فهـلاَّ تُبْتَ السَّاعةَ؟ فقـال: يا أخي؟ أما علمْتَ أنَّ الملوك لا تقـبَلُ الأمانَ ممن في رجليه القـيدُ، وفي رقبتِه الغلُّ؟ إنَّما يُقبَلُ الأمانُ ممن هو راكبٌ الفرسَ والسيفُ مجرَّدٌ بيده، فبكى القومُ جميعًا.

ومـعنى هذا أنَّ التائب في صـحتِـه بمنزلة من هو راكبٌ على متنِ جـوادِهِ وبيدِهِ سيفٌ مشـهور، فهو يقدرُ على الكَرِّ والفَرِّ والقـتالِ، وعلى الهربِ من الملكِ وعصْيانِهِ، فإذا جـاء على هذه الحالِ إلى بينَ يدي الملكِ ذليلاً له، طالبًا لأمانِهِ، صارَ بذلك من خـواصِّ الملكِ وأحبابِهِ، لأنَّه جاءهُ طائعًا مـختارًا له، راغبًا في قربه وخدمتِهِ.

وأمَّا من هـو في أسْرِ الملك، وفي رِجْلِه قـيْدٌ، وفي رقـبتِهِ غُـلٌّ، فإنه إذا طلب الأمانَ من الملكِ فإنَّما طلبه خـوفًا على نفسه من الهلاكِ، وقد لا يكونُ محـبًّا للملكِ ولا مؤثرًا لـرضاه، فهذا مَـثَلُ من لا يتوبُ إلا في مـرضِهِ عند

موته، والأولُ بمنزلة من يتوبُ في صحَّته وقـوَّتِه وشبيبته، لكن مَلكُ الملوكِ، أكرمُ الأكرمين، وأرحَـمُ الراحمينَ، وكُلٌّ خلْقه أسيـرٌ في قبضتِـه، لا يُعْجِزُه منهم أحَدٌ، لا يُعْجِزُه هاربٌ، ولا يفوتُه ذاهبٌ، كما قيل: لا أَقْدَرَ مِمَّن طلبتُه في يده، ولا أعْجَز مِمَّن هو في يد طالبِه، مع هذا فكُلٌّ منْ طلبَ الأمانَ من عذابِهِ من عبـادِهِ أمنَهُ على أي حالٍ كانَ، إذا علم منه الصِّدْقَ فـي طلبه أنشد بعض العارفين:

الأمـــانَ الأمـــانَ وِزْري ثَقِـــيلُ وذُنُـوبي إذا عـــــــدَدْتُ تَطُـولُ
أوْبَقَـــتْنـي وأوْثَقَـــتْنِي ذُنُـوبي فـتُــرَى لي إلى الخَـلاصِ سـبـيلُ

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿**وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾ [النساء:١٨]، فسـوَّى بين مَن تابَ عند الموتِ ومن ماتَ من غـيرِ توبةٍ، والمرادُ بالتوبةِ عندَ الموتِ التوبةُ عند انكشافِ الغطاءِ، ومعـاينةِ المحتضرِ أمورَ الآخرةِ، ومشاهدةِ الملائكةِ، فإنَّ الإيمانَ والتوبةَ وسائـرَ الأعمالَ إنَّما تنفعُ بالغيبِ، فإذا كُشِفَ الغِطاءُ وصارَ الغيبُ شهادةً، لم ينفعِ الإيمانُ ولا التوبةُ في تلكَ الحالِ.

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسنـادِهِ عن عليٍّ، قال: لا يزالُ العبـدُ في مهلٍ من التَّـوبةِ ما لم يأتِه ملَكُ الموتِ يـقبضُ رُوحَـه، فإذا نزل ملَكُ الموتِ فـلا توبةَ حينئذٍ.

وبإسنادِهِ عن الثـوريِّ، قال: قال ابنُ عـمرَ: التوبةُ مـبسوطـةٌ ما لم ينزلْ سلطانُ الموت.

وعن الحسن، قال: التـوبةُ معروضةٌ لابنِ آدمَ ما لـم يأخُذِ الموتُ بِكَظَمِه.

وعن بكرٍ المزنيِّ، قال: لا تزالُ التوبةُ للعبدِ مبسُوطةً ما لم تأتِه الرُّسُلُ، فإذا عاينَهم انقطعت المعرفةُ، وعن أبي مجلَزٍ قال: لا يزالُ العبدُ في توبةٍ ما لم يعاين الملائكةَ.

وروى أيضًا في «كتاب الموت» بإسنادِه عن أبي موسى الأشعريِّ، قال: إذا عايَنَ الميتُ الملَكَ ذهبتِ المعرفةُ. وعن مجاهد نحوه.

وعن حصينٍ، قالَ: بلغني أنَّ ملَكَ الموتِ إذا غَمَزَ وريدَ الإنسانِ حينئذٍ يشخَصُ بصرُهُ، ويذهَلُ عن الناسِ، وخرَّج ابنُ ماجه(١) حديثَ أبي موسى الأشعريِّ مرفوعًا، قال: سألتُ النبيَّ ﷺ: متى تنقطعُ معرفةُ العبد من الناس؟ قال: «**إذا عاينَ**». وفي إسنادِه مقالٌ. والموقوفُ أشبَهُ، وقد قيل: إنَّه إنَّما مُنع من التوبةِ حينئذ، لأنَّه إذا انقطعتْ معرفتُه وذهَلَ عقلُه، لم يتصوَّر منه ندمٌ ولا عزْمٌ، فإنَّ النَّدمَ والعزمَ إنَّما يصحُّ مع حضورِ العقْل، وهذا ملازمٌ لمعاينةِ الملائكةِ، كما دلَّت عليه هذه الأخبار.

وقولُه ﷺ في حديثِ ابنِ عمرَ: «**ما لم يُغَرْغِر**»، يعني إذا لم تبلُغْ رُوحُه عند خروجِها منه إلى حلْقِه، فشبَّه تردُّدها في حلقِ المحتضرِ بما يتغرْغَرُ به الإنسانُ من الماءِ وغيرِه، ويردده في حلقِه. وإلى ذلكَ الإشارة في القرآن بقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿**فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ**﴾ [الواقعة:٨٣-٨٥]، وبقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿**كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ**﴾ [القيامة:٢٦].

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسنادِه، عن الحسنِ، قالَ: أشدُّ ما يكونُ الموتُ على

(١) ابن ماجه (١٤٥٣).

العبدِ إذا بلغتِ الروحُ التَّراقيَ، قالَ: فعندَ ذلكَ يضطربُ ويعلو نَفَسُهُ ثم بكَى الحسنُ - رحمه اللَّه تعالى.

عِشْ مـا بـدَا لك سـالمًا في ظِلِّ شـاهقـةِ القُـصُـورِ
يُسْـعَى عليـكَ بما اشـتـهـيْـت لـدَى الـرَّواحِ وفي الـبُـكُـور
فـإذا النُّـفـوسُ تقَـعْـقَـعَتْ في ضـيقِ حَشْـرَجَةِ الصُّـدورِ
فـهنـاكَ تعْـلمُ مُـوقِنًـا مـا كـنْتَ إلا فـي غُـرورِ

واعلم؛ أن الإنسانَ ما دامَ يؤملُ الحياةَ فإنه لا يقطعُ أملَه من الدنيا، وقد لا تسمحُ نفسُه بالإقـلاعِ عن لذَّاتِها وشهـواتِها من المعاصِـي وغيرِها، ويُرجِّـيه الشيطان التوبةَ في آخـرِ عُمُرِه، فإذا تيقَّن الموتَ، وأيسَ من الحـياةِ، أفاقَ من سكرته بشـهواتِ الدنيا، فـندِم حينئذٍ عـلى تفريطه ندامـةً يكادُ يقتلُ نفـسَهُ، وطلبَ الرَّجعـةَ إلى الدنيا ليتـوبَ ويعمَلَ صالحًا، فـلا يجابُ إلى شيءٍ من ذلك، فيجتمعُ عليه سكرةُ الموتِ مع حَسْرةِ الفَوْتِ.

وقد حـذَّر اللَّهُ تعالى عـبادَهُ من ذلكَ في كتـابِهِ؛ ليستـعدُّوا للمـوتِ قبلَ نزولِه، بالتوبةِ والعملِ الصالحِ، قال اللَّهُ تعالى: ﴿**وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ**﴾ [الزمر:٥٤ - ٥٦].

سُمِعَ بعضُ المُحْتضرين عند احتضاره يلطِمُ على وجهِه ويقول: ﴿**يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ**﴾ [الزمر:٥٦] وقال آخر عند احتضارِه: سخِرَتْ بي الدنيا حتى ذهبتْ أيامي. وقال آخرُ عند موتِه: لا تغرنَّكُم الحياة الدنيا كما غرَّتني.

وقال اللَّهُ تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]، وقال اللَّهُ تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون:١٠-١١]. قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ:٥٤]، وفسَّره طائفةٌ من السَّلفِ؛ منهم عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ رحمه اللَّه: بأنهم طلبوا التوبةَ حين حِيلَ بينهم وبينها.

قال الحسنُ: اتقِ اللَّه يا ابنَ آدمَ، لا يجتمع عليك خَصْلتانِ، سكْرةُ الموتِ، وحَسْرةُ الفوْتِ.

وقال ابنُ السَّمَّاك: احْذر السَّكرةَ والحَسْرةَ أن يفجأك الموتُ وأنت على الغِرَّةِ، فلا يصفُ واصفٌ قدْرَ ما تلقى ولا قدْرَ ما ترى.

قال الفُضيلُ: يقول اللَّه عزَّ وجلَّ: ابنَ آدمَ، إذا كنتَ تتقلَّب في نِعمتي وأنتَ تتقلَّبُ في معصيتي، فاحْذَرْني لا أصْرعُك بين معاصيَّ.

وفي بعض الإسرائيليات: ابنَ آدم، احْذر لا يأخُذك اللَّهُ على ذنب فتلقاهُ لا حُجَّةَ لك، مات كثير من المُصرِّين على المعاصي على أقبحِ أحوالهم وهم مباشرون للمعاصي، فكان ذلك خزيًا لهم في الدنيا مع ما صاروا إليه من عذاب الآخرةِ. وكثيرًا ما يقعُ هذا للمصرِّين على الخمرِ المدمنينَ لشربِهَا، كما قال القائلُ:

أتأمنُ أيها السَّكرانُ جهْلاً ... بأنْ تفجأكَ في السُّكْر المنيَّة

فتضْحى عِبْرةً للنَّاسِ طُرًّا ... وتلقى اللَّهَ من شَرِّ البريّة

سكر بعضُ المتقدمين ليلةً، فعاتبته زوجتُه على تركِ الصلاةِ، فحلف بطلاقِهَا ثلاثًا لا يُصلِّي ثلاثة أيام، فاشتدَّ عليه فراقُ زوجته، فاستمرَّ على ترك الصلاة مدَّة الأيام الثلاثة، فماتَ فيها على حالِهِ وهو مُصِرٌّ على الخمر، تاركٌ للصلاةِ.

كان بعضُ المصرّين على الخمر يُكنى أبا عمرٍو، فنام ليلةً وهو سكران، فرأى في منامه قائلاً يقول له:

جَدَّ بكَ الأمرُ أبا عمرو وأنْتَ معْكُوفٌ على الخَمْر
تشربُ صَهْباءَ صُرَاحِيَّةً سالَ بكَ السَّيْلُ ولا تدْرِي

فاستيقظ منزعجًا وأخبر مَن عنده بما رأى، ثم غلبَه سُكْرُه فنامَ، فلمَّا كان وقتُ الصُّبح مات فجأة.

قال يحيى بن معاذٍ: الدنيا خمرُ الشيطان، من سكرَ منها لم يُفقْ إلا في عسْكَر الموتى نادمًا مع الخاسرين.

وفي حديثٍ خرَّجه الترمذيُّ مرفوعًا(١): «**ما من أحدٍ يموتُ إلا نَدِمَ**» قالوا: وما ندامتُه؟ قال: «**إنْ كان مُحْسِنًا ندِمَ أن لا يكون ازداد، وإن كان مسيئًا ندِمَ أن لا يكون استعتَبَ**».

إذا ندم المحسنُ عندَ الموتِ فكيفُ يكون حالُ المسيء. غايةُ أمنيَّةِ الموتى في قبورِهم حياةُ ساعةٍ يستدركون فيها ما فاتهم من توبةٍ وعملٍ صالحٍ، وأهلُ الدنيا يفرِّطون في حياتِهم فتذهبُ أعمارُهم في الغفْلَةِ ضياعًا، ومنهم من يقطَعُها بالمعاصي.

(١) الترمذي (٢٤٠٣).

قال بعضُ السلفِ: أصبحتُم في أمنيَّةِ ناسٍ كثيرٍ، يعني أنَّ الموتَى كلَّهم يتمنَّون حياةَ ساعةٍ، ليتوبوا فيها ويجتهدُوا في الطَّاعةِ، ولا سبيل لهم إلى ذلك، وقد أنشدَ بعضُهُم:

لو قيلَ للقومِ ما مُنَاكُم طلَبُوا حياةَ يومٍ ليتوبُوا فاعْلَمِ
ويْحَكِ يا نَفْسُ ألا تيقُّظٌ ينْفَعُ قبلَ أن تزِلَّ قدمِي
مضى الزَّمان في توانٍ وهَوَى فاسْتدْركي ما قدْ بقي واغْتنمِي

الناسُ في التوبة على أقسامٍ:

فمنهم: من لا يوفَّقُ لتوبة نصوحٍ، بل ييسَّر له عملُ السَّيِّئات من أوَّل عُمُره إلى آخره حتى يموتَ مُصراًّ عليها، وهذه حالةُ الأشقياء. وأقبحُ من ذلك من يُسِّر له في أوَّلِ عمرِه عملُ الطاعاتِ، ثم خُتِمَ له بعملٍ سيِّءٍ حتى ماتَ عليه، كما في الحديثِ الصحيحِ(١): «**إنَّ أحدكم ليَعْملُ بعملِ أهلِ الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبقُ عليه الكتابُ فيعمَلُ بعملِ أهلِ النار فيدخُلُها**».

وفي الحديثِ الذي خرَّجه أهلُ السننِ(٢): «**إنّ العبدَ ليعْملُ بعملِ أهلِ الجنةِ سبعينَ عامًا، ثم يحضرُه الموتُ فيجورُ في وصيتِه فيدخلُ النارَ**».

ما أصعبَ الانتقال من البصرِ إلى العَمَى، وأصعبُ منه الضلالةُ بعد الهُدى، والمعصيةُ بعد التُّقى. كم من وجوهٍ خاشعةٍ وُقِّعَ على قصصِ أعمالِها: ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [الغاشية:٣-٤]، كم من شارَفَ مركَبُهُ

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ١٥٢)، ومسلم (٨/ ٤٤).
(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٢٧٨)، وأبو داود (٢٨٦٧)، والترمذي (٢١١٧)، وابن ماجه (٢٧٠٤).

ساحِلَ النَّجـاة، فلمَّا همَّ أن يرْتَقِي لعِبَ به موْجُ الهوى فـغرق. الخلْقُ كلُّهم تحت هذا الخطرِ. قلوبُ العبـادِ بينَ أصبعينِ من أصابعِ الرحمنِ يُقلِّبـها كيف يشاءُ.

قال بعضُهُم: ما العجبُ ممن هلكَ كيفَ هلكَ، إنَّما العجب ممن نجا كيف نجا، وأنشدَ:

يـا قـلـبُ إلام تـطـالـبُـنـي بلِقـا الأحـبـابِ وقـدْ رحَلُوا
أرسـلـتُـك فـي طـلـبـي لـهُـمُ لـتـعـودَ فـضِـعْتَ ومـا حَـصَلُوا
سلِّـمْ واصْـبِـرْ واخـضـعْ لـهُـمُ كمْ قـبْلَكَ مِـثـلكَ قـدْ قَـتَلُوا
مـا أحـسـنَ مـاعلَّقْـتَ به آمـالَـك مِنْـهُمْ لـو فـعـلوا

وقسمٌ: يفنى عمرُهُ في الغفلةِ والبطالة، ثم يوفَّقُ لعملٍ صالحٍ فيموت عليه، وهذه حـالة من عملَ بعـملِ أهل النار حـتى ما يكون بينه وبينهـا إلا ذراع، فيسبق عليه الكتابُ فيعمَلُ بعملِ أهل الجنة فيدخلها.

الأعمالُ بالخواتيم، وفي الحديثِ: «**إذا أراد اللَّهُ بعبدٍ خـيراً عسَلَه**» قالوا: وما عسْلُه؟ قال: «**يوفِّقه لعملٍ صالحٍ ثم يقبضُهُ عليه**»[1].

وهؤلاء منهم من يوقَظُ قبل موته بمدَّةٍ يتمكَّن فيها من التزوُّد بعملٍ صالحٍ، يختم به عمرَه، ومنهم من يُوقَظُ عندَ حضورِ الموت فيُوفَّقُ لتوبةٍ نصوحٍ يموت عليها.

قالتْ عـائشة ﵂: إذا أرادَ اللَّه بعبدٍ خـيرًا قيَّضَ له ملَكًا قبل مـوتِهِ بعامٍ

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/ ٢٠٠)، وابن حبان (٣٤٢، ٣٤٣)، والبزار (٢١٥٥ ـ كشف)، والحاكم (١/ ٣٤٠)، والطبراني في «الأوسط» (٣٢٩٨)، (٤٦٥٦).

فيُسدِّدُه وييسِّرُه حتى يموتَ وهو خير ما كان، فيقولُ الناسُ: ماتَ فلانٌ خير ما كان.

وخرَّجه البزارُ عنها مرفوعًا[(١)]، ولفظُه: «إذا أراد اللَّه بعبدٍ خيرًا بعثَ إليه ملَكًا من عامهِ الذي يموتُ فيه فيُسَدِّدُه وييسِّره، فإذا كان عند موته أتاه مَلَكُ الموت فقعد عند رأسه، فقالَ: أيتها النفس المطمئنة اخْرُجي إلى مغفرة من اللَّهِ ورضوانٍ، فذلك حين يُحبُّ لقاءَ اللَّه ويحبُّ اللَّهُ لقاءَه، وإذا أرادَ اللَّهُ بعبدٍ شرًّا بعثَ إليه شيطانًا من عامهِ الذي يموتُ فيه فأغواهُ، فإذا كان عند موته أتاه ملكُ الموتِ فقَعَدَ عند رأسه، فقال: أيتها النفس الخبيثةُ، اخْرُجي إلى سخط من اللَّهِ وغضبٍ، فتتفرَّق في جسده، فذلكَ حين يُبغضُ لقاءَ اللَّهِ، ويُبْغِضُ اللَّه لقاءَه» وفي الدعاء المأثورِ: «اللَّهُمَّ، اجعلْ خير عملي خاتمتَه، وخير عُمري آخرَه»[(٢)].

وفي «المسند»[(٣)] عن عبدِ اللَّهِ بن عمرِو بن العاص، قالَ: من تاب قبْلَ موْتِهِ عامًا تِيبَ عليه، ومن تاب قبل موتِه شهرًا تِيبَ عليه، حتى قال: يومًا، حتى قال: ساعةً، حتى قال: فُوَاقًا. قالَ: قال له إنسانٌ: أرأيتَ إن كان مشركًا فأسلمَ؟ قال: إنما أحدثُكم ما سمعتُ من رسولِ اللَّهِ ﷺ.

وفيه[(٤)] أيضًا، عن عبد الرحمنِ البَيْلمانيّ، قال: اجتمعَ أربعةٌ من أصحاب رسولِ اللَّهِ ﷺ، فقال أحدُهم: سمعْتُ رسولَ اللَّهِ يقولُ: «إنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ يقبلُ توبةَ العبْدِ قبلَ أن يموت بيومٍ» قال الآخر: أنتَ سمعتَ هذا من رسولِ اللَّهِ

---

(١) لم أجدْه عند البزار.

(٢) أخرجه: ابن السنيِّ رقم (١٢٠) عن أنس مرفوعًا بلفظ: «اللهم اجعل خير عمري آخره، وخير عملي خواتمه، واجعل خير أيامي يوم ألقاك».

(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٢٠٦).

(٤) السابق (٣/ ٤٢٥).

ﷺ؟ قال: نعم، قال: وأنا سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «**إنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ يقبل توبة العبدِ قبل أن يموتَ بنصف يوم**». فقال الثالثُ: أنتَ سمعتَ هذا من رسولِ اللَّه ﷺ؟ قال: نعم، قال: وأنا سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «**إن اللَّه عزَّ وجلَّ يقبَلُ توبةَ العبدِ قبل أن يموتَ بضَحْوَةٍ**» قال الرابع: أنتَ سمعتَ هذا من رسولِ اللَّه ﷺ؟ قال: نعم، قال: وأنا سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول: «**إن اللَّه عزَّ وجلَّ يقبل توبةَ العبدِ ما لم يُغَرْغِرْ بنفسه**».

وفيه(١) أيضًا: عن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**إنَّ الشيطان، قال: وعِزَّتك يا رب، لا أبرحُ أُغوِي عبادَك ما دامتْ أرواحُهم في أجسادِهِم. فقال الربُّ عزَّ وجلَّ: وعِزَّتي وجلالي، لا أزالُ أغفِرُ لهم ما استغفروني**».

ذكر ابن أبي الدنيا بإسناد له: أنَّ رجلاً من ملوكِ البصرةِ كان قد تَنَسَّك، ثمَّ مالَ إلى الدنيا والشيطان فبنى دارًا وشيَّدها، وأمر بها ففُرِشتْ له ونُجِّدَتْ، واتَّخذ مأدُبةً، وصنع طعامًا ودعا الناس، فجعلوا يدخلون فيأكلون ويشربونَ وينظرونَ إلى بنائه ويعجبون منه، ويدْعُون له ويتفرَّقون، فمكث بذلك أيامًا حتى فرغَ من أمر الناس. ثم جلسَ في نفرٍ من خاصَّة إخوانه، فقال: قد ترون سُروري بدارِي هذه، وقد حدَّثت نفسِي أن أتخذ لكلٍّ واحدٍ من ولدي مثلَها، فأقيموا عندِي أيامًا أستمتع بحديثِكم وأشاوركم فيما أريدُ من هذا البناءِ لولدي، فأقاموا عنده أيامًا يلْهُون ويلعبون ويشاوِرُهم كيف يبني لولده، وكيف يريد أن يصنع، فبينما هم ذات ليلةٍ في لهوِهِم إذ سمعوا قائلاً يقولُ من أقاصي الدَّار:

(١) السابق (٣/ ٢٩) وهو قطعة من حديث طويل.

يا أيهـا البـاني النَّاسِي مَنِيَّتَـه لا تأمـنَنَّ فـإنَّ المـوتَ مكتُـوبُ
على الخـلائِق إن سُرُّوا وإنْ فـرِحوا فالموتُ حـتْفٌ لذي الآمالِ مـنصُوبُ
لا تبـنينَّ ديارًا لـسْتَ تسْكُنُهـا وراجِعِ النُّسْك كـيما يغفـرَ الحُوبُ

قال: ففزع من ذلك وفـزع أصحابه فزعًا شديدًا، وراعَهُم مـا سمعوا من ذلك، فقـال لأصحابـه: هل سمِعْـتم ما سمِعْتُ؟ قالوا: نعم، قـال: فهل تجدون ما أجدُ؟ قالوا: وما تجدُ؟ قال: أجد واللَّه مسْكة على قلبي ما أراها إلا علَّة الموت، قالوا: كلا، بل البقاءُ والعافـية، قال: فبكَى وقال: أنتم أخلائي وإخوانـي فمـا لي عندكُم؟ قالوا: مُـرْنا بما أحببتَ. قال: فـأمر بالـشراب فأُهريق، وبالملاهي فـأُخرجت، ثم قـال: اللَّهُمَّ إني أشهدُك ومن حـضر من عبـادِك أني تائبٌ إليك من جمـيع ذنوبي، نادم على ما فرطْـت أيام مُهلتي، وإياك أسـألُ إن أقلْتَني أن تُتِمَّ عليَّ نعـمـتك بالإنابةِ إلى طاعـتِك، وإن أنت قبضتني إليك أن تغفرَ لي ذنوبي تـفضلاً منك عليَّ، واشتدَّ به الأمرُ فلم يزلْ يقول: الموتُ واللَّهِ، الموتُ واللَّهِ، حتى خرجتْ نفـسُه فكان الفقهاء يرون أنه مات على توبةٍ.

وروى الواحدي في كـتابِ «قتلى القرآنِ» بإسنادٍ له، أن رجـلاً من أشراف أهلِ البصرةِ كان مُنحدرًا إليها في سفـينةٍ ومعه جاريةٌ له، فشربَ يومًا، وغنَّتْهُ جاريتـه بعودٍ لها، وكـان معهم في السفـينة فقيـرٌ صالحٌ، فقـال له: يا فتى تُحسِنُ مثل هذا؟ قال: أُحْسِنُ ما هو أحسن منه، وكان الفقيرُ حسنَ الصوت، فاستفتح وقرأ: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٧-٧٨]، فرمَى

الرَّجُلُ ما بيده من الشرابِ في الماء، وقال: أشهدُ أن هذا أحسنُ مما سمعت، فهل غير هذا؟ قال: نعم فتلا عليه: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ الآية [الكهف:٢٩]، فوقعت من قلبه موْقعًا، ورمَى بالشرابِ وكسر العُودَ، ثم قال: يا فتى هل هنا فرجٌ؟ قال: نعم: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ الآية [الزمر:٥٣]. فصاح صيْحة عظيمةً، فنظروا إليه فإذا هو قد ماتَ ـ رحمه اللَّه.

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسنادٍ له أنَّ صالحًا المُرِّيَّ ـ رحمه اللَّه ـ كان يومًا في مجلسِه يقُصُّ على الناس، فقرأ عنده قارئ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[غافر:١٨]، فذكر صالحٌ النار وحالَ العصاة فيها، وصِفَةَ سياقهم إليها، وبالغ في ذلك وبكى الناس، فقام فتًى كان حاضرًا من مجلسِه، وكان مسرفًا على نفسه، فقال: أكُلُّ هذا في القيامة؟ قال صالح: نعم، وما هو أكثر منه، لقد بلغني أنَّهم يصرخُون في النار حتى تنقطع أصواتُهم فلا يبقى منهم إلا كهيئة الأنينِ من المريضِ المدنَفِ، فصاح الفتى: يا للَّه وا غفْلتاهُ عن نفسِي أيامَ الحياة، وا أسفاهُ على تفريطي في طاعتك يا سيداهُ وا أسفاه على تضييع عمري في دارِ الدنيا ثم استقبلَ القِبْلَةَ، وعاهَدَ اللَّهَ على توبةٍ نصوحٍ، ودعا اللَّهَ أن يتقبَّلَ منه وبكى حتى غُشي عليه، فحُملَ من المجلسِ صريعًا، فمكث صالحٌ وأصحابه يعودُونه أيامًا، ثم مات، فحضره خَلْقٌ كثيرٌ، فكان صالح يذكره في مجلسِهِ كثيرًا، ويقول: وبأبي قتيل القرآن؟ وبأبي قتيلَ المواعظِ والأحزانِ؟ فرآه رجل في منامِهِ، فقال: ما صنعتَ؟ قال: عمَّتْني بركةُ مجلس صالحٍ فدخلتُ في

سعة رحمة اللَّه التي ﴿وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦].

من آلمته سياطُ المواعظِ فصاح فلا جناح، ومن زاد ألمه فمات فدمُهُ مباح.
قضى اللَّهُ في القتْلى قصاصَ دمائهم ولكن دمـــاء العـاشـــقين جُـــبَـارُ

وبقي ها هنا قسمٌ آخرُ، وهو أشرفُ الأقسامِ وأرفعُها، وهو من يُفْني عمرَه في الطاعة، ثمَّ يُنبَّـه على قرْبِ الأجلِ، ليـجدَّ في التزوُّدِ ويتـهيَّأ للرحـيلِ بعملٍ صالحٍ للقاء، ويكونُ خاتمةً للعـملِ قال ابنُ عباسٍ: لما نزلتْ على النبيِّ ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر:١]، نُعيتْ لرسولِ اللَّه ﷺ نفسُه، فأخذ في أشدّ ما كان اجتهادًا في أمر الآخرة[١].

قالت أم سلمةَ: كان النبيُّ ﷺ في آخرِ أمرِه لا يقومُ ولا يقعُد ولا يذهبُ ولا يجيءُ إلا قال: «**سبحان اللَّه وبحمدِه**» فذكرتُ ذلك له، فقال: «**إني أمِرتُ بذلك**» وتلا هذه السورة[٢].

وكان من عادتِه أن يعتكفَ في كُلِّ عامٍ في رمـضانَ عشرًا، ويعرضُ القرآنَ على جبـريلَ مرَّة، فـاعتكف في ذلك العـامِ عشـرين يومًا، وعـرض القرآنَ مرَّتينِ، وكان يقولُ: «**ما أرى ذلك إلا لاقـترابِ أجلي**»[٣] ثم حجَّ حجةَ الوداع، وقال للناس: «**خذوا عنِّي مناسـككم، فلعلي لا ألقاكم بعـد عامي هذا**»[٤]. وطفقَ يودِّعُ الناسَ، فـقالوا: هذه حجَّـةُ الوداع، ثم رجع إلى المدينةِ فخـطبَ قبل وصولِه إليـها، وقال: «**أيهـا الـناس إنَّمـا أنا بشـر، يُوشِكُ أن يأتيَني رسـولُ ربِّي**

(١) أخرجه: الطبري في «التفسير» (٣٠/ ٣٣٤). (٢) السابق (٣٠/ ٣٣٥).
(٣) أخرجه: البخاري (٤/ ٢٤٧)، (٨/ ٧٩)، ومسلم (٧/ ١٤٢ ـ ١٤٣) عن عائشة من حديث طويل بلفظ: «**ولا أراني إلا قد حضر أجلي**».
(٤) أخرجه: مسلم (٤/ ٧٩)، وأبو داود (١٩٧٠) من حديث جابر بن عبد اللَّه.

فأجيبَ»[١] ، ثم أمر بالتمسُّكِ بكتابِ اللَّه، ثم توفي بعد وصولِه إلى المدينةِ بيسير ﷺ.

إذا كان سيِّدُ المحسنينَ يُؤمَرُ أن يختِمَ عمرَه بالزِّيادة في الإحسان فكيف يكون حالُ المسيء. دُو بيْت:

خُذْ في جد فقد تولَّى العُمُر كم ذا التفريطُ قد تدانى الأمرُ
أقبِل فعسى يُقبلُ منك العُذْر كم تبني كم تنقضُ كم ذا الغَدْرُ

مرض بعضُ العابدينَ فوُصِف له دواءٌ يشربُه، فأُتي في منامه فقيل له: أتشربُ الدواء والحورُ العينُ لك تُهَيّأ؟ فانتبه فزِعًا، فصلَّى في ثلاثة أيام، حتى انحنى صُلْبُه، ثم ماتَ في اليوم الثالثِ.

وكان رجلٌ قد اعتزل وتعبَّد، فرأى في منامِه قائلاً يقول له: يا فلان ربُّك يدعوك فتجهَّزْ واخْرُج إلى الحجِّ، ولسْتَ عائدًا، فخرج إلى الحجِّ فماتَ في الطريقِ.

رأى بعضُ الصالحينَ في منامِهِ قائلاً يُنشدُهُ:

تأهَّبْ للذي لا بُدَّ منه من الموت المُوَكَّل بالعبادِ
أترضى أن تكون رفيق قومٍ لهُمْ زادٌ وأنتَ بغير زادٍ

خرَّج ابنُ ماجه[٢] من حديثِ جابرٍ، أنَّ النبيَّ ﷺ خطب، فقال في خطبته: **«أيَّها الناس، توبوا إلى ربِّكم قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الصالحة قبل أن تُشْغَلُوا»**.

---

(١) أخرجه: مسلم (٧/ ١٢٢).
(٢) ابن ماجه (١٠٨١).

وفي سنده ضعف، فـأمرَ بالمبادرةِ بالتوبةِ قبل الموت، وكـلُّ ساعةٍ تمرُّ على ابنِ آدمَ فإنَّه يمكنُ أن تكون ساعة موتِهِ، بل كلُّ نفسٍ، كما قِيل:

لا تأمَـن الموتَ في طرف ولا نـفَسٍ   ولو تمنَّعْتَ بالحُـجَّابِ والحَـرَسِ

قال لقـمانُ لابنِهِ: يا بني، لا تؤخِّـر التوبةَ، فـإنَّ الموتَ يأتي بغتـةً، وقالَ بعضُ الحكماءِ: لا تكـنْ ممن يرجُو الآخرةَ بغـير عملٍ، ويؤخِّـرُ التوبةِ لطولِ الأملِ.

إلى اللَّه تب قبل انقضـاءٍ من العمر   أُخَيَّ ولا تأمَنْ مـفـاجـأة الأمـر
ولا تستـصمَّنْ عـن دُعائي فـإنَّمـا   دعـوتُك إشـفـاقًـا عليك من الوزرِ
فـقـد حَـذَّرَتْك الحـادثاتُ نزولهـا   ونادَتْك إلا أنَّ سـمـعَكَ ذو وَقْـرِ
تَنُوحُ وتبكـي للأحـبَّـة إن مـضَـوا   ونفْـسَكَ لا تبكـي وأنتَ على الإثْرِ

قال بعضُ السلف: أصبِحُوا تائبين، وأمسُوا تائبين، يشير إلى أنَّ المؤمن لا ينبغي أن يُصبح ويُمسي إلا على توبةٍ، فإنه لا يدري متى يفجأه الموتُ صباحًا أو مساءً، فمن أصبح أو أمسى على غـير توبة، فهو على خطرٍ، لأنه يُخشى أن يلقَى اللَّه غير تائب، فيُحشر في زمرة الظالمين، قال اللَّه تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾ [الحجرات: ١١].

تُبْ من خطـاياكَ وابْكِ خـشْـيَـةً   مـا أثبـت منهـا عليك فـي الكُتُبِ
أيَّةُ حـالٍ تـكون حـالَ فـتًى   صـارَ إلـى ربِّـه ولـم يتُـبِ

تأخيرُ التوبةِ في حال الشباب قبيحٌ، ففي حال المشيبِ أقبْحُ وأقبَحُ.

نَعَى لك ظِـلَّ الشبـابِ المشـيبُ   ونادتْـكَ باسمِ سـواكَ الخـطوبُ

فكُنْ مستعدًا لداعِي الفنا   فكُلُّ الذي هو آتٍ قريبُ
ألسْنا نَرَى شهواتِ النُّفو   سِ تفْنَى وتبقى علينا الذُّنوبُ
يخافُ على نفسِهِ من يتوبُ   فكيفَ يكنْ حالُ من لا يتوبُ

فإن نزلَ المرضُ بالعبدِ فتأخيرُهُ للتوبةِ حينئذٍ أقبحُ من كلِّ قبيحٍ، فإنَّ المرضَ نذيرُ الموتِ، وينبغي لمن عادَ مريضًا أن يذكره التوبةَ والاستغفارَ، فلا أحسنَ من ختامِ العملِ بالتوبةِ والاستغفارِ، فإنْ كان العملُ سيئًا كان كفَّارةً له، وإنْ كان حسنًا كان كالطابَعِ عليه.

وفي حديثِ «سيد الاستغفارِ» المخرَّجِ في «الصحيحِ»(١) أنَّ من قاله إذا أصبح وإذا أمسَى، ثم ماتَ من يومِهِ أو ليلتِهِ، كان من أهلِ الجنةِ، وليُكْثِرْ في مرضِهِ من ذكر اللَّهِ عزَّ وجلَّ، خصوصًا كلمةَ التوحيدِ، فإنَّه من كانتْ آخرَ كلامِهِ دخل الجنة.

وفي حديثِ أبي سعيد وأبي هريرةَ ﭬ، عن النبيِّ ﷺ أنه: **«من قالَ في مرضِهِ: لا إله إلا اللَّهُ، اللَّهُ أكبرُ، لا إله إلا اللَّهُ وحده لا شريكَ لهُ، له الملكُ وله الحمدُ، لا إله إلا اللَّهُ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللَّه، فإنْ مات من مرضِهِ لم تطْعَمْهُ النار»** خرَّجه النسائي وابنُ ماجه والترمذيُّ وحسَّنه(٢).

وفي روايةٍ للنسائيّ(٣): **«من قالَهُنَّ في يومٍ أو في ليلةٍ أو في شهرٍ، ثم ماتَ في ذلك اليومِ أو في تلك الليلةِ، أو في ذلك الشهرِ، غُفرَ له ذنبُه»** ويُروى من حديث حذيفةَ عن النبيِّ ﷺ قال: **«من خُتم له بقولِ لا إله إلا اللَّهُ دخلَ الجنة، ومن خُتِمَ له**

---

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ٨٣)، والترمذي (٣٣٩٣)، والنسائي (٨/ ٢٧٩).
(٢) أخرجه: النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٣٠)، وابن ماجه (٣٧٩٤)، والترمذي (٣٤٣٠).
(٣) «عمل اليوم والليلة» (٢٩).

بصيام يومٍ أراد به وَجْهَ اللَّه أدخله اللَّه الجنة، ومنْ خُتِمَ له بإطعام مسكينٍ أراد به وجه اللَّه أدخله اللَّه الجنةَ».

كان السلف يرون أن من مات عقيبَ عملٍ صالح، كصيامِ رمضانَ، أو عقيبَ حجٍّ أوعمرةٍ، أنَّه يُرجَى له أن يدخل الجنة، وكانوا مع اجتهادهم في الصحة في الأعمالِ الصالحةِ يجددون التوبةَ والاستغفارَ عندَ الموتِ، ويختمُونَ أعمالهم بالاستغفارِ وكلمةِ التوحيدِ.

لما احتُضِر العلاءُ بن زيادٍ، بكَى، فقيلَ له: ما يُبكيك؟ قال: كنْتُ واللَّهِ أحبُّ أن أستقبلَ الموتَ بتوبةٍ. قالوا: فافعلْ رحمك اللَّه، فدعا بطَهُور فتطهَّر، ثم دعا بثوبٍ له جديدٍ فلبسه، ثم استقبلَ القبلةَ، فأومأ برأسه مرتينِ أو نحو ذلك، ثم اضطجع ومات.

ولما احتُضِرَ عامر بن عبد اللَّه بكى، وقال: لمثل هذا المصرعِ فليعملِ العاملونَ، اللَّهُمَّ إنِّي أستغفرك من تقصيرِي وتفريطي، وأتوبُ إليك من جميع ذنوبي، لا إله إلا اللَّهُ، ثم لم يزل يردِّدُها حتى ماتَ ـ رحِمَه اللَّهُ.

وقال عمرو بن العاص ـ رحمه اللَّهُ ـ عند موتِهِ: اللَّهُمَّ أمرتنا فعصينْا، ونهيتنا فركبنا، ولا يسعُنا إلا عفوُك، لا إله إلا اللَّهُ، ثم ردَّدها حتى مات.

وقال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ ـ رحمهُ اللَّهُ ـ عند موتِهِ: أجلِسُوني، فأجلسُوه، فقالَ: أنا الذي أمرْتَني فقصَّرْتُ، ونهيتني فعصيْتُ، ولكن لا إله إلا اللَّهُ، ثم رَفَعَ رأسه فأحَدَّ النظرَ، فقالُوا له: إنَّك تنظرُ نظرًا شديدًا يا أميرَ المؤمنين، قال: إنِّي أرى حضرةً ما هم بأنس ولا جنّ، ثم قُبِضَ رحمةُ اللَّهُ عليه، وسمعوا تاليًا يتلو: ﴿ **تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا**

﴿فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

يا غـافِل القلْـبِ عن ذِكْـرِ المَنِيَّـاتِ   عـمَّـا قليل سـتـثْـوي بين أمْـواتِ
فـاذكُرْ مَـحَلَّكَ مِن قـبْلِ الحُلُول به   وتُبْ إلـى اللَّهِ منْ لـهـــوٍ ولذَّاتِ
إنَّ الحـــمـــامَ لهُ وقْتٌ إلـى أجَلٍ   فـاذْكُـرْ مـصـائبَ أيَّامٍ وسـاعـاتِ
لا تطمـــئنَّ إلى الدنيـــا وزينتـــهـــا   قدْ حـانَ للموْتِ يا ذا اللبِّ أن ياتِي

التَّوبةَ التـوبةَ قبل أن يصل إليكم من الموت النَّوْبـة، فيحـصلُ المفرطُ على الندمِ والخيبةِ.

الإنابةَ الإنابةَ قبل غَلْقِ بابِ الإجابةِ، الإفاقةَ الإفاقةَ فقد قرُبَ وقْتُ الفاقَة، ما أحسنَ قلقَ التُّوَّاب! ما أحْلَى قدومَ الغُيَّابِ! ما أجملَ وقوفَهم بالبابِ!.

أسـأتُ ولم أُحْـسنُ وجئـتُك تائبًـا   وأنَّى لعـبْـدٍ مـن مـواليـه مـهْـرَبُ
يُؤَمِّلُ غُـــفـرانًـا فـإنْ خـــابَ ظَنُّه   فـما أحَـدٌ منه على الأرضِ أخـيَبُ

من نزلَ به الشيبُ فهو بمنزلةِ الحاملِ التي تمَّتْ شهورُ حَمْلِها، فما تنتظر إلا الولادةَ، كذلك صاحبُ الشيبِ لا ينتظر غير الموت، فقبيحٌ منه الإصرارُ على الذنبِ.

أيُّ شـيءٍ تُـريـدُ مـنِّي الـذُّنـوبُ   شَـغُـفَتْ بي فـليس عنِّي تَغـيـبُ
مـا يضـرُّ الذُّنوبَ لو أعـتـقـتني   رحـمـةً بي فـقـد عـلاني المشـيبُ

ولكن توبة الشـابِّ أحسنُ وأفـضلُ، في حـديث مرفـوعٍ خرَّجـه ابنُ أبي الدنيا: **«إنَّ اللَّه يحبُّ الشابَّ التائبَ»**، قال عُمير بن هانئٍ: تقول التوبةُ للشابِ: أهلاً ومرحبًا، وتقول للشيخِ: نقبَلُكَ على ما كان منك.

الشابُّ تركَ المعصيةَ مع قوَّةِ الدَّاعِي إليها، والشيخُ قد ضعُفتْ شهوتُه وقلّ داعيـه فلا يستويـانِ، وفي بعض الآثار، يقول اللَّهُ عزَّ وجلَّ: أيهـا الشابُّ، التارك شهوتَه، المبتذِلُ شبابَه لأجلي، أنتَ عندي كبعضِ ملائكتي.

قال عـمرُ بنُ الخطابِ ﷺ: إنَّ الذين يشتـهونَ المعاصِي ولا يعـملونَ بها ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الحجرات:٣] كم بين حالِ الذي ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف:٢٣]، وبين شيخ عِنِّين يُدعَى لمثلِ ذلك فيجيبُ.

كان عمرُ يَعُسُّ بالمدينةِ فسمعَ امرأةً غابَ عنها زوجُها تقولُ:

تطاولَ هذا الـليلُ واسْـوَدَّ جـانبُـه ... وأرَّقنـي أن لا خليـلٌ ألاعِـبُـه
فـوالـلَّهِ لولا اللَّه لا شيءَ غـيـرُهُ ... لَحُـرِّكَ مـن هذا السَّرير جـوانبُـه
ولكن تقْـوى اللَّهِ عنْ ذا تَصُـدُّني ... وحِـفظًا لبَـعْـلي أن تنالَ مـراكبُـه
ولكنَّني أخْـشَى رَقـيـبًـا مـوكَّـلاً ... بأنْفُـسِنا لا يَفْـتُـرُ الدَّهْرَ كـاتـبُـه

فقال لها عمرُ: يرحمك اللَّهُ، ثم بعثَ إلى زوجـها فأمره أن يقدُمَ عليها، وأمَرَ أن لا يغيبَ أحدٌ عن امرأته أكثر من أربعة أشهر وعشراً.

الشيخُ قد تركته الذنوب فلا حمدَ له على تركها، كما قيل:

تاركَـكَ الذنبُ فـتـاركْـتَـهُ ... بالفـعْلِ والشـهَـوْةُ في الـقلبِ
فـالحَـمْـدُ للذَّنْبِ عـلى تركِـهِ ... لا لـكَ فـي تـركِـكَ لـلـذَّنْبِ

أما تستحِي منا لما أعـرضَتْ لذَّاتُ الدُّنيا عنك فلم يبقَ لك فـيها رغـبةٌ، وصِرْتَ من سَـقَطِ المتاعِ لا حـاجةَ لأحدٍ فـيك، جئت إلى بابنا فـقلْتَ: أنا

تائبٌ، ومع هذا فكُلٌّ من أوى إلينا آويناه، وكلٌّ من استجارَ بنا أجرْناه، ومن تابَ إلينا أحببناه، أبشر، فربَّما يكون الشَّيبُ شافعًا لصاحبه من العقوباتِ.

مات شيخ كان مفرِّطًا، فرؤي في المنامِ، فقيل له: ما فعلَ اللَّهُ بك، قال: قال لي: لولا أنَّك شيخ لعذَّبْتُك.

وقفَ شيخٌ بعرفةَ والنَّاسُ يضِجُّون بالدُّعاءِ، وهو ساكتٌ، ثم قبض على لحيته، وقال: يا ربِّ، شيخ يا ربِّ، شيخ يرجُو رحمتك.

لَمَّا أتَوْنا والشَّيْبُ شافعُهُمْ ... وقدْ توالَى عليهم الخَجَلُ
قُلْنا لِسُودِ الصَّحائفِ انقلِبي ... بيضًا فإنَّ الشُّيوخَ قد قُبِلُوا

كان بعضُ الصالحينَ يقولُ:

إنّ الملوكَ إذا شابَتْ عبيدُهُم ... في رِقِّهم عتقُوهُم عِتْقَ أبرارِ
وأنتَ يا خالِقي أوْلى بذا كَرَمًا ... قد شِبْتُ في الرِّقِّ فأعْتِقْني منَ النَّارِ

أيها العاصِي، ما يقطعُ من صلاحِك الطَّمَعُ، ما نصبنا اليومَ شرَكَ المواعِظِ إلا لتقَعُ، إذا خرجتَ من المجلسِ وأنتَ عازمٌ على التوبةِ، قالتْ لك ملائكةُ الرحمةِ: مرحبًا وأهلاً، فإن قال لكَ رفقاؤُك في المعصيةِ: هَلُمَّ إلينا، فقلْ لهُم: كلاَّ، ذاك خَمْرُ الهوى الذي عهدتمُوه قد استحالَ خلاًّ: يا مَن سوَّد كتابَهُ بالسيئاتِ قد آنَ لك بالتَّوبةِ أن تمحُو. يا سكرانَ القلبِ بالشهواتِ أما آن لفؤادِك أن يصحُو.

يا ندامَاي صحَا القلبُ صَحَا ... فاطرُدُوا عنِّي الصِّبَا والمَرَحا
زَجَرَ الوعْظُ فؤادِي فارْعَوى ... وأفاقَ القلْبُ منِّي وصَحَا
هَزَمَ العَزْمُ جُنودًا للهوى ... فاسِدِي لا تعْجَبُوا إن صَلَحَا

بادِرُوا التَّوْبةَ من قبلِ الرَّدى فمُناديه يُنادينا الوَحَا[١]

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾

[قال البخاريُّ]: ويُذْكر: أنَّ عمرَو بن العاصِ أجنبَ في ليلةٍ باردةٍ فتيمَّم، وتلا: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩]، فذكر ذلك للنبيِّ ﷺ فلم يُعنِّف[٢].

حديثُ عمرِو بن العاصِ خرَّجه أبو داود[٣] من روايةِ يحيى بنِ أيُّوبَ، عن يزيدَ بنِ أبي حبيبٍ، عن عِمرانَ بنِ أبي أنَسٍ، عن عبدِ الرحمنِ بن جُبيرٍ، عن عمرِو بنِ العاصِ، قال: احتلمْتُ في ليلةٍ باردةٍ في غزوةِ ذاتِ السَّلاسلِ، فأشفقتُ إن اغتسلْتُ أنْ أهلِكَ، فتيَمَّمْتُ ثم صلَّيْتُ بأصحابي الصُّبْح، فذكرُوا ذلكَ للنبيِّ ﷺ، فقال: «**يا عمرُو، صليتَ بأصحابك وأنت جُنب!**» فأخبرتُه بالذي منَعَني من الاغتسالِ، وقلتُ: إني سمعتُ اللَّهَ يقولُ: ﴿وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩]، فضحِكَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، ولمْ يقُل شيئًا.

وخرَّجه ـ أيضًا[٤] ـ من طريقِ عمرِو بنِ الحارثِ وغيرِه، عن يزيدَ بنِ أبي

(١) «لطائف المعارف» (٥٦٩ ـ ٥٩٠).
(٢) البخاري (١/ ٩٥).
(٣) «السنن» (٣٣٤). (٤) «السنن» (٣٣٥).

حبيبٍ، عن عِمرانَ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ جُبَيْرٍ، عن أبي قَيْسٍ مولى عمرِو ابنِ العاصِ، أن عمرَو بن العاصِ كانَ على سَرِيَّة - فذكر الحديثَ بنحوه، وقال فيه: فغسلَ مَغابِنَه وتوضَّأ وضوءه للصلاةِ، ثم صلَّى بهم - وذكر باقيه بنحوه، ولم يذكرِ التيممَ.

وفي هذه الروايةِ زيادةُ: «أبي قيسٍ» في إسنادِه، وظاهرُهَا الإرسالُ.

وخرَّجه الإمامُ أحمدُ والحاكمُ(١)، وقال: على شرط الشيخينِ، وليس كما قالَ، وقال أحمدُ: ليس إسنادُه بمتصلٍ.

وروى أبو إسحاقَ الفزاريُّ في «كتابِ السيرِ» عن الأوْزاعيِّ، عن حسَّان بنِ عطيّةَ، قال: بعَثَ النبيُّ ﷺ بعْثًا وأمَّر عليهم عمرَو بنَ العاصِ، فلما أقبلوا سألهم عنه، فأثْنَوْا خيرًا، إلا أنه صلَّى بنا جُنُبًا، فسأله، فقال: أصابتْني جنابةٌ فخشيتُ على نفسي من البردِ، وقد قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: ٢٩] فتبَسَّمَ النبيُّ ﷺ.

وهذا مرسلٌ.

وقد ذَكَره أبو داودَ في «سننِه»(٢) تعليقًا مختصرًا، وذكر فيه: أنه تيمَّمَ.

وأكثرُ العلماءِ: على أن من خافَ من استعمالِ الماءِ لشدةِ البردِ فإنه يتيمم ويصلِّي، جُنُبًا كان أو مُحْدِثًا.

واختلفوا: هل يُعِيد أم لا؟

فمنهُم من قالَ: لا إعادةَ عليه، وهو قولُ الثوريِّ، والأوْزاعيِّ، وأبي

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/ ٢٠٣)، والحاكم (١/ ١٧٧).
(٢) (١/ ٢٣٩).

حنيفةَ، ومالكٍ، والحسنِ بنِ صالحٍ، وأحمدَ في روايةٍ.

ومنهم من قال: عليه الإعادةُ بكلِّ حالٍ سواءٌ كان مسافرًا أو حاضرًا، وهو قولُ الشافعيِّ، وروايةٌ عن أحمدَ.

ومنهم من قالَ: إن كانَ مسافرًا لم يُعد، وإن كانَ حاضِرًا أعادَ، وهو قولٌ آخرُ للشافعيِّ، وروايةٌ عن أحمدَ، وقولُ أبي يوسف ومحمدٍ.

وحكى ابنُ عبدِ البرِّ عن أبي يوسفَ وزُفَرَ: أنه لا يجوزُ للمريضِ في الحضرِ التيممُ بحالٍ.

وذكرَ أبو بكرٍ الخلاَّلُ من أصحابِنا: أنه لا يجوزُ التيممُ في الحضرِ لشدةِ البردِ، وهو مخالفٌ لنصِّ أحمدَ وسائرِ أصحابِه.

وحكى ابنُ المنذرِ وغيرُه عن الحسنِ وعطاءٍ: أنه إذا وَجَدَ الماءَ اغتسل به وإن ماتَ، لأنه واجدٌ للماءِ، إنما أُمِرَ بالتيمم من لم يجدِ الماءَ.

ونقلَ أبو إسحاق الفزاريُّ في كتابِ «السيرِ» عن سُفيانَ نحوَ ذلك، وأنه لا يتيممُ لمجردِ خوفِ البردِ، وإنما يتيممُ لمرضٍ مخوفٍ، أو لعدمِ الماءِ.

وينبغي أن يُحمل كلامُ هؤلاءِ على ما إذا لم يخْشَ الموتَ، بل أمكنهُ استعمالُ الماء المُسخَّن وإن حصلَ له به بعضُ ضررٍ، وقد رُوِيَ هذا المعنى صريحًا عن الحسنِ - أيضًا - وكذلك نقلَ أصحابُ سفيانَ مذهبَهُ في تصانيفهم، وحكَوا أن سفيان ذكر أن الناسَ أجمعُوا على ذلكَ.

وقد سبقَ الكلامُ في تفسيرِ الآيةِ، وأنَّ اللَّهَ تعالى أذن في التيمّم للمريضِ وللمسافرِ ولمن لم يجدِ الماءِ من أهلِ الأحداثِ مُطلقًا، فمن لم يجدِ الماءَ

فالرخصةُ له محققةٌ(١) .

* * *

وفـرَّق اللَّهُ بين الظلمِ والعُدوانِ، في قـوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيراً﴾ [النساء: ٢٩ - ٣٠].

وقد يُفـرَّقُ بين الظلمِ والعُدوانِ، بـأنَّ الظلمَ: ما كانَ بـغيرِ حقٍّ بالكـليّة، كأخـذ مالٍ بـغيـر استحـقاقٍ لـشيءٍ منه، وقتلِ نفسٍ لا يحلُّ قـتلُهـا، وأمَّا العُدوانُ: فـهو مُجاوزةُ الحـدودِ وتعدِّيهَا فيـما أصلُه مبـاحٌ، مثل أنْ يكونَ له على أحـدٍ حقٌّ من مالٍ أو دمٍ أو عـرضٍ، فـيسـتوفي أكـثـرَ منه، فهـذا هو العُدوانُ، وهو تجاوزُ مـا يجوزُ أخذُه، فيأخذُ ما لَهُ أخـذُهُ وما ليس له أخذُهُ، وهو من أنواعِ الرِّبا المحرَّمةِ.

وقد ورد «السبَّتَانِ بالسبَّةِ رِبًا».

والظلمُ المُطلقُ: أخـذُ مـا ليسَ له أخـذُهُ ولا شيءٍ منه من مـالٍ أو دمٍ أو عرضٍ.

كلاهما في الحقيقةِ ظلمٌ، وقد حرَّم اللَّهُ الظلمَ، وفي «الصحيحِ» عن النبيِّ ﷺ: «يقولُ اللَّهُ: يا عـبادِي، إنِّي حرَّمتُ الظلمَ على نفسِي وجـعلتُه بينكُم محـرَّمًا فلا تظالموا»(٢) .

---

(١) «فتح الباري» (٢/ ٧٨ - ٨٠).

(٢) أخرجه: مسلم (٨/ ١٦ - ١٧)، وأحمد في «المسند» (٥/ ١٦٠).

وفي «الصحيحين[١]» عنه ﷺ قال: «**الظلمُ ظلماتٌ يومَ القيامةِ**».

وفيهما[٢] عنه ﷺ، قالَ: «**إنَّ اللَّهَ يُملي للظالمِ حتَّى إذا أخذَهُ لم يُفلتْه**» ثم قرأ: ﴿**وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾ [هود: ١٠٢].

وفي «البخاري»[٣] عنه ﷺ، قال: «**من كانت عنده مظلمةٌ لأخيه فليتحللْه منها، فإنَّه ليس ثَمَّ دينارٌ ولا دِرْهَمٌ، من قبل أن يُؤخذَ لأخيهِ من حسناتِهِ فإن لم يكنْ له حسناتٌ أُخذ من سيئاتِ أخيه فطُرحتْ عليه**».

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[٤] عنه ﷺ قال: «**أتدرونَ من المفلسُ؟**» قالوا: المُفلسُ من لا درهمَ له ولا متاعَ. قال: «**إنَّ المفلس من أمَّتي من يأتي يومَ القيامةِ بصلاةٍ وصيامٍ وقيامٍ، وقد شتمَ هذا، وأكلَ مالَ هذا، وسفكَ دمَ هذا، وضربَ هذا، فيقضي[٥] هذا من حسناتِهِ وهذا من حسناتِهِ، فإذا فنيتْ حسناتُهُ قبل أنْ يُقضَى ما عليه، أُخِذَ من سيئاتِهِم فطرحتْ عليه، ثم طُرِحَ في النارِ**».

وفي الحديثِ[٦]: «**لتؤدنَّ الحقوقَ إلى أهلها يومَ القيامةِ، حتى يُقادَ للشاةِ الجمَّاءِ من الشاةِ القرناءِ**».

وفي حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ أُنيسٍ: «**وليسألَنَّ الحجرُ لم نكبَ الحجرَ، وليسألَنَّ العُودَ لم خدشَ صاحبَهُ**».

---

(١) البخاري (٣/ ١٦٩)، ومسلم (٨/ ١٨).

(٢) البخاري (٦/ ٩٣)، ومسلم (٨/ ١٩).

(٣) البخاري (٣/ ١٧٠).

(٤) مسلم (٨/ ١٨) عن أبي هريرة.

(٥) لفظ مسلم: «فيُعطَى».

(٦) مسلم (٨/ ١٨ ـ ١٩) عن أبي هريرة.

شعر:

فخف القضاءَ غدًا إذا وافيتَ ما كسبتْ يداك اليومَ بالقسطاسِ
أعضاؤُهُم فيه الشهودُ وسجنُهم نارٌ وحاكمُهم شديدُ الباسِ
في موقفٍ ما فيه إلا شاخصٌ أو مهطعٌ أو مقنعٌ للراسِ
إن تمطلِ اليومَ الحقوقَ مع الغنى فغداً تؤدِّيهَا معَ الإفلاسِ

والظلمُ المحرَّمُ: تارةً يكون في النفوسِ، وأشدهُ في الدماءِ وتارةً في الأموالِ، وتارةً في الأعراضِ، ولهذا قالَ ﷺ في خطبتِه في حجةِ الوداعِ: «**إنَّ دماءَكُم وأموالَكُم وأعراضَكُم عليكم حرامٌ كحرمةِ، يومِكُم هذا في شهركُم هذا في بلدكُم هذا**»[(١)] ، وفي روايةٍ: ثم قال: «**ألا اسمعوا منِّي تعيشُوا، ألا لا تظالموا ألا لا تظالموا، فإنه لا يحلُّ مالُ امرئٍ مسلمٍ إلا عن طيبِ نفْسٍ منه**».

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[(٢)] عنه ﷺ، قالَ: «**كلُّ المسلمِ على المسلمِ حرامٌ دمُهُ وَمالُهُ وعِرضُه**».

فظلمُ العبادِ شرٌّ مكتسبٌ، لأنَّ الحقَّ فيه لآدميّ مطبوع على الشُّحِّ، فلا يتركُ من حقِّه شيئًا لا سِيَّما مع شدةِ حاجتِه يومَ القيامةِ، فإنَّ الأمَ تفرحُ يومئذٍ إذا كانَ لهَا حقٌّ على ولدِهَا لتأخذَهُ منهُ.

ومع هذا: فالغالبُ أنَّ الظالمَ تُعجَّل له العقوبةُ في الدنيا وإنْ أُمهل، كما قالَ ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ يُملي للظالمِ حتَّى إذا أخذَهُ لم يفلتْهُ**» ثم تلا: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ**﴾[(٣)] [هود:١٠٢].[(٤)]

---

(١) البخاري (١/ ٢٦)، ومسلم (٥/ ١٠٧ ـ ١٠٨) عن أبي بكرة.
(٢) مسلم (٨/ ١٠ ـ ١١). (٣) سبق تخريجه.
(٤) رسالة: «شرح حديث: لبيَّك اللهم لبيَّك» (١٠٢ ـ ١٠٨).

وذهبَ قومٌ من أهلِ الحديثِ وغيرُهم إلى أنَّ هـذه الأعمالَ تُكفِّرُ الكبائرَ، ومنهُم ابنُ حزمٍ الظاهريُّ، وإيَّاه عنى ابنُ عبدِ البرِّ في كتابِ «التمهيد» بالردِّ عليه، وقالَ: قد كنتُ أرغبُ بنفسي عن الكلامِ في هذا البابِ، لولا قولُ ذلكَ القائلِ، وخشيتُ أن يغترَّ به جاهلٌ، فينهمِكَ في الموبقاتِ، اتِّكالاً على أنَّها تكفِّرُها الصلواتُ دونَ الندمِ والاستغفارِ والتوبةِ، واللَّهَ نسألُهُ العصمةَ والتوفيقَ.

قلتُ: وقد وقعَ مثلُ هذا في كلامِ طائفةٍ من أهلِ الحديثِ في الوضوءِ ونحوِه، ووقعَ مثلُه في كلامِ ابنِ المنذرِ في قيامِ ليلةِ القدرِ، قال: يُرجى لمنْ قامَهَا أن يغفرَ لهُ جميعُ ذنوبِهِ صغيرُها وكبيرُها، فإن كان مرادُهم أنَّ مَنْ أتى بفرائضِ الإسلامِ وهو مُصِرٌّ على الكبائرِ تُغفرُ له الكبائرُ قطْعًا، فهذا باطلٌ قطعًا، يُعْلَمُ بالضرورةِ من الدِّينِ بطلانُهُ، وقد سبقَ قولُ النبيِّ ﷺ: «**منْ أساءَ في الإسلامِ أُخِذَ بالأوَّلِ والآخرِ**»(١) يعني: بعملِه في الجاهليةِ والإسلامِ، وهذا أظهرُ من أن يحتاجَ إلى بيانٍ، وإن أرادَ هذا القائلُ أنَّ من تركَ الإصرارَ على الكبائرِ، وحافظَ على الفرائضِ من غيرِ توبةٍ ولا ندم على ما سلفَ منه، كُفِّرَتْ ذُنوبُهُ كلُّهَا بذلكَ، واستدلَّ بظاهرِ قولِه: ﴿**إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا**﴾ [النساء:٣١].

وقال: السيئاتُ تشملُ الكبائرَ والصغائرَ، وكما أنَّ الصغائرَ تُكفَّرُ باجتنابِ الكبائرِ من غيرِ قصدٍ ولا نيّةٍ، فكذلكَ الكبائرُ، وقد يستدلُّ لذلكَ بأنَّ اللَّهَ وعدَ المؤمنينَ والمتقينَ بالمغفرةِ وبتكفيرِ السيِّئاتِ، وهذا مذكورٌ في غيرِ موضعٍ من القرآنِ، وقد صارَ هذا من المتقين، فإنَّه فعلَ الفرائضَ، واجتنبَ الكبائرَ،

(١) أخرجه: البخاري (٩/ ١٧)، ومسلم (١/ ٧٧) عن عبد اللَّه بن مسعود.

واجتنابُ الكبائرِ لا يحتاجُ إلى نيَّةٍ وقصدٍ، فهذا القولُ يمكنُ أن يُقالَ في الجملةِ.

والصَّحيحُ قولُ الجمهورِ: إنَّ الكبائرَ لا تُكفَّرُ بدونِ التوبةِ، لأنَّ التوبةَ فرضٌ على العبادِ، وقد قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

وقد فسَّرتِ الصحابةُ كعمرَ وعليٍّ وابنِ مسعودٍ التوبةَ بالندمِ، ومنهم من فسَّرها بالعزمِ على أن لا يعودَ، وقد رويَ ذلك مرفوعًا من وجهٍ فيه ضعفٌ، لكن لا يعلمُ مخالفٌ من الصحابةِ في هذا، وكذلك التابعونَ ومَنْ بعدَهُم، كعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، والحسنِ، وغيرِهما.

وأما النصوصُ الكثيرةُ المتضمنة مُغفرةَ الذنوبِ، وتكفيرَ السيئات للمتقينَ، كقولِه تعالى: ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقولِه: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ [التغابن: ٩]، وقولِه: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا﴾ [الطلاق: ٥]، فإنه لم يُبينْ في هذهِ الآياتِ خصالَ التقوى، ولا العملَ الصالحَ، ومن جملةِ ذلكَ: التوبةُ النصوحُ، فمَنْ لم يتُبْ، فهو ظالمٌ، غيرُ متَّقٍ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾

وقد بَيَّنَ في سورةِ آلِ عمرانَ خصالَ التقوى التي يَغفر لأهْلِها ويدخلهم

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٤٤ ـ ٤٤٦).

الجنةَ، فذكرَ منها الاستغفارَ، وعدمَ الإصرارِ، فلم يضمنْ تكفيرَ السيئاتِ ومغفرةَ الذنوبِ إلا لمن كان على هذهِ الصفةِ، واللَّهُ أعلمُ.

الصغائرُ هل تجبُ التَّوبةُ منها كالكبائرِ أم لا؟ لأنها تقعُ مكفرةً باجتنابِ الكبائرِ، لقولِهِ تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، هذا ممَّا اختلفَ الناسُ فيه.

فمنهم من أوجبَ التوبةَ منهَا، وهو قولُ أصحابِنا وغيرِهم من الفقهاءِ والمتكلمينَ وغيرِهم.

وقد أمرَ اللَّهُ بالتوبةِ عقيبَ ذكرِ الصغائرِ والكبائرِ، فقالَ تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ الآية إلى قولِهِ: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣٠-٣١].

وأمرَ بالتوبةِ من الصَّغائرِ بخصوصِهَا في قولِهِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١].

ومن الناس من لم يُوجب التوبةَ منها، وحكي عن طائفةٍ من المعتزلةِ ومن المتأخرينَ من قالَ: يجبُ أحدُ أمرينِ، إمَّا التَّوبةُ منها، أو الإتيانُ ببعض المكفِّرات للذُّنوب من الحسناتِ.

وحكى ابنُ عطيّة في «تفسيرِهِ» في تكفيرِ الصغائر بامتثالِ الفرائضِ واجتنابِ الكبائرِ قولينِ:

أحدهما ـ وحكاه عن جماعة من الفقهاءِ وأهلِ الحديثِ ـ : أنه يُقطع بتكفيرها بذلك قطعًا، لظاهر الآية والحديثِ.

والثاني ـ وحكاه عن الأصوليين ـ: أنه لا يُقطع بذلك، بل يُحمل على غلبةِ الظنِّ وقوَّة الرجاء، وهو في مشيئةِ اللَّه عزَّ وجلَّ، إذ لو قطع بتكفيرها، لكانتِ الصغائر في حكم المباح الذي لا تِبعَةَ فيه، وذلك نقضٌ لِعُرى الشريعة.

قلتُ: قد يقال: لا يُقطع بتكفيرها لأنَّ أحاديثَ التكفيرِ المطلقةِ بالأعمالِ جاءتْ مقيَّدةً بتحسينِ العملِ، كما وردَ ذلك في الوضوءِ والصَّلاةِ، وحينئذٍ فلا يتحققُ وجودُ حُسنِ العملِ الذي يوجب التَّكفير، وعلى هذا الاختلافِ الذي ذكره ابنُ عطيّة ينبني الاختلافُ في وجوبِ التوبةِ من الصغائر.

وقد خرَّج ابنُ جريرٍ من روايةِ الحسنِ أن قومًا أتوا عمرَ، فقالوا: نرى أشياءَ من كتابِ اللَّهِ لا يُعْمَلُ بها، فقال لرجلٍ منهم: أقرأتَ القرآن كُلَّه؟ قال: نعم، قال: فهل أحصيتَهُ في نفسك؟ قال: اللَّهُمَّ لا، قال: فهل أحصيتَهُ في بصرك؟ فهل أحصيتَهُ في لفظك؟ هل أحصيتَهُ في أثَرِكَ؟ ثم تتبعهم حتَّى أتى على آخرِهم، ثم قال: ثكِلَت عمرَ أمُّهُ أتكلفونه أن يُقيمَ على الناس كتابَ اللَّه؟ قد علم ربُّنا أنه سيكون لنا سيئات، قال وتلا: ﴿**إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا**﴾[1] [النساء: ٣١].

وبإسنادِهِ عن أنس بن مالك أنه قال: لم أرَ مثلَ الذي بلغنا عن ربِّنا تعالى، ثم لم نَخْرُجْ له عن كلِّ أهلٍ ومالٍ، ثم سكت، ثم قال: واللَّه لقد

(١) أخرجه: الطبري في «التفسير» (٥/ ٤٤).

كلَّفنا ربُّنا أهونَ من ذلك، لقد تجاوزَ لنا عمَّا دونَ الكبائرَ، فما لنا ولها؟ ثم تلا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾(١) [النساء: ٣١] وخرَّجه البزارُ في «مسنده» مرفوعًا، والموقوف أصح(٢).

وقد وصفَ اللَّهُ المحسنينَ باجتنابِ الكبائرِ، قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ۝ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣١ ـ ٣٢].

وفي تفسيرِ اللَّممِ قولانِ للسَّلفِ:

أحدُهُما: أنَّه مقدماتُ الفواحشِ كاللمسِ والقبلةِ(٣)، وعن ابنِ عباسٍ: هو ما دونَ الحدَّينِ: وعيدِ الآخرةِ بالنارِ وحدِّ الدنيا(٤).

والثاني: أنَّه الإلمامُ بشيءٍ من الفواحشِ والكبائر مرَّةً واحدةً، ثم يتوبُ منه، ورويَ عن ابنِ عباسٍ وأبي هريرةَ(٥).

ورويَ عنه مرفوعًا بالشَّكِّ في رفعهِ، قال: **«اللمةُ من الزنى ثم يتوبُ فلا يعودُ، واللمةُ من شربِ الخمرِ ثم يتوبُ فلا يعودُ، واللمة من السرقة ثم يتوبُ فلا يعود»**(٦).

ومن فسَّر الآيةَ بهذا قالَ: لا بدَّ أن يتوبَ منْهُ، بخلافِ منْ فسَّرَهُ بالمقدِّماتِ، فإنَّه لم يشترطْ توبةً.

---

(١) السابق (٥/ ٤٤ ـ ٤٥).
(٢) أخرجه: البزار (٢٢٠٠ ـ كشف)؛ لكنه عنده ـ أيضًا ـ موقوف.
(٣) أخرجه: الطبري في «التفسير» (٢٧ ـ ٦٥ ـ ٦٦).
(٤) السابق (٢٧/ ٦٨).
(٥) السابق (٢٧/ ٦٦ ـ ٦٧).
(٦) السابق (٢٧/ ٦٦).

والظاهرُ: أنَّ القـولينِ صحيـحانِ، وأنَّ كلاهُمـا مرادٌ من الآيةِ، وحـينئذٍ فـالمحـسنُ: هو من لا يأتِي بكبـيـرةٍ إلا نادرًا ثم يتـوبُ منهـا، ومن إذا أتى بصغـيرةٍ كانتْ مـغمـورةً في حسناتهِ المكفرةِ لـها، ولا بُدَّ أن لا يكونَ مُصرًّا عليها، كما قال تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥].

ورويَ عن ابن عـباسٍ أنَّه قـالَ: لا صغـيـرةَ مع إصرارٍ، ولا كـبيـرةَ مع استغفار، ورويَ مرفوعًا من وجوهٍ ضعيفةٍ.

وإذا صارتِ الصغائرُ كبائرَ بالمداومةِ عليـها، فلا بُدَّ للمحسنينَ من اجتنابِ المداومةِ على الصغائر حتى يكونوا مجتنبينَ لكبائرِ الإثمِ والفواحشِ.

وقال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى:٣٦-٤٠].

فهـذه الآياتُ تضمَّنتْ وصفَ المؤمنينَ بقـيامِهِم بما أوجبَ اللَّـهُ عليهم منَ الإيمانِ والتوكلِ، وإقامِ الـصلاةِ، والإنفاقِ مما رزقهَمُ اللَّهُ والاستـجابةُ للَّهِ في جميعِ طاعاتِهِ، ومـع هذا، فهم مجتنبون كبائرَ الإثـمِ والفواحشِ، فهذا هو تحقيقُ التقوى، ووصفهم في مـعاملتهم للخلقِ بالمغفرةِ عندَ الغضبِ، وندبهم إلى العفـوِ والإصلاحِ. وأمَّـا قولُهُ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشورى:٣٩] فليس منافـيًا للعـفوِ، فـإنَّ الانتصـارَ يكونُ بإظهارِ القُـدرة على الانتقامِ، ثم يقعُ العـفوُ بعد ذلك، فيكونُ أتمَّ وأكـملَ، قال النخعيُّ في هذهِ

الآيةِ: كانُوا يكرهونَ أن يُستذلُّوا فإذا قَدَرُوا عَفَوْا. وقال مجاهدٌ: كانوا يكرهون للمؤمنِ أن يذلَّ نفسَهُ، فيجترئُ عليه الفُسَّاقُ، فالمؤمنُ إذا بُغِي عليهِ يُظهرُ القدرةَ على الانتقامِ، ثم يعفو بعدَ ذلك، وقد جرَى مثلُ هذا لكثيرٍ من السلفِ، منهم قتادةُ وغيرُه.

فهذه الآياتُ تتضمنُ جميعَ ما ذكره النبيُّ ﷺ في وصيته لمعاذٍ، فإنَّها تضمنتْ أصولَ خصالِ التقوى بفعلِ الواجباتِ، والانتهاءِ عن كبائرِ المحرَّماتِ ومعاملةِ الخلقِ بالإحسانِ والعفوِ، ولازمُ هذا أنَّه إنْ وقعَ منهم شيءٌ من الإثمِ من غيرِ الكبائرِ والفواحشِ، يكونُ مغموراً بخصالِ التَّقوى المقتضيةِ لتكفيرِهَا ومحوِها.

وأما الآياتُ التي في سورةِ «آل عمرانَ»، فوَصَفَ فيها المتقينَ بالإحسانِ إلى الخَلْقِ، وبالاستغفارِ من الفواحشِ وظلمِ النفسِ، وعدمِ الإصرارِ على ذلكَ، وهذا هو الأكملُ، وهو إحداثُ التوبة، والاستغفارُ عقيْبَ كلِّ ذنبٍ مِنَ الذُّنوبِ صغيراً كان أو كبيراً، كما رُويَ أن النبيَّ ﷺ وصَّى بذلكَ معاذاً، وقد ذكرناهُ فيما سبَقَ.

وإنما بسطنا القولَ في هذا، لأنَّ حاجةَ الخلقِ إليه شديدةٌ، وكلُّ أحدٍ يحتاجُ إلى معرفةِ هذا، ثم إلى العملِ بمقتضاهُ، واللَّهُ الموفقُ والمعينُ[1].

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٦٥ ـ ٤٧٠).

قوله تعالى: ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [النساء:٣٢]، فقد فُسِّرَ ذلك بالحسدِ، وهو تمنِّي الرجلِ نفسَ ما أُعطي أخوهُ من أهلٍ ومالٍ، وأن ينتقلَ ذلك إليه، وفُسِّرَ بتمنِّي ما هو ممتنعٌ شرعًا أو قدرًا، كتمنِّي النِّساءِ أن يكنَّ رجالاً أو يكون لهنَّ مثلُ ما للرجالِ من الفضائلِ الدينيةِ، كالجهادِ، والدنيويةِ كالميراثِ والعقلِ والشهادةِ، ونحو ذلك. وقيل: إنَّ الآيةَ تشملُ ذلك كُلَّه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾

وأمَّا إكرامُ الجارِ والإحسانُ إليه، فمأمورٌ به، وقد قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالاً فَخُورًا﴾ [النساء:٣٦]، فجمعَ اللَّهُ تعالى في هذهِ الآيةِ بينَ ذكرِ حقِّه على العبدِ وحقوقِ العبادِ على العبدِ ـ أيضًا ـ وجعلَ العبادَ

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣١٠).

الذينَ أمرَ بالإحسانِ إليهم خمسةَ أنواعٍ:

أحدُها: من بينه وبينَ الإنسانِ قرابةٌ، وخصَّ منهُمُ الوالدين بالذِّكرِ، لامتيازِهِمَا عن سائرِ الأقاربِ بما لا يشْركونهما فيه، فإنهما كانا السببَ في وجودِ الولدِ ولهما حقُّ التربيةِ والتأديبِ وغيرِ ذلك.

الثاني: منْ هو ضعيفٌ محتاجٌ إلى الإحسانِ وهو نوعانِ: من هو محتاجٌ لضعفِ بدنِه، وهو اليتيمُ، ومن هو محتاجٌ لقلَّةِ مالِه، وهو المسكينُ.

والثالثُ: منْ له حقُّ القُربِ والمخالطةِ، وجعلَهُم ثلاثةَ أنواعٍ: جارٌ ذو قُربى، وجارٌ جُنبٌ، وصاحبُ بالجنبِ.

وقد اختلفَ المفسرونَ في تأويلِ ذلكَ، فمنهُم من قالَ: الجارُ ذو القُربى: الجارُ الذي له قرابةٌ، والجارُ الجُنب: الأجنبيُّ، ومنهم من أدخلَ المرأةَ في الجارِ ذي القربى، ومنهم من أدخلها في الجار الجنب، ومنهم من أدخلَ الرَّفيقَ في السَّفرِ في الجارِ الجُنبِ، وقد رُوي عن النبيِّ ﷺ أنه كان يقولُ في دعائِهِ: **«أعوذُ بك من جارِ السَّوءِ في دار الإقامةِ، فإنَّ جارَ الباديةَ يتحوَّلُ»**[1].

ومنهم من قال: الجارُ ذو القربى: الجارُ المسلمُ، والجارُ الجنبُ: الكافرُ، وفي «مسندِ البزار»[2] من حديثِ جابرٍ مرفوعًا: **«الجيرانُ ثلاثةٌ: جارٌ له حقٌّ واحدٌ، وهو أدنى الجيرانِ حقًّا، وجارٌ له حَقَّان، وجارٌ له ثلاثةُ حقوقٍ، وهو أفضلُ الجيرانِ حقًّا، فأمَّا الذي له حقٌّ واحدٌ، فجارٌ مشركٌ، لا رَحِمَ له، له حقُّ الجوارِ، وأمَّا الذي له حقَّانِ، فجارٌ مسلمٌ، له حقُّ الإسلامِ، وحقُّ الجوارِ، وأمَّا الذي له ثلاثةُ حقوقٍ، فجارٌ مسلمٌ ذو**

(١) أخرجه: النسائي (٨/ ٢٧٤) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) عزاه إليه الهيثمي في «المجمع» (٨/ ١٨٤) وقال: رواه البزار عن شيخه عبد اللَّه بن محمد الحارثي وهو وضَّاع.

رحمٍ، **له حقُّ الإسلامِ، وحقُّ الجوارِ، وحقُّ الرحمِ»**.

وقد رُوي هذا الحديثُ من وجوهٍ أخرَ متصلةٍ ومرسلةٍ، ولا تخلو كلُّها من مقالٍ.

وقيلَ: الجارُ ذو القُربى: هو القريبُ الجوارِ الملاصقُ، والجارُ الجنبُ: البعيدُ الجوارِ.

وفي «صحيحِ البخاريِّ»: عن عائشةَ، قالتْ: قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ إنَّ لي جارينِ، فإلى أيهِمَا أُهدِي؟ قالَ: **«إلى أقربِهِمَا منك بابًا»**(١).

وقالَ طائفةٌ من السلفِ: حدُّ الجوارِ أربعون دارًا، وقيل: مستدار أربعينَ دارًا من كلِّ جانبٍ.

وفي «مراسيلِ الزهريِّ»: أن رجلاً أتى النبيَّ ﷺ يشكُو جارًا له، فأمر النبيُّ ﷺ بعضَ أصحابِهِ أن ينادي: **«ألا إنَّ أربعين دارًا جار»**. قال الزهريُّ: أربعون هكذا، وأربعون هكذا، وأربعون هكذا، وأربعون هكذا، يعني بين يديه ومِن خلفِهِ، وعن يمينِهِ، وعن شمالِهِ(٢).

وسئلَ الإمامُ أحمدُ عمَّن يطبخُ قدرًا، وهو في دار السبيل، ومعه في الدار نحو ثلاثين أو أربعين نفسًا: يعني أنهم سكانٌ معه في الدارِ، فقال: يبدأ بنفسِهِ، وبمن يعول، فإن فضلَ فضلٌ، أعطى الأقرب إليه، وكيفَ يُمكنه أن يُعطِيهُم كلَّهم؟ قيلَ لهُ: لعلَّ الذي هو جارُهُ يتهاونُ بذلكَ القدرِ ليسَ له عنده موقعٌ؟ فرأى أنه لا يبعثُ إليه.

---

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ١١٥).

(٢) راجع: «الفتح» (١٠/ ٤٤٧).

وأمَّا الصَّاحبُ بالجنبِ ففسَّره طائفةٌ بالزَّوجةِ، وفسره طائفةٌ منهم ابنُ عباسٍ بالرَّفيقِ في السفرِ، ولم يريدُوا إخراجَ الصاحبِ الملازِمِ في الحضرِ، إنما أرادُوا أن صحبةَ السفرِ تكفِي، فالصحبةُ الدائمةُ في الحضرِ أوْلى، ولهذا قالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ: هو الرفيقُ الصالحُ، وقالَ زيدُ بنُ أسلمَ: هو جليسُك في الحضرِ، ورفيقُك في السفرِ، وقالَ ابنُ زيدٍ: هو الرَّجلُ يعتريكَ ويُلِمُّ بك لتنفعه.

وفي «المسند» والترمذيِّ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ، عن النبيِّ ﷺ قال: **«خيرُ الأصحابِ عندَ اللَّهِ خيرُهم لصاحبِه، وخيرُ الجيرانِ عندَ اللَّهِ خيرُهُم لجارِه»**[(١)].

الرابع: من هو واردٌ على الإنسانِ، غيرُ مقيمٍ عندَهُ، وهو ابن السبيلِ: يعني المسافرَ إذا وردَ إلى بلد آخرَ، وفسَّره بعضُهم بالضَّيفِ: يعني به ابنَ السبيلِ إذا نزلَ ضيفًا على أحدٍ.

والخامس: ملكُ اليمين، وقد وصَّى النبيُّ ﷺ بهم كثيرًا وأمر بالإحسانِ إليهم، ورُوي أنَّ آخرَ ما وصَّى به عندَ موتِه: **«الصلاةُ وما ملكتْ أيمانُكُم»**[(٢)]، وأدخل بعضُ السلفِ في هذه الآيةِ: ما يملكُه الإنسانُ من الحيواناتِ والبهائمِ[(٣)].

* * *

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ١٦٧ ـ ١٦٨)، والترمذي (١٩٤٤)، وابن حبان (٥١٨، ٥١٩)، والحاكم (٢/ ١٠١).

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ١١٧) عن أنس، وابن ماجه (١٦٢٥) عن أم سلمة، وفي (٢٦٩٧) عن أنس، وفي (٢٦٩٨) عن علي بن أبي طالب، وأخرجه النسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٨٩١).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٥١ ـ ٣٥٥).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾

[قال البخاريُّ][(١)] : «كتابُ الغُسْلِ»، وقولُ اللَّهِ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَى﴾ إلى قولِهِ: ﴿عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء:٤٣].

صدَّر البخاريُّ ـ رحمه اللَّهُ ـ «كتابَ الغُسْلِ» بهاتينِ الآيتينِ، لأن غُسلَ الجنابةِ مذكورٌ فيهما.

أما قولُه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة:٤٣] فأمرٌ للجنبِ إذا قام إلى الصلاة أن يتطهَّر.

وتطهُّرُ الجُنبِ هو غُسْلُه، كما في تطهُّرِ الحائضِ إذ انقطعَ دمُها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ [البقرة:٢٢٢].

والمرادُ بتطهرهنَّ: اغتسالُهُنَّ عند جمهورِ العلماءِ، فلا يُباحُ وطؤُها حتى تغتسلَ، وسيأتي تفسيرُ الآيةِ في «كتابِ الحيضِ» ـ إن شاء اللَّهُ تعالى.

وأما قولُه تعالى: ﴿لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا﴾ [النساء:٤٣]، فنهيٌ عن قُربانِ الجنبِ الصلاةَ حتى يغتسلَ، فصرَّح هُنا بالغُسْلِ، وهو تفسيرُ التطهيرِ المذكورِ في آيةِ المائدةِ.

وهل المرادُ: نهيُ الجنبِ عن قُربانِ الصلاةِ حتى يغتسلَ، إلا أن يكونَ

(١) «صحيح البخاري» (١/ ٧١).

مسافرًا ـ وهو عـابرُ السبيلِ ـ ، فيعدمُ الماءَ، فيـصلِّي بالتيممِ؟ أو المرادُ: نهيُ الجنبِ عن قربانِ مـوضـعِ الصـلاةِ ـ وهـو المسجـدُ ـ إلا عابـرَ سبـيل فيـه، غيرَ جالسٍ فيه، ولا لابث؟ هذا مما اختلفَ فيه المفسرونَ من السلفِ.

وبكلِّ حالٍ؛ فالآيةُ تدلُّ على أن الجنبَ ما لم يغتسلَ مَنْهِيٌّ عن الصلاةِ، أو عن دخولِ المسجدِ، وأنَّ استباحـةَ ذلك يتوقفُ على الغسلِ، فيُستدلُّ به على وجوبِ الغُسل على الجنبِ إذا أرادَ الصلاةَ، أو دخولَ المسجدِ[١].

* * *

وقد تأول طائفةٌ من الصـحابةِ قولَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿**لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا**﴾ [النساء: ٤٣]، بأنَّ المرادَ: النهيُ عن قُربانِ موضعِ الصـلاةِ ـ وهو المسجدُ ـ في حالِ الجنابةِ، إلا أن يكونَ عابرَ سبيلٍ، وهو المجتازُ به من غيرِ لبثٍ فيه.

وقد رُوي ذلك عن ابنِ مسعودٍ[٢]، وابنِ عباسٍ[٣]، وأنسٍ[٤] رضي الله عنهم.

وفي «المسندِ»[٥] عن ابنِ عباسٍ، أنَّ النبيَّ ﷺ سدَّ أبوابَ المسجدِ غيرَ بابِ عليٍّ. قالَ: «**فيدخلُ المسجدَ جنبًا، وهو طريقُه ليسَ له طريقٌ غيرُه**».

وروى ابنُ أبي شيبةَ[٦] بإسنادِه، عن العوامِ، أن عليًا كان يمرُّ في المسجدِ وهو جنبٌ.

(١) «فتح الباري» (١/ ٢٣١ ـ ٣٢).
(٢) أخرجه: الطبري في «التفسير» (٥/ ٩٨).
(٣) السابق.
(٤) البيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٤٤٣).
(٥) «المسند» (١/ ٣٣١).
(٦) «المصنف» (١/ ١٣٥).

وبإسنادِه، عن جابرٍ، قالَ: كانَ أحدُنا يمشِي في المسجدِ وهو جنبٌ، مجتازاً[١].

وخرَّجه ـ أيضًا ـ سعيدُ بنُ منصورٍ وابنُ خُزيمةَ في «صحيحِه»[٢].

وعن زيدِ بن أسلمَ، قالَ: كان أصحابُ رسولِ اللَّهِ ﷺ يمشونَ في المسجدِ، وهمْ جنبٌ.

خرَّجه ابنُ المنذرِ[٣] وغيرُه[٤].

* * *

وخرَّج ابنُ أبي حاتمٍ من روايةِ قيسٍ، عن خُصيفٍ، عن مجاهدٍ، في قولِه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَى﴾ [النساء:٤٣]، قال: نزلتْ في رجلٍ من الأنصارِ، كان مريضًا فلم يستطع أن يقومَ فيتوضأ، ولم يكنْ له خادمٌ فيناولَهُ، فأتى رسولَ اللَّهِ ﷺ فذكر ذلك لهُ، فأنزلَ اللَّهُ تعالى هذه الآيةَ[٥].

* * *

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ..﴾ [النساء:٤٨] فمن جاء مع التوحيدِ بقُرابِ الأرضِ ـ وهو ملؤُهَا، أو ما يقاربُ ملأَهَا ـ خطايا، لقيَهُ اللَّهُ بقرابِهَا

(١) «المصنف» (١/ ١٣٥).
(٢) «صحيح ابن خزيمة» (١٣٣١).
(٣) ابن المنذر في «الأوسط» (٢/ ١٠٨).
(٤) «فتح الباري» (١/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣).
(٥) السابق (٢/ ٣٣).

مغفـرة، لكنْ هَذا مع مشيئـة اللَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ، فإن شاء غـفرَ لهُ، وإن شاءَ أخذه بذنوبِهِ، ثم كان عـاقبتُهُ ألاَّ يُخلَّدَ في النار، بل يخـرج منها، ثم يدخلُ الجنَّةَ.

قال بعضُهم: الموحِّد لا يُلقى في النارِ كمـا يُلقى الكفارُ، ولا يَلقى فيها ما يَلقى الكفـارُ، ولا يبقى فـيها كـما يبـقى الكفارُ، فـإنْ كَمُلَ توحـيدُ العـبدِ وإخلاصُـه للَّهِ فيـه، وقامَ بشروطِهِ كلِّهـا بقلبِهِ ولسـانِهِ وجوارحِـه، أو بقلبِهِ ولسانِهِ عندَ الموتِ، أوجبَ ذلك مغفرةَ ما سلفَ من الذنوبِ كلِّها، ومنعَهُ من دخولِ النَّارِ بالكليةِ.

فمن تحـقَّق بكلمةِ التوحـيدِ قَلبُه أخرجَتْ منـه كلَّ ما سوى اللَّه محـبةً وتعظيمًـا وإجلالاً ومهـابةً، وخشيةً، ورجـاءً وتوكُّلاً، وحينئـذٍ تُحرَقُ ذنوبه وخطاياهُ كلُّها ولو كـانتْ مثلَ زبدَ البحـرِ، وربما قلبتَهـا حسنات، كمـا سبق ذكره في تبديلِ السيئاتِ حسناتٍ، فإنَّ هذا التوحيدَ هو الإكسيرُ الأعظمُ، فلو وُضع ذرَّةٌ منها على جبالِ الذنوبِ والخطايا، لقلبها حسناتٍ، كما في «المسندِ» وغيرِهِ، عن أم هانِئٍ، عن النبيِّ ﷺ، قال: **«لا إله إلا اللَّهُ لا تترُكُ ذنبًا ولا يسبِقها عمل»**[١].

وفي «المسندِ»[٢] عن شـدَّادِ بنِ أوسٍ، وعبـادةِ بـن الصـامت أنَّ النبيَّ ﷺ قال لأصحابِهِ: **«ارفعـوا أيديكم، وقولُوا: لا إلهَ إلا اللَّهُ»**، فرفعنا أيدينا ساعةً، ثم وضعَ رسـولُ اللَّهِ ﷺ يدَهُ، ثم قـالَ: **«الحمـدُ اللَّه، اللَّهُمَّ بعثـتني بهذه الكـلمة، وأمرتنِي بهَا، ووعدتنِي الجنَّةَ عليْـهَا، وإنَّك لا تُخلفُ الميعادَ»**، ثم قالَ: **«أبشرُوا، فإنَّ**

(١) أخرجه: ابن ماجه (٣٧٩٧)، وأحمد في «المسند» (٦/ ٤٢٥).

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/ ١٢٤).

اللَّهَ قد غفرَ لكُم»(١) .

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾

قال اللَّـهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء:٥٦].

روى نافعٌ مولى يوسف السـلمي عن نافعٍ عن ابنِ عمرَ، قـالَ: قرأَ رجلٌ عندَ عمرَ هذه الآيةَ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾[النساء:٥٦] فقال عمرُ: أعِدْ عليَّ فأعادَهَا عليهِ، فقال معاذُ بنُ جبلٍ: عندي تفسيرُها، تبدَّل في الساعةِ الواحدةِ مائةَ مرةٍ، فقال عمرُ: هكذا سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ.

خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ وابنُ مردويه.

وخرَّجه ابنُ مردويهِ أيضًا من طريقِ نافعٍ أبـي هرمز أنبأنا نافعٌ عن ابنِ عمرَ قـال: تلا رجلٌ عندَ عـمـرَ هذه الآيةَ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾[النساء:٥٦] فقال عمرُ: أعِدْه عليَّ، وثَمَّ كـعبٌ، فقالَ: يا أميرَ المؤمنينَ أنا عندِي تفسيـرُ هذه الآيةِ قرأتُها قبلَ الإسلامِ، قالَ: فقـالَ: هاتِهَا يا كعبُ، فإن جئت به كمـا سمعتُ من رسولِ اللَّهِ ﷺ صدَّقناك، وإلا لم ننظرْ إليها، قالَ: إني قرأتُهـا قبلَ الإسلامِ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾ [النساء:٥٦] في الساعةِ الواحدةِ عـشرينَ ومائةَ مرةٍ، فقالَ عـمرُ: هكذا سمعتُ من رسولِ اللَّهِ ﷺ.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٦٠ ـ ٤٦١).

نافع أبو هرمزٍ ضعيفٌ جدًّا، وهو نافعُ مولى يوسفَ السلمي أيضًا، عند طائفةٍ من الحفاظ منهم ابنُ عدي، ومنهم من قال: هما اثنانِ وكلاهما ضعيفٌ.

وروى الربيعُ بنُ برةَ عن الفضلِ الرقاشيِّ أنَّ عمرَ سألَ كعبًا عن هذه الآيةِ فقالَ: إن جلدَه يحرقُ ويجدَّد في ساعةٍ أو في مقدارِ ساعةٍ مائةَ ألفِ مرةٍ، قال عمرُ: صدقتَ، وهذا منقطعٌ.

وروى ثوير بن أبي فاختة ـ وهو ضعيفٌ ـ عن ابنِ عمرَ أنه قالَ في هذه الآيةِ: إذا أُحرقتْ جلودُهُم بُدلِّوا جلودًا بيضاءَ أمثالِ القراطيس.

خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ.

وخرَّج أيضًا بإسنادِهِ عن يحيى بن يزيدَ الحضرميِّ أنه بلغه في هذهِ الآيةِ، قالَ: يجعلُ اللَّهُ للكافرِ مائةَ جلدٍ بين كلِّ جلدين لونٌ من العذابِ.

وعن هشامٍ عن الحسنِ في هذهِ الآيةِ، قالَ: تأكلُهُم النارُ كلَّ يومٍ سبعينَ ألفَ مرةٍ كلما أكلتهم قيلَ لهُم: عودُوا، فيعودُون كما كانوا.

وعن الربيعِ بنِ أنسٍ، قالَ: مكتوبٌ في الكتابِ الأولِ أن جلدَ أحدِهِم أربعونَ ذراعًا، وسنَّه تسعونَ ذراعًا، وبطنَهُ لو وُضِعَ فيه جبلٌ لوسِعَهُ، فإذا أكلتِ النارُ جلودَهُم بُدِّلوا جلودًا غيرَها[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ

(١) «التخويف من النار» (١٣٥ ـ ١٣٦).

إن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾

وسُئِل عكرمة عن أمِّ الولدِ؟ فقالَ: تعتقُ بموتِ سيِّدها فقيلَ له: بأيِّ شيء تقولُ؟ قالَ: بالقرآنِ، قالَ: بأيِّ القرآنِ؟ قالَ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]، وعمرُ من أولي الأمر.

وقال وكيعٌ: إذا اجتمع عمرُ وعليٌّ على شيء، فهو الأمرُ.

ورُوِي عن ابنِ مسعودٍ أنَّه كان يحلفُ باللهِ: إنَّ الصراطَ المستقيمَ هو الذي ثبتَ عليه عمرُ حتى دخلَ الجنةَ(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

قوله تعالى: ﴿فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ [النساء:٩٥-٩٦].

قال ابنُ عباسٍ وغيرُه: القاعدونَ المفضَّلُ عليهم المجاهدونَ درجةً هم القاعدونَ من أهلِ الأعذارِ، والقاعدونَ المفضَّل عليهم المجاهدون درجاتٍ هم القاعدونَ من غيرِ أهلِ الأعذارِ(٢).

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ١١٦).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٣٤٥ - ٣٤٦).

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾

[قال البخاريُّ][1] : وقول اللَّـه عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ إلى قولِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠١-١٠٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء: ١٠١].

قد ذكـر طائفةٌ من السلفِ أنهـا نزلتْ في صلاةٍ في السفـرِ، لا في صلاةِ السفرِ بمجـردِهِ، ولهذا ذكرَ عقيبهـا قولَه تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ

(١) البخاري (٢/ ١٧).

الصَّلاةَ﴾ [النساء:١٠٢]، ثمَّ ذكر صفةَ صلاةِ الخوفِ، فكان ذلك تفسيرًا للقَصْرِ المذكورِ في الآيةِ الأولى.

وهذا هو الذي يُشير إليه البخاريُّ، وهو مَرْوي عن مُجاهدٍ والسُّدِّيِّ والضَّحَّاكِ وغيرِهم، واختارَهُ ابنُ جريرٍ وغيرُهُ.

وتقديرُ ذلك من وَجْهَيْنِ:

أحدُهُما: أنَّ المراد بقصرِ الصلاةِ قصرُ أركانِها بالإيماءِ ونحوِهِ، وقصرُ عددِ الصلاةِ إلى ركعةٍ، فأمَّا صلاة السفرِ، فإنها ركعتانِ، وهي تمامٌ غيرُ قصرٍ، كما قاله عمرُ رضي الله عنه[1].

ورَوى سماكٌ الحنفيُّ، قالَ: سمعتُ ابنَ عمرَ، يقولُ: الركعتانِ في السفرِ تمامٌ غيرُ قصرٍ، إنما القصرُ صلاةُ المخافةِ.

خرَّجه ابنُ جريرٍ وغيرُهُ[2].

ورَوى ابنُ المباركِ عن المسْعُوديِّ، عن يزيدَ الفقيرِ، قالَ: سمعتُ جابرَ بنَ عبدِ اللَّهِ يُسألُ عن الركعتينِ في السفرِ، أقصرٌ هُما؟ قال: إنَّما القصرُ ركعةٌ عند القتال، وإن الركعتينِ في السفرِ ليستا بقصرٍ[3].

وخرَّجَ الجوزَجانيُّ من طريقِ زائدةَ بنِ عُميرٍ الطَّائيِّ، أنه سأل ابنَ عباسٍ عن تقصيرِ الصلاةِ في السفرِ، قال: إنها ليستْ بتقصيرٍ، هما ركعتانِ من حين تخرجُ من أهلِكَ إلى أن ترجعَ إليهم.

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (١/ ٣٧)، والنسائي (٣/ ١١١)، وابن ماجه (١٠٦٣)، (١٠٦٤).

(٢) أخرجه: الطبري في «التفسير» (٥/ ٢٤٧)، وابن أبي شيبة (٢/ ٢٠٤)، والبيهقي (٣/ ٢٦٣).

(٣) البيهقي (٣/ ٢٦٣).

وخرَّج الإمامُ أحمدُ[١] بإسنادٍ منقطع، عن ابنِ عباسٍ، قال: صلَّى رسولُ اللَّهِ ﷺ ركعتينِ ركعتينِ، وحين أقامَ أربعًا أربعًا، وقال ابنُ عباسٍ: فمن صلَّى في السفرِ أربعًا كمن صلَّى في الحضرِ ركعتينِ. وقال ابنُ عباسٍ: لم تُقصر الصلاةُ إلا مرَّةً واحدةً حيثُ صلَّى رسولُ اللَّهِ ﷺ ركعتينِ، وصلَّى الناسُ ركعةً واحدةً.

يعني: في الخوفِ.

وروى وكيعٌ، عن سفيانَ، عن سالمٍ الأفْطسِ، عن سعيدِ بنِ جُبيرٍ، قالَ: صلَّى رسولُ اللَّهِ ﷺ صلاةَ الخوفِ ركعةً ركعةً، قال سعيدٌ: كيف تكون مقصورةً وهما ركعتانِ[٢].

والوجهُ الثاني: أن القصرَ المذكورَ في هذهِ الآيةِ مطلقٌ، يدخلُ فيه قصرُ العددِ، وقصرُ الأركانِ، ومجموعُ ذلك يختصُّ بحالةِ الخوفِ في السفرِ، فأمَّا إذا انفردَ أحدُ الأمرينِ ـ وهو السفرُ أو الخوف ـ فإنه يختصُّ بأحدِ نوعي القصرِ، فانفرادُ السفرِ يختصُّ بقصرِ العددِ، وانفرادُ الخوفِ يختصُّ بقصرِ الأركانِ.

لكنْ هذا مما لم يُفهم من ظاهرِ القرآنِ، وإنما بيَّن دلالته عليه رسولُ اللَّهِ ﷺ، والآيةُ لا تنافيه، وإن كانَ ظاهرُها لا يدلُّ عليه، واللَّه سبحانه وتعالى أعلمُ.

وقيلَ: إنَّ قولَه: ﴿**وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ**

---

(١) «المسند» (١/ ٢٥١، ٣٤٩).

(٢) أخرجه: ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٢١٦)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٢/ ٥١١).

الصَّلاةِ﴾ [النساء:١٠١] نزلتْ بسببِ القصر في السفـرِ من غيرِ خوفٍ، وأنَّ بقيةَ الآيةِ مع الآيتينِ بعدَها نزلتْ بسببِ صلاةِ الخوفِ.

رُوي ذلك عن عليٍّ ﷺ.

خرَّجه ابنُ جريرٍ(١) عنه، بإسنادٍ ضعيفٍ جدًّا، لا يصحُّ. واللَّهُ سبحانه وتعالى أعلمُ.

وقد رُوي ما يدلُّ على أنَّ الآيةَ الأُولى المذكورَ فيـها قصرُ الصلاةِ إنما نزلتْ في صلاةِ الخوفِ.

فـروى منصـورٌ، عن مجـاهدٍ، عن أبي عـيَّـاشٍ الزُّرَقيِّ، قـال: كنا مع رسولِ اللَّهِ ﷺ بعُسْـفان ـ وعلى المشركينَ خـالدُ بنُ الوليدِ ـ فصـلَّيْنا الظهرَ، فقال المشركونَ: لقد أصبْنا غِـرَّةً، لقد أصبْنَا غفْلَةً، لو كنا حمَلْنا عليهم وهُم في الصلاةِ، فنزلتْ آيةُ القصـرِ بينَ الظهرِ والعصرِ، فلما حضـرتِ العصرُ قامَ رسولُ اللَّهِ ﷺ مستقـبلَ القبلةِ، والمشركونَ أمامَـه، فصفَّ خلفَ رسولِ اللَّهِ ﷺ صفٌّ، وصفَّ بعـد ذلك الصـفِّ صفٌّ آخـرَ، فـركعَ رسـولُ اللَّهِ ﷺ وركعُـوا جمـيعًا، ثم سـجدُوا وسـجدَ الصفُّ الذين يلُونَه، وقـام الآخرونَ يحرسونَهم، فلما صلَّى هؤلاءِ سجدتينِ وقـاموا، سجدَ الآخرونَ الذين كانوا خلفَه، ثم تأخَّـر الصفُّ الذي يليه إلى مقامِ الآخريـنَ، وتقدَّمَ الصفُّ الآخرُ إلى مقـامِ الصفِّ الأولِ، ثم ركعَ رسولُ اللَّهِ ﷺ وركعُوا جميعًا، ثم سجدَ وسجدَ الصفُّ الذي يليه، وقام الآخـرونَ يحرسونَهم، فلما جلسَ رسولُ اللَّهِ ﷺ والصفُّ الذي يليـه سجدَ الآخـرونَ، ثم جلَسُوا جـميـعًا فسلَّم عـليهم

(١) أخرجه في «التفسير» (٥/ ٢٤٤).

جميعًا، فصلاَّها بعُسْفان، وصلاَّها يومَ بني سُلَيْمٍ.

خرَّجه الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ ـ وهذا لفظُه ـ والنسائيُّ وابنُ حبانَ في «صحيحِه» والحاكمُ[(١)]، وقال: على شرطِهما.

وفي روايةٍ للنسائيِّ وابنِ حبان[(٢)]، عن مجاهدٍ: نا أبو عيَّاشٍ الزرقيُّ، قالَ: كُنَّا مع رسولِ اللَّهِ ﷺ . . . فذكرَهُ.

وردَّ ابنُ حبانَ بذلك على من زعَمَ: أن مجاهدًا لم يسمعْه من أبي عيَّاشٍ، وأن أبا عياش لا صُحبة له.

كأنه يشيرُ إلى ما نقله الترمذيُّ في «عللِه»[(٣)] عن البخاريِّ، أنه قالَ: كلُّ الرواياتِ عندي صحيحٌ في صلاةِ الخوفِ، إلا حديثُ مجاهدٍ عن أبي عياش الزرقيِّ، فإني أراه مرسلاً.

وابن حبانَ لم يَفهم ما أرادَه البخاريُّ، فإنَّ البخاريَّ لم ينكرْ أن يكونَ أبو عيَّاشٍ له صحبةٌ، وقد عَدَّهُ في «تاريخه» من الصحابةِ، ولا أنكرَ سماعَ مجاهدٍ من أبي عيَّاشٍ، وإنَّما مرادُهُ: أن هذا الحديثَ الصوابُ: عن مجاهدٍ إرسالُهُ عن النبيِّ ﷺ من غيرِ ذكرِ أبي عياشٍ، كذلك رواهُ أصحابُ مجاهدٍ، عنهُ بخلافِ روايةِ منصورٍ، عنه، فرواه عُكرمةُ بنُ خالدٍ وعُمر بنُ ذَرٍّ وأيوبُ ابنُ موسى ثلاثتُهم عن مجاهدٍ، عن النبيِّ ﷺ مرسلاً من غيرِ ذكرِ أبي عياش.

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/ ٥٩ ـ ٦٠)، وأبو داود (١٢٣٦)، والنسائي (٣/ ١٧٧ ـ ١٧٨)، وابن حبان (٢٨٧٥)، والحاكم (١/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨).

(٢) النسائي (٣/ ١٧٦ ـ ١٧٧)، وابن حبان (٢٨٧٦).

(٣) «العلل» (ص ٩٨).

وهذا أصحُّ عند البخاريِّ، وكذلكَ صحَّح إرسالَهُ عبدُ العزيزِ النخشبيُّ وغيرُهُ من الحفاظِ.

وأما أبو حاتمٍ الرازيُّ، فإنَّه قالَ - في حديثِ منصورٍ، عن مجاهدٍ، عن أبي عياشٍ - : إنه صحيحٌ، قيل له: فهذه الزيادةُ «فنزلتْ آيةُ القصرِ بينَ الظهرِ والعصرِ» محفوظةٌ هي؟ قالَ: نعم.

وقال الإمامُ أحمدُ: كُلُّ حديثٍ رُوي في صلاةِ الخوفِ فهو صحيحٌ.

وقد جاءَ في روايةٍ: فنزلتْ: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ﴾ [النساء: ١٠٢] وهذا لا ينافي روايةَ: «فنزلتْ آيةُ القصرِ» بل تبيَّن أنه لم تنزلْ آيةُ القصرِ بانفرادِها في هذا اليومِ، بل نزلَ معها الآيتانِ بعدَها في صلاةِ الخوفِ.

وهذا كلُّه مما يشهد بأن آية القَصْرِ أُريدَ بها قصرُ الخوفِ في السفرِ، وإنْ دلَّت على قصرِ السفرِ بغيرِ خوفٍ بوَجْهٍ من الدلالةِ، واللَّهُ سبحانه وتعالى أعلمُ.

[قال البخاريُّ][1] : نا أبو اليمانِ: ثنا شُعيْبٌ عن الزُّهريِّ، قالَ: سألتُهُ: هلْ صلَّى النبيُّ ﷺ صلاةَ الخوفِ؟ فقالَ: أخبرني سالمٌ أنَّ عبدَ اللَّه بنَ عُمرَ، قالَ: غزوتُ معَ رسولِ اللَّهِ ﷺ قبلَ نَجْدٍ، فوازَيْنا العدُوَّ، فصافْفنا لهُم، فقام رسولُ اللَّهِ ﷺ يُصلِّي لنا، فقامتْ طائفةٌ معَهُ وأقْبلتْ طائفةٌ على العدوِّ، وركعَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بمن معَهُ وسجدَ سجْدتيْنِ، ثمَّ انصرفُوا مكانَ الطائفة التي لم تُصلِّ، فجاءُوا فركعَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بهم ركعةً وسجدَ سجْدتينِ، ثم سلَّمَ، فقامَ كُلُّ واحدٍ منهم فركعَ لنفْسِهِ ركعةً وسجدَ سجدتينِ».

---

(١) البخاري (٢/ ١٧).

وخرَّجه في موضعٍ آخرَ من روايةِ معمرٍ[١] .

وخرَّجه مسلمٌ من روايةِ معمرٍ وفُلَيْحٍ كلاهُما، عن الزهريِّ، به - بمعناه[٢] .

وقد رُوي عن حُذيفةَ نحوُ روايةِ ابنِ عمرَ - أيضًا[٣] .

خرَّجه الطبرانيُّ[٤] من روايةِ حكَّامِ بنِ سلْمٍ، عن أبي جعفرٍ الرازيِّ، عن قتادةَ، عن أبي العاليةِ، قالَ: صلَّى بنا أبو موسى الأشْعريُّ بأصبهانَ صلاةَ الخوفِ، وما كانَ كبيرُ خوفٍ؛ ليريَنا صلاةَ رسولِ اللَّه ﷺ فقام فكبَّرَ، وكبَّرَ معه طائفةٌ من القومِ، وطائفةٌ بإزاء العدوِّ، فصلَّى بهم ركعة فانصرفوا، وقامُوا مقامَ إخوانِهم، فجاءت الطائفةُ الأخرى فصلَّى بهم ركعةً أخرى، ثم سلَّمَ، فصلَّى كلُّ واحدٍ منهمُ الركعةَ الثانية وُحْدَانًا.

ورواه سعيدُ بنُ أبي عَروبةَ، عن قتادةَ، عن أبي العاليةِ، أنَّ أبا موسى كان بالدارِ من أرضِ أصبهانَ، وما بها كَبيرُ خوفٍ، ولكن أحبَّ أن يعلِّمهم دينَهم وسنةَ نبيِّهم، فجعلَهم صفَّينِ: طائفةً معها السلاحُ مُقْبِلةً على عدوِّها، وطائفةً من ورائهَا، فصلَّى بالذين بإزائه ركعةً، ثم نكصُوا على أدبارِهم حتى قامُوا مقامَ الأخرَى، وجاءُوا يتخلَّلونَهم حتى قاموا وراءَه فصلَّى بهم ركعةً أخرَى، ثم سلَّم، فقام الذين يلونَه والآخرونَ فصلَّوا ركعةً ركعةً، ثم سلَّم بعضُهم على بعضٍ، فتمَّتْ للإمامِ ركعتانِ في جماعةٍ، وللناسِ ركعةٌ ركعةٌ.

---

(١) البخاري (٥/ ١٤٦).

(٢) مسلم (٢/ ١١٢).

(٣) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٣٨٥ - ٣٩٥ - ٣٩٩ - ٤٠٤ - ٤٠٦)، وأبو داود (١٢٤٦)، والنسائي (٣/ ١٦٧)، وابن خزيمة (١٣٤٣)، (١٣٦٥).

(٤) في «الأوسط» (٧٤٧٦).

يعني: في جماعةٍ.

خرَّجه ابنُ أبي شيبة[(١)]، وعنه بقيُّ بنُ مَخْلدٍ في «مسندِه».

وهو إسنادٌ جيدٌ.

وهو في حكمُ المرفوعِ، لما ذكر فيه من تعليمِهم بسُنةِ نبيِّهم.

ورواه أبو داود الطيالسيُّ، عن أبي حُرَّةَ، عن الحسنِ، عن أبي موسى، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ صلَّى بأصحابِه - فذكرَ نحوَه، وفيه زيادةٌ على حديثِ ابنِ عُمرَ: أنَّ الطائفة الأولى لما صلَّتْ ركعة وذهبتْ لم تستدبر القبلةَ، بل نَكَصَتْ على أدبارِها.

ورُويَ - أيضًا - عن ابنِ مسعودٍ، عن النبيِّ ﷺ نحوُ ذلك، من روايةِ خُصَيفٍ، عن أبي عُبيدةَ، عن عبدِ اللَّهِ، قالَ: صلَّى بنا رسولُ اللَّه ﷺ صلاةَ الخوفِ، فقامُوا صفَّين، فقامَ صفٌّ خلفَ رسولِ اللَّهِ ﷺ، وصفٌّ مُستقبلَ العدوِّ، فصلَّى رسولُ اللَّهِ ﷺ بالصفِّ الذين يلُونَه ركعةً، ثم قامُوا فذهبُوا، فقامُوا مقامَ أولئك مستقبلي[(٢)] العدوِّ، وجاءُوا أولئك فقامُوا مقامَهم، فصلَّى بهم رسولُ اللَّهِ ﷺ ركعةً، ثم سلَّم، ثم قامُوا فصلَّوا لأنفسِهم ركعةً، ثم سلَّموا ثم ذهبُوا، فقامُوا مقامَ أولئك مستقبلي[(٢)] العدوِّ، ورجعَ أولئك إلى مقامِهِم، فصلَّوْا لأنفسِهِم ركعةً ثم سلَّموا.

خرَّجه الإمامُ أحمدُ - وهذا لفظُه - وأبو داودَ - بمعناه[(٣)].

وخُصَيفٌ، مختلَفٌ في أمرِه، وأبو عُبيدةَ لم يسمعْ من أبيهِ، لكن

(١) «المصنف» (٢/ ٢١٤).
(٢) في «المسند»: «مستقبل».
(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (١/ ٣٧٥ - ٣٧٦)، وأبو داود (١٢٤٤).

رواياتُه عنه أخذَها عن أهلِ بيتِه، فهي صحيحةٌ عندهم.

وهذه الصفةُ توافقُ حديثَ ابنِ عمرَ وحذيفةَ، إلا في تقدُّمِ الطائفةِ الثانيةِ بقضاءِ ركعةٍ، وذَهابهم إلى مقامِ أولئك مستقبلي العدوِّ، ثم مجيءِ الطائفة الأولَى إلى مقامِهم فقضوْا ركعةً.

وحديثُ ابنِ عمرَ وحذيفةَ فيهما: قيامُ الطائفتينِ يقضُون لأنفسِهِم، وظاهرُهُ: أنهم قامُوا جملةً وقضَوْا ركعة ركعةً وُحْدَانًا.

وقد رواه جماعةٌ، عن خُصيفٍ، عن أبي عُبيدةَ، عن ابنِ مسعودٍ، وزادُوا فيه: أنَّ النبيَّ ﷺ كبَّر وكبَّر الصفانِ معه جميعًا.

وقد خَرَّجه كذلك الإمامُ أحمدُ وأبو داود[(١)].

وزاد الإمامُ أحمدُ: «وهمْ في صلاةٍ كلُّهم».

واختلفَ العلماءُ في صلاةِ الخوفِ على الصفةِ المذكورةِ في حديثِ ابنِ عُمرَ وما وافقَهُ:

فذهبَ الأكثرونَ إلى أنها جائزةٌ وحسنةٌ، وإن كان غيرُها أفضلَ منها، هذا قولُ الشافعيِّ - في أصحِّ قوليه - وأحمدَ وإسحاقَ وغيرِهم.

وقالت طائفةٌ: هي غيرُ جائزةٍ على هذه الصفةِ؛ لكثرةِ ما فيه من الأعمالِ المباينةِ للصلاةِ من استدبارِ القبلةِ والمشيِ الكثيرِ، والتخلُّفِ عن الإمامِ، وادَّعوا أنها منسوخةٌ، وهو أحدُ القولينِ للشافعيِّ.

ودعوى النسخِ ها هنا لا دليلَ عليها.

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (١/ ٤٠٩)، وأبو داود (١٢٤٥).

وقالتْ طائفةٌ: هي جائزةٌ كغـيرِها من أنواعِ صلاةِ الخوفِ الواردةِ عن النبيِّ ﷺ، لا فـضلَ لبعـضِهـا على بعضٍ، وهو قـولُ إسحـاقَ ـ : نقله عنه ابن منصورٍ.

ونقلَ حربٌ عن إسحاقَ، أن حديثَ ابنِ عـمرَ وابنِ مسعودٍ يُعملُ به إذا كانَ العدوُّ في غير جهةِ القبلةِ.

وكذلك حكى بعضُ أصحـابِ سفيانَ كلامَ سفيـانَ في العملِ بحديثِ ابنِ عُمرَ على ذلك.

وقالتْ طائفـةٌ: هي أفضلُ أنواعِ صلاةِ الخوفِ، هذا قـولُ النخعيِّ، وأهلِ الكوفةِ وأبي حنيـفةَ، وأصحـابِهِ، وروايةٌ عن سفـيانَ، وحُكيَ عن الأوزاعيِّ وأشهبَ المالكيِّ.

وروى نافعٌ، أنَّ ابنَ عمرَ كان يعلِّم الناسَ صلاةَ الخوفِ على هذا الوجهِ.

وحُكِي عن الحسنِ بنِ صالح، أنه ذهبَ إلى حديثِ ابنِ مسعودٍ، وفيه: أن الطائفةَ الثانيـةَ تصلِّي مع الإمامِ الركعةَ الثانيةَ، ثم إذا سلَّم قـضتْ ركعةً، ثم ذهبتْ إلى مكانِ الطائفةِ الأولى، ثم قضت الطائفةُ الأولَى ركعةً، ثم تسلِّمُ.

وقد قيلَ: إنَّ هذا هو قولُ أشهبَ.

وحَكَى ابنُ عبدِ البرِّ(١)، عن أحمدَ، أنَّه ذهبَ إلى هذا ـ أيضًا.

وقال بعضُ أصحـابِنا: هو أحسنُ من الصلاةِ على حـديثِ ابنِ عمر؛ لأنَّ صلاةَ الطائفةِ الثانيةِ خلتْ عن مفسدٍ بالكليةِ.

---

(١) «التمهيد» (١٥/ ٢٦٤).

وحُكي عن أبي يوسفَ ومحمدٍ والحسنِ بن زيادٍ والمزَنيِّ: أنَّ صلاةَ الخوفِ لا تجوزُ بعد النبيِّ ﷺ، لظاهرِ قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ﴾ الآية [النساء:١٠٢].

قالُوا: وإنما يصلِّي الناسُ صلاةَ الخوفِ بعدَهُ بإمامين، كلُّ إمامٍ يصلي بطائفةٍ صلاةً تامةً، ويسلِّم بهم(١).

وهذا مردودٌ بإجماعِ الصحابةِ على صلاتِها في حروبِهم بعدَ النبيِّ ﷺ، وقد صلَّاها بعدَهُ: عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وحذيفةُ بنُ اليمانِ، وأبو موسى الأشعريُّ(٢)، مع حضورِ غيرِهم من الصحابةِ، ولم ينكرْه أحدٌ منهم.

وكان ابنُ عمرَ وغيرُه يعلِّمون الناسَ صلاةَ الخوفِ، وجابرٌ، وابنُ عباسٍ وغيرُهما يروونها للناس تعليمًا لهم، ولم يقل أحدٌ منهم: إن ذلك من خصائصِ النبيِّ ﷺ.

وخطابُه ﷺ لا يمنعُ مشاركةَ أُمَّته له في الأحكام، كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١]، وقوله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٠٣].

وحُكي عن مالكٍ، أنها تجوزُ في السفرِ دون الحضرِ، وهو قولُ عبدِ الملكِ ابنِ الماجشونِ من أصحابِهِ.

ويحتجُّ له بحملِ آيةِ القصرِ على صلاةِ الخوفِ، وقد شُرط لها شرطان: السفرُ والخوفُ، كما سبقَ، ولأنَّ النبيَّ ﷺ إنَّما كان يصلِّي صلاةَ الخوفِ في

(١) انظر: «التمهيد» (١٥/ ٢٧٩).

(٢) حديث علي عند البيهقي (٣/ ٢٥٢)، والآخران تقدمت الرواية عنهما.

أسفارِه، ولم يصلِّـها في الحضرِ مع أنه حُوصـرَ بالمدينةِ عامَ الخندقِ، وطالتْ مدةُ الحصارِ، واشتدَّ الخوفُ، ولم يصلِّ فيها صلاةَ الخوفِ.

وقد قـيلَ: إنَّ صلاةَ الخـوفِ إنَّما شُـرعتْ بعدَ غزوةِ الأحـزابِ في السنةِ السابعةِ.

وقد ذكرَ البخاريُّ في «المغازي» من «كتابِه»[1] هذا ـ تعليقًـا ـ من حديثِ عِمـرانَ القطَّانِ، عن يحيى بن أبي كَثـيرٍ، عن أبي سلمةَ، عن جـابرٍ، قال: صلَّى رسـولُ اللَّهِ ﷺ بأصحـابِهِ في الخوفِ في غـزوةِ السابعـةِ: غزوةِ ذاتِ الرقاعِ.

وخرَّجه الإمامُ أحمدُ[2] من روايةِ ابنِ لهيعـةَ، عن أبي الزبيرِ، عن جابرٍ، قالَ: غزَا رسولُ اللَّهِ ﷺ ستَّ مِرَارٍ قبلَ صلاةِ الخوفِ، وكانتْ صلاةُ الخوفِ في السابعةِ.

وقد تقـدَّمَ في حديثِ أبي عيَّاشٍ، أنَّ أولَ صـلاةِ الخوفِ كانتْ بعُسْـفانَ، وعلى المشركين خالدٌ.

وقـد روى الواقـديُّ بإسنادٍ له، عن خـالدِ بنِ الوليـدِ، أنَّ ذلك كـان في مخْرَجِ النبيِّ ﷺ إلى عُمرةِ الحديبيةِ.

وقد تقدَّمَ أنَّ أبا موسى صلَّى بأصبهَـانَ هذه الصلاةَ، ولم يكنْ هناك كبيرُ خوفٍ، وإنَّما صلَّى بهم ليعلِّمَهم سنةَ صلاةِ الخوفِ.

وهذا قد يحملُ على أن كانَ ثمَّ خـوفٌ يُبيحُ هذه الصلاةَ، ولم يكن وُجد

(١) (٥/ ١٤٤ ـ ١٤٥).
(٢) «المسند» (٣/ ٣٤٨).

خوفٌ شديدٌ يبيحُ الصلاةَ بالإيماءِ.

وقد قالَ أصحابُنا وأصحـابُ الشافعيِّ: لو صلَّى صلاةَ الخوفِ على ما في حديثِ ابنِ عُمرَ في غيرِ خوفٍ لم تصحَّ صلاةُ المأمومين كلِّهم؛ لإتيانِهم بما لا تصحُّ معه الصلاةُ في غيرِ حالةِ الخوفِ من المشي والتخلُّفِ عن الإمامِ.

فأمَّا الإمامُ، فلأصحـابِنا في صلاتِهِ وجهانِ، بناءً على أنَّ الإمامَ إذا بَطَلَتْ صلاةُ منْ خلفَه، فهل تبطلُ صلاتُهُ لنيته الإمـامةَ وهو منفردٌ، أو يتمُّها منفردًا وتصحُّ؟ وفيه وجهان للأصحابِ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾

[قال البخاريُّ][2]: وقولُ اللَّـه عزَّ وجلَّ: **﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾** [النساء:١٠٣] مُوَقَّتًا، وَقَّتَهُ عليهِم.

أمَّا «الكـتابُ» فالمرادُ به: الـفرضُ ولم يُذْكَر في الـقرآن لفظُ الكتـاب وما تصرَّف منه إلا فيما هو لازم: إمَّـا شرعًا، مثل قوله: **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾** [البقرة:١٨٣]، **﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾** [البقرة:٢١٦]، وقوله: **﴿كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾** [النساء:٢٤]. وإمَّا قدرًا، نحـو قوله: **﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾** [المجادلة:٢١]، وقوله: **﴿وَلَوْلَا أَن كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ﴾** [الحشر:٣].

---

(١) «فتح الباري» (٦/٧:٧١٨).

(٢) «صحيح البخاري» (١/١٣٩).

وأما قوله: ﴿مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣] ففيه قولان:

أحدهما: أنه بمعنى المؤقَّتِ في أوقات معلومة، وهو قولُ ابنِ مسعودٍ وقتادةَ وزيد بن أسلمَ، وهو الذي ذكره البخاريُّ هنا، ورجَّحه ابنُ قُتيبةَ وغيرُ واحدٍ.

قال قتادةُ في تفسيرِ هذهِ الآيةِ: قال ابنُ مسعود: إنَّ للصلاةِ وقْتًا كوقتِ الحجِّ.

وقال زيدُ بنُ أسلمَ: مُنجَّمًا، كلما مضى نَجْمٌ جاء نَجْمٌ، يقول: كلما مضى وقت جاء وقت.

وقالتْ طائفةٌ: معنى ﴿مَّوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣]: مفروضًا أو واجبًا: قاله مجاهدٌ والحسنُ وغيرُهُما.

ورَوَى عليُّ بن أبي طلحة، عن ابنِ عباسٍ، قال: يعني: مفروضًا.

وتأوَّل بعضُهم الفرضَ هنا على التقدير، فرَجعَ المعنى حينئذٍ إلى تقديرِ أعدادِها ومواقيتِها، واللَّهُ أعلمُ.

وقال الشافعيُّ: الموقوتُ ـ واللَّهُ أعلمُ ـ: الوقتُ الذي تُصلَّى فيه وعددُها[1].

* * *

(١) «فتح الباري» (٣/ ٧ ـ ٨).

قوله تعالى: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

وقوله: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤]

فنَفَى الخيرَ عن كثيرٍ مِمَّا يتناجى به الناسُ إلا في الأمرِ بالمعروفِ، وخصَّ من أفرادِهِ الصَّدقةَ والإصلاحَ بينَ الناسِ لعمومِ نفعِهِما، فدلَّ ذلكَ على أنَّ التناجِي بذلكَ خيرٌ، وأمَّا الثوابُ عليهِ مِنَ اللَّهِ، فخصَّهُ بمَنْ فعله ابتغاءَ مرضاتِ اللَّهِ.

وإنَّما جعلَ الأمرَ بالمعروفِ مِنَ الصَّدقةِ والإصلاحِ بينَ الناسِ وغيرِهما خيرًا، وإنْ لم يُبْتَغَ به وجهُ اللَّهِ، لما يترتَّبُ على ذلكَ مِنَ النَّفْعِ المُتعدِّي، فيَحْصُلُ به للناسِ إحسانٌ وخيرٌ، وأمَّا بالنسبةِ إلى الأمرِ، فإن قَصَدَ به وجهَ اللَّهِ، وابتغاءَ مرضاتِهِ، كان خيرًا له وأُثِيبَ عليه، وإنْ لم يقصدْ ذلك، لم يكن خيرًا له، ولا ثوابَ له عليه.

وهذا بخلافِ من صامَ وصلَّى وذكرَ اللَّهَ، يَقصدُ بذلك عَرَضَ الدُّنيا، فإنَّه لا خيرَ له فيه بالكُلِّيَّة، لأنَّه لا نفعَ في ذلكَ لصاحبِهِ، لما يترتَّبُ عليه من الإثمِ فيهِ، ولا لغيرِهِ؛ لأنَّه لا يتعدَّى نفعُهُ إلى أحدٍ، اللَّهُمَّ إلا أنْ يحصُلَ لأحدٍ به اقتداءٌ في ذلك[١].

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٠ ـ ٣١).

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾

وخرَّج الترمذيُّ[١] من حديثِ عائشةَ أنها سألتِ النبيَّ ﷺ عن قولِه تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٤]، وعن قولِه: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء:١٢٣]، فقال: «**هذه معاتبةُ اللَّه العبدَ بما يصيبُه من الحمَّى، والنكبةِ، حتى البضاعةِ يضعها في جيبِ قميصِه، فيفقدُها، فيفزعُ لذلك، حتَّى إنَّ العبدَ ليخرجَ من ذنوبِه، كما يخرجُ التِّبْرُ الأحمرُ من الكيرِ**».

وقال: حسنٌ غريبٌ[٢].

* * *

وفي الترمذيِّ[٣] عن أبي بكرٍ الصديقِ أنه كانَ عندَ النبيِّ ﷺ فقرأَ هذه الآيةَ حين أنزلتْ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء:١٢٣] قالَ: ولا أعلمُ إلا أنِّي وجدتُ في ظهري انفصامًا، فتمطأتُ لَهَا، وقلتُ: يا رسولَ اللَّه، وأينا لم يعملْ سوءًا؟ أو إنَّا لمجزيون بما عملْنَا؟ فقالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «**أمَّا أنت يا أبا بكرٍ والمؤمنونَ، فتجزونَ بذلكَ في الدُّنيا، حتى تلقوا اللَّهَ وليس لكم ذنبٌ، وأمَّا الآخرونَ فيجمعُ ذلك لهم حتَّى يُجزوا به يومَ القيامةِ**».

وفي «مسندِ بقيِّ بن مَخْلَد» بإسنادٍ جيدٍ ـ عن عائشةَ أنَّ رجلاً تلاَ هذه الآية: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء:١٢٣]، فقالَ: إنا لَنُجْزَى بكلِّ عملٍ عملنا؟ هلكنا إذًا! فبلغَ ذلكَ رسولَ اللَّهِ ﷺ فقالَ: «**نعم، يُجزى به المؤمنُ في**

---

(١) الترمذي (٢٩٩١).
(٢) رسالة «البشارة العظمى للمؤمن» (ص ٨٨).
(٣) الترمذي (٣٠٣٩).

الدنيا، في نفسِه، في جسدِه فما دونَه»[(١)] .[(٢)]

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾

حقُّ اللَّهِ على عبادِهِ أن يتَّقُوهَ حقَّ تقاته، والتَّقوى وصيةُ اللَّه للأولينَ والآخرينَ، قالَ تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء:١٣١].

وأصلُ التقوى: أن يجعل العبدُ بينه وبينَ ما يخافُهُ ويحذرُهُ وقايةً تقيه منه، فتقوى العبدِ لربِّه أن يجعلَ بينَه وبينَ ما يخشاهُ من ربِّه من غضبِهِ وسخطِهِ وعقابِهِ وقايةً تقيه من ذلك، وهو فعلُ طاعتِهِ واجتنابُ معاصيه.

وتارةً تُضافُ التقوى إلى اسمِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، كقولِهِ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة:٩٦]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر:١٨]، فإذا أضيفت التقوى إليه سبحانَهَ وتعالى، فالمعنى: اتقوا سخطَهُ وغضبَهُ، وهو أعظمُ ما يُتَّقَى، وعن ذلكَ ينشأُ عقابُهُ الدنيويُّ والأخرويُّ، قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران:٢٨]، وقال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٦]، فهوَ

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٦/ ٦٥ ـ ٦٦)، وأبو يعلى (٨/ ١٣٥، ٢٥٣)، وابن حبان (٢٩٢٣).

(٢) رسالة «البشارة العظمى للمؤمن» (٨٨ ـ ٩٢ مختصراً).

سبحانَهُ أهلٌ أن يُخشى ويُهابَ، ويُجلَّ ويُعَظَّمَ في صـدورِ عبادِه حتَّى يعبدُوهُ ويُطيعوهُ، لما يستحقُّه من الإجـلالِ والإكرامِ، وصفاتِ الكبرياءِ والعظمةِ وقوَّةِ البطشِ، وشدَّةِ البأسِ.

وفي الترمذيِّ عن أنس عن النبيِّ ﷺ في هذه الآيةِ: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٦] قال: «**قال اللَّهُ تعالى: أنا أهلٌ أنْ أُتَّقى، فمنْ اتَّقاني فلم يَجْعَل معي إلهًا آخرَ، فأنا أهلٌ أن أغفرَ له**»(١).

وتارةً تُضافُ التقوى إلى عقابِ اللَّهِ وإلى مكانِه، كالنارِ، أو إلى زمانِه، كيومِ القيامةِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١]، وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٨١]، ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة:٤٨، ١٢٣].

ويدخلُ في التقوى الكاملةِ فعلُ الواجباتِ وتركُ المحرَّماتِ والشبهاتِ، وربما دخلَ فيها بعدَ ذلكَ فعلُ المندوباتِ، وتركُ المكروهاتِ، وهيَ أعلى درجاتِ التَّقوى، قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿الم ﴿١﴾ ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:١-٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ﴾ إلى قولِه: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧].

---

(١) أخرجه: الترمذي (٣٣٢٨).

قال مُعاذُ بنُ جبلٍ: يُنادَى يومَ القيامةِ: أين المتقونَ؟ فيقومون في كَنَفٍ من الرحمنِ لا يحتجِبُ منهُم ولا يستتـرُ، قالُوا لَهُ: مَن المتَّقونَ؟ قال: قومٌ اتَّقوا الشِّركَ وعبادةَ الأوثانِ، وأخلصُوا للَّهِ بالعبادةِ.

وقالَ ابنِ عباسٍ: المتَّقونَ الذين يحْذَرون من اللَّهِ عقوبتَه في تركِ ما يعرِفُون من الهُدى، ويَرجونَ رحمته في التصديقِ بما جاء به.

وقال الحسنُ: المتقونَ اتَّقَوْا ما حُرِّم عليهِم، وأدَّوا ما افْتُرِضَ عليهم.

وقال عُمرُ بنُ عبد العزيزِ: ليسَ تقوى اللَّهِ بصيامِ النهارِ، ولا بقيامِ الليلِ، والتخليطِ فيما بيْنَ ذلكَ، ولكنَّ تقوى اللَّهِ تركُ ما حرَّم اللَّهُ، وأداءُ ما افترضَ اللَّه، فمن رُزِقَ بعدَ ذلك خيراً، فهو خيرٌ إلى خيرٍ.

وقال طلقُ بن حبيبٍ: التَّقوى أن تعملَ بطاعةِ اللَّهِ على نورٍ من اللَّهِ ترجُو ثوابَ اللَّه، وأن تتركَ معصيةَ اللَّهِ على نورٍ من اللَّهِ تخافُ عقابَ اللَّهِ.

وعن أبي الدرداءِ قالَ: تمامُ التقوى أن يتقيَ اللَّهَ العبدُ حتى يتقيَهُ من مثقال ذرَّةٍ، حتى يترك بعضَ ما يرى أنه حلالٌ خشـيةَ أن يكونَ حرامًا يكونَ حجابًا بينه وبين الحرامِ، فإنَّ اللَّهَ قد بيَّنَ للعبادِ الذي يُصيرهم إليه فقال: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، فلا تحقرنَّ شيئًا من الخيرِ أن تفعلَهُ، ولا شيئًا من الشرِّ أن تتقيَهُ.

وقال الحسنُ: ما زالتِ التَّقوى بالمتقينَ حتَّى تركُـوا كثيراً من الحلالِ مخافةَ الحرامِ.

وقال الثوريُّ: إنَّما سُمُّوا متقينَ، لأنهم اتقواْ ما لا يُتَّقَى.

وقال موسى بنُ أعْيَنَ: المتقونَ تنزَّهوا عن أشياءَ من الحلالِ مخافةَ أن يقعُوا

في الحرامِ، فسماهُم اللَّهُ متقينَ.

وقد سبقَ حديثُ: «**لا يبلغُ العبدُ أن يكونَ من المتقينَ حتَّى يدعَ ما لا بأسَ به حذرًا مما به بأس**»(١) وحديث: «**من اتَّقى الشُّبهاتِ استبرأ لدينِهِ وعِرْضِهِ**»(٢).

وقال ميمونُ بنُ مِهرانُ: المُتَّقي أشدُّ محاسبةً لنفسِهِ، من الشريكِ الشحيحِ لشريكه.

وقال ابنُ مسعودٍ في قولِهِ تعالى: ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾ [آل عمران: ١٠٢]، قال: أن يُطاعَ، فلا يُعصَى، ويُذكرُ فلا يُنْسَى، وأن يُشكرَ، فلا يُكفر.

وخرَّجه الحاكمُ مرفوعًا(٣)، والموقوفُ أصحُّ، وشكرُه يدخلُ فيه جميعُ فعلِ الطاعاتِ.

ومعنى «ذكرِهِ فلا يُنْسى»: ذكرُ العبدِ بقلبِهِ لأوامرِ اللَّهِ في حركاتِهِ وسكناتِهِ وكلماتِهِ فيمتثلها، ولنواهيهِ في ذلكَ كلِّه فيجتنبهَا.

وقد يغلِبُ استعمالُ التقوى على اجتنابِ المحرَّماتِ، كما قالَ أبو هريرةَ وسئلَ عن التَّقوى، فقالَ: هلْ أخذتَ طريقًا ذا شوْك؟ قالَ: نعم، قالَ: فكيف صنعتَ؟ قالَ: إذا رأيتُ الشوكَ عدلتُ عنه، أو جاوزتُه، أو قصرتُ عنه، قال: ذاك التَّقوى.

وأخذ هذا المعنى ابنُ المعتز فقال:

خلِّ الذُّنوب صَغيرَها وكبيرَها فهوَ التُّقَى

---

(١) أخرجه: الترمذي (٢٤٥١)، وابن ماجه (٤٢١٥).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ٢٠)، ومسلم (٥/ ٥٠ ـ ٥١).

(٣) الحاكم (٢/ ٢٩٤) موقوفًا.

واصْنَع كـمـاشٍ فَـوْقَ أرْ ضِ الشَّـوْكِ يحْـذَرُ مـا يرَى
لا تحْـقِـرَنَّ صـغـيـرةً إنَّ الجـبـالَ مـن الحَـصَى

وأصلُ التَّقوى: أن يعلمَ العـبدُ ما يُتَّقى ثم يتَّقِي، قال عـونُ بنُ عبدِ اللَّهِ: تمامُ التقوى أن تبتغيَ علمَ ما لم تعلمْ منها إلى ما علمتَ منها.

وذكر معروفٌ الكرخيُّ عن بكر بن خُنيسٍ، قال: كيف يكون متقيًا من لا يدري ما يَتَّـقي؟ ثم قال مـعروفٌ: إذا كنتَ لا تحسنُ تتـقي أكلتَ الرِّبا، وإذا كنتَ لا تُحسن تتقي لقيتك امرأةٌ فلم تَغُضَّ بصرَك، وإذا كنتَ لا تُحسنُ تتقي وضعتَ سيفَكَ على عاتقِكَ، وقد قالَ النبيُّ ﷺ لمحمدِ بنِ مسلمةَ: «**إذا رأيتَ أُمَّتي قد اختلفَتْ، فاعمدْ إلى سيفِكَ فاضْرِبْ به أُحُدًا**».

ثم قال مـعروفٌ: ومجلسِـي هذا لعلَّهُ كان ينبغي لـنا أن نتَّقِيَـهُ، ثم قالَ: ومجيئُكم مـعِي من المسجدِ إلى هَاهُنا كان ينبغِي لنا أن نتـقيَهُ، أليسَ جاءَ في الحديثِ: «**إنه فتنةٌ للمتْبُوعِ، مذلةٌ للتابعِ**»(١)؟

يعني: مشيَ الناسِ خلفَ الرجلِ.

وفي الجملةِ، فالتقوى هي وصيةُ اللَّهِ لجميعِ خلقِه، ووصيةُ رسولِ اللَّهِ ﷺ لأمتهِ، وكانَ ﷺ إذا بَعَثَ أميـرًا على سَرِيَّةٍ أوصاهُ في خـاصةِ نفسهِ بتـقوى اللَّهِ، وبمن معهُ من المسلمينَ خيراً(٢).

---

(١) الخبر في «الحلية» (٨/ ٣٦٥).

وحديث مـحمد بن مـسلمة: أخرجه ابن مـاجه (٣٩٦٢). وحديث «إنه فـتنة للمتبـوع، ومذلة للتابـع» إنما هو من قولِ عمـر، أخرجـه: الدارمي (٥٢٣)، وخرج ـ أيضًـا ـ (٥٢٧) نحوه عن سعيد بن جبير.

(٢) أخرجه: مسلم (٥/ ١٣٩) من حديث بريدة.

ولما خطبَ رسولُ اللَّهِ ﷺ في حَجَّةِ الوداعِ يومَ النَّحرِ وصَّى الناسَ بتقوى اللَّهِ وبالسمعِ والطاعةِ لأئمتِهِم[١].

ولما وعَظَ الناسَ، وقالُوا له: كأنَّها موعظةُ مودِّعٍ فأوصِنَا، قالَ: «**أُوصيكم بتقْوَى اللَّهِ والسَّمْعِ والطَّاعة**»[٢].

وفي حديثِ أبي ذرٍّ الطويلِ الذي خرَّجهُ ابنُ حبانَ وغيرُه: قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، أوصِنِي، قالَ: «**أوصيكَ بتقوى اللَّهِ، فإنَّه رأسُ الأمرِ كلِّه**»[٣].

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ من حديثِ أبي سعيدِ الخدريِّ، قالَ: قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، أوصِنِي، قال: «**أوصيكَ بتقوى اللَّهِ، فإنَّه رأسُ كلِّ شيءٍ، وعليكَ بالجهادِ، فإنَّه رهبانيةُ الإسلامِ**»[٤].

وخرَّجه غيرُه ولفظُهُ: قالَ: «**عليكَ بتقوى اللَّهِ، فإنها جماعُ كلِّ خيرٍ**»[٥].

وفي الترمذيِّ عن يزيدَ بنِ سلمةَ: أنه سألَ النبيَّ ﷺ قال: يا رسولَ اللَّهِ، إني سمعتُ منكَ حديثًا كثيرًا فأخافُ أن ينسِيَني أوَّلَه آخرُه، فحدِّثني بكلمةٍ تكونُ جِماعًا، قالَ: «**اتَّقِ اللَّهَ فيما تعلَمُ**»[٦].

ولم يزلِ السلفُ الصالحُ يتواصَوْنَ بهَا، كان أبو بكرٍ الصديقُ ﷺ، يقولُ في خطبتِهِ: أما بعدُ، فإنِّي أُوصيكُم بتقْوَى اللَّهِ، وأن تُثْنُوا عليه بما هو أهلُهُ،

---

(١) السابق (٤/ ٧٩ ـ ٨٠)، (٦/ ١٤ ـ ١٥) عن أم الحصين.

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/ ١٢٦)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣) عن العرباض بن سارية.

(٣) أخرجه: ابن حبان (٣٦١).

(٤) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٨٢).

(٥) أخرجه: الطبراني في «الصغير» (٩٢٩)، وأبو يعلى (١٠٠٠).

(٦) أخرجه: الترمذي (٢٦٨٣).

وأن تَخلطُوا الرغبةَ بالرهبةِ، وتجمعُوا الإلحافَ بالمسألةِ، فإنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ أثنى على زكريا وأهلِ بيتِـهِ، فقالَ: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ**﴾ (1) [الأنبياء: ٩٠].

ولَمَّا حضرتهُ الوفاةُ، وعـهدَ إلى عمرَ، دعاهُ فوصَّاهُ بوصـيَّةٍ، وأوَّلُ ما قالَ لهُ: اتَّقِ اللَّهَ يا عُمرُ.

وكتبَ عُـمَرُ إلى ابنِهِ عـبدِ اللَّه: أمَّا بـعدُ، فإني أوصـيك بتقـوى اللَّهِ عزَّ وجلَّ، فإنَّه من اتَّقـاه وقاهُ، ومنْ أقـرضَهُ جـزاه، ومنْ شكرهُ زاده، فاجـعلِ التَّقوى نصبَ عينيك وجلاء قلبك.

واستعمل عليُّ بنُ أبي طالبٍ رجلاً على سَرِيَّةٍ، فقالَ لَهُ: أُوصيكَ بتقوى اللَّهِ عـزَّ وجلَّ الذي لا بُدَّ لك من لقـائِهِ، ولا مُنتـهى لك دونَه، وهو يَملكُ الدنيا والآخرة.

وكتبَ عُمـرُ بنُ عبدِ العزيزِ إلى رجلٍ: أُوصيكَ بتـقْوَى اللَّهِ عزَّ وجلَّ التي لا يقبلُ غيرَها، ولا يرحَمُ إلا أهلَها، ولا يُثـيبُ إلا عليها، فإنَّ الواعظينَ بها كثيرٌ، والعاملينَ بها قليلٌ، جعلنا اللَّهُ وإيَّاكَ من المتقينَ.

ولما وُلِّي خطبَ، فحَمِد اللَّهَ، وأثنى عليه، وقالَ: أُوصيكم بتقوى اللَّهِ عزَّ وجلَّ، فإنَّ تقـوى اللَّهِ عزَّ وجلَّ خلفٌ من كلِّ شيءٍ، وليس مـن تقوى اللَّهِ خلَفٌ.

وقـالَ رجلٌ ليـونسَ بنِ عُبـيـدٍ: أوصِنِي، فـقـالَ: أُوصيك بتـقـوى اللَّهِ والإحسانِ. فإنَّ اللَّهَ مع الذين اتَّقوا والذين هم محسِنُون.

---

(١) أخرجه: ابن أبي شيبة (١٣/ ٢٥٨)، والحاكم (٢/ ٢٨٣).

وقال له رجلٌ يُريدُ الحَـجَّ: أوصِنِي، فقالَ له: اتَّقِ اللَّهَ، فـمن اتَّقى اللَّهَ فلا وحشةَ عليه.

وقيل لرجلٍ من التابعينَ عندَ موتِه: أوصِنَا، فـقالَ: أوصيكُم بخاتمةِ سورةِ النحلِ: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾ [النحل:١٢٨].

وكتبَ رجلٌ من السلـفِ إلى أخٍ له: أوصيكَ بتقْـوَى اللَّه، فإنَّها أكـرمُ ما أسررتَ، وأزينُ مـا أظهرتَ، وأفضلُ مـا ادَّخرتَ، أعاننَا اللَّهُ وإيَّاك عليـها، وأوجبَ لنا ولكَ ثوابَها.

وكتبَ رجلٌ إلى أخٍ لهُ: أُوصيكَ وأنفسَنا بالتقْـوى، فإنَّها خيرُ زادِ الآخرةِ والأُولى، واجعلْهَا إلى كلِّ خـيرٍ سبيلكَ، ومنْ كلِّ شرٍّ مهـربَك، فقدْ توكل اللَّهُ عزَّ وجلَّ لأهلِهَا بالنجاةِ مما يحذرُون، والرزق من حيثُ لا يحتسبُونَ.

وقال شعـبةُ: كنتُ إذا أردتُ الخروجَ، قلتُ للحكمِ: ألك حاجـةٌ؟ فقال: أوصيكَ بما أوصَى به النبيُّ ﷺ معاذَ بنَ جبلٍ: «**اتَّق اللَّهَ حيثُما كنتَ، وأتْبعِ السيئةَ الحسنةَ تمْحُها، وخالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حسنٍ**»(١) .

وقد ثبتَ عن النبيِّ ﷺ أنه كان يقـولُ في دعائِهِ: «**اللَّهُمَّ إني أسـألُك الهُدى والتُّقى والعفَّة والغِنى**»(٢) .(٣) .

* * *

(١) أخرجه: الترمذي (١٩٨٧).

(٢) أخرجه: مسلم (٨/ ٨١).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤١١ ـ ٤٢٠).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾

قال اللّـهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:١٤٥]، وقد قرئ «الدركُ» بسكونِ الراءِ وتحريكِها وهيَ لغتانِ، قال الضحاكُ: الدرْكُ إذا كان بعضُها فوقَ بعضٍ، والدركُ إذا كان بعضُها أسفلَ من بعضٍ، وقال غيرُه: الجنةُ درجاتٌ والنارُ دركاتٌ.

وقد تسمَّى النارُ درجات أيضًا، كما قالَ تعالى بعد أن ذكر أهلَ الجنة وأهلَ النارِ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام:١٣٢]، وقال: ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ﴾ [آل عمران:١٦٢-١٦٣]، قال عبدُ الرحمن بن زيدِ بنِ أسلمَ: درجاتُ الجنةِ تذهبُ علوًّا ودرجاتُ النارِ تذهبُ سفُولاً.

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسنادِهِ عن عكرمةَ في قولِهِ تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ [الحجر:٤٤]، قالَ: لها سبعةُ أطباقٍ.

وعن قتادةَ: ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٤]، قال: هي واللّهِ منازلٌ بأعمالهم.

وعن يزيدَ بنِ أبي مالكٍ الهمدانيِّ، قال: لجهنَّمَ سبعةُ نيران تأتلق ليس منها نارٌ إلا وهي تنظرُ إلى التي تحتَه مخافةَ أن تأكلَها.

وعن ابنِ جريجٍ في قولِهِ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ [الحجر:٤٤] قال: أولُها جهنَّمُ، ثمَّ لظَى، ثم الحطمةُ، ثم السعيرُ، ثم سقر، ثم الجحيمُ، ثم الهاويةُ، وفيها أبو جهل.

وروى سلامُ المدائنيُّ ـ وهو ضعيفٌ ـ عن الحسنِ عن أبي سنانَ عن

الضحـاكِ، قالَ: للنارِ سـبعةُ أبوابٍ هـي سبعـةُ أدراكٍ بعضُهـا على بعضٍ، فأعلاَها فيـه أهلُ التوحيدِ يعذَّبون على قدرِ أعمـالهم وأعمارهم في الدنيا ثم يخـرجون منهـا، وفي الثـاني اليـهودُ، وفي الثـالثِ النَّصَـارى، وفي الرابعِ الصابئُون، وفي الخامسِ المجوسُ، والسادسُ فيه مشركُو العربِ، وفي السابعِ المنافقونَ، وهو قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:١٤٥].

وروى العلاءُ بنُ المسيبِ عن أبيـهِ وخيثمةُ بنُ عبدِ الـرحمن قالا: قالَ ابنُ مسعودٍ: أيُّ أهلِ النارِ أشدُّ عذابًا؟ قالُوا: اليهودُ والنصارَى والمجوسُ، قال: لا ولكنَّ المنافقينَ في الدركِ الأسفلِ من النارِ في توابيت من نارٍ مطبقةٍ عليهم ليسَ لها أبوابٌ.

ورَوى عاصمٌ عن أبي صالحٍ عن أبي هريرةَ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء:١٤٥] قال: الدركُ الأسفلُ بـيوتٌ لها أبوابٌ تطبقُ عليها فيوقدُ من فـوقِهم ومن وتحتِهم، قال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ [الزمر:١٦].

وقال ابنُ المبـارِكِ، عن يحيى بن أيوبَ، عن عبيـدِ اللَّهِ بنِ زحرٍ، عن أبي يسـارٍ قال: الظلةُ من جـهنَّمَ فيـها سـبعـونَ زاويةً، في كلِّ زاويةٍ صنفٌ من العذابِ ليسَ في الأخرى.

وروى ابنُ أبي حاتمٍ بإسنـادِهِ عن كعبٍ، قال: اقـتحامُ العـقبةِ في كـتابِ اللَّهِ، يعني قوله: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [البلد:١١]، سبعينَ درجةً في النار.

وعن ضمرةَ قالَ: سمعتُ أبا رجاءٍ قال: بلغَنِي أنَّ العقبةَ التي ذكرَ اللَّهُ في كتابِهِ مطلعهَا سبعةُ آلافِ سنةٍ ومهبطُهَا سبعةُ آلافِ سنةٍ.

وعن عطيةَ عن ابنِ عمـرَ، قال في العقبةِ: جبلٌ في جـهنَّم، أفلا أجاوزه بعتقِ رقبةٍ؟!!

وعن مقاتلِ بنِ حـيَّانَ قالَ: هيَ عقبةٌ فـي جهنَّم، قيلَ: بأيٍّ شيءٍ تُقطعُ؟ قالَ: رقبةٌ.

وفي «الصحيحينِ» ولفظُه للبخاريِّ عن ابنِ عمرَ، قال: رأيتُ في المنامِ أنه جاءني ملكانِ في يدِ كلٍّ واحدٍ منهـما مقمعـةٌ من حديدٍ، ثم لقيني ملكٌ في يدِهِ مقمعةٌ من حديدٍ، قالُوا: لنْ تُرع، نعمَ الرجلُ أنتَ لو كنتَ تكثرُ الصلاةَ من الليلِ، فانـطلقُوا بي حتَّى وقـفُوا بي على شفـير جهنَّـم، فإذا هي مطويةٌ كطي البئر لها قرونٌ كقرونِ البئر، بين كلٍّ قرنينِ ملكٌ بيدِهِ مقمعةٌ من حديدٍ، وإذا فيـها رجال مـعلقون بالسلاسِلِ رءوسُـهُم أسفلُهم، وعـرفت رجالاً من قريشٍ فانصرفُوا بي عن ذاتِ اليمين، فقصصتُها على حفصةَ، فقصتها حفصةُ على رسولِ اللَّهِ ﷺ فقالَ: «**إنَّ عبدَ اللَّهِ رجلٌ صالحٌ**»[(١)] .

عن خالدِ بنِ عـميرٍ، قـال: خطبنا عتبـةُ بنُ غزوانَ فقـالَ: إنَّه ذُكِرلنا أنَّ الحجرَ يُلقى من شفةِ جهنَّم فيهوِي فيـها سبعينَ عامًا ما يدركُ لها قعْرًا، واللَّهِ لنملأنَّه، أفعجبْتُم؟ خرَّجهُ هكذا مسلمٌ موقـوفًا، وخرَّجه الإمامُ أحمدُ موقوفًا ومرفوعًا والموقوفُ أصحُّ[(٢)] .

وخرَّج الترمذيُّ من حديثِ الحسنِ، قالَ: قـالَ عتبةُ بن غُزوانَ على منبرِنَا هذا ـ يعني منبـرَ البصـرةِ ـ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**إنَّ الصخـرة العظيمـةَ لتُلْقَى من شفـيرِ جهنَّم فتـهوِي سبعينَ عـامًا وما تفضي إلى قـعرها**» قالَ: وكان عـمرُ يقولُ:

(١) أخرجه: البخاري (١/ ١٢٠)، ومسلم (٧/ ١٥٨، ١٥٩).
(٢) مسلم (٨/ ٢١٥ ـ ٢١٦)، وأحمد (٤/ ١٧٤)، (٥/ ٦١).

أكثِرُوا ذكرَ النارِ، فإنَّ حرَّها شديدٌ، وإن قعرَهَا بعيدٌ، وإن مقامعَها حديدٌ[١]، ثم قالَ: لا يعُرفُ للحسنِ سماعٌ من عتبةَ بنِ غزوانَ.

وخرَّج مسلمٌ أيضًا من حديثِ أبي هريرةَ، قالَ: كُنَّا عندَ النبيِّ ﷺ يومًا فسمعنا وجبةً، فقالَ النبيُّ ﷺ: «**أتدرونَ ما هذا؟**» فقلنا: اللَّه ورسولُه أعلمُ، قالَ: «**هذا حجرٌ أرسلَ في جهنَّم منذ سبعينَ خرِيفًا، فالآنَ انتهَى إلى قعرِهَا**»[٢].

وخرَّج أيضًا عن أبي هريرةَ قالَ: والذي نفسُ أبي هريرةَ بيدِه، إنَّ قعرَ جهنَّم لسبعين خرِيفًا[٣].

وخرَّج الحاكمُ منْ حديثِ أبي هريرةَ أيضًا عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**لو أُخذَ سبعُ خلفاتٍ بشحومهنَّ فألقينَ من شفيرِ جهنم ما انتهينَ إلى آخرِهَا سبعينَ عامًا**»[٤].

وخرَّج البزارُ والطبرانيُّ من حديثِ بريدةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**إنَّ الحجرَ ليزنُ سبعَ خلفاتٍ يُرمى به في جهنَّمَ فيهوِي سبعينَ خرِيفًا، وما يبلغُ قعرَهَا**»[٥].

وخرَّج ابنُ حبانَ في «صحيحِه» من حديثِ أبي مُوسى الأشعريِّ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**لو أنَّ حجرًا قُذفَ به في جهنَّم لهوَى سبعينَ خرِيفًا قبل أن يبلغَ قعرَهَا**»[٦].

وقد سبقَ من حديثِ أنسٍ وأبي سعيدٍ مَعنى حديثِ أبي هريرةَ في سماعِ الهدَّةِ.

---

(١) أخرجه: الترمذي (٢٥٧٥).

(٢) أخرجه: مسلم (٨/ ١٥٠).

(٣) أخرجه: مسلم (١/ ١٢٩).

(٤) أخرجه: الحاكم (٤/ ٦٠٦).

(٥) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٥٤٥٩)، وأخرجه البزار بلفظٍ مقاربٍ (٣٤٩٣ ـ كشف).

(٦) أخرجه: ابن حبان (١٦/ ٧٤٦٨).

وقال ابنُ المبـاركِ: أنبأنا يونسُ عن الزهريِّ، قالَ: بلغنا أنَّ معـاذَ بنَ جبلٍ كانَ يحـدِّثُ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**والذي نفْسِي بيدِه إنَّ ما بينَ شفةِ النارِ وقعرِها كصخرةٍ زنةُ سبعِ خلفاتٍ بشحومِهنَّ ولحومِهنَّ وأولادِهنَّ، تهوي من شفةِ النارِ قبلَ أن تبلغُ قعرَها سبعينَ خريفًا**»[1] .

قال ابنُ المباركِ: وإنَّ هُشَـيْمًا قالَ: أخبرني زكـريا بنُ أبي مريمَ الخزاعيُّ، قال: سمعتُ أبا أمامةَ يقولُ: إنَّ ما بين شفيـرِ جهنَّم مسيرةَ سبعينَ خريفًا من حجرٍ يهوي أو صخرةٍ تهوي عظَمُها لعِظَمُ عشرِ عُشراواتٍ عظامٍ سمانٍ، فقال له رجلٌ: هلْ تحتَ ذلك منْ شيءٍ يا أبا أمامةَ؟ قالَ: نعمْ، غيٌّ وآثامٌ[2] .

وقد رُوي هذا بإسنادٍ فيـه ضعفٌ من طريقِ لقمانَ بنِ عامـرٍ عن أبي أمامةَ عن النبيِّ ﷺ، وزادَ فيه قلتُ: وما غيٌّ وما آثامٌ؟ قال: «**بئرٌ يسيلُ فيهما صديدُ أهلِ النارِ**»، وهما اللتـانِ ذكرَهُمـا اللَّهُ تعالى في كـتابِه ﴿**فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾ [مريم:٥٩] وفي الفرقان: ﴿**يَلْقَ أَثَامًا**﴾ [الفرقان:٦٨].والموقوفُ أصحُّ.

وقد رُوي من وجهٍ آخرٍ، قـالَ حريزُ بنُ عثمانَ: حدَّثَني عـبدُ الرحمنِ بنُ ميسـرةَ الحضرميُّ عن أبي أمامةَ أنه كانَ يـقولُ: إنَّ جهنَّم ما بينَ شفتـيَها إلى قعرِها سبعـون، أو قالَ: خمسونَ خرِيفًا للحجرِ المتـردِّي، والحجرُ مثلُ سبعِ خلفاتٍ مملوءةٍ شحمًا ولحمًا.

خرَّجه الجوزجَانيُّ.

وروى مجالدٌ عن الشـعبيِّ ، عن مسروقٍ، عن عـبدِ اللَّهِ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**ما منْ حاكمٍ يحكمُ بينَ الناسِ إلا يُحبسُ يومَ القيامـةِ وملكٌ آخذٌ بقفاهُ حتى يقفَهُ**

(١) أخرجه: ابن المبارك في «الزهد» (ص ٨٦). (٢) المصدر السابق.

على جهنَّـم، ثم يرفعُ رأسَهُ إلى اللَّهِ عزَّ وجـلَّ، فإنْ قالَ له: ألقِـه ألقاهُ في مَـهوى أربعينَ خرِيفًا»[١] خرَّجه الإمامُ أحمدُ.

وروى عبدُ اللَّهِ بنُ الوليدِ الوصافيُّ، حدثنا عبدُ اللَّهِ بنُ عبيدِ بنِ عميرٍ عن أبيه، قالَ : قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «يجاءُ بالوالي يومَ القيامةِ فـينبذُ على جسرِ جهنمَ فيرتجُّ ذلك الجسـرُ به ارتجاجةً لا يبقى منه مفصلٌ إلا زالَ عن مكانه، فـإن كان مُطيعًا للَّه في عملهِ مَضَـوا به، وإنْ كـانَ عاصيًا للَّهِ في عملـه انخـرقَ به الجسرُ، فيهـوي في جهنَّم مقدارَ خمسينَ عامًا» فقال له عمرُ: من يطلبُ العملَ بعدَ هذا؟ قال أبو ذرٍ: من سلتَ اللَّه أنفـه وألصق خدَّه بالتـرابِ، فجـاء أبو الدرداءِ فقـال له عمـرُ: يا أبا الدرداءِ هلْ سمعتَ من النبيِّ ﷺ حديثًا حدَّثني به أبو ذرٍ، قـالَ: فأخبره أبو ذرٍ فقال: نعمْ ومع الخمسينَ خمـسونَ عامًا يهوِي به إلى النارِ، الوصافيُّ لا يحفظُ الحديثَ، كان شيخًا صالحًا رحمه اللَّهُ.

وروى سويدُ بنُ عبدِ العزيزِ وفيـه ضعفٌ شديدٌ عن سيار عن أبي وائلٍ أنَّ أبا ذرٍ قالَ لعـمرَ: سمـعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ فذكرَ مـعناه، وفي حديثه: «وإنْ كان مسيئًا انخرقَ به الجسرُ فهوَى في قعرِهَا سبعينَ خرِيفًا».

وفي موعظة الأوزاعيِّ للمنصـورِ، قالَ: أخبرَني يزيدُ بنُ جـابرٍ، عن عبدِ الرحـمنِ بنِ أبي عمـرةَ الأنصاريِّ أن أبا ذرٍ وسـلمانَ قـالا لعمـرَ: سمـعنا رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ، فذكراه بمعناهُ، وقالَ: «هوَى به في النارِ سبعينَ خرِيفًا» .

وفي «الصـحيـحينِ» عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ العبدَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ ما يتبينُ فيها، يزلُّ بها في النارِ أبعدَ ما بين المشرقِ والمغربِ»[٢] .

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٤٣٠).

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ١٢٥)، ومسلم (٨/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤).

وخرَّج الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ وابنُ ماجه من حديثِ أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**إنَّ الرجلَ ليتكلَّمُ بالكلمةِ لا يَرى بها بأسًا يهوِي بها في النارِ سبعينَ خريفًا**»(١) وخرَّج البزارُ نحوَه من حديثِ ابنِ مسعودٍ عن النبيِّ ﷺ.

وفي «تفسيرِ ابنِ جريرٍ» من روايةِ العوفيِّ عن ابنِ عباسٍ، في قولِه تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً**﴾ [البقرة: ٨٠]..

قالَ: ذُكِرَ أنَّ اليهودَ وجدُوا في التوراةِ مكتوبًا أن ما بينَ طرفي جهنَّم مسيرةُ أربعينَ سنةً إلى أن ينتهوا إلى شجرةِ الزقومِ ثابتة في أصل الجحيم.

وكان ابنُ عباسٍ يقولُ: إنَّ الجحيمَ سقرٌ وفيها شجرةُ الزقومِ، فزعمَ أعداءُ اللَّه أنه إذا خَلا العددُ الذي وجدُوا في كتابِهِم أيامًا معدودةً، وإنما يعني بذلكَ السيرَ الذي ينتهي إلى أصلِ الجحيمِ، فقالُوا: إذا خلا العدد انقضى الأجلُ فلا عذابَ، وتذهبُ جهنمُ وتهلكُ، فذلك قولُهُ: ﴿**لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً**﴾ [البقرة: ٨٠] يعنون بذلكَ الأجلَ، فقالَ ابنُ عباسٍ: لما اقتحمُوا من بابِ جهنَّم سارُوا في العذابِ حتى انتهَوا إلى شجرةِ الزقومِ آخرُ يومٍ من الأيامِ المعدودة، وهي أربعونَ سنةً، فلمَّا أكلُوا من شجرةِ الزقومِ وملؤوا البطونَ آخرَ يومٍ من الأيامِ المعدودةِ، قالَ لهمْ خزنةُ سقر: زعمتُم أنكم لن تمسَّكُمَ النارُ إلا أيامًا معدودةً وقد خلا العددُ وأنتم في الأبدِ، فأخذَ بهم في الصعودِ في جهنم يرهقونَ.

ففي هذه الروايةِ عن ابنِ عباسٍ أنَّ قعرَ جهنَّمَ ومسافةَ عمقِها أربعونَ عامًا، وأنَّ ذلك هو معنى ما في التوراةِ، ولكنَّ اليهودَ حرَّفُوه فجعلوهُ مسافةَ ما بين طرفيَها، وزعمُوا أنه إذا انقضتْ هذه المدةُ أنَّ جهنَّم تخربُ وتهلك، فإنَّ ذلك

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٣٦، ٢٩٧)، والترمذي (٢٣١٤)، وابن ماجه (٣٩٧٠).

من كذبِهِم على اللَّهِ، وتحريفِهِم التوراةَ(١) .

* * *

قوله تعالى: ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾

ورُوي عن ابنِ عباسٍ، في قولِهِ تعالى: ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ [النساء:١٤٨]، قال: لا يحبُّ اللَّه أن يدعُو أحدٌ على أحدٍ، إلا أنْ يكونَ مظلومًا، فإنَّه قد رُخِّصَ لهُ أن يدعُوَ على من ظلَمَهُ، وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ [النساء:١٤٨] ومن صَبَرَ فهوَ خيرٌ.

وقال الحسنُ: قد أرخصَ له أن يدعوَ على من ظَلَمَهُ، وذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ [النساء:١٤٨] ومن صبر فهو خيرٌ.

وقال الحسنُ: قد أرخصَ له أن يدعوَ على من ظلَمَه، من غيرِ أن يعتَدِي عليهِ. وروي عنه قالَ: لا تدعُ عليه، ولكنْ قُل: اللَّهُمَّ أعني عليه، واستخرِجْ حقِّي منه(٢) .

* * *

قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً

(١) «التخويف من النار» (٥٠ ـ ٥٦).

(٢) مختصر فيما روي عن أهل المعرفة والحقائق في معاملة الظالم السارق (ص ٤٢).

﴿رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

وقد اختلفَ العلماءُ في معنى قولِه ﷺ: «أَلحقُوا الفرائضَ بأهلِهَا»(١):

فقالتْ طائفةٌ: المرادُ بالفرائضِ الفروضُ المقدَّرةُ في كتابِ اللَّهِ تعالى، والمرادُ: أعطُوا الفروضَ المقدرةَ لمن سمَّاها اللَّهُ لهم، فما بقِيَ بعدَ هذه الفروضِ، فيستحقّه أوْلى الرجالِ، والمرادُ بالأوْلى: الأقربُ، كما يقالُ: هذا يلي هذا، أي: يَقرُبُ منه، فأقربُ الرجالِ هو أقربُ العَصَباتِ، يستحقُّ الباقي بالتعصيبِ، وبهذا المعنى فسَّر الحديثَ جماعةٌ من الأئمةِ، منهم: الإمامُ أحمدُ، وإسحاقُ بنُ راهويه، نقله عنهما إسحاقُ بنُ منصورٍ.

وعلى هذا، فإذا اجتمعَ بنتٌ وأختٌ وعمٌّ، أو ابنُ عمٍّ، أو ابنُ أخٍ، فينبغي أن يأخذَ الباقِي بعدَ نصفِ البنتِ العصبةُ، وهذا قولُ ابنِ عباسٍ، وكان يتمسَّكُ بهذا الحديثِ، ويقرُّ بأنَّ النَّاسَ كلَّهم على خلافِهِ، وذهبتْ الظاهريةُ إلى قولِهِ أيضًا.

وقال إسحاقُ: إذا كانَ مع البنتِ والأختِ عصبةٌ، فالعصبةُ أوْلَى، وإن لم يكن معَهُمَا أحدٌ، فالأختُ لها الباقي، وحُكي عن ابنِ مسعودٍ، أنه قالَ: البنتُ عصبةُ مَنْ لا عصبةَ له، وردَّ بعضُهم هذا، وقال: لا يصحُّ عن ابنِ مسعودٍ.

وكان ابنُ الزبيرِ ومسروقٌ يقولانِ بقولِ ابنِ عباسٍ، ثم رجعَا عنه.

وذهب جمهورُ العلماءِ إلى أن الأختَ مع البنتِ عصبةٌ لها ما فضلَ،

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ١٨٧ ـ ١٨٨ ـ ١٨٩) ومسلم (٥/ ٥٩) من حيث عبد اللَّه بن عباس ﵄.

منهم: عـمرُ، وعليٌّ، وعـائشـةُ، وزيدٌ، وابنُ مسـعودٍ، ومـعاذُ بنُ جـبلٍ، وتابعهم سائرُ العلماء.

وروى عبدُ الرزاق[١] ، أخبـرنا ابنُ جريجٍ: سـألتُ ابنَ طاووس عن ابنةٍ وأختٍ، فقالَ: كانا أبي يذكرُ عن ابنِ عباسٍ، عن رجلٍ، عن النبيِّ ﷺ فيها شيئًـا، وكان طاووسُ لا يرضَى بذلكَ الرجلِ، قالَ: وكان أبي يشكُّ فـيها، ولا يقولُ فيها شيئًا، وقد كانَ يسأل عنْهَا.

والظاهرُ ـ واللَّهُ أعلمُ ـ: أن مرادَ طاووس هو هذا الحديث، فإنَّ ابنَ عباسٍ لم يكنْ عندَهُ نصٌّ صـريحٌ عن النبيِّ ﷺ في ميـراثِ الأختِ مع البنتِ، إنما كان يتمسك بمثلِ عمومِ هذا الحديثِ.

ومـا ذكره طـاووسٌ أن ابنَ عبـاسٍ رواه عن رجل وأنه لا يرضـاه، فـابنُ عباسٍ أكثرُ رواياته للحديثِ عن الصـحابةِ، والصحابةُ كلُّهم عدولٌ قد رضي اللَّه عنهم، وأثنى عليهم، فلا عبرةَ بعد ذلك بعدمِ رضا طاووس.

وفي «صحيحِ البخاريِّ»[٢] عن أبي قَيْسٍ الأوْديِّ، عن هُزيلِ بنِ شُرحبيلَ، قالَ: جاءَ رجلٌ إلى أبي مُـوسى، فسألَهُ عن ابنةٍ وابنةِ ابنٍ وأختٍ لأبٍ وأمٍّ، فقالَ: للابنةِ النصفُ، وللأختِ مـا بَقِيَ وائتَ ابنَ مسعودٍ فسيُـتابعني، فأتى ابنَ مسـعودٍ، فذكـر ذلك له، فقال: لقـد ضللتُ إذًا وما أنا من المهـتدين، لأقضينَّ فيهـا بقضاءِ رسولِ اللَّه ﷺ: للابنةِ النِّصفُ، ولابنةِ الابنِ السُّـدُسُ تكْملَةُ الثلثين، ومـا بَقِيَ، فللأختِ، قال: فأتينا أبا مُـوسى، فأخبـرناه بقولِ ابنِ مسعودٍ، فقالَ: لا تسألونُي ما دامَ هذا الحَبْرُ فيكُم.

وفيـه ـ أيضًا ـ عن الأعْـمشِ، عن إبراهيمَ، عن الأسودِ بنِ يـزيدَ، قال:

(١) في «المصنف» (١٠/ ٢٦٠).
(٢) «الصحيح» (٨/ ١٨٨).

قَضى فينا معاذُ بنُ جبلٍ على عهدِ رسولِ اللَّه ﷺ: النصفُ للابنة، والنصفُ للأختِ، ثم تركَ الأعْمشُ ذِكْرَ عهْدِ رسولِ اللَّه ﷺ، فلم يذكره[(١)] .

وخرَّجه أبو داود[(٢)] من وجهٍ آخرَ عن الأسـودِ، وزادَ فيه: ونبيُّ اللَّهِ ﷺ يومئذٍ حيٌّ.

واستدلَّ ابنُ عباسٍ لقولِه بقولِ اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿**قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ**﴾ [النساء:١٧٦]، وكان يقولُ: أأنتم أعلمُ أمِ اللَّهُ؟ يعني أن اللَّهَ لم يجعلْ لها النصفَ إلا مع عدمِ الولدِ، وأنتم تجعلونَ لها النصفُ مع الولدِ وهو البنتُ[(٣)] .

والصوابُ: قولُ عمرَ والجمهورِ، ولا دلالةَ في هذه الآيةِ على خلافِ ذلكَ، لأن المرادَ بقولِه: ﴿**فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ**﴾ [النساء:١٧٦] بالفرضِ، وهذا مشروطٌ بعدمِ الولدِ بالكليةِ، ولهذا قال بعدَهُ: ﴿**فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ**﴾ [النساء:١٧٦]، يعني بالفرضِ، والأخت الواحدة إنَّما تأخذُ النصفَ مع عدمِ وجودِ الولدِ الذكرِ والأنثى، وكذلك الأختان فصاعدًا إنَّما يستحقُّون الثُّلثين مع عدمِ وجودِ الولدِ الذكرِ والأنثى، فإن كان هناك ولدٌ، فإن كان ذكرًا، فهو مقدَّمٌ على الإخوةِ مطلقًا ذكورُهم وإناثُهم، وإن لم يكنْ هناكَ ولدٌ ذكرٌ، بل أنثى، فالباقي بعد فرضِها يستحقُّهُ الأخُ مع أختهِ بالاتفاقِ، فإذا كانت الأختُ لا يُسقطُها أخوها، فكيفَ يُسقطها من هو أبعدُ منه من العَصَباتِ كالعمِّ وابنِهِ؟ وإذا لم يكن العصبةُ الأبعدُ مسقطًا لها، فيتعيَّنُ تقديمُها عليه، لامتناعِ مشاركتِهِ لها.

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ١٨٩).

(٢) «السنن» (٢٨٩٣).

(٣) أخرجه: عبد الرزاق (١٠/ ٢٥٤ ـ ٢٥٥).

فمفهومُ الآيةِ: أن الولدَ يمنعُ أن يكون للأختِ النصفُ بالفرضِ، وهذا حقٌّ، ليس مفهومُها أنَّ الأختَ تسقطُ بالبنتِ، ولا تأخذُ ما فضل من ميراثِهَا، يدلُّ عليه قولُهُ تعالى: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ﴾ [النساء:١٧٦]، وقد أجمعتِ الأُمَّةُ على أنَّ الولدَ الأُنثى لا يمنعُ الأخَ أن يرثَ من مالِ أختِه ما فضلَ عن البنتِ أو البناتِ، وإنَّما وجودُ الولدِ الأُنثى يمنعُ أنْ يحُوزَ الأخُ ميراثَ أختِهِ كُلَّه، فكما أنَّ الولدَ إن كانَ ذكرًا، منعَ الأخَ من الميراثِ، وإن كان أنثى، لم يمنعْهُ الفاضلَ عن ميراثِهَا، وإن منعَهُ حيازةَ الميراثِ، فكذلك الولدُ إن كان ذكرًا منعَ الأختَ الميراثَ بالكليّةِ، وإن كانَ أنثى، منعت الأختَ أن يفرضَ لها النصفُ، ولم تمنعْهَا أن تأخذَ ما فَضَلَ عن فرضِها، واللَّهُ أعلمُ.

وأمَّا قولُهُ: «**فما أبقتِ الفرائضُ، فلأوْلى رَجُلٍ ذكر**»، فقد قيل: إنَّ المرادَ به العَصَبَةُ البعيدُ خاصَّةً، كبني الإخوةِ والأعمامِ وبنيهم، دون العصبةِ القريبِ، بدليلِ أنَّ الباقي بعدَ الفروضِ يشترْكُ فيه الذكرُ والأنثى إذا كانَ العصبةُ قريبًا، كالأولادِ والإخوةِ بالاتفاقِ، فكذلك الأختُ مع البنتِ بالنصِّ الدالِّ عليه.

وأيضًا فإنه يُخَصُّ منه هذه الصورُ بالاتفاقِ، وكذلك يُخصُّ منه المُعْتَقةُ مولاة النعمة بالاتفاقِ، فتخصُّ منه صورةُ الأختِ مع البنتِ بالنصِّ.

وقالتْ طائفةٌ آخرونَ: المرادُ بقولِه: «**ألحقُوا الفرائضَ بأهلِهَا**»: ما يستحقُّه ذوو الفروضِ في الجملة، سواءٌ أخذُوه بفرضٍ أو بتعصيبٍ طرأ لهُم، والمرادُ بقولِه: «**فما بَقِيَ، فلأوْلى رجلٍ ذكر**» العصبةُ الذي ليس له فَرْضٌ بحالٍ.

ويدلُّ عليه أنه قد رُوِي الحديثُ بلفظٍ آخرَ، وهو: «**اقسموا المالَ بينَ أهلِ**

الفرائضِ على كتابِ اللَّهِ»، فدخلَ في ذلكَ كلٌّ من كانَ مِنْ أهلِ الفروضِ بوجهٍ من الوجوهِ.

وعلى هذا، فما تأخذُهُ الأختُ مع أخيها، أو ابنِ عمِّها إذا عصبَهَا هو داخلٌ في هذه القسمةِ، لأنها منْ أهلِ الفرائضِ في الجملةِ، فكذلكَ ما تأخذُه الأختُ مع البنتِ.

وقالتْ فرقةٌ أخرى: المرادُ بأهلِ الفرائضِ في قولِهِ: **«ألحقُوا الفرائضَ بأهلها»**، وقولُهُ: **«اقسموا المالَ بين أهلِ الفرائضِ»**، جملةُ من سمَّاه اللّهُ في كتابهِ من أهلِ المواريثِ من ذوي الفروضِ والعصباتِ كلِّهم، فإنَّ كلَّ ما يأخذهُ الورثةُ، فهو فرضٌ فرضَهُ اللَّهُ لهُم، سواءٌ كان مقدَّرًا أو غيرَ مقدّر، كما قالَ بعدَ ذكرِ ميراثِ الوالدينِ والأولادِ:

﴿**فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ**﴾ [النساء:١١]، وفيهم ذو فرْضٍ وعصبةٍ، وكما قال: ﴿**لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا**﴾ [النساء:٧]، وهذا يشملُ العَصبَاتِ وذوي الفروضِ، فكذلكَ قولُهُ: **«اقسمُوا الفرائضَ بين أهلها على كتابِ اللَّهِ»**، يشملُ قسمتَهُ بينَ ذوي الفروضِ والعصباتِ على ما في كتابِ اللَّهِ، فإنْ قَسَمَ على ذلكَ ثمَّ فضَلَ منه شيءٌ، فيختصُّ بالفاضلِ أقربُ الذكورِ من الورثةِ، وكذلكَ إن لم يُوجدَ في كتابِ اللَّهِ تصريحٌ بقسمتهِ بين من سمَّاه اللَّهُ من الورثةِ، فيكونُ حينئذٍ المالُ لأولى رجلٍ ذَكَرٍ منهم[١].

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٦٤ ـ ٤٦٩).

سُورَةُ المَائِدَةِ

قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾

إن البرَّ يطلقُ باعتبار معنيينِ:

أحدُهُما: باعتبارِ معاملةِ الخلقِ بالإحسانِ إليهم، وربَّما خصَّ بالإحسانِ إلى الوالدينِ، فيقالُ: برُّ الوالدينِ، ويطلقُ كثيرًا على الإحسانِ إلى الخلقِ عمومًا، وقد صنفَ ابنُ المباركِ كتابًا سماه: «كتاب البرِّ والصلةِ»، وكذلكَ في «صحيحِ البخاريِّ»، و«جامعِ الترمذيِّ»: «كتاب البرِّ والصِّلة»، ويتضمن هذا الكتابُ الإحسانَ إلى الخلقِ عمومًا، ويقدَّم فيه برُّ الوالدينِ على غيرِهمَا.

وفي حديثِ بهزِ بنِ حكيمٍ، عن أبيه، عن جدِّهِ، أنه قالَ: يا رسولَ اللَّهِ مَنْ أبرُّ؟ قالَ: «**أُمُّكَ**»، قال: ثم من؟ قال: «**ثمَّ أباك**»، قال: ثم مَنْ؟ قالَ: «**ثم الأقربُ فالأقربُ**»(١).

ومن هذا المعنى: قولُ النبيِّ ﷺ: «**الحجُّ المبرورِ ليسَ له جزاء إلا الجنَّة**»(٢)، وفي «المسندِ» أنه ﷺ سُئلَ عن برِّ الحجِّ، فقالَ: «**إطعامُ الطَّعامِ، وإفشاءُ السَّلامِ**»، وفي روايةٍ أخرى: «**وطيبُ الكلامِ**».

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/٣ ـ ٥)، وأبو داود (٥١٣٩)، والترمذي (١٨٩٧).

(٢) أخرجه: البخاري (٣/٢)، ومسلم (٤/١٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكان ابنُ عمرَ رضيَ اللَّه عنهمـا يقولُ: البرُّ شيءٌ هيِّنٌ: وجهٌ طليقٌ وكلامٌ ليِّنٌ.

وإذا قـرنَ البرُّ بالتَّـقوى، كـمـا في قولِه عـزَّ وجلَّ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾[المائدة:٢]، فقدْ يكونُ المرادُ بالبرِّ: معاملةَ الخلقِ بالإحسانِ، وبالتَّقوى: معاملةَ الحـقِّ بفعلِ طاعتِه، واجتنـابِ محرَّماته، وقد يكونُ أُريدَ بـالبرِّ: فعلُ الواجباتِ، وبـالتقوى: اجتنابُ المحـرَّماتِ، وقولُهُ: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة:٢] قد يُرادُ بالإثمِ: المعاصِي، وبـالعدوان: ظلمُ الخلقِ، وقد يُرادُ بالإثمِ: مـا هو مَحـرَّمٌ في نفسِـهِ كالزِّنى، والسَّـرقةِ، وشـربِ الخمـرِ، وبالعُدوانِ: تجاوزُ ما أذنَ فيه إلى ما نُهِيَ عنـهُ ممَّا جنسُهُ مأذونٌ فيه، كقتلِ مَنْ أُبيح قتلُهُ لقِـصاصٍ، ومن لا يُباحُ، وأخـذُ زيادةٍ على الواجبِ من الناسِ في الزكاةِ ونحوِها، ومجاوزةِ الجلدِ الذي أمرَ به في الحدودِ ونحوِ ذلك.

والمعنى الثاني من معنى البرِّ: أن يُرادَ به فعلُ جميعِ الطاعاتِ الظاهرةِ والباطنةِ، كقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧]، وقد رُوِيَ أنَّ النبيَّ ﷺ سئلَ عن الإيمانِ، فتلا هذه الآيةَ[١].

فالبرُّ بهذا المعنى يدخلُ فيه جمـيعُ الطاعاتِ الباطنةِ كالإيمانِ باللَّهِ وملائكتِهِ

---

(١) رواه ابن أبي حاتمٍ ـ كما في «التفسير» لابن كثير (١/ ٢٩٦) ـ، وأعله ابن كثير بالانقطاع.

وكتبِهِ ورسلِهِ، والطاعاتِ الظاهرةِ كإنفاقِ الأموالِ فيما يحبُّه اللَّهُ، وإقامِ الصلاةِ، وإيتاءِ الزكاةِ، والوفاءِ بالعهدِ، والصَّبرِ على الأقدارِ، كالمرضِ والفقرِ، وعلى الطَّاعاتِ، كالصَّبرِ عند لقاءِ العدوِّ(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾

في «الصحيحين»(٢) عن عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه، أنَّ رجلاً من اليهودِ قال له: يا أميرَ المؤمنينَ، آيةٌ في كتابِكُم لو علينا مَعشرَ اليهودِ نزلتْ، لاتَّخذنا ذلك اليومَ عيدًا. فقالَ: أيُّ آيةٍ؟ قالَ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]. فقال عمرُ: إنِّي لأعلمُ اليومَ الذي نزلَتْ فيه، والمكانَ الذي نزلتْ فيه، نزلَتْ ورسولُ اللَّه ﷺ قائمٌ بعرَفَةَ يوم جُمعةٍ.

وخرَّجَ الترمذيُّ(٣) عن ابنِ عباسٍ نحوَه، وقالَ فيهِ: نزلتْ في يومِ عيدٍ من يومِ جمعةٍ ويومِ عرفةَ.

العيدُ هو موسمُ الفرحِ والسرورِ، وأفراحُ المؤمنينَ وسرورُهم في الدنيا إنما هوَ بمولاهُم، إذا فازُوا بإكمالِ طاعتِهِ، وحازوا ثوابَ أعمالِهِم بوثوقِهم بوعدِهِ لهم عليها بفضلِهِ ومغفرتِهِ، كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٨٤ ـ ٨٦).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ١٨)، (٥/ ٢٢٤)، (٦/ ٦٣)، (٩/ ١١٢)، ومسلم (٨/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩).

(٣) «الجامع» (٣٠٤٦).

فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾(١) [يونس:٥٨].

* * *

وقد يجتمعُ في يومٍ واحدٍ عيدانِ، كما إذا اجتمعَ يومُ الجمعةِ مع يومِ عرفةَ أو يومِ النَّحْرِ، فيزدادُ ذلك اليومُ حُرْمةً وفضلاً، لاجتماعِ عيدينِ فيه. وقد كانَ ذلك؛ اجتمعَ للنبيِّ ﷺ في حجتِه يومَ عرفةَ، فكانَ يومَ جمعةٍ، وفيه نزلتْ هذه الآيةُ: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [المائدة:٣]، وإكمالُ الدِّينِ في ذلك اليومِ حصلَ من وجوهٍ:

منها: أنَّ المسلمينَ لم يكونُوا حجُّوا حجَّةَ الإسلامِ بعدِ فرضِ الحجِّ قبل ذلكَ، ولا أحدٌ منهم، هذا قولُ أكثرِ العلماءِ أو كثيرٌ منهم، فكمُل بذلك دينُهم لاستكمالِهِم عملَ أركانِ الإسلامِ كلِّها.

ومنها: أنَّ اللَّهَ تعالى أعادَ الحجَّ على قواعدِ إبراهيمَ عليه السلامُ، ونفَى الشركَ وأهلَه، فلم يختلطْ بالمسلمينَ في ذلكَ الموقفِ منهم أحدٌ. قال الشعبيُّ: نزلتْ هذه الآيةُ على النبيِّ ﷺ وهو واقفٌ بعرفةَ حين وقفَ موقفَ إبراهيمَ، واضمحلَّ الشِّرْكُ، وهُدِّمتْ منارُ الجاهليةِ، ولم يَطُفْ بالبيتِ عُريانٌ.

وكذا قالَ قتادةُ وغيرُه. وقد قيل: إنه لم ينزلْ بعدَها تحليلٌ ولا تحريمٌ، قاله أبو بكر بنُ عياشٍ.

وأمَّا إتمامُ النِّعمةِ فإنَّما حصلَ بالمغفرةِ، فلا تتم النِّعْمةُ بدونها، كما قالَ لنبيه ﷺ: ﴿**لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ**

(١) «لطائف المعارف» (٤٧٨ ـ ٤٧٩).

صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح:٢]، وقالَ تعالى في آيةِ الوضوءِ: ﴿وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:٦] ، ومن هنا استنبط محمدُ بنُ كعبٍ القرظيُّ بأنَّ الوضوءَ يكفِّرُ الذنوبَ، كما وردتْ السُّنَّةُ بذلك صريحًا، ويشهدُ له أيضًا أنَّ النبيَّ ﷺ سمعَ رجلاً يدعُو ويقولُ: اللَّهُمَّ إني أسألُك تمامَ النِّعْمةِ. فقال له: «تمامُ النِّعْمَةِ: النَّجاةُ من النَّارِ، ودخولُ الجنَّة»[1] ، فهذه الآيةُ تشهدُ لما رُوِي في يومِ عرفةَ أنه يومُ المغفرةِ والعتقِ من النارِ[2] .

* * *

[قال البخاريُّ] [3] : «بابُ: زيادةِ الإيمانِ ونُقْصَانِه»:

وقولِ اللَّهِ تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف:١٣]، ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر:٣١].

وقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، فإذا تركَ شيئًا من الكمالِ فهوَ ناقصٌ.

استدلَّ البخاريُّ على زيادةِ الإيمانِ ونقصانِه بقولِ اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف:١٣]، وفي زيادةِ الهدَى إيمانٌ آخرُ، كقوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم:٧٦].

ويُفسَّرُ هذا الهدَى بما في القلوبِ منَ الإيمانِ باللَّهِ وملائكتِهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخرِ، وتفاصيلِ ذلك.

ويفسَّرُ بزيادةِ ما يترتبُ على ذلكَ منَ الأعمالِ الصالحةِ: إمَّا القائمةُ

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٣١ ـ ٢٣٥)، والترمذي (٣٥٢٧) من حديث معاذ بن جبل ﷺ.

(٢) «لطائف المعارف» (٤٨٦ ـ ٤٨٧).

(٣) «صحيح البخاري» (١/ ١٧).

بالقلوبِ، كالخشيةِ للَّهِ ومحبتِـهِ ورجائه والرضا بقضائِهِ والتوكلِ عليه، ونحوِ ذلك. أو المفعولةِ بالجوارحِ كالصلاةِ والصـيامِ والصدقةِ والحجِّ والجهادِ والذكرِ والأمرِ بالمعروف والنهي عن المنكرِ ونحوِ ذلك.

وكلٌّ ذلك داخلٌ فـي مسـمَّى الإيمـانِ عندَ السلفِ وأهلِ الحـديثِ ومَنْ وافقَهم، كما سبقَ ذكرُهُ.

واستدلَّ - أيضًا - بقولِهِ تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر:٣١].

وفي معنى هذه الآيةِ: قـولُهُ تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال:٢]، وقولُهُ: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة:١٢٤].

ويفسَّر الإيمانُ في هذهِ الآياتِ بمثلِ ما فُسِّر به الهدَى في الآياتِ المتقدمةِ.

واسـتدلَّ - أيـضًا - بقـولِ اللَّهِ عـزَّ وجلَّ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]، فدلَّ عـلى أنَّ الدِّينَ ذو أجزاءٍ، يكملُ بكمـالِها، وينقصُ بـفواتِ بعضِها.

وهذه الآيةُ نزلتْ في آخرِ حياةِ النبيِّ ﷺ في حجةِ الوداعِ، وقد قيلَ: إنه لم ينزلْ بعدَها حلالٌ ولا حرامٌ، كما قالَهُ السديُّ وغيرُهُ.

وكذا قالَ عليُّ بنُ أبي طلحةَ عنِ ابنِ عبـاسٍ: قال: بعثَ اللَّهُ نبيَّه بشهادةِ أن لا إله إلا اللَّهُ، فلما صـدَّق بها المؤمنون زادَهم الصلاةَ، فلما صـدَّقوا بها زادَهُم الصيامَ، فلما صدَّقوا به زادهم الـزكاةَ، فلما صدَّقوا بها زادَهم الحجَّ، فلمَّا صدَّقوا به زادَهم الجهادَ، ثم أكملَ اللَّهُ لهم دينَهم، فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة:٣].

ومعلومٌ أنَّ النبيَّ ﷺ وأصحابَهُ لـم يحجُّوا حجةَ الفـرضِ إلا ذلك العامَ،

فلما حجُّوا حـجةَ الإسلامِ كملَ لهمُ الدينُ بتكميلِهم أركـانَ الإسلامِ حينئذٍ، ولم يكنِ الدّينُ قبلَ ذلكَ ناقصًا، كنقصِ مَنْ تركَ شـيئًا من واجباتِ دينه، بل كانَ الدِّينُ في كلِّ زمـانٍ كامـلاً بالنسبةِ إلى ذلكَ الزمـانِ بما فيـه من الشرائعِ والأحكام، وإنما هو ناقصٌ بالنسبةِ إلى زمانِ الذي بعـدَه الذي تجدَّد فـيه من الشرائعِ والأحكامِ ما لم يكنْ قبلَ ذلك.

كما يقالُ: إنَّ شريعةَ الإسلامِ أكملُ من شريعةِ موسى وعيسَى، وإنَّ القرآنَ أكملُ من التوراةِ والإنجيلِ.

وهذا كما سمَّى النبيُّ ﷺ النساءَ ناقصاتِ دينٍ، وفَسَّـر نقصانَ دينهنَّ بتركِ الصلاةِ والصـيامِ في زمنِ حيضِـهِنَّ، مع أنها قائمـةٌ في تلكِ الحالِ بما وجبَ عليها من غيرِ الصلاةِ، ولكنَّ نقـصانَ دينِها بالنسبةِ إلى مَن هي طاهرةٌ تصلِّي وتصومُ.

وهذا مبنيٌّ على أنَّ الدِّين هو الإسلامُ بكمالِه، كمـا تقدَّمَ ذكرُهُ، والبخاريُّ عنده أنَّ الإسلامَ والإيمانَ واحدٌ، كما تقدَّم ذكرُهُ.

وقد احـتجَّ سفيانُ بنُ عـيينةَ وأبو عبيـدٍ وغيرُهم بهـذه الآيةِ على تفاضلِ الإيمانِ.

قال أبو عـبيـدٍ: قد أخـبرَ اللَّهُ أنَّه أكمـلَ الدِّينَ في حجةِ الـوداعِ في آخرِ الإسلامِ، وزعم هؤلاءِ أنَّه كان كاملاً قـبل ذلك بعشرينَ سنةً في أولِ ما نزلَ الوحيُ.

قال: وقد اضطَّر بعضُهم حين أدخلتُ عليه هذه الحجةَ إلى أن قالَ: الإيمانُ ليسَ هو مجموعَ الدِّين، ولكنَّ الدِّين ثلاثةُ أجـزاءٍ، فالإيمانُ جزءٌ، والفرائضُ

جزءٌ، والنوافلُ جزءٌ.

قال أبو عبيدٍ: وهذا غيرُ ما نطقَ به الكتابُ، فإنَّ اللَّهَ أخبرَ أن الإسلامَ هو الدِّينُ برمَّته، وزعمَ هؤلاءِ أنَّه ثلثُ الدِّينِ. انتهى.

فالمرجئةُ، عندهم: الإيمانُ التصديقُ، ولا يدخلُ فيه الأعمالُ، وأمَّا الدِّينُ فأكثرُهم أدخلَ الأعمالَ في مسمَّاه، وبعضُهم خالفَ في ذلك - أيضًا، والآيةُ نصٌّ في ردِّ ذلكَ. واللَّهُ أعلمُ.

ثمَّ خرَّج البخاريُّ[1] في هذا البابِ حديثينِ:

أحدُهما: حديثُ: هشامٍ الدستْوائيِّ: ثنا قتادةُ عنْ أنسٍ عنِ النبيِّ ﷺ قال: **«يخرُجُ منَ النارِ من قالَ: لا إله إلا اللَّهُ وفي قلبه وزْنُ شعيرةٍ من خيرٍ، ويخرُجُ من النارِ منْ قال: لا إله إلا اللَّهُ وفي قلبِه وزنُ بُرَّةٍ منْ خيرٍ، ويخرُجُ من النارِ من قال: لا إله إلا اللَّهُ وفي قلبِه وزْنُ ذَرَّةٍ من خيْرٍ»**.

خرَّجه عن مسلمِ بنِ إبراهيمَ، عن هشامٍ، به.

ثمَّ قال: وقال أبانُ: ثنا قتادةُ ثنا أنس، عن النبيِّ ﷺ: **«من إيمانٍ»**، مكانَ: **«منْ خَيْرٍ»**.

ففي هذه الروايةِ التي ذكرَها تعليقًا: التصريحُ بتفاوتِ الإيمانِ الذي في القلوبِ.

وأيضًا؛ فيها: التصريحُ بسماعِ قتادة له من أنسٍ، فزالَ ما كان يتوهَّم من تدليسِ قتادةَ.

---

(١) «صحيح البخاري» (١/ ١٧ - ١٨).

وقد خرَّج البخاريُّ هذه اللفظةَ في حديثِ أنسٍ في أواخرِ كتابهِ مسندةً، من روايةِ معبدِ بنِ هلالٍ العنزيِّ، عن أنسٍ.

وخرَّج[(١)] حديثَ أبي سعيدٍ الخدريِّ، عن النبيِّ ﷺ في هذا المعنى فيما تقدَّم من «كتابِهِ» باختلافِ لفظِ الخيرِ والإيمانِ، كاختلافِ حديثِ أنسٍ.

والحديثُ نصٌّ في تفاوتِ الإيمانِ الذي في القلوبِ، وقد سبقَ القولُ في تفاوتِ المعرفةِ وتفاضلِها فيما تقدَّم.

الحديثُ الثاني الذي خرَّجه[(٢)] في هذا البابِ:

حديثُ: طارقِ بنِ شهابٍ، عنْ عمرَ بنِ الخطابِ، أنَّ رجلاً منَ اليهودِ، قالَ لهُ: يا أميرَ المؤمنينَ، آيةٌ في كتابِكُم تقرءونها لو علينا معْشرَ اليهود نزلتْ لاتَّخذنا ذلك اليوم عيداً، قال: أيُّ آيةٍ؟ قال: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً**﴾ [المائدة:٣]، فقال عمرُ: قدْ عرفْنا ذلك اليومَ، والمكانَ الذي نزلَتْ فيه على النبيِّ ﷺ، نزلَتْ على النبيِّ ﷺ وهوَ واقِفٌ بعرفَةَ يومَ الجُمُعةِ.

وقد خرَّجه ابنُ جريرٍ الطبريُّ في «تفسيرِهِ»[(٣)] من وجهٍ آخرَ عن عمرَ، وزاد فيه: أنَّه قال: وكلاهُما بحمدِ اللَّهِ لنا عيدٌ.

وخرَّج الترمذيُّ[(٤)]، عن ابنِ عباسٍ، أنَّه قرأ هذه الآيةَ، وعندَه يهوديٌّ، فقال: لو أُنزلتْ هذه الآيةُ علينَا لاتخذنا يومَها عيداً، فقال ابنُ عباسٍ: فإنَّها

(١) «صحيح البخاري» (٦/٥٦ ـ ١٩٨)، (٩/١٥٨).
(٢) «صحيح البخاري» (١/١٨)، (٥/٢٢٤)، (٦/٦٣)، (٩/١١٢).
(٣) (٦/٨٢).
(٤) «الجامع» (٣٠٤٤).

نزلتْ في يوم عيدينِ: في يومِ جُمعةٍ، ويومِ عرفةَ.

فهذا قد يُـؤخذُ منه أنَّ الأعيادَ لا تكونُ بالرأي والاختراعِ كـما يفعلُه أهلُ الكتابيْنِ من قبلنا، وإنَّما تكونُ بالشرعِ والاتباعِ.

فهذه الآيةُ لما تضمنتْ إكمالَ الدِّين وإتمامَ النِّعمة، أنزلَها اللَّهُ في يومٍ شرعَه عيدًا لهذه الأمة من وجهينِ:

أحدهما: أنه يوم عيدِ الأسبوعِ، وهو يومُ الجمعةِ.

والثاني: أنَّه يومُ عـيدِ أهلِ الموسمِ، وهوَ يومُ مجـمَعِهم الأكـبرِ وموقـفِهم الأعظم.

وقد قيل: إنَّه يومُ الحجِّ الأكبرِ.

وقد جـاء تسمـيتُه عـيدًا في حديثٍ مـرفوعٍ خـرَّجه أهلُ «السنن»[١] من حديثِ عـقبةَ بن عـامرٍ، عن النبيِّ ﷺ قـال: **«يوم عُـرفـةَ، ويومُ النَّحْـرِ، وأيامُ التشريقِ، عيدُنا أهلَ الإسلامِ، وهي أيامُ أكلٍ وشربٍ»**.

وقد أُشكلَ وجهُهُ على كثـيرٍ من العلماءِ، لأنَّه يدلُّ على أنَّ يومَ عرفةَ يومُ عيدٍ لا يصامُ، كما رُوي ذلك عن بعضِ المتقدِّمينَ.

وحملَهُ بعضُهم على أهلِ الموقفِ.

وهو الأصحُّ، لأنَّه اليومُ الذي فيـه أعظمُ مجامِعِهم، ومواقـفِهم، بخلافَ أهلِ الأمصارِ فإنَّ يومَ اجـتماعهم يوم النحرِ، وأمَّا أيامُ التشـريقِ فيشاركُ أهلُ الأمصارِ أهلَ الموسمِ فيها؛ لأنها أيامُ ضحاياهم وأكلهم من نسكِهِم، هذا قولُ جمهورِ العلماءِ.

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٥٢)، وأبو داود (٢٤١٩)، والترمذي (٧٧٣)، والنسائي (٥/ ٢٥٢).

وقال عطاءٌ: إنَّما هي أعيادٌ لأهلِ الموسمِ، فلا يُنْهى أهل الأمصارِ عن صيامِها.

وقولُ الجمهورِ أصحُّ.

ولكنَّ الأيامَ التي تحدثُ فيها حوادثُ من نعمِ اللَّه على عبادِه، لوْ صامَها بعضُ الناسِ شكرًا، من غيرِ اتخاذِها عيدًا، كان حسنًا، استدلالاً بصيامِ النبيِّ ﷺ عاشوراءَ، لما أخبرَه اليهودُ بصيامِ موسى له شكرًا، وبقولِ النبيِّ ﷺ لمَّا سُئلَ عن صيامِ يومِ الاثنين، قال: «**ذلك يومٌ وُلدتُ فيه، وأُنزلَ عليَّ فيه**»(١).

فأمَّا الأعيادُ التي يجتمعُ عليها الناسُ، فلا يُتجاوزُ بها ما شرعَهَ اللَّهُ لرسولِه، وشرعَه الرسولُ لأُمَّتِه.

والأعيادُ هي مواسمُ الفرحِ والسرورِ، وإنَّما شرعَ اللَّهُ لهذه الأمَّة الفرحَ والسرورَ بتمامِ نعمته وكمالِ رحمتِه، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا**﴾ [يونس: ٥٨]، فشرعَ لهم عيدينِ في سنةٍ، وعيدًا في كلِّ أسبوعٍ.

فأمَّا عيدا السنةِ:

فأحدُهُما: تمامُ صيامهم الذي افترضه عليهم كلَّ عامٍ، فإذا أتمُّوا صيامَهم أعتقهم من النارِ، فشرعَ لهم عيدًا بعدَ إكمالِ صيامِهم، وجعله يوم الجوائزِ، يرجعونَ فيه من خروجِهم إلى صلاتِهم وصدقتِهم بالمغفرةِ، وتكونُ صدقةُ الفطرِ وصلاةُ العيدِ شكرًا لذلكَ.

---

(١) أخرجه: مسلم (٣/ ١٦٧ ـ ١٦٨) من حديث عبد اللَّه بن معبد الزِّمَّاني، عن أبي قتادة الأنصاريِّ مرفوعًا به.

وعبد اللَّه بن معبد لم يسمع من أبي قتادة. قاله البخاريُّ في «التاريخ الكبير» (٣/ ١/ ١٩٨).

والعيدُ الثاني: أكبرُ العيدينِ، عندَ تمامِ حجِّهم، بإدراكِ حجِّهم بالوقوفِ بعرفةَ، وهو يومُ العتقِ منَ النارِ، ولا يحصل العتقُ من النارِ والمغفرةُ للذنوبِ والأوزارِ في يومٍ من أيامِ السنةِ أكثرَ منه، فجعلَ اللَّهُ عقبَ ذلك عيدًا.

بل هو العيدُ الأكبرُ، فيكملُ أهلُ الموسمِ فيه مناسكَهم، ويقضُون فيه تفثَهم، ويوفونَ نذورَهم، ويطوفونَ بالبيتِ العتيقِ.

ويشاركُهُم أهلُ الأمصارِ في هذا العيدِ؛ فإنَّه يشاركونَهم في يومِ عرفةَ في العتقِ والمغفرةِ، وإنْ لم يشاركوهم في الوقوفِ بعرفةَ، لأنَّ الحجَّ فريضةُ العمرِ لا فريضةَ كلِّ عامٍ، بخلافِ الصيامِ.

ويكون شكرُ عيدِ أهلِ الأمصارِ: الصلاةُ والنحرُ، والنحرُ أفضلُ من الصدقةِ التي في يومِ الفطرِ، ولهذا أمرَ اللَّهُ نبيَّه ﷺ أن يشكر نعمته عليه بإعطائه الكوثَرَ بالصلاةِ له والنَّحْرِ، كما شرع ذلك لإبراهيمَ خليلِه ـ عليه السلامُ ـ عند أمرِه بذبحِ ولدِه وافتدائِه بذِبْحٍ عظيمٍ.

وأمَّا عيدُ الأسبوعِ، فهو يومُ الجمعةِ، وهو متعلقٌ بإكمالِ فريضةِ الصلاةِ، فإنَّ اللَّهَ فرضَ على عبادِه المسلمينَ الصلاةَ كلَّ يومٍ وليلةٍ خمسَ مرَّاتٍ، فإذا كمُلَتْ أيامُ الأسبوعِ التي تدورُ الدنيا عليهَا، وأكملُوا صلاتَهم فيها، شرعَ لهم يومَ إكمالِهَا ـ وهوَ اليومُ الذي انتهى فيه الخلقُ، وفيه خُلِقَ آدمُ، وأُدخلَ الجنَّةَ [1] ـ عيدًا، يجتمعونَ فيه على صلاةِ الجمعةِ.

وشرع لهم الخطبة تذكيرًا بنعمِ اللَّهِ عليهم، وحثًّا لهم على شكرها، وجعلَ

---

(١) أخرجه: مسلم (٣/ ٦) من حديث أبي هريرة مرفوعًا بلفظ: «خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة، وفيه أخرج منها».

شهودَ الجمعةِ بأدائها كفارةً لذنوب الجمعة كلِّها وزيادة ثلاثةِ أيامٍ[١] .

وقد رُوي أن يومَ الجمعةِ أفضلُ من يومِ الفطرِ ويومِ النحر .

خرَّجه الإمامُ أحمدُ في «مسندِه»[٢] .

وقاله مجاهدٌ وغيرُه .

ورُوي أنه حجُّ المساكين[٣] .

ورُوي عن عليٍّ، أنَّه يومُ نسكِ المسلمينَ .

وقال ابن المسيبِ : الجمعةُ أحبُّ إليَّ من حجِّ التطوعِ .

وجعلَ اللَّهُ التبكيرَ إلى الجمعةِ كالهدي، فالمبكِّرُ في أول ساعةٍ كالمهدي بدنة، ثم كالمهدي بقرةً، ثم كالمهدي كبشًا، ثم كالمهدي دجاجةً، ثم كالمهدي بيضةً[٤] .

ويوم الجمعةِ يومُ المزيدِ في الجنة، الذي يزورُ أهلُ الجنةِ فيه ربَّهم، يتجلَّى لهم في قدرِ صلاةِ الجمعة .

وكذلك رُوي في يومِ العيدينِ أنَّ أهلَ الجنةِ يزورونَ ربَّهم فيها، وأنَّه يتجلَّى بها لأهلِ الجنَّةِ عمومًا، يشاركُ الرجالَ فيها النساءُ .

فهذه الأيامُ أعياد للمؤمنينَ في الدنيا، وفي الآخرةِ عمومًا .

وأمَّا خواصُّ المؤمنينَ، فكلُّ يومٍ لهم عيدٌ، كما قالَ بعضُ العارفينَ .

---

(١) أخرجه : مسلم (٣/ ٨) من حديث أبي هريرة ﷺ .

(٢) «المسند» (٣/ ٤٣٠) من حديث أبي لبابة بن المنذر مرفوعًا بلفظ : **«إن يوم الجمعة سيد الأيام.. وهو أعظم عند اللَّه من يوم الأضحى، ويوم الفطر»** .

(٣) راجع : «السلسلة الضعيفة» للألباني (ح ١٩١) .

(٤) رُوي هذا المعنى في حديث أبي هريرة ﷺ، أخرجه : البخاري (٢/ ٣)، ومسلم (٣/ ٤ ـ ٨) .

ورُوي عن الحرمِ[1] : كلُّ يومٍ لا يُعصَى اللَّهُ فيه فهو عيدٌ.

ولهـذا رُوي أنَّ خواصَّ أهـلِ الجنة يزورون ربَّهم، وينظرونَ إليـه كلَّ يومٍ مرتينِ بُكرةً وعشيًا.

وقد خرَّجه الترمذيُّ[2] من حديث ابنِ عمرَ ـ مرفوعًا، وموقوفًا.

ولهذا المعنى ـ واللَّهُ أعـلمُ ـ لما ذكر النبيُّ ﷺ الرؤيةَ في حديثِ جريرِ بنِ عبـدِ اللَّهِ البجليِّ[3] ، أمـرَ عـقبَ ذلك بالمحـافظة على الصـلاةِ قـبل طلوعِ الشـمسِ وقبلَ غـروبِهـا، فإنَّ هذينِ الوقـتينِ وقتٌ لرؤيةِ خـواصِّ أهلِ الجنة ربَّهم، فـمن حافـظَ على هاتينِ الصـلاتينِ على مواقـيـتهـمـا، وأدائهمـا، وخشوعهما، وحضورِ القلبِ فيهما، رُجي له أن يكون ممن ينظرُ إلى اللَّهِ في الجنةِ في وقتهما.

فتـبين بهذا: أن الأعيـادَ تتعلقُ بإكـمالِ أركانِ الإسـلامِ، فالأعيـادُ الثلاثةُ المجتمَعُ عليها تتعلقُ بإكمالِ الصلاةِ والصيامِ والحجِ.

فأمَّا الزكاة، فليس لها زمانٌ معينٌ تكملُ فيـه. وأما الشهادتانِ، فإكمالُهما هو الاجتهادُ في الصدق فيهما، وتحقيقِهما والقيامِ بحقوقِهما.

وخواصُّ المؤمنينَ يجتهدون على ذلكَ كلَّ يومٍ ووقت، فلهذَا كانتْ أيامُهُم كلُّها أعيادًا، ولذلكَ كانتْ أعيادُهم في الجنةِ مستمرةً. واللَّهُ أعلم[4] .

* * *

(١) كذا بالأصل.
(٢) «الجامع» (٣٣٣٠).
(٣) أخرجه: البخاري (١/ ١٤٥ ـ ١٥٠)، (٦/ ١٧٣)، (٩/ ١٥٦)، ومسلم (٢/ ١٣/ ١١٤).
(٤) «فتح الباري» (١/ ١٥٤ ـ ١٦٣).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

[قال البخاريُّ](١) : ثنا عبدُ اللَّهِ بنُ يوسفَ: أنبا مالكٌ، عن عبدِ الرَّحمنِ ابنِ القاسمِ، عن أبيه، عن عائشةَ زوجِ النبيِّ ﷺ قالتْ: خرجنا مع رسولِ اللَّهِ ﷺ في بعضِ أسْفاره حتى إذا كُنَّا بالبيْداء - أو بذاتِ الجيْشِ - انقطع عِقْدٌ لي، فأقام رسولُ اللَّهِ ﷺ على التماسِهِ، وأقام النَّاسُ معه وليسُوا على ماءٍ، فأتى النَّاسُ إلى أبي بكرٍ، فقالوا: ترى ما صنَعَتْ عائشةُ؟ أقامتْ برسولِ اللَّهِ ﷺ والناسِ، وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماءٌ، فجاء أبو بكر ورسولُ اللَّهِ ﷺ واضعٌ رأسَه على فخذِي قد نام، فقال: حَبَسْتِ رسولَ اللَّهِ ﷺ والناسَ، وليسوا على ماءٍ، وليس معهم ماءٌ، قالت عائشة: فعاتَبَنِي أبو بكر، وقال ما شاء اللَّه أن يقولَ، وجعل يطْعَنُني بيده في خاصرتي، فلا يمنعُني من التَّحرُّك إلا مكانُ رسولِ اللَّهِ ﷺ على فخذي فنامَ حتَّى أصبحَ على غيرِ ماءٍ، فأنزلَ اللَّهُ آيةَ التيممِ، فتيمَّمُوا، فقال أسيدُ بنُ الحُضَيْرِ: ما هي بأول بركَتِكُم يا آل أبي بكرٍ، قالت: فبعثنا البعيرَ الذي كُنتُ

---

(١) «صحيح البخاري» (١/ ٩١)، (٥/ ٩)، (٦/ ٦٣ - ٦٤)، (٧/ ٥٢)، (٨/ ٢١٥).

عليه فأصبْنَا العِقْدَ تحته.

قيل: إن الرواية هنا: «فقامَ حتَّى أصبح» ورواه في «التفسيرِ» بلفظ: «فنام حتى أصبح» وهو لفظُ مسلمٍ[(١)] ، وكذا في «الموطأ»[(٢)] .

هذا السياقُ سياقُ عبدِ الرحمنِ بنِ القاسمِ لهذا الحديثِ عن أبيه، عن عائشة. وقد رواه هشامُ بنُ عُرْوةَ عن أبيه، عن عائشةَ فخالَفَ في بعضِ ألفاظِه ومعانيه مما لا يَضُرُّ. وقد خرَّجه البخاريُّ في موضعٍ آخرَ، وفي بعضِ ألفاظِه اختلافٌ على عروة ـ أيضًا.

ومما خالفَ فيه: أنه ذكر أنَّ عائشة استعارتْ قلادةً من أسماءَ فسقطتْ، وأنَّ النبيَّ ﷺ أرسلَ رَجُلَيْنِ في طلَبِها وليس معهما ماءٌ فنزلتْ آيةُ التيمم.

وفي روايةٍ: أنَّهُما صلَّيا بغيرِ وضوءٍ.

وهذا يمكنُ الجمعُ بينه وبين حديثِ القاسمِ، عن عائشة بأن القلادة لَمَّا سقطتْ ظنُّوا أنها سقطتْ في المنزلِ الماضي، فأرسلُوا في طلبِها وأقامُوا في منزلِهم وباتُوا فيه، وفقد الجميعُ الماءَ حتى تعذَّر عليهم الوضوء.

وفي حديثِ هشامٍ: أنَّ ذلك كان ليْلَةَ الأبواءِ. وفي روايةٍ عنه: أنَّ ذلك المكانَ كان يُقال له: الصلصل.

وروى ابنُ إسحاقَ: حدثني يحيى بن عبَّادِ بنِ عبدِ اللَّه بنِ الزُّبيرِ، عن أبيه، عن عائشة، قالتْ: أقبلْنا مع رسولِ اللَّه ﷺ في بعضِ أسفارِه، حتى إذا كنَّا بِتُرْبانَ ـ بلدٌ بينه وبين المدينةِ بَرِيدٌ وأميالٌ، وهو بلدٌ لا ماءَ به ـ وذلك من

---

(١) «صحيح مسلم» (١/ ١٩١).
(٢) «الموطأ» (ص ٥٧).

السَّحَر، انْسَلَّتْ قلادةٌ لي من عُنُقِي فوقَعتْ ـ وذكر بقيةَ الحديثِ.

خرَّجه الإمامُ أحمدُ[١].

وقد رُوِي هذا الحديثُ من حديثِ عمَّارِ بن ياسرٍ ـ أيضًا ـ أنَّ النبيَّ ﷺ عَرَّسَ بأولاتِ الجيشِ ومعه عائشةُ، فانقطعَ عِقْدٌ لها من جزعِ ظَفَارِ، فحُبِس الناسُ ابتغاءَ عِقْدِها ذلك حتى أضاءَ الفجرُ، وليس مع الناسِ ماءٌ، فتغَيَّظ عليها أبو بكرٍ وقال: حبَسْتِ الناسَ وليس معهم ماء؟ فأنزلَ اللَّهُ على رسوله ﷺ رُخْصةَ التطهر بالصَّعيدِ الطَّيِّب، فتيمم المسلمون مع رسولِ اللَّهِ ﷺ ـ وذكر الحديثَ.

خرَّجه الإمامُ أحمدُ وأبو داود ـ وهذا لفظُهُ ـ والنسائيُّ وابنُ ماجه[٢]، وفي إسنادِهِ اختلافٌ.

والآية التي نزلتْ بسببِ هذه القصةِ كانتْ آيةَ المائدة، فإنَّ البخاريَّ خرَّج هذا الحديثَ في «التفسيرِ» من كتابِهِ هذا من حديثِ ابنِ وهبٍ، عن عمرٍو عن عبدِ الرحمنِ بنِ القاسمِ، وقال في حديثِهِ: فنزلتْ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ**﴾ هذه الآيةُ [المائدة:٦].

وهذا السفرُ الذي سَقَط فيه قلادةُ عائشة أو عِقْدُها كان لغزوة المُرَيْسِيعِ إلى بني المُصْطَلِق من خُزاعةَ سنةَ ستٍّ، وقيلَ: سنة خمسٍ، وهو الذي ذكره ابنُ سعدٍ عن جماعةٍ من العلماءِ، قالُوا: وفي هذه الغزوةِ كان حديثُ الإفْك.

وقد ذكر الشافعيُّ: أنَّ قصةَ التيممِ كانتْ في غزوةِ بني المُصْطَلِق، وقال:

---

(١) «المسند» (٦/ ٢٧٢).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٣٢٠ ـ ٣٢١)، وأبو داود (٣٢٠)، والنسائي (١/ ١٦٧)، وابن ماجه (٥٦٥، ٥٧١).

أخبرَني بذلك عددٌ من قريشٍ منْ أهلِ العلمِ بالمغازِي وغيرِهم.

فإن قيلَ: فقد ذكر غيـرُ واحدٍ، منهُم: ابنُ عبدِ البرِّ: أنه يُحتملُ أنْ يكون الذي نزلَ بسببِ قـصة عـائشةَ الآيةُ التي في سورةِ النسـاءِ، فإنهـا نزلتْ قبلَ سورةِ المائدة بيقـين، وسورةُ المائدةِ من أواخرِ ما نزل من القـرآنِ، حتى قيلَ: إنها نزلتْ كلُّها أو غالبُها في حَجَّةِ الوداعِ، وآيةُ النساءِ نزولها متقدِّمٌ.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»(١) من حديثِ سعدِ بنِ أبي وقَّـاصٍ أنها نزلتْ فيه لمَّا ضَرَبَه رجلٌ قد سكِر بِلَحْي بعير، ففزَرَ أنْفَه.

وفي «سننِ أبي داودَ» والنسائيِّ وابنِ ماجه(٢) ، عن عليٍّ، أنَّ رجلاً صلَّى وقد شربَ الخمرَ، فخَلَّطَ في قراءتِهِ، فنزلتْ آيةُ النساءِ.

فقـد تبيَّن بهـذَا: أنَّ الآيةَ التي في سورةِ النساءِ نزلـتْ قبلَ تحريمِ الخـمرِ، والخمرُ حُرِّمتْ بعد غزوةِ أُحُدٍ، ويقال: إنهـا حرمتْ في محاصرةِ بني النضيرِ بعدَ أُحُدٍ بيسيـرٍ، وآيةُ النساءِ فيها ذكر التيممِ، فلو كـانتْ قد نزلتْ قبل قصةِ عائشةَ لما توقفوا حينئذٍ في التيممِ، ولا انتظرُوا نزولَ آيةٍ أخرى فيه.

قيلَ: هذا لا يصحُّ؛ لوجوهٍ:

أحدها: أنَّ سببَ نزولِ آيةِ النساءِ قد صحَّ أنه كانَ مـا ينشأُ من شربِ الخمرِ من المفاسدِ في الصلاةِ وغيرِها، وهذا غـيرُ السببِ الذي اتَّفَقَت الرواياتُ عليه في قصةِ عـائشةَ، فدلَّ على أنَّ قصةَ عائشـةَ نزلَ بسببِها آيةٌ غـيرُ آيةِ النساءِ، وليسَ سوى آيةِ المائدةِ.

---

(١) (٥/١٢٦ ـ ١٤٦).

(٢) أخرجـه: أبو داود (٣٦٧١)، والنسائي في «الكبرى» كـما في «التحفـة» (١٠١٧٥)، ولم يعزه المزي إلى ابن ماجه.

والثاني: أنَّ آيةَ النساءِ لم تُحَرِّم الخمرَ مطلقًا بل عند حضورِ الصلاةِ، وهذا كان قبلَ أحد، وقصة عائشةَ كانتْ بعد غزوةِ أُحُدٍ بغيرِ خلافٍ، وليسَ في قصتِّها ما يناسبُ النهي عن قربانِ الصلاةِ مع السُّكْرِ حتى تُصَدَّر به الآيةُ.

وأمَّا تصديرُ الآيةِ بذكرِ الوضوءِ فلم يكنْ لأصلِ مشروعيتِه، فإنَّ الوضوءَ كان شُرِع قبلَ ذلك بكثيرٍ، كما سبقَ تقريرُه في أولِ «كتابِ الوضوءِ»، وإنَّما كان تمهيدًا للانتقالِ عنه إلى التيممِ عندَ العجزِ عنه، ولهذا قالتْ عائشةُ: فنزلتْ آيةُ التيممِ، ولم تقل: آيةُ الوضوءِ.

والثالث: أنه قد ورد التصريحُ بذلكَ في «صحيحِ البخاريِّ» كما ذكرناه.

وأمَّا توقُّفهم في التيممِ حتَّى نزلتْ آيةُ المائدةِ مع سبْقِ نزولِ التيممِ في سورة النساءِ، فالظاهرُ - واللَّهُ أعلمُ - أنَّهم توقَّفوا في جوازِ التيممِ في مثلِ هذه الواقعةِ، لأنَّ فَقْدَهم للماءِ إنما كانَ بسببِ إقامتِهم لطلبِ عقْدٍ أو قلادة، وإرسالِهم في طلبِها من لا ماءَ معه مع إمكانِ سيرِهم جميعًا إلى مكانٍ فيه ماءٌ، فاعتقدُوا أنَّ في ذلك تقصيرًا في طلبِ الماءِ، فلا يُباحُ معه التيممُ، فنزلتْ آيةُ المائدةِ مُبيِّنةً جوازَ التيممِ في مثلِ هذه الحالِ، وأنَّ هذه الصورةَ داخلةٌ في عمومِ آيةِ النساءِ.

ولا يُستبعدُ هذا، فقد كان طائفةٌ من الصحابةِ يعتقدونَ أنَّه لا يجوزُ استباحةُ رُخَصِ السَّفرِ من الفطرِ والقَصْرِ إلا في سفرِ طاعةٍ دونَ الأسفارِ المُباحةِ، ومنهم من خَصَّ ذلك بالسفرِ الواجبِ كالحجِّ والجهادِ، فلذلكَ توقَّفوا في جوازِ التيممِ للاحتباسِ عن الماءِ لطلب شيءٍ من الدنيا حتى بيَّن لهم جوازَهُ ودخولَهُ في عمومِ قولِه: ﴿فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً﴾ [المائدة: ٦]، ويدلُّ ذلك على

جوازِ التيممِ في سفرِ التجارةِ وما أشبهه من الأسفارِ المباحةِ، وهذا مما يَستأنس به من يقولُ: إنَّ الرُّخَصَ لا تُستباح في سفرِ المعصية.

وأمَّا دعوى نزولِ سورةِ المائدةِ كلِّها في حجَّةِ الوداعِ فلا تَصحُّ، فإن فيها آيات نزلتْ قبلَ ذلكَ بكثيرٍ، وقد صحَّ أن المقْدادَ قال للنبيِّ ﷺ يومَ بدرٍ: لا نقولُ لكَ كما قالَ بنو إسرائيل لموسى: اذهبْ أنتَ وربُّك فقاتلا إنَّا هَا هُنا قاعدُون، فدلَّ هذا على أنَّ هذه الآية نزلتْ قبل غزوةِ بدر. واللَّهُ أعلمُ.

وقد ذكرَ اللَّهُ تعالى التيممَ في الآيتينِ بلفظ واحد، فقال فيهما: ﴿وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة:٦].

فقولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ﴾ [المائدة:٦] ذكر شيئين مبيحين للتيمم:

أحدهما: المرضُ، والمرادُ به عندَ جمهورِ العلماءِ: ما كانَ استعمالُ الماءِ معه يُخشى منه الضررُ.

والثاني: السفرُ، واختلفُوا: هل هوَ شرطٌ للتيممِ مع عدمِ الماءِ، أم وقعَ ذكرُه لكونِهِ مظنَّة عدمِ الماءِ غالبًا، فإن عدمَ الماءِ في الحضرِ قليلٌ أو نادرٌ، كما قالَ الجمهورُ في ذكرِ السفرِ في آيةِ الرَّهْنِ، أنَّه إنما ذُكِر السَّفرُ لأنه مظنَّةُ عدمِ الكاتب، وليس بشرطٍ للرَّهنِ.

والجمهورُ: على أنَّ السفر ليس بشرطٍ للرهنِ ولا للتيممِ مع عدمِ الماءِ، وأنَّه يجوزُ الرهنُ في الحضرِ، والتيممِ مع عدمِ الماءِ في الحضرِ.

وقالت الظاهريةُ: السفر شرطٌ في الرَّهْنِ والتيممِ.

وعن أحمدَ روايةٌ باشتراطِ السفرِ للتيممِ خاصةً، وحُكي روايةً عن أبي حنيفة وعن طائفة من أصحابِ مالكٍ.

وعلى هذا: فلا فرق بين السفرِ الطويلِ والقصيرِ على الأصحِّ عندهم.

وقولُهُ: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾ [المائدة:٦].

قد قيل: إنَّ «أو» هنا بمعنى الواو، كما يقولُ الكوفيونَ ومنْ وافقَهُم، فإنه لما ذَكَر السببينِ المبيحينِ للتيممِ، وهما التضررُ باستعماله بالمرضِ ومظنةُ فقْدِه بالسفرِ ذكر ما يُستباحُ منه الصلاةُ بالتيممِ وهو الحدثُ، فإنَّ التيممِ يُبيحُ الصلاةَ من الحدثِ الموجودِ ولا يرفعُه عند كثيرٍ من العُلماءِ، وهو مذهبُ الشافعيِّ، وظاهرُ مذهبِ أحمدَ وأصحابِه، ولهذا قالُوا: يجب عليه أن ينوي ما يستبيحُه من العباداتِ وما يَستبيح فعلَ العباداتِ منه من الأحداثِ.

وقالتْ طائفةٌ: بل التيمم يرفع الحدثَ رفْعًا مؤقتًا بعدمِ القُدرةِ على استعمالِ الماءِ، وربَّما استدل بعضُهم بهذه الآيةِ، وقالُوا: إنَّما أمرَ اللَّهُ بالتيممِ مع وجودِ الحدثِ، ولو كانَ التيممُ واجبًا لكلِّ صلاةٍ أو لوقتِ كلِّ صلاةٍ ـ كما يقولُهُ من يقول: إنَّ التيممَ لا يرفعَ الحدثَ، على اختلافٍ بينهم في ذلك ـ لما كان لذكرِ الحدثِ معنًى.

والأظهرُ ـ واللَّهُ أعلمُ ـ: أنَّ «أو» ها هُنا ليست بمعنى الواو، بل هي على بابها، وأُريدَ بها: التقسيم والتنويع، وأنَّ التيممَ يُباح في هذه الحالاتِ الثلاثِ، واثنتان منهما مَظِنَّتان، وهُما: المرضُ والسفرُ، فالمرضُ مظنَّة التضررِ باستعمالِ الماء، والسفر مظنة عدم الماءِ، فإن وُجدتْ الحقيقةُ في هاتينِ المظنتينِ جازَ التيممُ، وإلا فلا.

ثمَّ ذكرَ قسمًا ثالثًا، وهو وجودُ الحقيقةِ نفسِها، فذكر أنَّ من كانَ مُحْدِثًا ولم يجدْ ماءً فلْيَتَيمَّم، وهذا يشملُ المسافرَ وغيرَه، ففي هذا دليلٌ على أنَّ التيممَ يجوز لمن لم يجدِ الماءَ، مسافرًا كان أو غيرَ مسافرٍ، واللَّهُ أعلمُ.

وقد ذكر سبحانَهُ حدثَين:

أحدهما: الحدثُ الأصغرُ، وهو المجيء من الغائطِ، وهو كنايةٌ عن قضاء الحاجةِ والتَّخَلِي، ويلتحقُ به كلُّ ما كانَ في معناهُ، كخروجِ الريحِ أو النجاساتِ من البدَنِ عندَ من يرى ذلكَ.

والثاني: ملامسةُ النساءِ، واختلفُوا: هل المرادُ بها الجماعُ خاصةً، فيكونُ حينئذٍ قد أمَرَ بالتيممِ من الحدثِ الأصغرِ والأكبرِ، وفي ذلكَ ردٌّ على من خالفَ في التيممِ للجنابةِ كما سيأتي ذكْرُهُ - إن شاءَ اللَّهُ تعالى - أو المرادُ بالملامسةِ مقدِّماتُ الجِماعِ من القُبْلةِ والمباشرةِ لشهوةٍ، أو مطلقُ التقاء البَشْرَتين، وعلى هذين القولينِ فلم يذكر في الآيةِ غيرَ التيممِ من الحدث الأصغر.

وقولُه تعالى: ﴿**فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً**﴾ [المائدة:٦] متعلِّقٌ بمن أحدثَ، سواءٌ كان على سفرٍ أو لم يكنْ، كما سبق تقريرُه، دون المريضِ؛ لأنَّ المريضَ لا يُشترط لتيممه فقْدُ الماءِ، هذا هو الذي عملَ به الأُمة سلفًا وخلفًا.

وحُكِيَ عن عطاءٍ والحسنِ: أنَّ فقْدَ الماء شرطٌ للتيممِ مع المرضِ - أيضًا - فلا يُباحُ للمريض أن يتيممَ مع وجودِ الماءِ وإن خشي التلفَ.

وهذا بعيدُ الصحةِ عنهما؛ فإنه لو لم يَجُزِ التيممُ إلا لفقدِ الماءِ لكان ذِكْرُ المرضِ لا فائدةَ له.

وقولُهُ: ﴿فَتَيَمَّمُوا﴾ [المائدة:٦] أصلُ التيممِ في اللغةِ القصدُ، ثم صارَ علمًا على هذه الطهارةِ المخصوصةِ.

وقولُهُ: ﴿صَعِيدًا﴾ [المائدة:٦] اختلَفُوا في المرادِ بالصعيدِ، فمنهُم: من فَسَّره بما تصاعدَ على وجهِ الأرضِ من أجزائها، ومنهم: من فسره بالتراب خاصةً.

وقولُهُ: ﴿طَيِّبًا﴾ [المائدة:٦] فسره من قال: الصعيدُ: ما تصاعدَ على وجهِ الأرضِ؛ بالطاهرِ، ومن فسره بالترابِ، قال: المرادُ بالصعيدِ الترابُ المُنْبت، كقوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ [الأعراف:٥٨] وهذا مذهبُ الشافعيِّ وأحمدَ في المشهورِ عنه.

وقالَ ابنُ عباسٍ: الصعيدُ الطيبُ ترابُ الحَرْثِ.

وقولُهُ: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة:٦] كقولِهِ في الوضوءِ: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة:٦].

وقد ذكرنا فيما سبَقَ في «أبوابِ الوضوءِ» أنَّ كثيرًا من العلماءِ أوجبوا استيعاب مسح الرأسِ بالماءِ، وخالفَ فيه آخرونَ، وأكثرُهم وافقُوا هاهُنا، وقالُوا: يجبُ استيعابُ الوجهِ والكفينِ بالتيممِ، ومنهُم من قال: يُجْزِئُ أكثرُهما، ومنهم من قال: يجزئُ مسحُ بعضِهما كالرأسِ - أيضًا.

وقولِ النبيِّ ﷺ لعمَّار: «**إنَّما يكفيك أن تضرب بيديك الأرضَ، ثم تمسحُ بهما وجهك وكفَّيْك**» يردُّ ذلك ويبينُ أنَّ المأمورَ به مسحُ جميعهما.

وسيأتِي الكلامُ على حدِّ اليدينِ المأمورِ بمسحِهِما في التيممِ - إن شاءَ تعالى.

وقولُهُ تعالى: ﴿مِّنْهُ﴾ [المائدة:٦] يستدلُّ به منْ قال: لا تيمم إلا بترابٍ لَهُ

غبارٌ يعلق باليـدِ، فإن قوله: ﴿مِنْهُ﴾ [المائدة:٦] يقتضي أن يكـونَ الممسوحُ به الوجهُ واليدان ببعض الصعيدِ، ولا يمكنُ ذلك إلا فيما له غبارٌ يَعْلَقُ باليد حتى يقع المسح به، ومَنْ خـالَفَ في ذلك، جـعَل «مِن» هاهُنا لأبعـد الغـايةِ، لا للتبعيض، وهو بعيد يأباه سياق الكلامِ، واللَّهُ تعالى أعلم[1] .

* * *

وقد أجمع العلماءُ على أنَّ مسح الوجـهِ واليدينِ بالترابِ في التيممِ فرضٌ لا بدَّ منه في الجملةِ، فإنَّ اللَّهَ تعالى يقولُ: ﴿فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ﴾ [المائدة:٦].

ولكن اختلفوا في قَدْر الفَرْضِ من ذلك:

فأمَّا «الوجهُ»:

فمذهبُ مـالكٍ والشافعيِّ وأحمدَ وجـمهورِ العلماءِ: أنه يجبُ استـيعابُ بشرتِهِ بالمسحِ بالترابِ، ومسْحُ ظاهرِ الشعرِ الذي عليه، وسواءٌ كان ذلك الشعر يجب إيصالُ الماءِ إلى ما تحتَه كـالشعرِ الخفيفِ الذي يَصِفُ البشرةَ، أم لا، هذا هو الصحيحُ.

وفي مذهبِنَا ومذهبِ الـشافعيِّ وجهٌ آخرُ: أنه يجب إيصـالُ الترابِ إلى ما تحتَ الشعـورِ التي يجبُ إيصالُ الماءِ إلى ما تحـتها، ولا يجبُ عند أصـحابِنَا إيصالُ الماءِ إلى باطنِ الفم والأنفِ، وإن وجبَ عندهم المضمـضةُ والاستنشاقُ في الوضوءِ.

وعن أبي حنيفةَ رواياتٌ، إحـدَاهَا: كقولِ الشافعيِّ وأحمـدَ. والثانية: إن

(١) «فتح الباري» (٢/ ٧ ـ ١٥).

ترك قدرَ دِرْهمٍ لم يُجـزئه، وإن تركَ دونَهُ أجْزأه. والثـالثةُ: إن تركَ دون ربعِ الوجـهِ أجزأه، وإلا فـلا. والرابعةُ: إن مـسح أكثـره وترك الأقلَّ منه أو من الذراعِ أجزأه، وإلا فلا، وحكاهُ الطحاويُّ عن أبي حنيفةَ وأبي يوسفَ وزُفَرَ.

وحكى ابنُ المنذرِ، عن سُليْمان بن داودَ الهاشـميِّ: أن مسحَ التيمم حُكْمُه حكْمُ مسحِ الرأس في الوضوءِ، يجزئُ فيه البعضُ.

وكلامُ الإمامِ أحمدَ يدلُّ على حكايةِ الإجماعِ على خلافِ ذلك.

قال الجوزجانيُّ: ثنا إسماعيلُ بنُ سعـيدِ الشالنجيُّ، قال: سألتُ أحمدَ بن حنبلٍ عمن ترك مسحَ بعضِ وجههِ في التيممِ؟ قال: يُعيدُ الصلاةَ. فقلتُ له: فما بالُ الرأسِ يجزئُ في المسحِ ولم يَجُز أن يتركَ ذلكَ من الوجهِ في التيممِ؟ فقال: لم يبلغْنا أن أحدًا تركَ ذلك من تيممه.

قال الشَّالنجيُّ: وقال أبو أيُّوبَ - يعني: سليـمانَ بنَ داودَ الهاشميَّ يجزئه في التيمـمِ إن لم يُصب بعضَ وجهه أو بعضَ كفَّـيه، لأنه بمنزلةِ المسح على الرأس؛ إذا تركَ منه بعضًا أجزأه.

قال الجوزجانيُّ: فذكرتُ ذلك ليحيى بنِ يحيى - يعني: النَّيْسابوريَّ فقال: المسحُ في التيممِ كما يَمْسَحُ الرأسَ، لا يتعمَّـد لتركِ شيء من ذلكَ، فإنْ بَقِيَ شيءٌ منه لم يُعِدْ، وليسَ هو عندي بمنزلةِ الوضوءِ.

قال الجوزجـانيُّ: لم نسمعْ أحدًا يتَّـبِعُ ذلكَ من رأسِهِ في المسحِ، ولا بينَ أصابعِهِ في التيممِ كما يتَّبِعُـوا في الوضوءِ بالتخليلِ، فأحسن الأقاويل منها ما ذكَرَه يحيـى بن يحيى: أن لا يتعمَّـد تركَ شيءٍ من ذلك، فإن بقي شيءٌ لم يُعِد. انتهى.

وظاهرُ هذا: يدلُّ على أنَّ مـذهبَ سليمـانَ بنِ داودَ ويحـيى بن يحـيى والجوزجانيِّ: أنه إذا ترك شيئًا من وجهه ويديه في التيممِ لم يُعِد الصلاةَ.

ونقل حـرْبٌ، عن إسحاقَ، أنه قـال: تضربُ بكفَّـيْك على الأرضِ، ثم تمْسح بهمـا وجهَك، وتَمُـرُّ بيديك على جـميع الوجه واللِّحْـية، أصـابَ ما أصابَ وأخطأ ما أخطأ، ثم تضرب مرة أخرى بكفَّيْك.

ومُرادُ إسحاقَ: أنه لا يشترط وصولُ التـرابِ إلى جميعِ أجزاءِ الوجهِ كما يقولُهُ من يقولُهُ من الشـافعيَّةِ وغيرِهم، حـتى نصَّ الشافعيُّ: أنه لو بَقَيَ من مَحلِّ الفرض شيءٌ لا يدركه الطَّرْفُ لم يصحَّ التيممُ.

واستشكل أبو المعالي الجُوَيْنيُّ تحـقُّق وصولِ الترابِ إلى اليدينِ إلى المرفقينِ بضربةٍ واحدةٍ، وقال: الذي يجبُ اعتقـادُه أنَّ الواجبَ استيعابُ المَحلِّ بالمسحِ باليدِ المغبَّرةِ من غير ربطِ الفكر بانبسـاطِ الغبارِ على جميع المحل، قال: وهذا شيء أظهر به، ولم أرَ منه بُدًا.

وحكى ابنُ عطية في «تفسـيرِهِ» عن محمدِ بنِ مـسلمةَ من المالكية: أنه لا يجبُ أن يُتْبَعَ الوجهُ بالترابِ كما يُتْـبعُ بالماءِ، وجعله كالخُفِّ وما بين الأصابعِ في اليدينِ ـ يعني: في التيممِ.

وحكى في وجـوبِ تخليلِ الأصابعِ وتحـريكِ الخاتَمِ قـولينِ لأصحـابِهِم: بالوجوبِ، والاستحبابِ.

وحكَى ابنُ حزمٍ في وجوبِ تخليلِ اللحيةِ بالترابِ اختلافًا.

وأما «اليدانِ»:

فأكثرُ العلماءِ على وجوبِ مـسح الكفين: ظاهرهما وباطنهما بالترابِ إلى

الكُوعين، وقد ذكرنا أن بعض العلماء لم يوجب استيعابِ ذلك بالمسح.

وحكى ابنُ عطية عن الشَّعْبيِّ: أنه يمسح الكفينِ فقطِ؛ لحديثِ عمَّارٍ، وأنَّه لم يُوجبْ إيصالَ الترابِ إلى الكُوعين، وهذا لا يصحُّ. واللَّهُ أعلمُ.

وإنَّما المرادُ بحديثِ عمَّارٍ، وبما قالُه الشعبيُّ وغيرُه من مسحِ الكفينِ: مسحُهما إلى الكُوعين، وقد جاء ذلك مقيَّداً، رواه أبو داود الطيالسيُّ[1]، عن شعبةَ، عن الحكَمِ: سمعَ ذَرَّ بن عبدِ اللَّه، عن ابنِ عبدِ الرحمنِ بنِ أبْزَى، عن أبيه، عن عمَّارٍ، أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ لهُ: «**إنَّما كان يُجزئك**» وضربَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بيدهِ الأرضَ إلى الترابِ، ثم قال: «**هكذا**»، فنفَخَ فيهما، ومسَحَ وجهه ويديهِ إلى المفْصَلِ، وليسَ فيه الذراعانِ.

ورَوى إبراهيمُ بنُ طهْمان، عن حُصينٍ، عن أبي مالكٍ، عن عمَّارِ بنِ ياسرٍ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال له: «**إنَّما كان يكفيك أنْ تضْرِبَ بكفيك في الترابِ، ثم تنْفُخ فيهما، ثم تمسحُ بهما وجهك وكفيك إلى الرُّسْغَيْنِ**».

خرَّجه الدارقطنيُّ[2] وقال: لم يَروه عن حُصَين مرفوعًا غيرُ إبراهيمَ بنِ طهمانَ، ووقفه شعبةُ وزائدةُ وغيرُهما.

يعني: أنهم رَوَوْه عن حُصينٍ، عن أبي مالكٍ، عن عمَّارٍ موقوفًا، والموقوفُ أصحُّ ـ: قاله أبو حاتمٍ الرَّازيُّ[3].

وأبو مالكٍ، قال الدارقطنيُّ: في سماعِه من عمَّارٍ نظرٌ، فإن سلمةَ بنَ

(١) «المسند» (٦٧٣ ـ ٦٧٤).
(٢) «السنن» (١/ ١٨٣).
(٣) «العلل» لابنه (٨٥).

كُهَيلٍ رواه عن أبي مالكٍ، عن ابنِ أَبْزَى، عن عمَّارٍ.

وقال أبو حاتمٍ: يُحتمل أنه سمع منه.

وأبو مالكٍ، هو :الغِفاريُّ، سُئل أبو زرعةَ: ما اسمه؟ فقال: لا يُسمى.

وقال البيهقيُّ: اسمُهُ حبيبُ بنُ صُهْبانَ.

وفيما قاله نظرٌ؛ فإن حبيبَ بنَ صهبانَ هو: أبو مالك الكاهليُّ الأسديُّ، وأما الغفاريُّ فاسمه: غزوانُ ـ: قالهُ ابنُ معينٍ. وقد فرَّق بينهما ابنُ أبي حاتمٍ، ووقع في بعضِ نُسخِ البخاريِّ، غير أنَّ البخاريَّ متوقفٌ غيرُ جازمٍ بأنَّ حبيبَ بنَ صُهبانَ يُكنى: أبا حاتمٍ، ولا أنَّ أبا مالكٍ الغِفاريَّ اسمُه: غزوانُ.

ورُوِيَ حديثُ عمَّارٍ على وجهٍ آخرَ: فروى الأعْمشُ، عن سلمةَ بنِ كُهَيلٍ، عن عبدِ الرحمن بن أَبْزَى، عن عمَّارٍ، أنَّ النبيَّ ﷺقال له: «**إنما كان يكفيك هكذا**» ثم ضرب بيديه الأرض، ثم ضرب إحداهما على الأخرَى، ثم مسح وجهه، والذراعينِ إلى نصفِ الساعدينِ، ولم يبلغِ المرفقينِ، ضربةً واحدةً.

خرَّجه أبو داود(١) .

وخرَّجه ـ أيضًا (٢) ـ من طريقِ سفيانَ الثوريِّ، عن سلمةَ بن كُهَيْلٍ، عن أبي مالكٍ، عن عبدِ الرحمن بن أبزى، قالَ: كنتُ عند عمرَ، فقال عمَّارٌ: قال النبيُّ ﷺ: «**إنما كان يكفيك أن تقول هكذا**» وضربَ بيديه إلى الأرضِ، ثم نفخهما، ثم مسح بهما وجهه ويديه إلى نصفِ الذراعِ.

---

(١) «السنن» (٣٢٣). (٢) «السنن» (٣٢٢).

وخرَّجه النسائيُّ [1] من طريقِ سفيـانَ، عن سلمةَ، عن أبي مالكٍ ـ وعن عبدِ اللَّهِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ أبْزى، عن عبدِ الرحمنِ بنِ أبْزى، قال: كنَّا عند عمر ـ فذكر الحديثَ، وفيه: ثم مسح وجهه وبعضَ ذراعيه.

وقد رواه عن سلمـةَ بنِ كُهَيْلٍ: شـعبةُ، وسـفيانُ، والأعْـمشُ، واختُلِفَ عنهم في إسنادِه.

وقد تقدَّمَ: أنَّ في روايةِ شعبـةَ أن سلمةَ شكَّ: هل ذكر فيه الذراعين، أو الكفين خـاصةً، وهذا يدلُّ على أنَّ ذكْـرَ الذراعينِ أو بعـضِهِـمَا لم يحـفظه سلمةُ، إنَّما شكَّ فيه، لكنَّه حفظ الكفينِ وتيقنَهُما، كما حفظه غيرُه.

وعلى تقـديرِ أن يكون ذكرُ بعضِ الـذراعينِ محـفوظًا فـقد يحـملُ على الاحتياطِ لدخولِ الكوعينِ، أو يكونُ من بابِ المبالغـةِ وإطالةِ التَّحجيلِ، كما فعلَهُ أبو هريرةَ فـي الوضوءِ، وقد صـرَّح الشافعـيةُ باستـحبابِه في التـيممِ ـ أيضًا.

وقد رُويَ عن قتادةَ، قال: حدَّثني محـدِّثٌ عن الشعبيِّ، عن عبدِ الرحمنِ بن أبْزى، عن عمَّارِ بن ياسرٍ، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**إلى المرفقين**».

خرَّجه أبو داود[2] .

وهذا الإسنادُ مجهولٌ لا يَثْبُت.

والصحيحُ: عن قتادةَ، عن عزرةَ، عن سعـيدِ بنِ عبدِ الرحمنِ، عن أبيهِ، عن عمَّارٍ، أنَّ النبيَّ ﷺ أمرَهُ بالتيممِ للوجه والكفينِ.

---

(١) «السنن» (١/ ١٦٨).

(٢) «السنن» (٣٢٨).

خرَّجه الترمذيُّ وصحَّحه[١] .

وخرَّجه أبو داود[٢] ، ولفظُه: أنَّ النبيَّ ﷺ أمرَه في التيممِ: ضربةً واحدةً للوجه والكفينِ.

وقد روي عن عمَّارٍ، أنَّهم تيمَّموا مع النبيِّ ﷺ إلى المناكب والآباطِ: من روايةِ الزهريِّ، عن عُبيد اللَّهِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ عُتْبةَ، عن ابنِ عباسٍ، عن عمَّارٍ، قال: نزلتْ رخصةُ التطهر بالصَّعيد الطَّيِّب، فقام المسلمون مع النبيِّ ﷺ، فضربوا بأيديهم الأرضَ، ثم رفعوا أيديَهم ولم يَقبضوا من الترابِ شيئًا، فمسحوا بها وجوهَهم وأيديَهم إلى المناكبِ، ومن بُطُون أيديهم إلى الآباط.

خرَّجه الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ والنسائيُّ[٣] .

وقد اختُلِفَ في إسنادِهِ على الزهريِّ:

فقيل: عنه، كما ذكرنا.

وقيل: عنه، عن عُبَيْدِ اللَّهِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ عُتْبَةَ، عن أبيهِ، عن عمَّارٍ، كذا رواه عنه: مالكٌ وابنُ عُيَيْنةَ، وصحَّح قولهما أبو زُرعةَ وأبو حاتمٍ الرَّازيَّانِ.

وقيل: عن الزُّهريِّ، عن عُبيدِ اللَّهِ بنِ عبدِ اللَّهِ، عن عمَّارٍ ـ مرسلاً.

وهذا حديثٌ منكرٌ جدًا، لم يزلِ العلماءُ يُنكرونه، وقد أنكرَهُ الزهريُّ راويه، وقال: هو لا يعتبر به الناسُ ـ: ذكره الإمامُ أحمدُ وأبو داود

---

(١) «الجامع» (١٤٤). (٢) «السنن» (٣٢٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٦٤)، وأبو داود (٣٢٠)، والنسائي (١/ ١٦٧).

وروي عن الزهريِّ، أنه امتنع أن يُحَدِّث به، وقال: لم أسمعه إلا من عُبَيْدِ اللَّهِ، ورويَ عنه، أنه قالَ: لا أدْري ما هو؟!.

وروي عن مكحولٍ، أنه كان يغضبُ إذا حدَّث الزهريُّ بهذا الحديثِ، وعن ابنِ عُيَيْنة، أنه امتنع أن يُحدِّث به، وقال: ليسَ العملُ عليه.

وسئل الإمامُ أحمدُ عنه، فقالَ: ليسَ بشيءٍ - وقال - أيضًا -: اختلفُوا في إسنادِهِ، وكانَ الزهريُّ يهابُه، وقال: ما أرى العملَ عليه.

وعلى تقديرِ صحَّتِهِ، ففي الجوابِ عنه وجهانِ:

أحدهما: أن النبيَّ ﷺ لم يُعلِّمْ أصحابَهُ التيممَ على هذهِ الصِّفَةِ، وإنَّما فعلوه عند نزولِ الآيةِ، لظنِّهم أن اليدَ المطلقةَ تشملُ الكفينِ والذراعينِ والمَنْكِبَيْن والعضدين، ففعلُوا ذلكَ احتياطًا كما تمعَّك عمَّارٌ بالأرضِ للجنابةِ، وظنَّ أنَّ تيمُّمَ الجُنُبِ يعُمُّ البدنَ كلَّه كالغُسلِ، ثم بيَّن النبيُّ ﷺ التيممَ بفعلِهِ، وقولِهِ: «**التيمم للوجه والكفين**» فرجَعَ الصحابةُ كلُّهم إلى بيانِه ﷺ، ومنهم عمَّارٌ راوِي الحديثِ، فإنه أفتى أن التيممَ ضربةٌ للوجهِ والكفينِ، كما رواه حُصينٌ، عن أبي مالكٍ، عنه، كما سبق.

وهذا الجوابُ ذكره إسحاقُ بنُ راهويه وغيره من الأئمة.

والثاني: ما قالهُ الشافعيُّ، وأنّه إن كان ذلكَ بأمْرِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، فهو منسوخٌ، لأنَّ عمَّاراً أخْبر أن هذا أولُ تيمُّمٍ كان حينَ نزلتْ آيةُ التيممِ، فكلُّ تيمَّمٍ كان للنبيِّ ﷺ بعدَهُ مخالفٌ له، فهو له ناسخٌ.

وكذا ذكر أبو بكرٍ الأثرم وغيرُه من العلماءِ.

وقد حكى غيرُ واحدٍ من العلماءِ عن الزهريِّ، أنَّه كان يذهبُ إلى هذا

الحديثِ الذي رواه.

ورُوي عن عبدِ الوهَّابِ بنِ عطاءٍ، عن سعيدٍ، عن قتادةَ، أنَّ الزُّهريَّ قال: التيمم إلى الآباط، قال سعيد: ولا يُعجبنا هذا.

قلت: قد سبقَ عن الزهري أنه أنكر هذا القول، وأخبر أن الناس لا يعتبرونَ به، فالظاهرُ أنه رجع عنه لما علم إجماعِ العلماءِ على مخالفتهِ واللَّه أعلمُ.

وذهبَ كثيرٌ من العلماءِ إلى أنه ينتهي المسحُ لليدين بالترابِ إلى المرفقينِ، هذا مرويٌّ عن ابنِ عمرَ وجابرٍ - رضي الله عنهما - وروي - أيضًا - عن سالمِ بنِ عبدِ اللَّهِ، والشَّعْبيِّ، والحسنِ، والنخَعِيِّ، وقتادةَ، وسفْيانَ، وابن المباركِ، واللَّيْثِ، ومالكٍ، والشافعيِّ، وأبي حنيفةَ وأصحابِهِ.

واستدلَّ بعضُهم: بالأحاديثِ المرفوعةِ المروية في ذلكَ، ولا يثبت منها شيءٌ، كما سبق الإشارةُ إلى ذلك.

واستدلُّوا - أيضًا - : بأنَّ اللَّهَ تعالى أمرَ بغسلِ اليدينِ في الوضوءِ إلى المرفقين، ثم ذكر في التيممِ مسحَ الوجهِ واليدينِ، فينصرفُ إطلاقهما في التيممِ إلى تقييدِهِما في الوضوءِ، لا سيَّما وذلكَ في آيةٍ واحدةٍ. فهُوَ أولى منْ حَمْلِ المُطْلَقِ علي المُقَيَّدِ في آيتينِ.

وأجابَ من خالفَهُم: بأن المطلق إنما يحملَ على المقيدِ في قضيةٍ واحدةٍ، والوضوءُ والتيممُ طهارتانِ مختلفتان، فلا يصحُّ حمْلُ مطلقِ أحدهما على مقيدِ الآخرِ.

ويدلُّ على ذلك: أن أصحابَ النبيِّ ﷺ عند نزولِ آيةِ التيممِ لم يَفهموا

حملَ المطلقِ على المقيدِ فيها، بل تيمموا إلى المناكبِ والآباطِ، وهم أعلمُ الناسِ بلُغةِ العربِ، ثم بيَّن النبيُّ ﷺ أن التيممَ للوجهِ والكفينِ، وهو ـ أيضًا ـ يُنافي حمْلَ المطلقِ على المقيدِ فيها.

وذهب آخرونَ: إلى أن التيممَ يمسح فيه الكفان خاصةً.

وقد حكى ابنُ المنذرِ لأهلِ هذه المقالةِ قولينِ: أحدهما: يمسحُ الكفين إلى الرسغينِ، وحكاه عن عليٍّ، والثاني: يمسحُ الكفين مطلقًا، قال: هو قولُ عطاءٍ، ومكحولٍ، والشعبي، والأوزاعيِّ، وأحمدَ، وإسحاقَ.

قال: وبهذا نقولُ للثابتِ عن نبيِّ اللَّه ﷺ، أنَّه قال: «**التيممُ ضربةٌ للوجهِ والكفينِ**».

قلتُ: هذا يُوهم أن من قالَ بمسح الوجهِ والكفين، أنه لا ينتهي مسحُهُما إلى الكوعين، وهذا كما حكاهُ ابنُ عطيّة عن الشعبيِّ، كما سبق عنه، وليس هذا قولُ الأئمةِ المشهورينَ.

وقد روى داودُ بنُ الحُصَيْنِ، عن عكرمة، عن ابنِ عباسٍ، أنه سُئل عن التيممِ، فقال: إنَّ اللَّهَ قال في كتابِهِ حينَ ذكر الوضوءَ: ﴿**فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ**﴾ [المائدة:٦]، وقال في التيممِ: ﴿**فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ**﴾ [المائدة:٦]، وقال: ﴿**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا**﴾ [المائدة:٣٨]، فكانت السُّنّةُ في القطعِ الكفين، إنما هو: الوجهُ والكفينِ ـ يعني: التيممِ.

خرَّجه الترمذيُّ، وقال: حسنٌ صحيحٌ غريبٌ[(١)].

وروى الحكمُ بنُ أبانٍ، عن عكرمةَ هذا المعنى ـ أيضًا.

(١) «الجامع» (١٤٥).

وكذلك استدلَّ بهذا الدليلِ مكْحُولٌ وأحـمدُ وغيرُهما من الأئمةِ، وقالُوا: إنَّ القطعَ يكونُ من الرُّسْغِ، فكذلك التيممُ.

والرسغُ: هو مَفْصل الكفِّ، وله طرفانِ همـا عظمانِ، فالذي يلِي الإبهامَ كوعٌ، والذي يلي الخِنْصرَ كُرسُوعٌ.

ومضمـون هذا الاستدلال: أن اليـدَ إذا أُطلقتْ انصرفتْ إلى الرُّسْغ، وإن قُيِّـدت بموْضعٍ تقيـدتْ به، فلما قـيدتْ بالمرفـقين في الوضوءِ وجـبَ غَسْلُ الذراعينِ إلى المرفـقين، ولما أُطلقتْ فـي التيـممِ وجبَ إيصـالُ التـرابِ إلى الرسغ، كما تُقطع يدُ السارقِ ويدُ المحاربِ منه.

وكذا قالَ الأوزاعيُّ: التيممُ ضربةٌ للوجهِ والكفينِ إلى الكُوعينِ.

وكذلك نصَّ إسحاقُ على أنَّ التـيممَ يبلغ إلى الرسغ، وخطَّأَ من قال: لا يُجزئ ذلك. وقال: الصحيحُ عن النبيِّ ﷺ المعروفُ المشهورُ الذي يرويه الثقة عن الثقة بالأخبارِ الصحيحةِ: أنَّ النبيَّ ﷺ علَّم عمَّارَ بنَ ياسرٍ التيممَ للوجهِ والكفينِ، قال: وعلى ذلكَ كـان عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وعبدُ اللَّهِ بنُ عـباسٍ، والشعبيُّ، وعطاءٌ، ومجاهدٌ، ومكحُـولٌ وغيرُهم، فلا يجوزُ لأحدٍ أن يدَّعي على هؤلاء أنهم لم يعـرِفُوا التـيمـمَ. قال: ولو قـالُوا: الذراعينِ أحبُّ إلينا اختيارًا لكان أشْبَهُ.

وروى حرْبٌ بإسنادِه، عن زائدة، عن حُصينِ بنِ عـبدِ الرحمنِ، عن أبي مالكٍ، عن عـمَّارٍ، أنه غَـمَس باطنَ كفَّـيْه بالترابِ، ثم نفخ يـدَه، ثم مسح وجهَهُ ويديه إلى المفْصلِ.

وبإسنادِه: عن عبـدِ العزيزِ بن أبي رَوَّادٍ، عن نافعٍ، عن ابنِ عمـرَ، قالَ:

التيممُ ضَرْبَتَانِ: ضربةٌ للوجهِ، وضربةٌ للكفَّيْنِ.

قال: وثنا أحمدُ بنُ حنبلٍ: ثنا سليمانُ بنُ حيَّانَ: أبنا حجَّاج، عن عطاءٍ والحَكَمِ، عن إبراهيمَ، قال: التيممُ ضربتانِ للكفين والوجهِ.

قال: وثنا محمودُ بنُ خالدٍ: ثنا الوليدُ بنُ مسلمٍ، عن حامدٍ وسعيدِ بنِ بشيرٍ، عن قتادةَ، عن سعيدِ بنِ المسيبِ، قال: التيممُ ضربةٌ واحدةٌ للوجهِ والكفين.

قال الوليدُ: وأبنا الأوزاعيُّ، عن عطاءٍ، أنه كان يقولُ في التيممِ: مسحةٌ واحدةٌ للوجهِ، ثم ضربةٌ أخرى لكفَّيْه، وبه يأخذُ الأوزاعيُّ.

وروى حرْبٌ بإسنادِهِ عن إسماعيلَ بنَ أبي خالدٍ، قال: سألتُ الشَّعْبيَّ عن التيممَ؟ فضربَ بيديه الأرضَ، ثم قرن إحداهما بالأخرى، ثم مسح وجهه وكفيه.

قال حرْبٌ: سمعتُ أبا عبدِ اللَّهِ أحمدَ بنِ حنْبَلٍ، يقولُ: والتيممُ ضربةٌ واحدةٌ للوجهِ والكفينِ، يبدأُ بوجهِهِ، ثم يمسحُ كفَّيهِ إحداهُما بالأخرَى، قيل له: صحَّ حديثُ عمَّارٍ، عن النبيِّ ﷺ في ذلك، قال: نعَمْ، قد صح.

والقولُ بأنَّ الواجبَ في التيممِ مسحُ الكفينِ فقط: روايةٌ عن مالكٍ، وقولٌ قديم للشافعيِّ، قال في القديمِ - فيما حكاه البيهقيُّ في «كتابِ المعرفةِ» -: قد رُوي عن النبيِّ ﷺ في الوجهِ والكفينِ، ولو أعلمُه ثابتًا لم أعْدُهُ، قال: فإنه ثبت عن عمَّارٍ، عن النبيِّ ﷺ الوجه والكفين، ولم يثبت إلى المرفقينِ، فما يثبت عن النبيِّ ﷺ أولى، وبهذا كان يُفتي سعيدُ بنُ سالمٍ، انتهى.

ومن العلماءِ من قالَ: الواجبُ مسحُ اليدينِ إلى الكُوعَيْنِ، ويُستحبُّ

مسحُـهما إلى المرفقينِ، ولعله مـرادُ كثيرٍ من السَّلَفِ ـ أيضًـا ـ فإن منهم من رُوي عنه: إلى الكُوعين، وروي عنه: إلى المرفقـينِ، كالشعبيِّ وغـيرِه، فدلَّ على أن الكُلَّ عندَهُم جائز.

وهو ـ أيضًـا ـ رواية عن مـالكٍ، وقولُ وكـيعٍ، وإسـحاقَ، وطائفـةٌ من أصحابِنا، وحكَوْه روايةً عن أحمدَ، والمنصوصُ عنه يدلُّ على أن ذلك جائزٌ، لا أنه أفضلُ.

وسيأتي ذِكْرُ الضـربةِ الواحدةِ، والضربتين فيما بعـد ـ إن شاء اللَّه تعالى، فإن البخاريَّ أفْرَدَ لذلك بابًا[1] .

* * *

وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أمْرُ الجنبِ إذا لم يجدِ الماءَ بأن يتيمَّمَ ويصلِّي، في حديثِ عمرانَ بنِ حُصينٍ المتقدمِ، وحديثِ عمَّارٍ، ورويَ ـ أيضًا ـ من حديثِ أبي ذرٍّ وغيرِه.

وشُبهةُ المانعينَ: أنَّ اللَّهَ تعالى قال: ﴿**وَلا جُنُبًا إِلاَّ عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا**﴾ [النساء:٤٣]، وقال: ﴿**وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا**﴾ [المائدة:٦] ـ يعني به: الغُسْلَ ـ ثم ذكرالتيممَ عنـد فقْدِ الماءِ بعد ذكره الأحداثَ الناقضـةَ للوضُوءِ، فدلَّ على أنَّه إنَّما رخَّصَ فـي التيممِ عندَ عـدمِ الماءِ لمن وُجدتْ منه هـذه الأحداثُ، وبقِيَ الجُنُبُ مأمورًا بالغسلِ بكلِّ حالٍ.

وهذا مردودٌ؛ لوجهينِ:

أحدهما: أنَّ آيةَ الوضوءِ افتتحتْ بذكـر الوضوءِ، ثم بغسلِ الجنابةِ، ثم أمرَ

(١) «فتح الباري» (٢/ ٥٠ ـ ٦٢).

بعد ذلك بالتيـممِ عند عدمِ الماءِ، فعادَ إلى الحدثينِ معًـا، وإن قيلَ: إنه يعودُ إلى أحدهمـا، فعودُه إلى غسلِ الجنابةِ أولى؛ لأنه أقـربُهُما، فأمـا عودُه إلى أبعدِهِم وهو ـ وضوءُ الصلاةِ ـ فممتنعٌ.

وأمَّا آيةُ سورةِ النسـاءِ، فليسَ بها سوى ذكرِ الجنابةِ، وليسَ للوضوءِ فـيها ذكرٌ، فكيفَ يعودُ التيممُ إلى غيرِ مذكورٍ فيها، ولا يعودُ إلى المذكورِ؟

والثاني: أنَّ كلتا الآيتينِ: أمر اللَّهُ بالتيممِ من جاء من الغائط، ولَمَسَ النساءَ أو لم يجد الماءَ، ولَمْسُ النِّسـاءِ إما أن يراد به الجِمـاعُ خاصةً، كمـا قاله ابنُ عباسٍ وغيرُه، أو أنه يدخل فيه الجماعُ وما دونه من الملامسةِ لشهوةٍ كما يقولُه غيرُهُ، فأما أن يُخَصَّ به ما دون الجماعِ ففيه بُعْدٌ.

ولـمَّا أوردَ أبو موسى على ابنِ مسعـودٍ الآيةَ تحيَّر ولم يدْرِ ما يقول، وهذا يدلُّ على أنه رأى أن الآية يدخل فيها الجنب كما قاله أبو موسى.

وفي أمْرِ النبيِّ ﷺ الجنبَ العادمَ للماءِ أن يتيمَّمَ ويصلِّي دليلٌ على أنه ﷺ فهِمَ دخولَ الجنبِ في الآيةِ، وليس بعد هذا شيء.

وردُّ ابنِ مسعودٍ تيممَ الجنبِ؛ لأنه ذريعـةٌ إلى التَّيَمُّم عندَ البردِ؛ لم يوافقْ عليـه، لأنَّ النصوصَ لا تُرَدُّ بسـدِّ الذرائع، وأيضًا، فـيقـالُ: إن كان البـردُ يخشى معه التلف أو الضرر فإنه يجوز التيمم معه كما سبق.

وقد روى شُـعْبَةُ، أنَّ مُـخارِقًا حدثهـم، عن طارق، أنَّ رجلاً أجنبَ فلم يصلِّ، فأتى النبيَّ ﷺ فذكر ذلك له، فقالَ لهُ: «أصبْتَ»، وأجنب رجل آخرُ فتيمم وصلَّى، فأتاه ﷺ، فقال له نحواً مما قال للآخرِ ـ يعني: «أصبْتَ».

خرَّجه النسائيُّ وهو مرسل[١] .

وقد يُحـملُ هذا على أنَّ الأولَ سأله قبـل نزول آيةِ التيممِ، والآخـرَ سأله بعد نزولها.

وروى أبو داود الطيالسيُّ[٢] ، عن شعـبةَ، عن الحكمِ، عن ذَرٍّ، عن ابنِ أبْزى، عن أبيه أنَّ عـمَّارًا قال لعمـرَ: أما تذْكُر يا أمـير المؤمنين أني كنتُ أنا وأنت في سَرِيَّةٍ فأجنبنا ولم نجدِ الماءَ، فأمـا أنت فلم تصلِّ، وأما أنا فتمعكتُ بالترابِ وصليتُ، فلما قدِمنا على رسولِ اللَّه ﷺ ذكرنا ذلكَ لهُ، فقالَ: «**أما أنت فلم يكن ينبغي لك أن تدع الصلاة، وأما أنت يا عمَّـارُ فلم يكنْ لكَ أن تتمعك كما تتمعكُ الدابـةُ، إنما كان يُجزيك**» - وضربَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بيدِهِ إلى الأرضِ إلى الترابِ، ثم قال: «**هكذا**» ، ونفخ فيها ومسح وجهه ويديه إلى المفْصل. وليس فيه الذراعان[٣] .

* * *

قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾

ليُتَـدبرْ ما ذمَّ اللَّهُ به أهلَ الكتـابِ من قسـوةِ القلوبِ بعد إيتائـهم الكتابَ ومشـاهدتِهم الآياتِ كإحـياءِ القتـيلِ المضروبِ ببـعضِ البقرةِ، ثم نـهينا عن التشبيهِ بهم في ذلك، فقيل لنا: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ**

(١) «السنن» (١/ ١٧٢).

(٢) «المسند» (٦٧٣).

(٣) «فتح الباري» (٢/ ٨٢ - ٨٤).

وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

وبيَّنَ في موضعٍ آخرَ سببَ قسوةِ قلوبِهِم، فقال: سبحانه: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً﴾ [المائدة:١٣]، فأخبرَ أنَّ قسوةَ قلوبِهِم كانَ عقوبةً لهُم على نقضِهم مواثيقَ اللَّهِ وعهودِهِ أنْ لا تفعلُوا ذلك.

ثمَّ قال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة:١٣]، فذكرَ أنَّ قسوةَ قلوبِهم أوجبتْ لهم خصلتينِ مذمومتينِ:

إحداهما: تحريفُ الكلم من بعدِ مواضِعِهِ.

والثانية: نسيانُهم حظا ممَّا ذكِّرُوا به، والمرادُ تركُهُم وإهمالُهُم نصيبًا ممَّا ذُكِّرُوا به من الحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، فنسوا ذلكَ وتركُوا العملَ به وأهملُوه.

وهذانِ الأمرانِ موجودانِ في الذين فسدُوا من علمائِنا لمشابهتِهِم لأهلِ الكتاب:

أحدهما: تحريفُ الكلمِ، فإنَّ من تفقَّه لغير العملِ يقسُو قلبُه فلا يشتغلُ بالعملِ، بل بتحريفِ الكلمِ، وصرفِ ألفاظِ الكتابِ والسنةِ عن مواضِعِها، والتلطفِ في ذلكَ بأنواعِ الحيلِ اللطيفةِ، من حملِهَا على مجازاتِ اللغةِ المستبعدَةِ ونحوِ ذلك، والطعنُ في ألفاظِ السننِ حيثُ لم يمكنهم الطعنُ في ألفاظِ الكتابِ، ويذمُّونَ من تمسَّكَ بالنصوصِ وأجرَاها على ما يُفهمُ منها ويسمونه جاهلاً أو حسوداً. وهذا يوجدُ في المتكلمينَ في أصولِ الدياناتِ، وفي فقهاءِ الرأي، وفي صوفيةِ الفلاسفةِ والمتكلمينَ.

والثاني: نسيانُ حظ مما ذُكِّرُوا به من العلمِ النافعِ فلا تتعظُ به قلوبُهم، بل

يذمُّون من تعلَّمَ ما يبُكيه ويرِّقُ به قلبُه ويسمونَهُ قاصا.

ونقلَ أهلُ الرأي في كتبِهم عن بعضِ شيوخِهِم أنَّ ثمراتِ العلومِ تدلُّ على شرفِهَا، فمن اشتغلَ بالتفسيرِ فغايتُه أن يقصَّ على الناسِ ويذكرَهم. ومن اشتغلَ برأيهم وعلمِهِم فإنَّه يفتي ويقضِي ويحكمُ ويدرِّسُ، وهؤلاءِ لهُم نصيبٌ من الذين: ﴿ **يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ** ﴾ [الروم:٧].

والحاملُ لهم على هذا شدَّةُ محبَّتِهم للدنيا وعلوِّها ولو أنهم زهدُوا في الدنيا ورغِبُوا في الآخرةِ، ونصحُوا أنفسَهُم وعبادَ اللَّهِ لتمسَّكُوا بما أنزلَ اللَّهُ على رسولِه، وألزمُوا الناسَ بذلك، فكان الناسُ حينئذٍ أكثرُهُم لا يخرجونَ عن التقوى. فكان يكفيهم ما في نصوصِ الكتابِ والسنةِ، ومن خرج منهُم عنها كانَ قليلاً، فكانَ اللَّهُ يقيضُ من يفهمُ من معاني النصوصِ ما يردُّ به الخارجُ عنهَا إلى الرجوعِ إليهَا ويستغنِي بذلكَ عمَّا ولَّدوه من الفروعِ الباطنةِ والحيلِ المحرّمةِ التي بسببِهَا انفتحتْ أبوابُ الرياءِ وغيرِه من المحرَّمات، واستُحِلَّتْ محارمُ اللَّهِ بأدنى الحيل، كما فعلَ أهلُ الكتابِ: ﴿ **فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾(١) [البقرة:٢١٣].

* * *

(١) «فضل علم السلف» (٨٠ ـ ٨٣).

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾

أما زِنى الثيبِ فأجمع المسلمونَ على أنَّ حَدَّه الرجمُ حتى يموتَ، وقد رجمَ رسولُ اللَّهِ ﷺ ماعزًا والغامديّة، وكان في القرآن الذي نُسخَ لفظُهُ: «والشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة نكالاً من الله والله عزيز حكيم».

وقد استنبطَ ابنُ عباسٍ الرَّجمَ من القرآنِ من قولهِ تعالى: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾** [المائدة:١٥]، قال: فمن كفرَ بالرَّجم، فقد كفرَ بالقرآن من حيثُ لا يحتسب، ثم تلا هذه الآيةَ وقالَ: كان الرجمُ مما أخفوا، خرَّجه النسائيُّ، والحاكمُ، وقال: صحيحُ الإسنادِ[١].

ويُستنبط ـ أيضًا ـ من قولِه تعالى: **﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾** إلى قولهِ تعالى: **﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾** [المائدة:٤٤-٤٩].

وقال الزهري: بلغنا أنها نزلتْ في اليهوديَّيْنِ اللَّذيْنِ رجمهما النبيُّ ﷺ قال: «**إنِّي أحكمُ بما في التوراةِ**» وأمر بهما فرُجِما[٢].

وخرَّج مسلمٌ في «صحيحِهِ»[٣] من حديثِ البراءِ بن عازبٍ قصةَ رجمِ اليهوديينِ، وقال في حديثِهِ: فأنزلَ اللَّهُ: **﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ**

(١) أخرجه: النسائي في «الكبرى» (٦/٣٣٣)، والحاكم (٤/٣٥٩).
(٢) أخرجه: أبو داود (٤٤٥٠).
(٣) «صحيح مسلم» (٥/١٢٢).

يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [المائدة:٤١]، وأنزل: **﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾** [المائدة:٤٤] في الكفارِ كلِّها.

وخرَّجه الإمامُ أحمدُ[١] وعندَهُ: فأنزلَ اللَّهُ: **﴿لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾** إلى قولِه: **﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ﴾** [المائدة:٤١]، يقولونَ: ائتوا محمدًا، فإن أفتاكُم بالتَّحميمِ والجلدِ، فخُذوه، وإن أفتاكُم بالرَّجمِ، فاحذَرُوا، إلى قولِهِ: **﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾** [المائدة:٤٤] قال: في اليهودِ.

ورُوي من حديثِ جابرٍ قصةُ رجمِ اليهوديينِ، وفي حديثِهِ قالَ: فأنزلَ اللَّهُ: **﴿فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾** إلى قوله: **﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾** [المائدة:٤٢].

وكانَ اللَّهُ تعالى قد أمر أوَّلاً بحبسِ النِّساءِ الزَّواني إلى أن يتوفَّاهنَّ الموتُ أو يجعلَ اللَّهُ لهنَّ السبيلَ ثم جعلَ اللَّهُ لهنَّ سبيلاً، ففي «صحيحِ مسلمٍ»[٢] عن عبادةَ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**خُذوا عنِّي خُذوا عنِّي قد جعلَ اللَّهُ لهنَّ سبيلاً: البكرُ بالبكرِ جلدُ مائةٍ وتغريبُ عامٍ، والثيبُ بالثيبِ جلدُ مائة والرَّجْمُ**».

وقد أخذَ بظاهرِ هذا الحديثِ جماعةٌ من العلماءِ، وأوجبوا جلدَ الثيبِ مائة، ثم رجمه كما فعل عليٌّ بشُراحة الهَمْدَانيِّة، وقال: جلدتُها بكتابِ اللَّه، ورجمتُها بسنّة رسولِ اللَّه ﷺ[٣]. [٤].

* * *

(١) «المسند» (٤/ ٢٨٦). (٢) (٥/ ١١٥).

(٣) أخرجه: البخاري (٨/ ٢٠٤).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣١٤ ـ ٣١٦).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾

كانتْ هـذه الآيةُ يشتـدُّ منها خوفُ الـسلفِ على نفوسِـهِم فخـافُوا أن لا يكونُوا من المتَّقينَ الذين يُتقبلُ منهم.

وسُئِلَ الإمامُ أحمدُ عن معنى «المتقينَ» فيها، فقالَ: يتقي الأشياءَ، فلا يقعُ فيما لا يحِلُّ له(١).

* * *

وكان السلفُ يوصونَ بإتقـانِ العملِ وتحسينِهِ دون مجردِ الإكـثارِ منه، فإنَّ العملَ القليلَ مع التحـسينِ والإتقانِ أفضلُ من الكثيرِ مع عـدمِ الإتقانِ، قالَ بعضُ السلفِ: «إن الرجلينِ ليـقومـانِ في الصفِّ وبينَ صـلاتيهِـما كمـا بينَ السماءِ والأرضِ، كم بينَ من تصعدُ صلاتُه لها نورٌ وبرهانٌ كبرهانِ الشمسِ، وتقولُ: حفظك اللَّهُ كما حفظتني، وبينَ مـن تُلَفُّ صلاتُهُ كمـا يُلَفُّ الثوبُ الخَلَق ويضربُ بها وجهُ صاحِبِها، وتقولُ: ضيعكَ اللَّهُ كما ضيعتَنِي».

ولهذا قالَ ابنُ عبـاسٍ وغيرُهُ: «صلاةُ ركعتين في تفكرٍ خـيرٌ من قيامِ ليلةٍ والقلبُ ساهٍ».

قال بعضُ السلفِ: «لا يقلُّ عملٌ مع تقوى؛ وكيف يقل مـا يتقبلُ؟» يشيرُ إلى قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]، ولهذا قـال من قالَ من الصـحابةِ: لو علمتُ بأنَّ اللَّهَ قـبلَ منِّي ركعـتينِ كانَ أحبَّ إليَّ مـن كذا وكذا، فمن اتَّقى اللَّهَ في العملِ قبلهُ منه، ومن لم يتَّقِهِ لم يقبلْهُ منه.

والتقوى في العملِ: أنْ يأتي به على وجهِ إكمالِ واجباتِهِ الظاهرةِ والباطنةِ،

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/٢٥٧).

وإن ارتقى إلى الإتيانِ بآدابِهِ وفضائلِهِ كانَ أكملَ، في الملأ الأعْلَى، ومباهاة الملائكةِ، وقد يراد بالقبولِ: الثوابُ على العملِ، وإن لم يرضَ به والقبولُ هنا يُراد به: الرِّضا بالعملِ، والمدحُ لعاملِهِ، والثناءُ عليه، في الملأ الأعلى، ومباهاةُ الملائكةِ.

وقد يُرادُ بالقبول: الثوابُ على العملِ، وإن لم يرضَ به ولم يمدحْ عاملَهُ، فيجازى عليه بأنواعٍ من الجزاءِ، فضلاً من اللَّه وإحسانًا، وإن لم يرضَ عن عاملِهِ كما رُؤيَ بعضُ المفرطينَ في النومِ فسُئِلَ عن حالِهِ فقالَ: غفرَ لي وأعرض عني، وعن جماعة من العلماءِ لم يعملُوا بعلمِهِم.

ويطلقُ القبولُ على إسقاطِ الفرضِ بالعملِ، وإن لم يُثَبْ عليه بثوابٍ غيرِ سقوطِ العقوبةِ والمطالبةِ بأداءِ الفرضِ بهِ، والعارفون كلهم إنَّما يطلبون القبولَ بالوجهِ الأولِ، وهو الرِّضا، ويخافون من فواتِهِ أشدَّ الخوفِ، قالَ مالكُ بنُ دينارٍ: «وددتُ أنَّ اللَّهَ إذا جمعَ الخلائقَ يقولُ لي: يا مالكُ، فأقولُ: لبيَّكَ، فيأذنُ لي أن أسجدَ بينَ يديهِ سجدَةً فأعرفُ أنه قد رضيَ عنِّي، ثم يقولُ: يا مالكُ، كنْ ترابًا اليومَ، فأكونُ ترابًا».

وكان بعضُهم يقولُ في سجودِهِ:

متى ألقاكَ وأنتَ عنِّي راضٍ ... وعذبتني بكثرةِ الإعراضِ
وأعتاضُ ولستُ عنه بالمعتاضِ ... يا من بوصالِهِ شفى أمراضي
هل أنتَ عليَّ ساخطٌ أم راضٍ

رضاه أكبرُ من الجنةِ ونعيمِهَا فليسَ للعارفينَ همٌّ سواهُ.

لعلك غضبان وقلبي غافلٌ ... سلامٌ على الدارينِ إن كنتَ راضيًا[1]

---

(١) شرح حديث شداد بن أوس (٤٥ ـ ٤٨).

قوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾

قول اللَّـه عز وجل: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢] يدلُّ على أنّه إنما يباحُ قتلُ النفسِ بشيئينِ: أحدهما: بالنفسِ، والثاني: بالفسادِ في الأرضِ.

ويدخلُ في الفسادِ في الأرضِ: الحرابُ والرِّدَّةُ والزِّنَى، فإنَّ ذلكَ كلَّه فسادٌ في الأرضِ، وكذلكَ تكرُّر شربِ الخمرِ والإصرارِ عليه هو مظنةُ سفكِ الدِّماء المحرمـةِ. وقد اجتـمعَ الصحابة في عـهدِ عمـرَ على حدِّه ثمـانينَ، وجعلُوا السكرَ مَظنَّة الافتراءِ والقذفِ الموجبِ لجلد الثمانين.

ولَمَّا قدمَ وفدُ عبدِ القيسِ على النبيِّ ﷺ، ونهاهُم عن الأشربةِ والانتباذِ في الظُّروفِ قـال: «إنَّ أحـدكم ليـقومُ إلى ابـنِ عمِّـه - يعني: إذا شـــربَ - فيضربه بالسَّيْفِ»، وكان فيهم رجلٌ قـد أصابته جراحةٌ من ذلك، فكانَ يخـبؤها حياءً من النبيِّ ﷺ[١].

فهذا كلُّه يرجعُ إلى إباحةِ الدَّمِ بالقتلِ إقامةً لمظانِ القتلِ مقامَ حقيقتِهِ، لكنْ هلْ نُسِخَ ذلكَ أم حكْمُهُ باقٍ؟ هذا هو محلُ النزاعِ[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾

خرَّج البخاريُّ ومسلمٌ[٣]: من حـديثِ: مـالكٍ، عن زيدِ بنِ أسلمَ، عن

(١) أخرجه: مسلم (١/ ١٣٥) من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ.
(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٣٠، ٣٣٢).
(٣) أخرجه: البخاري (١/ ١٤ - ١١٨ - ١٩٠)، (٤/ ١٣٢)، (٧/ ٣٩)، ومسلم (٣/ ٣٣ - ٣٤).

عطاءِ بنِ يسارٍ، عن ابنِ عباسٍ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**أُريتُ النَّارَ، فرأيتُ أكثرَ أهلها النِّساءَ، بِكُفْرِهِنَّ**»، قيل: أيكفرن؟ قال: «**يكفرنَ العشيرَ، ويكفُرْنَ الإحسانَ، لو أحسنْتَ إلى إحداهن الدهر، ثم رأتْ منك شيئًا، قالتْ: ما رأيتُ منكَ خيرًا قطُّ**».

وقال البخاريُّ: كُفْرٌ دونَ كُفْرٍ.

والكفـرُ، قد يطلق ويرادُ به الكـفرُ الذي لا ينقلُ عن الملةِ، مـثلُ كفـرانِ العشيرِ ونحوِه.

وهذا عندَ إطلاقِ الكفر، فأمَّا إن وردَ الكفـرُ مقيدًا بشيء، فلا إشكالَ في ذلكَ، كقولِه تعالى: ﴿**فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ**﴾ [النحل:١١٢].

وإنَّما المرادُ هاهُنا: أنه قد يَرِدُ إطلاقُ الكفرِ، ثم يفـسَّر بكفرٍ غير ناقلٍ عن الملةِ.

وهذا كمـا قالَ ابنُ عباسٍ، في قـولِه تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [المائدة:٤٤]، قال: ليسَ بـالكفرِ الذي يذهبـونَ إليه، إنه ليس بكفـرٍ ينقلُ عن الملةِ، ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ**﴾ [المائدة:٤٤]، كفرٌ دونَ كفرٍ.

خرَّجه الحاكمُ(١).

وقال: صحيحُ الإسنادِ.

وعنه في هذه الآيةِ، قال: هـو به كُفْرٌ، وليس كَـمَنْ كَفَرَ باللَّه ومـلائكتهِ وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخرِ.

---

(١) «المستدرك» (٢/ ٣١٣).

وكذا قال عطاءٌ وغيرُه: كفرٌ دونَ كفر.

وقال النخعيُّ: الكفر كفرانِ: كفرٌ باللَّهِ، وكفرٌ بالمُنْعِمِ.

واستدلَّ البخاريُّ لذلكَ بحديثِ ابنِ عباسٍ الذي خرَّجه هاهُنا، وهو قطعةٌ من حديثٍ طويلٍ، خرَّجـه في «أبواب الكسوفِ»، فإنَّ النبيَّ ﷺ أطلقَ على النِّساءِ الكفرَ، فسئلَ عنه، ففسَّرَه بكفرِ العشيرِ.

وحديثُ أبي سعيدٍ في هذا المعنى يشبه حديثَ ابنِ عباسٍ.

وقد خرَّج هذا المعنى من حديثِ ابنِ عمرَ، وأبي هريرةَ - أيضًا.

وفي المعنى - أيضًا - : حديثُ ابنِ مسعودٍ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**سبابُ المسلمِ فسوقٌ، وقتالُهُ كفرٌ**»[(١)].

وقد خرَّجه البخاريُّ في موضعٍ آخرَ.

وكذلكَ قوله ﷺ: «**لا ترجعُوا بعدي كُفَّارًا يضربُ بعضُكم رقابَ بعضٍ**»[(٢)].

وقولُهُ: «**من قالَ لأخيهِ: يا كافرُ، فقدْ باءَ بها أحدُهُما**»[(٣)].

وللعلماء في هذه الأحاديثِ - وما أشبهها - مسالك متعددةٌ:

منهم: من حَمَلَها على من فعلَ ذلكَ مستحلاً لذلكَ.

وقد حملَ مالكٌ حديثَ: «**من قال لأخيه: يا كافرُ**» على الحَرُوريَّةِ، المعتقدينَ لكفر المسلمينَ بالذنوبِ - نقلَهُ عنه أشهبُ.

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ١٩)، (٨/ ١٨)، (٩/ ٦٣)، ومسلم (١/ ٥٧ - ٥٨).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ٤١)، (٥/ ٢٢٤)، (٩/ ٣، ٦٣)، ومسلم (١/ ٥٨) من حديث جرير بن عبد اللَّه البجلي رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: البخاري (٨/ ٣٢)، ومسلم (١/ ٥٦) من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما.
وقد أخرجه: البخاري أيضًا فيما تقدم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وكذلك حملَ إسحاقُ بنُ راهويه حديثَ: «**من أتى حائضًا ـ أو امرأةً ـ في دبُرِها فقد كفر**»(١) على المستحلِّ لذلكَ: نقله عنه حربٌ وإسحاقُ الكوسجُ.

ومنهم: من يحملُها على التغليظِ والكفر الذي لا ينقلُ عن الملةِ، كما تقدَّمَ عن ابنِ عباسٍ وعطاءٍ.

ونقلَ إسماعيلُ الشالنجيُّ عن أحمدَ، وذُكِرَ له قولُ ابنِ عباسٍ المتقدمُ، وسأله: ما هذا الكفرُ؟ قال أحمدُ: هو كفرٌ لا ينقلُ عن الملةِ، مثلُ الإيمانِ بعضُه دونَ بعضٍ، فكذلك الكفرُ، حتى يجيءَ من ذلكَ أمرٌ لا يختلفُ فيه.

قال محمدُ بنُ نصرٍ المروزيُّ: واختلفَ من قالَ من أهلِ الحديثِ: إن مرتكبَ الكبائرِ مسلمٌ وليسَ بمؤمنٍ: هل يسمَّى كافرًا كفرًا لا ينقلُ عن الملةِ ـ كما قال عطاءٌ: كفرٌ دون كفرٍ، وقالَ ابنُ عباسٍ وطاووسُ: كفرٌ لا ينقلُ عن الملةِ؟ على قولينِ لهم.

قالَ: وهما مذهبانِ في الجملةِ محكيانِ عن أحمدَ بنِ حنبلٍ، في موافقيه من أهلِ الحديثِ.

قلتُ: قد أنكرَ أحمدُ ـ في روايةِ المرُّوذيِّ ـ ما رُوي عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو أنَّ شاربَ الخمرِ يسمَّى كافرًا، ولم يُثْبِتْه عنه، مع أنَّه قد رُوي عنه من وجوهٍ كثيرةٍ، وبعضُها إسنادُهُ حسنٌ.

ورُوي عنه مرفوعًا.

وكذلك أنكر القاضي أبو يعلى جوازَ إطلاقِ كفرِ النعمةِ على أهلِ الكبائرِ، ونصبَ الخلافَ في ذلك معَ الزيديةِ من الشيعةِ والإباضيةِ من الخوارجِ.

---

(١) أخرجه: أبو داود (٣٩٠٤)، وأحمد (٢/٤٠٨ ـ ٤٧٦).

وروايةُ إسماعيلَ الشالنجيِّ عن أحمدَ قد توافقُ ذلك، فمن هنا حكى محمدُ بنُ نصرٍ عن أحمدَ في ذلك مذهبين.

والذي ذكرهُ القاضي أبو عبد اللَّهِ بنُ حامدٍ شيخُ القاضي أبي يعلى، عن أحمدَ: جوازُ إطلاقِ الكفرِ والشركِ على بعضِ الذنوبِ التي لا تخرجُ عن الملةِ، وقد حكاهُ عن أحمدَ.

وقد رُوي عن جريرِ بنِ عبدِ اللَّهِ، أنه سئلَ: هل كنتُم تسمونَ شيئًا منَ الذنوبِ الكفر أو الشركَ؟ قال: معاذَ اللَّهِ، ولكنَّا نقولُ: مؤمنينَ مذنبينَ.

خرَّجه محمدُ بنُ نصرٍ وغيرُهُ.

وكان عمَّارٌ ينهى أن يقال لأهلِ الشامِ الذين قاتلوهم بصفِّين: كفروا. وقال: قولُوا: فسقُوا، قولُوا: ظلموا.

وهذا قولُ ابنِ المباركِ، وغيرِه من الأئمةِ.

وقد ذكرَ بعضُ الناسِ أن الإيمانَ قسمانِ:

أحدُهما: إيمانٌ باللَّهِ، وهو الاقرارُ والتصديقُ به.

والثاني: إيمانٌ للَّه، فنقيضُ الإيمانِ الأولِ الكفرُ، ونقيضُ الإيمانِ الثاني: الفسقُ، وقد يسمَّى كفرًا، ولكن لا ينقلُ عن الملةِ.

وقد وردتْ نصوصٌ، اختلفَ العلماءُ في حملِهَا على الكفرِ الناقلِ عن الملةِ، أو على غيرِه، مثلُ الأحاديثِ الواردةِ في كفرِ تاركِ الصلاةِ.

وتردَّدَ إسحاقُ بنُ راهويهِ فيما وردَ في إتيانِ المرأةِ في دُبُرها، أنه كفرٌ: هلْ هو مُخرِجٌ عن الدِّينِ بالكليّةِ، أم لا؟

ومن العلماءِ: مَن يتوقَّى الكلامَ في هذه النصوصِ تورعًا، ويُمرُّها كما جاءتْ من غيرِ تفسيرٍ، مع اعتقادِهِم أنَّ المعاصي لا تخرجُ عن الملةِ.

وحكاه ابنُ حامدٍ روايةً عن أحمدَ.

ذكرَ صالحُ بنُ أحمدَ وأبو الحارثِ: أنَّ أحمدَ سئلَ عن حديثِ أبي بكرٍ الصديقِ: كفرٌ باللَّه تبرِّي من نسبٍ وإنْ دقَّ، وكفرٌ باللَّهِ ادعاءٌ إلى نسبٍ لا يُعلَمُ.

قال أحدُهما: قالَ أحمدُ: قد رُوِي هذا عن أبي بكرٍ، واللَّهُ أعلمُ، وقال الآخرُ: قال: ما أعلمُ، قد كتبنَاها هكذَا.

قال أبو الحارثِ: قيل لأحمدَ: حديثُ أبي هريرةَ: «**من أتى النِّساءَ في أعجازِهِنَّ فقد كفر**» فقال: قد رُوِي هذا، ولم يزِدْ على هذا الكلامِ.

وكذا قال الزهريُّ، لَمَّا سُئلَ عن قولِ النبيِّ ﷺ: «**ليس منَّا من لطمَ الخدودَ**»(١) وما أشبهه من الحديثِ ـ فقالَ: من اللَّه العلمُ، وعلى الرسولِ البلاغُ، وعلينا التسليمُ.

ونقلَ عبدوسُ بنُ مالكٍ العطارُ، عن أحمدَ، أنه ذكر هذه الأحاديثَ التي وردَ فيها لفظُ الكفرِ، فقال: نسلِّمُها، وإن لم نعرفْ تفسيرَها، ولا نتكلَّمُ فيه، ولا نفسرُها إلا بما جاءتْ.

ومنهم: من فرَّقَ بين إطلاقِ لفظِ الكفرِ، فجوَّزه في جميعِ أنواعِ الكفرِ، سواءٌ كان ناقلاً عن الملةِ أو لم يكنْ، وبين إطلاقِ اسم الكافرِ، فمنعَهُ، إلا

---

(١) أخرجه: البخاري (٢/ ١٠٢ ـ ١٠٣ ـ ١٠٤)، (٤/ ٢٢٣)، ومسلم (١/ ٦٩ ـ ٧٠) من حديث عبد اللَّه بن مسعود ﷺ.

في الكفرِ الناقلِ عن الملةِ، لأنَّ اسمَ الفاعلِ لا يُشتقُّ إلا من الفعلِ الكاملِ.

ولذلكَ قالَ في اسمِ المؤمنِ: لا يقالُ إلا للكاملِ الإيمانِ، فلا يستحقُّه من كان مرتكبًا للكبائرِ حال ارتكابِهِ، وإن كان يقالُ: قد آمنَ، ومعه إيمانٌ.

وهذا اختيارُ ابنِ قتيبةَ.

وقريبٌ منه: قولُ من قالَ: إنَّ أهل الكتابِ، يقالُ: إنهم أشركُوا، وفيهم شِرْكٌ، كما قال تعالى: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣١]، ولا يدخلون في اسمِ المشركينَ عند الإطلاقِ، بل يفرَّقُ بينهم وبينَ المشركينِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة:١]، فلا تدخلُ الكتابيّةُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ [البقرة:٢٢١].

وقد نصَّ على ذلك الإمامُ أحمدُ وغيرُهُ.

وكذلك كره أكثرُ السلفِ، أن يقولَ الإنسانُ: أنا مؤمنٌ، حتى يقولَ: إن شاءَ اللَّهُ، وأباحُوا أن يقولَ: آمنتُ باللَّه.

وهذا القول حسنٌ، لولا ما تأوَّله ابنُ عباسٍ وغيرُهُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]، واللَّهُ أعلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالأَنفَ بِالأَنفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾

وأما النَّفْسُ بالنفسِ، فمعناه: أن المكلَّف إذا قتل نفسًا بغيرِ حقٍّ عمدًا، فإنه

(١) «فتح الباري» (١/ ١٢٦ ـ ١٣١).

يُقْتَلُ بها، وقد دلَّ القرآنُ على ذلكَ بقولِه تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة:٤٥]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ﴾ [البقرة:١٧٨].

ويُستثنى من عُمومِ قولِهِ تعالى: ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة:٤٥] صُوَرٌ:

منها: أن يقتلَ الوالدُ ولدَه، فالجمهورُ على أنّه لا يُقْتَلُ به، وصحَّ ذلك عن عُمرَ. وروي عن النبيِّ ﷺ من وجوهٍ متعـدِّدةٍ، وقد تُكُلِّمَ في أسانيدِها[١]، وقال مالكٌ: إنْ تعمَّدَ قتله تعمدًا لا يشكُّ فيه، مثل أن يذبَحَهُ، فإنه يُقتلُ به، وإن حذفَهُ بسيفٍ أو عـصا، لم يقتلَ، وقال البتِّي: يقتلُ بقـتلِهِ بجميع وجوهِ العمدِ للعموماتِ.

ومنها: أن يقتلَ الحرُّ عـبدًا فالأكثرون على أنَّـه لا يُقتل به، وقد وردتْ في ذلك أحاديثُ في أسانـيدها مقالٌ. وقيل: يقـتلُ بعبدِ غيـرِهِ دون عبدِهِ، وهو قولُ أبي حنيـفةَ وأصحـابِهِ، وقيل: يقتلُ بعبـده وعبدِ غـيرِهِ، وهو رواية عن الثوري، وقـولُ طائفةٍ من أهلِ الحديثِ، لحديث سـمرةَ عن النبيِّ ﷺ: «من قَتَلَ عبدَهُ، قتلناهُ، ومن جَدَعَهُ جدَعْناهُ»[٢] وقد طعن فيه الإمامُ أحمدُ وغيرُهُ.

وقد أجمعُوا على أنّه لا قصـاصَ بين العبيدِ والأحرارِ في الأطرافِ، وهذا يدلُّ على أنَّ هذا الحـديثَ مطَّرحٌ لا يُعـمل به، وهذا مما يُسـتـدلُّ به على أنَّ المرادَ بقولِـهِ تعالى: ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة:٤٥] الأحـرار، لأنه ذكرَ بعـدَهُ القصاصَ في الأطرافِ وهو يختصُّ بالأحرارِ.

---

(١) أخرجه: الترمذي (١٣٩٩).

(٢) أخـرجـه: أحـمـد (٥/ ١٠ ـ ١١ ـ ١٢ ـ ١٨ ـ ١٩)، وأبو داود (٤٥١٥ ـ ٤٥١٦ ـ ٤٥١٧)، والترمذي (١٤١٤)، والنسائي (٨/ ٢٠ ـ ٢١ ـ ٢٦).

ومنها: أن يَقتُلَ المسلمُ كافرًا، فإن كان حربيًّا لم يقتلْ به بغير خلاف، لأنَّ قتل الحربيِّ مباحٌ بلا ريب، وإن كان ذميًّا أو معاهدًا، فالجمهورُ على أنَّه لا يقتلُ به ـ أيضًا، وفي «صحيحِ البخاريِّ»(١) عن عليٍّ عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا يقتلُ مسلمٌ بكافرٍ**».

وقال أبو حنيفةَ وجماعةٌ من فقهاءِ الكوفيين: يُقتلُ به، وقد روى ربيعةُ عن ابن البيلماني عن النبيِّ ﷺ أنه قتلَ رجلاً من أهلِ القبلةِ برجلٍ من أهلِ الذمَّة، وقال: «**أنا أحقُّ من وفَّى بذمَّته**»(٢) وهذا مرسل ضعيف قد ضعَّفه الإمامُ أحمدُ، وأبو عبيد، وإبراهيمُ الحربيُّ، والجوزجانيُّ، وابنُ المنذرِ والدارقطنيُّ، وقال: ابن البيلمانيُّ: ضعيف لا تقومُ به حجة إذا وصلَ الحديثَ، فكيف بما يرسلُه؟ وقال الجوزجانيُّ: إنَّما أخذه ربيعةُ عن إبراهيمَ بن أبي يحيى عن ابنِ المنكدرِ عن ابن البيلمانيِّ، وابنِ أبي يحيى متروك الحديثِ.

وفي «مراسيلِ أبي داودَ»(٣) حديثٌ آخرُ مرسلٌ أنَّ النبيَّ ﷺ قتلَ يومَ خيبر مسلمًا بكافرٍ قتله غيلةً، وقال: «**أنا أولى وأحقُّ من وفَّى بذمَّته**» وهذا مذهبُ مالكٍ وأهلِ المدينةِ أن القتلَ غيلة لا تُشرط له المكافأة، فيُقْتَلُ فيه المسلمُ بالكافرِ، وعلى هذا حملُوا حديثَ ابنِ البيلمانيِّ أيضًا على تقدير صحَّته.

ومنها: أن يقتلَ الرجلُ امرأةً فيُقتل بها بغيرِ خلاف، وفي كتابِ عمرِو بنِ حزمٍ عن النبيِّ ﷺ أنَّ الرَّجُلَ يقتلُ بالمرأةِ(٤). وصحَّ أنَّ ﷺ قتل يهوديًا قتلَ

---

(١) (١/ ٣٨)، (٤/ ٨٤)، (٩/ ١٣).

(٢) أخرجه: البيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٢٠ ـ ٢١)، وراجع: «السلسلة الضعيفة» (٤٦٠).

(٣) «المراسيل» (٢٥١).

(٤) أخرجه: النسائي (٨/ ٥٧ ـ ٥٨)، وابن حبان (٦٥٥٩)، والحاكم (١/ ٣٩٥).

جارية[١] ، وأكثرُ العلماءِ على أنَّه لا يُدفع إلى أولياءِ الرجلِ شيءٌ. وروي عن عليٍّ أنَّه يدفع إليهم نصف الدِّيَة، لأنَّ دية المرأة نصفُ ديةِ الرجل وهو قولُ طائفةٍ من السلفِ وأحمدَ في روايةٍ عنه[٢] .

* * *

قوله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾

[قال البخاريُّ][٣] : وقال ابنُ عباسٍ: ﴿ **شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** ﴾ [المائدة:٤٨]، سبيلاً وسُنَّةً.

هذا، من روايةِ أبي إسحاقَ، عن التميمي، عن ابنِ عباسٍ، قال: ﴿ **شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** ﴾ [المائدة:٤٨] سبيلاً وسُنَّةً.

ومعنى قولِ ابنِ عباسٍ: أنَّ المنهاجَ هو السُّنَّة، وهو الطريقُ الواسعةُ المسلوكةُ، المداوَمُ عليها.

والشِّرْعةُ، هي السبيلُ والطريقُ المُوصلُ إليها، فهي كالمدخلِ إليها، كمشْرَعةِ الماءِ، وهي المكانُ الذي يُورَدُ الماءُ منه.

ويقالُ: شَرَع فلانٌ في كذا، إذا ابتدأ فيه، وأنْهَجَ البِلى في الثوبِ، إذا اتَّسع فيه. وبذلكَ فرَّق طائفةٌ من المفسرينَ وأهلِ اللُّغة بين الشِّرعة والمنهاجِ، منهم: الزجاجُ وغيرُهُ[٤].

* * *

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ١٥٩)، (٤/ ٤)، (٩/ ٥ ـ ٨)، ومسلم (٥/ ١٠٤) من حديث أنس بن مالك ﷺ.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣١٧ ـ ٣٢٠).

(٣) «صحيح البخاري» (١/ ٩).

(٤) «فتح الباري» (١/ ١٧).

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

علاماتُ المحبة الصادقة: التزامُ طاعةِ اللَّه تعالى، والجهادُ في سبيله، واستحلاءُ الملامةِ في ذلك، واتباعُ رسولِه. قال اللَّهُ جل وعلا: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾ [المائدة:٥٤] وقال تعالى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [آل عمران:٣١].

فوصفَ اللَّهُ سبحانه المحبينَ له بخمسةِ أوصافٍ:

أحدها: الذِّلةُ على المؤمنين، والمرادُ لينُ الجانبِ وخفضِ الجناحِ والرأفةِ والرحمةِ للمؤمنينَ، كما قال تعالى لرسولِه: ﴿ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الشعراء:٢١٥] ووصفَ أصحابَه بمثلِ ذلك في قولِه: ﴿ **مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ** ﴾ [الفتح:٢٩] وهذا يرجعُ إلى أنَّ المحبينَ للَّهِ يحبونَ أحباءَهُ ويعودونَ عليهم بالعطفِ والرأفةِ والرحمةِ، وقد سبقَ في البابِ الأولِ بيانُ ذلكَ.

الثاني: العزةُ على الكافرينَ، والمرادُ الشِّدَّةُ والغلظةُ عليهم، كما قالَ تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ** ﴾ [التوبة:٧٣] وهذا يرجعُ إلى أنَّ المحبينَ لهُ يبغضونَ أعداءَه، وذلك من لوازمِ المحبةِ الصادقةِ، كما سبقَ

تقريره أيضًا.

الثالث: الجهادُ في سبيلِ اللَّه، وهو مجاهدةُ أعدائِه باليدِ واللسانِ، وذلك أيضًا من تمامِ معاداةِ أعداءِ اللَّه الذي تستلزمُه المحبةُ، وأيضًا فالجهادُ في سبيلِ اللَّه فيه دعاءُ الخلقِ إلى اللَّهِ وردُّهم إلى بابِه بالقهرِ لهم والغلبةِ، كما قال تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ [آل عمران: ١١٠] الآية.

قال مجاهدٌ وغيرُهُ: يعني كنتُم خيرَ الناسِ للناسِ، فخيرُ الناس للناسِ أنفعُهُم لهم، ولا نفعَ أعظمُ من الدعاءِ إلى التوحيدِ والطاعةِ والنهي عن الشركِ والمعصيةِ، وسُئلَ الحسنُ البصريُّ عن رجلٍ له أمٌّ فاجرةٌ فقال: «يقيِّدُها فما وصلَها بشيءٍ أعظم من أن يكفَّها عن معاصي اللَّهِ تعالى».

قال إبراهيمُ بنُ أدهمَ: سمعتُ رجلينِ من الزُّهادِ يقولُ أحدُهما للآخرِ: «يا أخي، ما ورثَ أهلَ المحبةِ محبَّتُهُم؟» قال: فأجابه الآخرُ: «ورثُوا النظرَ بنورِ اللَّهِ والعطفَ على أهلِ معاصِي اللَّهِ» قال: فقلتُ له: «كيفَ يعطفُ على قومٍ قد خالَفوا أمرَ محبوبِهم؟» فقال: «مقتَ أعمالَهم وعطَفَ عليهم ليزيلَهم بالمواعظِ عن فِعالِهِم وأشْفقَ على أبدانِهِم من النارِ، لا يكونُ المؤمنُ مؤمنًا حقًّا حتى يَرضى للناسِ ما يرضاهُ لنفْسِه».

الرابع: أنهم لا يخافون لومةَ لائمٍ، والمرادُ أنهم يجتهدونَ فيما يرضى به من الأعمالِ ولا يبالونَ بلومةِ من لامَهُم في شيءٍ منه إذا كان فيه رِضا ربِّهم، وهذا من علاماتِ المحبةِ الصادقة، إنَّ المحبَّ يشتغلُ بما يرضى به حبيبُه ومولاه، ويستوِي عنده مَنْ حَمَدَهُ في ذلكَ أو لامَهُ، وفي هذا المعني يقولُ

بعضُهم:

وقفَ الهوى بي حيثُ أنتِ فليسَ لي ... متأخَّرٌ عنه ولا متقدَّمُ
أجدُ الملامةَ في هواكِ لذيذةً ... حبًّا لذكركِ فليَلُمْني اللُّوَّمُ

الخامس: متابعةُ الرسولِ ﷺ وهو طاعتُه واتباعُه في أمرِهِ ونهيِه. قال مباركُ بنُ فضالةَ عن الحسنِ: كان ناسٌ على عهدِ النبيِّ ﷺ يقولونَ: «يا رسولَ اللَّه، إنَّا نحبُّ ربَّنا حبًّا شديدًا» فأحبَّ اللَّه أن يجعلَ لحبِّه علَمًا، فأنزلَ اللَّهُ تباركَ وتعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (١) [آل عمران: ٣١].

وقد قرنَ اللَّهُ بين محبَّته ومحبةِ رسولِه في قولِه: ﴿**أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**﴾ [التوبة: ٢٤] وكذلك وردَ في السُّنَّة في أحاديثَ كثيرةٍ جدًا، سبقَ ذكرُ بعضِهَا والمرادُ أنَّ اللَّه تعالى لا توصلُ إليه إلا من طريقِ رسولِهِ ﷺ باتباعِهِ وطاعتِهِ.

كما قال الجنيدُ وغيرُه من العارفين: «الطرقُ إلى اللَّهِ مسدودةٌ إلا من اقتفى أثرَ الرسولِ ﷺ». وكلامُ أئمة العارفينَ في هذا البابِ كثيرٌ جدًّا.

قال إبراهيمُ بنُ الجنيدِ: يقالُ: علامةُ المحبِّ على صدقِ الحبِّ ستُّ خصالٍ:

أحدها: دوامُ الذكر بقلبِهِ بالسرورِ بمولاه.

والثانيةُ: إيثارُه محبةَ سيدهِ على محبةِ نفسِهِ ومحبةِ الخلائقِ، يبدأُ بمحبةِ مولاهُ قبل محبةِ نفسه ومحبةِ الخلائقِ.

(١) أخرجه: ابن جرير الطبري في «تفسيره» من طرق - غير طريق فضالة - عن الحسن (٣/ ٢٣٢).

والثالثةُ: الأُنسُ به والاستثقالُ لكلِّ قاطعٍ يقطعُ عنه، أو شاغلٍ يشغلُهُ عنه.

والرابعةُ: الشوقُ إلى لقائه والنظرُ إلى وجههِ.

الخامسةُ: الرِّضا عنه في كلِّ شديدةٍ وضرٍّ ينزلُ به.

والسادسةُ: اتباعُ رسولِه ﷺ.

ومحبةُ الرسولِ ﷺ على درجتين:

إحداهما فرضٌ: وهي المحبةُ التي تقتضي قبولَ ما جاء به الرسولُ ﷺ من عندِ اللَّهِ وتلقِّيه بالمحبةِ والرِّضا والتعظيمِ والتسليمِ وعدمِ طلبِ الهدى من غيرِ طريقِهِ بالكليّةِ، ثم حسنُ الاتباعِ له فيما بلَّغه عن ربِّه من تصديقِهِ في كلِّ ما أخبر به، وطاعتِهِ فيما أمر به من الواجباتِ، والانتهاءِ عمَّا نهى عنه من المحرَّماتِ، ونصرةِ دينِهِ والجهادِ لمن خالفَهُ بحسبِ القدرةِ، فهذا القدرُ لا بدَّ منه ولايتمُّ الإيمانُ بدونِه.

والدرجة الثانية فضلٌ: وهي المحبةُ التي تقتضي حسنَ التَّأسِّي بهِ وتحقيقَ الاقتداءِ بسنتهِ في أخلاقِهِ وآدابِهِ ونوافلِهِ وتطوعاتِهِ وأكلِهِ وشربِهِ ولباسِهِ وحسنِ معاشرتِهِ لأزواجِهِ وغيرِ ذلك من آدابِهِ الكاملةِ وأخلاقِهِ الطاهرةِ، والاعتناءَ بمعرفةِ سيرتِهِ وأيامِه، واهتزازَ القلبِ عند ذكرِهِ، وكثرةَ الصلاةِ عليه لما سكنَ في القلبِ من محبَّتِه وتعظيمِهِ وتوقيرِهِ، ومحبةَ استماعِ كلامِهِ، وإيثارَهُ على كلامِ غيرِهِ من المخلوقينَ.

ومن أعظمِ ذلكَ الاقتداءُ به في زهدِهِ في الدُّنيا والاجتزاءِ باليسيرِ منها ورغبتِهِ في الآخرةِ.

قال سهل التستريُّ: من علاماتِ حبِّ اللَّهِ حبُّ القرآن، وعلامةُ حبِّ اللَّه

وحبِّ القرآنِ حبُّ النبيِّ ﷺ، وعلامةُ حبِّ النبيِّ ﷺ حبُّ السنَّة، وعلامةُ حبِّ السنةِ حبُّ الآخـرةِ، ومن علامـةِ حبِّ الآخرة بغضُ الدنـيا، وعـلامةُ بغضِ الدنيا أن لا يأخذَ منها إلا زادًا يبلِّغُه إلى الآخرةِ[1] .

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾

ففي هذه الآيةِ إشـارةٌ إلى أنَّ منْ أعرض عن حبِّنا، وتـولَّى عن قربنا، لم نبالِ بهِ، واستـبدلْنَا به من هوَ أولَى بهذهِ المنحةِ منـه وأحقُّ، فمن أعْرَضَ عنِ اللَّهِ، فما له منَ اللَّهِ بدَلٌ، وللَّهِ منه أبدالٌ.

مـا لي شُـغل سـواه مـا لي شُـغلُ   مـا يَـصـرِفُ عن هواه قلبـي عـذلُ
مـا أصنعُ إن جَـفـا وخـابَ الأملُ   مـنِّي بـدل ومنـه مـــــا لي بـدَلُ

وفي بعضِ الآثارِ: «**يقـولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ابنَ آدمَ، اطلبِني تجدْني، فإنْ وجـدتَّني، وجدتَ كُلَّ شيءٍ، وإن فُتُّكَ، فاتَكَ كلُّ شيءٍ، وأنا أَحبُّ إليك من كُلِّ شيءٍ**».

كان ذو النونِ يردِّدُ هذه الأبياتِ بالليلِ كثيرًا:

اطـلبــــوا لأنفـــسِكُم   مـــثلَ مـــا وجـــدتُ أنا
قـــد وجـــدتُ لـي سكَـنًا   لـيـس فـي هـــواه عَـنَـا
إنْ بَـعَـــدْتُ قَـــرَّبَنـي   أو قَـــرُبْـتُ مِـنْـهُ دَنَـا

(١) «استنشاق نفحات الأنس» (٨١ ـ ٨٥).

من فاتَهُ اللَّهُ، فلو حصلتْ له الجَنَّةُ بحذافيرِهَا، لكان مغبونًا، فكيفَ إذا لم يحصلْ له إلا نزْرٌ يسير حقيرٌ من دارٍ كلِّها لا تَعدلُ جناحَ بعوضةٍ:

مَنْ فاتَهُ أنْ يَراكَ يَومًا فكلُّ أوقاتِه فَواتُ
وحَيثُما كنتُ من بلادٍ فَلِي إلى وجْهِكَ التِفَاتُ

ثم ذكرَ أوصافَ الذين يُحبُّهم ويحبُّونه، فقال: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٥٤] يعني: أنهم يعامِلونَ المؤمنينَ بالذِّلَّة واللِّينِ، وخَفْضِ الجناحِ، ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ يعني: أنهم يعامِلُونَ الكافرينِ بالعزَّة والشدَّة عليهم، والإغلاظِ لهم، فلما أحبُّوا اللَّهَ، أحبُّوا أولياءَه الذين يُحبونَهُ، فعامَلُوهُم بالمحبَّةِ، والرَّأفةِ، والرحمةِ، وأبغضُوا أعداءَه الذين يُعادونه، فعاملُوهُم بالشِّدَّة والغِلظة، كما قال تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح:٢٩]، ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة:٥٤].

فإنَّ من تمامِ المحبةِ مجاهدةَ أعداءِ المحبوبِ - وأيضًا - فالجهادُ في سبيلِ اللَّهِ دعاءٌ للمعرضِينَ عن اللَّهِ إلى الرجوعِ إليه بالسِّيفِ والسِّنانِ، بعد دعائِهم إليه بالحجَّةِ والبُرْهانِ، فالمحبُّ للَّهِ يحبُّ اجتلابَ الخلقِ كلِّهم إلى بابِهِ، فمنْ لم يُجبِ الدعوةَ إليه باللينِ والرِّفقِ، احتاجَ إلى الدعوةِ بالشدَّةِ والعنفِ: «**عجبَ ربُّك من قوم يُقادون إلى الجنَّة بالسَّلاسلِ**»(١).

﴿وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة:٥٤] لا هَمَّ للمحبِّ غيرُ ما يُرضِي حبيبَهُ، رضِيَ من رَضِيَ وسخِطَ من سخِطَ، من خافَ الملامةَ في هوى من يُحبُّ، فليس بصادقٍ في المحبَّةِ.

---

(١) أخرجه: البخاري (٤/ ٧٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقفَ الهوى بي حيثُ أنتَ فليسَ لي مُـتـأخَّـرٌ عنه ولا مُـتـقـدَّمُ
أجِـدُ المـلامـةَ في هواكَ لـذيذةً حـبًّـا لِذكْـرِكِ فلْـيَلُمْنِـي اللُّوَّمُ

قوله: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [المائدة:٥٤] يعني: درجةَ الذين يُحبهم ويحبونَهُ بأوصافِهِم المذكورةِ ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٥٤]: واسعُ العطاءِ، عليمٌ بمن يستحقُّ الفضل، فيمنَحُهُ، ومن لا يستحقُّ، فيمنعُهُ(١).

* * *

وعن أبي صخرٍ عن محمدِ بنِ كعبٍ القرظيِّ أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ أرسلَ يومًا إليه، وعمرُ أمير المدينة يومئذٍ، فقال: يا أبا حمزةَ، إنَّه أسهرتْني البارحةَ آيةٌ. قال محمدٌ: وما هي أيها الأمير؟ فقالَ: قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ إلى قوله: ﴿لَوْمَةَ لائِمٍ﴾ [المائدة:٥٤] قال محمدٌ: إنَّما عنى اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾[المائدة:٥٤] الولاةَ من قريشٍ: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾ [المائدة:٥٤] عن الحق ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة:٥٤] وهم أهلُ اليمنِ. قال عمرُ: يا ليتَني وإيَّاكَ منهم قال: آمين(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاة اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾

[قال البخاريُّ](٣): وقول اللَّـهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاة اتَّخَذُوهَا

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٦٥ ـ ٣٦٧).
(٢) «استنشاق نسيم الأنس» (٦٤ـ ٦٥). (٣) «صحيح البخاري» (١/ ١٥٧).

هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة:٥٨]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة:٩].

يشيرُ إلى أنَّ الأذانَ مذكورٌ في القرآنِ في هاتينِ الآيتينِ:

الأولى منهما: تشتمل النداءَ إلى جميع الصلوات؛ فإنَّ الأفعالَ نكراتٌ، والنكرة في سياقِ الشَّرْطِ تعُمُّ كلَّ صلاةٍ.

والثانية منهما: تختصُ بالنداءِ إلى صلاةِ الجمعة.

وقد رَوَى عبدُ العزيزِ بنُ عِمرانَ، عن إبراهيمَ بنِ أبي حبيبةَ، عن داودَ بنِ الحُصينِ، عن عكْرمةَ، عن ابن عباسٍ، قال: الأذان نزل على رسول اللَّه ﷺ مع فرضِ الصلاةِ: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة:٩].

هذا إسنادٌ ساقطٌ لا يصح.

وهذه الآيةُ مدنيةٌ، والصلاةُ فرضتْ بمكةَ، ولم يصحَّ أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّى بمكةَ جُمُعَة، وقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً﴾ [المائدة:٥٨] مدنية - أيضًا - ولم يُؤذنْ للصلاةِ بمكةَ.

والحديثُ الذي رُوي أنَّ جبريلَ لَمَّا أمَّ النبيَّ ﷺ أولَ ما فُرضت الصلاةُ أمَرَه أن يُؤذَنَ بالصلاةِ، قد جاء مفسرًا في روايةٍ أخرى، أنَّه يؤذنُ: الصلاةُ جامعة.

وقد سبقَ ذكرُهُ في أولِ كتابِ الصلاةِ.

وقد رُوي أنَّ النبيَّ ﷺ ليلةَ أُسْري خرجَ ملكٌ من وراء الحجابِ فأذَّن، فحدَّثه ربُّه عزَّ وجلَّ والنبيُّ ﷺ يسمعُ ذلكَ، ثم أخذَ المَلَكُ بيدِ محمدٍ فقدَّمه

فأمَّ أهلَ السماءِ، منهم آدمُ ونوحٌ.

قال أبو جعفرٍ محمدُ بنُ علـي: فيومئذٍ أكملَ اللَّهُ لمحمدٍ ﷺ الشَّرف على أهلِ السماءِ وأهلِ الأرضِ.

وقد خرَّجه البزارُ[١] والهيثـمُ بنُ كليبٍ في «مسنديهما» بسـياقٍ مُطوَّلٍ من طريقِ زيادِ بنِ المنذرِ أبي الجارود، عن محـمدِ بنِ علي بن الحسينِ، عن أبيه، عن جدِّه، عن علي.

وهو حديثٌ لا يصحُّ.

وزيادُ بنُ المنذرِ أبو الجارودِ الكوفيُّ، قال فيه الإمـامُ أحمدُ: متروكٌ. وقال ابنُ معينٍ: كذَّاب عدو الـلَّهِ، لا يساوي فِلْسًا، وقال ابنُ حبانَ: كـان رافضيًا يضعُ الحديثَ.

وروى طلحـة بن زيدٍ الرقي، عن يونسَ، عن الزُّهريِّ، عن سـالمٍ، عن أبيه، أنَّ النبيَّ ﷺ لما أُسْرِي به إلى السمـاءِ أوحى اللَّهُ إليه الأذانَ، فنزلَ بهِ، فعلَّمه جبريلَ.

خرَّجه الطبرانيُّ[٢].

وهو موضوعٌ بهذا الإسنادِ بغيرِ شكٍّ.

وطلحةُ هذا، كذَّاب مشهور.

ونبهنا على ذلكَ لئلاَ يُغْتَّر بشيءٍ منه.

وإنَّما شُرِع الأذانُ بعد هجرةِ النبيِّ ﷺ إلى المدينةِ، والأحاديثُ الصحيحةُ كلُّها تدلُّ على ذلكَ.

---

(١) (٥٠٨ ـ كشف).

(٢) «المعجم الأوسط» (٩٢٤٧).

والأذانُ له فوائدُ:

منها: أنه إعلامٌ بوَقْتِ الصلاةِ أو فعلِها.

ومن هذا الوجهِ هو إخبارٌ بالوقتِ أو الفعلِ، ولهذا كان المؤذِّنُ مُؤْتمنًا.

ومنها: أنه إعلامٌ للغائبينَ عن المسجدِ، فلهذا شُرِع فيه رفعُ الصوتِ، وسُمِّي نداءً، فإنَّ النِّداءَ هو الصوتُ الرفيعُ.

ولهذا المعنى قالَ النبيُّ ﷺ لعبدِ اللَّهِ بنِ زيدٍ: «**قم فألقِه على بلالٍ، فإنه أندى صوتًا منك**»(١).

ومنها: أنه دعاءٌ إلى الصلاةِ، فإنه معنى قولِه: «**حيَّ على الصلاةِ، حيَّ على الفلاحِ**».

وقد قيل: إنَّ قولَهُ تعالى: ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾ [فصلت:٣٣] الآية: نزلتْ في المؤذنينَ، رُوي عن طائفةٍ من الصحابةِ.

وقيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿**وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ**﴾ [القلم: ٤٣]: إنها الصلواتُ الخمسُ حين يُنادى بها.

ومنها: أنه إعلانٌ بشرائعِ الإسلامِ من التوحيدِ والتكبيرِ والتهليلِ والشهادةِ بالوحدانيةِ والرسالةِ(٢).

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٣)، وأبو داود (٥١٣)، والترمذي (١٨٩) من حديث عبد اللَّه بن زيد بن عبد ربِّه الأنصاريِّ ﷺ.

(٢) «فتح الباري» (٣/ ٣٩٥ ـ ٣٩٧).

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾

وقد ذكرَ اللَّهُ ـ في كتابِهِ ـ العلَّةَ المقتضيةَ لتحريمِ المسكراتِ، وكان أوَّل ما حُرِّمتِ الخمرُ عند حضورِ وقتِ الصلاةِ لَّما صلَّى بعضُ المهاجرينَ، وقرأ في صلاتِهِ، فخَلط في قراءتِهِ، فنزلَ قولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء:٤٣]، فكانَ مُنَادي رسولِ اللَّهِ ﷺ ينادي: لا يَقْربِ الصلاةَ سكرانٌ[١].

ثم إنَّ اللَّهَ حرَّمها على الإطلاقِ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩٠-٩١].

فذكرَ سبحانَهُ علَّةَ تحريمِ الخمرِ والميسرِ ـ وهو القِمارُ ـ وهو أنَّ الشيطانَ يُوقِعُ بهما العداوةَ والبغضاءَ، فإنَّ منْ سكِرَ، اختلَّ عقلُه، فربما تسلَّط على أذى الناس في أنفسِهِم وأموالِهم، وربما بلغ إلى القتلِ، وهي أمُّ الخبائثِ، فمنْ شربها قتلَ النفسَ وزنى، وربما كفرَ.

وقد رُوي هذا المعنى عن عثمانَ وغيرِه، ورُوي مرفوعًا أيضًا.

---

(١) أخرجه: أحمد (١/٥٣)، وأبو داود (٣٦٧٠)، والترمذي (٣٠٤٩)، والنسائي (٨/٢٨٦-٢٨٧) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

ومن قامَرَ، فربما قُهِرَ وأُخذَ مالُه منه قـهرًا، فلم يبقَ له شيءٌ فيشتدُّ حقدُهُ على من أخذ مـالَهُ. وكلُّ ما أدَّى إلى إيقـاعِ العداوةِ والبغـضاءِ كان حـرامًا، وأخبر سـبحانه أنَّ الشيطانَ يصـدُّ بالخمرِ والميسرِ عن ذكـرِ اللَّهِ وعن الصلاة، فـإنَّ السكرانَ يزولُ عـقلُهُ، أو يختـلُّ، فلا يسـتطيعُ أن يذكـرَ اللَّهَ، ولا أن يُصلِّي، ولهـذا قال طائفةٌ من السـلفِ: إن شارب الخمـرِ تمرُّ عليه سـاعةٌ لا يعرفُ فيها ربَّه، واللَّهُ سبحـانه إنما خلقَ الخلقَ ليعرِفُوه، ويذكرُوه، ويعبدُوه، ويُطيعوه، فـما أدَّى إلى الامتناع من ذلك، وحالَ بين العبدِ وبين مـعرفةِ ربِّه وذكرِه ومناجاتِه، كان محرَّمًا، وهو السُّكْرُ، وهذا بخلافِ النَّومِ، فإنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ جَبَلَ الـعبادَ عليـه، واضطرهُم إليه، ولا قِـوامَ لأبدانِهِم إلا به، إذ هو راحةٌ لهم من السعي والنَّصَبِ، فهـو من أعظم نعم اللَّهِ على عبادِهِ، فإذا نامَ المؤمنُ بقدرِ الحـاجةِ، ثم استيـقظَ إلى ذكرِ اللَّهِ ومناجاتِهِ ودعائِهِ، كـان نومُه عونًا له على الصلاةِ والذكرِ، ولهذا قـالَ من قالَ من الصحابةِ: إني أحتسبُ نَوْمَتِي كما أحتسبُ قَوْمَتِي.

وكذلك الميْسرُ: يصُدُّ عن ذكرِ اللَّهِ وعنِ الصـلاةِ، فإنَّ صاحبَه يعْكُفُ بقلبِهِ عليه، ويشتغلُ به عن جميعِ مصالحِهِ ومهماتِهِ حتى لا يكادُ يذكرُها لاستغراقِهِ فيه، ولهذا قالَ عليٌّ لما مرَّ على قـومٍ يلعبون بالشطرنجِ: ما هذهِ التماثيلُ التي أنتُم لها عاكفونَ؟[1] فشبَّهَهم بالعاكفينَ على التماثيلِ. وجاءَ في الحديثِ: «**إنَّ مُدْمِنَ الخمْرِ كعابدِ وثنٍ**»[2] فإنه يتعلَّقُ قلبُه بها، فـلا يكادُ يُمكِّنه أن يدعَها كما

(١) أخرجـه: ابن أبي شيـبة (٥/ ٢٨٧)، والبيـهقي (١٠/ ٢١٢)، والآجـري في «تحريم النَّرد» (ص ١٣٥)، وراجع: «المتنخب من علل الخلاَّل» (٤١).

(٢) أخرجه: ابن ماجه (٣٣٧٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لا يدعُ عابدُ الوثنِ عبادَتَهُ.

وهذا كلُّه مضادٌّ لما خلَقَ اللَّهُ العبادَ لأجلِهِ مِنْ تفريغِ قلوبِهِم لمعرفته، ومحبَّتِه، وخشيتِه، وذكره ومناجاتِه، ودعائِه، والابتهالِ إليه، فما حالَ بين العبدِ وبين ذلكَ، ولم يكنْ بالعبدِ إليه ضرورةٌ، بل كان ضرراً محضًا عليه، كان محرَّمًا.

وقد رُوي عن عليٍّ أنه قالَ لمن رآهم يلعبونَ بالشِّطرنجِ: ما لهذا خُلقتم. ومن هنا يعلمُ أنَّ الميسرَ محرَّمٌ سواءٌ كان بعوضٍ أو بغيرِ عوَضٍ، وأنَّ الشطرنج كالنَّرْدِ أو شرٌّ منه، لأنَّها تشغلُ أصحابَها عن ذكرِ اللَّهِ، وعن الصلاة أكثر من النَّرْدِ.

والمقصودُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**كلُّ مسكر حرامٌ**»، وكلُّ ما أسكر عن الصلاةِ فهو حرام[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، قال: سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «**ما نهيْتُكُم عنه فاجْتنبُوه، وما أمرتُكُم به، فأتُوا منه ما استطعتُم، فإنَّما أهلَكَ الَّذين من قبلِكم كثرةُ مسائِلِهم واختلافُهم على أنبيائهم**».

رواه البخاريُّ ومسلمٌ.

هذا الحديثُ بهذا اللفظِ: خرَّجه مسلمٌ وحْدَهُ[2] من روايةِ الزُّهريِّ، عن

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥١٠ ـ ٥١٣). (٢) «صحيح مسلم» (٤/ ١٠٢)، (٧/ ٩١).

سعيدِ بنِ المسيَّبِ وأبي سلمـةَ ـ كلاهُما ـ عن أبي هريرةَ، وخرَّجاهُ من روايةِ أبي الزنادِ، عن الأعـرجِ، عن أبي هـريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**دعوني ما تركتُكُم، إنَّما أهْلَكَ منْ كانَ قـبلَكُم سؤالُهم واختلافُهم على أنبيـائِهِم، فإذا نهيتُكُم عن شيء، فاجتنبُوه، وإذا أمرتُكُم بأمـرٍ فأتُوا منه ما استطعتُم**» وخرَّجه مسلمٌ من طريقينِ آخرينِ عن أبي هريرةَ بمعناهُ.

وفي روايةٍ له ذكرُ سـببِ هذا الحديثِ من روايةِ محـمدِ بنِ زيادٍ، عن أبي هريرةَ، قالَ: خطبـنا رسولُ اللَّهِ ﷺ فقالَ: «**يا أيهـا الناسُ قد فـرضَ اللَّهُ عليكم الحجَّ فحجُّوا**» فقال رجلٌ: أكُلَّ عـامٍ يا رسولَ اللَّهِ؟ فسكتَ حتَّى قـالَها ثلاثًا، فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**لو قلتُ: نعم، لوجبتْ ولما استطعتُم**»، ثمَّ قال: «**ذَرُوني ما تركْتُكُم، فـإنَّما هلَكَ من كـان قبلكم بسؤالِهِم واخـتلافِهم علـى أنبيائِهم، فـإذا أمرتُكُم بشيءٍ، فأتُوا منه ما استطعتُم، وإذا نهيتُكُم عن شيءٍ، فدعُوه**».

وخرَّجه الدارقطنيُّ [(١)] من وجهٍ آخرَ مختصرًا، وقال فيه: فنزل قولُهُ تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾ [المائدة:١٠١].

وقد رُوي من غيـرِ وجهٍ أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ لَمَّا سألوا النبيَّ ﷺ عن الحجِّ، وقالُوا: أفي كلِّ عامٍ؟

وفي «الصحيحينِ» [(٢)] عن أنسٍ قالَ: خطبنا رسولُ اللَّهِ ﷺ، فقال رجلٌ: مَن أبي؟ فقالَ: «**فلانَ**»، فنزلتْ هذه الآيةُ: ﴿**لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ**﴾ [المائدة:١٠١].

وفيهما [(٣)] ـ أيضًا ـ عن قتادةَ، عن أنـسٍ قالَ: سألُوا رسولَ اللَّهِ ﷺ حتى

---

(١) «السنن» (٢/ ٢٨٢).

(٢) أخرجه: البخاري (٦/ ٦٨)، (٨/ ١٢٨)، (٩/ ١١٨)، ومسلم (٧/ ٩٢).

(٣) أخرجه: البخاري (٨/ ٩٦)، (٩/ ٦٦)، ومسلم (٧/ ٩٤).

أحْفَوهُ في المسألةِ، فغضبَ فصَعدَ المنبرَ، فقالَ: «**لا تسألُوني اليومَ عن شيء إلا بيَّنتُه**» فقامَ رجلٌ ـ كان إذا لاحى الرجالَ دُعِيَ إلى غيرِ أبيه ـ فقالَ: يا رسولَ اللَّهِ من أبي؟ قالَ: «**أبوك حُذافة**»، ثمَّ أنشأ عمرُ، فقال: رضينا باللَّه ربًّا وبالإسلامِ دينًا وبمحمدٍ رسولاً، نعوذُ باللَّه من الفتنِ، وكانَ قتادةُ يذكرُ عندَ هذا الحديثِ هذه الآيةَ ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ**﴾ [المائدة:١٠١].

وفي «صحيحِ البخاريِّ»[(١)] عن ابنِ عباسٍ، قالَ: كان قومٌ يسألُونَ رسولَ اللَّهِ ﷺ استهزاءً، فيقولُ الرجلُ: مَنْ أبي؟ ويقولُ الرجلُ تَضلُّ ناقته: أين ناقَتي؟ فأنزلَ اللَّهُ هذه الآيةَ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ**﴾ [المائدة:١٠١].

وخرَّج ابنُ جريرٍ الطبريُّ في «تفسيرِه»[(٢)] من حديثِ أبي هريرةَ، قال: خرجَ رسولُ اللَّهِ ﷺ وهو غضبانُ مُحمارٌّ وجهه، حتى جلسَ على المنبرِ، فقامَ إليه رجلٌ فقالَ: أين أنا؟ فقال: «**في النارِ**» فقامَ إليه آخرُ، فقالَ: من أبي؟ قال: «**أبوكَ حُذافةُ**»، فقامَ عمرُ فقالَ: رضينا باللَّه ربًّا وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا، وبالقرآنِ إمامًا، إنَّا يا رسولَ اللَّه حديثُو عهدٍ بجاهليةٍ وشركٍ، واللَّهُ أعلمُ من آباؤنا، قال: فسكنَ غضبُه، ونزلتْ هذه الآيةُ: ﴿**يَا أَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ**﴾ [المائدة:١٠١].

وروى ـ أيضًا [(٣)] ـ من طريقِ العَوْفيِّ عن ابنِ عباسٍ في قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾[المائدة:١٠١] قال: إنَّ رسولَ اللَّه ﷺ أذَّن في الناسِ، فقالَ: «**يا قوم كُتبَ عليكم الحجُّ**»، فقامَ رجلٌ، فقالَ: يا رسولَ اللَّهِ، أفي كلِّ عامٍ؟ فأُغْضِبَ رسولُ اللَّهِ ﷺ غضبًا شديدًا، فقالَ:

---

(١) (٦/ ٦٨). (٢) (٧/ ٥٣).

(٣) «التفسير» لابن جرير (٧/ ٥٤).

«والذي نفسي بيده، لو قلتُ: نعم، لوجَبَتْ ولو وجبتْ ما استطعتُم، وإذنْ لكفرتُم، فاتركُوني ما تركتُكُم، فإذا أمرتُكُم بشيءٍ فافعلُوا، وإذا نهيتُكم عن شيءٍ فانتهَوا عنه» فأنزل اللَّهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾ [المائدة:١٠١]، نهاهُم أن يسألوا مثلَ الذي سألتِ النَّصارى في المائدة. فأصبَحُوا بها كافرين، فنهى اللَّهُ تعالى عن ذلكَ، وقال: لا تسألوا عن أشياء، إن نزلَ القرآنُ فيها بتغليظ ساءَكُم، ولكن انتظرُوا، فإذا نزلَ القرآنُ فإنَّكم لا تسألون عن شيءٍ إلا وجدتُم تبيانَهُ.

فدلَّت هذه الأحاديثُ على النهي عن السُّؤالِ عمَّا لا يُحتاجُ إليه مما يسوءُ السائلَ جوابُهُ مثلَ سؤالِ السائلِ، هل هو في النارِ أو في الجنةِ، وهل أبوه من ينتسبُ إليهِ أو غيرِه، وعلى النهي عن السؤالِ على وجهِ التعنتِ والعبثِ والاستهزاءِ، كما كانَ يفعلُه كثيرٌ من المنافقينَ وغيرُهم.

وقريبٌ من ذلكَ سؤالُ الآياتِ واقتراحُها على وجهِ التعنتِ، كما كانَ يسألُه المشركُون وأهلُ الكتابِ، وقد قالَ عكرمةُ وغيرُه: إنَّ الآيةَ نزلتْ في ذلك.

ويقربُ من ذلكَ السؤالُ عما أخفاه اللَّهُ عن عبادِهِ، ولم يُطلعْهُم عليهِ، كالسؤالِ عن وقتِ الساعةِ، وعن الروحِ.

ودلَّت ـ أيضًا ـ على نهي المسلمينَ عن السؤالِ عن كثيرٍ من الحلالِ والحرامِ مما يُخشى أن يكونَ السؤالُ سببًا لنزولِ التشديدِ فيهِ، كالسُّؤالِ عن الحجِّ: هل يجبُ كلَّ عامٍ أم لا؟

وفي «الصحيحِ»(١) عن سعدٍ، عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: «إنَّ أعظمَ المسلمينَ

(١) أخرجه: البخاري (٩/ ١١٧)، ومسلم (٧/ ٩٢).

في المسلمينَ جُرْمًا منْ سألَ عن شيءٍ لم يحرَّم، فحُرِّم من أجْلِ مسألته».

ولما سُئلَ النبيُّ ﷺ عن اللِّعان كره المسائلَ وعـابَهَا حتى ابتُلي السائلُ عنه قبلَ وقـوعِهِ بذلكَ في أهلِهِ(١) وكان النبيُّ ﷺ ينهَي عن قيلَ وقـالَ، وكثرةِ السؤالِ، وإضاعةِ المالِ(٢).

ولم يكنِ النبيُّ ﷺ يُرخِّصُ في المسائِلِ إلا للأعـرابِ ونحوِهم من الوُفودِ القادمينَ عليه، يتألَّفهم بذلكَ، فأمَّا المهاجرونَ والأنصارُ المقيمونَ بالمدينةِ الذين رَسَخَ الإيمانُ في قلوبِهِم، فنُهوا عن المسألةِ، كمـا في «صحيحِ مسلمٍ»(٣) عن النَّوَّاسِ بن سِمعانَ، قال: أقمتُ مع رسولِ اللَّهِ ﷺ بالمدينةِ سنةً ما يمنعُني من الهجرةِ إلا المسألةُ، كانَ أحدُنا إذا هاجرَ لم يسألِ النبيَّ ﷺ.

وفيه أيضًا(٤) عن أنسٍ، قال: نُـهينا أن نسأل رسـولَ اللَّهِ ﷺ عن شيءٍ، فكان يُعجِبُنا أن يجيءَ الرجلُ منْ أهلِ الباديةِ العاقلُ، فيسألُهُ ونحنُ نسْمعُ.

وفي «المسندِ»(٥) عن أبي أُمامةَ، قالَ: كانَ اللَّهُ قد أنزلَ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ**﴾ [المائدة: ١٠١] قالَ: فكُنَّا قد كرهنا كثيرًا من مسألتِهِ، واتَّقيْنَا ذلك حين أنزلَ اللَّهُ على نبيِّهِ ﷺ قال: فأتينا أعرابيا، فرشوناه بُردًا، ثمَّ قلنا له: سلِ النبيَّ ﷺ وذكرَ حديثًا.

وفي «مسندِ أبي يعْلى الموصـليِّ» عن البراءِ بن عازبٍ قال: إنْ كـان لتأتِي

---

(١) أخـرجه: الـبخـاري (٧/ ٧٠ ـ ٧٢)، (٨/ ٢١٧)، (٩/ ١٠٥)، ومـسلم (٤/ ٢٠٩ ـ ٢١٠) من حديث عبد اللَّه بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه: البـخاري (٢/ ١٥٣ ـ ١٥٧) (٨/ ٤ ـ ١٢٤) (٩/ ١١٧)، ومسلم (٥/ ١٣٠ ـ ١٣١) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٣) (٨/ ٦ ـ ٧).

(٤) «صحيح مسلم» (١/ ٣٢).

(٥) (٥/ ٢٦٦).

عليَّ السنةُ أريدُ أن أسألَ رسولَ اللَّهِ ﷺ عن شيءٍ، فأتهيبُ منه، وإن كنَّا لنتمنَّى الأعرابَ.

وفي «مسندِ البزارِ»(١) عن ابنِ عباسٍ، قال: ما رأيتُ قومًا خيرًا من أصحابِ محمَّدٍ ﷺ ما سألوه إلا عن اثنتي عشرةَ مسألةً، كلُّها في القرآنِ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة:٢١٩]، ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة:٢١٧]، ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى﴾ [البقرة:٢٢٠] وذكر الحديثَ.

وقد كانَ أصحابُ النبيِّ ﷺ أحيانًا يسألونَهُ عن حكمِ حوادثَ قبلَ وقوعِهَا، لكن للعملِ بِهَا عند وقوعِها، كما قالُوا لهُ: إنَّا لاقُو العدوِّ غدًا، وليسَ معنا مُدًى، أفنذبحُ بالقصَبِ؟ وسألُوه عن الأُمراءِ الذين أخبر عنهم بعدَه، وعن طاعتِهِم وقتالِهِم، وسألهُ حذيفةُ عن الفتنِ، وما يصنعُ فيها.

فهذا الحديثُ، وهو قولُهُ ﷺ: **«ذَرُوني ما تركْتُكُم، فإنَّما هلَكَ من كان قبلَكُم بكثرةِ سُؤالِهِم واختلافِهِم على أنبيائِهِم»** يدلُّ على كراهةِ المسائلِ وذمِّها، ولكن بعضَ الناسِ يزعمُ أنَّ ذلكَ كان مختصًا بزمنِ النبيِّ ﷺ لما يخشى حينئذٍ من تحريمِ ما لم يُحرَّم، أو إيجابِ ما يشقُّ القيامُ به، وهذا قد أُمِنَ بعد وفاتهِ ﷺ.

ولكن ليسَ هذا وحده هو سببَ كراهةِ المسائلِ، بل له سببٌ آخرُ، وهو الذي أشارَ إليه ابنُ عباسٍ في كلامِهِ الذي ذكرنا بقوله: ولكن انتظرُوا، فإذا نزلَ القرآنُ، فإنَّكم لا تسألون عن شيءٍ إلا وجدتم تبيانَهُ، ومعنى هذا: أنَّ جميعَ ما يحتاجُ إليه المسلمونَ في دينهم لا بدَّ أن يُبيِّنه اللَّهُ في كتابِهِ العزيزِ،

---

(١) لم نجده في «كشف الأستار» وعزاه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٥٨ ـ ١٥٩) للطبراني في «المعجم الكبير» وهو فيه (١١/ ٤٥٤).

ويبلِّغُ ذلكَ رسولُهُ عنه، فلا حاجةَ بعد هذا لأحدٍ في السؤالِ، فإنَّ اللَّهَ تعالى أعلمُ بمصالحِ عبادِهِ منهم، فما كانَ فيه هدايتُهم ونفعُهُم فإنَّ اللَّه لا بدَّ أن يُبيِّنه لهُم ابتداءً من غيرِ سؤالٍ، كما قالَ: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا﴾ [النساء:١٧٦]، وحينئذٍ، فلا حاجةَ إلى السُّؤالِ عن شيءٍ، ولا سيما قبلَ وقوعِه والحاجةِ إليه، وإنَّما الحاجةُ المهمةُ إلى فَهْمِ ما أخبرَ اللَّهُ به ورسولُهُ، ثمَّ اتباعُ ذلكَ والعملُ به، وقد كان النبيُّ ﷺ يُسألُ عن المسائلِ، فيُحيلُ على القرآنِ، كما سألَهُ عمرُ عنِ الكلالةِ فقال: **«يكفيك آيةُ الصيف»**(١).

وأشارَ رسولُ اللَّهِ ﷺ في هذا الحديثِ إلى أنَّ في الاشتغالِ بامتثالِ أمرِه، واجتنابِ نهيه شغلاً عن المسائلِ، فقال: **«إذا نهيتُكُم عن شيءٍ فاجتنبوه، وإذا أمرتُكُم بأمرٍ، فأتوا منه ما استطعتُم»**.

فالذي يتعيَّنُ على المسلمِ الاعتناءُ به والاهتمامُ أن يبحثَ عمَّا جاء عن اللَّهِ ورسولِه ﷺ، ثم يجتهدُ في فهمِ ذلك، والوقوفِ على معانيه، ثم يشتغلُ بالتصديقِ بذلكَ إنْ كان من الأمورِ العلميَّةِ، وإن كان من الأمورِ العمليّة، بذل وسْعهُ في الاجتهادِ في فعلِ ما يستطيعُهُ من الأوامرِ، واجتنابِ ما يُنْهى عنهُ، وتكونُ همَّتُهُ مصروفةً بالكليّة إلى ذلكَ، لا إلى غيرِه.

وهكذا كانَ حالُ أصحابِ النبيِّ ﷺ والتابعينَ لهم بإحسانٍ في طلبِ العلمِ النافعِ منَ الكتابِ والسنةِ.

فأمَّا إنْ كانتْ همةُ السامعِ مصروفةً عند سماعِ الأمرِ والنهي إلى فرضِ أمورٍ قد تقعُ، وقد لا تقعُ، فإن هذا مما يدخلُ في النَّهي ويثبِّطُ عنِ الجِدِّ في

---

(١) أخرجه: مسلم (٥/ ٦٠).

متابعةِ الأمـرِ. وقد سألَ رجلٌ ابنَ عمرَ عن استلامِ الحـجرِ، فقال له: رأيتُ النبيَّ ﷺ يستلمه ويقبِّلُهُ، فـقال له الرجلُ: أرأيتَ إنْ غُلِبْتُ عليه؟ أرأيت إن زُوحِمْتُ؟ فقال له ابنُ عمرَ: اجعلْ «أرأيتَ» باليمنِ، رأيتُ النبيَّ ﷺ يستلمه ويقبِّلُهُ.

خرَّجه الترمذيُّ[1].

ومرادُ ابـنِ عمـرَ: أن لا يكونَ لكَ همٌّ إلا في الاقتـداءِ بالنبيِّ ﷺ، ولا حاجةَ إلى فرضِ العـجزِ عنْ ذلكَ أو تعسرِه قبلَ وقوعِه، فإنَّه قـد يفتُرُ العزمُ عن التَّصـميمِ على المتابعـةِ، فإنَّ التَّفْـقُّهَ في الدِّين، والسُّـؤالَ عن العِلْمِ إنَّما يُحمَدُ إذا كانَ للعملِ، لا للمراءِ والجدالِ.

وقد رُوي عـن عليٍّ ﷺ، أنه ذكرَ فـتنًا تكونُ في آخرِ الزمـان، فقـال له عمـرُ: متى ذلك يا عليُّ؟ قال: إذا تُفُـقِّه لغيـر الدين، وتَعُلِّم لغيـرِ العملِ، والتُمِسَتِ الدنيا بعملِ الآخرةِ.

وعن ابنِ مسعودٍ أنه قـال: كيف بكُم إذا لبِستكم فتنةٌ يربُو فيهـا الصغيرُ، ويهْرَمُ فـيها الكبيـرُ، وتُتَّخَذُ سُنَّةً، فـإن غُيِّرَتْ يومًا قـيل: هذا منكرٌ؟ قالُوا: ومتى ذلـك؟ قالَ: إذا قلَّتْ أمناؤُكُم، وكـثرتْ أمـراؤكم، وقلَّت فقـهاؤُكُم، وكثر قُرَّاؤُكُم، وتُفُقِّهَ لغير الدين، والتُمِسَتِ الدنيا بعملِ الآخرةِ.

خرَّجهما عبدُ الرزاقِ في كتابِهِ.

ولهذا المعنى كان كثيرٌ من الصحابةِ والتابعينَ يكرهونَ السؤالَ عن الحوادثِ قبلَ وقوعِـها، ولا يُجيبونَ عن ذلـكَ، قال عمرُو بنُ مُرَّةَ: خـرجَ عمرُ على

---

(١) «الجامع» (٨٦١).

الناسِ، فقــال: أُحرِّجُ عليكُم أن تسألونا عن مــا لم يكنْ، فإنَّ لنا فيمــا كان شغلاً [١] .

وعن ابنِ عمــرَ، قالَ: لا تسألوا عــما لم يكنْ، فــإنِّي سمعتُ عــمرَ لعنَ السَّائلَ عمَّا لم يكنْ [٢] .

وكان زيدُ بنُ ثابتٍ إذا سُـئلَ عن الشَّيْءِ يقولُ: كانَ هذا؟ فـإن قالُوا: لا، قالَ: دعُوه حتى يكونَ [٣] .

وقال مسروقٌ: سألتُ أُبيَّ بنَ كعبٍ عــن شيءٍ، فقالَ: أكان بعدُ؟ فقلتُ: لا ، فقال: أجِمَّنا ـ يعني: أرِحْنا ـ حتى يكونَ فإذا كان اجتهدْنا لك رأيَنا [٤] .
وقال الشعــبيُّ: سئلَ عمَّارٌ عن مــسألة فقال: هل كــان هذا بعدُ؟ قالُوا: لا، قال: فدعُونا حتى يكونَ، فإذا كان تجَشَّمْنَاهُ لكم [٥] .

وعن الصَّلتِ بنِ راشــدٍ، قــال: سألتُ طاووسًــا عن شيءٍ، فــانتهــرني، وقــالَ: أكان هذا؟ قلتُ: نعم، قــال: آللَّه؟ قلتُ: آللَّه. قــال: إنَّ أصحــابنا أخبرُونا عن معاذِ بنِ جبلٍ أنه قــالَ: أيها النَّاسُ، لا تعجلُوا بالبلاءِ قبْلَ نزوله فيذهبُ بــكُم هَاهُنا وهَاهُنا، فإنَّكم إنْ لم تعجلُوا بالبــلاءِ قبلَ نزولِهِ لم ينفكَّ المسلمونَ أن يكونَ فيهم مَنْ إذا سُئِلَ سُدِّدَ، أو قال وُفِّقَ [٦] .

وقد خــرَّجه أبو داودَ في كــتابِ: «المراســيلِ» [٧] مرفــوعًا من طريقِ ابنِ

---

(١) أخرجه: ابن عبد البر في «العلم» (٢/ ١٤١ ـ ١٤٢).
(٢) أخرجه: الدارمي في «السنن» (١٢١).
(٣) أخرجه: الدارمي في «السنن» (١٢٢).
(٤) السابق (١٥٠)، وابن عبد البر (٢/ ١٤٢).
(٥) أخرجه: الدارمي (١٢٣).
(٦) السابق (١٥٣).
(٧) «المراسيل» (٤٥٧).

عجلانَ عن طاووسٍ عن معاذٍ، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«لا تعجلُوا بالبليَّةِ قبل نزولِهَا فإنَّكم إن لم تفعلُوا لم ينفكَّ المسلمونَ منهم من إذا قال سُدِّدَ أو وفِّق، وإنَّكم إن عجِلْتُم، تشتَّتْ بكمُ السُّبُلُ هاهُنا وهَاهُنا»**. ومعنى إرساله أن طاووسًا لم يسمعْ من معاذٍ.

وخرَّجه - أيضًا [1] - من روايةِ يحيى بن أبي كثيرٍ، عن أبي سلمةَ، عن النبيِّ ﷺ بمعناه مرسلاً.

وروى الحجاجُ بنُ منهالٍ حدثنا جريرُ بنُ حازمٍ سمعتُ الزبيرَ بنَ سعيدٍ - رجلاً من بني هاشمٍ - قال: سمعتُ أشياخَنا يحدِّثون: أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: **«لا يزالُ في أُمَّتي من إذا سُئِلَ سُدِّدَ وأُرْشِدَ حتى يتساءلوا عن ما لم ينزلْ تبيينُهُ، فإذا فعلوا ذلك، ذُهِبَ بهم هاهُنا وهاهُنا»**.

وقد رُوي عن الصَّنابحيِّ عن معاويةَ عن النبيِّ ﷺ أنه نهى عن الأغلُوطاتِ، خرَّجه الإمامُ أحمدُ[2]، وفسَّرها الأوزاعيُّ، قال: هي شدادُ المسائلِ. وقالَ عيسى بنُ يونسَ: هي ما لا يُحتاجُ إليه من كيفَ وكيفَ.

ويُروى من حديثِ ثوبانَ عن النبيِّ ﷺ قال: **«سيكونُ أقوامٌ من أمتي يُغَلِّطُون فقهاءَهُم بعُضَلِ المسائلِ، أولئك شرارُ أُمَّتي»**[3].

وقال الحسنُ: شرارُ عبادِ اللَّهِ الذين يتبعونَ شرارَ المسائلِ يَغُمُّون بها عبادَ اللَّهِ.

(١) «المراسيل» (٤٥٨).
(٢) «المسند» (٥/ ٤٣٥).
(٣) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (٢/ ٩٨).

وقال الأوزاعـيُّ: إنَّ اللَّهَ إذا أراد أن يحرِمَ عـبدَه بركـةَ العلمِ، ألقى على لسانِه المغاليطَ، فلقد رأيتُهم أقلَّ الناسِ علمًا.

وقـال ابـن وهبٍ عن مـالك: أدركتُ هـذه البلدةَ، وإنَّهم ليـكرهُون هذا الإكثارَ الذي فيه الناسُ اليومَ، يريدُ المسائلَ.

وقال أيضًا: سمعتُ مالكًا وهو يعيبُ كـثرةَ الكلامِ وكثرةَ الفتيا، ثم قالَ: يتكلَّمُ كأنه جملٌ مُغْتَلِمٌ يقولُ: هو كذا، هو كذا يَهْدِرُ في كلامِه.

وقال: وسمعتُ مالكًا يكرهُ الجوابَ في كـثرةِ المسائلِ، وقال: قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء:٨٥]، فلم يأتِه في ذلكَ جوابٌ.

وكان مـالكٌ يكرهُ المجادلةَ عن السُّنَنِ أيضًا. قـال الهيثمُ بنُ جـميلٍ: قلتُ لمالكٍ: يا أبا عـبدِ اللَّهِ، الرجلُ يـكونُ عالمًا بالسُّنَنِ يُجـادِلُ عنها؟ قـال: لا، ولكن يخبر بالسُّنَّةِ، فإن قُبِلَ منه، وإلا سكتَ.

وقال إسحاقُ بنُ عيسى: كان مالكٌ يقولُ: المِراءُ والجِدالُ في العلمِ يذهبُ بنورِ العلمِ من قلبِ الرجلِ.

وقـال ابنُ وهبٍ: سمـعتُ مـالكًا يقـولُ: المراءُ في العلمِ يُقـسِّي القلوبَ ويورِّث الضغنَ.

وكان أبو شريحٍ الإسكندرانيُّ يومًا في مجلسِه، فكثُرَتِ المسائلُ، فقال: قد دَرِنَتْ قلوبُكم منذُ اليـوم، فقومُـوا إلى أبي حُمَـيدٍ خالد بن حـميـد اصقُلوا قلوبكم، وتعلَّموا هذه الرغائبَ، فإنَّهـا تُجَدِّدُ العبادةَ، وتُورثُ الزهادةَ، وتجرُّ الصداقةَ، وأقلُّوا المسائلَ إلا ما نزلَ، فإنها تقسِّي القلوبَ، وتورثُ العداوةَ.

وقال الميموني: سمعتُ أبا عبدِ اللَّهِ - يعني أحمدَ - يُسأل عن مسألةٍ، فقال: وقعَتْ هذه المسألةُ؟ بُليتم بها بعدُ؟

وقد انقسمَ الناسُ في هذا البابِ أقسامًا:

فمن أتباعِ أهلِ الحديثِ منْ سدَّ بابَ المسائلِ حتَّى قلَّ فقهُهُ وعلمُه بحدودِ ما أنزلَ اللَّهُ على رسولِهِ، وصارَ حاملَ فقهٍ غيرَ فقيه.

ومن فقهاءِ أهلِ الرأي من توسَّع في توليدِ المسائلِ قبلَ وقوعِها، ما يقعُ في العادةِ منها وما لا يقعُ، واشتغلُوا بتكلُّفِ الجوابِ عن ذلكَ، وكثرةِ الخصوماتِ فيه، والجدالِ عليه حتَّى يتولدَ منْ ذلكَ افتراقُ القلوبِ، ويستقرَّ فيها بسببِه الأهواءُ والشحناءُ والعداوةُ والبغضاءُ، ويقترنُ ذلكَ كثيرًا بنيّةِ المغالبةِ، وطلبِ العلوِّ والمباهاةِ، وصرفِ وجوهِ الناسِ، وهذا ممَّا ذمَّه العلماءُ الربانيونَ، ودلَّتِ السُّنَّةُ على قبحِهِ وتحريمِهِ.

وأما فقهاءُ أهلِ الحديثِ العاملُون به، فإنَّ معظمَ همِّهِمُ البحثُ عن معاني كتابِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وما يُفسِّره من السننِ الصحيحةِ، وكلامِ الصحابةِ والتابعينَ لهم بإحسانٍ، وعن سُنَّةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، ومعرفةِ صحيحِهَا وسقيمِهَا، ثم التفقهُ فيها وتفهمُها، والوقوفُ على معانيها، ثم معرفةُ كلامِ الصحابةِ والتابعينَ لهم بإحسانٍ في أنواعِ العلومِ من التفسيرِ والحديثِ، ومسائلِ الحلالِ والحرامِ، وأصولِ السنةِ والزهدِ والرقائقِ، وغير ذلك، وهذا هو طريقةُ الإمامِ أحمدَ ومَنْ وافقه من علماءِ الحديثِ الرَّبَّانيينَ، وفي معرفةِ هذا شغلٌ شاغلٌ عن التشاغُلِ بما أُحدثَ من الرأي ممَّا لا يُنتفع به، ولا يقعُ، وإنما يُورثُ التجادلُ فيه كثرةَ الخصوماتِ والجدالَ وكثرةَ القيلِ والقالَ. وكان

الإمامُ أحمدُ كثيـراً إذا سُئِلَ عن شيءٍ من المسائلِ المولداتِ التي لا تقعُ يقولُ: دعونا منْ هذه المسائلِ المحدثةِ.

وما أحسن ما قالَهُ يونسُ بنُ سليـمانَ السَّقَطِيُّ: نظرتُ في الأمرِ، فإذا هو الحديثُ والرأيُ، فوجدتُ في الحديثِ ذكرَ الربِّ عزَّ وجلَّ، وربوبيتَه وإجلاله وعظمته، وذكرَ العرشِ وصـفةَ الجنةِ والنارِ، وذكرَ النبيينَ والمرسلينَ، والحلالِ والحرامِ، والحثَّ على صلةِ الأرحامِ، وجمـاعَ الخيرِ فيه، ونظرتُ في الرأيِ، فإذا فيه المكرُ والغدرُ، والحيلُ، وقطيعةُ الأرحامِ، وجماعُ الشَّرِّ فيه.

وقال أحـمدُ بن شبويـه: من أرادَ علمَ القبرِ فـعليه بالآثارِ، ومن أراد علم الخُبْزِ فعليه بالرأيِ.

ومن سلكَ طريقَـه لطلبِ العلمِ على مـا ذكـرناه، تمكَّن من فهمِ جـوابِ الحوادثِ الواقـعةِ غالبًـا، لأن أصولَها تُوجَـدُ في تلكَ الأصولِ المشارِ إليـها، ولابدَّ أن يكونَ سلوكُ هذا الـطريقِ خلفَ أئمـةِ أهلِهِ المجـمَعِ على هدايتِـهم ودرايتِهِم كالشافعيِّ وأحمدَ وإسحاقَ وأبي عُبيدٍ ومن سلكَ مسلكَهم، فإنَّ مَنِ ادَّعى سلوكَ هذا الطريقِ على غيرِ طريقِهِم، وقعَ في مـفاوزَ ومهالكَ، وأخذَ بما لا يجوزُ الأخذُ به، وتركَ ما يجبُ العملُ به.

ومِلاكُ الأمرِ كلِّه أن يقصِدَ بذلكَ وجهَ اللَّه، والتقرُّبَ إليه، بمعرفةِ ما أنزلَهُ على رسولِهِ، وسلوكِ طريقِـه، والعملِ بذلكَ، ودعاءِ الخلقِ إليـه، ومَنْ كان كذلكَ، وفَّقه اللَّهُ وسدَّده، وألهمَهُ رشدَهُ، وعلَّمه ما لم يكنْ يعلمُ، وكان من العلمـاءِ الممدوحـينَ في قولِهِ تعـالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]، ومن الراسخينَ في العلمِ.

فقد خرَّج ابنُ أبي حاتمٍ في «تفسيرِه» من حديثِ أبي الدرداء أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ سُئلَ عن الرَّاسخينَ في العلمِ، فقالَ: «من برَّت يمينُه، وصدقَ لسانُه، واستقامَ قلبُه، ومَنْ عفَّ بطنُه وفرجُه، فذلكَ منَ الرَّاسخينَ في العلمِ».

قال نافعُ بنُ يزيدَ: يقالُ: الرَّاسخون في العلمِ: المتواضعونَ للَّهِ، المتذلِّلون للَّهِ في مرضاتِهِ، لا يتعاطُون من فوقَهُم، ولا يحقرونَ من دونَهُم.

ويشهدُ لهـذا قولُ النبيِّ ﷺ: «أتاكُم أهلُ اليمنِ، هُمْ أبرُّ قلوبًا، وأرقُّ أفئدةً، الإيمانُ يمانٍ، والفقهُ يمانٍ، والحكمةُ يمانيّة»(١).

وهذا إشارةٌ منه إلى أبي موسى الأشعريِّ، ومن كان على طريقِهِ من عُلَماءِ أهلِ اليمنِ، ثمَّ إلى أبي مسلمٍ الخولانيِّ، وأُويسٍ القرَنيِّ، وطاووس، ووهب بنِ منبه، وغيرِهم من علماءِ أهلِ اليمن، وكلُّ هؤلاءِ منَ العلماءِ الرَّبانيينَ الخائفينَ للَّه، وكلُّهم علماءُ باللَّه يخشونَه ويخافونَه، وبعضُهم أوسعُ علمًا بأحكامِ اللَّه وشرائعِ دينِه من بعضٍ، ولم يكنْ تميّزهم عن الناسِ بكثرةِ قيلٍ وقالٍ، ولا بحثٍ ولا جدالٍ.

وكذلك معاذُ بنُ جبلٍ رضي الله عنه، أعلمُ الناسِ بالحلالِ والحرامِ، وهو الذي يُحشر يومَ القيامةِ أمامَ العلماءِ برَتْوةٍ، ولم يكنْ علمُهُ بتوسعةِ المسائلِ وتكثيرِها، بل قد سبقَ عنه كراهةُ الكلامِ فيما لم يقعْ، وإنما كان عالما باللَّهِ وعالمًا بأصولِ دينِهِ.

وقد قيلَ للإمامِ أحمدَ: منْ نسألُ بعدَك؟ قال: عبدُ الوهَّابِ الورَّاق، قيلَ له: إنه ليس له اتِّساعٌ في العلم، قال: إنه رجلٌ صالح، مثلُه يوفَّقُ

(١) أخرجه: البخاري (٥/ ٢٢٠)، ومسلم (١/ ٥١ ـ ٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

لإصابةِ الحقِّ.

وسئل عن معروفٍ الكرخيِّ، فقال: كان معه أصلُ العلمِ: خشيةُ اللَّهِ، وهذا يرجعُ إلى قولِ بعضِ السلفِ: كفى بخشيةِ اللَّهِ علمًا، وكفى بالاغترارِ باللَّه جهلاً. وهذا بابٌ واسعٌ يطولُ استقصاؤه[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

وقد حكى القاضي أبو يعْلى روايتينِ عن أحمدَ في وجوبِ إنكارِ المنكرِ على من يعلمُ أنَّه لا يقبلُ منه، وصححَ القولَ بوجوبِهِ، وهو قولُ أكثرِ العلماءِ.

وقد قيلَ لبعضِ السلفِ في هذا، فقالَ: يكونُ لكَ معذرةٌ، وهذا كما أخبرَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ عن الذينَ أنكرُوا على المعتدينَ في السَّبتِ أنَّهم قالُوا لمن قالَ لهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٤]، وقد وردَ ما يستدلُّ به على سقوطِ الأمرِ والنهي عندَ عدمِ القبولِ والانتفاعِ به، ففي «سننِ أبي داودَ» وابنِ ماجه والترمذي[2] عن أبي ثعلبةَ الخُشنيِّ أنه قيلَ له: كيفَ تقولُ في هذه الآيةِ: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ [المائدة:١٠٥]، فقالَ: أما واللَّهِ لقد سألتُ عنها رسولَ اللَّهِ ﷺ،

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٢٢٩ ـ ٢٤٥).

(٢) أخرجه: أبو داود (٤٣٤١)، والترمذي (٣٠٥٨)، وابن ماجه (٤٠١٤).

فقالَ: «بل ائتمِروا بالمعروفِ، وانتهُوا عن المنكرِ حتَّى إذا رأيتَ شُحًا مُطاعًا، وهوى مُتَّبعًا، ودُنيا مُؤْثَرَةً، وإعجابَ كلِّ ذي رأيٍ برأيه فعليكَ بنفْسِكَ، ودعْ عنكَ أمرَ العوامِّ».

وفي «سننِ أبي داودَ» (١) عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو، قال: بينما نحن حولَ رسولِ اللَّهِ ﷺ، إذْ ذكر الفتنة، فقالَ: «إذا رأيتُمَ الناسَ مرجَتْ عهودُهم، وخفَّت أماناتُهم، وكانُوا هكذا» وشبَّك بين أصابعِه، فقمتُ إليه، فقلتُ: كيف أفعلُ عندَ ذلك، جعلني اللَّهُ فداكَ؟ قال: «الزمْ بيتَك، واملِكْ عليكَ لسانَكَ، وخُذْ بما تعرِفُ، ودَعْ ما تُنكرُ، وعليكَ بأمر خاصَّةِ نفسِك، ودَعْ عنك أمرَ العامَّة».

وكذلك رُوِيَ عن طائفةٍ من الصحابةِ في قولِه تعالى: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥]، قالُوا: لم يأتِ تأويلُها بعدُ، إنَّما تأويلُها في آخرِ الزمانِ(٢).

وعن ابنِ مسعودٍ، قال: إذا اختلفتِ القلوبُ والأهواءُ، وأُلبِستُم شِيَعًا، وذاقَ بعضُكم بأسَ بعضٍ، فيأمرُ الإنسانُ حينئذٍ نفسَهُ، حينئذ تأويل هذه الآية(٢).

وعن ابنِ عمرَ، قال: هذه الآيةُ لأقوامٍ يجيئونُ من بعدِنا، إن قالُوا لم يُقبَلْ منهم. وقال جُبيرُ بنُ نفيرٍ عن جماعةٍ من الصحابةِ، قالُوا: إذا رأيتَ شحًا مُطاعًا وهوًى متبعًا، وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه، فعليك بنفسِكَ، لا يضرُّكَ من ضلَّ إذا اهتديت(٢).

وعن مَكْحُولٍ، قال: لم يأتِ تأويلها بعدُ، إذا هابَ الواعظُ، وأنكرَ

(١) «السنن» (٤٣٤٢ ـ ٤٣٤٣).

(٢) راجع: «التفسير» للطبري (٧/ ٦٢ ـ ٦٤).

الموعوظُ فعليكَ حينئذٍ بنفسِكَ لا يضرُّك من ضلَّ إذا اهتديتَ.

وعن الحسنِ: أنه كـان إذا تلا هذه الآيةَ، قال: يا لها من ثقةٍ مـا أوثقها! ومن سعةٍ ما أوسَعها!.

وهذا كلُّه قـد يُحـملُ على أنَّ من عـجـزَ عن الأمرِ بالمـعروفِ، أوخـافَ الضَّررَ، سقطَ عنه، وكلامُ ابنِ عمر يدلُّ على أنَّ من علِمَ أنَّه لا يُقبل منه، لم يجبْ عليه، كـما حُكِي روايةً عن أحمدَ، وكذا قـالَ الأوزاعيُّ: مُرْ مَنْ ترى أن يقبلَ منك[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَأَصَابَتْكُم مُّصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الآثِمِينَ (١٠٦) فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَن تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

وقد دلَّ القرآنُ على استحلافِ الشهودِ عندَ الارتيابِ بشهادتِهم في الوصيَّةِ في السفرِ في قـولِهِ تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ**

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٦٦ ـ ٢٦٨).

الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنِ ارْتَبْتُمْ لا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ [المائدة:١٠٦]، وهذه الآيةُ لم يُنسخِ العملُ بها عندَ جمهورِ السلفِ، وقد عَمِلَ بها أبو موسى، وابن مسعودٍ، وأفتى بها عليٌّ، وابنُ عباسٍ، وهو مذهبُ شُريحٍ والنخعيِّ، وابنِ أبي ليلَى، وسفيانَ والأوزاعيِّ وأحمدَ وأبي عُبيدٍ وغيرِهم، قالُوا: تُقبل شهادةُ الكفَّار في وصيَّةِ المسلمينَ في السَّفرِ، ويُستحلفانِ مع شهادتِهِما. وهل يمينُهُما من بابِ تكميلِ الشهادةِ، فلا يُحكمُ بشهادتِهِما بدونِ يمينٍ، أم من بابِ الاستظهارِ عند الريبةِ؟ وهذا محتملٌ، وأصحابُنا جعلُوها شرطًا، وهو ظاهرُ ما رُويَ عن أبي موسى وغيرِه.

وقد ذهبَ طائفةٌ من السلفِ إلى أنَّ اليمينَ مع الشاهدِ الواحدِ هو من بابِ الاستظهارِ، فإنْ رأى الحاكمُ الاكتفاءَ بالشَّاهدِ الواحدِ، لبُروزِ عدالتِهِ، وظُهورِ صِدْقه اكتفَى بشهادتِهِ بدون يمينِ الطالبِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الأَوْلَيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَادَتِهِمَا﴾ [المائدة:١٠٧]، يدلُّ على أنَّه إذا ظهر خلَلٌ في شهادةِ الكفَّارِ، حَلَفَ أولياءُ الميتِ على خيانتِهِمَا وكذبِهِما، واستحقُّوا ما حلَفُوا عليه، وهذا قولُ مُجاهدٍ وغيرُه من السلفِ.

ووَجْه ذلكَ: أنَّ اليمينَ في جانبِ أقوى المتداعيينِ، وقد قَويَتْ هاهنا دَعْوى الورثةِ بظهورِ كذبِ الشُّهودِ الكفَّارِ، فتُردُّ اليمينُ على المُدَّعينَ، ويحلفونَ مع اللَّوْثِ ويستحقُّون ما ادَّعَوْهُ، كما يحلفُ الأولياءُ في القَسامةِ مع اللَّوْثِ، ويستحقّون بذلك الدِّيَةَ والدَّم ـ أيضًا ـ عندَ مالكٍ وأحمدَ وغيرِهما.

وقضى ابنُ مسعودٍ في رجلٍ مسلمٍ حضرَهُ الموتُ فأوصَى إلى رجلين مسلمين معه، وسلَّمهما ما معه منَ المالِ، وأشهدَ على وصيَّته كفَّارًا، ثم قدمَ الوصيَّانِ، فدفعا بعضَ المالِ إلى الورثةِ، وكتما بعضه، ثمَّ قدِمَ الكفَّارُ فشهدُوا عليهم بما كتمُوه منَ المالِ، فدعا الوصيَّينِ المسلمينِ، فاستحلفهُما: ما دفعَ إليهما أكثر ممَّا دفعاهُ، ثم دعا الكفَّارَ، فشهدُوا وحَلَفوا على شهادتِهم، ثم أمرَ أولياءَ الميتِ أن يحلفُوا أنَّ ما شهدتْ به اليهودُ والنصارى حقٌّ فحلفُوا، فقضى على الوصِيَّينِ بما حلفوا عليه، وكانَ ذلكَ في خلافة عثمانَ، وتأوَّلَ ابنُ مسعودٍ الآيةَ على ذلكَ، فكأنَّه قابلَ بين يمينِ الأوصياءِ والشُّهود الكفارِ فأسقطَهُما، وبقي مع الورثةِ شهادةُ الكفار، فحلفُوا معها، واستحقُّوا، لأنَّ جانبَهم ترجَّحَ بشهادةِ الكفَّارِ لهم، فجعلَ اليمينَ مع أقوى المتداعيينِ، وقضَى بها.

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٥٠ ـ ٢٥٢).

سُورَةُ الأنْعَامِ

قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ ما فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾

[قال البخاريُّ](١): «بابٌ لا يَدْرِي متَى يجِيءُ المطرُ إلا اللَّهُ»:

وقال أبو هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ: **«خمسٌ لا يعْلَمُهُنَّ إلا اللَّهُ»**.

حديثُ أبي هريرةَ هذا، قد خرَّجه في كتابِ الإيمانِ(٢) في حديثِ سؤالِ جبريلَ النبيَّ ﷺ عن الإسلامِ والإيمانِ والإحسانِ، وأنّه تلا عند ذلك هذه الآيةَ: **﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾** [لقمان:٣٤] الآية، وقد تقدم ذكرُه والكلامُ عليه.

حدَّثنا محمدُ بنُ يوسفَ: نا سفيانُ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ دينارٍ، عن ابنِ عمرَ، قال: قالَ النبيُّ ﷺ: **«مفتاحُ الغيْبِ خمْسٌ، لا يعلَمُهُا إلاَّ اللَّهُ، لا يعلم أحدٌ ما يكون في غَدٍ إلاَّ اللَّهُ، ولا يعْلَمُ أحدٌ ما يكون في الأرحامِ إلاَّ اللَّهُ، ولاتَعْلَمُ نفْسٌ ما تكسبُ غدًا، وما تَدْرِي نفْسٌ بأيِّ أرضٍ تموتُ، وما يدْرِي أحدٌ متَى يجيءُ المطرُ»**(٣).

قد سبقَ في البابِ المشارِ إليه: الإشارةُ إلى اختصاصِ اللَّهِ بعلمِ هذه

---

(١) «صحيح البخاري» (٢/ ٤١).

(٢) (١/ ١٩ ـ ٢٠).

(٣) أخرجه: البخاري (٢/ ٤١)، (٦/ ٩٩)، (٩/ ١٤٢).

الخمسِ، التي هي مفاتحُ الغيبِ، التي قال فيها: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾ [الأنعام:٥٩].

وهذه الخمسُ المذكورةُ في حديثِ ابنِ عمرَ، ليسَ فيها علمُ الساعةِ، بل فيها ذكرُ متى يجيءُ المطرُ بدلَ الساعةِ.

وهذا مما يدلُّ على أنَّ علمَ اللَّهِ الذي استأثر به دونَ خلْقِهِ لم ينحصرْ في خمسٍ، بلْ هو أكثرُ من ذلكَ، مثلُ علمِهِ بعددِ خلقِهِ، كما قال: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ﴾ [الأنعام:٥٩].

ومثلُ استئثاره بعلمِهِ بذاتِهِ وصفاتِهِ وأسمائِهِ، كما قال: ﴿وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

وفي حديثِ ابنِ مسعودٍ ـ في ذكرِ أسمائِهِ ـ: «أو استأثرتَ به في علمِ الغيْبِ عندك»[(١)].

وإنَّما ذُكِرَتْ هذه الخمسُ لحاجةِ الناسِ إلى معرفةِ اختصاصِ اللَّهِ بعلمِها، والعلم بمجموعِها مما اختصَّ اللَّهُ بعلمِهِ، وكذلكَ العلمُ القاطعُ بكلِّ فردٍ فردٍ من أفرادِها.

وأمَّا الاطّلاعُ على شيءٍ يسيرٍ من أفرادِها بطريقٍ غيرِ قاطعٍ، بل يحتملُ الخطأ والإصابةَ هو غيرُ منفيٍّ، لأنه لا يدخلُ في العلمِ الذي اختصَّ اللَّهُ به، ونفاهُ عن غيرِهِ.

وتقدَّمَ ـ أيضًا ـ أنَّ النبيَّ ﷺ أوتيَ علمَ كلِّ شيءٍ، إلا هذه الخمسَ.

فأمَّا إطْلاعُ اللَّهِ سبحانه له على شيءٍ من أفْرادِها، فإنه غيرُ منفيٍّ ـ أيضًا ـ

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٣٩١ ـ ٤٥٢).

وهو داخلٌ في قولِـهِ تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن:٢٦-٢٧] الآية.

ولكنَّ علمَ الساعةِ مما اختصَّ اللَّهُ به، ولم يطلعْ عليـه غيرَه، كما تقدَّمَ في حديثِ سؤالِ جبريلَ للنبيِّ ﷺ، وكذلك جملةُ العلمِ بما في غَدٍ.

وقد قالتْ جاريةٌ بحضرتِه ﷺ: وفينا نبيٌّ يعلمُ في مـا غَدِ، فنهاها النبيُّ ﷺ عن قولِ ذلك.

وقد خرَّجه البخاريُّ في «النكاحِ»[(١)] .

وأما العلمُ بما في الأرحـامِ، فينفردُ اللَّهُ تـعالى بعلمِهِ، قـبلَ أن يأمرَ ملكَ الأرحامِ بتخليقِه وكتابتِهِ، ثم بعد ذلك قد يُطلعُ اللَّهُ عليه من يشاءُ من خلقِه، كما أطلَعَ عليه ملكَ الأرحامِ.

فإن كان من الرسلِ فـإنَّه يطلعُ عليه علمًا يقينًا، وإن كـان من غيرِهم مِنَ الصدِّيقينَ والصالحينَ، فقد يطلعُه اللَّهُ تعالى عليه ظاهرًا.

كما روى الزهريُّ، عـن عروةَ، عن عائشةَ، أنَّ أبا بكرٍ لما حـضرتْه الوفاةُ قـال لها - في كـلامٍ ذكـرَهُ -: إنما هو أخواكِ وأختـاكِ. قالتْ: فـقلتُ هذا أخواي، فمن أختاي؟ قال: ذو بطنِ ابنةُ خارجةٍ، فإني أظنُّها جاريةً.

ورواه هشـامٌ، عن أبيه، عن عـائشة، أنـها قـالتْ له عند ذلك: إنما هي أسماءُ؟ فقالَ: وذاتُ بطنِ بنتُ خارجةَ، أظنُّها جاريةً.

ورواه هشامٌ، عن أبـيه: قد أُلْقِيَ في رُوعِي أنَّـها جاريةٌ، فـاستـوصي بها خيرًا، فولدتْ أمَّ كُلثومٍ.

---

(١) (٧/ ٢٥).

وأما علمُ النفس بما تـكسبُه غدًا، وبـأيِّ أرضٍ تموتُ، ومتى يجيءُ المطرُ، فهذا على عمومه لا يعلَمُه إلا اللَّهُ.

وأمَّا الاطلاعُ على بعضِ أفـرادِه، فإنْ كانَ بإطْلاعٍ مِنَ الـلَّهِ لبعضِ رسلِهِ، كان مخصوصًـا من هذا العمومِ، كما أُطلِعَ النبيُّ ﷺ على كثيرٍ من الغيوبِ المستقبلةِ، وكان يخبرُ بها.

فبعضُهـا يتعلقُ بكسبِهِ، مثلُ إخبارِه أنه يَقْتلُ أميَّـةَ بنَ خلفٍ، وأخبر سعدُ ابنُ معاذٍ بذلك أميةَ بمكةَ، وقال أميَّةُ: واللَّهِ، ما يكذبُ محمدٌ.

وأكثرُه لا يتعلقُ بكسبِهِ، مثلُ إخبارِهِ عن الصورِ المستقبلةِ في أمَّتِهِ وغيرِهِم، وهو كثير جدا.

وقد أخـبرَ بتـبوكٍ، أنه «**تهبُّ الليلـةَ ريحٌ شـديدةٌ، فـلا يقـومَنَّ أحـدٌ**»، وكان كذلك[1].

والاطلاعُ على هبوبِ بعضِ الرياحِ نظيرُ الاطلاعِ على نزولِ بعضِ الأمطارِ في وقتٍ معينٍ.

وكذلك إخبارُهُ ﷺ ابنته فاطمةَ في مرضِهِ، أنه مقبوضٌ من مرضِهِ.

وقد رُوي عنه ﷺ، أنَّه قال: «**ما بين قبرِي ومنبري روضةٌ من رياضِ الجنة**».

خرَّجه الإمامُ أحمدُ[2] من حديثِ أبي سـعيدٍ الخـدريِّ، والنسائيُّ[3] من حديثِ أمِّ سلمةَ عن النبيِّ ﷺ.

(١) أخرجه: البـخاري (٢/ ١٥٤)، (٣/ ٢٦)، (٤/ ١١٩)، (٥/ ٤١)، (٦/ ٩)، ومسلم (٤/ ١٢٣)، (٧/ ٦١) من حديث أبي حميد الساعدي رضي الله عنه.

(٢) (٣/ ٦٤).

(٣) «السنن الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (١٨٢٣٤).

وهو دليلٌ على أنَّه علمَ موضعَ موتِهِ ودفنِهِ.

وقد رُوي عنه، أنه قال: «لم يقبضْ نبيٌّ إلا دُفنَ حيثُ يُقبضُ».

خرَّجه ابنُ ماجه[١] وغيرُهُ.

وأما إطلاعُ غيرِ الأنبياءِ على بعضِ أفرادِ ذلك فهو - كما تقدَّمَ - لا يحتاجُ إلى استثنائه؛ لأنه لا يكونُ علمًا يقينًا، بل ظنًا غالبًا، وبعضُه وهمٌ، وبعضُه حدسٌ وتخمينٌ، وكلُّ هذا ليس بعلمٍ، فلا يحتاجُ إلى استثنائِهِ مما انفردَ اللَّهُ سبحانه وتعالى بعلمِهِ، كما تقدَّمَ، واللَّهُ سبحانَهُ وتعالى أعلمُ[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾

خرَّجَ البخاريُّ ومسلمٌ[٣]: من حديثِ: ابنِ مسعودٍ، قالَ: لَمَّا نزلتْ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]، قال أصحابُ رسولِ اللَّهِ ﷺ: أيُّنا لم يظلِمْ نفسَهُ؟ فأنزلَ اللَّهُ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

معنى هذا: أنَّ الظلم يختلفُ:

فيه ظلمٌ ينقل عن الملةِ، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وقولِه تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، فإنَّ الظلمَ وضعُ الشيءِ في غيرِ موضعه، وأعظمُ ذلك أنَّ يوضعَ المخلوقُ في مقامِ الخالقِ، ويجعلَ

---

(١) «السنن» (١٦٢٨).

(٢) «فتح الباري» (٦/ ٣٤٢ - ٣٤٥).

(٣) أخرجه: البخاري (١/ ١٥)، (٤/ ١٧١ - ١٩٨)، (٦/ ٧١ - ١٤٣)، (٩/ ١٧ - ٢٣)، ومسلم (١/ ٨٠).

شريكًا له في الربوبيةِ وفي الإلهيّة، سُبْحانه وتعالى عمَّا يشركونَ.

وأكثرُ ما يردُ في القرآنِ وعيدُ الظالمينَ، يرادُ به الكفارُ، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ الآيات [إبراهيم:٤٢]، وقوله: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ الآيات [الشورى:٤٤] ومثلُ هذا كثير.

ويرادُ بالظلمِ ما لا ينقلُ عن الملةِ، كقولِه تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [فاطر:٣٢]، وقولِه: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٢٩].

وحديثُ ابنِ مسعودٍ هذا: صريحٌ في أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]، أنَّ الظلمَ هو الشركُ.

وجاء في بعضِ رواياته: زيادةٌ: قال: «إنَّما هو الشركُ».

وروى حمادُ بن سلمةَ، عن عليِّ بنِ زيدٍ، عن يوسفَ بنِ مهرانَ، عن ابنِ عباسٍ، أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ كانَ إذا دخلَ بيتَه نشرَ المصحفَ فقرأَ، فدخل ذاتِ يومٍ فقرأ، فأتى على هذه الآيةِ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]، إلى آخرِ الآيةِ، فانتعلَ وأخذَ رداءَه، ثم أتى أُبيَّ بنَ كعبٍ، فقال: يا أبا المنذرِ، أتيتُ قبلُ على هذهِ الآيةِ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]، وقد تَرى أنَّا نظلمُ ونفعلُ؟ فقال: يا أمير المؤمنينَ، إنَّ هذا ليسَ بذلكَ، يقولُ اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] إنَّما ذلك الشركُ.

وخرَّجه محمدُ بنُ نصرٍ المروزيُّ[١].

---

(١) «تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٥٢٥).

وخرَّجه - أيضًا - من طريقِ حمادِ بنِ زيدٍ، عن عليٍّ بنِ زيدٍ، عن سعيدِ ابنِ المسيِّبِ، أنَّ عمرَ أتى على هذه الآيةِ - فذكره.

وحمادُ بنُ سلمةَ، مقدَّمٌ على حمادِ بن زيدٍ في عليٍّ بنِ زيدٍ خاصةً.

وروى - أيضًا [(١)]- بإسنادِه، عن سفيانَ، عن ابن جريجٍ، عن عطاءٍ، قال: كفرٌ دونَ كفرٍ، وظلمٌ دونَ ظلمٍ، وفسقٌ دون فسقٍ.

يعني: أن الفسقَ قد يكونُ ناقلاً عن الملةِ، كما قال في حقِّ إبليسَ: ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠]، وقال: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة: ٢٠].

وقدْ لا يكونُ الفسقُ ناقلاً عن الملة، كقولِه تعالى: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وقوله في الذين يرمونَ المحصناتِ: ﴿وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٤]، وقوله: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

وفسَّرتِ الصحابةُ الفسوقَ في الحجِّ بالمعاصِي كلِّها، ومنهُم من خصَّها بما يُنهى عنه في الإحرامِ خاصةً.

وكذلكَ الشركُ، منه ما ينقلُ عن الملةِ، واستعمالُهُ في ذلكَ كثيرٌ في الكتابِ والسُّنَّةِ، ومنه ما لا ينقلُ، كما جاء في الحديثِ: «من حلفَ بغيرِ اللَّه فقدْ أشركَ»[(٢)]، وفي الحديثِ: «الشركُ في هذه الأُمَّة أخفَى من دبيبِ النملِ»[(٣)]،

(١) المصدر السابق (٢/ ٥٢٢).

(٢) أخرجه: الترمذي (١٥٣٥)، وأحمد (٢/ ٨٦ - ٨٧ - ١٢٥).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٠٣) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

وسمَّى الرِّياءَ شركًا.

وتأوَّلَ ابنُ عباسٍ على ذلكَ قولَه تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]، قال: إنَّ أحدَهُم يشركُ حتَّى يشرك بكلبِه: لولا الكلبُ لسُرِقْنا الليلةَ.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠].

وقد رُوي أنها نزلتْ في الرِّياء في العملِ.

وقيل للحسنِ: يشركُ باللَّه؟ قال: لا، ولكن أشركَ بذلكَ العملِ عملاً يريدُ به اللَّهَ والناسَ، فذلك يُردُّ عليه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ

---

(١) «فتح الباري» (١/ ١٣٢/ ١٣٤).

فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

قال ابنُ الجوزيِّ في «المقتبس»: سمعتُ الوزير[1] يقولُ: الآياتُ اللواتي في الأنعامِ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:١٥١] محكماتٌ، وقد اتفقتْ عليها الشرائعُ، وإنما قالَ في الآيةِ الأولى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وفي الثانية: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وفي الثالثة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّ كلَّ آيةٍ يليقُ بها ذلكَ، فإنَّه قالَ في الأولى: ﴿أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ والعقلُ يشهدُ أنَّ الخالقَ لا شريكَ له، ويدعُو العقلُ إلى برِّ الوالدينِ، ونهى عن قتل الولدِ، وإتيانِ الفواحشِ؛ لأنَّ الإنسانَ يغارُ من الفاحشةِ على ابنتِه وأختِه، فكذلكَ هو، ينبغي أنْ يجتنبَها، وكذلك قتلُ النفسِ، فلما لاقتْ هذه الأمورُ بالعقلِ، قالَ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ولما قالَ في الآيةِ الثانيةِ: ﴿وَلا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ والمعنى: اذكُرْ لو هلكتَ فصارَ ولدُك يتيمًا، واذكُرْ عند ورثتِكَ، لو كنتَ الموروثَ لهُ، واذكُرْ كيفَ تحبُّ العدلَ لكَ في القولِ؟ فاعدلْ في حقِّ غيرِكَ، وكما لا تؤثرُ أن يخانَ عهدُك فلا تخن، فلاقَ بهذه الأشياء التذكرُ فقالَ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ وقالَ في الثالثةِ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ [الأنعام:١٥٣]، فلاقَ بذلكَ اتقاءُ الزللِ، فلذلك قال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[2] [الأنعام:١٥٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾

وقد دلَّ حديثُ أبي سعيدٍ وحديثُ أبي هريرةَ المذكورانِ[3] على أنَّ مضاعفةَ حسناتِ المسلمِ بحسبِ حسنِ إسلامِه.

(١) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة. (٢) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٤).

(٣) يعني: ما رواهما البخاري في كتاب الإيمان ـ باب حسن إسلام المرء (١/ ١٧). =

وخـرَّج ابنُ أبي حاتمٍ، من روايةِ عـطيةَ العـوفيِّ، عن ابنِ عـمر، قـال: نزلتْ: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام:١٦٠]، في الأعراب. فقال له رجل: يا أبا عبدِ الرحمنِ، فما للمهاجرينَ؟ قال: ما هو أكثرُ، ثم تلا قولَه: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[1] [النساء:٤٠].

ويشهدُ لهذا المعنى: ما ذكره اللَّهُ عزَّ وجلَّ في حقِّ أزواجِ نبيِّه ﷺ، فقال: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ [الأحزاب:٣٠] إلى قوله: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ﴾ [الأحزاب:٣١-٣٢].

فدلَّ على أنَّ من عظُمَتْ منزلتُه عندَ اللَّهِ، فإن عملَه يضاعفُ له أجرُهُ.

وقد تأولَ بعضُ السلفِ من بني هاشمٍ دخولَ آلِ النبيِّ ﷺ في هذا المعنى، لدخولِ أزواجِهِ، فكذلك من حَسُنَ إسلامُهُ بتحقيقِ إيمانِهِ وعملِهِ الصالحِ، فإنه يضاعفُ له أجـرُ عملِهِ بحـسبِ حسنِ إسلامِـهِ، وتحقيقِ إيمـانِهِ وتقواه. واللَّه أعلمُ.

ويشهـدُ لذلك: أنَّ اللَّهَ ضاعفَ لهـذه الأمة، لكونهـا خيرَ أمـة أخرجتْ للناسِ أجرَها مرتينِ، قال اللَّهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾ [الحديد:٢٨].

وفي الحديثِ الصـحيحِ: «إنَّ أهلَ التـوراةِ عمـلُوا إلى نصفِ النهـارِ على قيـراطٍ قيراطٍ، وعـملَ أهلُ الإنجيلِ إلى العصرِ على قـيراطٍ قيراطٍ، وعملْتُم أنـتم من العصرِ إلى

= ولفظ حديث أبي سعيـد الخدري رضي الله عنه: أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يقول: «إذا أسلم العبـد فحسن إسلامه يـكفر اللَّه عنه كل سيئـة كان زلفها، وكـان بعد ذلك القصاص الحسنة بعشر أمثـالها إلى سبعمائة ضعف، والسيئة بمثلها إلا أن يتجاوز اللَّه عنها». ولفظ حديث أبي هريرة نحوه.

(١) راجع: «تفسير الطبري» (١٢/ ٢٧٧ - ٢٧٩).

غروبِ الشمسِ على قيراطينِ، فغضبتِ اليهودُ والنصارى، وقالوا: ما لنا أكثرُ عملاً وأقلُّ أجرًا؟ فقال اللَّهُ: هل ظلمتُكُمْ من أجورِكُم شيئًا؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضْلِي أوتيه من أشاءُ»[(١)] .

وأمَّا من أحسنَ عملَه وأتقنَهُ وعملَهُ على الحضورِ والمراقبةِ، فلا ريبَ أنه يتضاعفُ بذلك أجرُه وثوابُهُ في هذا العملِ بخصوصِه على من عمِل ذلك العملَ بعينِه على وجهِ السهوِ والغفلةِ.

ولهذا؛ رُوي في حديثِ عمَّارٍ المرفوعِ: «**إنَّ الرجل ينصرفُ من صلاتِه، وما كُتبَ له إلا نصفُها، إلا ثلثُها، إلا ربُعُها**»[(٢)] حتى بلغَ العُشْر.

فليس ثوابُ من كتبَ له عشرُ عمله كثواب من كتب له نصفُه، ولا ثوابُ من كُتبَ له نصفُ عملِه كثوابِ من كتبَ له عملُهُ كلُّه. واللَّهُ أعلمُ[(٣)] .

* * *

(١) أخرجه: البخاري (١/ ١٤٦) من حديث ابن عمر، وحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
(٢) أخرجه: أبو داود (٧٩٦)، وأحمد (٤/ ٣١٩، ٣٢٠).
(٣) «فتح الباري» (١/ ١٤٨ ـ ١٤٩).

سُورَةُ الأعْرَافِ

قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

أما قوله تعالى: ﴿**خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾ [الأعراف:٣١] فإنها نزلتْ بسببِ طوافِ المشركينَ بالبيتِ عُراةً، وقد صحَّ هذا عن ابنِ عباسٍ[(١)]، وأجمعَ عليه المفسرونَ من السلفِ بعدَهُ.

وقد ذكرَ اللَّهُ هذه الآيةَ عقبَ ذكْرِهِ قصةَ آدمَ عليه السلامُ، وما جرَى له ولزوجِهِ مع الشيطانِ حتى أخْرَجَهُما من الجنةِ، ونزع عنهما لباسَهما حتى بدَتْ عوارتُهما، فقالَ تعالى: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأعراف:٢٧].

ثم قالَ: ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف:٢٨].

والمرادُ بالفاحشةِ هنا: نزْعُ ثيابِهم عند الطوافِ بالبيتِ، وطوافُهم عراةً كما

---

(١) أخرجه: مسلم (٨/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤).

كان عادةَ أهلِ الجاهليةِ.

ثم قالَ بعدَ ذلكَ: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ**﴾ [الأعراف: ٣١].

والمرادُ بذلكَ: أن يستُروا عوراتِهِم عنـدَ المساجدِ، فدخلَ في ذلك الطوافُ والصلاةُ والاعتكافُ وغيرُ ذلك.

وقـال طائفةٌ مـن العلماءِ: إنَّ الآيةَ تدلُّ عـلى أخذِ الزينةِ عـندَ المساجـدِ، وذلك قدرٌ زائدٌ على سترِ العورةِ، وإنْ كان سـترُ العورةِ داخلاً فيه وهو سببُ نزولِ الآياتِ، فإنَّ كشْفَ العـورةِ فاحشةٌ من الفواحـشِ، وسترَها من الزينةِ، ولكنه يشملُ مـع ذلكَ لبْسَ ما يُتَجَـمَّلُ به ويُتزيَّن به عند مناجـاةِ اللَّهِ وذكرِهِ ودعائِه والطوافِ ببيته، ولهذا قال تعالى عقبَ ذلك: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ [الأعراف: ٣٢].

وروى موسى بنُ عُـقْبَةَ، عن نافعٍ، عن ابنِ عـمرَ، عنِ النبيِّ ﷺ، قالَ: «**إذا صلى أحدُكُم فلْيَلْبَسْ ثوبَيْه، فإنَّ اللَّهَ أحقُّ من تُزُيِّنَ له**».

خرَّجه الطبرانيُّ وغيرُه[1].

وقد روى جماعـةٌ هذا الحديثَ عن ابنِ عمرَ، عن النبيِّ ﷺ أو عن عمرَ بالشكِّ في ذلك.

خرَّجه البزَّارُ وغيرُه[2].

وخرَّجه أبو داود[3]. كذلك بالشـكِّ، ولم يذكر فـيـه: «**فإنَّ اللَّهَ أحـقُّ من**

---

(١) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٩٣٦٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٢/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦).
(٢) أخرجه: البزار (٥٩٠ ـ كشف الأستار)، والبيهقي (٢/ ٢٣٦).
(٣) (٦٣٥).

تُزَيَّنَ له».

وروي ذِكْرُ التـزين من قولِ ابنِ عمرَ، فـروي عن أيوبَ، عن نافعٍ، قال: رآني ابنُ عمـرَ أُصلي في ثوبٍ واحدٍ، قال: ألم أكْـسُكَ ثوبين؟ قلتُ: نعمْ، قال: فلو أرسلتُك في حاجـةٍ كنتَ تذهب هكذا؟ قلتُ: لا، قال: فاللَّهُ أحقُّ أن تَزَيَّن له.

أخرجه الحاكمُ وغيرُه(١).

والمحـفـوظُ في هذا الحـديثِ: روايةُ مـن رواه بالشكِّ في رفْـعِـهِ ـ قاله الدارقطنيُّ.

وممن أمر بالصلاةِ في ثوبينِ: عـمرُ، وابنُ مسعودٍ، وقال ابنُ مـسعودٍ: إذْ وسَّع اللَّه فهو أزكى.

واستدلَّ من قـالَ: إنَّ المأمورَ به من الزينةِ أكثرُ من سـتْرِ العورةِ التي يجبُ سترُها عن الأبصارِ، بأنَّ النبيَّ ﷺ نهى أنْ يصلِّي الرجلُ في ثوبٍ واحدٍ ليس على عاتقِهِ منه شيء، وبأنَّ من صلَّى عاريًا خاليًا لا تصحُّ صلاتُهُ، وبأنَّ المرأة الحرَّة لا تصحُّ صلاتُهـا بدونِ خمـارٍ، مع أنه يُباح لهـا وضعُ خمـارِها عند محارمـها، فدلَّ على أنَّ الواجبَ في الصلاةِ أمرٌ زائدٌ على سـترِ العورةِ التي يجبُ سترُها عن النظرِ(٢).

* * *

(١) أخـرجه: الحـاكم (١/٢٥٣)، وعبـد الرزاق (١٣٩٠)، والطحاوي في «شـرح معـاني الآثار» (١/٣٧٧).

(٢) «فتح الباري» (٢/١٢٧ ـ ١٢٩).

واعلم، أنَّ الصلاةَ في الثوبِ الحسنِ غيرِ مكروه، إلا أن يُخْشى منه الالتهاءُ عن الصلاةِ أو حدوثُ الكِبْرِ، وقد كان لتميمٍ الداريِّ حُلَّةٌ اشتراها بألف درهم، يقومُ بها الليلَ، وقد كان النبيُّ ﷺ أحيانًا يلبس حُللاً من حُللِ اليمنِ، وبُرودًا حسنةً، ولم ينقلْ عنه أنه كانَ يتجنَّب الصلاةَ فيها، وإنما ترك هذه الخميصةَ لما وقع له من تلك النظرةِ إلى عَلَمِها، وقد قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١]، وسبق قول ابنِ عمرَ: اللَّهُ أحقُّ أن يُتزيَّن له. وخرَّج أبو داودَ في «مراسيله»(١) من حديثِ عبيدِ اللَّهِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ عتبةَ، قال: كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إذا قامَ إلى الصلاةِ ـ مما تعجبُهُ: الثيابُ النقيةُ والريحُ الطيبةُ.

ولم يزلْ علماءُ السلفِ يلبسونَ الثيابَ الحسنةَ، ولا يعدونَ ذلك كِبْرًا.

وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه سُئلَ عن الرجلِ يحبُّ أن يكونَ ثوبُه حسنًا ونعلُهُ حسنًا؟ فقال: **«ليس ذلك من الكبرِ، إنَّ اللَّهَ جميلٌ يحب الجمالَ»**(٢).

وقال جريرُ بنُ حازمٍ: رأيتُ على الحسنِ طَيْلَسَانًا كُرْديًّا حسنًا، وخَميصةً أصبهانيّةً جيدة، ذاتَ أعلامٍ خُضر وحُمرٍ، أزرتّها من إبْرِيسَمٍ، وكان يرتدي ببردٍ له يمانٍ أسودٍ مُصَلَّب، وبرد عدني وقباء من برد حَبَرَة، وعمامة سوداء.

وقال حرب: سألت إسحاقَ عن الصلاةِ في المنديلِ، وأريتُه منديلاً له أعلام خُضْر وخُطُوط؟ فقال: جائزٌ(٣).

* * *

(١) «المراسيل» (٢٩).

(٢) أخرجه: مسلم (١/ ٦٥) بنحوه من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) «فتح الباري» (٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

وفي «صحيح مسلم»[١] عن ابنِ عباسٍ، قال: كانتِ المرأةُ تطوفُ بالبيتِ وهي عُريانةٌ، وتقولُ:

اليومَ يبْدُو بعضُهُ أو كلُّه فمَا بَدَا منهُ فَلاَ أُحِلُّهُ

قال: فنزلتِ: ﴿يا بَنِي آدمَ خُذُوا زِينَتكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[٢] [الأعراف: ٣١].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾

قال اللَّهُ تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ [الأعراف: ٤١] قال محمدُ بنُ كعبٍ والضحاكُ والسُّدِّيُّ وغيرُهم: المهادُ: الفراشُ، والغواشُ: اللحفُ.

وقال الحسنُ في قولِه تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيراً﴾ [الإسراء: ٨] قال: فِراشًا ومِهادًا.

وقال قتادةُ: محبسًا حُصروا فيها.

وروى مسكينٌ عن حوشبٍ عن الحسنِ أنه كان إذا ذُكِرَ أهلُ النارِ قال في وصفِهم: قد حذيت لهم نعالٌ من نارٍ وسرابيلُ من قطرانٍ، وطعامُهُم من نارٍ، وشرابُهُم من نارٍ وفرشٌ من نارٍ ولُحُفٌ من نارٍ ومساكنُ من نارٍ، في شرِّ دارٍ وأسوأ عذابٍ في الأجسادِ أكلاً أكلاً، وصهْرًا صهْرًا، وحطْمًا حطْمًا.

وروى داودُ بنُ المحبرِ عن الحسنِ بنِ واصلٍ، وعبدِ الواحدِ بنِ زيدٍ عن

(١) (٨/ ٢٤٣).

(٢) «فتح الباري» (٢/ ١٨٧).

الحسنِ، قال: إنَّ رجلاً من صدرِ هذهِ الأمةِ كانَ إذا دخلَ المقابرَ نادَى: يا أهلَ القبورِ بعد الرفاهيةِ والنعيمِ معالجة الأغلالِ في النارِ، وبعد القطنِ والكتانِ لباسُ القطرانِ، ومقطعات للنيرانِ، وبعدَ تلطفِ الخدمِ والحشمِ، ومعانقة الأزواجِ، مقارنةُ الشيطانِ في نارِ جهنَّم مقرنين في الأصفاد.

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسنادِهِ عن وهبِ بنِ منبهٍ، قال: أما أهلُ النارِ الذينَ هم أهلُها فهم في النارِ لا يهدؤون ولا ينامونَ ولا يموتونَ، ويمشونَ على النارِ، ويجلسونَ على النارِ، ويشربونَ من صديدِ أهلِ النارِ، ويأكلونَ من زقومِ النارِ، فرشُهم ولحفهم نارٌ، وقمصُهُم نارٌ وقطرانٌ، وتغشى وجوهَهُمُ النارُ، وجميعُ أهلِ النارِ في سلاسلَ بأيدي الخزنةِ أطرافُها يجذبونَ مقبلينَ ومدبرينَ، فيسيلُ صديدُهم إلى حفرٍ في النارِ، فذلكَ شرابُهُم، قالَ: ثم بكَى وهبٌ حتى سقطَ مغشيًا عليهِ، وغلبَ بكرُ بنُ خنيسٍ عندَ روايتِهِ هذا الحديثِ البكاءُ حتى قامَ فلم يقدرْ أن يتكلمَ، وبكى محمدُ بنُ جعفرٍ بكاءًا شديدًا.

وبإسنادِهِ عن هدابٍ، قال: أقبلتْ أمُّ يحيى بن زكريا على يحيى في ثوبٍ تعالجه لَهُ ليلبسه، فقال لها: أفعل، فقالتْ: من أيِّ شيءٍ؟ قالَ من شعرٍ، قالتْ: يا بنيَّ إذًا يأكلُ لحمَكَ، قال: يا أمَّه، إذا ذكرتُ مقطعاتِ أهلِ النارِ لانَ عليَّ جِلْدِي.

وكان عطاءٌ الخراسانيُّ ينادي أصحابَهُ في السفرِ: يا فلانُ ويا فلانُ قيامُ هذا الليلِ وصيامُ هذا النهارِ أيسرُ من شرابِ الصديدِ ومقطعاتِ الحديدِ ألواحًا ثم ألواحًا ثم ألواحًا، ثم يقبلُ على صلاتِهِ[1].

* * *

(١) «التخويف من النار» (١٢٨ ـ ١٢٩).

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

وقال سفيانُ بنُ عيينةَ عن عثمانَ الثقفيِّ عن سعيدِ بنِ جبيرٍ، عن ابنِ عباسٍ في هذهِ الآيةِ، قالَ: ينادي الرجلُ أخاه إني قد احترقتُ فأفضْ عليَّ من الماءِ، فيقال: أجبْهُ، فيقول: إنَّ اللَّهَ حرَّمَهُمَا على الكافرين(١).

وقال سنيد في «تفسيرِهِ»: حدثنا حجاجُ عن أبي بكر بنِ عبدِ اللَّهِ، قال: ينادُون أهلَ النارِ: يا أهلَ الجنةِ فلا يُجيبونَهُم ما شاءَ اللَّه ثم يقالُ: أجيبوهم وقد قطعَ الرحمُ والرحمةُ، فيقولُ أهلُ الجنةِ: يا أهلَ النارِ عليكم لعنةُ اللَّهِ، يا أهلَ النارِ عليكُم غضبُ اللَّهِ، يا أهلَ النارِ لا لبَّيكُم ولا سعديْكُم، ماذا تقولون؟ فيقولونَ: ألم نكنْ في الدنيا آباؤكم وأبناؤكم وإخوانُكم وعشيرتُكم؟ فيقولونَ: بلى، فيقولون: **﴿أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ**

(١) أخرجه: ابن جرير في «تفسيره» (٨/ ٢٠١).

حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠].

قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿**فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ**﴾ [الصافات: ٥٠-٥٢] الآيات.

قال خليدٌ المصريُّ في قولِهِ تعالى: ﴿**فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ**﴾ [الصافات: ٥٥]، قالَ: في وسطِهَا ورأى جماجمَ تغْلِي فقال: فلانٌ؟ واللَّه لولا أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ عرفَهُ إيَّاهُ لما عرفَهُ لقد تغير حبره وسبره فعندَ ذلك يقولُ: ﴿**تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ**﴾ [الصافات: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ**﴾ [المدثر: ٣٨-٤٣] الآيات. روى أبو الزعراء عن ابنِ مسعودٍ أنه لا يتركُ في النارِ غير هؤلاءِ الأربعةِ قال: وليسَ فيهم من خيرٍ.

وفي حديثِ مسكينِ أبي فاطمة عن اليمانِ بنِ يزيدَ، عن محمدِ بنِ حميرٍ، عن محمدِ بنِ علي، عن أبيه، عن جدِّه عن النبيِّ ﷺ في خروجِ أهلِ التوحيدِ من النارِ، قالَ: «**ثم يقولُ اللَّهُ لأهلِ الجنةِ: اطلعوا إلى من بقيَ في النارِ، فيطلعونَ إليهم فيقولون: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾** [المدثر: ٤٢-٤٣]، **أي: إنَّا لم نكن منهم لو كنا لخرجْنَا معهم**»، خرَّجه الإسماعيليُّ وغيرُهُ، وهو منكر كما سبقَ ذكرُهُ.

قال الإمامُ أحمدُ: حدثنا عليُّ بنُ حفصٍ، حدثنا الثوريُّ، عن أبي خالدٍ، عن الشعبيِّ، قال: يشرفُ قومٌ في الجنةِ على قومٍ في النارِ فيقولونَ: ما لكم في النارِ، وإنَّما كنا نعملُ بما كنتم تعلِّمون؟ فيقولونَ: إنا كُنَّا نعلِّمُكم ولا نعملُ به.

وقال سعيدُ بنُ بشيرٍ، عن قتادةَ: إنَّ في الجنةِ كوى إلى النارِ فيطلعُ أهلُ الجنةِ من تلكَ الكُوى إلى النارِ، فيقولونَ: ما بالُ الأشقياء، وإنما دخلنا الجنةَ بفضلِ تأديبِكُم؟ فقالُوا: إنا كنَّا نأمرُكُم ولا نأتمرُ، وننهاكُم ولا ننتَهِي.

وقال معمرٌ عن قتادةَ: قالَ كعبٌ: إنَّ بينَ أهلِ النارِ وأهلِ الجنةِ كُوى لا يشاءُ رجلٌ من أهلِ الجنةِ أن ينظرَ إلى عدوِّه من أهلِ النارِ إلا فَعَلَ.

وقال أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ: حدثنا عبدُ اللَّهِ بن غياثٍ عن الفزاريِّ، قالَ: لكلِّ مؤمنٍ في الجنةِ أربعةُ أبوابٍ بابٌ يدخلُ عليه زوَّارُهُ من الملائكةِ، وبابٌ يدخلُ عليه أزواجُهُ من الحورِ العين، وبابٌ مقفلٌ فيما بينه وبينَ أهلِ النارِ يفتحُهُ إذا شاءَ أن ينظر إليهم لتعظم النِّعمةُ عليه، وبابٌ فيما بينه وبين دارِ السلامِ يدخلُ فيه على ربِّه إذا شاء.

وخرَّج ابنُ أبي حاتمٍ بإسنادِهِ عن الضحاكِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الأَرَائِكِ﴾ من الدر والياقوتِ ﴿يَنظُرُون﴾ [المطففين:٣٤-٣٥]، يعني: على السررِ ينظرونَ، كان ابنُ عباسٍ يقولُ: السررُ بين الجنةِ والنارِ، فيفتحُ أهلُ الجنةِ الأبوابَ فينظرونَ على السررِ إلى أهلِ النارِ كيفَ يعذبونَ ويضحكونَ منهم، ويكون ذلك مما يقر اللَّهُ به أعينَهُم أن ينظروا إلى عدوِّهم كيفَ ينتقمُ اللَّهُ منهُ.

وخرَّج البيهقيُّ وغيرُهُ من حديثِ عليِّ بنِ أبي سارةَ عن ثابتٍ، عن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ: **«أن رجلاً من أهل الجنةِ يشرفُ يومَ القيامةِ على أهلِ النار، فيناديه رجلٌ من أهلِ النارِ: يا فلانُ هل تعرفُني؟ فيقولُ: لا، واللَّهِ لا أعرفُك من أنتَ؟ فيقولُ: أنا الذي مررتَ بي في دارِ الدنيا فاستسقيتني شربةَ ماءٍ فأسقيتُك، قال: قد عرفتُ،**

فَاشْفَعْ لي بهـا عندَ ربِّك، قال: فيـسأل اللَّهَ ـ عـزَّ وجلَّ ـ، فيـقولُ: يا ربِّ شـفِّعْني فـيه، فيؤمرُ به فيخرجُ من النارِ»[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿قَد افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّه كَذبًا إنْ عُدْنَا في ملَّتكُم بَعْدَ إذْ نَجَّانَا اللَّهُ منْهَا﴾

قال شعيبٌ ـ عليه السلامُ ـ: ﴿قَد افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّه كَذبًا إنْ عُدْنَا في ملَّتكُم بَعْدَ إذْ نَجَّانَا اللَّهُ منْهَا﴾ [الأعراف: ٨٩].

وقال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

والمرادُ: أنه ينجيهم من الشركِ، ويدخلُهم في الإيمانِ، وكثيرٌ منهم لم يكن داخلاً في الشركِ قطُّ[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾

قـالَ ليثٌ عنْ مُـجـاهدٍ في قـوله تعـالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلاثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢] قال ذو القَـعْدَة ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. قال: عشْرُ ذي الحجَّة[3]. [4].

* * *

(١) «التخويف من النار» (٢١٨ ـ ٢٢١).
(٢) «فتح الباري» (١/ ٨٦).
(٣) أخرجه: ابن جرير في «تفسيره» (٩/ ٤٧).
(٤) لطائف المعارف» (٣٤٩).

سُورَةُ الأنْفَالِ

قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾

وسمع عُمرُ رجلاً يقولُ: اللَّهُمَّ إنك تحولُ بين المرءِ وقلبِه، فحُلْ بيني وبينَ معاصيك. فأعجبَ عُمرَ ودعا له بخيرٍ.

وروى ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما، في قوله تعالى: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤] قال: يحول بين المؤمن وبين المعصيةِ التي تجرُّه إلى النارِ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

استماعُ الغناءِ بآلاتِ اللهوِ أو بدونِها على وجهِ التقرُّبِ إلى اللَّهِ تعالى، وتحريكُ القلوبِ إلى محبتِه، والأُنسُ به والشَّوقُ إلى لقائِه، وهذا هو الَّذي يدَّعِيه كثيرٌ من أهلِ السلوكِ، ومَن يتشبَّهُ بهم، ممن ليسَ منهُم، وإنَّما يتسترُ بهم، ويتوصَّلُ بذلك إلى بُلوغِ غرضِ نفسِه، من نيلِ لذَّتِه. فهذا المتشبِّه بهم مخادِعٌ مُلَبِّسٌ. وفسادُ حالِه أظهرُ من أنْ يخفى على أحد. وأمَّا الصادقونَ في دعواهُم ذلك وقليلٌ ما هم، فإنَّه ملبوسٌ عليهم؛ حيثُ تقرَّبُوا إلى اللَّهِ عزَّ

---

(١) «نور الاقتباس» (٣٥).

وجلَّ، بما لم يشرعْهُ اللَّهُ تعالى، واتخذُوا دِينًا لم يأذن اللَّهُ فيه.

فلهُم نصيبٌ ممن قالَ اللَّهُ تعـالى فيه: ﴿وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال:٣٥]، والمُكاءُ: الصَّفيـرُ، والتَّصْديةُ: التصفـيق باليد. كذلك قالهُ غيـرُ واحدٍ من السلفِ(١) . وقال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى:٢١].

فإنه إنما يتـقرَّبُ إلى اللَّهِ عـزَّ وجلَّ، بما يُشرعُ التـقربُ به إليـه على لسانِ رسولِهِ ﷺ. فأمَّا ما نهى عنه، فالتقربُ به إليهِ مُضادَّةٌ للَّه عزَّ وجلَّ في أمرِهِ، قال القاضي أبو الطيِّبِ الطبريُّ رحمه اللَّهُ في كـتابِهِ في السماعِ: اعتقادُ هذه الطائفةِ، مـخالفٌ لإجمـاعِ المسلمينَ، فإنه ليسَ فـيهم منْ جعل السـماعَ دِينًا وطاعـةً، ولا رأى إعلانَهُ في المسـاجـدِ والجوامعِ، وحـيثُ كـانَ من البقـاعِ الشريفةِ، والمشاهدِ الكريمةِ.

وكان مذهبُ هذه الطائفةِ، مخالفًا لما اجـتمعتْ عليه العُلماءُ، ونعوذُ باللَّهِ من سوءِ التوفيقِ. انتهى ما ذكره.

ولا ريب أن التقربَ إلى اللَّهِ تعالى بسماعِ الغناءِ المُلَحَّنِ، لا سيَّما مع آلاتِ اللهوِ، مما يُعْلَمُ بالضرورةِ من دِينِ الإسـلامِ، بلْ ومنْ سائرِ شرائعِ المسلمينَ؛ أنه ليسَ مما يُتقرَّبُ به إلى اللَّهِ، ولا مما تُزكَّى به النفـوسُ وتُطهَّرُ به. فإنَّ اللَّهَ تعـالى شـرَعَ على ألْسِنَةِ الـرسلِ كلَّ مـا تَزْكُـو به النفـوسُ، وتطهُـرُ به من أدناسـها، وأوضـارِها، ولم يشرعْ على لـسانِ أحـدٍ من الرسلِ، في ملَّةٍ من المللِ، شيئًا من ذلك. وإنما يأمـرُ بتزكيةِ النفوسِ بذلكَ، من لا يتقـيدُ بمتابعةِ

---

(١) راجع: «تفسير الطبري» (٩/ ٢٤٠ ـ ٢٤٢).

الرُّسُلِ: من أتباع الفلاسفةِ. كما يأمـرونَ بعشقِ الصورِ، وذلك كلُّه ما تحيا به النفوسُ بالسُّوءِ، ولما لها فيه من الحظِّ، ويَقْوى به الهوَى، وتموتُ به القلوبُ المتصلةُ بعـلاَّمِ الغيوبِ، وتَبْـعُدُ به عنه. فَغَـلِطَ هؤلاءِ واشتبَـهَ عليهِم حظوظُ النفوسِ وشـهواتُهـا بأقواتِ القلوبِ الطاهرةِ والأرواحِ الـزكيةِ المعلَّقـةِ بالمحلِّ الأعْلَى، واشتـبَهَ الأمر في ذلكَ أيْضًا على طوائـفَ من المسلمينَ ممَّنْ ينتسبُ إلى السلوكِ[1].

* * *

(١) «نزهة السماع» (٦٨ ـ ٧٠).

سُورَةُ التَّوْبَةِ

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾

عمارةُ المساجدِ تكونُ بمعنيين:

أحدُهما: عمارتُها الحسِّيَّة ببنائِها وإصلاحِها وترميمِها، وما أشْبَه ذلك.

والثاني: عمارتُها المعنويّة بالصلاةِ فيها، وذكْرِ اللَّهِ وتلاوةِ كتابِهِ، ونشرِ العلم الذي أنزلَهُ على رسولِهِ، ونحو ذلك.

وقد فُسِّرت الآيةُ بكلٍّ واحدٍ من المعنيينِ، وفُسِّرتْ بهما جميعًا، والمعنى الثاني أخصُّ بها.

وقد خرَّج الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ وابنُ ماجه(١) من حديث درَّاجٍ، عن أبي الهيثمِ، عن أبي سعيدٍ، عنِ النبيِّ ﷺ، قال: «إذا رأيتم الرجلَ يعتادُ المسجدَ فاشهدُوا له بالإيمان»، ثم تلا: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية [التوبة:١٨].

ولكنْ قال الإمامُ أحمدُ: هو منكرٌ.

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/٦٨ ـ ٧٦)، والترمذي (٢٦١٧)، وابن ماجه (٨٠٢).

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة:١٧] وقُرِئ: «مسْجِدَ اللَّه».

فقيل: إنَّ المرادَ به جميعُ المساجدِ على كِلا القراءتين، فإنَّ المفردَ المضافَ يعمُّ، كقوله: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ﴾ [البقرة:١٨٧].

وقيلَ: المرادُ بالمسجدِ المسجدُ الحرامُ خاصة، كما قال: ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلاَّ الْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال:٣٤].

وقيلَ: إنه المرادُ بالمساجدِ على القراءةِ الأخرى، وأنه جَمَعَه لتعددِ بِقَاعِ المناسكِ هناك، وكلٌّ واحدٍ منها في معنى مسجد، رُوي ذلك عن عكرمة. واللَّهُ أعلمُ.

فمَنْ قالَ: إنَّ المرادَ به المسجدُ الحرامُ خاصَّة، قال: لا يُمكَّن الكفارُ من دخولِ الحرمِ كلِّه، بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة:٢٨].

وجمهورُ أهلِ العلمِ على أنَّ الكفارَ يُمْنَعُون من سُكْنى الحرم، ودخولِه بالكليّة، وعمارتِهِ بالطوافِ وغيرِه، كما أمرَ النبيُّ ﷺ منْ يُنادي: «لا يحج بعد العام مشركٌ»(١).

ورَخَّصَ أبو حنيفة لهم في دخولِهِ دونَ الإقامة به.

ومنْ قال: المرادُ جميعُ المساجدِ، فاختلفُوا:

فمنهم: مَنْ قال: لا يُمكَّنُ الكفارُ من قُربان مسجدٍ من المساجدِ، ودخولِهِ بالكليّة.

---

(١) أخرجه: البخاري (١/١٠٣)، (٢/١٨٨)، (٤/١٢٤)، (٥/٢١٢)، وغيرها من المواضع، ومسلم (٤/١٠٦ ـ ١٠٧).

ومنهم: من رَخَّص لهم في دخولِ مساجدِ الحِلِّ في الجملةِ.

ومنهم: من فرَّق بين أهلِ الكتابِ والمشركينَ، فرَخَّصَ فيه لأهلِ الكتابِ دونَ المشركينَ.

وقد أفردَ البخاريُّ بابًا لدخولِ المشركِ المسجدَ، ويأتي الكلامُ على هذه المسألة هناك مستوفى - إنْ شاء اللّه تعالى.

واتفقُوا على مَنْعِ الكفارِ منْ إظْهَارِ دِينِهِم في مساجدِ المسلمين، لا نعلم في ذلك خلافًا.

وهذا مما يدلُّ على اتفاقِ الناسِ على أنَّ العمارةَ المعنويّة مرادةٌ من الآيةِ.

واختلفُوا في تمكينِهم من عمارةِ المساجدِ بالبُنْيانِ والترميمِ ونحوه على قولين:

أحدهما: المنع منْ ذلك؛ لدخولِه في العمارةِ المذكورةِ في الآيةِ، ذكرَ ذلك كثيرٌ من المفسرينَ كالواحديِّ وأبي الفرج ابنِ الجوزيِّ، وكلام القاضي أبي يعْلى في كتابِ «أحكام القرآنِ» يوافقُ ذلك وكذلك كِيَا الهراسي - من الشافعيةِ -، وذكره البغويُّ منهم احتمالاً.

والثاني: يجوزُ ذلك، ولا يُمنعونَ منه، وصرَّح به طائفةٌ من فقهاءِ أصحابِنا والبغويُّ من الشافعية وغيرهم.

وهؤلاءِ؛ منهم مَنْ حملَ العمارةَ على العمارةِ المعنويةِ خاصة، ومنهم منْ قالَ: الآيةُ إنما أُريد بها المسجد الحرامُ، والكفارُ ممنوعونَ من دخولِ الحرمِ على كل وَجْهٍ، بخلاف بقيةِ المساجدِ، وهذا جوابُ ابنِ عقيل من أصحابِنا.

وقد رُوي عن عُمَرَ بن عبدِ العزيزِ، أنه استعملَ طائفةً من النصارى في

عمارةِ مسجدِ النبيِّ ﷺ لما عمَّره في خلافةِ الوليدِ بنِ عبدِ المَلكِ.

ويتوجه قولٌ ثالثٌ، وهو: أنَّ الكافرَ إن بنى مسجدًا للمسلمينَ من مَالِه لم يمكَّن من ذلكَ. ولو لم يُبَاشِره بنفسه، وإنْ باشَرَ بناءه بنفسِهِ باستئجارِ المسلمينَ له جازَ، فإن في قبولِ المسلمينَ منَّةَ الكفارِ ذُلاً للمسلمينَ، بخلافِ استئجارِ الكفار للعملِ للمسلمينَ، فإن فيه ذُلاً للكفارِ.

وقد اختلفَ الناسُ في هذا ـ أيضًا ـ على قولينِ:

أحدُهما: أنه لو وصَّى الكافرُ بمالٍ للمسجدِ أو بمالٍ يعمر به مسجد أو يُوقَدُ به، فإنه تُقْبَلُ وصيّتُه، وصرَّح به القاضي أبو يعلى في «تعليقه» في مسألةِ الوقيد، وكلامُه يدلُّ على أنه محلُ وفاقٍ، وليس كذلك.

والثاني: المنعُ من ذلك، وأنه لا تُقبلُ الوصيةُ بذلكَ، وصرَّح به الواحديُّ في «تفسيرِه» وذكره ابنُ مزين في كتابِ «سيرِ الفقهاءِ» عن يحْيى بن يحيى، قال: سمعتُ مالكًا، وسُئِلَ عن نصرانيٍّ أوْصَى بمالٍ تُكْسى به الكعبةُ؟ فأنكر ذلكَ، وقال: الكعبةُ منزهةٌ عن ذلكَ.

وكذلك المساجدُ لا تجري عليها وصايَا أهل الكفرِ.

وكذلك قال محمدُ بنُ عبدِ اللَّهِ الأنصاريُّ قاضي البصرةِ: لا يصحُّ وقفُ النصرانيِّ على المسلمينَ عُمومًا، بخلافِ المسلمِ المعينِ، والمساجدُ من الوَقْفِ على عمومِ المسلمين: ذكرَه حربٌ، عنه بإسنادِه.

وقال عبدُ اللَّهِ بنُ أحمد(١): سألتُ أبي عن المرأةِ الفقيرةِ تجيءُ إلى اليهوديِّ أو النصرانيِّ فتصدق منه؟ قال: أخْشى أنَّ ذلك ذِلَّة.

---

(١) «مسائل عبد اللَّه» (ص ٤٤٨).

وقال مُهنَّا: قلتُ لأحمدَ: يأخذُ المسلمُ من النصرانيِّ من صدقتِه شيئًا؟ قال: نعم، إذا كان مُحتاجًا.

فقد يكونُ عن أحمدَ روايتان في كراهةِ أخذِ المسلمِ المعينِ من صدقةِ الذِّميِّ، وقد يكونُ كرِهَ السؤالَ، ورَخَّصَ في الأخذِ منه بغيرِ سؤالٍ، واللَّهُ أعلمُ.

وأمَّا وقْفُهم على عمومِ المسلمينَ كالمساجدِ، فيتوجهُ كراهتُه بكلِّ حالٍ، كما قالهُ الأنصاريُّ.

وقد ذكَرَ أهلُ السيرِ كالواقديِّ ومحمدِ بنِ سعدٍ أنَّ رجلاً من أحبارِ اليهودِ، يقال له: مُخَيْريقٌ، خرجَ يومَ أُحدٍ يقاتل مع النبيِّ ﷺ وقال: إنْ أصبتُ في وجهي هذا فمالي لمحمدٍ يضعه حيثُ شاء، فقُتل يومئذٍ، فقبضَ رسولُ اللَّهِ ﷺ أموالَه، فقيل: إنَّه فرَّقها وتصدَّق به، وقيل: إنَّه حبسها ووقفَها.

وروى ابنُ سعدٍ[1] ذلك بأسانيد متعددة، وفيها ضعفٌ. واللَّه أعلمُ[2].

* * *

قال الله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾

وفي «صحيح مسلمٍ»[3] عن النُّعمانِ بنِ بشيرٍ، قال: كنتُ عند مِنْبَرِ النبيِّ

(١) «الطبقات» له (١/ ٢/ ١٨٢).
(٢) «فتح الباري» (٢/ ٤٨١ - ٤٨٥).
(٣) (٦/ ٣٦).

ﷺ، فقال رجلٌ: ما أبالي أن لا أعملَ عملاً بعد الإسلامِ إلا أنْ أسقيَ الحاجَّ. وقال آخرُ: ما أبالي أنْ لا أعملَ عملاً بعد الإسلامِ، إلا أنَّ أعْمُرَ المسجدَ الحرامَ. وقالَ آخرُ: الجهاد في سبيلِ اللَّهِ أفضلُ ممَّا قُلتم، فزجرَهُم عُمَرُ، وقال: لا ترفعُوا أصواتكم عندَ منبرِ رسولِ اللَّهِ ﷺ - وهو يومُ الجمعةِ -، ولكن إذا صليتُ الجمعةَ دخلْتُ فاستَفْتيتُهُ فيما اختلفتُم فيه، فأنزلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ [التوبة:١٩] إلى آخرِ الآيةِ. فهذا الحديثُ الذي فيه ذِكْرُ سببِ نُزولِ هذه الآيةِ يبيِّنُ أنَّ المرادَ أفضلُ ما يُتقرَّبُ به إلى اللَّهِ تعالى من أعمالِ النَّوافلِ والتطوعِ، وأنَّ الآيةَ تدلُّ على أنَّ أفضلَ ذلكَ الجهادُ مع الإيمانِ. فدلَّ على أنَّ التطوُّعَ بالجهادِ أفضلُ من التطوُّعِ بعمارةِ المسجدِ الحرامِ وسقايةِ الحاجِّ. وعلى مثلِ هذا يحملُ حديثُ أبي هريرةَ رضي اللَّهُ عنه[1] .[2]

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾

خرَّج البخاريُّ ومسلم[3] :

من حديثِ: أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ ، قال: «**والذي نفسي بيدِه، لا يُؤمنُ**

(١) يعني: ما أخرجه البخاري (١/ ١٣)، (٢/ ١٦٤)، ومسلم (١/ ٦٢) من حديث أبي هريرة بلفظ: «**أفضل الأعمال إيمان باللَّه ورسوله، ثم جهاد في سبيل اللَّه، ثم حج مبرور**».

(٢) «لطائف المعارف» (٤٠٤ ـ ٤٠٥).

(٣) أخرجه: البخاري دون مسلم (١/ ١٠).

أحدُكُم حتَّى أكُونَ أحبَّ إليه منْ والدِهِ وولدِهِ».

وخرَّج البخاريُّ ومسلمٌ ـ أيضًا[1] :

من حديث: أنسٍ، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«لا يؤمنُ أحدُكُم حتَّى أكُونَ أحبَّ إليه من والدِهِ وولدِهِ والناسِ أجمعينَ»**.

محبةُ النبيِّ ﷺ من أصولِ الإيمانِ، وهي مقارنة لمحبةِ اللَّه عزَّ وجلَّ.

وقد قرنها اللَّهُ بهـا وتوعَّد من قدَّم عليهما محبـةَ شيءٍ من الأمورِ المحبوبةِ طبعًا، من الأقاربِ والأموالِ والأوطانِ وغير ذلك.

فقال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ**﴾ [التوبة: ٢٤].

ولما قال عـمرُ للنبيِّ ﷺ: أنتَ أحبُّ إليَّ من كـلِّ شـيءٍ إلا من نفْـسِي. فقال: **«لا يا عُمَرُ حتَّى أكُونَ أحبَّ إليك من نفسكَ»**، فقال عمرُ: واللَّهِ، أنتَ الآنَ أحبُّ إليَّ من نفْسِي. قال: **«الآن يا عُمَرُ»**[2].

فيجبُ تقديم محبةِ الرسولِ ﷺ على النفوسِ والأولادِ والأقاربِ والأهلينَ والأموالِ والمساكنِ، وغيرِ ذلكَ مما يحبُّه الناسُ غايةَ المحبةِ.

وإنما تتمُّ المحبةُ بالطَّاعةِ، كـما قال تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١].

وسئلَ بعضُهم عن المحبةِ، فقالَ: الموافقةُ في جميعِ الأحوالِ.

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ١٠)، ومسلم (١/ ٤٩).

(٢) أخرجه: البخاري (٥/ ١٦)، (٨/ ٧٣ ـ ١٦١) من حديث عبد اللَّه بن هشام رضي الله عنه.

فعلامةُ تقـديمِ محبةِ الرسولِ على محبـةِ كلِّ مخلوقٍ أنَّه إذا تعارضَ طاعةُ الرسولِ ﷺ في أوامرِه، وداعٍ آخر يدعو إلى غيْرِها من هذه الأشياء المحبوبة، فإنْ قـدَّم المرءُ طاعةَ الرسولِ، وامتـثالَ أوامرِه على ذلكَ الداعِي، كـان دليلاً على صحَّةِ محـبتِهِ للرسولِ، وتقديمِها على كلِّ شـيءٍ، وإن قدَّم على طاعتِهِ وامتثالِ أوامرِهِ شيئًا من هذه الأشـياءِ المحبوبةِ طبعًا، دلَّ ذلك على عدمِ إتيانِهِ بالإيمانِ التامِّ الواجبِ عليه.

وكذلك القـولُ في تعارضِ محبـةِ اللَّهِ ومحبةِ داعِي الهـوى والنفس، فإن محبةَ الرسولِ تبعٌ لمحبةِ مرسلِهِ عزَّ وجلَّ.

هذا كلُّه في امتثالِ الواجباتِ، وتركِ المحرَّماتِ، فإن تعارضَ داعِي النفسِ، ومندوباتِ الشـريعـةِ، فـإنْ بلغتِ المحـبـةُ إلى تقـديمِ المندوباتِ على دواعِي النفسِ، كان ذلكَ علامةُ كمالِ الإيمانِ، وبـلوغِهِ إلى درجةِ المقربينَ المحبوبين، المتقربينَ بالنوافلِ بعد الفرائضِ.

وإنْ لم تبلغْ هذه المحبـةُ هذه الدرجةِ، فهي درجـةُ المقتصدينَ، أصـحابِ اليمينِ، الذين كملتْ محبتُهم الواجبةُ، ولم يزيدوا عليها[1].

* * *

وأما محبـةُ الرسولِ، فتنشأ عن معرفـتِهِ ومعرفةِ كمالِـهِ وأوصافه وعظمِ ما جاءَ به، وينشأُ ذلكَ من معرفةِ مرسلِهِ وعظمتِـهِ، كما سبقَ، فإنَّ محبةَ اللَّهِ لا تتمُّ إلا بطاعتِـهِ، ولا سبيلَ إلى طاعـتِهِ إلا بمتابعـةِ رسولِهِ، كما قـال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

(١) «فتح الباري» (١/ ٤٣ ـ ٤٤).

ومحبةُ الرسولِ على درجتينِ ـ أيضًا:

إحداهُما: فرضٌ، وهي ما اقتضى طاعتَه في امتثالِ ما أمرَ به من الواجباتِ، والانتهاءِ عمَّا نهى عنه من المحرَّماتِ، وتصديقِـهِ فيما أخبرَ به من المخبراتِ، والرِّضا بذلك، وأن لا يجدَ في نفسهِ حرجًا مما جاءَ بهِ، ويسلِّمَ له تسليمًا، وأن لا يتلقَّى الهُدى من غيرِ مشكاتِهِ، ولا يطلبُ شيئًا من الخيرِ إلا ما جاء به.

الدرجة الثانية: فضلٌ مندوبٌ إليه، وهي ما ارتقى بعدَ ذلكَ إلى اتِّباعِ سنتِهِ وآدابِهِ وأخْلاقِهِ، والاقتداءِ به في هديه وسمتِهِ، وحسنِ معاشرتِهِ لأهلِهِ وإخوانِهِ، وفي التخلقِ بأخلاقِهِ الظاهرةِ في الزهد في الدنيا، والرغبةِ في الآخرةِ، وفي جُودِهِ وإيثارِهِ وصفْحِهِ وحِلْمِهِ واحتمالِهِ وتواضعِهِ.

وفي أخلاقِهِ الباطنةِ، من كمالِ خشيتِهِ للَّهِ، ومحبتِهِ له، وشوقِهِ إلى لقائِهِ، ورضاه بقضائِهِ، وتعلقِ قلبه به دائمًا، وصدقِ الالتجاءِ إليه، والتوكلِ والاعتمادِ عليه، وقطع تعلُّقِ القلبِ بالأسبابِ كلِّها، ودوامِ لَهَجِ القلبِ واللسانِ بذكرِهِ، والأُنس به، والتنعمِ بالخَلْوةِ بمُناجاتِهِ ودعائِهِ، وتلاوةِ كتابِهِ بالتدبرِ والتفكرِ.

وفي الجملةِ، فكان خلقه ﷺ القرآنُ، يرضى لرضاه ويسخط لسخطه، فأكملُ الخلقِ من حقَّقَ متابعتَهُ وتصديقَه قولاً وعملاً وحالاً، وهم الصدِّيقونَ من أُمَّتِهِ، الذين رَأسُهم أبو بكرٍ خليفتُهُ من بعدِهِ[1].

* * *

(١) «فتح الباري» (١/ ٤٨ ـ ٤٩).

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

قال أبو عبدِ اللَّهِ محمدُ بنُ خفيفٍ الصوفيُّ: سألنا أبو العباس ابن سريجٍ بشيراز فقالَ لنا: «محبةُ اللَّهِ فرضٌ أمْ غيرُ فرضٍ؟ قلنا: فرضٌ قال: ما الدلالةُ على فرضِهَا؟ فما منا من أتى بشيءٍ يُقبلُ فرجَعْنا إليه وسألناه: ما الدليلُ على فرضِ محبةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ؟ فقالَ: قولُه تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤] قال: فتوعدَّهم اللَّهُ عزَّ وجلَّ على تفضيلِ محبتهم لغيرِه على محبَّتِه ومحبةِ رسولِه، والوعيدُ لا يقعُ إلا فرضٍ لازم وحتمٍ واجبٍ».

وفي «الصحيحين»[١] عن أنس عن النبيِّ ﷺ قال: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدُكُم حتَّى أكُونَ أحبَّ إليه من والدِه وولده والناسِ أجمعينَ**». وفي «الصحيحين»[٢] أيضًا أنَّ عمرَ بنِ الخطابِ ؓ قال: يا رسولَ اللَّه، واللَّهِ لأنتَ أحبُّ إليَّ من كُلِّ شيءٍ إلا من نفسِي، فقال: «**لا يا عمر، حتَّى أكُونَ أحبَّ إليْكَ من نفْسِك**» فقال: واللَّهِ لأنتَ أحبُّ إليَّ من نفسِي. فقال: «**الآن يا عُمَرُ**».

ومعلومٌ أنَّ محبةَ الرسولِ إنما هي تابعةٌ لمحبةِ اللَّه جلَّ وعلا، فإنَّ الرسولَ إنما يُحَبُّ موافقةً لمحبةِ اللَّه له ولأمرِ اللَّهِ بمحبتِهِ وطاعتِهِ واتباعِه، فإذا كان لا

(١) تقدم ص (٤٤٢).

(٢) تقدم ص (٤٤٢).

يحصلُ الإيمانُ إلا بتقديمِ محبتهِ على الأنفسِ والأولادِ والآباء والخلقِ كلِّهم، فما الظنُّ بمحبةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ؟ وذكرَ ابنُ إسحاقَ عن المغيرةِ بنِ عثمانَ بنِ الأخنسِ عن أبي سلمةَ بنِ عبدِ الرحمنِ أنَّ النبيَّ ﷺ خطبَ لما قدمَ المدينةَ، فقالَ في خطبتهِ: «أَحِبُّوا منْ أَحَبَّ اللَّهَ وأحِبُّوا اللَّهَ من كلِّ قلوبِكُم»(١).

وقد جعلَ النبيُّ ﷺ تقديمَ محبةِ اللَّهِ ورسولِهِ على محبَّةِ غيرِهما من خصالِ الإيمانِ ومن علاماتِ وجودِ حلاوةِ الإيمانِ في القلوبِ: ففي «الصحيحين»(٢) عن أنسٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «ثلاثٌ منْ كُنَّ فيه وجدَ بهنَّ حلاوةَ الإيمانِ: أن يكونَ اللَّهُ ورسولُهُ أحبَّ إليْه ممَّا سواهُما، وأنْ يحبَّ المرْءَ لا يحبُّهُ إلا للَّهِ، وأنْ يكْرَه أنْ يعودَ في الكفر بعدَ إذْ أنقذَهُ اللَّهُ منه، كما يكرهُ أن يُلْقى في النارِ».

وفي روايةِ النسائي(٣): «ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمانِ وطعْمَه: أن يكونَ اللَّهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه ممَّا سواهُما، وأنْ يُحِبَّ في اللَّهِ ويُبْغِضَ في اللَّهِ، وأن تُوقَدَ نارٌ فيقعَ فيها أحبَّ إليه من أنْ يُشْرِكَ باللَّهِ شيئًا».

وفي «مسند الإمامِ أحمدَ»(٤) عن أبي رزين العقيلي قال: قلتُ يا رسولَ اللَّهِ، ما الإيمانُ؟ قال: «أن تشهدَ أن لا إله إلا اللَّهُ، وحده لا شريكَ له، وأنَّ محمدًا عبده ورسولُهُ، وأنْ يكونَ اللَّهُ ورسولُهُ أحبَّ إليْكَ ممَّا سواهُما، وأنْ تُحْرَقَ في النَّارِ أحبَّ إليكَ من أنْ تُشْرِكَ باللَّه، وأنْ تحِبَّ غيرَ ذي نَسَبٍ لا تُحبُّهُ إلا للَّه، فإذا كُنتَ كذلك فقدْ دخلَ حبُّ الإيمانِ في قلبكَ كما دخلَ حُبُّ الماءِ للظَّمآنِ في اليومِ القائظِ»، وروي من حديثِ المقدادِ بنِ الأسودِ عن النبيِّ ﷺ قال: «من أحبَّ اللَّهَ ورسولَهَ

(١) أخرجه: البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٥٢٥).
(٢) أخرجه: البخاري (١/ ١٠ - ١٢)، (٨/ ١٧)، (٩/ ٢٥)، ومسلم (١/ ٤٨).
(٣) «السنن» (٨/ ٩٤). (٤) «المسند» (٤/ ١١).

صادقًا من قلبِه، ولقيَ المؤمنينَ فأحبَّهم، ومن كان أمرُ الجاهليةِ عندَهُ كنارٍ أُجِّجَتْ فأُلْقيَ فيها فقدْ طعِمَ طَعْمَ الإيمانِ» أو قال: «بلغ ذُرْوةَ الإيمانِ»(١).

ومن هذا المعنى أنَّ اللَّهَ تعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ الآية [الممتحنة: ١٠]، فأمرَ بامتحانِهنَّ ليعلَمَ إيمانَهنَّ، فكانَ النبيُّ ﷺ يحلفُهنَّ أنهنُّ ما خرجْنَ إلا حبًّا للَّهِ ورسولِه، لم يخرجْنَ رغبةً في غيرِ ذلكَ، فيكونُ ذلك علمًا بإيمانِهنَّ.

قال ابنُ عباسٍ في هذهِ الآيةِ: «كانت المرأةُ إذا أتَتِ النبيَّ ﷺ لتُسْلِمَ حَلَّفَها باللَّهِ ما خَرَجْتِي من بُغْضِ زوجٍ إلا حبًّا للَّه ورسولِه» وهو موجودٌ في بعضِ نسخ الترمذي(٢) كذلك.

وخرَّجه البزَّارُ في «مسندِه»(٣)، وابنُ جريرٍ وابنُ أبي حاتمٍ، ولفظُه: «حلَّفَها باللَّه ما خرجْتِي من بُغْضِ زوجٍ، وباللَّهِ ما خرجْتِي إلا حبًّا للَّه ورسولِه».

وخرَّج إبراهيم بنُ الجنيدِ الختليُّ في كتابِ «المحبة» بإسنادٍ ضعيفٍ عن أبي هريرةَ مرفوعًا قال: «الإيمانُ في قلْبِ الرَّجُلِ أنْ يُحِبَّ اللَّه عزَّ وجلَّ»، ومن مراسيل الزهريِّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «رأسُ الإيمانِ المحبَّةُ للَّه عزَّ وجلَّ، وطابعُ الإيمانِ البرُّ والعَدْلُ، وتحقيقُ الإيمانِ بإكرامِ ذي الدِّين وذي الشَّيْبَةِ».

---

(١) أخرجه: الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٢٥٧ ـ ٢٥٨).
(٢) «الجامع» (٣٣٠٨).
(٣) «كشف الأستار» (٢٢٧٢).

ومحبةُ اللَّهِ سبحانه وتعالى على درجتينِ:

إحداهُما: فرضٌ لازِمٌ: وهي أنْ يحبَّ اللَّه سبحانَهُ محبةً توجبُ لَهُ، محبةَ ما فرضَهُ اللَّهُ عليه، وبغضَ ما حرَّمه عليه، ومحبةً لرسولِهِ المبلغِ عنه أمرَهُ ونهيَهُ، وتقديمَ محبتِهِ على النفوسِ والأهلينَ أيضًا كما سبقَ، والرِّضا بما بلَّغَهُ عن اللَّهِ من الدِّينِ وتلقِّي ذلك بالرِّضا والتسليمِ، ومحبةَ الأنبياءِ والرسلِ والمتبعينَ لهم بإحسانٍ جملةً وعمومًا للَّه عزَّ وجلَّ، وبغضَ الكفارِ الفجارِ جملةً وعمومًا للَّه عزَّ وجلَّ، وهذا القدرُ لابُدَّ منه في تمامِ الإيمانِ الواجبِ، ومن أخَلَّ بشيءٍ منه فقدْ نقَصَ من إيمانِهِ الواجبِ بحسبِ ذلك. قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿**فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [النساء:٦٥] وكذلك ينقُصُ من محبتِهِ الواجبةِ بحسبِ ما أخَلَّ به من ذلكَ، فإنَّ المحبةَ الواجبةَ تقتضِي فِعلَ الواجباتِ وتركَ المحرَّماتِ.

وخرَّج أبو نعيمٍ[(١)] من حديثِ عمرَ بنِ الخطابِ ﷺ قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ: «**إنَّ سالمًا**» - يعني مولَى أبي حذيفةَ - «**شَدِيدَ الحبِّ للَّه لوْ كان لا يخافُ اللَّهَ ما عصاهُ**» يُشيرُ إلى أنَّ محبَّةَ اللَّه تمْنَعُهُ منْ أن يعصِيهُ، وذكرَ أبو عبيدٍ في «غريبِهِ» أنَّ عمرَ قال: «نعمَ العبدُ صهيبٍ لو لم يخَفِ اللَّهَ لم يعْصِه».

قال الحسنُ بنُ آدمَ: «أحبَّ اللَّهَ يحبَّك اللَّهُ، واعلمْ أنك لن تحبَّ اللَّه حتى تحبَّ طاعتَهُ».

وقال عبدُ اللَّهِ بنُ حنيفٍ: قال رجلٌ لرابعةَ: إني أحبُّك في اللَّه، قالتْ:

---

(١) «حلية الأولياء» (١/ ١٧٧).

«فلا تَعْصِي الذي أحببْتَنِي له».

وسئلَ ذو النونِ: متى أحبُّ ربي؟ قال: «إذا كان ما يبغِضُهُ عندك أمَرَّ من الصَّبر».

وقال بشر بن السري: «ليس من أعلامِ الحبِّ أن تحبَّ ما يبغِضُ».

وقال أبو يعقوب النهرجوري: «كلُّ من ادَّعى محبةَ اللَّهِ جلَّ جلالُهُ ولم يوافقِ اللَّهَ في أمرِهِ، فدعواهُ باطلةٌ، وكلُّ محبٍّ ليسَ يخافُ اللَّهَ فهو مغرورٌ».

وقال يحيى بن معاذٍ: «ليس بصادقٍ من ادَّعى محبةَ اللَّهِ ولم يحفظْ حدودَهُ».

وقال رويمٌ: «المحبةُ الموافقةُ في جميعِ الأحوالِ» وأنشد:

ولو قُلتَ لي: مِتْ، مِتُّ سمعًا وطاعةً   وقلتُ لداعِي الحقِّ: أهلاً ومرحبًا

وقد تقدَّم أنَّ العبدَ لا يجدُ حلاوةَ الإيمانِ حتَّى يحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا للَّه، وحتى يكره أن يرجعَ إلى الكفرِ، كما يكرَهُ أن يُلقى في النَّارِ، ولهذا المعنى كان الحبُّ في اللَّهِ والبغضُ في اللَّهِ من أصولِ الإيمانِ.

وخرَّج الترمذي(١) من حديثِ معاذِ بنِ أنسٍ الجهنيِّ عنِ النبيِّ ﷺ قال: «منْ أعْطى للَّهِ ومنَعَ للَّهِ، وأحبَّ للَّهِ، وأبْغَضَ للَّهِ، فقدْ استكْمَلَ إيمانَهُ»، وخرَّجه الإمامُ أحمدُ(٢) وزادَ فيه: «وأنكَحَ للَّهِ»، وفي لفظٍ له أيضًا(٣) أنَّ النبيَّ ﷺ سُئِلَ عن

---

(١) «الجامع» (٢٥٢١).
(٢) «المسند» (٣/٤٣٨ ـ ٤٤٠).
(٣) «المسند» (٥/٢٤٧).

أفضلِ الإيمانِ قال: «**أنْ تحبَّ للَّه وتُبْغِضَ للَّه وتعملَ لِسانَك في ذِكْرِ اللَّه**» وخرَّج أبو داود[١] من حديثِ أبي أمامةَ عنِ النبيِّ ﷺ قال: «**منْ أحبَّ للَّه وأبغضَ للَّه، وأعْطَى للَّه، ومنَعَ للَّه، فقدْ استكْمَلَ الإيمانَ**». ومن حديثِ أبي ذَرٍّ عن النبيِّ ﷺ قال: «**أفضَلُ الإيمانِ الحُبُّ في اللَّه، والبُغْضُ في اللَّه**»[٢]، وخرَّج الإمامُ أحمدُ[٣] من حديثِ البراء بنِ عازبٍ عنِ النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ أوثقَ عُرى الإيمان أنْ تُحبَّ في اللَّهِ وتبغضَ في اللَّه**»، ومن حديثِ عمرِو بنِ الجموحِ عنِ النبيِّ ﷺ قال: «**لا يجدُ العبْدُ حقَّ صريحِ الإيمانِ حتَّى يُحبَّ للَّهِ ويبْغِضَ للَّه، فإذا أحبَّ للَّه، وأبْغَضَ للَّه فقدْ استحقَّ الولايَةَ منَ اللَّهِ وإن أوْلِيائِي منْ عبادِي وأحبَّائِي منْ خلْقِي يُذْكَرُون بذِكْرِي وأُذْكَرُ بذكْرِهِم**»[٤].

وفي هذا المعنى أحاديثُ كثيرةٌ. وروى ليثٌ عن مجاهدٍ عن ابنِ عباسٍ قال: «منْ أحبَّ في اللَّهِ وأبغَضَ في اللَّهِ ووالَى في اللَّهِ وعادَى في اللَّه، فإنَّما تنالُ ولايةُ اللَّهِ بذلك، ولن يجدَ عبدٌ طعْمَ الإيمانِ وإنْ كثُرَتْ صلاتُهُ وصومُهُ حتى يكون كذلك، وقد صارَتْ عامَّةُ مُؤاخاةِ النَّاسِ على أمْرِ الدنيا وذلك لا يُجْدِي على أهلِهِ شيئًا». خرَّجه ابنُ جريرٍ الطبريُّ، وخرَّج أيضًا بإسنادِهِ عن ابنِ مسعودٍ، قال: «من أحبَّ للَّهِ وأبغضَ للَّه وأعْطى للَّه ومنعَ للَّهِ؛ فقدْ توسَّطَ الإيمان»، وخرَّج الحاكمُ[٥] من حديثِ عائشةَ ﵂ عن النبيِّ ﷺ قال: «**الشِّرْكُ أخْفى من دبيبِ النَّملِ على الصَّفَا في اللَّيْلَةِ الظَّلْماءِ، وأدْناهُ أن**

(١) «السنن» (٤٦٥٥).
(٢) «السنن» (٤٥٧٥).
(٣) «المسند» (٤/ ٢٨٦).
(٤) «المسند» (٣/ ٤٣٠).
(٥) «المستدرك» (٢/ ٢٩١).

تحبَّ على شيءٍ من الجُورِ وتُبغِضَ على شيءٍ من العدْلِ، وهلِ الدِّينُ إلا الحبُّ في اللَّهِ والبُغْضُ في اللَّهِ» قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، وقال: صحيحُ الإسنادِ وفيما قاله نظر.

ففي هذا الحديثِ أنَّ محبةَ ما يبغضهُ اللَّهُ وبغضَ ما يحبُّه اللَّه من الشركِ الخفيِّ، وروينا من طريقِ الأصمعيِّ عن سفيانَ عن ليثٍ عن مجاهد أنه قال في قولهِ تعالى: ﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور:٥٥] قال: «لا يحبُّون غيْرِي»(١) وحينئذٍ فلا يكملُ التوحيدُ الواجبُ إلا بمحبةِ ما يحبُّه اللَّهُ وبغضِ ما يبغضه اللَّهُ، وكذلك لا يتمُّ الإيمانُ الواجبُ إلا بذلك.

ومن هنا يُعلمُ أنَّ الإخلالَ ببعضِ الواجباتِ وارتكابِ بعضِ المحرَّماتِ ينقصُ به الإيمانُ الواجبُ بحسبِ ذلك، كما قال النبيُّ ﷺ: «**لا يزني الزَّاني حين يزني وهو مؤْمِنٌ**» الحديث(٢). وروى الإمامُ أحمدُ منْ طريقِ الربيعِ بنِ أنسٍ عن أبي العاليةَ عن أبيٍّ بنِ كعبٍ، قال: «منْ أصبحَ وأكبرُ همِّه غيرُ اللَّهِ فليسَ منَ اللَّهِ» وقد رُوي هذا مرفوعًا من حديثِ أنسٍ بأسانيدَ ضعيفةٍ(٣).

فهذه الدرجةُ من محبةِ اللَّهِ فرضٌ واجبٌ على كلِّ مسلمٍ وهي درجةُ المقتصدينَ أصحابِ اليمينِ.

الدرجة الثانية: درجةُ السابقينَ المقربين، وهي أن ترتقي المحبةُ إلى ما يحبُّه اللَّهُ من نوافلِ الطاعاتِ، وكراهةُ ما يكرهُهُ من دقائقِ المكروهاتِ، وإلى

---

(١) أخرجه: ابن جرير في «تفسيره» (١٨/ ١٦٠) ولكن بلفظ: «لا يخافون غيري».

(٢) أخرجه: البخاري (٣/ ١٧٨)، (٧/ ١٣٥)، (٨/ ١٩٥)، ومسلم (١/ ٥٤ - ٥٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٤٨) عن أنس مرفوعًا، والحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٥٦) من حديث ابن مسعود مرفوعًا.

الرِّضا بما يقدِّره ويقضِيه مما يؤلمُ النفـوسَ من المصائبِ، وهذا فضلٌ مستحبٌّ مندوبٌ إليه.

وفي «صحيحِ البخاريِّ»(١) عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «يقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: منْ عَـادَى لي وليًا فـقدْ آذنْتُهُ بالحـربِ، ما تقـرَّبَ إليَّ عبْـدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افْترضتُ عليه، ولا يزالُ عبـدِي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتى أحبَّهُ، فإذا أحبْبتُهُ كُنْتُ سمعَهُ الذي يسمعُ به، وبصرَه الذي يبصرُ به، ويدَه التي يبطشُ بها، ورِجْلَهُ التي يمشي بها، ولئن سـألنِي لأُعْطينَّهُ، ولئن استـعاذني لأعـيـذنَّه، وما تردَّدْتُ عن شيءٍ أنا فـاعلُهُ تردُّدِي عن قبْضِ نـفْسِ عبدِي المؤمنِ يـكْرَهُ الموْتَ وأنا أكرَهُ مُـساءَتَهُ» وقـد روي هذا المعنى عن النبيِّ ﷺ من حـديثِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ ﷺ وابنِ عـبـاسٍ، وأبي أمامـةَ وعائشةَ ﷺ، بأسانيدَ فيها نظرٌ.

وذكر ابنُ أبي الدنيا بإسنادِهِ عن سُهيلٍ أخي حزمٍ قال: بلَغَني عن عامرِ بنِ عبدِ قـيسٍ أنه كانَ يقول: «أحببتُ اللَّهَ عـزَّ وجلَّ حبًا سهَّلَ عليَّ كلَّ مصـيبةٍ ورضَّاني بكلِ قضيةٍ، فما أُبالي مع حُبِّـي إيَّاهُ ما أصبحتُ عليه وما أمسيتُ».

وقال إبراهيمُ بنُ الجنيدِ: حدثنا محمدُ بنُ الحـسنِ حدثني عبيدُ اللَّهِ بنُ محمدٍ التميميِّ أنَّ رجلاً قال لعـابدٍ: أوصِنِي، أوعظْنِي، فقال: «أيُّ الأعمالِ أغلبُ على قلبِكَ؟ فقـال الرجلُ: واللَّهِ ما أجدُ شـيئًا أنفع للمـحبِّ عند حبيـبِهِ من المبالغةِ في محبَّتِهِ، وهلْ تَدْرِي مـا ذلك؟ أن لا يعلمَ شيئًا فيه رضاهُ إلا أتاهُ، ولايعلمُ شيئًـا فيه سخطُهُ إلا اجتَنَبَهُ، فـعند ذلك ينزلُ المحبونَ من اللَّهِ منازلَ المحبةِ، قال: فصرخَ العابدُ والسائلُ وسقطا».

---

(١) (٨/ ١٣١).

وقد تبيَّنَ بما ذكرْنا أنَّ محبةَ اللَّهِ إذا صدقتْ أوجبتْ محبةَ طاعته وامتثالَها، وبغضَهُ معصيتَهُ واجتنابَها، وقد يقعُ المحبُّ أحيانًا في تفريطٍ في بعضِ المأموراتِ وارتكابٍ لبعضِ المحظوراتِ، ثمَّ يرجعُ على نفسِه بالملامةِ، وينزعُ عن ذلكَ ويتداركُه بالتوبةِ.

وفي «صحيحِ البخاريِّ»(١) أنَّ رجلاً كان يُؤتى به إلى النبيِّ ﷺ قد شربَ الخمرَ، فقال رجلٌ: اللَّهُمَّ العَنْهُ، ما أكثرَ ما يؤتَى به، فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«لا تَلْعَنْهُ؛ فإنَّه يحبُّ اللَّهَ ورسولَهُ»**.

وقد رُوي عن الشعبيِّ في قولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ**﴾ [البقرة:٢٢٢] قال: «التَّائِبُ من الذنبِ كمنْ لا ذنْبَ له، وإذا أحبَّ اللَّهُ عبدًا لم يضرَّه ذنْبُهُ»(٢) وعن عبدِ الرحمنِ بنِ زيدِ بنِ أسلمَ قال: إنَّ اللَّهَ تعالى ليحبُّ العبدَ حتى يبلغَ من حبِّهِ إذا أحبَّهُ أن يقولَ له: «اذْهَبْ فاعْمَلْ ما شئْتَ فقدْ غفرْتُ لك».

والمرادُ من هذا أنَّ اللَّهَ تعالى إذا أحبَّ عبدًا وقدَّر عليه بعضَ الذنوبِ فإنَّه يُقدِّر له الخلاصَ منها بما يمحوها من توبةٍ أو عملٍ صالحٍ أو مصائبَ مكفرةٍ، كما في الحديثِ عنِ النبيِّ ﷺ قال: «**أذْنَبَ عبدٌ ذنبًا فقال: أيْ ربِّي عملْتُ ذنبًا فاغْفِرْ لي**» فذكر الحديث إلى أن قال: «**فلْيَعْمَلْ ما شاءَ**»(٣). والمرادُ ما دام على هذا، كلما عملَ ذنبًا اعترفَ به وندمَ عليه واستغفرَ منه، فأمَّا مع الإصرارِ عليه فلا، وكذلك المحبةُ الصادقةُ الصحيحةُ تمنعُ من الإصرارِ على الذنوبِ،

---

(١) (٨/ ١٩٧).

(٢) أخرجه: وكيع في «الزهد» (٢٧٨).

(٣) أخرجه: البخاري (٩/ ١٧٨)، ومسلم (٨/ ٩٩).

وعدمِ الاستحياءِ من علاَّمِ الغيوبِ. وما أحسنَ قولَ بعضِهِم:

تعـصي الإلهَ وأنتَ تزعُمُ حُـبَّـه   هذا لَعـمري في الـقيـاسِ شنيعُ
لو كـان حُبُّكَ صـادقًـا لأطعتَـهُ   إنَّ المحـبَّ لمن يُـحِبُّ مـطيـعُ[١]

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾

[قال البخاريُّ][٢]: «بابُ: دخولِ المشْرِكِ المسْجِدَ»: حدثنا قُتيبةُ: ثنا الليثُ، عن سعيدِ بنِ أبي سعيدٍ، أنَّه سمعَ أبا هريرةَ يقولُ: بعثَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بخيْلٍ قِبَلَ نَجْدٍ، فجاءتْ برجُلٍ من بني حنيفةَ، يُقالُ له: ثُمامَةُ بنُ أُثالٍ، فربطوه بساريةٍ من سواري المسجدِ.

قد سبقَ هذا الحديثُ بأتمَّ من هذا السياقِ في «بابِ: الأسيرِ يُربطُ في المسجدِ»[٣]، وفيه: أنَّ ثمامةَ حين رُبط كان مشركًا، وأنه إنما أسلمَ بعد إطلاقِهِ.

وفي هذا دليلٌ على جوازِ إدخالِ المشركِ إلى المسجدِ، لكن بإذنِ المسلمينَ.

وقد أنزلَ النبيُّ ﷺ وفدَ ثقيفٍ في المسجدِ، ليكونَ أرقَّ لقلوبِهم.

خرَّجه أبو داود[٤] من روايةِ الحسنِ، عن عثمانَ بنِ أبي العاصِ.

(١) «استنشاق نسيم الأنس» (٣٣ ـ ٥٦).
(٢) (١/ ١٢٧).
(٣) (١/ ١٢٤).
(٤) (٣٠٢٦).

وروى وكيعٌ، عن سفيانَ، عن يونسَ، عن الحسنِ، قال: إنَّ وفدًا قدمُوا على النبيِّ ﷺ منْ ثقيفٍ، فدخلُوا عليه المسجدَ، فقيلَ له: إنَّهم مُشْركون؟ قال: «**الأرضُ لا ينجسها شيءٌ**».

وخرَّجه أبو داودَ في «المراسيلِ»[(١)] من روايةِ أشْعَث، عن الحسنِ، أنَّ وفْدَ ثقيفٍ قدِمُوا على رسولِ اللَّهِ ﷺ فضربَ لهم قُبَّةً في مُؤخَّرِ المسجدِ، لينظرُوا إلى صلاةِ المسلمينَ، إلى ركُوعِهِم، وسجودِهِم، فقيلَ: يا رسولَ اللَّه، أتنزِلُهُم المسجدَ وهم مُشرِكُون؟ قال: «**إنَّ الأرضَ لا تنْجُس، إنَّما ينجُسُ ابنُ آدمَ**».

وكذلك سائر وفودِ العربِ ونصارى نجرانِ، كلُّهم كانُوا يدخلونَ المسجدَ إلى النبيِّ ﷺ ويجلسونَ فيه عندَهُ.

ولما قدِمَ مشركُو قريشٍ في فداءِ أُسارى بدرٍ كانوا يبيتون في المسجدِ.

وقد روى ذلك الشافعيُّ بإسنادٍ له.

وقد خرَّج البخاريُّ[(٢)] حديثَ جبيرِ بنِ مُطْعِمٍ - وكان ممن قدِمَ في فداءِ الأُسارى - أنه سمعَ النبيَّ ﷺ يقرأُ في المغربِ بـ: «الطُّورِ»؛ قال: وكان ذلك أولَ ما وقرَ الإيمانُ في قلبِي.

وخرَّج البخاريُّ[(٣)] فيما سبقَ في «كتابِ: العلمِ» حديثَ دخولِ ضِمامِ بنِ ثعلبةَ المسجدَ، وعقلِهِ بعيرَهُ فيه، وسؤالِهِ النبيَّ ﷺ عن الإسلامِ، ثم أسلْمَ عقبَ ذلكَ.

---

(١) «المراسيل» (١٧).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ١٩٤)، (٤/ ٨٤)، (٦/ ١٧٥)، ومسلم (٢/ ٤١).

(٣) «صحيح البخاري» (١/ ٢٤ - ٢٥).

وروى أبو داود في «المراسيلِ»[1] بإسنادِهِ عن الزهريِّ، قال: أخبرني سعيدُ ابنُ المسيَّبِ، أنَّ أبا سفيانَ كان يدْخُلُ المسجدَ بالمدينةِ وهو كافرٌ، غيرَ أنَّ ذلك لا يصلُحُ في المسجدِ الحرامِ، لما قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا**﴾ [التوبة:٢٨].

وقد اختلفَ أهلُ العلمِ في ذلكَ:

فرَخَّصَ طائفةٌ منهم في دخولِ الكافرِ المسجدِ، وهو قولُ أبي حنيفةَ والشافعيِّ، وحُكيَ روايةً عن أحمدَ، رجَّحها طائفةٌ من أصحابِنا.

قال أصحابُ الشافعيِّ: وليسَ له أن يدخلَ المسجدَ إلا بإذنِ المسلمِ ووافقَهُم طائفةٌ من أصحابِنا على ذلكَ.

وقال بعضُهم: لا يجوزُ للمسلمِ أن يأذنَ فيه إلا لمصلحةٍ من سماعِ قرآنٍ، أو رجاءِ إسلامٍ، أو إصلاحِ شيءٍ ونحوِ ذلك، فأمَّا لمجردِ الأكلِ واللُّبْثِ والاستراحةِ فلا.

ومن أصحابِنا: من أطلقَ الجوازَ، ولم يقيدْهُ بإذنِ المسلمِ.

وهذا كلُّه في مساجدِ الحلِّ، فأمَّا المسجدُ الحرامُ فلا يجوزُ للمسلمينَ الإذنَ في دخولِهِ للكافرِ، بل لا يمكَّنُ الكافرُ من دخولِ الحرمِ بالكليّةِ عند الشافعيِّ وأحمدَ وأصحابِهما.

واستدلُّوا بقولِ اللَّه تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا**﴾ [التوبة:٢٨] وكانَ النبيُّ ﷺ أمرَ مناديًا يُنادِي: «**لا يحُجُّ بعْدَ العامِ مُشْرِكٌ**»[2].

---

(١) «المراسيل» (١٨).

(٢) أخرجه: البخاري (١/١٠٣)، ومسلم (٤/١٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأجازَه أبو حنيفةَ وأصحابُهُ.

فأمَّا مسجدُ المدينةِ، فالمشهورُ عندنا وعند الشافعية أنَّ حُكْمَهُ حكم مساجد الحِلِّ.

ولأصحابِنا وَجْهٌ: أنه مُلْحَقٌ بالمسجدِ الحرامِ؛ لأنَّ المدينةَ حَرَمٌ، وحُكي عن ابنِ حامدٍ، وقاله القاضي أبو يعْلى في بعضِ كتبِهِ.

وهذا بعيدٌ؛ فإنَّ الأحاديث الدالةُ على الجوازِ إنما وردت في مسجدِ المدينةِ بخصوصِهِ، فكيفَ يمنع منه ويخصُّ الجوازُ بغيره؟

وقالتْ طائفةٌ: لا يجوزُ تمكينُ الكافرِ من دخولِ المساجدِ بحال، وهذا هو المرويُّ عن الصحابةِ، منهم: عمرُ، وعليٌّ، وأبو موسى الأشعريُّ، وعن عمرَ ابنِ عبدِ العزيزِ، وهو قولُ مالك، والمنصوصُ عن أحمدَ، قال: لا يدخلونَ المسجدَ ولا ينبغي لهم أن يدخلُوهُم.

واستدلُّوا بقولِ اللَّهِ تعالى: ﴿**وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ**﴾ [البقرة:١١٤].

وظاهرُهُ: يدلُّ على أنَّ الكفارَ لا يُمكنونَ من دخولِ المساجدِ، فإنْ دخلوا أُخيفُوا وعُوقِبوا، فيكونونَ في حالِ دخولِهِم خائفينَ من عقوبةِ المسلمينَ لَهُم.

وقد رُوي عن عليٍّ، أنَّه كان على المنبرِ فبَصُرَ بمجوسي، فنزل وضربَه وأخرجه.

خرَّجه الأثْرَمُ.

وعلى هذا القولِ، فأحاديثُ الرُّخْصةِ قد تُحملُ على أنَّ ذلك قبلَ النهي عنه، أو أنَّ ذلك كانَ جائزًا حيث كان يحتاجُ إلى تألُّفِ قلوبِهِم،

وقد زالَ ذلكَ.

وفرَّقتْ طائفةٌ بين أهلِ الذِّمةِ وأهلِ الحربِ، فقالُوا: يجوزُ إدخالُ أهلِ الذِّمَّةِ دونَ أهلِ الحربِ، ورُوي عن جابرِ بنِ عبدِ اللَّه وقتادةَ.

وروى عبدُ الرزاقِ[1]، عن ابنِ جُريجٍ: أخبرني أبو الزبير، أنه سمع جابرَ بنَ عبدِ اللَّه يقولُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [التوبة:٢٨] قال: إلا أن يكونَ عبْدًا أو أحدًا من أهلِ الذِّمَّة.

وقد رُويَ مرفوعًا من روايةِ شريكٍ: ثنا أشعثُ بن سوَّارٍ، عن الحسنِ، عن جابرٍ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: **«لا يدخلْ مسجدَنا هذا مشركٌ بعد عامِنَا هذا، غير أهلِ الكتابِ وخدمِهِم»**.

خرَّجه الإمامُ أحمدُ[2].

وفي روايةٍ له: **«غيرَ أهلِ العهدِ وخدمِهِم»**.

وأشعثُ بنُ سوَّار، ضعيفُ الحديثِ.

وقد خصَّ بعضُ أصحابِنا حكايةَ الخلافِ المحكي عن أحمدَ فى المسألة بأهلِ الذِّمَّة[3].

* * *

(١) «المصنف» (٩٩٨٢).

(٢) «المسند» (٣/ ٣٣٩ ـ ٣٩٢).

(٣) «فتح الباري» (٢/ ٥٦٠ ـ ٥٦٤).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيراً مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾

وفي الحديثِ المشهورِ عن ثوبانَ أنَّه قال: لمَّا نزلتْ هذه الآيةُ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾ [التوبة:٣٤]، فقال النبيُّ ﷺ: «تبًّا للذهب والفضة»، قالُوا: يا رسولَ اللَّهِ، فما نتخذُ؟ قال: «ليتخذْ أحدُكم قلبًا شاكرًا، ولسانًا ذاكرًا، وزوجةً صالحةً تُعين أحدَكُم على إيمانه»[1].

قال بعضُهم: إنَّما سُمِّيَ الذهبُ ذهبًا، لأنه يذهبُ، وسمِّيت الفضةُ فضةً لأنها تنفضُّ، يعني تنفضُّ بسرعةٍ، فلا بقاءَ لهُمَا، فمن كنزَهُما فقد أرادَ بقاءَ ما لا بقاءَ له، فإن نفعَهُما ما هو إلا بإنفاقهما في وجوهِ البِرِّ وسبلِ الخيرِ.

وقال الحسنُ: بئسَ الرفيقُ الدرهمُ والدينارُ؛ لا ينفعانكَ حتَّى يفارقانكَ، فما داما مكنوزينِ فما يضرانِ ولا ينفعانِ، وإنَّما نفعُهُما بإنفاقهما في الطاعاتِ، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة:٣٤]، والآيةُ ذمٌّ ووعيدٌ لمنْ يمنعُ حقوقَ مالهِ الواجبةِ من الزكاةِ وصلةِ الرَّحمِ وقِرى الضيفِ والإنفاقِ في النوائبِ.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[2] عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «ما من صَاحِبِ

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٧٨ ـ ٢٨٢)، والترمذي (٣٠٩٤)، وابن ماجه (١٩٥٦).
(٢) (٣/ ٧٠ ـ ٧١).

ذهبٍ ولا فضةٍ لا يؤدِّي منْها حقَّها إلا إذا كان يومُ القيمة صُفِّحت له صفائحُ من نارٍ فأحمي عليها في نارِ جهنَّم، فيكوى بها جنبُه وجبينُهُ وظهرُه، كلما بردَتْ أعيدت له، في يومٍ كان مقدارُهُ خمسين ألف سنةٍ، حتى يقضى بين العبادِ، فيرى سبيلَهُ إمَّا إلى الجنةِ وإمَّا إلى النارِ».

وفي «صحيحِ البخاريِّ»(١) عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «من آتاهُ اللَّهُ مالاً فلم يُؤدِّ زكاتَهُ مُثِّلَ له يومَ القيامةِ شجاعًا أقرعَ له زبيبتان يُطوَّقه يومَ القيامة ثم يأخذُ بلهزمتيه، يعني شدقيه، ثم يقول: أنا مالُكَ، أنا كنزك» ثم تلا: ﴿وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٨٠].

وفيه أيضًا(٢) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «يكون كنزُ أحدكم يومَ القيامة شجاعًا أقرع يفرُّ منه يومَ القيامةِ، ويطلبُهُ، ويقول: أنا كنزُكَ، فلا يزالُ يطلبُهُ حتى يبسطَ يدَهُ فيُلقمها فاه».

وفي «صحيحِ مسلمٍ»(٣) عن جابرٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «ما من صاحبِ كنزٍ لا يفعلُ فيه حقَّهُ إلا جاءَ كنزهُ يومَ القيامةِ شجاعًا أقرعَ يتبعُهُ فاتحًا فاهُ، فإذا أتاهُ فرَّ منهَ، فيناديه: خُذْ كنزَكَ الذي خبَّأتَهُ فأنا عنه غني، فإذا رأى أن لا بدَّ له منه سلكَ يدَهُ في فيه فيقضمها قضمَ الفحْلِ» والشجاعُ: الحيَّةُ الذكرُ، والأقرعُ: الذي قد تمعَّطَ شعر فروةِ رأسِهِ لكثرةِ سمِّهِ.

فلهذا وردَ الشرعُ باكتنازِ ما يبقى نفعُهُ بعد الموتِ من الإيمانِ والأعمالِ

---

(١) (٢/ ١٣٢)، (٦/ ٤٩).

(٢) «صحيح البخاري» (٦/ ٨٢)، (٩/ ٣٠).

(٣) (٣/ ٧٣).

الصالحةِ والكلماتِ الطيبةِ، فإنَّ نفعَ ذلك يبقَى وبه يحصلُ الغنى الأكبرُ، قال ابنُ مسعودٍ: نعمَ كنزُ الصعلوكِ سورةُ آلِ عمرانَ يقومُ بها من آخرِ الليلِ، وآخرُ سورةِ البقرةِ من كنزٍ تحتَ العرشِ أعطيتْه هذه الأُمَّةُ مع سورة الفاتحةِ، ولا حولَ ولا قوَّة إلا باللَّه كنزٌ من كنوزِ الجنةِ.

وفي بعضِ الآثارِ الإسرائيليةِ: كنزُ المؤمنِ ربُّه، يعني أنه لا يكنزُ سوى طاعتهِ وخشيتهِ ومحبتهِ والتقربِ إليهِ، فمن كانَ كنزُهُ ربَّه وجدَهُ وقتَ حاجته إليه، كما في وصيةِ النبيِّ ﷺ لابنِ عباسٍ: «**احفظ اللَّهَ يحفَظك، احفظ اللَّهَ تجدْهُ أمامَك، تعرَّف إلى اللَّهِ في الرَّخاء يعرفكَ في الشِّدة**»[1] .

أنت كنزي، أنت ذخري، أنت عزِّي، كيف أخشى الفقرَ إذا كنتَ أمني عند فقري، من كانَ اللَّهُ كنزَه فقد ظفرَ بالغنى الأكبرِ، قال بعضُ العارفينَ:

من استغْنَى باللَّهِ أَمِنَ من العدمِ ومن لَزِمَ البابَ أُثْبِتَ في الخَدَمِ
ومن أكثرَ ذكرَ الموتِ أكثرَ من الندمِ تنقَضِي الدُّنيا والفتى فيها معنَّا
ليسَ في الدنيا نعيمٌ ولاعيشٌ مهنَّا يا غنيًّا بالدنانيرِ فحبُّ اللَّهِ أغنى[2]

* * *

قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾

قال عليُّ بنُ أبي طلحة عن ابنِ عباسٍ في هذهِ الآيةِ: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٦٩ ـ ٢٧٠ ـ ٢٨٦ ـ ٢٨٨).
(٢) «شرح حديث شدَّاد بن أوس» (١٥ ـ ٢١).

أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦] في كلِّهنَّ، ثم اختصَّ مِنْ ذلك أربعةَ أشهرٍ، فجعلهنَّ حرمًا، وعظَّمَ حُرماتهنَّ، وجعل الذَّنبَ فيهنَّ أعظمَ، والعملَ الصالحَ والأجرَ أعظمَ[١].

وقال قتادةُ في هذه الآية: اعلمُوا أنَّ الظلمَ في الأشهرِ الحُرُم أعظمُ خطيئةً ووزرًا فيما سوى ذلك، وإن كان الظُّلمُ في كلِّ حالٍ غيرَ طائلٍ، ولكنَّ اللَّهَ تعالى يُعظِّم من أمرِهِ، ما يشاءُ ربُّنا تعالى[١].

وقد رُوي في حديثينِ مرفوعينِ أنَّ السيئاتِ تُضاعفُ في رمضانَ، ولكن إسنادهُما لا يصحُّ[٢].

* * *

خرَّجا في «الصحيحين»[٣] من حديث أبي بكرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ خطبَ في حجَّةِ الوداعِ، فقالَ في خطبته: «**إنَّ الزَّمانَ قد اسْتَدارَ كهيئتِه يومَ خلقَ اللَّه السماواتِ والأرضِ، السَّنةُ اثنا عشرَ شهرًا، منها أربعة حرمٌ: ثلاثةٌ متوالياتٌ: ذو القعْدة وذو الحجَّة، والمحرَّمُ، ورجَبُ مُضرَ الذي بين جُمادى وشعبانَ**» وذكر الحديثَ.

قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿**إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ**﴾ [التوبة:٣٦]. فأخبر سبحانه أنَّه مُنذُ خلقَ السماواتِ والأرضَ وخلقَ اللَّيلَ والنَّهارَ يدُورانِ في الفلكَ وخلقَ ما في السَّماءِ من الشَّمسِ والقمرِ والنُّجومِ، وجعلَ

---

(١) أخرجهما: ابن جرير في «التفسير» (١٠/ ١٢٦ ـ ١٢٧).
(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣٤٢).
(٣) أخرجه: البخاري (١/ ٣٦ ـ ٣٧)، (٢/ ٢١٦)، (٤/ ١٣٠) (٥/ ٢٢٤) (٦/ ٨٣) (٧/ ١٢٩)، (٩/ ٦٣ ـ ١٦٣)، ومسلم (٥/ ١٠٧ ـ ١٠٨ ـ ١٠٩).

الشَّمسَ والقمر يسبحان في الفلك، فـينشأ منهما ظلمةُ اللَّيلِ وبياضُ النهارِ، فمن حينئذٍ جعلَ السَّنة اثنى عشر شهرًا بحسبِ الهلالِ.

فالسنةُ في الشرع مُقدَّرةٌ بسيرِ القمـرِ وطلوعِهِ، لا بسيرِ الشمسِ وانتقالها، كما يفعلُه أهلُ الكتابِ.

وجعلَ اللَّهُ تعـالى من هذهِ الأشهرِ أربعةَ أشـهرٍ حُرُمًا، وقد فـسَّرَها النبيُّ ﷺ في هذا الحديثِ، وذكرَ أنَّهـا ثلاثةٌ متوالياتٌ، ذو القعـدةِ، وذو الحجَّةِ، والمُحرَّمُ، وواحدٌ فردٌ، وهو شهرُ رجبٍ.

وهذا قد يسـتدلُّ به من يقولُ: إنها من سنتين، وقـد رُوي من حديثِ ابنِ عمرَ مرفوعًا: «أولُهـنَّ رجبٌ»، وفي إسنادِهِ موسى بن عُـبيدةَ، وفيـه ضعفٌ شديدٌ من قِـبلِ حفْظِهِ، وقد حُكيَ عن أهلِ المدينةِ أنهـم جعلوها من سنتين، وأنَّ أولَّها ذو القـعدةِ، ثم ذو الحـجَّةِ، ثم المحرَّمُ، ثم رجـبٌ، فيكونُ رجبٌ آخرَها.

وعن بعضِ المدنيينَ أنَّ أولَّـها رجبٌ، ثـم ذو القعـدةِ، ثم ذو الحـجَّـةِ ثم المُحـرَّمُ. وعن بعضِ أهلِ الكوفةِ أنـها من سنةٍ واحـدةٍ، أولُّها المُحـرَّمُ، ثم رجبٌ، ثم ذو القـعدة، ثم ذو الحِـجَّةِ. واختُلِـفَ في أيِّ هذه الأشهـرِ الحرُمُ أفضلُ؛ فقيل: رجبٌ، قاله بعض الشافعـيةِ، وضعَّفَه النوويُّ وغيرُه. وقيل: المُحَرَّمُ، قاله الحسنُ، ورجَّحَه النوويُّ. وقيل: ذو الحِجَّة، رُوي عن سعيدِ بنِ جبيرٍ وغيرِهِ، وهو أظهرُ، واللَّهُ أعلمُ.

وقوله ﷺ: «**إنَّ الزَّمان استدارَ كهيـئتِه يوم خلقَ اللَّه السموات والأرضَ، السَّنةُ اثنا عشرَ شهرًا**» مُرادُهُ بذلك إبطالُ ما كـانتِ الجاهليةُ تفعلُه من النَّسيء، كـما قال

تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾ [التوبة:٣٧].

وقد اختُلِفَ في تفسيرِ النَّسيء(١)، فقالت طائفةٌ: كانوا يُبدلُون بعضَ الأشهرِ الحُرُم بغيرِها من الأشهرِ، فيحرِّمُونها بدلها، ويُحلُّون ما أرادُوا تحليلَه من الأشهرِ الحُرُم إذا احْتاجُوا إلى ذلك، ولكن لا يزيدونَ في عددِ الأشهر الهلالية شيئًا. ثم من أهلِ هذه المقالةِ من قال: كانوا يُحلُّون المُحرَّمَ فيستحلون القتالَ فيه؛ لطول مدَّة التَّحريم عليهم بتوالي ثلاثةِ أشهرٍ مُحرَّمةٍ، ثم يحرِّمونَ صفَرًا مكانَهُ، فكأنَّهم يقترضونَه ثم يوفونَه، ومنهم من قال: كانوا يحلُّون المُحرَّمَ مع صَفَرٍ من عامٍ ويُسمُّونَهما صفرينِ، ثم يحرِّمُونهما من عامٍ قابل ويسمُّونهما محرَّمين قاله ابن زيدِ بنِ أسلمَ.

وقيل: بل كانوا ربَّما احْتاجُوا إلى صفرَ أيضًا فأحلُّوه وجعلُوا مكانَه ربيعًا، ثم يدورُ كذلك التَّحريمُ والتَّحليلُ والتأخيرُ، إلى أن جاء الإسلامُ ووافَقَ حجَّةَ الوداع، صارَ رجوعُ التَّحريمِ إلى مُحرَّم الحقيقيّ، وهذا هو الذي رجَّحه أبو عُبيد، وعلى هذا فالتَّغييرُ إنَّما وقع في عيْنِ الأشهُر الحُرُمِ خاصةً. وقالت طائفةٌ أخرى: بلْ كانوا يزيدونَ في عددِ شهورِ السنة، وظاهرُ الآية يُشعر بذلك، حيث قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ [التوبة:٣٦] فذكرَ هذا توطئةً لهَدْمِ النَّسيءِ وإبطالِه.

ثم مِنْ هؤلاءِ من قال: كانوا يجعلُون السنة ثلاثةَ عشرَ شهرًا، قاله مجاهدٌ وأبو مالكٍ، قال أبو مالكٍ: كانوا يجعلون السنةَ ثلاثةَ عشرَ شهرًا. ويجعلونَ

(١) راجع أقوال أهل العلم في تفسير معنى «النسيء» في «تفسير الطبري» (١٠/ ١٣٠ - ١٣٢).

المُحرَّمَ صَفَرًا. وقال مجاهدٌ: كانوا يُسقطون المُحرَّمَ، ثم يقولون: صَفَرينِ، لصفرَ وربيع الأوَّلِ وربيع الآخر، ثم يقولونَ: شهرا ربيع، ثم يقولون: لرمضان: شعبانُ، ولشوال: رمضانُ، ولذي القعْدة: شوالٌ، ولذي الحجَّة: ذو القعْدة، على وجهِ ما ابتدأوا وللمحرَّمِ: ذو الحجَّةِ، فيعدونَ ما ناسؤوا على مستقبلِه، على وجه ما ابتدأوا.

وعنه، قال: كانتِ الجاهليةُ يحجُّون في كلِّ شهرٍ من شهورِ السنةِ عامينِ، فوافَقَ حجُّ رسولِ اللَّهِ ﷺ في ذي الحِجَّةِ، فقال: «**هذا يومٌ اسْتدارَ الزَّمانُ كهيئتِهِ يومَ خلقَ اللَّهُ السماواتِ والأرضَ**».

ومن هؤلاء من قالَ: كانتِ الجاهليةُ يجعلونَ الشهورَ اثنى عشر شهرًا وخمسةَ أيامٍ، قالهُ إياسُ بنُ معاويةَ، وهذا العددُ قريبٌ من عددِ السنةِ الرُّوميةِ، ولهذا جاء في مراسيلِ عكرمة بنِ خالدٍ أنَّ النبيَّ ﷺ، قال في خُطبتِه يومَ النحر: «**والشهر هكذا، وهكذا، وهكذا، وخنَسَ إبهامَه في الثالثةِ، وهكذا وهكذا، وهكذا**» يعني: ثلاثينَ، فأشارَ إلى أن الشَّهرَ هلاليٌّ.

ثم تارةً ينقُصُ وتارةً يتمُّ، ولعلَّ أهلَ النَّسِيء كانُوا يُتمُّونَ الشهورَ كلَّها، ويزيدونَ عليْهَا، واللَّه أعلم.

وقد قيل: إنَّ ربيعةَ ومضَرَ كانوا يُحرِّمون أربعةَ أشهرٍ من السنةِ مع اختلافِهِم في تعيينِ رجبٍ منها، كما سنذكرُهُ إن شاء اللَّهُ تعالى. وكانت بنُو عوفِ بنِ لُؤيٍّ يحرِّمون من السنةِ ثمانيةَ أشهرٍ، وهذا مبالغةٌ في الزيادةِ على ما حرَّمه اللَّهُ.

واختلفُوا في أيِّ عامٍ عاد الحجُّ إلى ذي الحجَّةِ على وجهِهِ، واسْتدارَ الزَّمانُ

فيه كهيئتِهِ، فقالت طائفةٌ: إنَّمـا عادَ على وجهه في حجَّةِ الوداعِ، وأما حجةُ أبي بكرٍ الصدّيقِ ﷺ، فكانت قد وقعت في ذي القعـدةِ، هذا قولُ مجاهدٍ وعكرمةَ بن خالد وغيرِهما، وقيل: إنَّه اجْتَمَعَ في ذلك العامِ حجُّ الأممِ كلِّها في وقتٍ واحدٍ، فلذلك سُمِّيَ يومَ الحجِّ الأكبرِ.

وقالتْ طائفةٌ: بل وقعَتْ حجَّةُ الصِّدِّيقِ في ذي الحجةِ، قالهُ الإمامُ أحمدُ، وأنكرَ قولَ مجاهدٍ، واستدلَّ بأنَّ النبيَّ ﷺ أمرَ عليًّا فنادى يوم النَّحْرِ: «**لا يحجُّ بعد العـامِ مشرِكٌ**» وفي روايةٍ: «**واليـومُ يوم الحَجِّ الأكبـرِ**» وقد قـالَ اللَّهُ تعالى: ﴿**وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ**﴾ [التوبة:٣]، فسـمَّاهُ يومَ الحجِّ الأكبـرِ، وهذا يدلُّ على أنَّ النِّداءَ وقَعَ في ذي الحجَّةِ.

وخرَّج الطبرانيُّ في «أوسطه»(١) من حديثِ عمرِو بنِ شـعيبٍ، عن أبيه، عن جدِّه قال: كان العـربُ يُحِلُّون عامًا شهرًا، وعامًا شهـرين، ولا يُصيبون الحجَّ إلا في كلِّ ستةٍ وعشـرين سنة مرةً واحدةً، وهو النَّسيءُ الذي ذكرَهُ اللَّهُ في كتابـه، فلما كان عام حجَّ أبو بكر الصـديقُ بالناس، وافَقَ في ذلك العامِ الحجَّ، فسمَّاه اللَّهُ يوم الحجِّ الأكبر.

ثم حجَّ النبيُّ ﷺ في العامِ المُقْبلِ، فاستقبَلَ النَّاسُ الأهلَّةَ، فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إنَّ الزمانَ قـد استَـدارَ كهـيئتِـهِ يومَ خلقَ اللَّه السـماوات والأرضَ**» وقيل: بل استْدارَةُ الزَّمانِ كهيئتِهِ كانَ من عام الفتحِ.

وخرَّجَ البزارُ في «مسندِه»(٢) من حديثِ سُمرةَ بن جُنْدَبٍ أنَّ رسـولَ اللَّهِ

---

(١) (٢٩٠٩).

(٢) عزاه الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٧) للبزار.

ﷺ قال: لهم يومَ الفتحِ: «**إنَّ هذا العامَ الحجُّ الأكبرُ، قد اجتمعَ حجُّ المسلمينَ وحجُّ المشركينَ في ثلاثةِ أيامٍ متتابعات، واجتمعَ حجُّ اليهودِ والنَّصارى في ستَّةِ أيامٍ متتابعات، ولم يجتمعْ مُنْذُ خلقَ اللَّه السماواتِ والأرضَ، ولا يجتمعُ بعدَ العامِ حتَّى تقومَ السَّاعة**».

وفي إسنادِهِ يوسف السَّمْتِيُّ، وهو ضعيفٌ جدًّا، واختلفُوا لم سُميتْ هذه الأشهرُ الأربعةُ حُرُمًا؟.

فقيل: لعظمِ حُرمتِها وحُرمة الذَّنْبِ فيها.

قال عليُّ بنُ أبي طلحةَ، عن ابنِ عباسٍ: اختصَّ اللَّهُ أربعةَ أشهر جعلهُنَّ حُرمًا، وعظَّمَ حُرماتهنَّ، وجعل الذَّنْبَ فيهنَّ أعظمَ، وجعلَ العملَ الصالحَ والأجر أعظم. قال كعبٌ: اختارَ اللَّهُ الزمان، فأحبُّهُ إلى اللَّه الأشهرُ الحُرُمُ. وقد رُوي مرفوعًا، ولا يصحُّ رفعُهُ.

وقد قيلَ في قولِهِ تعالى: ﴿**فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ**﴾ [التوبة:٣٦]: إنَّ المرادَ في الأشهرِ الحُرمِ، وقيل: بل في جميعِ شُهورِ السنةِ. وقيل: إنَّما سُمِّيتْ حُرُمًا لتحريمِ القتالِ فيها، وكان ذلك معروفًا في الجاهليةِ. وقيلَ: إنَّه كان في عهدِ إبراهيمَ ـ عليه السلامُ ـ، وقيلَ: إنَّ سبب تحريمِ هذه الأشهرِ الأربعةِ بينَ العربِ لأجلِ التمكُّن منَ الحجِّ والعُمْرةِ، فحُرِّمَ شهرُ ذي الحجَّةِ، لوقوعِ الحجِّ فيه، وحُرِّم معه شهرُ ذي القعدة، للسَّيْرِ فيه إلى الحجِّ. وشهرُ المحرَّمِ، للرجوعِ فيه من الحجِّ، حتى يأمَنَ الحاجُّ على نفسِهِ من حين يخرُجُ من بيتِهِ إلى أن يرجعَ إليه. وحُرِّمَ شهرُ رجبٍ، للاعتمارِ فيه في وسطِ السَّنةِ، فيعتمرُ فيه مَنْ كان قريبًا من مكّةَ.

وقد شرع اللّهُ في أولِ الإسلامِ تحريمَ القتالِ في الشهرِ الحرام، قال تعالَى:

﴿لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ﴾ [المائدة:٢] ، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة:٢١٧].

وخرَّجَ ابنُ أبي حاتمٍ بإسنادهِ عن جُنْدُبِ بنِ عبدِ اللَّهِ أنَّ النبيَّ ﷺ بعثَ رهطًا وبعثَ عليهم عبدَ اللَّهِ بنَ جَحْشٍ، فلقوا ابنَ الحضْرميِّ فقتلُوه، ولم يدْرُوا أنَّ ذلك من رجبٍ أو من جُمادى، فقال المشركونَ للمسلمينَ: قتلتُم في الشهرِ الحرامِ، فأنزلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢١٧] الآية.

وروى السُّدِّيُّ عن أبي مالكٍ، وعن أبي صالحٍ، عن ابنِ عباسٍ، وعن مُرَّةَ، عن ابنِ مسعودٍ في هذه الآيةِ، فذكروا هذه القصةَ مبسوطةً، وقالُوا فيها: فقال المشركونَ: يزعمُ محمدٌ يتبعُ طاعةَ اللَّهِ وهو أوَّلُ من استحلَّ الشهرَ الحرامَ، فقال المسلمونَ: إنَّما قتلناه في جُمَادى.

وقيلَ: في أولِ رجبٍ وآخرِ ليلةٍ من جُمَادى، وغَمَدَ المسلمونَ سيوفَهم حين دخل شهرُ رجبٍ، وأنزلَ اللَّهُ تعالى تعييرًا لأهلِ مكَّةَ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [البقرة:٢١٧] لا يحلُّ، وما صنعتم أنتم يا معشرَ المشركينَ أكبرُ من القتلِ في الشَّهرِ الحرامِ، حين كفرتم باللَّه، وصددتُم عن محمدٍ وأصحابِهِ، وإخراج أهلِ المسجدِ الحرامِ حينَ أخْرَجُوا منه محمدًا ﷺ أكبرُ منَ القتلِ عندَ اللَّهِ.

وقد رُوي عن ابنِ عباسٍ هذا المعنى من روايةِ العوفيِّ عنه، ومن روايةِ أبي سعد البقالِ، عن عكرمةَ ، عنه.

ومن روايةِ الكلبيِّ، عن أبي صالح، عنه.

وذكر ابنُ إسحاقَ أنَّ ذلك كان في آخر يوم من رجبٍ، وأنَّهم خافوا إنْ أخَّرُوا القتالَ أن يسبقَهم المشركونَ فيدخلوا الحرَمَ فيأمَنُوا.

وأنَّهم لَمَّا قدِمُوا على النبيِّ ﷺ قال لهم: «**ما أمرتُكُم بالقتالِ في الشهرِ الحرامِ، ولم يأخذْ من غنيمتهم شيئًا**» وقالتْ قريشٌ: قد استحلَّ محمدٌ وأصحابُهُ الشهرَ الحرامَ، فقال مَنْ بمكَّةَ من المسلمينَ: إنَّما قتلُوهم في شعبانَ.

فلمَّا أكثرَ الناسُ في ذلك نزلَ قولُهُ تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ**﴾ [البقرة:٢١٧] الآية.

ورُوي نحوُ هذا السياقِ عن عروةَ، والزُّهريِّ وغيرِهما. وقيلَ: إنَّها كانت أولَ غنيمةٍ غنِمَها المسلمونَ، وقال عبدُ اللَّهِ بنُ جحشٍ في ذلك، وقيل: إنَّها لأبي بكرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه.

تعُدُّونَ قتلاً في الحرامِ عظيمةً ... وأعْظَمُ منه لو يَرى الرُّشدَ راشِدُ
صدودُكُمُ عمَّا يقولُ محمدٌ ... وكُفْرٌ به واللَّه راءٍ وشاهدُ
وإخْراجُكُم من مسجدِ اللَّهِ أهلَهُ ... لئلاَّ يُرَى للَّهِ في البيْتِ ساجِدُ

في أبياتٍ أخرَ.

وقد اختلفَ العلماء في حكم القتالِ في الأشهرِ الحُرُمِ، هل تحريمُهُ باقٍ أمْ نُسِخَ، فالجمهورُ على أنَّه نُسِخَ تحريمُهُ، ونصَّ على نسخِهِ الإمامُ أحمدُ وغيرُهُ من الأئمةِ. وذهب طائفةٌ من السَّلَفِ، منهم عطاءٌ، إلى بقاءِ تحريمِهِ، ورجَّحه بعضُ المتأخرين واستدلُّوا بآية المائدةِ. والمائدةُ من آخرِ ما نزلَ من القرآنِ، وقد

رُوِي: «أحِلُّوا حلاَلَها وحرِّمُوا حرامَهَا» .

وقيل: ليس فيها منسوخٌ. وفي «المسندِ»(١) أنَّ عائشةَ ﵂، قالتْ: «هي آخرُ سورةٍ نزلتْ، فما وجدتُم فيها من حلالٍ فاستْحِلُّوه، وما وجدتُم فيها من حرامٍ فحرِّمُوه» وروى الإمامُ أحمدُ في «مسنده»(٢): حدثنا إسحاقُ بنُ عيسى، حدثنا ليثُ بنُ سعدٍ، عن أبي الزُّبير، عن جابرٍ، قال: لم يكن رسولُ اللَّهِ ﷺ يَغْزُو في الشَّهرِ الحرامِ إلا أنْ يُغْزَى ويَغزو فإذا حضرَهُ أقامَ حتَّى ينسلخَ.

وذكر بعضُهم أنَّ النبيَّ ﷺ حاصرَ الطائفَ في شوَّالٍ، فلمَّا دخلَ ذو القعدةِ لم يُقاتِلْ، بل صابرَهُم، ثم رجعَ. وكذلك في عمرةِ الحديبية لم يُقاتِلْ، حتّى بلغه أنَّ عثمانَ قُتِلَ، فبايَعَ على القتالِ، ثم لمَّا بلغَه أنَّ ذلك لا حقيقةَ له كفَّ، واستدلَّ الجمهورُ بأنَّ الصحابةَ اشتغلُوا بعدَ النبيِّ ﷺ بفتحِ البلادِ، ومواصلةِ القتالِ والجهادِ، ولم يُنقل عن أحدٍ منهم أنَّه توقَّف عن القتالِ، وهو طالبٌ له في شيءٍ من الأشهرِ الحُرُم، وهذا يدُلُّ على اجتماعهم على نسخِ ذلك، واللَّهُ أعلمُ.

ومن عجائب الأشهرِ الحُرُمِ ما رُوي عن عبدِ اللَّهِ بن عمرٍو بن العاصِ: أنَّه ذكر عجائبَ الدنيا، فعدَّ منها بأرضِ عادٍ عمودَ نُحاسٍ، عليه شجرةٌ من نحاسٍ، فإذا كان في الأشهرِ الحُرُم قطرَ منها الماءُ، فملؤوا منه حياضَهم، وسَقَوْا مواشيهم وزروعَهم، فإذا ذهب الأشهرُ الحرمُ انقطَعَ الماءُ.

وقولُهُ ﷺ: «ورجبُ مُضَر» سُمِّي رجبٌ رجبًا، لأنه كان يُرجَّبُ، أي يُعظَّمُ، كذا قال الأصمعيُّ، والمفضَّلُ، والفرَّاءُ، وقيلَ: لأنَّ الملائكةَ تترجَّب

(١) «المسند» (٦/ ١٨٨).

(٢) «المسند» (٣/ ٣٣٤ ـ ٣٤٥).

للتسبيح والتَّحميدِ فيه، وفي ذلك حديثٌ مرفوعٌ إلا أنه موضوع.

وأما إضافتُه إلى «مُضَر»، فقيل: لأنَّ مُضَرَ كانت تزيدُ في تعظيمه واحترامِه، فنُسِبَ إليهم لذلك. وقيل: بل كانت ربيعةُ تُحرِّمُ رمضانَ، وتُحرِّمُ مُضَرُ رجبًا، فلذلك سمَّاه رجبَ مُضَرَ، وحقَّق ذلك بقوله: **«الذي بين جُمادى وشعبان»**.

وذكر بعضُهم أنَّ لشهرِ رجبٍ أربعةَ عشرَ اسمًا: شهرُ اللَّه، ورجبٌ، ورجبُ مُضَر، ومُنْصِلُ الأسِنَّة، والأصمُّ، والأصبُّ، ومُنَفِّسٌ، ومُطَهِّرٌ، ومُعَلًّى، ومقيمٌ، وهرمٌ، ومُقشقشٌ، ومُبرِّيءٌ، وفردٌ، وذكر غيرُه أنَّ له سبعة عشر اسمًا، فزادَ «رجم» بالميمِ، ومُنْصِلَ الألَّة، وهي الحربة، ومنزعُ الأسِنَّة(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعت الوزير(٢) يقول في قوله تعالى: ﴿**قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا**﴾ [التوبة:٥١] قال: إنَّما لمْ يقُل: ما كُتِبَ علَيْنا؛ لأنَّه أمرٌ يتعلقُ بالمؤمنِ، ولا يصيبُ المؤمنُ شيءٌ إلا وهو له، إن كانَ خيرًا فهو له في العاجلِ، وإن كانَ شرًا فهو ثوابٌ في الآجل(٣).

* * *

(١) «لطائف المعارف» (٢١٧ ـ ٢٢٥).
(٢) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.
(٣) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٥).

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾

قال اللَّهُ تـعالى: ﴿وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨١].

وفي «الصحيحين»(١) عن أبي هريرةَ عـنِ النبيِّ ﷺ قال: «اشتكتِ النارُ إلى ربِّها، فقالتْ: يا ربِّ أكَلَ بـعضِي بعضًا، فنفِّسْني، فأذنَ لهَا في نفـسينِ، نفسٍ في الشتاءِ ونفسٍ في الصـيفِ، فـأشدُّ مـا تجدونَ من الحـرِّ سـمومُـها، وأشـدُّ مـا تجدونَ من البـردِ زمهريرُهَا».

وفي «الصحيحين»(٢) أيضًا عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ، قال: «ناركُم هذه التي يوقدُ بنو آدمَ جزءٌ واحدٌ من سبعينَ جزءًا من نارِ جهنَّمَ»، قالوا: والله إن كانتْ لكافيةً، قال: «إنها فُـضِّلتْ عليها، بـتسعةٍ وسـتينَ جزءًا، كلُّهنَّ مـثلُ حرِّهَا» وخرَّجه الإمامُ أحمدُ وزادَ فيه: «ضربت بالبـحرِ مرتينِ، ولولا ذاك ما جـعل اللَّهُ فيها منفـعة لأحدٍ»، وقد سبقَ من حديثِ أنسٍ نحوُهُ.

وعن عطيةَ العوفيِّ عن أبي سعيدٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «ناركُم هذه جزءٌ من سبعينَ جزءًا من نارِ جهنَّم لكلِّ جزءٍ منها مثل حرِّها»، خرَّجه الترمذيُّ(٣).

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا قتـيبةُ، حدثنا عبدُ العزيزِ ـ هو الدراورديُّ ـ عن سهيلٍ، عن أبيه، عن أبي هريرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «إنَّ هذه النارَ جـزءٌ من مائةِ جزءٍ من جهنَّمَ».

وقال ابنُ مسعودٍ: «إنَّ ناركَم هذه ضُربَ بها البحرُ ففترتْ، ولولا ذلكَ ما

---

(١) أخرجه: البخاري (٤/١٤٦)، ومسلم (٢/١٠٨).

(٢) أخرجه: البخاري (٤/١٤٧)، ومسلم (٨/١٤٩).

(٣) «الجامع» (٢٥٩٠).

انتفعتم بها، وهي جزءٌ من سبعينَ جزءًا من نارِ جهنَّمَ» وخرَّجه البزَّارُ مرفوعًا والموقوفُ أصحُّ.

وخرَّج الطبرانيُّ(١) من طريقِ تمامِ بنِ نجيحٍ عن الحسنِ، عن أنسٍ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**لو أنَّ غربًا من جهنَّم، جعلَ في وسطِ الأرض لآذى نتنُ ريحه وشدةُ حرِّه ما بينَ المشرقِ والمغربِ، ولو أنَّ شرارةً من شرارِ جهنَّم بالمشرقِ لوجدَ حرَّها من بالمغربِ**» وتمامُ بنُ نجيحٍ تُكُلِّمَ فيه.

وخرَّج أيضًا من طريقِ عديٍّ بن عديٍّ الكندي عن عمرَ أنَّ جبريلَ قال للنبيِّ ﷺ: والذي بعثكَ بالحقِّ لو أنَّ قدرَ ثقبِ إبرة فُتحَ من جهنَّمَ لمات من في الأرضِ كلُّهم جميعًا من حرِّه. وقد سبقَ الكلامُ على إسناده، ورُوي من وجهٍ ضعيفٍ عن الحسنِ مرسلاً نحوُهُ أيضًا.

وخرَّج أبو يعلى الموصلي(٢) من حديثِ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «**لوكان في هذا المسجدِ مائةُ ألفٍ أو يزيدونَ، وفيهم رجلٌ من أهلِ النارِ فتنفسَ فأصابَهُم نفسُهُ لأحرقَ من في المسجدِ أو يزيدونَ**»، لكن قالَ الإمامُ أحمدُ: هو حديثٌ منكرٌ.

وقال كعبٌ لعمرَ بنِ الخطابِ: لو فُتحَ من جهنَّم قدرُ منخرِ ثورٍ بالمشرقِ ورجلٌ بالمغربِ لغلى دماغُهُ حتى يسيلَ من حرِّه.

وقال عبدُ الملكِ بن عميرٍ: لو أنَّ أهل النارِ كانُوا في نارِ الدنيا لقالُوا فيها.

وقال عبدُ اللَّهِ بن أحمدَ: أُخبرتُ عن سيَّارٍ عن ابنِ المعزى ـ وكان من خيارِ الناسِ ـ قال: بلغني أنَّ رجلاً لو خرجَ منها إلى نارِ الدنيا لنام

(١) «المعجم الأوسط» (٣٦٨١). (٢) «المسند» (٦٦٧٠).

فيها ألفي سنة.

وقال معاويةُ بنُ صالحٍ عن عبدِ الملكِ بن أبي بشيرٍ ـ يرفعُ الحديثَ : «ما من يومٍ إلا والنارُ تقولُ: اشتدَّ حرِّي، وبعدَ قعري، وعظُم جمري، عَجِّلْ إلهي إليَّ بأهلي».

وقال ابنُ عيينةَ عن بشيرِ بنِ منصورٍ، قلتُ لعطاءٍ السلميِّ: لو أنَّ إنسانًا أوقدتْ له نارٌ فقيلَ لهُ: من دخلَ هذه النارَ نجا من النارِ، فقال: عطاءٌ: لو قيلَ لي ذلك لخشيتُ أن تخرجَ نفسي فرحًا قبل أن أقعَ فيها[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

وقد ذكر اللَّهُ في كتابِهِ عن الأنبياءِ ـ عليهمُ السَّلامُ ـ أنهم نصحُوا لأممِهِم كما أخبرَ اللَّه بذلكَ عن نوحٍ، وعن صالحٍ، وقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٩١].

يعني: أنَّ منْ تخلَّفَ عن الجهادِ لعذرٍ، فلا حرجَ عليه بشرطِ أن يكونَ ناصحًا للَّهِ ورسولِهِ في تخلُّفِه، فإنَّ المنافقينَ كانُوا يُظهرُون الأعذارَ كاذبين، ويتخلَّفونَ عن الجهادِ من غيرِ نصحٍ للَّه ورسولِهِ[2].

* * *

قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا

(١) «التخويف من النار» (٧١ ـ ٧٣).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾

ومنْ أعظمِ خصالِ النفاقِ العمليِّ: أن يعملَ الإنسانُ عملاً، ويُظهرُ أنّه قصدَ به الخيرَ، وإنَّما عملهُ ليتوصَّل به إلى غرضٍ له سيِّءٍ فيتمَّ له ذلك، ويتوصَّلُ بهذه الخديعةِ إلى غرضِهِ، ويفرحُ بمكرِه وخداعِه وحَمْدِ النَّاسِ له على ما أظهرَهُ، وتوصَّل به إلى غرضِهِ السيِّءِ الذي أبطنه، وهذا قد حكاهُ اللَّهُ في القرآنِ عن المنافقينَ واليهودِ، فحكى عن المنافقينَ أنَّهُم: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [التوبة:١٠٧]، وأنزلَ في اليهودِ: ﴿ لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [آل عمران:١٨٨]، وهذه الآيةُ نزلتْ في اليهودِ، سألهم النبيُّ ﷺ عن شيءٍ فكتمُوه، وأخبرُوه بغيرِه، فخرجُوا وقد أرَوْه أنهم قد أخبرُوه بما سألَهُم عنه، واستحمدوا بذلكَ، وفرحُوا بما أُوتوا من كتمانِهِم وما سُئلُوا عنه. قال ذلك ابنُ عباسٍ، وحديثُه مخرَّجٌ في «الصحيحين»[(١)]. وفيهما [(٢)] ـ أيضًا ـ: عن أبي سعيدٍ أنها نزلتْ في رجالٍ من المنافقينَ كانُوا إذا خرجَ النبيُّ ﷺ إلى الغزوِ تخلَّفوا عنه وفرحُوا بمقعدِهِم خلافَهُ، فإذا قدمَ رسولُ اللَّهِ ﷺ من الغزوِ اعتذرُوا إليهِ، وحلفُوا، وأحبُّوا أن يُحمدُوا بما لم يفعلُوا[(٣)].

* * *

(١) أخرجه: البخاري (٦/ ٥١)، ومسلم (٨/ ١٢٢).

(٢) أخرجه: البخاري (٦/ ٥٠ ـ ٥١)، ومسلم (٨/ ١٢١ ـ ١٢٢).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٥٠).

سُورَةُ يُونُس

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [الإسراء: ١٢]. وقال اللَّهُ تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [يونس: ٥].

فأخبر سبحانه وتعالى أنَّه علق معرفةَ السنينَ والحسابِ على تقديرِ القمرِ منازلَ. وقيلَ: بل على جعلِ الشمسِ ضياءً والقمرِ نورًا، لأنَّ حسابَ السنةِ والشهرِ يُعرَفُ بالقمر، واليومُ والأسبوعُ يُعرفُ بالشمس، وبهما يتمُّ الحسابُ.

وقوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ﴾ لَمَّا كان الشهرُ الهلاليُّ لا يحتاجُ إلى عَدٍّ لتوفيَتِه بما بين الهلالينِ، لم يقُلْ: لتعلمُوا عددَ الشهورِ؛ فإنَّ الشهرَ لا يحتاجُ إلى عَدِّه إلا إذا غُمَّ آخرُهُ، فيُكَمَّلُ عددُه بالاتفاقِ، إلا في شهرِ شعبانَ إذا غُمَّ آخرُهُ بالنسبة إلى صومِ رمضانَ خاصَّة، فإنَّ فيه اختلافًا مشهورًا، وأما السَّنَةُ فلا بُدَّ من عددها، إذْ ليس لها حدٌّ ظاهرٌ في السَّماء فيُحتاجُ إلى عددِها بالشهورِ، ولا سيَّما مع تطاولِ السنينِ وتعدُّدِها.

وجعل اللَّه السَّنة اثني عشر شهـرًا، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣٦] ، وذلكَ بعددِ البُروجِ التي تكمُلُ بدورِ الشمسِ فيها السنةُ الشمسيَّةُ، فإذا دارَ القمرُ فيها كلِّها كمُلَتْ دورتُهُ السنويةُ، وإنما جعلَ اللَّهُ الاعتبارَ بدورِ القمرِ، لأنَّ ظهورَهُ في السماءِ لا يحتاجُ إلى حسابٍ ولا كتابٍ، بل هو أمرٌ ظاهرٌ يُشاهدُ بالبصرِ، بخلافِ سيرِ الشمسِ؛ فإنه تحتاجُ معرفته إلى حسابٍ وكتابٍ ، فلم يُحوِجْنا إلى ذلكَ، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «إنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لا نكتبُ ولا نحسُبُ، الشهرُ هكذا وهكذا وهكذا» وأشارَ بأصابعِهِ العشْرِ، وخنَسَ إبهامَهُ في الثالثةِ، «صُومُوا لرؤيتِهِ وأفطِرُوا لرؤيته، فإنْ غُمَّ عليكم فأكملُوا العدَّة»(١) وإنما علَّق اللَّهُ تعالى على الشمس أحكامَ اليومِ من الصَّلاةِ والصِّيام، حيثُ كان ذلك أيضًا مشاهدًا بالبصرِ لا يحتاجُ إلى حسابٍ ولا كتابٍ، فالصلاةُ تتعلَّقُ بطلوعِ الفجرِ، وطلوعِ الشمسِ، وزوالِها وغروبِها، ومصيرِ ظلِّ الشيءِ مثله. وغروبِ الشفقِ، والصيامُ يتوقَّتُ بمدَّة النهارِ من طلوعِ الفجرِ إلى غروبِ الشمسِ.

وقوله تعالى: ﴿وَالْحِسَابَ﴾، يعني بالحسابِ: حسابَ ما يحتاجُ إليه النَّاسُ من مصالحِ دينهم ودنياهم، كصيامِهِم، وفطرِهِم، وحجِّهم، وزكاتِهِم، ونذورِهِم، وكفَّاراتِهِم، وعددِ نسائِهِم، ومُدَدِ إيلائِهِم، ومُدَدِ إجاراتِهِم، وحُلولِ آجالِ دُيونهم، وغير ذلك ممَّا يتوقَّتُ بالشهورِ والسنينَ.

وقد قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [البقرة:١٨٩]، فأخبر أنَّ الأهلَّةَ مواقيتُ للناسِ عمومًا، وخصَّ الحجَّ من بينِ ما

(١) أخرجه بهذا اللفظ مسلم (٣/ ١٢٢)، وأخرجه البخاري مختصرًا (٣/ ٣٥).

يُوقَّتُ به، للاهتمامِ به، وجعلَ اللَّهُ سبحانه وتعالى في كلِّ يومٍ وليلةٍ لعبادِه المؤمنينَ وظائفَ مُوظَّفةً عليهم من وظائفِ طاعتِه، فمنها ما هو مفترضٌ كالصلواتِ الخمسِ. ومنها ما يُنْدَبون إليهِ من غير افتراضٍ، كنوافلِ الصلاةِ والذكر وغير ذلك.

وجعلَ في شهورِ الأهلَّةِ وظائفَ مُوَظَّفةً أيضًا على عبادِه كالصِّيامِ، والزَّكاةِ، والحجِّ، ومنه فرْضٌ مفروضٌ عليهم، كصيام رمضان، وحجَّةِ الإسلامِ، ومنه ما هوَ مندوبٌ، كصيامِ شعبانَ، وشوالٍ، والأشهرِ الحُرُمِ.

وجعلَ اللَّهُ سبحانه لبعضِ الشهورِ فضلاً على بعضٍ، كما قال تعالى: ﴿مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦]. وقال اللَّهُ تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة:١٩٧]، وقال اللَّهُ تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ [البقرة:١٨٥].

كما جعلَ بعضَ الأيامِ والليالي أفضلَ من بعضٍ، وجعلَ ليلةَ القدْرِ خيرًا من ألفِ شهرٍ، وأقسَمَ بالعشْرِ، وهو عشْرُ ذي الحجَّةِ على الصحيحِ، كما سنذكرُهُ في موضعهِ إن شاء اللَّهُ تعالى. وما من هذه المواسم الفاضلةُ موسمٌ إلا وللَّهِ تعالى فيه وظيفةٌ من وظائفِ طاعاتِه، يتقرَّبُ بها إليه، وللَّهِ فيه لطيفةٌ من لطائفِ نفحاتِه، يُصيبُ بها من يعودُ بفضلِه ورحمتِه عليه، فالسعيدُ من اغتنمَ مواسمَ الشهورِ والأيامِ والسَّاعاتِ، وتقرَّبَ فيها إلى مولاهُ بما فيها من وظائفِ الطَّاعاتِ، فعسى أن تصيبَهُ نفْحةٌ من تلكَ النَّفحاتِ، فيسعدُ بها سعادةً يأمَنُ بعدَها من النَّارِ وما فيه من اللَّفَحَاتِ.

وقد خرَّج ابنُ أبي الدنيا والطَّبرانيُّ وغيرُهما، من حديثِ أبي هريرةَ

مرفوعًا: «اطلبُوا الخيرَ دَهْرَكُـم كُلَّهُ، وتعرَّضُوا لنَفَحات رحمةِ ربِّكُـم، فإنَّ للَّه نفحات من رحـمتـه يصـيبُ به من يشاءُ من عـبادِه، وسلُوا اللَّهَ أنْ يستُـرَ عـوراتِكُم ويُؤمِّنَ روعاتِكُم»[1]. وفي روايةٍ للطبرانيِّ من حديثِ محمدِ بنِ مسلمةَ مرفوعًا: «إنَّ للَّهِ في أيامِ الدَّهر نفحات فتـعرَّضُوا لها، فلعلَّ أحدَكُم أن تصيبَه نفـحةٌ فلا يَشْقى بعدها أبدًا» وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ»[2] عن عقبـةَ بنِ عامرٍ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «ليس من عـملٍ يومٍ إلا يُختمُ عليـه» وروى ابنُ أبي الدنيا بإسنادِه، عن مـجاهدٍ، قال: ما من يومٍ إلا يقـولُ: ابنَ آدم، قد دخلْتُ عليك اليومَ ولن أرجِعَ إليك بعد اليوم، فانظر ماذا تعمل فيَّ؟ فـإذا انقضى طواهُ، ثم يُختم عليه فلا يفك حتى يكون اللَّـه هو الذي يفُضُّ ذلك الخاتمَ يومَ القيـامة، ويقـولُ اليومُ حينَ ينقـضي: الحمـدُ للَّهِ الذي أراحني من الدنيـا وأهلِهـا، ولا ليلةٌ تدخلُ على الناسِ إلا قالتْ كذلكَ.

وبإسنادِه عن مالكِ بنِ دينارٍ، قالَ: كان عيسى ـ عليه السلامُ ـ، يقولُ: إنَّ هذا الليلَ والنَّهارَ خِزانتان، فـانظرُوا ما تضعونَ فيهمـا، وكان يقولُ: اعملُوا اللَّيلَ لما خُلِقَ له، واعْـملُوا النهَّارَ لما خُلِقَ له. وعن الحـسنِ، قال: ليس يومٌ يأتي من أيامِ الدنيـا إلا يتكلَّم، يقولُ: يا أيها النـاسُ، إنِّي يومٌ جديدٌ، وإني على ما يعمل فـيَّ شهيدٌ، وإني لو قد غـربَتِ الشمسُ، لم أرجِعْ إليكم إلى يوم القيامةِ. وعنه أنه كانَ يقولُ: يا ابنَ آدم، اليومُ ضيفُك، والضيفُ مُرتحلٌ، يحمدُك أو يذمُّكَ، وكذلك ليلتُك. وبإسنادِه عن بكرٍ المزنيِّ، أنه قالَ: ما من

(١) أخرجـه: ابن أبي الدنيا في «الفرج بعـد الشدة» (ص ٢٣)، ورواه البيهـقي في «شعب الإيمان» (٢/ ١١٢١، ١١٢٢، ١١٢٣).

(٢) قطعة من حديث رواه الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ١٤٦).

يومٍ أخـرجه اللَّهُ إلى أهلِ الدنيـا إلا يُنادِي: ابنَ آدمَ، اغـتنمني، لعلَّه لا يومَ لك بعدِي، ولا ليلةَ إلا تنادي: ابنَ آدمَ، اغـتنمنِي، لعلَّه لا ليلةَ لك بعدِي، وعن عُمر بنِ ذَرٍّ أنه كانَ يقولُ: اعـملوا لأنفسكم رحمكمُ اللَّه في هذا الليلِ وسوادِه، فإنَّ المغبُونَ منْ غُبنَ خيرَ اللَّيلِ والنَّهارِ، والمحرومَ منْ حُرِم َخيرَهما. إنَّما جُعِلا سبيـلاً للمؤمنينَ إلى طاعةِ ربِّهم، ووبالاً على الآخرين للغَفْلةِ عن أنفسِهِم، فأحيُوا للَّهِ أنفسكُم بذكرِهِ، فإنَّما تحيا القلوبُ بذكرِ اللَّه عزَّ وجلَّ.

عن أبي موسى ﷺ، قال: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: **«مثلُ الذي يذكُرُ ربَّهُ والذي لا يذكُرُ ربَّه، مثلُ الحيِّ والميِّتِ»**(١) .

كم من قائمٍ للَّه في هذا الليل قد اغْتَبطَ بقيامِهِ في ظُلمة حُفرتِهِ، وكم من نائمٍ في هذا الليلِ قـد ندمَ على طُولِ نومِـهِ، عندما يرى من كـرامةِ اللَّه عـزَّ وجلَّ للعابدينَ غداً. فاغتنمُوا ممرَّ السَّاعاتِ والليالي والأيامِ، رحمكم اللَّهُ.

وعن داودَ الطائيِّ أنَّه قالَ: إنَّما اللَّيلُ والنَّهارُ مراحلُ، ينزلُها الناسُ مرْحلةً مرْحلةً، حتى ينتـهي بهم ذلك إلى آخر سفرهم، فـإن استطعتَ أن تُقدِّمَ في كلِّ مرْحلةٍ زاداً لمـا بين يديْها فافْـعَلْ، فإنَّ انقطاعَ السَّـفرِ عن قـريبٍ ما هو، والأمرُ أعجلُ من ذلكَ. فتزوَّدْ لسـفركَ واقضِ ما أنتَ قاضٍ من أمركَ فكأنَّك بالأمرِ قد بغتَكَ.

قال ابنُ أبي الدنيا: وأنشدنا محمودُ بن الحسين:

مضى أمـسُك الماضِي شهيداً مُـعدَّلاً   وأعــقـبَــــهُ يومٌ عليـك جـــديدُ
فـيـومُك إن أغنيــتَــهُ عـادَ نفـعُـهُ   عليكَ ومـاضي الأمـسِ ليسَ يعـودُ

---

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ١٠٧)، ومسلم (٢/ ١٨٨).

فـإنْ كُنت بالأمسِ اقْـتـرفْتَ إسـاءةً فـثـنِّ بإحْـســانٍ وأنت حـمــيـدُ
فلا تُـرْجِ فعلَ الخيـرِ يومًا إلـى غدٍ لعلَّ غــدًا يـأتي وأنتَ فـقــيـدُ

وفي «تفسيرِ عبدِ بنِ حُميدٍ» وغيرِه من التفاسيرِ المسندةِ عن الحسنِ في قولِ اللَّه عــزَّ وجلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان:٦٢]، قال: منْ عجزَ بالليل كان له في أوَّلِ النهـارِ مُسْتَعْتَبٌ، ومنْ عجزَ عن النَّهارِ، كان له في الليل مسـتعتبٌ. وعن قتادةَ قال: إنَّ المؤمن قد ينسى بالليل ويذكُرُ بالنهارِ، وينسى النهار ويذكرُ بالليلِ، قال: وجاء رجلٌ إلى سلْمان الفـارسي، قال: إني لا أستطيع قـيامَ الليل، قال له: فلا تعـجزْ بالنَّهارِ. قال قـتادةُ: فأدُّوا إلى اللَّه من أعمالِكُم خـيرًا في هذا الليلِ والنَّهارِ، فإنَّهـما مطيَّتانِ تُقْـحمانِ الناسَ إلى آجـالِهِم، يقرِّبانِ كلَّ بعيـدٍ، ويُبْليانِ كُلَّ جديدٍ، ويجيئانِ بكلِّ موعودٍ، إلى يومِ القيامةِ(١).

* * *

وأمَّا الصبرُ، فإنه ضياءٌ، والضـياءُ: هو النورُ الذي يحصلُ فيه نوعُ حرارةٍ وإشراقٍ كـضياءِ الشمسِ بخـلافِ القمرِ، فإنَّه نورٌ مـحضٌ، فيه إشراقٌ بغـيرِ إحراقٍ، قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس:٥] ومن هنا وصفَ اللَّهُ شريعة موسى بأنها ضـياءٌ، كما قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء:٤٨]، وإن كـان قد ذكـرَ أنَّ في التوراةِ نورًا، كـما قال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة:٤٤]، لكن الغالبَ على شريعتِهِم الضياءُ لما فيه منَ الآصارِ والأغلالِ والأثقالِ.

---

(١) «لطائف المعارف» (٣٨ ـ ٤٣).

ووصفَ شريعةَ محمَّدٍ ﷺ بأنها نورٌ لما فيها من الحنيفيَّةِ السمحةِ، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١٥]، وقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

ولما كان الصبرُ شاقًا على النفوسِ، يحتاجُ إلى مجاهدةِ النفسِ، وحبسِها، وكفِّها عمَّا تهواهُ، كان ضياءً، فإنَّ معنى الصَّبرِ في اللغةِ: الحبسُ، ومنه: قتْلُ الصبرِ؛ وهو أن يُحبَسَ الرَّجلُ حتى يقتل[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

وانقسم بنو آدمَ في الدنيا إلى قسمينِ:

أحدهما: من أنكرَ أن يكونَ للعبادِ بعدَ الدَّنيا دارٌ للثوابِ والعقابِ، وهؤلاءِ هم الذين قال اللَّهُ فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٥٨٠ ـ ٥٨١).

بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يونس:٧]، وهؤلاءِ همُّهمُ التمتُّع بالدنيا، واغتنامُ لذَّاتها قبلَ الموتِ، كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد:١٢]. ومن هؤلاءِ منْ كانَ يأمرُ بالزُّهد في الدنيا، لأنَّه يرى أنَّ الاستكثارَ منها يُوجِبُ الهمَّ والغمَّ، ويقولُ: كلَّما كثُرَ التعلُّقُ بها تألَّمتِ النَّفسُ بمفارقتِها عندَ الموتِ، فكان هذا غايةَ زُهدهم في الدنيا.

والقسم الثاني: من يُقِرُّ بدارٍ بعد الموتِ للثَّوابِ والعقابِ، وهم المنتسبونَ إلى شرائعِ المرسلينَ، وهم منقسمونَ إلى ثلاثةِ أقسامٍ: ظالمٌ لنفسِهِ، ومقتصدٌ، وسابقٌ بالخيراتِ بإذنِ اللَّهِ.

فالظالم لنفسِهِ: هم الأكثرونَ منهُم، وأكثرُهم وقفَ مع زهرةِ الدنيا وزينتِها، فأخذَها من غيرِ وجهِها، واستعملَها في غيرِ وجهِهَا، وصارتِ الدنيا أكبرَ همِّه، لها يغضبُ، وبها يرضَى، ولها يُوالي، وعليها يُعادِي، وهؤلاءِ هم أهلُ اللَّهوِ واللَّعبِ والزِّينةِ والتَّفاخرِ والتَّكاثرِ، وكلُّهم لم يعرفِ المقصودَ من الدنيا ولا أنها منزلُ سفرٍ يتزوَّدُ منها لما بعدَها منْ دارِ الإقامةِ، وإن كانَ أحدُهم يؤمن بذلك إيمانًا مجملاً فهُوَ لا يعرفُه مفصَّلاً، ولا ذاقَ ما ذاقَهُ أهلُ المعرفة باللَّهِ في الدَّنيا ممَّا هو أنموذجُ ما ادّخرَ لهم في الآخرة.

والمقتصدُ منهم: أخذَ الدنيا منْ وجوهِهَا المباحةِ، وأدَّى واجباتِهَا، وأمسَكَ لنفسِهِ الزَّائدَ على الواجبِ يتوسَّعُ به في التمتُّع بشهواتِ الدنيا، وهؤلاءِ قد اختُلفَ في دخولِهم في اسم الزهادة في الدنيا كما سبق ذكرُهُ، ولا عقابَ عليهم في ذلكَ، إلا أنه ينقصُ من درجاتِهِم من الآخرةِ بقدرِ توسُّعهم في الدنيا.

قال ابنُ عـمرَ: لا يصيبُ عبـدٌ من الدنيا شيئًـا إلا نقصَ من درجاتِه عندَ اللَّهِ، وإن كان عليه كريمًا. خرَّجه ابنُ أبي الدنيـا بإسنادٍ جيدٍ، وروي مرفوعًا من حديثِ عائشةَ بإسنادٍ فيه نظر(١) .

وروى الإمامُ أحمدُ في كتابِ «الزهدِ» بإسنادِه: أنَّ رجلاً دخل على معاويةَ فكساهُ، فـخرجَ فمرَّ على أبي مسـعودٍ الأنصاريِّ ورجلٍ آخرَ من الـصَّحابةِ، فقالَ أحدُهُما له: خذها منْ حسناتِك، وقال الآخرُ: من طيِّباتِك.

وبإسنادِه عن عـمـرَ قـال: لولا أن تنقصَ حـسناتي لخـالطـتكم في لِين عَيْشِكُم، ولكنِّي سـمعتُ اللَّهَ عيَّرَ قومًـا فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وقال الفُضيلُ بـنُ عياضٍ: إن شئتَ استقلَّ من الدُّنيا، وإن شـئتَ استكثرْ منها، فإنَّما تأخُذُ من كِيسكَ.

ويشهد لهـذا أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ حرَّم على عبـادِه أشياءَ من فضـولِ شهواتِ الدنيا وزينتِهَا وبهجتِهَا، حيثُ لم يكونُوا محتاجينَ إليهِ، وادَّخره لهم عندَهُ في الآخرةِ، وقد وقعتِ الإشـارةُ إلى هذا بقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْلَا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾ إلى قولِهِ: ﴿وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٣٣ - ٣٥].

وصحَّ عن الـنبيِّ ﷺ أنَّه قـال: «منْ لَبِسَ الحـريرَ في الدُّنيـا لم يلْبسْـه في الآخرةِ»(٢) . و«من شرِبَ الخمرَ في الدنيا لم يشربْها في الآخرةِ»(٣)، وقال: «لا تلبَسوا

(١) وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ١٦٣): «الموقوف أصح».
(٢) أخرجه: البخاري (٧/ ١٩٣)، ومسلم (٦/ ١٤٢).
(٣) أخرجه: البخاري (٧/ ١٣٥)، ومسلم (٦/ ١٠١).

الحريرَ ولا الدِّيباجَ، ولا تشربوا في آنية الذهب والفضَّةِ، ولا تأكلُوا في صِحافِها، فإنَّها لهم في الدنيا، ولكم في الآخرةِ»(١) .

وقال وهبٌ: إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ قال لموسى ـ عليه السلامُ ـ: إنِّي لأذودُ أوليائي عن نعيمِ الدُّنيا ورخائِها كما يذودُ الرَّاعِي الشفيقُ إبلَه عن مباركِ العُرَّةِ، وما ذلكَ لهوانِهِم عليَّ، ولكن ليستكملُوا نصيبَهُم من كرامتِي سالمًا موفرًا لم تكْلَمْهُ الدنيا.

ويشهد لهذا ما خرَّجه الترمذيُّ عن قتادةَ بنِ النُّعمانِ، عنِ النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ اللَّهَ إ ذا أحبَّ عبداً حماهُ الدَّنيا، كما يَظَلُّ أحدُكُم يحمي سقيمَه الماءَ**».

وخرَّجه الحاكمُ، ولفظُهُ: «**إنَّ اللَّه ليحمي عبدَهُ الدُّنيا وهو يحبُّه، كما تحمُونَ مريضَكم الطَّعامَ والشرابَ، تخافونَ عليه**»(٢) .

وفي «صحيحِ مسلمٍ» عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو عنِ النبيِّ ﷺ، قال: «**الدنيا سجنُ المؤمنِ وجنَّةُ الكافرِ**»(٣) .

وأمَّا السَّابقُ بالخيراتِ بإذنِ اللَّهِ: فهم الذين فهمُوا المرادَ من الدنيا، وعملُوا بمقتضى ذلكَ، فعلِمُوا أنَّ اللَّهَ إنَّما أسكَنَ عبادَهُ في هذه الدَّارِ، ليبلُوهم أيُّهم أحسنُ عملاً، كما قال: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ [هود:٧] ، وقال: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ**

---

(١) أخرجه: البخاري (٧/ ٩٩، ١٤٦، ١٩٤)، ومسلم (٦/ ١٣٦).

(٢) أخرجه: الترمذي (٢٠٣٦).

وكذا أحمد في «الزهد» (١٧)، والحاكم (٤/ ٢٠٧، ٣٠٩).

(٣) ليس هو في «صحيح مسلم» من حديث ابن عمرو، وإنما أخرجه مسلم (٨/ ٢١٠) من حديث أبي هريرة، وأما حديث ابن عمرو، فقد أخرجه أحمد (٢/ ١٩٧)، والحاكم (٤/ ٣١٥) بنحوه.

وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك:٢].

قال بعضُ السلفِ: أيهم أزهدُ في الدنيا، وأرغبُ في الآخرة. وجعل ما في الدنيا من البهجةِ والنُّضـرةِ محنةً لينظر من يقفُ منهم معه، ويركَنُ إليه، ومن ليسَ كذلك، كما قال تعالى: **﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾** [الكهف:٧]، ثمَّ بيّن انقطاعَهُ ونفادَهُ، فقال: **﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾** [الكهف:٨]، فلمَّا فهِموا أنَّ هذا هو المقصودُ من الدنـيا، جعلُوا همَّهم التزوُّدَ منها للآخرةِ التي هي دار القرارِ، واكتفُوا منَ الدنيا بما يكتفِي به المسافرُ في سفرِه، كما كان النبيُّ ﷺ يقول: **«ما لي وللدنيا، إنَّما مثلي ومثلُ الدُّنيا كراكبٍ قالَ في ظِلِّ شجرةٍ، ثم راحَ وتركَها»**(١).

ووصَّى ﷺ جماعةً من الصحابةِ أن يكونَ بلاغُ أحدِهم من الدنيا كزادِ الراكبِ، منهم: سلمانُ، وأبو عُبيدةَ بنُ الجراحِ، وأبو ذرٍ، وعائشةُ، ووصَّى ابنَ عمرَ أن يكون في الدنيا كأنه غريب أو عابر سبيلٍ، وأن يعُدَّ نفسَهُ من أهلِ القبورِ(٢). (٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾

قوله ﷺ بعد هذا: **«وأسألُك لذَّة النظرِ إلى وجهِكَ والشوقَ إلى لقائكَ من غيرِ ضراءَ مضرةٍ ولا فتنة مضلة»**.

---

(١) أخرجه: الترمذي (٢٣٧٧)، وابن ماجه (٤١٠٩)، وأحمد (١/ ٣٩١)، والبزار (١٥٣٣ ـ كشف)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ١٠٢)، من حديث ابن مسعود.

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٤، ٤١) وابن ماجه (٤١١٤).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ١٨٨ ـ ١٩٣).

فهذا يشتملُ على أعلَى نعيمِ المؤمنِ في الدنيا والآخرةِ، وأطيبِ عيشٍ لهم في الدارين.

فأمَّا لذَّةُ النظرِ إلى وجهِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: فإنَّه أعلَى نعيمِ أهلِ الجنةِ، وأعظمُ لذَّةٍ لهم، كما في «صحيحِ مسلمٍ» عن صُهيبٍ، عنِ النبيِّ ﷺ قال: «إذا دخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ نادى المُنادِي: يا أهلَ الجنةِ إنَّ لكم عندَ اللَّهِ موعدًا يُريد أن يُنجزَهُ، فيقولونَ: ما هو؟ ألم يبيِّضْ وجوهَنا ألمْ يثقلْ موازيننَا ألم يُدخلْنا الجنةَ ألم يُجرْنَا من النارِ؟ قال: فيكشفُ الحجابَ فينظرونَ إليه، فواللَّهِ ما أعطاهُم شيئًا هو أحبُّ إليهم من النظرِ إليه، وهو الزيادةُ» ، ثم تلا رسولُ اللَّهِ ﷺ هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾(١) [يونس:٢٦].

وفي روايةٍ لابن ماجه وغيرِه، في هذا الحديثِ: «فواللَّهِ ما أعطاهُم شيئًا هو أحبُّ إليهِم ولا أقرَّ لأعينِهم من النظرِ إليه»(٢) .

وخرَّج عثمانُ الدارميُّ، من حديثِ ابنِ عمرَ، مرفوعًا: «إنَّ أهلَ الجنةِ إذا بلغَ بهم النَّعيمُ كلَّ مبلغٍ فظنُّوا أنَّه لا نعيمَ أفضلَ منه، تجلَّى الربُّ تباركَ وتعالى عليهم، فينظرونَ إلى وجهِ الرحمن، فنسُوا كلَّ نعيمٍ عاينُوه حين نظرُوا إلى وجهِ الرحمنِ»(٣) .

وخرَّجه الدارقطنيُّ بنقصانٍ منه وزيادةٍ، وفيه: «فيقولُ: يا أهل الجنةِ هلِّلوني وكبِّرونِي وسبِّحُوني، كما كنتُم تُهلِّلُوني وتكبِّرونِي وتسبِّحُوني في دارِ الدنيا، فيتجاوبونَ بتهليلِ الرحمنِ، فيقولُ اللَّهُ تبارك وتعالى لداودَ عليه السلامُ: يا داودُ مجِّدْني فيقومُ داودُ فيمجِّدُ ربَّه عزَّ وجلَّ».

---

(١) أخرجه: مسلم (١/ ١١٢).

(٢) أخرجه: ابن ماجه (١٨٧).

(٣) أخرجه: عبد بن حميد (٨٥١)، وهو جزء من حديث طويل.

وفي «سننِ ابنِ ماجه» عن جابرٍ، مرفوعًا: «بينا أهلُ الجنة في نعيمهم إذْ سطَعَ لهم نورٌ، فإذا الربُّ جلَّ جلالُه قدْ أشرفَ عليهم، فقالَ: السلامُ عليكُم يا أهلَ الجنة، وهو قولُهُ تعالى: ﴿سَلَامٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ [يس: ٥٨] فلا يلتفتونَ إلى شيءٍ ممَّا هُم فيه من النعيمِ ما دامُوا ينظرونَ إليه»(١).

وخرَّج البيهقيُّ من حديثِ جابرٍ، مرفوعًا: «إنَّ أهلَ الجنة يزورونَ ربَّهم تعالى على نجائبَ من ياقوتٍ أحمرَ أزمَّتها منْ زُمُرّدٍ أخضرَ، فيأمرُ اللَّهُ بكُثبانٍ من مسكٍ أذفرَ أبيضَ فتُثيرُ عليها ريحًا يقالُ لها: المثيرةُ، حتى تنتهي بهِم إلى جنة عدنٍ وهي قصبة الجنةِ، فتقولُ الملائكةُ: ربَّنا جاء القومُ، فيقولُ: مرحبًا بالصادقينَ مرحبًا بالطائعينَ، قال: فيكشفُ لهم الحجابُ، فنيظرونَ إليه ويتمتَّعونَ بنورِه حتَّى لا يُبصرُ بعضُهم بعضًا ثم يقولُ: ارجعُوا إلى القُصورِ بالتحفِ، فيرجعونَ وقد أبصرَ بعضُهم بعضًا، فذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٢]»(٢).

وفي «مسندِ البزارِ» من حديثِ حذيفةَ مرفُوعًا في حديثِ يومِ المزيدِ: «أنَّ اللَّهَ يكشفُ تلكَ الحُجُبَ ويتجلَّى لهُم، فيغشَاهُم من نورِه ما لولا أنَّ اللَّه تعالى قضى أنْ لا يحترقوا لاحترقُوا، ومِمَّا غشيَهُم من نوره، فيرجعونَ إلى منازِلهم وقد خفوا على أزواجِهم ما غشيَهُم من نورِه، فإذا صارُوا إلى منازِلهم تراد النورُ وأمكن وتراد وأمكن، حتى يرجعوا إلى صُورِهم التي كانُوا عليْهَا»(٣).

ويُروى من حديثِ أنسٍ، مرفوعًا: «إنَّ اللَّهَ يقولُ لأهلِ الجنة إذا استزارهم وتجلَّى لهُم: سلامٌ عليكُم يا عبادِي، انظرُوا إليَّ فقدْ رضيتُ عنكُم، فيقولونَ: سبحانَك

---

(١) أخرجه: ابن ماجه (١٨٤).

(٢) أخرجه: البيهقي في «البعث والنشور» (٤٤٨).

(٣) أخرجه: البزار (٣٥١٨ ـ كشف) وهو جزء من حديث طويل.

سبحانَك، فتتصدَّعَ له مدائنُ الجنةِ وقصورُها ويتجاوبُ فصولُ شجرِها، وأنهارِها وجميع ما فيها: سبحانك سبحانك، فاحتقرُوا الجنَّةَ وجميعَ ما فيها، حين نظرُوا إلى وجه اللَّه تعالى»(١) .

ويُروى من حديثِ عليٍّ، مرفوعًا: «إنَّ اللَّهَ يتجلَّى لأهلِ الجنةِ عن وجهِه، فكأنَّهُم لم يروا نعمةً قبلَ ذلك، وهو قولُه: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[ق: ٣٥]».

ويُروى من حديثِ أبي جعفرٍ مُرسلاً: «إنَّ أهلَ الجنةِ إذا زارُوا ربَّهم تعالى وكشفَ لهم عن وجهِهِ، قالُوا: ربَّنا أنتَ السلامُ ومنكَ السلامُ وبكَ حقُّ الجلالِ والإكرامِ، فيقولُ تعالى: مرحبًا بعبادي الذين حفظوا وصيَّتي ورَاعُوا عهدي وخافُوني بالغيبِ، وكانُوا منِّي على كلِّ حال مُشفقينَ. فقالُوا: وعزَّتكَ، وعظمتكَ وجلالكَ ما قدرْنَاكَ حقَّ قدرِكَ، وما أدَّيْنا إليكَ كلَّ حقِّكَ، فأذنْ لنا بالسجودِ لك، فيقول لهُم عزَّ وجلَّ: إنِّي قد وضعتُ عنكُم مؤنةَ العبادةِ، وأرحتُ لكُم أبدانكُم، فطالمَا أنصبتُم لي الأبدانَ، وأعنيتم الوجوهَ، فالآنَ أفضيتُم إلى رَوحي ورحمتي وكرامتي، فسلُوني ما شئتُم وتمنَّوا عليَّ أُعطِكُم أمانيكُم، فإني لم أجزكُمُ اليومَ بقدرِ أعمالكُم، ولكن بقدرِ رحمتي وكرامتي، فما يزالونَ في الأمانيِّ والعطايا والمواهبِ، حتى إنَّ المقصِّرَ منهُم في أُمْنيَّته ليتمنَّى مثلَ جميعِ الدنيا منذ خلقَهَا اللَّهُ إلى أنْ أفناها، فيقولُ لهم الربُّ تباركَ وتعالى: لقد قصَّرتم في أمانيِّكُم ورضيتُم بدونِ ما يحقُّ لكُم، فقد أوجبتُ لكم ما سألتُم وتمنيتُم، وألحقتُ بكم ذريتكُم وزدتُكُم ما قصرَتْ عنه أمانيُّكُم»(٢) .

قال عبدُ الرحمنِ بنُ أبي ليلى: إذا تجلَّى لهم ربُّهم لا يكونُ ما أعطوا عند ذلك بشيءٍ.

---

(١) أخرجه بنحوه: البزار (٣٥١٩ ـ كشف).

(٢) أخرجه: ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (٥٣).

قال الحسنُ: إذا تجلّى لأهلِ الجنةِ نسوا كلَّ نعيمِ الجنَّةِ.

وكان يقولُ: لو علمَ العابدونَ أنَّهم لا يرونَ ربَّهم في الآخرةِ لماتُوا.

وقال: إنَّ أحباءَ اللَّهِ هم الذينَ ورِثُوا طيبَ الحياةِ وذاقُوا نعيمَها بما وصلُوا إليه من مُناجاةِ حبيبِهم، وبما وجدُوا من حلاوةِ حبِّه في قلوبِهم، لا سيما إذا خطر على بالِهم ذكرُ مشافهتِهِ، وكشفُ ستورِ الحُجُبِ عنه في المقامِ الأمينِ والسرورِ، وأراهُم جلالَهُ وأسمعَهُم لذَّةَ كلامِهِ ورد جواب ما ناجوه به أيامَ حياتِهِم:

أملي أن أراك يومًا من الدهرِ فأشكُو لكَ الهوى والغليلا
وأناجيكَ من قربٍ وأُبْدِي هذا الجَوى وهذا النُّحُولا

قال وهبٌ: لو خُيِّرتُ بين الرؤيةِ والجنةِ لاخترتُ الرؤيةَ.

رؤي بِشرٌ في المنامِ، فسُئلَ عن حالِهِ وحالِ إخوانِهِ، فقال: تركتُ فلانًا وفلانًا ما بين يدي اللَّه يأكلانِ ويشربانِ ويتنعَّمانِ، قيل له: فأنتَ. قال: علِمَ قلَّةَ رغبتِي في الطعامِ وأباحَنِي النظرَ إليه.

يا حبيبَ القلوبِ ما لي سواكَ ارحمِ اليومَ مذنبًا قد أتاكَا
أنتَ سُؤْلِي ومنيتِي وسُرورِي طالَ شوقِي متى يكونُ لقاكَا
ليس سُؤْلِي من الجنانِ نعيمٌ غيرَ أنّي أريدُهَا لأراكَا

قال ذو النونِ: ما طابتِ الدنيا إلا بذكرِهِ، ولا طابتِ الآخرةُ إلا بعفوِهِ، ولا طابتِ الجنةُ إلا برؤيتِهِ، ولو أنَّ اللَّه احتجبَ عن أهلِ الجنةِ لاستغاث أهلُ الجنةِ من الجنةِ كما يستغيثُ أهلُ النارِ من النارِ.

كان بعضُ الصالحينَ، يقولُ: ليت ربِّي جعلَ ثوابي من عمَلِي نظرةً إليه ثم يقولُ: كُنْ تُرابًا.

كان عليُّ بنُ الموفَّقِ، يقولُ: اللَّهُمَّ إنْ كُنتَ تعلمُ أنِّي أعبدُكَ خوفًا من نارِكَ فعذِّبْني بها، وإنْ كنتَ تعلمُ أنِّي أعبدُكَ حُبًّا لجنَّتِكَ فاحرمْنيها، وإنْ كنتَ تعلمُ أنَّما عبدتُك حبًّا منِّي لكَ وشوقًا إلى وجهِكَ الكريمِ فأبحنيهِ واصنعْ بي ما شئتَ.

سمعَ بعضُهم قائلاً يقولُ:

كبُرت همة عبدٍ طمعتْ في أنْ تراكَا ... أو ما حسبتَ أنْ ترى من رأكَا

ثم شهق شهقةً فماتَ.

لما غلبَ الشوقُ على قلوبِ المُحبِّينَ استروحُوا إلى مثل هذه الكلماتِ، وما تُخفِي صدُورُهم أكبرُ.

تجاسرتُ فكاشفْتُكَ لَمَّا غلبَ الصبرُ ... فإنْ عنفني الناسُ ففي وجهِكَ لي عذرُ

أبصارُ المُحبين قد غضَّت من الدنيا والآخرةِ، فلم تفتح إلا عند مشاهدةِ محبوبِهِم يومَ المزيدِ.

أروحُ وقد ختمتَ على فؤادي ... بحبِّك أنْ يحلَّ به سواكَا
فلو أنِّي استطعتُ غضضتُ طَرْفِي ... فلم أنظرْ به حتَّى أراكَا
أحبُّكَ لا ببعضِي بلْ بكُلِّي ... وإنْ لم يُبقِ حبُّكَ لي حِراكَا
وفي الأحبابِ مخصوصٌ بوجدٍ ... وآخرُ يدَّعِي معي اشتراكَا
إذا اشتبكتْ دموعِي في خدودِي ... تبيَّن من بكَى ممَّن تباكَا
فأمَّا من بكَى فيذوبَ وجْدًا ... وينطقُ بالهوى من قد تشَاكَا

كان سُمنونُ المُحبُّ يُنشدُ:

وكـان فـؤادِي خـاليًا قـبل حُـبِّكُمُ   وكـان بذكـرِ الخلقِ يـلهُـو ويمرحُ
فلمَّـا دعَـا قـلبِي هواكَ أجـابَهُ   فلـستُ أراهُ عـن فِنـائكَ يـبـرحُ
رُمـيت ببـعـدٍ عـنكَ إنْ كنتُ كـاذبًا   وإن كنتُ في الدنـيـا بغـيـرِك أفـرحُ
وإنْ كـان شيءٌ بالـبـلادِ بأسـرِهَا   إذا غـبتَ عن عـينِي لعـيني يملحُ
فإنْ شئَتَ واصِلْني وإنْ شئت لا تصِل   فلستُ أرى قلبِـي لغـيـرِكَ يصلُحُ[1]

* * *

(١) «شرح حديث: لبيك اللهم لبيك» (ص ٨٣ ـ ٩٤).

سُورَةُ هُودٍ

قوله تعالى: ﴿أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

وخرَّج البخاريُّ في «تفسيرِهِ»[1] عن ابنِ عباسٍ: في قولِهِ تعالى: ﴿**أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا مِنْهُ**﴾ [هود:٥]: إنها نزلتْ في قومٍ كانُوا يجامعونَ نساءَهم، ويتخلون، فيستحيونَ من اللَّهِ، فنزلتِ الآيةُ.

وكان الصِّدِّيقُ يقولُ: استحيُوا من اللَّهِ، فإني أذهبُ إلى الغائط فأظلُّ متقنعًا بثوبي حياءً من ربِّي عزَّ وجلَّ.

وكان أبو موسى إذا اغتسلَ في بيتٍ مظلمٍ، لا يقيمُ صُلْبَه، حياءً من اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

قال بعضُ السلفِ: خَفِ اللَّهَ على قدرِ قدرتِهِ عليكَ، واسْتَحِ منه على قدر قُربه منك.

وقد يتولدُ الحياءُ من اللَّهِ من مطالعةِ النِّعَمِ، فيستحيي العبدُ من اللَّهِ أنْ يستعينَ بنعمتِهِ على معاصِيه، فهذا كلُّه من أعْلى خصالِ الإيمان[2].

* * *

---

(١) البخاري (٦/ ٩١).

(٢) «فتح الباري» (٩٥ ـ ٩٦).

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾

وقولُهُ ﷺ لأبي هريرةَ لَمَّا سأله: ممَّ خُلِقَ الخَلْقُ؟ فقال لهُ: «من الماء»[1]، يدلُّ على أنَّ الماءَ أصلُ جميعِ المخلوقاتِ ومادَّتُها، وجميعُ المخلوقاتِ خُلِقَتْ منه.

وفي «المسندِ» من وجهٍ آخرَ عن أبي هريرةَ رضي اللَّهُ عنه، قالَ: قلْتُ: يا رسولَ اللَّه، إذا رأيتُك طابَتْ نفسِي وقرَّتْ عيني، فأنبئني عن كلِّ شيءٍ، فقال: «كُلُّ شيءٍ خُلِقَ من ماءٍ»[2].

وقد حكى ابنُ جريرٍ وغيرُه، عن ابنِ مسعودٍ ﷺ، وطائفةٍ من السَّلفِ: أنَّ أوَّلَ المخلوقاتِ الماءُ.

وروى الجُوزَجانيُّ بإسنادِهِ عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمروٍ أنَّه سئلَ عن بدءِ الخلْقِ، فقال: من ترابٍ، وماءٍ، وطينٍ، ومن نارٍ، وظلمةٍ. فقيل له: فما بدءُ الخلقِ الذي ذكرْتَ؟ قال: من ماءٍ يَنْبُوعٍ.

وقد أخبرَ اللَّهُ تعالى في كتابِهِ أنَّ الماءَ كان موجودًا قبلَ خلْقِ السماواتِ والأرضِ، فقالَ تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود:٧].

وفي «صحيحِ البخاريِّ» عن عِمْرانَ بنِ حُصينٍ، عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «كانَ اللَّهُ ولم يكنْ شيءٌ قبلَهُ ـ وفي روايةٍ ـ [«معه»] ـ، وكان عرشُهُ على الماءِ، وكتبَ في الذِّكرِ كلَّ شيءٍ ثم خلقَ السماواتِ والأرضَ»[3].

---

(١) أخرجه: الترمذي (٢٥٢٦).

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٢٩٥، ٣٢٣، ٣٢٤، ٤٩٣)، وهو جزء من حديث.

(٣) أخرجه: البخاري (٤/ ١٢٨ ـ ١٢٩).

وفي «صحيحِ مسلمٍ» عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو، عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «**إنَّ اللَّه قدَّرَ مقاديرَ الخلائقِ قبْلَ أن يخلقَ السماواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ، وكان عرشُهُ على الماءِ**»(١).

وروى ابنُ جريرٍ، وغيرُه عن ابنِ عباسٍ: إنَّ اللَّه عزَّ وجلَّ كان عرشُهُ على الماءِ ولم يخلقْ شيئًا غيرَ ما خلقَ قبلَ الماءِ، فلمَّا أرادَ أنْ يخلُقَ الخلْقَ أخرجَ من الماءِ دُخانًا فارتفعَ فوقَ الماءِ، فسمَا عليه فسُمِّيَ سماءً، ثمَّ أيبسَ الماءَ فجعلَهُ أرضًا واحدةً، ثم فتقَها فجعلهَا سبْعَ أرضينَ، ثم استَوى إلى السَّماءِ وهي دُخانٌ، وكان ذلك الدُّخانُ من نفَسِ الماءِ حين تنفَّسَ، ثم جعلَها سماءً واحدةً، ثم فتقها فجعلَها سبْعَ سماواتٍ.

وعن وهْبٍ: إنَّ العرشَ كان قبل أن تُخلقَ السماواتُ والأرضُ على الماءِ، فلمَّا أراد اللَّهُ أن يخلُقَ السماواتِ والأرضَ قبضَ من صفاءِ الماء قبضةً، ثم فتح القبضةَ فارتفعَتْ دُخانًا، ثم قضاهُنَّ سبْعَ سموات في يومينِ، ثم أخذَ طينةً من الماءِ فوضعها في مكانِ البيت، ثم دحا الأرضَ منها.

وقال بعضُهم: خلقَ اللَّهُ الأرضَ أولاً، ثم خلقَ السماءَ، ثم دحا الأرضَ بعدَ أن خلقَ السماءَ. وقيل: خلقَ اللَّهُ تعالى زمردةً خضراءَ كغلظِ السماواتِ والأرضِ، ثم نظرَ إليها نظرَ العظمةِ، فانْماعَتْ، يعني ذابتْ فصارتْ ماءً، فمن ثمَّ يُرى الماءُ دائمًا يتحرَّك من تلكَ الهيبةِ.

ثم إنَّ اللَّهَ تعالى رفعَ من البحرِ بخارًا، وهو الدُّخانِ الذي ذكرهُ في قولِه: ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ**﴾ [فصلت:١١]، فخلقَ السماءَ من الدُّخان،

---

(١) أخرجه: مسلم (٨/ ٥١).

وخلقَ الأرضَ من الماءِ، والجبالَ من موجِ الماءِ، وقال وهْب: أوَّلُ ما خلقَ اللَّهُ تعالى مكانًا مظلمًا، ثم خلقَ جوهرةً فأضاءتْ ذلكَ المكانَ، ثم نظر إلى الجوهرةِ نظرةَ الهيبةِ فصارتْ ماءً، فارتفعَ بخارُها وزَبَدُها، فخلقَ من البخارِ السماواتِ، ومن الزَّبَدِ الأرضينَ.

وروى عبدُ اللَّهِ بنُ عمرٍو، عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ خلقَ خلْقَهُ من ظُلْمَةٍ، ثم ألقى عليهِم من نورِهِ، فمن أصابَهُ يومئذٍ من ذلكَ النُّورِ اهْتَدَى، ومن أخطأهُ ضلَّ**»(١).

وقال عمرُ بنُ الخطابِ ﷺ لكعبِ الأحبارِ: ما أوَّلُ شيءٍ ابتدأَ تعالى من خلقِهِ؟ قال كعبٌ: كتبَ اللَّهُ كتابًا لم يكتبْه قلمٌ ولا دواةٌ، أي مداد؛ كتابَهُ الزَّبرجدُ واللؤلؤ والياقوتُ: إنني أنا اللَّهُ لا إله إلا أن وحدي لا شريكَ لِي، وأنَّ محمدًا عبدِي ورسولِي، سبقَتْ رحمتِي غضبِي، قال كعبٌ: فإذا كانَ يومُ القيامةِ أخرج ذلك الكتابَ، فيخرجُ من النارِ مثلي عددِ أهلِ الجنَّةِ فيدخلهُمُ الجنةَ.

وقال سلمانُ وعبدُ اللَّهِ بن عمرٍو: إنَّ للَّه تعالى مائةَ رحمةٍ كما بين السماءِ والأرضِ، فأنزلَ منها رحمةً واحدةً إلى أهلِ الدنيا، فبها يتراحمُ الجنُّ والإنسُ، وطيرُ السماءِ، وحيتانُ الماءِ، وما بين الهواءِ، ودوابُّ الأرضِ، وهوامُّها، وادَّخر عنده تسعًا وتسعينَ رحمةً، فإذا كان يومُ القيامةِ أنزلَ تلكَ الرحمةَ إلى ما عنده فيرحمُ عبادَهُ، والآثارُ في هذا البابِ كثيرةٌ، وهذا كلُّه يُبيِّنُ أنَّ السماواتِ والأرضَ خُلِقت من الماءِ، والخلافُ في أنَّ الماءَ هلْ هو أوَّلُ

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ١٧٦، ١٩٧).

المخلوقاتِ أم لا مشهورٌ، وحديثُ أبي هريرةَ يدُلُّ على أنَّ الماءَ مادَّةُ جميعِ المخلوقاتِ، وقد دلَّ القرآنُ على أنَّ الماءَ مادةُ جميعِ الحيواناتِ، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء:٣٠]، وقال تعالى: ﴿واللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾ [النور:٤٥] وقولُ مَنْ قال: إنَّ المرادَ بالماءِ النُّطْفةُ التي يُخلَقُ منها الحيواناتُ بعيدٌ لوجهينِ:

أحدهما: أنَّ النُّطفَةَ لا تُسمّى ماءً مطلقًا بل مقيَّدًا، لقوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ [الطارق:٦-٧]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات:٢٠].

والثاني: أنَّ من الحيواناتِ ما يتولَّدُ من غيرِ نُطْفَةٍ، كدودِ الخلِّ، والفاكهةِ ونحوِ ذلك، فليس كلُّ حيوانٍ مخلوقًا من نُطفةٍ، والقرآنُ دلَّ على خَلْقِ جميعِ ما يدِبُّ وما فيه حياةٌ من ماءٍ، فعُلِمَ بذلك أن أصلَ جميعِها الماءُ المطلقُ.

ولا ينافي هذا قولَهُ تعالى: ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ [الحجر:٢٧]، وقولَ النبيِّ ﷺ: «خُلِقَتِ الملائكةُ من نُورٍ»(١)، فإنَّ حديثَ أبي هريرةَ ﷺ، دلَّ على أنَّ أصلَ النُّورِ والنَّارِ الماءُ، كما أنَّ أصلَ التُّرابِ الذي خُلِقَ منهُ آدمُ الماءُ، فإنَّ آدمَ خُلِقَ من طينٍ، والطينُ ترابٌ مختلطٌ بماءٍ، والترابُ خُلِقَ من الماءِ كما تقدَّمَ عن ابنِ عباسٍ، وغيرِهِ، وزعمَ مُقاتلٌ: أنَّ الماءَ خُلِقَ من النُّورِ، وهو مردودٌ بحديثِ أبي هريرة هذا وغيرِه، ولا يُستنكَرُ خَلْقُ النَّارِ من الماءِ، فإنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ جمعَ بقدرته بين الماءِ والنَّارِ في الشَّجرِ

(١) أخرجه: مسلم (٨/ ٢٢٦).

الأخضَرِ، وجعلَ ذلك من أدلةِ القُدرةِ على البَعْثِ، وذكر الطبائعيونَ: أنَّ الماءَ بانحـدارِهِ يصيـرُ بُخارًا، والـبخـارُ ينقلبُ هواءً، والهـواءُ ينقلبُ نارًا، واللَّه أعلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

قال تعالى: ﴿أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ [هود:٨]، والمرادُ: وقـتُ مجيءِ العذابِ، وقـد يكونُ ليلاً ويكونُ نهارًا، وقد يسـتمرُ وقد لا يسـتمرُ، ويقالُ: يومُ الجَمَلِ، ويوم صِفِّين، وكل منهما كان عدةَ أيامٍ(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

وخرَّج مسلمٌ من حـديثِ أبي هريرةَ ﷺ، سمعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ: «إنَّ أوَّلَ الناسِ يُقضى يومَ القيـامة عليه رجلٌ استُشْهِدَ، فـأُتِي به، فعرَّفه نعَمَهُ، فعـرفَهَا، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فـيكَ حتَّى استُشْهدتُ، قال: كذبتَ، ولكنَّكَ قاتلتَ، لأنْ يُقالَ: جـريءٌ، فقـد قيل، ثم أُمـرَ به، فسُحبَ علـى وجهه، حـتى أُلقِيَ في النَّارِ، ورجلٌ تعلَّمَ العلمَ وعلَّمَهُ، وقـرأ القُرآنَ، فأُتِي به، فعرَّفَـهُ نعمَهُ فعرَفَهـا، قال: فما عملْتَ فـيها؟ قال: تعلَّمتُ العِلْمَ وعـلَّمتُه، وقرأتُ فـيك القرآنَ، قال: كـذبتَ، ولكنَّك تعلَّمتَ العلمَ،

(١) «اللطائف» (٥٨ ـ ٦٢).
(٢) «فتح الباري» (١/ ٥٢٠).

ليُقالَ: عالمٌ، وقرأتَ القرآنَ ليُقالَ: قارئٌ، فقدْ قيلَ، ثمَّ أُمِرَ به ، فسُحِبَ على وجهِهِ حتى أُلقيَ فِي النَّارِ، ورجلٌ وسَّعَ اللَّهُ عليه، وأعطاهُ من أصنافِ المالِ كلِّه ، فأُتِي به، فعرَّفهُ نِعَمَهُ، فعرفَها، قالَ: فما عملْتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيلٍ تحبُّ أن يُنفقَ فيها إلا أنفقتُ فِيها لك، قالَ: كذبتَ، ولكنَّكَ فعلتَ، ليُقالَ: هو جَوادٌ، فقدْ قيل، ثمَّ أُمِرَ به، فسُحِبَ على وجهِهِ حتَّى أُلقيَ في النَّارِ»(١).

وفي الحديثِ: أنَّ معاويةَ لما بَلَغَهُ هذا الحديثُ، بكَى حتَّى غُشي عليه، فلمَّا أفاقَ، قال: صدقَ اللَّهُ ورسولُهُ، قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿من كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِين لَيْسَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ إِلاَّ النَّارُ﴾(٢) [هود:١٥-١٦].

وقد وردَ الوعيدُ على تعلُّمِ العلمِ لغيرِ وجهِ اللَّهِ، كما خرَّجه الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ وابنُ ماجه، من حديثِ أبي هريرةَ ﵁، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «منْ تعلَّمَ عِلمًا ممَّا يُبْتَغَى به وجْهُ اللَّه، لا يتعلَّمُه إلا ليُصيبَ به عرَضًا من الدنيا، لم يَجِدْ عَرْفَ الجنَّةِ يومَ القيامةِ» يعني: ريحَها(٣).

وخرَّجَ الترمذيُّ من حديثِ كعبِ بنِ مالكٍ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «منْ طلَبَ العلمَ ليُمارِي به السُّفهاءَ، أو يُجارِي به العُلمَاءَ، أو يَصرِفَ به وجُوهَ الناسِ إليه، أدخلَهُ اللَّهُ النارَ»(٤).

وخرَّجه ابنُ ماجهَ بمعناهُ من حديثِ ابنِ عمرَ، وحذيفةَ، وجابرٍ، عنِ النبيِّ

(١) أخرجه: مسلم (٦/٤٧).

(٢) أخرجه: الترمذي (٢٣٨٢)، وابن حبان (٤٠٨).

(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/٣٣٨)، وأبو داود (٣٦٦٤)، وابن ماجه (٢٥٢)، وابن حبان (٧٨).

(٤) أخرجه: الترمذي (٢٦٥٤).

ﷺ، ولفظُ حديثِ جابرٍ: «**لا تعلَّموا العلمَ لتُباهُوا به العُلَماءَ، ولا لتُمارُوا به السُّفهاءَ، ولا تخيَّروا به المجالسَ، فمنْ فعلَ ذلك، فالنَّارَ النَّارَ**»(١).

وقال ابنُ مسعودٍ: لا تعلَّموا العلمَ لثلاثٍ: لتماروا به السفهاءَ، أو لتُجادِلوا به الفُقهاءَ، أو لتصرفُوا به وجُوهَ الناس إليكم، وابتغُوا بقولِكُم وفعلِكم ما عندَ اللَّهِ، فإنَّه يبقى ويذهب ُما سواهُ.

وقد وردَ الوعيدُ على العملِ لغيرِ اللَّهِ عمومًا، كما خرَّج الإمامُ أحمدُ من حديثِ أُبيِّ بنِ كعبٍ، عنِ النبيِّ ﷺ، قال: «**بَشِّرْ هذه الأمَّةَ بالسَّناء والرِّفْعَة والدِّينِ والتمكينِ في الأرض، فمن عمِلَ منهم عملَ الآخرةِ للدُّنيا، لم يكنْ له في الآخرةِ من نصيب**»(٢)(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾

قال اللَّهُ تعالى: ﴿**لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ**﴾ [الأنبياء:١٠٠]، وقال تعالى: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ**﴾ [هود:١٠٦].

قال الربيعُ بنُ أنسٍ: الزفيرُ في الحلقِ، والشهيقُ في الصدرِ، وقال معمرٌ عن قتادةَ: صوتُ الكافرِ في النارِ مثل صوتِ الحمارِ، أوَّلهُ زفيرٌ وآخرهُ شهيقٌ، وقال تعالى: ﴿**وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا**﴾ [فاطر:٣٧].

---

(١) حديث ابن عمر: رواه ابن ماجه (٢٥٣).
وحديث حذيفة: أخرجه ابن ماجه (٢٥٩).
وحديث جابر: أخرجه ابن ماجه (٢٥٤)، وابن حبان (٧٧).
(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ١٣٤).
(٣) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٢ ـ ٤٥).

وفي حديثِ حارثةَ: «وكأنِّي أنظرُ إلى أهلِ النَّارِ، يتعاوونَ فيها».

وروى معاويةُ بنُ صالحٍ عن سليمِ بنِ عامرٍ عن أبي أمامةَ عنِ النبيِّ ﷺ، قال: «رأيتُ رُؤْيا» فذكرَ حديثًا طويلاً وفيه قال: «ثم انطلقْنَا فإذا نحن نَرى دُخانًا ونسمعُ عواءًا، قلتُ: ما هذا؟ قال: هذه جهنَّمُ»(١) خرَّجه الطبرانيُّ وغيرُهُ.

وروى الأعمشُ عن يزيدَ الرقاشيِّ، عن أنسٍ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «يُلْقى البُكاءُ على أهلِ النارِ فيبكونَ حتى تنقطعَ الدموعُ، ثم يبكونَ الدمَ حتى يصيرَ في وجوهِهِم كهيئةِ الأخدودِ، ولو أرسلتْ فيه السفنُ لجرتْ»(٢) خرَّجه ابنُ ماجه، ورُوِيَ عن الأعْمش عن عمرِو بنِ مرَّةَ ويزيدَ الرقاشيِّ، عن أنسٍ موقوفًا من قولِهِ، ورواه سعيدُ بنُ سلمةَ عن يزيدَ الرقاشيِّ، قالَ: بلغَنا هذا الكلامُ ولم يسندْهُ ولم يرفعْهُ.

وروى سلامُ بنُ مسكينٍ عن قتادةَ عن أبي بردةَ بنِ أبي موسى عن أبيه، قالَ: إنَّ أهلَ النَّارِ ليبكونَ الدموعَ في النَّارِ حتَّى لو أجريتْ السفنُ في دموعِهِم لجرتْ، ثم إنهم ليبكونَ بالدمِ بعد الدموعِ ولمثلِ ما هُم فيه فليُبْكَ.

وقال صالحُ المرِّيُّ: بلغني أنهم يصرخونَ في النَّارِ حتى تنقطعَ أصواتُهم فلا يبقى منهم إلا كهيئةِ الأنينِ من المدنفِ.

وقال ابنُ أبي إسحاقَ عن محمدِ بنِ كعبٍ: زفرُوا في جهنَّم فزفرتِ النارُ، وشهقوا فشهقتِ النارُ بما استحلُّوا من محارمِ اللَّهِ؛ قال: والزفيرُ من النفسِ والشهيقُ من البكاءِ.

وقال عليُّ بنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ في قولِهِ تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ

---

(١) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (٨/٧٦٦٦).

(٢) أخرجه: ابن ماجه (٤٣٢٤).

وَشَهِيقٌ﴾ قال: صوتٌ شديدٌ وصوتٌ ضعيفٌ.

وروى مالكٌ عن زيدِ بنِ أسلمَ في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم:٢١]: قال زيدٌ: صبرُوا مائة عامٍ ثم بكَوا مائة عامٍ ثم قالُوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾ [إبراهيم:٢١].

وروى الوليدُ بنُ مسلمٍ عن أبي سلمةَ الدوسي - واسمه ثابتُ بنُ شريحٍ - عن سالمِ بنِ عبدِ اللَّهِ عن النبيِّ ﷺ أنه كان يدعُو: «اللَّهُمَّ ارزُقني عينينِ هطالتينِ يشفيانِ القلبَ بذروفِ الدموعِ من خشيتكَ قبلَ أن يكونَ الدمعُ دمًا والأضراسُ جمرًا»[1]. سالمُ بنُ عبدِ اللَّهِ هو المحاربيُّ وحديثُه مرسل، وظنَّ بعضهُم أنه سالمُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرَ، وزادَ بعضُهم في الإسنادِ: عن أبيهِ، ولا يصحُّ ذلكَ كلُّه.

وروى الوليدُ بنُ مسلمٍ أيضًا عن عبدِ الرحمنِ بنِ يزيدَ بنِ جابرٍ، عن إسماعيلَ بنِ عبيدِ اللَّهِ، قال: إنَّ داودَ - عليه السلامُ -، قالَ: ربِّ ارزقني عينين هطالتينِ يبكيانِ بذروفِ الدموعِ ويشفياني من خشيتكَ قبلَ أن يعودَ الدمعُ دمًا والأضراسُ جمرًا، قال: وكان داودُ - عليه السلامُ - يعاتَبُ في كثرةِ البكاءِ، فيقولُ: دعُوني أبْكِي قبلَ يوم البكاءِ، قبل تحريقِ العظامِ واشتعالِ اللِّحى، وقبل أن يأمر بي ملائكةً غلاظًا شدادًا لا يعصونَ اللَّهَ ما أمرَهُم ويفعلونَ ما يؤمرونَ.

وروى يونسُ بنُ ميسرةَ عن أبي إدريس الخولانيِّ، قالَ: إنَّ داودَ - عليه

---

(١) أخرجه: ابن المبارك في «الزهد» (ص ١٦٥)، وأحمد في «الزهد» (ص ١٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٩٦/٢).

السلامُ ـ ، قال: أبكي نفسي قبلَ يوم البكاءِ، أبكي نفسِي قبلَ أن لا ينفعَ البكاءُ، ثم دعا بجمرٍ فوضعَ يدَهُ عليه حتى إذا حرَّهُ رفعها، وقال: أوه لعذابِ اللَّهِ، أوه أوه قبل أن لا ينفع أوه.

وروى ثابتُ البنانيُّ عن صفوانَ بنِ محرزٍ قالَ: كان لداودَ ـ عليه السلامُ ـ يومٌ يتأوَّهُ فيه يقول: أوَّه أوَّه من عذابِ اللَّهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ قبل أن لا ينفعَ أوَّه، قال: فذكرَها صفوانُ ذاتِ يومٍ في مجلسٍ فبكى حتى غلبَهُ البكاءُ، فقامَ.

وقال عبدُ اللَّهِ بنُ رياحٍ الأنصاريُّ، سمعتُ كعبًا، يقولُ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ [هود:٧٥] قال: كان إذا ذكر النارَ قال: أوَّاه من النَّارِ أوَّاه من النارِ. وعن أبي الجوزاءِ وعبيدِ بنِ عميرٍ نحوُ ذلك.

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسنادٍ له عن رياحٍ القيسيِّ: أنه مرَّ بصبيٍّ يبكي فوقفَ عليه يسأله: ما يبكيك يا بني، وجعل الصبيُّ لا يحسنُ يجيبُهُ ولا يردُّ عليه شيئًا ، فبكى رياحٌ ثم قال: ليس لأهلِ النارِ راحةٌ ولا معول إلا البكاءُ، وجعل يبكي.

وبإسناد له آخرَ: أنَّ رياحًا القيسيَّ زارَ قومًا، فبكى صبيٌّ لهم من الليل، فبكى رياحٌ لبكائِهِ حتى أصبح، فسئلَ بعد ذلك عن بكائه، فقال: ذكر ببكاءِ الصبي بكاءَ أهلِ النارِ في النارِ ليس لهم نصيرٌ، ثم بكى[1] .

* * *

(١) «التخويف من النار» (١٥٩ ـ ١٦١).

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾

فإقامةُ الصلواتِ المفروضاتِ على وجهِها يوجب مُباعدة الذنوبِ، ويوجبَ ـ أيضًا ـ إنقاءَها وتطهيرَها، فإنَّ مثل الصلواتِ الخمسِ كمثل نهرٍ جارٍ، يغتسلُ فيه كلَّ يومَ خمسَ مراتٍ، وقد تقدَّم الحديثُ في ذلكَ، ويوجبُ ـ أيضًا ـ تبريدَ الحريقِ الَّذى تكسبه الذنوبُ وإطفاءَه.

وخرَّج الطبرانيُّ من حديثِ ابنِ مسعودٍ ـ مرفوعًا: «**تحترقون تحترقون حتى إذا صليتُمُ الفجرَ غسلتْهَا، ثم تحترقونَ تحترقون حتى إذا صَلَّيْتُم الظهرَ غسلتَها، ثم تحترقونَ حتى إذا صليتُم العصرَ غسلتْها، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتُم المغربَ غسلتْها، ثم تحترقون تحترقون، فإذا صليتُمُ العشاءَ غسلتْها**»(١).

وقد رُوي موقوفًا، وهو أشبهُ.

وخرَّج ـ أيضًا ـ من حديثِ أنسٍ ـ مرفوعًا: «**إن للَّه ملكًا ينادي عندَ كلِّ صلاةٍ: يا بني آدمَ، قومُوا إلى نيرانِكُم التي أوقدتمُوها على أنفسكُم فأطفئُوها**»(٢).

وخرَّج الإسماعيليُّ من حديثِ عمرَ بنِ الخطابِ ـ مرفوعًا: «**يُحْرَقونَ، فإذا صلَّوا الصبحَ غَسلتِ الصلاةُ ما كان قبلها**» حتى ذكرَ الصلواتِ الخمسِ.

ولما كانتِ الصلاةُ صلةً بين العبدِ وربِّه، وكان المصلِّي يناجِي ربَّه، وربُّه يقرِّبه منه، لم يصلحْ للدخولِ في الصلاةِ إلا منْ كان طاهرًا في ظاهرِه وباطنِه، ولذلك شرعَ للمصلِّي أن يتطهر بالماءِ، فيكفرُ ذنوبَه بالوضوءِ، ثم

(١) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٢٢٢٤)، و«الصغير» (١/ ٤٧).
(٢) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٩٤٥٢).

يمشي إلى المساجدِ فيكفر ذنوبَه بالمشي، فإنْ بقي من ذنوبِهِ شيءٌ كفرتْه الصلاةُ.

قال سلمانُ الفارسيُّ: الوضوءُ يكفِّر الجراحاتِ الصغارِ، والمشيُ إلى المسجدِ يكفِّر أكثرَ من ذلك، والصلاةُ تكفِّر أكثرَ من ذلكَ.

خرَّجه محمدُ بنُ نصرُ المروزيُّ(١) وغيرُهُ.

فإذا قامَ المصلِّي بينَ يدي ربِّه في الصلاةِ وشرعَ في مناجاتِهِ له، شُرِعَ أولَ ما يناجي ربَّه أن يسأل ربَّه أن يباعدَ بينه وبين ما يوجِبُ له البعدَ من ربِّه، وهو الذنوبُ، وأن يطهرهَ منها، ليصلحَ حينئذٍ للتقريبِ والمناجاةِ، فيستكملُ فوائدَ الصلاةِ وثمراتِها من المعرفةِ والأُنسِ والمحبةِ والخشيةِ، فتصيرُ صلاتُهُ ناهيةً له عن الفحشاء والمنكر، وهي الصلاةُ النافعةُ(٢).

* * *

وقوله ﷺ: «**وأتْبع السيِّئةَ الحسنةَ تمْحُها**» لما كانَ العبدُ مأمورًا بالتقوى في السرِّ والعلانيةِ مع أنَّه لا بدَّ أن يقعَ منه أحيانًا تفريطٌ في التقوى، إما بتركِ بعضِ المأموراتِ، أو بارتكابِ بعضِ المحظوراتِ، فأمرَهُ أن يفعلَ ما يمحُو به هذه السيئةَ وهو أن يتبعَهَا بالحسنةِ، قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ**﴾ [هود:١١٤].

وفي «الصحيحين» عن ابنِ مسعودٍ: أنَّ رجلاً أصابَ من امرأة قُبلةً، ثم أتى النبيَّ ﷺ فذكرَ ذلكَ لهُ، فسكتَ النبيُّ ﷺ حتَّى نزلتْ هذه الآيةُ، فدعاهُ

(١) في «تعظيم قدر الصلاة» (٩٩).
(٢) «فتح الباري» (٤/ ٣٤٣ ـ ٣٤٥).

فقرأها عليه، فقالَ رجلٌ: هذا له خاصةً؟ قال: «بل للناسِ عامَّة»[(١)].

وقد وصفَ اللَّهُ المتقينَ في كتابِه بمثلِ ما وصَّى به النبيُّ ﷺ في هذه الوصيةِ في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٦].

فوصفَ المتقينَ بمعاملةِ الخلقِ بالإحسانِ إليهم بالإنفاقِ، وكظمِ الغيظِ، والعفوِ عنهم، فجمعَ بين وصفِهم ببذلِ النَّدى واحتمالِ الأذى، وهذا هو غايةُ حسنِ الخلقِ الذي وصَّى به النبيُّ ﷺ لمعاذ، ثم وصفَهُم بأنهم: ﴿إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] ولم يصرُّوا عليها. فدلَّ على أن المتقينَ قد يقعُ منهم أحيانًا كبائرُ وهي الفواحشُ وصغائرُ وهي ظلمُ النفس، لكنَّهم لا يصرون عليها، بل يذكرونَ اللَّهَ عقِبَ وقوعِها، ويستغفرونه ويتوبونَ إليه منها، والتوبةُ: هي تركُ الإصرارِ.

ومعنى قولِه: ﴿ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] أي: ذكرُوا عظمتَهُ وشدَّةَ بطشِه وانتقامِه، وما توعَّد به على المعصيةِ من العقابِ، فيوجبُ ذلك لهم الرجوعَ في الحالِ والاستغفارَ وتركَ الإصرارِ، وقالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ١٤٠)، ومسلم (٨/ ١٠١).

وفي «الصحيحين» عن النبيِّ ﷺ قالَ: «أذْنبَ عبدٌ ذنبًا، فقالَ: ربِّ إنّي عملتُ ذنبًا فاغفرْ لي، فقالَ اللَّهُ: علِمَ عبدِي أنَّ له ربًّا يغفر الذنبَ، ويأخذُ بالذنبِ، قد غفرتُ لعبدِي، ثم أذنبَ ذنبًا آخرَ - إلى أن قال في الرابعةِ -: فليعملْ ما شاء»(١) .

يعني: ما دامَ على هذه الحالِ كلَّما أذنبَ ذنبًا استغفر منه.

وفي الترمذيِّ من حديث أبي بكرٍ الصدِّيقِ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «ما أصرَّ من استغْفَرَ ولو عادَ في اليومِ سبعينَ مرَّةً»(٢) .

وخرَّج الحاكمُ من حديثِ عُقبةَ بن عامرٍ أنَّ رجلاً أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ اللَّه، أحدُنا يذنبُ، قال: «يُكتبُ عليه» ، قال: ثم يستغفرُ منه، قال: «يغفرُ له، ويُتابُ عليه» ، قال: فيعودُ فيذنبُ، قال: «يكتبُ عليه» قال: ثم يستغفرُ منه ويتوبُ، قال: «يغفرُ له، ويتاب عليه، ولا يملُّ اللَّهُ حتَّى تملُّوا»(٣) .

وخرَّج الطبرانيُّ بإسنادٍ ضعيفٍ عن عائشةَ رضي الله عنها، قالتْ: جاء حبيبُ بنُ الحارثِ إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا رسولَ اللَّهِ، إنِّي رجل مِقْرافٌ للذنوبِ، قال: «فتبْ إلى اللَّهِ - عزَّ وجلَّ» ، قالَ: أتوبُ، ثم أعود، قال: «فكلما أذنبتَ، فتُبْ»، قالَ: يا رسولَ اللَّهِ إذًا تكثرُ ذنوبي، قال: «فعفو اللَّهِ أكثرُ من ذنوبِكَ يا حبيبَ بنَ الحارثِ»(٤) .

وخرَّجه بِمعناه من حديثِ أنسٍ مرفوعًا بإسنادٍ ضعيفٍ(٥) .

---

(١) أخرجه: البخاري (٩/ ١٧٨)، ومسلم (٨/ ٩٩).

(٢) أخرجه: الترمذي (٣٥٥٩)، وأبو داود (١٥١٤) عن أبي بكر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: الحاكم (١/ ٥٩)، والطبراني في «الأوسط» (٨٦٨٩).

(٤) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٤٨٥٤)، (٥٢٥٧).

(٥) وكذا أخرجه: البزار (٣٢٤٩ - كشف)، وابن عدي (٢/ ٢٣) من طريق أبي بدر بشار بن الحكم، عن ثابت، عن أنس.

وبإسناده عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو، قال: من ذكرَ خطيئةً عملَها، فوَجِلَ قلبُه منها، واستغفرَ اللَّهَ، لم يحبِسْها شيءٌ حتى يمحَاها.

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسناد عن عليٍّ، قالَ: خيارُكم كلُّ مُفتَّنٍ توَّاب، قيلَ: فإن عادَ؟ قال: يستغفرُ اللَّهَ ويتوبُ، قيل: فإن عادَ؟ قال: يستغفرُ اللَّهَ ويتوبُ، قيل: حتى متى؟ قال: حتى يكونَ الشيطانُ هو المحسورُ.

وخرَّج ابنُ ماجه من حديثِ ابنِ مسعودٍ مرفوعًا: **«التائبُ من الذَّنْبِ كمَنْ لا ذَنبَ لهُ»** (١).

وقيلَ للحسنِ: ألا يستحيي أحدُنا من ربِّه يستغفرُ من ذنوبِهِ ثم يعودُ، ثم يستغفرُ، ثم يعودُ؟ فقال: ودَّ الشيطانُ لو ظَفِرَ منكُم بهذهِ، فلا تملُّوا من الاستغفارِ.

وروي عنه أنه قال: ما أرى هذا إلا من أخلاقِ المؤمنينَ، يعني: أنَّ المؤمن كلَّما أذنبَ تابَ، وقد رُويَ **«المؤمنُ مُفَتَّنٌ توَّاب»**(٢).

وروي من حديثِ جابرٍ بإسنادٍ ضعيفٍ، مرفوعًا: **«المؤمنُ واهٍ راقعٌ، فسعيدٌ من هلكَ على رقعِهِ»** (٣).

وقال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ في خطبتِهِ: من أحسنَ منكُم، فليَحْمَد اللَّهَ، ومن أساء، فليستغفرِ اللَّهَ، فإنَّه لا بد لأقوامٍ من أن يعملُوا أعمالاً وظَّفها اللَّهُ في رقابِهم، وكتبَها عليهم، وفي روايةٍ أخرى عنه أنَّه قال: أيها الناس من ألمَّ بذنبٍ، فليستغفرِ اللَّهَ وليتبْ، فإن عادَ، فليستغفرِ اللَّهَ وليتبْ، فإن عاد،

---

(١) أخرجه: ابن ماجه (٤٢٥٠).

(٢) أخرجه: عبد اللَّه بن أحمد في «زوائد المسند» (١/ ٨٠)، وأبو يعلى (٤٨٣).

(٣) أخرجه: الطبراني في «الصغير» (١٧٢)، والبزار (٣٢٣٦ ـ كشف).

فليستغفرِ اللَّهَ وليتبْ، فإنَّما هي خطايا مطوَّقةٌ في أعناقِ الرجالِ، وإن الهلاكَ كُلَّ الهلاكِ في الإصرارِ عليها.

ومعنى هذا: أن العبدَ لا بُدَّ أن يفعلَ ما قُدِّرَ عليه من الذنوبِ كما قال النبيُّ ﷺ: «**كُتبَ على ابنِ آدمَ حظُّهُ من الزِّنى، فهُوَ مُدْرِكٌ ذلك لا محالة**»[1] ولكنَّ اللَّهَ جعلَ للعبدِ مخرجًا مما وقعَ فيه من الذنوبِ، بالتوبةِ والاستغفارِ، فإنْ فعلَ، فقدْ تخلَّصَ من شرِّ الذنوبِ، وإن أصرَّ على الذنوبِ، هلكَ.

وفي «المسندِ» من حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو، عنِ النبيِّ ﷺ قال: «**ارحَمُوا تُرْحموا واغفِروا يُغْفَرْ لكم، ويلٌ لأقْماعِ القولِ، ويلٌ للمُصرِّين الذي يُصرون على ما فعلوا وهُم يعلمون**»[2].

وفُسِّر أقماعُ القولِ: بمن كانتْ أذناهُ كالقُمعِ لما يسمعُ من الحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، فإذا دخلَ شيءٌ من ذلكَ في أذنه خرج من الأخرى ولم ينتفع بشيءٍ مما سمعَ.

وقولُهُ ﷺ: «**أتْبِعِ السيِّئةَ الحسنةَ تمحُها**» قد يُرادُ بالحسنة التوبةُ من تلكَ السيئةِ، وقد وردَ ذلك صريحًا في حديثِ مرسلٍ، خرَّجه ابنُ أبي الدنيا من «مراسيلِ محمدِ بنِ جُبير» أنَّ النبيَّ ﷺ لما بعثَ معاذًا إلى اليمن قالَ: «**يا معاذُ، اتَّقِ اللَّهَ ما استطعتَ، واعملْ بقوَّتِكَ للَّهِ عزَّ وجلَّ ما أطقْتَ، واذكرِ اللَّهَ عزَّ وجلَّ عندَ كل شجرةٍ وحجرٍ، وإنْ أحدثت ذنبًا، فأحدثْ عندهُ توبةً، إنْ سرًّا فسرٌّ وإن علانيةً فعلانية**» وخرَّجه أبو نعيمٍ بمعناهُ من وجهٍ آخرَ ضعيفٍ عن معاذٍ[3].

---

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ٦٧)، ومسلم (٨/ ٥٢).

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ١٦٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٠).

(٣) أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٤٠ ـ ٢٤١).

وقال قتادةُ: قـال سلمانُ: إذا أسأتَ سيئةً في سريـرةٍ، فأحسنْ حسنةً في سريرةٍ، وإذا أسأتَ سيـئةً في علانيةٍ، فأحسنْ حـسنةً في علانيةٍ، لكي تكون هذه بهذهِ، وهذا يحتملُ أنه أراد بالحسنة التوبةَ أو أعمَّ منها.

وقد أخبر اللّـهُ تعالى في كتابِهِ أن من تابَ من ذنبِه، فإنه يغـفر له ذنبُه أو يتابُ عليه في مواضعَ كثيرةٍ، كقولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء:١٧]، وقولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١١٩]، وقولِه: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [الفرقان:٧٠]، وقولِه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه:٨٢]، وقولِه: ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم:٦٠]، وقولِه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران:١٣٥، ١٣٦] الآيتينِ.

قال عبدُ الـرزاقِ: أخبرنا جعفرُ بنُ سليـمانَ، عن ثابتٍ، عن أنسٍ، قال: بلغني أن إبليسَ حينَ نزلتْ هذه الآيةُ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ الآية [آل عمران:١٣٥]، بكَى.

ويُروى عن ابنِ مسعودٍ، قالَ: هذه الآيةُ خـيرٌ لأهلِ الذنوبِ من الدنيا وما فيـها. وقال ابنُ سيـرينَ: أعطانا اللَّهُ ـ عزَّ وجلَّ ـ هذه الآية مكانَ مـا جعلَ لبني إسرائيل في كفاراتِ ذنوبِهِم.

وقال أبو جعفر الرازيُّ، عن الربيعِ بنِ أنسٍ، عن أبي العاليةِ قال: قال رجلٌ: يا رسولَ اللَّهِ، لو كانتْ كفاراتُنا ككفاراتِ بني إسرائيلَ، فقال النبيُّ ﷺ: «**اللَّهُمَّ لا نبغيها ـ ثلاثًا ـ ما أعطاكُمُ اللَّهُ خيرٌ مما أعطى بني إسرائيل، كانتْ بنو إسرائيل إذا أصاب أحدُهُم الخطيئةَ، وجدها مكتوبةً على بابِهِ وكفارتَها، فإنْ كفَّرها كانتْ له خزيًا في الدنيا، وإن لم يكفرْها كانت له خزيًا في الآخرةِ، فما أعطاكُمُ اللَّهُ خيرٌ مما أعطى بني إسرائيل قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾**» (1) [النساء: ١١٠].

وقال ابنُ عباسٍ في قولِهِ تعالى: **﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾** [الحج: ٧٨] قال: هو سعةُ الإسلامِ، وما جعلَ اللَّهُ لأمَّةِ محمدٍ من التوبةِ والكفَّارةِ.

وظاهرُ هذه النصوصِ يدلُّ على أنَّ من تابَ إلى اللَّه توبةً نصوحًا، واجتمعتْ شروطُ التوبةِ في حقِّه، فإنه يُقطعُ بقبولِ اللَّهِ توبته، كما يُقطع بقبولِ إسلامِ الكافرِ إذا أسلمَ إسلامًا صحيحًا، وهذا قولُ الجمهورِ، وكلامُ ابنِ عبدِ البرِّ يدلُّ على أنّه إجماعٌ.

ومن الناسِ من قال: لا يقطعُ بقبولِ التوبةِ، بل يُرجَى، وصاحبُها تحتَ المشيئةِ، وإن تابَ، واستدلُّوا بقولِهِ: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾** [النساء: ٤٨] فجعلَ الذنوبَ كلَّها تحتَ مشيئته، وربما استدلَّ بمثلِ قولِهِ تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾** [التحريم: ٨]، وبقولِهِ: **﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَن يَكُونَ مِنَ**

---

(1) ذكره ابن كثير في «التفسير» (١/ ٢١٩)، وأبو جعفر الرازي ضعيف، والحديث مرسل.

الْمُفْلِحِينَ﴾ [القصص:٦٧] ، وقوله: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١] وقوله: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٠٢].

والظاهرُ: أن هذا في حقِّ التائبِ، لأنَّ الاعترافَ يقتضي الندمَ، وفي حديثِ عائشةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ العبدَ إذا اعترفَ بذنبِهِ، ثم تابَ، تاب اللَّه عليه»(١) والصحيحُ قولُ الأكثرينَ.

وهذه الآياتُ لا تدلُّ على عدمِ القطعِ، فإنَّ الكريمَ إذا أطمعَ، لم يقطعْ من رجائه المُطْمَع، ومنْ هنا قال ابنُ عباسٍ: إنَّ «عسى» من اللَّهِ واجبة، نقله عنه عليُّ بنُ أبي طلحة.

وقد وردَ جزاءُ الإيمانِ والعملِ الصالحِ بلفظ: «عسى» أيضًا، ولم يدلَّ ذلك على أنه غير مقطوعٍ به، كما في قولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَىٰ أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [التوبة:١٨].

وأما قولُهُ: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨] ، فإنَّ التائبَ ممن شاء أن يغفرَ له، كما أخبرَ بذلك في مواضعَ كثيرةٍ من كتابِهِ.

وقد يُراد بالحسنةِ في قولِ النبيِّ ﷺ: «أتبع السيِّئة الحسنة» ما هو أعمُّ من التوبة، كما في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:١١٤].

---

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ٢١٩)، (٤/ ٤٠)، (٥/ ١١٠)، ومسلم (٨/ ١١٢)، وهو جزء من حديث الإفك الطويل.

وقد رُوي من حديث معاذ أنَّ الرجلَ الذي نزلتْ بسببه هذه الآيةُ أَمَرَهُ النبيُّ ﷺ أن يتوضأ ويُصلِّي[(١)].

وخرَّج الإمامُ أحمدُ، وأبو داودَ والترمذيُّ، والنسائيُّ، وابنُ ماجه من حديثِ أبي بكرٍ الصديقِ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «**ما من رجلٍ يذنب ذنبًا ثم يقومُ فيتطهَّرُ ثم يُصلِّي ثم يستغفرُ اللَّهَ إلا غفرَ اللَّهُ له**» ثم قرأ هذه الآيةَ: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ**﴾[(٢)] [آل عمران: ١٣٥].

وفي «الصحيحين» عن عثمانَ أنه توضأ، ثم قال: رأيتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ توضَّأ نحوَ وضوئي، هذا ثم قال: «**من توضَّأ نحو وضوئي هذا ثم صلَّى ركعتينِ لا يُحدِّثُ فيهما نفسَهُ، غُفِرَ له ما تقدَّمَ من ذنبه**»[(٣)].

وفي «مسند الإمامِ أحمدَ» عن أبي الدرداءِ قال: سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «**منْ توضَّأ فأحسنَ الوضوءَ، ثم قامَ فصلَّى ركعتينِ أو أربعًا، يُحسنُ فيهِمَا الركوعَ والخشوعَ، ثم استغفرَ اللَّهَ عزَّ وجلَّ غُفِرَ له**»[(٤)].

وفي «الصحيحينِ» عن أنسٍ قال: كُنتُ عندَ النبيِّ ﷺ، فجاءه رجلٌ، فقالَ: يا رسولَ اللَّهِ إني أصبتُ حدًّا، فأقمْهُ عليَّ، قال: ولم يسألْه عنه، فحضرتِ الصلاةُ فصلَّى مع النبيِّ ﷺ فلمَّا قضى النبيُّ ﷺ الصلاةَ قامَ إليه الرجلُ فقالَ: يا رسولَ اللَّهِ، إنِّي أصبتُ حدًّا، فأقم فيَّ كتابَ اللَّهِ، قالَ: «**أليس قد صلَّيتَ معنا؟**» قال: نعم، قالَ: «**فإنَّ اللَّهَ قد غفر لك ذنبَك ـ أو**

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٤٤)، والترمذي (٣١١٣).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢، ١٠)، وأبو داود (١٥٢١)، والترمذي (٤٠٦)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٦٦١٠).

(٣) أخرجه: البخاري (١/ ٥١)، ومسلم (١/ ١٤١).

(٤) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٥٠)، والطبراني في «الدعاء» (١٨٤٨).

قال ـ: حدَّك»[1] .

وخرَّجه مسلمٌ [2] بمعناه من حديثِ أبي أمامةَ.

وخرَّجه ابنُ جريرٍ الطبريُّ من وجهٍ آخر عن أبي أُمامةَ، وفي حديثِهِ قال: «فإنَّك منْ خطيئتك كما ولدتْك أمُّك، فلا تعُدْ»، وأنزل اللَّهُ: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [3] الآية [هود:١١٤] .

وفي «الصحيحينِ» عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «أرأيتُم لو أنَّ نهرًا ببابِ أحدِكم يغْتسلُ فيه كلَّ يومٍ خمسَ مرَّاتٍ هل يبقى من درنه شيءٌ؟» قالُوا: لا يبقى من درنه شيءٌ، قالَ: «فذلكَ مثلُ الصَّلواتِ الخمسِ يمحُو اللَّه بهنَّ الخطايا» .

وفي «صحيحِ مسلمٍ» عن عثمانَ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «من توضَّأ فأحسنَ الوضوءَ، خرجتْ خطاياه من جسدهِ حتى تخرجَ من تحت أظفاره»[4] .

وفيه عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «ألا أدلُّكم على ما يمحُو اللَّهُ به الخطايا، ويرفعُ به الدَّرجاتِ؟» قالُوا: بلى يا رسولَ اللَّهِ، قالَ: «إسباغُ الوضوءِ على المكارِهِ، وكثرةُ الخُطا إلى المساجدِ، وانتظارُ الصلاةِ بعد الصَّلاةِ، فذلكُم الرباطُ، فذلكُم الرباط»[5].

وفي «الصحيحينِ» عن أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قال: «منْ صامَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبِهِ، ومنْ قامَ رمضان إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تقدَّمَ منْ ذنبِهِ، ومن قامَ ليلةَ القدرِ إيمانًا واحتسابًا، غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبِهِ»[6] .

---

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ٢٠٦)، ومسلم (٨/ ١٠٢).

(٢) أخرجه: مسلم (٨/ ١٠٣).

(٣) أخرجه: الطبري في «التفسير» (١٢/ ١٣٦).

(٤) أخرجه: مسلم (١/ ١٤٩).

(٥) أخرجه: مسلم (١/١٥١).

(٦) أخرجه: البخاري (٣/ ٣٣)، ومسلم (٢/ ١٧٧).

وفيهما عن أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «منْ حجَّ هذا البيتَ، فلم يرْفُثْ، ولم يَفسُقْ، خرج من ذنوبِهِ كيومِ ولدتْه أمُّه»(١) .

وفي «صحيحِ مسلمٍ» عن عمرِو بنِ العاصِ عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الإسلامَ يهدِمُ ما كانَ قبله، وإن الهجرةَ تهدِمُ ما كان قبلها، وإنَّ الحجَّ يهدِمُ ما كان قبلَه»(٢) .

وفيه من حديثِ أبي قتادةَ، عنِ النبيِّ ﷺ قالَ في صومِ عاشوراء: «أحتسبُ على اللَّهِ أن يُكفِّرَ السنةَ التي قبلَهُ»، وقال في صومِ يوم عرفةَ: «أحتسبُ على اللَّهِ أن يُكفِّرَ السنة التي قبله والتي بعده»(٣) .

وخرَّج الإمامُ أحمدُ من حديثِ عقبةَ بنِ عامرٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «مثلُ الذي يعملُ السيئات، ثم يعملُ الحسناتِ، كمثلِ رجلٍ كانتْ عليه درعٌ ضيقةٌ قد خنَقَتْه، ثم عمِلَ حسنةً فانفكتْ حلقةٌ، ثم عمِلَ حسنةً أخرى، فانفكتْ أخرى حتى يخرجَ إلى الأرضِ»(٤) .

ومما يكفر الخطايا ذكرُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وقد ذكرنا فيما تقدَّم أنَّ النبيَّ ﷺ سُئِلَ عن قولِ: «لا إله إلا اللَّهُ» أمِنَ الحسناتِ هي؟ قال: «هي أحسنُ الحسناتِ»(٥).

وفي «الصحيحينِ» عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «من قال: سبحانَ اللَّه وبحمده في يومِهِ مائة مرة، حُطَّتْ خطاياه وإن كانتْ مثل زبدِ البحرِ»(٦) .

---

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ١٤)، ومسلم (٤/ ١٠٧).
(٢) أخرجه: مسلم (١/ ٧٨).
(٣) أخرجه: مسلم (٣/ ١٦٦ ـ ١٦٧).
(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ١٤٥)، والطبراني (١٧/ ٢٨٤ ـ ٢٨٥).
(٥) أخرجه: أحمد (٥/ ١٦٩).
(٦) أخرجه: البخاري (٨/ ١٠٧)، ومسلم (٨/ ٦٩).

وفيهما عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «منْ قال: **لا إله إلا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ، يحيي ويميتُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، في يومٍ مائةَ مرَّةٍ، كانتْ له عِدْلَ عشرِ رقابٍ، وكتبتْ له مائةُ حسنةٍ، ومُحيتْ عنه مائة سيئة، وكانتْ له حِرزًا من الشيطان يومَه ذلك حتى يُمسي، ولم يأتِ أحدٌ بأفضل مما جاء به إلا أحدٌ عمل أفضلَ من ذلك**»[1].

وفي «المسندِ» وكتابِ ابن ماجه عن أمِّ هانئٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا إله إلا اللَّهُ لا تتركُ ذنبًا ولا يسبقها عملٌ**»[2].

وخرَّج الترمذيُّ عن أنس، عن النبيِّ ﷺ أنه مرَّ بشجرةٍ يابسةِ الورق، فضربَها بعصَاهُ، فتناثرَ الورقُ، فقال: «**إنَّ الحمد للَّه وسبحان اللَّه، ولا إله إلا اللَّهُ، واللَّهُ أكبرُ، لتساقط من ذنوبِ العبدِ كما يتساقطُ ورقُ هذه الشجرةِ**»[3].

وخرَّجه الإمامُ أحمدُ بإسنادٍ صحيحٍ عن أنسٍ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**إنَّ سبحان اللَّهِ، والحمدُ للَّهِ، ولا إله إلا اللَّهُ، واللَّهُ أكبرُ، تنفُضُ الخطايا كما تنفُضُ الشجرةُ ورقها**»[4].

والأحاديثُ في هذا كثيرةٌ جدًّا يطول الكتابُ بذكرِهَا.

وسئل الحسنُ عن رجلٍ لا يتحاشَى من معصيةٍ إلا أن لسانَهُ لا يفتر من ذكرِ اللَّهِ، فقال: إنَّ ذلك لعَوْنٌ حسنٌ.

وسئل الإمامُ أحمدُ عن رجلٍ اكتسبَ مالاً من شبهةٍ: صلاتُهُ وتسبيحُه

---

(١) أخرجه: البخاري (٤/ ١٥٣)، ومسلم (٨/ ٦٩).

(٢) أخرجه: أحخمد (٦/ ٤٢٥)، وابن ماجه (٣٧٩٧).

(٣) أخرجه: الترمذي (٣٥٣٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٣/ ١٥٢).

يحُطُّ عنه شيئًا من ذلك؟ فقال: إنْ صلَّى وسبَّح يريدُ به ذلك، فأرجو، قال اللَّه تعالى: ﴿خَلَطُوا عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٢].

وقال مالكُ بنُ دينارٍ: البكاءُ على الخطيئةِ يحطُّ الخطايا كما تحطُّ الريحُ الورقَ اليابسَ.

وقال عطاءٌ: من جلس مجلسًا من مجالسِ الذِّكرِ كفَّر به عشرة مجالسَ من مجالسِ الباطلِ.

وقال شويسٌ العدويُّ ـ وكان من قدماءِ التابعينَ ـ: إنْ صاحبَ اليمينِ أميرٌ ـ أو قال: أمينٌ ـ على صاحبِ الشمالِ، فإذا عَمِلَ ابنُ آدمَ سيئةً، فأرادَ صاحبُ الشمالِ أن يكتبها، قال له صاحبُ اليمينِ: لا تعْجَلْ لعلَّه يعملُ حسنةً، فإن عملَ حسنةً، ألقى واحدةً بواحدةٍ، وكتبَ له تسعَ حسناتٍ، فيقولُ الشَّيطانُ: يا وَيلَه، من يدركُ تضعيفَ ابنِ آدمَ.

وخرَّج الطبرانيُّ ـ بإسنادٍ فيه نظرٌ ـ عن أبي مالكٍ الأشعريِّ عنِ النبيِّ ﷺ قال: «**إذا نامَ ابنُ آدمَ، قال الملكُ للشيطانِ: أعطني صحيفتَك، فيعطيه إيَّاها، فما وجد في صحيفته من حسنةٍ، محى بها عشرَ سيئات من صحيفةِ الشيطانِ، وكتبهنَّ حسناتٍ، فإذا أراد أن ينامَ أحدُكم، فليكبر ثلاثًا وثلاثين تكْبيرة، ويحمدُ اللَّهَ أربعًا وثلاثينَ تحميدةً، ويسبح اللَّهُ ثلاثًا وثلاثين تسبيحةً، فتلك مائة**» وهذا غريبٌ ومنكر(١).

وروى وكيع: حدَّثنا الأعمشُ، عن أبي إسحاقَ، عن أبي الأحوصِ، قال: قال عبدُ اللَّهِ، يعني ابنَ مسعودٍ: وددتُ أني صُولحت على أن أعملَ كُلَّ

---

(١) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (٣/ ٢٩٦).

يومٍ تسعَ خطيئاتٍ وحسنةً.

وهذا إشارةٌ منه إلى أن الحسنة يُمحى بها التسعُ خطيئاتِ، ويفضُلُ له ضعفٌ واحدٌ من ثوابِ الحسنة، فيكتفي به، والله أعلم[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾

إن في سماع أخبارِ الأخيارِ مقويًّا للعزائم ومُعينًا على اتِّباع تلك الآثارِ، وقال بعضُ العارفينَ: الحكاياتُ جندٌ من جنودِ الله، تقوى بها قلوبُ المريد، ثم تلا قول اللهِ عزَّ وجلَّ لرسوله ﷺ: **﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾**[(٢)] [هود: ١٢٠].

* * *

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٢٥ ـ ٤٤١).

(٢) «سيرة عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز» (ص٢٧ ـ ٢٨).

سُورَةُ يُوسُفَ

قوله تعالى: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾

قوله ﷺ: «أنت وليي في الدنيا والآخرة، توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين»(١) دعاء يوسفَ عليه السلامُ حينَ قالَ: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١]، واللَّهُ عزَّ وجلَّ وليُّ أوليائه في الدنيا والآخرةِ، يتولَّى حفظَهم وكلاءتهم وهدايتهم وحراستَهم في دينِهم ودنياهُم ما دامُوا أحياءً، فإذا حضرَهُمُ الموتُ توفَّاهم على الإسلامِ وألحقهم بعدَ الموتِ بالصالحين.

وهذا أجلُّ النعمِ وأتمُّها على الإطلاقِ، وقد قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ عند وفاتِه: «مع الذين أنعم اللَّهُ عليهم من النبيينَ والصديقينَ والشهداءِ والصالحينَ»(٢).

وقولُ يوسفَ ـ عليه السلامُ ـ: ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف:١٠١] قيل: إنَّه دعا لنفسِه بالموتِ، وهو قولُ جماعةٍ من السلفِ، منهم الإمامُ أحمدُ، فيُستدلُّ به على جوازِ الدعاءِ بالموتِ من غيرِ ضرٍّ نزلَ به.

وقيل: إنَّه إنَّما دعا لنفسِه بالموتِ على الإسلامِ عند نزولِ الموتِ، وليسَ فيه دعاءٌ بتعجيلِ الموتِ كما أخبرَ عن المؤمنينَ أنهم قالُوا في دُعائِهم: ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾ [آل عمران:١٩٣].

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٩١)، والحاكم (١/ ٥١٦) من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: البخاري (٦/ ١٢ ـ ٥٨)، ومسلم (٧/ ١٣٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

ويؤيِّدُ التفسيرَ الأولَ: أنَّه عقَّبه بالدعاءِ بالشوقِ إلى لقاءِ اللَّهِ، وهو يتضمَّن الدعاءَ بالموتِ.

واستدلَّ مَنْ جوَّز الدعـاءَ بالموتِ وتمنِّيه: بقولِه تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[البقرة:٩٤]، ثم ذمَّهم على عدمِ تمنِّيه بسببِ سيئاتِهم، وعلى حرصِهم على طولِ الحياةِ في الدُّنيا، وكذلك قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝ وَلا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة:٦ـ٧].

وفي «المسندِ»[١] عن النبيِّ ﷺ: «لا يتمنينَّ أحدٌ الموتَ إلا من وَثِقَ بعملِه».

فمن كان له عملٌ صالحٌ فإنَّه يتـمنَّى القدومَ عليه، وكذلك من غلبَ عليه الشوقُ إلى لقاءِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

وأمَّا من تمنَّى الموتَ خوفَ فـتنتِهِ في الدِّينِ، فإنَّه يجوزُ بغيـرِ خلافٍ، وقد بسطْنَا الكلامَ على هذهِ المسائلِ في غيرِ هذا الموضعِ[٢].

* * *

(١) «المسند» (٢/ ٣٥٠).

(٢) «شرح حديث لبيَّك اللَّهمَّ لبيك» (ص ٥٠ ـ ٥٣).

سُورَةُ الرَّعْدِ

قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾

قولُ اللَّه تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ الآية [الرعد: ١١]. قال ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما: همُ الملائكةُ يحفظونه بأمرِ اللَّهِ فإذا جاء القدرُ خلَّوْا عنه[١].

وقال عليٌّ رضي اللَّهُ عنه: إنَّ معَ كلِّ رجلٍ ملكينِ يحفظانِه مما لم يقدَّرْ، فإذا جاءَ القدرُ خليَّا بينه وبينه، وإن الأجلَ جُنَّة حصينة[٢].

وقال مجاهدٌ: ما من عبدٍ إلا له ملكٌ يحفظُه في نومِه ويقظتِه من الجنِّ والإنسِ والهوامِّ، فما منْ شيءٍ يأتيه إلا قالَ: وراءَك، إلا شيئًا قد أذنَ اللَّهُ فيه فيصيبُه[١].

ومن حفظِ اللَّهِ للعبدِ: أن يحفظَهُ في صحةِ بدنِه وقوتِه وعقلِه ومالِه، قال بعضُ السلفِ: العالمُ لايحزن. وقال بعضُهمُ: من حفظَ القرآن متِّعَ بعقلِه، وتأوَّلَ ذلك بعضُهم على قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥ - ٦].

وكان أبو الطيِّبِ الطبريُّ قد جاوزَ المائةَ سنة وهو ممتعٌ بعقلِه وقوتِه، فوثبَ يومًا من سفينةٍ كان فيها إلى الأرضِ وثبةً شديدةً، فعوتبَ على ذلكَ، فقال:

---

(١) أخرجهما: ابن جرير في «تفسيره» (١٣/ ١١٥ - ١١٦).

(٢) المصدر السابق (١٣/ ١١٩).

هذه جوارحٌ حفظنَاها في الصغرِ، فحفظَها اللَّهُ علينا في الكِبَرِ.

وعكسُ هذا أن الجنيدَ رأى شيخًا يسـألُ الناسَ فقالَ: إنَّ هذا ضيع اللَّهَ في صغرِهِ، فضيعه اللَّهُ في كبرِهِ.

وقد يحـفظُ اللَّهُ العبـدَ بصلاحِهِ في ولدِهِ وولدِ ولدِهِ، كـما قـيلَ في قولهِ تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف:٨٢]: إنَّهما حفظا بصلاحِ أبيهما.

وقال محـمدُ بنُ المنكدرِ: إنَّ اللَّهَ ليحـفظ بالرجلِ الصالحِ ولدَه وولدَ ولدِهِ وقـريتَهُ التي هو فـيهـا، والدويراتِ التي حـولها فـما يزالونَ في حـفظِ اللَّهِ وسترِهِ.

وقال ابنُ المسيبِ لابنِهِ: يا بنـي، إني لأزيدُ في صلاتِي من أجلِكَ، رجاءَ أن أحفظَ فيكَ، وتلا هذه الآية: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ [الكهف:٨٢].

وقال عمرُ بـنُ عبدِ العزيزِ رحمهُ اللَّهُ: مـا منْ مؤمن يموتُ إلا حفظَهُ اللَّهُ تعالى في عقبِهِ وعقبِ عقبِهِ.

وقال يحيى بن إسـماعيلَ بنِ سلمةَ بنِ كُهـيْلٍ: كان لي أختٌ أسنُّ منِّي، فاخـتلطتْ وذهبَ عقلُهـا وتوحشتْ، وكـانت في غرفة في أقـصى سطوحِنا فمكثتْ بذلك بضعَ عشرة سنةً، فـبينما أنا نائمٌ ذاتَ ليلةٍ إذا بابٌ يدقُّ نصفَ الليلِ، فـقلتُ: من هذا؟ قالـتْ: كجـه، فقلتُ: أخـتِي؟ قالت: أخـتُكَ، ففتـحتُ البابَ فدخلتْ ولا عهدَ لهـا بالبيتِ أكثرَ من عشـر سنين. فقالتْ: أتيتُ الليلةَ في منامِي فقـيلَ لي: إنّ اللَّهَ حفظَ أباك إسماعـيلَ لسلمةَ جدِّك، وحفظكِ لأبيكَ إسماعيلَ، فإن شـئتِ دعوتُ اللَّهَ فذهبَ ما بِكِ، وإن شئتِ صبرتِ ولك الجنةُ، فإن أبا بكـرٍ وعمرَ قـد شفعا لكِ إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ بحبِّ

أبيك وجدِّك إياهُما، فقلتُ: فإذا كان لابدَّ من اختيارِ أحدهما فالصبرُ على ما أنا فيه والجنةُ، وإن اللَّهَ عزَّ وجلَّ لواسعٌ بخلقه لا يتعاظَمُهُ شيءٌ، إن شاءَ أن يجمعَهُما لي فعلَ. قالتْ: فقيل: فإنَّ اللَّهَ قد جمعَهُمَا لكِ ورضِيَ عن أبيكِ وجدِّكِ بحبهما أبا بكرٍ وعمرَ ﷺ، قومِي فانزلِي، فأذهبَ اللَّهُ تعالى ما كانَ بها.

ومتى كان العبدُ مشتغلاً بطاعةِ اللَّهِ فإنَّ اللَّهَ تعالى يحفظُه في تلكَ الحالِ كما في «مسندِ الإمامِ أحمدَ»(١) عن حميدِ بنِ هلالٍ عن رجلٍ قالَ: أتيتُ النبيَّ ﷺ فإذا هو يريني بيتًا، فقالَ: «**إنَّ امرأةً كانتْ فيه فخرجتْ في سريةٍ من المسلمينَ وتركتْ ثنتي عشرةَ عنزًا وصيصيتها كانت تسبحُ بها، قال: ففقدَتْ عَنْزًا من غنمها وصيصيتها، فقالتْ: يا ربِّ إنَّك قد ضمنتَ لمن خرجَ في سبيلكَ أنْ تحفظ عليه، وإني قد فقدتُ عنزًا من غنمي وصيصيتي، وإني أنشدكُ عنزي وصيصيتي**» قال: فجعلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يذكرُ شدةَ مناشدتِهَا ربَّها تباركَ وتعالى. قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «**فأصبحتْ عنزُها ومثلُها وصيصيتُها ومثلُها. وهاتيك، فأتها**» قال: فقلتُ: بل أصدِّقك».

وكان شيبانُ الراعِي يرعى غنمًا، فإذا جاءتِ الجمعةُ خطَّ عليها خطًّا وذهبَ إلى الجمعةِ ثم يرجعُ وهي كما تركها.

وكان بعضُ السلفِ بيدِه الميزانُ يزنُ بها دراهم فسمعَ الأذانَ فنهضَ ونفضَهَا على الأرضِ وذهبَ إلى الصلاةِ، فلما عادَ جمعها فلم يذهبْ منها شيءٌ.

ومن أنواعِ حفظِ اللَّهِ لمن حفظَهُ في دنياهُ: أن يحفظَهُ من شرِّ كلِّ من يريدُه

---

(١) «المسند» (٥/ ٦٧).

بأذًى من الجنِّ والإنسِ، كـما قالَ تـعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] قالتْ عائشةُ ﵂: يكفيه غمَّ الدنيا وهمَّها.

وقال الربيعُ بنُ خثيمٍ: يجعلُ له مخرجًا من كلِّ ما ضاقَ على الناسِ(١).

وكتبتْ عـائشةُ ﵂ إلى معاويةَ: إن اتقيتَ اللَّه كـفاكَ الناسَ، وإن اتقيتَ الناسَ لم يغنوا عنكَ من اللَّهِ شيئًا.

وكتبَ بعضُ الخلفـاءِ إلى الحكمِ بنِ عمرٍو الـغفاريِّ كتـابًا يأمرُهُ فيـه بأمرٍ يخالفُ كتابَ اللَّهِ، فكتبَ إليه الحكمُ: إني نظرتُ في كتابِ اللَّهِ فوجدتُهُ قبلَ كتابِ أميـرِ المؤمنينَ، وإن السَّماواتِ والأرضَ لو كانتا رتقًـا على امرئٍ فاتَّقى اللَّهَ عزَّ وجلَّ، جعلَ لهُ منهما مخْرجًا. والسلامُ.

وأنشدَ بعضُهُم:

بتـقـوى الإلهِ نجـا من نجَـا ... وفـازَ وصـارَ إلى مـا رجَـا

ومن يـتقِّ الـلَّهِ يـجـعـلْ له ... كـمـا قـالَ من أمـره مـخـرجَـا

كتبَ بعضُ السلفِ إلى أخـيه: أما بعـدُ، فإنه من اتَّقى اللَّهَ حفظَ نفـسَهُ، ومن ضيعَ تقواه فقدْ ضيَّع نفسَهُ، واللَّهُ الغنيُّ عنه.

ومن عجيبِ حفظِ اللَّهِ تعالى لمن حفظَهُ: أن يجعلَ الحيواناتِ المؤذيةَ بالطبعِ حافظةً له من الأذى وساعيةً في مصالحِـهِ، كما جرى لسفينةَ مولى النبيِّ ﷺ حيثُ كسرَ به المركبُ وخرجَ إلى جزيرةٍ فرأى السبعَ، فقالَ: يا أبا الحارثِ أنا سفينةُ مولى النبيِّ ﷺ، فجـعلَ يمشي حولَهُ ويدله على الطريقِ حتى أوقـفَهُ عليها، ثم جعلَ يُهَمْهِم كأنَّه يودِّعُه وانصرفَ عنه.

---

(١) أخرجه: ابن جرير في «تفسيره» (٢٨/ ١٣٨).

وكان أبو إبراهيمَ السايحُ قد مرضَ في بريَّةٍ بقربِ ديرٍ، فقالَ: لو كنتُ عندَ بابِ الديرِ لنزلَ الرهبانُ فعالَجُوني، فجاء السبعُ فاحتمله على ظهرِه حتى وضعَهُ على بابِ الديرِ فرآه الرهبانُ فأسلمُوا وكانُوا أربعمائةً.

وكان إبراهيمُ بنُ أدهمَ، نائمًا في بستانٍ وعنده حيَّةٌ في فمِهَا طاقةُ نرجسٍ، فما زالتْ تذبُّ عنه حتى استيقظَ.

فمن حفظَ اللَّهَ حفظَهُ من الحيواناتِ المؤذيةِ بالطبعِ، وجعلَ تلكَ الحيواناتِ حافظةً له.

ومن ضيعَ اللَّهَ ضيَّعَهُ اللَّهُ بين خلْقِهِ، حتى يدخلَ عليه الضررُ ممنْ كانَ يرجو أن ينفعَهُ، ويصيرَ أخصُّ أهلِه به وأرفقهُم به يؤذِيه.

كما قال بعضُهم: إني لأعصِي اللَّهَ فأعرفُ ذلك في خلقِ خادِمي وحِمارِي، يعني: أن خادمه يسوءُ خلقُهُ عليه ولا يطيعُه، وحمارُه يستعصي عليه فلا يواتيه لركوبِهِ. فالخيرُ كلُّه مجموعٌ في طاعةِ اللَّهِ والإقبالِ عليه، والشرُّ كلُّهُ مجموعٌ في معصيةِ اللَّهِ والإعراضِ عنه.

قال بعضُ العارفينَ: من فارق سُدَّةَ سيدِه لم يجدْ لقدميه قرارًا أبدًا.

واللَّهِ ما جئتُكم زائرًا إلا وجدتُ الأرضَ تطوى لي
ولا ثنيتُ العزمَ عن بابِكُمْ إلا تعثرتُ بأذيالِي[1]

* * *

(١) «نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي لابن عباس» (٢٨ ـ ٣٣).

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾

ولما كانتْ هذه الشريعةُ خاتمةَ الشرائعِ وعليها تقومُ الساعةُ، ولم يكنْ بعدَها شريعةٌ ولا رسالةٌ أخرى، تبيِّنُ ما تبدَّلَ منها وتجدِّدُ ما درسَ من آثارِهَا، كما كانتِ الشرائعُ المتقدمةُ تجدِّدُ بعضُها آثارَ بعضٍ، وتبينُ بعضُها ما تبدَّلُ من بعضٍ، تكفلَ اللَّهُ بحفظِ هذه الشريعةِ ولم يجمعْ أهلَها على ضلالةٍ، وجعلَ منهم طائفةً قائمةً بالحقِّ لا تزالُ ظاهرةً على من خالفَها حتى تقومَ الساعةُ، وأقامَ لها من يحملُها ويذبُّ عنها بالسيفِ واللسانِ والحجةِ والبيانِ، فلهذا أقامَ اللَّهُ تعالى لهذه الأمَّةِ من خلفاءِ الرسلِ وحملةِ الحجةِ في كلِّ زمانٍ من يعتني بحفظِ ألفاظِ الشريعةِ وضبطِهَا وصيانتِهَا عن الزيادةِ والنقصانِ ومن يعتني بحفظ معانيها، ومدلولاتِ ألفاظِهَا وصيانتِهَا عن التحريفِ والبهتانِ.

والأولونَ أهلُ الروايةِ، وهؤلاءِ أهلُ الدرايةِ والرعايةِ، وقد ضربَ النبيُّ ﷺ مثل الطائفتينِ. كما ثبتَ في «الصحيحين»(١) عن أبي موسى، قالَ: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«إنَّ مثلَ ما بعثني اللَّهُ به من الهدى والعلمِ، كمثلِ غيثٍ أصابَ الأرضَ فكانتْ منها طائفةٌ قبلَت الماءَ فأنبتت الكلأ والعُشبَ الكثيرَ، وكانتْ منها أجادبُ أمسكت الماءَ فنفعَ اللَّهُ بها ناسًا فشربُوا ورعَوْا وسقَوْا وزرعُوا، وأصابتْ طائفةٌ منها أُخرى، إنما هي قيعانٌ لا تمسكُ ماءً ولا تُنبتُ كلأ، فذلك مثل من فقهَ في دينِ اللَّهِ ونفعهُ اللَّه بما بعثَني به ونفعَ به فعَلِمَ وعلَّمَ، ومثلُ من لم يرفعْ بذلكَ رأسًا، ولم يقبلْ هدى اللَّهِ**

(١) أخرجه: البخاري (١/ ٣٠)، ومسلم (٧/ ٦٣).

الذي أرسلتُ به».

فمثَّلَ النبيُّ ﷺ العلمَ والإيمانَ الذي جاء به بالغيثِ الذي يصيبُ الأرضَ، وهذا المثلُ كقوله تعالى: ﴿أنزلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ [الرعد:١٧].

فمثَّلَ تعالى ما أنزلَهُ من العلمِ والإيمانِ إلى القلوبِ بالماءِ الذي أنزلَهُ من السماءِ إلى الأرضِ، وهو سبحانه وتعالى يمثلُ العلمَ والإيمانَ تارةً بالماءِ كما في هذه الآيةِ، وكما في المثل الثاني المذكورِ في أولِ سورةِ البقرةِ، وتارةً يمثله بالنورِ كما في المثلِ المذكورِ في سورةِ النورِ، والمثلُ الأولُ المذكورُ في سورةِ البقرةِ وكذلك في هذه الآيةِ التي في سورةِ الرعدِ، وذكر مثلاً ثانيًا يتعلقُ بالنارِ وهو قولُهُ: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ [الرعد:١٧] فإن الماءَ والنورَ مادةُ حياةِ الأبدانِ، ولا يعيشُ حيوانٌ إلا حيثُ هما موجودانِ، كما أنَّ العلمَ والإيمانَ مادةُ حياةِ القلوبِ وهما للقلوبِ كالماءِ والنورِ، فإذا فقدهُما القلبُ فقد ماتَ.

وقولُهُ تعالى: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد:١٧] شبَّه القلوبَ الحاملةَ للعلمِ والإيمانِ بالأوديةِ الحاملةِ للسيلِ، فقلبٌ كبيرٌ يسعُ علمًا عظيمًا، كوادٍ كبيرٍ يسع ماءً كثيرًا، وقلبٌ صغيرٍ يسعُ علمًا قليلاً، كوادٍ صغيرٍ يسعُ ماءً قليلاً، فحملتِ القلوبِ من هذا العلمِ بقدرِهَا، كما سالتِ الأوديةُ من الماءِ بقدرِهَا.

فهذا تقسيمٌ للقلوبِ بحسبِ ما يحملُهُ من العلمِ والإيمانِ إلى متسعٍ وضيقٍ.

والذي ذكره النبيُّ ﷺ في حديثِ أبي موسى تقسيمٌ لها بحسبِ ما يردُ

عليها من العـلمِ والإيمانِ إلى قابلٍ لإنباتِ الكلأ والعشبِ، وغـيرِ قابلٍ لذلكَ وجعلها ثلاثةَ أقسامٍ:

القسم الأول: قسمٌ قَبلَ الماءَ، فأنبتَ الكـلأ والعشبَ الكثيرَ، وهؤلاءِ هُم الذين لهم قوةُ الحفظِ، والفهمِ والفقهِ فـي الدِّينِ، والبصرِ بالتأويلِ، واستنباطِ أنواعِ المعارفِ والعلومِ من النصوص.

وهؤلاءِ مـثل: الخـلفـاءِ الأربعـةِ، وأبيٍّ بنِ كـعبٍ، وأبي الدرداءِ، وابنِ مسعـودٍ، ومعاذِ ابنِ جبلٍ، وابنِ عبـاسٍ. ثم كالحسنِ، وسعـيدِ بنِ المسيبِ، وعطاءٍ، ومـجـاهدٍ. ثم كـمـالكٍ، والـليثِ، والثـوريِّ، والأوزاعيِّ، وابنِ المباركِ، والشافعيِّ، وأحمدَ، وإسحـاقَ، وأبي عبيدٍ، وأبي ثورٍ، ومحمدِ بنِ نصرٍ المروزيِّ. وأمـثالِهم من أهلِ العلمِ باللَّهِ وأحكامِهِ، وأوامـرِهِ، ونواهيهِ. وكذلـك مثل: أويسٍ، ومـالكِ بنِ دينارٍ، وإبراهيم بنِ أدهمَ، والفضـيلِ ابنِ عياضٍ، وأبي سليـمانَ، وذي النُّونِ، ومعروفٍ، والجنيدِ بنِ محـمدٍ، وسهلِ ابنِ عبدِ اللّهِ والحـرِّ بن أسدٍ. وأمثالهم من أهل العلمِ باللَّه وأسمـائهِ وصفاتهِ وأيامِهِ وأفعالِهِ.

القسم الثاني: وقسمٌ حفظَ الماءَ، وأمسكَهُ حتى وردَ الناسُ فأخذُوه فانتفعُوا به وهؤلاءِ هم الذين لهم قـوةُ الحفظِ، والـضبطِ، والإتقـانِ، دون الاستنبـاطِ، والاستخراجِ، وهؤلاءِ كسعيدِ بنِ أبي عـروبةَ، والأعمشِ، ومحمدِ بنِ جعفرٍ غندر، وعبدِ الرزاقِ، وعمرٍو الناقدِ، ومحمدِ بنِ بشارٍ بندارٍ، ونحوِهم.

القسم الثالث: وقسمٌ ثالثٌ وهم شرُّ الخلقِ، ليس لهم قـوةُ الحفظِ، ولا قوةُ الفهمِ، لا درايةٌ، ولا روايةٌ، وهؤلاءِ الذين لم يتقـبلُوا هُدى اللَّهِ ولم يرفعُوا

به رأسًا.

والمقصودُ هاهنا أن اللَّهَ تعالى حفظَ هذه الشريعةَ بما جعلَ لها من الحملةِ، أهلِ الدرايةِ، وأهلِ الروايةِ، فكان الطالبُ للعلمِ والإيمانِ يتلقَّى ذلكَ ممن يدركُهُ من شيوخِ العلمِ والإيمانِ، فيتعلَّمُ الضابطُ القرآنَ والحديثَ، ممن يعلِّمُ ذلكَ، ويتعلَّمُ الفقهَ في الدِّينِ من شرائعِ الإسلامِ الظاهرةِ، وحقائقِ الإيمانِ الباطنةِ، ممن يعلِّمُ ذلكَ.

وكان الأغلبُ على القرونِ الثلاثةِ المفضلةِ جمعُ ذلكَ كلِّه، فإنَّ الصحابةَ تلقَّوا عن النبيِّ ﷺ جميعَ ذلكَ، وتلقاهُ عنهم التابعونَ، وتلقَّى عن التابعينَ تابعوهُم، فكانَ الدِّينُ حينئذٍ مجتمعًا، ولم يكنْ قد ظهرَ الفرقُ بين مسمَّى الفقهاءِ، وأهلِ الحديثِ ولا بينَ علماءِ الأصولِ والفروعِ، ولا بينَ الصوفيِّ والفقيرِ والزاهدِ، وإنما انتشرتْ هذه الفروقُ بعد القرون الثلاثةِ.

وإنَّما كانَ السلفُ يسمُّون أهلَ العلمِ والدِّينِ: القُرَّاءَ، ويقولونَ: يقرأُ الرجلُ إذا تنسَّك، وكانَ العالمُ منهُم يتكلمُ في جنسِ المسائلِ المأخوذةِ من الكتابِ والسنةِ، سواءٌ كانتْ من المسائلِ الخبريَّةِ العلميةِ، كمسائلِ التوحيدِ، والأسماءِ والصفاتِ، والقدرِ، والعرشِ، والكرسيِّ، والملائكةِ، والجنِّ، وقصصِ الأنبياءِ، ومسائلِ الأسماءِ، والأحكامِ، والوعدِ والوعيدِ، وأحوالِ البرزخِ، وصفةِ البعثِ والمعادِ، والجنَّةِ، والنَّارِ، ونحوِ ذلكَ.

أو من أعمالِ الجوارحِ، كالطهارةِ، والصلاةِ، والصيامِ، والزكاةِ، والحجِّ، والجهادِ، وأحكامِ المعاوضاتِ، والمناكحاتِ، والحدودِ، والأقضيةِ، والشهادةِ، ونحوِ ذلك.

أو من المسائلِ العلميةِ، سواءٌ كانتْ من أعمالِ القلوبِ، كالمحبةِ، والخوفِ، والرجاءِ، والتوكلِّ، والزهدِ، والتوبةِ، والشكرِ، والصبرِ، ونحوِ ذلك، وإنْ كان يكون لبعضِهِم في نوعٍ من هذه الأنواعِ من مزيدِ العلمِ، والمعرفةِ، والحالِ ما ليسَ له في غيرِه مثلُه.

كما كانَ يُقالُ في أئمةِ التابعينَ الأربعةِ: سعيدُ بنُ المسيبِ: إمامُ أهلِ المدينةِ. وعطاءُ بنُ أبي رباح: إمامُ أهلِ مكةَ. وإبراهيمُ النخعيُّ: إمامُ أهلِ الكوفةِ. والحسنُ البصريُّ: إمامُ أهلِ البصرةِ.

كان يقالُ أعملهُم بالحلالِ والحرامِ: سعيدُ بنُ المسيبِ، وأعلمُهُم بالمناسك: عطاءٌ، وأعلمُهم بالصلاةِ: إبراهيمُ، وأجمعُهُم: الحسنُ.

وكان أهلُ الدرايةِ والفهمِ من العلماءِ إذا اجتمعَ عندَ الواحدِ منهم من ألفاظِ الكتابِ والسنةِ، ومعانيها، وكلامِ الصحابةِ والتابعينَ ما يسَّره اللَّهُ له، جعلَ ذلك أصُولاً، وقواعدَ يبني عليها، ويستنبطُ منها، فإنَّ اللَّهَ تعالى أنزلَ الكتابَ بالحقِّ والميزانِ، والكتابُ فيه كلماتٌ كبيرةٌ، هي قواعدُ كليُّةٌ وقضايا عامَّةٌ، تشملُ أنواعًا عديدةً، وجزئياتٍ كثيرةٍ، ولا يهتدي كلُّ أحدٍ إلى دخولِها تحتَ تلكَ الكلماتِ، بل ذلك من الفهمِ الذي يؤتيه اللَّهُ من يشاءُ في كتابِهِ.

وأمَّا الميزانُ فهوَ الاعتبارُ الصحيحُ، وهو من العدلِ والقسطِ، الذي أمر اللَّهُ بالقيامِ بهِ كالجمعِ بين المتماثلينِ لاشتراكهمَا في الأوصافِ، الموجبةِ للجمعِ والتفريقِ بين المختلفينِ لاختلافِهِمَا في الأوصافِ الموجبةِ للفرقِ، وكثيراً ما يخفى وجهُ الاجتماعِ والافتراقِ ويدقُ فهْمُهُ.

وأمَّا أهلُ الروايةِ إذا اجـتمعَ عندَهُم من ألفـاظِ الرسولِ، وكلامِ الصـحابةِ والتابعينَ، وغيرِهم في التفسيرِ، والفقه، وأنواعِ العلومِ، لم يتصرفُوا في ذلكَ بل نقلُوه كما سمعُوه، وأدوه كمـا حفظُوه وربما كانَ لكثيرٍ منهُم من التصرفِ والتـميـزِ في صحـةِ الحـديثِ وضعـفِه من جـهـةِ إسنادِه، وروايتِه مـا ليسَ لغيرِهم(١) .

* * *

قوله تعالى: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾

وفُسِّر «أمُّ الكتابِ» باللَّوحِ المحفوظِ، وبالذِّكر، في قولِه تعالى: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد:٣٩].

وعن ابنِ عباسٍ ﵄، أنه سألَ كعبًا، عن «أمِّ الكتابِ» فقال: علِمَ اللَّه ما هو خالقٌ، وما خلْقُه عاملون، فقال لعلمِه: كُنْ كتابًا، فكان كتابًا.

ولا ريبَ أنَّ علمَ الـلَّهِ تعـالى قـديمٌ أزلـيٌّ لم يزلْ عـالمًا بما يُحـدِثُهُ من مخلوقـاتٍ، ثم إنَّه تعالى كـتبَ ذلك في كتـابٍ عندهَ قبل خلْقِ السـماواتِ والأرضِ، كما قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد:٢٢].

وفي «صحيـحِ البخاريِّ»(٢) عن عمْـرانَ بنِ حُصينٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: **«كانَ اللَّهُ ولا شيءَ قـبله، وكان عـرشُهُ على الماءِ، وكتبَ في الذِّكـرِ كلَّ شيءٍ، ثم خلقَ السماواتِ والأرضَ»**.

---

(١) «مقدمة تشتمل على أن جميع الرسل كان دينهم واحد» (٢٠ ـ ٣٨).
(٢) (١٢٨/٤)، (٢١٢/٥ ـ ٢١٩)، (١٥٢/٩).

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[(١)] عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ اللَّه كتبَ مقاديرَ الخلائقِ قبلَ أن يخلقَ السماواتِ والأرضَ بخمسينَ ألفَ سنةٍ، وكان عرشُهُ على الماءِ»[(٢)].

* * *

(١) (٨/ ٥١) دون لفظ «وكان عرشه على الماء».

(٢) «لطائف المعارف» (١٥٩).

سُورَةُ إبْرَاهِيمَ

قال الله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾

وقال إبراهيمُ في قولهِ: ﴿**وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ**﴾ [إبراهيم:١٧] حتى من تحتِ كل شعرةٍ في جسدِهِ.

وقال الضحاكُ: حتى من إبهامِ رجليهِ، والمعنى: أنه يأتيهِ مثلُ شدةِ الموتِ وألمِهِ من كلِّ جزءٍ من أجزاءِ بدنِهِ حتى شعرِهِ وظفرِهِ، وهو مع هذا لا تخرجُ نفسُهُ فيستريحُ.

قال ابنُ جريج: تعلقُ نفسُهُ عند حنجرتِهِ فلا تخرجُ من فيه فيستريحُ، ولا ترجعُ إلى مكانِها من جوفِهِ، وتأوَّلَ جماعةٌ من المفسرينَ على ذلك قولَهُ تعالى: ﴿**ثُمَّ لا يَمُوتُ فِيهَا وَلا يَحْيَى**﴾ [الأعلى:١٣].

قال الأوزاعيُّ عن بلالِ بنِ سعدٍ: تنادي النارُ يومَ القيامةِ: يا نارُ أحرقي، يا نارُ اشتفي، يا نارُ انضجي، كُلِي ولا تَقْتُلي(١).

* * *

---

(١) «التخويف من النار» (١٥٣).

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾

وقد ضربَ اللَّه ورسولُهُ مثلَ الإيمانِ والإسلامِ بالنخلةِ:

قال اللَّهُ تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[إبراهيم: ٢٤ ـ ٢٥].

فالكلمةُ الطيبةُ، هي: كلمةُ التوحيدِ، وهي أساسُ الإسلامِ، وهي جاريةٌ على لسانِ المؤمنِ.

وثبوتُ أصلِها، هو: ثبوتُ التصديقِ بها في قلبِ المؤمنِ.

وارتفاعُ فرعِهَا في السماءِ، هو: عُلوُّ هذه الكلمةِ وبُسُوقُها، وأنها تخرقُ الحجبَ، ولا تتناهَى دون العرشِ.

وإتيانُها أُكُلها كلَّ حينٍ، هو: مما يرفعُ بسببها للمؤمنِ كلَّ حينٍ من القولِ الطيبِ والعملِ الصالحِ، فهو ثمرتُها.

وجعلَ النبيُّ ﷺ مثلَ المؤمنِ ـ أو المسلمِ ـ كمثلِ النخلةِ(١).

وقال طاوسٌ: مثلُ الإيمانِ كشجرةٍ، أصلها الشهادةُ، وساقُها كذا وكذا، وورقُها كذا وكذا، وثمرُها الورعُ، ولا خيرَ في شجرةٍ لا ثمرَ لهَا. ولا خيرَ في إنسانٍ لا ورعَ فيه.

---

(١) وهو مروي من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما: أخرجه البخاري (١/ ٢٨)، (٣/ ١٠٣)، (٧/ ١٠٣ ـ ١٠٤)، ومسلم (٨/ ١٣٧).

ومعلومٌ أنَّ ما دخلَ في مسمَّي الشجرةِ والنخلةِ من فروعِهَا وأغصانِهَا، وورقِهَا وثمرِهَا، إذا ذهبَ شيءٌ منه لم يذهبْ عن الشجرةِ اسمُها، ولكن يقالُ: هي شجرةٌ ناقصةٌ، وغيرُها أكملُ منها، فإن قُطعَ أصلُها وسقطتْ لم تبقَ شجرةً، وإنما تصيرُ حطبًا.

فكذلك الإيمانُ والإسلامُ، إذا زالَ منه بعضُ ما يدخلُ في مسماهُ - مع بقاءِ أركانِ بنيانِه - لا يزولُ به اسمُ الإسلامِ والإيمانِ بالكليةِ، وإن كان قد سُلِبَ الاسمُ عنه؛ لنقصِه، بخلافِ ما انهدمتْ أركانُهُ وبنيانُهُ، فإنَّه يزولُ مسماهُ بالكليةِ، واللَّهُ أعلم(١).

* * *

ضربَ العلماءُ مثلَ الإيمانِ بمثلِ شجرةٍ لها أصلٌ وفروعٌ وشُعَبٌ، فاسمُ الشجرةِ يشملُ ذلكَ كلَّه، ولو زالَ شيءٌ من شُعَبِها وفروعِها، لم يزُلْ عنها اسمُ الشجرةِ، وإنما يُقال: هي شجرةٌ ناقصةٌ أو غيرُها أتمُّ منها.

وقد ضربَ اللَّهُ مثلَ الإيمانِ بذلكَ في قولِه تعالى: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا**﴾ [إبراهيم:٢٤]. والمرادُ بالكلمة كلمةُ التَّوحيد، وبأصلها: التَّوحيدُ، الثَّابتُ في القلوبِ، وأُكُلُها: هو الأعمالُ الصالحةُ الناشئةُ منه.

وضربَ النبيُّ ﷺ مثلَ المؤمنِ والمسلمِ بالنَّخلةِ ولو زالَ شيءٌ من فروعِ النخلةِ أو من ثمرِهَا، لم يزلْ بذلكَ عنها اسمُ النخلةِ بالكليةِ، وإن كانتْ ناقصةَ الفروعِ أو الثَّمرِ(٢).

* * *

(١) «فتح الباري» (١/ ٢٤ ـ ٢٥).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٣٣).

قال الله عز وجل: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾

خرَّجَا في «الصحيحين»(١) من حديثِ البراءِ بنِ عازبٍ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم:٢٧] نزلتْ في عذابِ القبرِ».

زاد مسلمٌ: «يقالُ له: من ربُّك؟ فيقولُ: ربِّي اللَّهُ، ونَبِيِّي محمدٌ، فذلكَ قولُهُ سبحانه وتعالى: «﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم:٢٧]».

وفي روايةٍ للبخاريِّ، قالَ: «إذا أُقْعِد العبدُ المؤمنُ في قبره أُتيَ، ثم شهدَ أن لا إله إلا اللَّهُ وأنَّ محمداً رسولُ اللَّهِ، فذلك قولُهُ: «﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾».

وخرَّج الطبرانيُّ(٢) من حديثِ البراءِ بنِ عازبٍ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «يقالُ للكافرِ: من ربُّك؟ فيقولُ: لا أدْرِي، فهوَ تلكَ الساعة أصمُّ أعْمى أبكمُ، فيُضْرَب بمرزبةٍ لو ضُرِبَ بها جبلٌ صارَ ترابًا، فيسمعُها كلُّ شيءٍ إلا الثقلين» قال: وقرأ رسولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم:٢٧]» الآية.

وخرَّج أبو داودَ(٣)، من حديثِ المنهالِ بنِ عمرٍو، عن زاذان، عن البراء ابنِ عازبٍ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إنه ليَسمعُ خفقَ نعالِهِم إذا ولَّوا مدبرينَ حينَ يقالُ له: من ربُّك؟ وما دينُك؟ ومن نبيُّك؟».

وفي روايةٍ له(٣): «قال: ويأتيه ملكانِ فيجلسانه فيقولانِ له: من ربُّك؟ فيقولُ: ربي اللَّهُ، فيقولانِ: ما دينُك؟ فيقولُ: ديني الإسلامُ، فيقولانِ له: ما هذا الرجلُ الذي

---

(١) أخرجه: البخاري (٢/ ١٢٢)، (٦/ ١٠٠)، ومسلم واللفظ له (٨/ ١٦٢).

(٢) «المعجم الصغير» (١/ ١٧٨).

(٣) «السنن» (٤٧٥٣).

بُعث فيكُم؟ فيقولُ: هو رسولُ اللَّهِ ﷺ، فيقولانِ له: وما يُدريكَ، فيقولُ: قرأتُ كتابَ اللَّهِ فآمنتُ به وصدَّقتُ».

وفي روايةٍ له[(١)]: «فذلك قولُهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم:٢٧]» الآية، قال: «فينادي منادٍ من السماءِ: أن صدقَ عبدي فافرشُوه من الجنةِ، وافتحُوا له بابًا إلى الجنةِ وألبسُوه من الجنةِ، قال: فيأتيه من رَوْحِهَا وطيبِها، قال: ويفسحُ له في قبرِهِ مدَّ بصرِهِ» قال: وذكر الكافرَ، قال: «وتعادُ روحُه إلى جسدِهِ ويأتيه ملكانِ فيجلسانِهِ فيقولانِ له: من ربُّك؟ فيقولُ: هاه هاه لا أدري، فيقولانِ له: ما دينُك؟ فيقولُ: هاه هاه لا أدْرِي، فينادي منادٍ من السماءِ: أن كذبَ عبدي فافرشُوه من النارِ، وألبسُوه من النارِ، وافتحُوا له بابًا إلى النارِ»، قال: «فيأتيه من حرِّها وسمومِها» قال: «ويضيَّقُ عليه قبرُهُ حتَّى تختلفَ أضلاعُه».

وفي روايةٍ له[(٢)]: «ثم يقيَّضُ له أعمى أبكمُ معه مرزبةٌ من حديدٍ لو ضُرِبَ بها جبلٌ لصارَ ترابًا» قال: «فيضربُهُ ضربةً يسمعُها ما بين المشرقِ والمغربِ إلا الثقلينِ، فيصيرُ ترابًا» قال: «ثم تُعادُ فيه الرُّوح».

وخرَّجه النسائيُّ وابنُ ماجه مختصرًا، وخرَّجه الإمامُ أحمدُ بسياقٍ مطوَّلٍ والحاكمُ[(٢)]، وقال: على شرط الشيخين.

وفي روايةٍ للإمامِ أحمدَ: «ثم يقيَّضُ له أعمى أبكمُ أصمُ في يدهِ مرزبةٌ لو ضُرِبَ بها جبلٌ كان ترابًا فيضربُه ضربةً فيصير ترابًا، ثم يعيدُه اللَّهُ عزَّ وجلَّ كما كان، فيضربُه ضربةً أخرى فيصيحُ صيحةً يسمعها كلُّ شيءٍ إلا الثقلينِ».

---

(١) «السنن» (٤٧٥٣).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨ ـ ٢٩٥ ـ ٢٩٧)، والنسائي (٤/ ٧٨)، وابن ماجه (١٥٤٨)، والحاكم (١/ ٣٧ ـ ٤٠).

قال البراءُ بنُ عازبٍ: «ثم يُفتح له بابٌ إلى النارِ ويمهد له من فرشِ النارِ»، كذا خرَّجه من روايةِ يونسَ بنِ خبابٍ عن المنهالِ بنِ عمرٍو.

وخرَّجه ابنُ منده من هذا الوجهِ أيضًا وزادَ في حديثِه: «**لو اجتمعَ عليه الثقلانِ على أن يقلبوها لم يستطيعوا، فيضربُه بها ضربةً يصيرُ ترابًا، وتعادُ فيه الروحُ فيضربُهُ بين عينيهِ ضربةً فيسمعُها من على الأرضِ ليس الثقلينِ - فينادي مناد: أن افرشُوا له لوحينِ من نارٍ، وافتحُوا له بابًا إلى النارِ**».

وخرَّجه أيضًا من طريقِ عيسى بنِ المسيبِ، عن عدي بنِ ثابتٍ، عن البراءِ ابنِ عازبٍ، عن النبيِّ ﷺ وقال فيه في حقِّ المؤمنِ: «**فيأتيه منكرٌ ونكيرٌ يثيرانِ الأرضَ بأنيابِهِمَا ويفحصانِ الأرضَ بأشعارِهِمَا فيجلسانه**».

وذكر في الكافرِ مثلَ ذلك: وزاد فيه: «**أصواتُهُما كالرَّعدِ القاصفِ، وأبصارُهُما كالبرقِ الخاطفِ**»، وقال: «**فيضربَانِهِ بمرزبةٍ من حديدٍ، لو اجتمعَ عليه من بين الخافقينِ لم تُقلَّ**».

وخرَّجَا في «الصحيحينِ»[1] من حديثِ قتادةَ، عن أنسٍ، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: «**إنَّ العبدَ إذا وُضِعَ في قبرِهِ وتولَّى أصحابُهُ، إنه ليَسمعُ قرْعَ نعالِهِم إذا انصرفُوا أتاهُ الملكان فيقعدانه فيقولانِ: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ محمَّدٍ ﷺ؟ فأما المؤمنُ فيقولُ: أشهدُ أنَّه عبدُ اللَّهِ ورسولُهُ ﷺ، فيقالُ له: انظرْ إلى مقعدكَ من النارِ، قد أبدلكَ اللَّهُ به مقعدًا من الجنةِ**»، قال: «**فيراهُما جميعًا**».

قال قتادةُ: وذُكر لنا أنه يُفسَّحُ له في قبرِهِ مدَّ بصرِهِ - ثم رجعَ إلى حديثِ أنسٍ - قالَ: «**وأما المنافقُ والكافرُ فيقالُ له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ؟ فيقولُ: لا**

---

(١) أخرجه: البخاري (٢/ ١١٣ - ١٢٣)، ومسلم (٨/ ١٦١ - ١٦٢).

أدري؛ كنتُ أقولُ ما يقولُ الناسُ، فيقالُ: لا دريتَ، ولا تليتَ، ويُضربُ بمطارقَ من حديدٍ ضربةً فيصيحُ صيحةً يسمعُها من يليه غيرَ الثقلينِ».

وخرَّجه أبو داود(١) بزيادات أُخر منها: «إنَّ المؤمنَ يُقال له: ما كنتَ تعبدُ؟ فإن اللَّه هدَاه، قال: كنتُ أعبدُ اللَّهَ، فيقالُ له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ؟ فيقولُ: هو عبدُ اللَّهِ ورسولُهُ، قال: فما يُسأل عن شيءٍ غيرِها»، وزاد فيه أيضًا: «فيقولُ دعُوني حتى أذهبَ فأبشِّر أهلِي، فيقالُ له: اسكُن»، وذكر في الكافرِ: «أنه يسألُ عمَّا كانَ يعبدُ ثم عن هذا الرجلِ».

وخرَّجا في «الصحيحينِ»(٢) من حديثِ أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قال في خطبتهِ يومَ كسفتِ الشمسُ: «ولقد أوحي إليَّ أنكم تفتنونَ في قبورِكُم مثل أو قريبًا من فتنة المسيحِ الدجال يُؤتى أحدُكُم، فيقالُ له: ما علمُكَ بهذا الرجلِ؟ فأمَّا المؤمنُ أو الموقنُ فيقولُ: محمدٌ رسولُ اللَّهِ جاءنا بالبيِّناتِ والهُدَى، فأجبْنا وآمنَّا واتَّبعنا، فيقالُ له: نَمْ صالحًا، فقدْ علمنا إنْ كنتَ لموقنًا، وأمَّا المنافقُ أو المرتابُ فيقولُ: لا أدْري سمعتُ الناسَ يقولونَ شيئًا فقلتُهُ».

وخرَّجه الإمامُ أحمدُ(٣)، ولفظُهُ: «قد رأيتُكُم تفتنونَ في قبورِكُم ويُسألُ الرجلُ: ما كنتَ تقولُ؟ وما كنتَ تعبدُ؟ فإن قال: لا أدْري، سمعتُ الناسَ يقولونَ شيئًا فقلتُهُ ويصنعون شيئًا فصنعتُه، قيل له: أجلْ على شكٍّ عشتَ، وعليه متَّ، هذا مقعدُكَ من النارِ، وإنْ قال: أشهدُ أنَّ لا إله إلا اللَّهُ وأنَّ محمدًا رسولُ اللَّهِ، قيل له: على اليقينِ عشتَ وعليه مِتَّ، هذا مقعدُك من الجنَّة».

---

(١) «السنن» (٤٧٥١).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ٣١ ـ ٥٧)، (٢/ ٤٦ ـ ٨٩)، (٩/ ١١٦)، ومسلم (٣/ ٣٢).

(٣) «المسند» (٦/ ٣٥٤).

وخرَّج الترمذيُّ وابنُ حبانَ في «صحيحه»(١) من حديثِ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «إذا قُبِرَ الميتُ» ـ أو قال: أحدُكم ـ أتاه ملكانِ أسودانِ أزرقانِ، يُقالُ لأحدِهما: المُنكرُ، والآخرُ: النَّكيرُ، فيقولانِ: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ؟ فيقولُ ما كان يقولُ: هو عبدُ اللَّه ورسولُهُ، أشهدُ أن لا إله إلا اللَّهُ وأنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ، فيقولانِ: قد كُنَّا نعلمُ أنك تقولُ هذا، ثم يُفسحُ له في قبرِهِ سبعونَ ذراعًا في سبعينَ ذراعًا، ثم ينوَّرُ له فيه، ثم يقالُ له: نمْ، فيقولُ: أرجعُ إلى أهلي فأخبرُهم، فيقولانِ: نمْ كنومةِ العروسِ الذي لا يوقظُه إلا أحبُّ أهلِه إليه، حتى يبعثَهُ اللَّهُ من مضجعِه ذلك، وإنْ كان منافقًا، قال: سمعتُ الناسَ يقولونَ قولاً فقلتُ مثلَهُ؛ لا أدري، فيقولانِ: قد كُنَّا نعلمُ أنَّك تقولُ ذلك، فيقالُ للأرضِ: التئمي عليهِ، فتلتئمُ عليه حتى تختلفَ أضلاعُه، فلا يزالُ فيها معذَّبًا حتى يبعثَهُ اللَّهُ من مضجعِه».

وخرَّج الإمامُ أحمدُ وابنُ ماجه(٢) من حديثِ أبي هريرةَ أيضًا عنِ النبيِّ ﷺ، قالَ: «يُجْلَسُ الرجلُ الصالحُ في قبرِهِ غيرُ فزِعٍ ولا مشغوفٍ، ثم يُقالُ له: فيم كنتَ؟ فيقولُ: كنتُ في الإسلامِ، فيقالُ له: ما هذا الرجلُ؟ فيقولُ: محمَّدٌ رسولُ اللَّه ﷺ جاءَنا بالبيِّناتِ من عندِ اللَّه فصدَّقناه، فيقالُ له: هل رأيتَ اللَّهَ؟ فيقولُ: ما ينبغي لأحدٍ أن يرى اللَّهَ، فيفرجُ له فرجةٌ قِبَلَ النارِ، فينظرُ إليها يحطمُ بعضُها بعضًا، فيقالُ له: انظرْ إلى ما وقاكَ اللَّهُ، ثم يفرجُ له فرجةٌ قِبَلَ الجنةِ فينظرُ إلى زهرتِها وما فيها، فيقالُ له: هذا مقعدُك، ويقالُ له: على اليقينِ كنتَ، وعلى اليقينِ متَّ، وعليه تبعثُ إن شاءَ اللَّهُ تعالى، ويُجلَسُ الرجلُ السُّوءُ في قبرِهِ فزعًا مشغوفًا فيُقال له: فيمَ كنتَ؟ فيقولُ: لا أدري، فيقالُ له: ما هذا الرجلُ؟ فيقولُ: سمعتُ الناسَ يقولونَ قولاً فقلتُه، فيفرجُ له

---

(١) أخرجه: الترمذي (١٠٧١)، وابن حبان في «صحيحه» (٣١١٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥)، وابن ماجه (٤٢٦٨).

فُرْجةً قِبَلَ الجنة فينظرُ إلى زهرتها وما فيها، فيُقال له: انظرْ إلى ما صرفَ اللَّهُ عنك، ثم يفرجُ له فرجةً قِبَلَ النار فينظرُ إليها يحطمُ بعضُها بعضًا، فيقالُ له: هذا مقعدُك، على الشكِّ كنتَ، وعليه متَّ، وعليه تبعثُ إن شاءَ اللَّهُ تعالى».

وخرَّج الطبرانيُّ[1] من حديثِ أبي هريرةَ ﷺ، قال: شهِدْنا مع رسولِ اللَّه ﷺ جنازةً، فلمَّا فرغَ من دفنِها وانصرفَ الناسُ، قال نبيُّ اللَّه ﷺ: «إنَّه الآنَ يسمعُ خفقَ نعالِهم، أتاه منكرٌ ونكيرٌ أعينُهُما مثلَ قدورِ النحاسِ، وأنيابُهُما مثلُ صياصي البقرِ، وأصواتُهُمَا مثلُ الرعدِ، فيجلسانه فيسألانه: ما كان يعبدُ؟ ومن كان نبيُّه؟ فإنْ كان ممن يعبدُ اللَّهَ، قال: كنتُ أعبدُ اللَّهَ، والنبيُّ محمَّدٌ ﷺ جاءَنا بالبيِّناتِ والهُدَى فآمنَّا واتَّبعْنا، فذلك قولُ اللَّه عزَّ وجلَّ: «﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ [إبراهيم:٢٧] الآية فيقالُ له: على اليقينِ حييتَ وعليه متَّ، وعليه تبعثُ ثم يُفتحُ له بابٌ إلى الجنة، ويوسَّعُ له في حفرتِه، وإن كان من أهلِ الشكِّ قال: لا أدْري، سمعتُ الناسَ يقولونَ شيئًا فقلتُهُ، فيقالُ له: على الشكِّ حييتَ، وعليه متَّ، وعليه تبعثُ، ثم يفتحُ له بابٌ إلى النَّارِ ويسلَّطُ عليه عقاربُ وتنانين لو نفخَ أحدُهُم في الدنيا ما أنبتتْ شيئًا، تنهشُهُ، وتؤمرُ الأرضُ فتُضَمُّ حتى تختلفَ أضلاعُهُ».

وخرَّج الإمامُ أحمدُ[2] من حديثِ جابرٍ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ هذه الأمة تبتلى في قبورِها، فإذا دخلَ المؤمنُ قبرَهُ وتولَّى عنه أصحابُهُ جاءَهُ ملَكٌ شديدُ الانتهارِ فيقولُ له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجل؟ فيقولُ المؤمنُ: إنَّه عبدُ اللَّه ورسولُهُ، فيقولُ له الملَكُ: انظرْ إلى مقعدك الذي كان لك في النارِ، قد أنجاكَ اللَّهُ منه، وأبدلَكَ بمقعدكَ الذي ترى من النارِ الذي ترى من الجنةِ، فيراهُمَا كليهِمَا فيقولُ المؤمنُ: دعوني أبشرُ أهلي؟

(١) «المعجم الأوسط» (٤٦٢٩).

(٢) «المسند» (٣/ ٣٤٦).

فيقال له: اسكنْ. وأما المنافقُ فيقعدُ إذا تولَّى عنه أصحابُهُ وأهلُهُ، فيقالُ له: ما كنتَ تقولُ في هذا الرجلِ؟ قالَ: لا أدْري، أقولُ ما يقولُ الناسُ، فيقالُ: لا دريتَ، هذا مقعدُكَ الذي كان لك في الجنةِ، أبدلَكَ اللَّه به مقعدَكَ من النارِ».

قال جابرٌ: سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «يُبعثُ كلُّ عبدٍ على ما ماتَ عليه، المؤمنُ على إيمانِهِ، والمنافقُ على نفاقِهِ»[١].

وأخرج ابنُ ماجه[٢] من حديثِ جابرٍ عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «إذا دخلَ الميتُ القبرَ مثلتْ الشمسُ عندَ غروبِها فيجلسُ يمسحُ عينيه: ويقولُ: دعوني أصلِّي».

وخرَّج الإمامُ أحمدُ[٣] أيضًا من حديثِ عائشةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «وأما فتنةُ القبرِ، فبي تُفْتنونَ وعنِّي تُسْألونَ، فإذا كان الرجلَ الصالحَ أجْلسَ في قبرِهِ غيرَ فزعٍ ولا مشغوفٍ، ثم يقالُ له: فيم كنتَ؟ فيقول: في الإسلامِ، فيقالُ: ما هذا الرجلُ الذي كان فيكم؟ فيقولُ: محمدٌ رسولُ اللَّهِ، جاءَنا بالبيِّناتِ والهُدَى من عندِ اللَّهِ فصدَّقناه، فيفرجُ له فرجةٌ قبلَ النارِ، فينظرُ إليه يحطمُ بعضُها بعضًا، فيقالُ له: انظر إلى ما وقاكَ اللَّهُ منه ثم يفرجُ له فرجةٌ قِبلَ الجنةِ، فينظرُ إلى زهرتِها وما فيها، فيقالُ: هذا مقعدُكَ منها، ويقالُ له: على اليقينِ كنتَ، وعليه متَّ، وعليه تبعثُ إن شاء اللَّه تعالى، وإن كان الرجلَ السوءَ أُجْلِسَ في قبرِهِ فزعًا مشغوفًا، فيقالُ له: فيم كنتَ؟ فيقولُ: لا أدرِي، فيقال له: ما هذا الرجلُ الذي كان فيكم؟ فيقولُ: سمعتُ الناسَ يقولونَ قولاً فقلتُ كما قالُوا، فيفرجُ له فرجةٌ إلى الجنةِ فينظرُ إلى زهرتِها وما فيها، فيقالُ له: انظرْ إلى ما صرفَ اللَّهُ عنك، ثم يفرجُ له فرجةٌ قِبلَ النارِ فينظرُ إليها يحطمُ بعضُها بعضًا، ويقالُ له: هذا

---

(١) أخرجه: مسلم (٨/ ١٦٥).

(٢) «السنن» (٤٢٧٢).

(٣) «المسند» (٦/ ١٣٩ - ١٤٠).

مقعدُك منها، على الشكِّ كنتَ، وعليه متَّ، وعليه تبعثُ إن شاء اللَّه تعالى ثم يعذَّب».

وخرَّج الإمامُ أحمدُ(١) أيضًا من حديث أبي سعيد الخدريِّ، قالَ: شهدنا مع رسولِ اللَّهِ ﷺ جنازةً، فقال رسولُ اللَّه ﷺ: «يا أيها الناسُ إنَّ هذه الأمَّة تبتلَى في قبورِها، فإذا الإنسانُ دفنَ فتفرَّقَ عنه أصحابُهُ جاءَهُ ملكٌ في يده مطراقٌ فأقعدَهُ، قال: ما تقولُ في هذا الرجلِ؟ فإن كانَ مؤمنًا، قالَ: أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللَّهُ وأنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ، فيقولُ له: صدقتَ، ثم يفتحُ له بابًا إلي النارِ، فيقولُ: هذا كان منزلُك لو كفرتَ بربِّك، فأمَّا إذا آمنتَ بربِّك فهذا منزلُك، فيُفتحُ له بابٌ إلى الجنة، فيريدُ أن ينهضَ إليه، فيقولُ له: اسكنْ، ويُفسح له في قبرِه، وإنْ كان كافرًا أو منافقًا فيقولُ له: ما تقولُ في هذا الرجلِ؟ فيقولُ: لا أدْري، سمعتُ الناسَ يقولونَ شيئًا، فيقولُ: لا دريتَ ولا تليتَ ولا اهتديتَ، ثم يفتحُ له بابٌ إلى الجنةِ، فيقولُ له: هذا منزلُك لو آمنتَ بربِّك، فأمَّا إذا كفرتَ به فإنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ أبدَلَكَ به هذا، ويفتحُ له بابٌ إلى النارِ، ثم يقمعه قمعةً بالمطراقِ، يسمعُها خلقُ اللَّه عزَّ وجلَّ كلُّهم غيرَ الثقلين»، فقالَ بعضُ القومِ: يا رسولَ اللَّه، ما أحدٌ يقومُ عليه ملك في يده مطراقٌ إلا هيلَ عند ذلك. فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾» [إبراهيم: ٢٧].

وخرَّج أبو بكرٍ في كتابِ «السنة» من حديث عمرَ بنِ الخطابِ، عن النبيِّ ﷺ، أنَّه قال: «كيف أنتَ يا عمرُ إذا كنتَ من الأرضِ في أربعةِ أذرعٍ في ذراعين، فرأيتَ منكرًا ونكيرًا؟» قلتُ: يا رسولَ اللَّه، وما منكرٌ ونكيرٌ؟ قال: «فتَّانا القبرِ يبحثانِ الأرضَ بأنيابِهما، ويطآن في أشعارِهما، أصواتُهما كالرعدِ القاصفِ، وأبصارُهما كالبرقِ الخاطفِ، ومعهُما مرزبةٌ لو اجتمعَ عليها أهلُ منى لم يطيقُوا رفعَها وهي أيسرُ عليهما من عصَاي هذه» قال: قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، وأنا على حالِي

---

(١) «المسند» (٣/ ٣ - ٤).

هذه؟ قال: «نعم» فقلتُ: إذًا أكفيكَهما.

وفي روايةٍ أيضًا: «فامْتحناكَ فإن التويتَ ضرباكَ ضربةً صرتَ رمادًا»، وفي إسنادِهِ ضعفٌ.

وخرَّجه الإسماعيليُّ من وجهٍ آخرَ فيه ضعفٌ أيضًا عن عمرَ عن النبيِّ ﷺ بنحوه وزاد فيه: «يأتيانِ الرجلَ في صورةٍ قبيحةٍ، يطآنِ على شعورِهما، ويحفرانِ الأرضَ بأنيابِهما» وزاد فيه: «يقولانِ له: من ربُّك؟ فإن كان مسلمًا يقولُ: ربِّي اللَّهُ، وإن كان فاجرًا فيقولُ: لا أدْري، فيضربانِه ضربةً لو كانَ جبلاً صارَ تُرابًا، فيصيحُ صيحةً ما يبقَى شيءٌ إلا سمِعَها إلا الثقلينِ الجنَّ والإنسَ، فذلكَ قولُه سبحانه وتعالى: ﴿وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾» [البقرة:١٥٩]، وقد رُوِي حديثُ عمرَ هذا من وجوهٍ أُخرَ مرسلةٍ.

وخرَّج الإمامُ أحمدُ وابنُ حبانَ في «صحيحِه»(١) من حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ، أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ ذكرَ فتَّانَيْ القبرِ، فقالَ عمرُ: أتُرَدُّ إلينا عقولُنا يا رسولَ اللَّهِ؟ فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «نعم، كهيئتِكُم اليومَ»، فقال عمرُ: بفِيْهِ الحجر.

وخرَّج أبو داودَ(٢) عن عثمانَ بنِ عفانَ ﷺ، قالَ: كان النبيُّ ﷺ إذا فرغَ من دفنِ الميتِ وقفَ عليه، وقالَ: «استغفِرُوا لأخيكم، واسألُوا له التثبيتَ، فإنه الآنَ يُسألُ».

وفي حديثِ يونسَ بن خبابٍ، عن المنهالِ بنِ عمرٍو، عن زاذانَ، عن

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٧٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٣١١٥).
(٢) «السنن» (٣٢٢١).

البراءِ بنِ عـازبٍ، عن النبيِّ ﷺ أنه ذكر سـؤالَ المؤمن في قبـرِه، وأنَّ المَلَكَ ينتهرُه، قال: «**وهي آخـرُ فتنةٍ تعـرضُ على المؤمنِ فـذلكَ، قولُهُ تعـالى: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾**» [إبراهيم: ٢٧] أخرجه الإمامُ أحمدُ.

وكذا رواه جريرٌ، عن الأعمشِ، عن المنهالِ، وفي حديثِه: «**إنَّ المؤمنَ يقولُ ذلكَ ثلاثَ مراتٍ، ثم ينتهرانِه انتهارةً شديدةً، وهي آخرُ فتنةٍ تعرضُ على المؤمنِ**».

ورواه أبو عوانة، عن الأعمشِ، وفي حديثِه: «**ويأتيه ملكانِ شديدا الانتهارِ**» وذلك في حقِّ الكافرِ والمؤمنِ(١).

وقد روي عن مجـاهدٍ: أنَّ الموتى كانُوا يفتنون في قبورِهِم سـبعًا، فكانُوا يستحبُّون أنْ يُطعمَ عنهم تلك الأيامُ.

وعن عبيدِ بنِ عميرٍ، قال: المؤمنُ يفتن سبعًا، والمنافقُ أربعينَ صباحًا.

وقال الإمامُ أحمدُ: أخبرنا يزيدُ بنُ هارونَ، عن المسعوديِّ، عن العلاءِ بن الشخيرِ، حـدثنا بعضُ حفدةِ أبي موسى الأشعـريِّ، أنَّ أبا موسى الأشعريَّ أوصاهُم، قـال: إذا حفرتُم فـأعمِقُـوا قعرَهُ، أما أنـي واللَّهِ لأقولُ لكُم ذلك وأني لأعلم إن كنتُ من أهلِ طاعةِ اللَّهِ ليفسحنَّ لي في قبرِي ولينورُ لي فيه، ثم ليفتـحنَّ لي بابُ مساكني في الجنةِ، فمـا أنا بمساكني من داري هذه بأعلم من مساكـنِي منها، وليأتينِّي من روحِهـا وريحتِها وريحـانِها، ولئنْ كنتُ من أهلِ المنزلةِ الأُخرى ليضيقُ عليَّ قبرِي، ولـيهدمنَّ من عليَّ الأرضَ، فليفتحنَّ اللَّهُ إليَّ بابَ مـساكنِـي من النارِ، فمـا أنا بمسـاكنِي من دارِي هذه بأعلمَ من مساكنِي منها، ثم ليأتينِّي من شرِّها، وشرورِها، ودخانِها.

---

(١) تقدم قريبًا.

وروى المسعوديُّ، عن عبدِ اللَّهِ بن المخـارقِ، عن أبيه قالَ: قال عبدُ اللَّه ـ يعني ابنَ مسعودٍ ـ: إنَّ المسلمَ إذا ماتَ أُجلسَ في قبرِه، فيقالُ له: من ربُّك؟ ما دينُـك؟ من نبيُّك؟ قـال: فيثـبِّتـه اللَّهُ تعالى، فـيقـولُ: ربي اللَّهُ، وديني الإسـلامُ، ونَبيِّي مـحمـدٌ ﷺ، فيـوسَّعُ له في قبرِهِ ويـفرجُ له فيـه، ثم قرأ عبدُ اللَّه: ﴿**يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ**﴾الآية، [إبراهيم:٢٧].

وقال ابنُ أبي الدنيا: حدثنا أحمدُ بنُ بحـيرٍ، حدثنا بعضُ أصحابِنا، قال: مات أخٌ لي فـرأيتُه في النَّومِ، فقلتُ له: مـا حالُك حينَ وضعْتَ في قـبرِكَ؟ قال: أتانِي آتٍ بشهابٍ من نارٍ فلولا أنَّ داعٍ دعا لي لرأيتُ أنه سيضْرِبُني بهِ[1].

* * *

قال الله عز وجل: ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ﴾

قال عليُّ بن أبي طلحةَ عن ابنِ عـباسٍ، في قولِهِ: ﴿**قَطِرَانٍ**﴾ قـال: هو النحاسُ المذابُ.

وروى حصينٌ عن عكرمـةَ، في قولِهِ: ﴿**سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ**﴾ [إبراهيم:٥٠] قال: من صفرٍ يُحمى عليها.

قال معمرٌ عن قتادةَ في قولِهِ: ﴿**سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ**﴾ [إبراهيم:٥٠] قال: من النحاسِ.

قال معمرٌ، وقال الحسنُ: قطرانُ الإبلِ[2].

(١) «أهوال القبور» (ص ١٣ ـ ٢٤).

(٢) راجع هذه الأقوال في «تفسير الطبري» (١٣/ ٢٥٦).

وفي «صحيح مسلمٍ» [١] عن أبي مالكٍ الأشعريِّ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «النائحةُ إذا لم تتبْ قبلَ موتِها تُقَلمُ يومَ القيامةِ وعليها سربالٌ من قطرانٍ ودرعٌ من جربٍ» وخرَّجه ابنُ ماجه ولفظُهُ: «النائحةُ إذا ماتتْ ولم تتبْ قطعَ اللَّهُ لها ثيابًا من قطرانٍ ودرعًا لهبِ النارِ».

وخرَّج ابنُ ماجه[٢] أيضًا من حديثِ ابنِ عباسٍ، عنِ النبيِّ ﷺ: «النائحةُ إذا لم تتبْ قبلَ أن تموتَ فإنها تبعثُ يومَ القيامةِ وعليها سرابيلُ من قطرانٍ يغلي عليها بدروعٍ من لهبِ النارِ»[٣].

* * *

(١) (٣/ ٤٥).

(٢) «السنن» (١٥٨٢).

(٣) «التخويف من النار» (١٢٧ ـ ١٢٨).

سُورَةُ الحِجْرِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

بلغني إنكارُ بعضِ الناسِ على إنكارِي على بعضِ من ينتسبُ إلى مذهبِ الإمامِ أحمدَ وغيرِه من مذاهبِ الأئمةِ المشهورينَ في هذا الزمانِ، الخروج عن مذاهبِهِم، في مسائلَ، وزعمَ أنَّ ذلكَ لا ينكر على مَنْ فعلَهُ، وأنَّ من فعلَهُ قد يكون مُجتهداً مُتبعًا للحقِّ الذي ظهر له، أو مقلداً لمجتهدٍ آخر، فلا يُنكر عليه.

فأقولُ وباللَّهِ التوفيقِ، وهو المستعانُ وعليه التكلانُ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللَّهِ:

لا ريبَ أنَّ اللَّه تعالى حفظ لهذهِ الأُمَّةِ دينَها حفظًا لم يحفظْ مثلَه دِينًا غيرَ دينِ هذهِ الأمةِ، وذلك أنَّ هذه الأمـةَ ليسَ بعدَها نبيٌّ يجـدِّدُ ما دثرَ من دينه كمـا كانَ دينُ مَنْ قبلَنا من الأنبـياءِ، كلَّما دثرَ دينُ نبيٍّ جـدَّده نبيٌّ آخر يأتي بعدَه.

فتكفَّلَ اللَّهُ سبحانه بحفظِ هذا الـدينِ، وأقامَ له في كلِّ عصرٍ حملةً ينفونَ عنه تحريفَ الغالينَ، وانتحالَ المبطلينَ، وتأويلَ الجاهلينَ.

وقـال تعـالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، فتـكـفَّـلَ اللَّهُ سبحـانه بحفظِ كتابِـهِ، فلم يتمكَّـنْ أحدٌ من الزيـادةِ في ألفـاظِـهِ ولا مِنْ

النقصِ منها.

وقد كانَ النبيُّ ﷺ يُقرئُ أُمَّته القرآنَ في زمانِه على أحرفٍ مُتعددة، تيسيرًا على الأمَّةِ لحفظِه، وتعلُّمِه، حيث كان فيهم العجوزُ والشيخُ الكبيرُ، والغلامُ والجاريةُ، والرجلُ الذي لم يقرأ كتابًا قطُّ.

فطلب لهم الرخصةَ في حفظِهم له أنْ يُقرئَهُم على سبعةِ أحرفٍ، كما وردَ ذلك في حديثِ أُبيِّ بنِ كعبٍ[1] وغيرِه.

ثم لما انتشرتْ كلمةُ الإسلامِ في الأقطارِ، وتفرَّق المسلمونَ في البُلدانِ المتباعدةِ صارَ كلُّ فريقٍ منهُم يقرأ القرآن على الحرفِ الذي وصلَ إليه، فاختلفُوا حينئذٍ في حروفِ القرآنِ، فكانُوا إذا اجتمعُوا في الموسمِ أو غيرِه اختلَفُوا في القرآنِ اختلافًا كثيرًا.

فأجمعَ أصحابُ النبيِّ ﷺ في عهدِ عُثمانَ على جمعِ الأمَّة على حرفٍ واحدٍ، خشيةَ أنْ تختلفَ هذه الأُمَّةُ في كتابِها كما اختلفتْ الأُممُ قبلَهُم في كُتُبِهِم، ورأوا أنَّ المصلحةَ تقتضي ذلك.

وحرقوا ما عدا هذا الحرفَ الواحدَ من المصاحفِ وكان هذا من محاسنِ أميرِ المؤمنين عثمان ﷺ التي حمده عليها عليٌّ وحذيفةُ وأعيانُ الصحابة.

وإذا كان عمرُ قد أنكرَ على هشامِ بنِ حكيمِ بنِ حزامٍ على عهدِ النبيِّ ﷺ في آيةٍ أشدَّ الإنكارِ[2] وأُبيُّ بنُ كعبٍ حصلَ له بسببِ اختلافِ القرآنِ ما أخبرَ به عن نفسِه من الشكِّ، وبعضُ مَنْ كان يكتبُ الوحي للنبيِّ ﷺ ممن لم

(١) أخرجه: مسلم (٢/ ٢٠٢ ـ ٢٠٣).

(٢) أخرجه: البخاري (٣/ ١٦٠)، (٦/ ٢٢٧ ـ ٢٣٩)، ومسلم (٢/ ٢٠٢).

يرسخِ الإيمانُ في قلبِه ارتدَّ بسببِ ذلك حتى ماتَ مُرتدا.

هذا كلُّه في عهدِ النبيِّ ﷺ فكيفَ الظنُّ بالأُمَّةِ بعده أنْ لو بقيَ الاختلافُ في ألفاظِ القرآنِ بينَهُم.

فلهذا تركَ جمهورُ علماءِ الأمةِ القراءةَ بماعدا هذا الحرفِ الذي جمعَ عثمانُ عليه المسلمينَ، ونهَوا عن ذلك. ورخَّص فيه نفرٌ منهُم، وحُكيَ روايةً عن أحمدَ ومالكٍ مع اختلافٍ عنهُما على ذلكَ به في الصلاةِ وغيرِها أم خارجِ الصلاةِ فقط.

وبكلِّ حالٍ: فلا تختلفُ الأمَّةُ أنَّه لو قرأَ أحدٌ بقراءةِ ابنِ مسعودٍ، ونحوِها مما يخالفُ هذا المصحفُ المجتمعُ عليه، وادَّعى أنَّ ذلكَ الحرفَ الذي قرأ به هوَ حرفُ زيدِ بنِ ثابتٍ الذي جمعَ عليه عثمانُ الأُمَّةَ، أو أنَّه أولى بالقراءةِ من حرفِ زيدٍ: لكانَ ظالمًا مُتعديًا مُستحقا للعقوبةِ. وهذا لا يختلفُ فيه اثنانِ من المسلمينَ.

إنَّما محلُّ الخلافِ: إذا قرأ بحرفِ ابنِ مسعودٍ ونحوِه مع اعترافِهِ أنَّه حرفُ ابنِ مسعودٍ المخالفُ لمصحفِ عثمانَ رضي الله عنه.

وأما سنَّةُ النبيِّ ﷺ: فإنّها كانتْ في الأمَّةِ تُحفظ في الصدورِ كما يُحفظ القرآنُ، وكان مِن العلماءِ من يكتُبها كالمصحفِ، ومنهُم من ينهى عن كتابتِها.

ولا ريبَ أنَّ الناسَ يتفاوتونَ في الحفظِ والضبطِ تفاوتًا كثيرًا.

ثمَّ حدثَ بعد عصرِ الصحابةِ قومٌ من أهلِ البدعِ والضلالِ، أدخلوا في الدِّينِ ما ليسَ منه وتعمَّدوا الكذبَ على النبيِّ ﷺ.

فأقامَ اللّهُ تعالى لحفظِ السنّةِ أقوامًـا ميَّزوا ما دخلَ فيها من الكذبِ والوهم والغلطِ، وضبطُوا ذلكَ غايةَ الضبطِ وحفظوه أشدَّ الحفظِ.

ثم صنَّف العلماءُ التصانيفَ في ذلكَ، وانتشرت الكتبُ المؤلفةُ في الحديثِ وعلومِه، وصارَ اعتمادُ الناسِ في الحـديثِ الصحيحِ على كتابَي الإمامينِ أبي عبـدِ اللَّهِ البخاريِّ، وأبي الحـسينِ مُسلمِ بنِ الحـجَّاجِ القُشـيريِّ - رضي اللَّهُ عنهما.

واعتمادُهم بعدَ كتابيهما على بقيّةِ الكُتبِ الستةِ خصوصًا «سُنن أبي داود»، و«جامعُ أبي عيسى» و«كتابُ النسائيِّ» ثم كتابُ ابنِ ماجه.

وقد صُنِّفَ في الصحـيحِ مصنفاتٌ أُخر بعد صحيـحي الشيخينِ، لكن لا تبلغ كتابَي الشيخينِ.

ولهـذا أنكرَ العلمـاءُ على من استـدرك عليـهمـا الكتـابَ الذي سمَّـاه: «المُسْتدرك».

وبالغَ بعضُ الحفَّاظِ فزعمَ أنَّه ليسَ فيه حديثٌ واحدٌ على شرطِهِما.

وخالفَهُ غـيرُه، وقال: يصفـو منه حديثٌ كثيـر صحيحٌ. والتحـقيقُ: أنَّه يصفو منه صحيحٌ كثيرٌ على غيرِ شرطِهِما، بل على شرطِ أبي عيسى ونحوِه، وأما على شرطِهِما فلا.

فـقلَّ حـديثٌ تركَـاه إلا وله علةٌ خـفـيّـة، لكن لعـزَّة من يعـرفُ العللَ كمعرفتِـهِما وينقده، وكونه لا يتهيأ الواحدُ منهم إلا في الأعـصارِ المُتباعدةِ، صارَ الأمـرُ في ذلك إلى الاعتمـادِ على كتابيهـما، والوثوقُ بهمـا والرجوعُ إليهما، ثم بعدَهُما إلى بقيّةِ الكتبِ المُشارِ إليها.

ولم يُقبلْ من أحدٍ بعد ذلك الصحيحُ والضعيفُ إلى عمَّن اشتُهرَ حذقه ومعرفتُه بهذا الفنِّ واطلاعُه عليه، وهم قليلٌ.

وأمَّا سائرُ الناسِ، فإنَّهم يعولّون على هذهِ الكُتبِ المشارِ إليها. ويكتفونَ بالعزوِ إليها(١).

* * *

قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾

وخرَّج الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ(٢) من حديثِ ابنِ عمرَ، عنِ النبيِّ ﷺ، قال: «إنَّ لجهنَّم سبعةَ أبوابٍ، بابٍ منها لمنْ سل سَيفَهُ على أُمَّتي».

وخرَّج الإمامُ أحمدُ(٣) من حديثِ عتبةَ بنِ عبدٍ السُّلميِّ عنِ النبيِّ ﷺ، قالَ: «إنَّ للجنةِ ثمانيةُ أبوابٍ ولجهنَّم سبعةُ أبوابٍ وبعضُها أفضلُ من بعضٍ».

وفي حديثِ أبي رزينِ العقيليِّ عنِ النبيِّ ﷺ، قالَ: «لَعَمرُ إلهِكَ؛ إنَّ للنارِ سبعةُ أبوابٍ، ما منهنَّ بابانِ إلا ويسيرُ الراكبُ بينهما سبعينَ عامًا».

خرَّجه عبدُ اللَّهِ بنُ الإمامِ أحمدَ، وابنُ أبي عاصم، والطبرانيُّ، والحاكمُ(٤)، وغيرُهم.

وخرَّج البيهقيُّ من حديثِ أبي سعيدٍ وأبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ، في

(١) «الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة» (١٨ ـ ٢٥).

(٢) أخرجه: أحمد (٢/ ٩٤)، والترمذي (٣١٢٣).

(٣) «المسند» (٤/ ١٨٥ ـ ١٨٦).

(٤) أخرجه: عبد اللَّه بن أحمد في «زاوئده على المسند» (٤/ ١٣ ـ ١٤)، والطبراني في «الكبير» (١٩/ ٢١١)، والحاكم (٤/ ٥٦٠).

حديثِ المرورِ على الصراطِ، وقالَ فيه: «**فناجٍ مسَّلمٍ، ومخدوشٍ مرسلٍ، ومطروحٍ فيها**، ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٤]».

وروى أبو إسحاقَ عن هبيرةَ ابنِ مريمَ عن عليٍّ قال: أبوابُ جهنمَ سبعةٌ بعضُها فوقَ بعضٍ، وقالَ بإصبعه: وعقد خمسينَ وأضجَعَ يدَه، ثم يمتلئُ الأولُ والثاني والثالثُ حتى عقدَهَا كلَّها، خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ، وغيرُه[1]، ورواه بعضُهم عن أبي إسحاقَ عن عاصمِ بنِ ضمرةَ عن عليٍّ بمعناه.

وخرَّج ابنُ أبي حاتمٍ من طريقِ حطانَ الرّقاشيِّ، قالَ: سمعتُ عليًّا يقولُ: هلْ تدرونَ كيفَ أبوابُ جهنمَ؟ قلنا: هي مثلُ أبوابِنا هذه، قال: لا، هي هكذا، بعضُها فوقَ بعضٍ. وفي روايةٍ له أيضًا: بعضُها أسفلَ من بعضٍ، وخرَّجه البيهقيُّ[2] ولفظُه: أبوابُ جهمَ هكذا، ووضعَ يدَه اليُمنى على ظهرِ يدِهِ اليسرى.

وعن ابن جريجٍ في قولِهِ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ [الحجر:٤٤] قال: أوَّلُها جهنمُ، ثمَّ لظى، ثمَّ الحطمةُ، ثم السعيرُ، ثم سقرُ، ثم الجحيمُ، وفيها أبو جهل، ثم الهاويةُ، خرَّجه ابن أبي الدنيا وغيره[3].

وقال جويبرٌ عن الضحاكِ: سمَّى اللَّهُ أبوابَ جهنمَ لكلِّ بابٍ منهم جزءٌ مقسومٌ، باب لليهودِ وبابٌ للنصارى وبابٌ للمجوسِ وبابٌ للصابئينَ وبابٌ للمنافقينَ وبابٌ للذين أشركُوا وهم كفارُ العربِ، وبابٌ لأهل التوحيد، وأهلُ التوحيدِ يُرجَى لَهُم ولا يُرجى للآخرين. خرَّجه الخلالُ.

---

(١) أخرجه: ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٤٩)، وابن جرير في «التفسير» (١٤/ ٣٥).
(٢) وهو عند ابن أبي شيبة في «المصنف» (٧/ ٤٩)، وابن جرير في «التفسير» (١٤/ ٣٥).
(٣) أخرجه: ابن جرير في «التفسير» (١٤/ ٣٥ ـ ٣٦).

وقال آدمُ بنُ أبي إياس: حدثنا حمادُ بنُ سلمةَ عن عطاءِ بنِ السائبِ عن أبي ميسرة في قولهِ: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الزمر:٧٢] قال: لجهنمَ سبعةُ أبوابٍ بعضُها أسفلَ من بعضٍ.

وقال عطاءُ الخراسانيُّ: إنَّ لجهنَّمَ سبعةَ أبوابٍ أشدُّها غمًّا وكربًا وحرًّا وأنتنها ريحًا، للزناةِ الذين ركبوه بعد العلمِ، خرَّجه أبو نعيم.

وعن كعبٍ قالَ: لجهنمَ سبعةُ أبوابٍ بابٌ منها للحروريةِ.

وهذا كلُّه من حديثِ ابنِ عمرَ المتقدمِ يدلُّ على أنَّ كلَّ بابٍ من الأبوابِ السبعةِ لعملٍ من الأعمالِ السيئةِ، كما أنَّ أبوابَ الجنةِ الثمانيةِ كلُّ بابٍ منها لعملٍ من الأعمالِ الصالحةِ.

وعن وهبِ بنِ منبه: بينَ كلِّ بابينِ مسيرةَ سبعينَ سنةً، كلُّ بابٍ أشدُّ حرًّا منْ الذي فوقَهُ.

وخرَّج الثعلبيُّ في «تفسيرِهِ» بإسنادٍ مجهولٍ إلى منصور بنِ عبدِ الحميدِ بنِ أبي رباحٍ، عن أنسٍ، عن بلالٍ أنَّ أعرابيّة صلَّتْ خلفَ النبيِّ ﷺ فقرأ النبيُّ ﷺ هذهِ الآيةَ: ﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٤] فخرتْ مغشيًّا عليها، فلما أفاقتْ قالتْ: يا رسولَ اللَّه كلُّ عضوٍ من أعضَائي يعذّبُ على كلِّ بابٍ منها، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «﴿لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ [الحجر:٤٤] **يعذب على كلِّ بابٍ على قدرِ أعمالِهم**» فقالتْ: مالي إلا سبعةُ أعبدٍ أُشهدُكَ أنَّ كلَّ عبدٍ منهم لكلِ بابٍ من أبوابِ جهنَّم، حُرٌّ لوجهِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، فجاء جبريلُ فقالَ: بشِّرْها أنَّ اللَّه قد حرَّمَها على أبوابِ جهنَّم، وهذا حديثٌ لا يصحُّ مرفوعًا، ومنصورُ بنُ عبدِ الحميدِ، قالَ فيه ابنُ حبانَ: لا تحِلُّ الروايةُ عنه.

والصحيحُ ما رَوى مَخْلدُ بنُ الحسنِ عنِ هشامِ بنِ حسانَ، قالَ: خرجْنا حُجَّاجًا فنزلنا منزلاً في بعضِ الطريقِ، فقرأ رجلٌ كانَ معنا هذه الآيةَ: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ﴾ [الحجر:٤٤] فسمعتْهُ امرأةٌ، فقالتْ: أعدْ رحمكَ اللَّهُ، فأعادَها، فقالتْ: خلَّفتُ في البيتِ سبعةَ أعبدٍ أشهدكُم أنَّهم أحرارٌ لكلِّ بابٍ واحدٌ منهم، خرَّجه ابنُ أبي الدنيا.

وخرَّج البيهقيُّ[(١)] من حديثِ الخليلِ بنِ مرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ لا ينامُ حتى يقرأ: ﴿تبارك﴾، و﴿حم السجدة﴾ وقال: «**الحواميمُ سبعٌ وأبوابُ جهنَّمَ سبعٌ: جهنَّمُ والحطمةُ ولظَى والسعيرُ وسقرُ والهاويةُ والجحيمُ**»، وقال: «**تجيءُ كلُّ حم منها يومَ القيامةِ**» أحسبُهُ قال: «**تقفُ على بابٍ من هذه الأبوابِ، فتقولُ: اللَّهُمَّ لا تدخلْ هذا البابَ كل من يؤمن بي ويقرؤني**»، وقال: هذا منقطعٌ، والخليلُ بنُ مرَّةَ فيه نظرٌ.

وروى ابنُ أبي الدنيا من طريقِ عبدِ العزيزِ بنِ أبي روادٍ، قالَ: كان بالباديةِ رجلٌ قد اتخذَ مسجدًا، فجعلَ في قبلتِهِ سبعةَ أحجارٍ، فكانَ إذا قَضى صلاتَهُ، قال: يا أحجارُ، أشهدُكُم أن لا إله إلا اللَّهُ، قال: فمرضَ الرجلُ فعرجَ بروحِه، قال: فرأيتُ في منامِي أنَّه أُمِرَ بي إلى النَّارِ، فرأيتُ حَجَرًا من تلكَ الأحجارِ أعرفه بعينه قد عظمْ، فسد عنِّي بابًا من أبواب جهنم، قال: حتى سدَّ عنِّي بقيةُ الأحجارِ أبوابَ جهنمَ السبعةَ[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

وحكى البخاريُّ، عن عدة من أهلِ العلمِ، أنهم قالُوا ـ في قولِهِ تعالى:

---

(١) «شعب الإيمان» (٢٤٧٩).

(٢) «التخويف من النار» (ص ٥٨ ـ ٦٠).

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر:٩٢-٩٣]: عن قولِ: لا إله إلا اللَّهُ.

ففسَّروا العملَ بقولِ كلمةِ التوحيدِ.

وممْن رُوي عنه هذا التفسيرُ: ابنُ عمرَ ومجاهدٌ.

ورواه ليثُ بنُ أبي سليمٍ، عن بشيرِ بنِ نهيكٍ، عن أنسٍ - موقوفًا - ورُوي عنه - مرفوعًا - أيضًا. خرَّجه الترمذيُّ (١) وغرَّبَهُ.

وقال الدارقطنيُّ: «ليثٌ» غيرُ قويٍّ، ورفعُه غيرُ صحيحٍ.

وقد خالفَ في ذلك طوائفُ من العلماءِ، من أصحابِنا وغيرِهم، كأبي عبدِ اللَّه بن بطةَ، وحملُوا العملَ في هذه الآياتِ على أعمالِ الجوارحِ، واستدلُّوا بذلكَ على دخولِ الأعمالِ في الإيمانِ(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾

عملُ المؤمنِ لا ينقضِي حتى يأتيَه أجلُهُ. قال الحسنُ: إنَّ اللَّهَ لم يجعلْ لعملِ المؤمنِ أجلاً دونَ الموتِ، ثم قرأ: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٩].

هذه الشهورُ والأعوامُ والليالي والأيامُ كلُّها مقاديرُ للآجالِ، ومواقيتُ للأعمالِ، ثم تنقضِي سريعًا، وتمضِي جميعًا، والذي أوجدَها وابتدَعها وخصَّها بالفضائلِ وأودَعَها باقٍ لا يزولُ، ودائمٌ لا يحولُ، هو في جميعِ

(١) «الجامع» (٣١٢٦).
(٢) «فتح الباري» (١/ ١١٢ - ١١٣).

الأوقاتِ إلهٌ واحدٌ، ولأعمالِ عبادِه رقيبٌ مشاهدٌ، فسبحانَ مَنْ قلَّبَ عبادَهُ في اختلافِ الأوقاتِ بينَ وظائفِ الخدمِ، ليسبغَ عليهم فيها فواضلَ النِّعم، ويعاملَهُم بنهايةِ الجودِ والكرمِ، لَمَّا انقضتِ الأشهرُ الثلاثةُ الكرامُ التي أولها الشهرُ الحرامُ، وآخرُها شهرُ الصِّيام، أقبلْت بعدها الأشهرُ الثلاثةُ، أشهر الحجِّ إلى البيتِ الحرامِ، فكما أنَّ مَنْ صامَ رمضانَ وقامَهُ غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبِهِ، فمنْ حجَّ البيتَ ولم يرفُثْ ولم يفسُقْ رجع من ذنوبِهِ كيومِ ولدتْهُ أمه، فما يمضِي من عمرِ المؤمنِ ساعةٌ من الساعاتِ إلا ولله فيها عليه وظيفةٌ من وظائفِ الطاعاتِ، فالمؤمنُ يتقلَّبُ بين هذهِ الوظائفِ، ويتقرَّبُ بها إلى مولاه وهو راجٍ خائفٌ[1].

* * *

(١) «لطائف المعارف» (ص ٣٩٨).

سُورَةُ النَّحْلِ

قوله تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾

وأمَّا قولُ اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٦].

وقولُ عمرَ: تعلَّموا من النجومِ ما تعرفونَ به القبلةَ والطريقَ.

ورُوي عنه، أنَّه قال: تعلَّموا من النجومِ ما تهتدونَ به في بَرِّكم وبَحْرِكُم، ثم أمسكُوا.

فمرادُه ـ واللَّهُ أعلمُ ـ: أنَّه يُتَعلَّم من النجومِ الشرقيةِ والغربيةِ والمتوسطةِ ما يُهْتَدى به إلى جهةِ القبلةِ بعد غروبِ الشمسِ، وفي حالةِ غيبوبةِ القمرِ، فيُسْتدلُّ بذلكَ على الشرقِ والغربِ، كما يُسْتدلُّ بالشمسِ والقمرِ عليهما، ولم يُرِدْ ـ واللَّهُ أعلمُ ـ تَعَلُّمَ ما زادَ على ذلكَ. ولهذا أمرَ بالإمساكِ؛ لمَا يُؤدي التوغلُ في ذلكَ إلى ما وقعَ فيه المتأخرونَ من إساءةِ الظنِّ بالسلفِ الصالحِ.

وقد اخْتُلِفَ في تعلُّمِ منازلِ القمرِ وأسماءِ النجوم المهتدَى بها، فَرخَّص فيه النخعيُّ ومجاهدٌ وأحمدُ، وكرِهَ قتادةُ وابنُ عيينةَ تعلُّمَ منازلِ القمرِ.

وقال طاوس: رُبَّ ناظرٍ في النجومِ، ومتعلِّمٍ حروفَ «أبي جاد» ليس له عند اللَّهَ خلاَقٌ. ورُوي ذلك عنه، عن ابنِ عباسٍ[1].

* * *

(١) «فتح الباري» (٢/ ٢٩٦ ـ ٢٩٧).

قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾

وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية:١٣]، فاللَّهُ تعالى هو المُبتدئ بالخيرِ، فمنه بدأ ونشأ. والخيرُ به. يعني: أنَّ دوامَهُ واستمرارَهُ وثبوتَهُ باللَّهِ، ولو شاءَ اللَّهُ لنزعَهُ وسلبهُ صاحبَهُ، وقد قالَ تعالى لنبيِّه: ﴿وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴿٨٦﴾ إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً﴾ [الإسراء:٨٦-٨٧]، يعني: أنَّ دوامَ هذه النعمةِ عليكَ من اللَّهِ كما أنَّ ابتداءَها منه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾

روى الأعمشُ عن عبدِ اللَّهِ بنِ مرةَ، عن مسروقٍ، عنِ ابنِ مسعودٍ، في قولِهِ تعالى: ﴿زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ﴾ [النحل:٨٨]، قال: عقاربُ لها أنيابٌ كالنخلِ الطوالِ، وخرَّجه الحاكمُ(٢) وقال: صحيحٌ على شرطِ الشيخينِ.

وفي روايةٍ عنه، قالَ: زيدُوا عقاربَ من نارٍ كالبغالِ الدهمِ أنيابُها كالنخلِ، خرَّجه آدمُ بنُ أبي إياسٍ في «تفسيرِهِ» عن المسعوديِّ عن الأعمشِ عن أبي وائلٍ عن ابنِ مسعودٍ، وقولِ من قالَ عن عبدِ اللَّهِ بنِ مرةَ عن مسروقٍ أصحُّ.

وخرَّجَ ابنُ أبي حاتمٍ من روايةِ سفيانَ عن رجلٍ عن مرةَ عن عبدِ اللَّهِ في قولِهِ: ﴿عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ﴾ [ص:٦١]، قالَ: حياتٌ وأفاعِي. وروى السديُّ

---

(١) «شرح حديث لبيك اللهم لبيك» (ص ٢٩ ـ ٣٠).

(٢) أخرجه: ابن جرير في «التفسير» (١٤/ ١٦٠)، والحاكم (٢/ ٣٣٥ ـ ٣٥٦).

عن مرةَ عن عبدِ اللَّهِ في هذه الآيةِ، قالَ: أفاعِي في النارِ.

وروى ابنُ وهبٍ عن يحيى بنِ عبدِ اللَّهِ عن أبي عبدِ الرحمنِ الحبلى، عن عبدِ اللَّـهِ بنِ عمروٍ، قالَ: إنَّ لجهـنَّمَ لسواحلُ فيهـا حياتٌ وعقاربُ أعـناقُها كأعناقِ البختِ[1].

وخرَّج ابنُ أبي الدنيا وغيرُهُ من طريقِ مـجاهدٍ عن يزيدَ بنِ شجرةَ، قالَ: إنَّ لجهنَّمَ جـبابًا في سـواحلَ كسـواحلِ البحرِ، فـيه هوامٌّ وحـيَّاتٌ كالبخاتِيِّ وعقاربُ كالبغالِ الذلِّ، فإذا سـألَ أهلُ النارِ التخفيف قيلَ لهُم: اخرجُوا إلى السـواحلِ فتـأخذُهُم تلك الهـوامُّ بشفـاهِم وجنوبِهِم وما شـاءَ اللَّهُ من ذلكَ فتكشُطُها، فيرجعونَ فيبادرونَ إلى معظمِ النيرانِ، ويسلطُ عليهم الجربُ حتى إنَّ أحدَهُم ليحكُّ جلدَهُ حتى يبدُوا الـعظمُ، فيقالُ: يا فلانُ هل يؤذيكَ هذا؟ فيقولُ: نعم، فيقالُ له: ذلك ما كنتَ تؤذي المؤمنينَ.

وروى عبيـدُ اللَّهِ بنُ موسى عن عثمانَ بنِ الأسودِ عن مـجاهد، قال: في جهنَّمَ عقاربُ كأمثالِ الدلم لها أنيابٌ كالرماحِ إذا ضربتْ إحداهُنَّ الكافرَ على رأسِهِ ضربةً تساقطَ لحمُهُ على قدميه.

وروى حمادُ بنُ سلمـةَ عن الجريريِّ عن أبي عثمـانَ، قالَ: على الصراطِ حيـاتٌ يلسعْنَ أهلَ النارِ فـيقولونَ: حسّ حسّ، فـذلكَ قولُهُ: ﴿لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء:١٠٢].

وكان إبراهيـمُ العجليُّ ـ رحمَـهُ اللَّه ـ يقعُ البعـوضُ على كتـفيـهِ وظهرِهِ فيتأذَّى به، فيقولُ لنفسِهِ:

---

(١) أخرجه: ابن جرير في «التفسير» (١٤/ ١٦١).

وأنت تأذَّى من حسيسٍ بعوضةٍ فللنارِ أشقَى ساكنينَ وأوجع(١)

* * *

قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾

إنَّ اللَّه تعالى أنزلَ على نبيِّه الكتابَ، وبيَّنَ فيه للأُمَّة ما يحتاجُ إليه من حلالٍ وحرامٍ، كما قالَ تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، قالَ مجاهدٌ وغيرُه: لكلِّ شيءٍ أُمِرُوا به ونُهوا عنه، وقال تعالى في آخرِ سورةِ النساءِ التي بيَّنَ فيها كثيرًا من أحكامِ الأموالِ والأبضاعِ: ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النساء:١٧٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام:١١٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥]، ووكَّل بيانَ ما أُشكلَ من التنزيلِ إلى الرسولِ ﷺ، كما قالَ تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤]، وما قُبِضَ ﷺ حتى أكملَ له ولأُمَّته الدِّينَ، ولهذا أنزلَ عليه بعرفةَ قبلَ موته بمدةٍ يسيرةٍ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣].

وقالَ ﷺ: «تركتُكُم على بيضاءَ نقيّة، ليلُها كنهارِها، لا يزيغُ عنها إلا هالكٌ»(٢).

وقال أبو ذرٍّ: تُوفيَ رسولُ اللَّهِ ﷺ وما طائرٌ يحرِّكُ جناحَيه في السَّماءِ إلا

---

(١) «التخويف من النار» (ص ١١٠ ـ ١١١).

(٢) أخرجه: أحمد (٤/١٢٦).

وقد ذكَّرنا منه عِلْمًا[1] .

ولما شكَّ الناسُ في موتِه ﷺ، قال عمُّه العباسُ ﷺ: واللَّه ما ماتَ رسولُ اللَّه ﷺ حتى ترك السبيلَ نهجًا واضحًا، وأحلَّ الحلالَ وحرَّم الحرامَ، ونكحَ وطلَّقَ، وحاربَ وسَالَمَ، وما كانَ راعِي غنمٍ يتبعُ بها رءوسَ الجبالِ يخْبِطُ عليها العِضاهَ بمخْبطِهِ، ويَمْدُرُ حوضَها بيده بأنصبَ ولا أدأبَ من رسولِ اللَّهِ ﷺ كان فيكُم[2] .

وفي الجملةِ فما تركَ اللَّهُ ورسولُهُ حلالاً إلا مُبيَّنًا ولا حرامًا إلا مُبيَّنًا، لكن بعضَه كان أظهرُ بيانًا من بعضٍ، فما ظهرَ بيانُه واشتهرَ، وعُلِمَ من الدِّينِ بالضرورةِ من ذلكَ لم يبقَ فيه شكٌّ، ولا يُعذرُ أحدٌ بجهلهِ في بلدٍ يظهرُ فيها الإسلامُ، وما كان بيانُه دونَ ذلك، فمنه ما اشتهرَ بين حملةِ الشريعةِ خاصةً، فأجمعَ العلماءُ على حِلِّه أو حرمتِهِ، وقد يخفَى على بعضٍ من ليس منهُم، ومنه ما لم يشتهرْ بين حملةِ الشريعةِ أيضًا، فاختلفُوا في تحليلِهِ وتحريمِه[3] .

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾

وروى هشامُ بنُ عمَّارٍ في كتابِ «المبعث» بإسنادِهِ عن أبي سلاَّم الحبشيِّ، قال: حُدِّثْتُ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقولُ: «**فُضِّلْتُ على مَنْ قَبْلي بستٍّ ولا فخرَ**»،

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٥٣ ـ ١٦٢).

(٢) أخرجه: ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧) بإسناد مرسل.

(٣) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٨٢ ـ ١٨٣).

فذكرَ منها، قال: «وأُعطيتُ جوامعَ الكَلِمِ، وكانَ أهلُ الكتابِ يجعلونها جزءًا باللَّيلِ إلى الصَّباحِ، فجمعَهَا لي ربِّي في آيةٍ واحدةٍ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الحديد: ١]».

فجوامعُ الكلِمِ التي خُصَّ بها النبيُّ ﷺ نوعان:

أحدُهُما: ما هو في القرآنِ، كقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، قال الحسنُ: لم تتركْ هذه الآيةُ خيرًا إلا أمرتْ به، ولا شرًّا إلا نهتْ عنه.

والثاني: ما هو في كلامِه ﷺ، وهو منتشرٌ موجودٌ في السُّنَنِ المأثورةِ عنه ﷺ[1].

* * *

فقولُهُ ﷺ: «إنَّ اللَّهَ كتبَ الإحسانَ على كُلِّ شيءٍ»[2]، وفي روايةٍ لأبي إسحاقَ الفزاريِّ في كتابِ: «السيرِ» عن خالدٍ، عن أبي قلابة، عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ اللَّهَ كتبَ الإحسانَ على كلِّ شيءٍ» أو قال: «على كُلِّ خلقٍ»، هكذا خرَّجَها مرسلةً، وبالشكِّ في «كلِّ شيءٍ» أو «كلِّ خلقٍ»، وظاهرُهُ يقتضي أنه كتبَ على كلِّ مخلوقٍ الإحسانَ، فيكونُ كلُّ شيءٍ أو كلُّ مخلوقٍ هو المكتوبَ عليه، والمكتوبُ هو الإحسانُ.

وقيلَ: إنَّ المعنى: إنَّ اللَّهَ كتبَ الإحسانَ إلى كلِّ شيءٍ، أو في كلِّ شيءٍ،

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٨ ـ ١٩).

(٢) أخرجه: مسلم (٦/ ٧٢) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه وتمامه: «فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته».

أو كتبَ الإحسانَ في الولايةِ على كُلِّ شيءٍ، فيكونُ المكتوبُ عليه غيرَ مذكورٍ، وإنَّما المذكورُ المحسنُ إليه.

ولفظُ: «الكتابةِ» يقتضي الوجوبَ عندَ أكثر الفقهاءِ والأصوليين خلافًا لبعضِهِم، وإنَّما يعرفُ استعمالُ لفظةِ الكتابةِ في القرآنِ فيما هو واجبٌ حتمٌ، إمَّا شرعًا، كقولِه تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا**﴾ [النساء:١٠٣]، وقولِه: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ**﴾ [البقرة:١٨٣]، ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ**﴾ [البقرة:٢١٦]، أو فيما هو واقعٌ قدرًا لا محالةَ، كقولِه: ﴿**كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي**﴾ [المجادلة:٢١] وقولِه: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾ [الأنبياء:١٠٥]، وقولِه: ﴿**أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ**﴾ [المجادلة:٢٢]. وقال النبيُّ ﷺ في قيامِ شهرِ رمضانَ: «**إنِّي خشيتُ أنْ يُكْتَبَ عليكُمْ**»[(١)] وقال: «**أمرتُ بالسِّواكِ حتَّى خشيتُ أن يُكتبَ عليَّ**»[(٢)]، وقال: «**كُتِبَ على ابنِ آدمَ حظُّه من الزِّنى، وهو مدركٌ ذلكَ لا محالةَ**»[(٣)].

وحينئذٍ فهذا الحديثُ نصٌّ في وجوبِ الإحسانِ، وقد أمرَ اللَّهُ تعالى به، فقالَ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ**﴾ [النحل:٩٠]، وقال: ﴿**وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [البقرة:١٩٥].

وهذا الأمرُ بالإحسانِ تارةً يكونُ للوجوبِ، كالإحسانِ إلى الوالدينِ والأرحامِ بمقدارِ ما يحصلُ به البرُّ والصِّلةُ، والإحسانُ إلى الضيفِ بقدرِ ما يحصلُ به قِراهُ على ما سبقَ ذكرُهُ.

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ١٨٦) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٩٠).

(٣) أخرجه: البخاري (٨/ ٦٢ ـ ١٥٦)، ومسلم (٨/ ٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وتارةً يكونُ للندبِ كصدقةِ التطوعِ ونحوِها.

وهذا الحديثُ يدلُّ على وجوبِ الإحسانِ في كلِّ شيءٍ من الأعمالِ، لكن إحسانُ كُلِّ شيءٍ بحسبِهِ، فالإحسانُ في الإتيانِ بالواجباتِ الظاهرةِ والباطنة: الإتيانُ بها على وجهِ كمالِ واجباتِهـا، فهذا القدر من الإحسانِ فيها واجبٌ، وأمَّا الإحسانُ فيها بإكمالِ مستحبَّاتِهَا فليسَ بواجبٍ.

والإحسانُ في تركِ المحرَّماتِ: الانتهـاءُ عنهَا، وتركُ ظاهرِهَا وباطِنِهَا، كما قالَ تعالى: ﴿**وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ**﴾ [الأنعام:١٢٠]، فهذا القدرُ من الإحسانِ فيها واجبٌ.

وأمَّا الإحسانُ في الصبرِ على المقدوراتِ، فأن يأتيَ بالصبرِ عليها على وجهِهِ من غيرِ سخَطٍ ولا جزَعٍ.

والإحسانُ الواجبُ في معاملةِ الخلقِ ومعاشرتِهِم: القيامُ بما أوجبَ اللَّهُ من حقوقِ ذلك كلِّه، والإحسانُ الواجبُ في ولايةِ الخلقِ وسياستِهِم: القيامُ بواجباتِ الولايةِ كُلِّها، والقدرُ الزائدُ على الواجبِ في ذلك كلِّه إحسانٌ ليسَ بواجبٍ.

والإحسانُ في قتلِ ما يجوزُ قتلُهُ من النّاسِ والدوابِّ: إزهاقُ نفسِهِ على أسرعِ الوجوهِ وأسهلِهـا وأوحاها من غيرِ زيادةٍ في التعذيبِ، فإنَّه إيلامٌ لا حاجةَ إليه. وهذا النوعُ هو الذي ذكرهُ النبيُّ ﷺ في هذا الحديثِ، ولعلَّه ذكرهُ على سبيلِ المثالِ، أو لحاجتِهِ إلى بيانِهِ في تلكَ الحالِ، فقالَ: «**إذا قتلتُم فأحسِنُوا القِتْلَةَ، وإذا ذبحتُم فأحسِنُوا الذِّبحة**» والقِتلةُ والذِّبحة بالكسرِ، أي: الهيئةُ، والمعنى: أحسنُوا هيئةَ الذبحِ، وهيئةَ القتلِ. وهذا يدلُّ على وجوبِ الإسراعِ

فِي إزهاقِ النفوسِ التي يُباحُ إزهاقُها على أسهلِ الوجوهِ. وقد حكى ابنُ حزمٍ الإجماعَ على وجوبِ الإحسانِ في الذبيحةِ ، وأسهلُ وجوهِ قتلِ آدمي ضربُهُ بالسيفِ على العنقِ، قالَ اللَّهُ تعالى في حقِّ الكفَّارِ: ﴿**فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ**﴾ [محمد:٤]، وقال: ﴿**سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ**﴾ [الأنفال:١٢]، وقد قيلَ: إنَّه عينَ الموضعَ الذي يكونُ الضربُ فيه أسهلَ على المقتولِ وهو فوقَ العظامِ دونَ الدماغِ، ووصَّى دريدُ ابنُ الصِّمة قاتلَهُ أن يَقتُلَهُ كذلكَ.

وكان النبيُّ ﷺ إذا بعثَ سريةً تغزو في سبيلِ اللَّهِ قالَ لهُم: «**لا تُمثِّلُوا ولا تقتلُوا وليدًا**»[١] .

وخرَّج أبو داودَ، وابنُ ماجه[٢] من حديثِ ابنِ مسعودٍ ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**أعَفُّ الناسِ قِتلةً أهلُ الإيمانِ**».

وخرَّج أحمدُ وأبو داود[٣] من حديثِ عمرانَ بنِ حصينٍ سمُرةَ بنِ جُندبٍ أنَّ النبيَّ ﷺ كان ينهى عن المُثْلةِ.

وخرَّجه البخاريُّ[٤] من حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ يزيدَ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّه نهى عن المُثْلةِ.

وخرَّج الإمامُ أحمدُ[٥] من حديثِ يعلى بنِ مُرَّةَ عنِ النبيِّ ﷺ : «**قال اللَّهُ تعالى: لا تمثِّلوا بعبادِي**».

---

(١) أخرجه: مسلم (٥/ ١٣٩ ـ ١٤٠) من حديث بريدة بن الحصيب رضي الله عنه.
(٢) أخرجه: أبو داود (٢٦٦٦)، وابن ماجه (٢٦٨١ ـ ٢٦٨٢).
(٣) أخرجه: أحمد (٤/ ٤٣٩ ـ ٤٤٠ ـ ٤٤٥)، (٥/ ١٢)، وأبو داود (٢٦٦٧).
(٤) «صحيح البخاري» (٣/ ١٧٧)، (٧/ ١٢٢). (٥) «المسند» (٤/ ١٧٣).

وخرَّج ـ أيضًا[١] ـ من حديثِ رجلٍ من الصحابةِ عنِ النبيِّ ﷺ قال: «من مثَّل بذي رُوحٍ، ثم لم يَتُبْ مَثَّلَ اللَّهُ به يومَ القيامةِ»[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

وقال بعضُهم في قولِهِ تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] قال: الرِّضا والقناعة»[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾

ومما يُستحبُّ الإتيانُ به قبلَ القراءةِ في الصلاةِ: التعوذُ، عند جمهورِ العلماءِ.

واستدلُّوا بقولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل:٩٨]، والمعنى: إذا أردتَ القراءةَ، هكذا فسَّرَ الآيةَ الجمهورُ، وحُكي عن بعضِ المتقدمينَ، منهم: أبو هريرة وابنُ سيرينَ وعطاءٌ: التعوذُ بعدَ القراءةِ.

والمرويُّ عن ابنِ سيرينَ: قبل قراءة أمِّ القرآنِ وبعدَها، فلعله كان يستعيذ لقراءةِ السورةِ، كما يقرأ البسملةَ لها ـ أيضًا.

---

(١) «المسند» (٢/ ٩٢ ـ ١١٥).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٩٠ ـ ٣٩٤).

(٣) «شرح حديث عمار بن ياسر: «اللهم بعلمك الغيب» (ص ٣٨).

وقد جاءتِ الأحاديثُ بأنَّ النبيَّ ﷺ كان يتعوذُ قبل القراءة في الصلاةِ:

فروى عمـرُو بنُ مُرَّةَ، عن عاصمٍ العنزيِّ، عن ابنِ جبـيرِ بنِ مطعمٍ، عن أبيه، أنَّه رأى النبيَّ ﷺ يصلِّي صلاةً، قال: «**اللَّهُ أكبرُ كبيرًا، اللَّهُ أكبر كبيرًا، اللَّهُ أكبرُ كبيرًا، والحمدُ للَّه كثيرًا، سبحانَ اللَّه بكرةً وأصيلاً**» ثلاثًا. «**أعوذُ باللَّه من الشيطانِ الرجيمِ، من نفْـخه ونفْثـهِ وهمْزِهِ**» قال: نفثُه: الشعـرُ، ونفخه: الكِبْرُ، وهمزُهُ: الموتة.

خرَّجـه الإمامُ أحـمدُ وأبو داودَ وابنُ مـاجه وابنُ حـبانَ في «صـحيـحه» والحاكمُ وصححه(١).

وابنُ جبيرٍ هو: نافعٌ، وقع مسمّى في روايةٍ كذلك. وعاصمٌ العنزيُّ، قال أحمـد: لا يُعْرف، وقال غـيرُهُ: روى عنه غيـرُ واحدٍ. ذكره ابنُ حـبانَ في «ثقاتِه».

وروى عطاءُ بنُ السائبِ، عن أبي عبدِ الرحمنِ السلميِّ، عن ابنِ مسعودٍ، عن النبيِّ ﷺ، أنه كان إذا دخل في الصـلاةِ، يقول: «**اللَّهُمَّ إنِّي أعـوذُ بك من الشيطان وهمزِه ونفْخِه ونفْثِه**».

خرَّجه ابنُ ماجه والحاكمُ(٢) وهذا لفظُهُ.

وقال: صحيحُ الإسنادِ، فقد استشهدَ البخاريُّ بعطاءِ بنِ السائبِ.

وروى عليُّ بنُ عليٍّ الرفاعيُّ، عن أبـي المتوكِّلِ، عن أبي سعيـدٍ الخدريِّ، قال: كـان رسولُ اللَّهِ ﷺ إذا قامَ إلى الصـلاةِ بالليلِ كبَّـر، ثم يقولُ: «**أعوذُ**

---

(١) أخـرجه: أحـمد (٤/ ٨٥)، وأبو داود (٧٦٤)، وابـن ماجـه (٨٠٧)، وابن حبـان (١٧٨٠)، والحاكم (١/ ٢٣٥).

(٢) أخرجه: ابن ماجه (٨٠٨)، والحاكم (١/ ٢٠٧).

باللَّهِ السميعِ من الشيطانِ الرجيمِ، من همزِهِ ونفخِهِ ونفْثِهِ».

خرَّجه الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ والترمذيُّ[1].

وقال: كان يحيى بنُ سعيدٍ يتكلمُ في عليِّ بنِ عليٍّ، وقال أحمدُ: لا يصحُّ هذا الحديثُ.

كذا قالَ، وإنَّما تكلمَ فيه يحيى بنُ سعيدٍ من جهةِ أنه رماه بالقدرِ، وقد وثقه وكيعٌ ويحيى بن مَعين وأبو زرعة.

وقال أحمدُ: لا بأس به، إلا أنه رفع أحاديثَ.

وقال أبو حاتمٍ: ليس به بأسٌ، ولا يُحتجُّ بحديثِهِ.

وإنَّما تكلمَ أحمدُ في هذا الحديثِ؛ لأنه رُوي عن عليِّ بن عليٍّ، عن الحسنِ - مرسلاً -، وبذلك أعلَّه أبو داودَ، وخرَّج في «مراسيلِهِ»[2] من طريقِ عمرانَ بنِ مسلمٍ، عنِ الحسنِ، أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ كان إذا قامَ منَ الليلِ يريدُ أن يتهجد، يقولُ - قبل أن يكبِّر: «**لا إله إلا اللَّهُ، لا إله إلا اللَّهُ، واللَّهُ أكبرُ كبيرًا، اللَّهُ أكبر كبيرًا، أعوذ باللَّهِ من الشيطانِ الرجيمِ، من همزِهِ ونفخِهِ ونفْثِهِ**» ثم يقول: «**اللَّهُ أكبرُ**».

وفي البابِ أحاديثُ أخرُ مرفوعةٌ، فيها ضعفٌ.

واعتمادُ الإمامِ أحمدَ على المرويِّ عن الصحابةِ في ذلك؛ فإنه روى التعوذَ قبل القراءة في الصلاةِ عن عمرَ بنِ الخطابِ وابنِ مسعودٍ وابنِ عمرَ وأبي هريرةَ، وهو قولُ جمهورِ العلماءِ كما تقدم.

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٥٠)، وأبو داود (٧٧٥)، والترمذي (٢٤٢).

(٢) «المراسيل».

والجمهورُ على أنَّه غـيرُ واجبٍ، وحُكيَ وجوبُهُ عن عطاءٍ والثوريِّ وبعضِ الظاهريةِ، وهو قولُ ابنِ بطةَ من أصحابِنا.

والجمـهورُ على أنه يسـره في الصلاةِ الجهـريَّةِ، وهو قولُ ابنِ عـمرَ وابنِ مسعودٍ والأكثرينَ.

ورُوي عن أبي هريرةَ الجهرُ به.

وللشافعيِّ قولانِ. وعن ابنِ أبي ليلى: الإسرارُ والجهرُ سواءٌ.

واختلفُوا: هل يختصُّ التعوذُ بالركـعةِ الأولَى، أمْ يستحبُّ في كلِّ ركعةٍ؟ على قولينِ:

أحدُهما: يستحبُّ في كلِّ ركعةٍ، وهو قولُ ابـنِ سيرينَ، والحسنِ والشافعيِّ وأحمدَ ـ في رواية.

والثاني: أنه يخـتصُّ بالركعـةِ الأولى، وهو قـولُ عطاءٍ والحسنِ والنخـعيِّ والثوريِّ وأبي حنيفةَ وأحمدَ ـ في رواية عنه.

وقال هشامُ بنُ حسانٍ: كان الحسنُ يتـعوذُ في كل ركعةٍ، وكان ابنُ سيرينَ يتعوذُ في كلِّ ركعتينِ.

وذهبَ مالكٌ وأصحابُهُ إلى أنَّه لا يتُعوَّذُ في الصلاةِ المكتوبة، بل يفتتحُ بعدَ التكبيرِ بقـراءةِ الفاتحة من غيرِ اسـتعاذةٍ ولا بسملة، واسـتدلُّوا بظاهرِ حديثِ أنسٍ: كـان النبيُّ ﷺ يفتـتحُ الصلاةَ بـ: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ ، وهو الحديثُ الذي خرَّجه البخاريُّ في أوَّلِ هذا الباب.

ويجاب عنه؛ بـأنه إنَّما أراد أنَّه يفتـتح قراءةَ الصـلاةِ بالتكبيـرِ والقراءةِ بـ ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ ، وافتتـاح القراءة بـ ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ**﴾ إمَّـا أن يرادُ به

افتتــاحها بقراءةِ الفاتحــةِ كما يقولُ الشافــعيُّ، أو افتتاح قراءةِ الصــلاةِ الجهريةِ بكلمةِ ﴿الْحَمْدُ﴾ من غير بسملةٍ كما يقولُهُ الآخرون.

ودلَّ عليه: حديثُ أنسٍ الذي خرَّجه مسلمٌ [1] صريحًا.

وعلى التقديرينِ، فلا ينفي ذلكَ أنْ يكون قــبل القراءةِ ذكرًا، أو دعاءً، أو استــفتاحًــا، أو تعوذًا، أو بسملةً، فــإنه لا يخرج بذلك عن أن يكون افــتتح القراءةَ بالفاتحةِ، أو افتتح الجهرَ بالقراءةِ بكلمة ﴿الْحَمْدُ﴾ .

ولا يمكنُ حملُ الحديثِ على أنَّه كانَ أولَ ما يفــتتحُ به الصلاةَ قراءةُ كلمةِ ﴿الْحَمْدُ﴾ ، فإنه لو كانَ كذلك لكانَ لا يفتــتحُ الصلاةَ بالتكبيرِ، وهذا باطلٌ غيرُ مرادٍ قطعًا. واللَّهُ أعلمُ[2] .

* * *

(١) «صحيح مسلم» (٢/ ١٢).

(٢) «فتح الباري» (٤/ ٣٨٤ ـ ٣٨٧).

سُورَةُ الإِسْرَاءِ

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾

فرَّقَ بعضُهم بين الإسراء والمعراجِ، فجعَلَ المعراجَ إلى السماواتِ كما ذكرَه اللَّهُ في سورةِ النَّجمِ، وجعلَ الإسراءَ إلى بيتِ المقدسِ خاصةً، كما ذكرَهُ اللَّهُ في سورةِ ﴿سُبْحَانَ﴾ وزعم أنهما كانَا في ليلتينِ مختلفتينِ، وأنَّ الصلواتِ فُرضتْ ليلةَ المعراجِ لا ليلةَ الإسراءِ.

وهذا هو الذي ذكرَهُ محمدُ بنُ سعدٍ في «طبقاته»[1] عن الواقديِّ بأسانيدَ له متعددةٍ، وذكرَ أنَّ المعراجَ إلى السماءِ كانَ ليلةَ السبتِ لسبعَ عشرةَ خلَتْ من شهرِ رمضانَ قبلَ الهجرةِ بثمانيةَ عشرَ شهرًا من المسجدِ الحرامِ، وتلكَ الليلةَ فُرضتِ الصلواتُ الخمسُ، ونزلَ جبريلُ فصلَّى برسولِ اللَّه ﷺ الصلواتِ في مواقيتِهَا، وأن الإسراءَ إلى بيت المقدس كان ليلةَ سبعَ عشرةَ من شهر ربيع الأولِ قبل الهجرةِ بسنةٍ، من شعب أبي طالب.

وما بوَّبَ عليه البخاريُّ: أن الصلوات فرضتْ في الإسراءِ يدلُّ على أنَّ الإسراءَ عنده والمعراج واحد. واللَّهُ أعلمُ[2].

* * *

---

(١) (١/١/١٤٣).

(٢) «فتح الباري» (٢/ ١٠٥ ـ ١٠٦).

قوله تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾

القصدُ في الفقرِ والغِنَى عزيزٌ، وهو حالُ الرسولِ ﷺ كانَ متصدًا في حالِ فقرِهِ وغناهُ، والقصدُ هو التوسطُ، فإنْ كان فقيرًا لم يُقتر خوفًا من نفادِ الرزقِ، ولم يسرفْ فيحملُ ما لا طاقةَ لهُ به، كما أدَّبَ اللَّهُ تعالى نبيَّه بذلكَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٩].

وإنْ كان غنيًّا لم يحملْهُ على السرفِ والطغيانِ، بلْ يكونُ مقتصدًا أيضًا، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧].

وإنْ كان المؤمنُ في حالِ غناهُ يزيدُ على نفقتِهِ في حالِ فقرِهِ، كما قالَ بعضُ السلفِ: إنَّ المؤمنَ يأخذُ عن اللَّهِ أدبًا حسنًا إذا وسع اللَّهُ عليه وسعَ على نفسِهِ وإذا ضيَّقَ عليه ضيَّقَ على نفسِهِ، ثم تلا قولَهُ تعالى: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق:٧]، لكن يكون في حالِ غناهُ مقتصدًا غيرَ مسرفٍ، كما يفعلُهُ أكثرُ أهلِ الغنى الذين يخرجُهُم الغنى إلى الطغيانِ، كما قالَ تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝٦ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ [العلق:٦، ٧].

كان عليٌّ رضي الله عنه يعاتَبُ على اقتصادِهِ في لباسِهِ في خلافتِهِ فيقولُ: هو أبعدُ عن الكِبْرِ وأجدرُ أن يقتديَ بي المسلمُ.

وعوتبَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ في خلافتِهِ على تضييقِهِ على نفسِهِ فقالَ: إنَّ

أفضلَ القصدِ عند الجِـدة، وأفضلَ العفوِ عندَ المقدرة. يعني أفضلَ مـا اقتصدَ الإنسانُ في عيشِه وهو واجدٌ قادرٌ، وهذه حالُ النبيِّ ﷺ وخلفائه الراشدينَ، لم تغيرْهُم سعةُ الدنيا والملكُ ولم يتنعمُوا في الدنيا.

وقد رُويَ عن سليـمانَ عليه السـلامُ، أنَّه كان يأكلُ خـبزَ الشعـيرِ ويلبسُ الصوفَ.

وسئلَ الحسنُ ؓ، عن رجلٍ آتاهُ اللَّهُ مالاً، فهو يحجُّ منه ويتصدقُ، أله أن يتنعمَ فيه منه؟ قال: لا، لو كانتْ له الدُّنيا ما كان له إلا الكفافُ.

ويقدِّمُ فضلَ ذلـك ليومِ فقرِه وفاقـتِه، إنَّما كان أصـحابُ رسولِ اللَّه ﷺ ومنْ أخـذَ عنهم من التـابعينَ، ما آتاهم اللَّـهُ من رزقٍ أخذُوا منه الكفـافَ، وقدموا فضلَ ذلك ليومِ فقرِهم وفاقتِهم. وقال ابنُ عمرَ لبعضِ ولده: لا تكن من الذين يجعلون ما أنعم اللَّه عليهم في بطونِهم وعلى ظهورِهم.

إشارةً إلى أنَّ المالَ لا ينفقُ كلُّه في شـهواتِ النفوسِ، وإنْ كانتْ مـباحةً، بل يجعلُ صاحبُهُ منه نصيبًا لدارِهِ الباقيةَ، فإنه لا يبقَى له منه غيرُ ذلكَ.

وفي الجملةِ فالاقتصادُ في كلِّ الأمـورِ حسنٌ حتى في العبادةِ، ولهذا نهي عن التشديدِ في العبادةِ على النفسِ، وأمر بالاقتصادِ فيها، وقالَ ﷺ: **«عليكم هديًا قاصدًا، فإنَّ اللَّهَ لا يملُّ حتَّى تملُّوا»**(١).

وفي «مسندِ البزَّارِ»(٢) عن حذيفةَ عن النبيِّ ﷺ قال: **«ما أحسنَ القصدَ في الغِنى، وما أحسنَ القصدَ في الفقرِ، وما أحسنَ القصدَ في العبادة»**(٣).

* * *

(١) أخرجـه: ابن ماجه (٤٢٤١)، وأبـو يعلى في «مسنده» (١٧٩٦ ـ ١٧٩٧) من حـديث جابر بن عبد اللَّه ؓ.

(٢) «كشف الأستار» (٣٦٠٤).

(٣) شرح حديث عمار بن ياسر «اللهم بعلمك الغيب» (ص ٣٠ ـ ٣١).

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾

قال إسحاقُ بنُ راهويه: لا يجوزُ التفكُّرُ في الخالقِ، ويجوزُ للعبادِ أن يتفكَّروا في المخلوقينَ بما سمعُوا فيهم، ولا يزيدونَ على ذلكَ، لأنَّهم إن فعلُوا، تاهُوا، قالَ: وقد قالَ اللَّهُ: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤]، فلا يجوزُ أن يقالَ: كيفَ تُسبِّحُ القصَاعُ، والأخْونَةُ، والخبزُ المخبوزُ، والثِّيابُ المنسوجةُ؟ وكلُّ هذا قد صحَّ العلمُ فيه أنَّهم يسبحونَ، فذلكَ إلى اللَّهِ أن يجعلَ تسبيحَهم كيفَ شاء وكما يشاءُ، وليسَ للناسِ أن يخوضُوا في ذلكَ إلا بما علمُوا، ولا يتكلَّموا في هذا وشِبْهِهِ إلا بما أخبرَ اللَّهُ، ولا يزيدُوا على ذلكَ، فاتَّقوا اللَّهَ، ولا تخوضُوا في هذه الأشياءِ المتشابهةِ، فإنَّه يُرْديكُم الخوْضُ فيه عن سننِ الحقِّ. نقلَ ذلك كُلَّه حَرْبٌ عن إسحاقَ رحمهما اللَّهُ (١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعت الوزير (٢) يقول في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَاباً مَّسْتُوراً﴾ [الإسراء:٤٥] قال أهل التفسير: يقولون: ساترًا، والصواب: حمله على ظاهره، وأن يكون الحجاب مستوراً عن العيون فلا يرى، وذلك أبلغ (٣).

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ١٧٣).
(٢) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.
(٣) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٥).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١) وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾

خرَّج الترمذيُّ[1] من حديثِ السديِّ، عن أبيه، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ في قولِهِ تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾ [الإسراء:٧١]، قال: «**يدعى أحدُهُم فيعطى كتابَهُ بيمينِه، ويمدُّ له في جسمِهِ ستونَ ذراعًا، ويبيضُّ وجهُهُ، ويجعلُ على رأسِهِ تاجٌ من نورٍ يتلألأُ، فينطلقُ إلى أصحابِهِ فيرونَهُ من بعيدٍ، فيقولونَ: اللَّهُمَّ آتنا بهذا وباركْ لنا في هذا، حتى يأتيهُم فيقولُ لهم: أبشروا، لكلِّ رجلٍ منكم مثل هذا، قال: وأمَّا الكافرُ فيسودُّ وجهُهُ يُمَدُّ له في جسمِهِ ستونَ ذراعًا في صورةِ آدمَ، ويلبسُ تاجًا من نارٍ فيراهُ أصحابُهُ، فيقولونَ: نعوذُ باللَّهِ من شرِّ هذا، اللَّهُمَّ لا تأتنا بهذا، فيأتيهم فيقولونَ: اللَّهُمَّ أخره عنَّا، فيقولُ: أبعدكم اللَّهُ، فإنَّ لكلِّ رجلٍ منكُم مثلَ هذا**» وقال: حسنٌ غريبٌ.

وروى عطاءُ بنُ يسارٍ عن كعبٍ قالَ: يُؤتى بالرئيسِ في الشرِّ فيقالُ له: أجبْ ربَّكَ، فيُنطلقُ به إلى ربِّه، فيحتجبُ عنه ويؤمرُ به إلى النارِ، فيرى منزلَهُ ومنزلَ أصحابِهِ، فيقالُ: هذه منزلةُ فلانٍ، هذه منزلةُ فلانٍ، فيرى ما أعدَّ اللَّهُ لهم فيها من الهوانِ، ويرى منزلتَه أشرَّ من منازِلِهم، قالَ: فيسودُّ وجهُهُ وتزرقُّ عيناهُ ويوضعُ على رأسهِ قلنسوةٌ من نارٍ، فيخرجُ فلا يراهُ أهلُ ملإٍ إلا تعوَّذُوا باللَّهِ منه، فيأتي أصحابَهُ الذين كانُوا يجتمعونَ به على الشرِّ ويعينونَهُ عليه، فما يزالُ يخبرُهُم بما أعدَّ اللَّهُ لهم في النارِ حتى يعلو

(١) «الجامع» (٣١٣٦).

وجوهَهُم من السوادِ مثل ما علا وجهَهُ، فيعرفُهُم الناسُ بسوادِ وجوهِهِم، فيقولونَ: هؤلاءِ أهلُ النارِ. خرَّجه أبو نُعيمٍ وغيرُه.

وهذا إنَّما هو قبل دخولِهِم إلى النارِ، فإذا دخلوا النارَ عظُمَ خلقُهُم على ما تقدَّمَ في الأحاديثِ السابقةِ.

وأما سنهم فعلى سنِّ أهلِ الجنةِ لا يزادونَ عليه، وروى دراجٌ عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**من ماتَ وهوَ من أهلِ الجنةِ من صغيرٍ وكبيرٍ يردونَ بني ثلاثينَ في الجنةِ لا يزيدونَ عليها أبدًا، وكذلك أهلُ النارِ**» خرَّجه الترمذيُّ[١]، وفي روايةِ غيرِ الترمذيِّ: «**بني ثلاثٍ وثلاثينَ**».

وخرَّج الطبرانيُّ[٢] من طريقِ سليمِ بنِ عامرٍ عن المقدامِ بنِ معدي كَرِبَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**ما من أحدٍ يموتُ سقْطًا أو هرمًا، وإنَّما الناسُ بينَ ذلك إلا بُعثَ ابنُ ثلاثينَ سنةً، فإن كانَ من أهلِ الجنةِ كانَ على مسحةِ آدمَ وصورةِ يوسفَ وقلبِ أيوبَ، ومن كانَ من أهلِ النارِ عظمُوا وفخمُوا كالجبالِ**». ورواه غيرُ الطبرانيِّ، وقالَ: «**أبناءُ ثلاثٍ وثلاثينَ سنةً**»[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾

دلَّ القرآنُ في غيرِ موضعٍ على مواقيتِ الصلواتِ الخمسِ، وجاءتِ السنةُ مفسرةً لذلكَ ومبيِّنة له:

---

(١) «الجامع» (٢٥٦٢).
(٢) «المعجم الكبير» (٢٠/ ٢٨٠).
(٣) «التخويف النار» (ص ١٣٧ ـ ١٣٨).

فمن ذلك: قولُ اللَّهِ تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ [الإسراء:٧٨].

وقد ذكرَ غيرُ واحدٍ من الأئمـةِ كمالكٍ والشافعيِّ: أنَّ هذه الآيةَ تدلُّ على الصلواتِ الخمسِ، ورُوِي معناه عن طائفةٍ من السلفِ:

فقال ابنُ عمرَ: دُلوكُ الشمسِ: مَيْلُها ـ يُشيرُ إلى صلاةِ الظهرِ حينئذٍ.

وعن ابنِ عباسٍ، قال: دُلوكُ الشمسِ: إذا جاءَ الليلُ. وغسق الليلِ: اجتماعُ الليلِ وظلمته.

وقال قتادةُ: دُلوكُ الشمسِ: إذا زالتِ الشمسُ عن بطنِ السماءِ لصلاةِ الظهرِ، وغسقُ الليلِ: بدءُ الليلِ صلاةُ المغربِ.

وقد قِيلَ: إنَّ اللَّهَ تعالى ذكرَ ثلاثةَ أوقاتٍ؛ لأن أصلَ الأوقاتِ ثلاثةٌ، ولهذا تكونُ في حالةِ جوازِ الجمعِ بين الصلاتينِ ثلاثةً فقط، فدلوكُ الشمسِ: وقتٌ لصلاةِ الظهرِ والعصر في الجملةِ، وغسقُ الليلِ: وقتٌ لصلاةِ المغربِ والعشاءِ في الجملةِ، ثم ذكرَ وقتَ الفجرِ بقولِهِ: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨].

وقد ثبتَ في «الصحيحينِ»(١) عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «يجتمعُ ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النهارِ في صلاةِ الفجرِ» ثم يقولُ أبو هريرةَ: اقرءوا إن شئتُم: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨].

وكذلكَ قولُه تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [هود:١١٤]، فقولُهُ: ﴿طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ [هود:١١٤] يدخلُ فيه صلاةُ الفجرِ وصلاةُ العصرِ.

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ١٦٦)، (٦/ ١٠٨)، ومسلم (٢/ ١٢١ ـ ١٢٢).

وقد قيلَ: إنَّه يدخلُ فيه صلاةُ الظهرِ والعصرِ، لأنَّهما في الطَرَفِ الأخيرِ، وزُلَفُ الليلِ يدخلُ فيه المغربُ والعشاءُ.

وكذا قالَ قتادةُ: إنَّ زُلَفَ الليلِ يدخلُ فيه المغربُ والعشاءُ، وإنَّ طرفي النهارِ يدخلُ فيه الفجرُ والعصر[1].

ورُويَ عن الحسنِ، أنه قال في قولِهِ: ﴿طَرَفَيِ النَّهَارِ﴾ [هود:١١٤]، قال: صلاةُ الفجرِ، والطرفُ الآخرِ الظهرُ والعصرُ ﴿وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ﴾ [هود:١١٤] المغربُ والعشاء[1].

وكذلك قولُهُ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ [طه:١٣٠].

وفي الحديثِ الصحيحِ عن جريرٍ البجليِّ حديثُ الرُّؤية[2]: «فإنْ استطعتُم أن لاتُغْلَبُوا على صلاةٍ قبلَ طلوعِ الشمسِ وقبلِ غروبِها فافعلُوا»، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه:١٣٠].

وقد أدرجَ أكثرُ الرواةِ القراءةَ في الحديثِ، وبيَّن بعضُهم: أنَّ جريراً هو الذي قرأ ذلك، فبيَّن أنَّ صلاةَ الصبحِ وصلاةَ العصرِ يدخلُ في التسبيحِ قبل طلوعِ الشمسِ وقبلَ غروبِها، وأمَّا التسبيحُ من آناءِ الليلِ فيدخلُ فيه صلاةُ المغربِ وصلاةُ العشاءِ. وقولُهُ: ﴿وَأَطْرَافَ النَّهَارِ﴾ [طه:١٣٠] يدخل فيه صلاةُ الفجرِ وصلاةُ العصرِ، وربما دخلتْ فيه صلاةُ الظهرِ، لأنها في أول طرفِ النهارِ الآخرِ.

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ

---

(١) أخرجهما: ابن جرير في «تفسيره» (١٢/ ١٢٨ ـ ١٢٩).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ١٤٥ ـ ١٥٠)، (٦/ ١٧٣)، (٩/ ١٥٦)، ومسلم (٢/ ١١٣ ـ ١١٤).

الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق:٣٩، ٤٠].

وقد قال ابنُ عباسٍ وأبو صالح: إنَّ التسبيحَ قبل طلوع الشمسِ وقبل الغروبِ: الصبحُ وصلاةُ العصرِ.

وقولُهُ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ [ق:٤٠]، قال مجاهد: الليلَ كلَّه(١).

وهذا يدخلُ فيه صلاةُ المغربِ والعشاءِ، ويدخلُ فيه التهجدُ المتنفلُ به - أيضًا.

وقال خُصَيْفٌ: المرادُ بتسبيحِهِ من الليلِ: صلاةُ الفجرِ المكتوبةُ، وفيه بُعْد.

وأمَّا ﴿وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾ [ق:٤٠]، فقالَ أكثرُ الصحابةِ، منهم: عُمر، وعليٌّ، والحسنُ بنُ عليٍّ، وأبو هريرةَ، وأبو أُمامةَ وغيرُهُم: إنَّهما ركعتانِ بعد المغربِ، وهو روايةٌ عن ابنِ عباسٍ، ورويَ عنه مرفوعًا، خرَّجهُ الترمذيُّ(٢) بإسنادٍ فيه ضعفٌ.

فاشتلمتِ الآيةُ على الصلواتِ الخمسِ مع ذكرِ بعضِ التطوعِ.

وقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور:٤٨-٤٩].

فقولُهُ: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور:٤٨] قد فُسِّر بإرادةِ القيامِ إلى الصلاةِ، وهو قولُ زيدِ بنِ أسلَم والضحاكِ، وفُسر بالقيامِ من النومِ، وهو قولُ أبي الجود(٣)، وفُسِّر بالقيامِ من المجالسِ.

---

(١) أخرجه: ابن جرير في «التفسير» (٢٦/ ١٨٠).

(٢) «الجامع» (٣٢٧٥).

(٣) راجع: «التفسير» لابن جرير (٢٧/٣٨).

وقولُهُ: ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ [الطور:٤٨] قال مجاهد: من الليلِ كلِّه، يدخلُ في ذلكَ صلاةُ المغربِ والعشاءِ وصلاةُ الليلِ المتطوعِ بها.

وفسَّره خُصيفٌ بصلاةِ الفجرِ، وفيه نظرٌ.

﴿ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ [الطور:٤٩]: ركعتا الفجرِ كذا قالَهُ عليٌّ وابنُ عباسٍ في روايةٍ[١]، ورويَ عن ابنِ عباسٍ مرفوعًا.

خرَّجه الترمذي[٢] وفيه ضعف.

وقال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم:١٧-١٨].

قال الإمامُ أحمدُ: نا ابنُ مهدي: نا سفيان، عن عاصمٍ، عن أبي رَزين، قال: جاءَ نافعُ بنُ الأزرقِ إلى ابنِ عباسٍ، فقال: الصلواتُ الخمسُ في القرآنِ؟ فقال: نعم، فقرأ: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ [الروم:١٧] قال: صلاةُ المغربِ ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم:١٧] صلاةُ الفجرِ ﴿وَعَشِيًّا﴾ [الروم:١٨] صلاةُ العصرِ ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم:١٨] صلاةُ الظهرِ، وقرأ: ﴿وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾ [النور:٥٨].

ورواه آدمُ بنُ أبي إياسٍ في «تفسيرِهِ» عن حمَّادِ بنِ سلمةَ، عن عاصمٍ، قال: جاءَ نافعٌ - ولم يذكرْ أبا رَزين.

وروى آدمُ - أيضًا -: نا شريك، عن ليثِ بنِ أبي سليمٍ، عن الحَكَمِ بنِ عُتَيْبةَ، عن أبي البَخْتري، عن ابنِ عباسٍ، قال: جمعتْ هذه الآيةُ الصلواتِ كلَّها - فذكره بمعناه، ولم يذكرْ فيه: صلاةَ العشاءِ.

---

(١) «التفسير» لابن جرير (٢٧/ ٣٩).

(٢) «الجامع» (٣٢٧٥).

رُوي عن الحسنِ وقتادةَ في قولِه تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ [الروم:١٧]، قال: صلاةُ المغربِ والعشاء، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ [الروم:١٧]: صلاةُ الغداة، ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا﴾ [الروم:١٨]، قال: العصرُ، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم:١٨] قال: الظهرُ.

خرَّجه البيهقيُّ(١) وغيرُه(٢).

* * *

[قال البخاريُّ](٣): حدثنا عبدُ اللَّهِ بنُ يوسفَ: أبنا مالكٌ، عن أبي الزِّنادِ، عن الأعْرجِ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**يتعاقبُون فيكُم ملائكةٌ باللَّيلِ وملائكةٌ بالنَّهارِ، ويجْتمعُون في صلاةِ الفجرِ وصلاةِ العصرِ، ثمَّ يعْرُجُ الذين كانُوا فيكُمْ، فيسألهم ـ وهو أعلمُ بهم ـ: كيف تركتُم عبادِي؟ فيقولونَ: تركْناهم وهم يصلُّون، وأتيناهُم وهم يُصلُّون**».

قولُهُ: «**يتعاقبون فيكم ملائكةٌ**» جمع فيه الفعلَ مع إسناده إلى ظاهرٍ، وهو مخرجٌ على اللُّغةِ المعروفةِ بلغةِ «أكلوني البراغيثُ»، وقد عرَّفها بعضُ متأخري النحاةِ بهذا الحديثِ، فقالَ: «هي لغةُ: يتعاقبونَ فيكُم ملائكة».

والتعاقبُ: التناوبُ والتداولُ، والمعنى: أنَّ كل ملائكةٍ تأتِي تعقبُ الأخرى.

وقد دلَّ الحديثُ على أنَّ ملائكةَ الليلِ غيرُ ملائكةِ النَّهارِ.

وقد خرَّجا في «الصحيحينِ»(٤) من حديثِ الزُّهْرِي، عن سعيدٍ وأبي

---

(١) أخرجه: البيهقي في «السنن الكبرى» (١/ ٣٥٩).

(٢) «فتح الباري» (٣/ ١٥ ١٩).

(٣) «صحيح البخاري» (١/ ١٤٥ ـ ١٤٦).

(٤) أخرجه: البخاري (١/ ١٦٦)، (٦/ ١٠٨)، ومسلم (٢/ ١٢٢).

سَلَمَـةَ، عن أبي هريـرةَ، عنِ النبيِّ ﷺ، قالَ: **«تجتمعُ مـلائكةُ الليلِ، وملائكةُ النَّهارِ في صلاةِ الفجرِ»**. ثم يقولُ أبو هريرةَ: اقـرءُوا إنْ شئتُم: ﴿**إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**﴾ [الإسراء:٧٨].

ففي هذه الروايةِ: ذكرُ اجتـماعِهِم في صلاةِ الفجرِ، واسـتشهدَ أبو هريرةَ بقولِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿**إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**﴾[الإسراء:٧٨].

وقـد رُوي في حديثٍ من روايةِ أبي الدرداءِ ـ مـرفوعًـا ـ: **«أنَّه يشهـدُهُ اللَّهُ وملائكتُهُ»**.

وفي روايةٍ: **«ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النَّهارِ»**.

خرَّجه الطبرانيُّ وابنُ منده وغيرُهُما.

فقد يكون تخصـيصُ صلاةِ الفجرِ لهذا، وصلاةُ العصـرِ يجتمعُ ـ أيضًا ـ فيها ملائكةُ اللَّيلِ والنَّهارِ، كما دلَّ عليه حديثُ الأعْرجِ، عن أبي هريرةَ.

وقد رُويَ نحوُهُ من حديثِ حُميدِ الطويلِ، عن بكْرِ المزنيِّ، عن النبيِّ ﷺ مرسلاً.

وهؤلاءِ الملائكةُ، يحتملُ أنَّهم المعقباتُ، وهم الحَـفَظَةُ، ويحتملُ أنَّهم كتبةُ الأعمالِ.

وروى أبو عُبيدةَ، عن أبيه عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ، في قولِهِ: ﴿**إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا**﴾ [الإسراء:٧٨]، قال: يعني صـلاةَ الصبحِ، يتـداركُ فيه الحـرسانِ ملائكةُ الليلِ وملائكةُ النَّهارِ[1].

---

(١) أخرجه: الطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ٢٦٥).

وقـال إبراهيمُ، عن الأسودِ بنِ يزيدَ: يلـتقِي الحـارسانِ من مـلائكةِ اللَّيلِ ومـلائكةِ النَّهارِ عندَ صـلاةِ الصـبحِ، فيـسلِّم بعضُـهم على بعضٍ، ويحـيى بعضُهُم بعضًا، فتصعدُ ملائكةُ الليلِ وتبسطُ ملائكةُ النهارِ.

قال ابنُ المباركِ: وُكِّل بابنِ آدمَ خمـسةُ أملاكٍ: ملكا الليلِ، وملكا النهارِ، يجيئانِ ويذهبانِ، والخامسُ لا يفارقُهُ ليلاً ولا نهارًا.

وممن قـالَ: إنَّ ملائكةَ الليلِ ومـلائكةَ النهارِ تجـتمعُ في صـلاةِ الفـجرِ، وفـسر بذلك قولَ اللَّه عـزَّ وجـلَّ: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء:٧٨]: مجاهدٌ ومسروقٌ وغيرُهُما(١).

قال ابنُ عـبدِ البَرِّ: والأظهـرُ أنَّ ذلكَ في الجماعـاتِ، قالَ: وقد يحـتملُ الجماعاتِ وغيرَها.

قلتُ: يشهـدُ للأولِ قولُ النبيِّ ﷺ: «**إذا أمَّن الإمامُ فـأمِّنوا، فمَنْ وافقَ تأمـينُهُ تأمينَ الملائكةِ غُفِرَ له ما تقدَّم من ذنبه**»(٢).

ونَهى النبيُّ ﷺ مَنْ أكلَ الثومَ أن يشهـدَ المسجدَ(٣)، وتعليلُه: أنَّ الملائكةَ تتأذَّى مما يتأذَّى منه بنو آدمَ.

وقد بوَّبَ البخاريُّ على اختصاصِهِ بالجماعاتِ في «أبوابِ صلاةِ الجماعةِ»، كما سيأتي في موضعِهِ ـ إن شاءَ اللَّه تعالى.

ويشهـدُ للثاني: أنَّ المصلِّي ينهى عن أن يبـصقَ في صلاتِهِ عن يمينِهِ؛ لأنَّ

---

(١) أخرجه: ابن جرير في «تفسيره» من قول مجاهد (١٥/ ١٤٠ ـ ١٤١).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ١٩٨)، (٨/ ١٠٦)، ومسلم (٢/ ١٧) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه: البخاري (١/ ٢١٦)، ومسلم (٢/ ٨٠) من حديث جابر ﷺ.

عن يمينه ملكًا، ولا يفرقُ في هذا بين مصلي جماعةٍ وفُرَادى[١] .

* * *

قوله تعالى : ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾

وقولُه ﷺ: «والقرآن حجةٌ لك أو عليكَ»[٢]، قال اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]، قال بعضُ السلفِ: ما جالسَ أحدٌ القرآنَ، فقامَ عنه سالمًا؛ بل إمَّا أن يربحَ أو أن يخسرَ، ثمَّ تلا هذه الآية[٣] .

* * *

قال الله عز وجل: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾

قال ابنُ عباسٍ: كلما طفئتْ أوقدتْ، وقال ابنُ عباسٍ: خبتْ سكنتْ[٤] ، وقالَ ابنُ قتيبةَ: خبتِ النارُ إذا سكنَ لهبُها، فاللهبُ يسكنُ والجمرُ يعملُ، وقال غيره من المفسرينَ: تأكلُهُم.

فإذا صارُوا فحمًا ولم تجدِ النارُ شيئًا تأكلُهُ أعيد خلقُهم خلقًا جديدًا فتعودُ لأكلِهم.

---

(١) «فتح الباري» (٣٠/ ١٣٦ ـ ١٤١).

(٢) أخرجه: مسلم (١/ ١٤٠) من حديث أبي مالك الأشعري.

(٣) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٥٨٢). (٤) أخرجه: ابن جرير في «التفسير» (١٥/ ١٦٨).

وقولهُ: ﴿زِدْنَاهُمْ سَعِيراً﴾ [الإسراء:٩٧] أي: ناراً، تتسعرُ وتتلهبُ.

وقد رُويَ عن عمرِو بنِ عبسةَ أن في جهنَّمَ بئرٌ يقال له: الفلقُ، منه تسعرُ جهنَّمُ إذا سعرتْ، وسنذكرُهُ فيما بعدُ إن شاءَ اللّه تعالى، والمعنى أنَّه يكشفُ ذلك البئرُ فيخرج منه نارٌ تلهب جهنَّم وتوقدُها، وقالَ اللَّه تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى﴾ [الليل:١٤] قال مجاهدٌ وغيرُهُ: توهجُ.

قرأ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ ليلةً في صلاتِه سورةَ: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل:١] فلما بلغَ قولَهُ: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظَّى﴾ [الليل:١٤] بكى فلم يستطعْ أن يجاوزَهَا مرتينِ أو ثلاثًا، ثم قرأ سورةً أخرى غيرَها[١] .

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾

وفي «الصحيحينِ» [٢] عن عائشةَ في قولِه تعالى: ﴿وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا﴾ [الإسراء:١١٠] ، أنها نزلتْ في الدعاءِ.

وكذا رُوي عن ابنِ عباسٍ وأبي هريرةَ، وعن سعيدِ بنِ جبيرٍ وعطاءٍ وعكرمةَ وعروةَ ومجاهدٍ وإبراهيمَ وغيرِهم.

وقال الإمامُ أحمدُ: ينبغي أن يسرَّ دعاءَه؛ لهذه الآيةِ. قال: وكان يكرَه أن يرفعُوا أصواتَهم بالدعاءِ.

وقال الحسنُ: رفعُ الصوتِ بالدعاءِ بدعةٌ.

(١) «التخويف من النار» (٧٨ ـ ٧٩).

(٢) أخرجه: البخاري (٦/ ١٠٩)، ومسلم (٢/ ٣٤).

وقال سعيدُ بنُ المسيبِ: أحدثَ الناسُ الصوتَ عندَ الدعاءِ.

وكرِهَه مجاهدٌ وغيرُهُ.

وروى وكيعٌ، عن الربيعِ، عن الحسنِ ـ والربيع، عن يزيدَ بنِ أبانٍ، عن أنسٍ ـ: أنهما كرِها أن يُسمعَ الرجلُ جليسَهُ شيئًا من دعائِه[1].

* * *

(١) «فتح الباري» (٥/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩).

سُورَةُ الكَهْفِ

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾

[قال البخاريُّ] [(١)]: «بابُ: هل تُنْبَشُ قُبُورُ مُشْرِكي الجاهليّة، ويتّخذُ مكانُها مساجدَ لقولِ النبيِّ ﷺ: «**لعن الله اليهودَ، اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ**»[(٢)] وما يكرَهُ من الصلاةِ في القبُورِ»: ورأى عمرُ أنسَ بنَ مالكٍ يُصلِّي عندَ قبرٍ، فقال: القبرَ القبرَ، ولم يأمرْهُ بالإعادةِ.

مقصودُ البخاريِّ بهذا البابِ: كراهةُ الصلاةِ بين القبورِ وإليها، واستدلَّ لذلكَ بأن اتِّخاذَ القبورِ مساجدَ ليسَ هو من شريعةِ الإسلامِ، بل من عملِ اليهودِ، وقد لعنَهُمُ النبيُّ ﷺ على ذلكَ.

وقد دلَّ القرآنُ على مثلِ ما دلَّ عليه هذا الحديثُ، وهو قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ في قصةِ أصحابِ الكهفِ: ﴿**قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا**﴾ [الكهف: ٢١]، فجعل اتخاذَ القبورِ على المساجدِ من فعلِ أهلِ الغلبةِ على الأمورِ، وذلك يشعرُ بأنَّ مستندَهُ القهرُ والغلبةُ واتباعُ الهوى، وأنَّه ليس من فعلِ أهلِ العلمِ والفضلِ المتبعينَ لما أنزلَ اللَّهُ على رسلِهِ من الهُدَى.

---

(١) «صحيح البخاري» (١/ ١١٦).

(٢) أخرجه: البخاري (٢/ ١١١ ـ ١٢٨)، (٦/ ١٣)، ومسلم (٢/ ٦٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وإذا كرهت الصلاةُ إلى القبورِ وبينَها، فإن كانتِ القبورُ محترمةً اجْتُنِبَتِ الصلاةُ فيها، وإن كانتْ غيرَ محترمةٍ كقبورِ مشركي الجاهليةِ ونحوِهِم ممَّن لا عهدَ له ولا ذمَّة مع المسلمينَ، فإنه يجوزُ نبشُها ونقلُ ما يوجدُ فيها من عظامِهِم، والصلاةُ في موضعِها، فإنها لم تبقَ مقبرةٌ ولا بقيَ فيها قبورٌ، وقد نصَّ الإمامُ أحمدُ على ذلكَ في روايةِ المروذيِّ.

وأمَّا ما ذكرَهُ عن عُمرَ ﷺ، فمن روايةِ سفيانَ، عن حميدٍ، عن أنسٍ، قالَ: رآني عمرُ وأنا أصلِّي إلى قبرٍ، فجعلَ يشيرُ إليَّ: القبرَ القبرَ.

ورواه إسماعيلُ بنُ جعفرٍ، عن حميدٍ، عن أنسٍ، حدَّثه أنه قامَ يصلِّي إلى قبرٍ لا يشعرُ به، فناداه عمرُ: القبرَ القبرَ، قالَ: فظننتُ أنَّه يقولُ: القمرُ، فرفعتُ رأسي، فقال رجلٌ: إنَّه يقول: القبرُ، فتنحيتُ.

وروي عن أنسٍ، عن عمرَ من وجوهٍ أُخر.

وروى همامٌ: ثنا قتادةُ، أنَّ أنسًا مرَّ على مقبرةٍ وهم يبنونَ مسجدًا، فقالَ أنسٌ: كان يكرهُ أن يبنى مسجدٌ في وسطِ القبورِ.

وقال أشعثُ: عن ابنِ سيرينَ: كانُوا يكرهونَ الصلاةَ بين ظهرانيِّ القبورِ.

خرَّج ذلكَ كلَّه أبو بكرٍ الأثرمُ.

وقال: سمعتُ أبا عبدِ اللَّه - يعني: أحمدَ - يُسألُ عن الصلاةِ في المقبرةِ؟ فكرِهَ الصلاةَ في المقبرةِ. فقيلَ له: المسجدُ يكونُ بين القبورِ، أيصلَّى فيه؟ فكره ذلك، قيل له: إنه مسجدٌ وبينه وبينَ القبورِ حاجزٌ؟ فكره أن يصلَّى فيه الفرضُ، ورخصَ أن يصلَّى فيه على الجنائزِ، وذكر حديثَ أبي مَرْثَدٍ الغَنويِّ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**لا تصلُّوا إلى القبورِ**»، وقال: إسنادٌ جيد.

وحديثُ أبي مَرْثد هذا : خـرَّجه مسلم[١]، ولفظُهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ، قالَ: «لا تجلسُوا على القبورِ، ولا تصلُّوا إليها».

ورُويَ عن عمرِو بـنِ يحيى المازنيِّ، عن أبيه، عن أبي سعـيدٍ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «جعلتْ لي الأرضُ مسجداً وطهوراً، إلا المقبرةُ والحمامُ».

خرَّجه الإمامُ أحـمدُ وأبو داودَ وابنُ ماجهَ والترمذيُّ، وابـنُ حبانَ والحاكمُ وصححَهُ[٢].

وقد اختلـفَ في إرسالهِ ووصلِهِ بذكرِ «أبي سعـيدٍ» فيه، ورجَّحَ كـثيرٌ من الحـفـاظِ إرسـالَهُ: عن عـمـرِو بنِ يحـيى، عـن أبيـه، ومنهم: التـرمـذيُّ والدارقطنيُّ.

وفي البابِ أحاديثُ أُخرُ، قد استوفيناها في «كتابِ شرحِ الترمذيِّ».

وأمَّا ما ذكره البخاريُّ: أنَّ عمرَ لم يأمر أنسًا بالإعادةِ.

فقد اختلفَ في الصلاةِ في المقبرةِ: هل تجبُ إعادتُها، أم لا؟

وأكـثـرُ العلـمـاءِ على أنه لا تجبُ الإعـادةُ بذلـكَ، وهو قـولُ مـالكٍ، والشافعيِّ، وأحمدَ في روايةٍ عنه.

والمشهورُ عن أحمدَ الذي عليه عـامةُ أصحابِهِ: أنَّ عليه الإعادةَ؛ لارتكابِ النهيِّ في الصلاةِ فيها.

وهو قولُ أهـلِ الظاهرِ - أو بعضِـهِم - وجعلُوا النهيَ هاهنا لمعنى يـختصُّ

(١) «صحيح مسلم» (٣/ ٦٢).

(٢) أخرجـه: أحمـد (٣/ ٩٦)، وأبو داود (٤٩٢)، وابن ماجـه (٧٤٥)، والترمـذي (٣١٧)، وابن حبان (١٦٩٩)، والحاكم (١/ ٢٥١).

بالصلاةِ من جهة مكانِها، فهو كالنهيِّ عن الصلاةِ المختصِّ بها لزمانِها كالصلاةِ في أوقاتِ النهي، وكالصيامِ المنهي عنه لأجلِ زمنِهِ المختصِّ به كصيامِ العيدين.

حتى إن من أصحابِنا من قالَ: متى قُلنا: النهيُّ عن الصلاةِ في المقبرةِ والأعطانِ ونحوِها للتحريمِ، فلا ينبغي أن يكونَ في بطلانِ الصلاةِ فيها خلافٌ عن أحمدَ، وإنما الخلافُ عنه في عدمِ البطلانِ مبنيٌّ على القولِ بأنه مكروهٌ كراهةُ تنزيهٍ.

وأكثرُ العلماءِ على أن الكراهةَ في ذلكَ كراهةُ تنزيهٍ، ومنهُم من رخَّص فيه.

قال ابنُ المنذرِ: اختلفُوا في الصلاةِ في المقبرةِ، فرُوِّينا عن عليٍّ وابنِ عباسٍ وعبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو وعطاءٍ والنخعي أنهم كرهُوا الصلاةَ فيها، واختلفَ عن مالكٍ فيه، فحكى ابنُ القاسمِ عنه أنه قال: لا بأسَ به، وحكَى أبو مصعبٍ عنه أنه قال: لا أحبُّ ذلكَ.

قال ابنُ المنذرِ: ونحنُ نكرهُ من ذلكَ ما كرههُ أهلُ العلم استدلالاً بالثابتِ عن النبيِّ ﷺ، أنّه قال: «**اجعلُوا في بيوتِكُم من صلاتِكُم، ولاتتخذُوها قبورًا**»[1]، ففي هذا دليلٌ على أنَّ المقبرةَ ليستَ بموضعٍ للصلاةِ.

قلتُ: قد استدلَّ البخاريُّ بذلكَ ـ أيضًا ـ وعقدَ له بابًا مفردًا، وسيأتي في موضعِهِ ـ إن شاء اللَّه تعالى.

قالَ ابنُ المنذرِ: وقد قالَ نافعٌ مولى ابنِ عمرَ: صلينا على عائشةَ وأمِّ سلمةَ

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ١١٨)، (٢/ ٧٦)، ومسلم (٢/ ١٨٧).

وسطَ البقيعِ، والإمامُ يومئذٍ أبو هريرةَ، وحضرَ ذلك ابنُ عمرَ.

قلتُ: صلاةُ الجنازةِ مستثناةٌ من النهيِّ عندَ الإمامِ أحمدَ وغيرِه، وقد سبقَ قولُ أحمدَ في ذلكَ. وقالَ ـ أيضًا ـ: لا يصلَّى في مسجدٍ بين المقابرِ إلا الجنائزُ؛ لأنَّ الجنائزَ هذه سنتُها.

يشيرُ إلى فعلِ الصحابةِ ﷺ.

قال ابنُ المنذرِ: ورُوِّينا أنَّ وَاثِلةَ بن الأسْقَعِ كان يصلِّي في المقبرةِ، غيرَ أنه لا يستترُ بقبرٍ.

قلتُ: لأنه هو روى عن أبي مرثدٍ حديثَ النهيِّ عن الصلاةِ إلى القبورِ، فكانَ يخصُّ النهي بحالةِ استقبالِ القبرِ خاصةً.

قال ابنُ المنذرِ: وصلَّى الحسنُ البصريُّ في المقابر.

قلتُ: لعلَّه صلَّى على جنازةٍ، فإنه روى عنه أنه أمرَ بهدمِ المساجدِ المبنيةِ في المقابرِ.

قال: وكره عمرُ بنُ الخطابِ وأنسُ بنُ مالكٍ الصلاةَ إلى المقابرِ. انتهى ما ذكره.

واختلفَ القائلونَ بالكراهةِ في علةِ النهي:

فقال الشافعيُّ: علةُ ذلكَ النجاسةُ، فإن ترابَ المقابرِ يختلطُ بصديدِ الموتى ولحومِهم، فإن كانتْ طاهرةً صحت الصلاةُ فيها مع الكراهة.

وقسم أصحابه المقبرة إلى ثلاثةِ أقسامٍ: ما تكرَّر نبشُها، فلا تصحُّ الصلاةُ فيها، لاختلاطِ ترابها بالصَّديدِ. وجديدة لم تُنْبش، فتصحُّ الصلاةُ فيها مع

الكراهة؛ لأنها مدفن للنجاسة.

وما شُكَّ في نبشِها، ففي صحة الصلاةِ فيها قولانِ.

واختلفَ أصحابُنا في علةِ النهي عن الصلاةِ، فمنهم من قالَ: هو مظنةُ النجاسةِ، ومنهُم من قالَ: هو تعبُّد لا يُعْقلُ.

وقالُوا مع هذا: لا فرقَ بين أن تكونَ قديمةً أو حديثةً، نُبِشَتْ أو لم تُنْبشُ، إذا تناولها اسمُ مقبرةٍ.

قالُوا: فإن كان في بقعةٍ قبرٌ أو قبرانِ فلا بأسَ بالصلاةِ فيه، ما لم يصلِّ إلى القبرِ.

وأنكرَ آخرونَ التعليلَ بالنجاسةِ، بناءً على طهارةِ ترابِ المقابرِ بالاستحالةِ، وعللوا: بأنَّ الصلاةَ في المقبرةِ وإلى القبور، إنَّما نَهَى عنه سدا لذريعةِ الشِّرْكِ، فإن أصلَ الشركِ وعبادة الأوثانِ كانتْ من تعظيمِ القبورِ، وقد ذكرَ البخاريُّ في «صحيحِهِ» في «تفسيرِ سورةِ نوحٍ» عن ابنِ عباسٍ، معنى ذلك.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[1] عن جندب، سمعَ النبيُّ ﷺ قبل أن يموتَ بخمسٍ يقولُ: **«إنَّ من كانَ قبلَكُم كانُوا يتخذونَ قبورَ أنبيائِهم وصالحيهم مساجدَ، ألا فلا تتخذُوا القبورَ مساجدَ، فإنِّي أنهاكم عن ذلك»**.

وهذا يعمُّ كلَّ القبورِ.

وخرَّج الإمامُ أحمدُ وابنُ حبانَ في «صحيحِهِ»[2] من حديثِ ابنِ مسعودٍ،

(١) (٢/ ٦٧ ـ ٦٨).

(٢) أخرجه: أحمد (٤٠٥ ـ ٤٣٥)، وابن حبان (٦٨٤٧).

عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**إنَّ من شرارِ الناسِ من تدركُهُم الساعةُ وهم أحياءٌ، ومن يتخذُ القبورَ مساجدَ**».

وخرَّج الإمام أحمدُ وأبو داودَ والنسائيُّ[1] من حديثِ أبي صالحٍ، عن ابنِ عباسٍ، عن النبيِّ ﷺ: «**لعنَ اللَّهُ زائراتِ القبورِ، والمتخذينَ عليها المساجدَ والسُّرُجَ**».

وقال الترمذيُّ: حسنٌ - وفي بعضِ النُّسخِ: صحيحٌ.

وخرَّجهُ ابنُ حبانَ في «صحيحِهِ» والحاكمُ وصحَّحَهُ[2].

واختلفَ في أبي صالحٍ هذا، منْ هو؟

فقيلَ: إنه السمانُ - قاله الطبرانيُّ، وفيه بعدٌ، وقيلَ: إنه ميزانٌ البصريُّ، وهو ثقةٌ؛ قاله ابنُ حبانَ. وقيلَ: إنه باذَان مولى أمِّ هانئ؛ قاله الإمامُ أحمدُ والجمهورُ.

وقد اختلفَ في أمرِهِ.

فوثقه العجليُّ. وقالَ ابنُ معينٍ: ليس به بأسٌ، وقال أبو حاتمٍ: يُكتَبُ حديثُهُ ولا يحتجُّ به. وقال النسائيُّ: ليس بثقةٍ، وضعفه الإمامُ أحمدُ وقالَ: لم يصحَّ عندي حديثُهُ هذا.

وقال مسلمٌ في «كتابِ التفصيلِ»: هذا الحديثُ ليسَ بثابتٍ، وأبو صالحٍ باذام قد اتقى الناسُ حديثَهُ، ولا يثبتُ له سماعٌ من ابنِ عباسٍ.

---

(١) أخرجه: أحمد (١/ ٢٢٩ - ٢٨٧ - ٣٢٤ - ٣٣٧)، وأبو داود (٣٢٣٦)، والنسائي (٤/ ٩٤ - ٩٥).

(٢) أخرجه: ابن حبان (٣١٧٩)، والحاكم (١/ ٣٧٤).

ورُوي عن زيدِ بنِ ثابتٍ، أنَّه نهى أن يُبْنَى عند قبرِ أبيه مسجدٌ.

خرَّجه حربٌ الكرْمانيُّ.

وقال أبو بكرٍ الأثرمُ في كتابِ «الناسخِ والمنسوخِ»: إنما كرهتِ الصلاةُ في المقبرةِ للتشبهِ بأهلِ الكتابِ؛ لأنهم يتخذونَ قبورَ أنبيائِهم وصالحِيهم مساجدَ.

ووجدنا في كتابٍ مصنفٍ على مذهبِ سفيان الثوريِّ: وإذا صلَّى الرجلُ وبين يديه ميتٌ تنحَّى عنه. إنما كره الصلاةَ إلى القبورِ من أجلِ الميتِ، فإنْ صلَّى إليها فلا بأسَ.

وفيه ـ أيضًا ـ : قال سفيانُ: ويكرهُ أن يصلِّي الرجلُ إلى القبورِ أو ما بينَ القبورِ. ثم قالَ: ومن صلَّى إلى القبورِ فلا إعادةَ عليهِ.

وفيه: قال: ولا تعجبني الصلاةُ على الجنازةِ في المقبرةِ.

وهذا قولُ الشافعيِّ وإسحاقَ وروايةٌ عن أحمدَ؛ لعمومِ النهيِّ عن الصلاةِ في المقبرةِ.

واستدلَّ من رخَّصَ في صلاةِ الجنازةِ في المقبرةِ: بأنَّ الصلاةَ على القبرِ جائزةٌ بالسنة الصحيحةِ، فعلم أنَّ الصلاةَ على الميتِ في القبورِ غير منهيٍّ عنها.

[قال البخاريُّ][1]: ثنا محمد بنُ المثنى: ثنا يحيى، عن هشام: أخبرني أبي، عن عائشة، أن أمَّ حبيبةَ وأم سلمةَ ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاويرُ، فذكرتا ذلك للنبيِّ ﷺ، فقال: **«إنَّ أولئك إذا كان فيهم الرَّجلُ الصالحُ فمات بنو على قبْرِهِ مسجدًا، وصوَّرُوا فيه تلك الصُّور، وأولئكِ شرارُ الخلقِ عندَ اللَّهِ**

(١) «صحيح البخاري» (١/١١٦ ـ ١١٧).

يوم القيامةِ».

هذا الحديثُ يدلُّ على تحريمِ بناءِ المساجدِ على قبورِ الصالحينَ، وتصويرِ صورِهم فيها كما يفعلُهُ النصارَى، ولا ريبَ أنَّ كلَّ واحدٍ منهما محرمٌ على انفرادِه: فتصويرُ صورِ الآدميينَ محرمٌ، وبناءُ القبورِ على المساجدِ بانفرادِهِ محرمٌ، كما دلتْ عليه نصوصٌ أُخرُ يأتِي ذكرُ بعضِها.

وقد خرَّجَ البخاريُّ في «تفسيرِ سورةِ نوحٍ» من «كتابِهِ»[1] هذا من حديثِ ابنِ جريرٍ، فقالَ: عطاءٌ، عن ابنِ عباسٍ: صارتِ الأوثانُ التي كانتْ في قومِ نوحٍ في العربِ تُعْبد، أما «ودٌّ»: كانت لكلبٍ بدومَةِ الجندَلِ، وأما «سُواعٌ»: كانت لهذيلٍ، وأما «يَغُوثُ»: فكانت لمرادٍ، ثم لبني غُطيف بالجرفِ عند سبإٍ، وأمَّا «يعُوقُ»: فكانتْ لهمدانَ، وأمَّا «نسْرٌ»: فكانت لحِمْيَر لآل ذي الكلاعِ: أسماء رجال صالحينَ من قومِ نوحٍ، فلما هلكُوا أوحى الشيطانُ إلى قومِهِم أن انصبُوا إلى مجالسِهِم التي كانُوا يجلسَون أنصابًا، وسمُّوها بأسمائِهِم، ففعلُوا، فلم تُعبد، حتى إذا هلكَ أولئك ونُسخَ العلمُ عُبِدتْ.

وقد ذكرَ الإسماعيليُّ: أن عطاءً هذا هو الخراسانيُّ، الخراسانيُّ لم يسمعْ من ابنِ عباسٍ. واللَّه أعلمُ.

فإن اجتمعَ بناءُ المسجدِ على القبورِ ونحوِها من آثارِ الصالحينَ مع تصويرِ صورِهِم، فلا شكَّ في تحريمِهِ، سواءٌ كانتْ صورًا مجسدةً كالأصنامِ أو على حائطٍ ونحوِه، كما يفعلُه النصارى في كنائسهم، والتصاويرُ التي في الكنيسةِ التي ذكرتها أمُّ حبيبة وأمُّ سلمة أنهما رأتاها بالحبشة كانتْ على الحيطانِ

(١) «صحيح البخاري» (٦/ ١٩٩).

ونحوِهـا، ولم يكنْ لها ظلٌّ، وكـانتْ أمُّ سلمةَ وأمُّ حـبيـبة قد هاجـرتا إلى الحبشةِ.

فتصويرُ الصورِ على مثل صورِ الأنبياءِ والصالحينَ، للتبركِ بها والاستشفاعِ بها محـرَّمٌ في دينِ الإسلامِ، وهو من جنسِ عبادةِ الأوثـانِ، وهو الذي أخبر النبيُّ ﷺ أن أهلَه شرارُ الخلقِ عندَ اللَّهِ يومَ القيامةِ.

وتصوير الصـورِ للتآنسِ برؤيتها أو للتنزهِ بذلك والتَّلهـي محرَّم، وهو منَ الكبائرِ وفاعلُه من أشـدِّ الناسِ عذابًا يومَ القيامةِ، فـإنه ظالمٌ ممثِّلٌ بأفعالِ اللَّهِ التي لا يقدرُ على فـعلِهَا غيـرُه، واللَّهُ تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] لا في ذاتِهِ ولا في صـفـاتِهِ ولا في أفـعـالِهِ سبـحـانه وتعالى(١).

* * *

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾

وسببُ نزولِهَا: أنّ قـومًا سألُوا النبيَّ ﷺ عن قصةٍ، قال: غـدًا أخبرُكم، ولمْ يقلُ إنْ شاء اللَّهُ. فاحتبس الوحيُ عنه مدةً، ثم نزلتْ هذه الآيةُ.

وفي الحديثِ الصحيحِ(٢): أنَّ سليمانَ ـ عليه السلامُ ـ قال: «**لأطوفنَّ الليلةَ على مائةِ امرأةٍ**» الحديث.

---

(١) «فتح الباري» (٢/ ٣٩٧ ـ ٤٠٥).

(٢) أخرجه البخاري (٤/ ٢٧)، ومسلم (٥/ ٨٧).

وفي الحديث: أنَّ بني إسرائيلَ، لو لمْ يقولُوا: «إنْ شاء اللَّه» ما اهتدُوا أبدًا يعني إلى البقرةِ التي أُمروا بذبحِهَا.

وفي الحديثِ الذي في «المسندِ» و«السننِ»[1]: أنَّ يأجوجَ ومأجوجَ يحفرونَ كلَّ يومٍ السدَّ حتى يكادُوا يروا منه شُعاعَ الشمسِ، ثم ينصرفونَ ويقولونَ غدًا نفتحهُ فإذا رجعُوا من الغدِ وجدُوه كما كان أولاً حتى يأذنَ اللَّهُ في فتحِهِ، فيقولونَ: غدًا نفتحهُ إنْ شاءَ اللَّهُ، فيرجعونَ فيجدونَهُ كما تركوه فيفتحونه.

قال إبراهيمُ بنُ أدهمَ: قال بعضُهم: ما سألَ السائلونَ مسألةً هي أنجحُ من أن يقولَ العبدُ: ما شاء اللَّهُ قال: يعني بذلك: التفويضَ إلى اللَّهِ.

وكان مالكُ بنُ أنسٍ كثيرًا يقولُ: ما شاءَ اللَّهُ ما شاءَ اللَّهُ. فعاتبه رجلٌ على ذلكَ. فرأى في منامِهِ قائلاً يقولُ: أنت المُعاتبُ لمالكٍ على قولِهِ ما شاء اللَّه، لو شاءَ مالكٌ أنْ يثقبَ الخردلَ بقولِه ما شاءَ اللَّهُ فعلَ.

قال حمادُ بنُ زيدٍ: جعلَ رجلٌ لرجلٍ جُعلاً على أنْ يعبرَ نهرًا، فعبرَ حتى إذا قربَ من الشطِّ، قال: عبرتُ واللَّهِ، فقالَ له الرجلُ: قلْ إن شاء اللَّهُ. فقال: شاءَ اللَّهُ أو لم يشأ، قال: فأخذَتْهُ الأرضُ.

فلا ينبغي لأحدٍ أن يُخبر بفعلٍ يفعله في المستقبلِ إلا أنْ يُلحقَهُ بمشيئةِ اللَّهِ، فإنَّه ما شاءَ اللَّهُ كان وما لم يشأ لم يكنْ. والعبدُ لا يشاءُ إلا أنْ يشاءَ اللَّهُ له. فإذا نسيَ هذه المشيئةَ ثم تذكَّرها فقالَهَا عند ذكرها ولو بعدَ مدةٍ، فقد امتثلَ ما أُمرَ به، وزالَ عنه الإثمُ، وإنْ كان لا يرفعُ ذلك عنه الكفارةَ، ولا

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٥١٠ ـ ٥١١)، والترمذي (٣١٥٣)، وابن ماجه (٤٠٨٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الحِنثَ في يمينِهِ، ولهـذا في كلامِ أبي الدرداءِ: اللَّهُمَّ اغفـرْ لي وتجاوزْ عنِّي. فلم يسألْ إلا رفعَ الإثمِ دونَ رفعِ الكفارةِ.

رُوي عن سـعيدِ بنِ جـبيـرٍ، في قولِهِ تعـالي: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف:٢٤] ، قال: يقـولُ: إذا حلفتَ فنسيتَ الاسـتثناءَ فاستـثنِ إذا ذكرتَ، ولو بعدَ خمسةِ أشهرٍ أو ستةَ أشهرٍ؛ فإنَّه يجزئك ما لم تحنثْ. خرَّجه آدمُ بنُ أبي إياسٍ في «تفسيرِهِ».

وعلى هذا حَـملَ قولَ ابنِ عبـاسٍ وأصحـابِهِ طائفةٌ من العلمـاءِ، منهُم: أبو مسعودٍ الأصبهانيُّ الحافظُ وابنُ جريرٍ الطبريُّ.

وكذا يُقال في هذا الحديثِ من تقدُّم الاستثناء؛ فإنَّ تقديمَه أبعدُ من تأخيرِهِ عن اليمينِ، فإنَّ اليمينَ لم تُوجد بالكليّة وفي تأخيرِهِ وجدتْ.

وقد قالَ مالكٌ في الاستثناءِ في اليمينِ: إنْ ذكـرَ المشيئةَ يريدُ بها الاستثناءَ نفعَهُ ذلك في منعِ الحنثِ، وإنْ كانَ إنَّما أراد امـتثالَ قولِهِ تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف:٢٣-٢٤] ثم حنثَ، فإنِّي أرى الكفارةَ نقلَهُ ابنُ المنذرِ وغيرُه وكذلك حكاهُ أبو عُبيد عن بعضِ العلماءِ.

وترددَ بعضُ العلماء فـي وجوبِ الكفارةِ في هذا القـسمِ؛ لترددِّ نظرِهِ بين اللفظِ والمعْنَى. فلفظُهُ معلَّقٌ بالمشـيئةِ، ومعناهُ الجزمُ بالفعلِ غيـر معلقٍ، وإنَّما ذكرَ الاستثناء تحقيقًا وتأكيدًا للفعلِ.

وفي الجملةِ: فينبـغي حملُ حديثِ زيد بنِ ثابت[1] هذا على هذا المعنى، وأنْ تُقدَّم المشيئةُ على كلِّ قولٍ يقولُه وحلفٍ يحلفُهُ ونذرٍ ينذرُهُ، ليخرجَ بذلكَ

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ١٩١)، والحاكم (١/ ٥١٦).

من عُهدةِ استقلالِ العبدِ بفعلِه، وليحققَ العبدُ أنَّه لا يكونُ مما يعزم عليه العبدُ ويقولُه من حلفٍ ونذرٍ وغيرِهما إلا ما شاءَ اللَّهُ وأرادَهُ، ولهذا قال بعدَهُ: «**ما شئتَ كان وما لم تشأ لم يكنْ، ولا حول ولا قوَّةَ إلا بكَ، إنَّك على كلِّ شيءٍ قديرٌ**»[1].

فتبرَّأ من حولِه وقوتِه ومشيئتِه بدون مشيئةِ اللَّهِ وحولِه وقوتِه، وأقرَّ لربِّه بقدرتِه على كلِّ شيءٍ وأنَّ العبدَ عاجزٌ عن كلِّ شيءٍ إلا ما أقدرَهُ عليه ربُّه.

ففي هذا الكلامِ: إفرادُ الربِّ تعالى بالحولِ والقوةِ والقُدرةِ والمشيئةِ، وأنَّ العبدَ غيرُ قادرٍ من ذلكَ كلِّه إلا على ما يقدره مولاهُ، وهذا نهايةُ توحيدِ الربوبيةِ.

وللشافعيِّ من أبياتٍ شعر:

ما شئتَ كانَ وإنْ لم أشأْ وما شئتُ إنْ لم تشأ لم يكنْ

وقد حملَ طائفةٌ منهُم الإمامُ أحمدُ كلامَ ابنِ عباسٍ في تأويلِ الآيةِ على وجهٍ آخرَ، وهو: أنَّ الرجلَ إذا قال: لا أفعلُ كذا وكذا، ثم أرادَ فعلَهُ فإنَّه يستثنِي، ويقولُ: إن شاءَ اللَّهُ، ثم يفعلُهُ ويتخلَّصُ بذلكَ من الكذبِ إذا لم يكنْ حلف على يمينٍ.

وكان يحيى بنُ سعيدٍ القطانُ، إذا قالَ: لا أفعلُ كذا. لا يفعلُه أبدًا، فإذا قيلَ له: لم تحلفْ؟ يقولُ: هذا أشدُّ - يعني الكذبَ - لو كنتُ حلفتُ كان أهونُ، كُنتُ أكفِّرُ يميني وأفعلُهُ.

وسُئل الإمامُ أحمدُ عمَّن يقولُ: لا آكلُ ثم يأكلُ، قال: هو كذبٌ، لا ينبغي أنْ يفعلَ ذلك.

---

(١) جزء من حديث زيد بن ثابت المتقدم تخريجه.

ونقل الوليدُ بنُ مسلمٍ - في «كتابِ الأيمان والنذورِ» عن الأوزاعيِّ، في رجلٍ كُلِّم في شيءٍ فيقول: نعمْ، إن شاءَ اللَّهُ، ومن نيتِه أن لا يفعلَ. قال: هذا الكذبُ والخُلف. قال: إنَّما يجوزُ المُستثنى في اليمينِ، قيلَ لهُ: فإنَّه قالَ: نعم إنْ شاءَ اللَّهُ ومن نيتِهِ أنْ يفعلَ، ثم بدا لهُ أن لا يفعلَ. قال: له ثُنياه.

وهذا يدلُّ على أنَّ الاستثناءَ بالمشيئةِ في غيرِ اليمينِ إنَّما ينفعُ لمن لم يكن مصممًا على مخالفةِ ما قالَهُ من أولِ كلامِه[1].

* * *

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾

قال الزجاجُ: السرادقُ: كلُّ ما أحاطَ بشيءٍ نحو الشقة في المضربِ والحائطِ المشتملِ على الشيءِ، وقال ابنُ قتيبةَ: السرادقاتُ: الحِرةُ التي تكونُ حولَ الفسطاطِ، قيلَ: هو الدهليزُ، معربٌ، وأصلُهُ بالفارسيةِ: سرادارُ، وقالَ ابنُ عباسٍ: هو سرادقٌ من نارٍ.

وروى ابنُ لهيعةَ عن درَّاجٍ عن أبي الهيثمَ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ قالَ: **«سرادقُ أهلِ النارِ أربعةُ جدرٍ، كثفُ كلِّ جدارٍ مسيرةَ أربعين سنةً»** خرَّجه الترمذيُّ[2].

وإحاطةُ السرادقِ بهم قريبٌ من المعنى المذكورِ في غلقِ الأبوابِ، وهو شبهُ

---

(١) شرح حديث: «لبيك اللهم لبيك» (٣٦ - ٤٤).

(٢) في «الجامع» (٢٥٨٤).

قولِ من قالَ: إنه حائطٌ لا بابَ لهُ.

ولما كانَ إحاطةُ السرادقِ بهم موجبٌ لهمِّهم وغمِّهم وكربِهم وعطشِهم لشدةِ وهجِ النارِ عليهم، قال اللّه تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الحج:٢١-٢٢].

قال أبو معشرٍ: كنا في جنازةٍ مع أبي جعفرٍ القاري فبكى أبو جعفرٍ، ثم قالَ: حدَّثني زيدُ بنُ أسلمَ، أنَّ أهلَ النارِ لا يتنفسونَ، فذلك الذي أبكاني. خرَّجه الجوزجانيُّ.

وخرَّج ابنُ أبي حاتمٍ من طريقِ إبراهيمَ بنِ الحكمِ بنِ أبانَ عن أبيهِ عن عكرمةَ، قال: على كلِّ بابٍ من أبوابِ النارِ سبعونَ ألفَ سرادقٍ من نارٍ، في كلِّ سرادقٍ منها سبعونَ ألفَ قبةٍ من نارٍ، في كلِّ قبةٍ منها سبعونَ ألفَ تنورٍ من نارٍ، في كلِّ تنورٍ منها سبعون ألفَ كوةٍ من نارٍ، في كلِّ كوةٍ منها من نار. على كلِّ صخرةٍ سبعونَ ألفَ صخرةٍ منها سبعون ألفَ حجرٍ من نارٍ، على كلِّ حجرٍ منها سبعونَ ألفَ عقربٍ من نارٍ، لكلِّ عقربٍ منها سبعونَ ألفَ ذنبٍ من نارٍ، لكلِّ ذنبٍ منها سبعونَ ألفَ فقارةٍ من نارٍ، في كلِّ فقارةٍ منها سبعونَ ألفَ قلةٍ من سمٍّ وسبعونَ ألفَ موقدٍ من نارٍ يوقدونَ تلك النارَ، وذكر تمامَ الحديثِ، وسيأتي فيما بعد إن شاء اللّهُ تعالى؛ وفيه: «إنهم يهوونَ من بابٍ إلى بابٍ خمسمائةَ سنةٍ» وهو غريبٌ ومنكرٌ، وإبراهيمُ بنُ الحكمِ بنِ أبانَ ضعيف تركه الأئمةُ.

وأبوابُ جهنَّم قبلَ دخولِ أهلِها إليها يومَ القيامةِ مغلقةٌ كما دلَّ عليه ظاهرُ قولِهِ تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧١].

وفي حديثِ أبي هارونَ العبدي وهو ضعيفٌ جدًا عن أبي سعيدٍ الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ في قصةِ الإسراءِ، قال: «**ثم عُرضتْ عليَّ النارُ، فإذا فيها غضبُ اللَّهِ وزجره ونقمته، لو طرحَ فيها الحجارةُ والحديدُ لأكلتْها، ثم أغلقتْ دوني**».

وقد رُويَ أن أبوابَها تفتحُ كلَّ يومٍ نصفُ النهارِ، وسنذكرُهُ فيما بعدُ ـ إن شاء اللَّه تعالى.

وروى الإمامُ أحمدُ عن إسحاقَ الأزرقيِّ عن شريكٍ عن الركينِ عن أبيه، قال: رأى خبابُ بنُ الأرتِّ رجلاً يصلِّي نصفَ النهارِ فنهاه، وقال: إنها ساعةٌ تفتحُ فيها أبوابُ جهنَّمَ فلا تصلِّ فيها.

وقد وردَ ما يستدلُّ به على أنها مفتحةٌ، ففي «الصحيحينِ»[1] عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**إذا جاءَ رمضانُ فتحتْ أبوابُ الجنةِ وغلِّقَتْ أبوابُ النارِ وصفدتِ الشياطينُ ومردةُ الجنِّ**».

وخرَّج الترمذيُّ[2] من حديثِ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «**إذا كان أولُ ليلةٍ من شهرِ رمضانَ صفدتِ الشياطينُ ومردةُ الجنِّ وأغلقتْ أبوابُ النارِ، فلم يفتحْ منها بابٌ، وفتحتْ أبوابُ الجنةِ فلم يغلقْ منها بابٌ**».

ولكنْ قد قيلَ: إن إغلاقَ أبوابِ النارِ إنَّما هو عن الصائمينَ خاصةً،

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ٣٢)، (٤/ ١٤٩)، ومسلم (٣/ ١٢١).
(٢) «الجامع» (٦٨٢).

وكذلك فتحُ أبوابِ الجنةِ هو لهم خاصةً.

وفي حديثِ القاسمِ العرنيِّ عن الضحاكِ عن ابنِ عباسٍ عنِ النبيِّ ﷺ في فضلِ رمضانَ، قالَ فيه: «فيفتحُ فيها» أي في أولِ ليلةٍ منه: «أبوابُ الجنة للصائمينَ من أمةِ محمدٍ ﷺ، فيقولُ اللَّهُ: يا رضوانُ، افتحْ أبوابَ الجنانِ، ويا مالكُ، أغلقْ أبوابَ الجحيمِ عن الصائمينَ من أمَّةِ محمدٍ ﷺ» وهذا منقطعٌ، فإن الضحاكَ لم يسمعْ من ابنِ عباسٍ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالاً وَوَلَدًا﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعت الوزير[2] يقولُ: في قولِه تعالى: ﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الكهف:٣٩]، قال: ما قالَ: ما شاءَ اللَّه كانَ ولا يكونُ، بلْ أطلقَ اللَّفظَ؛ ليعمَّ الماضي والمستقبلَ والراهنَ.

وسمعته يقول: وتدبرتُ قولَه تعالى: ﴿لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [الكهف:٣٩]، فرأيتُ لها ثلاثةَ أوجهٍ.

أحدُها: أن قائلَها يتبرأُ من حولِهِ وقوتِهِ، ويسلِّمُ الأمرَ إلى مالكِه.

والثاني: أنه يعلمُ أنْ لا قوةَ للمخلوقينَ إلا باللَّه، فلا يخافُ منهم؛ إذ قُواهُم لا تكونُ إلا باللَّهِ، وذلك يوجبُ الخوفَ من اللَّهِ وحدَهُ.

والثالثُ: أنَّه ردٌّ على الفلاسفةِ والطبائعيين الذين يدَّعونَ القُوى في الأشياءِ

---

(١) «التخويف من النار» (٦٤ ـ ٦٧).

(٢) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

بطبيعتها، فإنَّ هذه الكلمةَ بيَّنتْ أنَّ القَويَّ لا يكُونُ إلا باللَّه(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾

وقولُهُ ﷺ: «**أتبعِ السَّيِّئةَ الحسنةَ تمحُها**» ظاهرُه أنَّ السّيِّئاتِ تُمحَى بالحسناتِ، وقد تقدَّم ذكرُ الآثارِ التي فيهـا أنَّ السيئةَ تمحى من صُحفِ الملائكةِ بالحسنةِ إذا عُملتْ بعـدَهَا، قال عطيّةُ العوفيُّ: بلغَـني أنَّه من بكى على خطيئته مُـحيتْ عنه، وكُتِـبتْ له حسنةٌ، وعـن عبدِ اللَّه بنِ عـمرو، قـالَ: من ذكرَ خطيـئةً عملهَـا، فوَجلَ قلبُهُ منهـا، فاستغـفرَ اللَّهَ عزَّ وجلَّ لم يَـحْبسْهـا شيءٌ حتى يمحوها عنه الرَّحمنُ. وقال بِشْرُ بنُ الحـارثِ: بلغني عن الفضيلِ بنِ عياضٍ، قالَ: بكاءُ النَّهـارِ يمحُو ذنوبَ العلانيـةِ: وبكاءُ الليلِ يمحُو ذنوبَ السِّـرِّ، وقد ذكرَنا قولَ النبيِّ ﷺ: «**ألا أدلُّكم على مـا يمحُـو اللَّه به الخـطايا ويرفعُ به الدرجـات**» الحديث.

وقال طائفةٌ: لا تُمحَى الذنوبُ من صحائفِ الأعمالِ بتوبةٍ ولا غيرِها، بل لابُدَّ من أن يُوقفَ عليها صاحبُها ويقرأُها يومَ القيامةِ، واستدلُّوا بقولِه تعالى: ﴿**وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا**﴾ [الكهف:٤٩]، وفي الاستدلالِ بهذهِ الآيةِ نظرٌ، لأنَّه إنَّما ذكرَ فيها حـالَ المجرمينَ، وهم أهلُ الجرائمِ، والذنوبِ العظيمةِ، فلا يدخلُ فـيهم المؤمنونَ التـائبـونَ من ذنوبِهِم، أو المغمـورةِ ذنوبُهم بحسناتِهِم. وأظهرُ من هذا، الاستدلالُ بقولِهِ تعالى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧**

(١) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٥).

وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧ ـ ٨]، وقد ذكر بعضُ المـفسرينَ أنَّ هذا القولَ هو الصحيحُ عند المحققـينَ، وقد رُوي هذا القولُ عن الحسنِ البصريِّ، وبلالِ بنِ سعـدٍ الدمـشقيِّ، قـال: الحسنُ في العبـدِ يذنبُ، ثم يتـوبُ، ويستغفـرُ: يُغفر له، ولكن لا يُمحاه من كتابِهِ دونَ أن يقِـفَه عليه، ثم يسأله عنه، ثم بكى الحسنُ بكاءً شـديدًا، وقال: لو لم نـبكِ إلا للحيـاءِ من ذلك المقامِ، لكان ينبغي لنا أن نبكي.

وقال بلالُ بنُ سعدٍ: إنَّ اللَّهَ يغفرَ الذنوبَ، ولكن لا يمحُوها من الصحيفةِ حتى يُوقفه عليها يومَ القيامةِ وإن تابَ.

وقال أبو هريرة: يُدني اللَّهُ العبدَ يومَ القيامةِ، فيضعُ عليه كنَفَهُ، فيستُرُهُ من الخلائقِ كُلِّـها، ويدفعُ إليه كـتابَهُ في ذلكَ السـترِ، فـيقـولُ: اقرأ يا ابنَ آدمَ كتابَك، فيقرأُ، فيمرُّ بالحسنةِ، فيبيضُّ لها وجهُه، ويُسرُّ بها قلبُه، فيقولُ اللَّهُ: أتعرفُ يا عبدِي؟ فيـقولُ: نعم، فيقولُ: إنِّي قبلتُها منكَ، فيسـجدُ، فيقولُ: ارفعْ رأسكَ وعُدْ في كتابِك، فـيمرُّ بالسيِّئةِ، فيسودُّ لهـا وجههُ، ويُوْجَلُ منها قلبُه، وترتعـدُ منها فرائصُـهُ، ويأخذُه من الحيـاءِ من ربِّه ما لا يعلمُه غـيرُهُ، فيقول: أتعرفُ يا عبدِي؟ فيقـول: نعم يا ربِّ، فيقولُ: إنِّي قد غفرتُها لكَ، فيسجدُ، فلا يرى منه الخلائقُ إلا السُّـجودَ حتى ينادِي بعضُهم بعضًا: طُوبى لهذا العبد الذي لم يَعصِ اللَّه قطُّ، ولا يدرونَ مـا قد لقِيَ فيما بينه وبينَ ربِّه ممَّا قد وقفَهُ عليه[1].

وقال أبو عثمـانَ النَّهْديُّ عن سلمانَ: يُعطَى الرجلُ صحيفتَـهُ يومَ القيامةِ، فيـقرأ أعـلاها، فإذا سـيئـاتُهُ، فإذا كـادَ يسوءُ ظنُّه، نظرَ فـي أسفلِهَـا، فإذا

(١) روى البخاري نحو ذلك عن ابن عباس مرفوعًا (٨/ ٣٥٣).

حسناتُهُ، ثم نظرَ إلى أعلاها فإذا هي قد بُدِّلَتْ حسناتٍ، ورُوي عن أبي عثمانَ، عن ابنِ مسعودٍ، وعن أبي عثمانَ من قولِهِ وهو أصحُّ.

وروى ابنُ أبي حاتمٍ بإسنادِهِ عن بعضِ أصحابِ معاذِ بنِ جبلٍ، قالَ: يدخلُ أهلُ الجنةِ الجنةَ على أربعةِ أصنافٍ: المتقينَ، ثم الشاكرينَ، ثم الخائفينَ، ثم أصحابُ اليمينِ. قيلَ: لِمَ سُمُّوا أصحابَ اليمينِ؟ قال: لأنَّهم عملُوا الحسناتِ والسيئاتِ، فأعطُوا كتبهم بأيمانهم، فقرءُوا سيئاتِهُم حرفًا حرفًا، قالُوا: يا ربَّنا هذه سيئاتُنا فأين حسناتُنا؟ فعندَ ذلك محا اللَّهُ السّيئاتِ، وجعلَها حسناتٍ، فعند ذلك قالُوا: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ١٩] فهم أكثرُ أهلِ الجنةِ.

وأهلُ هذا القولِ قد يحملونَ أحاديثَ محوِ السيئاتِ بالحسناتِ على محوِ عقوبتها دون محوِ كتابتِها من الصحفِ، واللَّه أعلمُ[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعت الوزير[٢] يقول في قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧] قال: «التاء» من حروف الشدَّة، تقول في الشيءِ القريبِ الأمر: ما اسطعتُه، وفي الشَّديدِ: ما استطعته، فالمعنى: ما أطاقوا ظهوره لضعفهم، وما قدروا على نقبِهِ وشدَّتِهِ[٣].

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٧٠ ـ ٤٧٣).

(٢) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

(٣) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٥).

سُورَةُ مَرْيَمَ

قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾

ولا يزالُ أهلُ جهنَّم في رجاء الفرجِ إلى أنْ يُذبحَ الموتُ، فحينئذٍ يقعُ منهم الإياسُ وتعظمُ عليهم الحسرة والحزنُ.

وفي «الصحيحينِ»[1] عن أبي سعيدٍ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «يجاءُ بالموتِ يومَ القيامةِ كأنه كبشٌ أملحُ، فيوقفُ بين الجنة والنار، فيقالُ: يا أهلَ الجنة هل تعرفونَ هذا؟ فيشرئبونَ، وينظرونَ، ويقولونَ: نعم، هذا الموتُ، ويقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا فيشرئبونَ وينظرونَ، فيقولون: نعم، هذا الموتُ، قال: فيؤمرُ به فيذبحُ، ثم يقالُ: يا أهل الجنةِ خلودٌ فلا موتٌ، ويا أهل النارِ خلودٌ فلا موتٌ».

ثم قرأ رسولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم:٣٩] وخرَّجه الترمذيُّ[2] بمعناه، وزادَ: «فلولا أنَّ اللَّهَ قضى لأهل الجنة بالحياةِ والبقاءِ لماتُوا فرحًا، ولولا أن اللَّه قضى لأهلِ النارِ بالحياةِ والبقاءِ لماتُوا ترَحًا».

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ وابنُ ماجه[3] معناه من حديثِ أبي هريرةَ

---

(١) البخاري (٦/ ١١٧ ـ ١١٨)، ومسلم (٨/ ١٥٢).

(٢) الترمذي (٣١٥٦).

(٣) أحمد (٢/ ٣٦٨ ـ ٣٦٩)، والترمذي (٢٥٥٧)، وابن ماجه (٤٣٢٧).

عن النبيِّ ﷺ وقال فيه: «إنَّ أهلَ الجنةِ يطلعون خائفينَ وجلينَ أن يخرجُوا من مكانِهم الذي هُم فيه، وإنَّ أهلَ النارِ يطلعُون مستبشرينَ فرحينَ أن يخرجُوا من مكانِهم الذي هم فيه» وفي روايةِ الترمذيِّ: «مستبشرينَ يرجونَ الشفاعةَ».

وخرَّجاه في «الصحيحين»(١) من حديثِ ابنِ عمرَ عن النبيِّ ﷺ بمعناه، وفي حديثِه «فيزدادُ أهل الجنةِ فرحًا إلى فرحِهم، ويزدادُ أهلُ النارِ حزنًا إلى حزنِهم» وخرَّجه الترمذيُّ(٢) من حديثِ أبي سعيدٍ عن النبيِّ ﷺ مختصرًا، وفيه: «فلو أنَّ أحدًا مات فرحًا لماتَ أهلُ الجنةِ، ولو أنَّ أحدًا ماتَ حزنًا لماتَ أهلُ النارِ».

وخرَّج ابنُ أبي حاتمٍ بإسنادِه عن ابنِ مسعودٍ من قولِه نحوَ هذا المعنى غير مرفوعٍ وزادَ: «أنه ينادَى أهلُ الجنةِ وأهلُ النارِ: هو الخلودُ أبدَ الآبدينَ»، قال: فيفرحُ أهلُ الجنةِ فرحةً لو كان أحدٌ ميتًا من فرحه لماتُوا، ويشهقُ أهلُ النارِ شهقةً لو كان أحدٌ ميتًا من شهقِهِ لماتُوا، فذلك قولُه: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ [غافر:١٨]، وقولُه تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [مريم:٣٩].

وروَى ابنُ أبي الدنيا بإسنادِهِ عن هشامِ بنِ حسانَ، قالَ: مرَّ عمرُ بنُ الخطابِ بكثيبٍ من رملٍ فبكى، فقيلَ له: ما يبكيكَ يا أميرَ المؤمنينَ؟ قال: ذكرتُ أهلَ النارِ فلو كانُوا مخلدينَ في النارِ بعددِ هذا الرملِ كانَ لهم أمدٌ يمدون إليه أعناقَهُم ولكنَّه الخلودُ أبدًا؛ وقد رُوي عن ابنِ مسعودٍ هذا المعنى أيضًا مرفوعًا، وموقوفًا، وسنذكره فيما بعدُ ـ إن شاءَ اللَّهُ تعالى.

---

(١) البخاري (١٨/ ١٤١)، ومسلم (٨/ ١٥٣).

(٢) الترمذي (٢٥٥٨).

وأمَّا عصاةُ الموحدينَ: فإنه ربما ينـفعهم الدعاءُ في النارِ، خرَّج الإمامُ أحمدُ من حديثِ أبي ظلالٍ عن أنسِ بنِ مالك عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ عبدًا في جهنَّم لينادي ألفَ سنة: يا حنانُ يا منانُ، فيقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لجبريلَ عليه السلامُ: اذهب فأتني بعبدِي هذا، فيذهبُ جبريلُ فيجدُ أهلَ النارِ منكبينَ يبكونَ، فيرجعُ إلى اللَّه عزَّ وجلَّ فيخبره، فيقولُ: أتني به فإنَّه في مكانِ كذا وكذا، فيجيءُ به ويوقفُهُ على ربِّه، فيقولُ له: يا عبدي كيفَ وجدتَ مكانَكَ؟ فيقولُ: يا ربِّ شرُّ مكانٍ وشرُّ مقيلٍ، فيقولُ: ردُّوا عبدي، فيقولُ: يا ربِّ ما كنتُ أرجُو إذ أخرجْتَني منها أن تردَّني، فيقولُ: دعُوا عبدِي».

أبو ظلالٍ اسمُهُ هلالٌ؛ ضعفوه.

خرَّج الترمذيُّ(١) من طريق رشدين بنِ سعدٍ، حدثني ابنُ أنعمَ - هو الإفريقيُّ -، عن أبي عثمانَ أنه حدثه عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ رجلينِ ممن دخلَ النارَ اشتدَ صياحُهما، فقالَ الربُّ عزَّ وجلَّ: أخرجُوهما، فلما خرَجا، قال لهما: لأيِّ شيءٍ اشتدَّ صياحُكما، قالا: فعلنا ذلك لترحَمنا، قال: رحمتي لكُما أن تنطلقَا فتلقيا أنفسكُما حيث كنتُما من النارِ، قال: فينطلقانِ فيلقي أحدُهُما نفسَه، فيقولُ له الربُّ عزَّ وجلَّ: ما منعك أن تلقيَ نفسَكَ كما ألقى صاحبُك؟ قال: إني لأرجُو أن لا تعيدَني فيها بعدَما أخرجتني، فيقولُ له الربُّ عزَّ وجلَّ: لك رجاؤك، فيدخلاَ جميعًا الجنةَ برحمة اللَّه عزَّ وجلَّ»، قال الترمذيُّ: إسنادُ هذا الحديثُ ضعيفٌ.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»(٢) عن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «يخرجُ من النارِ أربعةٌ فيعرضونَ على اللَّهِ عزَّ وجلَّ، فيلتفتُ أحدُهُم فيقولُ: أي ربِّ إذْ أخرجتني منها فلا تعدني فيها، قال: فينجيه منْهَا».

---

(١) الترمذي (٢٥٩٩).

(٢) مسلم (١/ ١٢٣).

وخرَّجه ابنُ حبانَ في «صحيحِهِ»[(١)] وعندَهُ: «فيلتفتُ فيقولُ: يا ربِّ ما كانَ هذا رجائي فيكَ، فيقولُ: ما كان رجاؤك؟ قال: كانَ رجائي إذ أخرجتني منها أن لا تعيدني فيها، فيرحمهُ اللَّهُ فيدخلهُ الجنةَ».

وخرَّج الإمامُ أحمدُ[(٢)] من روايةِ عليٍّ بنِ زيدِ بنِ جدعانَ عن ابنِ المسيبِ عن أبي سعيدٍ وأبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إن آخرَ رجلينِ يخرجانِ من النارِ فيقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لأحدِهما: يا ابنَ آدمَ ماذا أعددتَ لهذا اليومِ؟ هل عملتَ خيرًا قط؟ هل رجوتني؟ فيقولُ: لا، أي ربِّ، فيؤمرُ به إلى النارِ، فهو أشدُّ أهلِ النار حسرةً، ويقولُ للآخرِ: ماذا أعددتَ لهذا اليومِ؟ هل عملتَ خيرًا قط أو رجوتني؟ فيقولُ: لا، أي ربِّ، إلا أني كنت أُرجوك، قال: فيرفعُ له شجرةً»، وذكر الحديثَ في دخولِهِ الجنةِ وما يُعطَى فيها.

وخرَّج هناد بنُ السريِّ من طريقِ أبي هارونَ العبديِّ وفيه ضعفٌ شديدٌ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ: «أن رجالاً يدخلُهُم اللَّهُ النارَ فيحرقُهُم بها حتى يكونُوا فحمًا أسودَ، وهم أعلَى أهلِ النارِ، فيجأرونَ إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ يدعونَهُ، فيقولونَ: ربنا أخرجْنَا منها، فاجعلْنا في أصلِ هذا الجدارِ، فإذا جعلَهُم في أصلِ الجدارِ رأوا أنه لا يُغني عنهم شيئًا، قالُوا: ربَّنا اجعلْنا من وراءِ هذا السورِ، لا نسألُكَ شيئًا بعدَهُ، فيرفع لهم شجرةً حتى تذهب عنهم سخنةُ النارِ ـ أو: شحنة النارِ» وذكر الحديث[(٣)].

* * *

(١) ابن حبان (٢/ ح ٦٣٢).
(٢) أحمد (٣/ ٧٤).
(٣) «التخويف من النار» (١٦٦ ـ ١٦٩).

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾

قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

روى إسماعيلُ بنُ أبي خالدٍ عن قيسِ بنِ أبي حازمٍ قالَ: بكَى عبدُ اللَّهِ بنُ رواحةَ فبكتِ امرأتُهُ، فقالَ لـها: ما يبكيك؟ قالت: رأيتُك تبكي فبكيتُ، قال: إني ذكرتُ هذه الآيةَ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] وقد علمتُ أنِّي داخلُها، فلا أدري أناجٍ منها أنا أم لا؟

وروى ابنُ المباركِ عن عبادِ المقبريِّ، عن بكرٍ المزنيِّ، قالَ: لما نزلتْ هذه الآيةُ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] ذهبَ ابنُ رواحةَ إلى بيتِهِ فبكَى، وجاءتِ المرأةُ فبكتْ، وجاءتِ الخادمُ فبكتْ، ثم جاءَ أهلُ البيتِ فجعلُوا يبكونَ كلُّهم، فلما انقطعتْ عبرتُهُ قالَ: يا أهلاه ما يبكيكُم؟ قالُوا: لا ندري، ولكنَّا رأيناكَ تبكي فبكينَا، قالَ: آيةٌ نزلتْ على رسولِ اللَّهِ ﷺ، ينبئُني فيها ربِّي أني واردٌ النارَ ولم ينبئني أني صادرٌ عنها.

وقال موسى بنُ عقبةَ في «مغازيه»: زعمُوا أنَّ ابنَ رواحةَ بكى حينَ أرادَ الخروجَ إلى موتهِ، فبكَى أهلُه حينَ رأوه يبكي، فقالَ: واللَّهِ ما بكيتُ جزعًا من الموتِ ولا صبابةً لكُم، ولكنِّي بكيتُ جزعًا من قولِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] فأيقنتُ أني واردُها، فلا أدري أنجُو منها أم لا؟

وقال حفصُ بنُ حميدٍ عن شمرِ بنِ عطيّةَ: كان عمرُ بنُ الخطابِ ﷺ إذا قرأ هذه الآيةَ يبكِي، ويقولُ: ربِّ أنا ممن تُنجي أم من تذرُ فيها جثيًّا.

ورَوى أبو إسحاقَ عن أبي مـيسرةَ: أنه كان إذا أوى إلى فـراشِه، قالَ: يا ليتَ أمي لم تلدْني، فقـالتْ له امرأتُهُ: يا أبا ميسرةَ إنَّ الـلَّهَ قد أحسنَ إليكَ هداكَ للإسـلامِ، قـالَ: أجل، إنَّ اللَّهَ يبـيِّنُ لنا أنَّـا واردُو النار ولم يبـيِّنْ أنَّا صادرونَ منها.

ورويِنا من طريقِ سـفـيانَ بنِ حـسينٍ عن الحـسنِ، قال: كـان أصحـابُ رسولِ اللَّهِ ﷺ إذا التـقواْ يقـولُ الرجلُ منهم لصـاحبِـهِ: هل أتاكَ أنَّكَ واردٌ النارَ؟ فيقولُ: نعم، فيقولُ: هل أتاكَ أنَّك خـارجٌ منها؟ فيقولُ: لا، فيقولُ: ففيم الضحكُ إذًا؟

وقالَ ابنُ عيينةَ عن رجلٍ عن الحـسنِ، قالَ رجلٌ لأخيه: يا أخي هل أتاكَ أنَّكَ واردٌ النارَ؟ قال: نعم، قال: هل أتاكَ أنَّك خارجٌ منها؟ قالَ: لا ، قالَ: ففيم الضحكُ إذًا؟ قالَ: فما رُئي ضاحكًا حتى ماتَ.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدثنا هاشمُ بنُ القاسمِ، حدثنا المباركُ بنُ فضالةَ، عن الحسنِ في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١] قال: قالَ رجلٌ لأخِـيه: فـقدْ جـاءكَ عن اللَّه أنَّك واردٌ جـهنم؟ قـال: نعم، قالَ: فـأيقنتَ بالورودِ؟ قال: نـعم، قال: فأيقنـتَ وصدَّقتَ بذلكَ؟ قال: نـعم، وكيفَ لا أصدِّقُ وقد قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ [مريم:٧١] قال: فأيقنتَ أنك صادرٌ عنها؟، قالَ: واللَّهِ ما أدري أأصدُرُ عنها أم لا؟ قالَ: ففيم التثاقُل؟، وفيم الضحكُ؟، وفيمَ اللعبُ؟

قال أحمدُ: وحدثنا خلفُ بنُ الوليدِ، حدثنا المباركُ، قال: سمعتُ الحسنَ يقولُ: لا ـ واللَّهِ ـ إنْ أصبحَ فيهـا مؤمنٌ إلا حزينًا، وكيف لا يحزنُ المؤمنُ،

وقد جاءَهُ عن اللَّهِ أنه واردٌ جهنمَ ولم يأتِهِ أنه صادرٌ عنها.

قال أحمدُ: وأنبأنا حسينُ بنُ محمدٍ، حدثنا ابنُ عياشٍ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ دينارٍ أنَّ لقمانَ، قال لابنِهِ: يا بنيَّ كيف يأمنُ النارَ من هُو واردُها؟

وقد اختلفَ الصحابةُ ومن بعدهم في تفسيرِ الورودِ، فقالتْ طائفةٌ: الورودُ هو المرورُ على الصراطِ، وهذا قولُ ابنِ مسعودٍ، وجابرٍ، والحسنِ، وقتادةَ، وعبدِ الرحمنِ بنِ زيدِ بنِ أسلمَ، والكلبيِّ، وغيرِهم.

وروى إسرائيلُ عن السديِّ: قالَ: سألتُ مرةَ الهمداني عن قولِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١] فحدَّثني عن ابنِ مسعودٍ أنه حدثهم، قال: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«يردُ الناسُ النارَ ثم يصدرونَ عنها بأعمالهم، فأولُهم كلمحِ البرق، ثم كالريحِ، ثم كحضرِ الفرسِ، ثم كالراكبِ في رحلِهِ ثم كَسَيْرِ الرجلِ ثم كمشيه»** خرَّجه الترمذيُّ، وقال: حديثٌ حسنٌ، وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ أوَّلَهُ، وخرَّجه الحاكمُ وقال: صحيحٌ، ورواه شعبةُ عن السديِّ عن مرَّةَ عن عبدِ اللَّهِ موقوفًا ولم يرفعْهُ شعبةُ، مع أنه قرأ بأنَّ السديَّ حدثه به مرفوعًا، قال الدارقطنيُّ: يحتملُ أن يكونَ مرفوعًا.

قلتُ: ورواه أسباطٌ عن السديِّ عن مرَّةَ الهمدانيِّ عن عبدِ اللَّهِ موقوفًا أيضًا، فقالَ: «يردُ الناسُ الصراطَ جميعًا، وورودُهُم: قيامُهُم حولَ النارِ، ثم يصدرونَ عن الصراطِ بأعمالهم، فمنهُم من يمرُّ كالبرقِ» فذكرَ الحديثَ بطولِهِ، وفي آخرِهِ: **«حتى إن آخرَهُم مرًّا: رجلٌ نورُهُ على إبهامي قدميه، يتكفأ به الصراطُ دحضٌ مزلةٌ، عليه حسكٌ كحسكِ القتادِ، حافَّتَاه ملائكةٌ معهم كلاليبُ من نارٍ يختطفونَ بها الناسَ»** وذكر بقية الحديثِ، خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ.

ورواه الحكمُ بنُ ظهيرٍ عن السديِّ عن مرَّةَ عن عبدِ اللَّهِ فرفعَ آخرَ الحديثِ، ولفظُ حديثِه: قالَ عبدُ اللَّهِ: الورودُ ليسَ بالدخولِ فيها ولكنَّه حضورُها والوقوفُ عليها، مثلُ الدابةِ تردُ الماءَ ولا تدخلُهُ، ثم قالَ عبدُ اللَّهِ: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«يضعُ اللَّهُ الصراطَ على جهنَّم فيجوزُ العبادُ عليه»** وذكرَ الحديثَ بطولِه، وفي آخرِه: **«ولو قيلَ لأهلِ النار: إنَّكم ماكثونَ في النارِ عددَ كلِّ حصاةٍ في الدنيا سنةً لرجُوا، وقالُوا: إنَّا لابُدَّ مخرجونَ، ولو قيلَ لأهلِ الجنة: إنَّكم ماكثونَ في الجنةِ عددَ كلِّ حصاةٍ في الدنيا سنةً حزنُوا، وقالُوا: إنَّا لابُدَّ مخرجونَ، ولكنَّ اللَّهَ جعلَ لهما الأبدَ ولم يجعلْ لهما الأمدَ»**، و«الحكمُ بنُ ظهيرٍ» ضعيفٌ.

ولعل هذا الكلام في آخرِ الحديث موقوفٌ على ابن مسعودٍ، فإنه رُوي عنه موقوفًا من وجهٍ آخرَ بإسنادٍ جيدٍ، قال أبو الحسنِ بنُ البراءِ العبديُّ في كتابِ «الروضةِ» له: حدثنا أحمدُ بنُ خالدٍ ـ هو: الخلالُ ـ، حدثنا عثمانُ بنُ عمرَ، حدثنا إسرائيلُ، عن أبي إسحاقَ عن عمرِو بنِ ميمون، عن عبدِ اللَّهِ قالَ: لو أنَّ أهلَ جهنمَ وعدُوا يومًا من أبدٍ أو عددِ أيامِ الدنيا لفرِحُوا بذلكَ اليومِ، لأنَّ كلَّ ما هُو آتٍ قريبٌ.

وقد رُويَ أولُ الحديثِ من طريقِ أبي إسحاقَ موقوفًا أيضًا، لكنْ بمخالفةٍ في الإسنادِ، فروى عمرُو بنُ طلحةَ القتادُ عن إسرائيلَ عن أبي إسحاقَ عن أبي الأحوصِ عن عبدِ اللَّهِ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] قال: الصراطُ على جهنَّم مثلُ حدِّ السيفِ، فتمر الطائفةُ الأولى كالبرقِ، والثانيةُ كالريحِ، والثالثةُ كأجودِ الخيلِ، والرابعةُ كأجودِ الإبلِ والبهائم، ثم يمرُّونَ والملائكةُ يقولونَ: ربِّ سلِّم سلِّم. خرَّجه الحاكمُ وقالَ: صحيحٌ على شرط الشيخينِ، وكذا خرَّجه آدمُ بنُ أبي إياسٍ في «تفسيرِه» عن إسرائيلَ.

وخرَّج مسلمٌ في «صحيحه»[١] من حديثِ روحِ بنِ عبادةَ، أنبأنا ابنُ جريجٍ، أخبرني أبو الزبير أنه سمعَ جابرَ بنَ عبدِ اللَّهِ يُسألُ عن الورودِ، فقالَ: نحنُ يومَ القيامةِ على كذا وكذا، انظرْ أي ذلك فوقَ الناسِ، قالَ: فتُدْعى الأممُ بأوثانِها وما كانتْ تعبدُ: الأولُ فالأولُ، ثم يأتينا ربُّنا بعد ذلك، فيقولُ: من تنتظرونَ؟ فنقولُ: ننتظرُ ربَّنا، فيقولُ: أنا ربُّكم، فيقولونَ: حتى ننظرَ إليكَ، فيتجلَّى لهُم ويضحكُ، فينطلقُ بهم فيتبعونَه، ويُعطى كلُّ إنسانٍ منهم مؤمنٌ أو منافقٌ نورَهُ، ثم يتبعونَهُ وعلى جسرِ جهنَّم كلاليبُ وحسكٌ تأخذُ من شاء اللَّهُ، ثم يطفأ نورُ المنافقينَ ثم ينجُو المؤمنون، فينجُو أول زمرة وجوهُهم كالقمرِ» وذكر بقيةَ الحديثِ، كذا أخرجه مسلمٌ عن عبدِ اللَّهِ بنِ سعيدٍ - وهو الأشجُّ - وإسحاقَ بنِ منصورٍ، وكلاهما عن روحٍ به.

وخرَّجه الإمامُ أحمدُ[٢] عن روحٍ به وزادَ فيه بعدَ قولِه: «فيتجلَّى لهم يضحك» قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ قالَ: «**فينطلقُ بهم فيتبعونَهُ**» وساق الحديثَ فجعله من هذا الموضع مرفوعًا، وما قبلَهُ موقوفًا.

وقد روى محمدُ بنُ شرحبيلَ الصنعانيُّ عن ابنِ جريجٍ هذا الحديثَ، فرفعَ أوَّله أيضًا وهو ذكرُ التجلِّي والضحكِ، ورواه عبدُ الرزاقِ عن رباح بنِ زيدٍ عن ابنِ جريجٍ عن زيادِ بنِ سعدٍ عن أبي الزبيرِ، عن جابرٍ عن النبيِّ ﷺ، فذكر التجلِّي، وروى عنه الحديثَ كلَّه أيضًا بهذا الإسنادِ؛ هذا يدلُّ على أنَّ أولَ الحديثِ لم يكنْ عند ابنِ جريجٍ عن أبي الزبيرِ مرفوعًا، وإنْ كانَ عنده كلُّه مرفوعًا عن زيادِ بنِ سعدٍ عن أبي الزبير، وكذلكَ رواه أبو قرةَ عن مالكٍ

(١) مسلم (١/ ١٢٢).

(٢) «المسند» (٣/ ٣٨٣).

عن زيادِ بنِ سعدٍ عن أبي الزبـيرِ، عن جابرٍ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**إذا كانَ يومُ القيامـةِ جُمعتِ الأممُ**» فذكره كلَّه مرفوعًـا، وكذلك رواه ابنُ لهيعة عن أبي الزبيرِ، قال: سمعتُ جابرًا يُسألُ عن الورودِ، فقالَ: سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقولُ: «**نحنُ يومَ القيامة على كومٍ**» وذكرَ الحديثَ كلَّه مرفوعًا، وفي حديثِه زيادةٌ بعدَ قولِه: «**ويعطَى كلُّ إنسانٍ منـهم ـ منافقٌ أو مؤمنٌ ـ نورًا أو يغشَـاه ظلمةٌ**»، وقولُهُ في هذه الروايةِ: «**ونحن يومَ القيامةِ على كومٍ**» هذه الروايةُ الصحيحةُ.

وأمَّـا ما وردَ فـي روايةِ روحٍ عن ابنِ جريـجٍ عن كذا وكـذا، فـإن أصلَهُ تصحيفٌ من الراوي للفظةِ «كومٍ»، فكتبَ عليه كذا وكذا لإشكالِ فهمه عليه، ثم كتبَ: انظر، أي: ذلكَ يأمرُ الناظرُ فيـه بالتروي والفكرِ في صحة لفظِه، فأدخلَ ذلكَ كلَّه في الروايةِ قـديمًا، ولم يقعْ ذلكَ في نسخِ «صحـيحِ مسلمٍ» كما يظنُّـه بعضُهم، فإن الحديثَ فـي «مسندِ الإمامِ أحمدَ»، و«كـتابِ السنة» لابنه عبـدِ اللَّهِ كذلكَ، وخـرَّجه الطبـرانيُّ في «كتـابِ السنةِ» من طريقِ أبي عاصمٍ عن ابنِ جـريجٍ، أخبرَني أبو الزبـير أنه سمعَ جـابرًا يُسألُ عن الورودِ فقالَ: «نحنُ يومَ القيامةِ على كـومٍ فوقَ الناسِ، فتدعى الأمم بأوثانِها» وذكرَ الحديثَ إلى قولِه: «**فيتجلَّى لهم يضحك**» قالَ: فسمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقولُ: «**حتى يبـدوُ كذا وكذا، فينطـلقُ بهم فيتبـعونَهُ**» وذكرَ الحديثَ بتمـامِه، وفي سياقِه أيضًا: «**وتغشى المنافقينَ ظلمةٌ**»، فظهرَ بهذه الروايةِ أن الشكَّ والتصحيفَ إنما جاء من جهـةِ روحِ بنِ عبـادةٍ، ولعله وقع في كتـابِهِ كذلكَ فـحدَّث به كـما في كتابِهِ، واللَّهُ أعلمُ، لكنْ قد رواهُ محمدُ بنُ يحيى المازنيُّ عن ابنِ جريجٍ، كما رواهُ عنه روحٌ.

خرَّجه من طريقِهِ الخلالُ.

ومما يستدلُّ به على أنَّ الورودَ ليسَ هو الدخولُ: ما خرَّجه مسلم[١] من حديثِ أبي الزبير عن جابرٍ، قال: أخبرتْني أمُّ بشرٍ[٢] أنها سمعتِ النبيَّ ﷺ يقولُ عند حفصةَ: «**لا يدخلُ النارَ - إن شاءَ اللَّهُ - من أصحابِ الشجرة أحدٌ من الذينَ بايعوا تحتَها**» قالتْ: بلى يا رسولَ اللَّه، فانتهرها، فقالتْ حفصةُ: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا**﴾ [مريم:٧١]. فقال النبيُّ ﷺ: «**قد قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾** [مريم:٧٢].

ورواه الأعمشُ عن أبي سفيانَ، عن جابرٍ، عن أمِّ بشرٍ بنحوه[٣]، وفي بعضِ رواياتِ الأعمشِ فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**يرِدُونَها، ثم يصدرونَ عنها بالأعمالِ**».

وقالتْ طائفةٌ: الورودُ هو الدخولُ، وهذا هو المعروفُ عن ابنِ عباسٍ، ورويَ عنه من غيرِ وجهٍ، وكان يستدلُّ لذلك بقولِ اللَّه تعالى في فرعون: ﴿**يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ**﴾ [هود:٩٨]. وبقولِه: ﴿**وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا**﴾ [مريم:٧٢]. وكذلك قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا**﴾ [الأنبياء:٩٩]، وقد سبق عن عبدِ اللَّهِ بنِ رواحةَ نحو هذا إلا أنَّ الرواية عنه منقطعةٌ.

وروى مسلمٌ الأعورُ عن مجاهدٍ: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا**﴾ [مريم:٧١] قال: داخلُها.

وسئل كعبٌ عن الورودِ المذكورِ في الآيةِ، فقالَ: تمسكُ النارُ عن الناسِ

---

(١) مسلم (٧/ ١٦٩).

(٢) في المطبوع: «أم بشر» وهو خطأ، والتصحيح «أم مبشر» كما في «مسلم».

(٣) أحمد (٦/ ٣٦٢).

كأنهـا متن إهالةٍ، حتى تسوى عليـها أقدام الخلق كلِّهم برِّهم وفـاجرِهم، ثم يقولُ لها الربُّ عـزَّ وجلَّ: خذي أصحابَك ودعي أصحابِي، فـتخسفُ بكلِّ وليٍّ لها، وينجي اللَّهُ المؤمنينَ نديةً ثيابُهم.

قـال كعبٌ: ألم ترَ إلى القـدرِ الكثيرةِ الودك إذا بـردتْ استـوت بيضـاء كالشحمِ، فإذا أوقدتِ النارُ تحتها انخسف الودكُ في القدرِ من هاهنا وهاهنا، وفي روايةٍ عنه قال: فهي أعرفُ بهم من الوالدِ بولدِه.

وقال ثورُ بنُ يزيدَ عن خالدِ بنِ مـعدانَ: إذا دخلَ أهلُ الجنةِ الجنةَ، قالُوا: ألم يعدْنَا ربُّنا أنا نرد النار؟ قال: بلى، ولكن مررتُم عليها وهي خامدةٌ، وفي روايةٍ عنه، قالَ: إذا جازَ المؤمنونَ الصراطَ نادَى بعضُهم بعضًا: ألم يعدْنا ربُّنا أنا نمرُّ على جسرِ جهنَّم؟ فيقولونَ: بلى، ولكنْ مررتُم عليها وهي خامدةٌ.

وقال مـسكينٌ: سمـعتُ أشعثَ الحداني يقـولُ: بلغني أن أهلَ الإيمانِ إذا مرُّوا بصراطِ جهنمَ، قالَ: تقـولُ لهم جهنمُ: جوزُوا عنِّي قد بردتُم وهجِي، ذرُوني وأهلي. ولكن هـذا والذي قبـلَهُ قد يـدلانِ على أنَّ الورودَ هو المرورُ على الصراطِ كالقولِ الأولِ.

وروى كثـيرُ بنُ زيادٍ البرساني عن أبي سُـميةَ، قـالَ: اختلفنا في الورودِ، فقالَ بعـضُنا: لا يدخلُها مؤمنٌ، وقال بعـضُهم: يدخلُونها جمـيعًا ثم ينجي اللَّهُ الذين اتَّقوا، فلقـيتُ جابرَ بنَ عبدِ اللَّهِ، فـقلتُ: إنا اختلفْنَا في الورودِ، فقـالَ: يردونها جميـعًا ، وقال سليمُ بنُ مـرةَ: يدخلونَها، وقالَ: سـمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «**لا يبـقَى برٌّ ولا فاجـرٌ إلا دخلَها، فـتكونُ على المؤمنينَ بردًا وسلامًـا كما كانتْ على إبراهيم، حـتَّى إنَّ للنارِ ضجيـجًا من بردِهم ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ**

اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾» [مريم:٧٢] . خرَّجه الإمامُ أحمدُ[١]، و«أبو سمية» لا ندري من هُوَ.

وفي «الصحيحين[٢] عن أبي هريرةَ ﵁، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**لا يموتُ لأحدٍ من المسلمينَ ثلاثةٌ من الولدِ فتمسهُ النارُ إلا تحلَّةَ القسمِ**»، وقد فسر عبد الرزاقِ وغيرُه تحلّةَ القسم بالورودِ لقولِهِ: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا**﴾ [مريم:٧١] وظاهرُ هذا يقتضي أن الورودَ هو مسُّ النارِ. وفي روايةٍ[٣]: «**فيلجُ النارَ إلا تحلَّةَ القسمِ**» فجعله مستثنى مِنْ وُلُوجِهَا.

وروى عبدُ الملكِ بنُ عميرٍ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ بشيرٍ الأنصاريِّ، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**من ماتَ لـه ثلاثةُ أولادٍ لم يبلُغُوا الحنثَ لم يردِ النارَ إلا عابرَ سبيلٍ**».

وخرَّج الإمامُ أحمدُ[٤] من حديثِ ابن لهيعةَ، ورشدينَ بنِ سعدٍ، كلاهُما عن زاذانَ بنِ نائلٍ، عن سهلِ بنِ معاذ بنِ أنس، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**من حرسَ من وراءِ المسلمينَ في سبيلِ اللَّهِ متطوِّعًا لا يأخذُهُ سلطانٌ لم يرد إلا تحلَّةَ القسمِ، فإنَّ اللَّه تعالى يقولُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا﴾**» [مريم:٧١] إسنادُهُ ضعيفٌ.

وخرَّج الطبرانيُّ[٥] من حديثِ الواقديِّ، حدثنا شعيبُ بنُ طلحةَ بنِ عبدِ اللَّه بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ أبي بكرٍ، حدثنا أبي، عن أبيه، عن جدِّه، عن أبي بكرٍ الصديقِ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**إنَّما حرُّ جهنمَ على أمَّتي كحرِ الحمامِ**»، الواقديُّ متروكٌ.

---

(١) أحمد (٣/ ٣٢٩).
(٢) البخاري (٨/ ١٦٧)، ومسلم (٨/ ٣٩).
(٣) البخاري (٢/ ٩٣).
(٤) أحمد (٣/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨).
(٥) الطبراني في «الأوسط» (٦/ ح٦٦٠٣).

وروى منصورُ بنُ عمارٍ، عن بشيرِ بنِ طلحةَ، عن خالدِ بنِ دُرَيْكٍ، عن يعْلَى بنِ مُنْيةَ، عن النبيِّ ﷺ: «**تقولُ جهنمُ للمؤمن: جز يا مؤمنُ؛ فقد أطفأ نورُك لهبي**» غريبٌ وفيه نكارةٌ.

وقد فسر بعضُهم الورودَ بالحُمَّى في الدنيا، روى مجاهدٌ وعثمان بنُ الأسودِ وفيه حديثٌ مرفوع: «**الحُمَّى حظ المؤمن من النار**» وإسنادُهُ ضعيفٌ.

وقالت طائفةٌ: الورودُ: ليس عامًّا وإنما هو خاصٌّ بالمحضرين حول جهنمَ المذكورين في قولِه تعالى: ﴿**فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا**﴾ إلى قولِه: ﴿**وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا**﴾ [مريم:٦٨-٧١]: كأنَّه يقالُ لهؤلاءِ الموصوفينَ: وإن منكم إلا واردُها، رُوِي هذا التأويلُ عن زيدِ بنِ أسلمَ، وهو بعيدٌ جدًا.

وقد أخبر النبيُّ ﷺ: أنَّ العبدَ إذا وقفَ بينَ يدي ربِّه للحسابِ فإنه تستقبلُه النارُ تلقاءَ وجهِه، وأخبرَ أنَّ الصدقةَ تقي صاحبَها من النارِ.

ففي «الصحيحين»(١) عن عدي بن حاتمٍ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**ما منكُم من أحد إلا سيكلمُهُ ربُّه ليسَ بينه وبينه تُرْجمانُ، فينظرُ أيمنَ منْهُ فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظرُ أشأمَ منهُ فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظرُ بين يديهِ فلا يَرى إلا النارَ تلقاءَ وجهِه، فاتَّقوا النارَ ولو بشقِّ تمرةٍ**».

وفي «صحيح مسلمٍ»(٢) عنه عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**من استطاعَ منكم أن يستترَ من النارِ ولو بشقِّ تمرةٍ فليفعلْ**».

---

(١) البخاري (٨/ ١٣٩)، (٩/ ١٦٢)، (٩/ ١٨١)، ومسلم (٣/ ٨٦).
(٢) مسلم (٣/ ٨٦).

وفي «صحيح البخاريِّ»[(١)] عنه، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «ليقفنَّ أحدُكم بين يدي اللَّه عزَّ وجلَّ ليسَ بينه وبينه حجابٌ ولا ترجمانُ يترجمُ له، ثم ليقولنَّ لهُ: ألم أوتكَ مالاً؟ فليقولنَّ: بلى، ثم ليقولنَّ: ألم أرسلْ إليك رسولاً؟ فليقولنَّ: بلى، فينظرُ عن يمينه فلا يرى إلا النارَ، ثم ينظرُ عن شماله فلا يَرى إلا النارَ، فليتقينَّ أحدُكُم النارَ ولو بشقِّ تمرةٍ، فإن لم يجدْ فبكلمةٍ طيبةٍ».

وفي حديث عبدِ الرحمنِ بن سمرةَ عن النبيِّ ﷺ أنه خرج يومًا فقال: «رأيت الليلةَ عجبًا» فذكرَ حديثًا طويلاً، وفيه: «رأيتُ رجلاً من أمَّتي يتقي وهجَ النارَ وشررَهَا بيديهِ من وجهِهِ، فجاءتْهُ صدقتُهُ فصارتْ سترًا على رأسه وظلاً على وجههِ»[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾

ومن اشتغلَ بتربيةِ منزلتِهِ عند اللَّه تعالى بما ذكرنا من العلمِ الباطن وصلَ إلى اللَّهِ فاشتغلَ به عمَّا سواه، وكان له في ذلك شُغُلٌ عن طلبِ المنزلةِ عندَ الخلقِ، ومع هذا فإنَّ اللَّه يُعطيه المنزلةَ في قُلوبِ الخلقِ والشرفَ عندَهم، وإن كان لا يريدُ ذلك ولا يقفُ معه؛ بل يهرَبُ منه أشدَّ الهربِ ويفرُّ أشدَّ الفرارِ خشية أن يقطعه الخلقُ عن الحقِّ ـ جلَّ جلالُهُ.

قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦].

---

(١) البخاري (٢/ ١٣٥)، (٤/ ٢٤٠).

(٢) «التخويف من النار» (١٩٥ ـ ٢٠٤).

أي: في قلوب عِبادِه.

وفي حديثٍ: «إنَّ اللَّه إذا أحبَّ عبدًا نادَى: يا جِبْريلُ، إني أحبُّ فُلانًا فيُحبُّه جبريلُ، ثم يحبه أهلُ السماءِ، ثم يوضَعُ له القبُولُ في الأرض».

والحديثُ معروفٌ، وهو مُخرَّجٌ في «الصحيح»[١].

وبكلِّ حالٍ، فطلبُ شرفِ الآخرةِ يحصلُ معه شرفُ الدنيا وإن لم يرده صاحبه ولم يطلبْهُ، وطلبُ شرفِ الدنيا لا يجامع شرف الآخرةِ ولا يجتمعُ معه، والسعيدُ من آثَرَ الباقي على الفاني، كما في حديثِ أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ أنه قالَ: «من أحبَّ دنياه أضرَّ بآخِرَتِهِ، ومن أحبَّ آخرتَهُ أضرَّ بدنياه، فآثِرُوا ما يبْقَى على ما يفْنَى».

خرَّجه الإمامُ أحمدُ[٢] وغيرُه.

وما أحسنَ ما قال الشيخ أبو الفتح البُسْتِيُّ:

أمْرَانِ مُفْتَرِقَانِ لسْتَ تراهُما ... يتشوَّقانِ لخُلْطَةٍ وتلاقِي

طلبُ المعَادِ مع الرِّيَاسةِ والعُلَى ... فدَعِ الذي يفْنَى لما هو باقِي[٣]

* * *

(١) البخاري (٩/ ١٧٣ ـ ١٧٤)، ومسلم (٨/ ٤٠ ـ ٤١) من حديث أبي هريرة.

(٢) أحمد (٤/ ٤١٢)، وكذلك رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٣٠٨)، والبيهقي (٣/ ٣٧).

(٣) «شرح حديث ما ذئبان جائعان» (٥٥ ـ ٥٦).

سُورَةُ طَهَ

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾

[قال البخاريُّ ـ رحمه اللَّه ـ][1] :

ثنا أبو نعيمٍ وموسى بنُ إسماعيلَ، قالا: ثنا همَّامٌ، عن قتادةَ، عن أنسِ ابنِ مالكٍ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**من نسِي صلاةً فلْيُصلِّ إذا ذكَرَ، لا كفَّارة لها إلا ذلك، ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾** [طه:١٤]».

قال موسى: قال همَّامٌ: سمعتُه يقولُ بعْدُ: « ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي**﴾ [طه:١٤]».

وقال حبَّانُ: ثنا همَّامٌ: ثنا قتادةُ: ثنا أنسٌ، عن النبيِّ ﷺ ـ نحوه.

هذا الحديثُ قد رواه جماعةٌ عن همَّامٍ، وجماعةٌ عن قتادة.

وقد خرَّجه مسلمٌ من طريقِ همَّامٍ وأبي عوانة وسعيدٍ والمثنى. كلّهم عن قتادةَ، عن أنسٍ، وليسَ في روايةِ أحدٍ منهم: التصريحُ بقولِ قتادةَ: «ثنا أنس»، كما ذكر البخاريُّ أنَّ حبَّانًا رواه عن همَّامٍ.

وإنَّما احتاج إلى ذلك، لما عُرِفَ من تدليس قتادة.

ولفظُ روايةِ سعيدٍ، عن قتادةَ التي خرَّجها مسلمٌ: «**من نسي صلاةً أو نامَ عنها فكفَّارتُها أن يُصلِّيها إذا ذكَرَها**».

---

(١) البخاري (١/ ١٥٤ ـ ١٥٥)، ومسلم (٢/ ١٤٢).

ولفظُ حديثِ المثنى، عن قتادةَ، عنده: «**إذا رقدَ أحدُكُم عن الصلاةِ أو نامَ عنها، فكفَّارتُها: أن يُصلِّيها إذا ذكَرَها**».

وقد دلَّ الحديثُ على وجوبِ القضاءِ على النائمِ إذا استيقظَ، والناسي إذا ذكر، وقد حكى الإجماعَ على ذلك غيرُ واحدٍ.

وذكَرَ ابنُ عبدِ البرِّ: أنَّ محمدَ بنَ رُسْتُم روى عن محمدِ بنِ الحسن: أنَّ النائمَ إذا فاتَه في نوْمِهِ أكثرُ من خمْسِ صلواتٍ لا قضاء عليه، إلحاقًا للنومِ الطويلِ إذا زادَ على يومٍ وليلةٍ بالإغماء، والمُغْمَى عليه لا قضاء عليه عندَه، ويكونُ الأمرُ عندَهُ بالقضاءِ في النومِ المعتادِ، وهو ما تفوتُ فيه صلاةٌ أو صلاتانِ أو دون خمسٍ أو أكثر.

وأخذَ الجمهورُ بعمومِ الحديث.

وقولُهُ: «**فليصلِّ إذا ذَكَرَ**»: استدلَّ به من يقولُ بوجوبِ قضاءِ الصلواتِ على الفورِ، وهو قولُ أبي حنيفة ومالكٍ.

وأحمدُ يوجبه بكلِّ حالٍ، قلَّتِ الصلواتُ أو كثُرَتْ.

واستدلوا ـ أيضًا ـ : بقولِهِ: «**لا كفَّارةَ لها إذا ذلك**».

وذهبَ الشافعيُّ إلى أنَّ القضاءَ على التراخي، كقضاءِ صيامِ رمضانَ، وليس الصومُ كالصلاةِ عندَهم، فإنَّ الصيامَ لا يجوزُ تأخيرُهُ حتَّى يدخل نظيرُه من العامِ القابلِ والصلاةُ عندَهُم بخلافِ ذلكَ.

واستدلُّوا ـ أيضًا ـ : بتأخيرِ النبيِّ ﷺ الصلاةَ حتَّى خرج من الوادي.

وفيه نظرٌ؛ فإنَّ ذاك تأخيرٌ يسيرٌ لمصلحةٍ تتعلَّقُ بالصلاةِ، وهو التباعُدُ عن موضعٍ يُكْرَه الصلاةُ فيه.

وقد رُوي عن سمُرة بن جُنْدُب، فيـمَنْ عليه صلواتٌ فائتةٌ: أنَّه يُصلِّي مع كلِّ صلاةٍ صلاةً.

وقد رُوي عنه ـ مرفوعًا. خرَّجه البزارُ بإسنادٍ ضعيفٍ[1].

ولأصحـابِ الشافعيِّ فيـما إذا كان الفواتُ بغـيرِ عُذْرٍ في وُجوبِ القـضاءِ على الفورِ وجهانِ.

وحمَل الخطابيُّ قولَه: «**لا كفَّارةَ لها إلا ذلك**» على وجهْينِ:

أحدُهُما: أنَّ المعنى أنَّه لا يجـوزُ له تركُـهـا إلى بدلٍ، ولا يُكفِّـرها غـيـرُ قضائِها.

والثاني: أنَّ المعنى أنَّه لا يلْزَمُهُ في نسيانها كفَّارةٌ ولا غرامةٌ. قال: إنَّما عليه أن يُصلِّي ما فاتَهُ.

وقد رُوي عن أبي هريرة ـ مرفوعًا: «**من نسي صلاةً فوقتُها إذا ذكرَهَا**».

خرَّجه الطبرانيُّ والدارقطنيُّ والبيهقيُّ[2] من روايةِ حفْصِ بنِ أبي العطَّافِ.

واختلف عليه في إسنادِهِ إلى أبي هريرةَ.

وحفْصٌ هذا، قـال البخاريُّ وأبو حـاتم: منكرُ الحديث. وقـال يحيى بن يَحْيى: كذَّاب.

فلا يُلتفتُ إلى ما تفرَّد به.

وأمَّا تلاوتُهُ قولُهُ تعالى: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾ [طه:١٤].

---

(١) «كشف الأستار» (٣٩٧).

(٢) الطبراني في «الأوسط» (٨٨٤٠)، والدارقطني (١/ ٤٢٣)، والبيهقي (٢/ ٢١٩).

وقد رواه قتادةُ ـ مـرّةً ـ ، فقال: «**للذكرى**» [طه:١٤] ومرَّةً، قال: ﴿**لِذِكْرِي**﴾ [طه:١٤]، كما هو القراءة المتواترةُ.

وكان الزهريُّ ـ أيضًا ـ يقرؤها: «**للذكرى**» [طه:١٤].

وهذه القـراءةُ أظهرُ في الدِّلالة علـى الفورِ؟ لأنَّ المعنى: أدِّ الصـلاةَ حينَ الذِّكْرَى، والمعنى: أنَّه يصلِّي الصلاةَ إذا ذكرها.

وبذلك فسَّرها أبو العالية والشعبيُّ والنخعيُّ.

وقال مجاهد: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾ [طه:١٤]: أي تذكُرُني. قـال: فإذا صلَّى عبدٌ ذكَرَ ربَّه.

ومعنى قوله: أنَّ قولَهُ: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي**﴾ [طه:١٤]: أي: لأجلِ ذكْرِي بها.

والصلاةُ إنَّما فُرِضَتْ ليُذكر اللَّهُ بهـا، كما في حديثِ عائشةَ المرفوعِ: «**إنَّما جُعل الطوافُ بالبيتِ وبيْنَ الصَّفا والمرْوة ورمي الجمارِ لإقامةِ ذكرِ اللَّه**».

خرَّجه الترمذيُّ وأبو داود(١) .

فـأوجب اللَّهُ على خلْقهِ كلَّ يـومٍ وليلةٍ أنْ يذكُرُوه خـمس مرارٍ بالصـلاةِ المكتوبةِ، فمن تركَ شيئًا من ذكر اللَّه الواجبِ عليه سهْوًا فلْيعد إليه إذا ذكرَهَ، كما قال تعالى: ﴿**وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ**﴾ [الكهف:٢٤]، فقـد أمرَهُ إذا نسيَ ربَّه أنْ يذكُره بعد ذلك، فمنْ نسي الصلاة فـقد نسي ذكْرَ ربِّه، فإذا ذكر أنَّه نسي فلْيَعُد إلى ذِكْرِ ربِّه بعد نسيانهِ(٢) .

---

(١) الترمذي (٩٠٢)، وأبو داود (١٨٨٨).

(٢) «فتح الباري» (٣/ ٣٥٠ ـ ٣٥٣).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعت الوزير[(١)] يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥]. قال: المعنى: أنِّي قد أظهرتُها حينَ أعلمت بكونها، لكنْ قاربتُ أنْ أخفيها بتكذيب المشرِكِ بها، وغفلة المؤمنِ عنها، فالمشركُ لا يُصدِّقُ كونَها، والمؤمنُ يهملُ الاستعدادَ لها[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾

وذكر صاحب سيرة الوزير[(١)] قال: سمعته يقول في قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ ۝١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ [طه: ١٧، ١٨]. قال: في حمل العصا عظة؛ لأنها من شيء قد كان ناميًا فقطع، فكلما رآها حاملها تذكَّر الموتَ.

قال: ومن هذا قيل لابن سيرين ـ رحمه اللَّه ـ: رجل رأى في المنام أنه يضرب بطبل؟ فقال: هذه موعظة؛ لأن الطبل من خشب قد كان ناميًا فقطع، ومن أغشية كانت جلود حيوان قد ذبح. وهذا أثر الموعظة[(٣)].

* * *

قوله تعالى: ﴿هُمْ أُولَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعت الوزير[(١)] يقول: قرأ عندي قارئ،

---

(١) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

(٢) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٥٦ ـ ٢٦٦).

(٣) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٧٢).

قال: ﴿هُمْ أُوْلاءِ عَلَىٰ أَثَرِي﴾ [طه: ٨٤] فأفكرتُ في معنى اشتقاقها، فنظرتُ فإذا وضعها للتنبيه، واللَّه لا يجوزُ أن يخاطبَ بهذا، ولَم أر أحدًا خاطبَ اللَّه عز وجل بحرف التنبيه إلا الكفار، كما قال اللَّه عز وجل ﴿قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ﴾[النحل:٨٦]، ﴿رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف:٣٨] وما رأيت أحدًا من الأنبياءِ خاطبَ ربَّه بحرف التنبيه، واللَّه أعلم.

فأما قوله: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَؤُلاءِ قَوْمٌ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ [الزخرف:٨٨] فإنه قد تقدَّم الخطاب بقوله: يا رب، فبقيت «ها» للتمكين، ولما خاطب اللَّه عز وجل المنافقين، قال: ﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [النساء:١٠٩] وكرَّم المؤمنين بإسقاط «ها» فقال: ﴿هَا أَنتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ﴾ [آل عمران:١١٩] وكان التنبيه للمؤمنين أخفَّ(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾

روى حمَّادُ بنُ سلمةَ، عن محمد بنِ عمرو بنِ علقمةَ، عن أبي سلمةَ عن أبي هريرة ﷺ، عن النبيِّ ﷺ قال: «والَّذي نفسي بيدِه؛ إنه ليَسْمَعُ خفْقَ نعالكُم حين تولّون عنه، فإنْ كانَ مؤمنًا، كانت الصلاةُ عندَ رأسه، والزكاةُ عن يمينِه، والصومُ عن شمالِه، وفعلُ الخيراتِ والمعروفِ والإحسانِ إلى الناسِ من قِبَلِ رِجْلَيْه، فيؤتى من قِبل رأسه، فتقولُ الصلاةُ: ليْس من قِبَلي مدْخلٌ، ثم يؤتى عن يمينه فتقول الزكاة: ليس من قِبَلي مدخلٌ، ثم يُؤتى عن شمالِه، فيقولُ الصومُ: ليس مِنْ قبلي مدْخلٌ؛ ثم يُؤتى قبل رِجْليهِ، فيقولُ فعلُ الخيراتِ والمعروفِ والإحسانِ إلى الناسِ: ليس من قِبَلي مدخلٌ،

(١) «طبقات الحنابلة» (٣/٢٦٦).

فيـقالُ له: اجلسْ، فيـجلسُ، وقد مُثِّلَت الـشَّمسُ للغروب، فـيقولُ له: مـا تقولُ في هذا الرجلِ الذي كان بعثَ فيكم؟» ـ يعني النبيَّ ﷺ ـ «فيقولُ: أشهد أنّه رسولُ اللَّه، جاءنا بالبيِّنات من عند ربِّنا فـصدَّقْناه، واتَّبعناه، فـيقالُ له: صدقتَ، وعلى هذا حـييتَ، وعلى هذا متّ، وعليه تُبعثُ إن شـاء اللَّهُ، فيفسحُ له في قبـرِه مدَّ بصرِه، فذلكَ قولُهُ سـبحانه: ﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ﴾ الآية: [إبراهيم: ٢٧]. يقالُ: افـتحُـوا له بابًا إلى النارِ، فيُفتحُ له بابٌ إلى النارِ، فيقالُ: هذا مـنزِلُكَ لو عصيتَ اللَّهَ، فيزدادُ غبطةً وسرورًا، ويُقال: افتـحُوا له بابًا إلى الجنة، فيفْتح لـه، فيقالُ: هذا منزلُكَ وما أعـدَّ اللَّهُ لك، فيزدادُ غبطةً وسرورًا، ويـعادُ الجسدُ إلى ما بديء منه، وتجـعلُ روحُه نسَمَ طيرٍ معـلقٍ في شجرِ الجنة.

وأمَّا الكافرُ فيُؤتى في قبرِه من قِبلِ رأسـه، فلا يُوجدُ شيءٌ، فيُؤتى من قِبلِ رجليهِ فلا يُوجد شيءٌ، فيجلسُ خائفًا مرعوبًا، فـيقالُ له: ما تقولُ في هذا الرجلِ الذي كان فيكم؟ وما تشهدُ به؟ فلا يهتدِي لاسمه، فيقالُ: محمدٌ رسولُ اللَّهِ ﷺ، فيقولُ: سمعتُ الناسَ يقولونَ شيئًا، فـقلتُ كما قالُوا، فيقالُ له: صدقتَ، على هذا حـييتَ، وعليه متَّ، وعليه تبعثُ إن شاء اللَّهُ تعـالى، فيُضيَّق عليه قـبرُهُ حتى تختلفَ أضلاعُه، فـذلك قولُهُ تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه:١٢٤] فيـقال: افتـحُوا له بابًا إلى الجنة، فـيفـتحُ له بابٌ إلى الجنة، فيُـقال: هذا مـنزلُكَ وما أعـدَّ اللَّه لكَ لو كنتَ أطعتَـهُ، فيزدادُ حسرةً وثُبورًا، ثم يقالُ: افتحُوا له بابًا إلى النارِ، فيفتحُ له بابٌ إليها، فيُقالُ له: هذا منزلُكَ، وما أعدَّ اللَّه لك، فيزدادُ حسرةً وثُبورًا».

قال أبو عـمر الضريرُ: قلتُ لحـمَّادِ بنِ سلمةَ: كـان هذا من أهلِ القبلة؟ قال: نعم، قال أبو عمر: كأنَّه كان يشـهدُ بهذه الشهادة على غيرِ يقينٍ يرجعُ

إلى قلبه، كأن يسمعَ الناسَ يقولونَ شيئًا، فيقولُه. خرَّجه الطبرانيُّ[١].

وخرَّجه الخلالُ في كتابِ «السنة»، وزادَ فيه بعد قولِه: «**وقد مُثِّلت الشمسُ له قد دنتْ للغروبِ، فيقال له: هذا الرجلُ الذي كانَ فيكُم ما تقولُ فيه؟ فيقولُ: دعوني حتَّى أصلِّي، فيقولونَ: إنك ستفعلُ، أخبِرْنا عمَّا نسألك عنه**»، وذكر الحديثَ.

وخرَّجه ابنُ حبان في «صحيحِه»[٢]، من طريقِ معتمرٍ، عن محمَّدِ بنِ عمرٍو ـ به.

ورواه جماعةٌ عن محمدِ بنِ عمرٍو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرةَ ـ موقوفًا.

وقد رُوي من حديثِ أبي حازمٍ، عن أبي هريرةَ، نحوه أيضًا مع الاختلافِ في رفعِه ووقفِه.

وخرَّجه ابنُ منده، من طريقِ محمدِ بنِ جُحادةَ، عن طلحةَ بن مُصَرِّف، عن أبي حازمٍ، عن أبي هريرةَ قال: «إذا وُضِعَ المؤمنُ في قبرِه، أتاه شيطانٌ من قِبَلِ رأسِه، فيحولُ بيْنَه وبينه سجودُهُ، ثم يأتيَه من قِبَلِ يديه، فيحول بينه وبينه صدقتُه، ثم يأتيه من قِبَلِ بطنِه، فيحولُ بينه وبينه صومُه، ثم يأتيه من قبلِ رِجْليه، فيحولُ بينه وبينه قيامُه عليها في الصلاة، ثم يُفْتحُ له بابٌ من أبوابِ الجنةِ فيقول: ربي بلِّغْني منزلَتي، فيقولُ: إن لكَ إخوةٌ وأخواتٌ لم يلحَقُوا، فنَمْ قريرَ العيْنِ لا تفزعْ بعدَها».

وخرَّجه ـ أيضًا ـ من طريقِ محمدِ بن الصلْتِ، عن ابنِ عيينةَ، عن طلحةَ

---

(١) الطبراني في «الأوسط» (٣/ ٢٦٣٠)، وكذلك رواه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠).
(٢) ابن حبان (٧/ ٣١١٣).

ابنِ مُصرِّفٍ، عن أبي حازمٍ، عن أبـي هريرةَ ـ يرفعُهُ قال: «يؤتَـى الرَّجـلُ من قِبلِ رأسِه في قبرِه، فإذا أُتِيَ دفعه تلاوةُ القرآنِ، فـإذا أُتيَ من قِبلِ يديه دفعتْهُ الصدقةُ، فإذا أُتي من قِبلِ رجليـه دفعَه مشيُـه إلى المساجد»، فذكره نحـوه، كذا في هذه الرواية السابقة، إنَّ الذي يأتيه في قبرِه شيطانٌ.

وفي حديثِ الأعمشِ، عن المنهـالِ، عن زاذان، قال: قلتُ للبراءِ: أملَكٌ هو أم شيطانٌ؟ قـال: فغضب غـضبًا شـديدًا، ثم قال: نحن كنَّا أشدَّ هيـبةً لرسول اللَّه ﷺ أن نسأله أملكٌ هو أم شيطانٌ، إنما نحدِّثكم ما سمعْنَا.

وخرَّج الإمـامُ أحمـدُ(١)، من حديثِ مـحمدِ بنِ المنكدرِ، قـال: كانتْ أسماءُ تحدِّثُ عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا أُدْخِلَ الإنسانُ في قبرِه فإن كانَ مؤمنًا أحفَّ به عملُهُ: الصـلاةُ والصيامُ؛ قـال: فيأتيـه الملكُ من نحوِ الصلاة فـيردُّه ومن نحوِ الصـيامِ فيردُّه، فـيناديه اجلسْ، فيجلسُ، فيقـولُ: ما تقولُ في هذا الرجل؟ـ يعني الـنبي ﷺ؟ «قال: منْ؟ قـال: محـمدٌ ﷺ. قال: أشـهدُ أنه رسـول اللَّهُ ﷺ قـال: يقولُ له: ومـا يدريك، أدركتَهُ؟ قال: يقول: إنَّه رسولُ اللَّه ﷺ، قال: يقولُ: على ذلـك عشتَ، وعليه متَّ، وعليه تبـعثُ. قال: إنْ كان فاجـرًا أو كافرًا قال: جـاءهُ الملَكُ ليسَ بينه وبينه شيءٌ يردُّه، فأجلسه قال: يقول: اجلسْ، ما تقولُ في هذا الرجلِ؟ قال: أي رجلٍ؟ قال: محمدٌ. قال: يقولُ: واللَّهِ مـا أدري، سمعتُ الناسَ يقولونَ شيـئًا فقلتُه، قال: فـيقولُ له الملَكُ: على ذلكَ عشتَ، وعليه متَّ، وعليه تبعثُ.

قال: يسلَّط عليه دابَّةٌ في قـبرِه، معها سوطٌ ثمـرتُهُ جمرةٌ مثل غربِ البعـيرِ، تضربُهُ ما شاء اللَّه، صمَّاءٌ لا تسمعُ صوتَهُ فترحمُه».

---

(١) «المسند» (٦/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣).

قلتُ: قولُه: «ويسلَّطُ عليه دابَّةٌ..» إلى آخره، وقد رُوي من وجهٍ آخرَ عن ابن المنكدرِ، أنه بلغه ذلكَ، فلعلَّه مُدْرَجٌ في الحديثِ.

وفي حديثِ زاذانَ، عن البراءِ بن عازبٍ، عن النبيِّ ﷺ، وقد سبق ذكرُ بعضِهُ، قال في المؤمن: «ويأتيه رجلٌ حسنُ الوجه، حسنُ الثيابِ، طيبُ الريحِ، فيقولُ: أبْشِرْ بالذي يسرُّكَ، هذا يومُك الذي كنتَ تُوعدُ. فيقولُ له: من أنت؟ فوجْهُكَ الوجهُ الذي يجيءُ بالخيرِ، فيقولُ: أنا عملُكَ الصالحُ، فيقولُ: ربِّ أقمِ الساعةَ حتَّى أرجعَ إلى أهلِي ومالِي».

وقال في حقِّ الكافرِ: «ويأتيه رجلٌ قبيحُ الوجهِ، قبيحُ الثيابِ، منتنُ الريحِ، فيقولُ: أبْشِر بالذي يسوءُك، هذا يومُك الذي كنتَ توعدُ، فيقولُ: ومن أنتَ؟ فوجُهُك الوجهُ الذي يجيءُ بالشر، فيقولُ: أنا عملُكَ الخبيثُ، فيقولُ: ربِّ لا تقمِ الساعةَ» خرَّجه الإمامُ أحمدُ وغيرُه[1].

وروى ابنُ أبي الدنيا، بإسنادِهِ عن أبي بكر بن عياشٍ، عن المقْبُريِّ، عن أبيه، عن عائشة ﵂، قالتْ: إذا خرج سريرُ المؤمنِ، نادى: أنشدكُم اللَّهَ لما أسرعتُم بي، فإذا أُدخلَ قبره حفَّه عملُه، فتجيءُ الصلاةُ فتكونُ عن يمينه، ويجيءُ الصومُ فيكون عن يسارِهِ، ويجيء عملُهُ بالمعروفِ فيكونُ عند رجليْه، فتقولُ الصلاةُ: ليس لكم قبلي مدخلٌ، كان يُصلِّي، فيأتونَ من قبل يسارِهِ، فيقولُ الصومُ: إنه كان يصومُ ويعطشُ، فلا يجدونَ موضعًا، فيأتونَهُ من رجلَيْه، فتخاصِمُ عنه أعمالُهُ فلا يجدونَ مسْلكًا.

وبإسناده عن ثابت البُنانيِّ قالَ: إذا وُضِعَ الميتُ في قبرِهِ احتوشَتْهُ أعمالُهُ

(١) «المسند» (٤/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨، ٢٩٥ ـ ٢٩٦)، وأبو داود (٤٧٥٣، ٤٧٥٤).

الصالحةُ، وجـاء ملكُ العذابِ، فيقولُ له بعضُ أعـمالِهِ: إليك عنه، فلو لم يكنْ إلا أنا لما وصلتَ إليه.

وعنه أيضًـا، قال: إذا وُضِعَ العبدُ الـصالحُ في قـبرِهِ، أُتِي بفـراشٍ من الجنةِ، وقيلَ له: نَمْ هنيئًا لك قُـرَّةَ العينِ، فرضي اللَّه عنك، قالَ: ويُفْسَحُ له في قـبرِهِ مدَّ بـصرِهِ، ويفتـحُ له بابٌ إلى الجنةِ، فينظرُ إلى حـسنِها، ويـجدُ ريحَها، وتحتوشُه أعمالُهُ الصالحةُ: الصيامُ، والصلاةُ، والبرُّ؛ فتقولُ له: نحنُ أنصبْناكَ وأظمأناك وأسهرْناك فنحنُ لك اليومُ بحيث تحبُّ، نحنُ نؤنسُكَ حتى تصيرَ إلى منزِلكَ من الجنةِ.

وبإسنادهِ عن كعبٍ، قـالَ: إذا وُضِعَ العبـدُ الصالحُ في قبـرِهِ، احتوشَـته أعمـالُهُ الصالحـةُ: الصلاةُ والصـيامُ والحجُّ والجهـادُ والصدقـةُ. قال: وتجيءُ ملائكةُ العذابِ من قـبل رجليهِ، فتقولُ الصلاةُ: إليكُم عنه فـلا سبيلَ لكُم، فقدْ أطال القيامَ لـلَّه عزَّ وجلَّ عليهما ، قال: فيأتُونَهُ من قـبلِ رأسِهِ، فيقولُ الصيـامُ: لا سبيلَ لكم عليـه، فقد أطال ظمـأه للَّه تعالى في الدنيـا؛ قال: فيأتونَهُ من قِبلِ جسدِهِ، فيقـولُ الحجُّ والجهادُ: إليكم عنه، فقد أنصبَ نفسَهُ، وأتعبَ بدنَه، وحجَّ وجـاهدَ للَّهِ ـ عـزَّ وجلَّ ـ لا سـبيلَ لكُـم عليه، قـال: فيـأتُونه من قِبلِ يديْه،فتقـولُ الصدقةُ: كُـفّوا عن صاحِبي، فكمْ من صـدقَةٍ خرَجَتْ من هاتَيْنِ اليدينِ حتَّى وقعتْ في يدِ اللَّه عـزَّ وجلَّ ابتغاءَ وجهِهِ، فلا سبيلَ لكم عليه؛ قال: فـيُقالُ له: هنيئًا طبتَ حيًّا وطبت ميِّتًـا. قال: ويأتيه ملائكةُ الرحـمةِ، فتفـرشُه فِراشًا من الجنـةِ، ودثارًا من الجنةِ، ويفسحُ له في قبرِهِ مدَّ البصرِ، ويؤتَى بقنديلٍ من الجنةِ، فـيستضِيءُ بنورِهِ إلى يومِ يبعثُهُ اللَّهُ من قبرِهِ.

وبإسنادِه عن يزيدَ الرَّقاشيِّ، قال: بلغني أنَّ الميتَ إذا وُضِعَ في قبره احتشوته أعمالُهُ، ثم أنطقَها اللَّهُ تعالى، فقالتْ: أيها العبدُ المفردُ في حفرتِه، انقطعَ عنك الأخلاءُ والأهلونَ، فلا أنيسَ لك اليومَ غيرَنا، قال: ثمَّ يبْكي ويقولُ: طوبى لمن كان أنيسُه صالِحًا، والويلُ لمن كان أنيسُه وبالاً.

وبإسنادِه عن يزيدَ الرقاشيِّ - أيضًا - أنه كانَ يقولُ في كلامِه: أيها المنفردُ في حفرتِه، المُخَلَّى في القبرِ بوحدتِه، المستأنسُ في بطنِ الأرضِ بأعمالِه، ليتَ شِعْرِي بأيِّ أعمالِك استبشرتَ، وبأيِّ إخوانِك اغتبطتَ، قال: ثمَّ يَبْكي حتى يبلَ عمامَتَهُ، ويقول: استبشر واللَّهِ بأعمالِهِ الصالحةِ، واغتبطَ واللَّه بإخوانِهِ المتعاونينَ على طاعةِ اللَّهِ.

وبإسنادِه عن الوليد بنِ عمرِو بنِ ساجٍ، قال: بلغني أن أولَ شيءٍ يجدُه الميتُ حولَهُ عندَ رجلَيْه، فيقولُ: ما أنتَ؟ فيقولُ: أنا عملُكَ.

وقد ورد في شفاعةِ القرآن لقارئِه ودفعِهِ عندَ عذابِ القبرِ خصوصًا: سورةُ تبارك[1].

وخرَّج النسائيُّ في «عمل اليومِ والليلةِ»[2] بإسنادِه عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه، قالَ: من قرأ: «تباركَ الذي بيده الملكُ» كلَّ ليلةٍ منعهُ اللَّهُ بها من عذابِ القبرِ، وكنَّا في عهد رسول اللَّه ﷺ نسمِّيها المانعةَ.

وخرَّجه خلفُ بنُ هشامٍ في كتابِ «فضائل القرآن» عن ابنِ مسعودٍ، ولفظُهُ أنه ذكرَ «تباركَ»، فقال: هي المانعةُ، تمنعُ من عذابِ القبرِ، توفِّيَ رجلٌ فأُتِي

---

(١) راجع: الترمذي (٢٨٩٠).

(٢) النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٧١٦).

من قبل رجليـه، فتقـولُ رجلاه: لا سبـيلَ لكُم على ما قِبَلي، إنه كـان يقرأ عليَّ سورةَ تبارك، ويُؤتَى من قِبلِ بطنِه، فيـقولُ بطنُه: لا سبيلَ لكُم على ما قِبلي، إنَّه كانَ أوعَى فيه سورةَ الملكِ، ويُؤتى من قِـبلِ رأسِهِ فيقولُ رأسُهُ: لا سبيلَ لكم على ما قِبلي إنه كان يقرأ سورةَ الملكِ.

وأخرجَ أبو عبـيدٍ في كتابِ «فـضائلِ القرآنِ»(١) بإسنادِهِ عن ابنِ مـسعـود رضي الله عنه، قال: إنَّ الميِّتَ إذا ماتَ أوقدتْ له نيرانٌ حولَهُ، فـتأكلُ كلُّ نارٍ ما يليها إنْ لم يكنْ له عـملٌ يحولُ بينـه وبينَها، وإنَّ رَجُـلاً ماتَ ولم يكنْ يقـرأ من القرآنِ إلا سورةً، ثلاثينَ آيةٍ، فأتته من قِبَلِ رأسِه، فقَالتْ: إنه كانَ يقرأ بي، فأتتْه من قِبلِ رجليهِ، فقالتْ: إنه يقومُ بي، فأتتْه من قبل جوفِهِ، فقالتْ: إنه كان وعائِي، قالَ: فأنجتْهُ.

قال زِرّ: فنظرتُ أنا ومـسروقٌ في المصحفِ فلم نجِـد سورةً ثلاثينَ آيةً إلا تباركَ.

وروى عـبد بُنُ حـميـدٍ في «مسندِهِ» عـن إبراهيمَ بنِ الحكمِ بنِ أبان، عن أبيـه، عن عكرمـةَ، عن ابنِ عبـاسٍ، قـال: اقرأْ تبـاركَ الَّذي بيـده الملكُ، احفظْها، وعلمْهـا أهلَك، وولدَك، وصبيانَ بيتِك، وجيرانَك، فـإنها المُنجِّية والمجادلةُ، تجادلُ أو تخاصمُ عن صاحبِـهَا عند اللَّه لقارِئِهَا، وتطلبُ أن ينجيه من عذابِ الـنارِ إذا كانت، في جـوفِهِ، وينجِّي اللَّهُ بهـا صاحـبَهـا من عذابِ النارِ.

وروى سوارُ بـنُ مصعبٍ ـ وهـو ضعيفٌ جـدا ـ، عن أبي إسحـاقَ، عن

(١) أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص ٢٦٠).

البراءِ، يرفعُه: «من قرأَ: ألم السجدةَ، وتباركَ، قبلَ النومِ، نجَا من عذابِ القبرِ، ووُقِيَ فتَّانا القبرِ».

وسنذكرُ حديثَ عبادةَ في نزولِ القرآنِ مع الميتِ في قبرِهِ فيما بعدُ ـ إن شاء اللَّه تعالى.

وروى هشامُ بنُ عمَّار، حدَّثنا عبدُ اللَّه بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ يزيدَ بنِ جابرٍ، عن أبيه، عن عطاءِ بنِ يسارٍ، قال: إذا وُضِعَ الميتُ في لحدِهِ، فأولُ شيءٍ يأتيِهِ عملُهُ، فيضربُ فخذَه الشمالَ، فيقول: أنا عملُكَ، فيقولُ: أين أهلِي، وولدِي، وعشيرتِي، وما خوَّلني اللَّهُ تعالى؟ فيقولُ: تركتَ أهلَك، وولدَك، وعشيرتَك، وما خوَّلك اللَّه وراءَ ظهرِك، فلم يدخلْ قبرَك معكَ غيرِي، فيقولُ: يا ليْتني آثرتُك على أهلِي، وولدِي وعشيرتي، وما خوَّلني اللَّه تعالى إذ لم يدخل معِي غيرُك.

قال أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ: حدثنا يحيى بنُ سليمٍ، عن ابنِ أبي نجيحٍ، عن مجاهدٍ، في قولِه تعالى: ﴿فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤] قال: في القبرِ.

قال أحمد: فحدثتُ به يحيى بن معينٍ، فقال: طوبى لمن كان له عملٌ صالحٌ، يكون وطْأَهُ في القبرِ.

ويشهدُ لهذا كلِّه ما في «الصحيحينِ»(١) عن أنسِ بنِ مالكٍ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «يتْبَعُ الميّتَ ثلاثةٌ، فيرجعُ اثنانِ ويبقَى واحدٌ، يتبعه: أهلُه ومالُهُ وعملُه، فيرجعُ أهلُهُ ومالُهُ، ويبقَى عملُهُ».

---

(١) البخاري (٨/ ١٣٤)، ومسلم (٨/ ٢١١).

وخـرَّجه البـزَّارُ والطبرانيُّ والحاكمُ[١] بسياقٍ مطـوَّلٍ، من حـديثِ أنسٍ ـ أيضًا ـ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**ما من عبدٍ إلا له ثلاثةُ أخلاء، وأمـا خليلٌ فيقول له: ما أنفقتَ فـلكَ، وما أمسكتَ فليسَ لك، فذلك مالُهُ، وأمـا خليلٌ فيـقول: أنا مـعك، فإذا أتيتَ بابَ الملكِ رجـعتُ وتركتُكَ، فـذلكَ أهلُهُ وحشَمُـه، وأمَّا خليلٌ فـيقـولُ: أنا معكَ حيثُ دخلتَ، وحيثُ خرجتَ، فذلكَ عملُهُ، فيقولُ: إن كنتَ لأهونُ الثلاثةِ عليَّ**».

وخرَّجَ البزَّارُ والحاكمُ أيضًا[٢] من حديثِ النعمـانِ بن بشيرٍ عن النبيِّ ﷺ معناه وقد اختلفَ في رفعِهِ ووقفِهِ.

وقد رُوي هذا من حديثِ عائشةَ ﵂ عن النبي ﷺ بسياقٍ مبسوطٍ، وأنَّ عبدَ الـلَّهِ بنَ كرزٍ قالَ في هذا المعنى شعـرًا، وأنشده للنبيِّ ﷺ ولكنْ إسنادُهُ ضعيفٌ جدا.

وخـرَّجَ البـزَّارُ هـذا المعنى ـ أيضًا ـ من حـديثِ أبي هريرةَ، وسمُرَةَ بن جندبٍ، عن النبيِّ ﷺ.

وخرَّجه الطبرانيُّ من حديثِ سمُرةَ عن النبيِّ ﷺ أيضًا.

وروَى إبراهيمُ بنُ بشارٍ، عن إبراهيمَ بنِ أدْهَمَ، أنه كان ينشدُ شِعرًا:

مـا أحـدٌ أكـرَمُ من مُـفْـرَدٍ ... في قـبـرِهِ أعـمـالُهُ تُؤْنِسُـه
مُنَـعَّمُ الجـسْمِ وفي رَوْضَـةٍ ... زيَّنهـا اللَّـهُ فـهِيَ مـجْلِسُـه

---

(١) الحاكم (١/ ٧٤)، والطبراني في «الأوسط» (٣/ ٢٥١٨).
وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٥٢): رواه البزار والطبراني في «الأوسط».
(٢) الحاكم (١/ ٧٤ ـ ٧٥)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٥٢): رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط»، والبزار.

وأمَّا العارفون باللَّه، المحبُّونَ له، المنقطعـونَ إليه في الدنيا، والمستأنسونَ به دونَ خلقِهِ: فإنَّ اللَّهَ بكرمِـهِ وفضلِهِ لا يخـذُلُهم في قبورِهـم، بل يتولاَّهم، ويؤنسُ وحشتَهُم فـ: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٨].

وقد جاء في بعضِ ألفـاظِ حديثِ يومِ المزيدِ: أنهم يقولونَ لربِّهم في ذلك اليومِ: أنت الذي أنستَ منا الوحشةَ في القبورِ.

وكـتبَ محـمدُ بنُ يوسفَ الأصـبهـانيُّ العـابدُ إلى أخيـه: إنّي محـذِّرُكَ متـحولَّك من دارِ مُهلتِكَ إلى دارِ إقـامتِك وجزاءَ أعمـالِك، فتصيـرُ في قرارِ باطنِ الأرضِ بعدَ ظاهرِها، فيأتيكَ منكرٌ ونكيرٌ، فيـقعدانِكَ وينتهرانِكَ، فإن يكنِ اللَّهُ معك فـلا بأسَ عليكَ، ولا وحشـةَ ولا فاقةَ، وإن يكنْ غـيرُ ذلكَ فأعاذني اللَّهُ وإيَّاك من سوءِ مصرعٍ، وضيقِ مضجعٍ.

ورُئِيَ ابنُ أبي عـاصمٍ في المنامِ فسُـئِل عن حالِه فـقالَ: يؤنسني ربِّـي عزَّ وجلَّ.

وأمَّا من كانَ في الدنيـا مشغولٌ عن اللَّهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ وكان يخـافُ غيرَهُ، فإنه يُعذبُ في قبرِهِ بذلكَ.

قـالَ أحمـدُ بنُ أبي الحواريِّ: حـدثنا إبراهيمُ بنُ الفـضلِ، عن أبي المليحِ الرقي، قالَ: إذا دخلَ ابنُ آدمَ قبرَهُ لم يبقَ شيءٌ كان يخافُه في الدنيا من دونِ اللَّهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ إلا تمثَّل له يفـزِّعه في قبرِهِ، لأنه في الدنيا كـان يخافُه دون اللَّهِ تعالى.

وروى عبـدُ الرحمنِ بنُ زيدِ بنِ أسلمَ، عن أبيه، عن ابنِ عـمرَ ﷺ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**ليسَ على أهلِ لا إله إلا اللَّهُ وحـشةٌ في قبـورِهِم، ولا يومَ نشورِهِم،**

وكأنِّي بأهلِ لا إله إلا اللَّهُ ينفضونَ الترابَ عن رءوسهِم، يقولون: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾[1] [فاطر:٣٤]»[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾

قولُهُ: «وكان رزقُهُ كفافًا فصبرَ على ذلك»[3] هذا خيرُ الرزقِ كما سبقَ في حديثِ «خيرُ الرزقِ ما يكفي»[4].

وفي «الصحيح»[5] أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقول: «اللهمَّ اجعلْ رزقَ آلِ محمدٍ قُوتًا».

وقد فسَّر طائفةٌ من المفسرينَ قولَهُ تعالى: ﴿وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه:١٣١] بهذا، وقالُوا: المرادُ: رزقُ يومٍ بيومٍ.

في «صحيح مسلمٍ»[6] عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو عن النبيِّ ﷺ قالَ: «قد أفلحَ من هُدِيَ إلى الإسلامِ، وكان عيشُه كفافًا وقنَّعهُ اللَّهُ به».

وخرَّج الترمذيُّ والنسائيُّ[7] من حديث فضالةَ بنِ عبيدٍ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «طُوبى لمنْ هُدِيَ للإسلامِ وكانَ عيشُهُ كفافًا وقنعَ».

---

(١) رواه الطبراني في «الأوسط» (٩/٩٤٧٨).

(٢) «أهوال القبور» (٣٩ ـ ٤٨).

(٣) أحمد في «المسند» (٥/٢٥٢، ٢٥٥)، الترمذي (٢٣٤٧)، ابن ماجه (٤١١٧).

(٤) أخرجه: أحمد (١/١٧٢، ١٨٠، ١٨٧) عن سعد بن مالك، ورواه ابن حبان في «صحيحه» (٨٠٩)، وأبو يعلى (٧٣١).

(٥) مسلم (٣/١٠٢ ـ ١٠٣) من حديث أبي هريرة.

(٦) مسلم (٣/١٠٢).

(٧) أحمد في «المسند» (٦/١٩)، والترمذي (٢٣٤٩)، والنسائي في «الكبرى» «تحفة الأشراف» (٨/١١٠٣٣).

وفي «المسندِ» و«سننِ ابنِ ماجه»[١] عن أنسٍ مرفوعًا: «ما منْ غني ولا فقيرٍ إلا ودَّ يومَ القيامةِ أنَّه أُوتيَ قُوتًا».

وفي الترمذيِّ[٢] عن أبي أُمامةَ ـ مرفوعًا: «عرض عليَّ ربي أن يجعلَ لي بطحاء مكة ذهبًا، فقلتُ: لا يا ربِّ، ولكن أجوعُ يومًا وأشبعُ يومًا، فإذا جعتُ تضرعتُ إليكَ ودعوتُكَ، وإذا شبعْتُ حمدتُكَ وشكرتُكَ».

وفي «سنن ابن ماجه»[٣] أنَّ النبيَّ ﷺ بعثَ إلى رجلٍ يستمنحُـهُ ناقةً فردَّهُ ثم بعث إلى آخرَ فبعثَ إليه بناقة، فقالَ النبيُّ ﷺ: «اللهمَّ أكثرْ مالَ فلانٍ ـ للمانعِ الأولِ ـ واجعلْ رزقَ فلانٍ يومًا بيومٍ ـ للذي بعثَ بالناقةِ».

وخرَّج ابنُ أبي الدنيا من حديثِ أبي هريرةَ ـ مرفوعًا: «اللَّهُمَّ منْ أحبَّني فارزقْهُ العفافَ والكفافَ، ومن أبغضَني فأكثر مالَهُ وولدَهُ».

وفي الترمذيِّ وابنِ ماجه[٤] عن النبيِّ ﷺ قال: «من أصبح منكُم آمنًا في سِرْبهِ معافًى في بدنِهِ عندَهُ قُوتُ يومِهِ؛ فكأنَّما حيزتْ له الدنيا».

وخرَّجه الطبرانيُّ[٥] وزادَ في أوَّلِهِ: «ابنَ آدمَ، جمعتُ عندَك ما يكفيكَ وأنتَ تطلبُ ما يطغيكَ، لا بقليلٍ تقنعُ ولا منْ كثيرٍ تشبعُ» وزادَ في آخرِهِ: «فعلَى الدُّنيا العفاءُ».

وقال عمرُ: كونُوا أوعيةَ الكتابِ، ينابيعَ للعلمِ، وسلُوا اللَّهَ رزقَ يومٍ

---

(١) أحمد (٣/ ١١٧)، (٣/ ١٦٧)، وابن ماجه (٤١٤٠).
(٢) أحمد (٥/ ٢٥٤)، الترمذي (٢٣٤٧).
(٣) ابن ماجه (٤١٣٤).
(٤) الترمذي (٢٣٤٦)، وابن ماجه (٤١٤١).
(٥) الطبراني في «الأوسط» (٨٨٧٥).

بيومٍ، وعدُّوا أنفسكُم في الموتى، ولا يضرُّكم أن لا يكثرَ لكُم.

والكفافُ من الرزقِ: هو ما ليسَ فيه فضلٌ - بأن يكتَفي به صاحبُهُ من غيرِ فضلٍ.

وجاء من حديثِ ابنِ عباسٍ - مرفوعًا: «**إنَّما يكْفِي أحدُكُم ما قنعتْ به نفسُهُ**» خرَّجه ابنُ أبي الدنيا.

والمرادُ أنَّ من اكتفى من الدنيا باليسيرِ وقنعتْ به نفسُهُ فقدْ كفاهُ ذلكَ واستغْنَى به وإنْ كان يسيراً.

قال أبو حازمٍ: إنْ كان يغنيكَ ما يكفيكَ فإنَّ أدْنَى ما في الدنيا يكفيكَ - وإنْ كان لا يغنيكَ ما يكفيكَ فليسَ في الدنيا شيءٌ يكفيكَ.

قال بكرٌ المزنيُّ: يكفيكَ من الدُّنيا ما قنعْتَ به ولو كفُّ تمرٍ وشربةُ ماءٍ.

وقال الإمامُ أحمدُ: قليلُ الدنيا يكفِي وكثيرُ ما يكفِي يُغنِي، إنَّ من اكتفى من الدنيا كفاهُ منها القليلُ، ومن لم يكتفِ لم يكفِهِ الكثيرُ، كما قالَ بعضُهُم، شعر:

حقيقٌ بالتواضعِ منْ يموتُ ويكفِي المرءَ من دنْيَاه قوتٌ

وقال آخرُ:

يكفِي الفتى خلق وقوتُ ما أكثرَ القوتَ لمن يموتُ

وقد مدحَ في هذا الحديثِ من صبرَ على كفافِ عيشِهِ وقنعَ بهِ، فأما الراضِي بذلكَ: فهو أعْلَى منزلةً من الصابرِ القانعِ.

وقد قيلَ: إنَّ الفقيرَ الراضي أفضلُ من الفقيرِ الصابرِ والغنيِّ الشاكرِ بالاتفاقِ.

وفي الحديثِ أنه ـ عليه السلامُ ـ كان يقولُ في دعائِهِ: «رضِّني بما قسمتَ لي».

وفي حديثٍ آخرَ: «إذا أرادَ بعبدِهِ خيراً رضَّاهُ بما قسَمَ له، وباركَ لهُ فيه»[١].

* * *

(١) «شرح حديث إن أغبط أوليائي عندي» (ق ٩/ أ ـ ق ١٠/ب).

سُورَةُ الأَنْبِيَاءِ

[قال البخاريُّ][1] :

قوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾

حدثنا مُسدَّدٌ، ثنا يحيى، عن الأعمشِ، حدَّثني شقيقٌ، حدَّثني حذيفةُ، قال: كنَّا جُلُوسًا عند عُمرَ، فقال: أيُّكُم يحفظُ قولَ رسولِ اللَّه ﷺ في الفِتْنَةِ؟ قلتُ: أنا كما قاله. قال: إنَّك عليه ـ أو عليها ـ لجريءٌ. قُلْتُ: «**فتنةُ الرَّجل في أهلِه ومالِه وولدِه وجارِه، تُكفِّرُها الصلاةُ والصومُ والصَّدقةُ والأمْرُ والنَّهْيُ**»، قال: ليس هذا أُريدُ، ولكن الفِتْنَةَ التي تَمُوجُ كما يَمُوجُ البحرُ، قال: ليس عليك منها بأسٌ يا أميرَ المؤمنين، إنَّ بينك وبينها بابًا مُغْلَقًا، قال: يُكْسَرُ أم يُفْتحُ؟ قال: يُكسرُ. قال: إذن لا يُغْلَقُ أبدًا.

قُلنا: أكان عُمرُ يعلَمُ البابَ؟ قال: نعمْ، كما أنَّ دونَ غدٍ الليلةَ، إنِّي حدَّثتُهُ حديثًا ليس بالأغاليطِ، فَهِبْنَا أن نسْأل حذيفةَ، فأمرْنا مسْرُوقًا فسأَلَهُ، فقال: البابُ عمرُ.

أصلُ الفتنةِ: الابتلاءُ والامتحانُ والاختبارُ، ويكون تارةً بما يسوء، وتارةً بما يَسرُّ، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وقال: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

---

(١) البخاري (١/ ١٤٠).

وغلبَ في العُرفِ استعمالُ الفتنةِ في الوقوعِ فيما يسوءُ.

والفتنةُ نوعانِ: **أحدُهما**: خاصة، تختص بالرجلِ في نفسِهِ، **والثاني**: عامَّة، تعمُّ الناسَ.

فالفتنة الخاصة: ابتلاءُ الرجلِ في خاصةِ نفسِهِ بأهلِه ومالِهِ وولدِهِ وجارِهِ، وقد قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ**﴾ [التغابن:١٥]، فإنَّ ذلك غالبًا يُلهي عن طلبِ الآخرةِ، والاستعدادِ لها، ويشغل عن ذلك.

ولَمَّا كان النبيُّ ﷺ يخطبُ على المنبرِ، ورأى الحسنَ والحسينَ يمشيانِ ويعثُرانِ وهما صغيرانِ، نزلَ فحملَهُمَا، ثمَّ قال: «**صدق اللَّه ورسولُهُ**: ﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ**﴾ [التغابن:١٥]، **إني رأيتُ هذين الغُلامينِ يمشيانِ ويعْثرانِ فلم أصبر**»(١).

وقد ذمَّ اللَّهُ تعالى منْ ألهاهُ مالُهُ وولدُهُ عن ذكرِهِ، فقال: ﴿**لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [المنافقون:٩].

فظهرَ بهذا: أنَّ الإنسانَ يُبتلَى بمالِهِ وولدِهِ وأهلِهِ وبجارِهِ المجاورِ له، ويُفتتن بذلك، فتارةً يُلهيه الاشتغالُ به عمَّا ينفعه في آخرتِهِ، وتارةً تحملُهُ محبتُه على أنْ يفعلَ لأجله بعضَ ما لا يحبُّه اللَّه، وتارةً يقصِّر في حقِّه الواجبِ عليه، وتارةً يظلمه ويأتي إليه ما يكرهُه اللَّهُ من قولٍ أو فعلٍ، فيسألُ عنه ويطالب به.

فإذا حصل للإنسانِ شيءٌ من هذه الفتن الخاصة، ثم صلَّى أو صامَ أو تصدَّقَ أو أمرَ بمعروفٍ أو نهى عن منكرٍ كان ذلك كفَّارةٌ له، وإذا كان الإنسانُ

---

(١) أحمد (٥/ ٣٥٤)، وأبو داود (١١٠٩)، والترمذي (٣٧٧٤)، وابن ماجه (٣٦٠٠)، وابن خزيمة (١٨٠١) (١٤٥٦)، وابن حبان (٦٠٣٩).

تسوؤه سيئتُه، ويعمل لأجلها عملاً صالحًا، كان ذلك دليلاً على إيمانه.

وفي «مسندِ بَقِيِّ بنِ مَخْلد» عن رجلٍ سأل النبيَّ ﷺ: ما الإيمانُ يا رسولَ اللَّه؟ قال: **«أن تؤمنَ باللَّهِ ورسولِهِ»**، فأعادَهَا ثلاثًا، فقالَ له في الثالثة: **«أتحبُّ أن أخبرَكَ ما صريحُ الإيمانِ؟»** فقالَ: ذلك الذي أردتُ، فقالَ: **«إن صريحَ الإيمانِ إذا أسأت أو ظلمتَ أحدًا، عبْدَكَ أو أَمَتَكَ، أو واحدًا من الناسِ، صُمْتَ أو تصدَّقتَ وإذا أحسنتَ استبشرتَ»**.

وأمَّا الفتن العامةُ: فهي التي تموجُ موجَ البحر، وتضطربُ، ويتبعُ بعضُها بعضًا كأمواجِ البحرِ، فكانَ أوَّلُها فتنةَ قتلِ عثمانَ رضي الله عنه وما نشأ منها من افتراقِ قلوبِ المسلمينَ، وتشعبِّ أهوائِهم وتكفيرِ بعضِهم بعضًا، وسفكِ بعضِهم دماءَ بعضٍ، وكانَ البابَ المغلقَ الذي بين الناسِ وبين الفتنِ عُمَرُ - رضي الله عنه - وكان قتلُ عُمَرَ كسْرًا لذلكَ البابِ، فلذلكَ لم يُغْلَق ذلكَ البابُ بعدَه أبدًا.

وكان حذيفةُ أكثرَ الناسِ سؤالاً للنبيِّ ﷺ عن الفتنِ، وأكثرَ الناسِ علمًا بها، فكانَ عندَهُ عن النبيِّ ﷺ علمٌ بالفتنِ العامةِ والخاصةِ، وهو حدَّث عُمَرَ تفاصيلَ الفتن العامَّة، وبالبابِ الذي بينَ الناسِ وبينَها، وأنه هو عمرُ، ولهذا قالَ: إنِّي حدثتُهُ حديثًا ليس بالأغاليط، والأغاليطُ: جمع أغْلُوطة، وهي التي يُغَالطُ بها، واحدها: «أُغْلُوطةٌ» و«مَغْلَطَةٌ»، والمعنى: أنه حدَّثه حديثًا حقًّا، ليس فيه مرْية، ولا إيْهَامٍ.

وهذا مما يُستدلُّ به على أنَّ روايةَ مثلِ حذيفةَ يحصلُ بها لِمَنْ سمعَها العلمُ اليقينيُّ الذي لا شكَّ فيه، فإنَّ حذيفةَ ذكرَ أن عُمرَ علِمَ ذلك وتيقنه كما تيقنَ

أنَّ دونَ غدٍ الليلةَ لما حدَّثه به من الحديثِ الذي لا يحتملُ غيرَ الحقِّ والصدقِ.

وقد كانتِ الصحابةُ تعرفُ في زمانِ عُمَرَ أنَّ بقاءَ عُمَرَ أمانٌ للناسِ من الفتنِ.

وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ»[١] أنَّ خالدَ بنَ الوليدِ لَمَّا عزَلَه عُمَرُ، قالَ لهُ رجلٌ: اصبرْ أيها الأميرُ، فإنَّ الفتنَ قد ظهرتْ، فقال خالدٌ: وابنُ الخطَّابِ حيٌّ، إنَّما يكون بعدَهُ رضي الله عنه.

وقد رُوِيَ من حديث عثمانَ بن مَظْعونٍ، أنَّ النبيَّ ﷺ سمَّى عمر: غلق الفتنة وقال: «لا يزال بينكم وبينَ الفتنةِ بابٌ شديدُ الغلْقِ ما عاشَ هذا بين أظهركم».

خرَّجه البزار[٢].

ورُوِي نحوه من حديثِ أبي ذر[٣].

وروَى كعبٌ، أنه قال لعمرَ: أجدُكَ مِصْراعَ الفتنةِ، فإذا فُتح لم يغلق أبدًا[٤].

* * *

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾

فأمَّا خشية اللَّهِ في الغيبِ والشهادةِ فالمعنيُّ بهما: أن العبدَ يخْشَى اللَّه سرًّا وعلانيةً وظاهرًا وباطنًا، فإنَّ أكثر الناسِ يرى أنه يخشَى اللَّهَ في العلانيةِ وفي

---

(١) أحمد (٤/ ٩٠).
(٢) (٢٥٠٦) «كشف الأستار».
(٣) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (١٩٤٥).
(٤) «فتح الباري» (٣/ ٣٤ - ٣٧).

الشهادةِ، ولـكن الشـأنَ في خشية اللَّه في الغـيبِ إذا غابَ عن أعينِ الناسِ، وقد مدحَ اللَّهُ من يخافُهُ بالغيبِ قالَ تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٤٩]، وقال: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة:٩٤] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢].

وقد فُسِّر الغيبُ في هذه الآياتِ بالدنيـا لأن أهلها في غيبٍ عمَّا وعِدُوا به في الآخرة، وأما في هذا الحديثِ فلا يتأتَّى ذلكَ، كما ترى لمقابلتِهِ بالشهادةِ، كان بعضُ السلفِ يقول لإخوانِهِ: زهدنا اللَّهُ وإيَّاكُم في الحرامِ زهادةَ من قدرَ عليهِ في الخلوةِ فعلِمَ أنَّ اللَّهَ يراهُ فتركَهُ.

ومن هذا قول بعضِهِم: ليسَ الخائفُ من بكَى وعـصر عينيه، إنَّما الخائفُ من تركَ ما اشـتَهى من الحرامِ إذا قـدرَ عليه، ومن هنا عَظُمَ ثوابُ من أطاعَ اللَّهَ، سرًّا بينه وبينه، ومن تركَ المحرماتِ التي يقدرُ عليها سرًّا.

فأمَّا الأولُ فمـثلُ قولِهِ تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ إلى قولِهِ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٦، ١٧] قال بعضُ السلفِ: أخفوا للَّهِ العملَ فأخفى لهم الأجر.

وفي حديثِ السبـعةِ الذين يظلهم اللَّهُ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه، «**رجلٌ ذكر اللَّهَ خاليًا ففاضتْ عيناه، ورجلٌ تصـدَّقَ بصدقـةٍ، حتى لا تعلمَ شـمالُهُ مـا تنفق يمينُه**»(١).

وفي الحديثِ: «**إذا صلَّى العبدُ في العلانيةِ فأحسنَ وصلَّى في السرِّ فأحسنَ، قال**

(١) البخاري (٢/١٣٨)، مسلم (٢/٩٣).

اللَّهُ: هذا عبدِي حقا».

وفي حديثٍ آخرَ: **«من أحسن صلاتَهُ حيثُ يراهُ الناسُ وأساءها حيثُ لا يراه أحدٌ فتلك استهانةٌ يستهينُ العبدُ بها ربَّه»**(١) .

وأما الثاني: فمثلُ قولِه ﷺ في السبعةِ الذينَ يظلُّهم اللَّهُ في ظلِّه يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه **«ورجلٌ دعَتْهُ امرأةٌ ذاتُ حسنٍ وجمالٍ فقال: إنِّي أخافُ اللَّهَ ربَّ العالمين»**. ومثلُ الحديثِ الذي جاء فيمن أدَّى دَينًا خفيًا أنه يخيَّرُ في أي الحورِ العينِ شاء، والموجب لخشيةِ اللَّه في السر والعلانيةِ أمورٌ.

منها: قوةُ الإيمانِ بوعدِه ووعيدِه على المعاصِي.

ومنها: النظرُ في شدَّةِ بطشِه وانتقامِه وقوتِه وقهرِه، وذلك يوجبُ للعبدِ تركَ التعرضِ لمخالفتِهِ، كما قال الحسنُ: ابنَ آدمَ، هل لكَ طاقةٌ بمحاربةِ اللَّه، فإنَّ من عصَاهُ فقدْ حاربَهُ.

وقال بعضُهم: عجِبْتُ من ضعيفٍ يعصِي قويًّا.

ومنها: قوةُ المراقبةِ له، والعلمُ بأنَّه شاهدٌ ورقيبٌ على قلوبِ عبادِه وأعمالِهم وأنَّه مع عبادِه حيثُ كانُوا، كما دلَّ القرآنُ على ذلكَ في مواضعَ كقولِه تعالى: ﴿**إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا**﴾ [المجادلة:٧]، وقولُهُ تعالى: ﴿**وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ**﴾ الآية [يونس:٦١] وقولُهُ: ﴿**مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ**﴾ الآية [المجادلة:٧]، وقولُهُ تعالى: ﴿**يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ**﴾ الآية: [النساء:١٠٨]، وكما في الحديثِ الذي خرَّجهُ

---

(١) أخرجه: عبد الرزاق في «المصنف» (٣٧٣٨)، وأبو يعْلى في «مسنده» (٥١١٧).

الطبرانيُّ: «**أفضلُ الإيمانِ: أن يعلمَ العبدُ أنَّ اللَّه معه حيثُ كان**»(١) فيوجبُ ذلكَ الحياءَ منه في السرِّ والعلانيةِ، قال بعضُهُم: خفِ اللَّهَ على قدرِ قدرتِهِ عليكَ، واستَحِ منه على قدرِ قربِهِ منكَ.

وقال بعضُهم لمن استوصَاهُ: اتَّقِ اللَّهَ أن يكونَ أهونَ الناظرينَ إليكَ، وفي هذا المعنى يقولُ بعضُهم:

يا مدمنَ الذنبِ أما تستَحِي ... واللَّهُ في الخلوةِ ثانيكَا
غرَّكَ من ربِّكَ إمهالُهُ ... وسترُهُ طولَ مساويكَا

وفي حديثِ أبي ذرٍّ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: «**ثلاثةٌ يحبُّهم اللَّهُ: رجلٌ أتى قومًا فسألهم باللَّه ولم يسألْهُم لقرابةٍ كانتْ بينه وبينَهُم، فتخلفَ رجلٌ فأعطاهُ سرًّا، لا يعلمُ بعطيتِهِ إلا اللَّهُ والذي أعطاهُ، وقومٌ سارُوا ليلَهُم حتى إذا كانَ النومُ أحبَّ إليهم مما يعدلُ به، فوضَعُوا رءوسهم فقامَ رجلٌ يتملقُني ويتْلُو كتابي، ورجلٌ كانَ في سريةٍ فخلفُوا العدوَ، فهُزِمُوا، فأقبلَ بصدْرِهِ حتى يقتلَ أو يفتحَ له**»(٢).

فهؤلاء الثلاثةِ قد اجتمعَ لهم معاملةُ اللَّهِ سرًّا بينَهُم وبينَهُ، حيثُ غَفَلَ الناسُ عنهُم، فهُوَ تعالى يحبُّ من يعاملُهُ سرًّا بينه وبينَهُ، حيثُ لا يعامله حينئذٍ أحدٌ، ولهذا فُضِّلَ قيامُ وسطِ الليلِ على ما سواه من أوقاتِ الليلِ، والمحبونَ يحبونَ ذلك أيضًا علمًا منهم باطلاعه عليهم ومشاهدته لهم، فهم يكتفون بذلك لأنهم عرفوه فاكتفوا به من بين خلقه، وعاملُوه فيما بينَهُ وبينَهُم

---

(١) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٨٧٩٦) عن عبادة بن الصامت بلفظ: «**إن أفضل الإيمان: أن تعلم أن اللَّه معك حيثما كنت**».

(٢) أخرجه: الترمذي (٢٥٦٨)، والنسائي (٥/ ٨٤)، وأحمد (٥/ ١٥٣)، والحاكم (١/ ٤١٦)، وابن حبان (٣٣٤٩)، (٣٣٥٠).

معاملةَ الشاهـدِ غيرَ الغائبِ، وهذا مقامُ الإحسـانِ، قال بعضُ العارفين: من عرفَ اللَّهَ اكتفى به من خلقه.

وكان بعضُ المخلصينَ يقولُ: لا أعتدُّ بما ظهرَ من عملي.

اطلعَ على بعضِ أحـوالِ بعضِهم، فـدَعَى لنفسه بالموتِ وقـال: إنما كانتْ تطيبُ الحـيـاةُ إذا كانـتِ المعاملـةُ بيني وبين اللَّه سرًّا، وقيلَ لبـعضهم: ألا تستوحشُ وحدَكَ؟ قالَ: وكيفَ أستوحشُ وهو يقولُ: أنا جليسُ من ذكرَني.

آنستني خلواتِي بكَ عن كـلِّ أنيسي   وتفردتُ فعاينتُكَ في الغيبِ جليسِي[1]

* * *

قوله تعالى: ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾

كَمْ بَيْنَ الذين: ﴿لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء:١٠٣]، وبينَ الـذينَ: ﴿يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣]، قـال: عليٌّ ﷺ: تـتلقَّـاهُم الملائكةُ عـلى أبوابِ الجنة: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ [الزمر:٧٣]. ويلْقَى كُلُّ غِلمان صاحبَهم يُطيفُون به فِعْلَ الوِلْدان بالحمـيم جاء من الغيبةِ، ويقولون: أبشِرْ فـقدْ أعدَّ اللَّهُ لك من الكرامة كـذا وكذا، وينطلقُ غُـلامٌ من غِلْمانه إلى أزواجـه من الحُور العينِ، فيقـولُ: هذا فلان ـ باسمه في الدنيـا ـ، فيقلْنَ: أنتَ رأيتَه؟ فـيقولُ: نعم، فيستخفُّهُنَّ الفرحُ حتى يخرُجْنَ إلى أُسْكُفَّةِ البابِ[2].

* * *

(١) «شرح حديث اللهم بعلمك الغيب» (٢٥ ـ ٢٨).

(٢) «لطائف المعارف» (١٣٤ ـ ١٣٥).

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعت الوزير[(١)] يقول في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الأنبياء: ١١٠] المعنى: أنه إذا اشتدت الأصوات وتغالبت فإنها حالة لا يسمع فيها الإنسان. والله عز وجل يسمع كلام كل شخص بعينه، ولا يشغله سَمْعٌ عن سَمْعٍ[(٢)].

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعت الوزير[(١)] يقول في قوله تعالى: ﴿رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ﴾ [الأنبياء: ١١٢]: المراد منه: كن أنت أيها القائل على الحق؛ ليمكنك أن تقول: احكم بالحق، لأن المبطل لا يمكنه أن يقول: احكم بالحق[(٢)].

* * *

(١) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

(٢) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٦).

سُورَةُ الحَجِّ

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾

وقولُه: «**ثمَّ يكونُ علقةً مثلَ ذلك**»(1) يعني: أربعين يومًا، والعلقةُ: قطعةٌ من دمٍ.

«**ثم يكون مضغةً مثلَ ذلك**» يعني: أربعين يومًا، والمضغةُ: قطعةٌ من لحمٍ.

«**ثمَّ يُرسلُ اللَّهُ إليه الملك، فينفخُ فيه الرُّوحَ، ويؤمرُ بأربع كلماتٍ: بكتبِ رزقِه وعملِه وأجلِه وشقيٌّ أو سعيدٌ**».

فهذا الحديثُ يدلُّ على أنه يتقلبُ في مائةٍ وعشرينَ يومًا، في ثلاثةِ أطوارٍ، في كلِّ أربعينَ منها يكونُ في طَوْرٍ، فيكونُ في الأربعينَ الأُولى نطفةً، ثم في الأربعينَ الثانيةِ علقةً، ثم في الأربعينَ الثالثةِ مضغةً، ثم بعدَ المائةِ وعشرينَ يومًا ينفخُ المَلَكُ فيه الرُّوحَ ويكتبُ لهُ هذه الأربعَ الكلماتِ.

وقد ذكرَ اللَّهُ في القرآن في مواضعَ كثيرةٍ تقلُّبَ الجنينِ في هذه الأطوارِ، كقولِهِ تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ**

---

(1) أخرجه: البخاري (٤/ ١٣٥ ـ ١٦١)، (٨/ ١٥٢) (٩/ ١٦٥)، ومسلم (٨/ ٤٤) من حديث عبد =

أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الحج: ٥].

وذكرَ هذه الأطوارَ الثلاثةَ: النُّطفةَ والعلقةَ والمضغةَ في مواضعَ متعددةٍ من القرآنِ، وفي موضعٍ آخرَ ذكرَ زيادةً عليها، فقالَ في سورةِ المؤمنين ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾** [المؤمنون: ١٢-١٤].

فهذه سبعُ تاراتٍ ذكرَها اللَّهُ في هذه الآيةِ لخلقِ ابنِ آدمَ قبلَ نفخِ الروحِ فيه. وكان ابنُ عباسٍ يقولُ: خُلِقَ ابنُ آدمَ منْ سبعٍ، ثم يتلُو هذه الآيةَ، وسئلَ عن العزلِ، فقرأ هذه الآيةَ ثمَّ قالَ: فهل يخلقُ أحدٌ حتى تجري فيه هذه الصفةُ؟ وفي روايةٍ عنه قال: فهلْ تموتُ نفسٌ حتى تمرَّ على هذا الخلقِ؟[1].

ورُوي عن رفاعةَ بنِ رافعٍ قالَ: جلسَ إلى عمرَ عليٌّ والزبيرُ وسعدٌ في نفرٍ منْ أصحابِ رسولِ اللَّهِ ﷺ فتذاكرُوا العزلَ، فقالُوا: لا بأس به، فقالَ رجلٌ: إنَّهم يزعمونَ أنَّها الموءودةُ الصُّغرى، فقالَ عليٌّ: لا تكون موءودةً حتى تمرَّ على التَّاراتِ السَّبعِ: تكونُ سلالةً من طينٍ، ثمَّ تكونُ نطفةً، ثم تكونُ علقةً، ثم تكونُ مضغةً، ثم تكونُ عظامًا، ثم تكونُ لحمًا، ثم تكونُ خلقًا آخرَ، فقال عمرُ: صدقتَ؛ أطال اللَّهُ بقاءَك.

رواه الدارقطنيُّ في «المؤتلف والمختلف»[2] [3].

* * *

= اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

(١) أخرجه: عبد الرزاق في «المصنف» (٧/ ١٤١ ـ ١٤٥).

(٢) «المؤتلف والمختلف» (٢/ ٨٧٧). (٣) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٣٨ ـ ١٣٩).

[قال البخاريُّ][(١)] : «بابُ: مُخَلَّقةٍ وغيرِ مُخَلَّقةٍ»:

حدثنا مسدد: ثنا حماد، عن عبيد اللَّه بنِ أبي بكرٍ، عن أنس بنِ مالك، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ وكَّلَ بالرَّحمِ ملكًا، يقولُ: يا ربِّ نُطفةٌ، يا ربِّ علَقةٌ، يا ربِّ مُضْغةٌ، فإذا أراد أن يقْضِي اللَّهُ خلْقَهُ قال: أذكَرٌ أم أُنثى؟ أشقيٌّ أم سعيدٌ؟ فما الرزقُ؟ فما الأجلُ؟ فيُكْتَبُ في بطْنِ أمِّه**».

اختلف السَّلفُ في تأويلِ قولِ اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿**ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ**﴾ [الحج:٥].

فقال مجاهد: هي المضغةُ التي تسقطُها المرأةُ، منها ما هو مُخَلَّقٌ فيه تصويرٌ وتخطيطٌ، ومنها ما ليسَ بمخلَّقٍ ولا تصويرَ فيه، أرَى اللَّهُ تعالى ذلك عبادَه ليُبَيِّنَ لهم أصْلَ ما خلِقُوا منه، والذي يُقِرُّه في الأرحامِ هو الذي يتمُّ خلْقُهُ ويُولَدُ.

وقالتْ طائفةٌ: المخلقةُ: هي التي يتمُّ خلْقُها، وغيرُ مخلقةٍ: هي التي تَسقُطُ قبلَ أن تكونَ مضغةً.

روى الشَّعْبيُّ، عن علْقَمَةَ، عن ابنِ مسعودٍ، قال: النطفةُ إذا استقرتْ في الرَّحمِ حَمَلَها ملَكٌ بكفِّه، وقال: أي ربِّ، مخلقةٌ أم غيرُ مُخلقة؟ فإنْ قيلَ: غير مخلقةٍ: لم تكُنْ نسمةً، وقذفَتْها الأرحامُ، وإن قيلَ: مخلقةٌ، قالَ: أي ربِّ، أذكرٌ أم أنثى؟ أشقيٌّ أم سعيدٌ؟ ما الأجلُ؟ ما الأثرُ؟ وبأيِّ أرضٍ تموتُ؟ قال: فيقالُ للنطفةِ: من ربُّكِ؟ فتقولُ: اللَّهُ، فيقالُ: من رازقُكِ؟ فتقولُ: اللَّهَ، فيقولُ اللَّه عزَّ وجلَّ: اذهبْ إلى الكتابِ، فإنَّكَ ستجدُ فيه قصةَ هذه

---

(١) البخاري (١/ ٨٧).

النطفةِ، قـال: فتُخلقُ، فتـعيشُ في أجلِها، وتأكلُ رزقَـها، وتطأُ في أثَرِها، حتى إذا جـاء أجلُها ماتتْ، فدُفنتْ في ذلكَ، ثم تلا الشعبيُّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ إلى قولِه: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج:٥]، فإذا بلغتْ مضغةً نُكِسَتْ في الخَلْقِ الرابعِ، فكانتْ نسمـةً، فإنْ كانتْ غيرَ مخلقةٍ قذفَتْها الأرحامُ دمًا، وإن كانتْ مخلقةً نُكِسَتْ نسمةً.

خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ وغيرُه، وآخرُهُ هو من قولِ الشعبيِّ.

وقد يستأنسُ بهذا من يقـولُ: إنَّ الحاملَ لا تحيضُ ولا ترى دمَ الحيضِ في حالِ حَمْلِها، وأنَّها لا ترَى إلا دمَ النِّفاسِ خاصةً، وفي ذلكَ نظرٌ.

وقد قيلَ: إنَّ هذا هو مرادُ البخاريِّ بتبويبِه هذا.

وقد رُوِيَ عن الحـسنِ في قولِ اللّـه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان:٢]، أنَّ النطفةَ مُـشجتْ ـ أي: خُلِطَتْ بدمِ الحـيضِ ـ، فإذا حَمَلَتِ المرأةُ ارتفعَ حيضُها.

وحـديثُ أنسٍ الذي خرَّجـه البخـاريُّ يدلُّ على أنَّه لا يُخلقُ إلا بعـدَ أن يكونَ مضغةً، وليسَ فيه ذِكْرُ مـدة ذلكَ، وذكرُ المدةِ في حديثِ ابنِ مسعودٍ ـ وقد خرَّجـه البخاريُّ في مواضعَ أُخرَ ـ قـال: حدثنا رسولُ اللَّه ﷺ ـ وهو الصـادقُ المصدوقُ ـ: «**إنَّ خـلْـقَ أحدِكُم يُجْمَـع في بطـنِ أمِّه أربعينَ يومـًا نطفـة، ثـم يكون علقةً مثلَ ذلك، ثم يكونُ مـضغةً مثلَ ذلك، ثم يُبعثُ إليه الملـكُ، فيُؤمَرُ بأربع كلمات: بكتْبِ رزقِه، وأجَلِـه، وعمَلِه، وشقيٌّ أو سعيـدٌ؟، ثم يُنفخُ فيه الرُّوح**» ـ وذكر الحـديثَ.

وقد رُوِيَ هذا المـعنى عن ابن مسـعودٍ مـوقوفًا علـيه، وعن ابنِ عـباسٍ،

وغيرِهما من الصحابةِ.

وقد أخذَ كثيرٌ من العلماءِ بظاهرِ حديثِ ابنِ مسعودٍ، وقالُوا: أقلُّ ما يتبيَّنُ فيه خلْقُ الولدِ أحدٌ وثمانونَ يومًا؛ لأنه لا يكونُ مضغةً إلا في الأربعينَ الثالثةِ، ولا يتخلَّقُ قبلَ أن يكونَ مضغةً.

قال الإمامُ أحمدُ: ثنا هُشَيْمٌ: أنبَأ داودُ، عن الشعبي، قال: إذا نُكِسَ السَّقْطُ الخلْقَ الرابعَ وكان مخلقًا عُتِقَت به الأَمَةُ، وانقضتْ به العدَّة.

قال أحمدُ: إذا تبيَّنَ الخلْقُ فهو نفاسٌ، وتُعْتَقُ به إذا تبيَّن.

قال: ولا يُصَلَّى على السَّقْطِ إلا بعد أربعة أشهرٍ. قيلَ له: فإنْ كان أقلَّ من أربعةٍ؟ قالَ: لا، هو في الأربعةِ يتبيَّنُ خلقُه. وقال: العلقةُ: هي دمٌ لا يتبيَّنُ فيها الخلقُ.

وقال أصحابُنا وأصحابُ الشافعيِّ - بناءً على أن الخلقَ لا يكونُ إلا في المضغةِ -: أقلّ ما يُتبيَّنُ فيه خلْقُ الولدِ أحدٌ وثمانونَ يومًا، في أول الأربعين الثالثةِ التي يكونُ فيها مضغةٌ، فإن أُسقطتْ مضغةً مخلقةً انقضتْ بها العدةُ وعُتِقَتْ بها أمُّ الولدِ، ولو كان التخليقُ خفيًّا لا يَشهدُ به إلا من يعرفُهُ من النساءِ فكذلكَ.

فإنْ كانتْ مضغةً لا تَخْليقَ فيها: ففي انقضاءِ العدةِ وعتقِ الأمَةِ به روايتانِ عن أحمدَ.

وهل يعتبرُ للمضغةِ المخلقةِ أن يكونَ وضعُها بعدَ تمامِ أربعةِ أشهرٍ؟ فيه قولانِ، أشهرُهُما: لا يُعتبرُ ذلكَ، وهو قولُ جمهورِ العلماءِ، وهو المشهورُ عن أحمدَ، حتى قالَ: إذا تبيَّنَ خلقُهُ: ليسَ فيه اختلافٌ، أنها تُعْتَقُ بذلكَ.

ورويَ عنه ما يدلُّ على اعتبارِ مُـضِيِّ الأربعةِ أشهُرٍ، وعنه روايةٌ أُخْرى في العلقةِ إذا تبيَّنَ أنها ولدٌ: أنَّ الأَمَةَ تُعْتَقُ بها، ومن أصحابِنا من طرَّد ذلك في انقضاءِ العدَّةِ بها ـ أيضًا ـ وهذه الروايةُ قول النَّخعي، وحُكيَ قولاً للشافعي.

وهذا يدلُّ على أنَّه يمكنُ التـخليقُ في العلقـةِ، وقـد رُويَ ما يدلُّ عليـه، والأطباءُ تعترفُ بذلكَ.

فأمَّا الصلاةُ على السَّقْطِ: فالمشهورُ عن أحمدَ أنه لا يُصلَّى عليهِ حتى يُنفخَ فيه الرُّوحُ، ليكون ميتًا بمفارقةِ الروحِ لهُ، وذلك بعد مُضِيِّ أربعةِ أشهرٍ، وهو قولُ ابنِ المسيبِ، وأحدُ أقوالِ الشافعيِّ، وإسحاقَ.

وإذا ألْقَتْ ما يتبيَّن فيه خلْقُ الإنسانِ فـهيَ نُفساءُ، ويلزمُها الغُسْلُ، فإنْ لم يتبـيَّنْ فيه خلقُ الإنسـانِ وكانَ مضـغةً فلا نفـاسَ لها، ولا غُسلَ عليـها في المشهورِ عن أحـمدَ، وعنه روايةٌ: أنها نفساءُ ـ. نقـلها عنه الحسنُ بنُ ثوابٍ، ولـم يشترطْ شيئًا، لأن المضغة مظنَّةُ تبيُّنِ التَّخَلُّقِ والتصويرِ غالبًا.

وإنْ ألقَتْ علقةً: فلا نفاسَ لها فيه، ولأصحابِنا وجهٌ ضعيفٌ: أنها نفساءُ، بناءً على القولِ بانقضاءِ العدَّةِ به.

ومذهبُ الشافعـيةِ والحنفيّة: أنَّ الاعتبارَ في النفـاسِ بما تنقضِي به العدَّةُ، وتصيـرُ به الأَمَةُ أمّ ولدٍ، فـحيثُ وُجـد ذلكَ فالنفـاسُ موجـودٌ، وإلا فلا، والاعتبارُ عندهُم في ذلكَ كلِّه بما يتَبيَّنُ فيه خلقُ الإنسانِ.

وقال إسحاقُ: إذا استتمَّ الخلقُ فهو نفاسٌ ـ : نقلَهُ عنه حرْبٌ[1].

* * *

(١) «فتح الباري» (١/ ٤٨٤ ـ ٤٨٨).

قوله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾

قال تعالى: ﴿**فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ**﴾ [الحج:١٩] وكان إبراهيمُ التيميُّ إذا تلاَ هذه الآيةَ يقولُ: سبحانَ من خلَقَ من النارِ ثيابًا.

وروينا من طريقِ يحيى بن معينٍ، حدثنا أبو عبيدةَ الحدادُ، حدثنا عبدُ اللَّه ابنُ بحيرٍ، عن عباسٍ الجريريِّ ـ أحسبُهُ عن ابنِ عباسٍ ـ قالَ: يُقطعُ للكافرِ ثيابٌ من نارٍ، حتى ذكرَ القباءَ والقميصَ والكمةَ.

وخرَّج أبو داود وغيرُه(١) من حديثِ المستوردِ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**من أكل برجلٍ مسلمٍ أكلةً في الدنيا أطعمَهُ اللَّهُ مثلها في جهنَّمَ، ومن كسَى أو اكتسَى برجلٍ مسلمٍ ثوبًا كساهُ اللَّهُ مثلَهُ في جهنَّم**».

وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ»(٢) عن هُبيبُ بن مُغْفلٍ(٣)، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**من وطِيءَ إزارَهُ خيلاءَ وطئَهُ في النارِ**» وهو يبينُ معنى ما في «صحيحِ البخاريِّ»(٤) عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: «**ما تحت الكعبين من الإزار ففي النارِ**»، أن المرادَ: ما تحتَ الكعبِ من البدنِ والثوبِ معًا، وأنه يسحبُ ثوبه في النارِ كما يسحبُهُ في الدنيا خيلاءَ، وسيأتي حديثُ: «**أهونُ أهلِ النارِ عذابًا: مَن في قدميهِ نعلانِ من نارٍ يغلي فيهما دماغُهُ**»(٥) فيما بعدُ ـ إن شاءَ اللَّهُ تعالى.

(١) أحمد (٤/ ٢٢٩)، وأبو داود (٤٨٨١)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٤٠).
(٢) أحمد (٣/ ٤٣٧)، (٤/ ٢٣٧).
(٣) في المطبوع: «حبيب بن المغفل» والصحيح: «ما أثبتناه».
(٤) البخاري (٧/ ١٨٣).
(٥) أحمد (٣/ ١٣)، وهو عند مسلم (١/ ١٣٥).

وفي كتابِ أبي داودَ والنسائيِّ والترمذيِّ[(١)] عن بريدةَ: أنَّ النبيَّ ﷺ رأى على رجلٍ خاتمًا من حديدٍ فقالَ: «**ما لي أرَى عليكَ حليةَ أهلِ النارِ**».

وروى حمادُ بنُ سلمةَ عن عليِّ بنِ زيدٍ عن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ «**أنَّ أولَ من يُكسى حلةً من النارِ: إبليسُ، يضعُها على حاجبِه ويسحبُها من خلفهُ ذريتُه وهو يقولُ: يا ثبورهُ، وهم ينادونَ: يا ثبورَهُم، حتى يقفُوا على النارِ، فيقولُ: يا ثبورهُ ويقولونَ: يا ثبورَهُم، فيقالَ: ﴿لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُوراً وَاحِداً وَادْعُوا ثُبُوراً كَثِيراً﴾** [الفرقان: ١٤]». خرَّجه الإمامُ أحمدُ[(٢)] .

وفي حديثِ عديٍّ الكنديِّ عن عمرَ: «أنَّ جبريلَ قالَ للنبيِّ ﷺ: والذي بعثك بالحقِّ، لو أنَّ ثوبًا من ثيابِ النارِ عُلِّق بين السماء والأرضِ لماتَ من في الأرضِ جميعًا من حرِّهِ». وخرَّجه الطبرانيُّ، وسبقَ ذكرُ إسنادِه.

وفي «موعظةِ الأوزاعيِّ» للمنصورِ قالَ: بلغني أنَّ جبريل قالَ للنبيِّ ﷺ - فذكر بنحوه[(٣)] .

* * *

ومن أنواع عذابِهم: الصَّهْرُ، قال اللَّهُ تعالى: ﴿**فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ**﴾ [الحج: ١٩ - ٢١] قال مجاهدٌ: ﴿**يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ**﴾ [الحج: ٢٠]: يذابُ به إذابةً. وقال عطاءُ الخراسانيُّ: يذابُ به ما في

---

(١) أحمد (٥/ ٣٥٩)، وأبو داود (٤٢٢٣)، والترمذي (١٧٨٥)، والنسائي (٨/ ١٧٢).
(٢) أحمد (٣/ ١٥٢، ١٥٣، ٢٤٩).
(٣) «التخويف من النار» (١٦٣ - ١٦٤).

بطونِهِم كما يذابُ الشحمُ.

وخرَّج الترمذيُّ[(١)] من حـديثِ أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إن الحميمَ ليصبُّ على رءوسهم، فينفذ الحميمُ حتى يخلصَ إلى جـوفِهِ، فيسلتُ ما في جوفهِ حتى يمرقَ من قدميهِ وهو الصهرُ، ثم يعودُ كما كانَ» وقال: حسنٌ غريبٌ صحيحٌ.

وقال اللَّـهُ عزَّ وجلَّ: ﴿خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عَذَابِ الْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٧ ـ ٤٩]. قال كثيرٌ من السلفِ: نزلتْ هذه الآيةُ في أبي جهلٍ.

قال الأوزاعيُّ: يؤخـذ أبو جهل يوم القيامـةِ فيخرق في رأسـه خرق، ثم يؤتى بسجل من الحـميمِ فيصب في ذلك الخـرق، ثم يقال له: ذق إنك أنت العزيز الكريم.

قال مجـاهدٌ في قوله: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن: ٣٥] قال: النحاس: الصُّفْر، يذاب فيصب على رءوسـهم يعذبون به، وقال عطاء الخراسانيُّ في قوله تعالى: ﴿وَنُحَاسٌ﴾ قال: الصُّفْر، يذاب فيصب على رءوسهم فيعذبون به[(٢)] .

* * *

قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَلَهُم مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [الحج: ٢١ ـ ٢٢].

قال جويبرٌ عن الضحاك: ﴿مَّقَامِعُ مِنْ حَدِيدٍ﴾ [الحج: ٢١]: أي: مطارقُ.

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٤)، والترمذي (٢٥٨٢).

(٢) «التخويف من النار» (١٤٥ ـ ١٤٦).

وروى ابنُ لهيعةَ عن دراجٍ عن أبي الهيثمِ عن أبي سعيدٍ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**لو أنَّ مقمعًا من حديدٍ وُضعَ في الأرضِ فاجتمعَ له الثقلانِ لما أقلوه من الأرضِ**» خرَّجه الإمامُ أحمدُ، وخرَّج أيضًا بهذا الإسنادِ عن النبيِّ ﷺ: «**لو ضُرِب بمقامع من حديدٍ لتفتت ثمَّ عاد**».

قال الإمامُ أحمدُ في كتابِ «الزهدِ»: حدثنا سيارٌ، حدثنا جعفر، سمعت مالكَ بنَ دينارٍ، قال: إذا أحسَّ أهلُ النارِ في النارِ بضربِ المقامعِ انغمسُوا في حياضِ الحميمِ فيذهبونَ سفالاً، كما يغرقُ الرجلُ في الماءِ في الدنيا، ويذهبُ سفالاً سفالاً.

قال سعيدٌ عن قتادةَ: قالَ عمرُ بنُ الخطابِ: ذكِّروهم النارَ؛ لعلَّهم يفرقُونَ، فإنَّ حرَّها شديدٌ، وقعرُها بعيدٌ، وشرابُها الصديدُ، ومقامعُها الحديدُ.

وذكر ابنُ أبي الدنيا بإسنادِهِ عن صالحٍ المريِّ أنه قرأ على بعضِ العبادِ: ﴿**إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ**﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

قالَ: فشهقَ الرجلُ شهقةً، فإذا هو قدْ يبسَ مغشيًا عليهِ، قالَ: فخرجْنَا من عندِهِ وتركْنَاهُ.

وقرأ رجلٌ على يزيدَ الضبيِّ: ﴿**وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ**﴾ [إبراهيم: ٤٩]، فجعلَ يزيدُ يبكي حتى غشيَ عليه. خرَّجه عبدُ اللَّهِ ابنُ الإمامِ أحمدَ.

وقد سبقَ عن مالكِ بنِ دينارٍ: أنه قامَ ليلةً في وسطِ الدارِ إلى الصباحِ،

فـقـالَ: مـا زالَ أهلُ النارِ يعـرضُـونَ عليَّ في سـلاسلهم وأغـلالِهِم حـتى الصباح[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾

وقال تعالى: ﴿**لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ**﴾[الحج: ٣٧]

والمعنى: أنه تعالى يحبُّ من عبادِه أنْ يتَّقُـوه ويُطيعُوه، كما أنَّه يكره منهم أن يعْصُـوه، ولهذا يفرحُ بتوبةِ التـائبينَ إليه أشدَّ من فـرحٍ منْ ضلَّتْ راحلتُهُ التي عليْهَا طعـامُهُ وشرابُهُ بفَلاةٍ من الأرضِ، وطلبَهَا حتَّـى أعيا وأيسَ منهَا، واستسلَمَ للموتِ، وأيسَ من الحياةِ، ثم غلبتْـهُ عينُه فنامَ فاستيقظَ وهي قائمةٌ عندَهُ، وهذا أعلَى مـا يتـصـورُهُ المخلوقُ من الـفرحِ، هذا كـلُّه مع غناهُ عن طاعاتِ عبادِهِ وتوباتِهِم إليه، وإنَّه إنَّما يعودُ نفعُها إليهِم دونَهُ، ولكنْ هذا من كمالِ جـودِهِ وإحسانِهِ إلى عبادِه، ومحـبتِهِ لنفعِهم ودفعِ الضَّـررِ عنهُم، فهو يُحِبُّ من عبادِهِ أن يعـرفُوه ويحبُّوه ويخافُـوه ويتَّقوه ويطيعُوه ويتـقرَّبوا إليه، ويُحِبُّ أن يعلمُـوا أنَّه لا يغفرُ الذنـوبَ غيرُه، وأنَّه قـادرٌ على مغـفرةِ ذنوبِ عبادِهِ، كما في روايةِ عبد الرحمنِ بنِ غنْمٍ عن أبي ذرٍّ لهذا الحديثِ: «**من علمَ منكم أنِّي ذو قُدرةٍ على المغفرةِ، ثم استغفرني، غفرتُ له ولا أبالي**».

وفي «الصحيحِ» عن النبيِّ ﷺ: «**إنَّ عبداً أذنبَ ذنبًا، فـقالَ: يا ربِّ، إنِّي عملتُ**

(١) «التخويف من النار» (١٠٢ ـ ١٠٣).

ذنبًا، فاغفر لي، فقالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: علمَ عبدِي أنَّ له ربًّا يغفرُ الذنب ويأخذُ بالذنبِ، قد غفرتُ لعبدِي»(١).

وفي حديثِ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ، عن النبيِّ ﷺ: أنَّه لما ركبَ دابَّته حمدَ اللَّهَ ثلاثًا، وكبَّر ثلاثًا، وقالَ: «**سبحانَك إنِّي ظلمتُ نفسِي، فاغفرْ لِي، فإنَّه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ**» ثم ضحكَ، وقال: «**إنَّ ربَّك ليعجَبُ من عبدِه إذا قالَ**: ربِّ اغفرْ لي ذنوبي، **يعلمُ أنه لا يغفرُ الذُّنوبَ غيرِي**». خرَّجه الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ وصححه(٢).

وفي «الصحيحِ»(٣) عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**واللَّهِ؛ للَّهُ أرحمُ بعبادِه من الوالدةِ بولدِها**».

كان بعضُ أصحابِ ذي النونِ يطوفُ وينادي: آهٍ، أين قلبِي؟، مَنْ وجَدَ قلبي؟ فدخلَ يومًا بعضَ السككِ، فوجدَ صبيًّا يبكي وأمُّه تضربُه، ثم أخرجتُه من الدارِ، وأغلقتِ البابَ دونه، فجعل الصبيُّ يتلفَّتُ يمينًا وشمالاً لا يدري أين يذهبُ ولا أين يقصِدُ، فرجعَ إلى بابِ الدارِ، فَجَعَلَ يبْكي ويقولُ: يا أمَّاه مَنْ يفْتَحُ لي البابَ إذا أغلقتِ عنِّي بابَك؟ ومن يُدنيني من نفسِه إذا طردتيني؟ ومن ذا الذي يُدنيني بعد أن غضبتِ عليَّ؟ فرحمتْهُ أمُّه، فقامتْ فنظرتْ من خَلَلِ البابِ، فوجدتْ ولدَهَا تجري الدموعُ على خدَّيه متمعكًا في الترابِ، ففتحتِ البابَ، وأخذتْهُ حتى وضعتْهُ في حَجْرِها، وجعلتْ تُقبِّله،

(١) البخاري (٩/ ١٧٨).

(٢) «المسند» (١/ ٩٧، ١١٥، ١٢٨)، والترمذي (٣٤٤٦)، وأبو داود (٢٦٠٢)، وابن حبان (٢٦٩٨)، والبزار (٧٧١).

(٣) أخرجه: البخاري (٨/ ٩)، ومسلم (٨/ ٩٧) من حديث عمربن الخطاب ﷺ.

وتقولُ: يـا قُرَّةَ عينـي، ويا عزيزَ نفـسِي، أنت الذي حملتني على نفـسكَ، وأنت الذي تعـرَّضتَ لما حـلَّ بك، لو كنتَ أطعـتني لم تلـقَ منِّي مكروهًا، فتواجدَ الفتى، ثم قام: فصاحَ، وقال: قد وجدتُ قلبِي، قد وجدتُ قلبِي.

وتفكَّـروا فـي قـولـه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [آل عمران:١٣٥]، فإنَّ فيه إشارةً إلى أن المذنبينَ ليسَ لهُم من يلجئونَ إليه ويُعوِّلونَ عليـه في مغفرةِ ذنوبِهم غيرُهُ، وكذلك قولُهُ في حقِّ الثـلاثةِ الذين خُلِّفوا: ﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨]، فرتَّبَ توبتَه عليهم على ظنِّهم أنْ لا ملجأ من اللَّهِ إلا إليه، فإنَّ العبدَ إذا خافَ من مخلوقٍ، هربَ منه، وفرَّ إلى غيرِه، وأمَّا من خافَ من اللَّهِ، فما لهُ منْ ملجأ يلجأُ إليه، ولا مهرَب يهرَبُ إليه إلا هو، فيهربُ منه إليهِ، كما كان النبيُّ ﷺ يقولُ في دعائهِ: «**لا ملجأ، ولا منْجَا منكَ إلا إليكَ**»[1]، وكان يقولُ: «**أعوذُ برضاك من سَخَطِك، وبعفوكِ من عقوبتكَ، وبك منك**»[2].

قال الفضيلُ بنُ عياضٍ ـ رحمه اللَّهُ ـ: ما مِنْ ليلةٍ اختلطَ ظلامُها، وأرْخى الليلُ سِرْبالَ سِتْـرِها، إلا نادَى الجليلُ ـ جلَّ جلالُهُ ـ: منْ أعظمُ منِّي جودًا، والخلائقُ لي عاصونَ، وأنا لهُم مراقبٌ؟، أكلؤهُم في مـضاجِعِهم، كأنهم لم يعصوني، وأتولَّي حفظَهم، كأنَّهم لم يُذنبوا فيما بيني وبينَهُم، أجودُ بالفضلِ على العاصِي، وأتفضَّلُ على المسيء، من ذا الذي دعاني فلم أُلبِّه؟ أم منْ ذا

(١) أخرجه: البخاري (١/ ٧١)، (٨/ ٨٤)، ومسلم (٨/ ٧٧) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.
(٢) أخرجه: مسلم (٢/ ٤٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

الذي سألني فلم أعطِه؟، أم من ذا الذي أناخَ ببابي فنحَّيتُه؟ أنا الفضلُ، ومنِّي الفضلُ، أنا الجـوادُ، ومنِّي الجودُ، أنا الكريمُ، ومنِّي الـكرمُ، ومِن كرَمِي أن أغفرَ للعاصينَ بعدَ المعاصِي، ومن كـرَمِي أن أُعطيَ العبدَ ما سألني، وأُعطيه ما لم يسألْني، ومن كرمِي أن أُعطيَ التَّائبَ كأنَّه لم يعصِني، فأين عنِّي يهربُ الخلائقُ؟ وأين عن بابي يتنحَّى العاصونَ؟. خرَّجه أبو نعيمٍ.

ولبعضِهِم في المعنى:

أسـأتُ ولم أُحْسِن وجئـتُكَ تائبًـا وأنَّى لِعَـبْـدٍ عـن مـواليـه مـهْـرَبُ
يُؤَمِّلُ غُـفْـرَانًـا فـإنْ خـابَ ظَنُّه فما أحـدٌ منه على الأرضِ أخيبُ(١)

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ١٨ ـ ٢٢).

فهرس
الموضوعات والفوائد

فهرس الموضوعات والفوائد

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة
• الدعـــاء بـالخـيـــر الدهر كـلـه	٥٣٣
• التعرض لنفحات رحمة اللَّه في أيامه	٥٣٣
• يختـم على عـمل كل يوم	٥٣٣
• ذكـر نداء أيام الدنـيـا كل يوم	٥٣٣
• الليل والنهـار خزانتـان للأعمـال	٥٣٣
• مـثل الذاكر والغـافل مـثل الحيّ والميت	٥٣٤
• منزلة وشـرف القـائم ليـلاً	٥٣٤
• الليل والنهـار مـراحل ينزلهـا الناس	٥٣٤
• معنى: ﴿جعل الليـل والنهار خلفة..﴾	٥٣٥
• الصـبـر ضيـاء	٥٣٥
• الفـارق بين النـور والضـيـاء	٥٣٥
• بنو آدم قـسـمـان	٥٣٦
• معنى «الظالم لنفسه» و«المقتـصد»	٥٣٧
• ينقص من درجات العبد عند اللَّه بقـدر ما يصيب من الدنيا	٥٣٨
• ادخار اللَّه لعبـاده في الآخرة من فضول شـهوات الدنيا	٥٣٨
• الدنيـا سـجن المؤمـن وجنة الكافـر	٥٣٩
• مـعني «السـابق بـالخيـرات بإذن اللَّه»	٥٣٩
• كن في الدنيـا كـأنك غـريب أو عـابر سـبيـل	٥٤٠
• لذة النظر إلـى وجـه اللَّه أعظم نعـيم أهل الجنة	٥٤٠
• تجلّي اللَّه لأهل الجـنة ينسيـهم كل النعيم	٥٤١
• تمجـيد داود ـ عليـه السلام ـ لربه يوم القـيامـة	٥٤١
• تَسْليـم اللَّه على أهل جنـتـه	٥٤٢

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة
• بكاء إبليس من استغفار المؤمن	٥٦٤
• آية الاستغفار للأمة مكان كفارات الذنوب لبني إسرائيل	٥٦٤
• عطاء اللَّه لهذه الأمة خير مما أعطى بني إسرائيل	٥٦٥
• تفسير قوله: ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾	٥٦٥
• من تاب توبة نصوحًا بشروطها قطع بقبول توبته	٥٦٥
• الذنوب كلها تحت مشيئة اللَّه	٥٦٥
• اعتراف العبد بالذنب يقتضي الندم	٥٦٦
• «عسى» من اللَّه تكون واجبة	٥٦٦
• قد يقصد بالحسنة ما هو أعم من التوبة	٥٦٦
• من أحسن وضوءه وصلى واستغفر غفر له	٥٦٧
• الوضوء من أسباب مغفرة الذنوب	٥٦٨
• ذكر أسباب أخرى تغفر الذنوب	٥٦٨
• ذكر اللَّه خير عون للعاصي	٥٧٠
• البكاء على الخطيئة يحطها كحط الرياح الورق اليابس	٥٧١
• مجلس الذكر يكفر عشرًا من مجالس الباطل	٥٧١
• الحسنة يمحى بها تسع خطيئات	٥٧٢
• الحكايات جند من أجناد اللَّه	٥٧٢
• تفسير سورة يوسف •	
• اللَّه ـ جل وعلا ـ ولي أوليائه في الدنيا والآخرة	٥٧٣
• ذكر دعاء النبي ﷺ عند وفاته ﷺ	٥٧٣
• ذكر جواز الدعاء بالموت من غير ضر نزل	٥٧٣
• لا يجوز تمني الموت خوف الفتنة في الدين	٥٧٤

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

رَوَائِعُ التَّفْسِيرِ

الجَامِعُ لِتَفْسِيرِ الإِمَامِ ابْنِ رَجَبٍ الحَنْبَلِي

تَفْسِيرُ ابْنِ رَجَبٍ الحَنْبَلِي

للإمَامِ العَلَّامَة

الحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن رجب الحنبلي

جمع وتأليف وتعليق

أبي معاذ

طارق بن عوض الله بن محمد

المُجَلَّدُ الثَّانِي

دَارُ العَاصِمَة

لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

دار العاصمة

المملكة العربية السعودية

الرياض - ص ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١
هاتف ٤٩١٥١٥٤ - ٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

رَوَائِعُ التَّفْسِيرِ

الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي

تَفْسِيرِ

ابن رجب الحنبلي

بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ المؤْمِنُونَ

قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾

قد مدح اللَّه الخاشعينَ في صلاتِهِم، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١، ٢]، وقال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥].

رُوي عن عليٍّ بنِ أبي طالبٍ، قال: هو الخشوعُ في القلبِ، وأن تلينَ كنفكَ للمسلمِ، وأن لا تلتفتَ في صلاتِك(١).

وعنه قال: الخشوعُ خُشُوعُ القلبِ، وأن لا تلتفتَ يمينًا ولا شمالاً.

وعن ابنِ عباسٍ قال: ﴿خاشعونَ﴾ [المؤمنون:٢]: خائفونَ ساكنون(٢).

وعنِ الحسنِ قال: كان الخشوعُ في قلوبِهِم، فغضُّوا له البصرَ، وخفضُوا له الجناحَ.

وعن مجاهدٍ قال: هو الخشوعُ في القلبِ، والسكونُ في الصلاةِ(٣).

وعنه قالَ: هو خفضُ الجناحِ وغضُّ البصرِ، وكان المسلمون إذا قامَ أحدُهُم في الصلاةِ خافَ ربَّه أن يلتفتَ عن يمينِهِ أو شمالِهِ.

---

(١) أخرجه: وكيع في «الزهد» (٢/ ٥٩٩)، وابن المبارك في «الزهد» (١٤٤٨).
(٢) أخرجه: ابن جرير في «تفسيره» (١٨/ ٣)، والبيهقي (٢/ ٢٧٩).
(٣) أخرجه: البيهقي (٢/ ٢٨٠).

وعنه قالَ: العلمـاءُ إذا قامَ أحدُهم في الصلاةِ هابَ الرحـمنَ عزَّ وجلَّ أن يشذ نظرُهُ، أو يلتـفتَ، أو يقلِّب الحصى، أو يعبثَ بشيءٍ، أو يحـدِّثَ نفسَهُ بشيءٍ من الدنيا، إلا ناسيًا، ما دامَ في صلاتِهِ.

وعن الزهريِّ قال: هو سكونُ العبدِ في صلاتِهِ[1] .

وعن سعيـدِ بن جبيرٍ، قال: يعني: متـواضعينَ، لا يعرفُ مَنْ عن يمينِهِ، ولا مَنْ عنْ شمالِهِ ولا يلتفتُ من الخشوعُ للَّه عزَّ وجلَّ.

ورُوي عن حذيفةَ أنه رأى رجلاً يعبثُ فـي صلاتِهِ، فقالَ: لو خشعُ قلبُ هذا لخشعتْ جوارحُهُ.

ورُوي عن ابنِ المسيبِ.

ورُوي مرسلاً[2] .

فأصلُ الخشوعِ: هو خشوعُ القلبِ، وهو انكسارُهُ للَّه، وخضوعُهُ وسكونُهُ عن التفاتِهِ إلى غيرِ مَنْ هو بينَ يديهِ، فإذا خشعَ القلبُ خشعتِ الجوارحُ كلُّها تبعًـا لخشوعِهِ، ولهـذا كان النبيُّ ﷺ يقولُ في ركـوعِهِ: **«خشع لك سـمعي، وبصري، ومخِّي، وعظامي، وما استقلَّ به قدَمي»**[3] .

ومن جـمـلـةِ خـشوعِ الجـوارحِ: خشـوعُ البـصرِ أن يلتـفتَ عن يمينِهِ أو يسارِهِ.

---

(١) أخرجه: عبد الرزاق في «مصنفه» (٢/ ٢٥٤)، والطبري في «تفسيره» (١٨/ ٣).

(٢) راجـع: «السلسلة الضعيـفـة» (١١٠)، و«تكميـل النـفع» لشيخنـا محـمد بن عمـرو (حـديث ٢١).

(٣) أخرجه: مسلم (٢/ ١٨٥).

وقال ابنُ سيــرين: كان رسولُ اللَّه ﷺ يلتفتُ في الصــلاةِ عن يمينِه وعن يسارِه، فأنزلَ اللَّه تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:٢]، فخشعَ رسولُ اللَّه ﷺ، ولم يكنْ يلتفتْ يمنةً ولا يسرةً.

وخرَّجهُ الطبرانيُّ(١) من روايةِ ابنِ سيرينَ، عن أبي هريرة.

والمرسلُ أصحُّ(٢).

* * *

إنَّ اللَّه سبحانه وتعــالى مدحَ في كتابِهِ المخبتينَ لَهُ، والمُنْكَسِــرِينَ لِعظَمتهِ، والخاضعينَ.

فقالَ تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

وقالَ تعالى: ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥].

ووصفَ المؤمنينَ بالخشوعِ لهُ في أشرفِ عباداتِهِم التَّي هُم علَيْهَا يحافظونَ، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١,٢].

ووصفَ الذين أُوتوا العلمَ بالخـشوعِ، حيثُ يكونُ كلامُـه لهم مسمـوعًا، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٧:١٠٩].

---

(١) «المعجم الأوسط» (٤٠٨٢).

(٢) «فتح الباري» (٤/ ٣٣٦ ـ ٣٣٨)

وأصلُ الخشوعِ هو: لينُ القلبِ ورِقّتُه وسكونُه وخشوعُه وانكسارُه وحرقتُه، فإذا خشعَ القلبُ تبعهُ خشوعُ جميع الجوارحِ والأعضاءِ لأنَّها تابعةٌ له، كما قال ﷺ: **«ألا إنَّ في الجسد مُضْغَةً، إذا صلحتْ صلحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلبُ»**(١) .

فإذا خشعَ القلبُ، خشعَ السمعُ والبصرُ والرأسُ والوجهُ وسائرُ الأعضاءِ وما ينشأُ مِنْها حتى الكلامِ. ولهذا كانُ النبيُّ ﷺ يقولُ في ركوعِه في الصلاة: **«خشعَ لك سمعِي وبصرِي ومُخِّي وعظامِي»**(٢) .

وفي روايةٍ: **«وما استقلَّ به قدَمي»**.

ورأى بعضُ السَّلَفِ رجلاً يعبثُ بيده في صلاتِه فقالَ: لو خشعَ قلبُ هذا لخشعتْ جوارِحُه.

ورُويَ ذلك عن حُذيفة(٣) رضي الله عنه وسعيدِ بنِ المسيِّبِ(٤). ويُروى مرفوعًا بإسنادٍ لا يصح.

قال المسعوديُّ عن أبي سنانٍ عمَّن حدَّثه عن علي بنِ أبي طالبٍ رضي الله عنه في قولِه تعالى: ﴿**الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾ [المؤمنون:٢]. قال: هوَ الخشوعُ في القلبِ وأن تُلينَ كنفكَ للمرءِ المسلمِ وأن لا تلتفتَ في صلاتِكِ(٥).

---

(١) أخرجه البخاري (١/ ٢٠ ـ ٢١)، (٣/ ٦٩ ـ ٧٠)، ومسلم (٥ ـ ٥٠ ـ ٥١) من حديث النعمان ابن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: مسلم (٢/ ١٨٥ ـ ١٨٦) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: محمد بن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٥٠).

(٤) أخرجه: ابن المبارك في «الزهد» (٤١٩)، وعبد الرزاق في «المصنف» (٢/ ٢٦٦)، وابن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٥١).

(٥) أخرجه: وكيع في «الزهد» (٤٢٨)، وابن المبارك (٤٠٣)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٩٣).

وقالَ عطاءُ بنُ السائبِ عن رجلٍ عن عليٍّ ﷺ: «الخشوعُ: خشوعُ القلبِ، وأن لا يلتفتَ يمينًا وشمالاً»(١).

وقال: عن علي بنِ أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ ﷺ في قوله تعالى: : ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:٢]. قال: خائفونَ ساكِنون(٢).

وقال ابنُ شَوْذب عن الحسنِ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: «كان الخشوعُ في قلوبِهم فغضُّوا له البصرَ وخفضوا له الجَناحَ».

وقال منصور عن مجاهدٍ: هو الخشوعُ في القلبِ، والسكونُ في الصلاةِ(٣).

وقال ليث عن مجاهدٍ: من ذلك: خفضُ الجناحِ، وغضُّ البصرِ، وكانَ المسلمونَ إذا قامَ أحدُهم إلى الصلاةِ خافَ ربه أن يلتفتَ عن يمينِه أو شمالِه.

وقال عطاءٌ الخراسانيُّ: الخشوعُ: خشوعُ القلبِ والطَّرْفِ.

وقال الزهريُّ: هو سكونُ العبدِ في صلاتِه(٤).

وعن قتادةَ قالَ: الخشوعُ في القلبِ هو الخوفُ وغضُّ البصرِ في الصلاةِ.

وقال ابنُ أبي نَجيح عن مجاهدٍ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ في قولِه تعالى: ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠] قال: متواضِعينَ.

---

(١) أخرجه: ابن نصر المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٣٩).

(٢) أخرجه: الطبري في «التفسير» (١٨/ ٣).

(٣) أخرجه: ابن المبارك في «الزهد» (٥٥)، والطبري في «التفسير» (١٨/ ٢).

(٤) أخرجه: عبد الرزاق في «المصنف» (٢/ ٢٥٤)، وابن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (١٤١)، والطبري (١٨/ ٣).

وقد وصَفَ اللَّهُ تعالى في كتابِه الأرضَ بالخشوعِ فقالَ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت:٣٩]، فاهتزازُهَا وربوُّها - وهو ارتفاعُها - مُزيلٌ لخشوعِهَا، فدَلَّ على أنَّ الخشوعَ الذي كانتْ عليه هو سكونُها وانخفاضُها.

وكذلك القلبُ إذا خَشَعَ فإنَّه يَسْكُنُ خواطِرُهُ وإرادتُه الرديئةُ التي تنشأُ عن اتِّباعِ الهَوى، وينكسرُ ويخضعُ للَّه عز وجل، فيزولُ بذلك ما كانَ فيه من البَأْوِ[١] والترفعِ والتعاظُمِ والتكبُّرِ، ومتى سكَنَ ذلكَ في القلبِ خشعتِ الأعضاءُ والجوارحُ والحركاتُ كلُّها حتى الصَّوتُ.

وقد وصفَ اللَّهُ تعالَى الأصواتَ بالخشوعِ في قوله: ﴿وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾ [طه:١٠٨]، فخشوعُ الأصواتِ هو سكونُها وانخفاضُها بعد ارتفاعِهَا.

وكذلكَ وصفَ وجوهَ الكُفارِ وأبصارَهم في يومِ القيامةِ بالخشوعِ، فدلَّ ذلك على دخولِ الخشوعِ في هذه الأعضاءِ كلِّها.

ومتى تكلَّفَ الإنسانُ تعَاطي الخشوع في جوارحِهِ وأطرافِه مع فراغِ قلبِه من الخشوعِ وخُلوِّه منه كانَ ذلك خشوعَ نفاقٍ، وهو الذي كانَ السلفُ يستعيذونَ منه، كما قال بعضُهم: استعيذوا باللَّهِ من خشوعِ النفاقِ. قالوا: وما خشوعُ النفاقِ؟ قال: أن يُرى الجسَدُ خاشعًا والقلبُ ليس بخاشعٍ[٢].

ونظر عمُر رضي الله عنه إلى شابٍّ قد نكسَ رأسَه، فقالَ له: يا هذا، ارفعْ

---

(١) لم يستطع محقق الكتاب قراءتها، وقال: «تشبه: الباة» والصواب ما أثبتناه، و«البأو»: العظمة والفخر والكبر.

(٢) أخرجه: ابن المبارك في «الزهد» (٤٦) من قول أبي الدرداء أو أبي هريرة رضي الله عنهما.

رأسكَ، فإنَّ الخشوعَ لا يزيدُ على ما في القلبِ.

فمن أظهَر للناسِ خشوعًا فوقَ ما في قلبِهِ فإنَّما هو نفاقٌ على نفاقٍ.

وأصلُ الخشوعِ الحاصلُ في القلبِ، إنَّما هوَ من معرفةِ اللَّه، ومعرفةِ عظمتِهِ وجلالِهِ وكمالِهِ، فمن كانَ باللَّه أعرفَ كانَ له أخشعَ.

وتتفاوتُ القلوبُ في الخشوعِ بحَسبِ تفاوُتِ معرفَتِهَا لمن خشعت، وبحسبِ تفاوتِ مشاهدةِ القلوبِ للصفاتِ المقتضيةِ للخشوعِ، فمِنْ خاشعٍ لقوةِ مُطالعتهِ قُربَ اللَّهِ من عبدِهِ واطِّلاعِهِ على سرِّه وضميرِهِ المقتضي للاستحياءِ من اللَّهِ تعالى ومراقبتِهِ في الحركاتِ والسكناتِ، ومن خاشع لمطالعتِهِ لجلالِ اللَّه وعظمتهِ وكبريائهِ المقتضي لهيبتهِ، ومن خاشعٍ لمطالعتهِ لكمالهِ وجمالهِ المقتضِي للاستغراقِ في محبتهِ والشوقِ إلى لقائهِ ورؤيتهِ، ومن خاشعٍ لمُطالعتهِ شدَّةَ بطشِهِ وانتقامِهِ وعقابِهِ المقتضِي للخوفِ منهُ.

وهو سبحانه وتعالى جابِرُ القلوبِ المنكسرةِ لأجله فهو سبحانه وتعالى يتقرَّبُ من القلوبِ الخاشعةِ له كما يتقربُ ممن يناجيهِ في الصلاةِ، وممَّن يعفِّرُ له وَجْهَهُ في الترابِ بالسجودِ.

وكما يتقربُ من وفدِهِ وزوارِ بيتهِ الواقفينَ بين يديه المتضرعينَ إليه في الوقوفِ بعرفةَ ويدنُو ويباهِي بهم الملائكةَ.

وكما يتقربُ من عبادِهِ الدائبينَ له، السائلِين له، المستغفرِين من ذنوبهِم بالأسحارِ، ويجيبُ دعاءَهم ويعطِيهم سؤالَهم.

ولا جبرَ لانكسارِ العبدِ أعظمُ من القربِ والإجابةِ.

روى الإمامُ أحمدُ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ في كتابِ «الزهد»[1] بإسنادِه عن عمرانَ القصير قال: «قالَ موسى بنُ عمرانَ ـ عليه السلام ـ: أي ربِّ أين أبغيكَ؟ قال: ابغِني عندَ المنكسرةِ قلوبُهم، إنِّي أدنو منهُم كلَّ يومٍ باعًا، ولولا ذلكَ لانهدمُوا».

وروى إبراهيمُ بن الجُنَيد ـ رحمه اللَّه تعالى ـ في كتابِ «المحبةِ»: عن جعفرِ بنِ سليمانَ قالَ: سمعتُ مالكَ بنَ دينارٍ يقولُ: «قال موسى ـ عليه السلام ـ: إلهي أين أبغيكَ؟ فأوحَى اللَّهُ عز وجلَّ إليه: أن يا موسى ابغني عند المنكسرةِ قلوبُهم، فإني أدنُو منهم في كلِّ يومٍ وليلةٍ باعًا ولولا ذلك لانهدمُوا، قال جعفر: فقلتُ لمالكِ بن دينار: كيف المنكسرةُ قلوبُهم؟ فقال: سألتُ الذي قرأ في الكتب فقال: سألتُ الذي سألَ عبد اللَّه بن سلام فقالَ: سألت عبدَ اللَّهِ بنَ سلامٍ عن المنكسرةِ قلوبُهم ما يعني؟ قال: المنكسرةُ قلوبُهم بحبِّ اللَّهِ عز وجل عن حبِّ غيرِه».

وقد جاءَ في السنةِ الصحيحةِ ما يشهدُ لقربِ اللَّهِ من القلبِ المنكسرِ ببلائِه الصابرِ على قضائِه أو الراضِي بذلكَ، كما في «صحيحِ مسلمٍ»[2] عن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ: **«يقولُ اللَّه عز وجل يومَ القيامةِ: يا ابنَ آدمَ مرضتُ فلم تَعُدْني، قال: يا ربِّ كيف أعودُك وأنتَ ربُّ العالمينَ؟ قال: أمَا علمتَ أنَّ عبدي فُلانًا مرضَ فلم تَعُدْه، أما علِمْت أنّكَ لو عُدتَهُ لوجَدْتني عندَهُ»**.

وروى أبو نُعيمٍ من طريقِ ضمرةَ عن ابن شَوْذبٍ قالَ: «أوحى اللَّهُ تعالى

(١) (ص ٧٥).
(٢) «صحيح مسلم» (٨/ ١٣).

إلى موسَى ـ عليه السلامُ ـ: أتدري لأيِّ شيءٍ اصطفيتُكَ على الناسِ برسالاتِي وبكلامِي؟ قال: لا يا ربِّ! قال: لأنه لم يتواضعْ لي أحدٌ تواضُعَكَ»[(١)] .

وهذا الخشوعُ هو العلمُ النافعُ، وهو أولُ ما يُرفعُ من العلمِ.

خرَّجِ النَّسائيُّ[(٢)] من حديثِ جُبَيرِ بن نفيرٍ رضي الله عنه عن عَوْفِ بن مالكٍ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ نظرَ إلى السماءِ يومًا وقال: «**هذا أوانُ يرفعُ العلمُ**» فقال رجلٌ من الأنصارِ ـ يُقالُ له: زيادُ بن لَبيدٍ ـ: يا رسولَ اللَّهِ: ويُرْفَعُ العلمُ وقد أُثبتَ وَوَعَتْهُ القُلوبُ؟ فقال له رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إنْ كنتُ لأحسبكَ من أفقه أهلِ المدينة**» وذكرَ ضلالةَ اليهودِ والنصارَى على ما في أيديهم من كتابِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

قال: فلقيتُ شدَّادَ بنَ أوسٍ فحدثتُه بحديثِ عوفِ بن مالكٍ، فقال: صدقَ عوفٌ، ألا أخبرُكَ بأولِ ذلك يُرفع؟ قلتُ: بلى، قالَ: الخشوعُ، حتَّى لا ترى خاشِعًا.

وخرَّجه الترمذيُّ[(٣)] من حديثِ جبيرِ بن نفيرٍ عن أبي الدرداءَ عن النبي ﷺ بنحوِه، وفي آخره: قال جبيرٌ: فلقيتُ عبادةَ بنَ الصامتِ، فقلتُ: ألا تسمعُ ما يقولُ أخوك أبو الدرداء ـ فأخبرتُه بالذي قال؟ قال: صدقَ أبو الدرداء، لو شئتَ لحدثتك بأول علمٍ يُرفع من الناسِ: الخشوعُ، يوشكُ أن تدخلَ مسجدَ الجامع فلا تَرى فيه رجُلًا خاشِعًا.

---

(١) «الحلية» (٦/ ١٣٠).

(٢) «السنن الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» للمزي (١٠٩٠٦)، وهو عند أحمد (٦/ ٢٦)، والحاكم (١/ ٩٨).

(٣) «الجامع» (٢٦٥٣).

وقد قيل: إن روايةَ النسائيِّ أرجحُ.

وقد روى سعيدُ بنُ بشيرٍ عن قتادةَ عن الحسنِ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ عن شدَّادِ بنِ أوسٍ عن النبي ﷺ قال: «أولُ ما يرفعُ من الناسِ الخشوعُ» فذكره[١].

ورواه أبو بكرِ بنِ أبي مريمَ عن ضمرةَ بنِ حبيبٍ مُرسلاً[٢].

ورُوي نحوه عن حذيفةَ من قولهِ.

فالعلمُ النافعُ هو ما باشرَ القلوبَ فأوجبَ لها السكينةَ والخشية والإخباتَ للَّه والتواضعَ والانكسارَ له، وإذا لم يباشر القلبَ ذلك من العلمِ، وإنما كانَ على اللسانِ فهو حُجَّةُ اللَّهِ على ابنِ آدمَ يقومُ على صاحبهِ وغيرِه، كما قالَ ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: «إنَّ أقوامًا يقرأونَ القرآنَ لا يُجاوزُ تراقيهم، ولكنْ إذا وقعَ في القلبِ فَرَسَخ فيه نَفَع» خرَّجه مسلم[٣].

وقال الحسنُ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: العلمُ عِلمانِ: علمٌ باللسانِ وعلمٌ بالقلبِ، فعلمُ القلبِ: هو العلمُ النافعُ، وعلمُ اللسانِ: هو حجة اللَّهِ على ابنِ آدمَ.

ورُويَ عن الحسنِ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ مرسلاً عن النبيِّ ﷺ ورويَ عنه عن جابرٍ رضي الله عنه مرفوعًا، وعنه عن أنسٍ رضي الله عنه مرفوعًا، ولا يصحُّ وصلُه.

فأخبر النبيُّ ﷺ أن العلمَ عندَ أهلِ الكتابَينِ من قَبلنا موجودٌ بأيديهم ولا ينتفعونَ بشيءٍ منه لَمَّا فقدُوا المقصودَ منهُ، وهو وصولُه إلى قلوبهِم، حتى يجدُوا حلاوةَ الإيمانِ به ومنفعتَه بحصولِ الخشيةِ والإنابةِ لقلوبهِم، وإنما هُوَ علَى ألسنتهِم تقومُ به الحُجَّةُ عليهِم.

(١) أخرج: الطبراني في «المعجم الكبير» (٧/ ٢٩٥).

(٢) أخرجه: أحمد في «الزهد» (ص ٣٩٥).

(٣) «صحيح مسلم» (٢/ ٢٠٤).

ولهَذا المعـنى وَصَفَ اللَّهُ تعالَى في كـتابِهِ العلمـاءَ بالخشيـةِ كَمَـا قالَ اللَّه تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨].

وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩].

ووصفَ العُلماءَ من أهلِ الكتابِ قبلَنا بالخشوع؛ كَما قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

فقولُهُ تباركَ وتعالَى في وصفِ هؤلاءِ الذينَ أوتُوا العلم: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾ [الإسراء:١٠٩]. مدحٌ لمن أوجبَ له سـماعُ كـتابِ اللَّه الخُشُوعَ في قلبـه، وقالَ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢، ٢٣].

ولينُ القلوبِ هو زوالُ قسوتِهَا بحدوثِ الخُشوعِ فيها والرقةِ.

وقد وبَّخ اللَّهُ من لا يخشعُ قلبُه لسماعِ كلامِه وتدبُّرِه، قالَ سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:١٦].

قالَ ابنُ مسْعودٍ ﷺ: «مـا كانَ بين إسلامِنا وبينَ أنْ عوتبْنا بهذهِ الآيةِ إلا أربعَ سنينَ» خرَّجه مسلم[١]، وخرَّجه غيرُه وزادَ فيه: «فجعلَ المسلمونَ يعاتبُ

(١) «صحيح مسلم» (٨/ ٢٤٣).

بعضُهم بعضًا».

وخرَّجَ ابنُ ماجه(١) من حديثِ ابنِ الزُّبيرِ ﷺ قالَ: «لم يكنْ بينَ إسلامِهم وبينَ أن نزلَتْ هذه الآيةُ يعاتبهمُ اللَّهُ بها، إلا أربعَ سنينَ».

وقد سمعَ كثيرٌ من الصالحينَ هذه الآيةَ تُتلى، فأثَّرتْ فيهم آثارًا متعددةً فمنهُم من ماتَ عند ذلكَ لانصداعِ قلبِه بها، ومنهُم من تابَ عند ذلكَ وخرجَ عما كانَ فيه.

وقد ذكرنا أخبارَهم في كتابِ «الاستغناء بالقرآن».

وقالَ تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

قال أبو عمرانَ الجونيِّ: واللَّهِ؛ لقدْ صرفَ إلينا ربُّنا في هذا القرآنِ ما لو صرفَهُ إلى الجبالِ لحتَّها وجبَاها(٢).

وكان مالكُ بنُ دينارٍ ـ رحمه اللَّهُ ـ يقرأُ هذه الآيةَ ثمَّ يقولُ: أقسمُ لكم، لا يؤمنُ عبدٌ بهذا القرآنِ إلا صُدِّعَ قلبُه(٣).

ورُويَ عن الحسنِ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ قالَ: يا ابنَ آدمَ، إذا وسوسَ لك الشيطانُ بخطيئة أو حدَّثت بها نفسَكَ، فاذكرْ عندَ ذلكَ ما حَملَكَ اللَّهُ من كتابِه مما لو حملتْهُ الجبالُ الرواسي لخشعتْ وتصدَّعتْ أمَا سمعتَه يقولُ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر:٢١].

---

(١) «السنن» (٤١٩٢).

(٢) أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣١١).

(٣) أخرجه: أحمد في «الزهد» (ص ٣١٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٧٩).

فإنما ضرب لكَ الأمثالَ لتتفكرَ فيها وتعتبرَ بها وتزدجرَ عن معاصِي اللَّه عز وجل، وأنتَ يا ابنَ آدمَ أحقُّ أن تخشعَ لذكرِ اللَّه ومـا حَمَّلكَ من كتابِه وآتاكَ من حكمِه، لأنَّ عليكَ الحسابَ ولكَ الجنةُ أو النارُ.

وقد كان النبيُّ ﷺ يستعيذُ باللَّه من قلبٍ لا يخشعُ، كما في «صحيحِ مسلمٍ»[1] عن زيدِ بنِ أرقمَ: أن النبيَّ ﷺ كانَ يقولُ: **«اللهمَّ إني أعوذُ بكَ من علمٍ لا ينفعُ، ومن قلبٍ لا يخشعُ، ومن نفسٍ لا تشبعُ، ومن دعوةٍ لا يُستجابُ لَها»**.

وقد رُويَ نحوُه عن النبيِّ ﷺ من وجوهٍ متعددةٍ.

ويُروى عن كعبِ الأحبارِ قالَ: مكتوبٌ في الإنجيلِ: «يا عيسى، قلبٌ لا يخشعُ عملُه لا ينفعُ، وصوتُه لا يُسمعُ، ودعاؤُه لا يُرفعُ».

قال أسدُ بنُ موسى في كتابِ «الورعِ»: حدثنا مُباركُ بنُ فَضالةَ قالَ: كان الحسنُ - رحمه اللَّه تعالى - يقولُ: إن المؤمنينَ لَمَّا جاءتْهُم هذه الدعوةُ من اللَّه صدَّقوا بها وأفْضَى يقينُها إلى قلوبِهم خشعتْ لذلكَ قلوبُهُم وأبدانُهم وأبصارُهم، كنتَ واللَّهِ إذا رأيتَهم رأيتَ قومًا كأنَّهم رَأْيُ عينٍ، فواللَّه؛ ما كانُوا بأهلِ جدلٍ ولا باطلٍ، ولا اطمأنُّوا إلا إلى كتابِ اللَّه، ولا أظهرُوا ما ليسَ في قلوبِهم، ولكنْ جاءَهُم عن اللَّهِ أمرٌ فصدَّقوا به، فَنَعَتَهُم اللَّهُ تعالى في القرآنِ أحسنَ نعتٍ فقال: ﴿**وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا**﴾ [الفرقان: ٦٣].

قال الحسنُ: الهونُ في كلامِ العربِ، اللينُ والسكينةُ والوقارُ. قال: ﴿**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا**﴾ [الفرقان: ٦٣].

قال: حلماءُ لا يجهلونَ، وإذا جُهِلَ عليهِم حَلموا، يُصاحِبونَ عبادَ اللَّهِ

---

(١) «صحيح مسلم» (٨/ ٨١).

نهارهم بما تسمعونَ، ثم ذكرَ ليلَهم خيرَ ليلٍ فقالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان:٦٤].

ينتصبون للَّه على أقدامِهم، ويفترشونَ وجوهَهُم لربِّهم سُجدًا، تجري دموعُهم على خُدودِهم فرقًا من ربِّهم لأمرٍ ما، أسْهَرُوا له ليلَهم، ولأمرٍ ما، خَشَعُوا له نهارَهُم، ثم قالَ: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾ [الفرقان:٦٥].

قالَ: وكلُّ شيءٍ يُصيبُ ابنَ آدمَ ثمَّ يزولُ عنه فليس بغرامٍ، إنما الغرامُ: اللازمُ له ما دامت السماواتُ والأرضُ، قالَ: صدقَ القومُ، واللَّه الذي لا إله إلا هوَ، فعملُوا ولم يتمنَوا، فإياكم - رحمكم اللَّهُ - وهذه الأماني، فإن اللَّهَ لم يُعطِ عبدًا بالأمنيةِ خيرًا قطُّ في الدنيا والآخرةِ، وكانَ يقولُ: يالَهَا موعظة لو وافقت من القُلوبِ حياةً.

وقد شرعَ اللَّهُ لعبادِهِ من أنواعِ العباداتِ ما يظهرُ فيه خشوعُ الأبدان الناشيءُ عن خشوعِ القلبِ وذُلِّه وانكسارِه، ومن أعظمِ ما يظهرُ فيه خشوعُ الأبدانِ للَّه تعالى منَ العبادات: الصلاةُ، وقد مدحَ اللَّهُ تعالى الخاشعينَ فيها بقولِه عزَّ وجلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:١-٢].

وقد سبقَ بعضُ ما قاله السلفُ في تفسيرِ الخشوعِ في الصلاةِ.

وقال ابنُ لَهيعةَ عن عطاءِ بنِ دينارٍ رحمه اللَّه تعالى عن سعيدِ بن جُبيرٍ - رحمه اللَّه تعالى -: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:٢] يعني: متواضعينَ لا يعرفُ مَنْ عنْ يمينِه ولا مَنْ عن شمالِه، ولا يلتفتُ في الخشوعِ للَّه عزَّ وجلَّ.

وقال ابنُ المباركِ عن أبي جعفرٍ عن ليثٍ عن مجاهدٍ: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨].

قال: القنوتُ: الركونُ والخشوعُ وغضُّ البصرِ وخفضُ الجناحِ من رهبةِ اللَّه عز وجل[١].

قال: وكانَ العلماءُ إذا قامَ أحدهُم في الصلاةِ هابَ الرحمنَ عزَّ وجلَّ أن يشذَّ نظرُه أو يلتفتَ أو يُقلِّبَ الحصى أو يعبثَ بشيءٍ أو يُحدِّثَ - يعني: نفسهُ - بشيءٍ من الدنيا، إلا ناسيًا، ما دامَ في صلاتهِ.

وقال منصورٌ عن مجاهدٍ رحمه اللَّهُ تعالى في قولهِ تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ [الفتح:٢٩].

قال: الخشوعُ في الصلاةِ[٢].

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ والنسائيُّ والترمذيُّ[٣] من حديثِ الفضلِ بن عباسٍ رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**الصلاةُ مثنى مثنى، تشهَّدُ في كلِّ ركعتينِ، وتخشَّعُ وتضَرَّعُ، وتمسْكَنُ، وتُقنعُ يديك**» يقولُ: «**ترْفعهُما إلى ربِّك عزَّ وجلَّ وتقولُ: يا رب يا رب يا رب ثلاثًا فمنْ لم يفعلْ ذلكَ فهي خِداَجٌ**».

وفي «صحيح مسلم»[٤] عن عثمانَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**ما من امرئٍ مسلمٍ تحضرُه صلاةٌ مكتوبةٌ فيحسنُ وُضوءَها وخشوعَها وركوعَها إلا كانَت كفارةً لما**

---

(١) أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٨٢).

(٢) أخرجه: ابن جرير في «التفسير» (٢٦/ ٧٠).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢١١)، والترمذي (٣٨٥)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (١١٠٤٣).

(٤) مسلم (١/ ١٤٢).

قبلَها من الذنوبِ، ما لم تُؤْتَ كبيرةٌ، وذلكَ الدهرَ كلَّه».

فممَّا يظهرُ فيه الخشوعُ والذلُّ والانكسارُ من أفعالِ الصلاةِ: وضعُ اليدين إحداهُما على الأخرى في حالِ القيامِ، وقد رُوي عن الإمام أحمدَ ـ رحمه اللَّه ـ أنه سُئلَ عن المرادِ بذلكَ، فقالَ: هو ذلٌّ بين يَدي عزيزٍ(١).

قال عليُّ بنُ محمدٍ المصريُّ الواعظُ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: ما سمعتُ في العلمِ بأحسنَ من هذا(٢).

ورُوي عن بِشرٍ الحافي ـ رحمه اللَّه تعالى ـ أنه قال: «أشتهي منذ أربعينَ سنةً أن أضعَ يداً على يدٍ في الصلاةِ ما يمنعُني من ذلكَ إلا أن أكونَ قد أظهرتُ من الخشوعِ ما ليس في القلبِ مثلُه»(٣) وروى محمدُ بنُ نصرٍ المروزيُّ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ بإسنادِهِ عن أبي هريرةَ ﷺ قال: يُحشرُ الناسُ يومَ القيامةِ على قدرِ صنيعهم في الصلاةِ(٤)، وفسرهُ بعضُ رواتِهِ(٥) فقبضَ شمالَه بيمينِه وانحنَى هكذا.

وبإسنادِه عن أبي صالحٍ السمَّانِ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ قال: يُبعثُ الناسُ يومَ القيامةِ هكذا، ووضَع إحْدى يديه على الأخرَى(٦).

وملاحظةُ هذا المعنى في الصلاةِ يُوجبُ للمصلِّي أن يتذكَّرَ وقوفَه بين يدي اللَّه عزَّ وجلَّ للحسابِ.

---

(١) رواه ابن أبي يعلى في «طبقات الحنابلة» (١/ ٨٤).

(٢) ذكره في «طبقات الحنابلة» (١/ ٢٢٩).

(٣) رواه الخطيب ـ(١٤/ ٣٩٩).

(٤) «تعظيم قدر الصلاة» (٣٣١).

(٥) وهو أبو النضر، كما في الأثر السابق.

(٦) «تعظيم قدر الصلاة» (٣٣٢).

كان ذو النونِ ـ رحمه اللَّهُ تعالى ـ يقولُ في وصفِ العُبَّاد: لو رأيتَ أحدَهُم وقد قامَ إلى صلاتهِ فلمَّا وقفَ في محرابِهِ واستفتحَ كلامَ سيِّده، خطرَ على قلبهِ أنَّ ذلكَ المقامَ هو المقامُ الذي يقومُ الناسُ فيه لربِّ العالمينَ، فانخلعَ قلبه وذهلَ لبُّه. خرَّجه أبو نعيم ـ رحمه اللَّه تعالى[١].

ومن ذلكَ: إقبالُه على اللَّهِ عز وجل، وعدمُ التفاتهِ إلى غيرهِ، وهو نوعانِ:

أحدهما: عدمُ التفاتِ قلبهِ إلى غيرِ مَنْ هو مناجٍ لهُ، وتفريغُ القلبِ للربِّ عزَّ وجل.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[٢] عن عمرِو بن عبسةَ رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ أنه ذكرَ فضلَ الوضوءِ وثوابَه، ثم قالَ: «**فإنْ هو قامَ فصلَّى فحمدَ اللَّهَ وأثنى عليه ومجدَه بالذي هو أهلُه، وفرَّغَ قلبَه للَّهِ، إلا انصرفَ من خطيئتِهِ كيوم ولدتْه أمُّه**».

والثاني: عدمُ الالتفاتِ بالبصرِ يمينًا وشمالاً، وقَصرُ النظرِ على موضعِ السجودِ، وهو من لوازمِ الخشوعِ للقلبِ وعدمِ التفاتهِ، ولهذا رأى بعضُ السَّلفِ مصليًا يعبثُ في صلاتهِ فقالَ: لو خشعَ قلبُ هذا لخشعتْ جوارحُه، وقد سبقَ ذكرُه.

وخرَّجَ الطبرانيُّ[٣] من حديثِ ابنِ سيرينَ عن أبي هُريرةَ رضي الله عنه قال: «كان النبيُّ ﷺ، يلتفتُ في الصلاةِ عن يمينهِ وعن يسارِه، ثمَّ أنزلَ اللَّهُ تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ**﴾ [المؤمنون:١، ٢] فخشعَ رسولُ اللَّه ﷺ فلم يكنْ يلتفتُ يمنةً ولا يسرةً».

(١) رواه أبو نعيم في «الحلية» (٩/٣٣٩ ـ ٣٤٠)، وهو جزء من أثر طويل.
(٢) مسلم (٢/٢٠٨)، وأحمد في «المسند» (٤/١١١، ١١٢)، والنسائي (١/٩١، ٩٢).
(٣) الطبراني في «الأوسط» (٤٠٨٢).

ورواه غيرُه عن ابنِ سيرينَ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ مرسلاً، وهو أصحُّ[(١)].

وخرَّجَ ابنُ ماجه[(٢)] من حديثِ أمِّ سلمةَ أمِّ المؤمنين رضي الله عنها قالتْ: كان الناسُ في عهدِ النبيِّ ﷺ إذا قامَ أحدُهم يصلِّي لم يعدُ بصرُه موضعَ قدميه، فتوفِّي النبيُّ ﷺ، فكانَ الناسُ إذا قامَ أحدُهم إلى الصلاةِ لم يعدُ بصرُه موضعَ جبهتِه، فتوفي أبو بكرٍ، فكانَ عمرُ رضي الله عنه، فكانَ الناسُ إذا قام أحدُهم يصلِّي لم يَعْدُ بَصَرُ أحدِهم موضع القِبْلَةِ، وكان عثمانُ بنُ عفانَ رضي الله عنه، فكانت الفتنةُ، فتلفتَ الناسُ يمينًا وشمالاً».

وفي «صحيح البخاري»[(٣)] عن عائشةَ رضي الله عنها: سألتُ النبيَّ ﷺ عنِ الالتفاتِ في الصلاةِ فقال: **«هو اختلاسٌ يختلسُه الشيطانُ من صلاةِ العبدِ»**.

وخرَّجَ الإمام أحمد ـ رحمه اللَّه تعالى ـ وأبو داودَ والنسائيُّ[(٤)] من حديث أبي ذرٍّ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: **«لا يزالُ اللَّهُ مقبلاً على العبدِ في صلاتِه، ما لم يلتفتْ، فإذا التفتَ انصرفَ عنهُ»**.

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ[(٥)] من حديثِ الحارثِ الأشعريِّ عن النبيِّ ﷺ: **«إنَّ اللَّهَ أمرَ يحيى بنَ زكريا بخمسِ كلمات أن يعملَ بهنَّ، ويأمرَ بني إسرائيل أن يعملوا بهنَّ»** فذكر منها: **«وآمركُم بالصلاةِ، فإنَّ اللَّه ينصبُ وجهَهُ لوجهِ عبدِهِ ما لم يلتفتْ، فإذا صليتُم فلا تلتفتُوا»**.

---

(١) أخرجه: أبو داود في «المراسيل» (ص ٨) عن ابن سيرين مرسلاً.
(٢) أخرجه: ابن ماجه (١٦٣٤).
(٣) البخاري (١/ ١٩١).
(٤) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ١٧٢)، وأبو داود (٩٠٩)، والنسائي (٣/ ٨).
(٥) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/ ١٣٠، ٢٠٢)، والترمذي (٢٨٦٣)، وابن حبان (٦٢٣٣).

وفي المعنى أحاديثُ أُخَرُ متعدِّدةٌ.

وقال عطاءٌ: سمعتُ أبا هُريرة يقول: «إذا صلَّى أحدكُم فلا يلتفتُ؛ فإنه يناجِي ربَّه، إنَّ ربَّه أمامه، وإنه يناجيه فلا يلتفتُ»[(١)].

قال عطاءٌ - رحمه اللَّه تعالى -: وبلغنَا أن الربَّ عز وجل يقولُ: «**يا ابنَ آدمَ، إلى مَنْ تلتفت؟ أنا خيرٌ لكَ مِمَّن تلتفتَ إليه**». وخرَّجه البزَّارُ[(٢)] وغيرُه مرفوعًا، والموقوفُ أصحُّ[(٣)].

وقال أبو عمرانَ الجونيُّ - رحمه اللَّه تعالى -: أَوحى اللَّهُ عز وجلَّ إلى موسى - عليه السلامُ - يا موسى، إذا قمتَ بين يديَّ فقمْ مقامَ العبدِ الحقيرِ الذليلِ، وذُمَّ نفسَكَ، فهي أَوْلَى بالذمِّ، وناجِني بقلبٍ وجلٍ ولسانٍ صادقٍ.

ومن ذلك: الركوعُ، وهو ذلٌّ بظاهرِ الجسدِ.

ولهذا كانتِ العربُ تأنَفُ منهُ ولا تفعلهُ حتى بايعَ بعضُهم النبيَّ ﷺ على أن لا يخرَّ إلا قائمًا[(٤)] يعني: أن يسجدَ من غيرِ ركوعٍ.

كذا فسره الإمامُ أحمدُ - رحمه اللَّه تعالى - والمحققونَ من العلماءِ.

وقال اللَّه تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لا يَرْكَعُونَ**﴾ [المرسلات:٤٨]، وتمامُ الخضوعِ في الركوعِ: أن يخضعَ القلبُ للَّهِ ويذلَ له، فيتمُّ بذلكَ خضوعُ العبدِ بباطنه وظاهرِه للَّه عزَّ وجلَّ.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» (٣٢٧٠).

(٢) أخرجه: البزار (٥٥٣) «كشف الأستار».

(٣) ومن الموقوف ما رواه: عبد الرزاق في «المصنف» (٢/ ٢٥٥ - ٢٥٦).

(٤) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٤٠٢) عن حكيم بن حزام بلفظ: «بايعت رسولَ اللَّه ﷺ على أن لا أخرَّ إلا قائمًا، قال: قلتُ: يا رسول اللَّه، الرجل يسألني البيع وليس عندي، أفأبيعه؟ قال: **لا تبع ما ليس عندك**»، رواه النسائي (٢/ ٢٠٥).

ولهذا كـان النبيُّ ﷺ يقولُ في ركـوعِهِ: «**خشع لك سمْعي وبصري ومُخِّي وعظامي وما استقلَّ به قدمِي**».

إشارةً إلى: أن خشوعَهُ في ركوعِهِ قد حصلَ بجميعِ جوارحِهِ ومنْ أعظمها القلبُ الذي هو مَلِـكُ الأعضـاءِ والجـوارحِ فـإذا خشـعَ خشـعتِ الجـوارحُ والأعضاءُ كلُّها تبعًا لخشوعِهِ.

ومن ذلك: السجودُ وهو أعظمُ ما يظهَرُ فيه ذلُّ العبدِ لربِّه عز وجلَّ حيثُ جعلَ العبدُ أشرفَ ما له من الأعضاءِ وأعـزَّها عليه وأعلاها حقيقة؛ أوضعَ ما يُمكنه، فـيضعُـه في الترابِ مُـتَعَـفِّرًا، ويتبعُ ذلـك انكسارُ القلب وتواضُـعُهُ وخشوعُه للَّه عز وجل.

ولهذا كـان جزاءُ المؤمنِ إذا فـعلَ ذلك أن يُقَربـه اللَّهُ عز وجل إليـه فإن: «**أقربَ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجدٌ**» كما صحَّ عن النبيِّ ﷺ[1].

وقال اللَّه تعالى: ﴿**وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ**﴾ [العلق:١٩].

والسُّجودُ أيضًـا مما كانَ يأنَفُ منه المشركونَ المستكبرونَ عَنْ عـبادةِ اللَّهِ عز وجل.

وكان بعضُهم يقـولُ: أكرهُ أنْ أسجدَ فتعلُوني إسْتي، وكـان بعضُهم يأخذُ كفًّا من حصى فيرفعُه إلى جبهتِهِ، ويكتفي بذلك عن السُّجود.

وإبليسُ إنما طَرَدَهُ اللَّه لَمَّا استكبـرَ عن السجودِ لمن أمَرهُ اللَّهُ بالـسجودِ له، ولهذا يبكي إذا سجدَ المؤمنُ ويقولُ: «**أُمِرَ ابنُ آدم بالسجود ففعل فله الجنة، وأمرتُ**

---

(١) أخـرجـه أحـمـد في «المسند» (٢/ ٤٢١)، ومـسلـم (٢/ ٤٩)، وأبو داود (٨٧٥)، والنسـائي (٢/ ٢٢٦).

بالسُّجود فعصيتُ فليَ النارُ»[١] .

ومن تمامِ خشوعِ العبدِ للَّهِ عزَّ وجلَّ وتواضعِه له في ركوعِه وسجودِه: أنه إذا ذلَّ لربه بالركوعِ والسجودِ وصفَ ربَّه حينئذٍ بصفاتِ العزِّ والكبرياءِ والعظمةِ والعلوِّ، فكأنه يقولُ: الذلُّ والتواضعُ وصفي، والعلوُّ والعظمةُ والكبرياءُ وصفُكَ، فلهذا شُرِع للعبدِ في ركوعِه أن يقولَ: **«سبحان ربي العظيم»**، وفي سجودِه: **«سبحان ربي الأعلي»**[٢] .

وكانَ النبيُّ ﷺ أحيانًا يقولُ في سجودِه: **«سُبحان ذي الملكوتِ والجبروتِ والكبرياءِ والعظمةِ»**[٣] .

ورُوي عنه ﷺ أنه قالَ ليلة في سجودِه: **«أقولُ كما قالَ أخي داودُ ـ عليه السلامُ ـ: أُعفِّر وجهِي في الترابِ لسيِّدي، وحُقَّ لسيدي أن تُعفَّر الوجوهُ لوجهِه»**.

قال الحسنُ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: «إذا قُمتَ إلى الصلاةِ فقُمْ قانتًا كما أمركَ اللَّه، وإياكَ والسهرَ والالتفاتَ، أن ينظرَ اللَّهُ إليكَ وتنظرَ إلى غيرِه، وتسأل اللَّهَ الجنةَ وتعوذَ به مِنَ النارِ وقلبُك ساهٍ لا تدْري ما تقولُ بلسانِكَ». خرَّجه محمدُ بنُ نصرٍ المَرْوزيُّ ـ رحمه اللَّه تعالى.

وروى بإسنادِه عن عثمانَ بنِ أبي دَهْرَشٍ قالَ: بَلَغَني أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٤٤٣)، ومسلم (١/ ٦١)، وابن ماجه (١٠٥٢).

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٣٨٢، ٣٨٤، ٣٩٤، ٣٩٧)، ومسلم (٢/ ١٨٦)، وأبو داود (٨٧١)، وابن ماجه (٨٩٧)، (١٣٥١) مختصرًا، والترمذي (٢٦٢)، (٢٦٣)، والنسائي (٢/ ١٧٦).

(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (٦/ ٢٤) عن عوف بن مالك، وأبو داود (٨٧٣)، والنسائي (٢/ ١٩١).

صلَّى صلاةً جَـهَر فيهـا بالقراءةِ فلما فـرغ قالَ: «هل أسْقَطتُ من هذه السـورة شيئًا؟». قالوا: لا ندري، فقال أبيٌّ بن كعبٍ: نعم آيةَ كذا وكذا، فقالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «ما بالُ أقـوامٍ، يُتلَى عليهم كتـابُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، فلا يـدرونَ ما يُتلى منه ممَّا تُرِكَ، هكذا خرجتْ عظمةُ اللَّهِ من قلوبِ بني إسرائيلَ، شهدتْ أبدانُهم وغابتْ قُلوبُهُم، ولا يقبلُ اللَّهُ من عبدٍ عملاً حتى يشهدَ بقلبِه مع بدَنِه»(١) .

والآثارُ في هذا المعنى كثيرةٌ جدًا.

ومر عصـامُ بن يوسفَ ـ رحمه اللَّه تعـالى ـ بحاتمٍ الأصمِّ وهو يتكلمُ في مجلسِهِ، فقالَ: يا حاتمُ، تحسنُ تصلِّي؟ قال: نعم! قال: كيفَ تُصلي؟ قال حاتمٌ: أقوم بالأمرِ، وأمـشي بالخشيةِ، وأدخل بالنِّيَّةِ، وأُكَبِّـر بالعظمةِ، وأقرأُ بالتـرتيلِ والتفكرِ، وأركعُ بالخـشوعِ، وأسـجدُ بالتواضـعِ، وأجلسُ للتشـهدِ بالتمامِ وأسلِّمُ بالسبيلِ والسُّنةِ، أسلمها بالإخلاصِ إلى اللَّه عز وجل، وأرجعُ على نفسِي بـالخوفِ، أخاف أن لا يُقـبلَ منِّي، وأحفظُهُ بالجـهدِ إلى الموتِ، قال: تكلَّم؛ فأنت تحسنُ تصلِّي(٢) .

ومن أنواعِ العباداتِ التَّي يظهرُ فيها الذلُّ والخضوعُ للَّهِ عز وجلَّ: الدعاءُ، قالَ اللَّهُ عز وجلَّ: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف:٥٥].

وقالَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء:٩٠].

فمما يظهر فيه الذلُّ من الدعاء رفعُ اليدينِ.

---

(١) أخرجه: ابن نصر في «قيام الليل» (١٥٧).

(٢) «الحلية» (٨/ ٧٤ ـ ٧٥).

وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنه رفعَ يديهِ في الدعاءِ في مواطنَ كثيرةٍ وأعظمُهَا: في الاستسقاءِ؛ فإنه كانَ يرفعُ فيه يديهِ حتَّى يُرى بياضُ إبطيهِ[١]، وكذلك كان يجتهدُ في الرفعِ عشيةَ عرفةَ بعرفةَ.

وخرَّج الطبراني[٢] ـ رحمه اللَّه تعالى ـ من حديثِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قالَ: «رأيتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يدعُو بعرفةَ ويداهُ إلى صدرِهِ كاستطعامِ المسكينِ».

وقد كان بعضُ الخائفينَ يجلسُ بالليلِ ساكنًا مُطْرِقًا برأسِهِ، ويمدُّ يديه كحالِ السائلِ، وهذا من أبلغِ صفاتِ الذلِّ وإظهارِ المسكنةِ والافتقارِ.

ومن ذلك أيضًا افتقارُ القلبِ في الدعاءِ وانكسارِهِ للَّه عز وجل واستشعارِهِ شدةُ الفاقَةِ إليه والحاجةِ. وعلى قَدرِ هذه الحرقةِ والفَاقةِ تكونُ إجابةُ الدعاءِ.

وفي «المسندِ» والترمذي[٣] عن النبيِّ ﷺ قال: **«إن اللَّه لا يستجيبُ دُعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ»**.

ومن ذلكَ: إظهارُ الذلِّ باللسانِ في نفسِ السؤالِ والدعاءِ والإلحاحِ فيه.

قال الأوزاعيُّ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: كان يُقال: «أفضلُ الدعاءِ الإلحاحُ على اللَّهِ والتضرعُ إليه».

وفي الطبراني[٤] عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ دعا يومَ عرفةَ فقالَ: **«اللهمَّ إنَّك ترى مكانِي وتسمعُ كلامِي ولا يخْفَى عليكَ شيءٌ من أمرِي، أنا البائسُ**

---

(١) أخرجه: البخاري في «الصحيح» (٢/ ٣٩ ـ ٤٠)، ومسلم (٢/ ٢٤).

(٢) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٢٨٩٢).

(٣) أحمد في «المسند» (٢/ ١٧٧)، والترمذي (٣٤٧٩).

(٤) الطبراني في «الصغير» (١/ ٢٤٧).

الفقيرُ المستغيثُ المستجيرُ الوجِلُ المُشْفقُ المُقرُّ المعترفُ بذنبِه، أسألكَ مسألةَ المسكينِ وأبتهلُ إليكَ ابتهالَ المُذنبِ الذليلِ، وأدعوكَ دعاءَ الخائفِ الضريرِ، ومن خضعَتْ لك رقبتُه، وذلَّ لك جسدُه، ورغِمَ لك أنفُه، وفاضتْ لك عيناه. اللهم لا تجعلْني بدعائكَ شقيًّا، وكنْ بي بارًّا رؤوفًا رحيمًا، يا خيرَ المسئولينَ، ويا خيرَ المُعطينَ».

وكان بعضُهم يقولُ في دعائِه: بعزِّك وذُلِّي وغناكَ وفَقْري.

وقال طاوسٌ - رحمه اللَّه تعالى -: دخلَ عليُّ بنُ الحسينِ - رحمه اللَّه تعالى - ذاتَ ليلةٍ الحجرَ يصلِّي، فسمعتُه يقولُ في سجودِه: عُبيدُكَ بفنائكَ، مُسيكينُكَ بفنائك، فقيرُكَ بفنائك، سائلُك بفنائك، قال طاوس: فحفظتُهنَّ، فما دعوتُ بهنَّ في كَرْبٍ إلا فُرِّجَ عنِّي. خرَّجه ابنُ أبي الدُّنيا.

وروى ابنُ باكَوَيْه الصوفيُّ - رحمه اللَّه تعالى - بإسنادٍ له: أنَّ بعضَ العُبَّادِ حجَّ ثمانينَ حَجَّةً على قدَميه، فبينما هو في الطوافِ وهو يقولُ: يا حبيبي، وإذا بهاتفٍ يهتفُ به: ليس ترضى أن تكون مسكينًا حتَّى تكونَ حبيبًا. قال: فغُشي عليَّ، ثم كنتُ بعد ذلك أقولُ: مسكينُكَ مسكينُكَ، وأنا تائبٌ عن قول: حبيبي[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾

كان السَّلفُ الصَّالح يجتهدون في إتمام العمَل وإكماله وإتقانه، ثم يهتمُّون بعد ذلكَ بقبولِه، ويخافونَ من ردِّه، وهؤلاء الذينَ ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] رُويَ عن عليٍّ ﷺ قالَ: كونُوا لقبول العمل أشدَّ اهتمامًا

(١) «الذل والانكسار» (٣١ - ٧٥).

منكمُ بالعمل، ألم تسمعُوا اللَّهَ عزَّ وجلَّ يقولُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ من الْمُتَّقِين﴾ [المائدة: ٢٧]؟ وعن فضالةَ بنِ عبيدٍ قالَ: لأن أكونَ أعلمُ أنَّ اللَّهَ قد تقبلَ منِّي مثقالَ حبة من خردلٍ أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها؛ لأنَّ اللَّهَ يقولُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وقال ابنُ دينارٍ: الخوفُ على العملِ أن لا يتقبَّلَ أشدّ من العمل.

وقال عطاءٌ السُّليميُّ: الحذرُ: الاتقاءُ على العملِ أن لا يكونَ للّهِ.

وقالَ عبدُ العزيزِ بنُ أبي روَّاد: أدركتُهم يجتهدونَ في العملِ الصالحِ، فإذا فعلوه وقع عليهم الهمُّ، أيقبلُ منهُم أم لا؟

قال بعضُ السَّلَفِ: كانوا يدعُون اللَّهَ ستَّةَ أشهرٍ أن يبلِّغهم شهرَ رمضانَ، ثم يدعونَ اللَّهَ ستَّةَ أشهرٍ أن يتقبَّلَهُ منهُم.

خرجَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ - رحمهُ اللَّهُ - في يومِ عيدِ فطرٍ، فقالَ في خطبته: أيُّها الناسُ؛ إنَّكم صُمتم للَّهِ ثلاثين يومًا، وقُمتُم ثلاثين ليلةً، وخرجتُم اليومَ تطلبون من اللَّه أن يتقبَّل منكم.

كانَ بعضُ السَّلَف يظهرُ عليه الحزنُ يومَ عيدِ الفطر، فيقالُ له: إنَّه يومُ فرحٍ وسرورٍ، فيقولُ: صدقتُم، ولكنِّي عبدٌ أمرني مولاي أن أعملَ له عملاً، فلا أدري أيقبلُه منِّي أم لا؟

رأى وُهيبُ بنُ الورد قومًا يضحكونَ في يومِ عيدٍ، فقالَ: إن كانَ هؤلاءِ تُقبِّلَ منهم صيامُهم فما هذا فعلُ الشاكرينَ، وإن كانُوا لم يُتقبَّلْ منهم صيامهُم فما هذا فعلُ الخائفينَ.

وعن الحسنِ قالَ: إنَّ اللَّه جعلَ شهرَ رمضانَ مضمارًا لخلقه يَسْتَبِقُون فيه بطاعتهِ إلى مرضَاتِهِ، فسبق قومٌ ففازُوا، وتخلَّف آخرونَ فخابُوا. فالعجَب من

اللاعِبِ الضَّاحِكِ في اليومِ الذي يفوزُ فيه المحسنونَ ويخسرُ فيه المبطِلُونَ.

لعلك غَضْبانُ وقلبي غافِلٌ سلامٌ على الدَّارَينِ إن كنتَ راضيًا

رُويَ عن عليٍّ ﷺ أنَّه كانَ ينادي في آخرِ ليلةٍ من شهرِ رمضانَ: ياليتَ شِعْرِي! مَن هذا المقبولُ فنهنِّيه؟ ومَن هذا المحرومُ فنُعَزِّيه؟

وعن ابنِ مسعودٍ أنَّه كانَ يقولُ: مَن هذا المقبُولُ منَّا فنُهنِّيه؟ ومَن هذا المحرومُ منَّا فنعزِّيه؟ أيُّها المقبولُ هنيئًا لكَ، أيُّها المردودُ جبرَ اللَّه مُصيبتك.

ليتَ شِعْرِي مَنْ فيه يُقْبَلُ منَّا فيُهنَّا يا خيبةَ المَرْدُود
مَنْ تولَّى عنهُ بغيرِ قَبُولٍ أَرْغَمَ اللَّهُ أنفَهُ بِخِزيٍ شَديدِ(١)

* * *

قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾

في معنى الخراج قال بعضهم: هو المال الذي يجبى ويؤتى به لأوقات محدودة، ذكره ابن عطية قال: وقال الأصمعي: الخراج الجُعْل مرة واحدة، والخراج: ما ردد لأوقاتٍ ما، قال ابن عطية: هذا فرقٌ استعماليّ وإلا فهُمَا في اللغة بمعنىً.

وقد ورد في كتاب الله ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ﴾ [المؤمنون:٧٢] هذه قراءة ابن كثير ونافع وأبي عمرو وعاصم، وقرأ حمزة والكسائي ﴿**أم تسألهم خراجا فخراج ربك خير**﴾ وقرأ ابن عامر ﴿**خرجا**﴾ في الموضعين وقال تعالى في قصة ذي القرنين ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا﴾ [الكهف:٩٤]، وقرئ ﴿**خراجا**﴾ أيضًا.

---

(١) «لطائف المعارف» (٣٧٤ ـ ٣٧٧).

قال ابن عباس ﷺ: ﴿خَرْجًا﴾ يعني: أجرًا، وقال أبو عبيد: الخراج في كلام العرب إنما هو الغلة، ألا تراهم يُسَمُّونَ غَلَةَ الأرضِ والدارَ والمملوكَ خراجًا؟ ومنه حديث النبي ﷺ «أنه قضي بالخراج بالضمان»، [١] وحديث: [٢] «أن النبي ﷺ لما حجمه أبو طيبة كلَّم أهله فوضعوا عنه من خراجه» فسمى الغلة: خراجًا، وقال الأزهري: الخراج: اسم لما يخرج من الفرائض في الأموال، ويقع على القرية وعلى مال الفيء، ويقع على الجزية وعلى الغلة، والخراج المصدر. انتهى.

والجزية تسمى خراجًا، وقد كتب النبي ﷺ إلى قيصر كتابًا مع دِحْيَةَ يُخَيِّرُهُ بين إحدى ثلاث، منها: «أن يقرَّ له بخراجٍ يجري عليه» والحديث في مسند الإمام أحمد وغيره.

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

قال اللَّه تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]. قال مجاهدٌ: البرزخُ: الحاجزُ بين الموتِ والرجوعِ إلى الدنيا، وعنه قالَ: هو ما بينَ الموتِ إلى البعثِ.

قال الحسنُ: هي هذه القبورُ التي بينكُم وبين الآخرةِ. وعنه قالَ: هي هذهِ القبورُ التي تركضونَ عليها، لا يسمعونَ الصوتَ.

وقال عطاءٌ الخراسانيُّ: البرزخُ: مدةُ ما بينَ الدُّنيا والآخرةِ.

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٩ - ١٦١ - ٢٠٨ - ٢٣٧)، وأبو داود (٣٥٠٨ - ٣٥١٠)، والترمذي (١٢٨٦)، والنسائي (٧/ ٢٥٤) من حديث عائشة ﵂.

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٣٥٣) من حديث جابر بن عبد اللَّه ﵁.

وصلَّى أبو أمامةَ الباهليُّ على جنازةٍ فلمَّا وُضِعتْ في لحدِها، قال أبو أمامةَ: هذا برزخٌ إلى يومِ يبعثونَ.

وقيل للشعبيِّ: ماتَ فلان، قال: ليسَ هو في الدُّنيا ولا في الآخرةِ، هو في البرزخِ.

وسمعَ رجلاً يقولُ: ماتَ فلانٌ أصبحَ من أهلِ الآخرةِ. قال: لا تقلْ: من أهلِ الآخرةِ، ولكنْ قل: من أهلِ القبورِ[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤].

روى دراجُ عن أبي الهيثمِ، عن أبي سعيدٍ عن النبيِّ صلى اللَّه عليه وآله وسلم قالَ: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤] قالَ: **«تَشْويه النارُ، فتقلصُ شفتُهُ العليا حتَّى تبلغَ وسطَ رأسه وتسترخي شفتُه السفلَى حتى تضربَ سرَّتَهُ»**. خرجه الإمام أحمدُ والترمذيُّ والحاكمُ[٢] وقالا: صحيحٌ.

وعن ابنِ مسعودٍ أنه قالَ في قولِه: ﴿وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤] قال: ككُلُوحِ الرأسِ النضيجِ، وعنه: ككُلُوحِ الرأسِ المشيطِ بالنارِ ـ، قد بدتْ أسنانهم وتقلصتْ شفاهُهُم. وعنه قالَ: ألم ترَ إلى الرأسِ المشيطِ بالنارِ وقد تقلصتْ شفتاهُ وبدتْ أسنانُه[٣].

وخرجَ الخلالُ في كتابِ «السنةِ» من حديثِ الحكمِ بنِ الأعرجِ عن

(١) «أهوال القبور» (١٠).
(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٨٨)، والترمذي (٢٥٨٧)، (٣١٧٦)، والحاكم (٢/ ٣٩٥).
(٣) الطبري في «التفسير» (١٨/ ٥٦).

أبي هريرةَ قال: يعظمُ الرجلُ في النارِ حتى يكونَ مسيرةَ سبع ليالٍ، ضرسُهُ مثلُ أحدٍ، شفاهُهُم على صدورِهِم، مقبوحينَ يتهافتونَ في النارِ.

قال أبو بكرِ بنِ عياشٍ عن محمدِ بنِ سويدٍ، كانَ لطاوس طريقانِ إذا رجعَ من المسجدِ أحدُهُما فيها روّاسٌ، وكان يرجعُ إذا صلَّى المغربَ، فإذا أخذَ الطريقَ الذي فيه الروّاس لم يستطعْ أن يتعشَّى، فقيلَ لهُ: فقالَ: إذا رأيتُ الرؤوسَ كالحةً لم أستطعْ آكلُ؛ قال أبو بكرٍ: فذكرتُهُ لسريعٍ المكيِّ. فقالَ: قد رأيتُهُ يقفُ عليهَا.

وقالَ أبو غندرٍ الدمشقيُّ: كان أويسٌ إذا نظرَ إلى الرؤوسِ المشويةِ يذكرُ هذه الآية: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٤] فيقعُ مغشيًا عليه حتى يظنَّ الناظرون إليه أنه مجنونٌ. خرجهُما ابنُ أبي الدنيا وغيرُه.

وقال الأصمعيُّ: حدثنا الصقرُ بنُ حبيبٍ قالَ: مرَّ ابنُ سيرين بروّاسٍ قد أخرجَ رأسًا فغشي عليهِ(١).

* * *

(١) «التخويف من النار» (١٣٤ ـ ١٣٥).

سُورَةُ النُّورِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾

من كانَ مستورًا لا يُعرفُ بشيءٍ منَ المعاصِي، فإذَا وقعتْ منه هفوةٌ، أو زلَّةٌ، فإنَّه لا يجوزُ كشفُها ولا هتكُها، ولا التَّحدُّثُ بها، لأنَّ ذلك غيبةٌ محرَّمةٌ، وهذا هو الذي وردتْ فيه هذه النُّصوصُ، وفي ذلكَ قد قالَ اللَّهُ تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾** [النور:١٩].

والمرادُ: إشاعةُ الفاحشةِ على المؤمنِ المستترِ فيمَا وقعَ منه، أو اتُّهِمَ به وهو بريءٌ منهُ، كما في قصَّةِ الإفْكِ.

قالَ بعضُ الوزراءِ الصالحينَ لبعضِ من يأمرُ بالمعروفِ: اجتهدْ أن تسترَ العُصَاةَ، فإنَّ ظهورَ معاصِيهم عَيْبٌ في أهلِ الإسلامِ، وأَوْلَى الأمورِ سترُ العيوبِ.

ومثلُ هذا لو جاءَ تائبًا نادمًا، وأقرَّ بحَدٍّ لم يفسِّرْهُ، ولم يُستفسر، بل يُؤمَر بأنْ يرجعَ ويسترَ نفسَهُ، كمَا أمر النبيُّ ﷺ ماعزًا والغامديةَ، وكما لم يستفسرِ الذي قال له: «أصَبْتُ حدًا فأقمه عليَّ».

ومثلُ هذا لو أُخذَ بجريمتِه، ولم يبلغ الإمامَ، فإنه يُشفع له حتَّى لا يبلغَ الإمامَ. وفي مثلِه جاءَ الحديثُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ: **«أَقيلوا ذوي الهيئاتِ عثَراتهم»**.

خرَّجه أبو داودَ والنسائيُّ[(١)] من حديثِ عائشةَ رضي الله عنها[(٢)] .

* * *

قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾

وقد أمر النبي ﷺ ببناءِ المساجدِ في الدُّورِ: أن تُنظَّفَ وتُطَيَّبَ، وسنذكرُهُ في موضعٍ آخرَ - إن شاءَ اللَّهُ.

وقد فُسِّر قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾ [النور:٣٦] ببنيانهَا وتطهيرهَا وتنزيههَا عمَّا لا يليقُ بهَا[(٣)] .

* * *

قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعتُ الوزير[(٤)] يقول في قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ [النور:٥٣] قال: وقع لي فيها ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدُها: أن المعنى: لا تقسموا واخرجوا من غير قسم، فيكون المحرك لكم إلى الخروج الأمر لا القسم، فإن من خرج لأجل قسمه ليس كمن خرج لأمر ربه.

والثاني: أنَّ المعنى: نحن نعلم ما في قلوبكم، وهل أنتم على عزم الموافقة

---

(١) أخرجه: أبو داود (٤٣٧٥)، وأحمد (٦/ ١٨١)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (١٢/ ١٧٩٥٦).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٣١٤).

(٣) «فتح الباري» (٣٢٦).

(٤) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

للرسـول في الخروج؟ فالقسم هاهنا: إعلام منكم لنا بما في قلوبكم. وهذا يدل منكم على أنكم ما علمتم أن اللَّه يطلع على ما في القلوب.

والثالث: أنكم ما أقسمتم إلا وأنتم تظنون أنا نتهمكم، ولولا أنكم في محل تهمة ما ظننتم ذلك فيكم. وبهذا المعنى وقع المتنبي فقال:

وفي يمينك ما أنتَ وَاعِدُهُ ما دَلَّ أنكَ في الميعادِ متهم[(١)]

* * *

(١) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧).

سُورَةُ الفُرْقَانِ

قوله تعالى: ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾

قال ابن الجوزيِّ في «المقتـبس»: سمعتُ الوزير[1] يقولُ في قـولِهِ تعالى: ﴿أَوْ يُلْقَىٰ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ﴾ [الفرقان: ٨] قال: العجبُ كلُّ العجبِ لجهلهِم حين أرادُوا أن يُلقى إليـه كنزٌ أَوْ تَكُونَ لَـهُ جنةٌ. ولو فهـمـوا علمـوا أن كلَّ الكنوزَ له وجـميعَ الدنيـا مِلْكُهُ. أو ليس قـد قهـرَ أرباب الكنوز، وحكم في جميع الملوك؟ وكان من تمام معجـزته أن الأموال لم تفتح عليه في زمنه؛ لئلا يقول قائلٌ: قـد جرت العادة بأن إقامة الدول، وقهرَ الأعـداءِ بِكَثْرةِ الأَمْوَالِ، فتمت المعجزةُ بالغلبة والقهرِ مِنْ غَـيرِ مالٍ، ولا كَثْرةِ أعوانٍ، ثم فتحت الدنيا على أصحابِهِ، ففـرقُوا ما جمعهُ الملوكُ بالشَّرَهِ، فأخرجـوه فيما خلق له، لم يمسكوه إمساك الكافرين، ليـعلموا الناسَ بإخراجِ ذلك المالِ: أنَّ لنا دارًا سوى هذه، ومقرًّا غير هذا.

وكان من تمام المعجزات للنبيِّ ﷺ: أنه لما جاءهم بالهدى فَلَمْ يقبلْ، سلَّ السيفَ على الجاحـدِ، ليعلمـهُ أن الذي ابتـعثني قـاهرٌ بالسيفِ بعـد القهـر بِالحجج. ومما يقوي صـدقَهُ أنَّ قيصرَ وكِبارَ الملوكِ لَم يوفـقوا للإيمانِ به؛ لئلا

---

(١) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

يقولَ قائلٌ: إنما ظهـرَ لأنَّ فلانًا الملكَ تعصبَ له فتقوَّى به، فـبانَ أن أمرَهُ من السماءِ لا بنصرةِ أهلِ الأرضِ(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾

قالَ اللَّهُ تعالىَ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ [الأنبياء: ١٠١،١٠٢]، وقالَ تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١١،١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ [الملك: ٦، ٨] والشهيق الصوت الذي يخرج من الجوف بشـدة كصوتِ الحمارِ، قـالَ الربيعُ بنُ أنسٍ: الشهيقُ في الصدرِ، وقالَ مجاهدٌ في قولِه: ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ [الملك:٧] قال: تغلي بهم كما يغلي القدرُ، وقـالَ ابنُ عباسٍ: تميزُ: تفـرقُ، وعنه قال: يكادُ يفارقُ بعـضُها بعضًا وتتفطرُ، وعن الضحاكِ: تميزُ. وقـال ابنُ زيد: التميزُ: التفرقُ من شدةِ الغيظِ على أهلِ معاصِي اللَّهِ عزَّ وجلَّ، غضبًا له عزَّ وجل وانتقامًا له.

وخرج ابنُ أبي حـاتمٍ من حديثِ خـالدِ بنِ دريكٍ عن رجلٍ من الصـحابةِ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «من تقوَّلُ عليَّ ما لم أقل فليتبـوء بين عيني جهنمَ مقعدًا» قيلَ: يا رسولَ اللَّهِ، وهل لها عينانِ؟ قال: «نعم، أو لم تسمعْ قول اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

(١) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٧).

﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢]».

وروى أبو يحيى القتاتُ عن مجاهدٍ عن ابنِ عباسٍ قالَ: إن العبدَ ليجرُّ إلى النارِ، فتشهقُ إليه شهقةَ البغلةِ إلى الشعير، ثم تزفرُ زفرةً لا يبقى أحدٌ إلا خافَ. خرجه ابنُ أبي حاتمٍ.

وقال كعبٌ: ما خلقَ اللَّهُ من شيءٍ، إلا وهوَ يسمعُ زفيرَ جهنَّم غدوةً وعشيةً، إلا الثقلينِ اللذينِ عليهما الحسابُ والعذابُ. خرجه الجوزجانيُّ.

وفي «كتابِ الزهدِ»(١) لهنادِ بنِ السريِّ عن مغيثِ بنِ سمي، قالَ: إنَّ لجهنمَ كلَّ يومٍ زفرتين يسمعُهما كلُّ شيءٍ، إلا الثقلينِ اللذينِ عليهما الحسابُ والعذابُ.

وعن الضحاكِ قالَ: إن لجهنَّمَ زفرةٌ يومَ القيامةِ لا يبقى ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ إلا خرَّ ساجدًا يقولُ: ربِّ نفسي نفسِي(٢).

وعن عبيدِ بنِ عميرٍ قالَ: تزفرُ جهنمُ زفرةً لا يبقى ملكٌ ولا نبيٌّ إلا وقعَ لركبتيه، ترعدُ فرائسُهُ يقولُ: ربِّ نفسي نفسي(٣).

وروى ابنُ أبي الدُّنيا وغيرُه عن الضحاكِ قالَ: ينزلُ الملكُ الأعلَى في بهائِهِ وملكِهِ، مجنبته اليسرى جهنمُ، فيسمعونَ شهيقها وزفيرهَا فيندُّون(٤).

وعن وهبِ بنِ مُنَبِّه قالَ: إذا سيرتِ الجبالُ فسمعتْ حسيسَ النارِ وتغيظَها وزفيرَها وشهيقَها، صرختِ الجبالُ كما تصرخُ النساءُ، ثم يرجعُ أوائلُها على أواخرِهَا، يدقُّ بعضُها بعضًا. خرجهُ الإمامُ أحمدَ.

(١) أخرجه: هناد بن السَّري في «الزهد» (٢٥٣).
(٢) السابق (٢٥٤). (٣) السابق (٢٥٥).
(٤) ندَّ البعيرُ: نَفَرَ وشَرَد.

وفي «تفسيرِ آدمَ بنِ أبي إياسٍ» عن مـحمدِ بنِ الفضلِ عن عليِّ بنِ زيدِ بن جدعان، عن أبي الضُّـحى، عن ابنِ عباسٍ قالَ: تزفرُ جـهنمُ زفرةً، لا يبْقَى ملكٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ إلا جثا على ركبتيهِ حـولَ جهنَّم، فتطيشُ عقولهُم فيقولُ اللَّهُ عز وجلَّ: ماذا أجبتُمُ المرسلينَ؟ قالُوا: لا علمَ لنا، ثم تُردُّ عليهم عقولُهم فينطقونَ بحجتِهِم وينطقونَ بعذرِهِم. محمدُ بنُ الفضلِ هو ابنُ عطيةَ متروكٌ.

قال آدمُ: وحدثنا أبو صفوانَ عن عاصمِ بنِ سليمانَ الكوزيِّ عن ابنِ جريجٍ عن عطاءٍ عن ابنِ عـبـاسٍ ﴿**إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا**﴾ [الفرقان: ١٢] المكانُ البـعيدُ، مـسيـرة مائة عـامٍ، وذلكَ أنه إذا أُتيَ بجهنَّـمَ تقادُ بسبعينَ ألف زمـامٍ يشدُّ بكلِّ زمامٍ سبـعونَ ألفَ ملكٍ، ولو تركتْ لأتتْ على كُلِّ برٍ وفاجرٍ، ثم تزفرُ زفرةً لا يبقى قطرةٌ من دمع إلا بدرت، ثم تزفرُ الثانيةَ فَتَنْقَطِعُ القلوبُ من أماكنها تبلغُ اللهواتِ والحناجرَ وهو قولُه: ﴿**وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ**﴾ [الأحزاب: ١٠]. وعاصم الكوزيُّ ضعيفٌ جدًّا.

وقال الليثُ بنُ سـعدٍ عن عبيدِ اللَّهِ بن أبي جـعفر: إنَّ جهنَّم لتـزفرُ زفرةً تنشقُّ منها قلوبُ الظلمةِ، ثم تزفرُ أخرى فيطيرونَ في الأرضِ حتى يقعُوا على رؤوسِهِم. خرجهُ عبدُ اللَّهِ ابنُ الإمامِ أحمدَ.

ورَوى أسدُ بـنُ موسى عن إبراهيمَ بنِ مـحمـدٍ عن صفـوانَ بنِ سليمٍ عن عطاءِ بنِ يسارٍ عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرِو بن العاصِ ـ مثلَه.

وخرجَ أبو نعيم وغيرُه من روايةِ عبـدِ الرحمنِ بنِ حاطبٍ، قالَ: قالَ عمرُ ﷺ لكعبٍ: خوِّفْنَا، قالَ: والذي نفسِي بيده؛ إن النارَ لتقربُ يومَ القيامةِ لها زفيـرٌ وشهيقٌ، حـتى إذا دنتْ وقربتْ زفرت زفرةً، مـا خلقَ اللَّهُ من نبيٍّ ولا

شهيدٍ إلا وجبَ لركبتيهِ ساقطًا، حتى يقولَ كلُّ نبيٍّ وكلُّ صدِّيقٍ وكلُّ شهيدٍ: اللهمَّ لا أكلفُكَ اليومَ إلا نفسِي، ولو كانَ لكَ يا ابنَ الخطابِ عملُ سبعينَ نبيًا لظننتَ أن لا تنجُو، قالَ عمرُ: واللَّه، إن الأمرَ لشديدٌ.

ومن روايةِ شريحِ بنِ عبيدٍ قالَ: قالَ عمرُ لكعبٍ: خوِّفنا، قالَ: واللَّهِ لتزفرنَّ جهنمُ زفرةً، لا يبقَى ملكٌ مقربٌ ولا غيرُهُ إلا خرَّ جاثيًا على ركبتيهِ، يقولُ: ربِّ نفسِي نفسِي، وحتى نبينا محمدٍ وإبراهيمَ وإسحاقَ ـ عليهمُ السلامُ ـ، قال: فأبكَى القومَ حتى نشجُوا.

وفي روايةِ مطرفِ بن الشخيرِ عن كعبٍ، قالَ: كنتُ عندَ عمرَ، فقالَ: يا كعبُ خوِّفنا، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنينَ، إنَّ جهنمَ لتزفرُ يومَ القيامةِ زفرةً لا يبقَى ملكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ إلا خرَّ ساجدًا على ركبتيهِ، حتى إنَّ إبراهيمَ خليله ـ عليه السلامُ ـ ليخرُّ جاثيًا ويقولُ: نفسِي نفسِي، لا أسألكُ اليومَ إلا نفسِي، قالَ: فأطرقَ عمرُ مليًّا، قالَ: قلتُ: يا أميرَ المؤمنينَ، أولستُم تجدونَ هذا في كتابِ اللَّهِ عزَّ وجل؟! قالَ عمرُ: كيفَ؟ قلتُ: يقولُ اللَّه عزَّ وجلَّ في هذه الآيةِ: ﴿**يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ**﴾ [النحل:١١١].

وكانَ سعيدُ الجرميُّ يقولُ في موعظتِهِ إذا وصفَ الخائفينَ: كأنَّ زفيرَ النارِ في آذانِهِم.

وعن الحسنِ أنه قالَ في وصفِهم: إذا مرُّوا بآيةٍ فيها ذكرُ الجنةِ بكوا شَوْقًا، وإذا مرُّوا بآيةٍ فيهَا ذكرُ النارِ ضجُّوا صُراخًا، كأنَّ زفيرَ جهنَّم عندَ أصولِ آذانِهِم.

وروى ابنُ أبي الدنيـا وغيرُه عـن أبي وائلٍ قالَ: خـرجْنا معَ ابنِ مسـعودٍ ومعنا الربيعُ بنُ خُثَيمٍ، فأتينَا على تنورٍ على شاطئِ الفراتِ، فلمَّا رآهُ عبدُ اللَّهِ والنارُ تلتهبُ في جـوفهِ قرأَ هذه الآيةَ ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ إلى قوله: ﴿ثُبُورًا﴾ [الفرقان:١٢,١٣] فصعقَ الربيعُ بنُ خُثَـيمٍ فاحتملناه إلى أهلهِ، فرابطَهُ عـبدُ اللَّهِ حتى صلَّى الناسُ الظهـرَ فلم يُفقْ، ثم رابطَهُ إلى العصرِ فلم يُفِقْ، ثم رابطَهُ إلى المغربِ فأفاقَ، فرجعَ عبدُ اللَّهِ إلى أهلِه.

ومن روايةِ مسمعِ بنِ عاصمٍ قالَ: بتُّ أنا وعـبدُ العزيزِ بن سليمانَ وكلابُ ابنُ جـريٍّ وسلمانُ الأعـرجُ على ساحلٍ من بعضِ السـواحلِ، فبكَـى كلابٌ حتى خشيتُ أن يموتَ، ثم بكى عبـدُ العزيزِ لبكائِه ثم بكَى سلمانُ لبكائهِمَا، وبكيتُ ـ واللَّهِ ـ لبكائِهم لا أدْري ما أبكَاهُم، فلما كانَ بعدُ سألتُ عبدَ العزيزِ فقلتُ: يـا أبا محمـدٍ ما الذي أبكاك ليلتـئذٍ؟ قـالَ: إنِّي ـ واللَّهِ ـ نظرتُ إلى أمواجِ البـحرِ تموجُ وتجـيلُ، فذكـرتُ أطباقَ النيـرانِ وزفراتِها، فـذلكَ الذي أبكاني، ثم سألتُ كـلابًا أيضًا نحوًا مما سـألتُ عبدَ العزيزِ، فـواللَّهِ؛ لكأنّما سمعَ قصتَهُ، فقال لي مثلَ ذلكَ، ثم سألتُ سلمانَ الأعرجَ نحوًا مما سألتُهما، فقالَ لي: ما كانَ في القومِ شرٌّ منِّي، ما كانَ بُكائي إلا لبكائِهم رحمةً لهم مما كانُوا يصنعونَ بأنفسِهِم ـ رحمهُمُ اللَّهُ تعالى(١) .

* * *

(١) «التخويف من النار» (٨٠ ـ ٨٤).

قوله تعالى ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلا نَصْرًا وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعت الوزير(١) يقول في قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ [الفرقان:١٩] قال: المعنى: فقد كذبكم أصنامكم بقولكم؛ لأنكم ادعيتم أنها الآلهة وقد أقررتم أنها لا تنفع، فإقراركم يكذب دعواكم.

في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٢٠] قال هو يدل على فضل هداية الخلق بالعلم، ويبين شرف العالم على الزاهد المنقطع؛ فإن النبي ﷺ كالطبيب، والطبيب يكون عِندَ المرضى، فلو انقطع عنهم هلكوا(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾

وخرَّج النسائيُّ(٣) من حديثِ أبي سعيدٍ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إذا أسلمَ العبدُ

---

(١) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

(٢) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٨، ٢٧٠).

(٣) أخرجه: النسائي (٨/ ١٠٥ ـ ١٠٦).

فحَسُنَ إسلامُهُ، كَـتَبَ اللَّهُ له كُلَّ حَسنةٍ كانَ أزلفَها، ومحيت عنه كلُّ سيـئة كان أزلفها، ثمَّ كانَ بعدَ ذلكَ القصاصُ، الحسنةُ بعشْرِ أمثالِها إلى سَبعِ مائةِ ضعفٍ، والسَّيِّئةُ بمثلِها إلا أن يتجاوزَ اللَّهُ»، وفي روايةٍ أخرى: «وقيلَ لهُ: ائتنف العملَ».

والمرادُ بالحسناتِ والسيئاتِ التي كانَ أزلَفَها: ما سبقَ منه قبلَ الإسلامِ، وهذا يدلُّ على أنه يُثابُ بحسناتِه في الكفرِ إذا أسلمَ وتُمحى عنه سيئاتُه إذا أسلَمَ، لكن بشرطِ أن يحسُنَ إسلامُه، ويتقِي تلكَ السيئاتِ في حالِ إسلامِهِ، وقد نصَّ على ذلكَ الإمامُ أحمدُ.

ويدلُّ على ذلكَ ما في «الصحيحينِ»[(١)] عن ابنِ مسعودٍ قالَ: قلنا: يا رسولَ اللَّهِ، أنؤاخذُ بما عملْنا في الجاهليةِ؟ قالَ: «أما مَنْ أحسنَ منكُم في الإسلامِ فلا يُؤاخذُ بِهَا، ومن أساءَ أُخِذَ بعملِهِ في الجاهليةِ والإسلامِ».

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[(٢)] عن عمرِو بنِ العاصِ قال للنبيِّ ﷺ لما أسلمَ: أريدُ أن أشترطَ، قالَ: «تشترطُ ماذَا؟» قلتُ: أن يُغفرَ لِي، قالَ: «أما عَلمتَ أنَّ الإسلامَ يهدمُ ما كانَ قبلَهُ؟». وخرجَهُ الإمامُ أحمدُ ولفظُه: «إن الإسلامَ يجبُّ ما كانَ قبلَهُ منَ الذنوبِ»[(٣)] وهذا محمولٌ على الإسلامِ الكاملِ الحسنِ، جمعًا بينَهُ وبين حديثِ ابنِ مسعودٍ الذي قبلَهُ.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[(٤)] أيضًا عن حكيمِ بنِ حزامٍ قالَ: قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ أرأيتَ أمورًا كنتُ أصنعُها في الجاهليةِ من صدقةٍ أو عتاقةٍ أو صلة

---

(١) البخاري (٩/ ١٧)، ومسلم (١/ ٧٧).

(٢) «صحيح مسلم» (١/ ٧٨).

(٣) «المسند» (٤/ ٢٠٥).

(٤) «صحيح مسلم» (١/ ٧٩).

رحم، أفيها أجرٌ؟ فقالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «**أسلمتَ على ما أسلفتَ من خيرٍ**» وفي روايةٍ لهُ: قالُ: فقلتُ: واللَّهِ؛ لا أدعُ شيئًا صنعتُه في الجاهليةِ إلا صنعتُ في الإسلام مثلَهُ.

وهذا يدلُّ على أنَّ حسناتِ الكافرِ إذا أسلمَ يُثابُ عليهَا كما دلَّ عليه حديثُ أبي سعيدٍ المتقدِّمُ.

وقد قيلَ: إن سيئاتهِ في الشركِ تبدَّلُ حسناتٍ، ويُثابُ عليها، أخذًا من قولهِ تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩، ٧٠].

وقد اختلفَ المفسرونَ في هذا التبديلِ على قولين:

فمنهُم مَنْ قالَ: هو في الدنيا، بمعنى: أنَّ اللَّه يُبَدِّلُ من أسلمَ وتابَ إليه بدلَ ما كان عليهِ من الكفرِ والمعاصِي: الإيمانَ والأعمالَ الصالحةَ، وحكَى هذا القولَ إبراهيمُ الحربيُّ في «غريب الحديث» عن أكثرِ المفسرينَ، وسمَّى منهم ابنَ عباسٍ، وعطاءً، وقتادةَ، والسُّديَّ، وعكرمةَ.

قلتُ: وهو المشهورُ عن الحسنِ.

قالَ: وقال الحسنُ وأبو مالكٍ وغيرُهما: هي في أهلِ الشركِ خاصةً، ليس هي في أهلِ الإسلامِ.

قلتُ: إنما يصحُّ هذا القولُ على أنْ يكونَ التبديلُ في الآخرةِ كما سيأتِي، وأما إن قيلَ: إنه في الدنيا، فالكافرُ إذا أسلمَ والمسلمُ إذا تابَ في ذلكَ سواءٌ، بل المسلمُ إذا تابَ فهو أحسنُ حالاً من الكافر إذا أسلمَ.

قالَ: وقال آخرونَ: التبديلُ في الآخرةِ: جعلت لهم مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً منهم: عمرُو بنُ ميمون، ومكحولٌ، وابنُ المسيبِ، وعليُّ بنُ الحسينِ، قالَ: وأنكرهُ أبو العاليةَ، ومجاهدٌ، وخالدٌ سبلان، وفيه موضعُ إنكارٍ، ثم ذكرَ ما حاصلهُ: أنه يلزمُ من ذلكَ: أن يكونَ مَن كثرتْ سيئاتُهُ أحسن حالاً ممن قلَّتْ سيئاتُه، حيثُ يُعطى مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً، ثم قالَ: ولو قال قائلٌ: إنما ذكرَ اللَّهُ أن يُبدلَ السيئاتِ حسناتٍ ولم يذكرِ العددَ كيفَ تبدَّل فيجوزُ أن معنى تبدَّلُ: أن من عملَ سيئةً واحدةً وتابَ منها تبدَّلُ مائةَ ألفِ حسنةٍ، ومن عملَ ألفَ سيئة أن تبدَّل ألفَ حسنةٍ، فيكونُ حينئذٍ مَنْ قلّتْ سيئاتُهُ أحسنُ حالاً.

قلتُ: هذا القولُ ـ وهو التبديلُ في الآخرةِ ـ قد أنكرَهُ أبو العاليةَ، وتلا قولَهُ تعالَى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾ [آل عمران:٣٠] وردّه بعضُهم بقوله تعالَى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٨]، وقولهِ تعالَى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾ [الكهف:٤٩].

ولكن قد أُجيبَ عن هذا: بأنَّ التائبَ يُوقفُ على سيئاته، ثمَّ تبدَّلُ حسناتٍ، قالَ أبو عثمانَ النهديُّ: إن المؤمنَ يُؤتَى كتابهُ في سَترٍ من اللَّه عزّ وجلّ، فيقرأُ سيئاته، فإذَا قرأَ تغيَّر لها لونُه حتَّى يمرَّ بحسناته، فيقرؤُها فيرجعُ إليه لونُه، ثم ينظرُ فإذا سيئاتُه قد بُدِّلتْ حسناتٍ، فعندَ ذلكَ يقولُ: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة:١٩].

ورواهُ بعضُهم عن أبي عثمانَ عن ابنِ مسعودٍ، وقالَ بعضُهم: عن أبي عثمانَ عن سلمانَ.

وفي «صحيح مسلم»(١) من حديث أبي ذرٍّ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**إني لأعلمُ آخرَ أهلِ الجنَّةِ دُخولاً الجنَّة، وآخرَ أهلِ النارِ خروجًا منها، رجلٌ يُؤتَى به يومَ القيامةِ فيقالُ: اعرضُوا عليه صِغارَ ذنوبِهِ وارفعُوا عنه كبارَها، فيعرضُ اللَّهُ عليه صغارَ ذنوبه، فيقالُ له: عملتَ يومَ كذا وكذا، كذا وكذا؟ وعملتَ يومَ كذا وكذا، كذا وكذا؟ فيقولُ: نعم، لا يستطيعُ أن يُنكرَ وهو مشفقٌ من كبارِ ذنوبِهِ أن تُعرضَ عليه، فيقالُ له: فإنَّ لكَ مكانَ كُلِّ سيئةٍ حسنةً، فيقولُ: يا ربِّ قد عملتُ أشياءَ لا أراها ها هنا**». قال: فلقد رأيتُ رسولَ اللَّه ﷺ ضَحِكَ حتَّى بدتْ نواجذُه.

فإذا بُدِّلَت السيئاتُ بالحسناتِ في حقِّ من عوقِبَ على ذنوبهِ بالنارِ، ففي حقِّ من مُحِيَ سيئاتُه بالإسلامِ والتوبةِ النصوحِ أولَى، لأنَّ محوَها بذلكَ أحبُّ إلى اللَّهِ من محوِها بالعقاب.

وخَرَّج الحاكمُ(٢) من طريقِ الفضلِ بنِ مُوسى، عن أبي العنبسِ عن أبيهِ، عن أبي هُريرةَ قالَ: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**ليتمنَّيَنَّ أقوامٌ أنَّهم أكثرُوا من السيِّئاتِ**»، قالوا: بِمَا يا رسولَ اللَّه؟ قال: «**الذين بدَّلَ اللَّهُ سيئاتهم حسناتٍ**».

وخرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ من طريقِ سليمانَ أبي داود الزهريِّ عن أبي العنبسِ عن أبيه عن أبي هريرةَ ـ موقوفًا، وهو أشبهُ مِن المرفوع.

ويُروى مثلُ هذا عن الحسنِ البصريِّ أيضًا، وهو يُخالف قولَه المشهور: إن التبديلَ في الدنيا.

وأما ما ذكره الحربيُّ في التبديلِ، وأنَّ من قلَّت سيئاتُهُ يُزاد في حسناتهِ،

(١) «صحيح مسلم» (١/ ١٢١ ـ ١٢٢).
(٢) «المستدرك» (٤/ ٢٥٢).

ومن كثرتْ سيئاتُه يُقَلَّلُ من حسناتهِ، فحديثُ أبي ذرٍّ صريحٌ في ردِّ هذا، وأنه يُعطى مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً.

وأما قولُه: يلزمُ من ذلكَ أن يكونَ من كثرت سيئاتُه أحسنَ حالاً ممن قلّت سيئاتُهُ، فيقالُ: إنما التبديلُ في حقِّ مَنْ ندمَ على سيئاته، وجعلَهَا نصبَ عينيهِ، فكلَّما ذكرَه ازدادَ خوفًا ووجلاً وحياءً من اللَّه، ومسارعةً إلى الأعمالِ الصالحةِ المكفرةِ كَمَا قالَ تعالى: ﴿إلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠]، وما ذكرناهُ كلُّه داخلٌ في العملِ الصالحِ، ومن كانتْ هذه حالُهُ، فإنَّه يتجرَّعُ من مرارةِ الندمِ والأسفِ على ذنوبِهِ أضعاف ما ذاق من حلاوتها عند فعلها، ويصير كل ذنبٍ من ذنوبه سببًا لأعمالٍ صالحةٍ ماحيةٍ له، فلا يُستنكرُ بعد هذا تبديلُ هذه الذنوبِ حسنات.

وقد وردت أحاديثُ صحيحةٌ صريحةٌ في: أن الكافرَ إذا أسلم وحَسُنَ إسلامُه تبدّلت سيئاتُه في الشِّرك حسناتٍ، فخرَّج الطبرانيُّ[1] من حديثِ عبدِ الرحمنِ بنِ جبيرِ بنِ نفيرٍ عن أبي فروةَ شطبٍ: أنه أتى النبيَّ ﷺ فقالَ: أرأيتَ رجلاً عَمِلَ الذنوبَ كُلَّها، ولم يتركْ حاجةً ولا داجةً، فهل له مِنْ توبة؟ فقالَ: «أسلمتَ؟» قال: نَعم، قال: «فافعل الخيرات، واترك السيئات، فيجعلُها اللَّهُ لك خيرات كلَّها»، قالَ: وغَدَرَاتي وفَجَرَاتي؟ قالَ: «نعم»، قال: فما زال يُكبِّرُ حتَّى توارَى. وخرَّجه[2] من وجهٍ آخرَ بإسنادٍ ضعيفٍ عن سلمةَ بنِ نفيلٍ، عن النبيِّ ﷺ.

وخرَّج ابنُ أبي حاتمٍ نحوَهُ من حديثِ مكحولٍ مرسلاً، وخرجَ البزار[3]

---

(١) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (٧/ ٣١٤).

(٢) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (٧/ ٥٣).

(٣) (٣٢٤٤ ـ كشف الأستار).

الحديثَ الأوَّل. وعندهُ: عن أبي طويلٍ شطبٍ الممدودِ: أنه أتى النبيَّ ، فذكرَهُ بمعناهُ.

وكذا خرَّجه أبو القاسمِ البغويُّ في «معجمه»، وذكرَ: أن الصوابَ عن عبدِ الرحمنِ بن جُبيرِ بنِ نفيرٍ مرسلاً أنَّ رجلاً أتى النبيَّ ﷺ، طويل شَطْب، والشطبُ في اللغةِ: الممدودُ، فصحفه بعضُ الرواةِ، وظنَّه اسمَ رجلٍ(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾

قال اللَّهُ تعالىَ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧].

[قال البخاريُّ](٢): ومعنى الدعاء في اللغة: الإيمانُ.

اعلم؛ أنَّ أصلَ الدعاءِ في اللغة: الطلبُ، فهو استدعاءٌ لما يطلبهُ الداعِي، ويُؤْثِرُ حصولَه.

فتارةً يكونُ الدعاءُ بالسؤالِ من اللَّهِ عز وجل والابتهالِ إليه، كقولِ الداعِي: اللهمَّ اغفرْ لي، اللهم ارحمْني.

وتارةً يكونُ بالإتيانِ بالأسبابِ التي تقتضي حصولَ المطالبِ، وهو الاشتغالُ بطاعةِ اللَّهِ وذكرِه، وما يحبُّ من عبدِه أن يفعلَه، وهذا هو حقيقةُ الإيمانِ.

وفي «السنن الأربعة»(٣)، عن النعمانِ بنِ بشيرٍ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**إنَّ الدُّعاءَ هو العبادة**، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٢٩٤ ـ ٣٠١).

(٢) «صحيح البخاري» (١/ ٦).

(٣) أخرجه: أبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٢٩٦٩)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٩/ ٣٠)، وابن ماجه (٣٨٢٨).

عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]».

فما استجلبَ العبدُ من اللَّهِ ما يحبُّ، واستدفعَ منه ما يكره، بأعظمَ من اشتغالِهِ بطاعةِ اللَّهِ وعبادتِهِ وذكرِهِ، وهو حقيقةُ الإيمانِ، فإن اللَّهَ يدفعُ عنِ الذين آمنوا.

وفي «الترمذيِّ»[1]، عن أبي سعيدٍ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**يقولُ الربُّ عزَّ وجلَّ: مَن شغلَهُ القرآنُ وذكرِي عن مسألتِي أعطيتهُ أفضلَ ما أُعطِي السائلِينَ**».

وقال بعضُ التابعينَ: لو أطعتمُ اللَّهَ ما عصاكُم.

يعني: ما منعكُم شيئًا تطلبونَهُ منه.

وكان سفيانُ يقولُ: الدعاءُ تركُ الذنوبِ.

يعني: الاشتغالَ بالطَّاعَةِ عن المعصية.

وأما قولُه تعالى: ﴿**مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ**﴾ [الفرقان: ٧٧]، فيه للمفسرينَ قولان:

أحدهما: أن المرادَ: لولا دعاؤُكم إيَّاه، فيكونُ الدعاءُ بمعنى الطاعةِ، كما ذكرنَا.

والثاني: لولا دعاؤُه إياكُم إلى طاعتِهِ، كمَا في قولِهِ تعالَى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: ٥٦]، أي: لأدعوهُم إلى عِبادَتي.

وإنما اختلف المفسرون في ذلكَ لأنَّ المصدرَ يضافُ إلى الفاعلِ تارةً، وإلى المفعولِ أُخرى[2].

* * *

(١) «الجامع» (٢٩٢٦).

(٢) «فتح الباري» (١/١٨ ـ ١٩).

سُورَةُ الشُّعَرَاء

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾

وقد استدلَّ إبراهيمُ الخليلُ - عليه السلامُ - بتفرُّدِ اللَّه بهذه الأمورِ على أنَّه لا إلهَ غيرُهُ، وأنَّ كلَّ ما أشركَ معهُ باطلٌ، فقالَ لقومِه: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٨٢]، فإنَّ من تفرَّد بخلقِ العبدِ وبهدايتِه وبرزقِه وإحيائِه وإماتتِه في الدُّنيا، وبمغفرةِ ذنوبِه في الآخرةِ مستحقٌّ أن يتفرَّد بالإلهيةِ والعبادةِ والسؤالِ والتضرُّعِ إليه والاستكانةِ لهُ. قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٤٠][1].

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ١٢).

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

القلبُ واللسانُ هـمَا عبـارةٌ عن الإنسانِ؛ كمـا يُقالُ: الإنسانُ بأصـغريه؛ قلبِه، ولسانِه.

وخرَّجَ ابنُ سعدٍ من روايةِ عـروةَ بنِ الزبيرِ مرسلاً: أَنَّ النبيَّ ﷺ لما رأى أَشجّ عبدَ القـيسِ، وكانَ رجُلاً دميمًـا، فقالَ للنبيِّ ﷺ: إنه لا يُستـقى في مُسُـوكِ الرجال، إنما يُحـتاجُ من الرجلِ إلى أصغـريه؛ لسانه، وقلبـه. وقال المتنبي:

لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤادُهُ ... ولم يبقَ إلا صورةَ اللحمِ والـدمِ

فمن استقـامَ قلبُه ولسانُه استقامَ شـأنُهُ كلُّه، فالقلبُ السليمُ هوَ الذي ليسَ فيه مـحبةُ شيءٍ مِمَّا يكرهُهُ اللَّهُ، فدخلَ في ذلكَ: سلامـتُهُ من الشركِ الجليِّ، والخفيِّ، ومن الأهواءِ والبدعِ، ومن الـفسوقِ والمعاصِي؛ كبـائرِهَا وصغائرِهَا الظاهرةِ والباطنةِ: كالرياءِ والعجبِ والغلِّ والغشِّ والحـقدِ والحسدِ وغيرِ ذلكَ وهذا القلبُ السليمُ هو الذي لا ينفعُ يومَ القيامـةِ سواهُ؛ قالَ تعالىَ: ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٨، ٨٩]. إذا سلمَ القلبُ لم يسكنْ فـيـه إلا الربُّ. في بعضِ الآثارِ، يقـولُ اللَّه: «**وما وسعنِي سمائِي ولا أَرضِي، ولكن وسعنِي قلبُ عبدِي المؤمنِ**»[1].

* * *

(١) «شرح حديث شداد بن أوس» (٤٨ ـ ٤٩).

وقوله ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجسد مضغةً، إذا صلَحت، صلحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدتْ فسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهي القلبُ**»[(١)]، فيه إشارةٌ إلى: أنَّ صلاحَ حركاتِ العبدِ بجوارِحِه، واجتنابِه للمحرَّماتِ واتِّقائِه للشُّبهاتِ بحسبِ صلاحِ حركةِ قلبِه.

فإنْ كانَ قلبُه سليمًا، ليسَ فيه إلا محبةُ اللَّهِ ومحبةُ ما يُحبُّه اللَّهِ، وخشيةُ اللَّهِ وخشيةُ الوقوعِ فيما يكرهُهُ، صلحَتْ حركاتُ الجوارحِ كلِّها، ونشأَ عن ذلكَ اجتنابُ المحرَّماتِ كلِّها، وتوقِّي الشبهاتِ حذرًا مِنَ الوقوعِ في المحرَّماتِ.

وإن كانَ القلبُ فاسِدًا، قدِ استولى عليه اتِّباعُ هواه، وطلبُ ما يحبُّه، ولو كرِهَهُ اللَّهُ، فسدتْ حركاتُ الجوارحِ كلِّها، وانبعثتْ إلى كلِّ المعاصِي والمشتبهاتِ بحسبِ اتِّباعِ هوى القلبِ.

ولهذا يقالُ: القلبُ ملكُ الأعضاء، وبقيَّةُ الأعضاءِ جنودُه، وهم مع هذا جنودٌ طائعونَ لهُ، منبعثونَ في طاعتِهِ، وتنفيذِ أوامرِهِ، لا يخالفونَهُ في شيءٍ من ذلكَ، فإنْ كانَ الملكُ صالحًا كانتْ هذه الجنودُ صالحةً، وإن كان فاسدًا كانت جنوده بهذه المثابةِ فاسدةً، ولا ينفع عندَ اللَّه إلا القلبُ السليمُ، كما قالَ تعالَى: ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩]، وكان النبيُّ ﷺ يقولُ في دعائِه: «**أسألكَ قلبًا سليمًا**»[(٢)].

فالقلبُ السليمُ: هو السالمُ من الآفاتِ والمكروهاتِ كلِّها، وهوَ القلبُ

(١) أخرجه: البخاري (١/ ٢٠)، ومسلم (٥/ ٥٠) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٥)، والترمذي (٣٤٠٧)، والنسائي (٣/ ٥٤) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

الذي ليسَ فيه سوى محبةِ اللَّهِ وما يحبُّهُ اللَّهُ وخشية اللَّهِ، وخشية ما يُباعدُ منهُ.

وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ»(١) عن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتى يستقيمَ قلبُه**».

والمرادُ باستقامةِ إيمانه: استقامةُ أعمالِ جوارحِه، فإنَّ أعمالَ الجوارحِ لا تستقيمُ إلا باستقامةِ القلبِ، ومعنى استقامةِ القلبِ: أن يكونَ ممتلئًا مِنْ محبَّةِ اللَّهِ، ومحبَّةِ طاعتهِ، وكراهةِ معصيته.

قال الحسنُ لرجلٍ: داوِ قلبكَ؛ فإنَّ حاجةَ اللَّهِ إلى العبادِ صلاحُ قلوبِهم.

يعني: أنَّ مرادَهُ منهُم ومطلوبَهُ صلاحُ قلوبِهم، فلا صلاحَ للقلوبِ حتَّى تستقرَّ فيها معرفةُ اللَّهِ وعظمتُه ومحبَّتُهُ وخشيتُهُ ومهابتُه ورجاؤهُ والتوكلُ عليه، وتمتلئَ مِنْ ذلك، وهذا هو حقيقةُ التوحيدِ، وهو معنى «لا إله إلا اللَّهُ»، فلا صلاحَ للقلوبِ حتَّى يكونَ إلهُها الذي تألهُه وتعرفُه وتحبُّه وتخشاه هو اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، ولو كانَ في السماواتِ والأرضِ إلهٌ يُؤلَه سوى اللَّهِ، لفسدتْ بذلكَ السماواتُ والأرضُ، كما قالَ تعالَى: ﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا**﴾ [الأنبياء:٢٢].

فعلم بذلكَ أنَّه لا صلاحَ للعالَمِ العُلويِّ والسُّفليِّ معًا حتى تكونَ حركاتُ أهلِهَا كلُّها للَّهِ، وحركاتُ الجسدِ تابعةً لحركةِ القلبِ وإرادته، فإن كانتْ حركتُه وإرادتُه للَّهِ وحدَه، فقدْ صَلَحَ وصلحتْ حركاتُ الجسدِ كلُّها، وإنْ كانتْ حركةُ القلبِ وإرادتُهُ لغيرِ اللَّهِ تعالَى، فسدَ، وفسدتْ حركاتُ الجسدِ

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٩٨).

بحسبِ فسادِ حركةِ القلبِ.

وروى الليثُ عن مجاهدٍ في قولِه تعالَى: ﴿ **وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا** ﴾ [النساء: ٣٦] قال: لا تحبُّوا غيري.

وفي «صحيحِ الحاكمِ»(١) عن عائشةَ رضي الله عنها عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**الشِّركُ أخفَى من دبيبِ الذرِّ على الصفا في الليلةِ الظَّلماءِ، وأدناهُ: أن تُحبَّ على شيءٍ من الجورِ، وأن تُبغضَ على شيءٍ من العدلِ، وهل الدِّينُ إلا الحبُّ والبغضُ؟ قال اللَّهُ عز وجل: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران: ٣١]».

فهذا يدلُّ على أنَّ محبةَ ما يكرهُهُ اللَّهُ، وبغضَ ما يُحبه اللَّهُ متابعةٌ للهوى، والموالاةُ على ذلك والمعاداةُ عليه من الشركِ الخفيِّ، ويدلُّ على ذلكَ قولُه تعالَى: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران: ٣١]، فجعلَ علامةَ الصدقِ في محبته اتباعَ رسولِه، فدلَّ على أن المحبةَ لا تتمُّ بدونِ الطاعةِ والموافقةِ.

قال الحسنُ: قال أصحابُ رسولِ اللَّهِ ﷺ: يا رسولَ اللَّهِ، إنَّا نُحبُّ ربنا حبًّا شديدًا. فأحبَّ اللَّهُ أن يجعل لحبِّه علمًا، فأنزلَ اللَّهُ هذه الآيةَ: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران: ٣١]. ومن هنا قالَ الحسنُ: اعْلم أنكَ لن تُحبَّ اللَّهَ حتى تُحبَّ طاعتَه(٢).

وسُئلَ ذو النونِ: متى أُحبُّ ربِّي؟ قال: إذا كانَ ما يُبغضُهُ عندكَ أمرَّ من الصبرِ. وقالَ بشرُ بن السَّري: ليسَ من أعلامِ الحبِّ أن تحبَّ ما يُبغضُه

(١) «المستدرك» (٢/ ٢٩١).

(٢) راجع: «التفسير» لابن جرير الطبري (٣/ ٢٣٢).

حبيبُك. وقـال أبو يعقوبَ النهرجوريُّ: كلُّ من ادَّعى محـبةَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، ولم يُوافقِ اللَّهَ في أمرِه، فدعواهُ باطلٌ. وقـالَ رُويمٌ: المحبةُ: الموافقةُ في كلِّ الأحوالِ، وقالَ يحيى بنُ معاذٍ: ليسَ بصـادقٍ من ادَّعى محبةَ اللَّهِ ولم يحفظْ حدودَهُ، وعن بعضِ السلفِ قالَ: قرأتُ في بعضِ الكتبِ السالفةِ: من أحبَّ اللَّهَ لم يكنْ عندهُ شيءٌ آثرَ من مرضاتِهِ، ومن أحبَّ الدنيا لم يكنْ عندَهُ شيءٌ آثرَ من هوى نفسهِ.

وفي «السننِ»[1] عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**مَنْ أعطَى للَّهِ، ومنعَ للَّهِ، وأحبَّ للَّهِ، وأبغضَ للَّهِ، فقد استكملَ الإيمانَ**» ومعنى هذا أن حركاتِ القلبِ والجوارحِ إذا كانتْ كلُّها للَّهِ فقدْ كمُلَ إيمانُ العبدِ بذلكَ ظاهرًا وباطنًا، ويلزمُ من صلاحِ حركاتِ القلبِ صلاحُ حركاتِ الجوارحِ، فإذا كانَ القلبُ صالحًا ليسَ فيه إلا إرادةُ اللَّهِ وإرادةُ ما يريدُه لم تنبعثِ الجوارحُ إلا فيما يُريدُه اللَّهُ، فسارعتْ إلى ما فيه رضاهُ وكفَّتْ عما يكرَهُهُ، وعمَّا يُخشى أن يكونَ مما يكرههُ وإن لم يتيقنْ ذلكَ.

قال الحسنُ: ما نظرتُ ببصرِي، ولا نطقتُ بلسانِي، ولا بطشتُ بيدي، ولا نهضتُ على قدمِي؛ حتى أنظرَ على طاعةٍ أو على معصيةٍ؟ فإن كانتْ طاعةٌ تقدمتُ، وإن كانتْ معصيةٌ تأخَّرتُ.

وقال محمدُ بنُ الفضلِ البَلخيُّ: ما خطوتُ منذ أربعينَ سنةً خطوةً لغيرِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ. وقيلَ لداودَ الطائيِّ: لو تنحيتَ من الظلِّ إلى الشمسِ؟ فقالَ: هذه خُطًا لا أدرِي كيفَ تكتبُ.

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ٤٤٠)، والترمذي (٢٥٢١) من حديث سهل بن معاذ ﷺ.

فهؤلاءِ القومُ لما صلحتْ قلوبُهم، فلم يبقَ فيها إرادةٌ لِغيرِ اللَّهِ، صلحتْ جوارحُهم، فلم تتحرَكْ إلا للَّهِ عزَّ وجلَّ، وبما فيهِ رضاهُ، واللَّهُ أعلمُ[(١)] .

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾

وقولُه: «إني لأرى منْ خلفي كما أرى منْ بين يدي»[(٢)] ، هو فضيلةٌ للنبيِّ ﷺ خصَّهُ اللَّهُ بها، فكانَ ينظرُ ببصيرتِهِ كما ينظرُ ببصرِهِ، فيرى من خلفَه كمَا يرَى من بينَ يديهِ.

وقد فسَّرهُ الإمامُ أحمدُ بذلكَ في روايةِ ابنِ هانئ[(٣)] ، وتأولَ عليه قولَهُ تعالَى: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٩].

كما روى ابنُ أبي نجيحٍ، عن مجاهدٍ في قوله: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ [الشعراء:٢١٨-٢١٩]، أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يرى أصحابَهُ في صلاتهِ من خلفِهِ، كما يَرى من بين يديهِ.

وتأويلُ الآيةِ على هذا القولِ: أن اللَّه تعالى يَرَى نبيَّه ﷺ حين يقومُ إلى صلاتهِ، ويَرَى تقلبَ نظرِهِ إلى الساجدينَ معه في صلاتهِ.

وقال الأثرمُ: قلتُ لأحمدَ: قولُ النبيِّ ﷺ: «إني لأراكم من وراء ظهري»؟ قال: كانَ يرى من خلفَهُ كما يَرى من بينَ يديهِ. قلتُ: إن إنسانًا قال لي: هو

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٩٧ ـ ٢٠١).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ١١٤ ـ ١٨٩)، (٨/ ٦٤)، ومسلم (٢/ ٢٧ ـ ٢٨) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) «مسائل ابن هانئ» (٢/ ١٩٣).

في ذلكَ مثل غيرِهِ، وإنما كانَ يراهُم كما ينظرُ الإمامُ عن يمينِهِ وشمالِهِ؟ فأنكرَ ذلكَ إنكارًا شديدًا[1] .

* * *

(١) «فتح الباري» (٢/ ٣٥٩).

سُورَةُ النَّمْلِ

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس» سمعت الوزير[1] يقول في قوله تعالى: ﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ [النمل: ١٩] قال: هذا من تمام برِّ الوالدين. كأنَّ هَذا الولَدَ خافَ أَنْ يكون والِداهُ قَصَّرا في شُكْرِ الرَّبِّ عز وجل، فسأل اللَّه أن يُلْهِمَهُ الشُّكْرَ على ما أنعم به عليه وعليهما؛ لِيَقُوم بما وَجَبَ عَلَيْهِما من الشُّكر إن كانا قَصَّرا[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾

وقال ابنُ عيينةَ: «لا إله إلا اللَّهُ لأهلِ الجنة كالماءِ الباردِ لأهلِ الدُّنيا»، وكذلكَ ترنُّمهم بالقرآنِ وسماعهُم لهُ، وأعلاه: سماعُه من اللَّهِ جلَّ جلالُه وتقدستْ أسماؤُه، فأينَ هذا من تلاوةِ أهلِ الدنيا وذكرِهم؟ وأمَّا سائرُ العباداتِ: فما كانَ منها فيه مشقةٌ على الأبدانِ فإنَّ أهلَ الجنةِ قد أُسقطَ ذلك عنْهم؛ وكذلكَ ما فيه نوعُ ذلٍّ وخضوعٍ كالسجودِ ونحوهِ.

---

(١) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

(٢) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٨).

وأما ما في العبادات من النعيم الحاصلِ بها لأهلِ المعرفةِ في الدُّنيا، فإنَّه يحصلُ في الجنةِ أضعافًا مع راحةِ البدنِ من مشقةِ التكليفِ التي في الدُّنيا فتجتمعُ لهم راحةُ القلبِ والبدنِ على أكملِ الوجوهِ.

وهذا مثلُ الصلاةِ، فإن العارفينَ في الدُّنيا إنما يتنعمونَ بما فيهَا منَ المناجاةِ وآثارِ القربِ، وما يردُ عليهم من الوارداتِ في تلاوةِ الكتابِ ونحوِ ذلكَ من نعيم القلوبِ، وربما يستغرقونَ به عن الشعورِ بتعبِ الأبدانِ فهذا القدرُ الذي حصلَ لهم به التنعمُ في الدنيا يتزايدُ في الجنةِ بلا ريبٍ، لاسيَّما في أوقاتِ الصلواتِ، فإنَّ أكملَهُم من ينظرُ إلى وجهِ اللَّهِ عز وجل كلَّ يومٍ مرتينِ، بكرةً وعشيةً، في وقتِ صلاةِ الصبحِ وصلاةِ العصرِ، لما جاءَ في حديثِ ابنِ عمرَ مرفوعا وموقوفًا(١)، وإلى ذلك أشارَ النبيُّ ﷺ بالمحافظة على هاتينِ الصلاتينِ عقيبَ ذكرِهِ رؤيةَ الربِّ سبحانَهُ في حديثِ جريرٍ البجلي(٢).

فالنعيمُ الحاصلُ لأهلِ الجنَّةِ بالرؤيةِ والمخاطبةِ في هذينِ الوقتينِ أكملُ مما كانَ حاصلاً في الدنيا، وكذلكَ صلاةُ الجمعةِ: فإنهم يجتمعونَ في وقتِها في يومِ المزيدِ ويتجلَّى لهم سبحانَهُ ويحاضرُهم محاضرةً، وكذلكَ في العيدينِ.

فهذا؛ أكملُ مما كانَ يحصلُ لهم في الدنيا في صلاتِهم من آثارِ القربِ وحلاوةِ مع راحةِ البدنِ ونعيمِه أيضًا. فتبينَ بهذا أن نعيمَ الجنةِ أكملُ من نعيمِ

(١) الحديث روي مرفوعًا وموقوفًا.

أما الرواية المرفوعة، أخرجها: أحمد (٢/ ١٣ ـ ٦٤)، والترمذي (٢٥٥٣) بلفظ: «**إن أدنى أهل الجنة منزلاً من ينظر إلى جناحه وأزواجه وخدمه وسرره مسيرة ألف سنة، وأكرمهم على اللَّه: من ينظر إلى وجهه غدوة وعشية..**» الحديث.

أما روايته موقوفًا، فقد أخرجها: الطبري في «تفسيره» (٢٩/ ١٢٠).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ١٤٥ ـ ١٥٠)، (٦/ ١٧٣)، (٩/ ١٥٦)، ومسلم (٢/ ١١٣).

الدنيا مطلقًا، وسواءٌ في ذلكَ نعـيمُ الأبدانِ بالأكلِ والشربِ والجماعِ، ونعيمُ القلوبِ والأرواحِ بالمعـارفِ والعلومِ والقـربِ والاتصالِ والأنسِ والمشـاهدةِ، فظهرَ بهذا أن قولَهُ تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل: ٨٥] هو على ظاهرِهِ من غيـرِ حاجةٍ إلى تأويلٍ ولا تكلُّفٍ فـإنَّ كثيـرًا من المفسرينَ فـسروا الحسنةَ بكلمةِ التوحيدِ والجزاءَ عـليهم بالجنةِ، ثم استشكلُوا تفضيلَ الجنَّةِ على التوحيدِ، وبما ذكرناه يزولُ الإشكالُ.

ويتبين؛ أن التوحيدَ الذي في الجنةِ أكـملُ من التوحيدِ الذي في الدنيا وهو جزاءٌ له، وكذلكَ المعرفةُ والمحبةُ والشـوقُ أيضًا، فقد جاءَ في بعضِ أحاديثِ يومِ المزيدِ: أنَّهم ليسُـوا إلى شيءٍ أشوقَ منهم إلى يومِ الجمعـةِ، وسبب بهذا الغلطِ الذي أشرنَا إليه من قولِ من قالَ: إنَّ العـارفينَ لا يشتاقونَ إلى اللَّه عز وجل في الدُّنيـا لأنَّهم يشـهدونـهُ بقلوبِهم حـاضرًا، وتبـاشـرُ قلوبَهُم أنوارُه ويتجلَّى لهـا فيستـأنسونَ بِهِ ويطمئنونَ إليـهِ. وهذا؛ وإنْ كانَ نُقِلَ عن بعضِ السلفِ المتقدمينَ فهو أيضًا غلطٌ، ولعلَهُ صدرَ من قائلِه في حالِ استغراقه في مشاهدة ما شاهدَهُ فظنَّ أنه ليسَ وراءَ ذلك مطلبٌ، وهذا كـما قالَ بعضُهم: «إنه تمرُّ بي أوقـاتٌ أقولُ: إنْ كـانَ أهلُ الجنةِ في مثلِ مـا أنا فيـه، إنَّهم لفي عيشٍ طيبٍ».

ومعلومٌ أنَّ أهلَ الجنةِ في أضـعافِ أضعـافِ ما هو فيـه من النعيمِ واللذةِ، ولكنَّه لما استـعظـمَ ما حـصلَ له من النعـيمِ ظنَّ أنه ليسَ وراءَهُ شيءٌ، وعند التحقيقِ يتبينُ أنَّ مـا حصلَ في الدنيا للقلوبِ من تجلِّي أنوارِ الإيمانِ يدلُّ على عظمةِ مـا يحصلُ في الجنةِ، وليسَ بينهما نسـبةٌ فيتـزايدُ بذلكَ الشوقُ إلى ما وراءَه، ولهذا كان النبيُّ ﷺ يسألُ ربه الشوقَ إلى لقـائِه، مع أنَّه أكملُ الخلقِ مشاهدةً ومعرفةً، وكانَ يقولُ في الوصالِ: **«إني لستُ كهيئتكُمْ، إنِّي أظَلُّ عِندَ ربِّي**

يُطعمُني ويسقِيني»(١). ويشـيرُ إلى مـا تجلَّى لقلْبِهِ من آثارِ القـربِ والأنسِ بما يقوِّيهِ ويغذِّيهِ ويُغْنِيهِ عنِ الطعامِ والشرابِ(٢).

* * *

وإنَّما شرعَ اللَّهُ إقامَ الصَّـلاةِ لذكرِه، وكذلكَ الحجَّ والطَّوافَ. وأفضلُ أهلِ العبـاداتِ: أكثرهم للَّهِ ذكـرًا فيها، فـهذا كلُّه ليسَ من الدنيا المذمـومة، وهو المقصودُ من إيجادِ الدُّنيا، وأهلِهـا، كمَا قالَ تعالىَ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وقد ظنَّ طوائفُ منَ الـفقهـاءِ والصُّوفيَّـة أنَّ ما يُوجدُ في الـدُّنيا من هذه العـباداتِ أفضلُ ممَّـا يُوجدُ في الجنَّة مِنَ النَّعـيمِ، قالُوا: لأنَّ نعـيمَ الجنَّةِ حظُّ العبدِ، والعباداتُ في الدُّنيا حقُّ الربِّ، وحقُّ الربِّ أفضلُ من حظِّ العبد.

وهذا غلطٌ، ويقوِّي غلطهم قولُ كثيرٍ منَ المفسِّرين في قوله تعالى: :﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ [النمل:٨٩] قـالُوا: الحسـنةُ: لا إله إلا اللَّه، وليس شيء خيرًا منها. ولكن الكلام على التَّقديم والتَّأخير، والمراد: فله منها خيرٌ، أي: له خيرٌ بسببها ولأجلها.

والصَّوابُ: إطلاقُ ما جـاءت به نصوصُ الكتابِ والسنةِ، أنَّ الآخـرةَ خيرٌ منَ الأُولى مطلقًا.

وفي «صحيحِ الحاكمِ»(٣) عن المُستوردِ بن شدَّادٍ، قالَ: كنَّا عندَ النبي ﷺ، فتـذاكرُوا الدُّنيا والآخـرةَ، فقالَ بعـضُهم: إنَّما الدنيـا بلاغٌ للآخرةِ، وفيـها

(١) أخرجه: البخاري (٣/٤٨)، (٨/٢١٦)، (٩/١١٩)، ومسلم (٣/ ١٣٣ ـ ١٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس» (١٣٧ ـ ١٤٠).

(٣) «المستدرك» (٤/ ٣١٩).

العملُ، وفيها الصَّلاةُ، وفيها الزَّكاةُ. وقالتْ طائفةٌ منهم: الآخرةُ فيها الجنَّةُ، وقالوا ما شاءَ اللَّـهُ، فقالَ رسولُ اللَّه، ﷺ: «**ما الدُّنيا في الآخـرةِ إلا كما يمشي أحدُكم إلى اليمِّ، فـأدخلَ أصبعَهُ فيـه، فما خرجَ منه فـهو الدُّنيا**»، فهذا نصٌّ بتفضيلِ الآخرةِ على الدُّنيا، وما فيها من الأعمالِ.

ووجه ذلك: أنَّ كـمالَ الدُّنيا إنما هو في العـلمِ والعملِ، والعلمُ مقـصودُ الأعمالِ، يتضاعفُ في الآخرةِ بما لا نسـبةَ لما في الدُّنيا إليه، فإنَّ العلمَ أصلُه العلمُ باللَّهِ وأسـمائه وصفـاته، وفي الآخرةِ ينكشفُ الغطاءُ، ويـصيرُ الخـبرُ عيانًا، ويصيرُ علمُ اليقينِ عينَ اليقينِ، وتصيرُ المعرفةُ باللَّهِ رؤيةً له ومشاهدةً، فأينَ هذا مما في الدنيا؟

وأما الأعمالُ البدنيةِ، فإنَّ لها في الدُّنيا مقصدينِ:

أحدهما: اشتغالُ الجوارحِ بالطَّاعةِ، وكدُّها بالعبادةِ.

والثاني: اتِّصالُ القلوبِ باللَّهِ وتنويرُها بذكرِه.

فالأولُ؛ قـد رُفعَ عن أهلِ الجنَّة، ولهذا رُوي أنَّهم إذا همُّوا بالسُّـجودِ للَّه عند تجلِّيه لهُم يقالُ لهم: ارفعوا رؤوسكُم فإنَّكم لسْتُم في دارِ مجاهدةٍ.

وأما المقصـودُ الثاني؛ فحاصلٌ لأهلِ الجنَّةِ على أكـملِ الوُجُوهِ وأتمِّها، ولا نسبةَ لما حصلَ لقلوبِهم في الدُّنيا من لطائفِ القُرْبِ والأُنسِ والاتِّصالِ إلى ما يُشاهدونه في الآخرةِ عيانًا، فتتنعَّمُ قلوبُهم وأبصارُهم وأسماعُهم بقرْبِ اللَّهِ، ورؤيته، وسـماعِ كلامـهِ، لا سيَّمـا في أوقاتِ الصلواتِ في الدُّنيا، كـالجُمعِ والأعيـادِ، والمقرَّبون منهم يحصُلُ ذلك لـهم كلَّ يومٍ مرَّتينِ بكرةً وعشـيًا في وقتِ صلاةِ الصُّبحِ وصلاةِ العصرِ.

ولهذا، لمَّا ذكَر النَّبيُّ ﷺ أنَّ أهلَ الجنةِ يرونَ ربَّهم، حضَّ عقيبَ ذلكَ على المحافظةِ على صلاةِ العصرِ وصلاة الفجرِ؛ لأنَّ وقتَ هاتين الصَّلاتين وقتٌ لرؤيةِ خواصِّ أهلِ الجنةَ ربَّهم وزيارتهم لهُ، وكذلكَ نعيمُ الذِّكرِ وتلاوةُ القرآنِ لا ينقطعُ عنهُم أبدًا، فيُلهمونَ التَّسبيحَ كَما يُلهمونَ النَّفسَ. قال ابنُ عيينة: لا إله إلا اللَّه لأهلِ الجنَّةِ كالماءِ البارِدِ لأهلِ الدُّنيا، فأينَ لذَّةُ الذِّكرِ للعارفينَ في الدُّنيا مِنْ لذَّتهم بهِ في الجنَّة؟!.

فتبيَّن بهذا أن قولَهُ تعالَى: ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا**﴾ [النمل: ٨٩]، على ظاهرِه، فإنَّ ثوابَ كلمةِ التَّوحيدِ في الدُّنيا أن يصِلَ صاحبُها إلى قولها في الجنَّةِ على الوجهِ الذي يختصُّ به أهلُ الجنَّةِ.

وبكلِّ حالٍ، فالذي يحصُلُ لأهلِ الجنةِ مِن تفاصيلِ العلمِ باللَّه وأسمائه وصفاتِه وأفعالِه، ومن قُربِه ومشاهدتِه ولذَّة ذكرِه هو أمرٌ لا يمكنُ التَّعبيرُ عن كُنْهِهِ في الدُّنيا، لأنَّ أهلَها لم يُدركوه على وجهِه، بل هو ممَّا لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ، واللَّهُ تعالى المسئولُ أن لا يحرمنا خير ما عنده بشرِّ ما عندنا، بمنِّه وكرمِه ورحمته، آمين.

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٠٤ ـ ٢٠٧).

سُورَةُ القَصَصِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعت الوزير[1] يقول في قوله تعالى: ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [القصص:٧١] وفي الآية التي تليها ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [القصص:٧٢] قال: إنما ذكر السماع عند ذكر الليل والإبصار عند ذكر النهار؛ لأن الإنسان يدرك سمعه في الليل أكثر من إدراكه بالنهار، ويرى بالنهار أكثر مما يرى بالليل.

قال المبرد: سلطان السمع في الليل، وسلطان البصر في النهار[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعت الوزير[1] يقول في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ﴾ [القصص:٨٠]: قال: إيثار

---

(١) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

(٢) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٧٠).

ثواب الآجل على العاجل حالة العلماء، فمن كان هكذا فهو عالم. ومن آثر العاجل على الآجل فليس بعالم[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾

مدحَ اللَّهُ تعالَى في كتابِه منْ لا يُريدُ العلوَّ في الأرضِ ولا الفسادَ، فقالَ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣]. وروى ابنُ جريرٍ[٢] بإسنادٍ فيه نظرٌ عن عليٍّ ﷺ، قالَ: إنَّ الرجلَ ليعجبُهُ من شراكِ نعلهِ أن يكونَ أجودَ من شراكِ صاحبِه، فيدخلُ في قولِه: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] وكذا رُوِيَ عن الفضيلِ بنِ عياضٍ في هذه الآيةِ.

قالَ: لا يُحِبُّ أن يكونَ نعلُه أجودَ من نعلِ غيرِه، ولا شراكُهُ أجودَ مِنْ شراكِ غيرِه.

وقد قيل: إن هذا محمولٌ على أنه أرادَ الفخرَ على غيرِه لا مجرَّدَ التجملِ، قال عكرمةُ وغيرُه من المفسرينَ في هذه الآيةِ: العلوُّ في الأرضِ: التكبُّر، وطلبُ الشرفِ والمنزلةِ عندَ ذي سلطانِها، والفسادُ: العملُ بالمعاصِي.

وقد وردَ ما يَدُلُّ على أنه لا يأثمُ مَنْ كره أن يفوقَه أحدٌ من الناس في الجمالِ، فخرَّج الإمامُ أحمدُ ـ رحمه اللَّه ـ والحاكم في «صحيحه»[٣] من

---

(١) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٨). (٢) «التفسير» (٢٠/ ٧٩).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٥)، والحاكم (٤/ ١٨٢).

حـديث ابنِ مسـعودِ ـ رضي الله عنه ـ قـالَ: أتيتُ النبيَّ ﷺ وعندهُ مالـكُ بنُ مرارةَ الرَّهاويُّ، فأدركـتُه وهو يقـولُ: يا رسول اللَّه، قد قُـسمَ لي من الجمـالِ ما ترى، فما أحبُّ أحدًا من النَّاسِ فضلني بشراكين فما فوقَهُما، أليسَ ذلكَ هو من البغيِ؟ فقالَ: «**لا، ليسَ ذلك بالبغْي، ولكنَّ البغيَ مَنْ بطرَ** ـ أو قال: سفه ـ **الحقَّ وغمط الناسَ**».

وخرَّج أبو داود(١) من حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ معناه، وفي حديثه: «**الكبرُ**» بدل «**البغيِ**».

فنفى أن تكونَ كراهتُـه لأن يفوقَهُ في الجـمالِ بغيًـا أو كبرًا، وفسَّـر الكبرَ والبغيَ ببـطرِ الحقِّ، وهو التكبُّر عليـه، والامتناعُ من قبـوله كبـرًا إذا خالفَ هواهُ.

ومن هنا قالَ بعضُ السلفِ: التَّواضعُ: أن تقبلَ الحقَّ من كلِّ من جاءَ به، وإن كانَ صـغيرًا، فـمن قبلَ الحقَّ ممَّن جاءَ به، سـواءٌ كانَ صغـيرًا أو كبـيرًا وسواءٌ كـان يحبُّه أو لا يحبُّـه، فهو متـواضعٌ، ومن أبى قبُولَ الحقِّ تعـاظُمًا عليه، فهو متكبِّرٌ. وغـمصُ الناسِ: هو احتقارُهم وازدراؤُهم، وذلك يحصُلُ منَ النَّظرِ إلى النَّفسِ بعينِ الكمالِ، وإلى غيرِه بعينِ النَّقصِ(٢).

* * *

---

(١) «السنن» (٤٠٩٢).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/٣٠٧ ـ ٣٠٩).

سُورَةُ الرُّومِ

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾

قالت بعضُ العارفاتِ من السلفِ: مَنْ عملَ للَّهِ على المُشاهدةِ، فهو عارفٌ، ومن عملَ على مشاهدةِ اللَّه إيَّاه فهو مخلصٌ. فأشارتْ إلى المقامينَ اللذين تقدَّم ذكرهُما:

أحدَهما: مقامُ الإخلاصِ، وهو: أن يعملَ العبدُ على استحضارِ مُشاهدةِ اللَّه إياهُ، واطّلاعهِ عليهِ، وقربِهِ منهُ، فإذا استحضرَ العبدُ هذا في عملِهِ، وعَملَ عليه، فهو مخلص للَّه، لأنَّ استحضارَهُ ذلكَ في عملِهِ يمنعُهُ من الالتفاتِ إلى غيرِ اللَّه وإرادتِهِ بالعملِ.

والثاني: مقامُ المشاهدةِ، وهو: أن يعملَ العبدُ على مقتضى مشاهدتِهِ للَّه تعالى بقلبِهِ، وهو أن يتنوَّرَ القلبُ بالإيمانِ، وتَنْفُذُ البصيرةُ في العرفان، حتَّى يصيرَ الغيبُ كالعيانِ.

وهذا هو حقيقةُ مقامِ الإحسانِ المشارِ إليه في حديثِ جبريلَ عليه السلامُ، ويتفاوت أهلُ هذا المقامِ فيه بحسبِ قوةِ نفوذِ البصائرِ.

وقد فسَّر طائفةٌ منَ العُلماءِ المثلَ الأعْلى المذكورَ في قولِهِ عزَّ وجل: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧] بهذا المعنى، ومثلُه: قولُه تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥]، والمرادُ:

مثلُ نورِه في قلبِ المؤمنِ، كذا قاله أُبيُّ بنُ كعبٍ وغيرُه منَ السَّلف.

وقد سبقَ حديثُ: «أفضلُ الإيمانِ أن تعلمَ أنَّ اللَّه معكَ حيثُ كنت»[(١)]، وحديثُ ما تزكيةُ المرءِ نفسه؟، قال: «أن يعلمَ أنَّ اللَّهَ معه حيثُ كانَ»[(٢)].

وخرَّج الطبرانيُّ[(٣)] من حديثِ أبي أُمامةَ عن النَّبيِّ ﷺ قال: «ثلاثةٌ في ظلِّ اللَّهِ يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه: رجلٌ حيثُ توجَّه علِمَ أنَّ اللَّه معه»، وذكر الحديث.

وقد دلَّ القرآنُ على هذا المعنى في مواضعَ متعدِّدةٍ، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، وقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة:٧]، وقوله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس:٦١]، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق:١٦]، وقوله: ﴿وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ [النساء:١٠٨][(٤)].

* * *

وبهذا[(٥)] فُسِّر المثلُ الأعلَى المذكورُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧].

ومثلُه: قولُه تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ

---

(١) أخرجه: الطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٧٩٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٢٤) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: البيهقي (٤/ ٩٥، ٩٦).

(٣) «المعجم الكبير» (٨/ ٢٤٠).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٠٨ ـ ١٠٩).

(٥) يعني: الإحسان.

الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٥].

قال أبيٌّ بنُ كعبٍ وغيرُه من السلفِ: مَثَلُ نورِه في قلبِ المؤمنِ.

فمن وصلَ إلى هذا المقامِ فقد وصلَ إلى نهايةِ الإحسانِ، وصارَ الإيمانُ لقلبِه بمنزلةِ العيانِ، فعرفَ ربَّه، وأنسَ به في خلوتهِ، وتنعَّمَ بذكره ومناجاتهِ ودعائه، حتَّى ربَّما استوحشَ من خلقهِ.

كما قالَ بعضُهم: عجبتُ للخليقة، كيفَ أنستْ بسواكَ؟! بل عجبتُ للخليقةِ كيف استنارت قلوبُها بذكرِ سواك[١]؟!.

وقيلَ لآخرَ: أما تستوحشُ؟ قال: كيفَ أستوحشُ، وهو يقولُ: أنا جليسُ من ذكرني؟![٢].

وقيل لآخرَ: أما تستوحشُ وحدَك؟ قالَ: ويستوحشُ مع اللَّهِ أحدٌ؟!

وكان حبيب أبو محمدٍ يخلُو في بيتِهِ، ويقولُ: من لم تقرَّ عينُه بكَ فلا قرَّت عينُه، ومن لمْ يأنسْ بكَ فلا أنسَ.

وقال الفضيلُ: طوبَى لمن استوحشَ من الناسِ وكان اللَّه جليسَه.

وقال معروفٌ لرجلٍ: توكلْ على اللَّهِ، حتَّى يكونَ جليسَك وأنيسَك وموضعَ شكواكَ.

(١) «الحلية» لأبي نعيم (٦/ ١٩٥).

(٢) أخرجه: البيهقي في «الشعب» (٧٠٩)، والذهبي في «السير» (٨/ ١٧٥) من قول محمد بن النضر.

وقال ذو النونِ: علامـةُ المحبينَ للَّه: أن لا يأنسُوا بسواهُ، ولا يستـوحشُوا معـهُ، ثم قـالَ: إذا سكـنَ القلبَ حبُّ اللَّهِ أنسَ باللَّـهِ؛ لأن اللَّهَ أجلُّ في صدورِ العارفينَ أن يحبُّوا غيرَه[1].

* * *

ثبتَ في «الصحيحينِ»[2] و«السننِ» و«المسانيـدِ» من غيرِ وجهٍ أن جـبريلَ ـ عليه السلامُ ـ سـألَ النبيَّ ﷺ عن الإحسانِ، فـقالَ النبيُّ ﷺ: **«الإحسانُ: أنْ تعبدَ اللَّهَ كأنكَ تراهُ، فإن لم تكنْ تراهُ فإنَّهُ يراكَ»**.

وقال بعضُ العارفينَ من السلفِ: «منْ عملَ للَّهِ على المشاهدةِ فهو عارفٌ، ومنْ عملَ على مشاهدةِ اللَّهِ إياه فهو مخلِصٌ».

فهذان مقامان: **أحدهما**: الإخلاصُ، وهو أن يعملَ العبـدُ على استحضارِ مشـاهدةِ اللَّهِ إياه، واطلاعهِ عليه وقـربِهِ منه، فإذا استـحضَرَ العـبدُ ذلكَ في عملِهِ، وعملَ على هذا المقامِ فهو مخلصٌ للَّه، لأنَّ استحضارَهُ ذلكَ يمنعُهُ من الالتفاتِ إلى غيرِ اللَّهِ وإرادته بالعملِ.

والثاني: المعرفـةُ التي تستلزمُ المحبةَ الخـاصةَ، وهو: أن يعملَ العـبدُ على مشاهدةِ اللَّهِ بقلبهِ، وهو أنْ يتنورَ قلبُه بنورِ الإيمانِ وتنفذَ بصيرتُه في العرفانِ، حتَّى يصـيرَ الغـيبُ عنده كالعيـانِ، وهذا هو مقامُ الإحـسانِ المشـارُ إليه في حديثِ جبريلَ ـ عليه السلامُ ـ، ويتفاوتُ أهلُ هذا المقامِ فيه بحسبِ قوةِ نفوذِ البصائرِ.

وقد فـسَّرَ طائفةٌ من العلمـاءِ المثلَ الأعلى المذكورَ في قـولِهِ تعالى: ﴿وَلَهُ

---

(١) «فتح الباري» (١/ ١٩٤ ـ ١٩٥).

(٢) البخاري (١/ ١٩ ـ ٢٠)، ومسلم (١/ ٢٨ ـ ٢٩).

الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الروم:٢٧] بهذا ومثلُه قولُه تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥] الآية، وقد فسَّرها أبيُّ ابنُ كعبٍ وغيرُه من السلفِ بأنَّ المرادَ: مثلُ نورِ اللَّهِ في قلبِ المؤمنِ.

ومن هذا حديثُ حارثةَ المشهورُ لما قالَ للنبيِّ ﷺ: «وكأنِّي أنظرُ إلى عرشِ ربِّي بارزًا؛ وكأنِّي أنظرُ إلى أهلِ الجنةِ يتزاورونَ فيها، وإلى أهلِ النارِ يتعاوونَ فيها» فقال النبيُّ ﷺ: «عرفتَ فالزمْ، عبدٌ نوَّرَ اللَّهُ الإيمانَ في قلبه»[(١)]، وهذا الحديثُ مروي مرسلاً، ورُويَ مسندًا متَّصلاً لكن من وجوهٍ ضعيفةٍ.

وخطبَ عروةُ إلى ابنِ عمرَ ابنتَهُ وهما في الطوافِ فلم يجبْهُ بشيءٍ، ثم رآهُ بعدَ ذلك فاعتذرَ إليه وقال: «كنَّا في الطوافِ نتخايلُ اللَّه بين أعيننا». خرجَّهُ أبو نعيمٍ وغيرُه.

ويتولَّدَ من هذينِ المقامينِ للعارفينَ مقامُ الحياءِ من اللَّهِ ـ عز وجل ـ، وقد أشارَ النبيُّ ﷺ إلى ذلكَ في حديث بهزِ بنِ حكيمٍ عن أبيه عن جدِّه أنه سئلُ عن كشفِ العورةِ خاليًا؟ فقال: «اللَّهُ أحقُّ أنْ يُستحيا منه»[(٢)] وقد ندبَ النبيُّ ﷺ إلى دوامِ استحضارِ معيةِ اللَّهِ وقربِهِ وإلى الحياء منه بذلكَ في غيرِ حديثٍ، كما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤] الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ الآية [يونس:٦١]. وخرج البزار[(٣)] من حديثِ عبدِ اللَّهِ

---

(١) رواه البزار «كشف الأستار» (٣٢)، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٥٩٠، ١٠٥٩١).

(٢) رواه البخاري معلقًا (١/ ٧٨)، والترمذي (٢٧٦٩)، وأبو داود (٤٠١٧)، وابن ماجه (١٩٢٠)، وأحمد في «المسند» (٥/ ٣، ٤).

(٣) أخرجه: البيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ٩٦، ١٠٩) والحديث أوله عند أبي داود (١٥٨٢) دون الشاهد المذكور ولم نجده في «مسند البزار».

بن معاوية الغاضري أنَّ رجلاً قالَ: يارسولَ اللَّه، ما تزكيةُ المرءِ نفسَهُ؟ قالَ: «**أن يعلمَ أنَّ اللَّه حيثُ كانَ معهُ**».

وخرجَ الطبرانيُّ[١] من حديثِ عبادةَ بنِ الصامتِ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**أفضلُ الإيمانِ: أنْ تعلمَ أنَّ اللَّه معكَ حيثُ كُنتَ**»، وبإسنادٍ فيه نظرٌ من حديثِ أبي أمامةَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ: «**ثلاثةٌ في ظلِّ اللَّه تعالى يوْمَ لا ظلَّ إلا ظلُّهُ: رجُلٌ حيثُ توجَّهَ علمَ أنَّ اللَّه معهُ**» إلخ[٢].

ومن حديثِ سعيدِ بنِ يزيدَ الأزديِّ أنه قال للنبيِّ ﷺ: أوصني، قال: «**أُوصيكَ أنْ تستَحيِ منَ اللَّه كمَا تستَحيِ رَجُلاً صالحًا منْ صالحِي قومِكَ**»[٣]، ورويناه بإسنادٍ فيه ضعفٌ من حديثِ أبي أمامةَ أن النبي ﷺ قال: «**اسْتَحِ منْ اللَّه استحياؤُكَ منْ رجُلينِ منْ صالحِي عشيرتكَ هُما معكَ لا يُفارقانكَ**»[٤].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾

[قال البخاري]: باب: **﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [الروم: ٣١].

قال تعالى: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ**

---

(١) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٨٧٩٦).
(٢) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٨٦ ح ٧٩٣٥).
(٣) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (٦/ ٦٩ ـ ٧٠ ح ٥٥٣٩).
(٤) «استنشاق نسيم الأنس» (٩٥ ـ ١٠٣).

لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الروم:٣٠].

فأمره بإقامةِ وجهِهِ، وهو إخلاصُ قصدِه وعزمِه وهمِّه للدينِ الحنيفِ، وهوَ الدينُ القيِّم، وهو فطرةُ اللَّهِ التي فطرَ العبادَ عليها، فإنَّ اللَّهَ ركَّب في قلوبِ عبادِهِ كلِّهم قبولَ توحيدِه والإخلاصِ لَه، وإنَّما يغيرهم عن ذلك تعليمُ مَنْ علمهم الخروج عنه.

ولَمَّا كان الخطابُ له ﷺ لم تدخل فيه أمتُهُ معه قالَ بعدَ ذلكَ: ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم:٣١]، فجعلَ ذلكَ حالاً له ولأمتِهِ، وهو إنابتُهُم إليه، ويعني به: رجوعَهم إليهِ، وأمرهم بتقواه، والتقوى تتضمنُ فعلَ جميعِ الطاعاتِ وتركَ المعاصِي والمخالفاتِ.

وخصَّ من ذلكَ إقامَ الصلاةِ، فلم يذكرْ من أعمالِ الجوارحِ باسمِهِ الخاصِ سواها، والمرادُ بإقامتها: الإتيانُ بها قائمةً على وجهِها التامِّ، وفي ذلكَ دليلٌ على شرَفِ الصلاةِ وفضلها، وأنها أهمُّ أعمالِ الجوارحِ.

ومن جملة إقامتِهَا المأمورِ به: المحافظةُ على مواقيتِهَا، فمن صَلَّى الصلاةَ لغير مواقيتِهَا التي وَقَّتها اللَّهُ فلم يُقم الصلاةَ، بل ضيَّعها وفرَّط فيها وسَها عنها.

قال ابنُ عبَّاسٍ في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾ [المائدة:٥٥]، قال: يقيمون الصلاةَ بفرضِهَا(١).

وقال قتادة: إقامةُ الصلاةِ: المحافظةُ على مواقيتها ووضوئِها،

---

(١) الطبري في «التفسير» (١/ ١٠٤).

وركُوعِها وسجُودِها.

وقال مُقاتل بنُ حيَّان: إقامتُها: المحافظةُ على مواقيتِهَا، وإسباغُ الطهورِ فيها، وتمامُ ركوعِها وسجودِها، وتلاوةُ القرآنِ فيها، والتشهدُ، والصلاةُ على النبيِّ ﷺ، فهذا إقامتُها.

خرَّجه كلَّه ابنُ أبي حاتم.

ولهذا مدَحَ سبحانهُ الذين هُم على صلاتِهم يحافظونَ والذينَ هم على صلاتِهم دائمونَ، وقد فسَّره ابنُ مسعودٍ وغيرُه بالمحافظةِ على مواقيتِهَا، وفسَّره بذلك مسروقٌ والنخعيُّ وغيرُهما.

وقيل لابنِ مسعودٍ: إن اللَّهَ يكثر ذكرَ الصلاةِ في القرآنِ: ﴿**الَّذينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ**﴾ [المعارج:٢٣]، و﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ**﴾ [المعارج:٣٤]؟ قال: ذاكَ على مواقيتِها. قيل لهُ: ما كنَّا نرَى ذلكَ إلا على تركِها؟ قال: تركُها الكفرُ.

خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ ومحمدُ بنُ نصرٍ المروزي وغيرُهما(١).

وكذلك فسَّرَ سعدُ بنُ أبي وقاص ومسروقٌ وغيرُهما السَّهوَ عن الصلاةِ بالسهوِ عن مواقيتها.

ورُويَ عن سعدٍ مرفوعًا، والموقوفُ أصحُّ(٢) .(٣)

(١) في «تعظيم قدر الصلاة» (٦٢)، (٩٣٨).

(٢) وكذا رجح الوقف فيه البزار والبيهقي والحاكم.

انظر: تعظيم قدر الصلاة» للمروزي (٤٢)، (٤٣)، و«السنن الكبرى» (٢/ ٢١٤ ـ ٢١٥)، و«كشف الأستار» (٣٩٢).

(٣) «فتح الباري» (٣/ ٢٧ ـ ٢٨).

قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾

قال اللَّهُ تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:٤٦]، وقالَ تعالى: ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤].

قال بعضُ السلفِ: في القبرِ، يعني: أن العملَ الصالحَ يكونُ مِهادًا لصحابِه في القبرِ، حيث لا يكونُ للعبدِ من متاعِ الدنيا فراشٌ ولا وسادٌ ولا مهادٌ، بل كلُّ عاملٍ يفترشُ عملَهَ ويتوسَّده من خيرٍ أو شرٍّ[١].

* * *

(١) رسالة «يتبع الميت ثلاث» (ص ٤٠).

سُورَةُ لُقْمَانَ

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾

فأمّا تحريمُ الغناءِ: فقد استُنبطَ من القرآنِ من آياتٍ متعددةٍ. فمن ذلكَ: قولُ اللّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان:٦] الآية.

قالَ ابن مسعود رضي الله عنه: هوَ - واللّه - الغناءُ[١]. وقال ابنُ عباسٍ: هو الغناءُ وأشباهُهُ[٢]، وفسّره أيضًا بالغناءِ خَلْقٌ من التابعينَ منهُم: مجاهدٌ وعكرمةُ والحسنُ وسعيدُ بنُ جبيرٍ وقتادةُ والنَّخعيُّ وغيرُهم[٣]، وقال مجاهدٌ في قولِهِ تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء:٦٤]: قالَ: الغناءُ والمزاميرُ. وقالَ ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ [النجم:٦١] قال: هو الغناءُ - بالحِمْيَريةِ[٤].

وقال بعضُ التابعينَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢] قالَ: إنَّ اللغوَ هنا: الغناءُ. وعن أبي أمامَةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**لا تبيعُوا القَيْنات، ولا تشتروهُنَّ، ولا تُعلِّموهُنَّ، ولا خير في تجارة فيهنَّ، وثمنهُنَّ حرامٌ، في مثلِ هذا أُنزلتْ هذه الآيةُ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾ [لقمان:٦] الآية**».

---

(١) أخرجه: الطبري في «التفسير» (٢١/ ٦١).

(٢) أخرجه: البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٢٣).

(٣) راجع: «تفسير الطبري» (٢١/ ٦٢)، والبيقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٢٣).

(٤) أخرجه: البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٢٣).

خرّجه الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ(١) من روايةِ عبيْدِ اللَّهِ بن زحرٍ عن عليٍّ بن يزيد عن القاسمِ عن أبي أمامةَ، وقال: قد تكلمَ بعضُ أهلِ العلمِ في عليٍّ بنِ يزيدَ وضعَّفهُ، وهوَ شاميٌّ. وذكرَ في كتابِ «العللِ» أنه سَأل البخاريَّ عن هذا الحديثِ فقالَ: عليُّ بنُ يزيدَ ذاهبُ الحديثِ، ووثّقَ عبيدَ اللَّهِ بنَ زحرٍ والقاسمَ ابنَ عبدِ الرحمنِ، وخرّجه محمدُ بنُ يحيى الهمذانيُّ الحافظُ الفقيهُ الشافعيُّ في «صحيحِهِ»، وقالَ: عبيدُ اللَّهِ بن زحرٍ: قال أبو زرعةَ: لا بأسَ به صَدوقٌ.

قلتُ: عليُّ بنُ يزيدَ لم يتفقوا علي ضَعْفِهِ. بل قالَ فيه أبو مُسْهِرٍ - وهوَ من بلدِهِ وهو أعلمُ بأهلِ بلدِهِ من غيرِهِم - قالَ فيه: ما أعلمُ فيه إلا خيراً. وقال ابنُ عديٍّ: هو في نفسه صالحٌ، إلا أنْ يروي عنه ضعيفٌ فيُؤتَى من قبلِ ذلكَ الضعيفِ. وهذا الحديثُ قد رواه عنه غيرُ واحدٍ من الثقاتِ. وقد خرّجَ الإمامُ أحمدُ من روايةِ فرجِ بنِ فضالةَ عن علي بنِ يزيدَ عن القاسمِ عن أبي أمامةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**إن اللَّه بعثَني رحمةً وهدًى للعالمينَ، وأمرَني أن أمحقَ المزاميرَ والبرابطَ والمعازفَ والأوثانَ**»: وذكرَ بقيةَ الحديثِ، وفي آخرِهِ: «**ولا يحلُّ بيعُهُنَّ، ولا شراؤهنَّ، ولا تعليمُهنَّ، ولا تجارةٌ فيهنَّ، وثمنُهنَّ حرام**»(٢). يعني: الضاربات. وفرجُ بنُ فضالةَ مختلفٌ فيه أيضًا. ووثقه الإمامُ أحمدُ وغيرُهُ. وخرّجَ الإسماعيليُّ وغيرُهُ، من حديثِ عمرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قالَ: «**ثمنُ المغنيةِ حرامٌ، وغناؤُها حرامٌ**»(٣). وإسنادُه كلُّهم ثقاتٌ متفقٌ عليهِم، سوى يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ النوفليِّ. فإنه مُختلفٌ في أمرِه. وخرّجَ حديثَه هذا محمدُ بنُ يحيى الهمذاني في صحيحِهِ وقال: في النفسِ مِنْ يزيدَ بنِ

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٢٦٤)، والترمذي في «الجامع» (١٢٨٢).
(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٢٥٧، ٢٦٨).
(٣) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (١/ ٧٣ ح ٨٧) بلفظ «ثمن القينة سحت، وغناؤها حرام».

عبدِ الملكِ. مع أن ابن معين قالَ: ما كانَ به بأسٌ. وبوَّبَ الهمذانيُّ هذا في «صحيحِهِ» على: تحريمِ بيعِ المغنياتِ وشرائِهنَّ. وهو من أصحابِ ابنِ خزيمةَ وكانَ عالمًا بأنواعِ العلومِ. وهو أولُ منْ أظهرَ مذهبَ الشافعيِّ بهمذانَ واجتهدَ في ذلكَ بمالِهِ ونفسِهِ. وكانَ وفاتُه سنةَ سبعٍ وأربعينَ وثلاثمائةٍ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ. وخرّجَ في بابِ تحريمِ ثمنِ المغنيةِ من روايةِ أبي نعيمٍ الحلبيِّ عن ابنِ المباركِ عن مالكٍ عن ابنِ المنكدرِ عن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ قالَ: **«من قعدَ إلى قينةٍ يستمعُ منها، صُبَّ في أُذنيهِ الآنُكُ يومَ القيامةِ»**.

وقال: أبو نعيم الحلبيُّ اسمه عبيدُ بنُ هشامٍ.

قلتُ: قد وثقه أبو داودَ وقالَ: إنه تغيَّر بآخرةٍ. وقد أنكرَ عليه أحاديثَ تفردَ بها، منها هذا الحديثُ. وفي النهي عن بيعِ المغنياتِ أحاديثُ أُخرُ عن عليٍّ وعائشةَ رضي الله عنهما وغيرِهما، وفي أسانيدِهَا مقالٌ.

وروى عامرُ بنُ سعدٍ البجليُّ قال: دخلتُ على قرظةَ بنِ كعبٍ وأبي مسعودٍ الأنصاريِّ في عُرْسٍ، فإذا جواري يتغنينَ، فقلتُ: أنتم أصحابُ محمدٍ وأهلُ بدرٍ، ويُفعلُ هذا عندكُم؟! قال: اجلسْ إن شئْتَ واسمعْ، وإن شئتَ فاذهبْ؛ فإنَّه قد رُخِّصَ لنا في اللهوِ عندَ العرسِ. خرّجه النسائيُّ والحاكمُ[1] وقال: صحيحٌ على شرطِهما.

والرخصةُ في اللهوِ عند العرسِ تدلُّ على النهيِّ عنهُ في غيرِ العُرسِ، ويدلُّ عليه قولُ النبيِّ ﷺ في حديثِ عائشةَ المتفقِّ عليه في «الصحيحين»[2]: لمَّا دخلَ عليها وعندَها جاريتانِ تغنيانِ وتدفانِ، فانتهرهُما أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه،

(١) أخرجه: النسائي (٦/ ١٣٥)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ١٨٤).
(٢) البخاري (٢/ ٢٩)، (٤/ ٢٢٥)، ومسلم (٣/ ٢١).

وقالَ: مَزمورُ الشيطانِ عندَ رسولِ اللَّهِ ﷺ؟! فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«دعهُما، فإنَّها أيامُ عيدٍ»**. فلم يُنكرْ قولَ أبي بكرٍ رضي الله عنه.

وإنّما علَّل الرخصةَ بكونهِ في يومِ عيدٍ؛ فدلَّ على أنَّه يُباحُ في أيامِ السرورِ: كأيامِ العيدِ، وأيامِ الأفراحِ: كالأعراسِ وقدومِ الغُيَّابِ، ما لا يُباحُ في غيرِها من اللهوِ. وإنما كانتْ دفوفُهم نحوَ الغرابيلِ وغناؤُهم بإنشادِ أشعارِ الجاهليةِ في أيامِ حروبِهم وما أشبهَ ذلكَ.

فمن قاسَ على ذلكَ سماعَ أشعارِ الغزلِ مع الدفوفِ المصلصلةِ، فقدْ أخطأَ غايةَ الخطأ، وقاسَ مع ظهورِ الفرقِ بين الفرعِ والأصلِ.

وقال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه: الغناءُ يُنبتُ النفاقَ في القلبِ، كما ينبتُ الماءُ البقلَ[١]. وقد رُوي عنه مرفوعًا. خرّجه أبو داود[٢] في بعضِ نسخِ السننِ، وخرّجه ابنُ أبي الدنيا والبيهقيُّ وغيرُهما. وفي إسنادِ المرفوعِ من لا يُعرفُ، والموقوفُ أشبهُ.

وأما تحريمُ آلاتِ الملاهِي: فقد تقدَّم عن مجاهدٍ أنَّه أدخلَها في صوتِ الشيطانِ المذكورِ في قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿**وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ**﴾ [الإسراء: ٦٤][٣].

* * *

(١) أخرجه: البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٢٣).

(٢) «السنن» (٤٩٢٧).

(٣) «نزهة الأسماع» (ص ٢٩ ـ ٣٧).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾

وأما قولُ جبريلَ: «أخبرني عن الساعةِ؟ فقال: ما المسئولُ عنها بأعلمَ من السائلِ».

فمعناه: أن الناسَ كلَّهم في وقتِ الساعةِ سواءٌ، وكلُّهم غيرُ عالمينَ به على الحقيقةِ.

ولهذا قال: «**خمسٌ لا يعلمُهنَّ إلا اللَّهُ**»، ثم تلا: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ**﴾ الآية [لقمان:٣٤].

وهذه مفاتيحُ الغيبِ، الذي لا يعلمُها إلا اللَّهُ.

وقد جاءَ عن ابنِ مسعودٍ: «أن نبيَّنا أوتيَ علمَ كلِّ شيءٍ سوى هذه الخمسِ».

ورُوي ذلك مرفوعًا من حديثِ ابنِ عمرَ.

وكلاهُما في «مسندِ الإمامِ أحمدَ»[1].

وذُكِرَ عندَ عَمرِو بنِ العاصِ العلمُ بوقتِ الكسوفِ قبلَ ظهورِه، فأنكرهُ بعضُ مَن حضرَه، فقال عَمرٌو: إنما الغيبُ خمسٌ، ثم تلا هذه الآيةَ. قال: وما سوى ذلك يعلمُه قومٌ ويجهلُه قومٌ.

خرجه حميدُ بنُ زنجويه.

وقد زعمَ بعضُهم كالقرطبيِّ، أن هذه الخمسَ لا سبيلَ لمخلوقٍ إلى علمٍ بها

---

(١) «المسند» (١/ ٣٨٦، ٤٣٨، ٤٤٥) من حديث ابن مسعود، (٢/ ٢٤، ٢٥) من حديث ابن عمر.

قاطعٍ، وأما الظنُّ بشيءٍ منها بأمـارةٍ قد يخطئُ ويصيبُ، فليسَ ذلكَ بممتنعٍ، ولا نفيه مراد من هذه النصوص[١] .

* * *

(١) «الفتح» (١/ ١٩٦، ١٩٧).

سُورَةُ السَّجْدَةَ

قوله تعالى: ﴿وَبَدأَ خَلْقَ الإنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾

وقولُه تعالى: ﴿وَبَدأَ خَلْقَ الإنسَانِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ [السجدة: ٧ - ٩]، والمرادُ بالإنسانِ: آدمُ - عليه السلامُ -، ومعلومٌ أنَّ تسويتَهُ، ونفخَ الرُّوحِ فيه، كان قبلَ جعلِ نسلِه من سُلالةٍ من ماءٍ مهينٍ، لكنْ لما كانَ المقصودُ ذكرَ قدرةِ اللَّه عزَّ وجلّ في مبدأ خلقِ آدمَ وخلقِ نسلِهِ، عطفَ ذكرَ أحدِهِما على الآخرِ، وأخَّر ذكرَ تسويةِ آدمَ ونفخِ الرُّوحِ فيه، وإن كانَ ذلك متوسطًا بينَ خلقِ آدمَ من طينٍ وبينَ خلقِ نسلِهِ. واللَّهُ أعلمُ(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

عنْ مُعاذ ﷺ قالَ: قلتُ: يا رسولَ اللَّه، أخبرني بعملٍ يُدخلُني الجنَّةَ ويُباعِدُني منَ النَّارِ.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٥١).

قالَ: «لقدْ سألتَ عنْ عظيمٍ، وإنَّهُ ليسيرٌ على من يسرهُ اللَّه عليه: تعبدُ اللَّه لا تُشركُ بهِ شيئًا، وتقيمُ الصلاةَ، وتؤتِي الزَّكاةَ، وتصومُ رمضانَ، وتحجُّ البيتَ».

ثُمَّ قالَ: «ألا أدُلكَ على أبوابِ الخيرِ؟ الصَّومُ جنَّةٌ، والصدقةُ تُطفئُ الخطيئةَ كما يُطفئُ الماءُ النَّارَ، وصلاةُ الرَّجُلِ منْ جوفِ اللَّيلِ، ثُمَّ تلا: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حتى بلغ: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٦-١٧]».

ثم قال: «ألا أُخبرُكَ برأسِ الأمرِ وعمودِه وذروةِ سنامِه؟».

قُلتُ: بلى يا رسولَ اللَّه.

قال: «رأسُ الأمرِ: الإسلامُ، وعمودُهُ: الصلاةُ، وذروةُ سنامِه: الجهادُ».

ثُمَّ قالَ: «ألا أُخبركَ بملاكِ ذلكَ كُلِّه؟».

قُلتُ: بلى يا رسولَ اللَّه.

فأخذَ بلسانِه، قالَ: «كُفَّ عليكَ هذا».

قُلتُ: يا نَبِيَّ اللَّه، وإِنَّا لمؤاخذُونَ بما نتكلَّمُ بهِ؟.

فقال: «ثكلتكَ أُمُّكَ، وهل يكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ على وجوهِهِم، - أوْ على مناخرِهِم -، إلا حصائدُ ألسنتِهِم».

رواهُ الترمذيُّ وقالَ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

هذا الحديثُ، خرَّجه: الإمامُ أحمدُ، والترمذيُّ، والنسائيُّ، وابنُ ماجه(١)، من روايةِ معمرٍ، عن عاصمِ بنِ أبي النجودِ، عن أبي وائلٍ، عن مُعاذِ بنِ جبلٍ، وقالَ الترمذيُّ: «حسنٌ صحيحٌ».

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٢٣٧، ٢٣٣)، والترمذي (٢٦١٦)، وابن ماجه (٣٩٧٣).

وفيما قالهُ ـ رحمه اللَّهُ ـ نظرٌ من وجهينِ:

أحدهما: أنَّه لم يثبتْ سماعُ أبي وائلٍ من معاذٍ، وإن كان قد أدركهُ بالسِّنِّ، وكانَ معاذٌ بالشَّام، وأبو وائلٍ بالكوفةِ، وما زالَ الأئمةُ ـ كأحمدَ وغيرِه ـ يستدلُّون على انتفاءِ السّماعِ بمثلِ هذا، وقد قال أبو حاتمٍ الرازيُّ في سماعِ أبي وائلٍ من أبي الدرداءِ: قد أدركهُ، وكان بالكُوفةِ، وأبو الدُّرداءِ بالشامِ ـ يعني: أنه لم يصحَّ له سماعٌ منهُ. وقد حكَى أبو زُرعةَ الدِّمشقيُّ عن قومٍ أنَّهم توقَّفُوا في سماعِ أبي وائل من عمرَ، أو نفوه، فسماعُه من معاذٍ أبعدُ.

والثاني: أنَّه قد رواهُ حمَّادُ بنُ سلمةَ عن عاصمِ بنِ أبي النَّجودِ عن شهرِ ابن حوشبٍ عن معاذ، خرَّجه الإمامُ أحمدُ مختصرًا، قال الدارقطني: وهو أشبهُ بالصَّوابِ؛ لأنَّ الحديثَ معروفٌ من رواية شهرٍ على اختلافٍ عليه فيه.

قلت: ورواية شهرٍ عن معاذٍ مرسلةٌ يقينًا، وشهرٌ مختلفٌ في توثيقهِ وتضعيفهِ. وقد خرَّجه الإمامُ أحمدُ من روايةِ شهرٍ عن عبدِ الرحمنِ بن غنمٍ عن معاذٍ. وخرَّجه الإمامُ أحمدَ ـ أيضًا ـ من روايةِ عُروة بن النزال ـ أو النزال ابنِ عروةَ ـ، وميمونِ بنِ أبي شبيبٍ، كلاهما: عن معاذ. ولم يسمعْ عروةُ ولا ميمونُ من معاذٍ. وله طرقٌ أخرى عن معاذ كلُّها ضعيفةٌ.

وقولُه: «ثم تلا: ﴿**تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (16) فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [السجدة:١٦ ـ ١٧]»، يعني: أن النبيَّ ﷺ تلا هاتينِ الآيتينِ عندَ ذكرِه فضلَ صلاةِ الليلِ، ليبيِّنَ بذلكَ فضلَ صلاةِ الليلِ.

وقد رُويَ عن أنسٍ أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في انتظارِ صلاةِ العشاءِ، خرَّجه الترمذيُّ وصححه[١]، ورُويَ عنه أنه قالَ في هذه الآيةِ: كانُوا يتنفلونَ بينَ المغربِ والعشاءِ. خرَّجه أبو داود[٢]. ورويَ نحوُه عن بلالٍ، خرَّجه البزارُ بإسنادٍ ضعيفٍ[٣].

وكلُّ هذا يدخلُ في عمومِ لفظِ الآيةِ، فإنَّ اللَّهَ مدحَ الذين تتجافَى جنوبُهم عن المضاجعِ لدعائه، فيشملُ ذلكَ كلَّ من تركَ النَّومَ بالليلِ لذكرِ اللَّهِ ودُعائه، فيدخلُ فيه مَن صلَّى بينَ العشاءينِ، ومن انتظرَ صلاةَ العشاءِ فلم ينَمْ حتَّى يُصلِّيَها، لاسيَّما مع حاجتِه إلى النومِ ومجاهدةِ نفسهِ على تركهِ لأداءِ الفريضة، وقد قالَ النبيُّ ﷺ لمنِ انتظرَ صلاةَ العشاءِ: «**إنَّكم لن تزالوا في صلاةٍ ما انتظرتُمُ الصَّلاةَ**»[٤].

ويدخلُ فيه من نامَ ثمَّ قامَ مِن نومه باللَّيلِ للتهجُّد، وهو أفضلُ أنواعِ التطوُّعِ بالصلاةِ مطلقًا.

وربما دخلَ فيهِ من تركَ النوم عندَ طلوعِ الفجرِ، وقامَ إلى أداء صلاةِ الصُّبحِ، لاسيما مع غلبةِ النَّوم عليهِ، ولهذا يُشرعُ للمؤذِّن في أذانِ الفجرِ أن يقولَ في أذانهِ: الصلاةُ خيرٌ من النومِ.

وقوله ﷺ: «**وصلاةُ الرَّجُلِ من جوفِ الليلِ**» ذكرَ أفضلَ أوقاتِ التهجُّدِ بالليلِ، وهو جوفُ الليلِ، وخرَّج النسائيُّ والترمذيُّ من حديثِ أبي أمامةَ،

---

(١) الترمذي (٣١٩٦).
(٢) أبو داود (١٣٢١).
(٣) البزار (٢٢٥٠ ـ كشف).
(٤) قطعة من حديث، أخرجه: البخاري (١/ ١٥٠، ١٦٨، ٢١٤)، ومسلم (٢/ ١١٦).

قالَ: قيلَ: يا رسولَ اللَّهِ، أيُّ الدُّعاءِ أسمعُ؟ قال: «**جوفُ اللَّيلِ الآخرِ، ودُبرُ الصَّلواتِ المكتوباتِ**»[١].

وخرَّجه ابنُ أبي الدنيا، ولفظُه: جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، قال: أيُّ الصلاةِ أفضلُ؟ قال: «**جوفُ اللَّيلِ الأوسطِ**»، قالَ: أيُّ الدُّعاءِ أسمعُ؟ قالَ: «**دبرُ المكتوباتِ**».

وخرَّجَ النسائيُّ من حديثِ أبي ذرٍّ قالَ: سألتُ النبيَّ ﷺ: أيُّ الليلِ خيرٌ؟ قال: «**خيرُ الليلِ: جوفُه**»[٢].

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ من حديثِ أبي مسلمٍ قالَ: قلتُ لأبي ذرٍّ: أيُّ قيامِ الليلِ أفضلُ؟ قال: سألتُ النبيَّ ﷺ كما سألْتَني، فقالَ: «**جوفُ اللَّيلِ الغابرِ أو نصفُ اللَّيلِ، وقليلٌ فاعلُه**»[٣].

وخرجهُ البزارُ، والطبرانيُّ[٤] من حديثِ ابنِ عمرَ، قالَ: سُئلَ النبيُّ ﷺ: أيُّ الليلِ أجوبُ دعوةً؟ قالَ: «**جوفُ الليلِ**» زادَ البزارُ في روايتِه: «**الآخرِ**».

وخرَّجَ الترمذيُّ[٥] من حديثِ عمرِو بنِ عبسةَ سمعَ النبيَّ ﷺ يقولُ: «**أقربُ ما يكونُ الربُّ من العبدِ: في جوفِ الليلِ الآخرِ، فإنْ استطعتَ أن تكونَ ممَّن يذكرُ اللَّهَ في تلكَ الساعةِ فكنْ**»، وصححهُ.

وخرَّجه الإمامُ أحمدُ، ولفظُه: قالَ: قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، أيُّ الساعاتِ

---

(١) أخرجه: الترمذي (٣٤٩٩)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٠٨).

(٢) أخرجه: النسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (١١٩٠٢).

(٣) أحمد في «المسند» (٥/ ١٧٩).

(٤) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٣٤٢٨)، والبزار (٣١٥١ ـ كشف).

(٥) أخرجه: الترمذي (٣٥٧٩)، وأحمد (٤/ ١١٢، ١١٤، ٣٨٥، ٣٨٧)، وكذا ابن ماجه (١٢٥١)، (١٣٦٤).

أفضل؟ قالَ: «**جوفُ الليلِ الآخرِ**» وفي روايةٍ لهُ ـ أيضًا ـ: قالَ: «**جوفُ الليلِ الآخرِ أجوبُه دعوةً**»، وفي روايةٍ له: قلتُ: يا رسولَ اللَّه، هل مِنْ ساعةٍ أقربُ إلى اللَّه من أُخرى؟ قال: «**جوفُ الليلِ الآخرِ**». وخرَّجه ابنُ ماجه، وعندَهُ: «**جوفُ اللَّيلِ الأوسط**»، وفي روايةٍ للإمامِ أحمدَ عن عمرِو بنِ عبسةَ، قالَ: قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، هل منْ ساعةٍ أفضلُ من ساعةٍ؟ قالَ: «**إنَّ اللَّهَ ليتدلَّى في جوفِ الليلِ، فيغفرُ، إلا ما كانَ من الشرك**»(١).

وقد قيلَ: إنَّ جوفَ اللَّيلِ إذا أطلقَ فالمرادُ به: وسطُه، وإن قيلَ: جوفُ الليلِ الآخرِ، فالمرادُ وسطُ النِّصفِ الثاني، وهو السُّدسُ الخامسُ من أسداسِ الليلِ، وهو الوقتُ الذي ورد فيه النُّزولُ الإلهي(٢).

* * *

وروَى عطيةُ، عن أبي سعيد، قال: إنَّ اللَّهَ خَلَق جنَّة عدنٍ من ياقوتةٍ حمراءَ، ثم قال لها: تزيَّني فتزينت، ثم قال لها: تكلَّمي، فقالت: طُوبى لمن رضيتَ عنه؛ ثم أطبقها وعلَّقها بالعرشِ، فهي تُفتحُ في كلِّ سحرٍ، فذلك بردُ السحرِ.

وعن ابن عبَّاس، قال: كان عرشُ اللَّه على الماءِ، ثم اتخذَ لنفسه جنَّةً، ثم اتخذَ دونها أخرى، وطبَّقهما بلؤلؤة واحدةٍ لا يعلمُ الخلائقُ ما فيهما وهما اللتانِ: ﴿**فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[السجدة: ١٧].

وذكرَ صفوانُ بنُ عمرٍو، عن بعضِ مشايخه، قال: الجنةُ مائةُ درجةٍ: أولها: درجةُ فِضةٍ، وأرضُها فضةٌ، ومساكنُها فضةٌ، وترابها المسكُ.

(١) أخرجه: الترمذي (٣٥٧٩)، وأحمد (٤/ ١١٢، ١١٤، ٣٨٥، ٣٨٧)، وابن ماجه (١٢٥١)، (١٣٦٤).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ١٢٦ ـ ١٤٠) باختصار.

والثانية: ذهبٌ، وأرضُها ذهبٌ، وآنيتها ذهبٌ، وترابُها المسكُ.

والثالثة: لؤلؤ، وأرضُها لؤلؤ، وآنيتُها لؤلؤ، وترابُها المسكُ، وسبعٌ وتسعونَ بعد ذلك ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعت، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ، ثم تلا: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧].

وفي «الصحيحين»[(١)] عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «يقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: أعددتُ لعبادي الصَّالحينَ ما لا عينٌ رأتْ، ولا أذنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ». ثم يقولُ أبو هريرةَ: اقرءُوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧].

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[(٢)] عن المغيرةِ بنِ شعبة - يرفعه: «سألَ موسى ربَّه، قال: ياربِّ، ما أدنى أهلِ الجنةِ منزلةً؟ قال: هو رجلٌ يجيءُ بعدما أُدخلَ أهلُ الجنَّة الجنَّةَ، فيقالُ له: ادخُلِ الجنَّةَ، فيقولُ: ياربِّ، كيفَ وقد أخذَ النَّاسُ منازلهم، وأخذوا أخذاتهم؟ فيقالُ له: أترضى أن يكون لكَ مثلُ مُلْك ملك من مُلُوكِ الدُّنيا؟ فيقولُ: رضيتُ ياربِّ، فيقولُ: لك ذلك ومثلُهُ ومثلُهُ ومثلُهُ ومثلُهُ، فقال له في الخامسة: رضيتُ ياربِّ، فيقالُ: هذا لكَ وعشرةُ أمثاله، ولكَ ما اشتهتْ نفسُك ولذَّت عينُك، فيقولُ: رضيتُ ربِّ. قال: فأعلاهُم منزلةً؟ قال: أولـئك الذينَ أردتُ، غرستُ كرامتهُم بيدي، وختمتُ عليها، فلم ترَ عينٌ، ولم تسمعْ أذنٌ، ولم يخطرْ على قلبِ بشرٍ. قال: ومصداقُهُ في كتابِ اللَّهِ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]»[(٣)].

* * *

(١) البخاري (٦/ ١٤٥)، ومسلم (٨/ ١٤٣).
(٢) أخرجه: مسلم (١/ ١٢٠ - ١٢١).
(٣) «لطائف المعارف» (٦٤، ٦٥).

سُورَةُ الأحْزَابِ

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيراً﴾

كانت مجالسُ النبيِّ ﷺ مع أصحابه عامتُها مجالسَ تذكيرٍ باللَّهِ وترغيبٍ وترهيبٍ، إمَّا بتلاوةِ القرآنِ، أو بما آتاهُ اللَّه من الحكمة والموعظة الحسنة، وتعليمِ ما ينفعُ في الدِّين، كما أمَرَه اللَّهُ تعالى في كتابه أن يذكِّرَ ويعظَ ويقُصَّ، وأن يدعوَ إلى سبيل ربِّه بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن يبشِّر ويُنذرَ، وسمَّاه اللَّهُ: ﴿وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

والتبشير والإنذارُ هو الترغيبُ والترهيبُ، فلذلك كانتْ تلك المجالسُ توجبُ لأصحابِهِ رقَّةَ القلوبِ والزُّهدَ في الدُّنيا والرَّغبةَ في الآخرةِ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً﴾

و«الجِلْباب»: قال ابن مسعودٍ ومجاهدٌ وغيرُهما: هو الرِّداءُ، ومعنى ذلك: أنه للمرأة كالرداءِ للرجلِ، يسترُ أعلاها، إلا أنه يُقَنِّعُها فوقَ رأسِهَا، كما

(١) «لطائف المعارف» (٤٥ ـ ٤٦).

يضعُ الرجلُ رداءَه على منْكِبَيْه.

وقد فسَّر عَبِيدةُ السَّلْماني قولَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٩] : بأنها تُدنيه من فوقِ رأسِهَا، فلا تُظْهِر إلا عَيْنَها، وهذا كانَ بعد نزولِ الحجابِ، وقد كُنَّ قبلَ الحجابِ يَظهرن بغيرِ جلبابٍ، ويُرى من المرأةِ وجهُها وكَفَّاها، وكان ذلك ما ظهرَ منها من الزينة في قولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور:٣١].

ثم أُمِرَتْ بسَتْرِ وجهِها وكفيها، وكان الأمْرُ بذلك مختصًا بالحرائرِ دونَ الإماءِ، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب:٥٩]، يعني: حتى تُعرفَ الحرةُ فلا يتعَرَّضُ لها الفُسَّاقُ، فصارتِ المرأةُ الحرةُ لاتخرج بين الناسِ إلا بالجلبابِ، فلهذا سُئل النبيُّ ﷺ لما أمَرَ النساءَ بالخروجِ في العيدين، وقيل له: المرأةُ منا ليسَ لها جلبابٌ؟ فقال: «لِتُلْبِسْها صاحبتُها من جلبابها»(١) يعني: تُعِيرُها جلبابًا تخرجُ فيه(٢) .

* * *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾

خرَّج البخاريُّ من حديثِ: مَعْمَر، عنْ همَّامٍ بنِ مُنَبِّهٍ، عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ، قال: «كان بنو إسرائيل يغْتَسِلُونَ عُرَاةً، ينظرُ بعضُهُم إلى بعضٍ، وكان مُوسى ـ عليه السلامُ ـ يَغْتسلُ وحْدَهُ، فقالوا: واللَّهِ، ما يمنعُ مُوسَى أنْ يغْتَسِلَ معنا، إلا

(١) البخاري (١/ ٨٨/ ٨٩)، ومسلم (٣/ ٢٠ ـ ٢١).
(٢) «فتح الباري» (٢/ ١٣٨).

أنَّهُ آدَرُ، فذهبَ مرَّةً يغتسلُ، فوضعَ ثوبَهُ على حَجَرٍ، فـفرَّ الحجَرُ بثَوْبِهِ، فخَرَجَ مُوسَى في إثْرِهِ، يقولُ: ثَوْبِي يا حَجَـرُ، ثَوْبِي يا حجرُ، حتَّى نظرتْ بَنُو إسرائيل إلى مُـوسى، فقالوا: واللَّه، ما بمُوسَى بأسٌ، وأخَذَ ثوْبَهُ، فطَفِقَ بالحَجَرِ ضرْبًا»(١) .

قال أبو هريرة: واللَّهِ، إنَّهُ لندَبٌ بالحَجَرِ - ستَّةٌ أوْ سبْعَةٌ - ضربًا بالحَجَرِ.

وعن أبي هريرة، عـن النبيِّ ﷺ، قال: «بيْنَا أيُّوبُ - عليـه السلامُ - يغْتَسِلُ عُرْيَانًا فخرَّ عليه جَرَادٌ مـن ذَهَبٍ، فجعل أيُّوبُ يَحْتَثِي في ثوبه، فناداهُ ربُّه: يا أيُّوبُ، ألم أكُنْ أغْنَيتُك عمَّا ترى؟ قال: بلى وعِزَّتِكَ، ولكنْ لا غِنَى بي عنْ بَرَكَتِكَ».

ورواه إبراهيمُ، عن موسى بن عُقْبَةَ، عن صفْوَانَ بنِ سُلَيْمٍ، عن عطاءِ بنِ يسـارٍ، عن أبي هريـرة، عن النبيِّ ﷺ: «بَيْنَا أيُّوبُ - عليـه السلامُ - يغْتَسِلُ عُرْيَانًا»(٢) .

وخرَّجَ البخاريُّ في «أخبار الأنبـياءِ» من «صحيحِهِ»(٣) هذا قصـةَ موسى - عليـه السلامُ - من وجـهٍ آخر، من روايـةِ عوفٍ، عن ابنِ سـيرينَ والحسنِ وخلاسٍ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ موسى - عليه السلام - كان رجلاً حيِيًّا ستيرًا، لا يُرى من جلدِهِ شيءٌ، استحياءً منه، فآذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا: ما يستترُ هذا السترَ إلا من عيبٍ بجلدِهِ، إما برصٌ وإما أدرةٌ وإمـا آفةٌ، وإن اللَّه أرادَ أن يُبرِّئَه، فخلا يومًـا وحدَه، فوضعَ ثيابَه على الحَجَرِ، ثم اغتسلَ، فلمـا فرغَ أقبلَ إلى ثيابِهِ، ليأخذها، وإن الحجرَ عدا بثوبِهِ، فأخذَ مـوسى عصاهُ، وطلبَ الحجرَ، فجعلَ يقولُ: ثوبي حجرُ، ثوبي حجرُ، حتى انتهى إلى مـلإٍ بني إسرائيلَ، فرأوْهُ عُريانًا، أحسنَ ما خلَقَ اللَّهُ،

(١) البخاري (١/ ٧٨).
(٢) السابق.
(٣) البخاري (٤/ ١٩٠).

وأبرأَهُ اللَّه مما يقـولونَ، وقامَ الحجـرُ، فأخـذَ ثوبَهُ فلبسَـهُ، وطفقَ بالحجر ضـربًا ـ ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا ـ، فذلك قولُهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾» [الأحزاب: ٦٩].

«الأدرةُ»: انتفاخُ الخصيةِ.

و«الندبُ»: الأثرُ الباقي في الحجرِ، من ضربِ موسى ـ عليه السلامُ ـ له.

قال الخطابيُّ: وفيه من الفقهِ: جوازُ الاطلاعِ على عوراتِ البالغينَ؛ لإقامة حقٍّ واجبٍ كالختانِ ونحوِهِ.

قلتُ: هذا فيه نظرٌ؛ فإن موسى ـ عليه السلامُ ـ لم يقصدِ التعرِّي عندَ بني إسرائيل؛ لينظرُوا إليه، وإنَّما قدَّر اللَّهُ له ذلك حتى يبرئَه عندهم مما آذوْه به.

وقد يقالُ: إنَّ اللَّهَ لا يقدِّرُ لنبيِّه ما ليسَ بجائزٍ في شرعِهِ.

وأما الاستدلالُ به على جوازِ الاغتسالِ في الخلوةِ عُريانًا، فهو مبنيٌّ على القولِ بأن شرعَ مَنْ قبلَنا شرعٌ لنا، ما لم يأتِ شرعُنا بخلافِهِ.

وقد استدلَّ بهذا على جوازِ الغسلِ في الخلوةِ عُريانًا: إسحاقُ بنُ راهويه ـ أيضًا ـ، وذكر أنه وإنْ كان شرعَ من قبلنا، إلا أنه لم يردْ شرعُنا بخلافِهِ.

وقد يمنـعُ هذا من يقولُ: قـد ورد شرعُنا بالتسترِ في الخلـوةِ ـ أيضًا ـ، وسيأتي بيانُ ذلك في البابِ الآتي ـ إن شاء اللَّه تعالى.

وقد روى حمـادُ بنُ سلمةَ، عن عليِّ بنِ زيدٍ، عن أنسٍ، عن النبيِّ ﷺ، قال: **«إنَّ مـوسى بنَ عمـران ـ عليه السـلامُ ـ كـان إذا أراد أن يدخلَ الماءَ لم يُلقِ ثوبَهُ، حتى يواريَ عورتَهُ في الماء»**.

خرَّجه الإمامُ أحمدُ[١] .

وعليُّ بنُ زيدٍ، هو: ابنُ جُدْعَانٍ، متكلَّمٌ فيه.

وكذا القولُ في الاحتجاج بحديثِ أيوبَ ـ عليه السلامُ ـ عُريانًا.

وأمَّا الطريق الذي ذكره البخاريُّ تعليقًا لحديثِ اغتسالِ أيوبَ ـ عليه السلامُ ـ؛ فخرَّجه الإمامُ[٢] .

* * *

(١) «المسند» (٣/ ٢٦٢).

(٢) «فتح الباري» (١/ ٣٣٠ ـ ٣٣٣). وهَاهُنا انتهى البابُ في الأصلِ، والظَّاهِرُ: أنَّ سقطًا وقع يَطول أو يَقصُر. واللّهُ أعلمُ.

سُورَةُ فَاطِرٍ

قوله تعالى: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾

قال ابنُ الجَوزي في «المُقتَبَسِ»: سَمعتُ الوَزيرَ[1] يقولُ في قَولِه تَعالى ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر:٣] قال: فَطَلَبْتُ الفكرَ في المُناسبَةِ بَين ذكْرِ النِّعمَةِ وبَين قوله تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر:٣] فرأيت أنَّ كُلَّ نعمةٍ ينالها العبدُ فاللَّه خالقُها، فقد أنعمَ بخلقهِ لتلك النعمةِ، وبِسَوقِهَا إلى المُنعَمِ عليه[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾

وقولُهُ: «**والطيباتُ**»[3]، فُسرتْ بالكلماتِ الطيباتِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾[فاطر:١٠] فالمعنى: إنَّ ما كان من الكلامِ فإنَّه للَّه، يُثنَى به عليه ويُمجَّدُ به.

وفُسرتِ «**الطيبات**» بالأعمال الصالحة كلِّها، فإنها توصفُ بالطيِّب، فتكونُ كلُّها للَّه، بمعنى: أنه يُعبدُ بها ويُتقرَّبُ بها إليه[4].

* * *

(١) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.
(٢) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٨).
(٣) هذه الكلمة جزء من حديث التشهد المعروف.
(٤) «فتح الباري» (٥/ ١٧٥).

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾

أما سماعُ الموتى لكلامِ الأحيـاءِ: ففي «الصحيحين»[١] عن أنسٍ، عن أبي طلحـةَ، قـال: لمَّا كانَ يومُ بدرٍ وظـهرَ عليـهم رسـولُ اللَّهِ ﷺ أمرَ ببـضعةٍ وعشرينَ رجلاً، وفي روايةٍ أربعةً وعشـرينَ رجلاً من صناديدِ قريشٍ، فألقُوا في طوىً من أطواءِ بـدرٍ، وإنَّ رسـولَ اللَّهِ ﷺ ناداهم قالَ: «**يا أبا جـهلِ بنَ هشامٍ، يا أميَّـة بنَ خلف، يا عتبةَ بنَ ربيعةَ، يا شـيبةَ بنَ ربيعةَ، أليسَ قدْ وجـدتُم ما وعدَ ربُّكم حقًّا؟ فإنِّي قد وجدتُ ما وعدنِي ربِّي حقًّا**» فقال عمرُ: يا رسولَ اللَّه ما تُكلِّم من أجسادٍ لا أرواحَ فيها، فقالَ: «**والذي نفسِي بيدِهِ ما أنتُم بأسمعَ لمَا أقولُ منهم**».

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[٢] من حديث أنسٍ نحـوُهُ من غيرِ ذكـرِ أبي طلحةَ، وفي حديثِـهِ قال: «**والذي نفسِي بيدِهِ، مـا أنتُم بأسـمعَ لمَا أقـولُ منـهم، ولكنهم لا يقدرونَ أن يجيبُوا**».

وفيـه - أيضًا - عن أنسٍ، عن عمـرَ بنِ الخطابِ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ هذه القصة بمعناها[٣].

وفي «الصحيحينِ»[٤] عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما، قال: اطَّلع رسولُ اللَّهِ ﷺ على أهلِ القَليبِ، فقالَ: «**وجدتُم ما وعدَكُم حقًّا؟**» فقيلَ له: أتدعُو أمواتًا؟ قال: «**ما أنتُم بأسمعَ منهم، ولكنَّهم لا يجيبون**» وفي روايةٍ قالَ: «**إنهم الآنَ يسمعونَ ما أقولُ**».

وقد أنكرتْ عائشةُ رضي الله عنها ذلك، كـما في «الصحيحينِ»[٥] عن عروةَ، عن

---

(١) البخاري (٤/ ٨٩)، (٥/ ٩٧)، ومسلم (٨/ ١٦٤).
(٢) مسلم (٨/ ١٦٣ ـ ١٦٤).
(٣) مسلم (٨/ ١٦٣).
(٤) البخاري (٥/ ٩٨)، ومسلم (٣/ ٤٤).
(٥) السابق.

عائشة رضي الله عنها، أنها قالتْ: ما قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**إنهم ليسمعونَ الآنَ ما أقولُ**»، وقد وهِمَ ـ يعني ابن عمرَ ـ إنما قال: «**إنَّهم ليعلمونَ الآنَ ما كنت أُقولُ لهُم إنه حقٌّ**» ثم قرأت قولَه: ﴿**إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى**﴾ [النمل:٨٠]، و[الروم:٥٢]، ﴿**وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ**﴾ [فاطر:٢٢].

وقد وافقَ عائشةَ على نفي سماعِ الموتى كلامَ الأحياءِ طائفةٌ من العلماءِ، ورجَّحَهُ القاضي أبو يعْلى من أصحابِنا، في كتابِ «الجامعِ الكبيرِ» له، واحتجُّوا بما احتجتْ به عائشةُ رضي الله عنها، وأجابُوا عن حديثِ قليبِ بدرٍ بما أجابتْ به عائشة رضي الله عنها وبأنه يجوزُ أن يكونَ ذلك معجزةً مختصةً بالنبيِّ ﷺ دون غيرِه، وهو سماعُ الموتى لكلامِه.

وفي «صحيحِ البخاريِّ»[1] عن قتادةَ قالَ: أحياهُم اللَّهُ تعالى يعني أهلَ القليبِ حتى أسمعَهُم قولَه، توبيخًا وتصغيرًا ونقمةً وحسرةً وندمًا.

وذهب طوائفُ من أهلِ العلمِ إلى سماعِ الموتى في الجملةِ، قالَ ابنُ عبدِ البرِّ: ذهبَ إلى ذلكَ جماعةٌ من أهلِ العلمِ ـ وهم الأكثرونَ ـ وهو اختيارُ الطبريِّ وغيرِه، ويعني بالطبريِّ: ابنَ جريرٍ، وكذلكَ ذكرَهُ ابنُ قتيبةَ وغيرُه من العلماءِ، وهؤلاءِ يحتجونَ بحديثِ القليبِ، كما سبق، وليسَ هو بوهمٍ ممن رواه، فإن عمرَ وأبا طلحةَ وغيرَهما ممن شهدَ القصةَ حكاه عن النبيِّ ﷺ. وعائشةُ لم تشهدْ ذلك، وروايتُها عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: «**إنهم ليعلمونَ الآنَ أن ما كنتُ أقولُ لهم حقٌ**» يؤيِّد روايةَ من رَوى: «**إنهم ليسمعون**»، ولا ينافيه، فإن الميِّتَ إذا جازَ أن يعلمَ جازَ أن يسمعَ، لأنَّ الموتَ ينافي العلمَ، كما ينافي

---

(١) البخاري (٥/ ٩٨).

السمعَ والبصرَ، فلو كان مانِعًا من البعضِ لكانَ مانعًا من الجميعِ.

وروى أبو الشيخِ الأصبهانيُّ بإسنادهِ عن عبيدِ بنِ مرزوقٍ، قالَ: كانت امرأةٌ بالمدينةِ يقالُ لها: أمُّ محجنٍ، تقمُّ المسجدَ، فماتتْ، فلم يعلمْ بها النبيُّ ﷺ فمرَّ على قبرِها، فقال: «**ما هذا القبرُ؟**» فقالوا: قبرُ أمِّ محجنٍ، فقال النبيُّ ﷺ: «**التي كانتْ تقمُّ المسجدَ؟**» قالوا: نعم، فصفَّ الناسَ وصلَّى عليها، ثم قالَ: «**أيَّ العملِ وجدتِ أفضل؟**» قالوا: يا رسول اللَّهَ أتسمع؟ قال: «**ما أنتم بأسمعَ منها**»، فذكرَ أنها أجابتْهُ، قَمُّ المسجدِ، وهذا مرسلٌ.

وأمَّا أنَّ ذلك خاصٌّ بكلامِ النبيِّ ﷺ فليسَ كذلكَ، وقد ثبت في الصحيحين[1] عن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «**إن العبدَ إذا وُضِعَ في قبرِه وتولَّى عنه أصحابُهُ، إنه ليسمعُ قَرْعَ نعالِهم**»، وقد سبقَ ذكرُهُ، وسنذكرُ الأحاديثَ الواردةَ بسماعِ الموتى سلامَ من يسلِّمُ عليهم فيما بعدُ إن شاء اللَّه تعالى.

وأما قولُهُ تعالى: ﴿**إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى**﴾ [النمل:٨٠] و[الروم:٥٢]، وقولُه: ﴿**وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ**﴾ [فاطر:٢٢]، فإنَّ السماعَ يطلقُ ويرادُ به إدراكُ الكلامِ وفهمُهُ، ويرادُ به أيضًا الانتفاعُ به، والاستجابة لهُ، والمرادُ بهذه الآية: نفيُ الثاني دون الأولِ، فإنَّها في سياقِ خطابِ الكفَّارِ الذينَ لا يستجيبونَ للهُدى ولا للإيمانِ إذا دُعوا إليه، كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا**﴾ [الأعراف:١٧٩]، الآيةُ في نفي السماعِ والإبصارِ عنهم، لأنَّ الشيءَ قد ينفى لانتفاءِ فائدتِهِ وثمرتِهِ، فإذا لم ينتفعِ المرءُ بما سمعَهُ وأبصرَهُ، فكأنَّه لم

---

(١) البخاري (٢/ ١١٣، ١٢٣)، ومسلم (٨/ ١٦٢).

يسمعْ ولم يبصـرْ، وسماعُ الموتى هو بهذه المثابةِ، وكذلكَ سـماعُ الكفَّارِ لمن دعاهُم إلى الإيمانِ والهُدى.

وقولُ قتادةَ في أهلِ القليبِ: أحياهُمُ اللَّهُ تعـالى حتى أسمعَهُم، قولُهُ يدلُّ على أنَّ الميتَ لا يسمعُ القـولَ إلا بعد إعادةِ الروحِ إلى جسـده، وكذلك قال طوائفُ من السلفِ كـثيـرةٌ أنه لا يُسـأل في قبـرِهِ إلا بعد إعـادةِ الروحِ إلى جسدِهِ، كما جاء ذلك مصرَّحًا به في حديثِ البراءِ بنِ عازبٍ عن النبيِّ ﷺ الطويل، وقـد سبقَ ذكـرُ بعـضِه، وفـيه في حقِّ الكافـرِ: «**وتُعَـاد روحُـهُ إلى جسدِه**»[1].

وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ»[2] من حديث الأعمشِ عن المنهالِ، عن زاذانَ، عن البـراءِ، في حقِّ المؤمنِ والكافرِ في كلٍّ منـهمـا، قال: «**وتُعادُ روحُـهُ إلى جسدِه**».

وكذلك عند ابنِ منده، إعـادتُها إلى جسدِهِ عند ضـربِ الملَكِ له، بعد أن يضربه فيصيرُ ترابًا، من روايةِ يونـسَ بنِ خبابٍ، عن المنهالِ، وقد سبقَ ذلك كلُّه.

وخرَّج ابنُ ماجه وغيرُهُ[3]، من حديثِ أبي هريرة ﷺ عن النبيِّ ﷺ في صفةِ قبضِ الروحِ والمسألةِ، وقال في روحِ الكافرِ: «**فتصيرُ إلى القبرِ**» وقد سبقَ أيضًا.

وخرَّج ابنُ منده بإسنادٍ ضـعيفٍ جداًّ ـ عن ابنِ عبـاسٍ عن النبيِّ ﷺ في

(١) أحمد في «المسند» (٤/ ٢٩٥)، وابن ماجه (١٥٤٨)، (١٥٤٩).
(٢) «المسند» (٤/ ٢٩٥).
(٣) أحمد في «المسند» (٢/ ٣٦٤/ ٣٦٥)، وابن ماجه (٤٢٦٢).

صفةِ قبضِ الروح، وفيه قالَ: «**فيهبطونَ بها - يعني الروح - على قدرِ فراغِهم من غسلِهِ وأكفانِهِ، فيدخلونَ ذلك الروحَ بين جسدِهِ وأكفانِهِ**» وهذا لا يثبتُ.

وخرَّج الخلالُ في كتابِ «شرحِ السنة» من طريقِ أبي هاشمٍ، عن أبي إسحاقَ، عن أبي الأحوصِ، عن عبدِ اللَّهِ، قال: إنَّ المؤمنَ إذا نزلَ به الموتُ أتاهُ ملَكُ الموتِ يناديه: يا روح طيبة اخرجي من الجسدِ الطيبِ، قال: فإذا خرجتْ روحُه لفّتْ في خرقةٍ حمراءَ، فإذا غسِّل وكفِّن، وحملَ على السريرِ وارتفعتِ الروحُ فوقَ السريرِ حيثُ تحولَ السريرُ، تحولتْ حتى يوضعَ في قبرِه، فإذا وُضعَ في قبرِهِ أُجْلسَ، وجيءَ بالروحِ، فَجُعِلَتْ فيه، فقيل له: من ربُّك، وما دينُك، ومن نبيُّك؟ فيقولُ: ربي اللَّهُ، وديني الإسلامُ، ونبيي محمدٌ ﷺ فيقالُ له: صدقتَ، فيوسَّعُ له في قبرِهِ مدَّ البصرِ، ثم ترفعُ روحُهُ، فتجعلُ في أعلَى عليينَ، ثم تلا عبدُ اللَّهِ هذه الآيةَ: ﴿**إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ**﴾ [المطففين: ١٨].

وخرَّج ابنُ أبي الدنيا، من طريقِ سالمِ بنِ أبي الجعدِ، قال: قال حذيفةُ: الروحُ بيدِ ملَكٍ، وإن الجسدَ ليغسَّلَ، وإنَّ الملَكَ ليمشِي معه إلى القبرِ، فإذا سُوي عليه سلَكَ فيه، فذلكَ حين يخاطبُ.

ومن طريقِ عبدِ الرحمنِ بنِ أبي الزنادِ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ أبي ليلى، قال: الروحُ بيد ملَكٍ يمشي مع الجنازةِ، يقولُ: اسمعْ ما يقالُ لك، فإذا بلغ حفرتَهُ دفنَ معه.

ومن طريقِ داودَ العطارِ، عن أبي نجيحٍ، قال: ما منْ ميِّت يموتُ إلا روحُهُ في يد مَلَكٍ ينظرُ إلى جسدِهِ، كيف يغسلُ ويكفَّنُ، وكيف يُمشَى به إلى قبرِهِ، ثم تُعاد إليه روحُه، فيجلسُ في قبرِهِ.

وكذا قال أبو صالحٍ وغيرُه من السلفِ في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة:٢٨]، فدلَّ على أنَّ الحياةَ الأولى هي القبرُ للسؤالِ، وإنْ كانَ الأكثرونَ خالفُوا في ذلك.

فهؤلاء السلفُ كلُّهم صرَّحُوا بأنَّ الروح تعادُ إلى البدنِ عند السؤالِ، وصرَّح بمثلِ ذلك طوائفُ من الفقهاءِ والمتكلمينَ من أصحابِنا وغيرِهم، كالقاضي أبي يعْلى وأصحابِهِ، وأنكر ذلك طائفةٌ منهم ابنُ حزمٍ وغيرُه، وذكرَ أن السؤال للروحِ خاصةً، وكذلك سماعُ الخطابِ، وأنكر أن تعادَ الروحُ إلى الجسدِ في القبرِ للعذابِ وغيرِه، وقالُوا: لو كان ذلك حقًّا للزمَ أن يموتَ الإنسانُ ثلاثَ مراتٍ ويحيى ثلاثَ مراتٍ، والقرآنُ دلَّ على أنَّهما موتتانِ وحياتانِ فقط، وهذا ضعيفٌ جدًّا، فإنَّ حياةَ البرزخ ليستْ حياةً تامةً مستقلة كحياةِ الدنيا وكالحياةِ الآخرةِ بعدَ البعثِ، وإنَّما فيها نوعُ اتصالِ الروحِ في البدنِ بحيثُ يحصلُ بذلكَ شعورُ البدنِ وإحساسٌ بالنعيمِ والعذابِ وغيرِهما، وليستْ هي حياةً تامةً حتى يكونَ انفصالُ الروحِ به موتًا تامًّا، وإنَّما هو شبيهٌ بانفصالِ روحِ النائمِ عنه، ورجوعِها إليه، فإنَّ ذلك يسمَّى موتًا وحياةً.

كما كان النبيُّ ﷺ يقولُ إذا استيقظَ من منامِهِ: «الحمدُ للَّه الذي أحيانَا بعد ما أماتنا، وإليه النشور»[1] وسماه اللَّهُ تعالى وفاةً، لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ﴾ الآية [الزمر:٤٢]، مع هذا فلا ينافي ذلكَ أن يكونَ النائمُ حيًّا، وكذلك اتصالُ روحِ الميتِ ببدنه وانفصالها عنه لا يوجبُ أن يصيرَ للميتِ

(١) البخاري (٨/ ٨٥، ٨٨)، (٩/ ١٤٦)، وأبو داود (٥٠٤٩)، وابن ماجه (٣٨٨٠)، والترمذي (٣٤١٧).

حياةً مطلقةً.

وممن رجَّح هذا القولَ ـ أعني السؤالَ والنعيمَ والعذابَ للروحِ خاصةً ـ من أصحابِنا ابنُ عقيلٍ وأبو الفرج ابن الجوزيِّ في بعضِ تصانيفِهما، واستدلَّ ابنُ عقيلٍ بأنَّ أرواحَ المؤمنينَ تنعمُ في حواصلِ طيرٍ خضرٍ، وأرواحُ الكافرينَ تعذَّب في حواصلِ طيرٍ سودٍ، وهذه الأجسادُ تبْلَى فدلَّ ذلك على أنَّ الأرواحَ تعذبُ وتنعمُ في أجسادٍ أخرَ، وهذا لا حجةَ فيه لأنَّه لا ينافي اتصالَ الروحِ ببدنِها أحيانًا مع بقائِهِ واستحالتِهِ.

واستدل طائفةٌ ممن ذهبَ إلى هذا القول بما روى منصورُ بنُ عبدِ الرحمنِ، عن أبي أُمامة قال: دخلَ ابنُ عمرَ المسجدَ، وابنُ الزبيرِ قد قتلَ وصلبَ، فقيلَ له: هذه أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ في المسجدِ، فقال لها: اصبري فإنَّ هذه الجثث ليستْ بشيءٍ، وإنَّما الأرواحُ عند اللَّهِ، فقالت: وما يمنعنِي من الصبرِ، وقد أُهدِيَ رأسُ يحيى بنِ زكريا إلى بغيٍّ من بَغايا بني إسرائيلَ.

وروى ابنُ أبي الدنيا، من طريقِ ابنِ عمرَ ـ صاحبِ السقيا ـ قال: نزلَ ابنُ عمرَ إلى جانبِ قبورٍ قد درستْ، فنظرَ إلى قبرٍ منها، فإذا بجمجمةٍ باديةٍ، فأمرَ رجلاً فواراهَا، ثم قال: إنَّ هذه الأبدانَ ليست يضرُّها هذا الثرى شيئًا، وإنَّما الأرواح التي تُعاقَبُ وتثابُ إلى يوم القيامةِ.

وروى محمدُ بنُ سعدٍ، عن الواقديِّ، حدثني ثورُ بنُ يزيدَ، عن خالدِ بنِ معدانَ قال: لما انهزمتِ الرومُ يومَ أجنادينَ، انتهَوا إلى موضعٍ لا يعبرُه إلا إنسانٌ، فجعلت الروم تقاتل عليه، فتقدَّم هشام بن العاصِ فقاتلهم حتى قُتِل، ووقع على تلك الثلمة فسدَّها، فلما انتهى المسلمون إليها، هابوا أن

يوطئه الخيل، فقال عمرو بنُ العـاص: إنَّ اللَّهَ قد استشهدَهُ ورفعَ روحَهُ وإنما هو جثةٌ فأوطِئوهُ الخيلَ، ثم أوطأه وتبِعَهُ الناسُ حتى قَطَّعوهُ.

وهذه الآثارُ لا تدلُّ على أنَّ الأرواح لا تتصلُ بالأبدانِ بعد الموتِ، وإنَّما تدلُّ على أنَّ الأجسـادَ لا تتضـررُ بما ينالها من عذابِ النـاسِ لها ومن أكل الترابِ لها، وهذا حقٌّ، فإنَّ عذابَ القـبرِ ليسَ من جنسِ عذابِ الدنيا، وإنَّما هو نوعٌ آخرُ يصلُ إلى الميتِ بمشيئةِ اللَّهِ وقدرتِهِ.

وقـولهم: إنَّ الأرواحَ عندَ اللَّهِ تعـالى تعاقَبُ وتثـابُ لا ينافي أنْ تتـصلَ بالبدنِ أحيانًا، فيحصلُ بذلكَ إلى الجـسدِ نعيمٌ أو عذابٌ، وقد تستقلُّ الروحُ أحيانًا بالنعيمِ والعذابِ، إما عند استحالةِ الجسدِ أو قبلَ ذلك.

وقد أثبتَ طائفـةٌ أخرى النعيمَ والعذابَ للجسدِ بمجرَّدِهِ، من غيـرِ اتصالِ الروحِ به، وممن ذكرَ ذلك من أصـحابِنا : ابنُ عقيلٍ في كـتابِ «الإرشاد» له وابنُ الزاغـوني، وحُكي عن ابنِ جـريرٍ الطبـريِّ ـ أيضًـا ـ وذكـرَ القـاضي أبو يعْلى أنه ظاهرُ كـلامِ الإمـامِ أحمـدَ، فـإنه قـال في روايةِ حنبلٍ: أرواحُ المؤمنينَ في الجنةِ، وأرواحُ الكفارِ في النارِ، والأبدانُ في الدنيا يعذِّبُ اللَّهُ من يشاءُ، ويرحمُ من يشاءُ منها بعفوِهِ.

قال القـاضي : ظاهرُ هذا أن الأرواحَ تعذَّبُ وتنعمُ على الانفـرادِ وكذلكَ الأبدانُ إذا كانتْ باقـيةً أدَّى إلى الأجزاءِ التي اسـتحالتْ، قـال: فلا يمتنعُ أن يُخلقَ في الأبدانِ إدراكٌ تحسُّ به النعيمَ والعذابَ، كما خُلقَ في الجبلِ لما تجلَّى له ربُّه ثم جعلَهُ دكًّا.

وقال ابنُه القاضي أبو الحسين: ولأنه لَمَّا لم يسـتحِلْ نطقُ الذراعِ المسمومةِ،

لم يستحلْ عذابُ الجسدِ البالي وإيصالُ العذابِ إليه بقدرةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

وقد يستدلُّ لهذا أيضًا بأنَّ عمرَ بن الخطابِ قال للنبيِّ ﷺ يوم كلَّم أهلَ القليب: كيف تكلِّمُ أجسادًا لا أرواحَ فيها؟ فلم ينكر النبيُّ ﷺ ذلك، وإنَّما قالَ: **«ما أنتُم بأسمعَ لما أقولُ منهم»** فدلَّ على أنَّ سماعَهُم حصل مع أجسامِهِم والأرواح فيها.

وقد دلَّ القرآنُ على سجودِ الجماداتِ وعلى تسبيحها للَّهِ عزَّ وجلَّ، وخشوعِها له، فدلَّ على أنَّ فيها حياةً وإدراكًا، فلا يمتنعُ مثلُ ذلك في جسدِ ابنِ آدمَ بعد مفارقة الروحِ له، واللَّهُ أعلم.

ويدلُّ على ذلكَ: ما أخبرَ اللَّهُ عن شهاداتِ الجلودِ والأعضاءِ يومَ القيامة وما رُويَ عن ابن عباسٍ في اختصامِ الروحِ والجسدِ يومَ القيامةِ، فيدلُّ على أنَّ الجسدَ يخاصمُ الروحَ ويكلِّمها وتكلِّمُه، وممّا يدلُّ على وقوعِ العذابِ على الأجسادِ، الأحاديثُ الكثيرةُ في تضييقِ القبرِ على الميتِ، حتى تختلفَ أضلاعُهُ، ولأنه لو كانَ العذابُ على الروحِ خاصّةً لم يختصَّ العذابُ بالقبرِ ولم يُنسبْ إليه[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾

في قولِه تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨] دلَّتْ هذه الآيةُ على إثباتِ الخشيةِ للعلماءِ بالاتفاقِ وعلى نفيِها عنْ غيرِهم على أصح القولينِ، وعلى نفيِ العِلْمِ عنْ غيرِ أهلِ الخشيةِ أيضًا.

---

(١) «أهوال القبور» (١٠٠ ـ ١٠٨).

أما الأول: فلا ريبَ فيه فإنَّ صيغة «إنما» تقتضي تأكد ثبوتِ المذكورِ بالاتِّفاق؛ لأنَّ خصوصيةَ «إنَّ» إفادةُ التأكيد وأمَّا «ما»: فالجمهورُ على أنَّها كافةٌ، ثُمَّ قالَ جمهورُ النحاةِ: هيَ الزائدةُ التي تدخلُ على إنَّ، وأنَّ، وليتَ، ولعلَّ، وكأنَّ، فتكفُّها عن العملِ لأنَّ الأصلَ في الحروفِ العاملة أن تكونَ محضةً فإذا اختصتْ بالاسمِ أو الفعلِ ولم يكنْ كالجزءِ منهُ عملتْ فيه، وإنَّ وأخواتُها مختصةٌ بالاسمِ فتعملُ فيه فإذا دخلتْ عليها «ما» زالتْ اختصاصُها فصارَتْ تدخلُ على الجملة الإسميةِ والفعليةِ فبَطَلَ عملُها وإنَّما عملتْ «ما» النافيةُ على اللغةِ التي نَزَلَ بها القرآنُ وهي لغةُ أهل الحجازِ استحْسانًا لمشَابَهتِها لـ «ليس» وذهبَ بعضُ الكوفيينَ، وابنُ درستويه إلى أنَّ «ما» مع هذه الحروفِ اسمٌ مبهمٌ بمنزلةِ ضميرِ الشأنِ في التفخيمِ والإبهامِ وفي أنَّ الجملةَ بعدَهُ مفسرةٌ له ومخبَرٌ بها عنْهُ، وذهبتْ طائفةٌ من الأصوليينَ وأهلِ البيانِ إلى أنَّ «ما» هذه نافيةٌ واستدلُّوا بذلكَ على إفادتِها الحصرَ.

وأنَّ «إنَّ» أفادت الإثباتَ في المذكورِ، و«ما» النفيَ فيما عداهُ وهذا باطلٌ باتفاقِ أهلِ المعرفةِ باللسانِ فإنَّ «إنَّ» إنما تفيدُ توكيدَ الكلامِ إثباتًا كان أو نفيًا لا يفيدُ الإثباتَ.

و«ما» زائدةٌ كافةٌ لا نافيةٌ وهي الداخلةُ على سائر أخواتِ إنَّ: لكنَّ وكأنَّ وليتَ ولعلَّ، وليستْ في دخولها على هذه الحروفِ نافيةً بالاتفاقِ فكذلكَ الداخلةُ على إنَّ وأنَّ، وقد نُسِبَ القولُ بأنها نافيةٌ إلى أبي علي الفارسي لقولِهِ في كتابِ «الشيرازيات»: إنَّ العربَ عاملُوا «إنما» معاملةَ النفيِّ و«إلا» في فصلِ الضميرِ لقولِهِ:

«وإنَّما يدافعُ عن أحسابِهِم أنا أوْ مِثْلي».

وهذا لا يدلُّ على أنَّ «ما» نافيةٌ على ما لا يخفَى وإنَّما مرادُه أنَّهم أجرَوا «إنما» مَجْرى النفي و«إلاَّ» في هذا الحكمِ لما فيها معنى النفيِ ولم يصرِّحْ بأنَّ النفيَ مستفادٌ منْ «ما» وحدَهَا، وقيلَ: إنه لا يمتنعُ أنْ يكون «ما» في هذه الآيةِ بمعنى الذي والعلماءُ خبرٌ والعائدُ مستترٌ في يخشى.

وأُطلقتْ «ما» على جماعةِ العقلاءِ كما في قولِهِ تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء:٣]، و﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ [النساء:٣].

وأما دلالةُ إلا على التأكيد وهو نفيُ الخشيةِ عنْ غيرِ العلماءِ فمِنْ صيغةِ «إنَّما» أمَّا على قولِ الجمهورِ وأنَّ «ما» هي الكافةُ فيقولُ إذا دخلتْ «ما» الكافةُ على «إنَّ» أفادت الحصرَ هذا هو الصحيحُ، وقدْ حكاهُ بعضُ العلماءِ عن جمهورِ الناسِ وهو قولُ أصحابِنا كالقاضي، وابنِ عقيلٍ، والحلواني، والشيخِ موفق الدين، وفخرِ الدِّين إسماعيلَ بنِ عليٍّ صاحبِ ابن المَنّي، وهوَ قولُ أكثرِ الشافعيةِ كأبي حامدٍ وأبي الطيّب، والغزالي والهرَّاسي، وقولُ طائفةٍ من الحنفيةِ كالجرجاني، وكثيرٌ من المتكلمينَ كالقاضي أبي بكرٍ، وغيرِه، وكثيرٌ من النحاةِ وغيرِهم، بلْ قدْ حكاهُ أبو عليٍّ فيما ذكرَهُ الرازيُّ عن النحاةِ جملةً، ولكن اختلفُوا في دلالتِها على النفي هلْ هُوَ بطريقِ المنطوقِ، أو بطريقِ المفهوم؟ فقال كثيرٌ من أصحابِنا، كالقاضي في أحدِ قوليه وصاحبُ ابنِ المنّي والشيخُ موفَّقُ الدِّين: إنَّ دلالَتَها على النفي بالمنطوقِ كالاستثناءِ سواء وهو قولُ أبي حامدٍ، وأبي الطيّب منَ الشافعيةِ، والجرجاني من الحنفيةِ، وذهبتْ طائفةٌ من أصحابِنا كالقاضي في قولِهِ الآخرِ وابنِ عقيلٍ والحلوانيِّ، إلى أنَّ دلالتَها على النفي بطريقِ المفهومِ وهُوَ قولُ كثيرٍ من الحنفيةِ،

والمتكلمينَ، واختلفُوا أيْضًا هلْ دلالتُها على النفي بطريقِ النَّصِ، أوْ الظاهر؟ فقالتْ طائفةٌ: إنَّما تدلُّ على الحصرِ ظاهِرًا، أو يحتملُ التأكيد، وهذا الذي حكاهُ الآمديُّ عن القاضي أبي بكْرٍ، والغزاليِّ، والهرَّاسيِّ، وغيرِهم من الفقهاء وهُوَ يشبهُ قولَ من يقولُ إنَّ دلالتَها بطريقِ المفهومِ فإنَّ أكثرَ دلالاتِ المفهومِ بطريقِ الظاهرِ لا النَّص، وظاهرُ كلامِ كثيرٍ من أصحابنا وغيرِهِم، أنَّ دلالتَها على النَّفي والإثباتِ كليهما بطريقِ النَّصِ لأنَّهم جعلُوا «إنَّما» كالمسْتَثْنى والمستثنى منه سواء وعندهم أنَّ الاستثناءَ منَ الإثباتِ نفْيٌ ومنَ النفيِّ إثْباتٌ، نصًّا لا محلاً.

وأمَّا من قالَ: إنَّ الاستثناءَ ليسَ لإثباتِ النقيضِ بَلْ لرفعِ الحُكْمِ إما مطلقًا أوْ في الاستثناءِ منَ الإثباتِ وحده كما يُذكرُ عن الحنفيةِ وجعلُوه من بابِ المفهومِ الذي ينفونَهُ، فهُوَ يقولُ ذلكَ في «إنَّما» بطريقِ الأوْلَى فظَهَرَ بهذا أنَّ المخالفَ في إفادَتِهَا الحصرَ هوَ من القائلينَ بأنَّ دلالتَها على النفيِّ بالمفهومِ وهم قسمانِ:

أحدهما: مَنْ لا يَرى كونَ المفهومِ حُجَّةً بالكليةِ كالحنفيةِ، ومَنْ وافقَهُم منَ المتكلمينَ.

والثاني: مَنْ يراهُ حجةً من الجملةِ، ولكنْ ينفيه هَاهُنا لقيامِ الدليلِ عندَهُ على أنَّه لا مفهومَ لها، واختارَهُ بعضُ المتأخرينَ منْ أصحابِنا، وغيرِهم، وبيانُ ذلكَ أنَّ «إنَّما» مركبةٌ منْ «إنَّ» المؤكدةِ و«ما» الزائدة الكافة فيُستفادُ التوكيدُ منْ «إنَّ» والزائدُ لا معنى له نعم أكثرُ ما يُقالُ «إنَّ» تفيدُ تقويةَ التوكيدِ كما في الباءِ الزائدةِ ونحوها، فأمَّا أنْ يُحدثَ معنًى آخرَ فلا، وقد يعدم بيان بطلانِ

قولِ منْ ادَّعى أنَّ «ما» نافية وأنَّ النفيَ فيمَا عدا المذكورِ مُستفادٌ منها.

وأيضًا فورودُها لغيرِ الحصرِ كـثيرٌ جدًا كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢]، وقولِ النبيِّ ﷺ: «إنَّما الرِّبا في النسيئة»(١) وقوله: «إنَّما الشهرُ تسعٌ وعشرونَ»(٢) وغيرِ ذلكَ منَ النصوصِ ويُقالُ: «إنَّما العالِمُ زيدٌ» ومثلُ هذا لو أُريدَ به الحصرُ لكانَ هذا، وقد يُقالُ: إنَّ أغلبَ مواردِهَا لا تكونُ فيها للحصرِ فإنَّ قولَهَ تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء:١٧١] لا تفيدُ الحصـرَ مُطْلَقًا فإنَّه سبحانَهُ وتعالَى لهُ أسماءٌ وصفاتٌ كثـيرةٌ غيرَ توحُّدِهِ بالإلهيةِ، وكذلك قولُهُ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [فصلت:٦] فإنَّه لم ينحصر الوحيُ إليـه في هذا وحده، وكذلـكَ قوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ [الرعد:٧] ومثلُ هذا كثيرٌ جدًّا وممَّا يبيِّنُ عدمَ إفادتِها للحصرِ قولُه ﷺ: «ما منْ نبيٍّ من الأنبياء إلا قد أُوتيَ منَ الآياتِ ما آمنَ على مثلِه البشرُ، وإنَّما كان الذي أوتيتُهُ وحيًا أوحاهُ اللَّهُ إليَّ، فأرجُو أنْ أكونَ أكثـرَهُم تابعًا يومَ القيامة»(٣) فلَوْ كانتْ «إنَّما» للحصرِ لبَطَلَتْ أنْ تكونَ سائرُ آياتِ النبيِّ ﷺ ومعجزاتِهِ سـوى القرآنِ آياتٍ لهُ تدلُّ على صدقهِ لاعْترافِهِ بِـنَفْيِ ذلكَ وهذا باطلٌ قطْعًا فدلَّ على أنَّ «إنَّما» لا تفيدُ الحصرَ في مثلِ هذا الكلامِ وشبهِهِ.

والصوابُ: أنَّها تدلُّ على الحصرِ، ودلالَتها عليه معلومٌ بالاضطرارِ منْ لغةِ العربِ، كمـا يُعلمُ منْ لغتِهِم بالاضطرارِ معـاني حروفِ الشرطِ والاستـفهامِ

---

(١) مسلم (٥/ ٤٩)، والنسائي (٧/ ٢٨١)، وأحمد في «المسند» (٥/ ٢٠٤).

(٢) أخرجه: البخاري (٣/ ٣٤)، ومسلم (٣/ ١٢٢) من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما.

(٣) البخاري (٦/ ٢٢٤)، (٩/ ١١٣)، ومسلم (١/ ٩٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والنفيِ والنَّهْي وغيرِ ذلكَ ولهذا يَتواردُ «إنَّما» وحروفُ الشرطِ والاستفهامُ والنَّفْيُ الاستثناء كما في قولِه تعالى: ﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الطور:١٦] وقولُه: ﴿إِنَّمَا إِلَهكم إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الأنبياء:١٠٨] وقوله: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء:١٧١]، ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [طه:٩٨].فإنَّه كقولِه: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ﴾ [ص:٦٥] وقولِه: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف:٥٩]، ونحوِ ذلكَ، ولهذا كانتْ كُلُّها واردةً في سياقِ نفْي الشركِ وإبطالِ إلهيةِ سوى اللَّهِ سبحانَهُ، وأمَّا أنَّها مركبةٌ من «إنَّ» و«ما» الكافة فمُسلَّمٌ، ولكنَّ قولَهُم إنَّ «ما» الكافةَ أكثرُ ما تفيدُهُ قوةُ التوكيدِ لا تُثْبتُ مَعْنى زائدًا، يجابُ عنهُ مِنْ وجوهٍ:

أحدها: أنَّ «ما» الكافَّةَ قدْ تُثبتُ بدخولِهَا على الحروفِ معْنىً زائدًا، وقدْ ذكرَ ابنُ مالكٍ أنَّها إذا دَخَلتْ على الباءِ أحدَثَتْ معنى التقليلِ، كقولِ الشاعرِ:

فالآن صِرْتَ لا تَحِيدُ جوَابًا ... بما قدْ يُرى وأنتَ حَطِيبُ

قالَ: وكذلك تُحدِثُ في «الكافِ» معْنَى التعْليلِ، في نحوِ قولِه تعالى: ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ [البقرة:١٩٨]، ولكنْ قد نُوزِعَ في ذلك وادَّعى أنَّ «الباءَ» و«الكافَ» للسببيةِ، وأنَّ «الكافَ» بمجردِهَا تفيدُ التعليلَ.

والثاني: أن يُقالَ: لا ريبَ أنَّ «إنَّ» تفيدُ توكيدَ الكلامِ، و«ما» الزائدةُ تُقوِّي هذا التوكيدَ وتثبتُ مَعْنى الكلامِ فتفيدُ ثبوتَ ذلكَ المعْنى المذكورِ في اللفظِ خاصةً ثبوتًا لا يشاركه فيه غيرُهُ واختصَاصُهُ به، وهَذا منْ نوعِ التوكيدِ والثبوتِ ليسَ معنىً آخرَ مغايرًا لهُ وهوَ الحصرُ المدَّعى ثبوتُهُ بدخولِ «ما» يخرجُ عنْ إفادةِ قوَّةِ معنى التوكيدِ وليسَ ذلكَ بمُنْكرٍ إذ المستنكرُ ثبوتُ مَعْنى آخرَ بدخولِ الحرفِ الزائدِ منْ غيرِ جنسِ ما يُفيدُهُ الحرفُ الأوَّلُ.

الوجه الثالث: أنَّ «إنَّ» المكفوفةُ «بما» استُعْملتْ في الحصرِ فصارتْ حقيقةً عرفيَّةً فيه، واللفظُ يصيرُ لَهُ بالاستعمالِ مَعْنى غيرَ مَا كانَ يقْتضيه أصلُ الوضعِ، وهكذا يُقالُ في الاستثناءِ فإنَّه وإنْ كانَ في الأصلِ للإخراجِ منَ الحُكْمِ لكنْ صارَ حقيقةً عرفيَّةً في مناقضةِ المستَثْنى فيه، وهذا شبيهٌ بنقلِ اللفظِ عنِ المعنى الخاصِ إلى العامِ إذا صارَ حقيقةً عرفيةً فيه لِقَوْلِهِم «لا أشربُ له شربةَ ماءٍ» ونحوِ ذلكَ، ولنقلِ الأمثالِ السائرةِ ونحوِهَا مما ليسَ هذا موضعُ بَسْطِهِ، وهذا الجوابُ ذكرَهُ أبو العباسِ ابنِ تيميةَ في بعضِ كلامهِ القديمِ وهُوَ يقْتضِي أنَّ دلالةَ «إنَّما» على الحصرِ إنَّما هوَ بطريقِ العُرفِ والاستعمالِ لا بأصلِ وضْعِ اللغةِ، وهو قولٌ حكاهُ غيرُهُ في المسألةِ.

وأمَّا قولُه تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال:٢].

وقولُهُ ﷺ: «إنَّما الربِّا في النسيئةِ»، و«إنَّما الشهرُ تسعٌ وعشرونَ» وقولُهُم: «إنَّما العالِمُ زيدٌ» ونحوُ ذلك، فيُقالَ: معلومٌ منْ كلامِ العربِ أنَّهم ينفونَ الشيءَ في صيغِ الحصْرِ وغيرِهَا تارةً لانتفاءِ ذاتِه وتارةً لانتفاءِ فائدتِه ومقصودِه، ويحصرونَ الشيءَ في غيرِه تارةً لانحصارِ جميعِ الجنسِ فيه وتارةً لانحصارِ المفيدِ أو الكاملِ فيه، ثمَّ إنَّهم تارةً يعيدونَ النفيَ إلى المسمَّى وتارةً إلى الاسمِ وإنْ كان ثابتًا في اللغةِ إذا كان المقصودُ الحقيقيُّ بالاسْمِ منتَفيًا عنه ثابتًا لغيرِه لقولِه تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة:٦٨]، فنَفَى عنهُم مسمَّى الشيءِ معَ أنَّه في الأصلِ شاملٌ لكلِّ موجودٍ مِنْ حقٍّ وباطلٍ كما كانَ ما لا يفيدُ ولا منفعةَ فيه يَؤُولُ إلى الباطلِ الذي هو العدمُ فيصيرُ بمنزلةِ المعدومِ بلْ قدْ يكونُ أولَى بالعدمِ منْ المعدَمِ المستمرِ عدمُهُ لأنَّه قدْ يكونُ فيه ضررٌ فمنْ قالَ الكذبَ فلم يَقُل شيئًا

ولم يعملْ ما ينفعهُ بلْ مـا يضرُّه، ولهذا لمَّا سُئِلَ النبيُّ ﷺ عن الكفارِ فقالَ: «ليسُوا بشيءٍ»[١]، ويقولُ أهلُ الحديثِ عنْ بعضِ الرواةِ المجروحينِ والأحاديثِ الواهيةِ: «ليسَ بشيءٍ» إذا لم يكنْ مما يُنتفعُ بِهِ في الروايةِ لظهورِ كذبِهِ عـمْدًا أوْ خطأً، ويقال أيضًـا لمن خرجَ عنْ موجب الإنسانيةِ فـي الأخلاقِ ونحوِهَا: هذا ليسَ بآدميٍّ ولا إنسانٍ وما فيه إنسـانية، ومنه قولُ النِّسوةِ في يوسفَ عليه السلامُ: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف:٣١]، وكذلكَ قـولُ اللَّه تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج:٤٦] وقولُ النبيِّ ﷺ: «ليس المسكينُ بهـذا الطوَّافُ الذي تردُّه اللقمةُ واللقْـمتان والتـمرةُ والتمرتانِ إنَّما المسكينُ الذي لا يجد ما يُغنيه ولا يُفْطَنُ له فيُتصدَّقُ عليه ولا يسْألُ الناسَ إلْحافًا»[٢] وكذلك قال: «ما تعـدُّونَ المفلسَ فيكُم؟» قالُوا: الذي لا دِرْهَم له ولا دِينار قالَ: «ليس ذلكَ بالمفلسِ، ولكنَّ المفـلسَ من يأتي يومَ القيـامةِ بحـسناتٍ أمثـالِ الجبالِ ويـجيءُ وقد شتمَ هذا وضَرَبَ هذا وأخـذَ مالَ هذا فيأخُـذُ هذا منْ حسناته وهذا منْ حسَنَاتِهِ فإذا لم يتبـقَّ لَهُ حسنةٌ أُخِذَ منْ سيئـاتِهِم فَطُرِحَتْ عليه ثمَّ أُلقي في النارِ»[٣] وقالَ: «ما تعُدُّون الرقوبَ فيكُم؟» قالُوا: الرقوبُ منْ لا يُولدُ لهُ. قال: «الرقوبُ منْ لم يُقدِّم منْ ولدِهِ شيئًا»[٤].

وكذلك قولُهُ ﷺ: «ليسَ الشـديد بالصُّرعةِ ولكنَّ الـشديدَ الذي يملكُ نفـسَهُ عندَ الغضبِ»[٥] وقولُهُ ﷺ: «ليسَ الغِنَى عن كثْرةِ العَرَضِ وإنَّما الغِنَى غِنَى النَّفْسِ»[٦].

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ٥٨)، ومسلم (٧/ ٣٥) من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) أخرجه: البخاري (٢/ ١٥٣)، ومسلم (٣/ ٩٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه: مسلم (٨/ ١٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٤) أخرجه: مسلم (٨/ ٣٠) من حديث عبد اللَّه بن مسعود.
(٥) أخرجه: البخاري (٦/ ٣٤)، ومسلم (٨/ ٣٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٦) أخرجه: البخاري (٨/ ١١٨)، ومسلم (٣/ ١٠٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وأمثالُ ذلك، فهذا كلُّه نفيٌ لحقيقةِ الاسمِ منْ جهَةِ المُضِيِّ الذي يجب اعتبارُه، فإنَّ اسمَ الرقوبِ والمفلسِ والغني والشديدِ ونحوِ ذلك إنَّما يتعارفُه الناسُ فيمنْ عَدِمَ مالَهُ وولدَهُ أوْ حصلَ له مالٌ أو قوَّةٌ في بدنه، والنفوسُ تجزعُ من الأوَّلَيْن وترغب في الآخرَيْنِ، فيعتقدُ أنَّه هو المستحقُّ لهذا الاسمِ دونَ غيرِه فبيَّن ﷺ أنَّ حقيقةَ ذلك المعْنَى ثابتةٌ لغيرِ هذا المتوهمِ على وجْهٍ ينبغي بعلو الاعتقاد والقصدِ بذلكَ الغيرِ فإنَّ مَنْ عدمَ المالَ والولدَ يومَ القيامةِ حيثُ يضرُّ عدمُهُ أحقُّ باسمِ المفلس والرقوبِ ممن يُعدمهُمَا حيثُ قدْ لا يتضرر بذلكَ تضررًا معتبرًا ولذلك وجودُ غِنى النفسِ وقوتها أحقُّ بالمدحِ والطلبِ منْ قوَّةِ البدنِ وغِنَى المالِ وهكذا قولُه ﷺ: **«إنَّما الرِّبا في النسيئة»** أوْ لا **«ربَا إلا في النسيئة»**. فإنَّ الرِّبا العام الشاملُ للجنسينِ، والجنسُ الواحدُ المتفقةُ صفاتُهُ إنَّما يكونُ في النسيئةِ وأمَّا ربَا الفضلِ فلا يكونُ إلا في الجنسِ الواحدِ ولا يفعلُهُ أحدٌ إلا إذا اختلفت الصفاتُ، كالمضروب بالتِّبْرِ، والجيدِ بالرديءِ، فأمَّا مع استواءِ الصفاتِ فلا يبيعُ أحد درْهمًا بدرهمينِ، وأيضًا فربَا الفضلِ إنَّما حُرِّمَ لأنه ذريعةٌ إلى ربا النسيئة كما في «المسند»[1] عن النبيِّ ﷺ أنه قال: **«لا تبيعُوا الدرهمَ بالدرهمين؛ إنِّي أخافُ عليكُمُ الرِّبا»**.

فالرِّبا المقصود بالقصد الأولِ هُوَ ربَا النسيئةِ، فإذا بِيعَ مائةٌ بمائة وعشرينَ مع اتِّفاقِ الصفاتِ ظهرتْ أن الزِّيادةَ قابلتِ الأجلَ الذي لا منفعة فيه وإنَّما دخل فيه للحاجة، ولهذا لا يضمنُ الآجالَ باليد فلو بقيت العينُ في يَدِه، أو المالُ في ذمتِه مدةً لم يضمن الأجلَ بخلافِ زيادةِ الصفةِ؛ فإنَّها مضمونةٌ في الإتلافِ والغصْبِ وفي المبيعِ إذا قابلتْ غيرَ الجنسِ، فلهذا قِيلَ: إنَّما الرِّبا في

(١) «المسند» (١٠٩/٢) من حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما.

النَّسيئةِ ولا ربَا إلا في النسيئةِ، فإنَّ المستحقَّ لاسم الرِّبا في الحقيقةِ هو ربَا النسيئةِ ولذلكَ نَفى الأسماءَ الشرعيةَ لانتفاءِ بعضِ واجباتِها لقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ..﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال: ٢ ـ ٤] فهؤلاءِ همُ المستحقونَ لهذا الاسمِ على الحقيقةِ الواجبةِ دونَ منْ أخلَّ بشيءٍ من واجباتِ الإيمانِ والإسلامِ عمن انتفَى عنهُ بعضُ واجباتِهما لقولِهِ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»(١) الحديث، وقولِهِ: «المسلمُ مَنْ سلِمَ المسلمونَ من لسانِهِ ويدِهِ، والمهاجرُ من هَجَرَ ما نهى اللَّه عنه»(٢) وقوله: «المؤمن من أمنَهُ الناس على دمائِهم وأموالِهم، والمجاهدُ من جاهدَ نفسَهُ في ذات اللَّه»(٣)، ومثلُ هذا كثيرٌ، وكذلك قولُهُ ﷺ: «إنَّما الشهرُ تسعٌ وعشرون» فإنَّ هذا هو عددُ الشَّهرِ اللازمِ الدائمِ، واليومُ الزائدُ على ذلكَ أمرٌ جائزٌ يكونُ في بعضِ الشهورِ ولا يكونُ في بعضِها، بخلافِ التسعةِ والعشرين، فإنَّه يجبُ عددُها واعتبارُها بكلِّ حالٍ، وهذا كما يُقال: الإسلامُ شهادةُ أن لا إله إلا اللَّهُ وأنَّ محمدًا رسولُ اللَّهِ.

فهذا هو الذي لا بدَّ منه، وما زاد على ذلك فقدْ يجبُ على الإنسانِ، وقد يموتُ قبلَ التمكنِ، فلا يكونُ الإسلامُ في حقِّه إلاما تكلَّمَ به، وحاصلُ الأمرِ أنَّ الكلامَ الخبريَّ هو إمَّا إثباتٌ أو نفيٌ فكما أنهم في الإثباتِ يثبتونَ للشيءِ اسمَ الشيءِ إذا حصلَ فيه مقصودُ الاسمِ وإن انتفتْ صورةُ المسمَّى، فكذلكَ

---

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ١٧٨)، (٧/ ١٣٦)، (٨/ ١٩٥ ـ ١٩٧)، ومسلم (١/ ٥٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ٩)، (٨/ ١٢٧) من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص ﷺ.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٧٩)، والترمذي (٢٦٢٧)، والنسائي (٨/ ١٠٤ ـ ١٠٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

في النَّفي، فإنَّ أدواتِ النَّفي تدلُّ على انتفاءِ الاسمِ بانتفاءِ مسمَّاه فذلك، تارةً لأنه لم يُوجدْ أصلاً، وتارةً لأنه لم توجـدِ الحقيقةُ المقـصودةُ بالمسمَّى، وتارةً لأنه لم تكنْ تلكَ الحـقيـقةُ، وتارةً لأن ذلـك المسمَّى مما لا ينبـغي أنْ يكونَ مقصودًا بل المقصودُ غيرُه، وتارةً لأسـبابٍ أُخرَ وهذا كلُّه إنَّما يظهرُ من سياقِ الكلامِ وما اقترنَ به من القرائنِ اللفظية التي لا تخـرجُهُ عن كونِهِ حقيقةً عندَ الجمهورِ ولكونِ المركبِ قد صارَ موضوعًا لذلكَ المعْنى، أوْ مِنَ القرائنِ الحاليةِ التي تجعلُه مـجازًا عند الجمهـور، وأمَّا إذا أطلقَ الكلامُ مجـرَّدًا عن القرينتينِ فمعنـاهُ السلبُ المطلقُ وهوَ أكثرُ الكلامِ وهذا الجوابُ ملَّخصٌ مـن كلامِ شيخِ الإسلام أبي العباسِ ابن تيمية ـ رحمه اللَّه.

وأما قـولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء:١٧١]، وقولُهُ: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ [الرعد:٧]، ونحو ذلك، فالجواب عنهُ أن يُقـال: الحصر تارةً يكونُ عامًا كقولِهِ: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ [طه:٩٨] ونحـوِ ذلك، وتارةً يكونُ خاصًّا بما يدلُّ عليه سياقُ الكلامِ فليسَ الحصرُ أن ينفيَ عن الأوَّل كل ما سوى الثـاني مطلقًا، بلْ قـد ينفِي عنه مـا يُتوهَمُ أنـه ثابتٌ لهُ مِنْ ذلك النوعِ الذي أثبتَ له في الكلامِ.

فقولُه: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء:١٧١] فيـه نفيُ تعددِ الإلهيّةِ في حـقِّه سبحانَهُ وأنَّه لا إلـه غيره، ليسَ المرادُ أنه لا صفةَ له سوى وحـدانيةِ الإلهيةِ، وكذلك قولُهُ: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [الكهف:١١٠] فإنَّ المرادَ به أنه لم يُوحَ إليَّ في أمرِ الإلهيةِ إلا التوحيدَ لا الإشراكَ.

والعجبُ أنَّ أبا حـيَّان الأندلسيّ أنكر على الزمخـشريِّ ادعاءَه الحـصرَ في هذه الآيةِ لاستلزامهِ عندَهُ أنَّه لم يوحَ إليه غيرَ التـوحيدِ، قالَ: لأنَّ الحصرَ إنما

يلقى من جهة: «أنما» المفتوحةِ الهمزةِ، قالَ: ولا يُعرفُ القولُ بإفادتها الحصرَ إلا عندَ الزمخشريِّ وحده.

وردَّ ذلك عليه شيخُنا أبو محمـدِ بنِ هشامٍ بناءً على أنَّ (أنَّ) المفتوحةَ فرعٌ عن «إن» المكسورةِ على الصحيحِ، قال: ولهذا صحَّ للزمخشريِّ أن يدَّعي أنها تفيدُ الحصرَ «إنَّما» انتهى.

وهذا كلُّه لا حاجةَ إلـيه في هذه الآيةِ فإنَّ الحصرَ مـستفادٌ فـيها مِنْ «إنما» المكسـورةِ التي في أولِ الآيةِ فلو فـرض أن «أنما» المفتوحةَ لا تفـيدُ الحصرَ لم ينتفِ بذلكَ الحصـرُ في الآيةِ على ما لا يخْفى، وكذلكَ قـولُهُ تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ**﴾ [الرعد:٧] أي لستَ ربًّا لهم ولا مُجازيًا ولا محـاسبًا، وليسَ عليكَ أن تجـبرَهُم على الإيمانِ، ولا أن تتكلفَ لـهم طلبَ الآياتِ التي يقتـرحونَهـا عليكَ ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ**﴾ [الرعد:٧] فليسَ عليكَ إلا الإنذارُ، كمـا قال: ﴿**فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ**﴾ [الرعد:٤٠] وقالَ: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ**﴾ [الغاشية:٢١، ٢٢].

ومنْ هَا هُنا يظهرُ الجوابُ عن قولِه: «**إنما كان الذي أوتيتُه وحيًا أوحاهُ اللَّهُ إليَّ**» فإنَّه قالَ: «**ما مِنْ نبيٍّ إلا وقد أُوتي من الآيات ما آمنَ على مثله البشرُ، وإنَّما كانَ الذي أوتيتُه وحيًـا أوحاهُ اللَّهُ إليَّ، فأرجُو أنْ أكونَ أكثرُهم تابعًـا يومَ القيامة**»(١) فالكلامُ إنما سِيقَ لبيانِ آياتِ الأنبياءِ العظامِ الذي آمن لهم بسببها الخَلْقُ الكثيرُ، ومعلومٌ أن أعظمَ آياتِ النبيِّ ﷺ التي آمن عليهـا أكثرُ أُمَّتـهِ هي الوحيُ وهوَ الذي كان يدعو به الخلقَ كلَّهم، ومنْ أسلمَ في حـياتِهِ خوفًا فأكـثرُهم دخلَ الإيمانُ في قلبِهِ بعد ذلك بسببِ سماعِ الوحي لمسلـمي الفتحِ وغيرِهِم، فالنفيُ توجَّه إلى

(١) تقدم تخريجه.

أنه لم تكنْ آياتُهُ التي أوجبتْ إسلامَ الخلقِ الكثيرِ من جنسِ ما كانَ لمن قبله مثلَ ناقةِ صالحٍ وعصا موسى ويدِه وإبراءِ المسيحِ الأكمه والأبرصَ وإحياءِ الموتى ونحو ذلك، فإنَّ هذه أعظمَ آياتِ الأنبياءِ قبلَه وبها آمن البشرُ لهم، وأمَّا آيتُه هو ﷺ التي آمنَ البشرُ عليها في حياتِه وبعدَ وفاتِه فهيَ الوحيُ التي أُوحِي إليه وهيَ التي توجبُ إيمانَ البشرِ إلى يومِ القيامةِ كما قال تعالى: ﴿**وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ**﴾ [الأنعام:١٩] ولهذا قيل: إنَّ آياتِ الأنبياءِ انقطعتْ بموتِهِم وآياتِه ﷺ باقيةً إلى يومِ القيامةِ، ومما يبيِّنُ أنَّ الحصرَ لم ينتفِ عنْ «إنَّما» في شيءٍ من هذه الأنواعِ التي توهمُوها، أنَّ الحصرَ قد جاءَ فيها وفي مثلِها بإلاَّ كما جاء بـ«إنَّما» فإنه جاء «**لا ربا إلا في النسيئة**» كما جاء «**إنما الربا في النسيئة**» وجاءَ في القرآن ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ [آل عمران:١٤٤]، كما جاء: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ**﴾ [الرعد:٧] وكذلك قوله: ﴿**مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ [المائدة:٧٥].

ومثلُ ذلك كثيرٌ فهذا وجهُ إفادتِهَا الحصر في هذهِ الآيةِ على القولِ المشهور وهو «إنما» في قولِهِ: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر:٢٨] هي الكافةُ، وأما على قولِ منْ جعلَهَا موصولةً فتفيدُ الحصرَ منْ جهةٍ أُخرى وهو أنَّها إذا كانتْ موصولةً فتقديرُ الكلامِ «إن الذين يخشون الله هم العلماء» وهذا أيضًا يفيدُ الحصرَ؛ فإنَّ الموصولَ يقتضي العمومَ لتعريفِهِ، وإذا كان عامًّا لزمَ أنْ يكونَ خبرُهُ عامًّا أيضًا لئلا يكونَ الخبرُ أخصَّ من المبتدأ، وهذا النوعُ من الحصرِ يسمَّى حصرَ المبتدأ في الخبرِ، ومتى كان المبتدأ عامًّا فلا ريبَ إفادتهُ الحصرَ، وأمَّا دلالة الآيةِ على الثالثِ، وهو نفي العلمِ من غيرِ أهلِ الخشيةِ، فمن جهةِ الحصرِ أيضا فإنَّ الحصرَ المعروفَ المطردَ فهو حصرُ الأولِ في الثاني،

وهو هَاهُنا حصرُ الخشـيةِ في العلماءِ، وأما حصرُ الثـاني في الأولِ فقد ذكره الشيخُ أبو العباسِ ابنِ تيـمية ـ رحمه اللَّه ـ وأنه قدْ يكونُ مرادًا أيضًـا فيصيرُ الحصـرُ من الطرفينِ ويكونانِ متلازمينِ، ومـثـلُ ذلك كـقولِه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [يس:١١]، و﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات:٤٥]، و﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة:١٥، ١٦] قالَ: وكذلك الحصـرُ في هذه الآيةِ أعني قولِه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ فتقتضي أنَّ كلَّ من خشيَ اللَّهَ فهو عالِمٌ، وتقتضي أيضًا أنَّ العالِمَ منْ يخشى اللَّهَ، وبيانُ الحصرِ الذي ذكره الشيخُ ـ رحمه اللَّه ـ في هذهِ الآياتِ أنَّ قولَه: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [يس:١١] فيه الحـصرُ من الطرفينِ، فـإن اقتـضى أن إنذارَهُ مـخـتصٌ بمن اتبع الذكـر وخشيَ الرحـمنَ بالغيبِ فـإن هذا هو المختصُّ بقبولِ الإنذارِ، والانتـفاعِ به فلذلك نفَى الإنذارَ عن غيرِهِ، والقرآنُ مملوءٌ بأنَّ الإنذارَ إنما هو للعاقلِ له خاصةً، ويقتضي أنه لا يتبعُ الذكرَ ويخشى الرحمنَ بالغيبِ إلا منْ أنذره أيْ مَنْ قَبِلَ إنذارَهُ وانتفعَ به فإنَّ اتباعَ الذكرِ، وخشيةَ الرحمنِ بالغيبِ مختصةٌ بمن قَبِلَ الإنذارَ كما يختصُ قبولُ الإنذارِ والانتفاعُ بأهلِ الخشيةِ واتباعِ الذكرِ.

وكذلك قولُه: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَاهَا﴾ [النازعات:٤٥] وقولُه: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا﴾ [السجدة:١٥] الآية فإن انحصارَ الإنذارِ في أهلِ الخشيةِ، كانحصارِ أهلِ الخشيةِ في أهلِ الإنذارِ، والذين خرُّوا سجدًا في أهلِ الإيمانِ ونحوِ ذلك فكذلكَ قولُه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ وقد فسَّرها السلفُ بذلك أيضًا كما سنذكرُهُ ـ إن شاءَ اللَّهُ تعالى ـ ونذكرُ شواهدَهُ.

وهَاهُنا نكتـةٌ حـسنةٌ، وهيَ أنَّ قـولَهُ تعـالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قد عُلِمَ أنه يقـتضي ثبوتَ الخشيـةِ للعلماءِ للرهلِ[١] يقتضِي ثبوتَها لجنسِ العلمـاءِ، كـما يُقـال: إنما يحج المسلمـونَ، أو: لا يحج إلا مـسلم، فيقـتضي ثبوتَ الحجّ لجنسِ المسلمينَ لا لكلِّ فردٍ فردٍ منهم أو يقـتضي ثبوتَ الخشيةِ لكلِّ واحدٍ من العلماءِ، هذا الثاني هو الصحيحُ وتقريرُه من جهتين:

الجهة الأولى: أن الحصرَ هَاهُنا من الطرفينِ، حصـرُ الأول في الثاني وحصرُ الثاني في الأول، كما تقدَّم بيانُه، فحصْـرُ الخشيةِ في العلماءِ يفيدُ أنَّ كلَّ من خشيَ اللَّهَ فهو عالمٌ وإنْ لم يُفِدْ لمجردِهِ أنَّ كلَّ عالِمٍ فهو يخشى اللَّهَ وتفيدُ أنَّ من لا يخشى فليسَ بعالمٍ، وحصْرُ العلماءِ في أهلِ الخـشيةِ يفيدُ أنَّ كلَّ عالِمٍ فهو خاشٍ، فاجـتمعَ من مجموعِ الحصرينِ ثبوتُ الخـشيةِ لكلِّ فردٍ من أفرادِ العلماءِ.

والجهة الثانية: أن المحصورَ هلْ هوَ مـقتضٍ للمحصورِ فـيه أوْ هوَ شرطٌ له؟ قال الشيخُ أبو العباس ـ رحمه اللَّه ـ: وفي هذه الآيةِ وأمثالها هو مقتضٍ فهو عامٌّ فـإنَّ العلمَ بما أنذرتْ به الرسلُ يوجبُ الخوفَ، ومرادُه بالمقـتَضي ـ العلة المقتضيةَ ـ وهي التي يتوقفُ تأثيرُها على وجودِ شروطٍ وانتفاءِ موانعَ كأسبابِ الوعدِ والوعـيدِ ونحوِهمـا فإنها مقـتضيـاتٌ وهي عامةٌ، ومرادُهُ بالشـرطِ ما يتوقفُ تأثيـرُ السببِ عليه بعـد وَجودِ السببِ وهو الذي يلزمُ من عدمِـهِ عدمُ المشروطِ ولا يلزمُ من وجـودِهِ وجودُ المشروطِ، كالإسلامِ بالنـسبةِ إلى الحجِّ، والمانعُ بخلافِ الـشرطِ، وهوَ ما يلزمُ من وجـودِهِ العدمُ ولا يلزمُ من عـدمه الوجودُ وهذا الفرقُ بين السببِ والشـرطِ وعدمِ المانِعِ إنَّما يتمُ على قولِ من

(١) كذا بالأصل، ولعل الصواب: «للرب فهل».

يُجوِّزُ تخصيصَ العلةِ وأما من لا يُسمِّي علةً إلا ما استلزمَ الحكمَ ولزمَ من وجودِها وجودُه على كلِّ حالٍ، فهؤلاءِ عندهم الشرطُ وعدمُ المانعِ من جملةِ أجزاءِ العلةِ، والمقصودُ هنا أنَّ العلمَ إذا كان سببًا مقتضيًا للخشيةِ كان ثبوتُ الخشيةِ عامًا لجميعِ أفرادِ العلماءِ لا يتخلفُ إلا لوجودِ مانعٍ ونحوِه.

وقد تقدَّم بيانُ دلالةِ الآية على أنَّ منْ خَشِي اللَّهَ وأطاعه وامتثل أوامره واجتنب نواهيه فهو عالِمٌ لأنه لا يخشاه إلا عالِمٌ، وعلى نفي الخشيةِ عن غيرِ العلماءِ، ونفي العلْمِ عن غير أولي الخشيةِ أيضًا، وأنَّ من لم يخشَ اللَّهَ فليسَ بعالِمٍ وبذلك فسَّرها السلفُ.

فعنِ ابنِ عباسٍ قال: «يريدُ: إنما يخافُني مِنْ خلقِي مَنْ عَلِمَ جبروتِي وعزَّتي وجَلالِي وسلْطَاني».

وعنْ مجاهدٍ والشعبيِّ: «العالِمُ من خافَ اللَّهَ».

وعن ابنِ مسعودٍ قالَ: «كفى بخشيةِ اللَّهِ علمًا وكفَى بالاغترارِ باللَّهِ جهلاً».

وذكرَ ابنُ أبي الدنيا عن عطاءٍ الخراسانيِّ في هذه الآيةِ: «العلماءُ باللَّهِ الذين يخافونَهُ».

وعن الربيع بنِ أنسٍ في هذه الآيةِ قالَ: منْ لم يخشَ اللَّهَ فليسَ بعالِمٍ، ألا ترى أنَّ داود قال: ذلكَ بأنَّك جعلتَ العلمَ خشيتَكَ، والحكمةَ والإيمانَ بك وما عَلِمَ منْ لم يخشَكَ وما حكم من لم يؤمنْ بك .

وعن الربيعِ عن أبي العاليةِ في قولِه تعالى: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ**﴾ [البقرة:٢٦٩]. قال: «الحكمةُ الخشيةُ فإنَّ خشيةَ اللَّهِ رأسُ كلِّ حكمةٍ».

وروى الدارميُّ من طريقِ عكرمة عن ابنِ عباسٍ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ قال: «مَنْ خشيَ اللَّهَ فهو عالمٌ».

وعن يحيى بن جعدةَ، عن عليٍّ قالَ: «يا حملةَ العلمِ، اعملُوا به فإنَّما العالِمُ من عملَ بما علمَ فوافقَ علمُهُ عملَه، وسيكونُ أقوامٌ يحملونَ العلمَ ولا يجاوزُ تراقيهم، يخالفُ علمُهم عملَهم، وتخالفُ سريرتُهم علانيتَهم، يجلسونَ حِلَقًا فيُباهي بعضُهم بعضًا، حتَّى إنَّ الرجلَ ليغضبُ على جليسِه أنْ يجلسَ إلى غيرِه ويدعَهُ، أولئك لا تصعدُ أعمالُهم في مجالسِهِم تلكَ إلى اللَّه عزَّ وجلَّ».

وعن مسروقٍ قالَ: «كفى بالمرءِ علمًا أن يخشى اللَّهَ عزَّ وجلَّ وكفى بالمرءِ جهْلاً أنْ يُعجبَ بعلمه».

وعن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما قال: «لا يكونُ الرجلُ عالمًا حتَّى لا يحسدَ من فوقَهُ ولا يحقرَ من دونَهُ، ولا يبتغي بعلمِهِ ثمنًا»، وعن أبي حازمٍ نحوه.

منه قولُ الحسنِ: «إنما الفقيهُ الزاهدُ في الدُّنيا، الراغبُ في الآخرةِ، البصيرُ بدينِهِ، المداومُ على عبادةِ ربِّه».

وعن عبيدِ اللَّهِ بنِ عمرَ أنَّ عمرَ بنَ الخطابِ سألَ عبدَ اللَّهِ بنَ سلامٍ: «مَنْ أربابُ العلمِ؟ قال: الذين يعملونَ بما يعلمُونَ».

وقال رجلٌ للشعبيِّ: أفتني أيها العالم فقال: «إنما العالمُ من يخافُ اللَّهَ».

وعن الربيعِ بنِ أنس عن بعضِ أصحابِهِ قال: «علامةُ العلمِ: خشيةُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ».

وسئلَ سعدُ بنُ إبراهيم: من أفقهُ أهلِ المدينةِ؟ قال: «أتقاهم لربِّه».

وسئل الإمامُ أحمدُ عن معروفٍ، وقيلَ له: هلْ كان معه علمٌ؟ فقال: «كان معه أصلُ العلمِ، خشيةُ اللَّهِ عزَّ وجلّ».

ويشهد لهذا قولُه تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]، وكذلك قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧].

وقولُهُ: ﴿أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤]، وقولُهُ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:١١٩].

قال أبو العاليةَ: «سألتُ أصحابَ محمدٍ عن هذه الآيةِ: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧]، فقالُوا: كلُّ مَنْ عَصَى اللَّهَ فهو جاهلٌ، وكلُّ من تاب قبل الموتِ فقدْ تابَ من قريبٍ».

وعن قتادةَ قالَ: «أجمع أصحابُ رسولِ اللَّه ﷺ على أنَّ كلَّ من عصى ربَّه فهو جاهلٌ جهالةً، عمدًا كان أو لم يكنْ، وكلُّ من عَصَى ربَّه فهو جاهلٌ».

وقال مجاهدٌ: «منْ عملَ ذنبًا من شيخٍ أو شابٍ فهو بجهالةٍ»، وقالَ أيضًا: «من عصى ربَّه فهو جاهلٌ حتى ينزعَ عن معصيتِهِ»، وقال أيضًا: «من عملَ سوءًا خطأً أو إثمًا فهو جاهلٌ حتى ينزعَ منه»، وقال أيضًا هو وعطاء: «الجهالةُ: العمدُ»، رواهنَّ ابنُ أبي حاتمٍ وغيرُه، وقال: ورُوي عن قتادةَ،

وعمرِو بنِ مرةَ، والثوريِّ نحو ذلك.

ورُوي عن مجاهدٍ، والضحاكِ، قالا: «ليسَ من جهالتِهِ أن لا يعلَمَ حلالاً ولا حرامًا، ولكن مِنْ جهالتِهِ حينَ دخلَ فيه».

وقال عكرمةُ: «الدنيا كلُّها جهالةٌ».

وعن الحسنِ البصريِّ أنَّه سُئِلَ عنها فقال: «هم قومٌ لم يعلمُوا ما لهم مما عليهم، قيل له: أرأيتَ لو كانوا علموا؟ قال: فليخرجُوا منها فإنها جهالةٌ».

ومما يبيِّنُ أنَّ العلمَ يوجبُ الخشيةَ وأنَّ فقدَهُ يستلزمُ فقْدَ الخشيةَ وجوه:

إحداها: أن العلم باللَّه تعالى وما لَـهُ من الأسماءِ والصفات كالكبرياءِ والعظمةِ والجبروتِ، والعزةِ وغيرِ ذلك يوجبُ خشيتَهُ، وعدمُ ذلك يستلزمُ فقْدَ هذه الخشيةِ، وبهذا فسَّرَ الآيةَ ابنُ عباسٍ، فقال: «يريدُ إنما يخافني مَنْ علِمَ جبروتِي، وعِزَّتي، وجلالِي، وسلْطَاني»، ويشهدُ لهذا قولُ النبيِّ ﷺ: «**إني لأعلمكم باللَّهِ وأشدُّكم له خشيةً**»[1] وكذلك قولُهُ ﷺ: «**لو تعلمونَ ما أعلمُ لضحكتُم قليلاً ولبكيتُم كثيرًا**»[2] وفي «المسند» وكتابِ الترمذيِّ وابنِ ماجه[3] منْ حديثِ أبي ذرٍ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**إني أرَى ما لا ترونَ وأسمعُ ما لا تسمعونَ، إنَّ السماءَ أطَّتْ وحُقَّ لها أن تئطَّ، ليسَ فيها موضعُ أربعِ أصابعَ إلا وملكٌ واضعٌ جبهتَهَ ساجدٌ للَّهِ ـ عزَّ وجلَّ ـ واللَّه لو تعلمونَ ما أعلمُ لضحكتُم قليلاً ولبكيتُم كثيرًا، وما تلذذتُم بالنساءِ على الفُرشِ، ولخرجتُم إلى الصعداتِ تجأرونَ إلى اللَّه عزَّ**

---

(١) أخرجه: البخاري (٧/ ٢)، ومسلم (٤/ ١٢٩) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: البخاري (٢/ ٤٢ ـ ٤٣ ـ ٤٩ ـ ٨٢)، (٦/ ٦٨ ـ ٦٩)، (٧/ ٤٥)، (٨/ ١٦٠)، ومسلم (٣/ ٢٧) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ١٧٣)، والترمذي (٢٣١٢)، وابن ماجه (٤١٩٠).

وجلَّ» ، وقال الترمذيُّ: حسنٌ غريبٌ.

قال: ويُروى عن أبي ذرٍ موقوفًا وذكر أبو نعيمٍ وغيرُه بالإسنادِ عن ابنِ عباسٍ، أنه قالَ للنفرِ الذين كانوا يختصمون ويتمارون: «أو ما علمتُم أنَّ للَّه عبادًا أصمتَتْهم خشيةُ اللَّهِ من غير بكمٍ ولا عَيٍّ، وإنهم لَهُمُ العلماءُ والفصحاءُ والطلقاءُ والنبلاءُ، العلماءُ بأيامِ اللَّه غيرَ أنهم إذا تذكَّروا عظمةَ اللَّهِ طاشتْ لذلكَ عقولُهم، وانكسرتْ قلوبُهم، وانقطعتْ ألسنتُهم، حتَّى إذا استفاقُوا من ذلك، تسارعُوا إلى اللَّه عزَّ وجلَّ بالأعمالِ الزكيَّةِ، يعدونَ أنفسهم مع المفرطين، وإنهم لأكياسٌ أقوياءُ مع الظالمينَ والخاطئين، وإنهم لأبرارٌ بُرءاءُ، إلا أنهم لا يستكثرونَ إلا الكثيرَ، ولا يرضونَ له بالقليلِ، ولا يدلون عليه بالأعمالِ هم حيثُ ما لقيتموهُم مهتمُّونَ مشفقونَ وجِلُونَ خائفون».

وروى ابنُ أبي الدنيا أثرًا عن زنادِ بن أبي حبيبٍ أنه بلغه: «أن من حملةِ العرشِ من سالَ من عينه أمثالُ الأنهارِ من البكاءِ فإذا رفعَ رأسَهُ قالَ: سبحانَك ما تُخشى حقَّ خشيتِكَ، قال تعالى ذكرُه: لكن الذين يحلفونَ باسمي كاذبين لا يعلمونَ ذلك».

وعن يزيد الرقاشيِّ قالَ: «إن للَّه تبارك وتعالى ملائكةً حول العرشِ، تجري أعينهم مثلَ الأنهارِ إلى يومِ القيامةِ، يميدونَ كأنَّهم ينفضهم الريحُ من خشيةِ اللَّهِ، فيقول الربُّ عزَّ وجلَّ: يا ملائكتي، ما الذي يُخيفكُم وأنتم عِنْدِي؟ فيقولون: يا ربِّ، لو أنَّ أهلَ الأرضِ اطَّلعوا من عِزَّتك وعظمتكَ على ما اطَّلعنا عليها، ما أساغوا طعامًا ولا شرابًا، ولا انبسطُوا في فُرُشِهِم، ولخرجُوا إلى الصَّحاري يخورونَ كما تخورُ البقرُ». ومثل هذا كثيرٌ جدًّا،

والمقصود أنَّ العلمَ باللَّهِ وأسمائِه وصفاتِه وأفعالِه منْ قدرِه، وخلقِه، والتفكيرَ في عـجـائبِ آياتِـهِ المسـموعـةِ المتلوةِ، وآياتِه المشاهدةِ المرئـيـةِ من عجائبِ مصنوعاتِهِ، وحِكمِ مبتدعاتِهِ ونحو ذلك مما يوجبُ خشيتَهُ وإجلالَهُ، ويمنعُ من ارتكابِ نهيِه، والتفريطِ في أوامـرِهِ؛ هو أصلُ العلمِ النافعِ، ولهذا قال طائفةٌ من السلفِ لعمـرَ بنِ عبدِ العـزيزِ وسفيان بن عـيينةَ: «أعجبُ الأشـياءِ قلبٌ عَرَفَ ربَّه ثمَّ عصاهُ».

وقال بشرُ بنُ الحارثِ: «لو يفكرُ الناسُ فـي عظمةِ اللَّهِ لما عصوا اللَّه» وفي هذا المعنى يقولُ الشاعرُ:

فـواعـجـبًـا كـيف يُعـصى الإلـ ـهُ وكـيـفَ يجـحـدُهُ الجـاحـدُ
ولـلَّـهِ في كـلِّ تحـريـكـةٍ وتـسـكـيـنـةٍ أبـدًا شـاهـدُ
وفـي كـلِّ شـيءٍ لـه آيـةٌ تـدلُّ عـلـى أنَّـه واحـدُ

الوجه الثاني: أنَّ العلمَ بتفاصيلِ أمرِ اللَّهِ ونهيه، والتصديقَ الجازمَ بذلك، ومما يترتبُ عليه من الوعـدِ والوعيدِ والثوابِ والعقابِ، مع تيـقنِ مراقبةِ اللَّهِ واطِّلاعهِ، ومـشاهدَتِهِ، ومـقتِـهِ لعاصيـهِ وحضـورِ الكرامِ الكاتبينَ، كلُّ هذا يوجبُ الخشـيةَ، وفـعلَ المأمورِ وتركَ المحظورِ، وإنَّمـا يمنعُ الخشـيةَ ويوجبُ الوقوعَ في المحظوراتِ الغفلةُ عن استحـضارِ هذه الأمورِ، والغفلةُ من أضدادِ العلمِ، والغفلةُ والشهـوةُ أصلُ الشرِّ، قال تعالى: ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف:٢٨]، والشهوةُ وحـدُها، لا يستقلُّ بفعلِ السيـئاتِ إلا مع الجهلِ، فإنَّ صـاحبَ الهوى لو استحـضرَ هذه الأمورَ المذكورةَ وكانتْ موجودةً في ذكرِه، لأوجبتْ له الخـشيةَ القامعةَ لهواهُ، ولكنَّ غفلتَـه عنها مما يوجبُ نقصَ إيمانِهِ الذي أصلُه التـصديقُ الجـازمُ المترتبُ على

التصورِ التامِ، ولهذا كان ذكرُ اللَّهِ وتوحيدُه والثناءُ عليه يزيدُ الإيمانَ، والغفلةُ والإعراضُ عن ذلك يضعفُهُ وينقصُهُ، كما كان يقولُ منْ يقولُ من الصحابةِ: «اجلسُوا بنا نؤمنُ ساعة».

وفي الأثرِ المشهورِ عن حماد بنِ سلمةَ عن أبي جعفرٍ الخطميِّ عن جدِّه عميرِ بن حبيبٍ وكان من الصحابةِ، قال: «الإيمانُ يزيدُ وينقصُ قيلَ: وما زيادتُهُ ونقصانُهُ؟ قال: إذا ذكرنَا اللَّهَ ووحَّدْناه وسبَّحْنَاهُ، فتلك زيادتُهُ، وإذا غفلنا ونسينا، فذلك نقصانُهُ».

وفي مسندي الإمام أحمدَ والبزارِ(١) من حديث أبي هريرةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: **«جدِّدُوا إيمانكُم»** قالُوا: وكيفَ نجددُ إيمانَنا يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: **«قولُوا: لا إله إلا اللَّه»**.

ولهذا كان الصحيحُ المشهورُ عن الإمامِ أحمدَ الذي عليه أكثرُ أصحابِهِ وأكثرُ علماءِ السنة من جميعِ الطوائف؛ أنَّ ما في القلبِ من التصديقِ والمعرفةِ يقبلُ الزيادةَ والنقصانَ، فالمؤمنُ يحتاجُ دائمًا كلَّ وقتٍ إلى تجديدِ إيمانِه وتقويةِ يقينِه، وطلبِ الزيادةِ في معارفِه، والحذرِ من أسبابِ الشكِّ والريبِ والشبهةِ، ومنْ هُنا يُعلمُ معنى قولِ النبيِّ ﷺ: **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ السارقُ حين يسرقُ وهو مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربُها وهو مؤمن»**(٢) فإنه لو كان مستحضِراً في تلك الحال لاطِّلاعِ اللَّه عليه ومقتِه له مع ما توعَّدَهُ اللَّهُ به من العقابِ المجملِ والمفصلِ استحضاراً تامًّا لامتنعَ منه بعدَ ذلكَ وقوعُ هذا المحظورِ وإنما وقعَ فيما وقعَ فيه لضعفِ إيمانِه ونقصِه.

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٣٥٩)، والبزار (٦٦٤ ـ كشف الأستار).

(٢) تقدم تخريجه.

الوجهُ الثالثُ: أنَّ تصورَ حقيقةِ المخوفِ يوجبُ الـهربَ منه، وتصورَ حقيقةِ المحبـوبِ توجبُ طلبَهُ فإذا لم يهـربْ منْ هذا ولم يطلبْ هذا دلَّ على أنَّ تصـورَهُ لـذلك ليسَ تامًّا، وإن كـانَ قد يصـور الخبـر عنه، وتصـورُ الخبـرِ وتصديقِـهِ وحفظُ حروفِهِ غـيرُ تصورِّ المخبَرِ بـه فإذا أخبر بما هو مـحبوبٌ أو مكروهٌ له، ولم يكذِّبِ الخبرَ بل عرفَ صدقَهُ لكن قلبَـهُ مشغولٌ بأمور أخرى عن تصورِ ما أخبرَ به، فهذا لا يتحركُ للهربِ ولا للطلبِ، في الأثر المعروف عن الحسن وروي مـرسلاً عن النبيِّ ﷺ: **«العلمُ علمان، فـعلمٌ في القلب، فذاك العلمُ النافعُ، وعلمٌ على اللسانِ، فذاك حجةُ اللَّهِ على ابنِ آدم»**[(١)].

الوجه الرابع: أنَّ كثيرًا من الذنوبِ قد يكونُ سببُ وقوعِهِ جهلَ فاعلِهِ بحقيقةِ قبحه وبُغضِ اللَّهِ له وتفاصيل الوعيـدِ عليه وإنْ كانَ عالمًا بأصل تحريمه وقبحه لكنَّه يكونُ جاهـلاً بما وردَ فيه من التـغليظ والتشديد ونهـايةِ القبح، فـجهلُه بذلكَ هو الذي جرَّأهُ عليه وأوقعـه فيه، ولو كان عالمًا بحقيقـةِ قبحهِ لأوجبَ ذلك العلمُ تركَهُ خـشيةً من عـقابِهِ، ولهذا كـان القولُ الصحـيحُ الذي عليه السلفُ وأئمـةُ السنة أنـه يصحُّ التـوبةُ من بعضِ الذنوبِ دون بعضٍ خـلافًـا لبعضِ المعتزلةِ، فـإنَّ أحدَ الذنبينِ قد يَعلمُ قبحَهُ فيتـوبُ منه ويستهينُ بالآخرِ لجهلِهِ بقبحِهِ وحـقيقةِ مرتبتِهِ فلا يقلعُ عنه، ولذلك قـد يقهرُهُ هواهُ ويغلبُه في أحدِهما دون الآخر فيقلعُ عما لم يغلبْه هواه دون ما غلبه فيه هواهُ، ولا يقالُ لو كانت الخـشية عندَهُ مـوجودةً لأقلعَ عن الجـميع، لأن أصلَ الخشيـةِ عنده موجـودةٌ؛ ولكنها غـيرُ تامةٍ، وسـبب نقصـهـا إمـا نقـصُ علمِهِ، وإمـا غلبةُ هواه، فتبعُّـضُ توبتِه نشأ من كونِ المقتضِي للتـوبةِ من أحدِ الذنبين أقوى من المقتضي للتوبـةِ من الآخـرِ، أو كـونِ المانع من التوبـةِ من أحـدِهما أشـدَّ من

---

(١) أخـرجه: ابن أبي شـيبـة (٧/ ٨٢)، وذكره ابن الجـوزي في «العلل المتناهيـة» (١/ ٨٣) ووهّاه.

المانعِ من الآخرِ.

الخامس: أنَّ كلَّ ما علمَ عِلمًا تامًّا جازِمًا بأنَّ فعلَ شيئًا يضرُّه ضررًا راجحًا لم يفعلْه، فإنَّ هذا خاصة العاقلِ، فإنَّ نفسه تنصرفُ عمَّا يعلمُ رجحانَ ضرره بالطبع، فإنَّ اللَّه جعلَ في النفس حبًّا لما ينفعُها وبغْضًا لما يضرُّها، فلا يفعلُ ما يجزم بأنه يضرُّها ضررًا راجحًا، ولا يقعُ ذلك إلا مَعَ ضعيفِ العقلِ؛ فإنَّ السقوطَ مَنْ موضعٍ عالٍ، أو في نهرٍ مغرقٍ، والمرورَ تحت حائطٍ يُخشى سقوطُه، ودخولَ نارٍ متأججةٍ، ورميَ المالِ في البحرِ، ونحو ذلك، لا يفعلهُ من هو تامُّ العقل لعلمِهِ بأن هذا ضررٌ ولا منفعةَ فيه، وإنما يفعلُه من لم يعلمْ ضررُهُ كالصبيِّ، والمجنونِ، والسَّاهي، والغافلِ، وأمَّا العاقلُ فلا يُقدمُ على ما يضرُّه مع علمه بما فيه من الضررِ إلا لظنِّه أنَّ منفعتَهُ راجحةٌ إمَّا بأن يجزمَ بأن ضررَهُ مرجوحٌ، أو يظنُّ أن خيرَهُ راجحٌ، كالذي يركبُ البحرَ ويسافرُ الأسفارَ الخطرةَ للربحِ فإنه لو جزمَ بأنه يغرقُ أو يخسرُ لما فعلَ ذلكَ وإنَّما أقدمَ عليه لترجيحِ السلامةِ عندَهُ والربحِ، وإن كانَ قد يكونُ مخطئًا في هذا الظنِّ.

وكذلك الزاني والسارقُ ونحوهُما، لو حصلَ لهم جزمٌ بإقامة الحدودِ عليهم من الرجمِ والقطْعِ ونحو ذلك، لم يُقدموا على ذلكَ، فإذا عُلم هذا فأصلُ ما يوقعُ الناسَ في السيئاتِ الجهلُ وعدمُ العلم بأنها تضرُّهم ضررًا راجحًا، أو ظنُّ أنها تنفعُهم نفعًا راجحًا، وذلك كلُّه جهلٌ إما بسيطٌ وإمَّا مركبٌ، ولهذا يسمَّى حالُ فعلِ السيئاتِ الجاهليةَ، فإن صاحبَها في حالِ جاهليةٍ، ولهذا كانَ الشيطانُ يزيِّنُ السيئاتِ ويأمرُ بها، ويذكرُ ما فيها من المحاسنِ التي يُظنُّ أنها منافعُ لا مضارّ كما أخبرَ اللَّهُ عنه في قصة آدمَ أنه ﴿**يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا**﴾

[طه:١٢٠] قال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف:٢٠]، وقال تعالى ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٣٦، ٣٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ [فاطر:٨]، وقال: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٠٨] وتزيينُ أعمالِهم يكونُ بواسطةِ الملائكةِ والأنبياءِ والمؤمنينَ للخيرِ، وتزيينُ شياطينِ الإنسِ والجنِّ للشرِّ، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ [الأنعام:١٣٧].

ومثلُ هذا كثيرٌ فالفاعلُ للذنبِ لو جزمَ بأنه يحصلُ له به الضررُ الراجحُ لم يفعلْه، لكنه يزينُ له ما فيه من اللذةِ التي يظنُّ أنها مصلحة، ولا يجزمُ بوقوعِ عقوبتِهِ، بل يرجو العفوَ بحسناتٍ أو توبةٍ أو بعفوِ اللَّهِ ونحوِ ذلك، وهذا كلُّه من اتباعِ الظنِّ وما تهوى الأنفسُ، ولو كان له علمٌ كاملٌ لعرفَ به رجحانَ ضررِ السيئة، فأوجبَ له ذلك الخشيةَ المانعةَ له من مواقعتِها، ونبينُ هذا بـ:

الوجه السادس: وهو أن لَذَّاتِ الذنوبِ لا نسبةَ لها إلى ما فيها من الآلامِ والمفاسد البتةَ فإنَّ لذاتها سريعةُ الانقضاء وعقوباتها وآلامها أضعافُ ذلك ولهذا قيل: «إن الصبرَ على المعاصي أهونُ من الصبرِ على عذابِ اللَّه» وقيل: «ربَّ شهوةِ ساعةٍ أورثتْ حزنًا طويلاً» وما في الذنوبِ من اللذاتِ كما في الطعامِ الطيبِ المسمومِ من اللذةِ، فهي مغمورةٌ بما فيه من المفسدةِ ومؤثرُ لذة الذنبِ كمؤثر لذة الطعامِ المسمومِ الذي فيه من السموم ما يمرضُ أو يقتلُ ومن هاهُنا يُعلمُ أنه لا يُؤثِرُ لذاتِ الذنوبِ إلا من هو جاهلٌ بحقيقةِ عواقبها، كما لا يؤثرُ أكلَ الطعامِ المسمومِ لِلذَّتِهِ إلا من هو جاهلٌ بحالِه أو غيرِ عاقلٍ، ورجاؤه التخلصَ من شرِّها بتوبةٍ أو عفوٍ أو غيرِ ذلك كرجاءِ آكلِ الطعامِ

المسمومِ الطيب للخلاصِ من شرِّ سُمِّـه بعلاجٍ أو غيرِهِ، وهو في غايةِ الحمقِ والجهلِ، فـقدْ لا يتـمكنُ من التخلصِ منه بالكليـةِ، فيقـتلُهُ سمُّـه، وقد لا يتخلصُ منـه تخلصًا تامًّا فيطـولُ مرضُهُ، وكـذلكَ المذنبُ قد لا يتـمكنُ من التوبـةِ، فإنَّ من وقعَ في ذنبٍ تجـرَّأ عليه عمـرَهُ وهان عليه خـوضُ الذنوبِ وعَسُرَ عليه الخلاصُ منها ولهذا قيل: «من عقوبةِ الذنب: الذنبُ بعدَهُ».

وقد دلَّ على ذلك القـرآنُ في غيرِ موضعٍ، وإذا قُدِّرَ أنه تـابَ منه فقدْ لا يتمكنُ من التوبةِ النصوحِ الخالصـةِ التي تمحو أثرَه بالكليةِ، وإنْ قدِّر أنه تمكنَ من ذلكَ، فلا يقـاومُ اللذةَ الحاصلةَ بالمعصيـةِ ما في التوبةِ النصوحِ المشـتملةِ على النَّدمِ والحـزنِ والخـوفِ والبكاءِ وتجشمِ الأعـمالِ الصـالحـةِ؛ من الألمِ والمشـقةِ، ولهـذا قال الحسنُ: «تركُ الذنبِ أيسـرُ من طلبِ التـوبةِ» ويكفي المذنبُ ما فاته في حالِ اشتغـالِهِ بالذنوبِ من الأعمالِ الصالحةِ الَّتي كانَ يمكنُه تحصيلَ الدرجاتِ بها.

وقـد اختلفَ الناسُ في التـائبِ، هل يمكنُ عـودُهُ إلى ما كـانَ عليه قـبل المعصيةِ؟ على قولينِ معـروفينِ، والقولُ بأنه لا يمكنُ عودُهُ إلى ما كانَ عليه قولُ أبي سليـمان الدَّرانيِّ وغيرِهِ، وكـذلكَ اختلفُوا في التـوبةِ إذا استكملتْ شروطَهـا، هل يُجزمُ بقـبولهـا؟ على قولَينِ: فـالقاضي أبو بكرٍ وغـيرُهُ من المتكلمينِ على أنَّه لا يُجزمُ بذلك، ولكـنَّ أكثرَ أهلِ السنةِ والمعتـزلةِ وغيرَهم على أنه يُقطعُ بقـبولها، وإنْ قُـدِّر أنه عفِيَ عنه من غـيرِ توبةٍ فـإنْ كانَ ذلك بسـببِ أمرٍ مكفـرٍ عنه كالمصـائبِ الدنيـويةِ، وفتنةِ القـبرِ، وأهوالِ البـرزخِ، وأهوالِ الموقفِ، ونحـوِ ذلكَ، فلا يستـريبُ عاقلٌ أن مـا في هذه الأمورِ من الآلامِ والشدائدِ أضعاف أضعاف ما حصلَ في المعصيةِ من اللذةِ.

وإنْ عُفِيَ عنه بغيرِ سببٍ من هذه الأسـباب المكفرةِ ونحوِها، فإنه لابُّد أن

يلحقَهُ عقوباتٌ كثيرةٌ منها: ما فاتَهُ من ثوابِ المحسنينِ، فإن اللَّه تعالى وإن عفا عن المذنبِ فلا يجعلْه كالذينَ آمنوا وعملوا الصالحاتِ، كما قال تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ [الجاثية:٢١] وقال: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾ [ص:٢٨].

ولهذا قالَ بعضُ السلفِ: عُدَّ أن المسيءَ قد عُفِيَ عنه، أليسَ قدْ فاتَهُ ثوابُ المحسنينَ؟ ولولا أنَّ اللَّـه تعالى رضَّى أهلَ الجنةِ كلَّهم بما حصلَ لهم من المنازلِ لتقطعتْ أصحابَ اليمينَ حسراتٌ مما فاتَهُم من منازلِ المقربينَ مع إمكانَ مشاركتِهِم لهم في أعمالِهِم التي نالُوا بها منازلَهُم العاليةَ، وقد جاء في الأحاديثِ والآثارِ أنهم يقولون: ألم نكن مع هؤلاءِ في الدنيا؟ فيقالُ: كنتُم تفطرونَ، وكانوا يصومونَ، وكنتُم تنامونَ، وكانوا يقومون، وكنتم تبخلون، وكانوا ينفقون، ونحوُ ذلك.

وكذلكَ جاءَ: «**أنَّ الرجلَ من أهلِ عليين ليخرجُ فيسيرُ في ملكِه فما تبقى خيمةٌ من خيمِ الجنةِ إلا دخلَها من ضوءِ وجهه، فيستبشرونَ بريحه فيقولونَ: واهًا لهذه الريح، هذا رجلٌ من أهلِ عليينَ قدْ خرجَ يسيرُ في ملكِه**». هذا قد رُوِي من حديثِ ابنِ مسعودٍ مرفوعًا(١)، ورُوِيَ من كلامِ كعبٍ.

ومنها: ما يلحقُهُ من الخجلِ والحياءِ منَ اللَّهِ عزَّ وجلَّ عند عرضِه عليه، وتقريره بأعمالِهِ، وربما كان ذلك أصعبُ عليه من دخولِ النارِ ابتداءً، وقد أخبرَ بذلكَ بعضُ المحتضرينَ في زمانِ السلفِ عند احتضارِهِ وكان أُغميَ عليه حتَّى ظُنَّ أنه مات، ثم أفاقَ فأخبرَ بذلك.

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٥٨٩) وهو جزء من حديث طويل.

وجاء تصديقُ ذلكَ في الأحاديثِ والآثارِ كما روى عبدُ اللَّهِ بنُ الإمامِ أحمدَ في كتابِ «الزهدِ» بإسنادهِ عن أبي هريرةَ ﷺ قال: «يُدْنِي اللَّه عزَّ وجلَّ العبدَ يومَ القيامةِ، فيضعُ عليه كنفَهُ، فيسترُهُ من الخلائقِ كلِّها، ويدفعُ إليه كتابَهُ في ذلكَ السترِ، فيقولُ: اقرأْ يا ابنَ آدمَ كتابَكَ، قال: فيمرُّ بالحسنةِ، فيبيضُّ لها وجْهُه ويُسَرُّ بها قلبُهُ قال: فيقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: أتعرفُ يا عبدي؟ فيقولُ: نعم، يا ربِّ أعرفُ، فيقول: إني قد قبلتُها منك، قال: فيخرُّ للَّه ساجدًا، قال: فيقول اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ارفع رأسَك يا ابنَ آدمَ وعُدْ في كتابِكَ، قال: فيمرُّ بالسيئةِ فيسودُّ لها وجْهُه، ويوجلُ منها قلبُه وترتعدُ منها فرائصُه، ويأخذه من الحياءِ من ربه ما لا يعملُه غيرُهُ، قال: فيقولُ اللَّه عزَّ وجلَّ: أتعرفُ يا عبدي؟ قال: فيقولُ: نعم، يا ربِّ أعرفُ، قال: فيقول: إني قد غفرتُها لك؟ قال: فلا يزالُ حسنةٌ تُقبلُ فيسجدُ، وسيئةٌ تُغفرُ فيسجدُ، فلا ترى الخلائقُ منه إلا السجودَ، قال: حتى تنادي الخلائقُ بعضَها بعضًا: طوبى لهذا العبدِ الذي لم يعصِ اللَّهَ قط، ولا يدرونَ ما قدْ لقي فيما بينه وبين اللَّهِ عزَّ وجلَّ».

ومما قدْ وقفه عليه ورُوي معنى ذلك عن أبي موسى، وعبدِ اللَّهِ بنِ سلامٍ، وغيرِهما، ويشهدُ لهذا حديثُ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرَ الثابتُ في «الصحيحِ»[1] - حديثُ النجوى - أن النبيَّ ﷺ قال: «**إذا كان يوم القيامة دعا اللَّهُ بعبدِه فيضعُ عليه كنَفَهَ فيقولُ: ألم تعملْ يومَ كذا وكذا ذنبَ كذا وكذا؟ فيقولُ: بلى يا ربِّ، فيقول: فإني قد سترتُها عليك في الدنيا وغفرتُ ذلك لك اليومَ**» وهذا كلُّه في حقِّ من يريدُ اللَّهُ أن يعفوَ عنه ويغفرَ له فما الظنُّ بغيرِهِ، ولهذا في «مراسيل الحسنِ» عن النبيِّ

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ١٦٨)، (٦/ ٩٣)، (٨/ ٢٤)، (٩/ ١٨١)، ومسلم (٨/ ١٠٥).

ﷺ: «إذا أرادَ اللَّهُ أن يسترَ على عبده يومَ القيامة أراه ذنوبَهُ فيما بينه وبينه ثمَّ غفرَهَا له» ولهذا كانَ أشهرُ القولينِ أنَّ هذا الحكمَ عـامٌّ في حقِّ التائبِ وغيرِه، وقد ذكرَهُ أبو سليمانَ الدمشـقيُّ عن أكثرِ العلماء، واحتجُّـوا بعمومِ هذه الأحاديثِ مع قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً﴾ [الكهف:٤٩]، وقد نُقِلَ ذلك صريحـًا عن غيرِ واحدٍ من السلفِ كالحسنِ الـبصريِّ وبلالِ بنِ سعدٍ ـ حكيمِ أهلِ الشـامِ ـ كما روى ابنُ أبي الدنيا، وابنُ المنادي وغيرُهُما عن الحسنِ: «أنه سُئِل عن الرجلِ يذنبُ ثم يتوبُ هل يُمـحى من صحيفتِـهِ؟ قال: لا، دون أن يوقفَهُ عليـه ثم يسألُهُ عنه» ثم في رواية ابنِ المنادي وغـيرِه: «ثـم بكى الحسنُ، وقـال: لو لم تبكِ الأحياءُ من ذلكَ المقامِ لكانَ يحقُّ لنا أن نبْكِي فنطيلَ البكاءَ».

وذكرَ ابنُ أبي الدنيا عنْ بعضِ السلفِ أنه قال: «ما يمرُّ عليَّ أشدُّ من الحياءِ من اللَّهِ عزَّ وجلَّ».

وفي الأثرِ المعروفِ الـذي رواه أبو نعيمٍ وغيـرُهُ عن علقمـةَ بنِ مرثد: «أنَّ الأسودَ بنَ يزيدَ لمـا احتُضِـرَ بكى، فقيلَ له: مـا هذا الجزعُ؟ قـالَ: ما لي لا أجـزعُ، ومن أحقُّ بذلكَ منِّي، واللَّهِ لو أُتيتُ بـالمغفـرةِ من اللَّهِ عـزَّ وجلَّ، لهـمَّني الحيـاءُ منه مما قدْ صنعـتُه، إنَّ الرجلَ لـيكونُ بينه وبين الرجلِ الذنبُ الصغيرُ فيعفو عنه فلا يزالُ مستَحيًا منه».

ومن هذا قولُ الفضيلِ بنِ عياضٍ: «بالموقفِ واسوءتاهُ منكَ وإنْ عفوتَ».

المقـصود هنا أن آلام الذنوبِ ومـشاقَّـها وشـداتها التي تزيدُ على لذاتـها أضعافًا مضاعفةً، لا يتـخلفُ عن صاحبِها، لا مع توبةٍ ولا عفوٍ، فكيفَ إذا لم يُوجدْ واحدٌ منهما، ويتضحُ هذا بما نذكرُهُ في الوجهِ السابعِ.

الوجه السابع: وهو أن المقْدِمَ على مواقعةِ المحظورِ إنما أوجبَ إقدامَهُ عليه ما فيه من اللذةِ الحاصلةِ له به، فظنَّ أنَّه يحصلُ له لذتُهُ العاجلةُ، ورجَى أنْ يتخلصَ من تبعتِهِ بسببٍ من الأسبابِ ولو بالعفوِ المجردِ فينالُ به لذةً ولا يلحقُهُ به مضرةٌ، وهذا من أعظمِ الجهلِ، والأمر تجلس(١) باطنه، فإن الذنوبَ تتبعُها ولابدَّ من الهمومِ والآلامِ وضيقِ الصدرِ والنكدِ، وظلمةِ القلبِ، وقسوتِهِ أضعافُ أضعافُ ما فيها منَ اللذةِ، ويفوتُ بها من حلاوةِ الطاعاتِ، وأنوارِ الإيمانِ، وسرورِ القلبِ ببهجةِ الحقائقِ والمعارفِ، ما لا يُوازي الذرةَ منه جميعُ لذَّاتِ الدنيا، فيحصلُ لصاحبِ المعصيةِ العيشةُ الضنكُ، وتفوتُهُ الحياةُ الطيبةُ، فينعكسُ قصدُهُ بارتكابِ المعصيةِ، فإنَّ اللَّهَ ضمنَ لأهلِ الطاعةِ الحياةَ الطيبةَ، ولأهلِ المعصيةِ العيشةَ الضنكَ، قالَ تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا**﴾ [طه:١٢٤] وقال: ﴿**وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ**﴾ [الطور:٤٧] وقال: ﴿**وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾ [السجدة:٢١] وقال في أهلِ الطاعةِ: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾ [النحل:٩٧].

قال الحسنُ وغيرُهُ من السلفِ: «لنرزقنَّه عبادةً يجدُ حلاوتَها في قلبِهِ». ومن فسَّرها بالقناعةِ، فهو صحيحٌ أيضًا، ومن أنواعِ الحياةِ الطيبةِ الرِّضَى بالمعيشةِ فإنَّ الرِّضى، كما قالَ عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ: «جنةُ الدنيا ومستراحُ العابدين»، وقال تعالى: ﴿**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ**﴾ [هود:٣].

(١) هكذا في المطبوع، ولعلها: «تُحِسُّ».

وقال: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٤٨].

كما قالَ عن إبراهيمَ عليه السلام: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [النحل:١٢٣] ومثلُ هذا كثيرٌ في القرآنِ، فما في الطاعةِ من اللذةِ والسرورِ والابتهاجِ والطمأنينةِ وقرّةِ العينِ؛ أمرٌ ثابتٌ بالنصوصِ المستفيضة وهو مشهودٌ محسوسٌ يدركُهُ بالذوقِ والوجدِ مَنْ حصلَ له ولا يمكنُ التعبيرُ بالكلامِ عن حقيقتِهِ، والآثارُ عن السلفِ والمشايخِ العارفينَ في هذا البابِ كثيرةٌ موجودةٌ حتَّى كان بعضُ السلفِ يقولُ: لو يعلمُ الملوكُ وأبناءُ الملوكِ ما نحنُ فيه لجالدُونا عليه بالسيوفِ».

وقال آخرُ: «لو علِموا ما نحن فيه لقتلُونا ودخلوا فيه».

وقال أبو سليمانَ: «أهلُ الليلِ في ليلهم ألذُّ من أهلِ اللهو في لهوهِم، ولولا الليلُ ما أحببتُ البقاءَ في الدُّنيا».

وقال: «إنه ليمرُّ على القلبِ أوقاتٌ يضحكُ فيها ضحِكًا».

وقال ابنُ المباركِ وغيرُهُ: «مساكينُ أهلِ الدنيا خرجُوا منها ولم يذوقوا أطيبَ ما فيها، قيل: ما أطيب ما فيها؟ قال: معرفةُ اللَّهِ».

وقال آخرُ: «أوجدني اللَّه قلبًا طيبًا حتى قلتُ: إن كان أهلُ الجنةِ في مثلِ هذا فإنَّهم في عيشٍ طيبٍ».

وقال مالكُ بنُ دينارٍ: «ما تنعمَ المتنعمونَ بمثلِ ذكرِ اللَّهِ».

وهذا بابٌ واسعٌ جدًّا، والمعاصي تقطعُ هذه الموادَّ، وتغلقُ أبوابَ هذه الجنةِ المعجلةِ، وتفتحُ أبوابَ الجحيمِ العاجلةِ من الهمِّ والغمِّ، والضيقِ والحزنِ

والتكدرِ وقسوةِ القلبِ وظلمتِهِ وبعدِهِ عن الربِّ ـ عزَّ وجلَّ ـ وعن مواهبِهِ السَّنيَّةِ الخاصةِ بأهلِ التقوى.

كما ذكر ابنُ أبي الدنيا بإسنادِهِ عن عليٍّ ﷺ قال: «جزاءُ المعصيةِ الوهنُ في العبادةِ، والضيقُ في المعيشةِ، والتعسُ في اللذةِ، قيل: وما التعسُ في اللذةِ؟ قال: لا ينالُ شهوةً حلالاً، إلا جاءَه ما يبغِّضُهُ إيَّاها».

وعن الحسنِ قال: «العملُ بالحسنةِ نورٌ في القلبِ وقوةٌ في البدنِ، والعملُ بالسيئةِ ظلمةٌ في القلبِ ووهنٌ في البدن».

وروى ابن المنادِي وغيرُهُ عن الحسنِ، قال: «إن للحسنةِ ثوابًا في الدنيا وثوابًا في الآخرةِ، وإنَّ للسيئةِ ثوابًا في الدنيا، وثوابًا في الآخرةِ، فثوابُ الحسنةِ في الدنيا البصرُ في الدِّين، والنورُ في القلبِ، والقوةُ في البدنِ مع صحبةٍ حسنةٍ جميلةٍ، وثوابُها في الآخرةِ رضوانُ اللَّه عزَّ وجلَّ وثوابُ السيئةِ في الدنيا العمَى في الدنيا، والظلمةُ في القلبِ، والوهنُ في البدنِ مع عقوباتٍ ونقماتٍ، وثوابُها في الآخرةِ سخطُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ والنارُ».

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسنادِهِ عن مالكِ بن دينارٍ، قال: «إن للَّه عقوباتٍ فتعاهدُوهنَّ من أنفسكم في القلوبِ والأبدانِ: ضنكٌ في المعيشةِ، ووهنٌ في العبادةِ، وسخطٌ في الرزقِ».

وعنه أنه قال: «ما ضُرِبَ عبدٌ بعقوبةٍ أعظمُ من قسوةِ القلبِ».

ومثلُ هذا كثيرٌ جدًّا، وحاصلُ الأمر ما قاله قتادةُ وغيرُهُ من السلفِ: «إن اللَّهَ لم يأمرْ العبادَ بما أمرَهُم به لحاجتِهِ إليه، ولا نهاهُم عمَّا نهاهُم عنه بخلاً به، بل أمرهُم بما فيه صلاحُهم، ونهاهُم عمَّا فيه فسادُهُم، وهذا هو الذي

عليه المحققون من الفقهاءِ من أصحابِنا وغيرِهُم، كالقاضي أبي يَعْلَى وغيرِه، وإن كان بينهم في جوازِ وقوعِ خلافِ ذلكَ عقلاً نزاعٌ مبنيٌّ على أن العقلَ هل له مدخلٌ في التحسينِ والتقبيح أم لا؟

وكثيرٌ منهم كأبي الحسنِ التميمي وأبي الخطابِ على أنَّ ذلك لا يجوزُ عقْلاً أيضًا وأما منْ قال بوقوعِ مثلِ ذلك شرعًا فقولُهُ شاذٌ مردودٌ.

والصوابُ: أنَّ ما أمرَ اللَّهُ به عبادَهُ فهو عينُ صلاحِهِم وفلاحِهِم في دنياهُم وآخرتهم، فإنَّ نفسَ الإيمانِ باللَّهِ ومعرفتِهِ وتوحيدِهِ وعبادتِهِ ومحبتِهِ وإجلالِه وخشيتِهِ وذكره وشكرِهِ؛ هو غذاءُ القلوبِ وقوتُها وصلاحُها وقوامُها، فلا صلاحَ للنفوسِ، ولا قرةَ للعيونِ ولا طمأنينةَ، ولا نعيمَ للأرواحِ ولا لذةَ لها في الدنيا على الحقيقةِ، إلا بذلكَ، فحاجتُها إلى ذلك أعظمُ من حاجةِ الأبدانِ إلى الطعامِ والشرابِ والنَّفَسِ، بكثيرٍ، فإنَّ حقيقةَ العبدِ وخاصيتِهِ هي قلبُه وروحُهُ ولا صلاحَ له إلا بتألهِهِ لإلهه الحقّ الذي لا إله إلا هو، ومتى فقدَ ذلكَ هلكَ وفسدَ، ولم يصلحْهُ بعد ذلك شيءٌ البتة، وكذلكَ ما حرَّمه اللَّهُ على عبادِهِ وهو عينُ فسادِهِم وضررِهم في دينِهِم ودنياهم، ولهذا حرَّم عليهم ما يصدُّهم عن ذكرِهِ وعبادتِهِ كما حرَّم الخمرَ والميسرَ، وبيَّن أنه يصدُّ عن ذكرِهِ وعن الصلاة مع مفاسدَ أُخرَ ذكرَها فيهما، وكذلك سائرُ ما حرَّمه اللَّه فإنَّ فيه مضرةً لعبادِهِ في دينهم ودنياهم وآخرتِهم، كما ذكر ذلك السلفُ، وإذا تبيَّن هذا وعُلِمَ أنَّ صلاحَ العبادِ ومنافعِهم ولذاتِهم في امتثالِ ما أمرهُم اللَّهُ به، واجتنابِ ما نهاهم اللَّهُ عنه تبيَّن أن من طلبَ حصولَ اللذة والراحةِ مِنْ فعلِ المحظورِ أو تَرْكِ المأمورِ، فهو في غايةِ الجهلِ والحمقِ، وتبيَّن أنَّ كلَّ من عصى اللَّهَ هو جاهلٌ، كما قاله السلفُ ودلَّ عليه القرآنُ كما

تقدم، ولهذا قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء:٦٦].

وقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢، ١٠٣].، فأخبر أنهم علموا أنَّ من اشتراه أي تعوَّضَ به في الدنيا فلا خَلاقَ له في الآخرةِ ثم قالَ: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢] فيدلُّ هذا على أنَّهم لم يعلموا سوء ما شرَوا به أنفسَهُم، وقد اختلفَ المفسرونَ في الجمعِ بين إثباتِ العلمِ ونفيه هاهنا، فقالت طائفةٌ منهم: الذين علموا لمن اشتراه ما له في الآخرةِ من خلاق، هم الشياطينُ الذين يُعلِّمونَ الناسَ السحرَ، والذين قيلَ فيهم: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ هم الناسُ الذين يتعلمون. قال ابنُ جريرٍ: وهذا القولُ خطأٌ مخالفٌ لإجماعِ أهلِ التأويلِ على أنَّ قولَهُ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ عائدٌ على اليهودِ الذين اتبعوا ما تتلو الشياطينُ على ملكِ سليمانَ ـ ثم أخبرَ ابنُ جريرٍ أنَّ الذين علموا أنه لا خلاقَ لمن اشتراه هم اليهودُ، والذين قيل فيهم: لو كانوا يعلمون، هم الذين يتعلمون من الملكين، وكثيرًا ما يكون فيهم الجهالُ بأمرِ اللَّه ووعدِهِ ووعيدِه، وهذا أيضًا ضعيفٌ فإنَّ

الضميرَ فيهما عائدٌ إلى واحد، وأيضًا فإنَّ الملكينِ يقولانِ لمن يعلمانه: إنما نحن فتنةٌ فلا تكفر، فقد أعلماه تحريمَه وسوءَ عاقبته.

وقالتْ طائفةٌ: إنما نفى عنهم العلمَ بعدما أثبته لانتفاءِ ثمرتِه وفائدته، وهو العملُ بموجبِه ومقتضاهُ، فلمَّا انتفَى عنهم العملُ بعلمهِم جعلَهم جُهَّالاً لا يعلمونَ، كما يقالُ: لا عِلْمَ إلا ما نفعَ وهذا حكاه ابنُ جريرٍ وغيرُه، وحكى الماورديُّ قولاً بمعناه، لكنه جعلَ العملَ مضمرًا، وتقديرُه لو كانوا يعملون بما يعلمون.

وقيلَ: إنهم علموا أنَّ منْ اشتراه فلا خلاقَ له، أي لا نصيبَ له في الآخرةِ من الثوابِ، لكنهم لم يعلموا أنه يستحق عليه العقاب مع حرمانه الثوابَ، وهذا حكاه الماورديُّ وغيرُه، وهو ضعيفٌ أيضًا، فإنَّ الضميرَ إن عادَ إلى اليهودِ، فاليهودُ لا يخفى عليهم تحريمُ السحرِ واستحقاقِ صاحبِه العقوبةَ، وإن عادَ إلى الذين يتعلمونَ من الملكينِ فالملكان يقولانِ لهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ والكفرُ لا يخفَى على أحدٍ أن صاحبَه يستحقُّ العقوبةَ، وإن عادَ إليهما، وهو الظاهرُ، فواضحٌ، وأيضًا فإذا علموا أنَّ من اشتراهُ ما لهُ في الآخرةِ من خلاقٍ فقدْ علمُوا أنه يستحقُّ العقوبةَ؛ لأنَّ الخلاقَ: النصيبُ من الخيرِ، فإذا علِمَ أنه ليس له نصيبٌ في الخيرِ بالكليةِ فقدْ علم أن له نصيبًا من الشرِّ، لأنَّ أهلَ التكليفِ في الآخرةِ لا يخلو واحدٌ منهم عن أن يحصلَ له خيرٌ أو شرٌّ لا يمكنُ انتكاله عنهما جميعًا البتة.

وقالتْ طائفةٌ: علموا أنَّ من اشتراه فلا خلاقَ له في الآخرةِ، لكنهم ظنُّوا أنهم ينتفعونَ به في الدنيا، ولهذا اختاروه وتعوَّضُوا به عن بوارِ الآخرةِ وشرَوا به أنفسَهُم، وجهلُوا أنه في الدنيا يضرُّهم أيضًا ولا ينفعهُم، فبئسَ ما

شروا به أنفسَهُم لو كانوا يعلمــون ذلك، وأنَّهم إنما باعُوا أنفسَهم وحظَّهم من الآخرةِ بما يضــرُّهم في الدنيا أيضًــا ولا ينفعهم، وهــذا القولُ حكاه الماورديُّ وغيرُهُ، وهو الصحيحُ، فإنَّ اللَّه تعالى قال: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي هو في نفس الأمــرِ يضرُّهم ولا ينفــعُهم بحــالٍ في الدنيا وفــي الآخرةِ، ولكنَّهم لم يعلمــوا ذلك لأنهم لم يُقــدِمُــوا عليه إلا لظنِّهــم أنه ينفعُــهم في الدنيا.

ثمَّ قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ أي قد تيقَّنوا أنَّ صاحبَ الســحرِ لا حظَّ له في الآخــرةِ، وإنما يختــارُهُ لما يرجو من نفــعِهِ في الدنيا، وقدْ يسمُّون ذلك العقلَ المعــيشي أي العقلَ الذي يعيشُ به الإنسانُ في الدنيا عيشةً طيبةً، قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٢]، أي: إنَّ هذا الذي يعوضــوا به عن ثوابِ الآخرةِ في الدنيــا أمرٌ مذمومٌ مُــضِرٌّ لا ينفعُ لو كانوا يعلمــونَ ذلك ثمَّ قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٠٣]، يعني: أنهم لو اخــتارُوا الإيمانَ والتقْــوى بدلَ السِّحرِ لكانَ اللَّهُ يثــيبُهم على ذلكَ ما هو خــيرٌ لهم مما طلبُوه في الدنيــا لو كانوا يعلمون، فيحــصُلُ لهم في الدنيا من ثوابِ الإيمانِ والتــقْــوى من الخيــر الذي هُو جلبُ المنــفعــةِ ودفعُ المضــرَّةِ مــا هو أعظمُ مما يُحَصِّلُونَهُ بالسِّحرِ من خيرِ الدنيا مع ما يُدَّخَرُ لهم من الثوابِ في الآخرةِ.

والمقصودُ هنا: أن كلَّ من آثرَ معــصيةَ اللَّهِ على طاعتهِ ظانًّا أنه ينتفعُ بإيثارِ المعصــيةِ في الدنيا، فهُــوَ من جنسٍ من آثرَ السحرَ ـ الذي ظنَّ أنه ينفــعُه في الدنيا ـ على التــقوى والإيمانِ، ولو اتَّقى وآمنَ لكانَ خيرًا له وأرجــى لحصولِ مقاصدِهِ ومطالبِهِ ودفعِ مضارِّه ومكروهاتِــهِ، ويشهدُ كذلك أيضًا ما في «مسندِ

البزارِ»(١) عن حذيفةَ قال: «قامَ النبيُّ ﷺ فدعا الناسَ فقال: هلمُّوا إليَّ، فأقبلوا إليه فجلسُوا، فقال: «هذا رسولُ ربِّ العالمين جبريلُ ـ عليه السلامُ ـ نفثَ في رُوعي: أنَّه لا تموتُ نفسٌ حتَّى تستكملَ رزقَها وإن أبْطأ عليها، فاتقوا اللَّهَ وأجملُوا في الطلبِ ولا يحملنَّكُم استبطاءُ الرِّزْقِ أنْ تأخذُوه بمعصيةِ اللَّهِ، فإنَّ اللَّهَ لا يُنالُ ما عندَه إلا بطاعَتِه».

إذا تبيَّن هذا؛ فقدْ عُلِمَ أن العلمَ مستلزِمٌ للخشيةِ منْ هذه الوجوهِ كُلِّها، لكن على الوجهِ الأولِ يستلزمُ الخشيةَ العلمُ باللَّهِ وجلالِه وعظمتِه، وهو الذي فسرَ الآيةَ به جماعةٌ من السلفِ، كما تقدَّم، وعلى الوجوهِ الأُخرِ تكون الخشيةُ ملازمةٌ للعلمِ بأوامرِ اللَّهِ ونواهيهِ وأحكامِه وشرائعِه وأسرارِ دينه وشرعِه وخلقِه وقَدَرِه، ولا تَنافي بينَ هذا العلمِ والعلمِ باللَّه؛ فإنَّهما قد يجتمعانِ وقد ينفردُ أحدُهما عن الآخرِ، وأكملُ الأحوال اجتماعُهُما جميعًا وهي حالةُ الأنبياءِ ـ عليهم السلامُ ـ وخواصُّ الصديقينَ ومتى اجتمعا كانتِ الخشيةُ حاصلةٌ من تلكَ الوجوهِ كلِّها، وإن انفردَ أحدُهما حصلَ من الخشيةِ بحسبِ ما حصَّل من ذلك العلمِ، والعلماءُ الكُمَّلُ أولو العلمِ في الحقيقةِ الذين جمعُوا الأمرين.

وقد ذكر الحافظُ أبو أحمدَ بنُ عديٍّ: ثنا أحمدُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ صالحِ بنِ شيخِ بنِ عميرةَ: ثنا إسحاقُ بن بهلول قال: قال لي إسحاقُ بنُ الطباعِ: قال لي سفيانُ بن عيينةَ: «عالمٌ باللَّه عالِمٌ بالعلمِ، عالمٌ باللَّه ليس بعالِمٍ بالعلمِ، عالمٌ بالعلمِ ليس بعالمٍ باللَّه»، قال: قلتُ لإسحاقَ: فهمنيه واشرحه لي،

(١) «البحر الزخَّار» (٢٩١٤)

قال: عالمٌ باللَّهِ عالمٌ بالعلمِ، حمادُ بنُ سلمةَ، عالمٌ باللَّه ليس بعالمٍ بالعلمِ مثل أبي الحجاج العابدِ، عالمٌ بالعلمِ ليسَ بعالمٍ باللَّه فلانٌ وفلانٌ وذكر بعضَ الفقهاءِ.

وروى الثوريُّ عن أبي حيَّان التميمي سعيدِ بنِ حيَّانَ عن رجلٍ قال: كانَ يُقال: العلماءُ ثلاثةٌ: «فعالمٌ باللَّه ليس عالمًا بأمرِ اللَّهِ، وعالمٌ بأمرِ اللَّهِ ليس عالمًا باللَّهِ، وعالمٌ باللَّه عالمٌ بأمرِ اللَّهِ».

فالعالمُ باللَّهِ وبأوامر اللَّه: الذي يخشى اللَّهَ ويعلمُ الحدودَ والفرائضَ.

والعالمُ باللَّه ليس بعالمٍ بأمرِ اللَّه: الذي يخشى اللَّهَ ولا يعلمُ الحدودَ والفرائضَ.

والعالمُ بأمرِ اللَّهِ ليس بعالمٍ باللَّهَ: الذي يعلمُ الحدودَ والفرائضَ، ولا يخشى اللَّهَ عزَّ وجلَّ.

وأما بيانُ أنَّ انتفاءَ الخشيةِ ينتفي مع العلمِ، فإنَّ العلمَ له موجبٌ ومقتضى، وهو اتباعُهُ والاهتداءُ به وصدُّه الجهلَ، فإذا انتفتْ فائدتُهُ ومقتضاهُ، صارَ حالُهُ كحالِهِ عند عدمِهِ وهو الجهلُ، وقد تقدَّم أن الذنوبَ إنَّما تقعُ عن جهالةٍ، وبيَّنا دلالةَ القرآنِ على ذلكَ وتفسيرَ السلفِ له بذلكَ، فيلزمُ حينئذٍ أن ينتفي العلمُ ويثبتُ الجهلُ عند انتفاءِ فائدةِ العلمِ ومقتضاهُ وهو اتباعُهُ، ومن هذا البابِ قولُهُ تعالى: ﴿**وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا**﴾ [الفرقان:٦٣] وقولُ النبيِّ ﷺ: «**إذا كان أحدُكُم صائمًا فلا يرفثْ ولا يجهلْ فإن امرؤٌ شاتَمَه أو قاتَلَه فليقلْ: إني امرؤٌ صائمٌ**»(١) وهذا كما يوصفُ من لا ينتفعُ بسمْعِهِ وبصرِهِ وعقلِهِ

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ٣٤)، (٩/ ١٧٥)، ومسلم (٣/ ١٥٧ ـ ١٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في معرفةِ الحقِّ والانقيـادِ له بأنه أصمُ أبكمُ أعْمَى قالَ تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]، ويُقال أيضًـا: إنه لا يسمعُ ولا يبصـرُ ولا يعقلُ كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩] فسَلْبُ العلمِ والعقلِ والسمعِ والبصرِ وإثباتُ الجهلِ والبكمِ والصمِ والعَمَى في حقِّ مَنْ فقدَ حقائقَ هذه الصفاتِ وفوائدَها من الكفَّارِ أو المـنافقينَ أو مَنْ يشركُـهم في بعضِ ذلك كلِّه؛ من باب واحـدٍ وهو سلْبُ اسمِ الشيءِ أو مسمَّاهُ لانتفاءِ مـقصودِهِ وفائدتِهِ وإنْ كان موجودًا، وهو بابٌ واسعٌ وأمثلته كثيرةٌ في الكتاب والسنة[١] .

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَى﴾

قال ابن الجوزي في «المقتـبس»: سمعت الوزير[٢] يقول: في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَى﴾ [فاطر:٤٦] قال: المعنى: أن يكون قـيامكم خـالصًـا للَّه عـزَّ وجلّ، لا لغلبـة خصـومكم، فـحيـنئذ تفـوزون بالهدى[٣].

* * *

(١) رسالة «إنما يخشى اللَّه من عباده العلماء».
(٢) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.
(٣) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩).

سُورَةُ يس

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾

[قال البخاري]: «باب احتساب الآثار»: حدثنا محمد بن عبد الله بن حوشب: ثنا عبد الوهاب، قال: حدثني حميد عن أنس، قال: قال النبي ﷺ: **«يا بني سلمة، ألا تحتسبون آثاركم؟»**.

وقال ابن أبي مريم: أنا يحيى بن أيوب: حدثني حميد: حدثني أنس، أن بني سلمة أرادوا أن يتحولوا عن منازلهم فينزلوا قريبًا من النبي ﷺ قال: فكَرِهَ النبي ﷺ أن يُعْرُوا مَنَازِلَهم، فقال: **«ألا تحتسبون آثاركم؟»**(1).

قال مجاهد: خطاهم: آثار المشي في الأرض بأرجلهم.

ساقه أولاً من حديث عبد الوهاب الثقفي، عن حميد مختصرًا، ثم ذكر من رواية يحيى بن أيوب المصري ـ وهو ثقة، عن حميد مختصرًا، ثم ذكر من رواية يحيى بن أيوب المصري وهو ثقة، لكنَّه كثير الوهم ـ مطوّلاً، وزاد فيه تصريح حميد بالسماع له من أنسٍ فإن حميداً قد قيل: إنه لم يسمع من أنس إلا قليلاً وأكثر رواياته عنه مرسلة، وقد سبق ذكر ذلك، وما قاله الإسماعيلي في تسامح المصريين والشاميين في لفظة «حدثنا» وأنهم لا يضبطون ذلك.

---

(1) أخرجه: البخاري (1/167)، (3/29).

وقد خرَّجه في «كتاب الحج» من طريق الفزاري، عن حميد، عن أنس، قال: أراد بَنُو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد، فكره رسول اللَّه ﷺ أن تعرى المدينة، فقال: «**يا بني سلمة، ألا تحتسبون آثاركم؟**».

وبنو سلمة: قوم من الأنصار، كانت دورهم بعيدة من المسجد، فأرادوا أن يتحولوا إلى قرب المسجد، فأمرهم النبي ﷺ بملازمة دورهم، وأخبرهم أنَّ خطاهم يُكتب لهم أجرها في المشي إلى المسجد.

وخرَّج مسلم في «صحيحه»(١) من حديث أبي الزبير، عن جابر، قال: كانت دارنا نائيةً من المسجد، فأردنا أن نبيع بيوتَنَا فنقترب من المسجد، فنهانا رسول اللَّه ﷺ، فقال: «**إن لكم بكل خطوةٍ درجةً**».

ومن حديث أبي نضرة، عن جابر، قال: أراد بنو سلمة أن يتحولوا إلى قرب المسجد، والبقاع خالية. قال: فبلغ ذلك رسول اللَّه ﷺ، فقال: «**يا بني سلمة، دياركم تكتب آثاركم**». فقالوا: ما يسرنا أنا كنَّا تحولنا.

وقوله: «**ديارَكم**» بفتح الراء على الإغراء، أي الزموا دياركم.

وخرَّجه الترمذيُّ(٢) من حديثِ أبي سُفيانَ السعدي، عن أبي نضرةَ عن أبي سعيدٍ، قالَ: كانتْ بنو سَلمةَ في ناحيةِ المدينةِ، فأرادوا النُّقلةَ إلى قُرْبِ المَسْجِدِ، فنزلتْ هذه الآيةُ: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ**﴾ [يس:١٢] فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**إنَّ آثارَكُمْ تُكْتَبُ**»، فلَمْ ينتقلُوا.

وأبو سفيانُ، فيه ضعفٌ.

(١) «صحيح مسلم» (٢/ ١٣١).
(٢) «الجامع» (٣٢٢٦).

والصحيحُ: رواية مسلمٍ، عن أبي نضْرةَ عن جابرٍ، وكذا قالَهُ الدارقطنيُّ وغيرُهُ.

وخرَّج ابنُ ماجه[١] من روايةِ سِماكٍ، عن عِكْرمةَ، عن ابنِ عباسٍ، قال: كانت الأنصارُ بَعيدةً منازلُهم مِنَ المسجدِ، فأرادوا أنْ يَقْربوا، فنزلتْ: ﴿نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ [يس:١٢] قال: فَثَبَتُوا.

وقد ذكرَ البخاريُّ عن مجاهد، أنه فسَّر الآثار ـ يعني: في هذه الآيةِ بالخُطا، وزاد ـ أيضًا ـ بقوله: آثارُ المَشْي في الأرضِ بأرْجُلهم.

وفي حديثِ أنسٍ: «فكَرِهَ رسولُ اللَّهِ ﷺ أنْ يُعرُوا المدينةَ أو منازلَهم».

يَعني: يُخلوها فتصيرُ عراةً منَ الأرضِ.

والعَرَاءُ: الفضاءُ الخالي مِنَ الأرضِ، ومنه: قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ﴾ [الصافات: ١٤٥].

وروى يحيى بن سعيدٍ الأنصاريُّ هذا الحديثَ، عن حميدٍ، عن أنسٍ، وقال: «فكَرِهَ أن يُعروا المسجدَ».

قال الإمامُ أحمدُ: وَهِمَ فيه، إنما هو: «كرِهَ أن يُعرُوا المدينةَ» [٢].

* * *

(١) «السنن» (٨٧٥).

(٢) «فتح الباري» (٤/ ٤٢ ـ ٤٤).

سُورَةُ الصَّافَّاتِ

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾

واعلمْ أنَّ الصفوفَ في الصلاةِ ممَّا خصَّ اللَّهُ به هذه الأمةَ وشرَّفها به؛ فإنهم أشْبَهوا بذلك صُفوفَ الملائكةِ في السَّماء، كما أخبر اللَّهُ عنهم أنَّه قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات:١٦٥]، وأقْسَمَ بالصافّاتِ صفًّا، وهُم الملائكة.

وفي «صحيح مسلمٍ»[1] عن حذيفةَ عن النبيِّ ﷺ، قال: «**فُضِّلنا على الناسِ بثلاثٍ: جُعلت صفُوفُنا كصفوفِ الملائكة**» الحديث.

وفيه ـ أيضًا[2] ـ عن جابرِ بنِ سَمُرةَ، قال: خرجَ علينا رسولُ اللَّه ﷺ، فقال: «**ألا تصفُّون كما تصفُّ الملائكةُ عندَ ربِّها؟**» فقلنا: يا رسولَ اللَّه، وكيف تصفُّ الملائكةُ عندَ ربِّها؟ قال: «**يُتمُّون الصفوفَ الأولَى، ويتراصُّون في الصفِّ**».

وروى ابنُ أبي حاتمٍ من روايةِ أبي نضرةَ، قال: كان ابنُ عمرَ إذا أُقيمتِ الصلاةُ استقبلَ الناسُ بوَجْهِه، ثم قال: أقيموا صفُوفكم، استوُوا قيامًا، يريدُ اللَّهُ بكُمْ هدْيَ الملائكةِ. ثم يقول: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ [الصافات:١٦٥]، تأخَّرْ فُلانٌ، تقدَّمْ فلانٌ، ثم يتقدَّمُ فيُكَبِّرُ.

---

(١) (٢/ ٦٣).

(٢) (٢/ ٢٩).

وروى ابنُ جُريجٍ، عن الوليدِ بنِ عبدِ اللَّهِ بن أبي مغيثٍ، قال: كانوا لا يَصُفُّون في الصلاةِ، حتَّى نزلتْ: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾[١] [الصافات: ١٦٥].

وقد رُوي أن مِنْ صِفَةِ هذه الأُمَّةِ في الكتبِ السالفةِ: صفَّهم في الصلاةِ، كصفِّهم في القتالِ[٢].

* * *

(١) أخرجه: عبد الرزاق في «المصنف» (٢/ ٤٣).

(٢) «فتح الباري» (٤/ ٢٥٠ ـ ٢٥١).

سُورَةُ ص

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلأِ الأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾

خرَّجَ الإمامُ أحمدُ[1] رحمه اللَّه تعالى منْ حديثِ معاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنه قال: «احتبسَ عنَّا رسولُ اللَّه ﷺ ذاتَ غداةٍ في صلاةِ الصبحِ، حتى كدنا نتراءى قرن الشمسِ، فخرج رسولُ اللَّهِ ﷺ سريعًا، فثوبَ بالصلاةِ وصلَّى وتجوَّزَ في صلاته، فلما سلَّم قال: «كما أنتُم على مَصَافِّكم» ثم أقبلَ إلينا فقال: «إني سأحدِّثُكُم ما حبسني عنكم الغداة، إني قمتُ منَ الليلِ فصليتُ ما قُدِّر لي، فنعستُ في صلاتي حتى استثقلتُ فإذا أنا بربِّي عزَّ وجلَّ في أحسنِ صورةٍ فقال: يا محمدٌ أتدري فيم يختصمُ الملأُ الأعلى؟. قلتُ: لا أدري ربِّ، قال: يا محمدُ فيم يختصم الملأُ الأعلى؟. قلتُ: لا أدري ربِّ، قال: يا محمدُ فيم يختصمُ الملأُ الأعلى؟. قلتُ: لا أدري ربِّ فرأيتُهُ وضعَ كفَّه بينَ كتفي حتى وجدتُ بَرْدَ أناملِهِ في صدري وتجلَّى لي كلُّ شيءٍ وعرفتُ، فقال: يا محمد فيم يختصمُ الملأُ الأعلى؟. قلتُ: في الكفَّاراتِ والدرجاتِ، قال: وما الكفَّاراتِ؟. قلتُ: نقْلُ الأقدامِ إلى الجمعاتِ، والجلوسُ في المساجدِ بعدَ الصلواتِ، وإسباغُ الوضوءِ عند الكريهاتِ، قال: وما الدرجاتُ؟. قلتُ: إطعامُ الطعامِ، ولينُ الكلامِ، والصلاةُ والناسُ نيامٌ، قال: سَلْ؟. قلتُ: اللَّهُمَّ إنِّي أسألكَ إطعامُ الطعامِ، ولينُ الكلامِ، والصلاةُ والناسُ نيامٌ، قال: سَلْ؟ قلت: قلتُ: اللَّهم إنِّي

---

(١) «المسند» (٥/٢٤٣).

أسألكَ فِعْلَ الخيراتِ، وتركَ المنكراتِ، وحبَّ المساكينِ، وأنْ تَغْفرَ لي وترْحمني، وإذا أردتَ فتنةً في قومٍ فتوفَّني غيرَ مفتونٍ، وأسألك حُبَّكَ وحبَّ مَنْ يحبُّك، وحبَّ عملٍ يُقَرِّبُني إلى حبِّكَ» وقال رسولُ اللَّه ﷺ: «إنها حقٌّ فادْرسوها وتعلَّمُوها» وخرَّجه الترمذيُّ(١)، وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، قال: وسألتُ محمدَ بنِ إسماعيلِ البخاريَّ عَنْ هذا؟ فقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ.

قلتُ: وفي إسنادِه اختلافٌ، وله طرقٌ متعددةٌ، وفي بعضها زيادةٌ وفي بعضها نُقصانٌ، وقد ذكرتُ عامةَ أسانيدِه ونعضَ ألفاظه المختلفةِ في كتابي «شرح الترمذي»، وفي بعض ألفاظه عند الإمامِ أحمدَ، والترمذي أيضًا: «المشيُ على الأقدامِ إلى الجماعاتِ» بدل: «الجُمُعات» وفيه أيضًا عندهما بعد ذكْر الكفَّاراتِ زيادةُ: «ومَنْ فعلَ ذلك عاشَ بخيرٍ، وماتَ بخيرٍ، وكان مِنْ خطيئتِه كيوم ولدتْه أُمُّه» ، وفيه أيضًا عندهما: «والدرجاتُ إفشاءُ السلامِ» بدل: «لين الكلامِ» وفي بعض رواياتِه: «فعلمتُ ما في السماءِ والأرضِ، ثم تلا: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ [الأنعام:٧٥]» وفي رواية أخرى: «فتجلَّى لي ما بيْنَ السماءِ والأرضِ»، وفي رواية: «ما بيْنَ المشرقِ»، وفي بعضها زيادة في الدعاء وهي: «وتتوب عليَّ» ، وفي بعضِها: «إسباغُ الوضوءِ في السبراتِ» وفي بعضها: «وقال: يا محمد إذا صليت، فقُلْ: اللَّهُمَّ إني أسألك فعْلَ الخيراتِ» فذكره.

والمقصودُ هنا شرحُ الحديثِ وما يُستنبطُ منه مِنَ المعارفِ والأحْكامِ وغيرِ ذلك. ففي الحديثِ دلالةٌ على أنَّ النبيَّ ﷺ لم يكن من عادتِه تأخيرُ صلاةِ

(١) «الجامع» (٣٢٣٥).

الصبحِ إلى قـريبِ طلوعِ الشمسِ، وإنَّمـا كانتْ عـادتُهُ التغليسَ بهـا، وكان أحيانًا يُسْفِرُ بها عندَ انتشارِ الضوءِ على وجهِ الأرض، وأما تأخيرُها إلى قريبِ طلوعِ الشمسِ فلم يكنْ مِنْ عـادتِهِ، ولهذا اعتـذرَ لهم عَنْهُ في هذا الحديث. وقد قيـل: إن تأخيرَها إلى هذا الإسْفـارِ الفاحشِ لا يجوزُ لغيـرِ عذرٍ، وأنَّه وقتُ ضرورةٍ، كتأخير العصر إلى بعد اصفرار الشمسِ وهو قولُ القاضي من أصحابِنا في بعضِ كتبه، وقد أوَمأَ إليه الإمامُ أحمدُ وقال: هذهِ صلاةُ مُفرط، إنَّما الإسْفارُ أن ينتشرَ الضوءُ على الأرضِ.

وفي الحديثِ دلالةٌ على أنَّ من أخَّرَ الصلاةَ إلى آخـر الوقتِ لعذرٍ أو غيرِهِ وخافَ خروجَ الوقتِ في الصلاةِ إنْ طَوَّلها أنْ يخفـفها حتَّى يُدْركها كُلَّها في الوقتِ.

وأمَّا قولُ أبي بكرٍ الصدِّيق رضي الله عنه لَمَّا طوَّل في صلاةِ الفجرِ وقرأ بالبقرةِ فقيل له: كادت الشمسُ أنْ تطلعَ، فقـال: لو طلعتْ لم تجدْنَا غافلين، فإن أبا بكر رضي الله عنه لم يتعمَّـدِ التأخيرَ إلى طلوعِ الشمسِ ولا أنْ يمدَّها ويُطـيلها حتَّى تطلعَ الشمسُ؛ لأنه دخلَ فيـها بغلسٍ، وأطالَ القراءةَ، وربما كان قد اسـتغرقَ في تلاوتِهِ، فلو طلعتِ الشمسُ حـينئذٍ لم يضرَّه، لأنه لم يكنْ متـعمدًا لذلك، وهذا يدلُّ على أنَّه كان يرى صحةَ الصـلاةِ لمن طلعتْ عليه الشمسُ وهو في صلاتِهِ كما أمر النبيُّ ﷺ منْ طلعت عليه الشمسُ وقد صلَّى ركعة من الفجرِ أنْ يُضيفَ إليها أُخرى.

وفي حـديثِ معـاذٍ دليلٌ على أنَّ من رأى رُؤيا تَـسُرُّه فـإنَّه يقَـصُهُّـا على أصحابِهِ وإخوانه المُحبينَ له، ولا سِيَّما إنْ تضمنتْ رُؤياه بشارةً لهم وتعليمًا لما

ينفعهم، وقد كان النبيُّ ﷺ إذا صلَّى الفجرَ يقـولُ لأصحابِه: «**من رأى منكم الليلة رؤيا**»[(١)] وفيه أيضًا: أن من استثقل نومه في تهجده بالليلِ حتَّى رأى رؤيا تَسرُّه، فـإنَّ في ذلك بُشْرى لـه. وفي «مراسيـلِ الحسنِ»: «**إذا نامَ العـبدُ وهو ساجدٌ باهى اللَّهُ الملائكةَ يقول: يا ملائكتي انظرُوا إلى عـبدِي، جسَدُهُ في طاعتِي وروحُهُ عندي**»[(٢)]وفيـه دلالةٌ على شرفِ النبيِّ ﷺ وتفضيلِه بتعليـمِه ما في السماواتِ والأرضِ، وتجلَّى ذلك له مما تختصمُ فـيه الملائكةُ في السماء وغيـر ذلك كما أُري إبراهيمُ ملكوتَ السماواتِ، وقد وردَ في غيرِ حـديثٍ مرفوعًا، وموقوفًا أنَّه ﷺ أُعْطِي علِمْ كلِّ شيءٍ خلا مفاتيح الغيبِ الخمسِ التي اختصَّ اللَّهُ عزَّ وجلَّ بعلمِهـا، وهي المذكورةُ في قـولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾[لقمان:٣٤].

وأمَّا وصفُ النبيِّ ﷺ لربِّه عزَّ وجلَّ بما وصفَهُ به فكُلُّ ما وصف النبيُّ ﷺ ربَّه عزَّ وجلَّ به فهو حقٌّ وصدقٌ يجبُ الإيمـانُ والتصديقُ به كما وصفَ اللَّه عزَّ وجلَّ به نفْسَهُ، مع نَفْي التمثيل عنه، ومَنْ أشكِلَ عليه فهْمُ شيءٍ مِنْ ذلك واشتبه عليـه فليقل كما مدحَ اللَّهُ تعالى به الراسـخينَ في العلمِ وأخبرَ عنهم أنهم عند المتشابه ﴿**آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا**﴾ [آل عمران:٧]، وكما قال النبي ﷺ في القرآن: «**ومـا جهلتُمْ منه فَـكِلُوهُ إلى عالمِـه**» خرَّجه الإمامُ أحمدُ[(٣)] والنسائيُّ وغيرُهُما، ولا يتكلَّفُ ما لا عِلْمَ له به، فإنه يخشى عليه مِنْ ذلك الهلكة.

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ٢١٤)، (٢/ ٦٥ ـ ١٢٥)، (٣/ ٧٧)، (٦/ ٨٦)، (٨/ ٣٠)، (٩/ ٥٥)، ومسلم (٧/ ٥٨) من حديث سمرة بن جندب ﷺ.

(٢) راجع: «السلسلة الضعيفة» (٩٥٣).

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨١ ـ ١٨٥ ـ ١٩٥) من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص ﷺ.

سمعَ ابنُ عبـاسٍ يومًا منْ يروي عن النبيِّ ﷺ شيئًا مِنْ هذه الأحاديث، فانتفضَ رجلٌ استنكارًا لذلك فقال ابنُ عباسٍ: ما فـرقُ هؤلاءِ يجدونَ رِقَّةً عندَ مُحْكمه ويهلكونَ عندَ مُتَـشابِهه» خرَّجه عبدُ الرزاقُ في كتـابه عن معمرٍ عن ابنِ طاوسٍ عن أبيه عن ابنِ عـباسٍ رضي الله عنهما، كلما سمعَ المؤمنونَ شـيئًا منْ هذه الكلامِ قالوا: هذا ما أخبرنا اللَّهُ ورسولُه وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليمًا.

وفيه دلالةٌ على أنَّ الملأَ الأعْلى وهُم الملائكةُ أو المُقرَّبونَ منـهم يختصمونَ فيـما بينهم ويتراجـعونَ القولَ في الأعـمالِ التي تُقـربُ بني آدمَ إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ وتُكَفَّرُ بها عنهم خطـاياهُم وقد أخبرَ اللَّهُ عنهم بأنهم يستـغفرون للذين آمنوا ويدْعون لهُمْ. وفي الحـديثِ الصحيحِ: «**إنَّ اللَّهَ إذا أحبَّ عـبْدًا نادى إنِّي أحبُّ فلانًا فأحبَّـه، فيحبُّه جبريلُ ثم ينادِي فـي السماءِ أنَّ اللَّهَ يحبُّ فلانًا فأحبِّوه فـيحبَّه أهلُ السماءِ، ثم يوضعُ له القَبولُ في الأرضِ**».

وقـال أبو هريرة رضي الله عنه: إذا مـاتَ ابنُ آدمَ قال الناسُ: مـا خلفَ؟ وقـالتْ الملائكةُ: مـا قدَّمَ؟ فـالملائكةُ يسألون عن أعـمالِ بني آدمَ ولهُمْ اعـتناءٌ بذلك واهتـمامٌ به، وبقي الكلامُ على المقـصودِ من الحـديثِ، وهو ذِكْرُ الكـفَّاراتِ والدرجاتِ والدعواتِ، ونعقدُ لكلٍّ واحدةٍ منها فصْلاً مُفْردًا.

الفصل الأول: في ذكر الكـفَّـاراتِ:

وهو إسبـاغُ الوضـوءِ في الكريهـاتِ، ونقْلُ الأقـدامِ إلى الجُمـعـاتِ أو الجَماعاتِ، والجلوسُ في المساجدِ بعدَ الصلواتِ، وسُميِّتْ هذه كفَّاراتٌ لأنها تُكَفِّرُ الخطايا والسيئاتِ، ولذلك جاء في بعضِ الرواياتِ: «**مَنْ فعل ذلك عاشَ**

بخيرٍ، ومات بخيرٍ، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه»[١] وهذه الخصالُ المذكورةُ الأغلبُ عليها تكفيرُ السيئات، ويحصلُ بها أيضًا رفعُ الدرجات كما في «صحيح مسلمٍ»[٢] عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «ألا أدلُّكم على ما يمحُو اللَّهُ به الخطايا ويرفعُ به الدرجاتِ؟» قالُوا: بلى يا رسول اللَّه، قال: «إسباغُ الوضوءِ على المكارهِ، وكثرة الخطا إلى المساجدِ، وانتظارُ الصلاةِ بعدَ الصلاةِ، فذلكُم الرباطُ فذلكُم الرباط».

وقد رُوي هذا المعنى عن النبيِّ ﷺ من وجوهٍ متعددة، فهذه ثلاثةُ أسبابُ يُكفِّر اللَّهُ بها الذنوبَ:

أحدها: الوضوء، وقد دلَّ القرآنُ على تكفيره الذنوب في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة:٦]، فقولُه تعالى: ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ يشمل طهارةَ ظاهرِ البدنِ بالماءِ، وطهارةَ الباطنِ من الذنوبِ والخطايا، وإتمامُ النعمةِ إنما يحصلُ بمغفرةِ الذنوبِ وتكفيرها كما قال تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ﴾ [الفتح:٢] وقد استنبط هذا المعنى محمدُ بنُ كعبٍ القرظيُّ، ويشهدُ له الحديثُ الذي خرَّجه الترمذيُّ وغيرُه[٣]، عن معاذٍ أن النبيَّ ﷺ سمعَ رجلاً يدْعو يقول: اللَّهُمَّ إني أسألك تمامَ النعمة، فقال له: «أتدري ما تمامُ النعمة؟» قال: دعوةٌ دعوتُ بها أرْجو بها الخيرَ، فقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ تمامَ النعمة: النجاةُ منَ النارِ

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ٦٦).

(٢) (١/ ١٥١).

(٣) «الجامع» (٣٥٢٧).

ودخولُ الجنة» ، فلا تتم نعمةُ اللَّهِ على عبدِهِ إلا بتكفيرِ سيئاتِهِ.

وقد تكاثرتِ النصوصُ عن النبيِّ ﷺ بتكفيرِ الخطايا بالوضوءِ كما في «صحيحِ مسلمٍ»(١) عن عُثمانَ رضي الله عنه: أنه توضَّأ، ثم قال: رأيتُ رسولَ اللَّه ﷺ توضَّأ مِثْلَ وضوئي هذا، ثم قال: «من توضَّأ هكذا غُفر له ما تقدَّمَ من ذنبه، وكانتْ صلاتُهُ ومَشْيُهُ إلى المسجدِ نافلةً»، وفيه أيضًا(٢) عن النبيِّ ﷺ قال: «منْ توضَّأ فأحْسنَ الوضوءَ خرجتْ خطاياهُ منْ جَسَدِه حتَّى تخرجَ منْ تحتِ أظْفارِه» وفيه أيضًا(٣) عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا توضَّأ العبدُ المسلمُ أو المؤمنُ، فغَسَلَ وجهَهُ خرَجَ من وجههِ كلُّ خطيئةٍ نظر إليها بعينيه مع الماءِ أو مع آخرِ قَطْرِ الماءِ، فإذا غَسَلَ يديه خرجَ منْ يديه كلُّ خطيئةٍ بطشتْها يداهُ مع الماءِ أو مع آخر قطرِ الماءِ، فإذا غَسَلَ رجْليه خرجتْ كلُّ خطيئةٍ مشتْها رِجْلاه مع الماءِ أو مع آخرِ قطْرِ الماءِ، حتى يخرجَ نقيًّا من الذنوبِ» وفيه أيضًا(٤) عن عمرو بنَ عَبْسةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «ما منكُم من رجلٍ يقربُ وضوءَه فيمضمضُ ويستنشقُ فينتثرُ إلا خرجتْ خطايا وجههِ وفيه وخياشيمِه، ثُمَّ إذا غسلَ وجههُ كما أمره اللَّهُ إلا خرجتْ خطايا وجهه من أطرافِ لحيته مع الماءِ، ثم يغسلُ يديه إلى المرفقينِ إلا خرجتْ خطايا يديه من أناملِه مع الماءِ، ثم يمسحُ رأسَهُ إلا خرجتْ خطايا رأسِهِ من أطرافِ شعرِهِ مع الماءِ ثم يغسلُ قدميه إلى الكعبينِ إلا خرجتْ خطايا رجليه من أناملِه مع الماءِ، فإنْ هو قامَ فصلَّى فحمدَ اللَّهَ وأثنى عليه ومجَّدهُ بالذي هو له أهلٌ، وفرَّغَ قلبَهُ للَّهِ إلا انصرفَ من خطيئته كهيئتِه يومَ ولدتْهُ أمُّهُ».

(١) (١/ ١٤٢).

(٢) «صحيح مسلم» (١/ ١٤٩) من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(٣) «صحيح مسلم» (١/ ١٤٨ ـ ١٤٩).

(٤) «صحيح مسلم» (٢/ ٢٠٨) في حديث طويل.

وفي «الموطأ»، و«مسندِ الإمـامِ أحمدَ» و«سننِ النسائيِّ» وابن مـاجه[١] عن الصنابحيِّ عن النبيِّ ﷺ: «إذا توضأ العبدُ المؤمنُ فمضمضَ خرجت الخطايا من فيه، فإذا استنشقَ خرجتِ الخطايا من أنفه، فإذا غسلَ وجهَه خرجتِ الخطايا من وجهه حتَّى تخرجَ من تحتِ أشفارِ عينيه، فإذا غسلَ يديه خرجتِ الخطايا من يديه حتَّى تخرجَ من تحتِ أظفارِ يديه، فإذا مسحَ برأسِهِ خرجت الخطايا من رأسِه حتَّى تخرجَ من أذنيه، فإذا غسلَ رجليهِ خرجتِ الخطايا من رجليْهِ حتَّى تخرجَ من تحتِ أظفارِ رجليه، ثمَّ كان مشيُهُ إلى المسجدِ وصلاتُهُ نافلةً له».

وفي «المسندِ»[٢] عن أبي أُمامة عن النبيِّ ﷺ قالَ: «ما من مسلمٍ يتوضأ فيغسلُ يديه ويمضمضُ فاه ويتوضأُ كما أُمِرَ إلا حطَّ اللَّهُ عنه يومئذٍ ما نطقَ به فمُهُ، وما مسَّ بيده، وما مشى إليه، حتَّى إنَّ الخطايا تحادَرُ من أطرافِهِ، ثم هو إذا مشى إلى المسجدِ فَرِجْلٌ تكتبُ حسنةً، وأُخرى تمحُو سيئةً».

وفيه أيضًا[٣] عن النبيِّ ﷺ قال: «أيُّما رجلٍ قامَ إلى وضوئِهِ يريدُ الصلاةَ ثم غسلَ كفَّيهِ، نزلتْ خطيئتُهُ من كفيه مع أولِ قطرةٍ، فإذا مضمضَ واستنشقَ واستنثرَ نزلتْ خطيئتُهُ من لسانِهِ وشفتيهِ مع أولِ قطرةٍ، فإذا غسلَ وجهَهُ نزلتْ خطيئتُهُ من سمعِهِ وبصرِهِ مع أولِ قطرةٍ، فإذا غسلَ يديه إلى المرفقينِ ورجليه إلى الكعبينِ سلم من كلِّ ذنبٍ هو له وكان من كلِّ خطيئةٍ كهيئتِهِ يومَ ولدتْهُ أمُّهُ فإذا قامَ إلى الصلاةِ رفعَ اللَّهُ درجتَهُ وإن قعدَ قعدَ سالمًا».

وفي المعنى أحاديثُ أُخرُ وفيما ذكرناه كفايةً وللَّه الحمدُ والمنة.

---

(١) أخرجه: مالك في «الموطأ» (ص٤٥)، وأحمد (٤/٣٤٨، ٣٤٩)، والنسائي (١/٧٤)، وابن ماجه (٢٨٢).

(٢) (٥/٢٦٣).

(٣) «المسند» (٥/٢٥٢ - ٢٥٦ - ٢٦٣ - ٢٦٤).

وقد وردتِ النصوص أيضًا بحصول الثوابِ على الوضوء وهذا زيادةٌ على تكفيرِ السيئاتِ، ففي «صحيحِ مسلمٍ»[١] عن عمرَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**من توضَّأ فأحسنَ الوضوءَ ثم قالَ: أشهدُ أن لا إله إلا اللَّهُ وأنَّ محمداً عبدُهُ ورسولُهُ، فتحتْ له أبوابُ الجنة الثمانيةِ يدخلُ من أيِّها شاءَ**». وفيه أيضًا[٢] عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ يقولُ: «**تبلغُ الحليةُ من المؤمن حيث يبلغُ الوضوءُ**»، وفيه أيضًا[٣] عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قالَ: **أنتم الغرُّ المحجلونَ يومَ القيامةِ من إسباغِ الوضوءِ**».

وخرَّجه البخاريُّ[٤] ولفظُهُ: «**إن أمَّتي يُدعون يوم القيامةِ غرًّا محجلينَ من آثارِ الوضوءِ**».

واعلمْ أن حديثَ معاذِ بنِ جبلٍ في المنامِ إنما فيه ذكرُ إسباغِ الوضوءِ على الكريهاتِ: وكذا في حديثِ أبي هريرةَ المبدوءِ بذكرِهِ في هذا الفصلِ فههنا أمرانِ:

أحدهما: إسباغُ الوضوءِ، وهو: إتمامُهُ وإبلاغُهُ مواضعَهُ الشرعيةَ كالثوبِ السابغِ المغطي للبدنِ كلِّه. وفي «مسند البزارِ»[٥] عن عثمانَ مرفوعًا: «**من توضَّأ فأسبغَ الوضوءَ غفرَ له ما تقدَّم من ذنبِه وما تأخَّرَ**» وإسنادُهُ لا بأس به وخرَّجه ابنُ أبي عاصمٍ من وجهٍ آخرَ عن عثمانَ، وخرجَ النسائيُّ وابنُ ماجه[٦] من حديثِ أبي مالكٍ الأشعريِّ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**إسباغُ الوضوءِ شطرُ الإيمانِ**» وخرَّجه

(١) (١/ ١٤٤).
(٢) «صحيح مسلم» (١/ ١٥١).
(٣) «صحيح مسلم» (١/ ١٤٩).
(٤) «صحيح البخاري» (١/ ٤٦).
(٥) «البحر الزخار» (٤٣٧) بلفظ: «**من توضأ فأسبغ الوضوء ثم مشى إلى صلاة مكتوبة غفر له**».
(٦) أخرجه: النسائي (٥/ ٥)، وابن ماجه (٢٨٠).

مسلم[1] ولفظُهُ: «الطهورُ شطرُ الإيمانِ».

وثانيهما: أن يكونَ إسباغُهُ على الكريهاتِ، والمرادُ أن يكونَ على حالةٍ تكرهُ النفسُ فيها الوضوءَ وقد فُسِّرَ بحالِ نزولِ المصائبِ فإن النفسَ حينئذٍ تطلبُ الجزعَ فالاشتغالُ عنه بالصبرِ والمبادرةِ إلى الوضوءِ والصلاةِ من علامةِ الإيمانِ، كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿**وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ**﴾ [البقرة:٤٥] وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة:١٥٣].

والوضوءُ مفتاح الصلاة وقد يُطفأ به حرارةُ القلبِ الناشئةِ عن ألمِ المصائبِ كما يُؤمرُ مَنْ غضبَ بإطفاءِ غضبِهِ بالوضوءِ، وفسرتِ الكريهاتُ بالبردِ الشديدِ ويشهدُ له أنَّ في بعضِ رواياتِ حديثِ معاذٍ «**إسباغُ الوضوءِ على السبرات**» والسبرةُ: شدةُ البردِ، ولا ريبَ أنَّ إسباغَ الوضوءِ في شدةِ البردِ يشقُّ على النفسِ وتتألمُ به، وكلُّ ما يؤلمُ النفسَ ويشقُّ عليها فإنه كفارةٌ للذنوبِ وإنْ لم يكنْ للإنسانِ فيه صنعٌ ولا تسببٌ، كالمرضِ ونحوِهِ كما دلتِ النصوصُ الكثيرةُ على ذلك.

وأما إن كان ناشئًا عن فعلٍ هو طاعةٌ للَّه تعالى، فإنه يكتبُ لصاحبِهِ به أجرٌ وترفعُ به درجاتُهُ كالألمِ الحاصلِ للمجاهدِ في سبيلِ اللَّه تعالى قال اللَّهَ عزَّ وجلَّ: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [التوبة:١٢٠] وكذلك ألم الجوعِ والعطشِ الذي يحصلُ

---

(١) «صحيح مسلم» (١/ ١٤٠).

للصائم، فكذا التألمُ بإسباغِ الوضوءِ في البردِ، ويجبُ الصبرُ على الألمِ بذلك، فإن حصلَ به رضى، فذلك مقامُ خواصِّ العارفين المحبينَ، وينشأ الرضى بذلكَ عن ملاحظةِ أمورٍ:

أحدها: تَذَكُّرُ فضلِ الوضوءِ من حطِّه الخطايا ورفعِهِ الدرجاتِ، وحصولِ الغرة والتحجيل به وبلوغِ الحليةِ في الجنّة إلى حيث يبلغ، وهذا كما انكسرَ ظفرُ بعضِ الصالحاتِ من السلفِ من عثرة عثرتْها فضحكتْ وقالتْ: أنساني حلاوةُ ثوابِهِ مرارةَ وجعِهِ. وقال بعضُ العارفينَ: من لم يعرفْ ثوابَ الأعمالِ ثقلتْ عليه في جميعِ الأحوالِ.

الثاني: تَذَكُّرُ ما أعدَّه اللّه عزَّ وجلَّ لمن عصاهُ من العذابِ بالبردِ والزمهريرِ في الآخرةِ، فإنَّ شدةَ بردِ الدنيا يذكرُ زمهريرَ جهنم، وفي الحديث الصحيح: «**إنَّ أشدَّ ما تجدونَ من البردِ من زمهريرِ جهنَّم**»(١) فملاحظةُ هذا الألمِ الموعود يهونُ الإحساسَ بألمِ بردِ الماءِ كما رُوي عن زبيد الياميِّ أنه قام ليلةً للتهجدِ وكان البردُ شديدًا، فلمَّا أدخلَ يده في الإناءِ وجدَ شدةَ بردِهِ فذكرَ زمهرير جهنم، فلم يشْعُر ببردِ الماءِ بعد ذلك، وبقيتْ يدُه في الماءِ حتى أصبح، فقالتْ له جاريتُهُ: مالَكَ لم تصلِّ الليلةَ كما كنتَ تصلِّي؟ فقال: إني لما وجدتُ شدةَ بردِ الماءِ ذكرتُ زمهريرَ جهنَّم فما شعرتُ به حتىَ أصبحتُ، فلا تخبري بهذا أحدًا ما دمتُ حيًّا.

الثالث: ملاحظةُ جلالِ مَنْ أمرَ بالوضوءِ، ومطالعةُ عظمته وكبريائه، وتذكرُ التهيؤ للقيامِ بين يديه ومناجاتِهِ في الصلاةِ، فذلك يهونُ كلَّ ألمٍ ينالُ العبدَ

---

(١) أخرجه: البخاري (٤/١٤٦)، ومسلم (٢/١٠٨) من حديث أبي هريرة ﷺ.

في طلبِ مرضاتِهِ من بردِ الماءِ وغـيرِهِ وربَّما لم يشعر بالماءِ بالكليـة، كما قال بعضُ العارفين: بالمعـرفة هانتْ على العـاملينَ العبادةُ قال سـعيدُ بنُ عـامرٍ: بلغَني أنَّ إبراهيمَ الخليلَ ﷺ كانَ إذا توضأ سُمِعَ لعظامِهِ قعقعةٌ.

وكان عليُّ بن الحـسينُ إذا توضأ اصفرَّ، فـيقال له: ما هذا الذي يعـتريكَ عندَ الوضوءِ؟ فيقولُ: أتدرونَ بين يدي منْ أريدُ أن أقومَ له؟.

وكان منصورُ بنُ زاذانَ إذا فرغَ من وضوئِهِ يبكـي حتَّى يرتفعَ صوتُهُ، فقيلَ له: ما شأنُك؟ فقـالَ: وأيُّ شيءٍ أعظم من شأني إني أريد أن أقومَ بين يدي من لا تأخذُهُ سنةٌ ولا نومٌ، فلعله يرضى عنِّي.

وكان عطاءٌ السلميُّ إذا فرغَ من وضوئِهِ ارتعد وانتفضَ وبكى بكاءً شديدًا، فقيلَ له في ذلك، فقال: إني أريدُ أن أتقدَّمَ إلى أمرٍ عظيمٍ، إني أريدُ أن أقومَ بين يدي اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

الـرابـع: استحـضارُ اطلاعِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ على عبـدِهِ في حالِ العملِ له، وتحملُ المشاقِ لأجلِهِ فـمن تيقنَ أن البلاءَ بعينِ من يحبُّه هانَ عليـه الألمُ كما أشارَ تعـالى إلى ذلك بقولِهِ عزَّ وجلَّ لنبـيِّه ﷺ: ﴿**وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾ [الطور:٤٨] وقولُهُ تعالى لموسى وهارونَ عليهما السلامُ: ﴿**لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى**﴾ [طه:٤٦] وقال ﷺ: «**اعبد اللَّه كأنك تراهُ فإن لم تكنْ تراهُ فإنه يـراك**» قال أبو سليمانَ: قرأتُ في بعضِ الكتبِ، يقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: بعيني ما تحمَّلَ المتـحملونَ من أجلي، وكابدَ المكابدونَ في طلبِ مـرضَاتِي، فكيفَ بهم وقد صارُوا في جوارِي وتبـحبَحُوا في رياضِ خلدِي؟ فهنالك فليسـتبشرِ المصفونَ للَّه أعـمالهم بالمنظرِ العجيبِ من الحبـيبِ القريبِ، أترونَ أنِّي أضيعُ لهم عملاً؟ فكيف وأنا أجود على المولِّين عنِّي فكيفَ بالمقبلينَ إليَّ.

فإسباغُ الوضوءِ في البردِ لاسيَّما في الليل يطلعُ اللَّهُ عليه ويرضَى به ويباهي به الملائكةَ، فاستحضارُ ذلك يهونُ ألم بردِ الماءِ.

وفي «المسندِ» و«صحيحِ ابن حبانَ»(١) عن عقبةَ بنِ عامرٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «رجلانِ من أمَّتي، يقومُ أحدُهُما من الليلِ يعالجُ نفسَهُ إلى الطهورِ وعليه عقدٌ فيتوضأ، فإذا وضَّأ يديه انحلتْ عقدةٌ، وإذا وضَّأ وجهَهُ انحلتْ عقدةٌ، وإذا مسحَ رأسَهُ انحلتْ عقدةٌ، وإذا وضَّأ رجليه انحلتْ عقدةٌ، فيقول الربُّ عزَّ وجلَّ للذي وراء الحجابِ: انظرُوا إلى عبدِي هذا يعالجُ نفسَهُ يسألني، ما سألني عبدِي هذا فهو لَهُ» وذكرَ بقيةَ الحديثِ. وَرُوي عن عطيةَ عن أبي سعيدٍ عن النبيِّ ﷺ: «إن اللَّه يضحكُ إلى ثلاثةِ نفرٍ، رجلٌ قامَ من جوفِ الليلِ فأحسنَ الطهورَ فصلَّى»(٢) وذكر الحديث.

كان بعضُ السلفِ له وِرْدٌ بالليلِ ففترَ عنهُ فهتفَ به هاتفٌ: ينظرُ اللَّه في الليلِ لما يصنعُ خدامُهُ إذا قامُوا أوحشتهم على الخدمةِ أحكامُهُ.

الخامس: الاستغراقُ في محبةِ من أمرَ بهذه الطاعةِ وأنَّه يرضَى بها ويحبُّها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢] فمن امتلأ قلبُه من محبةِ اللَّه عزَّ وجلَّ أحبَّ ما يحبُّهُ وإنْ شقَّ على النفسِ وتألَّمتْ به، كما يُقال: المحبةُ تهونُ الأثقالَ.

وقال بعضُ السلفِ في مرضِهِ: أحبُّه إليَّ أحبُّه إليه.

وكما قيل:

فَمَا لِجُرْحٍ إِذَا أَرْضَاكُم أَلَمٌ

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٥٩ ـ ٢٠١)، وابن حبان في «صحيحه» (١٠٥٢ ـ ٢٥٥٥).
(٢) أحمد في «المسند» (٣/ ٨٠).

وكما قيل أيضًا:

فِي حبِّكم يهونُ ما قد ألقَى يسعدُ بالنعيـم من لا يشقَى

من خدَمَ من يحبُّ تلذذَ بشقائهِ في خدمـتهِ. وقال بعضُهم: القلبُ المحبُّ للَّهِ يحبُّ النصبَ له، وقالَ عبدُ الصمد: أوجدَ لهم في عذابهِ عذوبةً.

إسباغُ الوضـوءِ على المكاره من علاماتِ المحبينَ، كمـا في كِتابِ «الزهدِ» للإمامِ أحـمدَ عن عطاء بن يسـارٍ قال: قـال موسى عليه السـلام: «ياربِّ من أهلُكَ الذينَ هم أهلُكَ الذينَ تظلّهم في ظلِّ عرشِكَ؟ قالَ: هم البريئةُ أبدانُهم الطاهرةُ قلوبُهم الذينَ يتحابُّون بجلالي، الذين إذا ذُكرتُ ذُكرُوا بي وإذا ذُكِروا ذكرتُ بذكـرِهم، الذينَ يسبغونَ الوضـوءَ في المكارهِ وينيبونَ إلى ذكْـري كما تنيبُ النسورُ إلـى أوكارِها، ويكلفُون بحـبِّي كما يكلفُ الـصبيّ بحبِ الناسِ ويغضبُونَ لمحارِمي إذا استحلَّت، كما يغضبُ النمرُ إذا حربَ».

وقد يخـرقُ اللَّهُ العادةَ لبعضِ المحبـينَ له فلا يجدُ ألمَ بردِ الماءِ، كمـا كانَ بعضُ السلفِ قد دعَـا اللَّهَ أن يهوِّن عليه الطهورُ في الشـتاءِ فكانَ يؤتى بالماء وله بخارٌ، وربما سُلِبَ بعضهُم الإحسـاسَ في الحرِّ والبردِ مطلقًا، وكانَ عليُّ ابنُ أبي طالبٍ ﵁ قد دعَا له النبيُّ ﷺ أن يذهبَ اللَّهُ عنه الحرَّ والبردَ فكانَ يلبسُ في الصيفِ لباسَ الشتَاءِ وفي الشتاءِ لباسَ الصيفِ وقالَ ﷺ فيه: **«إنه يحبُّ اللَّهَ ورسولَهُ ويحبُّه اللَّهُ ورسولُهُ»** (١).

ورأى أبو سليمانَ الدارانيُّ في طريقِ الحجِّ في شدّة بردِ الشتـاءِ شيخًا عليه أخلاقٌ رثةٌ وهو يرشحُ عرَقًا فسألهُ عن حـالِه فقالَ: إنما الحرُّ والبردُ خلقانِ للَّهِ

(١) أخرجه: البزار: (٢٥٤٦ ـ كشف).

عز وجل، فإنْ أمرَهما أن يغشيـاني أصاباني وإن أمرهمَا أن يتركاني تركاني، وقالَ: أنا في هذِه البـريةِ منذُ ثلاثينَ سنة يلبسُني في البـردِ فيحـًا من محبـتهِ ويلبسُني في الصيفِ بردًا من محبَّتِه، وقيلَ لآخرَ وعليه خرقتان في بردٍ شديدٍ لو استترتْ في موضعٍ يكنُّكَ من البردِ فأنشدَ:

ويحسن ظنِّي أنني في فنائـهِ   وهلْ أحدٌ في كنِّه يجد البردَا

السبب الثاني: من مكفراتِ الذنوبِ المشيُ على الأقدامِ إلى الجماعاتِ وإلى الجمعـاتِ، ولاسيَّما إن توضَّـأ الرجلُ في بيتِه ثم خرجَ إلى المسـجدِ لا يريدُ بخروجِه إلا الصلاةَ فيه، كـما في «الصحيحين»(١) عن أبي هـريرةَ ﵁ عن النـبيِّ ﷺ قـال: «**صلاةُ الرجلِ في الجماعةِ تضعفُ عـلى صلاته في بيتِه وفي سوقِه خمسًـا وعشرينَ ضعفًـا، وذلك أنه إذا توضَّأ فأحسَنَ الوضوءَ، ثم خـرجَ إلى المسجدِ لا يخرجـهُ إلا الصلاةُ، لم يخط خطوةً إلا رُفـعت له بها درجةٌ وحُطَّ عنـه بها خطيئـةٌ، فإذا صلَّى لم تزلِ الملائكةُ تصلِّي عليـهِ مادام في مصـلاَّه، اللَّهم صلِّ عليه اللّهم ارحـمه، ولا يزالُ أحدُكم في صلاةٍ ما انتظر الصلاةَ**».

وفي «صحيح مسلمٍ»(٢) عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ قال: «**منْ تطهَّـرَ في بيتـه، ثمَّ مشى إلى بيتٍ من بيـوتِ اللَّه ليقضِي فـريضةً من فرائضِ الـلَّه، كانتْ خطوتاهُ إحداهُما تحطُّ خطيئةً والأخرى ترفَعُ درجةً**»، وفي «الصحيحين» عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**كلُّ خطوةٍ مشيهَـا إلى الصلاة صدقةٌ**»، وفي «المسندِ» و«صحيحِ ابنِ حبانَ»(٣) عن عقبةَ بنِ عامرٍ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**إذَا تطهـرَ الرجلُ ثمَّ أتَى**

---

(١) أخرجه: البخاري (١/١٢٩ ـ ١٦٦)، (٣/٨٦)، ومسلم (٢/١٢٨ ـ ١٢٩).

(٢) (٢/١٣١).

(٣) أخرجه: أحمد (٤/١٥٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٠٤٥).

المسجدَ يرعى الصلاةَ كتبَ له كاتباهُ بكلِّ خطوةٍ يخطوهَا إلى المسجدِ عشرَ حسناتٍ».

وفيهما أيضًا [(١)] عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو عن النبيِّ ﷺ قالَ: « **من راحَ إلى مسجدِ جماعةٍ فخطوتاهُ خطوةٌ تمحو سيئةً وخطوةٌ تكتبُ حسنةً ذاهبًا وراجعًا**» وفي «سنن أبي داودَ»[(٢)] عن أبي أمامةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**من خرجَ من بيتهِ متطهراً إلى صلاةٍ مكتوبةٍ فأجرُه كأجرِ الحاجِّ المحرمِ**» وفيه أيضًا[(٣)] عن رجلٍ من الأنصارِ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**منْ توضَّأَ فأحسنَ الوضوءَ ثم خرجَ إلى الصلاةِ، لم يرفع قدمَهُ اليمنى إلا كتبَ اللَّهُ له بها حسنةً، ولم يضعْ قدمَهُ اليُسرى إلا حطَّ اللَّهُ عنه بها خطيئةً، فليقرب أو ليبعد، فإنْ أتَى المسجدَ فصلَّى في جماعةٍ غُفِرَ لهُ**» والأحاديثُ في هذا المعنى كثيرةٌ جدًّا.

فالمشي إلى الجمعاتِ له مزيدُ فضلٍ لاسيَّما إن كانَ بعد الاغتسالِ كما في «السنن»[(٤)] عن أوسِ بنِ أوسٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «**من غسَّلَ يومَ الجمعةِ واغتسلَ، وبكَّرَ وابتكرَ، ومشى ولم يركبْ، ودنا من الإمامِ واستمعَ ولم يلغُ، كان لهُ بكلِّ خطوةٍ أجرُ سنةٍ صيامُها وقيامُها**».

كلما بعُدَ المكانُ الذي يمشي منه إلى المسجدِ كانَ أفضل لكثرةِ الخُطا، وفي «صحيح مسلمٍ»[(٥)] عن جابرٍ قال: «كانتْ دارُنا نائيةً عن المسجدِ، فأردْنا أن نبيعَ بيوتنَا فنقرب من المسجدِ، فنهانا رسولُ اللَّهِ ﷺ وقال: «**إنَّ لكم بكلِّ**

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٧٢)، وابن حبان في «صحيحه» (٢٠٣٩).

(٢) «السنن» (٥٥٨، ١٢٨٨).

(٣) «السنن» (٥٦٣).

(٤) أخرجه: أحمد (٤/ ٩ ـ ١٠، ١٠٤)، وأبو داود (٣٤٥)، والترمذي (٤٩٦)، والنسائي (٣/ ٩٥ ـ ٩٧) وابن ماجه (١٠٨٧).

(٥) (٢/ ١٣١).

خطوة حسنةً» وفي «صحيحِ البخاريِّ»(١) عن أنس أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**يابني سلمةَ ألا تحتسبونَ آثارَكُم**»، وفي «الصحيحينِ»(٢) عن أبي موسى أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ أعظمَ الناسِ أجراً في الصلاةِ أبعدُهم إليها ممشى فأبعدُهم**»، ومع هذا فنفسُ الدارِ القريبةِ من المسجدِ أفضلُ من الدارِ البعيدةِ عنه، لكنَّ المشي من الدارِ البعيدةِ أفضلُ، ففي «المسندِ»(٣) عن حذيفةَ عن النبيِّ ﷺ أنه قال: «**فضلُ الدارِ القريبةِ من المسجدِ على الدارِ البعيدةِ الشاسعةِ، كفضلِ الغازي على القاعدِ**» وإسنادُه منقطعٌ.

والمشيُّ إلى المسجدِ أفضلُ من الركوبِ كما تقدَّم في حديثِ أوسٍ في الجمعِ، ولهذا جاءَ في حديثِ معاذ ذكرُ المشي على الأقدامِ، وكانَ النبيُّ ﷺ لا يخرجُ إلى الصلاة إلا ماشيًا حتَّى العيد يخرجُ إلى المصلَّى ماشيًا، فإنَّ الآتي للمسجدِ زائرُ اللَّهِ، والزيارةُ على الأقدامِ أقربُ إلى الخضوعِ والتذللِ، كما قِيل:

لو جئتكم زائرًا أسْعى على بصرِي   لم أؤدِّ حقا وأيَّ الحقِّ أديتُ

وفي «صحيح البخاريِّ»(٤) عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**من غدا إلى المسجدِ أو راحَ، أعدَّ اللَّهُ له نزلاً في الجنةِ كلَّما غدا أو راحَ**» والنزلُ هو ما يعدُّ للزائرِ عندَ قدومهِ، وفي الطبراني(٥) من حديثِ سلمانَ مرفوعًا: «**من توضَّأ في بيتِه فأحسنَ الوضوء ثمَّ أتى المسجدَ فهو زائرُ اللَّهِ تعالي وحقٌّ على المزورِ أن يكرمَ الزائرَ**»

(١) (١/١٦٧)، (٣/٢٩).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ١٦٦)، ومسلم (٢/ ١٣٠).

(٣) (٥/٣٨٧، ٣٩٩).

(٤) (١/١٦٨).

(٥) «المعجم الكبير» (٧/ ٢٥٤، ٢٥٥).

وفي «صحيح مسلمٍ»[١] عن أبيٍّ بن كعبٍ قال: كانَ رجلٌ لا أعلمُ رجلاً أبعدَ من المسجدِ منهُ وكـانَ لا تخطئُهُ صلاةٌ في المسجدِ، قـالَ: فقيل له: أو قلت لهُ: لو اشتريتَ حمارًا تركبُه في الظلماءِ أو في الرمضاءِ، فقال: ما يسرّني أن منزلي إلى جنبِ المسـجـدِ، إني أريدُ أنْ يكتبَ لي ممشـاي إلى المسـجـدِ، ورجوعي إذا رجعتُ إلى أهلي، فقال: رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«قد جمعَ اللَّهُ لكَ ذلك كلَّه»**.

وكلمـا شقَّ المشيُ إلى المسجـدِ كانَ أفضل ولـهذا فُضِّلَ المشـيُ إلى صلاةِ العشاءِ وصلاةِ الصبحِ وعدلَ بقيـامِ الليلِ كله كما في «صحيح مسلمٍ»[٢] عـن عثمانَ عن النبيِّ ﷺ قال: **«من صلى العشاءَ في جمـاعة فكأنَّما قامَ نصفَ الليل، ومن صلي الصبح فـي جماعةٍ فـكأنما قامَ الليلَ »**، وفي «الصحـيحينِ»[٣] عن أبـي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: **«أثقلُ صلاةٍ على المنافقينَ صلاةُ العشاءِ وصلاةُ الفجرِ ، ولو يعلمونَ ما فيهمَا لأتوهُما ولو حبوًا»**.

وإنما ثقلتْ هاتان الصلاتانِ على المنافقينَ لأنَّ المنافقَ لاينشطُ للصلاةِ إلا إذا رآهُ الناسُ ، كما قالَ تعالىَ: ﴿ **وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [النساء:١٤٢] وصلاة العشاءِ والصبحِ يقعان في ظلمةٍ فلا ينشطُ للمشي إليهما إلا كلُّ مـخلصٍ يكتفي برؤيةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ وحده لعلمهِ بهِ .

وثوابُ المشي إلي الصلاة في الظُّلَمِ النورُ الـتامُّ في ظُلَم القيامـةِ، كما في

---

(١) (٢/ ١٣٠).
(٢) (٢/ ١٢٥).
(٣) أخرجه: البخاري (١/ ١٦٧)، ومسلم (٢/ ١٢٣).

«سنن أبي داودَ»، والترمذي [1] عن بريدةَ عنَ النبيِّ ﷺ قالَ: « **بشِّر المشائينَ في الظلم إلي المساجدِ بالنورِ التامِّ يومَ القيامةِ** » وخرَّجهُ ابنُ ماجه[2] من حديثِ سهلِ بن سعدٍ ، وقد رُوِي من وجوهٍ كثيرةٍ. وفي بعضهَا زيادةٌ «**يفزعُ النَّاس ولا يفزعونَ**» قال النخعيُّ: وكانُوا يرونَ أنَّ المشيَ في الليلةِ الظلماء إلى الصلاة موجبةٌ ـ يعني: توجبُ المغفرةَ.

وروينا عن الحسنِ قالَ: أهلُ التوحيدِ في النار لايقيدونَ فيقولُ الخزنةُ بعضُهم لبعضٍ: ما بالُ هؤلاءِ لا يُقيَّدون، وهؤلاءِ يُقيَّدون؟ فيناديهم مُنادٍ: إنَّ هؤلاءِ كانوا يمشونَ في ظُلَمِ الليل إلى المساجدِ، كما أنَّ مواضعَ السجودِ من عصاةِ الموحدينَ في النارِ لا تأكلهَا النَّارُ، فكذلك الأقدامُ التي تمشي إلى المساجدِ في الظلمِ لا تقيدُ في النار. ولا يسوِّي في العذابِ بينَ من خدمَهُ وبين من لم يخدِمه وإن عذَّبه.

ومن كانَ في سخطهِ محسنًا فكيف يكونُ إذا ما رضِي

لـمَّا كانتِ الصلاةُ صلةً بين العبدِ وبينَ ربِّه، ومناجاةً تظهرُ فيها آثارُ تجلِّيه لقلوبِ العارفينَ وقربِهِ شرعَ قبلَ الدخولِ فيها الطهارةُ، فإنَّه لا يصلحُ للوقوفِ بين يدي اللَّه عز وجل والخلوةِ بمناجاتِهِ إلا طاهرٌ، فأمَّا المتلوثُ بالأوساخِ الظاهرةِ والباطنةِ فلا يصلحُ لـلقربِ، فشرعَ اللَّهُ عز وجل للمصلِّي غسلَ أعضائِه بالماءِ ورتبَ عليها طهارةً ظاهرةً وباطنةً، ثمَّ شرعَ المشي إلى المساجدِ.

وفيه أيضًا تكفيرُ الخطايا حتَّى تكملَ طهارةُ الذنوبِ إن بقي منها شيءٌ بعد الوضوءِ حتَّى لا يقفَ العبدُ في مقامِ المناجاةِ إلا بعدَ كمالِ طهارةٍ ظاهرةٍ

(١) أخرجه: أبو داود (٥٦١)، والترمذي (٢٢٣).
(٢) «السنن» (٧٨٠).

وباطنة من درنِ الأوساخِ والذنوبِ، ولهـذا شَرَعَ لهُ تجديدَ التوبةِ والاستـغفارَ عقبَ كلِّ وضوءٍ حتَّى تكملَ طهارةُ ذنوبهِ، كما خرَّج النسائيُّ(١) من حديثِ أبي سعيـدٍ مرفوعًا ومـوقوفًا : «من توضَّأ فـأسبغَ الوضـوءَ ثمَّ قالَ عندَ فـراغه من وضوئه: سبحانكَ اللـهمَّ وبحمدكَ أستغفرُكَ وأتوبُ إليكَ، ختمَ عليـها بخاتمٍ فوضعتْ تحتَ العرشِ فلم تُكسرْ إلى يومِ القيامةِ».

ومتى اجتهـدَ العبدُ على تكميلِ طهارتهِ ومشيـهِ إلى المسجدِ ولم يقوَ ذلكَ على تكفير ذنوبهِ، فـإنَّ الصلاةَ يكملُ بها التكفيرُ، كمـا في «الصحيحينِ»(٢) عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قـالَ: «أرأيتُم لو أنَّ نهراً ببابِ أحدكُم يغـتسلُ فيه كلَّ يومٍ خمسَ مـراتٍ، هل يبقى من درنه شيء؟» قالوا: لايبـقى من درنهِ شيءٌ، قـال: «فذلكَ مثلُ الصلواتِ الخمس يمحو اللَّهُ بهنَّ الخطايا».

وإنْ قويَ الوضوءُ وحدهُ على تكفيـرِ الخطايا، فالمشيُ إلى المسجدِ والصلاةُ بعده تكونُ زيادةُ حسناتٍ وهذا هو المرادُ من قولِ النبيِّ ﷺ في حديث عثمانَ والصنابحي «وكان مشيهُ إلى المسجدِ وصلاتُه نافلةً»، وقد سبقَ ذكرُ الحديثين.

واعلم أنَّ جمهـورَ العلماءِ على أنَّ هذهِ الأسبابَ كلَّها إنما تكفِّـر الصغائرَ دونَ الكبائرِ وقـد استدلَّ بذلكَ عطـاءٌ وغيرهُ من السلفِ في الوضـوءِ، وقال سلمانُ الفارسيُّ رضي الله عنه: الوضوءُ يكفِّرُ الجـراحاتِ الصغارَ، والمشيُ إلى المسجدِ يكفِّرُ أكـثرَ من ذلكَ والصلاة تكفـر أكثر من ذلك. خـرجهُ محمـدُ بن نصر المروزيُّ، ويدلُّ على أنَّ الكبائرَ لا تكفَّرُ بذلكَ ما في «الصحيحينِ»(٣) عن أبي

(١) «عمل اليوم والليلة» (٨٣).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ١٤٠)، ومسلم (٢/ ١٣١).

(٣) أخرجه: مسلم (١/ ١٤٤) وليس هو عند البخاري.

هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «الصلواتُ الخمسُ والجمعةُ إلى الجمعةِ ورمضانُ إلي رمضانَ، مكفراتٌ لما بينهنَّ إذا اجتنبت الكبائرُ».

وفي «صحيح مسلمٍ»(١) عن عثمانَ عن النبيِّ ﷺ قال: «ما منْ امريءٍ مسلمٍ تحضُرهُ صلاةٌ مكتوبةٌ فيحسنُ وضوءها وخشوعَها وركوعَها وسجودَها، إلا كانتْ كفارةً لما قبلَها من الذنوبِ ما لم تؤتَ كبيرةٌ وذلكَ الدهرَ كلَّهُ».

فانظرْ إلى كم تيسرَ لك أسبابُ تكفيرِ الخطايا لعلكَ تُطهَّرُ منها قبلَ الموتِ فتلقاهُ طاهرًا فتصلحُ لمجاورتِهِ في دارِ السلام، وأنتَ تأبى إلا أن تموتَ على خبثِ الذنوبِ فتحتاجُ إلى تطهيرها في كيرِ جهنَّم، يا هذا أما علمتَ أنه لا يصلحُ لقربنا إلا طاهرٌ، فإذا أردت قربَنا ومناجاتِنا اليومَ فطهِّر ظاهرَكَ وباطنَكَ لتصلُحَ لذلكَ، وإن أردتَ قربَنا ومناجاتَنا غدًا فطهِّرْ قلبك من سوانَا لتصلحَ لمجاورتنَا ﴿يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء:٨٩,٨٨] والقلبُ السليمُ الذي ليسَ فيه غيرُ محبةِ اللَّهِ ومحبَّةِ ما يحبُّه اللَّهُ «إن اللَّهَ طيبٌ لا يقبلُ إلا طيبًا»(٢) فما كلُّ أحدٍ يصلُح لمجاورةِ اللَّهِ تعالى غدًا، ولا كلُّ عبدٍ يصلحُ لمناجاةِ اللَّهِ اليوم ولا على كلِّ الحالات تحسنُ المناجاةُ.

النـاسُ من الهـوَى علَى أصـنافِ   هذا نَـقضُ العـهـدِ وهـذا وافي
هيـهاتَ من الكدورِ تـبغي الصـافي   مـا يصلحُ للـحضـرةِ قلبٌ جَـافي

السبب الثالث: من مكفراتِ الذنوبِ الجلوسُ في المساجدِ بعد الصلواتِ، والمرادُ بهذا الجلوسِ انتظارُ صلاةٍ أخرى كما في حديثِ أبي هريرةَ «وانتظارُ

(١) (١/ ١٤٢).

(٢) أخرجه: مسلم (٣/ ٨٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الصلاة بعد الصلاةِ فذلكُمُ الرباطُ فذلكُمُ الرباطُ» فجعل هذا من الرباطِ في سبيلِ اللَّه عز وجل، وهذا أفضلُ من الجلوسِ قبلَ الصلاة لانتظارهَا ، فإنَّ الجالسَ لانتظارِ الصلاةِ ليؤدِّيها ثم يذهبُ تقصرُ مدةُ انتظارِهِ بخلافِ من صلَّى صلاةً ثمَّ جلسَ ينتظرُ أخرى فإنَّ مدَّتَهُ تطولُ فإن كانَ كلما صلَّي صلاةً جلسَ ينتظرُ ما بعدَهَا استغرقَ عمرَهُ بالطاعةِ وكانَ ذلكَ بمنزلةِ الرباطِ في سبيلِ اللَّه عزوجل.

وفي «المسندِ»، و«سننِ ابنِ ماجه»[(١)] عن عبدِ اللَّهِ بن عمرٍو ﵄ قالَ: «صلَّيتُ مع رسول الله ﷺ المغربَ فرجعَ منْ رجعَ وعقبَ من عقبَ ، فجاءَ رسولُ اللَّهِ ﷺ مسرعًا قد حفزهُ النفَسُ وقد حسر عن ركبتيهِ فقالَ: «**أبشرُوا هذا ربُّكم قد فتحَ باباً من أبواب السماءِ، يباهِي بكُمُ الملائكةَ ، يقولُ : انظرُوا إلي عبادِي قد قضَوا فريضةً وهم ينتظرونَ أُخري** ».

وفي «المسندِ»[(٢)] عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «**منتظرُ الصلاة بعدَ الصلاةِ كفارسٍ اشتدَّ به فرسُهُ في سبيلِ الله على كشحهِ تصلِّي عليهِ ملائكةُ الله ما لم يحدثْ أو يقوم ، وهو في الرباط الأكبر** ».

و يدخلُ في قولهِ: «**والجلوسُ في المساجدِ بعدَ الصلوات** » الجلوسُ للذكرِ والقراءةِ وسماعِ العلم وتعليمهِ ونحو ذلكَ لاسيَّما بعدَ صلاةِ الصبحِ حتى تطلعَ الشمسُ؛ فإنَّ النصوصَ قد وردتْ بفضلِ ذلكَ ، وهو شبيهٌ بمن جلسَ ينتظرُ صلاةً أخرى، لأنهَّ قد قضى ما جاءَ إلى المسجدِ لأجلِه من الصلاةِ وجلسَ ينتظر طاعةً أخرى، وفي «الصحيح» عن النبيِّ ﷺ قال: «**ما اجتمعَ قومٌ في بيتٍ**

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٨٦ ـ ١٨٧ ـ ١٩٧)، وابن ماجه (٨٠١).
(٢) (٢/ ٣٥٢).

من بيوتِ اللَّه تعـالى يتلونَ كتـابَ اللَّه ، ويتدارسونَهُ بينَهُم ، إلاَّ نزلتْ علـيهم السكينةُ، وغشيتهُم الرحمةُ، وحفتهُمُ الملائكةُ، وذكرهُمُ اللَّهُ فيمنْ عندَهُ» .

وأما الجالسُ قـبلَ الصلاةِ في المسجدِ لانتظار تلكَ الصلاةِ خاصـةً فهو في صلاةٍ حتَّى يصلِّي .

وفي «الصحيحينِ»(١) عن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ «أنه لـما أخَّرَ صلاةَ العشاءِ الآخرةَ، ثمَّ خـرجَ فصلَّى بهم، قـالَ لهم: «إنكم لم تزالُوا فـي صـلاةٍ مـا انتظرتُمُ الصلاةَ».

وفيهما أيضًا(٢) عن أبي هريرةَ ؓ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «الملائكةُ تصلِّي على أحدِكم مـا دام في مصلاَّه ما لم يحـدثْ، اللهمَّ اغفرْ لهُ اللهمَّ ارحمْـهُ، ولا يزال أحدُكم في صلاةٍ ما كـانتِ الصلاةُ تحبسُهُ لا يمنعـهُ أن ينقلبَ إلى أهله إلا الصلاةُ» وفي روايـةٍ لمسلمٍ «ما لم يؤذِ فيه ما لم يحدثْ فيه».

وهذا يدلُّ على أنَّ المرادَ بالحدثِ حـدثُ اللسانِ ونحوِه من الأذَى، وفـسرهُ أبو هريرةَ بحدثِ الفرجِ، وقيلَ: إنه يشملُ الحدثينِ.

وفي «المسندِ»(٣) عن عقبةَ بن عامرٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «القاعدُ يراعِي الصلاةَ كالقانتِ ويكتُبُ من المصلينَ من حين يخرجُ من بيتِهِ حتَّى يرجعَ إليه» وفي روايـةٍ له: «فإذا صلَّى في المسجد ثمّ قعدَ فيه كانَ كالصائمِ القانتِ حتَّى يرجع».

وفي هذا المعنى أحاديثُ كثيرةٌ، وبالجملةِ فالجلوسُ في المساجدِ للطاعاتِ له فضلٌ عظيمٌ.

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ١٥٠ ـ ١٦٨ ـ ٢١٤)، (٧/ ٢٠١)، ومسلم (٦/ ١٥٢).
(٢) أخرجه: البخاري (١/ ١٦٨)، ومسلم (٢/ ١٢٩).
(٣) (٤/ ١٥٩).

وفي حديثِ أبي هريرةَ ﷺ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «لا يوطِّن رجلٌ المساجدَ للصلاةِ والذكرِ إلا تبشبشَ اللَّهُ عز وجل به كما يتبشبشُ أهلُ الغائبِ إذا قدمَ عليهم غائبُهُم»(١). وروى دراجٌ عن أبي الهيثم عن أبي سعيدٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «من ألِفَ المسجدَ ألِفَهُ اللَّه»(٢).

وقال سعيدُ بنُ المسيبِ: من جلسَ في المسجدِ فإنَّما يجالسُ اللَّه عز وجلَّ.

وصحَّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه عدَّ من السبعةِ الذينَ يظلُّهُمُ اللَّه في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه رجلٌ قلبُهُ معلَّقٌ بالمسجدِ إذا خرجَ منه حتى يعودَ إليه(٣).

وإنَّما كانتْ ملازمةُ المسجدِ للطاعاتِ مكفرةً للذنوبِ؛ لأنَّ فيها مجاهدةَ النفسِ وكفا لها عن أهوائِها؛ فإنَّها لا تميلُ إلا إلى الانتشار في الأرضِ لابتغاء الكسب؛ أو لمجالسةِ الناس، أو لمحادثتهم، أو للتنزه في الدورِ الأنيقةِ والمساكنِ الحسنةِ ومواطنِ النزهِ، ونحو ذلكَ. فمن حبسَ نفسَهُ في المساجدِ على الطاعةِ فهوَ مرابطٌ لها في سبيلِ اللَّه مخالفٌ لهواهَا، وذلكَ من أفضلِ أنواعِ الصبرِ والجهادِ.

وهذا الجنسُ ـ أعني ما يؤلمُ النفسَ ويخالفُ هواهَا ـ فيه كفارةٌ للذنوبِ وإنْ كانَ لا صنعَ فيه للعبدِ كالمرضِ ونحوِه فكيفَ بما كانَ حاصلاً عن فعلِ العبدِ واختيارِهِ إذا قصدَ به التقربَ إلي اللَّه عزَّ وجل، فإنَّ هذا من نوعِ الجهادِ في سبيلِ اللَّه الذي يقتضِي تكفيرَ الذنوبِ كلِّها ولهذا المعنى كانَ المشيُ إلى

(١) أخرجه: أحمد (٢/٣٠٧ ـ ٣٤٠ ـ ٤٥٣).
(٢) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٦٣٨٣).
(٣) أخرجه: البخاري (٢/١٣٨ ـ ١٦٨)، ومسلم (٣/٩٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

المساجدِ كـفارةً للذنوبِ أيضًا هو نوعٌ منَ الجـهادِ في سبيلِ اللَّه أيضًـا ، كما خرجـهُ الطبراني[(١)] من حديثِ أبي أمـامةَ عن النبيِّ ﷺ « **الغـدوُّ والرواحُ إلي المساجد من الجهادِ في سبيلِ اللَّه عزَّ وجلَّ** ».

كان زيادٌ مولَى ابن عباس أحد العبادِ الصالحينَ ، وكانَ يلازمُ مسجدَ المدينةِ فسمعوهُ يومًا يعاتب نفسَهُ ويقولُ لها : أين تريدينَ أنْ تذهبي، إلي أحسنَ من هذا المسجدِ؟ تريدينَ أن تبصرِي دارَ فلانٍ ودار فلانٍ.

لَّما كانت المساجد فـي الأرضِ بيوتَ اللَّه أضافَها اللَّهُ إلى نفسـِه تشريفًا لها وتعلقتْ قلوبُ المحبينَ للَّهِ عز وجلَّ بها لنسبتها إلي محبوبِهم، وارتاحتْ إلى ملازمتِها لإظهارِ ذكرِه فيها، قالَ تعالى : ﴿ **فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ** ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

أين يذهبُ المحبـونَ عن بيوتِ مـولاهُم؟ قلوبُ المحبينَ ببيـوتِ محـبوبهِم متعلقةٌ، وأقدامُ العابدينَ إلي بيوتِ معبودِهم مترددةٌ.

يا حـبَّـذَا العرعـرُ النَّجـديُّ والبـانُ ... ودارُ قـــومٍ بـأكناف الحِـمـى بانُوا
وأطيبُ الأرضِ ما للقلبِ فـيه هوى ... سَمُّ الخـياطِ مع الأحـبـابِ ميـدانُ
لا يُذْكـرُ الرَّملُ إلا حـنَّ مـغـتـربٌ ... لـه بـذي الـرمـل أوطـارٌ وأوطـانُ
يهـفُـو إلى البـانِ من قلبي نوازعـهُ ... ومـا بـي البـانُ بل مَنْ دارُه الـبـانُ

(١) «المعجم الكبير» (٨/ ٢٠٨).

الفصل الثاني: في ذكرِ الدرجاتِ المذكورة في حديثِ معاذٍ:

وهي ثلاثٌ:

أحدها: إطعامُ الطعامِ وقد جعلَهَ اللَّه في كتابه من الأسبابِ الموجبةِ للجنة ونعيمِهَا، قالَ اللَّهُ عز وجل: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً﴾ إلى قوله: ﴿وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ [الإنسان: ٨ - ٢١] فوصفَ فاكهتَهُم وشرابَهُم جزاءً لإطعامِهِمُ الطعامَ.

وفي الترمذيِّ من حديثِ أبي سعيدٍ الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ قال: «أيمَّا مؤمن أطعمَ مؤمنًا على جوعٍ، أطعمَهُ اللَّهُ منْ ثمارِ الجنة، ومنْ سقَى مؤمنًا على ظمإٍ سقاهُ اللَّهُ من الرحيقِ المختومِ» وفي «المسندِ» و«الترمذيِّ»(١) عن عليٍّ عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ في الجنة غرفاً يُرى ظاهرُها من باطنِها وباطنُها من ظاهرِهَا، قالوا: لمن هيَ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: لمن أطعمَ الطعامَ، وأطابَ الكلامَ، وصلَّى بالليلِ والناسُ نيامٌ».

وفي حديثِ عبدِ اللَّه بنِ سلامٍ الذي خرجهُ أهلُ السننِ(٢) أنه سمعَ النبيَّ ﷺ أولَ قدومِهِ المدينةَ يقولُ: «أيها الناسُ، أفشوا السلامَ، وأطعمُوا الطعامَ، وصِلوا

---

(١) أحمد (١/ ١٥٥)، والترمذي (١٩٨٤ ـ ٢٥٢٧).

(٢) أخرجه: الترمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (١٣٣٤، ٣٢٥١).

الأرحامَ، وصلُّوا بالليل والناسُ نيامٌ، تدخلُوا الجنةَ بسلامٍ».

وفي حديث عبادةَ عن النبيِّ ﷺ: «أنه سُئلَ أيُّ الأعمالِ أفضلُ؟قال: « **إيمانٌ باللّهِ وجهادٌ في سبيلِهِ وحجٌّ مبرورٌ، وأهونُ من ذلكَ إطعامُ الطعامِ ولينُ الكلامِ** »خرجهُ الإمامُ أحمدُ(١).

وفي حديثِ هانئ بن يزيد أنَ رجلاً قال: يارسولَ اللّهِ، دلَّني على عملٍ يدخلني الجنةَ ويباعدُني من النارِ، قال: «**تطعم الطعامَ وتفشي السلامَ**»(٢).

وفي حديثِ حُذيفةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «**من خُتم لهُ بإطعامِ مسكينٍ دخلَ الجنةَ**»(٣).

وفي «الصحيحين»(٤) من حديثِ عبد اللّهِ بن عمروٍ أنَّ رجلاً قالَ: يا رسولَ اللّه، أيُّ الإسلامِ خيرٌ؟ قالَ: «**تطعمُ الطعامَ وتقرئُ السلامَ على من عرفتَ ومن لم تعرفْ**».

وفي حديثِ صهيبٍ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**خيرُكم من أطعمَ الطعامَ**» خرجهُ الإمامُ أحمدُ(٥).

فإطعامُ الطعامِ يوجبُ دخولَ الجنةِ، ويباعدُ من النارِ، وينجي منها كَما قالَ تعالى: ﴿**فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝١٣ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝١٤ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝١٥ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ**﴾ [البلد: ١١-١٦]

---

(١) (٥/ ٣١٨).

(٢) أخرجه: أبو داود (٤٩٥٥)، والنسائي (٨/ ٢٢٦).

(٣) راجع: «السلسلة الصحيحة» (١٦٥٤).

(٤) أخرجه: البخاري (١/ ١٠ ـ ١٤)، (٨/ ٦٥)، ومسلم (١/ ٤٧).

(٥) «المسند» (٦/ ١٦).

وفي الحديث الصحيح عن النبيِّ ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشقِّ تمرة**»(١) وكان أبو موسى الأشعريُّ رضي الله عنه يقولُ لولدِه : اذكـرُوا صاحبَ الرغـيف، ثم ذكرَ أنَّ رجلاً من بني إسـرائيلَ عبدَ اللَّهَ سبـعينَ سنةً ثمَّ إنَّ الشيطانَ حسَّنَ في عـينيه امرأةً فأقامَ مـعها سبعةَ أيامٍ ثمَّ خـرجَ هارباً فأقامَ مع مساكينَ فتُـصُدِّقَ عليه برغـيفٍ، كان بعضُ أولئكَ المسـاكين يريدهُ فـآثره بهِ ثم ماتَ، فـوزِنَ عبـادتُهُ بالسبعـةِ الأيام التي مع المرأةِ فرجحتِ الأيامُ السبعةُ بعـبادَتِه، ثم وزِنَ الرغيفُ بالسبعةِ الأيامِ فرجحَ بها.

ويتأكدُ إطعامُ الطعامِ للجائعِ وللجيرانِ خصوصًا، وفي «الصحيح»(٢) عن أبي موسى الأشعريِّ عن النبيِّ ﷺ قـالَ: «**أطعموا الجـائعَ وعودُوا المريضَ وفكُّوا العاني**».

وفي «صحيحِ مسلمٍ»(٣) عن أبي ذرٍّ عن النبيِّ ﷺ قال لهُ: «**إذا طبختَ مرقةً فأكثرْ ماءها وتعاهدْ جيرانَكَ**».

وفي المسندِ، وصحيحِ ابن حِبانَ عن عمرَ عن النبيَّ ﷺ قال: «**أيُّما عرصة أصبحَ فيهم امرؤٌ جائعًـا، فقد برئتْ منهم ذمةُ اللَّه عزَّ وجلَ**». وقال ﷺ: «**لا يشـبعُ المؤمنُ دونَ جارِه**»، وفي «صحيحِ الحاكمِ»(٤) عن ابن عباس عن النبيِّ ﷺ قال: «**ليسَ بالمؤمنِ الذي يشبعُ وجـارُه جائعٌ**» وفي رواية: «**ما آمن من بات شبـعانا وجاره طـاويًـا**». فأفضلُ أنواعِ إطعامِ الطعامِ الإيثارُ مـع الحاجةِ كما وصفَ اللَّهُ تعالى

(١) أخرجـه: البخـاري (٢/ ١٣٦)، (٨/ ١٢٩)، (٩/ ١٦٢ ـ ١٨١)، ومسلم (٣/ ٨٦) من حـديث عدي بن حاتم الطائي رضي الله عنه.
(٢) «صحيح البخاري» (٤/ ٨٣)، (٧/ ٣١ ـ ٨٧ ـ ١٥٠)، (٩/ ٨٨).
(٣) (٨/ ٣٧).
(٤) «المستدرك» (٤/ ١٦٧).

بذلك الأنصار ﷺ فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩] وقدْ صحَّ أنَّ سبَب نزولها أنَّ رجلاً منهم أخذ ضيفاً من عند النبيِّ ﷺ يضيفُه فلم يجدْ عندَهُ إلا قوتَ صبيانِه، فاحتالَ هوَ وامرأتُهُ حتَّى نوَّما صبيانَهُمَا وقامَ إلى السراج كأنه يصلحُهُ فأطفأهُ، ثمَّ جلسَ مع الضيفِ يريهِ أنه يأكلُ معهُ ولم يأكلْ فلمَّا غدَا على رسول اللَّه ﷺ قال لهُ: «عجبَ اللَّهُ من صنيعِكُما الليلةَ» ونزلتْ هذه الآيةُ.

وكان كثيرٌ من السلفِ يؤثرُ بفطوره غيرَه وهو صائمٌ ويصبحُ صائمًا، منهم عبدُ اللَّه بنُ عمرَ ﷺ، وداودُ الطائيُّ، وعبدُ العزيز بنُ سليمانَ، ومالك بنُ دينارٍ، وأحمدُ بنُ حنبلٍ، وغيرُهم، وكان ابنُ عمرَ لايفطرُ إلامع اليتامَى والمساكينِ وربما علَمَ أن أهلَهُ قد ردُّوهم عنه فلم يفطرْ تلكَ الليلةَ.

ومنهم من كانَ لا يأكلُ إلاَّ مع ضيفٍ له، قال أبو السوارِ العدويُّ: كانَ رجالٌ من بني عدي يصلُّون في المسجدِ ما أفطرَ أحدٌ منهُم على طعامٍ قطّ وحدَهُ، إن وجدَ من يأكلُ معه أكلَ، وإلا أخرجَ طعامَهُ إلى المسجدِ فأكلهُ مع الناسِ وأكلَ الناسُ معهُ.

وكانَ منهُم من يطعمُ إخوانهُ الطعامَ وهو صائمٌ ويجلسُ يخدمهُم، ويروحهُم، منهمُ الحسنُ، وابنُ المباركِ، وكان ابنُ المباركِ ربما يشتهي الشيءَ فلايصنعُهُ إلا لضيفٍ ينزلُ به فيأكلُهُ مع ضيفِهِ، وكانَ كثيرٌ منهُم يفضلُ إطعامَ الإخوانِ على الصدقةِ على المساكينِ، وقد رُويَ هذا المعنى مرفوعًا من حديث أنسٍ بإسنادٍ ضعيفٍ، ولاسيَّما إن كان الإخوانُ لا يجدونَ مثل ذلكَ الطعامِ.

كانَ بعضُهم يعملُ الأطعمةَ الفاخرةَ ثم يطعمُها إخوانَهُ الفقراءَ ويقولُ: إنهم

لا يجدونَها، وبعضُهم يُصنَعُ له طعامٌ ولا يأكلُ ويقولُ: إني لا أشتهيه وإنما صنعتُهُ لأجلِكمُ، وبعضُهم اتخذَ حلاوةً فأطعمَهُا المعتوهَ، فقالَ له أهلهُ: إن هذا لا يدري ما يأكلُ، فقال: لكنَّ اللَّهَ يدرِي .

واشتَهى الربيعُ بنُ خثيمٍ حلواءَ، فلما صنعتْ لهُ دعَا بالفقراءِ فأكلُوا، فقالَ له أهلُه: أتعبتَنا ولم تأكل، فقالَ: ومن أكلَهُ غيرِي، وقالَ آخرُ منهُم وجَرَى له نحوٌ من ذلكَ: إذا أكلتُهُ كانَ في الحشِّ وإذا أطعمتُهُ كانَ عندَ اللَّهِ مدخوراً .

ورُوِي عن عليٍّ قالَ: لأنْ أجمعَ أناسًا من إخواني على صاع من طعامٍ أحب إليَّ من أن أدخلَ سوقَكُم هذه فأبتاعُ نسمةً فأعتقُها .

وعن أبي جعفرٍ محمد بن عليٍّ قالَ: لأن أدْعُو عشرةً من أصحابي فأطعمهُمُ طعامًا يشتهونَهُ، أحبَّ إليَّ منْ أن أعتقَ عشرةً من ولد إسماعيل.

أأصفُ الإيثارَ لمن يبخلُ بأداء الحقوقِ الواجبةِ عليه، أأطلبُ الشجاعةَ من الجبانِ، وأستشهدُ على رؤيةِ الهلالِ من هوَ من جملةِ العميانِ، كم بينَ من قيلَ فيه: ﴿فلما آتاهم من فضله بخلوا به﴾ [التوبة:٧٦] وبين من قيلَ فيه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩] بيننا وبين القومِ كما بينَ اليقظةِ والنوم.

لا تعرضنَّ لذكرِنَا في ذكرِهم ... ليسَ الصحيحُ إذا مشَى كالمقعدِ

فيا من يطمعُ في علوِّ الدرجاتِ من غيرِ عملٍ صالحٍ هيهاتَ هيهاتَ ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الجاثية:٢١]

نزلواْ بمكةَ في قبائل نوفلٍ ... ونزلت بالبيداءِ أبعدَ منزلِ

الفصل الثالث من الدرجاتِ: لينُ الكلامِ وفي رواية: «إفشاءُ السلام» وهو

داخلٌ في لينِ الكلامِ ،وقد قالَ اللَّهُ عز وجل: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣] وقال تعـالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الإسـراء:٥٣] وقالَ تعـالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٤، ٣٥]، وقالَ تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥] ، وقالَ تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت:٤٦]، ولما قالَ النبيُّ ﷺ: «الحجُّ المبرورُ ليسَ له جزاءٌ إلا الجنةَ، قالوا له: وما الحجُّ المبرورُ يارسول اللَّه؟ قال: إطعامُ الطعـامِ ولينُ الكلام » خرجهُ الإمـامُ أحمدُ(١)،وقد تقدَّم في ذكـر إطعامِ الطعامِ أحاديثُ أخرُ في طيبِ الكلامِ.

وفي الحديث الصحيحِ عن النبيِّ ﷺ «والكلمةُ الطيبةُ صدقةٌ» وفيه أيضًا «اتقوا النارَ ولو بشقِّ تمرةٍ فمن لم يجدْ فبكلمةٍ طيبةٍ» .

وأما كونُ إفشاء السلامِ من موجباتِ الجنةِ ففي «صحيحِ مسلمٍ»(٢) عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «والذي نفسي بيدِه لا تدخلُوا الجنةَ حتى تؤمنُوا ولا تؤمنُوا حتى تحابُّوا ألا أدلُّكُم على شيءٍ إذا فعلتُمُوه تحاببـتُم أفشوا السلامَ فيما بينكُم» وخـرجَ أبو داودَ(٣) من حديثِ أبي أُمامةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ أوْلَى الناسِ باللَّه تعالي منْ بدأهُم بالسلامِ» ويُروَي من حديثِ ابن مسعودٍ مرفوعًا وموقوفًا «إذا مرَّ الرجلُ بالقومِ فسلَّم عليهِم فردُّوا عليه كـانَ لهُ عليهم فضلُ درجةٍ، لأنَّه ذكَّرهُم بالسلامِ، وإن لم يردُّوا عليهِ ردَّ عليه ملأٌ خيرٌ منهُم وأطيبُ».

---

(١) «المسند» (٣/ ٣٢٥) من حديث جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنه .
(٢) (١/ ٥٣).
(٣) «السنن» (٥١٩٧).

وقد رُويَ من حديثِ عمرانَ بن حصينٍ وغيرِه «أنَّ رجلاً دخلَ على النبيِّ ﷺ فقالَ: السلامُ عليكم، فقالَ النبيُّ ﷺ: «عشر»، ثم جاءَ آخرُ فقالَ: السلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّه، فقالَ رسول اللَّه ﷺ «عشرونَ»، ثم جاءَ آخرُ فقالَ: السلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتهُ، فقالَ رسول اللَّه ﷺ «ثلاثون» خرجهُ الترمذيُّ(١) وغيرُه، وخرجهُ أبو داود(٢) وزادَ «ثمَ جاءَ آخرُ فقالَ: السلامُ عليكُم ورحمةُ اللَّهِ وبركاتهُ ومغفرتهُ، فقالَ النبيُّ ﷺ «أربعون»، ثم قالَ: «هكذا تكون الفضائلُ».

وقد سبقَ حديثُ «أنْ تقرأ السلامَ على من عرفتَ ومن لم تعرفْ» وفي حديثِ ابن مسعود مرفوعًا «من أشراطِ الساعة السلامُ بالمعرفة» خرجهُ الإمامُ أحمدُ(٣).

وإنما جمعَ بينَ إطعامِ الطعامِ ولين الكلامِ ليكملَ بذلكَ الإحسانُ إلى الخلقِ بالقولِ والفعلِ فلا يتمُّ الإحسانُ بإطعامِ الطعامِ إلا بلينِ الكلامِ وإفشاءِ السلامِ، فإنْ أساءَ بالقولِ بطلَ الإحسانُ بالفعلِ من الإطعامِ وغيرِه كما قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وربما كانَ معاملةُ الناسِ بالقولِ الحسنِ أحبَّ إليهم من إطعامِ الطعامِ والإحسانِ بإعطاءِ المالِ، كما قالَ لقمانُ لابنه: يا بنيَّ لأن تكنْ كلمتُكَ طيبةً ووجهُكَ منبسطًا تكنْ أحبَّ إلى الناسِ ممن يعطيهم الذهبَ والفضةَ، وقد كانَ النبيُّ ﷺ يلينُ القولَ حتى لمن يشهدُ له بالشرِّ فينتفي بذلكَ شرُّهُ، وكانَ ﷺ لايواجهُ أحداً بما يكرهُ في وجهِهِ ولم يكنْ ﷺ فحاشًا ولا متفحشًا، ورُويَ عن ابن عمرَ أنَّه كانَ ينشدُ:

---

(١) «الجامع» (٢٦٨٩).

(٢) «السنن» (٥١٩٥).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٣٨٧ ـ ٤٠٥).

بنيَّ إنَّ البرَّ شيءٌ هينُ ... وجهٌ طليقٌ وكلامٌ لينُ

ولبعضهم:

خذِ العفوَ وأمرْ بعرفٍ كما ... أُمرْتَ وأعرضْ عن الجاهلينَ
ولِنْ في الكلامِ لكلِّ الأنامِ ... فمستحسنٌ من ذوي الجاهِ لينِ

وقد وصفَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ في كتابِهِ أهلَ الجنةِ بمعاملةِ الخلقِ بالإحسانِ بالمالِ واحتمالِ الأذَى فقالَ تعالى: ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤] فالإنفاقُ في السراءِ والضراءِ يقتضي غاية الإحسان بالمالِ من الكثرةِ والقلَّة، وكظم الغيظ والعفوِ عن الناسِ يقتضِي عدمَ المقابلةِ على السيئةِ من قولٍ وفعلٍ وذلك يتضمنُ إلانةَ القولِ واجتنابَ الفحشِ والإغلاظَ في المقالِ، ولو كانَ مباحًا، وهذا نهايةُ الإحسانِ فلهذا قالَ تعالَى: ﴿**وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٤].

ومن هذا قولُ بعضهم وقد سُئِلَ عن حُسنِ الخلقِ فقالَ: بذلُ النَّدى وكفُّ الأذَى.

وهذا الوصفُ المذكورُ في القرآنِ أكملُ من هذا، لأنَّه وصفهُم ببذلِ الندى واحتمالِ الأذى، وحُسنِ الخلقِ يبلغُ به العبدُ درجاتِ المجتهدينَ في العبادة، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «**إنَّ الرجلَ ليدركُ بحسنِ خلقهِ درجةَ الصائمِ النهارَ القائمِ الليلَ**»(١)، ورؤيَ بعضُ السلفِ في المنامِ فسئلَ عن بعضِ إخوانِه الصالحينَ فقالَ: وأينَ ذلكَ رُفعَ في الجنةِ بحسنِ خلقِه.

---

(١) أخرجه: أحمد (٣/ ١٣٣ - ١٨٧).

ومما يندبُ إلى إلانةِ القولِ فيه الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عن المنكرِ وأنْ يكونَ برفقٍ، كما قالَ تعالَى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

قال بعضُ السلفِ: ما أغضبتَ أحدًا فَقَبِلَ منْكَ، وكانَ أصحابُ ابنِ مسعودٍ إذا رأوا قومًا على ما يكرهُ يقولونَ لهم: مهلاً مهلاً باركَ اللَّهُ فيكم. ورأى بعضُ التابعينَ رجلاً واقفًا مع امرأةٍ فقالَ لهما: إن اللَّهَ يراكمُا سترنا اللَّهُ وإيَّاكم، ودُعي الحسنُ إلى دعوةٍ فجيء بآنيةِ فضةٍ فيها حلواءُ، فأخذَ الحسنُ الحلواءَ فقلبهَا على رغيفٍ وأكلَ منهَا، فقالَ بعضُ من حضرَ: هذا نهيٌ في سكونٍ، ورأى الفضيلُ رجلاً يعبثُ في صلاتِه فزبرهُ، فقالَ له الرجلُ: يا هذا ينبغي لمنْ يقومُ للهِ أن يكونَ ذليلاً، فبكى الفضيلُ وقالَ له: صدقتَ.

قال شعيبُ بنُ حربٍ: ربما مرَّ سفيانُ الثوريُّ بقومٍ يلعبونَ بالشطرنجِ فيقولُ: ما يصنعُ هؤلاءِ؟ فيقالُ له: يا عبد اللَّهِ ينظرونَ في كتابٍ، فيطاطئ رأسَهُ ويمضي، وإنما يريدُ بذلكَ ليُعلمَ أنَّه قد أنكرَ.

وقالَ سفيانُ: لا يأمرُ بالمعروفِ ولا ينهى عن المنكرِ إلا من كانَ فيهِ خصالٌ ثلاثٌ: رفيقٌ بما يأمرُ، رفيقٌ بما يَنهى، عدلٌ بما يأمرُ، عدلٌ بما ينهى، عالمٌ بما يأمرُ، عالمٌ بما يَنهَى. وقالَ الإمامُ أحمدُ: الناسُ يحتاجونَ إلى مداراةٍ ورفقٍ في الأمر بالمعروفِ بلا غلظةٍ إلا رجلاً معلنًا بالفسقِ، فإنَّهُ لا صبرَ عليه.

وكانَ كثيرٌ من السلفِ لا يأمرُ بالمعروفِ ولا ينهى عن المنكرِ إلا سرًّا فيما بينه وبينَ من يأمُرُه وينهاهُ. وقالَ أبو الدرداءِ: من وعظَ أخاهُ سرًّا فقد زانهُ ومن وعظه علانيةً فقد شانهُ.

وكذلك مقابلةُ الأذى بإلانةِ القولِ كما قالَ تعالَى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

السَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون:٩٦] وقالَ تعالَى: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٢] قال بعضُ السلفِ: هو الرجلُ يسبُّه الرجلُ، فيقولُ له: إن كنتَ صادقًا فغفر اللَّهُ لي، وإن كنتَ كاذبًا فغفرَ اللَّهُ لكَ.

قالَ رجلٌ لسالمِ بنِ عبد اللَّهِ وقد زحمتْ راحلتُه في سفرٍ: ما أراك إلا رجلَ سوءٍ، فقال له سالمٌ: ما أراكَ أبعدتَ.

وقالت امرأةٌ لمالكِ بن دينارٍ: يا مُرائي، قال: متى عرفتِ اسمي؟ ما عرفَه أحدٌ من أهلِ البصرةِ غيرُكِ.

ومرَّ بعضُهم على صبيانٍ يلعبونَ بجوزٍ فوطيءَ على بعضِ الجوز بغيرِ اختيارِه فكسرَهُ، فقالَ له الصبيّ: يا شيخُ، النارَ، فجلسَ الشيخُ يبكي ويقولُ: ما عرَّفني غيرُهُ. ومر بعضُهم مع أصحابهِ في طريقٍ فرموا عليهم رمادًا، فقالَ الشيخ لأصحابِهِ: من يستحقّ النَّارَ فصالحُوه على الرمادِ، يعني فهو رابحٌ.

ورأى جنديٌّ إبراهيمَ بنَ أدهمَ خارجَ البلدِ فسألهُ عن العمرانِ فأشارَ له إلى القبورِ فضربَ رأسهُ ومضَى فقيلَ له: إنَّه إبراهيمُ بنُ أدهمَ فرجعَ يعتذرُ إليه، فقالَ له إبراهيم: الرأسُ الذي يحتاجُ إلى اعتذاركَ تركتُه ببلخٍ، ومرَّ به جنديٌّ آخر وهو ينظرُ بستانًا لقومٍ بأجرةٍ فسألهُ أن يناولَهُ شيئًا فلم يفعلْ وقالَ: إنَّ أصحابَهُ لم يأذنوا في ذلك، فضربَ رأسَهُ فجعلَ إبراهيمُ يطأطيءُ رأسَهُ وهو يقولُ: اضربْ رأسًا طالمَا عَصى اللَّهَ.

من أجلكَ قد جعلتُ خدِّي أرضًا للشامتِ والحسودِ حتى ترضَى

الثالثُ من الدرجات:

الصلاةُ بالليلِ والناسُ نيامٌ: فالصلاةُ بالليلِ من موجباتِ الجنةِ كما سبقَ ذكرُه

في غيرِ حديثٍ، وقد دلَّ عليه قولُه عز وجل: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات: ١٥ - ١٩]. فوصفَهم بالتيقظِ بالليلِ والاستغفارِ بالأسحارِ وبالإنفاقِ من أموالِهم.

كانَ بعضُ السلفِ نائمًا فأتاه آتٍ في منامِه فقالَ له: قمْ فصلِّ أما علمتَ أن مفاتيحَ الجنةِ مع أصحابِ الليلِ هم خزانهَا؟!

وقيام الليلِ يوجب علو الدرجات في الجنة قالَ اللَّهُ تعالَى لنبيه ﷺ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] فجعلَ جزاءَهُ على التهجدِ بالقرآنِ بالليلِ أن يبعثَهُ المقامَ المحمودَ وهو أعلى درجاتِه ﷺ.

قال عونُ بنُ عبدِ اللَّهِ: «إنَّ اللَّهَ يُدخلُ الجنةَ أقوامًا فيعطيهم حتى يملُّوا وفوقَهم ناسٌ في الدرجاتِ العلى، فلمَّا نظروا إليهم عرفوهُم فقالُوا: ربنا، إخواننا كنَّا معهُم فبم فضَّلْتهم علينا؟ فيقولُ: هيهاتَ هيهاتَ إنَّهم كانُوا يجوعونَ حين تشبعونَ، ويظمؤونَ حين تروونَ، ويقومونَ حينَ تنامون، ويشخصونَ حينَ تخفضونَ»، ويوجبُ أيضًا نعيمَ الجنة ما لم يطلعْ عليه العبادُ في الدنيا قالَ اللَّهُ عز وجل: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦ - ١٧]، وفي «الصحيحِ» عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**يقول اللَّهُ عز وجل: أعددتُ لعبادِي الصالحينَ ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ اقرؤوا إن شئتمُ: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا**

يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة:١٧]». قالَ بعضُ السلفِ: أخفَوا للَّهِ العملَ فأخفَى اللَّهُ لهم الجزاءَ فلو قدموا عليهِ لأقرَّ تلكَ الأعينَ عندَهُ.

ومما يجزي به المتهجدينَ في الليلِ كثرةَ الأزواجِ من الحورِ العين في الجنةِ فإنَّ المتهجدَ قَد تركَ لذةَ النومِ بالليلِ ولذةَ التمتعِ بأزواجِهِ طلبًا لما عندَ اللَّهِ عز وجل فعوَّضَهُ اللَّهُ تعالَى خيرًا مما تركَهُ وهوَ الحورُ العينِ في الجنةِ، ومن هُنا قالَ بعضُهم: طولُ التهجدِ مهورُ الحورِ العينِ في الجنةِ.

وكانَ بعضُ السلفِ يُحيي الليلَ بالصلاة، فَفَتُرَ عن ذلك فأتاهُ آتٍ، فقال له: قد كنتَ يا فلانُ تدأبُ في الخطبةِ، فما الذي قصرَ بكَ عن ذلكَ؟ كنتَ تقومُ من الليلِ أوَ ما علمتَ أن المتهجدَ إذا قامَ إلى التهجدِ قالتِ الملائكةُ: قد قامَ الخاطبُ إلى خطبتِهِ؟!

ورأى بعضُهم في منامِه امرأةً لا تشبهُ نساءَ الدُّنيا فقالَ لها: من أنتِ؟ قالتْ: حوراءُ أمةُ اللَّهِ، فقالَ لها: زوِّجيني نفسَكِ، قالتْ: اخطُبني إلى سيِّدي وامهُرني، قالَ: وما مهرُكِ؟ قالتْ: طولُ التهجدِ.

قامَ بعضُ المتهجدينَ ذاتَ ليلةٍ فرأى في منامِهِ حوراءَ تنشدُ:

أتخطبُ مثْلي وعني تنامُ ... ونومُ المحبينَ عنَّا حرامُ
لأنا خلقْنَا لكلِّ امريءٍ ... كثيرِ الصلاةِ براهُ الصيامُ

وكانَ لبعضِ السلفِ وِرْدٌ من الليلِ فنَامَ عنهُ ليلةً فرأى في منامه جاريةً كأنَّ وجهها القمرُ، ومعَها رقٌّ فيه كتابٌ فقالتْ: أتقرأ؟ قالَ: نعم، فأعطتهُ إياهُ ففتحهُ فإذا فيه مكتوبٌ:

أتلهُو بالكَرَى عن طيبِ عيشٍ ... مع الخيراتِ في غرفِ الجنانِ

تعـيش مـخلَّـدًا لا مـوت فـيـهِ وتنـعمُ في الجنـانِ مع الحسـانِ
تيـقظ من منـامِكَ إنَّ خـيـراً من النـومِ التـهـجـد بالقـرآنِ

فاستيقظَ قالَ: فواللّهِ ما ذكرتُها إلا ذهبَ عنِّي النومُ.

كان بعضُ الصـالحينَ له وِردٌ فنامَ عنه فوقفَ عليـه فتى في منامِهِ فـقال لهُ بصوتٍ محزونٍ:

تيـقظْ لسـاعـاتٍ من الليلِ يا فـتى لعلـكَ تحظَى في الجنـانِ بحـورِها
فـتـنعمُ في دارٍ يدومُ نعـيـمُـهَـا مـحـمـدٌ فـيـهـا والخـليلُ يزورهَا
فـقم فـتيـقظْ سـاعـةً بعد سـاعـةٍ عـساكَ توفَّـى ما بقيَ من مـهـورِها

كان بعضُ السلفِ الصـالحينَ كثيرُ التـعبدِ، فبكى شوقًـا إلى اللّهِ عز وجل ستينَ سنةً فرأى في منامِهِ كأنّهُ على ضفةِ نهرٍ يجري بالمسكِ حافتاهُ شجرُ لؤلؤ ونبتٌ من قضبانِ الذهبِ، فإذا بجوارٍ مُـزيَّنَاتٍ يقلنَ بصوتٍ واحدٍ: سـبحانَ المسبِّحُ بكلِّ لسانٍ سبحانَهُ. سبحان الموحَّدِ بكلِّ مكانٍ سبحانه. سبحان الدائمِ في كلِّ الأزمانِ سبحانه. فقال لهنَّ: ما تصنعن ههنا؟ فقلن:

برانَا إلـهُ الناسِ ربُّ مـحـمـدٍ لقـومٍ على الأقـدامِ بالليلِ قـوّمُ
يناجـونَ ربَّ العـالمينَ إلـهـهم وتسـري همـومُ القـومِ والناسُ نوّمُ

فقال: بَخٍ بَخٍ لهـؤلاءِ، من هم، لقد أقرَّ اللّهُ أعينهُم بـكنَّ؟ فقلنَ: أو ما تعرفَهم؟ قالَ: لا، فقلنَ: بلى هؤلاءِ المتهجدونَ أصحابُ القرآنِ والسهرِ.

وكـان بعضُ الصالحـينَ ربما نامَ في تهجـدهِ، فـتوقظُـه الحوراءُ في منامـهِ فيسـتيقظُ بإيقاظها، ورُويَ عن أبي سليـمان الداراني أنه قالَ: ذهبَ بي النومُ

ذاتَ ليلةٍ في صلاتي فـإذا بها ـ يعني الحوراء ـ تنبهني وتقـولُ: يا أبا سليمانَ أترقدُ وأنا أُربَّى لك في الخدرِ منذ خمسمائة سنة؟ وفي رواية عنهُ: أنه نام ليلةً في سجودهِ قـالَ: فإذا بها قدْ ركضـتني بِرِجْلِهَا وقالتْ: حبيـبي أترقدُ عيناكَ والملكُ يقظانُ ينظرُ إلى المتـهجـدينَ في تهـجدِهم؟ بؤسًـا لعينٍ آثرتْ لذةَ نومٍ على مناجاةِ العزيزِ، قمْ فقدْ دنا الفراغُ ولقيَ المحبـونَ بعضهم بعضًا، فما هذا الرقـادُ يا حبـيبي وقـرةَ عـيني؟ أترقدُ عـيناكَ وأنا أُربَّى لكَ في الخـدورِ منذ خمـسمائةِ عـامٍ؟ فوثبَ فزعًـا وقد عرقَ من توبيـخهَا له، قـالَ: وإن حلاوةَ منطقها لفي سمعي وقلبي.

وكـان أبو سليـمـانَ يقـولُ: أهلُ الليلِ في ليلـهِم ألذُّ من أهل اللهـو في لهوهم، ولولا الليلُ ما أحببتُ البقاءَ في الدنيا.

وقال يزيدُ الرقاشيُّ لحبيبٍ العجميِّ: ما أعـلمُ شيئًا أقرّ لعيونِ العابدينَ في الدنيا من التهـجدِ في ظلمةِ الليلِ، وما أعلم شيئًـا من نعيمِ الجنانِ وسرورها ألذُّ عند العابدينَ ولا أقرَّ لعيونِهم من النظرِ إلى ذي الكبرياءِ العظيمِ إذا رُفعتْ تلكَ الحجب، وتجلّى لهم الكريمُ، فصاحَ حبيبٌ عندَ ذلكَ وخرَّ مغشيا عليه.

وكانَ السريُّ يقول: رأيتُ الفوائدَ تردُ في ظلامِ الليلِ.

وقالَ أبو سليمان: إذا جنَّ الليلُ وخلا كلُّ محبٍّ بحبيبهِ افترشَ أهلُ المحبةِ أقدامَهُم، وجرتْ دموعُهم على خدودهِم، أشرفَ الجليلُ جل جلالهُ فنادَى يا جبريلُ بعيني من تلذذَ بكلامي واستروحَ إلى مناجـاتي، نادِ فيهم يا جبريلُ ما هذا البكاءُ هل رأيتُم حبيبًا يعذّب أحباءَهُ أم كيفَ يجملُ بي أن أعذِّبَ قومًا إذا جنَّهُمُ الليلُ تملَّقُوني، فـبي حلفتُ، إذا قدموا عليَّ يوم القيامـةِ لأكشفنَّ لهمْ

عن وجهي، ينظرونَ إليَّ وأنظر إليهم.

وسئلَ الحسنُ البصريُّ لم كانَ المتهجدون أحسنُ الناس وجوهًا؟ قالَ: لأنَّهُم خلَوا بالرحمنِ فألبسَهُم نورًا من نوره.

رأتِ امرأةٌ من الصالحاتِ في منامِهَا كأنَّ حللاً قد فرِّقتْ على أهلِ مسجدِ محمدِ بنِ جحادةَ، فلما انتهَى الذي يفرِّقها إليه دعَا بسفطٍ مختومٍ فأخرجَ منه حلةً صفراء، قالت: فلم يقُمْ لها بصرِي فكساهُ إياها وقالَ: هذه لكَ بطولِ السهرِ، قالتْ: فواللَّهِ لقد كنتُ أراه ـ تعني محمدَ بن جحادةَ ـ بعد ذلكَ فأتخايلُها عليهِ ـ تعني: تلكَ الحلةَ ـ .

قالَ كرزُ بنُ وبرةَ: بلغَني أنَّ كعباً قالَ: إنَّ الملائكةَ ينظرونَ من السماءِ إلى الذينَ يتهجدونَ بالليلِ كما تنظرونَ أنتم إلى نجومِ السماء.

يا نفسُ فازَ الصالحونَ بالتُّقى ... وأبصرُوا الحقَّ وقلبي قد عمِي
يا حُسْنَهُم والليلُ قد أجنَّهُم ... ونورُهُم يفوقُ نورَ الأنجمِ
ترنَّمُوا بالذكرِ في ليلِهم ... فعيشُهُم قدْ طابَ بالترنمِ
قلوبُهُم للذِّكْرِ قد تفرغتْ ... دموعُهم كلؤلؤٍ منظَّمِ
أسحارُهُم بهم لهم قد أشرقتْ ... وخلَعُ الغفرانِ خيرُ المقسمِ

في بعضِ الآثارِ يقولُ اللَّهُ عز وجل كلَّ ليلةٍ: ياجبريلُ أقمْ فلاناً وأنمْ فلاناً. قام بعضُ الصالحينَ في ليلةٍ باردةٍ وكانَ عليه خلقانُ رثةٌ فضربهُ البردُ فبكى فسمعَ هاتفاً يقولُ: أقمناكَ وأنمناهُم ثمَّ تبكي علينًا.

تنبهوا يا أهلَ وادي المنحنى ... كم ذا الكرى هبَّ نسيم وجدي
كم بين خالٍ وجوٍ وساهرٍ ... وراقدٍ وكاتمٍ ومبدي

قيلَ لابنِ مسعودٍ: ما نستطيع قيامَ الليلِ، قالَ: أبعدَتْكُم ذنوبُكُم .

وقيلَ للحسنِ: أعجزنا قيامُ الليل، قالَ: قيدتْكُم خطاياكُم، إنما يؤهِّلُ الملوكُ للخلوةِ بهم ومخاطبتِهِم منْ يخلصُ في ودادِهِم ومعاملتِهِم، فأمَّا من كانَ من أهلِ مخالفتِهِم فلا يرضونَهُ لذلكَ.

اللّيلُ لي ولأحبَابي أحادثُهُم ... قد اصطفيتُهُم كَي يسمعُوا ويعُوا
لَهم قلوبٌ بأسرارٍ لَها مُلئتْ ... على ودادِي وإرشَادِي لهُم طُبعُوا
قد أثمرتْ شجراتُ الفهمِ عندهُمُ ... فما جَنوا إذ جَنوا مما به ارتفعُوا
سرَوا فما وهَنُوا عجزاً وما ضعفُوا ... وواصلُوا حبلَ تقريبي فما انقطَعُوا

الفصل الثالث: في ذكرِ الدعواتِ المذكورةِ في هذا الحديثِ:

وهيَ:

« اللهم إني أسألكَ فعلَ الخيراتِ، وتركَ المنكراتِ، وحبَّ المساكين، وأن تغفرَ لي وترحمني،وإذا أردتَ بقومٍ فتنةً فاقبضْني إليكَ غيرَ مفتونٍ وأسألكَ حُبَّكَ وحبَّ من يحبُّك وحبَّ العملِ الذي يبلغُني حبَّك»، فقالَ النبيُّ ﷺ: **«تعلموهنَّ وادرُسُوهنَّ فإنهنَّ حقٌ»** .

هذا دعاءٌ عظيمٌ من أجمعِ الأدعيةِ وأكملِهَا، فقولهُ ﷺ: **«أسألُكَ فعلَ الخيراتِ وتركَ المنكراتِ »** يتضمنُ طلبَ كلِّ خيرٍ وتركَ كلِّ شرٍّ، فإنَّ الخيراتِ تجمعُ كلَّ ما يحبُّه اللَّهُ تعالَى ويقربُ منهُ منَ الأعمالِ والأقوالِ من الواجباتِ والمستحباتِ، والمنكراتِ تشملُ كلَّ ما يكرههُ اللَّهُ تعالَى ويباعدُ عنهُ من الأقوالِ والأعمالِ، فمنْ حصلَ له هذا المطلوبُ حصلَ له خيرُ الدنيا والآخرةِ، وقد كانَ النبيُّ ﷺ يحبُّ مثلَ هذه الأدعيةِ الجامعةِ، قالتْ عائشةُ: «كانَ النبيُّ

ﷺ يعجبهُ الجوامعَ من الدعاءِ ويدعُ ما بينَ ذلكَ». خرجه أبو داود.

وقوله: «**وحب المساكين**» هذا قد يقالُ إنهُ من جملةِ فعلِ الخيراتِ وإنَّما أفرده بالذكرِ لشرفهِ وقوةِ الاهتمامِ به، كما أفردَ أيضًا ذكرَ حبِّ اللَّهِ تعالى وحبِّ من يحبُّه وحبِّ عملٍ يبلِّغهُ إلى حبِّه، وذلكَ أصلُ فعلِ الخيراتِ كلِّها، وقد يُقالُ: إنه طلبَ من اللَّهِ عز وجل أن يرزقهُ أعمالَ الطاعاتِ بالجوارحِ، وتركَ المنكراتِ بالجوارحِ، وأن يرزقَهُ ما يوجبُ له ذلكَ وهو حبُّه وحبُّ من يحبُّه، حبُّ عملٍ يبلغهُ حبَّه، فهذه المحبةُ بالقلبِ موجبةٌ لفعل الخيراتِ بالجوارحِ ولتركِ المنكراتِ بالجوارحِ، وسألَ اللَّهَ تعالى أن يرزقَهُ المحبةَ فيه، فقد تضمنَ هذا الدعاءُ سؤال حبِّ اللَّهِ عز وجل وحبِّ أحبابِهِ، وحبِّ الأعمالِ التي تقرِّبُ من حبِّه والحبِّ فيه، وذلكَ يقتضي فعلَ الخيراتِ كلِّها ويتضمنُ تركَ المنكراتِ، والسلامةَ من الفتنِ، وذلكَ يتضمنُ اجتنابَ الشرِّ كلِّه فجمعَ هذا الدعاءُ طلبَ خير الدنيا وتضمنَ سؤالَ المغفرةِ والرحمةِ وذلكَ يجمعُ خيرَ الآخرةِ كلَّه فجمعَ هذا الدعاءُ خيري الدنيا والآخرةِ.

والمقصودُ أنَّ حبَّ المساكين أصل الحبِّ في اللَّهِ تعالى؛ لأنَّ المساكينَ ليسَ عندهم من الدنيا ما يوجبُ محبَّتهم لأجلِ فلا يحبونَ إلا للَّهِ عز وجل والحبُّ في اللَّهِ من أوثقِ عُرى الإيمان، ومن علاماتِ ذوقِ حلاوةِ الإيمانِ، وهو صريحُ الإيمانِ، وهو أفضلُ الإيمانِ، وهذا كلُّه مرويٌّ عن النبيِّ ﷺ أنه وصفَ به الحبَّ في اللَّهِ تعالى، ورُويَ عن ابن عباسٍ أنه قال: «به تنالُ ولايةُ اللَّهِ وبه يوجدُ طعم الإيمانِ».

وحبُّ المساكين قد أوصَى به النبيُّ ﷺ غيرَ واحدٍ من أصحابِهِ، قالَ

أبـو ذرٍّ: «أوصانِي رسولُ اللَّهِ ﷺ أنْ أحبَّ المساكينَ وأنْ أدنوَ منهُم» خـرجهُ الإمامُ أحمدُ(١).

وخرَّج الترمذيُّ(٢) عن عائشةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ لها: «يا عائشةُ أحبِّي المساكينَ وقرِّبيهم فإنَّ اللَّهَ يقربكِ يومَ القيامةِ».

ويروى أن داودَ عليه السـلام كانَ يجالسُ المساكين ويقـولُ: ياربِّ مسكينٌ بين مساكين. ولم يزلِ السلفُ الصالحُ يوصونَ بحبِّ المساكينِ - كتبَ سفيانُ الثوريُّ إلى بعضِ إخـوانِهِ - عليكَ بالفقراءِ والمساكينِ والدنو منـهمُ فإنَّ رسولَ اللّه ﷺ كانَ يسأل ربه حبَّ المساكين، وحبَّ المساكينِ مستلزمٌ لإخلاصِ العمل للَّهِ تعالَى، والإخلاصُ هو أساسُ الأعمالِ الـذي لاتثبتُ الأعمالُ إلاعليه، فإنَّ حبَّ المساكين يقتضِي إسداءَ الـنفع إليهِم بما يمكنُ من منافعِ الدينِ والدنيا، فإذا حصلَ إسداءُ النفع إليهِم حبًّا لَهُم، والإحسانُ إليهم كان هذا العملُ خالصًا وقد دلَّ القرآنُ على ذلكَ، قـالَ اللَّهُ تعالَى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الأنسان:٩،٨]، وقالَ عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٢]، وقالَ تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف:٢٨].

قـالَ سـعـدُ بنُ أبي وقـاصٍ: نزلتْ هذه الآيـةُ في سـتـةٍ: فيَّ، وفي ابن مسعودٍ، وصهيبٍ، وعمارٍ، والمقدادِ، وبلالٍ. قالتْ قريشٌ لرسولِ اللَّهِ ﷺ: إنا

(١) أخرجه: أحمد (١٥٩/٥) بلفظ: «أمرني خليلي بسبعٍ: أمرني بحبِّ المساكين والدنوِّ منهم..».
(٢) أخرجه: الترمذي (٢٣٥٢).

لا نرضى أن نكونَ أتباعًا لَهُم فاطردْهُم عنكَ، فأنزلَ اللَّهُ عز وجل: ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الأنعام:٥٢] الآية(١).

وقالَ خبابُ بنُ الأرتِ في هذه الآيةِ «جاء الأقرعُ بنُ حابسٍ وعيينةُ بنُ حصنٍ، فوجدَا رسول اللَّهِ ﷺ مع صهيبٍ وعمارٍ وبلالٍ وخباب قاعداً في ناسٍ من الضعفاءِ منَ المؤمنينَ، فلما رأوهُم حولَ النبيِّ ﷺ حقروهُم، فأتوه فخَلوا بهِ وقالوا: إنا نريدُ أن نجعلَ لنا منكَ مجلسًا تعرفُ لنا به العربُ فضلَنَا، فإنَّ وفودَ العربِ تأتيكَ فنستحي أن ترانا مع هولاءِ الأعبدِ، فإذَا نحنُ جئناكَ فأقمهُم عنكَ، فإذا نحنُ فرغنَا فاقعدْ معهم إن شئت، قالَ: «نعم»، قالوا: فاكتبْ لنا عليكَ كتاباً، قالَ فدعا بصحيفةٍ، ودعا عليًا ليكتبَ ونحن قعودٌ في ناحيةٍ فنزلَ جبريلُ - عليه السلام - فقال: ﴿ وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام:٥٢] ثم ذكرَ الأقرعَ بنَ حابسٍ، وعيينةَ ابنَ حصنٍ فقالَ: ﴿ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام:٥٣] ثم قالَ: ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام:٥٤]. قالَ: فدنونَا منهُ حتَّى وضعْنَا رُكَبَنَا عَلَى رُكْبَتَيه، وكانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يجلسُ معنا فإذا أرادَ أنَّ يقومَ قامَ وتركنَا، فأنزلَ اللَّهُ عز وجل ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف:٢٨] ولاتجالسِ الأشرافَ ﴿ وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ [الكهف:٢٨] يعني عيينةَ، والأقرع قالَ خبابٌ: فكنَّا

---

(١) أخرجه: مسلم (٧/ ١٢٧)، وابن ماجه (٤١٢٨).

نقعدُ مع النبيِّ ﷺ فإذا بلغنَا الساعةَ التي يقومُ قمنا وتركناهُ حتى يقومَ» خرجه ابنُ ماجَه(١)، وغيرهُ.

وكان النبيُّ ﷺ يعودُ المرضَى من مساكينِ أهلِ المدينةِ ويشيعُ جنائزهُم وكان لايأنفُ أن يمشيَ مع الأرملةِ والمسكينِ حتى يقضيَ حاجتَهُما وعلى هذا الهَدْي كانَ أصحابُهُ مِن بعدهِ والتابعون لهم بإحسانٍ.

وروي عن أبي هريرة قال: «كان جعفر بن أبي طالبٍ يحبُّ المساكينَ ويجلسُ إليهم ويحدِّثهم ويحدِّثونه، وكان النبيُّ ﷺ يكنيه أبا المساكين». وفي رواية «أنهُ كان يعمهم وربما أخرج لهم عكةً فيها العسل فشقُّوها ولعقوها».

وكانتْ زينبُ بنْتُ خزيمةَ أمُّ المؤمنينَ تسمَّى أمَّ المساكينَ لكثرةِ إحسانِها إليهم وتوفيتْ في حياةِ النبيِّ ﷺ.

وقالَ ضرارُ بن مُرَّةَ في وصف عليِّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه في أيامِ خلافتهِ: كان يعظمُ أهلَ الدينِ ويحبُّ المساكينَ، ومرَّ ابنهُ الحسنُ رضي الله عنهما على مساكينَ يأكلونَ فدعُوه فأجابهمُ وأكلَ معهُم، وتلا ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل:٢٣]، ثم دعاهم إلى منزِلهِ فأطعمهم وأكرمهمُ وكان ابنُ عمر لا يأكلُ غالبًا إلا معَ المساكينِ وكانَ يقُولُ لعلَّ بعضَ هؤلاءِ أن يكونَ ملكًا يومَ القيامةِ.

وجاءَ مسكينٌ أعمى إلى ابن مسعودٍ وقد ازدحَم الناسُ عندَهُ فناداَهُ يا أبا عبدِ الرحمنِ آويتَ أربابَ الخزِّ واليمنيةِ وأقصيتني لأجلِ أنِّي مسكينٌ، فقالَ له: أُدْنُهْ فلم يزلْ يُدْنِيهِ حتى أجلسهُ إلى جانبهِ أو بقُرْبهِ.

وكانَ مطرفُ بنُ عبدِ اللَّهِ يلبسُ الثيابُ الحسنةَ ثم يأتِي المساكينَ ويجالسهم.

---

(١) «السنن» (٤١٢٧).

وكان سفيانُ الثوريُّ يعظمُ المساكينَ ويجفو أهلَ الدنيا فكانَ الفقراءُ في مجلسه همُ الأغنياءُ والأغنياءُ همُ الفقراءُ، وقالَ سليمانُ التيميُّ: كنَّا إذَا طلبنَا علية أصحابنا وجدْناهُم عندَ الفقراءِ والمساكينِ. وقالَ الفضيلُ: من أراد عزَّ الآخرة فليكن مجلسهُ مع المساكينِ، ومن فضائلِ المساكينِ أنهُم أكثرُ أهلِ الجنة، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «قمتُ على بابِ الجنة فإذا عامةُ من دخلَها المساكينُ»[(١)] وقالَ ﷺ: «تحاجت الجنةُ والنارُ، فقالت الجنةُ: لا يدخلني إلا الضعفاءُ والمساكينُ»[(٢)].

وسئلَ النبيُّ ﷺ عن أهل الجنةِ فقالَ: «**كلُّ ضعيفٍ مستضعف**»[(٣)] وهم أولُ الناسِ دخولاً الجنةَ كما صحَ عنه ﷺ: «**إن الفقراءَ يسبقونَ الأغنياءَ إلى الجنة بأربعين عامًا**»[(٤)] - وفي روايةٍ - «**أنهم يدخلون الجنةَ بنصفِ يومٍ وهو خمسمائة سنةٍ**»[(٥)] وهم أولُ الناسِ إجازةً على الصراطِ كما صحَّ عنه ﷺ أنهُ سئلَ من أولُ الناسِ إجازةً على الصراط؟ فقالَ: «**فقراءُ المهاجرينَ**»[(٦)] وهم أولُ الناسِ ورودًا على الحوضِ كما قالَ ﷺ: «**أولُ الناسِ ورودًا عليه فقراءُ المهاجرينَ الدَّنسة رءوسُهم، الشعثةُ ثيابهُم**[(٧)] **الذينَ لا ينكِحونَ المتنعماتِ ولا تفتحُ لهم السددُ**»[(٨)]وهم

(١) أخرجه: البخاري (٧/ ٣٩)، (٨/ ١٤١)، ومسلم (٨/ ٨٨)، كلاهما عن أسامة بن زيد.

(٢) أخرجه: البخاري (٦/ ١٧٣)، ومسلم (٨/ ١٥٠ - ١٥١).

(٣) أخرجه: البخاري (٦/ ١٩٨).

(٤) أخرجه: الترمذي (٢٣٥٢)، (٢٣٥٥).

(٥) أخرجه: الترمذي (٢٣٥١)، (٢٣٥٣)، (٢٣٥٤)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٥١٣).

(٦) أخرجه: مسلم (١/ ١٧٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١/ ١٦٩)، وابن خزيمة (٢٣٢).

٧) كذا بالأصل، والصحيح كما في مصادر التخريج: «**الدنسُ ثيابًا، والشعثُ رؤوسًا**» على وصف الثيابِ بالدنَسِ، والشعرِ بالشعَثِ.

٨) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٢٧٥)، والترمذي (٢٤٤٤)، وابن ماجه (٤٣٠٣) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

أتباعُ الرسلِ كما أخبرَ اللَّهُ تعالى عن نوحٍ عليه السلامُ أن قومَهُ عيرُوهُ باتباع الضعفاءِ له فقالُوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١].

وكذلكَ قالَ هرقلُ لأبي سفيانَ لما سألهُ عن النبيِّ ﷺ وهل يتبعه أشرافُ الناسِ أم ضعفاؤهم؟ فقال: بل ضعفاؤهم، قالَ هرقلُ: هم أتباعُ الرسلِ[١].

وهم أفضلُ من الأغنياءِ عندَ كثيرٍ من العلماءِ أو أكثرهم، وقد دلَّ على ذلكَ أدلةٌ كثيرةٌ منها قولُ النبيِّ ﷺ حينَ مرَّ به الغنيُّ والمسكينُ في المسجدِ: «**هذا - يعني المسكينَ - خيرٌ من ملءِ الأرضِ مثلَ هذا - يعني الغنيَّ**» وقد خرَّجه البخاريُّ وغيرُهُ[٢].

ومنهُم من لو أقسمَ على اللَّهِ لأبرهُ كما في «الصحيحِ»[٣] عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ في أهلِ الجنةِ: «**كلُّ ضعيفٍ مستضعفٍ لو أقسمَ على اللَّهِ لأبَرَّهُ**» وفي روايةٍ «**أشعثَ ذو طمرينِ**» وفي روايةٍ خرجَها ابنُ ماجه[٤] «**أنَّهم ملوكُ أهلِ الجنةِ**» وفي الحديثِ المشهورِ «**ربَّ أشعثَ أغبرَ ذي طمرينِ مدفوعٌ بالأبوابِ لو أقسمَ على اللَّهِ لأبَرَّهُ**» خرجهُ الحاكمُ وغيرهُ[٥].

ربَّ ذي طمرينِ نضوٍ ... يأمنُ العالمُ شرَّهُ
لا يُرى إلا غنيًّا ... وهوَ لا يملكُ ذرَّهْ
ثم لو أقسمَ في شيءٍ ... على اللَّهِ أبرَّهُ

---

(١) أخرجه: البخاري (١/٦).
(٢) أخرجه: البخاري (٧/٩)، (٨/١١٨)، وابن ماجه (٤١٢٠).
(٣) أخرجه: البخاري (٦/١٩٨).
(٤) أخرجه: ابن ماجه (٤١١٥).
(٥) أخرجه: مسلم (٨/٣٦)، والحاكم (٤/٣٢٨) من حديثِ أبي هريرة رضي الله عنه.

قال ابنُ مسعودٍ: كونُوا جدَدَ القلوبِ، خلقانَ الثيابِ، سرجَ الليلِ مصابيحَ الظلامِ، تعرفونَ في أهلِ السماءِ وتخفونَ على أهلِ الأرضِ.

طُوبى لعبدٍ بحبلِ اللَّهِ معتصمه ... على صراطٍ سويٍّ ثابتٌ قدمُه
رثٍّ اللباسِ جديد القلبِ مستترٍ ... في الأرضِ مشتهرٌ فوقَ السماء وسمُه
ما زالَ يستحقرُ الأولى بهمتهِ ... حتَّى يرقى إلى الأخرى به هممُه
فذاكَ أعظمُ من التاجِ متكئًا ... على النمارقِ محتفا به خدمُهُ

واعلم؛ أنَّ محبةَ المساكينِ لها فوائدُ كثيرةٌ:

منها: أنَّها توجبُ إخلاصَ العملِ للهِ عز وجل، لأنَّ الإحسانَ إليهم لمحبَّتهم لا يكونُ إلا للَّهِ عز وجل، لأنَّ نفعهُم في الدنيا لا يُرجَى غالبًا فأما من أحسنَ إليهم ليمدحَ بذلكَ فما أحسنَ إليهم حبًا لهم بل حبًا لأهلِ الدُّنيا وطلبًا لمدحِهم له بحبِّ المساكينِ.

ومنها: أنها تزيلُ الكِبْرَ، فإن المتكبرَ لا يرضى مجالسةَ المساكينِ كما سبقَ عن رؤساءِ قريشٍ والأعرابِ، ومن حذا حذوهم من هذه الأمة ممن تشبهَ بهم حتى أنَّ بعضَ علماءِ السوءِ كان لا يشهدُ الصلاةَ في جماعةٍ خشيةَ أن تزاحمَهُ المساكينُ في الصفِّ، ويمتنعُ بسببِ هذا الكبرِ فيفوتُهُ خيرٌ كثيرٌ جدا، فإنَّ مجالسَ الذكرِ والعلمِ تقعُ فيها كثيرًا مجالسةُ المساكينِ فإنهم أكثرُ هذه المجالسِ فيمتنعُ المتكبرُ من هذه المجالسِ بتكبرِهِ، وربما كانَ المسموعُ منه الذكرُ والعلمُ من جملةِ المساكينِ فيأنف أهلُ الكبرِ من التردد إلى مجلسه كذلكَ فيفوتهُم خيرٌ كثيرٌ، وقد أخبرَ اللَّهُ تعالى عن المشركينَ أنهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

يشيرونَ إلى عظماءِ مكةَ والطائفِ كعتبةَ بنِ ربيعةَ وأخيهِ شيبةَ ونحوهما من صناديد قريشٍ وثقيفٍ ذوي الأموالِ والشرفِ فيهم ممن كانَ أكثرَ مالاً من محمدٍ ﷺ وأعظمَ رياسةً عندهُم، وردَّ عليهم سبحانهُ بأنهُ يقسِّم رحمتَهُ كما يشاءُ وأنه كما رفَع درجاتِ بعضهم على بعضٍ في الدنيا، فكذلكَ يرفَعُها في الآخرةِ بالنبوةِ والعلمِ والإيمانِ خيرٌ مما يجمعونَهُ من الأموالِ التي تَفْنَى، فهو يخصُّ بهذه الرحمةِ الدينيةِ من يشاءُ ويرفعُهُ على أهلِ النعمِ الدنيويةِ وقد خصَّ محمداً ﷺ بما لم يشركهُ فيه غيرهُ من هذه النعم كما قالَ تعالَى له: ﴿**وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً**﴾ [النساء:١١٣].

وكانَ عليُّ بنُ الحسينِ يجلسُ في مجلسِ زيدِ بنِ أسلمَ فيعاتَبُ على ذلكَ فيقولُ: إنما يجلسُ المرء حيثُ يكونُ له فيه نفعٌ، أو كما قالَ يشيرُ إلى أنَّه ينتفعُ بسماعِ ما يسمعُهُ من العلمِ والحكمةِ، وزيدُ بنُ أسلمَ أبوه مولى لعمرَ، وعليُّ بنُ الحسينِ سيدُ بني هاشمٍ وشريفِهم.

ولما اجتمع الزهريُّ وأبو حازمٍ الزاهدُ بالمدينةِ عند بعضِ بني أميةَ - لما حجَّ - وسمعَ الزهريُّ كلامَ أبي حازمٍ وحكمتهُ أعجبهُ ذلكَ، وقالَ: هو جاري منذُ كذا وكَذا وما جالسْتُهُ ولا عرفتُ أن هذا عندَهُ، فقالَ له أبو حازم: أجلْ إنِّي من المساكينِ ولو كنتُ من الأغنياءِ لعرفتني، فوبخهُ بذلكَ، وفي رواية عنه أنه قالَ له: لو أحببتَ اللَّهَ أحببتني ولكنَّكَ نسيتَ اللَّهَ فنسيتني، يشيرُ إلى أنَّ من أحبَّ اللَّهَ تعالى أحبَّ المساكينَ من أهلِ العلمِ والحكمةِ لأجلِ محبتهِ للهِ تعالى ومن غفلَ عن اللَّهِ تعالَى غفلَ عن أوليائه من المساكينِ فلمْ يرفعْ لهم رأسًا، ولم ينتفعْ بما اختصَّهمُ اللَّهُ عز وجل بهِ من الحكمةِ والعلومِ النَّافعةِ

التي لا توجدُ عند غيرِهم من أهلِ الدُّنيا.

وقد كانَ علماءُ السلفِ يأخذونَ العلمَ عن أهلِه والغالبِ عليهمُ المسكنةُ وعدمُ المالِ والرفعةِ في الدنيا ويَدَعُونَ أهلَ الرياسات والولاياتِ فلا يأخذونَ عنهم ما عندهُم من العلم بالكليةِ.

ومنها: أنَّه يوجبُ صلاحَ القلبِ وخشوعِه، وفي «المسندِ»[(١)] عن أبي هريرةَ أنَّ رجلاً شكى إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ قسوةَ قلبِهِ فقال له: «**إن أحببتَ أن يلينَ قلبُكَ فأطعِم المسكينَ وامْسحْ رأس اليتيمِ**».

ومنها: أنَّ مجالسةَ المساكينِ توجبُ رضى من يجالسُهُم برزقِ اللَّهِ عز وجل وتعظمُ عنده نعمةُ اللَّهِ عز وجل عليه بنظرِه في الدنيا إلى من دونَه، ومجالسةُ الأغنياءِ توجبُ التسخطَ بالرزقِ ومدَّ العينِ إلى زينتِهم وما هم فيه، وقد نهى اللَّهُ عز وجل نبيَّه ﷺ عن ذلكَ فقال تعالَى: ﴿**وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**﴾ [طه:١٣١] وقالَ النبيُّ ﷺ: «**انظرُوا إلى من دونكمُ ولا تنظرُوا إلى منْ فوقكم فإنَّه أجدر أن لا تزدرُوا نعمةَ اللَّهِ عليكم**»[(٢)] قال أبو ذرٍّ: «أوصاني رسولُ اللَّهِ ﷺ أن أنظر إلى من دوني ولا أنظرَ إلى من فوقِي وأوصانِي أن أحبَّ المساكينَ وأن أدنوَ منهم»[(٣)].

وكان عونُ بنُ عبدِ اللَّهِ بن عتبةَ بنِ مسعودٍ يجالسُ الأغنياءَ فلا يزالُ في غمٍّ؛ لأنَّه لا يزال يَرى من هو أحسنُ منه لباسًا ومركبًا ومسكنًا وطعامًا، فتركَهُم وجالسَ المساكينَ فاستراحَ من ذلك.

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٢٦٣).

(٢) أخرجه: مسلم (٨/ ٢١٣)، والترمذي (٢٥١٣)، وابن ماجه (٤١٤٢)، وأحمد (٢/ ٤٨٢).

(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ١٧٣). والطبراني في «الأوسط» (٧٧٣٩).

وقـد رُويَ عن النبيِّ ﷺ أنه نهَى عائشةَ عن مـخالطةِ الأغنياء(١). وقـالَ عمر: إيَّاكم والدخولَ على أهلِ السعةِ فإنَّه مسخطةٌ للرزقِ.

واعلمْ؛ أن المسكينَ إذا أُطلقَ يرادُ به غالبًا من لا مال لهُ يكفيه، فإنَّ الحاجةَ توجبُ السكونَ والتواضعَ بخلافِ الغنِي فإنَّه يُوجبُ الطغيانَ، ولهذا ذمَّ الفقيرَ المختالَ وعظَّم وعيدهُ؛ لأنَّهُ عصَى بما ينافي فقرهُ وهو الاختيالُ والزهو والكبرُ، ولما كـانَ المسكينُ عندَ الإطلاقِ لا ينصـرفُ إلا إلى من لا كـفـايةَ لهُ من المالِ وصى اللَّهُ تعالى بإيثارِ المساكينِ وإطعامـهم الطعامَ، ومدحَ من يطعمُهم، وذمَّ من لا يحضُّ على إطعامـهِم، وجعلَ لهم حقًّا في أموالِ الصـدقاتِ والفيء وخمسِ الغنائمِ وحضورِ قمسةِ الأموالِ.

وهؤلاءِ المساكينُ على قسمينِ:

أحدُهما: من هو محتاجٌ في الباطنِ وقد أظهرَ حاجتَهُ للنَّاس.

والثاني: من يكتُم حاجتَهُ ويظهرُ للناسِ أنه غَني فهذا أشرَفُ القسمينِ، وقد مدحَ اللَّهُ عز وجل هذا فـي قولِه تعالى: ﴿**لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا**﴾ [البقرة:٢٧٣] وقـالَ النبيُّ ﷺ: «**ليس المسكينُ بهـذا الطواف الذي تردُّه اللقمةُ واللقـمتانِ والتمرةُ والتمرتانِ، ولكن المسكينَ مـن لا يجدُ ما يغنيه، ولا يفطنُ له فـيتـصدَّقُ عليـه**»(٢) وقالَ بعـضُهم: هذا المحرومُ المذكورُ في قـولِه عز وجل: ﴿**لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ**﴾ [الذاريات:١٩].

فأخـبرَ النبيُّ ﷺ أن من كتمَ حاجـتَهُ فلم يفطنْ لهُ أحقُّ باسم المسكين من

---

(١) أخرجه: الترمذي (١٧٨٠).

(٢) أخرجه: البخاري (٢/ ١٥٣)، (٦/ ٤٠)، ومسلم (٣/ ٩٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

الذي أظهرَ حـاجتَهُ بالسؤالِ وأنَّه أحقُّ بالبـرِّ منه وهذا يدلُّ على أنَّهم كانُوا لا يعرفـونَ من المساكينِ إلا من أظهـرَ حاجـتَهُ بالسـؤالِ، وبهذا فرقَ طـائفةٌ من العلماءِ بين الفقيرِ والمسكينِ فقالوا: من أظهرَ حاجـتَهُ فهو مسكينٌ ومن كتمَها فهـو فقيـرٌ، وفي كلامِ الإمامِ أحـمدَ إيماءٌ إلى ذلك وإن كانَ المشـهورُ عنه أن التفريقَ بينهما بكثرةِ الحاجةِ وقلَّتِهَا كقولِ كثيرٍ من الفقهاءِ.

وهذا حيثُ جمعَ بينَ ذِكْرِ الفقيرِ والمسكينِ كما في آيةِ الصدقاتِ، فأمَّا إذا أفردَ أحدُ الاسمينِ دخلَ فـيه الآخر عنَد الأكثرينَ، وقد كـانَ كثيرٌ من السلف يكتمُ حاجتَهُ ويظهرُ الغِنى تعفُّفًا وتكرمًا، منهم إبراهيم النخعيّ كانَ يلبسُ ثيابًا حسناءَ ويخرجُ إلى الناسِ وهم يرونَ أنه تحلُّ له الميتةَ من الحاجةَ.

كانَ بعضُ الصالحينَ يلبسُ الشـيابَ الجميلةَ وفي كمهِ مفتـاحُ دارٍ كبيرةٍ ولا مأوى لهُ إلا المساجدُ، وكـانَ آخرُ لا يلبسُ جبةً في الشتاءِ لـفقرهِ ويقولُ: بي علةٌ تمنعني من لبسِ المحشو وإنَّما يعني بها الفقرَ ـ شعر:

إن الكريمَ لَيُخفي عنك عسرتَهُ حتى تراهُ غنيًّا وهـوَ مجهـودُ

وكان بعكس هؤلاءِ من يلبسُ ثيابَ المساكينِ مع الغِنَى تواضعًا للَّه عز وجل وبُعْدًا من الكبرِ كما كانَ يفعلُهُ الخلفاءُ الراشدونَ الأربعةُ وبعدَهم عمرُ بنُ عبد العزيز، وكذلكَ كانَ جماعةٌ من الصحابةِ منهم عبدُ اللَّه بنُ عمرَ وعبدُ اللَّه بنُ عمرو بن العاصِ وغيرُهما رضي الله عنهم، ورويَ أنَ أبا بكرٍ الصدِّيقِ رضي الله عنه كانَ ينشدُ:

إذا أردتَ شـــريفَ النـاسِ كلِّـهم فـانـظرْ إلى ملكٍ في زي مـسكينِ
ذاكَ الذي حسنت في الناسِ سـيرتُهُ وذاكَ يصـلحُ لـلدُّنـيـا وللـدينِ

وكان عليٌّ رضي الله عنه يُعاتَبُ على لبـاسهِ فيقولُ: هو أبعـدُ عن الكبرِ وأجدرُ أن يقتـدي بي المسلمُ. وعوتبَ عمرُ بنُ عـبد العزيزِ على ذلكَ فقـالَ: إنَّ أفضلَ

القصدِ عندَ الجدةِ، يعني أفضلَ ما اقتصدَ الرجلُ في لباسِهِ مع قدرتِهِ ووجدانِه.

وفي «سنن أبي داودَ» وغيرِه[١] عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: **«البذاذةُ من الإيمانُ»** يعني: التقشفَ. وفي الترمذيِّ[٢] عن النبيِّ ﷺ **«من تركَ اللباسَ تواضعًا للَّه عز وجل وهو يقدرُ عليهِ دعاهُ اللَّهُ يومَ القيامةِ حتَّى يخيِّرهُ من أيِّ حللِ الجنةِ شاء يلبسُهَا»** وخرجهُ أبو داود[٣] من وجه آخرَ ولفظه: **«من تركَ ثوبَ جمالٍ وهويقدرُ عليه - أحسبهُ قالَ: تواضعًا - كساهُ اللَّهُ حلَّة الكرامةِ»**.

وإنَّما يذمُّ من تركَ اللباسَ مع قدرتِهِ عليهِ بخلاً على نفسه أو كتمانًا لنعمةِ اللَّهِ عز وجل وفي هذا جاءَ الحديثُ المشهورُ: **«إنَّ اللَّهَ إذا أنعم على عبدٍ أحبَّ أن يرَى أثرَ نعمتِه على عبدِهِ»**[٤] ومن لبسَ لباسًا حسنًا إظهارًا لنعمةِ اللَّهِ ولم يفعلْهُ اختيالاً كانَ حسنًا.

وكان كثيرٌ من الصحابةِ والتابعينَ يلبسونَ لباسًا حسنًا، منهم: ابنُ عباسٍ، والحسنُ البصريُّ، وقد صحَّ عن النبيِّ ﷺ أنَّه سُئِلَ عن الرجلِ يحبُّ أن يكونَ لباسُهُ حسنًا ونعلُه حسنًا، قالَ: **«ليس ذلك بالكبر، إنما الكبر بطر الحق وغمط الناس»**[٥] يعني التكبرَ عن قبولِ الحقِّ والانقيادِ لهُ واحتقارَ الناسِ وازدراءهمُ فهذا هُوَ الكبرُ وأمَّا مجردُ اللباسِ الحسنِ الخالي عن الخيلاءِ فليسَ

(١) أخرجه: أبو داود (٤١٦١)، وابن ماجه (٤١١٨)، والحاكم (١/ ٩) كلهم عن أبي أمامة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: الترمذي (٢٤٨١)، وأحمد في «المسند» (٣/ ٤٣٩)، والحاكم (١/ ٦١)، (٤/ ١٨٣) كلهم عن معاذ بن أنس الجهني رضي الله عنه.

(٣) أخرجه: أبو داود (٤٧٧٨).

(٤) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٤٧٣)، والحاكم (٤/ ١٨١)، وأبو داود (٤٠٦٣)، والنسائي (٨/ ١٨٠، ١٨١) كلهم عن مالك بن نضلة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه: مسلم (١/ ٦٥) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

بكبرٍ، واحتقارُ الناسِ مع رثاثةِ اللباسِ كبرٌ.

وقد رُويَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه كانَ ماشيًا في طريقٍ وهناكَ أمةٌ سوداءُ، فقالَ لها رجلٌ: الطريقَ الطريقَ للنبيِّ ﷺ فقالتْ: الطريقُ يمنةً ويسرةً، فقال النبيُّ ﷺ: «**دعُوهَا فإنَّها جبَّارةٌ**» خرجهُ النسائيُّ[1] وغيرُه، وفي روايةِ الطبرانيِّ قالُوا: يا رسولَ اللَّهِ إنها يعني مسكينة، قالَ: «**إنَّ ذاكَ في قلبها**» يعني أنَّ الكبرَ في قلبهَا وإنْ كانَ لباسهَا لباسَ المساكينِ.

وقالَ الحسنُ: إنَّ قومًا جعلوا التواضعَ في لباسِهم والكبرَ في صدورهم إن أحدَهم أشدُ كبرًا بمدرعتهِ من صاحبِ السريرِ بسريرِهِ، وصاحبِ المنبرِ بمنبرِهِ، قالَ أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ: قالَ لي سليمانُ بنُ أبي سليمانَ وكانَ يعدلُ بأبيه: أيَّ شيءٍ أرادوا بثيابِ الصوفِ؟ قلت: التواضعَ، قالَ: وما يتكبرُ أحدُهم إلا إذا لبسَ الصوفَ؟

وقالَ أبو سليمانَ: يكونُ ظاهرُكَ قطنيا وباطنكَ صوفيًا، وقالَ أبو الحسينِ ابن بشارٍ: صوِّف قلبَكَ والبس القوهيَ على القوهي يعني رفيعَ الثيابِ، فمتَى أظهرَ الإنسانُ لباسَ المساكينِ لدعوى الصلاحِ ليشتهرَ بذلكَ عندَ الناسِ كانَ ذلكَ كبرًا ورياءً، ومن هُنا تركَ كثيرٌ من السلفِ المخلصينَ اللباسَ المختصَّ بالفقراءِ والصالحينَ وقالُوا: إنه شهرةٌ، ولما قدمَ سيارُ أبو الحكمِ البصرةَ لزيارةِ مالك بنِ دينارٍ، لبسَ ثيابًا حسنةً ثمَّ دخلَ المسجدَ فصلَّى صلاةً حسنةً فرآه مالكٌ ولم يعرفْهُ فقالَ له: يا شيخُ إنِّي أرغبُ بك عن هذه الثيابِ مع هذه الصلاةِ، فقالَ له: يا مالك ثيابي هذه تضعُني عندكَ أم ترفعُني؟ قالَ: بل

(١) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٨١٦٠).

تضعكَ، فقالَ: نعمَ الثوبُ ثوبٌ يضعُ صاحبهُ عندَ الناسِ، ولكن انظرْ يا مالكُ لعلَّ ثوبيكَ هذين يعني الصوفَ أنزلاكَ عندَ الناسِ ما لم ينزلاكَ من اللَّهِ، فبكى مالكٌ وقام إليه واعتنقهُ وقال له: أنشدكَ اللَّهَ أنت سيارُ أبو الحكم؟ قالَ: نعم.

فلهذا كرهَ من كرهَ من السلفِ كابنِ سيرينَ وغيره لباسَ الصوفِ حيثُ صارَ شعارَ الزاهدينَ فيكونُ لباسُهُ إشهاراً للنفسِ وإظهاراً للزهدِ، وأما النبيُّ ﷺ فكانَ يلبسُ لباسَ الأغنياءِ من حللِ اليمنِ وثيابِ الشامِ ونحوهَا، وتارةً يلبسُ لباسَ المساكينِ، فيلبسُ جبةً من صوفٍ أحياناً وأحياناً يتزر بعباءةٍ، ويهيءُ إبلَ الصدقةِ بيدهِ يعني أنه يطليَها بيدِهِ ويصلحهَا كما يفعلُ أربابُ الإبلِ بها، ولم يبعثِ اللَّهُ نبيًا من أهلِ الكبرِ، وإنما يبعثُ من لا كبرَ عندَهُ ولا يتكبرُ عن معالجةِ الأشياءِ التي يأنفُ منها المتكبرونَ كرعايةِ الإبلِ والغنمِ، وإجارةِ نفسهِ عندَ الحاجةِ إلى الاكتسابِ، ومن أعطاهُ اللَّهُ منهم مُلكًا فإنهُ لم يزلْ دأبهُ التواضعَ للَّهِ عز وجل كداودَ وسليمانَ ومحمدٍ صلَّى اللَّهُ عليهم وسلَّم تسليمًا كثيراً.

وقد يطلقُ اسمُ المسكينِ ويرادُ بهِ من استكانَ قلبُه للَّهِ عز وجل وانكسر لهُ وتواضعَ لجلالهِ وكبريائهِ وعظمتهِ وخشيتهِ ومحبتهِ ومهابتهِ، وعلى هذا المعنى حملَ بعضُهم الحديثَ المرويَّ عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: «**اللَّهم أحيني مسكينًا وأمتْني مسكينًا واحشرني في زمرةِ المساكينِ**» خرجهُ الترمذيُّ من حديثِ أنسٍ[(١)] وخرجهُ ابنُ ماجه من حديثِ ابنِ عباسٍ[(٢)]، وفي حملهِ على ذلكَ نظرٌ؛ لأنَّ

(١) أخرجه: الترمذي (٢٣٥٢).

(٢) وأخرجه: ابن ماجه (٤١٢٦) من حديث أبي سعيد الخدري، وليس من حديث ابن عباس كما =

في تمامِ حديثيهما ما يدل على أنّ المرادَ به المساكينُ من المال؛ لأنهُ ذكرَ سبقَهم الأغنياء إلى الجنةِ مع أنَّ في إسنادِ الحديثين ضعفًا، وقد خُيِّرَ النبيُّ ﷺ بينَ أن يكونَ نبيًّا ملكًا أو عبدًا رسولاً فأشارَ إليهِ جبريلُ أنْ تواضعَ، فقالَ: بل عبدًا رسولاً، وكانَ بعدَ ذلكَ لا يأكلُ متكئًا ويقولُ: «**آكل كما يأكلُ العبدُ وأجلسُ كما يجلسُ العبدُ**»(١).

قالَ الحسنُ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**فأعطاني اللَّهُ لذلكَ أن جعلَني سيدَ ولد آدمَ وأولَ شافعٍ وأولَ مشفعٍ وأولَ من تنشقُّ عنه الأرضُ**» وصحَّ عنه ﷺ أنه قالَ: «**إنَّما أنا عبدٌ فقولوا عبدُ اللَّهِ ورسولُه**»(٢) فأشرفُ أسمائه عبدُ اللَّهِ ولهذا سُمِّي بهذا الاسم في القرآنِ في أفخرِ مقاماتِه، فلمَّا حققَ ﷺ عبوديته لربِّه حصلتْ له السيادةُ على جميعِ الخلقِ.

كانَ كثيرٌ من العارفينَ يقولُ في مناجاتهِ لربِّه: كفى بي فخرًا أنِّي لكَ عبدٌ وكفَى بي شرفًا أنكَ لي ربٌّ، وكانَ بعضُهُم يقولُ: كلَّما ذكرتُ أنه ربِّي وأنا عبدُه حصلَ لي من السرور ما يصلحُ به بدَني:

شرفُ النفوسِ دخولُها في رقِّهم ... والعبدُ يحوِي الفخرَ بالمتملكِ

وكان أبو يزيدِ البسطاميُّ ينشدُ:

يا ليتني صرتُ شيئًا ... من غيرِ شيء أعد
أصبحتُ للكلِّ مولًى ... لأنَّني لكَ عبدُ

= قال المصنف ـ رحمه اللَّه .

(١) أخرجه: أبو يعلى في «مسنده» (٨/ ٤٩٢٠)، والبغوي في «شرح السنة» (١٣/ ٢٤٧) برقم (٣٦٨٣).

(٢) أخرجه: البخاري (٤/ ٢٠٤)، (٨/ ٢١٠).

فمنِ انكسرَ قلبُه للَّهِ عز وجل واستكانَ وخشع وتواضعَ جبرهُ اللَّهُ عز وجل رفعـهُ بقدرِ ذلكَ، وفي الأثرِ المشهـورِ أنَّ اللَّهَ عز وجل قالَ لموسـى على نبيِّنا وعليـهِ أفضلُ الصـلاةِ والسلامِ حينَ سـألَهُ أينَ أجـدكَ؟ قالَ: عندَ المنكسـرةِ قلوبُهُم من أجلي، فإني أدْنو منهُم كلَّ يوم باعًا ولولا ذلكَ انهدَموا.

وروي عن عبدِ اللَّهِ بـي سلامٍ أنه فسرهُ فقـال: هم المنكسرة قلوبُهُم بحبِّ اللَّهِ عن حبِّ غيرِه، وفي الحديثِ المشهورِ المرفوعِ: «**أنَّ اللَّهَ تعالى إذا تجلَّى لشيء من خلقـهِ خشعَ له**»(١) فإذا تجلَّى لقلوبِ العارفينَ عظمـةُ اللَّهِ وجلالهُ وكبرياؤه اندكت قلوبهم من هيبتِهِ وخشعتْ وانكسرتْ من محبَّتِهِ ومخافتِهِ:

مساكينُ أهلِ الحبِّ حتى قبورُهم   عليهـا تـرابُ الـذلِّ بينَ المقـابـرِ

فالمسكينُ في الحـقيقةِ من استكانَ قـلبُهُ لربه وخشعَ من خشـيتِهِ ولا يكونُ المسكينُ ممدوحًا بدونِ هذه الصفـةِ، فإنَّ من لم يخشعْ قلبُهُ معَ فقـرِه وحاجتِهِ فهوَ جبارٌ كتلكَ الأمةِ السوداءِ التي قالَ فيها النبيُّ ﷺ: «**إنَّها جـبارةٌ**» وهو إما عائلٌ مستكبرٌ أو فـقيرٌ مختالٌ وكلاهما لا ينظرُ اللَّهُ إليـه يومَ القيامةِ، فالمؤمنُ من يستكينُ قلبُهُ لربِّهِ ويخشعُ له ويتواضعُ ويظهرُ مسكنتهُ وفاقتَه إليهِ في الشدَّةِ والرخاءِ، أمـا في حالِ الرخاءِ فـإظهارُ الذلِّ والعبـوديةِ والفاقةِ والحـاجةِ إلى كـشفِ الضرِّ قـالَ تعـالى: ﴿**وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ**﴾ [المؤمنون:٧٦]، فذمَّ من لا يستكينُ لربِّهِ عندَ الشدةِ، وكانَ النبيُّ ﷺ يخرجُ عندَ الاستسقاءِ متخشعًا متمسكنًا.

وحُبسَ لمطرفِ بنِ عبـدِ اللَّهِ قريبٌ له لبسَ خلقانَ ثيابِه، وأخذ بيـدِهِ قصبةً

(١) أخرجـه: النسائي (٣/ ١٤٥)، والبيـهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٣٣٣) وهو جـزء من حديث طويل.

وقالَ: أتمسكنُ لربِّي لعلَّهُ يشفعني فيه.

ومما يشرعُ فيه التمسكنُ للَّهِ عـز وجل حالَ الصلاةِ كما في حديثِ الفضلِ بنِ عباسٍ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**الصلاةُ مثْنَي مثْنَي تشهدُ في كلِّ ركعتينِ وتخشعُ وتضرع وتمسكنُ وتقنعْ يديكَ - يقولُ ترفعهُما - وتقولُ: ياربِّ ثلاثاً، فمن لم يفعلْ ذلكَ فهي خداجٌ**» خرجهُ الترمذيُّ وغيرهُ(١).

وكذلكَ يشرعُ إظهارُ المسكنةِ في الدعاءِ، خرجَ الطبرانيُّ من حديثِ ابنِ عباسٍ قالَ: «رأيتُ النبيَّ ﷺ يدعوُ بعرفةَ ويداهُ إلى صدرِهِ كاستطعامِ المسكينِ». ومن حديثهِ أيضاً أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ في دعائه عشيةَ عرفةَ: «**أنا البائسُ الفقيرُ المسغيثُ المستجيرُ الوجلُ المشفقُ المقرُّ المعترفُ بذنبِه، أسألكَ مسألةَ المسكينِ، وأبتهلُ إليكَ ابتهالَ المذنبِ الذليلِ، وأدعوكَ دعاءَ الخائفِ الضرير**»(٢).

وكان بعضُ السلفِ يجلسُ بالليلِ مطرقًا رأسَهُ ويمدُّ يديهِ وهو ساكتٌ كحالِ المسكينِ المستعطِي، وقالَ طاوسٌ: دخلَ عليُّ بنُ الحسينِ الحِجْرَ ليلةً فصلَّى فسمعتُهُ يقولُ في سجودِهِ: عُبيدُكَ بفنائكَ، مسكينُكَ بفنائكَ، فقيرُكَ بفنائكَ، سائلُكَ بفنائكَ، قالَ طاوس: فحفظتُهنَّ فما دعوتُ بهنَّ في كربٍ إلاَّ فرجَ عنَّي، وكان بعضُ العبادِ قد حجَّ ثمانينَ حجةً على قدميهِ فبينَما هوَ في الطوافِ وهوَ يقولُ: ياحبيبي ياحبيبي، فهتفَ هاتفٌ: ليسَ ترضَى أن تكونَ مسكينًا حتى تكون حبيبًا فغشيَ عليه، فكانَ بعد ذلكَ يقولُ: مسكينُك، مسكينُك.

---

(١) أخرجه: الترمذي (٣٨٥)، وأحمد في «المسند» (١/ ٢١١)، (٤/ ١٦٧)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (١١٠٤٣).

(٢) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (١١/ ١٧٤).

شعرٌ لابنِ تيميةَ شيخِ الإسلامِ رحمهُ اللَّه:

أنا الفقيرُ إلى ربِّ السماواتِ أنا المستكينُ في مجموعِ حالاتي
أنا الظلومُ لنفسِي وهي ظالمتي والخيرُ إن جاءَهَا من عندهِ ياتي

قولهُ ﷺ: «**وأن تغفر لي وترحمني**» المغفرةُ والرحمةُ يجمعانِ خيرَ الآخرة كلَّهُ؛ لأن المغفرةَ سترُ الذنبِ مع وقايةِ شرِّه، وقد قيلَ: إنه لا تجتمعُ المغفرةُ مع عقوبةِ الذنبِ حيثُ كانتِ المغفرةُ وقايةً لشرِّ الذنبِ، وهذا لا يكونُ مع عقوبةٍ عليهِ، ولذلكَ سمِّي المغفرُ مغفرًا لأنه يسترُ الرأسَ ويقيهِ الأذَى، وهذا بخلافِ العفوِ فإنَّه يكونُ تارةً قبلَ العقوبةِ وتارةً بعدها، وأمَّا الرحمةُ فهيَ دخولُ الجنةِ، وعلو درجاتِها، وجميع ما في الجنةِ من النعيمِ بالمخلوقاتِ ومنْ رضَى اللَّهِ عزَّ وجلَّ وقربِهِ ومشاهدتِهِ وزيارتِه فإنَّه من رحمةِ اللَّه تعالَى، وفي الحديثِ الصحيح: «**إنَّ اللَّهَ عز وجل يقولُ للجنة: أنت رحمتي أرحمُ بك من أشاءُ من عبادِي**»[1] فكلُّ ما في الجنةِ فهُو من رحمةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ وإنما تنالُ برحمتِه لا بالعملِ كما قالَ ﷺ: «**لن يدخلَ أحدٌ منكُمُ الجنةَ بعملِه، قالُوا: ولا أنتَ يا رسولَ اللَّهِ، قالَ: ولا أنا إلا أن يتغمَّدَنِيَ اللَّهُ برحمته**»[2].

قولُه ﷺ: «**وإذا أردتَ بقومٍ فتنةً فاقبضْنِي إليكَ غيرَ مفتون**»، المقصودُ من هذا الدعاءِ سلامةُ العبدِ من فتنِ الدنيا مدةَ حياتِه فإنْ قدَّر اللَّهُ عز وجل على عباده فتنةً قبضَ عبدَهُ إليهِ قبلَ وقوعِها وهذا من أهمِّ الأدعيةِ فإنَّ المؤمنَ إذا عاشَ سليمًا من الفتنِ ثم قبضَهُ اللَّهُ قبل وقوعِهَا وحصولِ الناسِ فيها كانَ في ذلكَ نجاةٌ له من الشرِّ وقد أمرَ النبيُّ ﷺ أصحابَهُ أن يتعوَّذوا من الفتنِ ما ظهرَ منها

---

(١) أخرجه: مسلم (٨/ ١٥٠ ـ ١٥١).

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ١٢٢، ١٢٣)، ومسلم (٨/ ١٤١).

وما بطَنَ، وفي حـديثٍ آخرَ «**وجنِّبنا الفواحـشَ والفتنَ ما ظهرَ منهـا وما بطنَ**»[١]، وكانَ يخصٌّ بعضَ الفتنِ الـعظيمةِ بالذكـرِ، وكان يتعـوذُ باللَّهِ في صلاتهِ من أربعٍ ويأمرُ بالتـعوذِ منها «**أعوذُ باللَّهِ من عـذابِ جهنمَ، ومن عذابِ القبـرِ، ومن فتنةِ المحيـا والمماتِ، ومن فـتنةِ المسيـحِ الدجالِ**»[٢] ففـتنةُ المحيا تدخلُ فيـها فتنُ الدينِ والدنيا كلُّها كالكفرِ والبدعِ والفسوقِ والعصيانِ، وفتنُ المماتِ يدخلُ فيها سوءُ الخاتمةِ، وفتنةُ الملكينِ في القبرِ فإنَّ الناسَ يفـتنونَ في قبورهـم مثلَ أو قريبًا من فتنةِ الدجـالِ، ثم خصَّ فتنةَ الدجـالِ بالذكرِ لعظمِ موقِـعهَا فـإنه لم يكن في الدُّنيا فتنةٌ قـبل يومِ القيامةِ أعظمُ منهـا وكلما قربَ الزمانُ من الساعـةِ كثُرتِ الفتن.

وفي حديثِ مـعاويةَ عن النبيِّ ﷺ أنّهُ قـالَ: «**إنه لم يبقَ مـن الدنيـا إلا بلاءٌ وفتنةٌ**»[٣] وأخبرَ النبيُّ ﷺ عن الفتنِ التي كقطعِ الليلِ المظلمِ يصبحُ الرجلُ فيها مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبحُ كافرًا يبيعُ دينَهُ بعرضٍ من الدنيا[٤]، وكان أولُ هذه الفتنِ ما حدثَ بعدَ عمـرَ رضي الله عنه ونشأ من تلكَ قتلُ عثمانَ رضي الله عنه ومـا ترتبَ عليـهِ من إراقةِ الدمـاءِ وتفـرق القلوبِ وظهـورِ فتنِ الدينِ كبـدعِ الخوارجِ المارقينَ مـن الدينِ وإظهارهم مـا أظهروا، ثم ظهورُ بـدعِ أهلِ القدرِ والرفضِ ونحـوِهِم، وهذه هي الفتنُ التي تموجُ كـمـوجِ البـحرِ المذكـورةُ في حديثِ حذيفةَ المشهورِ[٥] للنبيِّ ﷺ حينَ سألَهُ عنها عمرُ وكان حذيفةُ رضي الله عنه

---

(١) أخرجه: أبو داود (٩٦٩).
(٢) أخرجه: مسلم (٢/ ٩٣).
(٣) أخرجه: ابن ماجه (٤٠٣٥).
(٤) أخرجه: مسلم (١/ ٧٦)، والترمذي (٢١٩٥).
(٥) الحديث أخرجه: البخاري (١/ ١٤٠)، ومسلم (٨/ ١٧٣).

من أكثرِ الناسِ سؤالاً للنبيِّ ﷺ عن الفتنِ خوفًا من الوقوع فيها، ولما حضرهُ الموتُ قال: حبيبٌ جاءَ على فاقةٍ لا أفلحَ من ندِمَ، الحمدُ للَّهِ الذي سبقت بي الفتنة قادتها وعلوجها.

وكان موتُه قبلَ قتلِ عثمانَ بنحوٍ من أربعين يومًا وقيلَ: بل ماتَ بعدَ قتلِ عثمانَ. وكانَ في تلكَ الأيامِ رجلٌ من الصحابةِ نائمًا فأتاهُ آتٍ في منامهِ فقالَ له: قمْ، فاسألِ اللَّهَ أن يعيذَك من الفتنةِ التي أعاذَ منها صالحَ عبادِهِ، فقام فتوضَّأ وصلَّى ثم اشتكَى وماتَ بعد قليلٍ.

وقد رويَ عن النبيِّ ﷺ أنهُ قالَ لرجلٍ: «**إذا متُّ أنا وأبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ فإن استطعتَ أنْ تموتَ فمُتْ**»(١) وهذا إشارةٌ إلى هذه الفتنِ التي وقعتْ بمقتلِ عثمانَ رضي الله عنه.

والدعاءُ بالموتِ خشيةَ الفتنةِ في الدينِ جائزٌ وقد دعا به الصحابةُ رضي الله عنهم والصالحونَ بعدَهم، ولما حجَّ عمرُ رضي الله عنه آخرَ حجَّةٍ حجَّها استلقى بالأبطحِ ثم رفعَ يديهِ وقالَ: اللهمَّ إنه قد كبرَ سنِّي ورقَّ عظمي وانتشرتْ رعيتي فاقبضني إليكَ غيرَ مضيِّعٍ ولا مفتون، ثم رجع إلى المدينة، فما انسلخَ حتى قتلَ رضي الله عنه.

ودعا عليٌّ ربَّهُ أن يريحهُ من رعيتِه حيثُ سئمَ منهم فقتلَ عن قريبٍ، ودعتْ زينبُ بنتُ جحشٍ لما جاءَها عطاءُ عمرَ من المالِ فاستكثرتْهُ وقالتْ: اللهمَّ لا يدركني عطاءٌ لعمرَ بعدَها فماتت قبلَ العطاءِ الثاني.

ولما ضجرَ عمرُ بنُ عبدُ العزيزِ من رعيتِهِ حيثُ ثقلَ عليهم قيامُهُ فيهم بالحقِّ

---

(١) أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٨٠).

طلبَ من رجلٍ كان معروفًا بإجابةِ الدعوةِ أن يدعوَ له بالموتِ فدعَا له ولنفسه بالموتِ فماتا.

ودُعي طائفةٌ من السلفِ الصالحِ إلى ولايةِ القضاءِ فاستُمهلوا ثلاثةَ أيامٍ فدعَوا اللَّهَ لأنفسِهِم بالموتِ فماتوا.

واطَّلعَ على حالِ بعضِ الصالحينَ ومعاملاتِهِ التي كانتْ سرًا بينه وبينَ ربِّه، فدعا اللَّهَ أن يقبضهُ إليه خوفًا من فتنةِ الاشتهارِ، فماتَ فإنَّ الشهرةَ بالخيرِ فتنةٌ، كما جاءَ في الحديثِ **«كفَى بالمرءِ فتنة أن يشارَ إليه بالأصابعِ فإنَّها فتنةٌ»**(١) وكان سفيانُ الثوريُّ يتمنَّى الموتَ كثيرًا فسئل عن ذلكَ فقال: ما يدريني لعلِّي أدخلُ في بدعةٍ، لعلِّي أدخلُ فيما لا يحلُّ لي، لعلي أدخلُ في فتنةٍ أكون قدْ متُّ فسبقتُ هذا.

واعلم أن الإنسانَ لا يخلُو من فتنةٍ، قالَ ابن مسعودٍ ﷺ: لا يقلْ أحدُكم أعوذُ باللَّهِ من الفتنِ ولكن ليقلْ: أعوذُ باللَّهِ من مضلاتِ الفتنِ ثم تلا قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ**﴾ [التغابن:١٥] يشيرُ إلى أنه لا يستعاذُ من المالِ والولدِ وهما فتنةٌ، وفي «المسند» أنَّ النبيَّ ﷺ أمرَ أمَّ سلمةَ أن تقولَ: **«اللهمَّ ربَّ النبيِّ محمدٍ اغفرْ لي ذنبي، وأذهبْ غيظ قلبي، وأجرني من مضلاتِ الفتنِ ما أبقيتَني»**(٢) وقد جعلَ النبيُّ ﷺ النساءَ والأموالَ فتنةً ففي «الصحيح»(٣) عنه ﷺ قالَ: **«ما تركتُ بعدي فتنةً أضرُّ على الرجالِ من النساءِ»** وفيه أيضًا(٤) أنهُ ﷺ

(١) أخرجه: الطبراني في «الكبير» عن عمران بن حصين بلفظ: **«كفى بالمرء من الإثم أن يشار إليه بالأصابع»**.

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٦/ ٣٠٢).

(٣) أخرجه: البخاري (٧/ ١١)، ومسلم (٨/ ٨٩) عن أسامة بن زيد ﷺ.

(٤) أخرجه: البخاري (٤/ ١١٧)، ومسلم (٨/ ٢١٢) من حديث عمرو بن عوف ﷺ.

قالَ: «واللَّه ما الفقرُ أخشَى عليكم، ولكنْ أخشَى أن تبسطَ عليكُم الدُّنيا كما بسطَتْ على من كانَ قبلَكم، فتنافسوها كما تنافسوهَا فتهلكهمُ كما أهلكتهُم».

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[(١)] عنه ﷺ قالَ: «اتَّقوا النساءَ فإنَّ أولَ فتنةَ بني إسرائيلَ كانتْ في النساء» وفي الترمذيِّ[(٢)] أنه ﷺ قالَ: «لكلِّ أمة فتنةٌ، وفتنةُ أمَّتي المالُ» وقد قالَ اللَّهُ عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

فالرجلُ فتنةٌ للمرأةِ، والمرأةُ فتنةٌ للرجلِ، والغنيُّ فتنةٌ للفقير، والفقيرُ فتنةٌ للغنيِّ، والفاجرُ فتنةٌ للبرِّ، والبرُّ فتنةٌ للفاجرِ، والكافرُ فتنةٌ للمؤمنِ، والمؤمنُ فتنةٌ للكافرِ، كما قالَ اللَّهُ تعالَى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣]. وقالَ عز وجل: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥].

فجعلَ كلَّ ما يصيبُ الإنسانَ من شرٍّ أو خيرٍ فتنةً يعني أنهُ محنةٌ يمتحنُ بها فإنْ أصيبَ بخيرٍ استحقَّ به شكرَه، وإن أصيبَ بسوءٍ استحقَّ به صبره، وفتنةُ السراءِ أشدُّ من فتنةِ الضراءِ، قالَ عبدُ الرحمنِ بن عوف رضي الله عنه: بُلينا بفتنةِ الضراءِ فصبرنَا، وبُلينا بفتنةِ السراءِ فلم نصبرْ، قالَ بعضُهُم: فتنةُ الضراءِ يصبرُ عليها البر والفاجرُ ولا يصبرُ على فتنةِ السراءِ إلاَّ صدِّيقٌ.

ولما ابتليَ الإمامُ أحمدُ بفتنةِ الضراءِ صبرَ ولم يجزعْ وقالَ: كانتْ زيادةً في إيماني، فلما ابتلي بفتنةِ السراءِ جزعَ وتَمَنَّى الموتَ صباحاً ومساءً وخَشيَ أنْ يكونَ نقصًا في دينهِ.

---

(١) أخرجه: مسلم (٧/ ٤٧)، (٨/ ٨٩) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/ ١٦٠)، والترمذي (٢٣٣٦) عن كعب بن عياض رضي الله عنه.

ثمَّ إن المؤمنَ لابدَّ أنْ يفتنَ بشيءٍ من الفتنِ المؤلمة الشاقة عليه ليمتحنَ إيمانهُ، كما قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣].

ولكنَّ اللَّهَ يلطفُ بعبادِهِ المؤمنينَ في هذهِ الفتنِ ويصبرُهُم عليها، ويثيبُهُم فيها، ولا يلقيهم في فتنةٍ مهلكةٍ مضلةٍ تذهبُ بدينِهم، بل تمرُّ عليهِم الفتنُ وهم منها في عافية.

وأخرجَ ابنُ أبي الدنيا من حديثِ ابنِ عمرَ مرفوعاً «**إنَّ للهِ ضنائنُ منْ عبادهِ يغذُوهُم في رحمتهِ ويحييهم في عافيةٍ ويتوفَّاهُم إلي جنتهِ أولئكَ الذينَ تمرُّ عليهِم الفتنُ كقطعِ الليلِ المظلمِ، وهم منهَا في عافيةٍ**»[(١)] والفتنُ الصغارُ التي يُبْتَلى بها المرءُ في أهلِهِ ومالِهِ وولدِهِ وجارِهِ تكفِّرُها الطاعاتُ من الصلاةِ والصيامِ والصدقةِ، لذا جاءَ في حديثِ حذيفةَ، ورُويَ عنهُ أنَّه سألَ النبيَّ ﷺ قالَ: إن في لساني ذرباً وإنَّ عامةَ ذلكَ على أهلي؟ فقالَ لهُ: «**أينَ أنتَ منَ الاستغفارِ؟**»[(٢)].

وأما الفتنُ المضلةُ التي يُخشَى منها فسادُ الدينِ فهيَ التي يُستعاذُ منهَا ويسألُ الموتُ قبلَهَا، فمنْ ماتَ قبلَ وقوعِهِ في شيءٍ من هذهِ الفتنِ فقدْ حفظَهُ اللَّهُ تعالَى وحماهُ، وفي «المسندِ» عن محمودِ بن لبيدٍ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**اثنتان يكرَهُهُمَا ابنُ آدمَ: يكرهُ الموتَ، والموتُ خيرٌ للمؤمنِ من الفتنِ، ويكرهُ قلةَ المالِ، وقلةُ المالِ أقلُّ للحسابِ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٣٨٥).
(٢) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٣١٧٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٤٢٧، ٤٢٨).

قولهُ ﷺ «**وأسألكَ حبَّك وحبَّ من يحبُّك وحبَّ العملِ الذّي يُبلغُني حبَّك**» هذا الدعاءُ يجمعُ كلَّ خيرٍ، فإنَّ الأفعالَ الاختياريةَ من العبادِ إنما تنشأُ عن محبةٍ وإرادة، فإنْ كانتْ محبةُ اللَّه ثابتةً في قلبِ العبدِ نشأتْ عنهَا حركاتُ الجوارحِ فكانتْ بحسبِ ما يحبُّه اللَّهُ ويرتضيه، فأحبَّ ما يحبُّه اللَّهُ عز وجلَّ من الأعمالِ والأقوالِ كُلِّها، ففعلَ حينئذٍ الخيراتِ كُلَّها وتركَ المنكراتِ كلَّها، وأحبَّ من يحبُّه الله من خلقِه، وهذا الدعاءُ كانتِ الأنبياءُ عليهم السلامُ يدعونَ به كما في الترمذيِّ(١) عن النبيِّ ﷺ: «**أن داودَ عليه السلامُ كان يقولُ: اللهمَّ إنِّي أسألكَ حبَّكَ وحبَّ من يحبُّكَ، وحبَّ عملٍ يبلغني إلى حبِّك، اللَّهُم اجعلْ حبَّك أحبَّ إليَّ من نفسي وأهلِي ومن الماء البارد**» وفيه أيضًا أن النبيَّ ﷺ كان يدعو: «**اللهمَّ ارزقني حبَّكَ، وحبَّ من يحبُّكَ، وحبَّ عملٍ يبلغني إلى حبِّك، اللهمَّ ما رزقتَني مما أُحبُّ فاجعلهُ قوةً لي فيما تحبُّ، وما زويتَ عنِّي مما أحبُّ فاجعلْهُ فراغًا لي فيما تحبُّ**».

وفي حديثٍ مرسلٍ خرجه ابنُ أبي الدنيا وغيرُه أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقولُ: «**اللّهمَّ اجعلْ حبَّكَ أحبَّ الأشياءِ إليَّ، وخشيتَكَ أخوفُ الأشياءِ عنْدي. واقطعْ عنِّي حاجاتِ الدُّنيا بالشوقِ إلى لقائكَ وإذا أقررتَ أعينَ أهلِ الدنيا من دنياهم فأقررْ عيني في عبادتكَ**» ومن كانَ همُّه طلبَ محبةِ اللَّهِ عز وجل أعطاهُ اللَّهُ فوقَ ما يريدُهُ من الدُّنيا تبعًا.

قال بعضُ السلفِ: لما توفِّي داودُ عليه السلامُ أرسلَ اللَّهُ عز وجل إلى سليمانَ عليه السلامُ ألكَ حاجةٌ تسألني إيَّاها؟ فقالَ سليمانُ: أسألُ اللَّهَ أن يجعلَ قلبِي يحبُّه كما كانَ قلبُ أبي داودَ يحبُّه، وأن يجعلَ قلبِي يخشاهُ كما

(١) الجامع (٣٤٩٠).

كانَ قلبُ أبي داودَ يخشاهُ، فشكرَ اللَّهُ لهُ ذلكَ وأعطاهُ مُلْكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده.

ومحبةُ اللَّهِ تعالَى على درجتينِ:

إحداهما: واجبةٌ وهيَ المحبةُ التي توجبُ للعبدِ محبةَ ما يحبُّه اللَّهُ من الواجباتِ وكراهةِ ما يكرهُهُ من المحرماتِ، فإنَّ المحبةَ التامةَ تقتضِي الموافقةَ لمن يحبُّه في محبةِ ما يحبُّه وكراهةِ ما يكرههُ خصوصًا فيما يحبُّه ويكرهُهُ من المحبِّ نفسِه، فلا تصحُّ المحبةُ بدونِ فعلِ ما يحبُّه المحبوب من مُحبِّه وكراهة ما يكرهُهُ المحبوبُ من محبيهِ، وسئلَ بعضُ العارفينَ عن المحبةِ فقالَ: الموافقةُ في جميع الأحوالِ وأنشدَ:

ولو قلتَ لي مُتْ مُتُّ سمعًا وطاعةً ... وقلتُ لداعي الموتِ أهلاً ومرحبًا

وأنشدَ بعضُهُم:

تعصِي الإلهَ وأنتَ تزعمُ حبَّهُ ... هذا لعمري في القِياسِ فظيعُ

لو كانَ حبُّكَ صادقًا لأطعتَهُ ... إنَّ المحبَّ لمنْ يحبُّ مطيعُ

ومتى أخلَّ العبدُ ببعضِ الواجباتِ أو ارتكبَ بعضَ المحرماتِ فمحبَّتُه لربِّه غيرُ تامَّةٍ، فالواجبُ عليهِ المبادرةُ بالتوبةِ، والاجتهادُ في تكميلِ المحبةِ المفضيةِ لفعلِ الواجباتِ كلِّها، واجتنابِ المحرماتِ كلِّها، وهذا معنى قولِ النبيِّ ﷺ **«لا يزني الزاني حينَ يزني وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ السارقُ حينَ يسرقُ وهوَ مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ حينَ يشربُها وهو مؤمنٌ»**(١) فإنَّ الإيمانَ الكاملَ يقتضِي محبَّة ما يحبُّه اللَّهُ، وكراهةَ ما يكرهُهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ، والعملَ بمقتضَى ذلكَ فلا يرتكبُ أحدٌ

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ١٧٨)، ومسلم (١/ ٥٥).

شيئًا من المحرماتِ أو يخلُّ بشيءٍ من الواجباتِ إلا لتقديمِ هوى النفسِ المقتضي لارتكابِ ذلكَ على محبةِ اللَّهِ تعالَى المقتضيةِ لخلافِهِ.

الدرجةُ الثانيةُ من المحبةِ: درجةُ المقربينَ وهيَ: أنْ يمتليءَ القلبُ بمحبةِ اللَّهِ تعالَى حتى توجبَ له محبةَ النوافلِ والاجتهادَ فيها وكراهةَ المكروهاتِ والانكفافَ عنها، والرِّضا بالأقضيةِ والأقدارِ المؤلمةِ للنفوسِ لصدورِها عن المحبوبِ، كما قالَ عامرُ بنُ قيسٍ: أحببتُ اللَّهَ حبًا هوَّنَ عليَّ كلَّ مصيبةٍ ورضَّاني بكلِّ بليةٍ، فلا أبالي معَ حبِّي إياهُ على ما أصبحتُ ولا على ما أمسيتُ.

وقالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيز لما ماتَ ولدُهُ الصالحُ: إن اللَّهَ أحبَّ قبضَهُ، وإني أعوذُ باللَّهِ أن يكونَ لي محبةٌ في شيءٍ من الأمورِ يخالفُ محبةَ اللَّهِ، وكانَ يقولُ: إذا أصبحتُ فما لي سرورٌ إلا في مواقعِ القضاءِ والقدرِ.

يا من يعَزُّ علينا أن نفارِقَهم وجدانُنَا كلَّ شيءٍ بعدَكُم عدمُ
إن كانَ سرَّكم ما قد بليتُ بهِ فما لجُرحٍ إذا أرضَاكمُ ألمُ

وحسبُ سلطانِ الهوى أن يلذَّ فيه كلُّ ما يؤلمُ.

كان عمارُ بنُ ياسرٍ يقولُ: اللهمَّ لو أعلمُ أنَّه أرْضَى لك أن أرمي بنفسِي من هذا الجبلِ فأتردَّى فأسقطُ فعلتُ، ولو أعلمُ أنَّه أرضى لكَ أن أوقدَ نارًا عظيمَةً فأقعُ فيها فعلتُ، ولو أعلمُ أنَّه أرْضى لكَ عنِّي أن ألقِي نفسي في الماءِ فأغرِق نفسي فعلتُ، ولا أقولُ هذا إلا وأريدُ وجهَكَ وأنا أرجو أن لا تخيبني وأنا أريدُ وجهَكَ.

وقُتلَ لبعضِ الصالحينَ ولدانِ في الجهادِ فعزاهُ الناسُ فيهما فبَكى وقالَ:

إنِّي ما أبْكِي لفقدهمَا إنما أبكانِي كيفَ كانَ رضاهُما عن اللَّهِ حيثُ أخذتْهُما السيوفُ.

وكانَ بعضُ العارفينَ يطوفُ بالبيتِ فتجمعتِ القرامطةُ على الناس قتلُوهم في الطوافِ فوصلُوا إليه فلم يقطعِ الطوافَ حتى سقطَ من ظربِ السيوفِ صريعًا وأنشدَ:

واللَّهِ لو حلفَ العشاقُ أنهُمُ موتى من الحبِّ ما ماتُوا وما حنثُوا
ترى المحبِّين صرْعى في ديارِهمُ كفتيةِ الكهفِ لا يدرونَ كم لبِثوا

أقلُّ ثمنِ المحبةِ بذلُ الروحِ.

بدمِ المحبِّ يُبَاعُ وصلُهُم فمن الذي يبْتَاعُ بالثمنِ

قالَ بعضُ العارفينَ: إن كنت تسمحُ ببذلِ روحكَ في هذه الطريقِ وإلا فلا تشتغلْ بالتُّرَّهَات:

خاطرْ بروحكَ في هَوانَا واسترحْ إنْ شئتَ تحظى بالمحلِّ الأعظمِ
لا يشغلنَّكَ شاغِلٌ عن وصلِنا وانهضْ على قدمِ الرجاءِ واقدمِ

ولما كانتْ محبةُ اللَّهِ عز وجل لها لوازمٌ وهي محبةُ ما يحبُّه اللَّهُ عز وجل من الأشخاصِ والأعمالِ، وكراهةِ ما يكرههُ من ذلكَ سألَ النبيُّ ﷺ اللَّهَ تعالَى مع محبته محبةَ شيئينِ آخرينِ:

أحدُهما: محبةُ من يحبُّ ما يحبُّه اللَّهُ تَعالى فإنَّ من أحبَّ اللَّهَ أحبَّ أحباءَهُ فيهِ ووالاهم وأبغضَ أعداءَهُ وعاداهم، كما قالَ النبيُّ ﷺ: **«ثلاثٌ من كنَّ فيه وجدَ بهنَّ حلاوةَ الإيمانِ، أن يكونَ اللَّهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهُما، وأن يحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا للَّهِ، وأن يكرَه أنْ يعودَ في الكفرِ بعدَ إذ أنقذهُ اللَّهُ منه كما يكرهُ**

أن يلقَى في النار»(١).

وأعظم من تجبُ محبَّتُهُ في اللَّه تعالَى أنبيـاؤهُ ورسلهُ وأعظمُهم نبيُّه محمدٌ ﷺ الذي افترضَ اللَّهُ على الخلقِ كلِّهم متابعتَهُ، وجعلَ متابعتَهُ علامةً لصحة محبتِه، كما قالَ تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١] وتوعدَ من قدَّم محبـةَ شيءٍ من المخلوقينَ على محبته ومحبـةِ رسولِه ﷺ ومحبة الجهـادِ في سبيلِه في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا﴾ [التوبة:٢٤] ووصفَ المحبينَ لهُ باللينِ للمؤمنينَ والرأفة بهم والمحبةِ لهم والشدة على الكافرينَ والبغضِ لهم والجهـادِ في سبيله فقال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة:٥٤] الآية.

والثاني: محبة ما يحبُّه اللَّهُ تعالى من الأعمالِ وبها يبلغُ إلى حبِّه وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ درجـةَ المحبةِ للَّه تعـالَى إنَّما تنالُ بطاعتـهِ وبفعلِ ما يحبُّـه فإذا امتـثلَ العبدُ أوامـرَ مولاهُ وفعلَ مـا يحبُّه أحـبَّهُ اللَّهُ تعالَى ورقَّـاه إلى درجةِ محبتِه، كما في الحديثِ الإلهي الذي خرجهُ البخاريُّ(٢): «وما تقربَ إليَّ عبدي بمثلِ ما افترضتُ عليهِ ولا يزالُ عبدي يتقربُ إليَّ بالنوافلِ حتى أحبَّه».

فـأفضلُ مـا تُسـتـجلبُ به محـبـةُ اللَّهِ عـز وجل فعلُ الـواجبـاتِ وتركُ المحرماتِ، ولهذا جعلَ النبيُّ ﷺ من علاماتِ وجدانِ حلاوةِ الإيمانِ أن تكرهَ

(١) أخرجه: البخاري (١/ ١٠)، (٩/ ٢٥)، ومسلم (١/ ٤٨).
(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ١٣١) عن أبي هريرة ﷺ.

أنْ ترجعَ إلى الكفرِ كما تكرهُ أن تُلقَى في النار، وسئلَ ذو النونِ متى أحبُّ ربِّي؟ قالَ: إذا كان ما يكرههُ عندكَ أمرُّ من الصبرِ، ثمَّ بعدَ ذلكَ الاجتهادُ في نوافلِ الطاعاتِ وتركُ دقائقِ المكروهاتِ والمشتبهاتِ، ومن أعظمِ ما تحصُلُ به محبةُ اللَّهِ من النوافلِ تلاوةُ القرآنِ وخصوصًا مع التدبرِ، قال ابنُ مسعود ﷺ: لا يسألُ أحدُكم عن نفسِه إلا القرآنَ، فمنْ أحبَّ القرآنَ فهو يحبُّ اللَّهُ ورسولَه، ولهذا قالَ النبيُّ ﷺ لمنْ قالَ إني أحبُّ سورةَ «قلْ هو اللَّهُ أحدٌ» لأنَّها صفةُ الرحمنِ فقالَ: **«أخبروه أنَّ اللَّهَ يحبُّه»**(١)، وقالَ أبو سلمةَ بنُ عبد الرحمنِ: لما قدمِ النبيُّ ﷺ المدينةَ خطبَ فقالَ في خطبته: **«إنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ اللَّه، قد أفلحَ من زينَهُ اللَّهُ في قلبِه وأدخلَهُ في الإسلامِ بعدَ الكفرِ، واختارَهُ على ما سواهُ من الأحاديثِ، إنه أحسنُ الحديثِ وأبلغهُ، أحبُّوا من أحبَّ اللَّهَ وأحبُّوا اللَّه من كلِّ قلوبكم»**(٢).

وكان بعضُهم يكثرُ من تلاوةِ القرآنِ ثمَّ فترَ عن ذلك فرأى في المنامِ قائلاً يقولُ له:

إن كنتَ تزعمُ حبِّي ... فلم جفوتَ كتابي

أمَا تدبرتَ ما فيـ ... ـه من لطيف عِتابِي

فاستيقظ وعادَ إلى تلاوتِه:

ومن الأعمالِ التي توصِّلُ إلى محبةِ اللَّهِ تعالَى وهيَ من أعظمِ علاماتِ المحبينَ كثرةُ ذكرِ اللَّهِ عز وجل بالقلبِ واللسانِ، قالَ بعضُهم: ما أدمنَ أحدٌ ذكرَ اللَّهِ إلا أفادتْهُ منهُ محبةَ اللَّهِ تعالَى، وقالَ ذو النونِ: من أدمنَ ذكرَ اللَّهِ

(١) أخرجه: البخاري (٩/ ١٤١)، ومسلم (٢/ ٢٠٠).

(٢) أخرجه: البيهقي في «دلائل النبوة» (٢/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥).

قذفَ اللَّهُ في قلبِهِ نورَ الاشتياقِ إليه، وقالَ بعضُ التابعينَ: علامةُ حبِّ اللَّه كثرةُ ذكرِهِ، فإنكَ لن تحبَّ شيئًا إلا أكثرتَ ذكرَهُ، وقالَ فتحٌ الموصليُّ: المحبُّ للهِ لا يجدُ مع حبِّ اللَّهِ للدنيا لذةً ولا يغفلُ عن ذكرِ اللَّهِ طرفَةَ عينٍ، المحبونَ إن نطقوا نطقُوا بالذكرِ، وإن سكتُوا اشتغلوا بالفكرِ:

فإن نطقتُ فلم ألفظْ بغيركم وإن سكتُّ فأنتم عند إضْماري

ومن علامات المحبينَ للَّهِ وهو مما يحصلُ به المحبةُ أيضًا حبُّ الخلوةِ بمناجاةِ اللَّهِ تعالى وخصوصًا في ظلمةِ الليلِ:

الليلُ لي ولأحبابي أسامرُهم قد اصطفيتُهم كي يسمعوا ويعوا

قالَ الفضيلُ: يقولُ اللَّهُ عز وجل: كذبَ من ادَّعَى محبَّتي فإذا جَنَّهُ الليلُ نام عنِّي، أليسَ كلُّ حبيبٍ يحبُّ الخلوةَ بحبيبِهِ؟ ها أنا مُطَّلعٌ على أحبابي إذا جَنَّهُمُ الليلُ جعلتُ أبصارَهُم في قلوبهم، ومثلتُ نفسي بينَ أعينِهم فخاطبوني على المشاهدةِ، وكلَّموني على حضوري، غدًا أقرُّ عينَ أحبَابي في جنَّاتي:

تنامُ عيناكَ وتشكُو الهوى لو كنتَ صبًّا لم تكنْ نائمًا

قلوبُ المحبينَ جمرةٌ تحتَ فحمةِ الليلِ كلما هبَّ عليها نسيمُ السحرِ التهبَتْ، وأنشد:

يذكِّرُني مرُّ النسيمِ عهودكمُ فأزدادُ شوقًا كلَّما هبتِ الريحُ
أرَاني إذا ما أظلمَ الليلُ أشرقتْ بقلبِي منْ نارِ الغرامِ مصابيحُ

كلما جنَّ الغاسقُ حنَّ العاشقُ.

لو أنَّكَ أبصرتَ أهلَ الهوى إذا غابتِ الأنجمُ الطلعُ

فهذا ينوحُ على ذنبِه وهذا يصلِّي وذا يركعُ

من لم يكنْ له مثلُ تقواهُم لم يدرِ ما الذي أبكاهُم، ومن لم يشاهدْ جمالَ يوسفَ لم يدرِ ما الذي آلمَ قلبَ يعقوبَ، وسئلَ السّريُّ السقَطيُّ عن حالِه فأنشدَ:

من لم يبتْ والحبُّ حشوَ فؤادِه لم يدرِ كيفَ تفتتُ الأكبادُ

أين رجالُ الليلِ؟ أين ابنُ أدهمَ والفضيلُ؟ ذهبَ الأبطالُ وبقيَ كلُّ بطالٍ، يا من رضِيَ من الزهدِ بالزي، ومن الفقرِ بالاسم، ومن التصوفِ بالصوفِ، ومن التسبيحِ بالسبح، أينَ فضلُ الفضيل؟ أين جدُّ الجنيدِ؟ أين سرُّ السريِّ؟ أينَ بشر أين إبراهيم بن أدهمَ؟ ويحَكَ إن لم تقدرْ على معرفةِ معروفٍ فاندُبْ على ربع رابعةَ وأنشد:

هاتيكَ رُبوعَهم وفيها كانُوا بانُوا عنْهَا فَلَيْتَّهم ما بانوا
ناديتُ وفي حشَاشتي نيرانُ يا دارُ متى تحوَّلَ السكانُ

يا من كان له قلبٌ فانقلبَ، يامن كان له وقتٌ مع اللّهِ فذهبَ، قيامُ الأسحارِ يستوحشُ لكَ، صيامُ النهارِ يسألُ عنكَ، ليالي الوصالِ تعاتبكَ على انقطاعكَ:

تشَاغلتمُ عنَّا بصحبةِ غيرِنا وأظهرتُم الهجْرَانَ ما هكذا كنَّا
وأقسمتُم أن لا تحولُوا عَنِ الهوى فقد وحياةِ الحبِّ حلتُم وما حُلنا
ليالي كنَّا نجتَني من ثمارِكم فقلبي إلى تلكَ الليالي لقدْ حنَّا

إخواني مجَالسُ الذكرِ شرابُ المحبينَ وترياقُ المذنبينَ، قد علمَ كلُّ أناسٍ مشرَبهم، مجالسُ الذكرِ مآتمُ الأحزانِ فهذا يبكي لذنوبِه، وهذا يندبُ

لعيوبِهِ، وهذا يتـأسفُ على فواتِ مطلوبِهِ، وهذا يتلهفُ لإعراضِ مـحبوبِهِ، وهذا يبوحُ بوجودِهِ وهذا ينوحُ على فقدِهِ وأنشدَ:

مـا أذكـر عـيـشَنَا الذي قـد سلفـا ... إلا وجفَّ القلبُ وكـم قـد وَجَـفـا

واهًا لزمـانِنَا الذي كـان صـفَـا ... بل وأسـفًـا لفـقـدِهِ وأسـفـا

غيره:

يا لـيـتَنَـا بزمـزم والحـجـر ... يا جـيـرتَنَا قـبـيلَ يومِ النفـرِ

فـهلْ يعـودُ ما مـضَى من عـمـري ... مـا كنتُ أدْرِي يا ليـتَنِي لا أدرِي

كـأنِّي أرَى الخلعَ قد خُلِعَتْ على المـقبـولينَ، كأنِّي أرَى الملائكةَ تصـافحُ التائبينَ، فتعالوا نجتمعُ نبْكي على المطرودينَ:

مـا زلتُ دهرًا لـلِّقَـا متـعـرضًـا ... ولَطَالما قـد كنتَ عنَّـا مـعـرِضًـا

جـانبـتَنا دهـرًا فلمَّـا لم تجـدْ ... عوضًـا سوانَا صرتَ تبْكي محـرضًا

واحـسـرتَاهُ عليـكَ من مـتـقلبٍ ... حقَّ الوبالُ عليـهِ من سـوءِ القـضَـا

لو كنـتَ من أحـبَـابِنَا للزمـتَنَا ... فكُسـيتَ من إحسَـانِنا خلعَ الرِّضـا

لكنْ غـمـطتَ حـقـوقَنَا وتـركـتَنا ... فلذاكَ ضاقَ عليـكَ متسعُ الفـضَا[١]

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعت الوزير[٢] يقول في قـوله تعالى:

(١) رسالة «اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى».

(٢) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [ص:٨٠] قال: ليس هذا بإجابة سؤاله وإنَّما سألَ الإنظار، فقيلَ لهُ: كذا قُدِّرَ، لا أنَّه جواب سؤالك، لكنَّه مما فُهِم[1].

* * *

(١) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥).

سُورَةُ الزُّمَر

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

قالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

والصبرُ ثلاثةُ أنواعٍ: صبرٌ على طاعةِ اللَّهِ، وصبرٌ عن محارمِ اللَّهِ، وصبرٌ على أقدارِ اللَّهِ المؤلمة. وتجتمعُ الثلاثةُ كلُّها في الصوم،؛ فإنَّ فيه صبرًا على طاعةِ اللَّهِ، وصبرًا عمَّا حرَّمَ اللَّهُ على الصائمِ من الشَّهواتِ، وصبرًا على ما يحصُلُ للصَّائمِ فيه من ألمِ الجوعِ والعطشِ، وضعْفِ النفسِ والبدنِ.

ثبتَ في «الصحيحين»(١) عن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قالَ: «كلُّ عملِ ابنِ آدمَ له؛ الحسنَةُ بعشْرِ أمثالها إلى سبعمائة ضعفٍ، قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: إلا الصِّيامَ فإنَّه لي وأنا أجزي به، إنَّه ترَكَ شهوتَه وطعامَه وشرابَه من أجلي. للصَّائمِ فرحتان: فَرْحَةٌ عند فطرِه، وفَرْحَةٌ عند لقاءِ ربِّه، ولَخَلُوفُ فَمِ الصائم أطيبُ عندَ اللَّهِ من ريحِ المِسْكِ».

وفي روايةٍ «كلُّ عَمَلِ ابنِ آدمَ له إلا الصِّيامَ فإنَّه لي» وفي روايةٍ للبخاريِّ «لكلِّ عملٍ كفَّارةٌ، والصَّوم لي وأنا أجزي به». وخرَّجهُ الإمامُ أحمدُ(٢) من هذا الوجهِ، ولفظهُ: «كلُّ عملِ ابنِ آدمَ له كفارةٌ إلا الصَّومَ، والصَّومُ لي، وأنا أَجْزِي به»

فعلى الروايةِ الأولى: يكونُ استثناءُ الصومِ من الأعمالِ المُضَاعَفَةِ، فتكونُ الأعمالُ كلُّها تُضاعَفُ بعَشرِ أمثالِها إلى سبعمائةِ ضعفٍ إلا الصيامَ فإنَّه لا

---

(١) أخرجه: البخاري (٩/ ١٧٥)، ومسلم (٣/ ١٥٨).

(٢) «المسند» (٢/ ٢٥٧، ٢٧٣).

ينحصرُ تضعيفُه في هذا العددِ، بل يُضاعِفُـه اللَّهُ عزَّ وجلَّ أضعافًا كثيرةً بغير حَصْرِ عددٍ؛ فإنَّ الصيامَ من الصَّبرِ.

ولهـذا وَرَدَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه سمَّى شهـرَ رمضانَ شهـرَ الصَّبر[1] وفـي حديثٍ آخرَ عنه ﷺ، قالَ: «**الصَّومُ نِصْفُ الصَّبْرِ**» خَرَّجهُ الترمذيُّ[2].

وهذا الألمُ الناشئُ من أعمالِ الطَّاعَـاتِ يُثابُ عليه صاحبُه، كـما قالَ اللَّهُ تعالى في المجاهدينَ: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [التوبة:١٢٠]. وفي حديثِ سلمـانَ المرفوعِ الذي أخرَجَهُ ابنُ خُزيمةَ في «صحيحِهِ»[3] في فضلِ شهرِ رمضانَ «**وهو شهرُ الصَّبرِ، والصَّبْرُ ثوابُه الجَنَّةُ**». وفي الطبراني[4] عن ابنِ عُمَرَ مرفوعاً: «**الصِّيامُ للّهِ لا يَعْلَمُ ثَوابَ عملهِ إلا اللَّهُ عزَّ وجلَّ**». ورُوي مرسلاً وهو أصحُّ[5].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾

وأما سـعةُ جـهَنم طولاً وعرضًا، فـروى مجـاهدٌ عن ابنِ عبـاسٍ، قالَ: أتدرونَ ما سعةُ جهنَّم؟ قلنا: لا، قالَ: أجلْ واللَّهِ ما تدرونَ أنَّ ما بينَ شحمةِ

---

(١) أخرجه: أبو داود (٢٤٢٨)، وابن ماجه (١٧٤١).

(٢) «الجامع» (٣٥١٤).

(٣) أخرجه: ابن خزيمة في «صحيحه» (١٨٨٧).

(٤) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٨٦٥).

(٥) «لطائف المعارف» (٢٨٣ ـ ٢٨٤).

أذنِ أحدِهم وأنفِـهِ مسيرةُ سـبعينَ خريفًا تجـري في أوديةُ القيحِ والدمِ، قلنَا: أنهارٌ؟ قال: لا، بل أوديةٌ، ثمَّ قالَ: أتدرونَ ما سـعةُ جهنَّمَ؟ قلنا: لا، قالَ: حدثتني عائشةُ أنها سألتْ رسولَ اللَّهِ ﷺ عن قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧]، فأين الناسُ يومئذٍ؟ قـال: «على جسر جهنَّم» خرجهُ الإمامُ أحمـدُ، وخرجَ النسائيُّ والترمذيُّ منه المرفوعَ وصححهُ الترمذيُّ وخرجهُ الحاكمُ وقالَ صحيحُ الإسنادِ[١]. [٢].

* * *

وقالَ ـ أي ابن الجـوزي ـ: كانَ أبو القـاسمِ بنِ السَّمرقـندي يقولُ: إنَّ أبا بكرٍ بنَ الخاضبةِ كـانَ يُسَمِّي ابنَ الفاعوسِ الحجَريَّ؛ لأنَّه كـانَ يقولُ: الحجرُ الأسودُ يمينُ اللهِ حقيقةً.

قلت: إنْ صحَّ عن ابنِ الفاعـوسِ أنَّه كانَ يقولُ: الحجـرُ الأسودُ يمينُ اللَّهِ حقيـقةً، فأصلُ ذلكَ: أنَّ طائفَةً من أصـحابنا وغيرِهم نَفـوا وقُوعَ المجاز في القـرآنِ، ولكنْ لا يعلمُ منهم مَن نفَى المجـاز في اللُّغـةِ كقـولِ أبي إسحـاقَ الإسفرائيني. ولكنْ قد يسمعُ بعضُ صالحِيهم إنكارَ المجازِ في القرآنِ، فيعتقدُ إنكارَهُ مطلقًا.

ويؤيدُ ذلكَ : أنَّ الـمُتبـادرَ إلى فهمِ أكثرِ النَّاسِ مِن لفظِ الحقـيقةِ والمجازِ: المعَاني والحقائقُ دونَ الألفاظِ.

---

(١) أخرجـه: أحمد في «المسند» (٦/ ١١٦)، والترمـذي (٣٢٤١)، والنسائي في «الكبرى» كـما في «تحفة الأشراف» (١١٤٥٣).

(٢) «التخويف من النار» (٥٧).

فإذَا قـيلَ: «إنَّ هذا مجازٌ» فـهمُوا إنَّه ليـسَ تحتَه مـعنى، ولا له حقيـقةٌ، فينكرونَ ذلك، وينفـرون منه. ومن أنكرَ المجازَ من العلماءِ فـقدْ ينكرُ إطلاقَ اسمِ المجازِ؛ لئـلا يوهم هذا المعنى الفاسـد، ويصيـرَ ذريعةً لمن يريدُ حـقائقَ الكتابِ والسنةِ ومدلولاتِهمَا.

ويقولُ: غـالبُ من تكلمَ بالحقيقـةِ والمجازِ همُ المعتـزلةُ ونحوهم من أهلِ البدعِ وتطرقُـوا بذلكَ إلى تحريفِ الكلمِ عـن مواضعِـه، فيمنعُ من الـتسمـيةِ بالمجاز، يجـعلُ جمـيع الألفاظِ حقـائقَ، ويقولُ: اللَّفظُ إن دلَّ بنفـسه فـهو حقيـقةٌ لذلكَ المعنى، وإن دلَّ بقرينةٍ فدلالتُـه بالقرينةِ حقيقـةٌ للمعنى الآخرِ، فهو حقيقةٌ في الحالينِ. وإن كانَ المعنى المدلولُ عليه مختلفًا فحينئذٍ يُقَالُ: لفظ اليمينُ في قولِه سـبحانَه وتعالى: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمـر:٦٧] حقـيقةٌ. وهو دالٌ علـى الصفةِ الذاتيـةِ. ولفظُ اليمينِ في الحـديثِ المعروفِ: «**الحجرُ الأسودُ يمينُ اللَّهِ في الأرضِ. فمنْ صافَحهُ فكأنَّمَا صَافَحَ اللَّهَ عز وجلَّ**»(١).

وقيلَ: يمينُه يُرادُ به ـ مع هذهِ القرائنِ المحتفة بهِ ـ محلُّ الاستلام والتقبيل. وهو حقيقةٌ في هذا المعنى في هذه الصورةِ، وليسَ فيه ما يُوهم الصفَةَ الذاتية أصلاً، بل دلالتُـه على معناه الخـاصِ قطيعةٌ لا تحـتملُ النقـيضَ بوجهٍ، ولا تحتاجُ إلى تأويلٍ ولا غيرِه.

وإذا قيلَ: فابنُ الفاعوسِ لمْ يكن من أهلِ هذا الشأنِ ـ أعني: البحثَ عن مدلولاتِ الألفاظ؟

قيلَ: ولا ابنُ الخاضبة كانَ من أهلِه، وإن كانَ محدِّثًا. وإنَّما سمعَ من ابنِ

(١) أخرجه: الخطيب في «تاريخ بغداد» (٦/٣٢٨).

الفاعوسِ، أو بلغَه عنه إنكارُ أن يكونَ هذا مجـازٌ، لِما سمعَه من إنكارِ لفظِ المجازِ، فحمله السامعُ لقصورِهِ أو لهـواه على أنَّه إذا كانَ حقيقةً لزمَ أن يكونَ هو يدُ الربِّ عزَّ وجلَّ، التي هي صفتُه. وهذا باطلٌ. واللَّهُ أعلمُ[1].

* * *

(١) «ذيل طبقات الحنابلة» (٣/ ١٧٤ ـ ١٧٥).

سُورَةُ غَافِر

قوله تعالى: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعتُ الوَزِيرَ[1] يقولُ فِي قَولِهِ تعالَى: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ﴾ [غافر:٧].

قال: علمتِ المَلائكةُ أَنَّ اللَّهَ عز وجل يحبُّ عبادَهُ المُؤمنِينَ، فَتَقَرَّبُوا إليه بالشفاعةِ فِيهِم. وأَحْسَنُ القُرَبِ: أن يسأل المُحبُّ إكرامَ حَبِيبِه، فإنكَ لَوْ سألتَ شَخصًا أن يزيدَ في إكرامِ ولَدِهِ لارتَفَعْتَ عِندَه، حَيْثُ تَحُثُّهُ عَلَى إِكْرَامِ مَحْبُوبِهِ[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾

وقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى:١٦، ١٧]. وقالَ تعالى: ﴿أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾ [التوبة:٣٨].

---

(١) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

(٢) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٧١ ـ ٢٧٢).

وقالَ اللَّهُ تعالى عن مؤمن آل فرعونَ أنّه قالَ لقومِه: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر:٣٨].

والمَتَاعُ: هو ما يتمتَّع به صاحبُه برهةً ثم ينقطعُ ويفنَى. فما عِيبَت الدُّنيا بأبلغَ من ذكر فنائها وتقلُّبِ أحوالِهَا، وهو أدلُّ دليلٍ على انقضائها وزوالِهَا، فتتبدَّلُ صحتُها بالسُّقمِ، ووجودُها بالعدمِ، وشبيبتُها بالهرَمِ، ونعيمهَا بالبؤسِ، وحياتُها بالموتِ، فتفارِقُ الأجسامُ النفوسَ، وعمارتُها بالخرابِ، واجتماعها بفرقةِ الأحبابِ، وكُلُّ ما فوق التُّرابِ ترابٌ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾

قال اللَّه تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦] قال قتادةُ في هذه الآيةِ: يقالُ لهم: يا آلَ فرعونَ هذه منازلكم، توبيخًا وصغارًا ونقيصةً.

وقالَ ابنُ سيرين: كان أبو هريرةَ يأتينا بعد صلاةِ العصرِ، فيقولُ: عرجت ملائكةٌ، وهبطتْ ملائكةٌ وعُرِضَ آلُ فرعونَ على النارِ، فلا يسمعُه أحدٌ إلا يتعوَّذ باللَّهِ من النار.

وقال شعبةُ، عن يعْلَى بنِ عطاء، سمعتُ ميمونَ بنَ مهرانَ يقولُ: كانَ أبو هريرةَ إذا أصبحَ يُنادي: أصبحْنا والحمدُ للَّهِ، وعُرِضَ آلُ فرعونَ على النارِ، فلا يسمعُه أحدٌ إلا يتعوَّذ باللَّهِ من النارِ.

---

(١) «لطائف المعارف» (٧٠).

ورواهُ هشيمٌ عن يعْلى، عن ميـمون، قالَ: كانَ لأبي هريرةَ صيـحتانِ كلَّ يومٍ، أوَّلُ النهارِ يقولُ: ذهبَ الليلُ وجاءَ النهارُ وعرضَ آلُ فرعونَ على النارِ، وإذا كان العـشيُّ يقول: ذهبَ الـنهارُ وجاءَ الـليل، وعُرِضَ آلُ فرعـونَ على النار، فلا يسمعُ أحد صوتَهُ إلا استجارَ باللَّهِ من النارِ.

ويُروى من حـديثِ الليث، عن أبي قيسٍ، عن هُذيلٍ، عـن ابنِ مسـعودٍ قالَ: أرواحُ آلِ فرعـونَ في أجواف طيرٍ سودٍ، فيـعرضونَ على النارِ كلَّ يومٍ مرتينِ، فيقـالُ لهم: هذه داركُم فذلك قوله تعالى: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾.

ورواهُ غيرُه عن أبي قيسٍ، عن هذيلٍ، من قولِه.

لكن خرَّجه الإسماعيليُّ من طريقِ ابـنِ عيينةَ، عن مسروقٍ عن أبي قيسٍ، عن هذيلٍ، عن ابنِ مسعودٍ أيضًا.

قال ابنُ أبي الدنيـا: حدثنا حـمادُ بنُ محـمدٍ الفزَاريُّ، قـالَ: بلغني عن الأوزاعيِّ، أنه سألهُ رجلٌ بعسقلانَ على السـاحلِ، فقال له: يا أبا عمرو، إنَّا نرَى طيرًا سـودًا تخرجُ من البحرِ، فـإذا كانَ العشيُّ عـادَ مثلها بيضًـا. قالَ: وفطنتم لذلكَ؟ قالوا: نعم. قالَ: فتلك طيرٌ في حواصِلها أرواحُ آل فرعونَ، فـتلفـحُـها النارُ، فـيـسـودُّ ريشُـها، ثـم يُلقى ذلك الريشُ، ثم تعـودُ إلى أوكارِها، يعرضونَ على النارِ فـتلفحُها النارُ؛ فذلك دأبُها حـتى تقومَ الساعةُ، فيقال: ﴿**أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾.

وفي «الصحيحين»(١) من حديثِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ قال: «**إذا**

---

(١) أخرجه: البخاري (٢/ ١٢٤)، (٤/ ١٤٢)، (٨/ ١٣٤)، ومسلم (٨/ ١٦٠).

ماتَ أحدُكم عُرِضَ عليه مقعدُه بالغداةِ والعشيِّ، إن كانَ من أهلِ الجنةِ فمن أهلِ الجنة، وإن كان من أهلِ النارِ فمن أهلِ النارِ، حتَّى يبعثَه ربُّه، يقالُ: هذا مقعدُك حتى يبعثكَ اللَّهُ إلى يوم القيامة».

ورواه الفضيلُ بن غزوان، عن نافعٍ عن ابنِ عمرَ ﵄، عن النبيِّ ﷺ ولفظه: «**ما من عبدٍ يموتُ إلا عرضَ عليه مقعدُه، إن كان من أهلِ الجنةِ على الجنة، وإن كان من أهلِ النارِ على النار**»[1].[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾

وقالَ إبراهيمُ بنُ أدْهمَ رحمهُ اللَّهُ تعالى في موعظتِه حينَ سألُه عن قولِه تعالى: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر:٦٠] وإنَّا ندعُوه فلم يستجبْ لنا. فقالَ: عرفتم اللَّه فلم تطيعُوه، وقرأتُم القرآنَ فلم تعملوا به، وعرفتُمُ الشيطانَ فوافقْتمُوه، وادَّعيتُم حبَّ رسولِ اللَّه ﷺ وتركتُم سنَّته وادَّعيتم حبَّ الجنةِ ولم تعملوا لها وادَّعيتم خوفَ النارِ ولم تنتهوا عن الذنوبِ، وقلتُم: إن الموتَ حقٌّ ولم تستعدُّوا له، واشتغلتم بعيوبِ غيركم ولم تنظروا إلى عيوبكم، وتأكلونَ رزقَ اللَّهِ ولا تشكرونَ، وتدفنون أمواتكم ولا تعتبرون[3].

* * *

(١) أخرجه: أحمد (٢/٥٩).
(٢) «أهوال القبور» (٥٥ ـ ٥٧).
(٣) «الذل والانكسار» (٩٠ ـ ٩١).

الدعاء مأمورٌ به، وموعودٌ عليه بالإجابة، كما قالَ تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وفي «السننِ الأربعة»(١) عنِ النُّعمانِ بنِ بَشيرٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الدعاءَ هو العبادةُ» ثم تلا هذه الآيةَ.

وفي حديثٍ آخرَ خرَّجه الطبرانيُّ(٢) مرفوعًا: «منْ أُعْطيَ الدُّعاءَ، أُعْطيَ الإجابة، لأنَّ اللَّه تعالى يقول: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾».

وفي حديثٍ آخرَ: «ما كان اللَّهُ ليفتحَ على عبدٍ بابَ الدُّعاءِ، ويُغْلِقَ عنه بابَ الإجابةِ»(٣).

لكنَّ الدعاءَ سببٌ مقتضٍ للإجابةِ مع استكمالِ شرائطِه، وانتفاءِ موانعِه، وقد تتخلَّف إجابتُه، لانتفاءِ بعضِ شروطِهِ، أو وجودِ بعضِ موانعِهِ.

ومن أعظمِ شرائطِه: حضورُ القَلبِ، ورجاءُ الإجابةِ من اللَّه، كما خرَّجه الترمذيُّ من حديثِ أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «ادعوا اللَّه وأنتُم موقنونَ بالإجابةِ، فإنَّ اللَّه لا يَقبلُ دُعاءً من قلبٍ غافلٍ لاهٍ»(٤).

وفي «المسندِ»(٥) عن عبدِ اللَّه بنِ عمرٍو، عنِ النبيِّ ﷺ، قال: «إنَّ هذه القلوبَ أوعيةٌ، فبعضُها أوعى من بعضٍ، فإذا سألتم اللَّه فاسألوهُ وأنتُم موقنونَ بالإجابة،

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/ ٢٦٧ ـ ٢٧١ ـ ٢٧٦)، وأبو داود (١٤٧٩)، والترمذي (٣٢٤٧)، (٣٣٧٢)، والنسائي في «الكبرى» (١١٦٤٣)، وابن ماجه (٣٨٢٨).

(٢) أخرجه: الطبراني في «الصغير» (١٠٠٠)، والخطيب (١/ ٢٤٧ ـ ٢٤٨).

(٣) أخرجه: العقيلي (١/ ٢٤٢)، وابن عدي (٢/ ٣٢٢).

(٤) أخرجه: الترمذي (٣٤٧٩)، وابن عدي (٤/ ٦٢)، وابن حبان في «المجروحين» (١/ ٣٦٨)، والحاكم (١/ ٤٩٣).

(٥) أخرجه: أحمد (٢/ ١٧٧).

فإنَّ اللَّه لا يستجيبُ لعبدٍ دعاءً من ظهرِ قلبٍ غافلٍ».

ولهذا نُـهيَ العبدُ أنْ يقـولَ في دعائِه: اللَّـهم اغفرْ لي إنْ شـئت، ولكنْ ليَعزِمَ المسألةَ، فإنَّ اللَّه لا مُكْرِهَ له[1].

ونُهِيَ أن يسـتعجلَ، ويتـركَ الدعاءَ لاسـتبطاءِ الإجابةِ، وجـعلَ ذلك من موانعِ الإجـابةِ حتَّى لا يقطعَ العبـدُ رجاءَه من إجابـةِ دُعائِه ولو طالتِ المدةُ، فإنَّه سبحانه يُحبُّ المُلحِّين في الدعاءِ.

وجاء في الآثارِ: إنَّ العـبدَ إذا دعا ربَّه وهو يحـبُّه، قال: «يا جـبريل، لا تَعجَلْ بقضاءِ حاجة عبدي، فإنِّي أحبُّ أن أسمع صوتَه».

وقال تعالى: ﴿**وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [الأعراف:٥٦] فما دام العـبدُ يُلحُّ في الدُّعاءِ، ويَطمعُ في الإجابـةِ من غيرِ قطعِ الرَّجاءِ، فهو قريبٌ من الإجابةِ، ومنْ أدْمَنَ قرْعَ البابِ، يُوشك أن يُفتح له.

وفي «صحيحِ الحاكمِ»[2] عن أنس مرفـوعًا: «**لا تعْجـزُوا عن الدُّعاءِ، فـإنَّه لن يَهلِكَ مع الدُّعاءِ أحَدٌ**»[3].

* * *

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ٩٢)، ومسلم (٨/ ٦٣) من حديث أبي هريرة وأنس.

(٢) أخرجه: الحاكم (١/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٤٤٣ ـ ٤٤٥).

سُورَةُ الشُّورَى

قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾

[قال البخاريُّ][1]: وقال مجاهدٌ: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ**﴾ [الشورى:١٣] أوصيناكَ وإيَّاهُ يا مُحَمَّد دِينًا واحدًا.

روى ورقاءُ، عن ابنِ أبي نجيحٍ، عن مجاهدٍ، في قوله: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا**﴾ [الشورى:١٣]، قال: وصَّاك به وأنبياءَهُ كلَّهم دينًا واحدًا.

ومعنى ذلك أنَّ دينَ الأنبياءِ كلِّهم دينٌ واحدٌ، وهو الإسلامُ العامُّ، المشتملُ على الإيمانِ باللَّه وملائكته وكتبِهِ ورسلِهِ واليومِ الآخرِ، وعلى توحيدِ اللَّه وإخلاصِ الدِّين له، وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاة.

كما قال تعالى: ﴿**وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ**﴾ [البينة:٤، ٥].

والدينُ هو الإسلامُ، كما صرحَ به في مواضعَ أُخرَ، وإذا أُطلقَ الإسلامُ دخلَ فيه الإيمانُ، وبالعكس.

---

(١) «صحيح البخاري» (٩/١)

وقـد استـدلَّ على أنَّ الأعمـالَ تدخلُ في الإيمانِ بهـذه الآيةِ وهي قولُه: ﴿وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥] طوائفُ من الأئمـةِ، منهم: الشافـعيُّ وأحمـدُ والحميديُّ.

وقال الشافعيُّ: ليسَ عليهم أحجُّ من هذه الآيةِ.

واستدلَّ الأوزاعيُّ بقولِه تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾ إلى قوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ولا تتفرَّقُوا﴾ [الشورى:١٣].

وقال: الدِّينُ: الإيمانُ والعملُ.

واستدلَّ بقـولِهِ تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة:١١].

وقد ذكرَ الخلاَّلُ في كتابِ «السُّنَّةِ» أقوالَ هؤلاءِ الأئمةِ بألفاظِهِمْ، بالأسانيدِ إليهم[١].

* * *

قول تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾

وقد مدحَ اللَّهُ من يغـفرُ عندَ غضبِـه، فقالَ: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى:٣٧]؛ لأنَّ الغضبَ يحملُ صاحبه على أنْ يقولَ غيرَ الحقِّ، ويفعلَ غيرَ العدلِ، فـمن كانَ لا يقولُ إلا الحقَّ في الغضبِ والرِّضـا دلَّ ذلك على شدةِ إيمانِه وأنَّه يملكُ نفسَهُ.

وخرَّج الطبرانيُّ[٢] من حديثِ أنسٍ مرفوعًا: «ثلاثٌ من أخلاقِ الإيمانِ: مَنْ إذا

(١) «الفتح» (١/ ١٥ ـ ١٦).

(٢) أخرجه: الطبراني في «الصغير» (١/ ٦١).

غضِبَ لا يُدْخِلُهُ غضبُه في باطلٍ، ومَنْ إذا رَضِي لا يُخْرِجُهُ رضَاه من حقٍّ، ومنْ إذا قدرَ لا يتعاطَى ما ليسَ له».

فهذا هو الشديدُ حقًّا كما قال النبيُّ ﷺ: «ليسَ الشديدُ بالصُّرَعَةِ إنَّما الشديدُ الذي يملكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ»(١).

ولمسلمٍ(٢): «ما تعدون الصُّرَعَةَ فيكم؟» قلنا: الذي لا تَصْرَعُهُ الرِّجالُ، قال: «ليس كذلك، ولكنَّه الذي يملكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ».

وقال رجلٌ للنبيِّ ﷺ: أوصِني، قال: «لا تغضَبْ» فرددَ مراراً، قال: «لا تغضبْ» أخرجه البخاريُّ(٣).

وفي «المسندِ» أنَّ رجلاً قال: يا رسولَ اللَّه، ما يباعدني عن غضَبِ اللَّهِ؟ قال: «لا تغضَبْ».

قال مُورِّقٌ العِجْلِي: ما قلتُ في الغضبِ شيئًا إلا ندمتُ عليه في الرِّضا.

قال عطاءٌ: ما أبكَى العلماءَ بكاءٌ آخرَ العمرِ إلا من غضبةٍ قدْ أقحمتْ صاحبَها مقحمًا ما استقاله.

كان الشعبيُّ ينشدُ:

ليستِ الأحلامُ في حالِ الرِّضا إنَّما الأحلامُ في حالِ الغضَبْ

وكان ابنُ عونٍ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ إذا اشتدَّ غضبُه على أحدٍ قال: باركَ اللَّه فيك، ولم يزدْ.

---

(١) أخرجه: مسلم (٨/ ٣٠) عن أبي هريرة.
(٢) السابق، عن ابن مسعود.
(٣) البخاري (٨/ ٣٥).

وقال الفضيلُ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ : أنا منذُ خمسينَ سنةً أطلبُ صديقًا إذا غضبَ لا يكذبُ عليَّ ما أجدُه.

فإنَّ منْ لا يملكُ نفسَهُ عندَ الغضبِ إذا غضبَ قال فيمَنْ غضبَ عليه ما ليسَ فيه من العظائمِ، وهو يعلمُ أنَّه كاذبٌ، وربَّما علِمَ الناسُ بذلك ويحملُهُ حقدُهُ وهوى نفسِهِ على الإصرارِ على ذلك.

وقال جعفرُ بنُ محمدٍ ﵁: الغضبُ مفتاحُ كلِّ شرٍّ.

وقيلَ لابنِ المباركِ: اجمَعْ لنا حسنَ الخلقِ في كلمةٍ قال: تركُ الغضَبِ.

وقال مالكٌ بن دينارٍ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ : منذ عرفتُ الناسَ لم أبالِ بمدحِهِم وذمهم لأنِّي لم أرَ إلا مادحًا غاليًا، أو ذامًّا غاليًا.

يعني: أنه لم يرَ مَنْ يقتصدُ فيما يقولُ في رضاه وغضبهِ.

* * *

(١) رسالة: «شرح حديث: اللهم بعلمك الغيب» (ص ٢٨ ـ ٣٠).

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

قوله تعالى: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾

ومما أنكره السلفُ: الجدالُ والخصامُ والمراءُ في مسائلِ الحلالِ والحرامِ، ولم يكنْ ذلكَ طريقةَ أئمةِ الإسلامِ، وإنَّما أحدثَ ذلكَ بعدَهُم كما أحدَثَهُ فقهاءُ العراقيينَ في مسائل الخلافِ بين الشافعيـة والحنفية، وصنفوا كتبَ الخلافِ ووسَّعُوا البحثَ والجدالَ فيها، وكلُّ ذلك لا أصلَ له وصارَ ذلكَ علمَهُم، حتى شغَلَهم عن العلمِ النافع. وقد أنكرَ ذلك السلفُ ووردَ في الحديث المرفوعِ في «السنن»: **«ما ضلَّ قومٌ بعدَ هدى كانُوا عليه إلا أوتوا الجدلَ»**. ثم قرأ: **﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾** [الزخرف:٥٨].

وقال بعضُ السلفِ: إذا أرادَ اللَّهُ بعبدٍ خيراً فتحَ له بابَ العملِ وأغلقَ عنه باب الجدلِ، وإذا أراد اللَّهُ بعبدٍ شرًّا أغلقَ عنه بابَ العملِ، وفتحَ له بابَ الجدلِ.

وقال مالكٌ: أدركتُ أهل هذه البلدةِ وإنَّهم ليكرهونَ هذا الإكثارَ الذي عليه الناسُ اليومَ، يريدُ المسائلَ. وكان يعيبُ كثرةَ الكلامِ والفُتيا ويقولُ: يتكلمُ أحدُهُم كأنَّه جملٌ مغتلم، يقولُ: هو كذا هو كذا، يهدرُ كلامَهُ، وكان يكرهُ الجوابَ في كثرةِ المسائلِ، ويقولُ: قالَ اللَّه عزَّ وجلَّ: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾** [الإسراء:٨٥]، فلم يأتِه في ذلكَ جوابٌ.

وقيل له: الرجلُ يكونُ عالمًا بالسنةِ يجادلُ عنها، قالَ: لا، ولكنْ يخبرُ بالسنةِ، فإمَّا قُبِلَ منه وإلا سكتَ. وقال: المراءُ والجدالُ في العلمِ يذهبُ بنورِ العلم. وقالَ: المراءُ في العلمِ يُقَسِّي القلبَ ويورثُ الضغْنَ. وكان يقولُ في المسائلِ التي يسألُ عنها كثيرًا: لا أدْرِي. كان الإمام أحمدُ يسلك سبيلَه في ذلك.

وقد وردَ النهيُ عن كثرة المسائلِ وعن أغلوطاتِ المسائلِ، وعن المسائلِ قبلَ وقوعِ الحوادِثِ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾

وعذابُ الكفارِ في النَّارِ لا يُفَتَّرُ عنهم ولا ينقطعُ ولا يُخفَّفُ بل هو متواصلٌ أبدًا، قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف:٧٤، ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ [فاطر:٣٦]، وقال تعالى: ﴿فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:٨٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ [غافر:٤٩، ٥٠].

(١) رسالة: «فضل علم السلف» (ص ٤٨ ـ ٥٠).

وقالَ أحـمدُ بنُ أبي الحـواريِّ: سمعـتُ إسحاقَ بنَ إبراهيمَ يـقولُ ـ على منبـرِ دمشقَ ـ: لا يأتي على صـاحبِ الجنَّةِ ساعـةٌ إلا وهو يزدادُ ضِعـفًا من النَّعيمِ لم يكنْ يـعرفُه، ولا يأتي على صـاحبِ النَّارِ ساعةٌ إلا وهو مـستنكرٌ لنوعٍ من العذابِ لم يكنْ يعرفُـه، قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿**فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا**﴾ [النبأ: ٣٠].

قالَ جِسرُ بنُ فَرْقَدٍ عن الحـسنِ: سألتُ أبا بَرْزةَ عن أشدِّ آيةٍ في كتابِ اللَّه على أهلِ النَّارِ، قال: سـمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ قرأ: ﴿**فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا**﴾ [النبأ: ٣٠]، فقـالَ: «**أُهلكَ القـومُ بمعاصـيهم للَّه تعـالى**» خرَّجَـه ابنُ أبي حاتمٍ، وجِسرٌ ضـعيفٌ، وخرَّجَه البيهقيُّ ولمْ يرفـعْهُ ولفظُهُ: سألت أبا برزةَ عن أشدِّ آيةٍ عـلى أهلِ النارِ، قال: قـولُه عزَّ وجلَّ: ﴿**فَذُوقُوا فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا**﴾ [النبأ: ٣٠].

وقالَ مجـاهدٌ: بلغني أنَّ استراحـةَ أهـلِ النَّـارِ أنْ يضـعَ أحـدُهـم يدَهُ على خـاصِرَتِهِ، ولأهـل النَّارِ أنـواعٌ مـن العـذابِ لم يطلعِ اللَّهُ عليـها خلقَـهُ في الدنيـا.

قال مبـاركٌ عن الحسنِ: ذكرَ اللَّهُ السلاسلَ والأغـلالَ والنَّارَ وما يكونُ في الدنيا، ثمَّ قرأ: ﴿**وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ**﴾ [ص: ٥٨].

قال آخرُ: لا تُرى في الدُّنيا. خرَّجَهُ ابنُ أبي حاتمٍ.

وقال أبو يَعلى الموصلي: حـدثَنا شُريحٌ، حدثنا إبراهيمُ بنُ سليـمانَ، عن الأعمشِ عـن الحسنِ، عن ابنِ عـباسٍ في قولِه تـعالى: ﴿**زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ**﴾ [النحل: ٨٨]. قال: هي خمـسةُ أنهارٍ تحتَ العرشِ يُعذَّبون ببعـضها في

الليل وبعضها في النَّهار(١) .

* * *

قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾

قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾ [الزخرف:٧٧] ومالكٌ هو خازنُ جهنَّمَ، وهو كبيرُ الخزنةِ ورئيسهم، وقدْ رآه النبيُّ ﷺ ليلةَ الإسراءِ، وبدأَهُ مالكٌ بالسلامِ، خرَّجَه مسلمٌ من حديثِ أنسٍ.

ورآه النبيُّ ﷺ في منامهِ وهو كريهُ المِرآةِ، أي: كريهُ المنظرِ، كأكرهِ ما أنتَ راءٍ من الرِّجال(٢) .

* * *

قال اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٦-١٠٨].

وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر:٤٩ . ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ

---

(١) «التخويف من النار» (١٥٤، ١٥٥).

(٢) «التخويف من النار» (ص ١٧٧).

أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ [فاطر:٣٧].

وفي حديثِ الأعمشِ عن شمرِ بنِ عطيةَ عن شهرِ بنِ حوشبٍ عن أمِّ الدَّرداءِ عن أبي الدَّرداءِ عن النبيِّ ﷺ: في ذكرِ أهلِ النَّارِ قال: «فيقُولُونَ: ادعُوا خزنةَ جهنمَ، فيقولون: ﴿أَوَ لَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [غافر:٥٠]». قال: «فيقُولونَ ادعُوا مالكًا فيقُولُونَ: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧].»

قال الأعمشُ: نُبئتُ أنَّ بينَ دُعائِهم وبين إجابةِ مالكٍ لهم ألفَ عامٍ، قال: فيقُولُون: ادعُوا ربَّكم فإنَّه ليس أحدٌ خيرًا من ربّكم فيقُولُون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٦، ١٠٧]، قال فيُجِيبُهم: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨].

قال: «فعندَ ذلك يئسُوا من كلِّ خيرٍ وعندَ ذلك يأخذونَ في الحسرةِ والزفيرِ والويلِ».

خرَّجه الترمذيُّ مرفوعًا وموقوفًا على أبي الدرداء.

وروى أبو معشرٍ عن محمدِ بن كعبٍ القُرظيِّ قال: لأهلِ النارِ خمسُ دعواتٍ يُكلَّمونَ في أربعٍ منها ويُسكتُ عنهم في الخامسةِ فلا يُكلَّمونَ يقولون: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر:١١].

فيردُّ عليهم: ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ [غافر:١٢].

ثمَّ يقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة:١٢].

فيردُّ عليهم: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ [السجدة:١٣] إلى آخر الآيتين.

ثمَّ يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ﴾ [إبراهيم:٤٤].

فيردُّ عليهم: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم:٤٤].

ثمَّ يقولُون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر:٣٧].

فيردُّ عليهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ [فاطر:٣٧].

ثمَّ يقولون: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٦، ١٠٧].

فيردُّ عليهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ إلى قوله: ﴿وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٨-١١٠].

قال: فلا يتكلَّمونَ بعدَ ذلك، خرَّجَه آدمُ بنُ أبي إياسٍ وابنُ أبي حاتمٍ.

وخرَّجَ ابنُ أبي حاتمٍ من روايةِ قتادةَ عن أبي أيوبَ العتكيِّ، عن عبدِ اللَّهِ ابنِ عمرٍ قال: نادى أهلُ النَّارِ: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف:٧٧] قال: فخلَّى عنهم أربعين عامًا ثمَّ أجابهم: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧] فقالُوا: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٧] قال: فخلَّى عنهم مثلَ الدُّنيا ثمَّ أجابَهم: ﴿قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨] قال: فأُطبِقَتْ عليهم فبئسَ القومُ بعدَ تلك الكلمةِ، وإنْ كان إلا الزفيرُ والشهيقُ.

وعن عطاءِ بنِ السائبِ عن أبي الحسنِ عن ابنِ عباسٍ في قولهِ تعالى: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ قال: فيتركُهم ألفَ سنةٍ ثم يقولُ: ﴿إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾، وخرَّجَهُ البيهقيُّ وعندَه عن عطاءٍ عن عكرمةَ عن ابنِ عباسٍ.

وقال سُنَيدٌ في «تفسيرِه»: حـدثنا حجاجٌ، عن ابنِ جريجٍ قال: نادَى أهلُ النَّارِ خزنـةَ جهنمَ أنْ ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٩] فلم يجيبُـوهم ما شاءَ اللَّهُ، ثمَّ أجابُوهم بعـدَ حينٍ وقالُوا لهُم: ﴿فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ﴾ [غافر:٥٠].

ثمَّ نادَوا: ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيسكُتُ عنهم مـالكٌ خازنُ جهنمَ أربعينَ سنةً ثمَّ أجابَهم: ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ﴾ ثمَّ نادَى الأشقـياء ربَّهم: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [المؤمنون:١٠٦] الآيتين، فسكتَ عنهم مثلَ مـقدارِ الدُّنيا ثمَّ أجابَهم بعدُ ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون:١٠٨].

ورَوى صفوانُ بنُ عـمرٍو قال: سمعتُ أيفعَ بنَ عبـدِ الكُلاعي يقولُ: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «إذا دخلَ أهلُ الجنَّة الجـنةَ وأهلُ النَّارِ النارَ، قـالَ اللَّـهُ: يا أهلَ الجنَّة: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [المؤمنون:١١٢، ١١٣] قال: نعم مـا اتَّجرتُم في يومٍ أو بعضِ يومٍ رحمـتي ورضواني وجنَّتي امكثُوا فيـها خالدين مـخلدينَ. ثم يقولُ لأهلِ النَّارِ: ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فـيـقول: بـئسَ ما اتَّـجرتُم بـه في يومٍ أو بعضِ يومٍ سـخطِي ومعصيتي وناري، امكثُوا فيـها خالدين مخلدينَ فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فيقولُ: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ﴾، فيكـونُ ذلك آخرُ عهـدهِم بكلامِ ربِّهم عزَّ وجلَّ» خرَّجه أبو نعيمٍ(١) . وقال: كذا رواه أيفعُ مرسلاً.

وقال أبو الزَّعْراءِ عن ابنِ مسعودٍ: إذا أرادَ اللَّهُ أن لا يُخرِجَ منها أحدًا غيرَ وجوهِـهِم وألوانِهم، فيـجيءُ الرجلُ من المؤمنين فيـشفـعُ فيقـولُ: يا ربِّ،

---

(١) أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ١٣٢).

فيقالُ: من عرفَ أحدًا فليُخــرِجْهُ، قال: فيجيءُ الرجلُ من المؤمنينَ فينظرُ فلا يعرفُ أحــدًا فيناديَهُ الرجلُ فيــقولُ: يا فلانُ، أنا فــلانٌ، فيقولُ: مــا أعرفك قــال: فعندَ ذلك يقــولون في النَّارِ: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ﴾ فيقولُ عندَ ذلك: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ فإذا قال ذلك أُطبِقَتْ عليهم فلم يخْرجْ منهم أحدٌ.

وفي روايةٍ قال ابنُ مسعودٍ: ليسَ بعدَ هذه الآيةِ خروجٌ: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾.

وذكَرَ عبدُ الرزاقِ في «تفسيرِهِ» عن عــبدِ اللَّهِ بنِ عيسى عن زيادٍ الخُرسانيِّ أسندَهُ إلى بعضِ أهلِ العلمِ: قــال: إذا قيلَ لهم: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ سكتُوا فلا يُسمَعُ لهم فيها حسٌّ إلا كطنينِ الطِّستِ[1].

* * *

(١) «التخويف من النار» (١٦٢ ـ ١٦٥).

سُورَةُ الدُّخَانِ

قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾

وقد رُوي عن عكرمةَ وغيرِه من المفسِّرين في قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤] أنَّها ليلةُ النِّصْفِ من شعبانَ. والجمهورُ على أنَّها ليلةُ القدْرِ، وهو الصحيحُ.

وقال عطاءُ بنُ يسارٍ: إذا كان ليلةُ النِّصْفِ من شعبانَ دُفعَ إلى ملكِ الموتِ صحيفةٌ، فيُقالُ: اقبض من في هذه الصحيفةِ، فإنَّ العبدَ ليَغْرِسُ الغِرَاسَ، وينكحُ الأزواجَ، ويبني البُنيانَ، وإنَّ اسمَه قد نُسِخَ في الموتى ما ينتظرُ به ملَكُ الموتِ إلا أن يُؤمَرَ به فيقبضَه..

يا مغروراً بطول الأمل، يا مسروراً بسوءِ العملِ، كُنْ مِن الموتِ على وَجَلٍ، فما تدري متى يهجُمُ الأجَلُ.

كُلُّ امْرِئٍ مُصبّحٌ في أهْلِـهِ والمَوْتُ أدنَى من شِراكِ نَعْلِه

قال بعضُ السلفِ: كم من مُستقبلٍ يومًا لا يستكملُهُ، ومن مُؤمِّلٍ غداً لا يدرِكُه، إنَّكم لو رأيتمُ الأجَلَ ومسيرَهُ لأبغضتُمُ الأمَلَ وغُرورَهُ.

أؤمِّلُ أنْ أُخَلَّدُ والمنايا تدُورُ عليَّ من كُلِّ النَّواحي
وما أدري وإنْ أمْسَيْتُ يومًا لَعلِّي لا أعيشُ إلى الصباحِ
كمْ ممَّن راحَ في طلبِ الدنيا أو غدَا أصبَحَ مِنْ سكانِ القُبورِ غدَا

كـأنـكَ بالمضيِّ إلـى سـبـيـلكْ وقـدْ جـدَّ المُجَـهِّـزُ في رحـيـلِكْ
وجيءَ بِغـاسِلٍ فـاسْـتَـعْـجَلُوهُ بقـولِهِم لهُ افْـرغْ من غَـسـيلِكْ
ولم تحـمِلْ سِـوَى كـفَـنٍ وقُطْنٍ إليـهم من كـثـيـركَ أو قليلكْ
وقـد مـدَّ الرِّجـالُ إليكَ نَعْـشًـا فـأنْتَ عليـه مَـمْـدُودٌ بطولك
وصلَّوا ثمَّ إنَّـهم تـداعَـوا لحـمْلكَ من بُكورِكَ أو أصـيلِكْ
فلمَّـا أسْـلَمُـوك نزلْتَ قـبْـرًا ومن لكَ بـالسَّـلامـةِ فـي نُزولِكْ
أعـانَـكَ يومَ تدخُـلُهُ رحـيـمٌ رءوفٌ بالعـبـادِ عـلى دُخُـولِكْ
فـسَـوفَ تُجـاوِر المَوْتَـى طويلاً فـذَرْني من قَـصـيـركَ أو طويلِكْ
أُخَيَّ لقَـدْ نَصـحتُـكَ فاسْـتَـمِعْ لِي وباللَّه اسْـتَـعَنْـتُ على قـبـولِكْ
ألَـسْـتَ تَـرى المـنـايـا كُـلَّ حـينٍ تُصـيبُكَ في أخِـيكَ وفي خَليلِكْ[(١)]

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعت الوزير[(٢)] يقول في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [الدخان: ٣٤ ـ ٣٦] قال: ربَّما توهَّم جاهلٌ أنهم لم يُجَابُوا عما سألوا، وليسَ كذلك؛ فإن الذين سألوا لا يصلح أن يكون دليلاً على البعث؛ لأنهم لو أُجيبوا إلى ما سألوا لم يكُنْ ذلك حجةً على مَنْ تقدَّم، ولا على

(١) «اللطائف» (ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩).

(٢) هو: محمد بن يحيى بن هبيرة.

من تأخَّر، ولم يَزد على أنْ يكونَ لمن تقدَّم وعدًا، ولمن تأخر خبرًا، اللهم إلا أن يجيء لكل واحدٍ أبوه، فتصير هذه الدارُ دارَ البعثِ. ثمَّ لو جازَ وقوع مثل هذه كان إحياءُ ملكٍ يُضْرَبُ به الأمثالُ أولى، كـ: تُبَّعٍ، لا أنتم يا أهلَ مكَّةَ، فإنكم لا تُعرفون في بقاع الأرض[1] .

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾

قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٦]. وقال: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُّزُلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٦٢-٦٨]، وقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: ٥١-٥٧]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠].

وخرَّجَ الترمذيُّ وابنُ ماجهَ وابنُ حبانَ في «صحيحِهِ»[2] من حديثِ ابنِ

---

(١) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٦٩).

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٣٠٠)، وابن ماجه (٤٣٢٥)، والترمذي (٢٥٨٥)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٦٣٩٨).

عباسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قرأ هذه الآيةَ: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢]. فقال رسولُ اللَّه ﷺ: «لو أنَّ قطرةً من الزقوم قُطِرَتْ في دارِ الدنيا لأفسدتْ على أهلِ الدنيا معايشَهُم، فكيفَ بمَن تكونُ طعامَهُ؟!».

وقال الترمذيُّ: صحيح، ورُوي موقوفًا على ابنِ عباسٍ.

وقال ابنُ إسحاقَ: حدثني حكيمُ بنُ حكيم، عن عكرمةَ، عن ابنِ عباسٍ، قال: قال أبو جهلٍ لَمَّا ذكرَ رسولُ اللَّه ﷺ شجرةَ الزقومِ: يُخوِّفُنا بها محمدٌ، يا معشرَ قريشٍ أتدرُون ما شجرةُ الزقومِ التي يُخوِّفُكم بها محمدٌ؟ قالُوا: لا، قال: عجوةُ يثربَ بالزبدِ، واللَّه لئنِ اهتمكنا منهـا لنتزقمنَّها تزقمًا، فأنزلَ اللَّه فيه: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الأَثِيمِ﴾ الآية [الدخان:٤٣، ٤٤]، أي ليس كما تقول، وأنزلَ اللَّه ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلاَّ طُغْيَانًا كَبِيراً﴾ [الإسراء:٦٠].

وقالَ عبدُ الرزاقِ، عن معمرٍ، عن قتادةَ، في قوله: ﴿فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ [الصافات:٦٣] قال: زادتْهم تكذيبًا حينَ أخبرَهم أنَّ في النَّارِ شجرةً، قال: يخبرُهم أنَّ في النَّارِ شجرةً والنَّارُ تحرقُ الشجرَ، فأخبرَهم أنَّ غذاءَها من النارِ.

وقد تقدمَ عن ابنِ عباسٍ أنَّ شجرةَ الزقومِ نابتةٌ في أصلِ سقرَ، ورُوي عن الحسنِ أنَّ أصلَها في قعرِ جهنمَ وأغصانَها ترتفعُ إلى دركاتِها.

وقالَ سلامُ بنُ مسكينٍ: سمعتُ الحسنَ تلا هذه الآيةَ: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ﴾ قالَ: إنَّها هناك قد حُميت عليها جهنمُ.

وقال مغيرةُ، عن إبراهيمَ وأبي رزينٍ: ﴿كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ﴾: قال: الشجرُ يغلي.

قال جعفرُ بنُ سليمانَ: سمعتُ أبا عمرانَ الجوني يقولُ: بلغَنا أنَّه لا ينهشُ منها نهشةً إلا نهشتْ منه مثلَها.

وقد دلَّ القرآنُ على أنَّهم يأكلونَ منها حتى تمتلئَ منها بطونُهم، فتغلي في بطونِهم كما يغلي الحميمُ، وهو الماءُ الذي قدْ انتهى حرُّهُ، ثمَّ بعدَ أكلهم منها يشربُونَ عليه من الحميمِ شربَ الهيمِ.

قال ابنُ عباسٍ في روايةِ علي بنِ أبي طلحة: الهيمُ: الإبلُ العطاشُ.

وقال: السديُّ: هو داءٌ يأخذ الإبلَ فلا تُروى أبدًا حتى تموت، فكذلك أهلُ جهنم لا يُروونَ من الحميم أبدًا، وعن مجاهدٍ نحوُه.

وعن الضحاكِ في قولِهِ: ﴿شُرْبَ الْهِيمِ﴾ [الواقعة:٥٥]، قال: من العربِ مَن يقولُ: هو الرملُ، ومنهم مَنْ يقولُ: الإبلُ العطاشُ، وقد رُوي عن ابنِ عباسٍ كلا القولين، ودلَّ قولُهُ سبحانَهُ: ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ [الصافات:٦٨] على أنَّ الحميمَ يشابُ به ما في بطونِهم من الزَّقوم فيصيرُ شوبًا له، وقال عطاءٌ الخراسانيُّ في هذه الآيةِ: يقالُ: يُخلطُ طعامُهُم ويشابُ بالحميمِ. وقال قتادةُ: ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾: مِزاجًا من حميمٍ.

وعن سعيدِ بنِ جبيرٍ قال: إذا جاعَ أهلُ النَّارِ استغاثُوا من الجوعِ فأُغيثُوا بشجرةِ الزَّقومِ فأكلوا منها فانسلختْ وجوهُهُم حتى لو أنَّ مارًّا مرَّ عليهم يعرفُهم لعَرفَ جلودِ وجوهِهِم، فإذا أكلُوا منها أُلقي عليهم العطشُ، فاستغاثُوا من العطشِ فأُغيثوا بماءٍ كالمهلِ، والمهلُ: الذي قد انتهى حرُّهُ، فإذا

أدنَوه من أفواهِهم أنضجَ حرُّهُ الوجوهَ فيُصهرُ به ما في بطونِهم، ويُضربُون بمقامعَ من حديدٍ فيسقطُ كلُّ عضوٍ على حيالِهِ يدعُونَ بالثبورِ.

وقولُهُ تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ﴾ [الصافات:٦٨]. أي: بعدَ أكل الزقومِ وشربِ الحميمِ عليه، ويدلُّ هذا على أنَّ الحميمَ خارجٌ من الجحيمِ فهم يردُونَه كما تَرِدُ الإبلُ الماءَ، ثمَّ يَرِدُون إلى الجحيمِ، ويدلُّ على هذا أيضًا قولُه تعالى: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن:٤٣، ٤٤] والمعنى أنَّهم يتردَّدُون بينَ جهنمَ والحميمِ فمرةٌ إلى هذا، ومرةٌ إلى هذا قالَهُ قتادةُ وابنُ جريجٍ، وغيرُهما.

وقال القرطيُّ في قولِهِ: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن:٤٤]، قالَ: إنَّ الحميمَ دونَ النَّارِ، فيُؤخذُ العبدُ بناصيتِهِ فيُجرُّ في ذلك الحميم حتى يذوبَ اللحمُ ويبقى العظمُ والعينان في الرأسِ، وهذا الذي يقول اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر:٧٢].(١)

* * *

(١) «التخويف من النار» (١١٢ ـ ١١٤).

سُورَةُ الجَاثِيَة

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾

وجاء من مراسيلِ الحسنِ عن النبيِّ ﷺ: «**مَنْ قالَ: لا إله إلا اللَّه مخلصًا دخلَ الجنَّة**» قيلَ: وما إخلاصُها؟ قال: «**أن تحجُزَك عمَّا حرَّم اللَّهُ**» ورُوي ذلك مسندًا من وجوهٍ أُخرَ ضعيفةٍ.

ولعلَّ الحسنَ أشارَ بكلامهِ الذي حكيناه عنه من قبلُ إلى هذا، فإنَّ تحقيقَ القلب بمعنى: «لا إله إلا اللَّه» وصدقَه فيها وإخلاصَهُ بها يقتضي أن يرسخَ فيه تألُّه اللَّه وحدَهُ، إجلالاً، وهيبةً، ومخافةً، ومحبَّةً، ورجاءً، وتعظيمًا، وتوكُّلاً، ويمتلئَ بذلك، وينتفيَ عنه تألُّه ما سواه من المخلوقينَ، ومتى كانَ كذلك لم يبقى فيه محبَّةٌ ولا إرادةٌ، ولا طلبٌ لغيرِ ما يُريدُهُ اللَّهُ ويحبُّه ويطلبُه، وينتفي بذلك من القلبِ جميعُ أهواءِ النفوسِ وإرادتها ووساوسُ الشيطان، فمَنْ أحبَّ شيئًا وأطاعَهُ، وأحبَّ عليه وأبغضَ عليه، فهو إلهُهُ، فمن كان لا يحبُّ ولا يُبغضُ إلا للَّه، ولا يُوالي ولا يُعادي إلا له، فاللَّه إلهُهُ حقًّا، ومن أحبَّ لهواه، وأبغضَ له ووالَى عليه، وعادَى عليه، فإلهه هواه، كما قال تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾ [الجاثية:٢٣]، وقال الحسنُ: هو الذي لا يَهوى شيئًا إلا ركبَهُ، وقال قتادةُ: هو الذي كلما هَوِيَ شيئًا ركبَهُ، وكلَّما اشتهى شيئًا أتاه، لا يَحجزُهُ عن ذلك ورعٌ ولا تقوى، ويُروى من حديث أبي أمامةَ مرفوعًا: «**ما تحت ظلِّ السماء إلهٌ يُعبد أعظمَ عند**

اللَّه من هوىً متَّبع»(١) .

وكذلك مَنْ أطاعَ الشيطانَ في معصيةِ اللَّه، فقد عبدَهُ كما قال عزَّ وجلَّ: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ [يس:٦٠].

فتبيَّن بهذا أنَّه لا يصحُّ تحقيقُ معنى قول: لا إله إلا اللَّه، إلا لمن لم يكنْ في قلبِهِ إصْرارٌ على محبةِ ما يكرهُهُ اللَّهُ، ولا على إرادةِ ما لا يُريدهُ اللَّهُ، ومتى كان في القلبِ شيءٌ منْ ذلك، كانَ ذلك نقصًا في التوحيدِ، وهو مِنْ نوعِ الشِّركِ الخفيِّ، ولهذا قال مجاهدٌ في قولِهِ تعالى: ﴿**لا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾ [النساء:٣٦] قال: لا تحبُّوا غيرِي.

وفي «صحيحِ الحاكمِ»(٢) عن عائشةَ رضي الله عنها، عن النبيِّ ﷺ قال: «**الشِّركُ أخْفى من دبيبِ الذَّرِّ على الصَّفا في الليلةِ الظَّلماءِ، وأدناهُ أنْ تُحبَّ على شيءٍ منَ الجوْرِ، وتُبغضَ على شيءٍ من العدلِ، وهل الدِّينُ إلا الحبُّ والبغض؟ قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾** [آل عمران:٣١]».

وهذا نصٌّ في أنَّ محبةَ ما يكرهُه اللَّه، وبغضَ ما يُحبُّه متابعةٌ للهوى، والموالاةُ على ذلك والمعاداةُ عليه من الشركِ الخفيِّ(٣) .

* * *

وقد ورد إطلاقُ الإلهِ على الهوى المتَّبع، قالَ اللَّه تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾ [الجاثية:٢٣].

قال الحسنُ رحمه اللَّهُ: هو الذي لا يَهْوى شيئًا إلا ركبه. وقال قتادةُ: هو

---

(١) أخرجه: الطبراني (٨/ ١٠٣)، وابن عدي في «الكامل» (٢/ ٣٠١).

(٢) أخرجه: الحاكم (٢/ ٢٩١).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٥٥٤ _ ٥٥٦).

الذي كلَّما هَوِيَ شيئًا ركبه، وكلَّما اشْتهى شيئًا أتاهُ، لا يحجزُهُ عن ذلك ورعٌ ولا تقْوى.

ورُوي من حديث أبي أمامة بإسنادٍ ضعيف: «**ما تحت ظلِّ سماءٍ إلهٌ يعبدُ أعظمُ عند اللَّهِ من هوى متَّبع**»(١).

وفي حديثٍ آخرَ: «**لا تزالُ لا إله إلا اللَّهُ تدْفَعُ عن أصحابها حتَّى يؤثِروا دنياهم على دينهم، فإذا فعلُوا ذلكَ رُدَّتْ عليهم، ويقالُ لهم: كذبْتُم**»(٢).

ويشهدُ لهذا: الحديث الصحيحُ عن النبيِّ ﷺ: «**تَعِسَ عبدُ الدينار، تعِسَ عبد الدرهم، تعسَ عبدُ القطيفة، تعِسَ عبدُ الخميصة، تعِسَ وانتكسَ، وإذا شِيكَ فلا انتقشَ**»(٣) فدلَّ هذا على أنَّ كلَّ من أحبَّ شيئًا وأطاعه وكانَ غايةَ قصدِه ومطلوبِه، ووالى لأجله، وعادى لأجلِه، فهو عبدُهُ، وكان ذلك الشيءُ معبودَهُ وإلهَهُ.

ويدلُّ عليه أيضًا أنَّ اللَّه تعالى سمَّى طاعةَ الشيطانِ في معصيتِه عبادةً للشيطانِ، كما قال اللَّهُ تعالى: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ**﴾ [يس:٦٠] وقال تعالى حاكيًا عن خليلِه إبراهيمَ عليه السلامُ لأبيه: ﴿**يَا أَبَتِ لا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا**﴾ [مريم:٤٤]، فمنْ لم يتحققْ بعبوديةِ الرحمنِ وطاعتِهِ فإنَّه يعبدُ الشيطانَ بطاعتِه له، ولم يخلُصْ من عبادةِ الشيطانِ إلا من أخلصَ عبوديةَ الرحمنِ، وهم الذين قال فيهم: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ**﴾ [الحجر:٤٢]. فهم الذين حقَّقُوا قولَ: «لا إله إلا اللَّه»،

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) أخرجه: أبو يعلى في «مسنده» (٧/ ٤٠٣٤).

(٣) أخرجه: البخاري (٨/ ١١٥).

وأخلصُوا في قولِها، وصدَّقُوا قولَهم بفعلِهِم، فلم يلتفتوا إلى غيرِ اللَّهِ محبةً ورجاءً وخشيةً وطاعةً وتوكُّلاً، وهم الذين صدَقُوا في قولِ: «لا إله إلا اللَّه» وهم عبادُ اللَّه حقًا، فأمَّا من قالَ: «لا إله إلا اللَّه» بلسانه، ثم أطاعَ الشيطانَ وهواه في معصيةِ اللَّهِ ومخالفتِه فقدْ كذَّبَ فعلُه قولَهُ، ونقصَ من كمالِ توحيدِه بقدرِ معصيةِ اللَّهِ في طاعةِ الشيطانِ والهوى ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]، ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص:٢٦].

فيا هذا كنْ عبدًا للَّه لا عبدًا للهوى، فإنَّ الهوى يهوِي بصاحبِه في النارِ: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩].

تعسَ عبدُ الدرهمِ! تعسَ عبدُ الدينارِ! واللَّهِ لا ينجُو غدًا من عذابِ اللَّه إلا من حقَّقَ عبوديةَ اللَّه وحدَهُ، ولم يلتفتْ إلى شيءٍ من الأغيارِ، من عَلِمَ أنَّ إلهه فردٌ، فليُفْرِدْهُ بالعبوديةِ ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠].

كان بعضُ العارفينَ يتكلَّم على أصحابِه على رأسِ جبلٍ، فقالَ في كلامِه: لا ينالُ أحدٌ مرادَه حتى ينفردَ فردًا بفردٍ، فانزعجَ واضطربَ، حتى رأى أصحابُهُ أنَّ الصخورَ قد تدكْدكتْ، وبقي على ذلك ساعةً، فلمَّا أفاقَ فكأنَّه نُشِرَ من قبرِه.

قولُ: «لا إله إلا اللَّهُ» تقتَضِي أنْ لا يُحبَّ سواهُ، فإنَّ الإلهَ هو الذي يُطاعُ، فلا يعصى محبةً وخوفًا ورجاءً، ومن تمام محبته محبَّةُ ما يحبُّه، وكراهةِ ما يكرَهُهُ، فمنْ أحبَّ شيئًا مما يكرهُهُ اللَّهُ، أو كرهَ شيئًا مما يحبه اللَّهُ لم يكملْ توحيدُهُ وصدقه في قولِ: «لا إله إلا اللَّهُ»، كان فيه من الشركِ الخفيِّ بحسبِ ما كرههُ مما يحبُّه اللَّه، وما أحبَّه مما يكرهُهُ اللَّهُ،

قال اللَّهُ تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:٢٨].

قال الليث عن مجاهدٍ في قوله: ﴿لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور:٥٥]. قال: لا يحبون غيري.

وفي «صحيحِ الحاكم»(١) عن عائشة رضي الله عنها عن النبيِّ ﷺ قال: «**الشركُ في هذه الأُمَّةِ أخْفَى من دبيبِ النملِ على الصَّفا في الليلةِ الظلماءِ، وأدناهُ أن تحبَّ على شيءٍ من الجورِ، أو تُبغضَ على شيءٍ من العدلِ، وهل الدِّينُ إلا الحبُّ والبغضُ؟ قال اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾** [آل عمران:٣١]».

وهذا نصٌّ في أنَّ محبةَ ما يكرهُه اللَّه، وبغضَ ما يحبُّه متابعةٌ للهَوى، والموالاةُ على ذلك والمعاداةُ فيه من الشِّركِ الخفيِّ.

وقال الحسنُ: اعلمْ أنَّكَ لن تحبَّ اللَّهَ حتَّى تحبَّ طاعتَهُ.

وسُئل ذو النونِ: متى أُحبُّ ربِّي؟ قال: إذا كان ما يبغضه عندَكَ أمرَّ من الصبر.

وقال بشرُ بنُ السريِّ: ليس من أعلامِ الحبِّ أن تحبَّ ما يبغضُ حبيبُك.

وقال أبو يعقوب النَّهْرجوْرِي: كلُّ من ادَّعى محبةَ اللَّهِ ولم يوافقِ اللَّهَ في أمرِه فدعواه باطلةٌ.

وقال يحيى بن معاذٍ: ليس بصادقٍ من ادَّعى محبةَ اللَّهِ ولم يحفظْ حدودَهُ.

وقال رويمٌ: المحبةُ: المُوافقةُ في جميعِ الأحوالِ، وأنشد:

---

(١) أخرجه: الحاكم (٢/ ٢٩١).

ولو قلتَ لي: مُتْ، قلتُ: سمعًا وطاعةً وقلتُ لداعي الموتِ: أهلاً ومرحبًا

ويشهدُ لهذا المعنى أيضًا قولُهُ تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١].

قال الحسنُ: قالَ أصحابُ رسولِ اللَّه ﷺ: إنَّا نحبُّ ربَّنا حبًّا شديدًا، فأحبَّ اللَّهُ أن يجعلَ لحبِّه علَمًا، فأنزلَ اللَّهُ تعالى هذه الآيةَ.

ومن هاهُنا يُعلم أنه لا تتمُّ شهادةُ أن لا إله إلا اللَّهُ إلا بشهادة أن محمدًا رسولُ اللَّه، فإنَّه إذا علمَ أنه لا تتمُّ محبةُ اللَّهِ إلا بمحبَّةِ ما يحبُّه، وكراهةِ ما يكرهُه، فلا طريقَ إلى معرفةِ ما يحبُّه وما يكرَهُهُ إلا من جهةِ محمدٍ المبلِّغِ عن اللَّهِ ما يحبُّه وما يكرهُهُ باتِّباعِ ما أمرَ به، واجتنابِ ما نَهى عنه، فصارتْ محبةُ اللَّه مستلزمةٌ لمحبةِ رسولِه ﷺ وتصديقِه ومتابعتِه، ولهذا قرَنَ اللَّهُ بين محبتِه ومحبةِ رسولِه في قولِه تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٢٤].

كما قرنَ طاعتَهُ وطاعةَ رسولِه ﷺ في مواضعَ كثيرةٍ.

وقال ﷺ: «ثلاثٌ من كنَّ فيه وجدَ بهنَّ حلاوةَ الإيمان: أن يكونَ اللَّهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مما سواهُمَا، وأنْ يحبَّ الرجلَ لا يحبُّه إلا للَّه، وأنْ يكرهَ أن يرجعَ إلى الكفر بعد أن أنقذه اللَّهُ منه كما يكرهُ أن يُلقَى في النار»[١].

هذه حالُ السحرةِ لَمَّا سكنتِ المحبةُ قلوبَهُم سمحُوا ببذلِ النفوسِ وقالُوا لفرعون: ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢] ومتى تمكنتِ المحبةُ في القلبِ لم

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ١٠، ١٢)، ومسلم (١/ ٤٨).

تنبعثِ الجوارحُ إلا إلى طاعةِ الربِّ، وهذا هو معنى الحديثِ الإلهيِّ الذي خرَّجه البخاريُّ في «صحيحه» وفيه: **«ولا يزالُ عبدِي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافلِ حتَّى أحبَّه، فإذا أحببتُهُ كنتُ سمعَهُ الذي يسمعُ به وبصرَهُ الذي يبصرُ به، ويدَهُ التي يبطشُ بها، ورِجْلَهُ التي يمشِي بها»** وقد قيل: إنَّ في بعضِ الرواياتِ: **«فبي يسمعُ وبي يبصرُ وبي يبطشُ وبي يمشي»**[1].

والمعنى: أن محبةَ اللَّه إذا استغرقَ بها القلبُ واستولتْ عليه لم تنبعثِ الجوارحُ إلا إلى مراضِي الربِّ، وصارتِ النفسُ حينئذٍ مطمئنةً بإرادةِ مولاها عن مرادِها وهواها.

يا هذا، اعبدِ اللَّهَ لمرادِهِ منكَ لا لمرادِكَ منه، فمنْ عبدَهُ لمرادِهِ منه فهوَ ممن يعبدُ اللَّهَ على حرْفٍ، إن أصابَهُ خيرٌ اطمأنَّ به، وإن أصابتْهُ فتنةٌ انقلبَ على وجهه خسرَ الدنيا والآخرةَ، ومتى قويتِ المعرفةُ والمحبةُ لم يُرِدْ صاحبُها إلا ما يريدُ مولاهُ.

وفي بعضِ الكتبِ السالفةِ: من أحبَّ اللَّهَ لم يكنْ شيءٌ عندَهُ آثرُ من رضاهُ، ومن أحبَّ الدنيا لم يكنْ شيءٌ عندَه آثرُ من هوى نفسِهِ.

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسنادِهِ عن الحسنِ قال: ما نظرتُ ببصرِي ولا نطقتُ بلساني، ولا بطشتُ بيدي، ولا نهضتُ على قدمِي، حتى أنظر على طاعةِ اللَّهِ أو على معصيتِهِ، فإنْ كانتْ طاعةً تقدمتُ، وإن كانتْ معصيةً تأخَّرْتُ.

هذا حالُ خَواصِّ المحبينَ الصادقينَ، فافهمُوا رحمكُمُ اللَّهُ هذا، فإنَّه من دقائقِ أسرارِ التوحيدِ الغامضةِ.

---

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ١٣١).

وإلى هذا المقامِ أشارَ النبي ﷺ في خطبتِهِ لما قدِمَ المدينةَ حيثُ قال: «أحبُّوا اللَّهَ من كلِّ قلوبِكُم».

وقد ذكرها ابنُ إسحاقَ وغيرُه، فإنَّ من امتلأ قلبُه من محبةِ اللَّه، لم يكنْ فيه فراغٌ لشيءٍ من إراداتِ النفسِ والهوى، وإلى ذلكَ أشارَ القائلُ، بقولِهِ:

أروحُ وقدْ ختمتَ على فؤادي ... بحبِّك أن يحلَّ به سواكَا
فلو أنِّي استطعتُ غضضْتُ طرْفِي ... فلم أنظرْ به حتَّى أراكَا
أحبُّك لا ببعضِي بلْ بكلِّي ... وإنْ لم يُبقِ حُبُّك لي حِرَاكَا
وفي الأحبابِ مخصوصٌ بوجدٍ ... وآخر يدَّعي معه اشْتِرَاكَا
إذا اشتبكتْ دموعٌ في خدودٍ ... تبيَّن من بكى ممن تباكى
فأمَّا منْ بكَى فيذوبُ وجْدًا ... وينطقُ بالهوى من قدْ تشَاكَا

متى بقي للمحبِّ حظٌّ من نفسِهِ فما بيدِهِ من المحبةِ إلا الدَّعْوى، إنما المحبُّ من يفْنى عن هوى نفسِهِ كلِّه، ويبْقى بحبيبِهِ، فبي يسمعُ وبي يبصرُ.

وفي الإسرائيلياتِ يقولُ اللَّهُ: «ما وسِعَنِي سمائي ولا أرضِي، ووسعِنِي قلبُ عبدِي المؤمنِ» فمتى كان القلبُ فيه غيرُ اللَّه فاللَّهُ أغنى الأغنياءِ عن الشِّركِ، وهو لا يَرضى بمزاحمة أصنامِ الهوى.. الحقُّ غيورٌ يغارُ على عبدِهِ المؤمنِ أن يسكنَ في قلبِهِ سواهُ، أو يكنَّ فيه شيئًا ما يرضاه.

أردناكُمُ صِرْفًا فلمَّا مزجتُمُ ... بَعُدتُم بمقدارِ التفاتِكُم عنَّا
وقلنا لكُم: لا تُسْكِنُوا القلبَ غيرَنَا ... فأسكنْتُم الأغيارَ، ما أنتُمُ مِنَّا

لا ينجو غدًا إلا من لقي اللَّهَ بقلبٍ سليمٍ ليسَ فيه سواه، قال اللَّه تعالى: ﴿**يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء: ٨٨. ٨٩].

القلبُ السليمُ: هو الطاهرُ من أدناسِ المخالفاتِ، فأمَّا المتلطخُ بشيءٍ من المكروهاتِ فلا يصلُحُ لمجاورةِ حضرةِ القدوسِ إلا بعدَ أن يطهرَ في كيرِ العذابِ، فإذا زالَ عنه الخبثُ صلَحَ حينئذ للمجاورة.

«**إن اللَّه طيِّب لا يقبلُ إلا طيِّبًا**». فأما القلوبُ الطيبةُ فتصلحُ للمجاورةِ من أولِ الأمرِ: ﴿**سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾ [الرعد:٢٤]، ﴿**سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**﴾ [الزمر:٧٣]، ﴿**الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ**﴾ [النحل:٣٢].

من لم يُحرِق اليومَ قلبَهُ بنارِ الأسفِ على ما سلفَ أو بنار الشوقِ إلى لقاءِ الحبيبِ فنار جهنَّمَ له أشدُّ حرًّا [١].

* * *

(١) رسالة: «كلمة الإخلاص وتحقيق معناها» (ص ٣٥ ـ ٤٥).

سُورَةُ الأَحْقَافِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾

قولُ سفيانَ بنِ عبدِ اللَّهِ للنبي ﷺ: «**قُلْ لي في الإسلامِ قولاً لا أسألُ عنه أحداً بعدَك**» طلبَ منه أن يُعلِّمَه كلامًا جامعًا لأمرِ الإسلامِ كافيًا حتَّى لا يحتاجَ بعدَه إلى غيرِه، فقال له النبيُّ ﷺ: «**قلْ: آمنتُ باللَّهِ، ثمَّ استقمْ**» وفي الروايةِ الأخرى: «**قلْ: ربيَّ اللَّهُ، ثمَّ استقمْ**»(١).

هذا منتزعٌ من قولهِ عزَّ وجلَّ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾** [فصلت: ٣٠]، وقولهِ عزَّ وجلَّ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** [الأحقاف: ١٣-١٤].

وخرج النسائيُّ في «تفسيرِه» من روايةِ سهيلِ بنِ أبي حزمٍ: حدثنا ثابتٌ، عن أنسٍ أن النبيَّ ﷺ قرأ: **﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾** فقالَ: «**قدْ قالَها الناسُ، ثمَّ كفرُوا، فمن ماتَ عليها فهو من أهلِ الاستقامةِ**»(٢).

---

(١) أخرجه: مسلم (١/ ٤٧).

(٢) رواه النسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٤٣٣)، والترمذي (٣٢٥٠).

وخرَّجه الترمذيُّ، ولفظهُ: فقال: «قد قالَها الناسُ، ثمَّ كفرَ أكثرُهم، فمن ماتَ عليها، فهو ممَّنِ استقامَ»، وقالَ: حسنٌ غريبٌ، و«سهيل» تُكُلِّمَ فيه من قِبَلِ حفظِه.

وقال أبو بكرٍ الصديقُ في تفسيرِ ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ قالَ: لم يشركُوا باللَّه شيئًا. وعنه قالَ: لم يلتفتوا إلى إله غيرِه. وعنه قالَ: ثم استقامُوا على أنَّ اللَّهَ ربُّهم.

وعن ابنِ عباسٍ بإسنادٍ ضعيفٍ قالَ: هذه أرخصُ آيةٍ في كتابِ اللَّهِ: ﴿قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ على شهادةِ أنْ لا إلهَ إلا اللَّهَ.

ورُويَ نحوهُ عن أنسٍ ومجاهدٍ والأسودِ بنِ هلالٍ، وزيدِ بنِ أسلمَ، والسُّدِّيِّ وعكرمةَ وغيرِهم. ورُويَ عن عمرَ بن الخطابِ أنَّه قرأَ هذه الآيةَ على المنبرِ ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾، فقالَ: لم يَروغوا رَوَغَانَ الثعالبِ.

وروى عليُّ بنُ أبي طلحةَ عنِ ابنِ عباسٍ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ قالَ: استقامُوا على أداءِ فرائضِه.

وعن أبي العاليةَ، قالَ: ثمَّ أخلَصُوا له الدين والعملَ.

وعن قتادةَ قالَ: استقامُوا على طاعةِ اللَّهِ، وكانَ الحسنُ إذا قرأَ هذه الآيةَ قالَ: اللهمَّ أنت ربُّنا فارزقنا الاستقامةَ.

ولعلَّ من قالَ: «إنَّ المرادَ الاستقامةُ على التوحيدِ» إنَّما أرادَ التوحيدَ الكاملَ الذي يُحرِّمُ صاحبَه على النارِ، وهو تحقيقُ معنى لا إلهَ إلا اللَّهَ، فإنَّ الإلهَ هو الذي يُطاعُ، فلا يُعصى خشيةً وإجلالاً ومهابةً ومحبةً ورجاءً وتوكُّلاً ودعاءً، والمعاصِي كلُّها قادحةٌ في هذا التوحيدِ، لأنَّها إجابةٌ لداعي الهوى

وهو الشيطانُ، قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية:٢٣] قال الحسنُ وغيرُه: هو الذي لا يهوى شيئًا إلا ركبَه.

فهذا يُنافي الاستقامةَ على التوحيدِ.

وأما على روايةِ من روى: «قُلْ آمنْتُ باللَّه»، فالمعنى أظهرُ، لأنَّ الإيمانَ يدخلُ فيه الأعمالُ عندَ السلفِ وَمن تابعَهم من أهلِ الحديثِ، وقالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [هود:١١٢]، فأمرَه أن يستقيمَ هو ومن تابعَه، وأن لا يُجاوزُوا ما أُمروا به، وهو الطغيانُ، وأخبرَ أنَّه بصيرٌ بأعمالِهم، مطَّلعٌ عليها، قال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [الشورى:١٥]. وقالَ قتادةُ: أُمرَ محمدٌ ﷺ أن يستقيمَ على أمرِ اللَّهُ. وقالَ الثوريُّ: على القرآنِ.

وعن الحسنِ قال: لَمَّا نزلتْ هذه الآيةُ شَمَّرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، فما رؤي ضاحكًا. خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ. وذكر القُشَيريُّ وغيرُه عن بعضِهم: أنَّه رأى النبيَّ ﷺ في المنامِ، فقالَ له: يا رسولَ اللَّه قلتَ: «شَيَّبتني هُودٌ وأخواتُها»، فما شيَّبك منها؟ قال: «قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:١١٢]»[(١)].

وقالَ عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت:٦].

وقد أمرَ اللَّهُ تعالى بإقامةِ الدِّين عمومًا كما قالَ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدين

(١) راجع: «العلل» للدارقطني (١/١٩٣ ـ ٢١١).

ولا تتفرَّقُوا فيه﴾ [الشورى:١٣]، وأمرَ بإقامِ الصلاةِ في غيرِ موضعٍ من كتابه، كما أمرَ بالاستقامةِ على التوحيدِ في تلك الآيتينِ.

والاستقامةُ: هي سلوكُ الصِّراطِ المستقيمِ، وهو الدِّينُ القيّمُ من غيرِ تعريجٍ عنه يمنةً ولا يَسرةً، ويشملُ ذلك فعلَ الطَّاعاتِ كلِّها، الظاهرةِ والباطنةِ، وتركَ المنهياتِ كلِّها كذلك، فصارت هذه الوصيةُ جامعةً لخصالِ الدِّينِ كُلِّها.

وفي قولهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت:٦] إشارةٌ إلى أنَّه لا بُدَّ من تقصيرٍ في الاستقامةِ المأمورِ بها، فيجبُرُ ذلك الاستغفارُ المقتضي للتَّوبةِ والرُّجوعِ إلى الاستقامةِ، فهو كقولِ النبيِّ ﷺ لمعاذ: «**اتَّقِ اللَّهَ حيثُما كُنتَ، وأتبعِ السَّيِّئةَ الحسنةَ تَمْحُها**»(١). وقد أخبرَ النبيُّ ﷺ أنَّ الناسَ لن يُطيقُوا الاستقامةَ حقَّ الاستقامةِ، كما خرَّجه الإمامُ أحمدُ وابنُ ماجه(٢) من حديثِ ثوبانَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**استقيموا و لن تُحْصوا، واعلمُوا أنَّ خيرَ أعمالكُم الصَّلاةُ، ولا يُحافظُ على الوضوءِ إلا مؤمنٌ**»، وفي روايةٍ للإمامِ أحمدَ: «**سَدِّدُوا وقاربُوا، ولا يحافِظُ على الوضوءِ إلا مؤمنٌ**».

وفي «الصحيحينِ»(٣) عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**سدِّدُوا وقاربُوا**».

فالسَّدادُ: هو حقيقةُ الاستقامةِ، وهو الإصابةُ في جميعِ الأقوالِ والأعمالِ والمقاصِدِ، كالذي يرمي إلى غرضٍ فيُصيبُه. وقد أمرَ النبيُّ ﷺ عليًّا أن يسألَ اللَّهَ عزَّ وجلَّ السَّدادَ والهُدى، وقالَ له: «**اذكرْ بالسَّدادِ تسديدَكَ السَّهْمَ، وبالهدى هدايتك الطَّريق**».

---

(١) أخرجه: الترمذي (١٩٨٧).

(٢) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧ ـ ٢٨٢)، وابن ماجه (٢٧٧).

(٣) أخرجه: البخاري (١/ ١٦)، ومسلم (٨/ ١٣٩ ـ ١٤٠).

والمقاربةُ: أن يُصيبَ ما قَربَ منَ الغرضِ إذا لم يُصبِ الغرضَ نفسه، ولكنْ بشرطِ أن يكونَ مصمِّمًا على قصدِ السَّدادِ وإصابةِ الغرضِ، فتكونُ مقاربتُه عن غيرِ عمدٍ.

ويدلُّ عليه قولُ النبيِّ ﷺ في حديثِ الحكمِ بنِ حزنٍ الكُلَفي: «**أيّها النَّاس إنَّكم لنْ تعملُوا ـ أو لن تُطيقوا ـ كلَّ ما أمرتُكم، ولكنْ سدِّدُوا وأبشرُوا**»(١).

والمعنى: اقصِدُوا التَّسديدَ والإصابةَ والاستقامةَ، فإنَّهم لو سدَّدُوا في العمل كلِّه، لكانوا قد فعلُوا ما أُمِرُوا به كُلِّه.

فأصلُ الاستقامةِ استقامةُ القلب على التوحيدِ، كما فسر أبو بكر الصدِّيق وغيرُه قولَه: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا**﴾ [الأحقاف:١٣] بأنَّهم لم يلتفتُوا إلى غيرِه، فمتى استقامَ القلبُ على معرفةِ اللَّه، وعلى خشيتِه، وإجلالِه، ومهابتِه، ومحبتِه، وإرادتِه، ورجائِه، ودعائِه، والتوكُّلِ عليه، والإعراضِ عما سِواه، استقامت الجوارحُ كلُّها على طاعتِه، فإن القلبَ هو ملكُ الأعْضاء، وهي جنودُه، فإذا استقامَ الملكُ، استقامت جنودُه ورعاياه، وكذلك فسِّر قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا**﴾ [الروم:٣٠] بإخلاصِ القصدِ للَّهِ وإرادتِه وحدَه لا شريكَ له.

وأعظمُ ما يُراعى استقامتُه بعدَ القلبِ منَ الجوارحِ: اللسانُ، فإنَّه ترجمانُ القلب والمعبِّرُ عنه، ولهذا لما أمرَ النبي ﷺ بالاستقامةِ، وصَّاه بعدَ ذلك بحفظِ لسانِه، وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ»(٢) عن أنسٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا يستقيمُ إيمانُ عبدٍ حتَّى يستقيمَ قلبُه، ولا يستقيمَ قلبُه حتَّى يستقيمَ لسانُه**».

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/ ٢١٢)، وأبو داود (١٠٩٦).

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ١٩٨).

وفي «الترمذيِّ»[١] عن أبي سعيدٍ الخدري مـرفوعًا وموقوفًا: «**إذا أصبحَ ابنُ آدمَ، فإن الأعضاءَ كلَّها تكفرُ اللِّسانَ، فتـقولُ: اتق اللَّهَ فينا، فإنما نحنُ بك، فإن استقمتَ استقمنا، وإن اعوجَجْتَ اعوججنا**»[٢].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾

[قال البخاري][٣] بَابٌ إِذَا هَبَّتِ الرِّيحُ: حدثنا سعـيدُ بنُ أبي مريمَ: أنا محمدُ بنُ جعفرٍ: أخبرنِي حُميدٌ، أنَّهُ سمعَ أنس بن مالكٍ يقولُ: كانتِ الرِّيحُ الشديدَةُ إذا هَبَّتْ عُرِفَ ذلكَ في وَجهِ النَّبيِّ ﷺ.

إنما كان يظـهرُ في وجهِ النبيِّ ﷺ الخوفُ مـن اشتدادِ الـريـح؛ لأنه كان يخشَى أن تكونُ عذابًا أُرسلَ إلى أمَّتِه.

وكـان شدةُ خـوفِ النبيِّ ﷺ على أُمتـه شفـقةً عليهم، كـما وصـفَهُ اللَّهُ سبحـانه وتعالى بذلكَ في قولِه: ﴿**عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة:١٢٨].

ولما تلاَ عليه ابنُ مـسعودٍ: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا**﴾ [النساء:٤١] بكَى.

ولما تلاَ قولَه: ﴿**إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ**﴾ الآية [المائدة:١١٨] بكى، وقالَ: «**اللهمَّ، أُمَّتي، أُمَّتي**»، فأرسلَ اللَّهُ جبريلَ يقولُ له: «**إن اللَّهَ يقولُ: إنَّا سنُرضيكَ في**

---

(١) «الجامع» (٢٤٠٧)، ورجح الترمذي الموقوف.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٥٣٦ _ ٥٤١).

(٣) أخرجه: البخاري (٢/ ٤٠).

أمتك ولا نَسُوءُكَ»[(١)] .

وكان يقولُ: «شيَّبتني هودٌ وأخواتُها».

وجاءَ في روايةٍ مرسلةٍ: «قَصَّفْنَ عليَّ الأُمَم».

يشيرُ إلى أنَّ شيبهُ منها ما ذُكر مِن هلاكِ الأممِ قبلَ أمَّته وعذابهم.

وكانَ عندَ لقاءِ العدوِّ يخافُ على مَن معه من المؤمنينَ، ويستغفرُ لهم، كما فعلَ يومَ بدرٍ، وباتَ تلكَ الليلةَ يصلِّي ويبكي ويستغفرُ لهُم، ويقولُ: «اللهمَّ، إن تُهلكْ هذه العِصَابةَ لا تُعبدُ في الأرض»[(٢)] .

وكلُّ هذا مِن خوفِه وشفقتهِ عليْهِم.

وقد جاءَ في رواياتٍ متعددةٍ: التصريحُ بسببِ خوفهِ من اشتدادِ الريحِ:

ففي «الصحيحينِ»[(٣)] من حديثِ سليمانَ بنِ يسارٍ، عن عائشةَ: أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ إذا رأى غيمًا أو ريحًا عُرِفَ ذلكَ في وجهِهِ، فقلتُ: يا رسولَ اللَّه: أرى الناسَ إذا رأوُا الغيمَ فرِحوا؛ رجاءَ أن يكونَ فيه المطرُ، وأراكَ إذا رأيته عَرفتُ في وجهِك الكراهيةَ؟ فقالَ: «يا عائشة، ما يُؤمِّني أن يكونَ فيه عذابٌ، قد عُذبَ قومٌ بالريحِ، وقدْ رأى قومٌ العذابَ، فقالُوا:﴿هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف:٢٤]».

وخرَّجَا ـ أيضًا ـ من روايةِ ابنِ جريجٍ، عن عطاءٍ، عن عائشةَ، قالتْ كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إذا رأى مخيلةً في السماءِ أقبلَ وأدبرَ، ودخلَ وخرجَ، وتغيَّر

---

(١) أخرجه: مسلم (١/ ١٣٢).

(٢) أخرجه: مسلم (٥/ ١٥٦)، وأحمد (١/ ٣٢)، والترمذي (٣٠٨١).

(٣) أخرجه: البخاري (٦/ ١٦٧)، ومسلم (٣/ ٢٦ ـ ٢٧).

وجهُه، فإذا أمطرتِ السماءُ سُرِّي عنه، فعرَّفْته عائشةُ ذلكَ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «وما أَدْري لعلَّه كما قالَ قومٌ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ [الأحقاف: ٢٤]» الآية.

وزاد مسلمٌ - في أولِه -: كانَ النبيُّ ﷺ إذا عصفتِ الريحُ قال: «اللهمَّ، إنِّي أَسأَلُكَ خيرَها وخيرَ ما فيها وخيرَ ما أُرسِلَت به، وأعوذُ بكَ مِن شرِّها وشرِّ ما فيها وشرِّ ما أُرسلتْ به»[(١)].

وخرجهُ النسائيُّ[(٢)]، ولفظُه: «كانَ إذا رأَى ريحًا»، بدل: «مخيلة».

وخرجَ مسلمٌ - أيضًا[(٣)] - من حديثِ جعفرِ بنِ محمدٍ، عن عطاءٍ، عن عائشةَ، قالتْ: كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إذَا كانَ يومُ الريحِ والغيمِ عُرِفَ ذلكَ في وجهِهِ، فأقبلَ وأدبرَ، فإذَا مطرَ سُرَّ بهِ، وذهبَ عنه ذلكَ. قالتْ عائشةُ: فسألته، فقالَ: «إنِّي خشيتُ أن يكونَ عذابًا سُلِّطَ على أُمتي».

وخرجَ الإمامُ أحمدُ وابنُ ماجه[(٤)] من حديثِ المقدامِ بنِ شريحٍ، عن أبيهِ، عنْ عائشةَ، أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ إذَا رأى سحابًا مقبلاً منْ أفقٍ من الآفاقِ تركَ ما هُوَ فيه وإن كانَ في صلاتِهِ، حتى يستقبلَه، فيقولُ: «اللهمَّ، إنا نعوذُ بكَ من شرِّ ما أُرْسلَ»، فإنْ أمطرَ قالَ: «اللهمَّ سقيًا نافعًا» - مرتينِ أو ثلاثًا -، فإنْ كشفَه اللَّهُ ولم يُمطِرْ حمدَ اللَّهَ على ذلكَ.

ولفظهُ لابنِ ماجَه.

---

(١) أخرجه: البخاري (٤/ ١٣٢ - ١٣٣)، ومسلم (٣/ ٢٦).

(٢) في «عمل اليوم والليلة» (٩٤٦).

(٣) في «صحيحه» (٣/ ٢٦).

(٤) أخرجه: أحمد في «المسند» (٦/ ١٩٠)، وابن ماجه (٣٨٨٩).

وخرجه أبو داود[(١)]، ولفظُه: كانَ إذا رأى ناشئًا في أفقِ السماءِ تركَ العملَ، وإن كانَ في صلاةٍ، ثم يقولُ: «**اللهمَّ، إني أعوذُ بكَ من شرِّها**».

وخرَّجه ابنُ السنيِّ[(٢)]، ولفظُه: كان إذا رأى في السماءِ ناشئًا، غبارًا أو ريحًا، استقبلَهُ مِن حيثُ كانَ، وإن كانَ في الصلاةِ تعوذَ باللَّهِ من شرِّه.

وكذا خرَّجه ابنُ أبي الدنيا.

وخرجَ الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ والنسائيُّ في «اليومِ والليلةِ» وابنُ ماجه وابنُ حبانَ في «صحيحه»[(٣)] من حديثِ أبي هريرةَ، عنِ النبيِّ ﷺ، قالَ: «**الريحُ من روحِ اللَّهِ، تأتي بالرحمةِ، وتأتي بالعذابِ، فإذا رأيتمُوها فلا تسبُّوها، واسألُوا اللَّهَ خيرَها، واستعيذُوا باللَّهِ من شرِّها**».

وخرجَ الترمذيُّ[(٤)] من حديثِ أبيِّ بنِ كعبٍ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**لا تسبُّوا الريحَ، فإذا رأيتُمْ ما تكرهونَ فقولُوا: اللَّهُمَّ، إنَّا نسألُكَ من خيرِ هذهِ الريحِ وخيرِ ما فيها، وخيرِ ما أُمرتْ به، ونعوذُ بكَ من شرِّ هذه الريحِ، وشرِّ ما فيها، وشرِّ ما أُمرتْ به**».

وقال: حسنٌ صحيحٌ.

وخرَّجه النسائيُّ في «اليومِ والليلةِ»[(٥)] مرفوعًا وموقوفًا على أبيِّ بنِ كعبٍ رضي الله عنه.

---

(١) «السنن» (٥٠٩٩).

(٢) في «عمل اليوم والليلة» (٣٠٢).

(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٢٦٨ ـ ٥١٨)، وأبو داود (٥٠٩٧)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٣٧)، وابن ماجه (٣٧٢٧)، وابن حبان (١٠٠٧).

(٤) «الجامع» (٢٢٥٢).

(٥) «عمل اليوم والليلة» (٩٣٩)، (٩٤٠)، (٩٤١)، (٩٤٢).

وفي البابِ: أحاديثُ أخرُ متعددةٌ.

ورُويَ عن ابنِ مسعودٍ، قال: لا تسبُّوا الريحَ؛ فإنها بشرٌ ونَذْرٌ ولواقحُ، ولكنِ استعيذُوا باللَّهِ من شرِّ ما أُرسلَتْ به.

وعن ابنِ عباسٍ، قال: لا تسبُّوا الريحَ؛ فإنها تجيءُ بالرحمةِ، وتجيء بالعذاب، وقولوا: اللهمَّ، اجعلْهَا رحمةً، ولا تجعلْها عذابًا.

خرَّجهما ابنُ أبي الدنيا.

وخرَّج - أيضًا - بإسناده، عن عليٍّ، أنه كانَ إذَا هبَّتِ الريحُ قالَ: اللهمَّ، إن كنتَ أرسلْتَها رحمةً فارحمْني فيمنْ ترحَمُ، وإن كنتَ أرسلتَها عذابًا فعافِني فيمنْ تعافي.

وبإسنادِه، عنِ ابنِ عمرَ، أنه كان يقولُ إذَا عصفتِ الريحُ: شدُّوا التكبيرَ؛ فإنَّها تذهبُ.

وعن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، أنه لما وُلِيَ هبتْ ريحٌ، فدخلَ عليه رجلٌ وهو مُنْتقعُ اللونِ، فقال: ما لكَ يا أميرَ المؤمنينِ؟ قال: ويحَك، وهل هلكتْ أمةٌ إلا بالرِّيح؟[1]

* * *

(١) «فتح الباري» (٦/ ٣١٧ - ٣٢١).

سُورَةُ مُحَمَّدٍ

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾

منْ حفظَ حدودَ اللَّهِ وراعَى حقوقَهُ، تولَّى اللَّهُ حفظَهُ في أمورِ دينهِ ودنياهُ، وفي دنياهُ وآخرتهِ.

وقد أخبرَ اللَّهُ تعالَى في كتابِهِ أنه وليُّ المؤمنينَ وأنه يتولَّى الصالحينَ، وذلكَ يتضمنُ أنه يتولَّى مصالحَهُم في الدنيا والآخرةِ، ولا يكلُهُم إلى غيرِهِ قالَ تعالَى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

وقالَ تعالَى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد:١١].

وقالَ تعالَى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣].

وقالَ تعالَى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر:٣٦].

فمن قامَ بحقوقِ اللَّهِ عليهِ فإنَّ اللَّهَ يتكفلُ له بالقيامِ بجميعِ مصالحِهِ في الدنيا والآخرةِ، ومن أرادَ أن يتولَّى اللَّهُ حفظَهُ ورعايتَهُ في أمورِهِ كلِّها فليراعِ حقوقَ اللَّهِ عليهِ، ومن أرادَ ألا يصيبَهُ مما يكرهُ فلا يأتِ شيئًا مما يكرهُهُ اللَّهُ.

كان بعضُ السلفِ يدورُ على المجالسِ ويقولُ: من أحبَّ أن تدومَ له العافيةُ فليتقِ اللَّهَ.

وقالَ العمريُّ الزاهدُ لمن طلبَ منه الوصيةَ: كما تحبُّ أن يكونَ اللَّهُ لكَ، فهكذَا كنْ للَّهِ عز وجل.

وفي بعضِ الآثار: يقولُ اللَّهُ: **«وعزتي وجَلالي لا أطلعُ على قلبِ عبدٍ فأعلمُ أن الغالبَ عليه حبُّ التمسكِ بطاعتي، إلا توليتُ سياستَهُ وتقويمهُ»**.

وفي بعضِ الكتبِ المتقدمةِ: يقولُ اللَّهُ عز وجلَّ «يا ابنَ آدمَ، ألا تعلمُني ما يضحككَ، يا ابنَ آدمَ، اتقني . . .[1] ونم حيثُ شئتَ».

والمعنى: أنكَ إذا قمتَ بما عليكَ للَّهِ من حقوقِ التقوى فلا تهتمَّ بعدَ ذلكَ بمصالحكَ، فإن اللَّهَ هو أعلمُ بها منكَ، وهو يوصلُّهَا إليكَ على أتمِّ الوجوهِ من غيرِ اهتمامٍ منكَ بِهَا.

وفي حديث جابرٍ رضي الله عنه، أن النبيَّ ﷺ قالَ: **«من كانَ يحبُّ أن يعلمَ منزلتَهُ عندَ اللَّهِ، فلينظرْ كيفَ منزلةُ اللَّهِ عندَهُ، فإنَّ اللَّهَ ينزلُ العبدَ منه حيث أنزلَهُ من نفسه»**[2].

فهذا يدل على أنَّه على قدرِ اهتمامِ العبدِ بحقوقِ اللَّهِ ومراعاةِ حدودِه، واعتنائه بذلكَ وحفظهِ لهُ يكونُ اعتناؤُه به وحفظُهُ لهُ، فمن كانَ غايةُ همِّه رِضَا اللَّهِ عنهُ وطلبَ قربِهِ ومعرفتِه ومحبتِه وخدمتِه، فإنَّ اللَّهَ يكونُ له على حسبِ ذلكَ كما قالَ تعالَى: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ [البقرة:١٥٢]، ﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ**﴾ [البقرة:٤٠]، بل هو سبحانَهُ أكرمُ الأكرمينَ. فهو يجازي بالحسنةِ عشرًا ويزيدُ، ومن تقرّبَ منه شبرًا تقرّبَ منه ذراعًا. ومن تقرّبَ منه ذراعًا تقرّبَ منه باعًا، ومن أتاهُ يمشِي أتاهُ هرولةً.

---

(١) قال محققه: بياض بالأصل.

(٢) أخرجه: الحاكم (١/ ٤٩٤ ـ ٤٩٥).

ما يُؤتَى الإنسانُ إلا من قِبَل نفسِه ولا يصيبُه المكروهُ إلا من تفريطِه في حقِّ ربِّه عز وجل.

قال عليٌّ ﷺ: لا يَرْجوَنَّ عبدٌ إلا ربَّهُ، ولا يخافنَّ إلا ذنبَهُ.

وقال بعضُهم: من صَفَى صُفِّي لهُ، ومن خلطَ خُلِّط عليه.

وقال مسروقٌ: من راقبَ اللَّهَ في خطراتِ قلبِه عصمَهُ اللَّهُ في حركاتِ جوارِحِه.

وبسطُ هذا المعنى يطولُ جدًّا، وفيمَا أشرنَا إليه كفايةٌ، ولِلَّه الحمد(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾

ثم قال البخاري ـ رحمه اللَّه ـ: وَيَزيدُ وينقصُ.

قال اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح:٤]، ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف:١٣]، ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ [مريم:٧٦]، ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد:١٧]، ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر:٣١]، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [التوبة:١٢٤]، وقوله: ﴿فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ [آل عمران:١٧٣]، وقوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢].

زيادة الإيمان ونقصانه؛ قولُ جمهورِ العلماءِ.

وقد رُوي هذا الكلامُ عن طائفةٍ من الصحابةِ، كأبي الدرداءِ، وأبي هريرةَ، وابنِ عباسٍ، وغيرِهم من الصحابةِ.

---

(١) رسالة: «نور الاقتباس» (ص٣٨ ـ ٤٠).

ورويَ معناه عن عليٍّ وابنِ مسعودٍ ـ أيضًا.

وعن مجاهدٍ وغيرِه من التابعينَ.

وتوقَّف بعضُهُم في نقصِـه، فقالَ: يزيدُ، ولا يقالُ: ينقصُ. ورويَ ذلكَ عن مالكٍ، والمشهورُ عنه كقولِ الجماعةِ.

وعن ابنِ المباركِ، قالَ: الإيمانُ يتفاضلُ.

وهو معنى الزيادة والنقصِ.

وقد تلا البخاريُّ الآياتِ التي فيهـا ذكرُ زيادةِ الإيمانِ، وقد استدلَّ بِهَا علَى زيادةِ الإيمانِ أئمةُ السَّلفِ قديمًا، منهُم: عطاءُ بنُ أبي رباح فمن بعدَه.

وتلا البـخاريُّ ـ أيضًـا ـ الآياتِ التي ذكَرَ فـيهَـا زيادةَ الهُدَى؛ فـإنَّ المرادَ بالهُدَى هنا فعلُ الطاعاتِ، كما قالَ تعالى بعد وصفِ المتقينَ بالإيمانِ بالغيبِ، وإقامِ الصـلاةِ، والإنفاقِ مما رزقَـهُم، وبالإيمانِ بما أُنزلَ إلى محـمدٍ وإلى مَنْ قبلَهُ، وباليقينِ بالآخرةِ، ثم قالَ: ﴿أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥].

فسمَّى ذلكَ كلَّه هدًى؛ فمن زادتْ طاعاتُهُ فقد زادَ هداهُ.

ولما كانَ الإيمـانُ يدخلُ فيه المعـرفةُ بالقلبِ، والـقولُ والعملُ كلُّـه؛ كانتْ زيادتُهُ بزيادةِ الأعمالِ، ونقصانُهُ بنقصانِهَا.

وقـد صرَّح بذلك كـثيرٌ من السلـفِ، فقـالُوا: يزيد بالطاعـةِ، وينقصُ بالمعصية[1].

* * *

(١) «الفتح» (١/ ٦ ـ ٨).

قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾

فصل : في فضائل لا إله إلا اللَّه.

وكلمةُ التـوحيدِ لها فـضائلُ عظيمةٌ لا يمـكنُ هاهنا استقصـاؤُها، فلنذكر بعضَ ما وردَ فيها:

١ ـ فهيَ كلمةُ التقوى كما قالَ عمرُ ﷺ وغيرُه من الصحابة.

٢ ـ وهي كلمةُ الإخلاصِ.

٣ ـ وشهادةُ الحقِّ.

٤ ـ ودعوةُ الحقِّ.

٥ ـ وبراءةٌ من الشركِ، ونجاةُ هذا الأمرِ.

٦ ـ ولأجلِهَا خُلِق الخـلقُ. كما قـال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

٧ ـ ولأجلِهَا أُرسلتِ الرُّسلُ وأنزلتِ الكتبُ، كما قالَ تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقالَ تعالى: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل:٢]. ونحو هذه الآياتِ.

وهذه الآيةُ أولُ ما عـدَّدَ اللَّهُ من النعمِ في سورةِ النحلِ التي تُسَـمَّى سورةُ النعمِ. ولهذا قال ابنُ عيينةَ: ما أنعمَ اللَّهُ على عـبدٍ من العبادِ نعمةً أعظمُ من أن عرَّفهم «لا إلهَ إلا اللَّهُ».

وأن «لا إلهَ إلا اللَّه» لأهلِ الجنةِ كالماءِ البارِدِ لأهلِ الدنيا.

٨ ـ ولأجلِهَا أُعدَّتْ دارُ الثوابِ ودارُ العقابِ.

٩ ـ ولأجلِهَا أُمرتِ الرسلُ بالجهادِ، فمنْ قالَها عصمَ مالَه ودمَه، ومن أباها فمالُه ودمُه هدرٌ.

١٠ـ وهي مفتاحُ الجنةِ.

١١ـ ومفتاحُ دعوةِ الرسلِ.

١٢ـ وبها كلّمَ اللَّهُ موسى كِفاحًا.

وفي «مسندِ البزار»[١] وغيرِه عن عياضٍ الأنصاريِّ عن النبيِّ ﷺ قال: **«إنَّ لا إلهَ إلا اللَّهُ كلمةُ حقٍّ على اللَّهِ كريمةٌ، ولها من اللَّهِ مكانٌ، وهي كلمةٌ من قالَها صادقًا أدخلَهُ اللَّهُ بها الجنةَ، ومن قالَها كاذبًا حقنتْ دمَهُ، وأحرزتْ مالَه، ولقِي اللَّهَ غدًا فحاسَبَهُ»**.

وهي مِفتاحُ الجنةِ كما تقدم.

١٣ـ وهي: ثمنُ الجنةِ[٢]:

قاله الحسنُ، وجاءَ مرفوعًا من وجوهٍ ضعيفةٍ: **«ومن كانتْ آخرَ كلامِه دخلَ الجنةَ»**[٣].

١٤ـ وهي: نجاةٌ من النارِ:

وسمعَ النبيُّ ﷺ مؤذنًا يقولُ: أشهد أن لا إلهَ إلا اللَّهُ، فقالَ: **«خرجَ من النارِ»**. خرَّجه مسلم[٤].

---

(١) أخرجه: البزار (٤ ـ كشف الأستار).

(٢) حديث «ثمن الجنة لا إله إلا اللَّه». أخرجه: ابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٣٤٧).

(٣) أخرجه: أحمد (٥/ ٢٣٣، ٢٤٧)، وأبو داود (٣١٦٦)، والحاكم (١/ ٣٥١، ٥٠٠).

(٤) أخرجه: مسلم (٢/ ٣ ـ ٤).

١٥ـ وهي: توجبُ المغفرةَ:

في «المسندِ»[(١)] عن شدَّادِ بن أوسٍ وعبـادةَ بنِ الصامتِ: أن النبيَّ ﷺ قال لأصحابهِ يومًا: «**ارفعُوا أيديكم وقولُوا: لا إلهَ إلا اللَّهُ**». فرفعْنا أيدينا ساعةً، ثم وضعَ رسـولُ اللَّهِ ﷺ يدَهُ، ثم قـالَ: «**الحمدُ للَّهِ، اللهُمَّ بعثْتَني بهذه الكلمة، وأمرْتَني بها، ووعدتني بها الجنةَ، وإنَّك لا تخلفُ الميعادَ**»، ثم قالَ: «**أبشرُوا فإنَّ اللَّهَ قدْ غفرَ لكُم**».

١٦ـ وهي: أحسنُ الحسناتِ:

قال أبو ذرٍّ: قلتُ يا رسولَ اللَّه! كلِّمْني بعملٍ يقرِّبُني من الجنةِ، ويباعدُني من النارِ، قـالَ: «**إذا عملتَ سيئةً فاعملْ حسنةً، فإنها عشرُ أمثالِها**». قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، «لا إله إلا اللَّه» من الحسناتِ؟ قالَ: «**هيَ أحسنُ الحسناتِ**»[(٢)].

١٧ـ وهي: تمحو الذنوبَ والخطايا:

وفي «سننِ ابنِ ماجه»[(٣)] عن أُمِّ هانئٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا إلهَ إلا اللَّهُ لا تتركُ ذنبًا، ولا يسبقُها عملٌ**».

رُئِي بعضُ السلفِ بعدَ موتِهِ في المنامِ فسُئلَ عن حالِه، فقالَ: ما أبقتْ لا إلهَ إلا اللَّهُ شيئًا.

١٨ـ وهي: تجدد ما درسَ من الإيمانِ في القلبِ:

وفي «المسند»[(٤)] أن النبيَّ ﷺ قالَ لأصحابِهِ: «**جدّدوا إيمانَكم**». قالوا: كيفَ

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٢٤)، والحاكم (١/ ٥٠١).
(٢) أخرجه: أحمد في «مسنده» (٥/ ١٦٩).
(٣) أخرجه: ابن ماجه (٣٧٩٧).
(٤) أخرجه: أحمد (٢/ ٢٥٩)، والحاكم (٤/ ٢٥٦).

نجدِّدُ إيمانَنَا؟ قال: «قولُوا: لا إله إلا اللَّه، وهي لا يعـدِلُها شيءٌ في الوزنِ، فلو وُزِنتْ بالسماواتِ والأرضِ رجحتْ بهنَّ».

كما في «المسندِ»[1] عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو عن النبيِّ ﷺ: «أنَّ نوحًا قالَ لابنهِ عندَ موته: آمرُكَ بلا إلـهَ إلا اللَّهُ، فإنَّ السماواتِ السبعَ والأرضينَ السـبعَ لو وُضِعتْ في كِـفَّةٍ ووضِـعَتْ لا إلهَ إلا اللَّهُ في كفـةٍ، رجحـتْ بهنَّ لا إلهَ إلا اللَّهُ، ولو أن السمـاوات السبعَ والأرضينَ السبعَ كنَّ في حلْقةٍ مبهمةٍ قصَمتهُنَّ لا إلهَ إلا اللَّه».

وفيه أيضًا[2] عن عـبدِ اللَّهِ بن عـمـرٍو عن النبيِّ ﷺ: «أنَّ مـوسى - عليه السلامُ - قالَ: يا ربِّ علِّمني شيئًا أذكـرُكَ وأدعوكَ به، قال: يا موسى قلْ: لا إله إلا اللَّه، قـالَ: يا ربِّ! كلُّ عـبادكَ يقـولون هذا. قـال: قل: لا إله إلا اللَّه، قـال: لا إله إلا أنت يا ربِّ، إنما أُريد شيئًا تخصُّني به، قال: يا موسى، لو أنَّ السـماوات السبعَ وعامرَهنَّ غيري والأرضينَ السبعَ في كفةٍ، ولا إلهَ إلا اللَّهُ في كفةٍ، مالتْ بهنَّ لا إله إلا اللَّه».

وكذلك ترجحُ بصحـائفِ الذنوبِ، كما في حديثِ السـجلاتِ والبطاقةِ، وقد خرَّجهُ أحمدُ والنسائيُّ والترمذيُّ أيضًا من حديثِ عبدِ اللَّهِ بن عمرٍو عن النبيِّ ﷺ[3].

١٩- وهي: التي تخرقُ الحجبَ حتَّى تصلَ إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ:

وفي الترمذيِّ[4] عن عبدِ اللَّهِ بن عـمرٍو عن النبيِّ ﷺ قال: «لا إله إلا اللَّهُ

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٧٠، ٢٢٥).

(٢) أخرجه: النسائي في «اليوم والليلة» (٨٤٠)، والحاكم (١/ ٢٥٨)، وعزو الحديث إلى «المسند» خطأ، وهو من حديث أبي سعيد وليس من حديث عبد اللَّه بن عمرو.

(٣) أخرجه: أحمد (٢/ ٢١٣)، والترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، والحديث لم أجده عند النسائي، ولم يعزه المزي في «تحفة الأشراف» للنسائي.

(٤) أخرجه: الترمذي (٣٥١٨).

ليسَ لها دونَ اللَّهِ حجابٌ حتى تصلَ إليه».

وفيه أيضًا(١) عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ: **«ما قالَ عبدٌ: لا إله إلا اللَّه مخلصًا إلا فُتحتْ له أبوابُ السماءِ حتى تُفضِي إلى العرشِ ما اجتُنِبَت الكبائرُ».**

ويروى عن ابنِ عباسٍ مرفوعًا: **«ما منْ شيءٍ إلا بينه وبينَ اللَّهِ حجابٌ، إلا قولَ: لا إلهَ إلا اللَّه كما أنَّ شَفَتَيْكَ لا تحجبُهما كذلكَ لا يحجِبُها شيءٌ حتى تنتهي إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ».**

وقال أبو أمامةَ: ما مِنْ عبدٍ يهلِّلُ تهليلةً فينهنهها شيءٌ دونَ العرشِ.

٢٠ـ وهي الَّتي ينظرُ اللَّهُ إلى قائِلِها، ويجيبُ دعاه:

خرَّجَ النسائيُّ في كتابِ «اليومِ والليلةِ»(٢) من حديثِ رجلينِ من الصحابة عن النبيِّ ﷺ: **«منْ قالَ: لا إلهَ إلا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، له الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، مخلصًا بها روحُه مصدِّقًا بها لسانُه، إلا فَتَقَ له السماءَ فتقًا، حتَّى ينظرَ إلى قائِلِها مِنْ أهلِ الأرضِ، وحُقَّ لعبدٍ نظرَ إليه أن يعطِيَهُ سؤلَهُ».**

٢١ـ وهي: الكلمةُ الَّتي يصدِّقُ اللَّهُ قائلَهَا:

كما أخرجَ النسائيُّ والترمذيُّ وابنُ حبانَ(٣) من حديثِ أبي هريرةَ وأبي سعيدٍ عن النبيِّ ﷺ قال: **«إذا قالَ العبدُ: لا إلهَ إلا اللَّهُ واللَّهُ أكبرُ، صدَّقَهُ ربُّه، وقالَ: لا إلهَ إلا أنا وأنا أكبرُ. وإذا قالَ: لا إلَه إلا اللَّهُ وحدَهُ، لا شريكَ لهُ، يقولُ اللَّهُ: لا إلهَ إلا أنا وحدي لا شريكَ لي. وإذا قالَ: لا إلهَ إلا اللَّهُ وحدَه، لا شريكَ له، له الملكُ وله الحمدُ، قال اللَّهُ: لا إلهَ إلا أنا، لي الملكُ، ولي الحمدُ. وإذا قالَ: لا إلهَ إلا اللَّهُ، ولا حولَ**

(١) «جامع الترمذي» (٣٥٩٠).

(٢) «اليوم والليلة» (٢٨).

(٣) النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٣١)، والترمذي (٣٤٣٠)، وابن حبان (٨٥١).

ولا قوةَ إلا باللَّهِ، قالَ اللَّهُ: لا إلهَ إلا أنا، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بي». وكان يقولُ: «**من قالها في مرضِهِ ثم ماتَ لم تَطْعمهُ النارُ**».

٢٢ـ وهي: أفضلُ ما قاله النبيونَ:

كما وردَ ذلكَ في دعاءِ يومِ عرفةَ(١).

٢٣ـ وهي: أفضلُ الذِّكْرِ:

كما في حديثِ جابرٍ المرفوعِ: «**أفضلُ الذكرِ لا إلهَ إلا اللَّهُ**»(٢).

وعن ابنِ عباسٍ: أحبُّ كلمةٍ إلى اللَّهِ لا إلهَ إلا اللَّه، لا يقبلُ اللَّهُ عملاً إلا بِها.

٢٤ـ وهي: أفضلُ الأعمالِ وأكثرُها تضعيفًا، وتعدلُ عتقَ الرقابِ، وتكونُ حِرزًا من الشيطانِ:

وكما في «الصحيحينِ»(٣) عن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «**من قالَ: لا إله إلا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ، لـه الملكُ وله الحمـدُ وهوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، في يومٍ مائةَ مرةٍ كانتْ له عدلَ عشرِ رقابٍ، وكُتبَ له مائةُ حسنةٍ، ومُحيَ عنه مائةُ سيئةٍ، ولم يأتِ أحدٌ بأفضلَ مما جاءَ بهِ، إلا أحدٌ عملَ أكثرَ من ذلكَ**».

وفيهما أيضًا(٤) عن أبي أيوبٍ الأنصاريِّ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: «**من قالَها عشرَ مراتٍ كانَ كمنْ أعتقَ أربعَ أنفسٍ من وَلَدِ إسماعيلَ**».

---

(١) أخرجه: مالك في «موطئه» مرسلاً (٤٤٢)، وأخرجه: البغوي (٧/ ١٥٧).
(٢) أخرجه: الترمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٣٧).
(٣) أخرجه: البخاري (٤/ ١٥٣)، ومسلم (٨/ ٦٩).
(٤) أخرجه: البخاري (٨/ ١٠٧)، ومسلم (٨/ ٦٩).

وفي الترمذي[(١)] عن ابنِ عمرَ مرفوعًا: «منْ قالها إذا دخل السوقَ، وزادَ فيها: يُحيي ويميتُ وهوَ حيٌّ لا يموتُ بيدِه الخيرُ وهوَ على كلِّ شيءٍ قديرٌ، كتبَ اللَّهُ له ألفَ ألفَ حسنةٍ، ومحا اللَّهُ عنه ألفَ ألفَ سيئةٍ، ورفعَ اللَّهُ له ألفَ ألفَ درجةٍ»، وفي روايةٍ: «ويُبْنى له بيتٌ في الجنةِ».

٢٥ـ ومن فضائلِها: أنها أمانٌ من وحشةِ القبرِ وهولِ الحشرِ:

كما في «المسندِ»[(٢)] وغيرِه عن النبيِّ ﷺ قالَ: «ليسَ على أهلِ لا إلهَ إلا اللَّهُ وحشةٌ في قبورهم ولا في نشورهم، وكأنِّي بأهلِ لا إلهَ إلا اللَّهُ قد قامُوا ينفضونَ الترابَ عن رؤوسِهم، ويقولونَ: الحَمْدُ للَّه الَّذي أذهبَ عنَّا الحزنُ».

وفي حديثٍ مرسلٍ: «من قالَ: لا إلهَ إلا اللَّهُ الملكُ الحقُّ المبينُ، كلَّ يومٍ مائةَ مرةٍ كانتْ له أمانًا من الفقرِ، وأنسًا من وحشةِ القبرِ، واستجلبتْ له الغِنى، واستقرعتْ له بابَ الجنَّةِ»[(٣)].

٢٦ـ وهيَ: شعارُ المؤمنينَ إذا قامُوا من قبورِهم:

قال النضرُ بنُ عربي: بلغَنِي أنَّ الناسَ إذا قامُوا من قبورِهم كانَ شعارُهم: لا إلَه إلا اللَّهُ.

وقد خرج الطبرانيُّ[(٤)] حديثًا مرفوعًا: «إنَّ شعارَ هذه الأُمةِ على الصراطِ: لا إلهَ إلا أنتَ».

---

(١) أخرجه: الترمذي (٣٤٢٩)، وابن ماجه (٢٢٣٥).

(٢) الحديث ليس في «مسند أحمد»، ولكن رواه ابن عدي في «الكامل» (٤/ ١٥٨٢)، والطبراني في «الأوسط» (٩٤٧٨)، والبيهقي في «الشعب» (١/ ٩٩).

(٣) أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٨٠).

(٤) «المعجم الأوسط» (١٦٠).

٢٧ـ ومن فضائلها: أنَّها تفتحُ لقـائلِها أبوابَ الجنةِ الثمانيةَ، يدخلُ من أيِّها شاءَ:

كما في حـديثِ عمرَ عن النبيِّ ﷺ فيمَنْ أتى بالشـهادتينِ بعد الوضوءِ، وقدْ خرَّجهُ مسلم[١].

وفي «الصحيحينِ»[٢] عن عبادةَ بن الصامتِ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قالَ: «من قالَ: أشهدُ أن لا إلهَ إلا اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ له، وأنَّ محـمدًا عبدُه ورسولُه، وأنَّ عيسى عبدُ اللَّهِ ورسولِه وكلمـتُه ألقَاها إلى مريمَ وروحٌ منه، وأنَّ الجنةَ حقٌّ، والنارَ حقٌّ، أدخلَهُ اللَّهُ من أيِّ أبوابِ الجنَّةِ الثمانيةِ شاء».

وفي حديثِ عبد الرحمنِ بنِ سمرةَ عن النَّبيِّ ﷺ في قصةِ منامه الطويل، وفيه قالَ: «ورأيتُ رجـلاً من أُمَّـتِي انتـهى إلى أبوابِ الجنة، فـأُغلقتِ الأبوابُ دونَه، فجاءتْه شهادةُ أن لا إلهَ إلا اللَّهُ، فتحتْ له الأبوابَ، وأدخلتْهُ الجنةَ»[٣].

٢٨ـ ومن فضائلها أنَّ أهلَها وإنْ دخلُوا النارَ وبتقصيرِهم في حقوقِها فإنهم لابد أن يخرجُوا منها.

وفي «الصحيحينِ»[٤] عن أنـسٍ عن النـبيِّ ﷺ قالَ: «يقـولُ اللَّهُ عـز وجلَّ: وعِزَّتي وجلالِي وكبريائِي وعظمتِي لأُخرجنَّ منها منْ قالَ: لا إله إلا اللَّهُ».

وأخرجَ الطبراني[٥] عن أنس عن النبيِّ ﷺ قالَ: «إنَّ ناسًا منْ أهلِ لا إلهَ إلا اللَّهُ

---

(١) أخرجه: مسلم (١/ ١٤٤).

(٢) أخرجه: البخاري (٤/ ٢٠١)، ومسلم (١/ ٤٢).

(٣) أخرجه: الطبراني في الأحاديث الطوال (٣٩)، كما قال محقق رسالة «كلمة الإخلاص».

(٤) أخرجه: البخاري (٩/ ١٧٩ ـ ١٨٠).

(٥) أخرجه: الهـيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٧٩)، وقال: رواه الطبـراني في «الأوسط»، وفيه من لم أعرفهم.

يدخلونَ النارَ بذنوبهم، فيقولُ لهم عبدةُ اللات والعزّى: ما أغْنى عنكُم قولُ: لا إله إلا اللَّه، فيغضبُ اللَّهُ لهم فيخرِجُهُم من النارِ، فيدخلونَ الجنةَ».

ومن كان في سخطه يُحسنُ   فكيفَ يكونُ إذا ما رضي؟

لا يسوي بين من وحَّده وإن قصَّر في حقوقِ توحيدِه، وبينَ من أشركَ به.

قال بعضُ السلفِ: كان إبراهيمُ ـ عليه السلامُ ـ يقولُ: اللهمَّ لا تشركْ من كان يشركُ بكَ شيئًا بمن كانَ لا يشركُ بكَ.

كان بعضُ السلفِ يقولُ في دعائه: اللهمَّ إنَّك قلتَ عن أهلِ النارِ: إنَّهم أقسمُوا باللَّهِ جهدَ أَيمانِهم لا يبعثُ اللَّه من يموتُ، ونحنُ نقسمُ باللهِ جَهدَ أيمانِنا ليبعثنَّ اللَّهُ من يموتُ، اللهمَّ لا تجمع بينَ أهلِ القَسَمَيْنِ في دارٍ واحدةٍ.

كان أبو سليمانَ يقولُ: إن طالَبني ببخلِي طالبتُه بجودِه، وإن طالَبني بذنوبي طالبتُه بعفوِه، وإن أدخلَني النارَ أخبرتُ أهلَ النارِ أنِّي أُحبُّه.

ما أطيبَ وصلَه وما أعذبَه!   وما أثقلَ هجرَه وما أصعبَه!
وفي السخطِ والرِّضى ما أهيبَه!   القلبُ يحبُّ وإنْ عذَّبَه

وكان بعضُ العارفينَ يبْكي طولَ ليله ويقولُ: إن تعذِّبْني فإنِّي لك محبٌّ، وإنْ ترحمْني فإنِّي لك محبٌّ.

العارفونَ يخافونَ من الحجابِ أكثرَ مما يخافونَ من العذابِ.

قال ذو النونِ: خوفُ النارِ عند خوفِ الفراقِ كقطرةٍ في بحرٍ لُجي.

كان بعضُهم يقولُ: إلهي وسيدِي ومولاي! لو أنَّك عذبْتنِي بعذابِكَ كلِّه، كانَ ما فاتَني من قربِكَ أعظمُ عنْدي من العذابِ.

قيلَ لبعضِهم: لو طردكَ ما كنتَ تفعلُ؟

قالَ:

إِذَا أنا لم أجْـد من الحبِّ وصْـلاً رمتُ في النارِ مُنْزلاً ومقيلا
ثم أزعجتُ أهلَها بندائي بكرةً في عرصَاتِها وأصيلا
معشرَ المشركينَ ناحُوا على منْ يدَّعِي أنَّه يحبُّ الجليلا
لم يكنْ في الذي ادَّعاه محقًّا فجزاهُ به العذابَ الطَّويلا!

إخوانِي!

اجتهدُوا اليومَ في تحقيقِ التوحيدِ، فإنَّه لا يُنجي من عذابِ اللَّهِ إلا إيَّاه، وما نطقَ الناطقونَ إذْ نطقُوا أحسنَ من: لا إلهَ إلا اللَّه.

ما نطقَ الناطقونَ إذْ نطقُوا أحسنَ من لا إلهَ إلا هُو
تباركَ اللَّهُ ذو الجلالِ ومنْ أشهدُ أن لا إلهَ إلا هُو
مَن لذنوبِي ومنْ يمحّصُها غيرُك يَا منْ لا إلهَ إلا هُو
جنان خلدٍ لمنْ يوحِّدُه أشهدُ أن لا إلهَ إلا هُو
نيرانُه لا تحرقُ منْ يشهدُ أن لا إلهَ إلا هُو
أقولُها مخلِصًا بِلا بُخلٍ أشهدُ أن لا إلهَ إلا هُو

والحمد للَّه رب العالمين(١)

* * *

(١) «كلمة الإخلاص» (٥٦ ـ ٨١).

سُورَةُ الْفَتْحِ

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاستَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾

إن الزرعَ وإنْ كانَ له طاقةٌ منه ضعيفةٌ ضئيلةٌ إلا أنه يتقوَّى بما يخرجُ معه وحولَهُ ويعتضدُ به، بخلافِ الشجرةِ العظامِ فإنَّ بعضَها لا يشدُّ بعضًا.

وقد ضربَ اللَّهُ تعالى مثلَ النبيِّ ﷺ وأصحابِهِ بالزرعِ لـهذا المعنى قال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاستَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾ [الفتح:٢٩].

قوله: ﴿أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ أي: فِراخَهُ.

﴿فَآزَرَهُ﴾ أي: ساواه وصارَ مثلَ الأمِّ وقوي به.

﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ أي: غَلُظَ.

فالزرعُ مثلُ النبيِّ ﷺ إذ خرجَ وحدهُ فأمدَّه بأصحابِهِ وهُم شطأُ الزرعِ كما قَوَّى الطاقةَ من الزرعِ بما نَبَتَ منها حتَّى غلظتْ واستحكمتْ.

﴿فَاستَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾: جمعُ ساقٍ.

وفي الإنجيلِ: «سَيَخْرُجُ قومٌ يَنْبُتُونَ نَباتَ الزَّرعِ».

وقد قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٧١].

وقال: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة:٦٧].

فالمؤمنونَ بينَهُم ولايةٌ وهي مودةٌ ومحبةٌ باطنةٌ.

ثم قالَ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

لأن المؤمنينَ قلوبُهم على قلبِ رجلٍ واحدٍ فيما يعتقدونَهُ من الإيمانِ وأما المنافقونَ فقلوبُهم مختلفةٌ.

كما قالَ: ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ [الحشر: ١٤].

فأهواؤُهُم مختلفةٌ.. إلخ. ولا ولايةَ بينَهُم في الباطنِ وإنما بعضُهم من جنس بعض في الكفر والنفاقِ.

وفي «الصحيحينِ» عن النبيِّ ﷺ: «**المؤمنُ للمُؤْمِنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بعضُهُ بعضًا**» وشبَّكَ بينَ أصابعِهِ[1].

وفيهما أيضًا عن النبيِّ ﷺ: «**مثل المُؤمنينَ في توادِّهم وتراحُمهمْ وتعاطُفِهِم كمثَلِ الجسَدِ الواحِدِ، إذَا اشتكَى منهُ عضوٌ تداعَى سائرهُ بالحُمَّى والسَّهَرِ**»[2] [3].

* * *

(١) أخرجه: البخاري (١/ ١٢٩)، (٣/ ١٦٩)، (٨/ ١٤)، ومسلم (٨/ ٢٠) من حديث أبي موسى الأشعري.

(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ١١)، ومسلم (٨/ ٢٠) من حديث النعمان بن بشير.

(٣) «غاية النفع في شرح حديث: تمثيل المؤمن بخامة الزرع» (ص ٣٢ ـ ٣٤).

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

وقال الحسنُ في قولِهِ تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١] قالَ: لا تذبَحُوا قبلَ الإمامِ. خرّجه ابنُ أبي حاتمٍ[(١)] .

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾

فإن علامةَ محبَّةِ اللَّهِ ورسولِهِ محبةُ ما يحبُّهُ اللَّهُ ورسولُه، وكراهةُ ما يكرهُهُ اللَّهُ ورسولُه ـ كما سبقَ ـ، فإذا رسخَ الإيمانُ في القلبِ وتحققَ بِهِ، ووجدَ حلاوتَهُ وطعمَه، أحبَّه وأحبَّ ثباتَهُ ودوامَهُ، والزيادَةَ منه، وكرهَ مفارقتَه، وكانَ كراهتُه لمفارقتِه أعظمَ عندَه من كراهةِ الإلقاءِ في النارِ.

قال اللَّه تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

والمؤمنُ يحبُّ الإيمانَ أشدَّ من حبِّ الماءِ الباردِ في شدَّةِ الحرِّ للظمآنِ،

(١) «رسالة: في رؤية الهلال» (ص ٣٠، ٣١).

ويكره الخروجَ منه أشدَّ من كراهةِ التحريقِ بالنيرانِ.

كما في «المسندِ»[١] عن أبي رزينٍ العقيلي، أنه سألَ النبيَّ ﷺ عن الإيمانِ، فقالَ: **«أنْ تشهَدَ أنْ لا إله إلا اللَّهُ، وحدَه لا شريكَ لَهُ، وأنَّ محمداً عبدُه ورسولُه، وأنْ يكونَ اللَّهُ ورسولُه أحبَّ إليكَ مما سواهُما، وأن تحرَّق في النَّارِ أحبُّ إليكَ من أنْ تشركَ باللَّهِ، وأن تحبَّ غيرَ ذي نسبٍ لا تحبه إلا للَّه، فإذَا كنتَ كذلكَ فقد دخلَ حبُّ الإيمانِ في قلبك، كما دخلَ حبُّ الماءِ للظمآنِ في اليوم القائظ»**.

وفي «المسند»[٢] ـ أيضًا ـ: أن النبيَّ ﷺ وصَّى معاذَ بن جبل، فقال له ـ فيما وصاه به ـ: **«لا تشركْ باللَّهِ شيئًا، وإن قُطِّعْتَ وحُرِّقت»**[٣].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾

وقوله ﷺ: **«المسلمُ أخو المسلمِ، لا يظلمُه ولا يَخذُلُه، ولا يَكذبُه، ولا يَحقرُه»**[٤].

هذا مأخوذٌ من قولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠]، فإذا كانَ المؤمنونَ إخوةً أُمروا فيمَا بينَهُم بما يُوجبُ تآلُفَ القلوبِ واجتماعَها، ونُهوا عمَّا يوجبُ تنافرَ القلوبِ واختلافَها، وهذا من ذاكَ.

وأيضًا: فإنَّ الأخَ مِنْ شأنِه أن يوصِلَ إلى أخيه النَّفعَ، ويكفَّ عنه الضَّررَ، ومن أعظمِ الضرِّ الذي يجبُ كَفُّه عَنِ الأخِ المسلم الظُّلم، وهذا لا يختصُّ

(١) «المسند» (٤/ ١١ ـ ١٢).

(٢) «المسند» (٥/ ٢٣٨).

(٣) «فتح الباري» (١/ ٥١، ٥٢).

(٤) جزء من حديث أخرجه: مسلم (٨/ ١٠/ ١١).

بالمسلمِ، بل هــو محــرّمٌ في حــقِّ كلِّ أحدٍ، وقــد ســبق الكــلامُ على الظُّلْمِ مســتوفيًا عند ذكــرِ حديث أبي ذرٍّ الإلهي: «**يا عــبادي، إنِّي حــرَّمتُ الظُّلم على نفسِي، وجعلتُه بينَكُم مُحرَّمًا فلا تَظَالَمُوا**»[١] .

ومِنْ ذلكَ: **خِذْلانُ المسلمِ لأخيه**، فإنَّ المؤمنَ مأمورٌ أن يَنْصُــرَ أخاهُ، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «**انصرْ أخاكَ ظالمًا أو مظلومًا**»، قيلَ: يا رسولَ اللَّه، أنصرُهُ مظلومًا، فكيفَ أنصرُهُ ظالمًا؟ قالَ: «**تمنعُه عَنِ الظُّلمِ، فذلكَ نَصْرُك إيَّاهُ**». خرجهُ البخاريُّ[٢] بمعناهُ من حديثِ أنسٍ. وخرَّجهُ مسلمٌ[٣] بمعناه من حديثِ جابرٍ.

وخرَّج أبو داود[٤] من حديثِ أبي طلحــةَ الأنصاريِّ وجابرِ بنِ عــبدِ اللَّه، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**ما مِنْ امــرئٍ مسلمٍ يَخذُلُ امْرءًا مُــسلمًا في موضعٍ تُنتهــكُ فيه حُرمتُه، ويُنتقصُ فيه من عِرضِــهِ إلا خذلهُ اللَّهُ في موطنٍ يُحبُّ فيه نُصرتَه، وما من امرئٍ ينصرُ مُسلمًا في موضعٍ يُنتقصُ فيه من عِــرضِهِ، ويُنتهكُ فيه من حُرمتهِ إلا نصرَه اللَّه في موطنٍ يُحبُّ فيه نُصرتَهُ**».

وخرَّج الإمامُ أحمدُ[٥] من حديثِ أبي أمامــةَ بنِ سهلٍ، عن أبيه عنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**مَنْ أُذلَّ عندهُ مــؤمنٌ فلم ينصُــرْه وهو يَقْــدرُ على أنْ ينصُــره أذلَّهُ اللَّهُ على رءوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ**».

وخرَّج البزارُ[٦] من حديثِ عمرانَ بنِ حُصينٍ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ نصرَ**

---

(١) جزء من حديث أخرجه: مسلم (٨/ ١٦ ـ ١٧).
(٢) أخرجه: البخاري (٥/ ٩٨).
(٣) أخرجه: مسلم (٨/ ١٩).
(٤) «السنن» (٤٨٨٤).
(٥) «المسند» (٣/ ٤٨٧).
(٦) «كشف الأستار» (٣٣١٥، ٣٣١٧).

أخاهُ بالغَيبِ وهو يستطيعُ نصرَه نصرهُ اللَّهُ في الدُّنيا والآخرةِ».

ومن ذلكَ: كذبُ المسلمِ لأخيه، فلا يُحلُّ له أن يُحدِّثه فيكذبهُ، بل لا يُحدِّثه إلا صدقًا. وفي «مسندِ الإمام أحمدَ»(١) عن النَّوَّاس بنِ سَمعانَ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «كَبُرَت خيانةً أنْ تُحدِّثَ أخاكَ حديثًا هو لك مُصدِّقٌ وأنتَ به كاذبٌ».

ومن ذلكَ: احتقارُ المسلمِ لأخيهِ المسلمِ، وهو ناشئٌ عن الكِبْرِ، كما قالَ النبيُّ ﷺ: «الكِبْرُ بَطَرُ الحقِّ وغَمْطُ النَّاسِ». خرَّجه مسلمٌ من حديثِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه، وخرَّجهُ الإمامُ أحمدُ، وفي روايةٍ لهُ: «الكِبْرُ سَفَهُ الحَقِّ، وازدراءُ الناسِ»، وفي روايةٍ: «وغمصُ الناسِ»، وفي روايةٍ زيادةٌ: «فلا يَراهم شيئًا»(٢).

وغمصُ النَّاسِ: الطَّعْنُ عليهم وازدراؤهُم، وقالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ [الحجرات:١١]، فالمتكبرُ ينظرُ إلى نفسِه بعينِ الكمالِ، وإلى غيرِهِ بعينِ النَّقصِ، فيحتقرُهُم ويزدريهم، ولا يراهمُ أهلاً لأنْ يقومَ بحقوقِهم، ولا أن يقبلَ مِنْ أحدٍ منهمُ الحقَّ إذا أوردَهُ عليهِ(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾

[قال البخاريُّ]: بَابٌ إذا لم يكُنِ الإسلامُ علَى الحقيقةِ وكان على

(١) «المسند» (٤/ ١٨٣).

(٢) مسلم (١/ ٦٥)، وأحمد (١/ ٣٨٥ ـ ٣٩٩ ـ ٤٢٧)، والترمذي (١٩٩٩).

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٩٠ ـ ٢٩٤).

الاستسلامِ أوِ الخوْفِ مِنَ القَتْلِ:

لقولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤].

فَإِذَا كانَ على الحقيقةِ فهُوَ علَى قولِهِ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[آل عمران: ١٩]، وقَولِهِ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

معنى هذا الكلامِ: أن الإسلامَ يُطلقُ باعتبارينِ.

أحدُهما: باعتبارِ الإسلامِ الحقيقيِّ، وهو دينُ الإسلامِ الذي قالَ اللَّهُ فيهِ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

والثاني: باعتبارِ الاستسلامِ ظاهراً، مع عدمِ إسلامِ الباطنِ إذا وقَع خوفًا، كإسلامِ المنافقينَ.

واستدلَّ بقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

وحملَهُ على الاستسلامِ خوفًا وتقيةً.

وهذا مرويٌّ عن طائفةٍ من السلفِ، منهم: مجاهدٌ وابنُ زيدٍ ومقاتلُ بنُ حيانَ وغيرُهم.

وكذلك رجَّحه محمدُ بنُ نصرٍ المروزيُّ، كما رجَّحه البخاريُّ؛ لأنهما لا يفرقانِ بينَ الإسلامِ والإيمانِ، فإذا انتفى أحدُهما انتفَى الآخرُ.

وهو اختيارُ ابنِ عبدِ البرِّ، وحكاهُ عن أكثرِ أهلِ السنةِ من أصحابِ مالكٍ

والشافعيِّ وداودَ.

وأما من يفـرقُ بين الإسلامِ والإيمانِ، فإنه يـستدلُّ بهـذه الآيةِ على الفرقِ بينهُما، ويقول: نفيُ الإيمانِ عنهـم لا يلزمُ منه نفيُ الإسلامِ، كما نَفَى الإيمانَ عن الزاني والسارقِ والشاربِ، وإن كان الإسلامُ عنهم غيرَ منفيٍّ.

وقد وردَ هذا المعنى في الآيةِ عن ابنِ عباسٍ وقتادَة والنخَعيِّ.

ورُوي عن ابنِ زيدٍ ـ معناه ـ أيضًا.

وهو قولُ الزهريِّ وحمادِ بنِ زيدٍ وأحمدَ.

ورجَّحه ابنُ جريرٍ وغيرُه.

واستدلُّوا به على التفريقِ بينَ الإسلامِ والإيمانِ.

وكذا قال قتادةُ في هذه الآيةِ، قال: ﴿**قُولُوا أَسْلَمْنَا**﴾: شهادةَ أن لا إله إلا اللَّهُ، وهو دينُ اللَّهِ، والإسلامُ درجـةٌ، والإيمانُ تحقيقٌ في القلبِ. والهـجرةُ في الإيمانِ درجةٌ، والجهادُ في الهجرةِ درجةٌ، والقتلُ في سبيل اللَّه درجةٌ.

خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ.

فجعل قتادة الإسـلام الكلمة، وهي أصلُ الدينِ، والإيمان ما قام بالقلوبِ من تحقـيقِ التصديقِ بالغـيبِ، فهؤلاء القـومُ لم يحقِّقُـوا الإيمانَ في قلوبِهم، وإنما دخلَ في قلوبِهم تصديقٌ ضعيفٌ، بحيثُ صحَّ به إسلامُهم.

ويدلُّ عليه: قولُه تعالى: ﴿**وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا**﴾ [الحجرات: ١٤].

واختلفَ مَنْ فرَّق بين الإسلامِ والإيمانِ، في حقيقة الفرقِ بينهما:

فقالت طائفةٌ: الإسلامُ كلمةُ الشهادتينِ، والإيمانُ العملُ.

وهذا مرويٌّ عن الزهريِّ وابنِ أبي ذئبٍ، وهوَ روايةٌ عن أحمدَ، وهي المذهبُ عند القاضي أبي يعلَى وغيرِه من أصحابه.

ويشبه هذا: قولَ ابنِ زيدٍ في تفسير هذه الآية، قال: لم يصدِّقُوا إيمانَهم بأعمالهم، فردَّ اللَّه عليهم، وقال: ﴿لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، فقال: الإسلامُ إقرارٌ والإيمانُ تصديقٌ.

وهو قولُ أبي خيثمةَ وغيرِه من أهلِ الحديثِ.

وقد ضعَّفَ ابنُ حامدٍ من أصحابِنا هذا القولَ عن أحمدَ، وقال: الصحيحُ أن مذهَبَه أن الإسلامَ قولٌ وعملٌ، روايةً واحدةً، ولكن لا تدخلُ كلُّ الأعمالِ في الإسلامِ كما تدخلُ في الإيمانِ.

وذكر: أنَّ المنصوصَ عن أحمدَ، أنه لا يكفرُ تاركُ الصلاةِ، فالصلاةُ من خصالِ الإيمانِ دونَ الإسلامِ، وكذلك اجتنابُ الكبائرِ من شرائطِ الإيمانِ دونَ الإسلامِ.

كذا قالَ، وأكثرُ أصحابنا: أن ظاهرَ مذهبِ أحمدَ تكفيرُ تاركِ الصلاةِ، فلو لم تكنِ الصلاةُ من الإسلامِ، لم يكنْ تاركُها عندَه كافرًا.

والنصوصُ الدالةُ على أن الأعمالَ داخلةٌ في الإسلامِ كثيرة جدًّا.

وقد ذهَب طائفةٌ إلى أن الإسلامَ عامٌّ، والإيمانَ خاصٌّ، فمنِ ارتكبَ الكبائرَ خرجَ من دائرةِ الإيمانِ الخاصةِ إلى دائرةِ الإسلامِ العامَّةِ.

هذا مرويٌّ عن أبي جعفرٍ محمدِ بنِ عليٍّ.

وضعفه ابنُ نصرِ المروزيُّ، من جهة راويه عنه، وهو فضيلُ بنُ يسارٍ،

وطعنَ فيه.

ورُوي عن حمادِ بنِ زيدٍ نحو هذا ـ أيضًا.

وحُكي روايةً عن أحمدَ ـ أيضًا ـ؛ فإنه قال ـ في رواية الشالنجيِّ ـ في مرتكبِ الكبائرِ: يخرجُ من الإيمانِ، ويقعُ في الإسلامِ.

ونقل حنبلٌ، عن أحمدَ ـ معناه.

وقد تأولَ هذه الروايةَ القاضي أبو يعلَى، وأقرَّها غيرَه، وهي اختيارُ أبي عبدِ اللَّهِ ابن بطةَ وابنِ حامدٍ، وغيرِهما من الأصحابِ.

وقالت طائفةٌ: الفرقُ بينَ الإسلامِ والإيمانِ: أن الإيمانَ هو التصديقُ، تصديقُ القلبِ، فهو علمُ القلبِ وعملُه، والإسلامُ الخضوعُ والاستسلامُ والانقيادُ، فهو عملُ القلبِ والجوارحِ.

وهذا قولُ كثيرٍ من العلماءِ، وقد حكاهُ أبو الفضلِ التميميُّ عن أصحابِ أحمدَ، وهو قولُ طوائفَ منَ المتكلمينَ.

لكن المتكلمونَ عندَهُم أن الأعمالَ لا تدخلُ في الإيمانِ، وتدخلُ في الإسلامِ، وأما أصحابُنا وغيرُهم من أهلِ الحديثِ، فعندهم أن الأعمالَ تدخل في الإيمانِ، مع اختلافِهم في دخولِها في الإسلامِ، كما سبق.

فلهذا قالَ كثيرٌ من العلماءِ: إن الإسلامَ والإيمانَ تختلفُ دلالتُهما بالإفراد والاقترانِ، فإن أُفردَ أحدُهما دخلَ الآخرُ فيه، وإن قُرنَ بينهما كانا شيئينِ حينئذٍ.

وبهذا يجمعُ بينَ حديثِ سؤالِ جبريلَ عن الإسلامِ والإيمانِ، ففرَّق النبي ﷺ بينهما، وبينَ حديثِ وفدِ عبدِ القيسِ حيث فسَّر فيه النبيُّ ﷺ الإيمانَ

المنفرد بما فسَّر به الإيمانَ المقرونَ في حديثِ جبريلَ.

وقد حكى هذا القولَ أبو بكرٍ الإسماعيليُّ عن كثيرٍ من أهلِ السنةِ والجماعة. ورُويَ عن أبي بكرِ بنِ أبي شيبة ما يدلُّ عليه.

وهو أقربُ الأقوالِ في هذه المسألةِ وأشبهُها بالنصوصِ. واللَّهُ أعلمُ.

والقولُ بالفرقِ بين الإسلام والإيمانِ مرويٌّ عن الحسنِ وابنِ سيرينَ وشريكٍ وعبدِ الرحمنِ بنِ مهديٍّ ويحيى بنِ معينٍ، ومؤمَّلِ بنِ إهابٍ، وحُكي عن مالكٍ - أيضًا.

وقد سبقَ حكايتُه عن قتادةَ، وداودَ بنِ أبي هندٍ، والزهريِّ، وابنِ أبي ذئبٍ، وحمادِ بنِ زيدٍ، وأحمدَ، وأبي خيثمةَ.

وكذلك حكاهُ أبو بكرِ بنُ السمعانيِّ عن أهلِ السنةِ والجماعةِ جملةً.

فحكايةُ ابنِ نصرٍ وابنِ عبدِ البرِّ عن الأكثرينَ التسويةَ بينهما غيرُ جيِّدٍ.

بل قد قيلَ: إن السلفَ لم يُروَ عنهم غيرُ التفريقِ. واللَّهُ أعلمُ.

وخرج البخاريُّ(١) في هذا البابِ:

حديثَ: الزُّهريِّ، عن عامرِ بن سعدٍ، عَن أبيهِ، أنَّ النبيَّ ﷺ أعطَى رهطًا، وسعدٌ جَالسٌ، فتركَ رسولُ اللَّهِ ﷺ رجُلاً، هُو أعجبُهُم إليَّ، فقلتُ: يَا رسُولَ اللَّهِ، مَا لكَ عن فُلانٍ، فواللَّهِ، إنِّي لأراهُ مُؤمنًا؟ فقالَ: «أو مسلمًا»، فسكتُّ قليلاً، ثمَّ غلبني ما أعلمُ منهُ، فقلتُ: يا رسولَ اللَّهِ، ما لك عن فلانٍ؟ فواللَّهِ إنِّي لأراهُ مُؤمنًا؟ قالَ: «أو مُسلمًا»، فسكتُّ قليلاً، ثمَّ غلبني ما أعلمُ منهُ، فعدتُ لمقالتِي، وعادَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، ثمَّ قالَ: «يا سعدُ، إنِّي

(١) (١/١٣) (٢/١٥٣).

لأعطي الرَّجُل، وغيرهُ أعجبُ إلي منهُ، خشيةَ أن يكبَّهُ اللَّهُ في النَّارِ».

خرجه من طريقِ: شعيبٍ، عن الزهريِّ.

ثم قال: رواهُ يُونسُ وصالحٌ ومعمرٌ وابنُ أخي الزُّهريِّ، عن الزُّهريِّ.

وقد رواهُ ابنُ أبي ذئبٍ ـ أيضًا ـ، عن الزهريِّ ـ كذلك[١].

ورواه العباسُ الخلالُ، عن الوليدِ بنِ مسلمٍ، عن ابنِ وهب ورشدينَ بنِ سعدٍ، عن يونُسَ، عن الزهريِّ، عن إبراهيمَ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ.

وأخطأ في ذلكَ ـ: نقلَه ابنُ أبي حاتمٍ الرازيُّ، عن أبيهِ[٢].

فهذا الحديثُ محمولٌ عند البخاريِّ على أن هذا الرجلَ كانَ منافقًا، وأن الرسولَ ﷺ نفى عنه الإيمانَ، وأثبتَ له الاستسلامَ دونَ الإسلامِ الحقيقيِّ، وهو ـ أيضًا ـ قولُ محمدِ بنِ نصرٍ المروزيِّ.

وهذا في غايةِ البعدِ، وآخرُ الحديثِ يردُّ على ذلك، وهو قولُ النبيِّ ﷺ: «**إني لأعطي الرجلَ وغيرُه أحبُّ إليَّ منه**»؛ فإن هذا يدلُّ على أن النبيَّ ﷺ وكَلَه إلى إيمانه، كما كان يعطي المؤلفةَ قلوبُهم، ويمنعُ المهاجرينَ والأنصارَ.

وزعمَ عليُّ بنُ المدينيِّ في كتابِ «العللِ» له: أن هذا من بابِ المزاحِ منَ النبيِّ ﷺ فإنه كانَ يمزحُ ولا يقولُ إلا حقًّا، فأوهم سعدًا أنه ليس بمؤمنٍ بل مسلمٌ، وهما بمعنًى واحدٍ، كما يقول لرجلٍ يمازحُه ـ وهو يدَّعي أنه أخٌ لرجلٍ ـ، فيقول: إنما أنتَ ابنُ أبيه، أو ابنُ أمِّه، وما أشبَه ذلكَ، مما يوهمُ

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (١/ ١٨٢) من حديث يزيد، أبنا ابن أبي ذئب، عن الزهري ـ به.
(٢) «العلل» لابن أبي حاتم (١٩٤٦).

الفرقَ، والمعنَى واحدٌ.

وهذا تعسفٌ شديدٌ.

والظاهرُ ـ واللَّهُ أعلمُ ـ: أن النبيَّ ﷺ زجرَ سعدًا عن الشهادةِ بالإيمانِ؛ لأن الإيمانَ باطنٌ في القلبِ لا اطلاعَ للعبدِ عليه، فالشهادةُ به شهادةٌ على ظنٍّ، فلا ينبغي الجزمُ بذلك، كما قال: «**إن كنتَ مادحًا لا محالةَ، فقل: أحسبُ فلانًا كذا، ولا أزكِّي على اللَّهِ أحدًا**»[1].

وأمرَه أن يشهدَ بالإسلامِ؛ لأنه أمرٌ مطَّلع عليه.

كما في «المسندِ»[2] عن أنسٍ ـ مرفوعًا ـ: «**الإسلامُ علانيةٌ، والإيمانُ في القلبِ**».

ولهذا كره أكثرُ السلفِ أن يطلقَ الإنسانُ على نفسه أنه مؤمنٌ، وقالوا: هو صِفةُ مدحٍ، وتزكيةٌ للنفسِ بما غابَ من أعمالِها، وإنما يشهدُ لنفسِه بالإسلامِ؛ لظهورِه.

فأما حديثُ: «**إذا رأيتمُ الرجلَ يعتادُ المسجدَ، فاشهدُوا له بالإيمانِ**».

فقد خرجهُ أحمدُ والترمذيُّ وابنُ ماجه[3] من حديثِ درَّاجٍ، عن أبي الهيثمِ عن أبي سعيدٍ ـ مرفوعًا.

وقال أحمد: هو حديثٌ منكرٌ.

ودراجٌ له مناكيرُ. واللَّهُ أعلمُ.

---

(١) البخاري (٣/ ٢٣١)، ومسلم (٨/ ٢٢٧) من حديث أبي بكرة.

(٢) (٣/ ١٣٤ ـ ١٣٥).

(٣) أحمد في «المسند» (٣/ ٦٨، ٧٦)، والترمذي (٢٦١٧)، و(٣٠٩٣)، وابن ماجه (٨٠٢).

وهذا الذي ذكرَه البـخاريُّ في هذا البابِ، من الآيـة والحديثِ، إنما يطابق التبويبَ، على اعتقادِه: أنه لا فرقَ بين الإسلامِ والإيمانِ.

وأما على قولِ الأكثرينَ بالتفريقِ بينهما، فإنما ينبغي أن يُذكرَ في هذا البابِ قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران:٨٣].

فإنَّ الجمهورَ على أنه أرادَ استسلامَ الخلقِ كلِّهم له وخضوعَهم، فأما المؤمنُ فيستسلمُ ويخضعُ طوعًا، وأمـا الكافرُ فإنه يضطرُ إلى الاستسلام عند الشدائد ونزولِ البلاءِ به كرهًا، ثم يعودُ إلى شركِه عندَ زوالِ ذلك كلِّه، كما أخبرَ اللَّهُ عنهم بذلكَ في مواضعَ كثيرةٍ من القرآنِ.

والحديثُ الذي يطابقُ البابَ - على اختيارِ المفرقينَ بينَ الإسلام والإيمانِ - قولُ النبيِّ ﷺ - في ذكر قرينهِ من الجنِّ -: «ولكنَّ اللَّهَ أعانني عليه، فأسلَمُ»[1].

وقد رُوي بضمِّ الميمِ وفتحِها:

فمن رواهُ بضمِّها، قال: المرادُ: أي: أنا أسلمُ من شرِّه.

ومن رواه بفتحها، فمنهم من فسَّره بأنه أسلمَ من كفرِه، فصار مسلمًا.

وقد وردَ التصـريحُ بذلكَ في روايةٍ خرَّجها البـزارُ في «مسندِه»[2]، بإسنادٍ فيه ضعفٌ.

ومنهم من فسَّره بأنه اسـتسلمَ وخضعَ وانقادَ كرهًا. وهو تفسـير ابنِ عيينة وغيرِه. فيطابقُ على هذا ترجمةَ البابِ. واللَّهُ أعلم[3].

* * *

(١) أخرجه: مسلم في «صحيحه» (٨/ ١٣٩).
(٢) (٥/ ٢٥٤).
(٣) «فتح الباري» (١/ ١١٦ - ١٢٣).

قال المحقِّقون مِنَ العُلماءِ: كلُّ مؤمنٍ مُسلمٌ، فإنَّ من حقَّق الإيمانَ، ورسخَ في قلبِه، قام بأعمالِ الإسلامِ، كما قالَ ﷺ: «**ألا وإنَّ في الجسدِ مُضغةً، إذا صلحتْ، صلَّحَ الجسدُ كلُّه، وإذا فسدتْ، فسدَ الجسدُ كلُّه، ألا وهيَ القلبُ**»(١) ، فلا يتحقَّقُ القلبُ بالإيمانِ إلا وتنبعِثُ الجوارحُ في أعمالِ الإسلامِ، وليسَ كلُّ مسلمٍ مؤمنًا، فإنَّه قد يكونُ الإيمانُ ضعيفًا، فلا يتحقَّقُ القلبُ به تحقُّقًا تامًّا، معَ عملِ جوارحِه بأعمالِ الإسلامِ، فيكونُ مسلمًا وليس بمؤمنِ الإيمانَ التامَّ كما قالَ تعالَى: ﴿**قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ [الحجرات:١٤]، ولم يكونُوا مُنافقينَ بالكُلِّيَّةِ على أصحِّ التفسيرينِ، وهو قولُ ابنِ عباسٍ وغيرِه، بل كانَ إيمانُهم ضعيفًا، ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿**وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا**﴾ [الحجرات:١٤]، يعني: لا ينقُصكم من أجورِها، فدلَّ على أنَّ معهم من الإيمانِ ما تُقبلُ به أعمالُهم.

وكذلك قولُ النبيِّ ﷺ لسعد بن أبي وقَّاص لَمَّا قال له: لمْ تعطِ فلانًا وهو مؤمنٌ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «**أو مسلمٌ؟**»(٢) يُشيرُ إلى أنَّه لم يُحقِّق مقامَ الإيمانِ، وإنما هو في مقامِ الإسلامِ الظَّاهرِ، ولا ريبَ أنَّه متى ضعفَ الإيمانُ الباطنُ، لزمَ منه ضعفُ أعمالِ الجوارحِ الظاهرةِ أيضًا، لكن اسمَ الإيمانِ يُنفى عمَّن تركَ شيئًا مِن واجباتِه، كَمَا في قوله: «**لا يزني الزَّاني حينَ يزني وهو مؤمنٌ**»(٣).

وقد اختلفَ أهلُ السُّنَّةِ: هل يُسمَّى مؤمنًا ناقصَ الإيمانِ، أو يقالُ: ليسَ

(١) جزء من حديث أخرجه: البخاري (١/ ٢٠)، ومسلم (٥/ ٥٠).
(٢) أخرجه: البخاري (١/ ١٣)، ومسلم (٣/ ١٠٤).
(٣) البخاري (٣/ ١٧٨)، ومسلم (١/ ٥٤).

بمؤمنٍ، لكنَّهُ مسلمٌ، على قولينِ، وهمَا روايتانِ عن أحمدَ.

وأمَّا اسمُ الإسلامِ، فلا ينتفِي بانتفاءِ بعضِ واجباتِه، أو انتهاكِ بعضِ محرَّماتِه، وإنما يُنفَى بالإتيانِ بما يُنافيهِ بالكُلِّيَّةِ، ولا يُعرَفُ في شيءٍ من السُّنَّةِ الصَّحيحةِ نفيُ الإسلامِ عمَّن تركَ شيئًا من واجباتِه، كما يُنفَى الإيمانُ عمَّن تركَ شيئًا من واجباتِه، وإنْ كانَ قد وردَ إطلاقُ الكُفرِ على فعلِ بعضِ المحرَّماتِ، وإطلاقُ النِّفاقِ أيضًا.

واختلفَ العلماءُ: هل يُسمَّى مرتكبُ الكبائرِ كافرًا كفرًا أصغر أو منافقًا النِّفاق الأصغرَ، ولا أعلمُ أنَّ أحدًا منهم أجازَ إطلاقَ نفيِ اسمِ الإسلامِ عنهُ، إلا أنه رُوي عن ابنِ مسعودٍ أنَّه قالَ: ما تاركُ الزَّكاةِ بمسلمٍ[1]. ويُحتملُ أنَّه كان يراه كافرًا بذلكَ، خارجًا عنِ الإسلامِ.

وكذلكَ رُوي عن عمرَ فيمن تمكَّن مِنَ الحجِّ، ولم يحجَّ أنهم ليسُوا بمسلمينَ، والظَّاهرُ أنَّه كانَ يعتقدُ كفرَهم، ولهذا أرادَ أن يضربَ عليهمُ الجزيةَ، يقولُ: لم يدخلُوا في الإسلامِ بعدُ، فهُم مستمرُّونَ على كتابيتِهم[2].

وإذا تبيَّن أنَّ اسمَ الإسلامِ لا ينتفي إلا بوجودِ ما ينافيهِ، ويُخرجُ عن الملَّةِ بالكلِّيَّةِ، فاسمُ الإسلامِ إذا أُطلِقَ أو اقترنَ به المدحُ، دخلَ فيهِ الإيمانُ كلُّه منَ التَّصديقِ وغيرِه.

وخرَّج النَّسائيُّ[3] مِن حديثِ عقبةَ بنِ مالكٍ أنَّ النَّبيَّ ﷺ بعثَ سريَّةً،

---

(١) أخرجه: ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣/ ١١٤).

(٢) ذكره ابن كثير في «مسند الفاروق» (١/ ٢٩٢ ـ ٢٩٣).

(٣) أخرجه: النسائي في «الكبرى» (١٣٠٠١ ـ تحفة الأشراف) وأحمد في «المسند» (٤/ ١١٠)، (٥/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩).

فغـارت على قومٍ، فـقالَ رجلٌ منهم: إنِّي مُـسلمٌ، فقتلُه رجـلٌ منَ السَّريَّة، فنُمي الحديثُ إلى رسولِ اللَّه ﷺ، فقالَ فيه قولاً شديدًا، فقالَ الرجلُ: إنَّما قالها تعوُّذًا مِنَ القـتلِ، فقالَ النبيُّ ﷺ: «**إنَّ اللَّه أَبَى عليَّ أن أقـتلَ مـؤمنًا**» ثلاثَ مرَّاتٍ.

فلولا أنَّ الإسلامَ المطلقَ يدخُلُ فيه الإيمانُ والتَّصديقُ بالأصولِ الخمسةِ، لم يصِر من قالَ: «أنا مسلمٌ» مؤمنًا بمجـرَّدِ هذا القولِ، وقد أخبرَ اللَّهُ تعالى عن ملكةِ سبإٍ أنَّها دخلتْ في الإسلامِ بهذهِ الكلمةِ وقالت: ﴿**رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [النمل:٤٤]، وأخبرَ عن يوسفَ عليه السَّلامُ أنه دعَا بـالموتِ على الإسلامِ. وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ الإسـلامَ المطلقَ يدخُلُ فيهِ ما يدخلُ في الإيمان مِنَ التَّصديق.

وفي «سننِ ابنِ ماجه»[١] عن عديٍّ بنِ حـاتمٍ؛ قالَ: قـالَ لي رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**يا عديُّ، أسلمْ تسلمْ**»، قلتُ: وما الإسلامُ؟ قال: «**تشهدُ أنْ لا إله إلا اللَّه، وتشهدُ أنِّي رسولُ اللَّه، وتؤمنُ بالأقدارِ كلِّها، خيرِها وشرِّها حلوِها ومرِّها**».

فهذا نصٌّ في أنَّ الإيمانَ بالقدرِ مِنَ الإسلامِ[٢].

* * *

(١) أخرجه: ابن ماجه (٨٧).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٨٢ ـ ٨٦).

سُورَةُ ق

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾

وقد قال كثير من السلف في قول اللَّه عز وجل: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٧]: إن الذي عن اليمينِ كاتبُ الحسناتِ، والذي عن الشمالِ كاتبُ السيئاتِ، منهم: الحسنُ، والأحنفُ بنُ قيسٍ، ومجاهدٌ، وابنُ جريجٍ، والإمامُ أحمدُ.

وزادَ ابنُ جريجٍ، قالَ: إن قعدَ فأحدُهُما عن يمنيِه، والآخرُ عن شمالِه، وإن مَشَى فأحدُهُما أمامَهُ والآخرُ خلفَهُ، وإن رقدَ فأحدُهُما عندَ رأسِه والآخرُ عند رجليهِ.

وعلى هذا، فقد يخلو اليمينُ عن الملكِ إذا مَشى أو رقدَ.

وحديثُ أبي أمامةَ فيه أن الذي على الشمالِ هو القرينُ.

يريد به: الشيطانَ الموكلُّ بالعبدِ، كما في «صحيحِ مسلمٍ»(١) عن ابن مسعودٍ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**ما منكُم من أحدٍ إلا وقد وُكِّل به قرينُهُ من الجنِّ وقرينُه من الملائكة**». قالوا: وإياك يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: «**وإياي، ولكنَّ اللَّه أعانني عليه، فلا يأمُرُني إلا بخيرٍ**».

---

(١) (٨/ ١٣٩).

وقد وردَ في حديثٍ خـرجهُ الطبرانيُّ(١) من حديثِ أبي مـالكٍ الأشعريِّ - مرفوعًا -: «إنَّ القرينَ هو كاتبُ السيئاتِ».

وإسنادُه شاميٌّ ضعيفٌ(٢).

* * *

قالَ اللَّهُ عز وجلَّ: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٧-١٨].

وقد أجمعَ السَّلفُ الصَّالحُ على أنَّ الذي عن يمينه يكتُبُ الحسناتِ، والذي عن شمـاله يكتبُ السيئـاتِ، وقد رُويَ ذلكَ مرفـوعًا من حديثِ أبي أمـامةَ بإسنادٍ ضعيفٍ(٣).

وفي «الصحيحِ» عن النبيِّ ﷺ: «إذا كانَ أحدُكُـم يُصلِّي، فإنه يُناجي ربَّه والملكُ عن يمينه»(٤).

ورُويَ من حديثِ حُذيفةَ مرفوعًا: «إنَّ عن يمينِه كاتبُ الحسناتِ»(٥).

واختلفُـوا: هل يكتبُ كلَّ ما تـكلَّم به، أو لا يكتبُ إلا ما فـيه ثوابٌ أو عِقابٌ؟ على قولينِ مشهورينِ.

وقال عليُّ بنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ: يُكتبُ كلُّ ما تكلمَ به من خيرٍ أو

(١) في «الكبير» (٣/ ٢٩٦)، وفي «مسند الشاميين» (١٦٧٣)، ولفظه: «إذا نام ابن آدم، قـال الملك للشيطان: أعطني صحيفتك فـيعطيه إياها، فما وجد في صحيفته من حسنة محـا بها عشر سيئات من صحيفة الشيطان» - الحديث.

(٢) «فتح الباري» (٢/ ٣٤٠ - ٣٤١).

(٣) أخـرجه: الطبـراني في «الكبـير» (٨/ ١٨٥، ١٩١، ٢٤٧)، وفي «مـسند الشامـيين» (٤٦٨)، (٥٢٦)، والبيهقي في «الشعب» (٧٠٤٩)، (٧٠٥٠)، (٧٠٥١).

(٤) أخرجه: البخاري (١/ ١١٣).

(٥) أخرجه: ابن أبي شيبة في «المصنف» (٢/ ٣٦٤).

شرٍّ حتى إنه ليكتبُ قولَهُ: أكلتُ وشربتُ، وذهبتُ وجئتُ، حتى إذا كانَ يومُ الخميسِ عُرِضَ قولُه وعملُه، فأقرَّ منه ما كانَ فيه من خيرٍ أو شرٍّ، وألقىَ سائرَهُ، فذلكَ قولُه تعالى: ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾[1] [الرعد: ٣٩].

وعن يحيى بنِ أبي كثيرٍ، قالَ: ركبَ رجلٌ الحمارَ، فعثرَ بهِ، فقال: تعسَ الحمارُ، فقالَ صاحبُ اليمينِ: ما هيَ حسنةٌ أكتبُها، وقال صاحبُ الشمالِ: ما هي سيئةٌ فأكتبها، فأوحَى اللَّه إلى صاحبِ الشمالِ: ما تركَ صاحبُ اليمينِ من شيء، فاكتبهُ، فأثبتَ في السيئاتِ «تَعِسَ الحمارُ»[2].

وظاهرُ هذا أنَّ ما ليسَ بحسنةٍ، فهو سيئةٌ، وإن كانَ لا يُعاقبُ عليها، فإنَّ بعضَ السيئاتِ قد لا يُعاقبُ عليهَا، وقد تقعُ مكفَّرةً باجتنابِ الكبائرِ، ولكنَّ زمانَهـا قد خسرهُ صاحبُها حيثُ ذهبتْ باطلاً فيحصلُ له بذلكَ حسرةٌ في القيامةِ وأسفٌ عليه وهو نوعُ عقوبةٍ[3].

* * *

وروى عليُّ بنُ أبي طلحةَ، عن ابنِ عباسٍ في قولِه عز وجل: ﴿**مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾ [ق:١٨]، قال: يُكتبُ كلُّ ما تكلَّم به من خيرٍ وشرٍّ، حتَّى إنَّه ليُكتبُ قولُه: أكلتُ، وشربتُ، وذهبتُ، وجئتُ، ورأيتُ، حتَّى إذا كانَ يومُ الخميسِ عُرِضَ قولُه وعملُه فأُقرُّ منه ما كانَ فيهِ من خيرٍ أو شرّ.

(١) ذكره ابن كثير في «التفسير» (٧/ ٣٧٧).
(٢) أخرجه: ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٥٧٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٧٦).
(٣) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٤١ ـ ٣٤٢).

وأُلقيَ سائرُه، فذلكَ قولُه تعالى: ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾ [الرعد:٣٩]. خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ وغيرُه. فهذا يدُلُّ على اختصاصِ يومِ الخميسِ بعرضِ الأعمالِ لا يوجدُ في غيرِه.

وكانَ إبراهيمُ النَّخعِيُّ يبكي إلى امرأتِه يومَ الخميسِ وتبكي إليه، ويقولُ: اليومَ تُعرضُ أعمالُنا على اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

فهذا عرضٌ خاصٌّ في هذينِ اليومينِ غيرُ العرضِ العامِّ كلَّ يومٍ، فإنَّ ذلكَ عرضٌ دائمٌ كلَّ يومٍ بكرةً وعشيًّا. ويدلُّ على ذلك ما في «الصحيحين»(١) عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**يتعاقبُونَ فيكُم ملائكةٌ باللَّيلِ، وملائكةٌ بالنَّهارِ، فيجتمعونَ في صلاةِ الصُّبحِ، وصلاةِ العصرِ، فيسألُ الذينَ بأتوا فيكُم، وهو أعلمُ: كيفَ تركتُم عِبادي؟ فيقولونَ: أتيناهُم وهم يُصلُّون، وتركنَاهُم وهم يُصلُّون**».

وفي «صحيحِ مسلمٍ»(٢) عن أبي موسى الأشعريِّ، قال: قامَ فينا رسولُ اللَّهِ ﷺ بخمسِ كلماتٍ، فقالَ: «**إنَّ اللَّه لا ينامُ، ولا ينبغي له أن ينامَ، يخفضُ القسطَ ويرفعه، يُرفعُ إليه عملُ الليلِ قبلَ النَّهارِ وعملُ النَّهار قبلَ اللَّيلِ، حجابُه النُّورُ، لو كشفه لأحرقتْ سُبحاتُ وجهِه ما انتهَى إليه بصرُه من خلقِه**».

ويُروى عن ابنِ مسعودٍ، قالَ: إنَّ مقدارَ كُلِّ يومٍ من أيامكم عند ربِّكم ثنتا عشرةَ ساعةً، فتُعرضُ عليه أعمالُكُم بالأمسِ أوَّلَ النَّهارِ اليومَ، فينظرُ فيها ثلاثَ ساعاتٍ، وذكر باقيهُ.

كان الضحَّاكُ يبكِي آخرَ النَّهارِ، ويقولُ: لا أدري ما رُفعَ من عملِي.

يا مَن عملُه معروضٌ على مَن يعلمُ السِّرَّ وأخفى، لا تُبهرجْ فإنَّ

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ١٤٥ ـ ١٤٦)، ومسلم (٢/ ١١٣).

(٢) مسلم (١/ ١١١).

النَّاقدَ بصيرٌ.

السُّـقـمُ على الجِـسـمِ لهُ تردادُ والعُـمـرُ مـضَى وزلَّـتي تزدادُ
مـا أبعـدَ شُـقَّـتِـي ومـا لي زَادُ مـا أكـثـرَ بهـرجي ولي نقَّـادُ[1]

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

فقوله ﷺ فيما يرويهِ عن ربِّه: «**يا عبادي إنِّي حرمتُ الظُّلمَ على نفسي**»، يعني: أنَّه منعَ نفسَهُ من الظلمِ لعبادِه، كمَا قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿**وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ [ق:٢٩]، وقالَ: ﴿**وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ**﴾ [غافر:٣١]، وقال: ﴿**وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران:١٠٨]، وقال: ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ [فصلت:٤٦]، وقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا**﴾ [يونس:٤٤]، وقال: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ**﴾ [النساء:٤٠]، وقال: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا**﴾ [طه:١١٢]، والهضمُ: أن يُنقَصَ من جزاءِ حسناتِه، والظُّلمُ: أن يُعاقب بذنوبِ غيرِه، ومثلُ هذا كثيرٌ في القرآنِ.

وهو مما يدلُّ على أنَّ اللَّهَ قادرٌ على الظلمِ، ولكنَّهُ لا يفعلُه فضلاً منه وجُودًا، وكرمًا وإحسانًا إلى عبادِه.

وقد فسرَ كثيرٌ من العلماءِ الظلمَ: بأنه وضعُ الأشياءِ في غيرِ موضِعِهَا. وأمَّا من فسَّره بالتَّصرُّفِ في ملك الغيرِ بغيرِ إذنِه ـ وقد نقلَ نحوه عن إياسِ ابنِ معاويةَ وغيرِه ـ فإنهم يقولون: إنَّ الظُّلْمَ مستحيلٌ عليه، وغيرُ متصوَّرٍ في حقِّه، لأن كلَّ ما يفعلُه فهو تصرُّفٌ في ملكه، وبنحو ذلكَ أجابَ أبو الأسودِ

(١) «لطائف المعارف» (٢٤٤ ـ ٢٤٥).

الدؤليُّ لعمران بنِ حصينٍ حين سألهُ عن القدرِ[(١)] .

وخرَّج أبو داودَ، وابنُ ماجه من حديثِ أبي سنان سعيدِ بنِ سنانٍ، عن وهبِ بنِ خالدٍ الحمصيِّ، عن ابنِ الدَّيلميِّ أنَّه سمعَ أُبيَّ بنَ كعبٍ يقولُ: لو أنَّ اللَّهَ عذَّب أهلَ سماواتِهِ وأهلَ أرضِه؛ لعذَّبهُم وهو غيرُ ظالمٍ لهُم، ولو رحمهُم، لكانتْ رحمتُه خيرًا لهم من أعمالِهِم. وأنه أتى ابنَ مسعودٍ، فقالَ لهُ مثلَ ذلكَ، ثم أتى زيدَ بن ثابت، فحدَّثه عن النبيِّ ﷺ بمثلِ ذلك[(٢)] .

وفي هذا الحديثِ نظرٌ، ووهبُ بنُ خالدٍ ليسَ بذاكَ المشهورِ بالعلمِ، وقد يُحملُ على أنَّه لو أرادَ تعذيبَهُم لقدَّرَ لهم ما يعذِّبُهم عليهِ، فيكونُ غيرَ ظالمٍ لهُم حينئذٍ.

وكونه خلقَ أفعالَ العبادِ وفيها الظلمُ لا يقتضِي وصفَه بالظُّلمِ سبحانه وتعالى، كما أنَّه لا يُوصَفُ بسائرِ القبائحِ التي يفعلُها العبادُ، وهي خلقُه وتقريرُه، فإنَّه لا يُوصفُ إلا بأفعاله لا يُوصفُ بأفعالِ عبادِه، فإنَّ أفعالَ عبادِهِ مخلوقاتُه ومفعولاتُه، وهو لا يُوصفُ بشيءٍ منها، إنَّما يوصَفُ بما قامَ بهِ من صفاتِهِ وأفعالِهِ، واللَّهُ أعلمُ[(٣)] .

* * *

قوله تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾

قوله: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ [التوبة:١١٢]، وقال تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ

(١) كما في «صحيح مسلم» (٨/٤٨ ـ ٤٩).
(٢) أخرجه: أبو داود (٤٦٩٩)، وابن ماجه (٧٧).
(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/٧ ـ ٩).

لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق:٣٢، ٣٣] وُفسِّرَ «الحفيظُ» ههُنا بالحافظ لأوامرِ اللَّهِ، وفُسِّرَ بالحافظِ لذنوبهِ حتَّى يرجعَ عنهَا، وكلاهُما يدخلُ في الآية.

ومن حفظَ وصيَّة اللَّهِ لعبادِهِ وامتثَلهَا فهوَ داخلٌ أيضًا، والكلُّ يرجعُ إلى معنى واحدٍ.

وقد وردَ في بعضِ ألفاظِ حديثِ يومِ المزيدِ في الجنةِ، «أن اللَّهَ تعالَى يقولُ لأهلِ الجنةِ، إذا استدعاهُم إلى زيارتهِ وكشفَ لهم الحجَب: «**مرحبًا بعبادي الذين حفظُوا وصيَّتي، ورعَوا عهدِي، وخافوني بالغيبِ، وكانُوا منِّي على كلِّ حالٍ مشفقينَ**».

فأمرُه ﷺ لابنِ عباسٍ أن يحفظَ اللَّهَ، يدخلُ فيهِ هذا كلُّه.

ومن أعظمِ ما يجبُ حفظُه من المأموراتِ الصلواتُ الخمسُ. قالَ اللَّه تعالى: ﴿**حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ**﴾ [البقرة:٢٣٨]، وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ يُحَافِظُونَ**﴾ [المعارج:٣٤].

وقال النبيُّ ﷺ: «**من حافظَ عليها كانَ له عندَ اللَّهِ عهدًا أن يدخلَهُ الجنةَ**»[1]. الحديث.

وفي حديثٍ آخرَ: «**من حافظَ عليهنَّ كنَّ له نورًا وبرهانًا ونجاةً يومَ القيامة**»[2]. الحديث.

---

(١) أخرجه: مالك «الموطأ» (٩٦)، وأحمد في «المسند» (٥/ ٣١٥، ٣١٩)، وأبو داود (١٤٢٠)، وابن ماجه (١٤٠١) عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ١٦٩)، والدارمي (٢٧٢٤) عن عبد اللَّه بن عمرو.

وكذلكَ الطهارةُ، فإنها مفتاحُ الصلاةِ، وقالَ النبيُّ ﷺ: **«لا يحافظُ على الوضوءِ إلا مؤمنٌ»**(١).

ومما أمرَ اللَّهُ بحفظه الأيمانُ، لما ذكرَ كفارةَ اليمينِ قالَ: ﴿**ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ**﴾ [المائدة:٨٩] فإن الأيمانَ كثيرًا ما تقعُ من الناسِ وموجباتها مختلفةٌ. فتارة يجبُ فيها كفارةُ يمينٍ، وتارةً يجبُ بها كفارةٌ مغلظةٌ، وتارةً يلزمُ بها المحلوفُ عليهِ من طلاقٍ ونحوِه. فمن حفظَ أيمانَهُ دلَّ على دخولِ الإيمانِ في قلبِه.

وكانَ السلفُ كثيرًا يحافظونَ على الأيمانِ. فمنهم من كانَ لا يحلفُ باللَّهِ البتة، ومنهم من كانَ يتورعُ حتى يكفرَ فيما شكَّ فيه من الحنثِ. ووصى الإمامُ أحمدُ رحمه اللَّه عند موتِهِ أن يخرجَ عنه كفارةُ يمينٍ. وقال: أظنُّ أنِّي حنثتُ في يمينٍ حلفتُها.

وقد رُوِيَ عن أيوبَ عليه السلامُ أنه كان إذا مرَّ باثنينِ يحلفانِ باللَّهِ ذهب فكفرَ عنهُما، لئلا يأثمانِ وهما لا يشعرانِ.

ولهذا لما حلفَ على ضربِ امرأتِهِ مائةَ جلدةٍ، أفتاهُ اللَّهُ بالرخصةِ لحفظهِ لأيمانِهِ وأيمانِ غيرِه.

وقد اختلفَ العلماءُ: هل تتعدَّى الرخصةُ إلى غيرِه أم لا؟

وقال يزيدُ بنُ أبي حبيبٍ: بلغَني أنَّ من حملةِ العرشِ من يسيلُ من عينيهِ أمثالُ الأنهارِ من البكاءِ، فإذا رفعَ رأسَهُ قالَ: سبحانكَ ما تُخشى حقَّ خشيتكَ، فيقولُ اللَّهُ تعالى: لكنَّ الذينَ يحلفونَ باسمي كاذبينَ لا

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/٢٧٦، ٢٨٢)، وابن ماجه (٢٧٧) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

يعلمونَ ذلكَ.

وقد وردَ التشديدُ العظيمُ في الحلفِ الكاذبِ باللَّهِ، ولا تصدرُ كثرةُ الحلفِ باللَّهِ إلامن الجهلِ باللَّهِ تعالَى، وقلةِ هيبتهِ في الصدورِ.

ومما يلزمُ المؤمن حفظَهُ رأسهُ وبطنَهُ، كما في حديثِ ابنِ مسعودٍ ﷺ المرفوع: **«الاستحياءُ من اللَّهِ حقَّ الحياءِ أن يحفظَ الرأسَ وما وعَى، ويحفظَ البطنَ وما حوَى»**[1]. خرجهُ الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ.

وحفظُ البطنِ وما حَوى: يتضمنُ حفظَ القلبِ عن الإصرارِ على محرمٍ. وقد جمعَ اللَّهُ ذلكَ كلَّه في قولِه تعالى: ﴿**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً**﴾ [الإسراء:٣٦].

ويدخلُ في حفظِ البطنِ وما حَوى: حفظُه من إدخالِ الحرامِ إليهِ من المأكولاتِ والمشروباتِ.

ومما يجبُ حفظُه من المنهياتِ: حفظُ اللسانِ والفرجِ. وفي حديثِ أبي هريرةَ ﷺ: **«من حفظ ما بين لحييهِ وما بينَ رجليهِ دخلَ الجنةَ»**. خرجه الحاكم[2].

وخرجه البخاريُّ من حديثِ سهلِ بنِ سعدٍ ﷺ عن النبيِّ ﷺ ولفظه: **«من يضمنُ لي ما بينَ لحييهِ ورجليهِ، أضمنُ له الجنةَ»**.

وفي «مسند الإمام أحمد»[3] عن أبي موسى عن النبيِّ ﷺ قالَ: **«من حفظَ ما بين فقميه وفرجيهِ دخلَ الجنةَ»**.

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (١/ ٣٨٧)، والترمذي (٢٤٥٨).

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٣٦٢)، والترمذي (٢٤٠٩)، والحاكم (٤/ ٣٥٧).

(٣) «المسند» (٤/ ٣٩٨).

وقد أمرَ اللَّهُ بحفظِ الفرجِ خاصةً ومدحَ الحافظين له قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ الآية [النور:٣٠]. وقال تعالى: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون:٥، ٦].

وقد روى عن أبي إدريس الخولاني أن أول ما وصَّى اللَّهُ آدمَ عندَ إهباطِهِ إلى الأرضِ بحفظِ فرجِهِ، وأن لا يضعَهُ إلا في حلالٍ[١].

* * *

وقوله ﷺ: «يحفظكَ» يعني: أنَّ من حفظَ حدودَ اللَّه، وراعَى حقوقَه، حفظَهُ اللَّهُ، فإنَّ الجزاءَ من جنسِ العملِ، كمَا قالَ تعالى: ﴿أَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة:٤٠]، وقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢]، وقال: ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ [محمد:٧].

وحفظُ اللَّهِ لعبدِهِ يدخلُ فيه نوعانِ:

أحدُهما: حفظُه له في مصالحِ دنياهُ، كحفظِهِ في بدنِهِ وولدِهِ وأهلِهِ ومالِهِ، قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد:١١]. قال ابنُ عباسٍ: هم الملائكةُ يحفظونَهُ بأمرِ اللَّهِ فإذَا جاءَ القدرُ خلَّوا عنهُ.

وقال عليٌّ رضي الله عنه: إنَّ مع كلِّ رجلٍ ملكينِ يحفظانِهِ مما لم يقدَّر فإذا جاءَ القدرُ خلَّيا بينهُ وبينهُ، وإنَّ الأجل جُنَّةٌ حصينةٌ.

(١) «الاقتباس» (ص ٢٤ ـ ٢٧).

وقال مجاهدٌ: ما مِن عبدٍ إلا له ملكٌ يحفظُه في نومِه ويقظتِه من الجنِّ والإنسِ والهوامِّ، فما من شيءٍ يأتيه إلا قالَ: وراءَك، إلا شيئًا أذنَ اللَّهُ فيه فيصيبُهُ.

وخرَّج الإمامُ أحمدُ، وأبو داودَ، والنسائيُّ[1] من حديثِ ابنِ عمرَ، قالَ: لم يكنْ رسولُ اللَّهِ ﷺ يدعُ هؤلاءِ الدَّعواتِ حين يُمسي وحين يُصبحُ: «**اللهمّ إني أسأَلُكَ العافيةَ في الدنيا والآخرةِ، اللهمَّ إني أسألك العفوَ والعافيةَ في ديني ودنيايَ وأهلِي ومالِي، اللهمَّ استُرْ عورتي، وآمن روعاتي، واحفظْني من بين يديَّ ومن خلفِي، وعن يميني وعن شمالِي ومن فوقِي، وأعوذُ بعظمتكَ أن أُغتَالَ من تحتِي**».

ومَن حفظَ اللَّهَ في صباهُ وقوّتِه، حفظَهُ اللَّهُ في حالِ كبرِه وضعفِ قوّته، ومتَّعهُ بسمعِهِ وبصرِهِ وحولِهِ وقوَّته وعقلِهِ.

كان بعضُ العلماءِ قد جاوزَ المئةَ سنةٍ وهو ممتَّعٌ بقوَّته وعقلِهِ، فوثب يومًا وثبةً شديدةً، فعُوتبَ في ذلكَ، فقالَ: هذه جوارحُ حفظناهَا عن المعاصِي في الصِّغر، فحفظَهَا اللَّهُ علينا في الكبرِ.

وعكسُ هذا: أنَّ بعضَ السلف رأى شيخًا يسألُ الناسَ، فقالَ: إنَّ هذا ضيَّع اللَّهَ في صغرِه، فضيَّعهُ اللَّهُ في كبرِهِ.

وقد يحفظُ اللَّهُ العبدَ بصلاحِهِ بعدَ موتِهِ في ذريَّته، كَما قِيل في قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا**﴾ [الكهف:٨٢]: إنَّهما حُفظا بصلاحِ أبيهما.

قال سعيدُ بن المسيب لابنِهِ: لأزيدنَّ في صلاتِي من أجلكَ، رجاءَ أن

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٥٢)، وأبو داود (٥٠٧٤)، والنسائي (٨/ ٢٨٢).

أُحفظَ فيكَ، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾، وقالَ عُمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: ما منْ مؤمنٍ يموتُ إلا حفظَهُ اللَّهُ في عقبِهِ وعقبِ عقبِهِ.

وقال ابنُ المنكدرِ: إنَّ اللَّهَ ليحفظُ بالرجلِ الصالحِ ولدَهُ وولدَ ولدِهِ والدويراتِ التي حولَهُ، فما يزالونَ في حفظٍ من اللَّهِ وسترٍ.

ومتى كانَ العبدُ مشتغلاً بطاعةِ اللَّهِ، فإنَّ اللَّهَ يحفظُهُ في تلكَ الحالِ، وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ» عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**كانت امرأةٌ في بيتٍ، فخرجتْ في سريَّةٍ من المسلمينَ، وتركتْ ثنتي عشرة عنزًا وصيصيتها كانتْ تنسجُ بهَا، قالَ: ففقدتْ عنزًا لها وصيصيتها، فقالتْ: يا ربِّ، إنَّكَ قد ضَمنتَ لمنْ خرجَ في سبيلكَ أن تحفظَ عليه، وإنِّي قد فَقدتُ عنزًا من غنمي وصيصيتي، وإنِّي أنشُدُكَ عنزي وصيصيتي**». قالَ: وجعلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يذكر شدَّة مناشدتِهَا ربَّها تباركَ وتعالَى، قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**فأصبحتْ عنزُها ومثلُها، وصيصيتُها ومثلُها**»(١).

والصيصيةُ: هي الصِّنارةُ التي يُغزلُ بها ويُنسجُ.

فمن حفظَ اللَّهَ حفظهُ اللَّهُ من كلِّ أذى. قال بعضُ السلفِ: من اتقى اللَّهَ، فقد حفظَ نفسَهُ، ومن ضيَّع تقواهُ، فقد ضيَّع نفسَهُ، واللَّهُ الغنيُّ عنهُ.

ومن عجيبِ حفظِ اللَّه لمن حفظَهُ أن يجعلَ الحيواناتِ المؤذيةِ بالطبعِ حافظةً له من الأذَى، كما جرى لسفينةَ مولَى النبيِّ ﷺ حيث كُسرَ به المركبُ، وخرج إلى جزيرة، فرأى الأسدَ، فجعلَ يمشِي معهُ حتَّى دلَّه على الطريقِ، فلمَّا أوقفَهُ عليها، جعلَ يُهمهِمُ كأنَّه يُودِّعُهُ، ثم رجعَ عنه(٢).

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٦٧).

(٢) أخرجه: الحاكم (٣/ ٦٠٦)، والطبراني في «الكبير» (٧/ ٨٠ ـ ٨١).

ورُوي أنَّ إبراهيمَ بنَ أدهم كانَ نائمًا في بستانٍ وعنده حـيَّةٌ في فمها طاقةُ نرجسٍ، فما زالت تذبُّ عنه حتَّى استيقظ.

وعكسُ هذا، أن من ضيعَ اللَّه، ضيَّعهُ الـلَّهُ، فضاع بين خلقِهِ حتى يدخلَ عليه الضـررُ والأذى ممنَ كانَ يرجُو نفعَـهُ من أهلِهِ وغيرِهم، كمـا قالَ بعضُ السلفِ: إني لأعصِي اللَّهَ، فأعرِفُ ذلكَ في خُلُقِ خادمِي ودابَّتي.

النوعُ الثـانِي من الحـفظِ: وهو أشـرفُ النوعينِ: حـفظُ اللَّهِ للعـبـدِ في دينهِ وإيمانه، فيـحفظُه في حيـاتهِ من الشبهـاتِ المُضِلَّةِ، ومن الشهواتِ المحـرَّمةِ، ويحفظُ عليه دينه عند موتِهِ، فيتوفَّاه على الإيمانِ.

قال بعضُ السلفِ: إذا حضرَ الرجلُ الموتَ يقالُ للملكِ: شمَّ رأسَهُ، قالَ: أجدُ في رأسِهِ القرآنَ، قالَ: شمَّ قلبه، قال: أجد في قلبِهِ الصيامَ، قال: شمّ قدميهِ، قالَ: أجد في قدميه القيامَ، قالَ: حفظَ نفسَه، فحفظهُ اللَّهُ.

وفي «الصحيحينِ»(١) عن البراءِ بن عـازبٍ عن النبيِّ ﷺ أنه أمرَهُ أن يقولَ عندَ منامِهِ: «**إن قبضتَ نفسي، فارحمْهَا، وإنْ أرسلتَـها، فاحفظْهَا بما تحـفظُ به عبادَك الصالحينَ**».

وفي حديثِ عـمرَ أنَّ النبيَّ ﷺ علَّمَـهُ أن يقولَ: «**اللَّهمَّ احفـظنِي بالإسلامِ قـائمًا، واحـفظنِي بالإسـلامِ قاعـدًا، واحفظـنِي بالإسلامِ راقِـدًا، ولا تُطعْ فيَّ عدوًّا ولا حاسِدًا**». خرّجه ابنُ حبانَ في «صحيحه»(٢).

وكان النبيُّ ﷺ يودِّع من أرادَ سفرًا، فـيقولُ: «**أستـودعُ اللَّه دينكَ وأمانتَكَ**

---

(١) أخرجـه: البخاري (٨/ ٧٨)، ومـسلم (٨/ ٧٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ولـيس من حديث البراء، أما حديث البراء، فهو بلفظ آخر، أخرجه: البخاري (١/ ٧١)، ومسلم (/ ٧٧٨).

(٢) أخرجه: ابن حبان (٩٣٤).

وخواتيمَ عملك»[١] ، وكان يقولُ: «**إن اللَّهَ إذَا استُودِعَ شيئًا حفظهُ**». خرّجهُ النسائيُّ وغيرُهُ[٢] .

وفي الجملةِ، فإنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يحفظُ على المؤمنِ الحافظِ لحدودِ دينه، ويحُولُ بينه وبين ما يُفسدُ عليه دينَه بأنواعٍ منَ الحفظ، وقد لا يشعرُ العبدُ ببعضِها، وقد يكونُ كارهًا له، كما قالَ في حقِّ يوسُفَ عليه السلام: ﴿ **كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ** ﴾ [يوسف: ٢٤].

قال ابنُ عباسٍ في قوله تعالَى: ﴿ **أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ** ﴾ [الأنفال: ٢٤]، قال: يحولُ بين المؤمنِ وبين المعصيةِ التي تجرهُ إلى النارِ.

وقال الحسنُ - وذكرَ أهلَ المعاصِي -: هانُوا عليهِ، فعَصوْه، ولو عزُّوا عليه لعصمَهُم.

وقال ابنُ مسعودٍ: إنَّ العبدَ ليهمُّ بالأمرِ من التجارةِ والإمارةِ حتى يُيسر لهُ، فينظرُ اللَّهُ إليه فيقولُ للملائكةِ: اصرفوه عنهُ، فإنهُ إن يسرتُهُ له أدخلتُه النارَ، فيصرفه اللَّهُ عنهُ، فيظلُّ يتطيَّرُ يقولُ: سبقنِي فلانٌ دهانِي فلانٌ، وما هو إلا فضلُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

وخرَّج الطبرانيُّ من حديثِ أنسٍ عن النبيِّ ﷺ: «**يقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: إن من عبادِي من لا يُصلحُ إيمانَهُ إلا الفقرُ، وإن بسطتُ عليه أفسدَهُ ذلكَ، وإن من عبادِي من لا يصلحُ إيمانَه إلا الغِنى، ولو أفقرتُه، لأفسدَهُ ذلكَ، وإنّ من عبادِي من لا يصلحُ إيمانَهُ إلا الصِّحَّةُ، ولو أسقمتُهُ لأفسدَهُ ذلكَ، وإنَّ من عبادِي مَن لا يصلحُ إيمانُه إلا السقمُ، ولو**

---

(١) أخرجه: الترمذي (٣٤٤٢)، (٣٤٤٣)، وابن ماجه (٢٨٢٦)، وأحمد (٢/ ٧، ٢٥، ٣٨، ١٣٦، ٣٥٨)، والحاكم (٢/ ٩٧).

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٨٧)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٥٢٠).

أصححته لأفسده ذلك، وإنَّ من عبادي من يطلبُ بابًا من العبادة فأكُفُّه عنه، لكيلا يدخلهُ العُجبُ، إني أدبرُ عبادي بعلمي بما في قلوبهم، إنِّي عليمٌ خبير»(١) (٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾

قال الفضيلُ في قولِه تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ [ق:٣٣] قال: «هو الرجلُ يذكرُ ذنوبَهُ في الخلاءِ فيستغفرُ اللَّهَ منهَا»(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾

وقال الحكمُ: سُئِل أبو مجلز عن الرجلِ يضعُ إحْدَى رجليه على الأُخْرَى؟ فقالَ: لا بأسَ بِهِ، إنَّما هذا شيءٌ قالهُ اليهودُ: إنَّ اللَّهَ لَمَّا خَلقَ السماوات والأرضَ استراحَ، فجلسَ هذه الجلسةَ، فأنزلَ اللَّهُ عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ [ق:٣٨].

خرَّجه أبو جعفر ابنُ أبي شيبةَ في «تاريخه»(٤).

وقد ذكرَ غيرُ واحدٍ من التابعينَ: أنَّ هذه الآيةَ نزلت بسببِ قولِ اليهود: إنَّ اللَّهَ خلقَ السماواتِ والأرضَ في ستةِ أيامٍ ثم استراحَ في اليومِ السابعِ، منهُم: عِكرمةُ وقتادةُ.

---

(١) أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣١٨ ـ ٣١٩)، والبيهقي في «الأسماء والصفات» (ص١٢١)، والطبراني في «الأوسط» (٩٣٥٢) مختصراً.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٨٧ ـ ٤٩٤). (٣) «شرح حديث شداد بن أوس» (٦٨).

(٤) وكذا أبو بكر بن أبي شيبة في «المصنف» (٥/ ٢٢٨).

فهذا كلامُ أئمةِ السلفِ في إنكارِ ذلكَ ونسبتهِ إلى اليهودِ، وهذا يدلُّ على أنَّ الحديثَ المرفوعَ المرويُّ في ذلكَ لا أصلَ لرفعهِ، وإنما هو متلقى عن اليهودِ، ومَن قالَ: إنَّه على شرطِ الشيخينِ فقدْ أخطأَ.

وهو من روايةِ محمدِ بنِ فُليح بنِ سليمانَ، عن أبيه، عن سعيدِ بنِ الحارثِ، عن عُبيدِ بنِ حُنين: سمعَ قتادةَ بنَ النعمانِ يحدثُهُ، عن النبيِّ ﷺ ـ بمعنى قولِ أبي مُجلز. وفي آخرِه: وقالَ عزَّ وجلَّ: «**إنها لا تصلحُ لبشرٍ**».

وعُبيد بنُ حُنين، قيلَ: إنه لمْ يسمعْ من قتادةَ بنِ النعمانِ ـ: قالَهُ البيهقيُّ[(١)].

وفُليحٌ، وإن خرَّج له البخاريُّ فقد سبقَ كلامُ أئمةِ الحفاظِ في تضعيفِهِ، وكان يحيى بنُ سعيدٍ يقشعرُّ من أحاديثِهِ، وقال أبو زُرعةَ ـ فيما رواه عنه سعيد البرذعيُّ ـ: فُليحٌ واهي الحديثِ، وابنُهُ محمدٌ واهي الحديثِ.

ولو كان النبيُّ ﷺ يروي عن ربِّه أنه قالَ: «**إنها لا تصلحُ لبشرٍ**» لم يفعله رسول اللَّه ﷺ، ولو كان قد انتسخ فِعله الأول بهذا النهي لم يستمر على فعله خلفاؤه الراشدون الذين هم أعلمُ أصحابِهِ به، وأتبعهم لهديه وسنته.

وقد رُوي عن قتادَة بنِ النعمانِ من وجه آخر منقطعٍ، من روايةِ سالمٍ أبي النضر، عن قتادةَ بنِ النعمانِ ـ ولم يدركْهُ ـ، أنه روَى عن النبي ﷺ، أنه نهى عن ذلكَ. خرَّجه الإمامُ أحمدُ[(٢)].

وهذا محتملٌ، كما رواه عنه جابرٌ وغيرُه. فأما هذه الطَّامةُ، فلا تحتملُ أصلاً.

---

(١) «الأسماء والصفات» (ص ٣٥٦).
(٢) «المسند» (٣/ ٤٢).

وقد قيلَ: إن هذا مما اشتبهَ على بعضِ الرواةِ فيه ما قالَهُ بعضُ اليهود، فظنه مرفوعًا فرفَعَهُ، وقد وقَعَ مثلُ هذا لغيرِ واحدٍ من متقدمي الرواةِ، وأُنكرَ ذلك عليهِم، وأنكرَ الزبيرُ على من سَمِعَهُ يحدثُ عن النبيِّ ﷺ، وقالَ: إنَّما حكاه النبي ﷺ عن بعضِ أهلِ الكتابِ.

فروَى مسلمُ بنُ الحجاجِ في «كتابِ التفصيلِ» والبيهقيُّ في «المدخلِ»[1] من روايةِ ابنِ أبي الزِّناد، عن هشامِ بن عُروةَ، عن عبدِ اللَّهِ عُروةَ، عن عُروةَ، أن الزبيرَ سمع رجلاً يحدثُ حديثًا عن النبيِّ ﷺ، فاستمعَ الزبيرُ له، حتَّى إذا قَضَى الرجلُ حديثَه قال لهُ الزبيرُ: أنتَ سمعتَ هذا من رسولِ اللَّهِ ﷺ؟ قال الرجلُ: نعم. فقالَ الزبيرُ: هذا وأشباهه مما يمنعَنا أن نحدثَ عن رسولِ اللَّه ﷺ، قد - لعمري - سمعتُ هذا من رسولِ اللَّهِ ﷺ وأنا يومئذٍ حاضرٌ، ولكنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ ابتدأَ هذا الحديثَ، فحدثناهُ عن رجلٍ من أهلِ الكتابِ حدَّثه إياه، فجئتَ أنتَ بعد أن تقضَّى صدرُ الحديثِ وذكرُ الرجلِ الذي من أهلِ الكتابِ، فظننتَ أنه من حديث رسولِ اللَّه ﷺ.

وروى مسلمٌ - أيضًا - في «كتابِ التفصيلِ»[2] بإسنادٍ صحيحٍ، عن بُكيرِ ابنِ الأشَجِ، قالَ: قال لنا بُسر بنُ سعيدٍ: أيها الناسُ، اتقوا اللَّه، وتحفظُوا في الحديثِ، فواللَّهِ لقد رأيتُنَا نجالسُ أبا هريرةَ، فيحدثنا عن رسول اللَّه ﷺ، ويحدثُنا عن كعبٍ، ثم يقومُ، فأسمعُ بعضَ من كانَ معنا يجعلُ حديثَ رسول اللَّهِ ﷺ عن كعب، ويجعل حديثَ كعبٍ عن رسولِ اللَّهِ ﷺ.

---

(١) و«الأسماء والصفات» (ص ٣٥٧).

(٢) وكذا في «التمييز» (ص ١٧٥).

ولو ذكرنا الأحاديثَ المرفوعةَ التي أُعِلَّتْ بأنها موقوفة: إمَّا على عبدِ اللَّهِ ابن سلام، أو على كعبٍ، واشتبهتْ على بعضِ الرواةِ فرفَعَها، لطالَ الأمرُ [١].

* * *

(١) «فتح الباري» (٢/ ٥٧٥ ـ ٥٧٧).

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

قوله تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾

وقال سفيانُ الثوريُّ: قرأ واصلٌ الأحدبُ هذه الآية: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢]، فقالَ: ألا إنَّ رزقي في السماءِ وأنا أطلبُه في الأرضِ؟ فدخل خَربةً، فمكث ثلاثًا لا يُصيب شيئًا، فلمَّا كان اليومُ الرابعُ، إذ هو بدوخَلَّةٍ من رُطَبٍ، وكانَ له أخٌ أحسن نيةً منه، فدخلَ معه فصارتَا دوخَلَّتَينِ، فلم يزلْ ذلك دأبُهما حتَّى فرَّق الموتُ بينهما[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾

إن اللَّهَ تعالى خلقَ الخلقَ وأوجدَهُم لعبادَتِه الجامعةِ لخشيتِه ورجائه ومحبته كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنس إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] وإنَّما يُعبدُ اللَّهُ سبحانه بعد العلمِ به ومعرفتهِ، فبذلكَ خلقَ السمواتِ والأرضَ وما فيهما للاستدلالِ بهمَا على توحيده وعظمته كما قالَ تعالَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢].

وقد عُلِمَ أنَّ العبادةَ إنما تُبنى على ثلاثةِ أصولٍ: الخوفِ، والرجاءِ،

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٦١).

والمحبةِ. وكلٌّ منهما فرضٌ لازمٌ، والجمعُ بين الثلاثةِ حتمٌ واجبٌ، فلهذا كانَ السلفُ يذمونَ من تعبَّدَ بواحدٍ منها وأهملَ الآخرَين، فإنَّ بدعَ الخوارجِ ومن أشبههُم إنما حدثتْ من التشديدِ في الخوفِ والإعراضِ عن المحبةِ والرجاءِ، وبدعُ المرجئةِ نشأتْ من التعلقِ بالرجاءِ وحدَهُ والإعراض عن الخوفِ، وبدعُ كثيرٍ من أهلِ الإباحةِ والحلولِ ممن يُنسبُ إلى التعبدِ نشأتْ من إفرادِ المحبةِ والإعراضِ عن الخوفِ والرجاءِ.

وقد كثُرَ في المتأخرينَ المنتسبينَ إلى السلوكِ تجريدُ الكلامِ في المحبةِ وتوسيعُ القولِ فيها بما لا يُساوي على الحقيقةِ مثقالَ حبةٍ، إذ هو عارٍ عن الاستدلالِ بالكتابِ والسنةِ، وخالٍ من ذكرِ كلامِ مَنْ سلفَ من سلفِ الأمةِ وأعيانِ الأئمةِ، وإنَّما هو مجردُ دعاوى، قد تُشرِفُ بأصحابِهَا على مَهَاوِي، وربما استشهدُوا بأشعارِ عشاقِ الصورِ، وفي ذلكَ ما فيه من عظيمِ الخطرِ، وقد يحكونَ حكاياتِ العشاقِ، ويشيرونَ إلى التأدبِ بما سلكُوه من الآدابِ والأخلاقِ، وكلُّ هذا ضررُه عظيمٌ، وخطرُه جسيمٌ، وقد يُكثِر ذكرَ المحبةِ، ويعيدُها ويبديها مَنْ هو بعيدٌ عن التلبسِ بمقدماتِها ومباديها، وما أحسنَ قولَ ذي النونِ رحمه اللَّهُ تعالى وقد ذُكِرَ عنده الكلامُ في المحبةِ فقال: «اسكتُوا عن هذه المسألةِ لا تسمعُهَا النفوسُ فتدَّعيها»، فإنَّ النفوسَ ممتلئةٌ من الكبرِ والفخرِ والغرورِ، «**والمتشبعُ بما لم يُعطَ كلابسِ ثوبي زورٍ**»[1] ، وكثيرٌ ما تقترنُ دعوى المحبةِ بالشطحِ والإدلالِ وما ينافي العبوديةَ من الأقوالِ والأفعالِ[2] .

* * *

(١) البخاري (٧/ ٤٤ ـ ٤٥)، ومسلم (٦/ ١٦٩) من حديث أسماء ﵂.
(٢) «استنشاق نسيم الأنس» (ص ٢٥ ـ ٢٧).

سُورَةُ النَّجْمِ

قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾

وقدْ أفْتَى قاضي القضاة أبو بكرٍ محـمدُ بنُ المظفرِ الشاميُّ الشافعيُّ ـ وكانَ أحـدَ العُلماء الصَّـالحينَ الزُّهاد، الحاكـمينَ بالعـدلِ وكانَ يُقـالُ عنْهُ: لو رُفِعَ مذهبُ الشافعيِّ من الأرضِ لأمْلاهُ من صـدرِه ـ بتحريمِ الغناءِ، وهذه صورةُ فُتياهُ بحروفِهَا، قالَ: لا يجُوزُ الضربُ بالقضيبِ ولا الغناءُ ولا سماعُه، ومن أضافَ هذا إلى الشافعيِّ فقدْ كذبَ علـيهِ. وقد نصَّ الشافعيُّ في كتابِ «أدبِ القـضاءِ»: أنَّ الـرجلَ إذا داوَم على سمـاعِ الغناءِ، رُدّتْ شـهـادتُه، وبطلتْ عدالتُه. وقـالَ اللَّه تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ﴾ [النجم:٥٩ - ٦١] قالَ ابنُ عبـاسٍ: معناه تُغَنُّون بلغةِ حمير. وقال اللَّهُ عزَّ جلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [لقمان:٦] جاءَ في التفسير: أنه الغناءُ والاستماعُ إليه. ورُوي عن رسُولِ اللَّه ﷺ أنَّه قالَ: «**إنَّ اللَّهَ كَرِهَ صوتينِ أحـمقَينِ فاجرَينِ: صـوتٌ عند نعمةٍ، وصوتٌ عندَ مصيبةٍ**»(١). يُريد بذلكَ الغناءَ والنوحَ. وقـالَ ابنُ مسـعودٍ: الغناءُ خطبةُ الزِّنا. وقال مكحولٌ: الغناءُ ينبتُ النفـاقَ في القلبِ، كما ينبتُ السَّيلُ البقْلَ. واللَّه أعلم.

---

(١) أخرجه: الترمذي (١٠٠٥).

هذا جوابُ محمـدِ بنِ المظفرِ الشاميِّ الشافعيِّ. ثم كتبَ بعـدَهُ موافقةً له على فُتياه، جماعةٌ من أعيانِ فقـهاءِ بغدادَ: من الشافعيةِ والحنفيّةِ والحنبليَّةِ في ذلكَ الزَّمانِ، وهو عصرُ الأربعِ مـئةَ. وهذا يخالفُ قولَ كثيرٍ من الشـافعيَّةِ، في حمل كلامِ الشافعي على كراهةِ التنزيهِ.

والمعنى المقتضِي لتحريمِ الغناءِ: أنَّ النفـوسَ مجبولةٌ على حُبِّ الشهواتِ، كما قالَ تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ﴾ الآيةَ [آل عمران: ١٤] فجعلَ النساءَ أوّلَ الشهـواتِ المزينةِ. والغناءُ المشتملُ على وصفِ مـا جُبلت النفوسُ على حُبِّه، والشَّـغفِ به ـ من الصُّوَرِ الجميلةِ ـ يُثيرُ مـا كمنَ في النفوسِ من تلك المحبّةِ ويُشـوّقُ إليها، ويُحرِّكُ الطبعَ ويزعجُه، ويخـرجُه عن الاعتدالِ، ويؤُزُّه إلى المعاصِي أزًّا. ولهذا قِيل: إنه رقيةُ الزنا.

وقد افتُتِنَ بسماعِ الغناء، خلقٌ كثيرٌ فأخرجهُم استماعُه إلى العشقِ، وفُتنوا في دينهِم. فلو لم يرِد نصٌّ صريحٌ في تحريمِ الغناءِ بالشـعرِ الذي تُوصفُ فيه الصُّورُ الجميلة لكانَ محرّمًا بالقياسِ على النظرِ إلى الصُّورِ الجميلةِ التي يحرمُ النظرُ إليها بالشـهوةِ، بالكتابِ والسنةِ وإجماعِ من يُعتـدُّ به من علماءِ الأمةِ. فإنَّ الفـتنةَ كَما تحصُلُ بالنظـرِ والمشاهدةِ، فكذلك تحصُلُ بسمـاعِ الأوصافِ، واجتلائِها من الشعرِ الموزونِ المحرّك للشهواتِ.

ولهذا نهى النبيُّ ﷺ أن تصفَ المرأةُ المرأةَ لزوجها، كـأنّه ينظرُ إليها(١). لِمَا يُخشى من ذلكَ من الفـتنةِ. وقد جعلَ النبيُّ ﷺ زنا العينينِ النظرَ، وزنا الأذنينِ الاستماعَ(٢). وقالَ أبو هريرةَ رضي الله عنه: ثلاثٌ فاتناتٌ مُـفتناتٌ يُكببنَ في

(١) أخرجه: البخاري (٧/ ٤٩)، وأبو داود (٢١٥٠)، والترمذي (٢٧٩٣).
(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ٦٧)، ومسلم (٨/ ٥٢).

النارِ: رجلٌ ذُو صورةٍ حسنة، فاتنٌ مفتونٌ به يُكبُّ في النار، ورجلٌ ذو شعرٍ حسنٍ، فاتن مفتونٌ به يُكَبُّ في النارِ. ورجلٌ ذو صـوتٍ حسنٍ، فاتنٌ مفتون به يُكبُّ في النارِ. خرّجه حميد بن زنجويه في «كتابِ الأدبِ»(١) .

* * *

(١) «نزهة الأسماع» (ص ٦٤ ـ ٦٧).

سُورَةُ الْقَمَرِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾

ومن أنواعِ عذابِهم سحبُـهم في النَّارِ على وجوهِهم، قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر:٤٧، ٤٨]، وقالَ تعـالى: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر:٧٠ـ ٧٢] قالَ قتادةُ: يسـحبُونَ في النارِ مرةً وفي الحميمِ مـرةً، وقالَ تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا﴾ [الأحزاب:٦٦].

وقالَ قتادةُ: قالَ ابنُ عباسٍ ﴿صَعُودًا﴾ [المدثر:١٧]: صخرةٌ في جهنمَ يُسحَبُ عليها الكافرُ على وجهِه.

وقالَ كـعبٌ: يقولُ اللّـهُ عزَّ وجلَّ للإمـامِ الجائرِ: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة:٣٠، ٣١] فيُـسحَبُ على وجـهِه في النَّارِ، فينـتثرُ لحـمهُ وعظامُه ومخُّهُ.

وقالَ ثابتٌ أبو زيدٍ القـيسيُّ، عن عاصمٍ الأحول، عن أبي منصـورٍ مَولى سليم أنَّ ابنَ عباسٍ قالَ: ﴿يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ﴾ [غافر:٧١، ٧٢]. قالَ أبو زيدٍ: أُراه قالَ: ينسلخُ كلُّ شيءٍ عليه من جلدٍ ولحمٍ وعـروقٍ وأعصابٍ حتَّى

يصيرَ في عقـبيهِ جسدٌ من لحمِهِ مثلُ طـولِهِ، وطولُهُ ستونَ ذراعًا، ثمَّ يُكسَى جلدًا آخرَ، ثمَّ يسجرُ في الحميمِ. خرَّجُه كلَّه ابنُ أبي حاتمٍ[1] .

* * *

(١) «التخويف من النار» (ص ١٤٧ ـ ١٤٨).

سُورَةُ الرَّحْمَنِ

قوله تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾

إنَّ الشتاء له مشرقٌ ومغربٌ، والصيفَ كذلك، ولهذا ثَنَّاهما اللَّه تعالى في قولِهِ: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ﴾ [الرحمن:١٧] وجمعَهما في قولِهِ: ﴿بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾ [المعارج:٤٠] باعتبارِ مشارقِ الشتاءِ والصيفِ والخريفِ والربيعِ؛ فإنَّ لكلِ يومٍ من السنةِ مطلعًا مشرقًا خاصا ومغربًا خاصا، وأفردَهما في قوله: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ [الشعراء:٢٨] باعتبارِ الجنسِ(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾

وقد ضمنَ اللَّهُ سبحانَهُ الجنةَ لمن خافَهُ من أهلِ الإيمانِ، فقالَ تعالَى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن:٤٦] قال مجاهدٌ: في هذهِ الآيةِ: اللَّهُ قائمٌ على كلِّ نفسٍ بما كسبتْ، فمن أرادَ أن يعملَ شيئًا فخافَ مقامَ ربِّه عليه، فله جنتانِ.

وعنه أنه قالَ: هو الرجلُ يذنبُ فيذكرُ مقامَ اللَّهِ فيدعهُ. وعنه قالَ: هو الرجلُ يهمُّ بالمعصيةِ فيذكرُ اللَّهَ فيتركُها.

---

(١) «فتح الباري» (٢/ ٢٩٣).

وقال عليُّ بنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ: وعد اللَّهُ المؤمنينَ الذين خافُوا مقامَهُ وأدَّوا فرائِضَهُ الجنةَ.

وعن الحسنِ، قالَ: قالتِ الجنةُ: يا ربِّ لمنْ خلقْتني، قالَ: لمن يعبدُني وهو يخافُني.

وقال يزيدُ بنُ عبدِ اللَّهِ بنِ الشخيرِ: كنَّا نحدَّثُ أنَّ صاحبَ النارِ الذي لا تمنعُهُ مخافةُ اللَّهِ من شيءٍ خفي له.

وعن وهبِ بنِ منبهٍ، قال: ما عُبدَ اللَّهُ بمثلِ الخوفِ.

وقال أبو سليمانَ الدارانيُّ: أصلُ كلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرةِ الخوفُ من اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وكلُّ قلبٍ ليسَ فيه خوفُ اللَّهِ فهو قلبٌ خربٌ.

وقال وهيبُ بنُ الوردِ: بلغنا أنَّه ضُرب لخوفِ اللَّه مثلٌ في الجسدِ، قيلَ: إنما مثلُ خوفِ اللَّهِ، كمثلِ الرجلِ يكونُ في منزِلِه فلا يزالُ عامرًا ما دامَ فيه ربُّه، فإذا فارقَ المنزلَ ربُّه وسكنَهُ غيرُه خربَ المنزلُ، وكذلكَ خوفُ اللَّه تعالَى، إذا كانَ في جسدٍ لم يزلْ عامرًا ما دامَ فيه خوفُ اللَّهِ، فإذا فارقَ خوفُ اللَّهِ الجسدَ خربَ، حتى إنَّ المارَّ يمرُّ بالمجلسِ من الناسِ فيقولونَ: بئسَ العبدُ فلانٌ، فيقولُ بعضُهم لبعضٍ: ما رأيتم منه؟ فيقولونَ: ما رأينا منه شيئًا غيرَ أنَّا نبغضه، وذلك أن خوفَ اللَّهِ فارقَ جسدَه، وإذا مرَّ بهم الرجلُ فيه خوفُ اللَّهِ، قالُوا: نعمَ واللَّهِ الرجلُ، فيقولونَ: أيَّ شيءٍ رأيتم منه؟ فيقولونَ: ما رأينا منه شيئًا غيرَ أنَّا نحبُّه.

وقال الفضيلُ بنُ عياضٍ: الخوفُ أفضلُ من الرجاءِ ما كانَ الرجلُ صحيحًا، فإذا نزلَ الموتُ فالرجاءُ أفضلُ.

وسئلَ ابنُ المباركِ عن رجلينِ، أحدُهما خائفٌ والآخرُ قتيلٌ في سبيلِ اللَّهِ عز وجل، قال: أحبُّهما إليَّ أخوفُهُما[١].

* * *

(١) «التخويف من النار» (ص ٤ ـ ٥).

سُورَةُ الوَاقِعَة

قوله تعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾

وقال محمدُ بن كعبٍ القُرظِيُّ في قولهِ تَعالى: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ [الواقعة: ١ - ٣]، قال: تخفضُ رجالاً كانُوا في الدُّنيا مرتفعينَ، وترفعُ رجالاً كانوا في الدُّنيا مخفوضين[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۝٤١ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾

قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ ۝٤١ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ۝٤٢ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤١ - ٤٤].

قالَ ابنُ عباسٍ: ظـلٌّ من دخانٍ، وكذا قالَ مجاهدٌ وعكرمـةُ وغيرُ واحدٍ، وعن مجـاهدٍ قالَ: ظلٌّ من دخـانِ جهنمَ، وهو السَّـمُومُ؛ وقـالَ أبو مالكٍ: اليحـمومُ: ظلٌّ من دخانِ جهنـمَ، قالَ الحسنُ وقتـادةُ في قولهِ: ﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [الواقعة: ٤٤] لا باردُ المدخلِ، ولا كـريمُ المنظـرِ؛ والسَّـمُـومُ: هو الريحُ

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٢٩٦).

الحارةُ، قالَه قتادةُ وغيرُه.

وهذه الآيةُ تضمنتْ ذكرَ ما يُتبردُ به في الدُّنيا من الكربِ والحرِّ وهو ثلاثةٌ: الماءُ والهواءُ والظلُّ، فهـواءُ جهنمَ: السمومُ وهو الريحُ الحـارَّةُ الشديدةُ الحرِّ، وماؤُها الحميمُ الذي قدْ اشتدَّ حرُّهُ، وظلُّها اليحمومُ وهو قطعُ دخانِها، أجارَنا اللَّهُ من ذلك كلِّه بكرمِه ومنِّه.

وقالَ تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ [المرسلات:٣٠] قالَ مجاهدٌ: هو دخـانُ جهنمَ: اللـهبُ الأخضـرُ والأسودُ والأصـفـرُ الذي يعلو النَّارُ إذا أُوقِدتْ.

قالَ السديُّ في قولِه: ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ [المرسلات:٣٢] قال: زعمُوا أن شررَها ترمي به، كأصولِ الشجرِ ثمَّ يرتفعُ فيمتدُّ، وقالَ القرظيُّ: على جهنمَ سورٌ فما خرج من وراءِ سورِها يخرجُ منها في عظمِ القصورِ ولونِ القارِ.

وقال الحسنُ والضـحاكُ في قوله: ﴿كَالْقَصْرِ﴾ هو كأصولِ الشجرِ العظامِ، وقـالَ مجـاهدٌ: قطعُ الشجـرِ والجبلِ. وصحَّ عن ابنِ مـسعـودٍ قالَ: شـررٌ كالقـصورِ والمدائنِ. ورَوى عليُّ بنُ أبي طلحـةَ عن ابنِ عبـاسٍ قالَ: ﴿بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ﴾ يقولُ: كالقصرِ العظيمِ.

وفي «صحيح البخاريِّ»(١) عن ابنِ عـباسٍ، قـالَ: كنا نرفعُ من الخـشبِ بقصرٍ ثلاثةَ أذرعٍ أو أقلَّ نرفعُه للشتاءِ، نُسميه القصرَ.

وقولُه: ﴿كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ [المرسلات:٣٣] قالَ ابنُ عـباسٍ: حبـالُ السفنِ يُجمَعُ بعـضُها إلى بعضٍ تكونُ كأوسـاطِ الرجالِ، وقالَ مجاهـدٌ: هي حبالُ

(١) البخاري (٦/ ٢٠٤).

الجسورِ، وقالتْ طائفةٌ: هي الإبلُ، منهم الحسنُ وقتادةُ والضحاكُ، وقالوا: الصفرُ هي السودُ. ورُوي عن مجاهدٍ أيضًا.

وقالَ عليُّ بنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ في قولِه: ﴿جِمَالَتٌ صُفْرٌ﴾ قالَ: يقولُ: قِطَعُ النحاسِ.

قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ [الرحمن:٣٥] قال عليُّ بنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ يقولُ: لهبُ النَّارِ ﴿وَنُحَاسٌ﴾ يقولُ: دخانُ النَّارِ.

وكذا قالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ وأبو صالحٍ وغيرُهما إنَّ النحاسَ: دخانُ النَّارِ، وقالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ عن ابنِ عباسٍ ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾ قالَ: دخانٌ، وقال أبو صالحٍ: الشواظُ: اللهبُ الذي فوقَ النَّارِ ودونَ الدخانِ. قالَ منصورٌ عن مجاهدٍ: الشواظُ: هو اللهب الأخضرُ المتقطعُ. وعنه قالَ: الشواظُ: قطعةٌ من النَّارِ فيها خُضرةٌ.

قالَ الحسينُ بنُ منصورٍ: أخرج الفضيلُ بنُ عياضٍ رأسه من خوخةٍ فقالَ منصورٌ عن مجاهدٍ: ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ [الرحمن:٣٥] ثمَّ أدخلَ رأسَه فانتحَب ثم أخرجَ رأسَه، فقالَ: هو اللهبُ المنقطعُ ولم يستطعْ أنْ يجيزَ الحديثَ.

وخرَّجَ النسائيُّ والترمذيُّ(١) من حديثِ أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**لا يجتمعُ غبارٌ في سبيلِ اللَّهِ ودخانُ جهنمَ في جوفِ امرئٍ أبدًا**»، وخرَّجَ الإمامُ

(١) أخرجه: الترمذي (١٦٣٣)، (٢٣١١)، والنسائي (٦/ ١٢)، وأحمد (٢/ ٥٠٥)، وابن ماجه (٢٧٧٤).

أحمد(١) من حديثِ أبي الدرداءَ عن النبيِّ ﷺ نحوَه(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾

قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الواقعة: ٥١ ـ ٥٦].

والنُّزلُ هو ما يعُدُّ للضيفِ عندَ قدومِه، فدلتْ هذه الآياتُ على أنَّ أهلَ النَّارِ يتحفُونَ عند دخولِها بالأكلِ من شجرةِ الزقومِ والشربِ من الحميم، وهم إنَّما يُساقُونَ إلى جهنمَ عِطاشًا، كما قالَ تعالى: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٦]. قال أبو عمرانَ الجوني: بلغنا أنَّ أهلَ النَّارِ يبعثُون عطاشًا ثمَّ يقفُونَ مشاهدَ القيامةِ عِطَاشًا، ثمَّ قرأَ: ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ قال مجاهدٌ في تفسيرِ هذه الآيةِ: متقطعةٌ أعناقُهم عَطَشًا؛ وقالَ مطرٌ الوراق: عِطَاشًا: ظِمَاءً.

وفي «الصحيحين»(٣) عن النبيِّ ﷺ في حديثِ الشفاعة الطويل: «إنَّه يقالُ

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٦/ ٤٤٣).

(٢) «التخويف من النار» (ص ٨٥ ـ ٨٧).

(٢) أخرجه: البخاري (٦/ ٥٦، ١٩٨)، (٩/ ١٥٨)، ومسلم (١/ ١١٧) عن أبي سعيد الخدري.

لليهـودِ والنصارى: ماذا تبغُـون؟ فيقولُون: عَطِشْنا ربَّنا فـاسقنا، فيُشـارُ إليهم ألا تردونَ فيُحشرونَ إلى جهنمَ كأنَّهما سرابٌ يحطمُ بعضُها بعضًا، فيتساقطُونَ في النَّارِ».

وقالَ أيوبُ عن الحسنِ: مـا ظنُّكَ بقومٍ قاموا على أقدامِـهم خمسينَ ألفَ سنةٍ لم يأكُلوا فيهـا أكلةً ولم يشربُوا فيها شربةً حـتَّى انقطعتْ أعناقُهم عطشًا واحترقتْ أجوافُهم جُوعًا، ثمَّ انصـرفَ بهم إلى النَّارِ فيُسقَونَ من عينٍ آنيةٍ قدْ آنَ حرُّها واشتدَّ نضجُها.

ورَوى ابنُ المبـارك بإسناده عن كـعبٍ، قالَ: إنَّ اللَّهَ ينـظرُ إلى عبـدهِ يومَ القيـامةِ وهو غضبـانٌ، فيقولُ: خـذُوه، فيأخـذه مائة ألفِ ملكٍ أو يزيدُون، فيجمعُون بينَ ناصـيته وقدميه غضبًا لغضبِ اللَّهِ، فيـسحبونه على وجههِ إلى النَّارِ، قالَ: فالنَّارُ أشدُّ عليه غضبًا من غضبهم سبعينَ ضعفًا، قال: فيستغيثُ بشرْبَةٍ، فيُسـقى شربةً يسقطُ منها لحمُه وعـصبُه، ثمَّ يركسُ - أو يدكسُ - في النَّارِ، فويلٌ لها من النَّارِ.

قال ابنُ المـباركِ: حُدثتُ عـن بعضِ أهلِ المدينةِ أنَّه يتفـتتُ في أيديهم إذا أخذُوه فيقـولُ: ألا ترحمُوني، فيقولُون: كـيفَ نرحمُك ولمَ يرحمك أرحمُ الراحمِينَ.

وروى الأعـمشُ عن مـالكِ بن الحـارثِ، قـال: إذا طُرِحَ الرجلُ في النارِ هوى فيـها، فإذا انتهى إلى بعضِ أبوابـها قيلَ: مكانَك حتَّى تُتْـحَفَ، قال: فيسُـقى كأسًا من سُمِّ الأساودِ والعقاربِ، فـيتميزُ الجلدُ على حـدةٍ، والشعرُ على حدةٍ، والعصبُ على حدةٍ، والعروقُ على حدةٍ. خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ.

وروى محـمدُ بنُ سليمانَ بنِ الأصـبهانيِّ، عن أبي سنانَ ضـرار بنِ مرة،

عن عبدِ اللَّه بنِ أبي الهذيلِ، عن أبي هريرة ﵁، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**إنَّ جهنمَ لما سِيقَ إليها أهلُها تلقتهُم فلفحـتهُم لفحةً، فلم تدعْ لحمًا على عظمٍ إلا ألقته على العرقوبِ**» خرَّجَه الطبراني[1] ورفْعُه منكرٌ، فقـد رواه ابنُ عيينة عن أبي سنانَ عن عبـدِ اللَّهِ بنِ أبي الهذيلِ أو غـيرِه من قولِه لم يرفـعْه. ورواه محـمدُ بنُ فضيلٍ عن أبي سنانَ عن عبـدِ اللَّهِ بنِ أبي الهذيلِ عن أبي هريرةَ من قولِه في قولِه تعالى: ﴿**لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ**﴾ [المدثر:٢٩] قالَ: تلقاهُم جهنمُ يومَ القيامةِ فتلفحُهم لفحةً، فلا تتركُ لحمًا على عظمٍ إلا وضعتْهُ على العراقيبِ[2].

* * *

وأما شرابُهم فقالَ اللَّهُ تعالى: ﴿**فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ**﴾ [الواقعة:٥٤]، وقالَ تعالى: ﴿**وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ**﴾ [محمد:١٥]، وقـالَ تعـالى: ﴿**لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا**﴾ [النبأ:٢٤، ٢٥]، وقالَ تعالى: ﴿**هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَآخَرُ مِن شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ**﴾ [ص:٥٧، ٥٨]، وقالَ تعالى: ﴿**وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ**﴾ [إبراهيم:١٦، ١٧]، وقالَ تعالى: ﴿**وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا**﴾ [الكهف:٢٩].

فهذه أربعةُ أنواعٍ ذكرناها من شرابِهم، وقد ذكرَها اللَّهُ في كتابِه:

النوعُ الأولُ: الحـميمُ - قـال عبـدُ اللَّهِ بنُ عـيسى الخـراز، عن داودَ، عن عكرمةَ، عن ابنِ عباسٍ: الحميمُ الحارُّ الذي يحرق.

---

(١) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٢٧٨)، (٩٣٦٥) عن أبي هريرة ﵁.

(٢) «التخويف من النار» (١٥٧، ١٥٨).

وقال الحسنُ والسديُّ: الحميمُ الذي قد انتهى حرُّهُ.

وقال جويبر عن الضحاك: يُسقى من حميمٍ يُغلى من يومِ خلقَ اللَّهُ السماواتِ والأرضَ إلى يومِ يُسقَونَه ويُصبُّ على رؤوسِهم.

وقالَ ابنُ وهب عن ابن زيدٍ: الحميمُ دموعُ أعينِهم في النارِ يجتمعُ في حياض النارِ فيُسْقَونَه.

وقال تعالى: ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ﴾ [الرحمن:٤٤].

قال محمدُ بنُ كعب: حميمٍ آن: حاضرٌ، وخالفَه الجمهورُ، فقالوا: بل المرادُ بالآن: ما انتهى حرُّه.

وقال شبيبٌ، عن عكرمة، عن ابنِ عباسٍ: حميمٍ آنٍ: الذي قد انتهى غليُه.

وقال سعيدُ بنُ بشيرٍ عن قتادةَ: قد آنَ طبخُه، منذُ خلقَ اللَّهُ السماواتِ والأرضَ، وقالَ تعالى: ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ [الغاشية:٥] قال مجاهدٌ: قد بلغَ حرُّها، وحانَ شربُها.

وعن الحسنِ، قالَ: كانت العربُ تقولُ للشيءِ إذا انتهى حرُّهُ حتى لا يكون شيءٌ أحرَّ منه: قد آنَ حرُّهُ، فقالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ﴾ يقول: قد أوقدَ اللَّهُ عليها جهنمَ منذُ خُلقتْ، وآنَ حرُّها. وعنه قال: آنَ طبخُها منذُ خلقَ اللَّهُ السموات والأرضَ.

وقال السديُّ: انتهى حرُّها، فليس بعدَه حرٌّ. وقد سبقَ حديثُ أبي الدرداء، في دفعِ الحميمِ إليهم بكلاليبِ الحديدِ.

النوع الثاني: الغسَّاقُ ـ قال ابنُ عباسٍ: الغسَّاقُ: ما يسيلُ من بينِ جلدِ

الكافرِ ولحمهِ. وعنه قال: الغسَّاقُ: الزمهريرُ الباردُ، الذي يحرقُ من بردهِ.

وعن عبدِ اللَّه بنِ عمرٍو قالَ: الغسَّاقُ: القيحُ الغليظُ، لو أنَّ قطرةً منه تُهرقُ في المغربِ، لأنتنتْ أهلَ المشرقِ؛ ولو أُهرِقَتْ في المشرقِ، لأنتنتْ أهلَ المغربِ.

وقال مجاهدٌ: غسَّاق: الذي لا يستطيعُون أنْ يذوقُوه من بردِه.

وقال عطيةُ: هو ما يغسِقُ من جلودِهم - يعني يسيلُ من جلودِهم.

وقال كعبٌ: غسَّاقٌ: عينٌ في جهنم يسيلُ إليها حمة كلُّ ذاتِ حمةٍ، من حيةٍ وعقربٍ وغيرِ ذلك، فيستنقعُ؛ فيؤتَى بالآدَمي، فيُغمسُ فيها غمسةً واحدةً، فيخرجُ وقد سقطَ جلدُه ولحمُه عن العظامِ؛ ويتعلقُ جلدُه ولحمُه في عقبيهِ وكعبيهِ، ويجر لحمَه، كما يجر الرجلُ ثوبَه.

وقال السديُّ: الغسَّاق: الذي يسيلُ من أعينهِم من دموعِهم، يُسقونَه معَ الحميمِ.

وروى دراجٌ، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**لو أنَّ دلوًا من غسَّاقٍ، يُهرَقُ في الدنُّيا، لأنتنَ أهلَ الدنُّيا**» خرَّجَه الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ والحاكمُ وصححَه[1].

وقال بلالُ بنُ سعدٍ: لو أنَّ دلوًا من الغسَّاقِ، وُضعَ على الأرضِ، لماتَ مَنْ عليها. وعنه قالَ: لو أنَّ قطرةً منه، وقَعتْ على الأرضِ، لأنتنَ مَن فيها. خرَّجَه أبو نعيمٍ.

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٢٨، ٨٣)، والترمذي (٢٥٨٤)، والحاكم (٤/ ٦٠٢).

وقدْ صرحَ ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، بأنَّ الغسَّاق ههنا هو الباردُ الشديدُ البردِ. ويدلُّ عليه قولُه تعالى: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ:٢٤، ٢٥].

فاستثنى من البردِ الغسَّاقَ ومن الشرابِ الحميمَ.

وقد قيل: إن الغسَّاقَ هو الباردُ المنتنُ، وليس بعربيٍّ. وقيل: إنَّه عربيٌّ، وإنه فَعّال من غسَقَ يَغسِقُ، والغاسقُ: الليلُ، وسُمِّيَ غاسقًا لبردِه.

النوع الثالث: الصَّدِيدُ: ـ قال مجاهدٌ في قولِه تعالى: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ [إبراهيم:١٦].

قال: يعني القيحَ والدَّمَ، وقالَ قتادةُ: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ﴾ قال: ما يسيلُ من بينِ لحمِه وجلدِه؛ قالَ: ﴿يَتَجَرَّعُهُ وَلا يَكَادُ يُسِيغُهُ﴾ [إبراهيم:١٧] قالَ قتادةُ: هلْ لكُم بهذا يدانِ، أم لكُم على هذا صبرٌ؟ طاعةُ اللَّهِ أهونُ عليكُم ـ يا قوم ـ فأطيعُوا اللَّهَ ورسولَه.

وخرَّج الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ(١)، من حديثِ أبي أمامةَ، عن النبيِّ ﷺ، في قولِه: ﴿وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ﴾ [إبراهيم: ١٦-١٧].

قال: يقربُ إلى فيه فيكرهُهُ، فإذا أُدني منه، شَوى وجهَه، ووقعت فروةُ رأسِه؛ فإذا شَرِبه قطَّعَ أمعاءَه، حتَّى يخرجَ من دبرِه، يقولُ اللَّهُ تعالى: ﴿وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد:١٥].

وقال: ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٢٦٥)، والترمذي (٢٥٨٣)، والنسائي في «الكبرى» «تحفة الأشراف» (٤٨٩٤).

مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩].

وروى أبو يحيى القتات، عن مجاهدٍ، عن ابنِ عباسٍ قالَ: في جهنَّم أوديةٌ من قيحٍ تكتازُّ ثمَّ تُصَبُّ في فِيهِ.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»(١) عن جابرٍ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**إنَّ على اللَّه عهدًا لمن شَرِبَ المسكرات ليسقيَه من طينة الخبال**»، قالوا: يا رسولَ اللَّهِ! وما طينةُ الخبَالِ؟ قال: «**عرَقُ أهلِ النَّارِ أو عُصَارَةُ أهلِ النَّارِ**».

وخرَّج الإمامُ أحمدَ والنسائيُ وابنُ ماجه وابنُ حبانَ في «صحيحه»(٢) من حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ عن النبيِّ ﷺ نحوَه، إلا أنَّه ذكرَ ذلك في المرةِ الرابعةِ، وفي بعضِ الرواياتِ «**منْ عينِ الخبالِ**».

وخرَّج الترمذيُّ (٣) من حديثِ عبدِ اللَّه بنِ عمرَ نحوَه عن النبيِّ ﷺ إلا أنَّه قال: «**من نهر الخبال**»، قِيلَ: يا أبا عبدِ الرحمنِ ما نهرُ الخبال؟ قالَ: نهرٌ من صديدِ أهلِ النَّارِ. وقالَ: حديثٌ حسنٌ.

وخرَّج أبو داود(٤) من حديثِ ابنِ عباسٍ عن النبيِّ ﷺ نحوَه، وقالَ: «**من طينةِ الخبالِ**» قِيلَ: يا رسولَ اللَّه ما طينةُ الخبالِ؟ قالَ: «**صديدُ أهلِ النَّارِ**»، وفي روايةٍ أُخرى قالَ: «**ما يخرجُ من زهومة أهلِ النَّار وصديدهم**». وخرَّج الإمامُ أحمدَ بمعناه أيضًا من حديثِ أبي ذرٍّ(٥) وأسماءَ بنتِ يزيدَ(٦) عن النبيِّ ﷺ.

وخرَّج الإمامُ أحمدَ وابنُ حبانَ في «صحيحِه»(٧) من حديثِ أبي موسى

(١) أخرجه: مسلم (٦/ ١٠٠).

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ١٧٦)، وابن ماجه (٣٣٧٧)، والنسائي (٨/ ٣١٧)، وابن حبان (٥٣٥٧).

(٣) أخرجه: الترمذي (١٨٦٢)، وأحمد في «المسند» (٢/ ٣٥).

(٤) أخرجه: أبو داود (٣٦٨٠). (٥) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ١٧١).

(٦) السابق (٦/ ٤٦٠). (٧) السابق (٤/ ٣٩٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٥٣٤٦).

عن النبيِّ ﷺ قالَ: «مَنْ ماتَ وهو مدمنُ خمرٍ سقَاه اللَّهُ من نـهرِ الغوطة»، قيلَ: وما نـهرُ الغوطـةِ؟ قال: «نهرٌ يخـرجُ من فـروجِ المومسـاتِ يـؤذي أهلَ النَّارِ نتنُ فروجِهم».

وقد سبقَ حـديثُ عمرِو بن شعيب، عن أبـيه، عن جده، عن النبيِّ ﷺ في المتكبرين وفيه: «يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال».

النوعُ الرَّابعُ: الماءُ الذي كالمهلِ، خرَّج الإمامُ أحـمد والترمذيُّ[(١)] من حديثِ دراجٍ عن أبي الهـيثمِ عن أبي سـعيـدٍ عن النبيِّ ﷺ في قـولهِ: ﴿كَالْمُهْلِ﴾ [الكهف/ ٢٩ ـ الدخان/ ٤٥ ـ المعارج/ ٨] قال: «كعكرِ الزيتِ، فإذا قـربَ إلى وجههِ سقطتْ فروةُ وجههِ فيه».

قال عطيـةُ: سُئِلَ ابنُ عبـاسٍ عن قولهِ: ﴿كَالْمُهْلِ﴾ قال: غلـيظٌ كدردي الزيتِ، قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ عن ابنِ عـباسٍ: أسود كمـهلِ الزيتِ؛ وكذا قالَ سعيدُ بنُ جبيرٍ وغيرُه.

قال الضـحاكُ: أذابَ ابنُ مـسعـودٍ فضـةً من بيتِ المالِ ثمَّ أرسلَ إلى أهلِ المسجدِ، فقالَ: من أحبَّ أن ينظرَ إلى المهلِ فلينظرْ إلى هذا.

وقال مجاهدٌ: بماءٍ كالمهلِ: مثلُ القيحِ والدمِ أسود كعكرِ الزيتِ.

وخرَّج الطبرانيُّ[(٢)] من طريقِ تمامِ بنِ نجيح عن الحـسنِ عن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ: «لو أنَّ غربًا جُعِـلَ من حميمِ جهنمَ وجُعِلَ وسـطُ الأرضِ لآذى نتنُ ريحهِ وشدَّةُ حرِّه ما بينَ المشرقِ والمغربِ».

وفي موعظةِ الأوزاعيِّ للمنصورِ قال: بلغَني أنَّ جبريلَ قالَ للنبيِّ ﷺ: «لو

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٧٠)، والترمذي (٢٥٨١)، (٣٣٢٢).
(٢) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٣٦٨١).

أنَّ ذَنُوبًا من شرابِ جهنمَ صُبَّ في ماءِ الأرضِ جميعًا لقتل من ذاقه».

خرجَ بعضُ المتقدمينَ فمر بكرومٍ بقريةٍ يقالُ لها: طيزناباد، وكأنَّه كانَ يُعصرُ فيها الخمرُ، فأنشدَ يقولُ:

بطيزناباد كَرْمٌ ما مررتُ به إلا تعجبتُ ممن يشربُ الماءَ

فهتف به هاتف يقول:

وفي جهنمَ ماءٌ ما تجرعهُ حلقٌ فأبقى له في البطنِ أمعاء[1]

* * *

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس»: سمعت الوزير[2] يقول في قولِه تعالى: ﴿**لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا**﴾ [الواقعة:٦٥]، ﴿**لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا**﴾ [الواقعة:٧٠]، قال: تأملتُ دخولَ اللامِ وخروجَها فرأيتُ المعنى: أنَّ اللامَ تقعُ للاستقبال، تقولُ: لأضربنَّك، أي: فيما بعدُ، لا في الحال، والمعنى: ﴿**أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا**﴾ [الواقعة:٦٣ ـ ٦٥]، أي: في مستقبلِ الزَّمان إذا تَمَّ فاستحصدَ، وذلك أشدُّ العذابِ، لأنَّها حالةُ انتهاء

(١) «التخويف من النار» (١١٧ ـ ١٢١).

(٢) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

تعبِ الزراعِ، واجتماعِ الدَّيْنِ عليهِ، لرجاء القضاءِ بعدَ الحصاد مع فراغِ البيوتِ من الأقواتِ.

وأمَّا في الماء، فقالَ: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ [الواقعة:٧٠] أي: الآنَ؛ لأنَّا لو أخَّرْنا ذلك لشربَ العطشانُ، وادَّخَرَ منه الإنسانُ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾

وكان من السلفِ من إذا رأى النارَ اضطربَ وتغيرتْ حالُه، وقد قالَ تعالىَ ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً﴾ [الواقعة:٧٣] قال مجاهدٌ وغيرُه: يعني أن نارَ الدنيا تذكرُ بنارِ الآخرةِ.

وقال أبو حيانَ التيميّ: سمعتُ منذُ ثلاثينَ سنة أو أكثرَ من ثلاثينَ سنة أنَّ عبدَ اللَّه بنَ مسعودٍ مرَّ على الذينَ ينفخُونَ على الكيرِ فسقَطَ، خرجه الإمامُ أحمدُ.

وخرج ابنُ أبي الدنيا من روايةِ سعدِ بنِ الأخرمِ، قالَ: كنتُ أمشِي معَ ابنِ مسعودٍ فمرَّ بالحدادينَ وقد أخرجُوا حديدًا من النارِ، فقامَ ينظرُ إليه ويبكِي.

وعن عطاءٍ الخراسانيِّ قال: كانَ أويس القرنيُّ يقفُ على موضعِ الحدادينَ فينظرُ إليه كيفَ ينفخونَ الكيرَ، ويسمعُ صوتَ النارِ فيصرخُ ثم يسقطُ.

وعن ابن أبي الذبابِ: أن طلحةَ وزيدًا مرَّا بكيرِ حدادٍ فوقَفَا ينظرانِ إليه ويبكيانِ.

(١) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٧٢).

قال الأعـمشُ: أخبرني من رأى الربيعَ بن خـثيمٍ مرَّ بـالحدادينَ فنظر إلى الكيرِ وما فيه فخرَّ.

وقال مطر الوراقُ: كان حممةُ وهرمُ بنُ حيانَ إذا أصبحَا غدَيا فمرَّا بأكْورَةِ الحدادينَ، فنظرَا إلى الحـديدِ كيفَ ينفخُ، فيقـفانِ ويبكيانِ، ويستـجيرانِ من النارِ.

وقال حمادُ بـنُ سلمةَ عن ثابتٍ: كانَ بشيرُ بنُ كعبٍ وقـراءُ البصرةِ يأتونَ الحدادينَ فينظرونَ إلى شهيقِ النارِ فيتعوذونَ باللَّهِ من النارِ.

وعن العلاءِ بنِ محمدٍ قالَ: دخلتُ على عطاءِ السلميِّ فرأيتُه مغشيًّا عليه، فقلتُ لامرأتِهِ: ما شأنُه؟ قالتْ: سجرتْ جارةٌ لنا التنورَ فلمَّا نظرَ إليه غُشِيَ عليهِ.

وعن معـاويةَ الكنديِّ قالَ: مـرَّ عطاءٌ السلميُّ على صـبيٍّ معهُ شـعلةُ نارٍ فأصابت النارَ الريحُ، فسمعَ ذلك منها، فغشِيَ عليهِ.

وقال الحسنُ: كـان عمرُ ﷺ ربَّما توقـدُ له النارُ ثم يدْني يديه منهَا، ثم يقولُ: يا ابنَ الخطابِ هلْ لكَ على هذا صبرٌ.

وكان الأحنفُ بنُ قـيسٍ يجئُ إلى المصباحِ بالليلِ فيـضعُ أصبعهُ فـيه، ثم يقولُ: حِس حِس، ثم يقولُ: يا حنيفُ مـا حملكَ على ما صنعتَ يومَ كذا، ما حملكَ على ما صنعتَ يومَ كذا؟.

وقال البختريُّ بنُ حارثةَ: دخلتُ على عابدٍ، فإذَا بين يديهِ نارٌ قد أجَّجَهَا، وهوَ يعاتبُ نفسهُ ولم يزلْ يعاتِبُها حتى ماتَ.

وكانَ كثيـرٌ من الصالحينَ يذكرُ النارَ وأنواعَ عذابِها برؤيةِ ما يشـبهُهُ بها في

الدُّنيا، أو يذكرُهُ بِهَا كرؤيةِ البحرِ وأمواجِهِ والرؤوسِ المشويةِ، وبكاءِ الأطفالِ، وفي الحرِّ والبردِ، وعند الطعامِ والشرابِ وغيرِ ذلكَ، وسنذكرُ ما تيسرَ من ذلكَ مفرَّقًا في مواضعهِ إن شاءَ اللَّهُ تعالى.

وأنَّ منهم من كانَ يذكرُ النارَ بدخولِ الحمامِ، وروى ليثٌ عن طلحة قال: انطلقَ رجلٌ ذاتَ يومٍ فنزعَ ثيابَهُ وتمرغَ في الرمضاءِ وهو يقولُ لنفسِهِ: ذوقي نارَ جهنمَ ذوقي ﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة:٨١] جيفةٌ بالليلِ بطالةٌ بالنهارِ، فبينا هو كذلك إذا أبصرَ النبيَّ ﷺ في ظلِّ شجرةٍ فأتاهُ، فقالَ: غلبتْني نفسِي، فقالَ له النبيُّ ﷺ: **«ألم يكنْ لك بدٌّ من الذي صنعتَ؟ لقد فُتحتْ لك أبوابُ السماءِ، ولقد باهَى اللَّهُ بكَ الملائكةَ»** خرجهُ ابنُ أبي الدنيا وهو مرسلٌ، وخرجَ الطبرانيُّ نحوَهُ من حديثِ بريدةَ موصولاً، وفي إسنادِهِ من لا يعْرفُ حالُه، واللَّهُ أعلم[١].

* * *

ومِن أعظمِ ما يُذكِّرُ بنارِ جهنمَ: النَّارُ التي في الدنيا، قال اللَّه تعالى: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة:٧٣]، يعني أنَّ نارَ الدُّنيا جعلها اللَّه تذكرةً تذكِّرُ بنارِ الآخرةِ. مرَّ ابنُ مسعودٍ بالحدَّادين وقد أخرجُوا حديدًا من النارِ، فوقفَ ينظرُ إليه ويبكي.

ورُوي عنه: أنَّه مرَّ على الذين ينفُخُون الكيرَ فسقطَ.

وكان أويس يقفُ على الحدَّادين فينظرُ إليهم كيف ينفخونَ الكيرَ، ويسمعُ صوتَ النَّار، فيصرخُ، ثم يسقُطُ. وكذلك الرَّبيع بنُ خُثيم. وكان كثيرٌ من

(١) «التخويف من النار» (٢٤ ـ ٢٥).

السَّلف يخرجونَ إلى الحدَّادينَ ينظرونَ إلى ما يصنعونَ بالحديدِ، فيبكونَ ويتعوَّذون باللَّهِ من النَّارِ.

ورأى عطاءٌ السَّليمي امرأةً قد سجرت تنورَها، فغُشي عليه. قال الحسنُ: كانَ عمرُ ربُّما تُوقدُ له النَّارُ، ثم يُدني يدَه منها، ثم يقول: يا ابنَ الخطاب! هل لك على هذا صبرٌ؟

كانَ الأحنفُ بنُ قيسٍ يجيءُ إلى المصباحِ فيضعُ أُصبعَه فيه، ويقول: حسٍّ، ثمَّ يُعاتبُ نفسه على ذنوبهِ.

أجَّجَ بعضُ العبَّادِ نارًا بين يديه وعاتبَ نفسه، فلم يزلْ يعاتبُها حتى مات.

نارُ الدنيا جُزءٌ من سبعين جزءًا من نار جهنَّم، وغُسلَت بالبحر مرتين حتى أشرقت وخفَّ حرُّها، ولولا ذلك ما انتفعَ بها أهلُ الدُّنيا، وهي تدعو اللَّهَ ألا يعيدَها إليها. قال بعضُ السَّلف: لو أُخرجَ أهلُ النار منها إلى نار الدنيا لقالُوا فيها ألفَي عام. يعني أنهم كانُوا ينامُون فيها ويرونها بردًا.

كان عمرُ يقول: أكثروا ذِكرَ النَّارِ؛ فإنَّ حرَّها شديدٌ، وإنَّ قعرها بعيدٌ، وإنَّ مقامعها حديدٌ.

كان ابنُ عمر وغيرُه من السَّلف إذا شربوا ماءً باردًا بكوا وذكروا أمنيَّةَ أهل النار وأنَّهم يشتهون الماء الباردَ، وقد حيلَ بينهم وبينَ ما يشتهونَ، ويقولون لأهل الجنة: ﴿**أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ**﴾ [الأعراف: ٥٠]، فيقولُونَ لهم: إنَّ اللَّهَ قد حرمَهما على الكافرينَ. والمصيبةُ العُظْمى حينَ تطبُقُ النَّارُ على أهلِها، وييأسونَ من الفرجِ، وهو الفزعُ الأكبرُ الذي يأمنُه أهلُ الجنةِ ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ**﴾ [الأنبياء: ١٠١].

لو أبصرتْ عيناكَ أهلَ الشَّقَا سِيقوا إلى النَّار وقَدْ أُحْرِقُوا
شرابُهُمُ المُهْلُ في قَعْرِها إذ خالَفُوا الرُّسْلَ وما صَدَّقُوا
تقولُ أخراهُمْ لأولاهُمُ في لُجج المُهْلِ وقد أُغْرِقوا
قد كُنْتُمُ خُوِّفْتُمُ حَرَّها لكن مِن النِّيران لم تَفْرُقُوا
وَجِيء بالنِّيران مَذْمُومَةً شَرَارُها مِنْ حَوْلِها مُحْدِقُ
وقيلَ للنِّيران أَنْ أَحْرِقي وقيلَ للخُزَّان أن أَطْبِقُوا(١)

* * *

قوله تعالى: ﴿وَتجعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُم تُكَذِّبُونَ﴾

[قال البخاري](٢): قَوْلُ اللَّهِ عزَّ وَجَلَّ: ﴿وَتَجعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُم تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة:٨٢] قَالَ ابنُ عبَّاسٍ: شُكرَكُمْ.

قالَ آدمُ بنُ أبي إياسٍ في «تفسيره»: نا هشيمٌ، عن جعفرِ بنِ إياسٍ، عن سعيدِ بنِ جبيرٍ، عنِ ابنِ عباسٍ، في قولِه: ﴿وَتَجعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي: شكركم ﴿أَنَّكُم تُكَذِّبُونَ﴾ قال: هو قولُهم: مُطرنَا بنوءِ كذَا وكذَا.

قال ابنُ عباسٍ: وما مُطرَ قومٌ إلا أصبحَ بعضُهَم به كافرًا، يقولونَ: مُطرنا بنوءِ كذا وكذا.

ثمَّ خرَّج في سببِ نزولِها من روايةِ الكلبيِّ، عن أبي صالحٍ، عن ابنِ عباسٍ.

وقد خرَّجه مسلمٌ في «صحيحه»(٣)من روايةِ عكرمةَ بنِ عمارٍ: حدثني

(١) «لطائف المعارف» (٥٥٦ ـ ٥٥٧).
(٢) أخرجه: البخاري (٢/ ٤١).
(٣) أخرجه: مسلم (١/ ٦٠).

أبو زميلٍ: حدثني ابنُ عباسٍ، قال: مُطرَ الناسُ علَى عهدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**أصبحَ منَ الناسِ شاكرٌ، ومنهم كافرٌ، قالوا: هذا رحمة وضعَها اللَّهُ، وقال بعضهم: لقد صدقَ نوءُ كذا وكذا**»، فنزلتْ هذه الآيةُ: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ**﴾ حتَّى بلغَ ﴿**وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**﴾ [الواقعة: ٧٥ - ٨٢].

وروى عبدُ الأعلَى الثعلبيُّ، عن أبي عبدِ الرحمنِ السلميِّ، عن عليٍّ، عن النبيِّ ﷺ: ﴿**وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ**﴾ قال: «**شكرَكم، تقولُون: مُطرْنا بنوءِ كذَا وكذَا، وبنجمِ كذَا وكذَا**».

خرجه الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ[(١)].

وقال: حسنٌ غريبٌ، لا نعرفه - مرفوعًا - إلا من حديث إسرائيلَ، عن عبد الأعلى.

ورواه سفيانُ عن عبدِ الأعلَى - نحوَه -، ولم يرفَعْه.

ثم خرَّجه من طريقِ سفيانَ - موقوفًا على علي[(٢)].

وكان سفيانُ ينكرُ علَى مَن رفعَه.

وعبدُ الأعلَى هذا، ضعَّفَه الأكثرونَ. ووثقه ابنُ معينٍ.

وخرجَ القاضِي إسماعيلُ في كتابه «أحكامُ القرآن» كلامَ ابنِ عباسٍ بالإسنادِ المتقدمِ، عن سعيدِ بنِ جبيرٍ، أن ابنَ عباسٍ كان يقرؤها: ﴿وتجعلون شكركم﴾، تقولونَ: على ما أنزلْتُ من الغيثِ والرحمةِ، تقولونَ: مُطرْنا بنوءِ كذا وكذا. قال: فكان ذلك كفرًا منهم لِمَا أنعمَ اللَّهُ عليهم.

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (١/ ٨٩، ١٠٨)، والترمذي (٣٢٩٥).
(٢) السابق (١/ ١٠٨).

نا إسماعيلُ: حدَّثني مالكٌ، عن صالحِ بنِ كيسانَ، عنْ عُبَيدِ اللَّهِ بنِ عبدِ اللَّه بنِ عُتبَةَ بنِ مسعُودٍ، عن زيدِ بنِ خالد الجُهنيِّ، أنَّهُ قالَ: صلَّى لنا رسولُ اللَّه ﷺ صلاةَ الصُّبح بالحديبيةِ علَى إثْرِ سماءٍ كانتْ من اللَّيلِ، فلمَّا انصرفَ النَّبيُّ ﷺ أقبلَ علَى النَّاسِ، فقالَ: **«هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟»** قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: **«أَصْبَحَ مِنْ عِبادِي مُؤْمِنٌ بِي وكافرٌ، فأمَّا من قالَ: مُطرْنَا بفضلِ اللَّهِ ورحمتِهِ، فذلكَ مُؤْمنٌ بِي كافرٌ بالكوكَبِ، وأمَّا منْ قالَ: بِنَوءِ كذَا وكذَا، فذلك كافرٌ بي مُؤْمنٌ بالكَوْكَبِ»**[1].

قولُه: «على إثرِ سماءٍ»، أي: مطرٍ كانَ منَ الليلِ.

والعربُ تسمِّي المطرَ سماءً؛ لنزولهِ منَ السماءِ، كما قالَ بعضُهم:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ رَعَيْنَاهُ، وَإِنْ كَانُوا غِضَابًا

وقولُهُ ﷺ: **«هَلْ تدرونَ ماذَا قالَ ربكمْ؟»** - وفي بعضِ الرواياتِ: **«الليلةَ»** - وهي تدلُّ على أن اللَّه تعالى يتكلَّمُ بمشيئَته واختيارِه.

كما قالَ الإمامُ أحمدُ: لم يزلِ اللَّهُ متكلِّمًا إذا شاءَ.

وقولُه: **«أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وكافرٌ، فأمَّا من قالَ: مُطرْنَا بفضلِ اللَّهِ ورحمتِه، فذلكَ مُؤْمنٌ بِي كافرٌ بالكوكَبِ، وأمَّا منْ قالَ: بِنَوءِ كذَا وكذَا، فذلك كافرٌ بي مُؤْمنٌ بالكَوْكَبِ»**.

يعني: أنَّ مَن أضافَ نعمةَ الغيثِ وإنزالهِ إلى الأرضِ إلى اللَّهِ عز وجل وفضلِه ورحمتِه، فهو مؤمنٌ باللَّهِ حقًّا، ومَن أضافَه إلى الأنْواءِ، كما كانتِ الجاهليةُ تعتادُه، فهو كافرٌ باللَّهِ، مؤمنٌ بالكوكبِ.

(١) أخرجه: البخاري (٢/ ٤١).

قال ابنُ عبدِ البرِّ: النوءُ في كلامِ العربِ: واحدُ أنْواءِ النجومِ، وبعضُهم يجعلُه الطالعَ، وأكثرهُم يجعلُه الساقطَ، وقد تسمَّى منازلُ القمرِ كلُّها أنواءً، وهي ثمانيةٌ وعشرونَ.

وقال الخطابيُّ، النوْءُ واحدُ الأنواءِ، وهي الكواكبُ الثمانيةُ والعشرونَ التي هي منازلُ القمرِ، كانوا يزعمونَ أنَّ القمرَ إذا نزل ببعضِ تلكَ الكواكبِ مُطِروا، فجعل النبيُّ ﷺ سقوطَ المطرِ من فعلِ اللَّهِ دونَ غيرِه، وأبطل قولَهم. انتهى.

وقال غيرُه: هذه الثمانيةُ وعشرونَ منزلاً تطلعُ كلَّ ثلاثةَ عشرَ يومًا منزلَ صلاةِ الغداةِ بالمشرقِ، فإذا طلعَ رقيبُه منَ المغربِ؛ فسمِّيت أنواءً لهذا المعنى.

وهو من الأضدادِ، يقال: ناءَ إذا طلعَ، وناء إذا غربَ، وناءَ فلانٌ إذا قربَ، وناء إذا بعدَ.

وقد أجرى اللَّهُ العادة بِمَجيء المطر عند طلوعِ كلِّ منزلٍ منها، كما أجرى العادة بِمجيءِ الحرِّ في الصيف، والبردِ في الشتاءِ.

فإضافةُ نزولِ الغيثِ إلى الأنْواءِ، إنِ اعتقدَ أنَّ الأنواءَ هي الفاعلةُ لذلك، المدبرةُ له دونَ اللَّهِ عز وجل، فقد كفرَ باللَّهِ، وأشركَ به كفرًا ينقله عن ملةِ الإسلامِ، ويصيرُ بذلك مرتدا، حكمُه حكمُ المرتدينَ عن الإسلامِ، إن كان قبل ذلك مسلمًا.

وإن لم يعتقدْ ذلكَ، فظاهرُ الحديثِ يدلُّ على أنه كفرُ نعمةِ اللَّهِ.

وقد سبقَ عنِ ابنِ عباسٍ، أنه جعلَه كفرًا بنعمة اللَّهِ عزَّ وجلَّ.

وقد ذكرنا في «كتابِ الإيمان» أن الكفرَ كفرانِ: كفرٌ ينقلُ عن الملةِ، وكفرٌ

دون ذلكَ، لا ينقلُ عن الملة، وقد بوَّب البخاريُّ عليه هنالك.

فإضافـةُ النِّعَم إلى غيرِ المنعمِ بها بـالقولِ كفرٌ للمنعمِ في نعـمهِ، وإن كان الاعتقادُ يخالفُ ذلك.

والأحاديثُ والآثار متظاهرةٌ بذلك.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»(١)، عن أبي هريرةَ، عـن النبيِّ ﷺ، قال: **«ألمْ تروْا إلى مـا قالَ ربُّكم؟ قـال: مـا أنعمتُ علَى عـبـادِي من نعمـةٍ إلا أصبـحَ فريقٌ منهم بهـا كافرينَ، يقولون: الكوكب وبالكوكب»**.

وروي من وجهٍ آخر(٢)، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، قال: **«إن اللَّهَ عزَّ وجلَّ ليُبَـيِّتُ القومَ بالنعمةِ، ثم يُصـبحُونَ وأكثـرُهم بها كافرٌ، يقـولون: مُطِرْنا بنوْءِ كذا وكذا»**.

وروى أبو سعيـدٍ الخدريُّ، عن النبي ﷺ، قال: **«لو أمسكَ اللَّهُ القطرَ عن الناسِ سبعَ سنينَ، ثم أرسلَه، كفرتْ طائفةٌ منهم، فقالوا: هذا من نوْءِ المِجْدَحِ»**(٣).

وروى أبو الدرداء، قـال: مُطرنا على عـهدِ رسـولِ اللَّهِ ﷺ ذات ليـلة، فأصبحَ رسولُ اللَّهِ ﷺ ورجلٌ يقولُ: مُطرنا بنوءِ كذا وكـذا، فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«قَلَّمَا أنعمَ اللَّهُ علَى قومٍ نعمةً، إلا أصبحَ كثيرٌ منهم بِها كافرينَ»**(٤).

وفي «صحيحِ مسلمٍ»(٥)، عن أبي مالكٍ الأشـعريِّ، عن النبيِّ ﷺ، قال:

---

(١) مسلم (١/ ٥٩).

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٥٢٥).

(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٧٠)، والنسائي (٣/ ١٦٥).

(٤) عزاه في «الكنز» للطبراني.

(٥) مسلم (٣/ ٤٥).

«أربعٌ في أمتي مِن أمرِ الجاهليةِ، لا يتركونَهنَّ: الفَخْر في الأحساب، والطعنُ في الأنسابِ، والاستسقاءُ بالنجومِ، والنياحةُ».

وخرج البخاريُّ في «صحيحه»[(١)] ، من روايةِ ابنِ عيينةَ، عن عبيدِ اللَّهِ: سمعَ ابنَ عباسٍ يقول: «خلالٌ من خلالِ الجاهليةِ: الطعنُ في الأنسابِ، والنياحةُ»، ونَسِيَ الثالثةَ: قال سفيان: ويَقُولون: إنها «الاستسقاءُ بالأنواءِ».

وروي عن ابنِ عباسٍ ـ مرفوعًا ـ من وجهٍ آخر ضعيفٍ.

وخرج ابنُ حبانَ في «صحيحه»[(٢)] ـ معناه ـ من حديثِ أبي هريرةَ ـ مرفوعًا.

وروى ابنُ عيينَةَ، عن إسماعيلَ بنِ أمية، أنَّ النبي ﷺ سمع رجلاً في بعضِ أسفارِه يقول: مُطِرْنا ببعضِ عَثانين الأسدِ، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«كذبتَ، بل هو سقي اللَّه عزَّ وجلَّ، ورزقُه»**[(٣)] .

وذكر مالكٌ [(٤)]، أنه بلغَه عن أبي هريرةَ، أنه كانَ يقولُ: مُطِرْنا بنوْءِ الفتحِ، ثم يتلو هذه الآية: **﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا﴾** [فاطر:٢].

وذكر الشافعيُّ [(٥)] أنه بلغه، أن عمرَ سمع شيخًا يقول ـ وقد مطرَ الناسُ ـ: أجَادَ مَا أَقْرَى المِجْدَح الليلةَ، فأنكر ذلك عمرُ عليه.

(١) البخاري (٥/ ٥٦).
(٢) أخرجه: ابن حبان (٣١٤١).
(٣) أخرجه: ابن جرير في «التفسير» (٢٧/ ١٢٠).
(٤) «الموطأ» (ص ١٣٦).
(٥) «الأم» (١/ ٢٢٣).

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسنادِه، عن سلمٍ العلويِّ، قال: كنا عند أنسٍ، فقال رجل: إنها لمخيلة للمطرِ، فقال أنس: إنها لربِّها لمطيعةٌ.

يشير أنسٌ إلى أنه لا يضافُ المطرُ إلى السحابِ، بلْ إلى أمرِ اللَّهِ ومشيئته.

وذكر ابنُ عبدِ البرِّ، عن الحسنِ، أنه سمعَ رجلاً يقولُ: طلع سهيلٌ، وبردَ الليلُ، فكره ذلكَ، وقال: إن سهيلاً لم يأت قطُّ بِحَرٍّ ولا بردٍ.

قال: وكره مالكٌ أن يقولَ الرجلُ للغيمِ والسحابة: ما أخلقَها للمطرِ.

قال: وهذا يدلُّ على أن القومَ احتاطُوا، فمنعوا الناسَ منَ الكلامِ بما فيه أدنى متعلَّق مِن كلامِ الجاهليةِ في قولِهم: مُطرنا بنوءِ كذا وكذا. انتهى.

واختلف الناسُ في قول القائل: «مُطِرْنا بنوْءِ كذا وكذا» مِن غيرِ اعتقادِ أهلِ الجاهليةِ: هو هو مكرُوه، أو محرَّمٌ؟

فقالت طائفةٌ: هو محرمٌ، وهو قولُ أكثرِ أصحابِنا، والنصوصُ تدلُّ عليه، كما تقدم.

وقال طائفة: هل مكرُوه، وهو قولُ الشافعيِّ وأصحابِه، وبعضِ أصحابِنا.

فأما إن قالَ: «مُطِرْنا في نوْء كذا وكذا»، ففيه لأصحابنا وجهان:

أحدهما: أنه يجوزُ، كقوله: «في وقت كذا وكذا»، وهو قولُ القاضِي أبي يعلَى وغيرِه.

ورُوي عن عمرَ ﷺ، أنه قال للعباسِ ﷺ، وهو يستسقِي: يا عباسُ، كم بقيَ مِن نوْءِ الثريَّا؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين، إن أهلَ العلمِ بها يزعمونَ أنها تعترض بالأفقِ بعدَ وُقُوعِهَا سبعًا، فما مضتْ تلك السبعُ حتى أغيثَ الناسُ.

رواه ابنُ إسحـاقَ، عن محمدِ بنِ إبراهيمَ بنِ الحـارثِ، عن ابنِ المسيبِ، قال: حدثني من لا أتهمُ، عن عمرَ ـ فذكره.

والوجهُ الثاني: أنه يُكْرَه، إلا أن يقـولَ مع ذلك: «برحمةِ الـلَّهِ عزَّ وجلَّ»، وهو قولُ أبي الحسن الآمديِّ مِن أصحابِنا.

واستدلَّ للأول بما ذكرَ مالكٌ في «الموطإ»[1] ، أنه بلغَه، أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يقولُ: **«إذا نشأتْ بحريتُّها فَشَاءَمَتْ، فتلك عينٌ غَديقةٌ»**.

وهذا من البلاغاتِ لمالكٍ التي قيل: إنه لا يعرَفُ إسنادُها.

وقد ذكرَه الشافعيُّ[2]، عن إبراهيمَ بنِ محمدِ بـنِ أبي يحيى، عنْ إسحاقَ بنِ عبدِ اللَّهِ، عنِ النبيِّ ﷺ ـ مرسلاً ـ، قال: **«إذا نشأتْ بَحْرِيَّةً، ثم استحالتْ شاميةً، فهو أمطرُ لها»**.

قال ابنُ عبدِ البرِّ: ابنُ أبي يحيى، مطعونٌ عليه متروكٌ.

وإسحاقُ، هو: ابن أبي فروةَ، ضعيفٌ ـ أيضًا ـ متروكٌ.

وهذا لا يَحتَجُّ به أحدٌ من أهل العلمِ.

قلت: وقد خـرجه ابنُ أبي الدنيـا من طريقِ الواقديِّ: نَا عـبدُ الحكيمِ بنُ عبـدِ اللَّهِ بن أبي فروةَ: سمـعتُ عوفَ بنَ الحارثِ: سـمعتُ عائشـةَ تقولُ: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ: **«إذا أنشاتِ السحابةُ بحـريةً، ثم تشاءَمت، فتلك عينٌ»** ـ أو قالَ: **«عامٌ غديقةٌ»**[3] .

يعني: مطرًا كثيرًا.

---

(١) «الموطأ» (ص ١٣٦).

(٢) «الأم» (١/ ٢٢٥).

(٣) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٧٧٥٧).

والواقديُّ: متروك ـ أيضًا.

والمعنى: أنَّ السحـابةَ إذا طلعتْ بالمدينةِ من جهـةِ البحـرِ، ثمَّ أخذتْ إلى ناحيةِ الشامِ، جاءتْ بمطرٍ كثيرٍ، وهو الغدَقُ.

قال تعالى: ﴿لأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦].

وقيَّده ابنُ عبدِ البرِّ: «غُدَيقةٌ» بضمِّ الغينِ بالتصغيرِ.

ومن هذا المعنـى: قـولُ اللَّه عـزَّ وجلَّ: ﴿فَالْحَامِلاتِ وِقْرًا﴾ [الذاريات:٢]، وفسَّره عليُّ بنُ أبي طالبٍ وابنُ عباسٍ ومَن بعدَهُما بالسحابِ.

قال مجاهدٌ: تحملُ المطرَ(١).

* * *

قال الله تعالى: ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ (٨٥) فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٨٧) فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾

قال آدمُ بنُ أبي أياسٍ: حدثنا حمادُ بنُ سلمةَ، عن عطاءِ بنِ السائبِ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ أبي ليلى، قالَ: تلا رسولُ اللَّه ﷺ هذه الآيات: ﴿فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾، إلى قـولِه: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ

(١) «فتح الباري» (٦/ ٣٣٤ ـ ٣٤١).

نَعِيمٍ﴾، إلى قوله: ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٣-٩٤]، قال: «إذا كانَ عندَ الموتِ قيلَ له هذا، فإن كانَ من أصحابِ اليمينِ أحبَّ لقاءَ اللَّهِ وأحبَّ اللَّهُ لقاءَهُ، وإن كانَ من أصحابِ الشمالِ كَرِهَ لقاءَ اللَّهِ وكرِهَ اللَّهُ لقاءَه».

وخرَّجَ الإمامُ أحمدُ، من طريقِ همّامٍ، عن عطاءِ بنِ السائبِ، سمعتُ عبدَ الرحمنِ بنِ أبي ليلَى - وهو يتبعُ جنازةً يقولُ: حدثني فلانُ بن فلان، سمعَ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ: «مَن أحبَّ لقاءَ اللَّهِ أحبَّ اللَّهُ لقاءَهُ، ومن كرِهَ لقاءَ اللَّهِ كرِهَ اللَّهُ لقاءَهُ». فأكبّ القوم يبكونَ. قال: «ما يبكيكُم؟» قالوا: إنا نكرهُ الموتَ. قال: «ليسَ ذاك، ولكنَّه إذا حُضِرَ: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ فإذا بشرَ بذلكَ أحبَّ لقاءَ اللَّه، واللَّهُ للقائه أحبُّ. ﴿وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾. وفي قراءة ابن مسعود: ﴿ثُمَّ تَصْلِيَةُ جَحِيم﴾. فإذا بشرَ بذلكَ كرهَ لقاءَ اللَّهِ واللَّهُ للقائه أكْرَهُ»(١).

خرَّجَ ابنُ البراءِ في كتابِ «الروضة» من حديثِ عمرِو بن شَمِر - وهو ضعيف جدًّا - عن جابر الجعفي، عن تميم بن حَذْلم، عن ابنِ عباس، عن النبي ﷺ: «ما من ميِّتٍ يموتُ إلا وهو يعرفُ غاسلَه، ويناشدُ حاملَه، إن كان بُشِّر بروْحٍ وريحانٍ وجنةِ نعيمٍ أن يعجِّلَه، وإن بُشِّرَ بنزلٍ من حميمٍ وتَصْليةِ جحيمٍ أن يحبسَهُ».

وفي «صحيحِ البخاريِّ»(٢)، عن عبادةَ بنِ الصامتِ، عن النبيِّ ﷺ قال: «من أحبَّ لقاءَ اللَّهِ أحبَّ اللَّهُ لقاءَهُ، ومن كرِهَ لقاءَ اللَّهِ كرِهَ اللَّهُ لقاءَهُ»، فقالتْ عائشةُ، أو بعضُ أزواجِهِ: إنا نكرهُ الموتَ. قالَ: «ليس ذلكَ، ولكنَّ المؤمنَ إذا حضرَه

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/ ٢٥٩).
(٢) البخاري (٨/ ١٣٢)، ومسلم (٨/ ٦٥).

الموتُ بُشِّر برضوانِ اللّهِ وكرامته، فليسَ شيءٌ أحبَّ إليه ممَّا أمامَهُ، فأحبَّ لقاءَ اللَّهِ وأحبَّ اللَّهُ لقاءَه، وإنَّ الكافرَ إذا حُضِر، بُشِّر بعذابِ اللَّهِ وعقوبتِه، فليسَ شيءٌ أكرهَ إليه ممَّا أمامَهُ، فكرهَ لقاءَ اللَّهِ وكرهَ اللَّهُ لقاءَهُ».

وقد رُوِيَ هذا المعنى عن النبيِّ ﷺ من وجوهٍ متعددةٍ.

وفي حديث زاذن، عن البراءِ بن عازبٍ، عن النبيِّ ﷺ: «إنَّ نفسَ المؤمنِ يقالُ لها: اخْرجي أيتها النفسُ المطمئنةُ إلى مغفرةٍ من اللَّهِ ورضوانٍ، فتخرجُ وتسيلُ كما تسيلُ القطرةُ من فيِّ السقاءِ، وإنَّ نفسَ الكافرِ يُقال لها: اخرجي أيتها النفسُ الخبيثةُ إلى غضبِ اللَّهِ وسخطه، فتتفرقُ في جسدِه، وتأبى أن تخرجَ، فيجذبونَها، فتنقطعُ معها العروقُ والعصبُ»(١).

وفي روايةِ عيسى بنِ المسيبِ عن عديٍّ بن ثابتٍ، عن البراءِ، عن النبيِّ ﷺ قال: «فتتفرق روحُهُ في جسدِه، كراهةَ أن تخرجَ لما ترى وتعاين، فيستخرجُها، كما يستخرجُ السفودَ من الصوفِ المبلولِ».

وقد دلّ القرآنُ على عذابِ القبرِ في مواضعَ أُخرَ كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

وخرَّج الترمذي بإسناده(٢)، عن عليّ قالَ: مازِلْنا في شكٍّ من عذابِ القبرِ حتى نزلتْ: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثر: ١-٢].

(١) أخرجه: أحمد في المسند» (٤/ ٢٨٧ ـ ٢٨٨).
(٢) الترمذي (٣٣٥٢).

وخرّج ابن حبانَ في «صـحيحه»[(١)]، من حديـثِ حمّادِ بنِ سلـمَةَ، عن محـمدِ بنِ عمرٍو، عن أبي سلـمةَ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه:١٢٤]، قال: «عذابُ القبرِ».

وقد روي موقوفًا، وروي من وجهٍ آخر عن أبي هريرةَ مرفوعًا.

وروي من وجه آخرَ من حـديثِ أبي سعيدٍ الخـدريِّ، مرفوعًا ومـوقوفًا، وسيأتي ذلك كلُّه إن شاءَ اللَّه تعالى.

وقال آدمُ بنُ أبي إياسٍ، حدثنا المسعـوديُّ، عن عبدِ اللَّهِ بن المخارق، عن أبيه، عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه، قالَ: إذا ماتَ الكافرُ أُجلس في قبرِه، فيقالُ له: من ربك؟ ومـا دينُك؟ فيقـولُ: لا أدري، فيـضيَّقُ عليـه قبُره، ثـم قرأ ابنُ مسعودٍ: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾، قال: المعيشة الضنكُ: عذابُ القبرِ.

وروى شريك، عن ابنِ إسحاقَ، عن الـبراءِ، في قولِه عزَّ وجلَّ: ﴿عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ﴾ [الطور:٤٧]. قال: عذابُ القبرِ.

وكذا رُوي عن ابنِ عباسٍ، في قولِه سبحانه وتعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ [السجدة:٢١] أنه عذابُ القبرِ.

وكذا قال قتادةُ، والربيعُ بنُ أنسٍ، في قولِه عز وجل: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ [التوبة:١٠١]، إحداهما في الدنيا، والأُخرى هي عذابُ القبرِ.

وقد تواترتِ الأحاديثُ عن النبيِّ ﷺ في عذابِ القبرِ والتعوّذِ منه.

---

(١) ابن حبان (٣١١٩).

وفي «الصحيحين»(١) عن مسروقٍ عن عائشةَ ﵂، أنها سألتِ النبيَّ ﷺ عن عذابِ القبرِ، قال: **«نَعمْ، عذابُ القبرِ حقٌّ»** قالتْ عائشةُ ﵂: فما رأيتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ بعدَ ذلكَ صلَّى صلاةً إلا تعوَّذَ من عذابِ القبرِ.

وفيهما عن عَمْرةَ(٢)، عن عائشةَ ﵂، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«إنّي رأيتكم تفتنونَ في القبورِ كفتنةِ الدَّجَّالِ»**، قالتْ عائشةُ ﵂: فكنتُ أسمعُ رسولَ اللَّهِ ﷺ بعدَ ذلكَ يتعوّذُ من عذابِ القبرِ.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»(٣) عن ابنِ عباسٍ، عن النبيِّ ﷺ أنه كان يعلِّمُهم هذا الدعاءَ كما يعلِّمُهُم السورةَ من القرآنِ: **«اللهُمّ إنِّي أعوذُ بكَ من عذابِ جهنَّمَ، وأعوذُ بكَ من عذابِ القبرِ، وأعوذُ بكَ من فتنةِ المسيحِ الدجالِ، وأعوذُ بكَ من فتنةِ المحيا والمماتِ»**.

وفيه(٤) - أيضًا -، عن أبي هريرةَ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«إذا فرغَ أحدُكم من التشهدِ الآخرِ، فليتعوَّذْ باللَّهِ من أربعٍ: من عذابِ جهنَّم، ومن عذابِ القبرِ، ومن فتنةِ المحيا والمماتِ، ومن فتنةِ المسيحِ الدَّجالِ»**.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»(٥) عن زيدِ بن ثابتٍ، قال: بينما النبيُّ ﷺ في حائطِ بني النجارِ على بغلةٍ لـه، ونحن معهُ، إذ حادتْ به، فكادتْ أن تلقيَهُ، وإذا أَقْبُرٌ ستةٌ أو خمسةٌ أو أربعةٌ، فقال: **«من يعرفُ أصحابَ هذه الأَقْبُرِ؟»** فقال رجلٌ: أنا، فقالَ: **«متى ماتَ هؤلاءِ؟»** فقال: ماتُوا في الإشراكِ، فقالَ النبيُّ

(١) أخرجه: البخاري (٢/ ١٢٣)، (٨/ ٩٧)، ومسلم (٢/ ٩٢).
(٢) لم أجدْه في «الصحيحين»، وهو عند النسائي (٤/ ١٠٥)، و(٨/ ٢٧٤)، وابن خزيمة (٨٥١).
(٣) مسلم (١/ ٩٤)، وكذلك أخرجه: البخاري (٢/ ١٢٤).
(٤) مسلم (١/ ٩٣).
(٥) مسلم (٨/ ١٦٠)، وأحمد في «المسند» (٥/ ١٩٠).

ﷺ: «**إن هذه الأمةَ تُبتلى في قبورِها، فلولا أن لا تَدافَنُوا لدعوتُ اللَّهَ أن يسمعَكُم من عذابِ القبرِ الذي أسمعُ منه**»، ثم أقبلَ علينا بوجهِه فقال: «**تعوّذوا باللَّهِ من عذابِ النارِ**»، فقالوا: نعوذُ باللَّهِ من عذابِ النارِ، فقالَ: «**تعوّذوا باللَّهِ من عذابِ القبرِ**»، قالوا: نعوذُ باللَّهِ من عذابِ القبرِ، فقال: «**تعوّذُوا باللَّهِ من الفتنِ ما ظهرَ منها وما بطَنَ**»، قالوا: نعوذ باللَّهِ من الفتنِ ما ظهرَ منها وما بطنَ، قال: «**تعوّذوا باللَّهِ من فتنة الدجال**»، قالوا: نعوذ باللَّه من فتنة الدجال.

وفي «صحيحِ مسلم»(١) عن أنسٍ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**لولا أن لا تدافنوا لدعوتُ اللَّهَ أن يسمعَكمُ من عذابِ القبرِ**».

وفي «الصحيحينِ»(٢)، من حديثِ أبي أيوب الأنصاريِّ، قالَ: خرجَ علينا النبيُّ ﷺ وقد وجبتِ الشمسُ، فسمعَ صوتًا، فقالَ: «**يهودُ تعذّبُ في قبورِهَا**».

وخرّج الإمامُ أحمدُ، وأبو داود(٣)، من حديثِ البراءِ بنِ عازبٍ، قال: خرجْنَا معَ رسولِ اللَّهِ ﷺ في جنازةِ رجلٍ من الأنصارِ فانتهيْنَا إلى القبرِ ولمْ يُلحَد، فجلسَ رسولُ اللَّهِ ﷺ وجلسْنَا حولَهُ، كأنّا على رؤوسِنَا الطيرُ، وفي يده عودٌ ينكتُ به الأرضَ، فرفعَ رسولُ اللَّهِ ﷺ رأسَهُ، فقالَ: «**استعيذُوا باللَّهِ من عذابِ القبرِ**»، مرتينِ أو ثلاثًا، وذكرَ الحديثَ بطوله.

وخرّجَ الإمامُ أحمدُ، من حديثِ أبي الزبيرِ، عن جابرِ بنِ عبدِ اللَّهِ، قالَ: دخلَ النبيُّ ﷺ نَخلاً لبني النجارِ، فسمعَ أصوات رجالٍ من بني النجارِ، ماتُوا في الجاهليةِ، يعذَّبونَ في قبورِهم، فخرجَ رسولُ اللَّهِ ﷺ فَزعًا فأمرَ

(١) مسلم (٨/ ١٦١).

(٢) أخرجه: البخاري (٢/ ١٢٣)، ومسلم (٨/ ١٦١).

(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/ ٢٨٧)، وأبو داود (٣٢١٢)، و(٤٧٥٣)، و(٤٧٥٤).

أصحابَهُ أن يتعوَّذوا باللَّهِ من عذابِ القبرِ[١] .

وخرّجه ـ أيضًا ـ من حديثِ أبي سفيانَ، عن جابرٍ، عن أمِّ مبشرٍ، قالتْ: دخلَ عليَّ رسولُ اللَّهِ ﷺ وأنا في حائطٍ من حوائطِ بني النجارِ، فيه قبور منهم، قد ماتُوا في الجاهليةِ، فسمعهم يعذبونَ، فخرجَ وهو يقولُ: **«استعيذُوا باللَّهِ من عذابِ القبرِ»**، قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ ليعذَّبونَ في قبورِهم؟ قال: **«نعم عذابًا تسمعُهُ البهائمُ»**[٢] .

وفي «الصحيحينِ»[٣] عن ابنِ عباسٍ، أن النبيَّ ﷺ مرّ بقبرينِ، فقالَ: **«إنهما ليَعذّبانِ، وما يعذبانِ في كبيرٍ، أما أحدُهما فكانَ لا يستترُ من البولِ، وأما الآخرُ فكانَ يمشي بالنميمةِ»**، ثم أخذ جريدةً رطبةً، فشقَّها باثنتينِ، ثم غَرَز على كلِّ قبرٍ منهُما واحدةً، قالوا: لِمَ فعلتَ هذا يا رسولَ اللَّهِ؟ قال: **«لعلَّه يخففُ عنهُما ما لم ييْبسا»**.

وقد رُوي هذا الحديثُ عن النبيِّ ﷺ بهذا المعنى مِنْ وجوهٍ متعددة، خرّجه ابنُ ماجه[٤] من حديثِ أبي بكرةَ، وفي حديثِهِ: **«وأمَّا الآخرُ يعذَّبُ في الغِيبةِ»**.

وخرّجه الخلالُ وغيرُه، من حديثِ أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، وفي بعضِ رواياتِهِ: **«وأمَّا الآخرُ فكان يهمِزُ الناسَ بلسانِه، ويمشي بينَهُم بالنميمةِ»**.

وخرّجَه الطبرانيُّ من حديثِ عائشةَ[٥] ، وأنسِ بنِ مالكٍ، وابنِ عمرَ.

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦).
(٢) السابق (٦/ ٣٦٢)، وابن حبان (٣١٢٥).
(٣) أخرجه: البخاري (١/ ٦٥)، (٢/ ١١٩، ١٢٤)، (٨/ ٢٠)، ومسلم (١/ ١٦٦).
(٤) ابن ماجه (٣٤٩).
(٥) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٦٥٦٥).

وخرّجه أبو يعلى الموصلي(١) وغيرُه، من حديثِ جابرٍ، وفي حديثِه: «**أمّا أحدُهما فكانَ يغتابُ الناسَ**».

وخرّجه الإمامُ أحمدُ(٢)، من حديثِ أبي أمامةَ، وفي حديثِه قالوا: يا نبيَّ اللَّهِ، وحتى متى يعذبان؟ قال: «**غَيْبٌ لا يعلَمُه إلا اللَّهُ، ولولا تمريجٌ في قلوبِكم وتزيدُكُم في الحديثِ لسمعتُم ما أسمعُ**». ورويَ من وجوهٍ أُخرَ.

وخرَّج النسائيُّ(٣)، من حديثِ عائشةَ ﵂، قالتْ: دخلَتْ عليَّ امرأةٌ من اليهودِ فقالَتْ: إنْ عذابَ القبرِ من البولِ، قلتُ: كذبت، قالتْ: بلَى، إنه ليقرظُ من الجلدِ والثوبِ، قالتْ: فخرجَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إلى الصلاةِ، وقد ارتفعتْ أصواتُنا، فقالَ ﷺ: «**ما هذا؟**» فأخبرتُه بما قالتْ، فقالَ: «**صَدَقَتْ**».

وخرّجَ الإمامُ أحمدُ، وأبو داودَ، والنسائيُّ، وابن ماجه(٤)، من حديثِ عبدِ الرحمنِ بنِ حسنة، سمعَ النبيَّ ﷺ يقولُ: «**أَلَم تعلمُوا ما لقيَ صاحبُ بني إسرائيلَ؟ كانُوا إذا أصابَهُم البولُ قطعُوا ما أصابَهُ البولُ، فنهاهُم فعُذِّبَ في قبرِه**».

وخرّجَ الإمامُ أحمدُ، وابنُ ماجه(٥)، من حديثِ أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**أكثر عذاب القبر من البول**»، وروي موقوفًا على أبي هريرة.

وخرّجَ البزارُ، والحاكمُ(٦)، من حديثِ ابنِ عباسٍ ﵄، عن النبيِّ ﷺ

---

(١) أخرجه: أبو يعلَى (٤/ ٢٠٥٠، ٢٠٥٥، ٢٠٦٦).

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٢٦٦).

(٣) النسائي (٤/ ١٠٤ ـ ١٠٥).

(٤) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/ ١٩٦)، وأبو داود (٢٢)، والنسائي (١/ ٢٦، ٢٨)، وابن ماجه (٣٤٦).

(٥) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٣٢٦، ٣٨٨)، وابن ماجه (٣٤٨).

(٦) الحاكم (١/ ١٨٣ ـ ١٨٤)، وأخرجه: البزار والطبراني كما في «المجمع» (١/ ٢٠٧).

قالَ: «إنّ عامّة عذابِ القبرِ من البولِ، فتنزّهُوا منه».

وخرّجَ الطبرانيُّ(١)، والدارقطنيُّ، منِ حديثِ أنسٍ، عنِ النبيِّ ﷺ قال: «اتّقوا البولَ، فإنّه أوّلُ ما يحاسَبُ به العبدُ في القبرِ».

وخرّج ابنُ عديّ(٢)، من حديث أنسٍ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ مرّ برجلٍ يعذَّبُ في قبرِهِ من النميمةِ، ورجلٌ يعذَّبُ في قبرِهِ من الغيبةِ، ورجلٌ يعذَّب في قبرِهِ من البولِ.

وخرّجَ أيضًا(٣)، بإسنادٍ ضعيفٍ، عن قتادةَ، عن أنسٍ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال: «فتنةُ القبرِ من ثلاثٍ: من الغيبةِ، والنميمةِ، والبولِ».

ولكن روى عبدُ الوهابِ الخفّاف، عن سعيدٍ، عن قتادةَ، قالَ: كان يُقال: عذابُ القبرِ من ثلاثة أثلاث: ثلثٌ من الغيبةِ، وثلثٌ من النميمةِ، وثلثٌ من البولِ. خرّجه الخلالُ وهذا أصحُّ.

وخرَّجَ الأثرمُ والخلالُ من حديث ميمونة ـ مولاة رسول اللَّه ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ لها: «يا ميمونةُ! إنَّ منْ أشدِّ عذابِ القبرِ من الغيبةِ والبولِ».

وقد ذكرَ بعضُهم السرَّ في تخصيص البولِ والغيبةِ والنميمةِ بعذابِ القبرِ، وهوَ أنّ القبرَ أولُ منازلِ الآخرةِ، وفيه أنموذجُ ما يقعُ في يومِ القيامةِ من العقابِ والثوابِ.

والمعاصِي التي يعاقبُ عليها العبدُ يومَ القيامةِ نوعان: حقُّ اللَّهِ، وحقُّ العبادِ، وأولُ ما يُقضَى فيه يومَ القيامةِ من حقوقِ اللَّهِ الصلاةُ، ومن حقوقِ العبادِ الدماءُ.

(١) قال الهيثمي في «المجمع» (١/ ٢٠٩): رواه الطبراني في «الكبير» ورجاله موثقون.
(٢) «الكامل» (٣/ ٩١٨). (٣) السابق (٤/ ١٤٥٢).

وأمّا البرزخُ فيقضى فيه في مقدماتِ هذَينِ الحقَّينِ ووسائلِهما، فمقدمةُ الصلاةِ: الطهارةُ من الحَدَثِ والخَبثِ، ومقدمةُ الدماءِ النميمةُ والوقيعةُ في الأعراضِ، وهما أيسرُ أنواعِ الأذى، فيبدأ في البرزخِ بالمحاسبةِ والعقابِ عليهما.

وروى عبدُ الرزَّاقِ، عن معمرٍ، عن أبي إسحاقَ، عن أبي ميسرةَ، عمرِو بنِ شرحبيلَ، قالَ: ماتَ رجلٌ، فلمَّا دخلَ في قبرِه أتتْه الملائكةُ، فقالُوا: إنا جالدوكَ مائةَ جلدةٍ من عذابِ اللَّهِ، قال: فذكرَ صلاتَهُ وصيامَهُ واجتهادَهُ قال: فخفَّفُوا عنه حتى انتهى إلى عشرةٍ، ثم سألَهُم، فخفَّفوا عنه حتَّى انتهى إلى واحدةٍ، فجلدوه جلدةً اضطرمَ قبرُه ناراً، وغُشِيَ عليه، فلمَّا أفاق قالَ: فيم جلدتمُوني هذه الجلدة؟ قالوا: إنَّك بُلْتَ يومًا، ثم صليتَ ولم تتوضأْ، وسمعتَ رجلاً يستغيثُ مظلومًا، فلم تغثْهُ.

ورواهُ أبو سنان، عن أبي إسحاقَ، عن أبي ميسرةَ، بنحوِه.

ورويناه من طريقِ حفصِ بن سليمانَ القارئ وهو ضعيفٌ جدًّا، عن عاصمٍ، عن أبي وائلٍ، عن ابنِ مسعودٍ، عن النبيِّ ﷺ به.

فعذابُ القبرِ حصلَ ها هنا بشيئينِ: أحدُهما: تركُ طهارةِ الحَدثِ، والثاني: تركُ نصرةِ المظلومِ مع القدرةِ عليه، كما أنه في الأحاديثِ المتقدمةِ حصلَ بتركِ طهارةِ الخبثِ، والظلمِ بالقولِ، وهي متقاربةٌ في المْعنَى.

وفي حديثِ عبدِ الرحمنِ بنِ سمرةَ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**إنّي رأيتُ الليلَةَ عجبًا**» فذكرَ الحديثَ بطوله، وفيه: «**رأيتُ رجُلاً من أمَّتي بُسِطَ عليه عذابُ القبرِ، فجاءَهُ وضوءُه فاستنقذَهُ منه**»، أخرجه الطبراني وغيره.

ففي هذا الحديثِ أنّ الطهارةَ من الحدثِ تُنجي من عذابِ القبرِ.

وكذلك الأمرُ بالمعروفِ والنهيُّ عن المنكرِ يُنجِي من عذابِ القبرِ، كما تقدَّم ذكْرُه في البابِ الثانِي، لأنَّ فيه غايةَ النفعِ للناسِ في دينهِم.

وكذلكَ الجهادُ والرباطُ، لأنَّ المجاهِدَ والمرابِطَ في سبيلِ اللّهِ كلٌّ منهُما بذَلَ نفسَهُ، وسمحَ بنفسِهِ لتكونَ كلمةُ اللّهِ هي العُليا، ودينُه هو الظاهرُ، وليذبَّ عن إخوانِهِ المؤمنينَ عدوَّهم.

ففي الترمذيِّ(١)، عن المقدامِ بن معدي كرب، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**للشهيدِ عندَ اللّهِ ستُّ خصالٍ: يُغفر لهُ في أولِ دفعةٍ، ويرَى مقعدَهُ من الجنةِ، ويُجارُ من عذابِ القبرِ، ويأمنُ من الفزعِ الأكبرِ**» وذكر بقيةَ الحديثِ.

وخرّج الحاكمُ(٢) وغيرُه، من حديثِ أبي أيوبَ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**من لَقِي العدو في سبيلِ اللّهِ فصبرَ حتَّى يُقتلَ أو يُغلبَ لم يُفتَنْ في قبرِه أبداً**».

وفي «صحيحِ مسلمٍ»(٣) عن سلمانَ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**رباطُ يومٍ وليلةٍ خيرٌ من صيامِ شهرٍ وقيامِه، وإن ماتَ أُجرِي عليه عملُه الذي كانَ يعملُه، وأُجْرِي عليه رزقُه، وأمِنَ الفتَّان**». وخرجه غيره وقال فيه: «**ووُقِيَ عذابَ القبرِ**».

وخرّج الترمذيُّ وأبو داود(٤)، من حديث فَضَالةَ بنِ عُبَيدٍ، عن النبي ﷺ معناه أيضًا، ورُوي من وجوهٍ أُخر.

---

(١) أخرجه: الترمذي (١٦٦٣)، وابن ماجه (٢٧٩٩).

(٢) الحاكم (٢/ ١١٩).

(٣) أخرجه: مسلم (٦/ ٥١)، والترمذي (١٦٦٥)، والنسائي (٦/ ٣٩)، وأحمد في «المسند» (٥/ ٤٤٠ ـ ٤٤١).

(٤) أبو داود (٢٥٠٠)، والترمذي (١٦٢١)، وأحمد في «المسند» (٦/ ٢٠)، والحاكم (٢/ ٧٩، ١٤٤)، وابن حبان (٤٦٢٣).

وخرّج النسائيُّ(١) من حديثِ راشدِ بنِ سعدٍ، عن رجلٍ من أصحابِ النبي ﷺ أن رجلاً قال: يا رسولَ اللَّهِ، ما بالُ المؤمنينَ يفتنونَ في قبورِهم إلا الشهيدُ؟ قال: **«كفَى ببارقةِ السيوفِ على رأسه فتنةً»**.

وروى مجالدٌ، عن محمدِ بن المنتشرِ، عن ربعي، عن حذيفةَ، قالَ: إنّ في القبرِ حِسَابًا، وفي القيامةِ حِسابًا، فمن حوسبَ يومَ القيامةِ عُذِّبَ.

وروى ابنُ عجلانَ، عن عونِ بنِ عبدِ اللَّهِ، قالَ: يقالُ: إنَّ العبدَ إذا أُدخِلَ قبرَه، سئِلَ عن صلاتهِ أولَ شيءٍ يُسألُ عنهُ، فإنْ جازَتْ له صلاتُه، نُظِرَ فيما سِوى ذلكَ من عملهِ، وإن لم تجزْ لهُ، لم ينظرْ له في شيءٍ من عملهِ بعدُ.

وقد وردَ في عذابِ القبرِ أنواعٌ:

منْها: الضربُ إمَّا بمطراقٍ منْ حديدٍ أو غيرِه، وقدْ سبقَ ذلكَ في أحاديثَ متعددةٍ.

وروينا من طريقِ عثمانَ بنِ أبي العاتكة، عن عليِّ بن زيدٍ، عن القاسمِ، عن أبي أمامةَ الباهليِّ، قالَ: أتَى رسولُ اللَّهِ ﷺ بقيعَ الغرقدِ، فوقفَ على قبرينِ، فقالَ: **«أدفنتُم ها هنا فُلانًا وفلانة؟»** أو قالَ: **«فلانًا وفلانًا؟»** قالوا: نعمْ، فقالَ: **«قدْ أقعدَ فلانٌ الآن يُضربُ»**، ثمَّ قالَ: **«والَّذي نفسي بيدِه لقدْ ضُرِبَ ضربةً ما بقيَ منهُ عضوٌ إلا انقطعَ، ولقدْ تطايرَ قبرهُ نارًا، و لقدْ صرخ به صرخةً يسمعُها الخلائقُ إلا الثقلينِ من الجنِّ والإنسِ، ولولا تمريجٌ في صدورِكم وتزييدُكُم في الحديثِ لسمعتُم**

---

(١) النسائي (٤/ ٩٩).

ما أسمعُ»، قالوا: يا رسولَ اللَّه ما ذنبُهما؟ قال: «**أما فلانٌ، فإنَّه كانَ لا يستبرئُ من البولِ، وأما فلانٌ أو فلانةٌ، فكانَ يأكلُ لحومَ الناسِ**». وفي هذا الإسناد ضعفٌ.

وخرجَ ابنُ جريرٍ في «تفسيرِه»، من طريقِ أسباطٍ، عن السُّدِّي. قالَ: قالَ البراءُ بنُ عازبٍ: إنَّ الكافرَ إذَا وُضعَ في قبرِه أتتْه دابّةٌ كأنَّ عينيهَا قِدْرانِ من نحاسٍ، معها عمودٌ من حديد، فتضربُه ضربةً بين كتفيهِ، فيصيحُ، فلا يَسمعُ صوتَه أحدٌ إلا لعنهُ، ولا يَبْقَى شيءٌ إلا سمعَ صوته إلا الثقلينِ الجنَّ والإنسَ.

ومن طريقِ جويبرٍ، عن الضحاكِ، قالَ: الكافرُ إذا وُضعَ في قبرِه ضُربَ ضربةً بمطراقٍ، فيصيحُ صيحةً، فيسمعُ صوتَه كلُّ شيءٍ إلا الثقلينِ الجنَّ والإنسَ، فلا يسمعُ صيحتَه شيءٌ إلا لعنَهُ.

وروى اللالكائيُّ بإسنادِه، عن محمدِ بنِ المنكدرِ، قالَ: بلغَني أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يسلِّطُ على الكافرِ في قبرِه دابّةً عمياءَ في يدِها سوطٌ من حديدٍ، رأسُها مثلُ غربِ البعيرِ فتضربُه بها إلى يومِ القيامةِ، لا تراهُ ولا تسمعُ صوتَه فترحمُهُ.

ومنها: تسليطُ الحياتِ والعقاربِ عليه؛ وقد سبقَ ذلكَ من حديثِ أبي هريرةَ.

وروى ابنُ وهبٍ، حدثني عمرُو بن الحارثِ، أنَّ أبا السمحِ، حدَّثه عن ابنِ حجيرةَ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: «**أتدرونَ فيما أُنزلتْ هذه الآيةُ: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤] ؟ تدرونَ ما المعيشةُ الضنكُ؟**» قالوا: اللَّهُ ورسولُه أعلمُ، قال: «**عذابُ الكافرِ في قبرِه، والذي نفسي بيده إنه ليسلَّطُ عليه تسعةٌ وتسعونَ تنِّينًا، أتدرونَ ما التنِّينُ؟ قال: تسعةٌ وتسعونَ حيةً، لكلِّ حيةٍ سبعةُ رؤوسٍ**»،

وفي رواية: «**تسعةُ رؤوسٍ، ينفخونَ في جسمِهِ، ويلسعونَهُ ويخدِشُونَهُ إلى يومِ يبعثونَ**»(١) خرّجه بقيُّ بنُ مخلدٍ في «مسندِه».

وخرّجه البزارُ، من وجهٍ آخرَ عن ابنِ حجيرةَ عن أبي هريرةَ، مرفوعًا أيضًا مختصرًا.

وخرّج ابنُ منده من طريقِ أبي حازمٍ، عن أبي هريرةَ، وذكرَ قبضَ روحِ المؤمنِ والكافرِ، وقالَ في الكافرِ: «**ويسلَّطُ عليه الهوامُّ، وهي الحيّاتُ، فينامُ كالمنهوسِ فينامُ ويفزعُ**». وخرجه مرفوعًا أيضًا.

وقد رُوي عن درّاجٍ أبي السمحِ، عن أبي الهيثمِ، عن أبي سعيد الخدريِّ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**يسلّطُ على الكافرِ في قبرِه تسعةٌ وتسعونَ تنينًا، يلدغونَهُ حتَّى تقومَ الساعةُ، ولو أنَّ تنينًا منها نفخَ على الأرضِ ما أنبتتْ خضراءَ**». خرّجه الإمامُ أحمدُ، وابنُ حبانَ في «صحيحِه»(٢)، من طريقِ سعيدِ بن أبي أيوبَ، عن دراجٍ بهِ.

ورواه ابنُ لهيعةَ، عن درّاجٍ، مرفوعًا ـ أيضًا ـ إلا أنه قالَ: «**ضمّةُ القبرِ**».

وخرَّجه الخلالُ، مِن طريقِ سعيدِ أبي خلادِ بنِ سليمٍ، عن دراجٍ أبي السمحِ، عمَّن حدَّثَهُ، عن أبي سعيد: أنَّهم سألُوه عن المعيشةِ الضنكِ، قال: هي معيشةُ الكافرِ في قبرِه، يبعثُ اللَّهُ إليه قبلَ يومَ القيامةِ اثنينِ وسبعينَ تنينًا وعقاربَ كالبغالِ يلسعْنهُ في قبرِه، ويضيّقُ عليه قبرُه حتَّى تدخلَ الأضلاعُ

(١) أخرجه: أبو يعلى (١١/ ٦٦٤٤)، وابن حبان (٣١١٩)، والحاكم (١/ ٣٨١)، وقد رواه الأخيران مختصرًا.

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٣٨)، وابن حبان (٣١٢١)، والدارمي (٢/ ٣٣١)، وأبو يعلى (١٣٢٩) موقوفًا.

بعضُها في بعضٍ، يتمنَّى أنه لو خرجَ منها إلى النارِ. وهذا موقوفٌ، قد سبقَ في البابِ الثاني من وجهٍ آخر مرفوعًا، وقد رُوي بعضُه من وجهٍ آخرَ مرفوعًا وموقوفًا أيضًا.

وروى منصورُ بنُ صقيرٍ، عن حمادِ بنِ سلمةَ، عن أبي حازمٍ، عن النعمانِ بن أبي عياشٍ، عن أبي سعيدٍ، أنّ النبيَّ ﷺ قالَ في هذه الآية: ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه:١٢٤] قال: «**المعيشةُ الضنكُ عذابُ القبرِ، يضيَّقُ عليه قبرُه حتَّى تختلفَ أضلاعُهُ، ولا يزالُ يعذَّبُ حتى يُبعثُ**» خرَّجه الخلالُ، ومنصورُ بن صُقير فيه ضعفٌ.

وخالفَهُ آدمُ بنُ أبي إياسٍ، فرواه عن أبي حازمٍ، عن حمَّادِ بن سلمةَ، ووقفه.

وكذا رواه الثوريُّ، وسليمانُ بنُ بلالٍ، والدراورديُّ، وغيرُهم، عن أبي حازمٍ، عن النعمانِ، عن أبي سعيدٍ مرفوعًا، وخالفَهُم ابنُ عيينة، فرواه عن أبي حازمٍ عن أبي سلمة عن أبي سعيدٍ موقوفًا أيضًا، فمنهم من قال: أخطأ فيه ابنُ عيينةَ، كذا قاله أبو زرعةَ والعلائيُّ، وقيل: بل أبو سلمةَ هذا هو النعمانُ بنُ أبي عياشٍ، قاله أبو حاتمٍ الرازيُّ، وأبو أحمدَ الحاكمُ، وأبو بكرٍ الخطيبُ وغيرُه.

وخرَّجه الإمامُ أحمدُ، من حديثِ علي بنِ زيدِ بن جدعانَ، عن أمِّ محمدٍ، عن عائشةَ ﵂، أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قالَ: «**يرسَلُ على الكافرِ حيَّتان، واحدة من قِبَل رأسهِ، والأخرى من قبلِ رجليهِ، يقرصَانهِ قرصًا، كلَّما فرغَتا عادَتا إلى يومِ القيامةِ**»(١).

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٦/ ١٢٥).

وخرّجَ ابنُ أبي الدنيا ـ بإسنادٍ ضعيفٍ ـ عن الحسنِ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا يُرى أحدٌ خارجًا من الدنيا شاتمًا لأحد منهم** ـ يعني من أول هذه الأمة ـ **إلا سلَّطَ اللَّهُ عليه دابةً في قبرِه، تقرصُ لحمَهُ، يجدُ ألَمَهُ إلى يوم القيامة**».

وخرّج الخلالُ، من طريقِ عاصمٍ، عن زِرٍّ، عن ابنِ مسعودٍ، قالَ: يقالُ للكافرِ ـ يعني في قبرِه :ـ ما أنتَ؟ فيقولُ: لا أدْري، فيقالُ: لا دريتَ ـ ثلاثًا، ويضيَّقُ عليه قبرُه حتَّى تختلفَ أضلاعُه، ويرسلُ عليه حيَّاتٌ من جوانبِ قبرِه، ينهشْنهُ ويأكلْنهُ، فإذا خرجَ صاحَ، قُمِعَ بمقامع من نارٍ أو حديدٍ.

وخرّجه أبو بكرٍ الآجريُّ، وزاد فيه: «**ويُضربُ ضربةً يلتهبُ قبرُه نارًا**» وعنده: «**وتنبعثُ عليه حيّاتٌ من النارِ كأعناقِ الإبلِ**».

وخرّج ابنُ أبي الدنيا في كتابِ «الموت» بإسناده عن عبيدِ بن عميرٍ، قالَ: يسلَّطُ عليه شجاعٌ أقرعُ، فيأكله حتى يأكلَ أمَّ هامتِه، فهذا أوَّلُ ما يصيبُه من عذابِ اللَّهِ.

وبإسناده عن مسروقٍ، قال: ما من ميِّتٍ يموتُ وهو يزني، أو يسرقُ، أو يشربُ، أو يأتي شيئًا من هذه، إلا جُعِلَ معه شجاعانِ ينهشانهِ في قبرِه.

ومنها: رضُّ رأسِ الميتِ بحجرٍ، أو شقُّ شدْقه أو نحوُ ذلك.

وفي حديث سمرةَ بنِ جندبٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**رأيتُ الليلةَ رجلين أتياني فأخذَا بيدي، فأخرجَاني إلى أرضٍ مقدسة، فإذا رجلٌ جالسٌ ورجلٌ قائمٌ بيده كَلُّوبٌ من حديدٍ يدخلُه في شدقه حتَّى يبلغَ قفاهُ، ثم يفعلُ بشدقه الآخر مثلَ ذلك، ويلتئمُ شدقُه هذا، فيعودُ فيصنعُ مثلَه، قلتُ: ما هذَا؟ قالا: انطلقْ فانطلقْنا، حتَّى أتينَا على رجلٍ مضطجعٍ على قفاه، ورجلٌ قائمٌ على رأسِه بصخرةٍ أو فهرٍ، فيشدَخُ بها**

رأسَه، فإذا ضربَه تدهْدَهَ الحجرُ، فانطلقَ إليـه ليأخذَه فلا يرجعُ إلى هذا حتى يلتئمَ رأسُه، وعادَ رأسُه كما هُو، فعادَ إليه فضربَهُ، قلتُ: ما هذا؟ قالا لِي: انطلقْ، فانطلقْنا، إلى نقبٍ مثلِ التنورِ أعلاه ضيقٌ وأسفله واسعٌ، توقدُ تحتَهُ نارٌ، وإذا فـيه رجالٌ ونساءٌ عراةٌ فيأتيهم اللهبُ من تحتِهم فإذَا اقتـربَ ارتفعوا حتَّى كادُوا أن يخرجُوا، فإذا خمدتَ رجـعُوا فيها، وفيها رجـالٌ ونساءٌ، فقلتُ: ما هذا؟ قالا: انطلقْ، فانـطلقْنا، حتَّى أتيْنَا على نهرٍ من دمٍ، فيه رجلٌ قائمٌ، وعلى شاطئِ النهرِ رجلٌ بين يـديهِ حجارةٌ، فأقبلَ الرجلُ الذي في النهرِ، فإذا أرادَ أن يخرجَ، رَمَى الرجلُ بحجرٍ في فيه فردَّه حـيثُ كان، فجعلَ كلما جاءَ ليخرجَ رَمَى في فِيـه بحجرٍ رجعَ كـما كانَ، فـقلتُ: ما هذا؟ قالا لي: انطلـقْ، فانطلقْنا». فذكرَ الحديثَ. وفيه: «قلتُ: طوفتُماني الليلةَ، فأخـبراني عما رأيتُ؛ قالا: نعم، أما الرجلُ الذي رأيتَه يشقّ شدقُه فكذّابٌ، يحدِّثُ بالكذبِ، فتُـحملُ عنه حتى تبلغَ الآفاقَ، فيصنعُ به ذلك إلى يومِ القـيامـةِ؛ والذي رأيتَـه يُشدخُ رأسُـه فرجلٌ علّمـه اللّهُ القـرآنَ، فنامَ عنه بالليلِ، ولم يعملْ فيه بالنهارِ؛ يُفعـلُ به إلى يوم القيامةِ؛ وأما الذي رأيتَ في النقبِ فهم الزناةُ والزوانِي، وأما الذي رأيتَ في النهرِ فآكلُ الرِّبا»، وذكرَ الحديثَ بطولِه، خرّجه البخاريُّ[1].

وروى هذا الحديثَ أبو خلدةَ، عن أبي حـازمٍ، عن سمرةَ، وفي حـديثِه: «قلتُ: فـالذي يسبحُ في الدمِ؟ قـال: ذاك صاحـبُ الرِّبا، ذاكَ طعامُـه في القبـرِ إلى يومِ القيـامـةِ. قلت: فالذي يشـدخُ رأسُه؟ قـال: ذاك رجلٌ علَّمـه اللّهُ القرآنَ، فنامَ عنه حـتى نسيَه، لا يقرأُ منه شيئًا، كلَّما رقدَ دقُّوا رأسَه في القبرِ إلى يومِ القيامةِ، ولا يدعونَهُ ينامُ».

ومنها: تضييقُ القبـرِ على الميتِ حتَّى تختلفَ فيه أضـلاعُه، وقد سبقَ ذلك في أحاديثَ متعددةٍ.

---

(١) البخاري (٢/ ٦٥)، (٤/ ١٧٠)، (٦/ ٨٦)، (٩/ ٥٥)، ومسلم (٧/ ٥٨).

وخرّج الخلالُ ـ بإسنادٍ ضعيفٍ ـ عن أبي سعيدٍ، عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ في الكافرِ: «**فيضيّقُ عليه قبرُهُ حتى يخرجَ دماغُهُ من بَينِ أظفارِه ولحمِه**».

وقد وردَ ما يدلُّ على أن التَّضييقَ عامٌّ للمؤمنِ والكافرِ، وصرّحَ بذلكَ طائفةٌ من العلماءِ، منهم ابنُ بطةَ وغيرُه، فروى شعبةُ، عن سعدِ بنِ إبراهيمَ، عن نافعٍ، عن عائشةَ ﵂، عن النبيِّ ﷺ قال: «**إن للقبرِ ضغطةً، لو كان أحدٌ ناجيًا منها لنَجا منها سعدُ بنُ معاذٍ**» خرَّجه الإمام أحمد[1].

وقد اختُلِفَ على شعبةَ في إسنادِه، فقيلَ: عنه كما ذكرنا: وقيل: عنه، عن نافعٍ، عن إنسانٍ، عن عائشة ﵂، وقيل: عنه، عن سعدٍ، عن نافعٍ، عن امرأةِ ابنِ عمرَ، عن عائشةَ ﵂.

وروى: الثوريُّ، عن سعدٍ، عن نافعٍ، عن ابنِ عمرَ، عن النبيِّ ﷺ وليس بالمحفوظِ.

ورواه ابنُ لهيعةَ، عن عقيلٍ، سمعَ سعدَ بنَ إبراهيمَ، يخبرُ عن عائشةَ بنتَ سعدٍ، عن عائشةَ أمِّ المؤمنينَ، عن النبيِّ ﷺ بأنه قالَ لها: «**تعوَّذي باللَّهِ من عذابِ القبرِ، فإنه لو نجا منه أحدٌ لنجا سعدُ بنُ معاذٍ، لكنّه لم يزدْ على ضمِّه**». خرَّجه الطبراني، ورواية شعبة أصح.

وخرّج الإمامُ أحمدُ، من حديثِ محمدِ بنِ جابرٍ، عن عمرِو بن مرةَ، عن أبي البختري، عن حذيفةَ، قالَ: كنَّا مع النبيِّ ﷺ في جنازة، فلمَّا انتهينَا إلي القبرِ قعدَ على شفته فجعلَ يرددُ بصرَه فيه، ثم قال: «**يُضغطُ المؤمنُ فيه ضغطةً تزولُ منها حمائِلُه، وتُملأُ على الكافرِ نارًا**»[2]. ومحمد بن جابر هو اليمامي:

(١) «المسند» (٦/ ٥٥، ٩٨). (٢) «المسند» (٥/ ٤٠٧).

ضعيف: وأبو البختري لم يدركْ حذيفةَ.

وخرّج النسائيُّ، من حديثِ عبيدِ اللَّهِ بنِ عمرَ عن نافعٍ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرَ رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قالَ: «**هذا الذي تحرَّكَ له العرشُ وفتحتْ له أبوابُ السماءِ، وشهدَهُ سبعونَ ألفًا من الملائكةِ، لقد ضُمّ ضمةً ثمَّ فُرِّج عنه**»[1].

وخرَّجه البزارُ وقالَ: وروي عن عبيدِ اللَّهِ، عن نافعٍ مرسلاً.

قلتُ: وقد سبقَ ذكرُ الاختلافِ فيه عن سعدِ بنِ إبراهيمَ عن نافعٍ.

ورواه زيدُ بنُ أبي أنيسةَ، عن جابرٍ، عن نافعٍ، عن صفيةَ بنتِ أبي عبيدٍ، عن بعضِ أزواجِ النبيِّ ﷺ قال: «**إن كنتُ لأرى لو أنَّ أحدًا أُعفي من عذابِ القبرِ، لعُفِي منه سعدُ بنُ معاذٍ، لقد ضُمَّ فيه ضمةً**»[2].

وخرَّجه البزارُ من وجهٍ آخرَ، عن نافعٍ، عن ابنِ عمرَ، ومن طريقِ عطاءِ بنِ السائبِ عن مجاهدٍ عن ابنِ عمرَ.

وخرَّج الطبراني من طريقِ زكريا بنِ سلامٍ، عن سعيدِ بن مسروقٍ، عن أنسٍ، قال: لما ماتتْ زينبُ بنتُ رسولِ اللَّه ﷺ حزنَ، ثم سُرِّيَ عنه، فقلنا: يا رسولَ اللَّه، رأينا منك ما لم نرَ، قالَ: «**ذكرتُ زينبَ وضعفَها وضغطةَ القبرِ، لقد هُوِّن عليها، ومع ذلكَ لقد ضُغِطتْ ضغطةً بلغت الخافقين**»[3]. وزكريا قيل: إنه مجهولٌ، وسعيدُ بنُ مسروقٍ، لم يدركْ أنسًا، فهو منقطعٌ.

وقد رُوي من وجهٍ آخرَ عن أنسٍ، من روايةِ الأعمشِ، عن أنسٍ، عن النبيِّ ﷺ بمعناهُ.

---

(١) أخرجه: النسائي (٤/ ١٠٠ ـ ١٠١).

(٢) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (١١٥٩).

(٣) السابق (٥٨١٠).

وكــذا رواه أبو حمــزة السكري، عن الأعــمشِ، والأعمشُ لم يســمعْ من أنسٍ عند الأكثرينَ.

وقيلَ: عن أبي حمزةَ، عن الأعمشِ، عن سليمانَ، عن أنسٍ.

ورواه سعدُ بنُ الصلتِ، عن الأعمشِ، عن أبي سفيانَ، عن أنسٍ.

ورواهُ حبيبُ بنُ خالد الأسديِّ عن الأعمشِ، عنْ عبدِ اللَّهِ بنِ المغيرة، عن أنسٍ.

ورواه حمادُ بنُ سلمــةَ، عن ثمامةَ، عن أنسٍ، أن النبيَّ ﷺ دَفَن صبيا أو صبيةً، فقالَ: «**لو نجا أحدٌ من ضمّةِ القبرِ لنجا منها هذا الصبيُّ**»[١] . خرّجه الخلالُ، والطبرانيُّ. وقد اختُلفَ فيه على حمادٍ، فــرواه جماعةٌ عن ثمامــةَ مرسلاً، والمرسلُ هو الصحيحُ، عند أبي حاتمٍ الرازي، والدارقطنيِّ.

وروى ابنُ وهبٍ، عن عمرِو بنِ الحــارثِ، عن أبي النضرِ، عن زيادِ مولى ابن عباس عن ابنِ عباسٍ، أن النبي ﷺ صعدَ على قبرِ سعدِ بن معاذ فقال: «**لو نجا من ضغطة القبرِ أحدٌ منه لنجَا سـعدُ بنُ معاذٍ، ولقد ضُمَّ ضمّةً ثم فرِّج عنه**»[٢] . خرّجه الطبرانيُّ.

وخرّج الإمامُ أحمدُ والنسائيُّ[٣] ، من حديثِ يزيدَ بنِ عبدِ اللَّهِ بن الهادِ، عن معاذِ بن رفاعةَ، عن جابرٍ، أن النبيَّ ﷺ قال لسعدٍ وهو يدفنُ: «**سبحانَ اللَّهِ، لهذا العبدِ الصالحِ الذي تحركَ له عرشُ الرحمنِ وفتحتْ له أبوابُ السمـاءِ شدِّد**

(١) قال الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٤٧): رواه الطبراني في «الأوسط» ورجاله موثقون.

(٢) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٦٥٩٣).

(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٣٢٧)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٣١٠٠).

عليه ثمَّ فرجَ عنه».

وخرّجه الإمامُ أحمدُ(١) ، من طريقِ ابن إسحاقَ، حدثني معاذُ بنُ رفاعةَ، عن محمودِ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ عمرِو بن الجموحِ، عن جابرٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**لقد تضايقَ على هذا العبدِ الصالحِ قبرُه حتى فرّجَ اللَّهُ عنه**».

وذكر ابنُ إسحاقَ: اهتزازَ العرشِ، وفتحَ أبوابِ السماءِ؛ عن معاذِ بنِ رفاعةَ، قال: حدثني من شئتُ من رجال قومِي، عن النبيِّ ﷺ ولم يذكره في حديثِ جابرٍ. وزادَ في إسنادِ حديثِ جابرٍ رجلاً، وقوله أصحُّ من قولِ يزيدِ بن الهادِ في هذا كلِّه عند كثيرٍ من أئمةِ الحفاظِ واللَّه أعلم.

وخرّج البيهقيُّ، من حديثِ ابنِ إسحاقَ، قال: حدثني أميةُ بنُ عبدِ اللَّه، أنه سألَ بعضَ أهلِ سعدٍ، ما بلغكَم من قولِ النبيِّ ﷺ في هذا؟ قالوا: ذُكر لنا أنَّ رسول اللَّهِ ﷺ سُئل عن ذلكَ، فقال: «**كانَ يُقصِّر في بعض الطهورِ من البولِ**».

وذكر ابنُ أبي الدنيا عن عبيد اللَّه بنِ محمدِ التميميِّ، قالَ: سمعتُ أبا بكرٍ التيمي - شيخًا من قريشٍ - قال: كان يقالُ: إن ضمّةَ القبرِ إنّما أصلُها أُمُّهم، ومنها خلقُوا، فغابُوا عنها الغيبةَ الطويلةَ، فلما ردُّوا إليها أولادَها، ضمتّهم ضمَّ الوالدةِ التي غابَ عنها ولدُها، ثم قدِمَ عليها، فمنْ كانَ للَّه عز وجل مطيعًا ضمتْهُ برأفةٍ ورفقٍ، ومن كانَ للَّه عاصيًا ضمته بعنفٍ، سخطًا منها عليه لربِّها.

وروى في كتابِ «المحتضرينَ» بإسنادِه عن عبدِ العزيزِ بن أبي روادٍ، عن

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٣٦٠، ٣٧٧).

نافعٍ، أنه لمّا حضرتهُ الوفاةُ جعلَ يبْكي، فـقيل له: ما يبكيكَ؟ فقال: ذكرتُ سعدًا وضغطةَ القبرِ.

وروى هنّادُ بن السـريِّ، عن سعـيدِ بن ديـنارٍ، عن إبراهيمَ الغنويِّ، عن رجلٍ عن عائشةَ ﵂، أنهـا مرَّتْ بها جنازةٌ صغيرةٌ فـبكتْ، فقالتْ: بكيتُ لهذا الصبيِّ، شفقةً عليه من ضمّةِ القبرِ.

قال هناد: وحدثنا محمـدُ بنُ فضيلٍ، عن أبيه، عن ابنِ أبي مليكةَ، قالَ: ما أُجيرَ أحـدٌ من ضغطةِ القبرِ، ولا سعـدُ بنُ معاذٍ، الذي منديلٌ من مناديلهِ خيرٌ من الدنيا وما فِيها.

وقال أبو الحـسن بن البراءِ: حدثنا مـحمدُ بنُ الصـباحِ، حدثنا عـمّارُ بن محـمدٍ، عن لـيثٍ، عن المنهالِ، عن زاذانَ، عن البـراءِ، عن النبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿**لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ**﴾ [الأعراف:٤١]، قال: «**يُكْسَى الكافرُ في قبـرِه ثوبانِ من نارٍ، فذلك قولُه سبـحانَهُ وتعالى: ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾**» هذا غريبٌ منكرٌ.

وقد قيـلَ: إن عذابَ القبرِ يفـتر عن أهلِ القبورِ فـيما بين النفخـتينِ، كذا ذكرَهُ سعيدُ بنُ بشيرٍ عن قتادةَ، وتأوَّل ذلك قوله تعالى: ﴿**يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ**﴾ [يس:٥٢]، يعني تلكَ الفترةَ التي لا عذابَ فيها.

وورد ذلك مرفـوعًا، خرّجه الخـلالُ في كتابِ «السنة» حدثنا إسـحاقُ بنُ خـالد البالسي، حـدثنا مـحمـد بن صعب، حـدثنا روح بن مـسافـرٍ، عن الأعمشِ، عن أبي سفيانَ، عن جابرٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ هذه الأمة تبتلى**

في قبورِها»، فذكرَ الحديثَ بطوله، وفي آخرِه قال: «فإنهم يعذَّبونَ في قبورِهم إلى قريبٍ من قيامِ الساعةِ، ثم ينامونَ قبيلَ الساعةِ، وهي النومةُ التي ندمُوا عليها، حين قالوا: ﴿يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ [يس:٥٢]». وهذا إسنادٌ ضعيفٌ، وروحُ بن مسافر، وإسحاقُ بنِ خالدٍ، ضعيفانِ جدًّا.

وقد يُرفعُ عذابُ القبرِ أو بعضُه في بعضِ الأوقاتِ الشريفةِ.

فقد روي بإسنادٍ ضعيفٍ، عن أنسِ بنِ مالكٍ: أن عذابَ القبرِ يرفعُ عن الموتى في شهرِ رمضانَ، وكذلكَ فتنةُ القبرِ ترفعُ عمَّن مات يومَ الجمعةِ أو ليلة الجمعةِ.

كما خرّجَ الإمامُ أحمدُ، والترمذيُّ[١]، من حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ، عن النبيِّ ﷺ قال: «ما منْ مسلمٍ يموتُ يومَ الجمعةِ أو ليلةَ الجمعةِ إلا وقاهُ اللَّهُ فتنةَ القبرِ».

وأما نعيمُ القبرِ، فقد دلّ عليه قولُه تعالَى: ﴿فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ﴾ [الواقعة:٨٨-٨٩] كما سبق.

وقد تقدّمَ في حديثِ البراءِ وغيرِه ذكرُ بعضِ نعيمِ القبرِ.

وروى ابنُ وهبٍ، حدَّثني عمرُو بنُ الحارثِ، أنَّ أبا المسيحِ درّاجًا حدَّثَهُ، عن ابنِ حجيرةَ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ أنه قالَ: «إنَّ المؤمنَ في قبرِه لفي روضةٍ خضراءَ، ويرحبُ له قبرُه سبعونَ ذراعًا، وينوّرُ له فيه كالقمرِ ليلةَ البدرِ».

وروى أبو عبد الرحمنِ المقرئُ، حدثنا داودُ أبو بحرٍ، عن صهرٍ له ـ يقالُ

(١) الترمذي (١٠٧٤)، و«المسند» (٢/ ١٦٩).

له: مسلمُ بنُ مسلمٍ ـ عن مُورِّقٍ العجليِّ، عن عبيدِ بنِ عميرٍ، قال: قال عبادةُ بنُ الصامتِ: إذا حضرتْه ـ يعني المؤمنَ المتهجدَ بالقرآنِ ـ الوفاةُ جاءَ القرآنُ فوقفَ عند رأسِه، وهم يغسِّلونَهُ، فإذا فرغَ منه دخلَ حتى صارَ بين صدرِه وكفنِه، فإذَا وُضِعَ في حفرتِه جاءَه منكرٌ ونكيرٌ، خرجَ حتى صارَ بينه وبينهُمَا، فيقولانِ له: إليكَ عنَّا، فإنا نريدُ أن نسألَهُ؛ فيقولُ: واللَّه ما أنا بمفارقه، فإن كنتُما أمرتُما فيه بشيءٍ فشأنكما. ثم ينظرُ إليه، فيقولُ: هل تعرِفني؟ فيقول: لا. فيقولُ: أنا القرآنُ الذي كنتُ أسهرُ ليلكَ، وأظمأُ نهارَكَ، وأمنعكَ شهوتَكَ، وسمعَكَ، وبصرَكَ، فستجدُني من الأخلاءِ خليلَ صدقٍ، فأبشرْ، فما عليكَ بعد مسألةِ منكرٍ ونكيرٍ من همٍّ، ولا حزنٍ، ثم يخرجانِ عنه، فيصعدُ القرآنُ إلى ربِّه، فيسأله فراشًا ودثارًا، قال: فيؤمرُ له بفراشٍ ودثارٍ وقنديلٍ من الجنةِ، وياسمين من الجنةِ، فيحمله ألفُ ملكٍ من مقرَّبي سماءِ الدنيا. قال: فيسبقُهُم إليه القرآنُ، فيقولُ: هل استوحشتَ بعدي؟ فإنِّي لم أزلْ بربِّي حتى أمرَ لكَ بفراشٍ ودثارٍ ونورٍ من الجنةِ. قال: فتدخلُ عليه الملائكة، فيحملونَهُ ويفرشونَ له ذلك الفراشَ، ويضعونَ الدِّثارَ تحتَ رجليهِ، والياسمينَ عند صدرِه، ثم يحملونَهُ حتى يضجعُوه على شقِّه الأيمن، ثم يصعدونَ عنه، فيستلقِي عليه، فلا يزالُ ينظر إلى الملائكة حتى يلجُوا في السماءِ، ثم يدفعُ القرآنَ في قبلةِ القبرِ، فيوسِّعُ عليه ما شاءَ اللَّهُ من ذلكَ.

قال أبو عبد الرحمنِ: وكان في كتابِ معاويةَ إليَّ: فيوسَّع له مسيرةَ أربعمائةِ عامٍ، ثم يحملُ الياسمينَ من عندِ صدرِه، فيجعلُه عند أنفِه، فيشمُّه غضا إلي يوم ينفخُ في الصورِ، ثم يأتي أهلَه كلَّ يومٍ مرةً أو مرتينِ، فيأتيه

بخبرِهم، ويدعُو لهم بالخيرِ والإقبالِ، فإن تعلَّم أحدٌ من ولدِه القرآنَ بشَّره بذلكَ، وإن كانَ عقبَ سوءٍ، أتى الدارَ بكرةً وعشيًا، فبكى عليه إلى أن يُنفخَ في الصورِ. أو كما قال.

قال الحافظُ أبو موسى المديني: هذا خبرٌ حسنٌ رواه الإمام أحمد بن حنبل، وأبو خيثمة، وطبقتُهما من المتقدمينَ، عن أبي عبد الرحمنِ المقرئِ.

وقد تقدّمَ في البابِ الثاني: **«القبرُ روضةٌ من رياضِ الجنةِ، أو حفرةٌ من حفرِ النارِ»**. من حديثِ أبي هريرةَ، وأبي سعيدٍ، بإسنادينِ ضعيفينِ.

وروي أيضًا من حديثِ ابنِ عمرَ، خرّجهُ ابنُ أبي الدنيا، حدثنا هارونُ بن سفيانَ، حدثنا محمدُ بنُ عمرَ، أخبرنا أخي شملةُ بنُ عمرَ، عن عمرَ بن شيبةَ عن أبي كثيرٍ الأشجعيِّ، عن نافعٍ، عن ابنِ عمرَ، عن النبي ﷺ قال: **«القبرُ روضةٌ من رياضِ الجنةِ، أو حفرةٌ من حفرِ النارِ»**. إسنادُه ضعيفٌ[1].

* * *

(١) «أهوال القبور» (٥٨ ـ ٨٢).

سُورَةُ الْحَدِيدِ

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ﴾

إنَّ اللَّهَ تعالى أمرَ عبادَهُ في كتابِه، وعلى لسانِ رسُولِه، بجميعِ ما يُصلحُ قلوبَ عبادِه، ويُقرِّبُها منه، ونهاهُم عمَّا ينافِي ذلكَ ويضادُّه ولَمَّا كانت الرّوحُ تقوَى بما تسمعُه من الحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، وتَحيَا بذلكَ، شرعَ اللَّهُ لعبادِه سماعَ ما تقوَى به قلوبُهم، وتتغذّى وتزدادُ إيمانًا.

فتارةً يكونُ ذلك فرضًا عليهم، كسماعِ القرآنِ، والذكرِ والموْعظةِ يومَ الجمعةِ في الخطبةِ والصَّلاةِ، وكسماعِ القرآنِ في الصّلواتِ الجهريّةِ من المكتوباتِ.

وتارةً يكونُ ذلك مندُوبًا إليه غيرَ مفترضٍ، كمجالسِ الذكرِ المندُوبِ إليها. فهذا السّماعُ حَادٍ يحدُو قلبَ المؤمنِ إلى الوصولِ إلى ربِّه، يسُوقُه ويشُوقُه إلى قربِه، وقد مدحَ اللَّهُ المؤمنينَ بوجودِ مزيدِ أحوالِهم، بهذا السّماعِ. وذمَّ من لا يجدُ منهُ ما يجدونَهُ، فقالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢، ٢٣]، وقال: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

[الحديد:١٦] قال ابنُ مسعود: ما كانَ بين إسلامنَا، وبينَ أنْ عوتبْنَا بهذهِ الآيةِ إلا أربعَ سنينَ. خرّجه مسلمٌ(١). وفي روايةٍ أُخرى قال: فجعلَ المؤمنون يعاتِبُ بعضُهم بعضًا(٢). وعن ابنِ عباسٍ قال: إن اللَّهَ استبْطأَ قلوبَ المهاجرينَ فعاتَبهُم، على رأسِ ثلاثَ عشرةَ سنةٍ من نزُولِ القرآنِ، بهذه الآيةِ.

فهذه الآيةُ تتضمّنُ توبيخًا وعتابًا لمن سمعَ هذا السماعَ، ولم يُحدِثْ له في قلبِهِ صَلاحًا ورقّةً وخشوعًا، فإنَّ هذا الكتابَ المسمُوعَ يشتملُ على نهايةِ المطلوبِ، وغايةِ ما تصلُحُ به القلوبُ، وتنجذبُ به الأرواحُ، المعلّقةُ بالمحلِّ الأعْلَى إلى حضرةِ المحبوبِ، فيحْيى بذلك القلبُ بعد مماته، ويجتمعُ بعدَ شتاتِهِ، وتزولُ قسوتُهُ بتدبُّرِ خطابِهِ وسماعِ آياته، فإنَّ القلوبَ إذا أيقنتْ بعظمةِ ما سمعتْ، واستشْعرتْ شرَفَ نسبةِ هذا القولِ إلى قائلِهِ، أذعنتْ وخضعتْ. فإذا تدبَّرَتْ ما احتَوى عليه من المرادِ ووعتْ، اندكّتْ من مهابةِ اللَّهِ وإجلالِهِ، وخشعتْ.

فإذا هطلَ عليها وَابلُ الإيمانِ من سُحُبِ القرآنِ، أخذتْ ما وسعتْ، فإذَا بذَر فيها القرآنُ مِنْ حقائقِ العرفانِ، وسقاهُ ماءُ الإيمانِ، أنبتتْ ما زرعتْ ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥]، ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم:٥٠] ومتى فقدت القلوبُ غذاءَها، وكانتْ جاهلةً بِهِ، طلبت العوضَ من غيرِهِ، فتغذتْ بِهِ، فازداد سقمُها بفقْدِهَا ما ينفعُها والتعوّضِ بما يضرّها. فإذا سقمتْ مالتْ إلى ما فيه ضررُها، ولم تجدْ طعمَ غذائِها، الذي فيه نفعُها، فتعوضتْ عن

(١) مسلم (٨/ ٢٤٣)، وأخرجه الحاكم (٢/ ٤٧٩).
(٢) أخرج نحوه أبو يعلى في «مسنده» (٩/ ٥٢٥٦).

سماعِ الآياتِ، بسماعِ الأبياتِ. وعن تدبُّرِ معاني التنزيلِ، بسماعِ الأصواتِ.

قال عثمانُ بنُ عفانَ ﷺ: لو طهُـرتْ قلوبُكم ما شبعتُم من كلامِ ربِّكم.

وفي حديــث مرسلٍ: «**إنَّ هذه القلوبَ تـصـدأُ كـمـا يصـدأُ الحـديد**»، قيل: فما جلاؤُه؟، قالَ: «**تلاوةُ كتابِ اللَّه**»(١). وفي حديثٍ آخـرَ مرسلٍ، أنَّ النبي ﷺ، خطبَ بعدما قدمَ المدينةَ، فقال: «**إن أحسنَ الحديثِ كـتابُ اللَّه، قد أفلحَ منْ زينه اللَّهُ في قلبِه، وأدخلَهُ في الإسلامِ بعد الكفرِ؛ واخـتارَهُ على ما سواهُ من أحاديثِ الناسِ، إنه أحسنُ الحـديثِ وأبلغُه، أحِبُّـوا ما أحبَّ اللَّه، أحِبُّـوا اللَّه من كلِّ قلوبِكم**»(٢). وقالَ مـيمـونُ بن مِهـرانَ: إنّ هذا القرآنَ قـدْ خلق في صدُورِ كـثيـرٍ من الناسِ، والتـمسـوا حـديثًا غـيـره، وهو ربيعُ قلوبِ المؤمنينَ، وهو غضٌّ جـديدٌ في قلوبِهِم. وقال محمدُ بنُ واسعٍ: القرآنُ بستانُ العارفينَ حيثما حلُّوا منه، حلُّوا في نزهةٍ. وقـال مـــالكُ بنُ دينارٍ: يا حـملةَ القــرآنِ مـاذَا زرعَ القـرآنُ في قلوبِكم؟! فإنَّ القـرآنَ ربيعُ المؤمنينَ، كما أنَّ الغيثَ ربيعُ الأرضِ، فـقد ينزلُ الغيثُ من السَّماءِ إلى الأرضِ، فـيُصيبُ الحشَّ فتكونُ فيه الحبَّـةُ، فلا يمنعُها نتنُ موضعِهَا أن تهتزَّ وتخضـرَّ وتحسُن. فيا حملَةَ القرآنِ، ماذا زرعَ القرآنُ في قلوبِكُم؟ أين أصحابُ سورةٍ؟ أينَ أصحابُ سورتين؟! ماذا عملتم فيهما.

وقال الحسن: تفـقَّدُوا الحلاوةَ في الصَّلاةِ، وفي القـرآنِ، وفي الذكرِ. فإنْ وجدتُموها فامضُوا وأبشِرُوا، وإنْ لم تجدُوها فاعْلمُوا أنَّ البابَ مغلقٌ.

اسمعْ يامنْ لا يجدُ الحلاوةَ في سماعِ الآياتِ، ويجدها في سماعِ الأبياتِ.

في حديثٍ مرفوعٍ: «**منِ اشْتاقَ إلى الجنة فليـسْمَعْ كلامَ اللَّه**». كان داودُ الطَّائيُّ يترنمُ بالآيةِ في الليلِ، فيرى من سمعهُ أنَّ جميعَ نعيمِ الدنيا جُمِعَ في ترنُّمه.

(١) أخرجه: البيهقي في «الشعب» (٢/٣٥٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (٨/١٩٧).

(٢) أخرجه: هناد في «الزهد» (١/٢٧٩).

قال أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ: إنيِّ لأقرأُ القرآنَ، فأنظرُ في آيةٍ آيةٍ، فيحارُ فيها عَقْلي، وأعجبُ من حُفَّاظِ القرآنِ، كيف يهنيهمُ النّومُ، ويسعُهُم أن يشْتَغلُوا بشيءٍ من الدُّنيا، وهم يتلونَ كلامَ اللَّه!! أمَا لو فهِمُوا ما يتلونَ، وعَرفُوا حقَّه، وتلذَّذُوا بِهِ، واستحلوا المناجاةَ بِهِ، لذهبَ عنهم النومُ، فَرحًا بما قدْ رُزِقوا.

قال ابنُ مسعودٍ: لا يسألُ أحدٌ عن نفسِهِ غيرَ القرآنِ، فمن كانَ يحبُّ القرآنَ فهُوَ يحبُّ اللّهَ ورسولَهُ. قال سهلٌ التستريُّ: علامةُ حُبِّ اللَّه، حُبُّ القرآنِ. وقال أبو سعيدٍ الخراز: مَن أحبَّ اللَّهَ أحبَّ كلامَ اللَّهِ، ولم يشبَع من تلاوته.

ويُروى عن معاذٍ قالَ: سيبلى القرآنُ في صدُورِ أقوامٍ، كما يبْلى الثوبُ، فيتهافتُ، فيقرءونه لا يجدون له شهوةً.

وعن حذيفةَ قالَ: يوشِكُ أن يدرُسَ الإسلامُ، كما يدرسُ وشيُ الثوبِ؛ ويقرأُ الناسُ القرآنَ لا يجدونَ له حلاوةً.

وعن أبي العَاليةَ قالَ: سيأتي على الناسِ زمانٌ، تخربُ فيه صدورُهم من القرآنِ، وتبلَى كما تبْلى ثيابُهم، وتهافَت فلا يجدُون له حلاوةً، ولا لذاذةً.

قال أبو محمد الجريريُّ ـ وهو من أكابرِ مشايخِ الصوفيّةِ ـ : من استولَت عليهِ النفسُ، صارَ أسيرًا في حكمِ الشَّهواتِ، محصُورًا في سجنِ الهوَى، فحرَّمَ اللَّهُ على قلبِهِ الفوائدَ، فلا يستلذُّ بكلامِهِ، ولا يستحليهِ، وإنْ كثُرَ ترداده على لسانه. وذُكِرَ عند بعضِ العارفينَ أصحابُ القصائد، فقالَ: هؤلاءِ الفرارُونَ من اللَّهِ عز وجل، لو ناصحُوا اللَّهَ، وصدَّقُوه، لأفادَهُم في

سَرائرِهِم، ما يشغلُهم عن كثرةِ التلاقِي.

واعلمْ أن سمـاعَ الأغانِي يضادُ سمـاعَ القرآنِ، مِنْ كلِّ وجهٍ. فـإنّ القرآنَ كلامُ اللَّهِ، ووحيُهُ ونورُهُ، الذي أحيا اللَّهُ بـه القُلوبَ الميتةَ، وأخرجَ العبادَ به من الظلماتِ إلى النّورِ.

والأغاني وآلاتُهـا مزاميـرُ الشيطانِ. فإنَّ الشـيطانَ قرآنهُ الشعـرُ، ومؤذِّنُه المزمارُ، ومصـائدُه النّساءُ. كذا قالَ قتادةُ وغـيرُه من السَّلفِ. وقد رُوي ذلك مرفوعًـا، من روايةِ عبيدِ اللَّه بن زحْـرٍ، عن عليِّ بنِ يزيدَ عن القاسمِ، عن أبي أمامةَ، عن النبيِّ ﷺ[١] وقدْ سبقَ ذكرُ هذا الإسنادِ.

والقرآنُ تُذكر فيه أسماءُ اللَّهِ، وصفاتُهُ وأفعالُهُ، وقدرتُهُ وعظمتُهُ، وكبرياؤه وجلالُه، ووعدُه ووعيدُه.

والأغاني إنما يُذكرُ فيها: صفاتُ الخـمرِ والصورُ المحرّمةُ، الجميلةُ ظاهرُها المستقذرُ باطنُها التي كانتْ تُرابًا، وتعُـود ترابًا. فمن نزّل صفاتِها على صفاتِ من ليس كمثـلِه شيءٌ وهوَ السَّميعُ البصيـرُ، فقد شبَّـه، ومرقَ من الإسلامِ، كما يمرُقُ السهمُ من الرميةِ. وقد رُئيَ بعضُ مشايخِ القومِ في النَّومِ بعدَ موتِه، فـسُئِلَ عن حـالِه فـقالَ: أوقـفني بينَ يديه، ووبَّخني، وقـالَ: كنتَ تسـمعُ وتقِـيسُني بسُـعْدَى ولُبنَى. وقـد ذكرَ هـذا المنامَ أبو طالبٍ المكيُّ، في كتـابِ «قوتِ القلوبِ».

وإن ذُكِرَ فـي شيءٍ من الأغاني التـوحيـدُ، فغـالبُه من يسـوقُ ظاهرُه إلى الإلحـادِ: من الحلولِ والاتحادِ، وإن ذُكِـرَ شيءٌ من الإيمانِ والمحبـةِ، أو توابعِ

(١) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (٨/ ٢٤٥).

ذلكَ، فإنَّما يُعبَّرُ عنه بأسماء قبيـحةٍ، كالخمرِ وأوعيتِه ومواطنِه وآثارِه، ويُذكر فيه الوصلُ والهـجرُ، والصدودُ والتجنِّي. فيطربُ بذلكَ السامـعونَ، وكأنَّهم يشيرون، إلى أنَّ الـلَّه تعالى، يفعل مع عبـادهِ المحبينَ له المتقربينَ إليـه، كما يذكرونَهُ. فيبعـدُ ممن يتقربُ إليه، ويصدُّ عمّن يحبُّه ويُطـيعُه، ويُعرِضُ عمن يُقبلُ عليه.

وهذا جـهلٌ عظيمٌ فـإنَّ اللَّهَ تعـالى يقـولُ، على لسانِ رسُـوله الصـادقِ المصدوقِ ﷺ: **«من تقرّبَ منّي شِبْرًا تقربت منـه ذراعًا، ومن تقرَّب مني ذراعًا تقرَّبتُ منه باعًا، ومن أتَاني يمشِي أتيته هرولةً»**[(1)] .

وغايةُ ما تحـرِّكُه هذه الأغاني: ما سكنَ في النفـوسِ من المحبّةِ، فتـتحركُ القلوبُ إلى محـبوباتِها، كـائنةٌ ما كـانتْ، من مباحٍ ومـحرّمٍ وحقٍّ وباطلٍ. والصّادقُ من السامعينَ، قد يكونُ في قلبِه مـحبّةُ اللَّهِ، مع ما ركزَ في الطباعِ من الهَوى، فيكونُ الهَـوى كامنًا، لظهورِ سُلطانِ الإيمانِ. فتحـرِّكُه الأغاني، مع المحبّةِ الصحيحةِ. فيقْوى الوجدُ، ويظنُّ السامعُ، أنْ ذلكَ كلَّه محبّةُ اللَّهِ، وليسَ كذلك. بل هي مـحبّةٌ ممزوجةٌ ممتزجـةٌ، حقُّها بباطِلـها. وليسَ كلُّ ما حرك الكامنَ في النفوسِ، يكونُ مُباحًا في حكمِ اللَّهِ ورسولهِ.

فإنّ الخمرَ تحركُ الكامنَ في النُفـوسِ، وهي محرمةٌ في حكمِ اللَّهِ ورسولهِ كما قِيلَ:

الرّاحُ كالريـح إِن هبّـتْ على عِطْـرٍ طابتْ وتخبثُ إنْ مرّتْ على الجِيَفِ

وهذا السماعُ المحظورُ، يُسكرُ النفوسَ، كمـا يسكرُ الخمرُ أو أشدُّ، ويصدُّ

---

(١) أخرجه: البخاري في «الصحيح» (٩/ ١٤٧ ـ ١٤٨)، ومسلم (٨/ ٦٢).

عن ذكرِ اللَّهِ، وعن الصَّلاةِ، كالخمرِ والميسـرِ فإن فُرِضَ وجُودُ رجلٍ يسْمعُه، وهو ممتَلئٌ قلبُه بمحـبّةِ اللَّهِ، لا يؤثرُ فيه شيءٌ من دَواعِي الهـوى بالكليةِ، لم يُوجبْ ذلك له خـصوصًا، ولا لـلنّاسِ عمومًـا. لأنّ أحكامَ الشريعـةِ، تناطُ بالأعمِّ الأغلبِ. والنَّادرُ ينسحبُ عليه حكمُ الغالبِ، كما لو فُرِض رجلٌ تامُّ العقلِ، بحيثُ لو شرِبَ الخمرَ، لم يُؤثرْ فـيه ولم يقعْ فيه فسادٌ، فإنَّ ذلك لا يوجبُ إباحةَ الخمر له، ولا لغيرِه. على أنَّ وجودَ هذا المفروضِ في الخارجِ، في الصُّورتين: إما نادرٌ جدًّا أو ممتنعٌ متعذِّرٌ.

وإنما يظهـرُ هذا السَّمـاعُ، على هذا الوجـهِ، حيـث جرّد كـثيـرٌ من أهلِ السلوكِ الكلامَ في المحـبةِ ولهـجوا بهـا، وأعرضُـوا عن الخشـيةِ. وقـد كانَ السلفُ الصالحُ يُحذِّرون منهمُ، ويفسِّقون من جرَّدَ، وأعرضَ عن الخشيةِ إلى الزندقةِ. فإنَّ أكثرَ ما جَـاءتْ به الرّسُلُ، وذكرَ في الكتابِ والسنةِ: هو خشيةُ اللَّهِ وإجلالِهِ وتعظيمِهِ، وتعظيمِ حرماتِهِ وشعائرِهِ، وطاعتِهِ.

والأغاني لا تحرّكُ شيئًا من ذلكَ، بلْ تُـحدِثُ ضدَّهُ من الرعُونَةِ والانبساطِ والشطحِ، ودعوى الوصُولِ والقُربِ، أو دعـوى الاختصاصِ بولايةِ اللَّهِ التي نسب اللَّهُ في كتابِهِ دعواها إلى اليهودِ. فـأمَّا أهلُ الإيمانِ، فقد وصفهُم بأنَّهم ﴿يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون:٦٠] وفـسَّـر ذلكَ النبيُّ ﷺ بأنَّهم: «يصومونَ ويتصدقـونَ، ويصلُّون ويخشونَ أن لا يُتقبلَ منْهُم»(١) . وقد كانَ الصَّحابةُ ﵃ ، يخافـونَ النفاقَ على نفوسِهـم، حتَّى قالَ الحسنُ: مـا أمِنَ النفاقَ إلا منافقٌ، ولا خشِيَهُ إلا مؤمنٌ.

---

(١) أخرجه: أحـمد في «المسند» عن عائشة (٦/ ١٥٩)، والترمـذي في «الجامع» (٣١٧٤)، والحاكم (٢/ ٣٩٤).

ويوجبُ أيضًا سماعُ الملاهي: النفرةَ عن سماعِ القرآنِ، كما أشارَ إليه الشافعيُّ رحمه اللَّه. وعدمَ حضورِ القلبِ عند سماعِه، وقلّةَ الانتفاعِ بسماعِه. ويوجبُ أيضًا قلّةَ التعظيمِ لحرماتِ اللَّه، فلا يكادُ المدمنُ لسماعِ الملاهي، يشتدّ غضبُهُ لمحارمِ اللَّهِ تعالَى إذا انتُهِكَتْ، كما وصفَ اللَّهُ تعالى المحبّينَ لهُ بأنَّهم ﴿**أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ**﴾ [المائدة:٥٤]. ومفاسدُ الغناءِ كثيرةٌ جدًّا.

وفي الجملةِ فسماعُ القرآنِ ينبتُ الإيمانَ في القلبِ، كما ينبتُ الماءُ البقلَ. وسماعُ الغناءِ ينبتُ النفاقَ، كما ينبتُ الماءُ البقلَ. ولا يستويانِ حتى يستوي الحقُّ والبُطلانُ ﴿**وَمَا يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلا الظُّلُمَاتُ وَلا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلا الظِّلُّ وَلا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الأَحْيَاءُ وَلا الأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ**﴾ [فاطر:١٨-٢٢] واللَّهُ تعالى المسئولُ أن يهدِيَنا وسائرَ إخوانِنَا المؤمنينَ إلى صراطٍ مستقيمٍ، صراطِ الذين أنعمَ عليهم غيرِ المغضوبِ عليهِم، ولا الضالين آمين والحمدُ للَّهِ ربِّ العالمينَ، وصلَّى اللَّه على سيدِنا محمدٍ، وآلِهِ وصحبِهِ أجمعين[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾

وقد قال طائفةٌ من السَّلف في قولِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿**أَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا**﴾ [الحديد:١٨]: إنَّ القرضَ الحسنَ قولُ: سبحانَ اللَّه، والحمدُ اللَّه، ولا إلهَ إلا اللَّهُ، واللَّهُ أكبرُ. وفي «مراسيلِ الحسنِ»، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «ما

(١) «نزهة الأسماع» (٨٠ - ٩٣).

أنفقَ عبدٌ نفقةً أفضلَ عندَ اللَّه عزَّ وجلَّ من قولٍ ليس من القرآن وهو من القرآن: سبحان اللَّه، والحمد للَّه، ولا إله إلا اللَّه واللَّه أكبر»[(١)] .

* * *

قوله تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

وقال بعضُ السلفِ في قولِ اللَّه تعالى: ﴿السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾ [الواقعة:١٠]: إِنَّهم أوَّلُ الناسِ خروجًا إلى المسجدِ وإلى الجهادِ.

وفي قوله: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد:٢١] قال مكحولٌ: التكبيرةُ الأولى مع الإمامِ. وقال غيرُه: التكبيرة الأولى والصفُّ الأول[(٢)] .

* * *

(١) «اللطائف» (ص ٤٣٨).

(٢) «الفتح» (٣/ ٥٣٣).

سُورَةُ المُجَادلَة

قوله تعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾

وخرَّج محمد بنُ نصر المروزيُّ بإسنادٍ ضعيفٍ جدًّا عن أنسٍ قالَ: لم يكنِ النبيُّ ﷺ يقبل مَنْ أجابه إلى الإسلامِ إلا بإقامِ الصـلاةِ، وإيتاءِ الزكاة، وكانتا فريضتين على مَنْ أقـرَّ بمحمَّدٍ ﷺ وبالإسـلامِ، وذلك قولُ اللَّه عـزَّ وجلَّ: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ [المجادلة: ١٣].

وهذا لا يثبتُ، وعلى تقديرِ ثبوتِهِ، فالمرادُ منه: أنه لم يكن يُقرُّ أحدًا دخلَ في الإسلامِ على تركِ الصَّـلاةِ والزكاةِ، وهذا حقٌّ فإنه ﷺ أمر معاذًا لما بعثَهُ إلى اليـمنِ أن يدعُوَهُم أوَّلاً إلى الشـهادتينِ، وقـالَ: «**إنْ هُمْ أطاعـوك لذلكَ، فأعلمهُم بالصلاةِ ثم بالزكاةِ**» ومُرادُه أن من صارَ مسلمًا بدخولِهِ في الإسلامِ أُمرَ بعدَ ذلكَ بإقامِ الصلاةِ، ثم بإيتاءِ الزكاةِ، وكانَ من سألهُ عن الإسلامِ يذكرُ له مع الشهادتين بقيةَ أركانِ الإسلامِ، كمـا قالَ لجبريلٍ عليه السلامُ لما سألهُ عن الإسلامِ، وكمَا قال للأعرابيِّ الذي جاءَهُ ثائرَ الرأسِ يسألُ عن الإسلامِ[1] .

* * *

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٢١٨ ـ ٢١٩).

سُورَةُ الحَشْرِ

قوله تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

الأرضُ المعنوةُ هل هي داخلةٌ في آيةِ الغنائمِ المذكورةِ في سورةِ الأنفالِ وهي قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ الآية [الأنفال:٤١] أمْ هي داخلةٌ في آيةِ الفيءِ المذكورةِ في سورةِ الحشرِ وهي قوله تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الحشر:٧] الآية ثم ذكر ثلاثة أصنافٍ المهاجرين والأنصارَ ومن جاء بعدَهم؟ فقالتْ طائفةٌ: الأرضُ داخلةٌ في آية الغنيمة، فإنه تعالى قال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ الأنفال:٤١] وشيءٌ نكرةٌ في سياقِ النَّفيِ فيعمهُ كلَّ ما يُسمى شيئًا، قالوا: وآيةُ الفيءُ لم يدخل فيها حكمُ الغنيمة كما أنَّ آيةَ الغَنِيْمةِ لم يَدْخلْ فيها الفيءُ بلْ الغنيمةُ والفيءُ لكل واحدٍ منهما حمٌ يختصُّ به، وهذا قولُ مَنْ قالَ من الفقهاءِ: إنَّ الأرضَ تتعينُ قسمتُها بينَ الغانمينَ.

وقالت طائفةٌ: بل الأرضُ داخلةٌ في آيةِ الفيءِ، وهذا قولُ أكثرِ العلماءِ صرَّحوا بذلك، وممن روي عنه عمر بن عبد العزيز، وقد سبق ذكر من قال من السلف: إن السَّوادَ فيءٌ ونصَّ عليه الإمامُ أحمد.

ووجه دخولِ الأرض في الفيءِ أنَّ اللَّه تعالى قالَ: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا﴾ الآية [الحشر:٧-١٠] فجعل الفيءَ لثلاثةِ أصنافٍ؛ المهاجرينَ والأنصارَ والذين جاءوا من بعدهم ولذلك لما تلا عمرُ ﷺ هذه الآية قال: «استوعبتْ هذه الآيةُ الناسَ فلم يبقَ أحدٌ من المسلمين إلا له فيها حقٌّ إلا بعضَ من تملكون من أرقائكم» خرَّجه أبو داود[1] من طريق الزُّهْري عن ﷺ منقطعًا، وروي من وجهٍ آخرَ عن الزهري موصولاً، ورواه هشامُ بنُ سعدٍ عن زيدِ بنِ أسلمَ عن أبيه عن عمر ﷺ أيضًا.

ثمَّ إنَّ عمرَ ﷺ جعل أرضَ العنوة فيئًا وأرصدَها للمسلمين إلى يومِ القيامةِ، فدلَّ على أنَّه فهِمَ دخولَها في آياتِ الفيءِ ولذلك قرَّره أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ عبد العزيز في رسالتِه المشهورةِ التي بيَّنَ فيها أحكام الفيءِ وقد اعتمدَ علها مالكٌ وأخذَ بها، كما ذكر ذلك القاضي إسماعيل في كتاب «أحكام القرآن» وساقها بتمامها بإسناده، وذكرَ البخاريُّ في «صحيحه» بعضها تعليقًا وبيَّنَ دخولَ الأرضِ في الفيءِ وأنَّ هذه الآياتِ ليستْ بسببِ بني النضيرِ.

وبنو النَّضيرِ أجلاَهم النبيُّ ﷺ من المدينة بعدَ أن حاصرَهم قال الزهريُّ: حاصر رسولُ اللَّه ﷺ بني النضير وهم سبطٌ من اليهودِ بناحيةِ من المدينة حتى نزَلُوا على الجلاءِ وعلى أنهَ لهم ما أقلَّت الإبل من الأمتعةِ إلا الحلقةَ فأنزلَ اللَّه فيهم يعني أول سورة الحشرِ. خرَّجه أبو عبيدٍ وخرَّجه أبو داود[2] مطولاً من طريق الزهري عن عبد الرحمن بن كعب عن رجلٍ من أصحابِ

(١) «السنن» (٢٩٦٦).
(٢) «السنن» (٣٠٠٤).

النبي ﷺ فذكر حديثًا طويلاً وفيه أنَّ النبي ﷺ غزا على بني النضير بالكتابِ فقاتَلَهَم حتى نزلوا على الجلاءِ فجلَتْ بنو النضير واحتملوا ما أقلَّت الإبلُ من أمتعتِـهم وأبوابِ بيوتهم وخشبِها، فدلَّ أنَّ نخلَ بنـي النضير لرسول اللَّه ﷺ خاصةً أعطاه اللَّه إيَّاها وخصَّـه بها فقال تعالى: ﴿وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ [الحشر:٦] يقول: فأعطى النبيُّ ﷺ أكثرَها للمهاجرين وقـسَّمها بينهم وقسَّم منها لرجلين من الأنصـار كانا ذوي حاجةٍ، وبقي منهـا صدقة رسـول اللَّه ﷺ التي في أيدي بـني فـاطمـةَ ﵂، وهذا الكلام أكثر مدرجٌ من قولِ الزهري واللَّه أعلم.

وخرَّج أبو داود من قولِه: «كانتْ بنو النَّضيرِ للنبيِّ ﷺ» إلى آخرِه من قول الزهريِّ.

وثبت في «الصحيحين»(١) عن ابنِ عمـرَ ﵄: أن النبيَّ ﷺ حرَّق نخل بني النضير وقطَّع وهي البـوُيْرَة فنزلتْ فيهم هذه الآيةُ: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ [الحشر:٥] الآية، وفي «الصحـيحين»(٢) أيضًـا عن عمـر ﵁ أنه قـال: «كـانت أمـوالُ بني النضـيـر مما أفاء الـلَّه على رسـولِه مما لم يوجفْ المسلمون عليه بخيلٍ ولا ركابٍ وكانتْ لرسول اللَّه ﷺ خاصةً فكان ينفقُ منها على أهلِه نفقةَ سـنةٍ ثمَّ ما بقيَ جعلَه في الكُرَاع والسلاحِ عـدةً في سبيل اللَّه عزَّ وجلَّ.

وإذا علُمَ أنَّ الآيةَ نزلتْ بسببِ بني النضـير فبنو النضيـر بما تركُوا أرضَهم ونخْلَهم وسلاحَهم وقد جعلَه اللَّه فيئًا وخصَّه برسولِه إمَّا لأنَّه كانَ يملكُ الفيء في حياتِه، أو لأنه كان يُـقسِّمه باجتهادِه ونظرِه بخـلافِ الغنيمة ولا ريبَ أنَّ

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ١٣٦)، (٤/ ٧٦)، (٥/ ١١٣)، (٦/ ١٨٤)، ومسلم (٥/ ١٤٥).
(٢) أخرجه: البخاري (٤/ ٤٦)، (٦/ ١٨٤).

بني النضيـر لم يتـركُوا أرضَـهم إلا بعـد حصـار ومـحـاربةٍ ولمْ ينزلوا من حصونِهم إلا خـشيةَ القلتِ ومع هذا فقـد جعلَ اللَّه أرضَ بني النضير فـيئًا، وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ﴾ [الحشر:٦] تذكيرٌ بنعمةِ اللَّه عليهم في أنَّهم لم يحـتاجوا في أخذِ ذلك إلى كثـير عملٍ ولا مشـقةٍ، وقال مجاهدٌ في قوله: ﴿فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلا رِكَابٍ﴾ [الحشر:٦] قال: يذكرُهم ربُّهم أنَّه نصرَهم بغيرِ كراع ولا عدةٍ في بني قريظةَ وخيبرَ. خرَّجه آدم بن أبي إياسٍ عن ورقاءَ عن أبي نجيحٍ عنه، ومعلومٌ أنَّ خيبرَ وقعَ فيها قتال لكن يسير فتكون الآيةُ كقوله: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣] وحينئذ فإمَّا أن تكونَ الأرضُ تُستثنى من عـمومِ قوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ الآية [الأنفال:٤١] فيكونُ ذلك تخصيصًا من العامِّ، وإمَّا أن يكونَ هذا ناسخًـا لحكمِ الأرضِ من آيةِ الغنيـمةِ فـإنَّ قصةَ بـني النضيـر بعدَ قـصةِ بدرٍ بالاتفاق والأشـبهُ التخـصيصُ إلا أنْ يقالَ: إنَّ قـصةَ بدرٍ لم يدخُلْ فيـها إلا المنقولات إذ لم يكنْ في غنيمةٍ بدرٍ أرضٌ،وهذا على قول من يَرى التخصيصَ بالسببِ ظاهرٌ، ومما يدلُّ على تخصيصِ آيةِ الغنيمةِ بالمنقولاتِ، أنَّ اللَّه تعالى خصَّ هذه الأمة بإباحةِ الغنيمة كما ثبتَ ذلك عن النبي ﷺ من وجوه كثيرةٍ، والذي خصتْ بإباحته هو المنـقولاتُ دونَ الأرضِ، فإنَّ اللَّه تعالى أورثَ بني إسرائيل أرضَ الكفارِ وديارَهُم ولم يكن ذلك ممتنعًا عليها، لأنَّ الأرضَ ليستْ بداخلة في مطلقِ الغنيـمةِ وإنَّمـا كان ممتنعًـا عليهم المـنقولاتِ، ولهـذا كانُوا يحرِّقونـها بالنار وإنَّما خصَّ الغانمون من هذه الأمـة بالمنقولاتِ دون الأرضِ، لأنَّ قتالَهم وجهادَهُم للَّه عزَّ وجلَّ لا للغنيـمةِ، وإنَّما الغنيمةُ رخصةٌ من اللَّه تعالَى ورحمةٌ بهم فخصُّوا بما ليسَ له أصلٌ يبقى،وأما مـا لـه أصلٌ يبقَى فإنه

يكونُ مشتركًا بين المســلمينَ كلِّهم، من وُجِدَ منهم ومن لم يوجدْ بعد ذلك، ويبينُ هذا أنَّ اللَّه تعالى نسبَ الغنيمةَ للغانمين، فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنفال:٤١] فأمَّا الأرضُ فأضافها إلى الرسول لقولِه: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [الحشر:٧] إشارةً إلى أنَّ كلَّ قريةٍ يفيئُها اللَّهُ على أمتِه إلى يومِ القيامـةِ، فهي مضافةٌ إلى الرسول غـيرُ مختصةٍ بالغـانمين، والإمامُ يقومُ مقامَ الرسول في قسمتِها بالاجتهاد.

وقولُهُ: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [الحشر:٧] من الأرض خاصة وقد صحَّ عن عطاءِ بن السـائب والحسنِ البصري وغيـرِهما من السلفِ أنهم قالُوا: الأرضُ فيءٌ وإن أخذتْ بقتالٍ وتقدَّم ذكرُ ذلك عن جماعةٍ من العلماءِ يدلُّ على ذلك أنَّه جعلها لثلاثةِ أصنافِ المهـاجرينَ والأنصارِ ومن جاء بعدَهم من المسلمين، وهذا لا يمكنُ فـي المنقولاتِ قطعًـا، لأنَّ المنقـولات تستـهلكُ ويختصُّ به من يأخـذُهُ فلا يمكنُ اشتراكُ جـميعِ المسلمينَ فيه، وقـد قيلَ: إنَّ هذه الآية نزلتْ في قرى عرينةَ الـتي فتحتْ على النبيِّ ﷺ، أو فـيهـا وفي قرى بني قريظة والـنضير وحنينٍ، وقيلَ: بل الآيةُ تعمُّ كلَّ مـا فتحَ إلى آخر الدهر، وهو أصحُ، وإن كانَ سببُ نزولها في قـرى عرينة، فإنَّ سبب النزولِ لا يختصُّ الحكمَ العامَّ.

قال معمرٌ: بلغنَا أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في الجزيرةِ والخراجِ، وخراجِ القُرى، يعني القُرى تؤدِّي الخراجُ ذكرهُ ابنُ أبي حاتمٍ وكذا قال الحسنُ بنُ صالحٍ: أنَّ الفيءَ ما أُخذَ من الكفارِ بصلحٍ من جزيةٍ أو خـراجٍ، وكذا فسر أحمدُ الفيءَ بأنه ما صولح عليه من الأرضين وجزيةِ الرؤوس وخراج الأرضِ، وقال: فيه حقٌّ لجمـيع المسلمين، ولم يذكرْ في هذه الآيةِ بغيـرِ إيجافٍ، كمـا ذكرهُ في

الآية الأولى، وقد تقدَّم عن مجاهدٍ أنه حـمل الآية الأولى على خيبر وقريظةَ مع ما فيها من نفي الإيجافِ، فما لم يذكرْ فيه نفيُ الإيجافِ أوْلى أن يحملَ على حالةِ القتالِ، فمن هنا قالتْ طائفةٌ من السلف: المرادُ به ما أخذَهُ المسلمونَ بقتالٍ من الأرضِ.

ذكرَ إسماعيلُ بن إسحاقَ عن أبيه عن المغيرة بنِ عبد الرحمن، قال ابنُ إسحاقَ: وحدَّثني عبد اللَّه بن أبي بكرٍ دخلَ حديثُ أحدُهما في الآخر، قال: أنزلَ اللَّهُ تعالى في بني النضير سورة الحشرِ، فكانتْ أموالُ بني النضير مما لم يوجفِ المسلمونَ عليه خيلاً ولا ركابًا، فجعل اللَّهُ أموالَهم لنبيِّه ﷺ يضَعُها حيثُ شاءَ، ثم قالَ: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [الحشر:٧]، ما أوجفَ المسلمون عليه بالخيل والركابِ، وفُتحَ بالحربِ فللَّه وللرسول ولذي القربى، فهذا قسمٌ آخرُ بينَ المسلمين على ما وضَعهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ فقسم الفيءَ لمن سمَّى من المهاجرينَ والأنصارِ، لمن جاء بعدهم، خرَّجه القاضي إسماعيلُ.

ونحو هذا قالَ قتادةُ ويزيد بن رومانَ: وأنَّ هذه القرى مما أخذ بالقتالِ لكنَّهم قالوا: نُسخ ذلك بآيةِ الأنفالِ، فإن أرادوا النسخَ الاصطلاحي، وهو رفعُ الحكمِ، فلا يصحُّ؛ لأنَّ آيةَ الأنفالِ نزلت عقبَ بدرٍ قبلَ بني النضير، وإن أرادُوا أنها بينت أمرَهَا وأنَّ المرادَ بآيةِ الحشرِ خُمسُ الغنيمة خاصةً، وهذا قولُ عطاءٍ الخراسانيِّ ذكرهُ آدمُ بنُ أبي إياسٍ في «تفسيرِهِ» عن أبي شيبةَ عنه على تقديرِ أن يكونَ المرادُ الخمسَ خاصة بآيةِ الحشر أنها بينتْ أنَّ خُمسَ الغنيمةِ لا يختصُّ بالأصنافِ الخمسِ، بل يشتركُ فيها جميعُ المسلمين كان متوجِّها، ويستدلُّ بذلك على أن مصرف الخمسِ كلَّه مصرفُ الفيءِ، وهو

أقوى الأقوالَ، وهو قـولُ مالكٍ وقرره عمـرُ بنُ عبد العزيزِ في رسـالتِهِ في الفيءِ تقريرًا بليغًا شافيًا ﷺ.

فهذه ثلاثـة أقوال في الآية إذا قلنا: إنَّ الفيءَ هنا ما أخذَ بقـتالٍ، هل هي منسوخةٌ أو أن المرادَ بها خمسُ الغنيـمةِ أو أنَّ المرادَ بها الأرضُ خاصةً، وهذا الثالثُ أصحُّ ويقررُ هذا أنَّ الفيءَ يستعملُ كثيرًا فيما أخذ بقتالٍ.

وروى إبراهيمُ بنُ طهـمانَ عن أبي الزبيـر عن جابر ﷺ قـال: «أفاءَ اللَّه على رسولِهِ خيبرَ فأقرَّهم رسولُ اللَّه ﷺ كما كانُوا»، وذكرَ الحديث.

وروى يحيى بنُ سـعيدٍ عن بشير بنِ يـسارٍ أنَّ رسول اللَّه ﷺ لما أفاء اللَّهُ عليه خيبرَ قسمَها ستةً وثلاثينَ سهمًا، وذكرَ الحديث.

خرَّجه أبو داود[1].

وإذا تقـرَّرَ هذا فمن رأى دخـولَ الأرضِ في آية الغنيـمـةِ خاصـةً أوجبَ قسمتَها بين الغانمينَ، ومن رأى دخولَها في آية الفيءِ خاصةً فمنهم من أوجب إرصادَهَا للمسلمينَ عمومًا، كقول مالك وأصحابِهِ، ومنهم من خير بين ذلك وبين قسمتِها، وهو قولُ الأكثرين، ثمَّ إنَّ أبا عبيدٍ زعمَ أنَّ الصحابةَ ﷺ رأوا دخولَهـا في كلتا الآيتَيْنِ، فلذلـكَ منهم من أشارَ بقسـمتِهـا ومنهُم من أشارَ بحبسِها، وردَّ ذلك أصحابُ مالكٍ، وقالُوا: لو دخلتْ في آيةِ الغنيمة لكانتْ حقًّا للغانمينَ كالمنقـولاتِ، فكيف يخيرُ الإمامُ بين إعطائها لأهلِها المـستحقين لها وبين منعهم حقِّهم.

وقد يقالُ: إنَّ مـن رأى قسمتَهـا كالزبير وبلالٍ ﷺ، وهو أولُ اخـتياريِّ عـمرَ ﷺ لم يكنْ مـأخذُهُ في ذلك دخـولَهـا في آيةِ الغنيمـة، وإنما يكونُ

---

(١) «السنن» (٣٠١٢).

مأخذُهُم في ذلكَ أنها لما كانت فـيئًا لجميع المسلمين، وحقًّا مشتركًا بينم جاز تخصيصُ الغانمينَ بها لأنهم من جملةِ المسلمين، ولهم خصوصيةٌ على غيرِهم بحصولِ هذه الأرضِ بقتالِهم عليها، فإذا كـانتِ المصلحةُ في تخصيصِهم بها جازَ، وهذا كما أقطـع عثمانُ رضي الله عنه جماعةً من الصـحابة بعض أرضِ السوادِ إقطاعَ تمليكٍ، ونظيـــرهُ وقفُ الإمـامِ بـعضَ أراضي بيتِ المالِ عـلى بعضِ المسلمين، وقد أفتى بجوازِ ذلك ابنُ عقيلٍ من أصحابنا وطوائفُ من أصحابِ الشافعيِّ وأبي حنيفةَ، ومن الشافعية من منع ذلك(١) .

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

من ملك نفسَـهُ وقهرَهَا ودانَها: عـزَّ بذلكَ؛ لأنه انتصرَ على أشـدِّ أعدائه وقـهرهُ وأسـرهُ واكـتفَى شـرَّه قـال اللَّهُ تـعـالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩]، فحصرَ الفلاحَ في وقايةِ شحِّ نفسِهِ، وتطلُّعِها إلى ما مُنعتْ منهُ، وحرصِـها على ما يُـضيرُها مما تشـتهيـهِ: من علوٍّ وترفعٍ، ومالٍ وجاهٍ وأهلٍ ومسكنٍ، ومأكلٍ ومشربٍ وملبسٍ وغيرِ ذلكَ.

فإنَّهـا تتطلعُ إلى ذلكَ كلِّه وتشتـهيهِ، وهو عينُ هلاكِـهَا ومنه ينشـأُ البغيُ والحسدُ والحـقدُ. فمن وقِيَ شحَّ نفسِهِ فـقد قهرهَا وقصـرَهَا على ما أُبيحَ لها وأُذنَ لها فيه، وذلكَ عين الفلاحِ(٢) .

* * *

(١) «أحكام الخراج» (ص ١٢٨ ـ ١٢٩).

(٢) «شرح حديث: لبيَّك اللهم لبيك» (ص ١٢٨ ـ ١٢٩).

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾

فأفضلُ الأعمالِ: سلامةُ الصَّدرِ من أنواعِ الشَّحناءِ كلِّها، وأفضلُها السَّلامةُ من شحناءِ أهلِ الأهواءِ والبدعِ التي تقتضي الطَّعنَ على سلفِ الأمةِ، وبغضَهم والحقدَ عليهم، واعتقادَ تكفيرِهم أو تبديعِهم وتضليلِهم؛ ثم يلي ذلكَ سلامةُ القلبِ من الشَّحناءِ لعمومِ المسلمينَ، وإرادةُ الخيرِ لهُم، ونصيحتُهم، وأن يُحبَّ لهم ما يُحبُّ لنفسه. وقد وصفَ اللَّهُ تعالى المؤمنين عمومًا بأنَّهم يقولون: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

وفي «المسند»(١) عن أنسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ، قال لأصحابِهِ ثلاثةَ أيامٍ: «**يطلُعُ عليكم الآنَ رَجُلٌ من أهلِ الجنَّةِ**» فيطلُعُ رجلٌ واحدٌ، فاستضافهُ عبدُ اللَّهِ بن عمرٍو، فنامَ عنده ثلاثًا لينظرَ عملَه، فلم يرَ له في بيته كبيرَ عملٍ، فأخبرَه بالحالِ، فقال له: هو ما ترى، إلا أنِّي أبيتُ وليسَ في قلبي شيءٌ على أحدٍ من المسلمين. فقالَ عبدُ اللَّهِ: بهذا بلغَ ما بلغَ.

وفي «سُنَنِ ابنِ ماجه»(٢): عن عبدِ اللَّهِ بنِ عمرٍو، قالَ: قيلَ: يا رسولَ اللَّهِ، أيُّ الناسِ أفضلُ؟ قال: «**كُلُّ مَخْمُومِ القلبِ، صدوقِ اللِّسانِ**». قالوا: صَدوقُ اللسانِ نعرفُه، فما مَخمُومُ القلبِ؟ قال: «**هو التَّقِيُّ النَّقِيُّ الذي لا إثْمَ فيه، ولا بَغْيَ، ولا غِلَّ، ولا حسدَ**».

---

(١) جزء من حديث طويل أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ١٦٦).

(٢) ابن ماجه (٤٢١٦).

قال بعضُ السَّلف: أفضلُ الأعمالِ سلامةُ الصُّدُورِ، وسخاوةُ النُّفوسِ، والنَّصيحةُ للأمَّةِ؛ وبهذه الخصالِ بلغَ منْ بلغَ، لا بكثرةِ الاجتهادِ في الصَّومِ والصَّلاةِ(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

وأعظمُ الشدائدِ التي تنزلُ بالعبدِ في الدنيا الموتُ، وما بعده أشدُّ منه إن لم يكنْ مصيرُ العبدِ إلى خيرٍ، فالواجبُ على المؤمنِ الاستعدادُ للموتِ وما بعدَهُ في حال الصحةِ بالتقوى والأعمالِ الصالحةِ، قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾** [الحشر:١٨-١٩].

فمن ذكرَ اللَّهَ في حالِ صحتِه ورخائِه، واستعدَّ حينئذٍ للقاءِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ بالموتِ وما بعدَهُ، ذكرَهُ اللَّهُ عندَ هذه الشدائدِ، فكانَ معهُ فيها، ولطفَ به، وأعانَهُ، وتولاهُ، وثبّتَه على التوحيدِ، فلقيهُ وهو عنه راضٍ، ومن نسِيَ اللَّهَ في حالِ صحتهِ ورخائِه، ولم يستعدَّ حينئذٍ للقائِه، نسيهُ اللَّهُ في هذه الشدائدِ، بمعنى أنَّه أعرضَ عنهُ، وأهملَهُ، فإذا نزلَ الموتُ بالمؤمنِ المستعدِّ لهُ، أحسنَ الظنَّ بربِّه، وجاءتْهُ البُشْرَى منَ اللَّهِ فأحبَّ لقاءَ اللَّهِ، وأحبَّ اللَّهُ لقاءَه، والفاجرُ بعكسِ ذلكَ، وحينئذٍ يفرحُ المؤمنُ، ويستبشرُ بما قدَّمَهُ مما هو

(١) «اللطائف» (٢٦٦ ـ ٢٢٧).

قادمٌ عليـهِ، ويندمُ المفـرطُ، ويقـولُ: ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٥٦].

قال أبو عبدِ الرحمنِ السُّلميُّ قبلَ موتِهِ: كيفَ لا أرجُو ربِّي وقد صُمْتُ له ثمانينَ رمضانَ؟

وقال أبو بـكرٍ بنُ عياشٍ لابـنه عندَ موتِهِ: أترى اللَّه يضـيعُ لأبيكَ أربعينَ سنةً يختمُ القرآن كُلَّ ليلةٍ؟

وختمَ آدمُ بنُ أبي إياسٍ القرآنَ وهو مسجًّى للموتِ، ثم قالَ: بحُبِّي لكَ، إلا رفقتَ بي في هذا المصرعِ؟ كنتُ أُؤمِّلُك لهذا اليومِ، كنتُ أرجوكَ، لا إله إلا اللَّه، ثم قُضِي.

ولما احتُضِرَ زكريا بنُ عديٍّ، رفعَ يديهِ، وقالَ: اللهمّ إنِّي إليكَ لمشتاقٌ.

وقال عبدُ الصمدِ الزاهدُ عند موتِهِ: سيِّدي لهذِهِ الساعةِ خبَّأتُكَ، ولهذا اليومِ اقتنيتُكَ، حقِّق حُسْنَ ظنِّي بكَ.

وقال قتادةُ في قولِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٢] قال: من الكربِ عندَ الموتِ.

وقـال عليُّ بنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عـبـاسٍ في هذه الآيةِ: يُنجيـهِ من كلِّ كربٍ في الدنيا والآخرةِ.

وقال زيدُ بنُ أسلمَ في قـولِهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ﴾ [فصلت:٣٠]. قال: يُبـشر بذلكَ عند موتِهِ، وفي قـبرِهِ، ويومَ يُبعثُ، فإنَّه لفي الجنةِ، وما ذهبتْ فرحةُ البشارةِ من قلبه.

وقال ثابتٌ البنانيُّ في هذه الآيةِ: بلغنا أن المؤمنَ حيثُ يبعثه اللَّه من قبره، يتلقاهُ ملكاهُ اللذان كانَا معه في الدنيا، فيقولانِ لهُ: لا تخفْ ولا تحزنْ، فيؤمِّنُ اللَّهُ خوفَه، ويُقرُّ اللَّهُ عينَه، فما مِنْ عظيمة تغشى الناسَ يومَ القيامةِ إلا هي للمؤمنِ قرَّةُ عينٍ لما هداهُ اللَّهُ، ولما كانَ يعملُ في الدُّنيا[1].

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٤٩٩ - ٥٠١).

سُورَةُ المُمْتَحَنَة

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

قال ابن الجوزي في «المقتبس» : سمعتُ الوزير[1] يقول في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الممتحنة:٥] قال: المعنى: لا تَبْتلِنا بأمرٍ يوجبُ افتتانَ الكفارِ بِنَا، فإنَّه إذا خُذِلَ المتـقي ونُصِرَ العاصي فُتِنَ الكافرُ، وقال: لو كان مذهبُ هذا صحيحًا ما غُلِبَ[2] .

* * *

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾

وقـد رُوِيَ عن ابنِ عـبَّاسٍ رضي الله عنهما في قـولِه تعـالى: ﴿إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة:١٠]، قـالَ: كـانتِ المـرأةُ إذا أتتِ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، حلَّفَها باللَّه: ما خرجتِ من بُغضِ زوجٍ، وباللَّه: ما خرجتِ رغبةً بأرضٍ عن أرضٍ، وباللَّه: مـا خرجتِ التـماسَ دُنيـا، وباللَّه: ما خـرجت إلا حُبًّا للَّهِ ورسولِهِ. خرجهُ ابنُ أبي حاتم، وابنُ جريرٍ، والبزَّارُ في «مسنده»[3]، وخرَّجه الترمذي في بعضِ نسخِ كتابهِ مختصراً[4].

* * *

(١) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

(٢) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٧٢).

(٣) أخرجه: البزار (٢٢٧٢ ـ كشف).

(٤) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٨).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

[قال البخاريُّ][(١)]: حدَّثنا أبُو اليمانِ: أنا شُعيبٌ، عن الزُّهريِّ: أخبرني أبُو إدريسَ عائذُ اللَّه بنُ عبدِ اللَّه، أنَّ عبادةَ بنَ الصَّامتِ ـ وكانَ شهدَ بدرًا، وهوَ أحدُ النُّقباءِ ليلةَ العقبةِ ـ، أنَّ رسولُ اللَّه ﷺ قالَ: ـ وحولَهُ عصابةٌ من أصحابِهِ ـ: **«بايعُوني على أنْ لا تُشركُوا باللَّه شيئًا، ولا تَسرقُوا، ولا تزنُوا، ولا تقتلُوا أولادكُمْ، ولا تأتُوا ببُهتانٍ تفترُونَهُ بينَ أيديكُمْ وأرجُلكُمْ، ولا تعصوا فِي معرُوفٍ، فمنْ وفَّى منكُمْ فأجرهُ على اللَّهِ، ومن أصابَ مِنْ ذلك شيئًا فعُوقبَ بهِ في الدُّنيا فهُوَ كفَّارةٌ، ومن أصابَ مِنْ ذلك شيئًا ثُمَّ سترَهُ اللَّهُ فهوَ إلى اللَّهِ، إن شاءَ عفَا عنهُ، وإنْ شاءَ عاقبهُ»**، فبايعْنَاهُ علَى ذلكَ.

هذا الحديث؛ سمعه أبو إدْريس [...][(٢)]، عن عقبة بن عامر، عن عبادة.

وزيادة «عقبة» في إسناده وَهْم.

وقد خرجَ البخاريُّ الحديثَ في «ذكرِ بيعة العقبة»[(٣)] وفي «تفسير سورة الممتحنة»[(٤)] من كتابه هذا، وفيه: التصريحُ بأنَّ أبا إدريس أخبره به عبادة،

(١) البخاري (١/ ١١).

(٢) الكلام في الأصل متصل، لكنني لست أشك أن هنا سقطًا وقع، تقديره: «سمعه أبو إدريس [من عبادة، ورواه بعضهم عن أبي إدريس]، عن عقبة بن عامر، فيكون الساقط ما بين المعقوفين، أو ما في معناه. واللَّه أعلم.

(٣) البخاري (٥/ ٧٠). (٤) السابق.

وسمعه منه.

وكان عبادةُ قد شهدَ بدرًا، وهو أحدُ النقباءِ ليلةَ العقبةِ، حيثُ بايعتِ الأنصارُ النبيَّ ﷺ قبلَ الهجرةِ.

لكنْ؛ هلْ هذه البيعةُ المذكورةُ في هذا الحديثِ كانت ليلةَ العقبةِ، أم لا؟ هذا وقعَ فيه ترددٌ.

فرواهُ ابنُ إسحاقَ، عن الزهريِّ، وذكرَ في روايتِهِ: أنَّ هذه البيعةَ كانتْ ليلةَ العقبةِ.

وروى ابنُ إسحاقَ - أيضًا -، عن يزيدَ بن أبي حبيبٍ، عن أبي الخيرِ مرثد ابنِ عبدِ اللَّهِ، عن الصُّنابحي، عن عبادةَ بنِ الصامتِ، قالَ: كنتُ فيمن حضرَ العقبةَ الأُولى، وكنَّا اثني عشرَ رجلاً، فبايعنا رسولَ اللَّه ﷺ على بيعةِ النِّسَاءِ، وذلكَ قبلَ أن تفرضَ الحربُ على أنْ لا نشركَ باللَّهِ شيئًا، ولا نسرقَ، ولا نزني - الحديث.

خرجهُ الإمامُ أحمدُ[(١)]، من روايةِ ابنِ إسحاقَ - هكذا.

وكذا رواه الواقديُّ، عن يزيدَ بنِ أبي حبيب.

وخرجاهُ في «الصحيحين»[(٢)]، من حديثِ الليثِ بنِ سعدٍ، عن يزيدَ بنِ أبي حبيبٍ، عن أبي الخيرِ، عن الصنابحيِّ، عن عبادةَ، قالَ: إني من النقباءِ الذينَ بايعُوا رسولَ اللَّهِ ﷺ، بايَعَنا على أنْ لا نشركَ باللَّهِ شيئًا - فذكرَ الحديثَ.

---

(١) «المسند» (٥/ ٣٢٣).

(٢) البخاري (٥/ ٧٠)، ومسلم (٥/ ١٢٧).

وليس هذا بالصريحِ في أنَّ هذه البيعةَ كانتْ ليلةَ العقبةِ.

ولفظُ مسلمٍ[١] بهذه الروايةِ: عن عبادةَ بنِ الصامتِ، قالَ: إنِّي من النقباءِ الذينَ بايعُوا رسولَ اللَّه ﷺ. وقالَ: بايعناهُ على أن لا نشركَ ـ الحديث.

وهذا اللفظُ؛ قد يُشعرُ بأنَّ هذهِ البيعةَ غيرُ بيعةِ النقباءِ.

وخرجهُ مسلمٌ، من وجهٍ آخرَ، من روايةِ أبي قلابَة، عن أبي الأشعثِ، عن عبادةَ، قالَ: أخذَ علينا رسولُ اللَّهِ ﷺ، كما أخذَ على النساءِ: أنْ لا نشركَ باللَّه شيئًا.

وهذا قد يُشعرُ بتقدمِ أخذهِ على النساءِ على أخذهِ عليهِم.

وخرجَ مسلمٌ حديثَ عبادةَ، من رواية أبي إدريس عنه، وقال في حديثه: «فتلا علينا آية النساء: ﴿أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ الآية [الممتحنة:١٢]».

وخرَّجَه البخاريُّ في «تفسيرِ سورة الممتحنة»[٢] من رواية ابنِ عيينةَ، عن الزهريِّ، وقالَ فيه: وقرأ آيةَ النساءِ، وأكثرُ لفظِ سفيانَ: وقرأ الآيةَ.

ثم قالَ: تابعهُ عبدُ الرزاقِ، عن معمرٍ ـ في الآيةِ.

وكذا خرجهُ الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ[٣]، وعندَهُما: فقرأ عليهم الآيةَ.

زاد الإمامُ أحمدُ: التي أخذت على النساءِ: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ﴾ [الممتحنة:١٢].

وهذا تصريحٌ بأنَّ هذه البيعةَ كانتْ بالمدينةِ؛ لأن آيةَ بيعةِ النساءِ مَدنية.

---

(١) (٥/ ١٢٧).

(٢) البخاري (٦/ ١٨٧).

(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٣١٤)، والترمذي (١٤٣٩).

وروى هذا الحديثَ سفيانُ بن حسينٍ، عن الزهريِّ، وقال في حديثه: إنَّ النبيَّ ﷺ قال لهم: «أيكمْ يبايعني على هؤلاء الآياتِ الثلاث؟» ثُمَّ تلا هذه الآيةَ: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام:١٥١]، حتى فرغ من الثلاث آياتٍ.

خرجه الهيثم بن كليبٍ في «مسنده».

وسفيانُ بنُ حسينٍ، ليسَ بقويٍّ، خصوصًا في حديثِ الزهريِّ، وقد خالفَ سائرَ الثقاتِ من أصحابه في هذا.

وقد روى عبادةُ بنُ الصامتِ، أنهم بايعُوا النبيَّ ﷺ على السمعِ والطاعةِ، في المنشطِ والمكرَهِ، وأن لا ينازعُوا الأمرَ أهلَه، وأن يقولوا بالحقِّ[١].

فهذه صفةٌ أخرى، غيرَ صفةِ البيعةِ المذكورةِ في الأحاديثِ المتقدمةِ.

وهذه البيعةُ الثانيةُ مخرجةٌ في «الصحيحين» من غيرِ وجهٍ عن عبادةَ.

وقد خرَّجها الإمامُ أحمدُ[٢]، من روايةِ ابنِ إسحاقَ: حدثني عبادةُ بنُ الوليدِ بنِ عبادةَ بن الصامت، عن جدِّه عبادةَ ـ وكانَ أحدَ النقباءِ ـ، قالَ: بايعنا رسولَ اللَّه ﷺ بيعةَ الحربِ، وكانَ عبادةُ من الاثني عشرَ الذينَ بايعُوا في العقبةِ الأولى على بيعةِ النساءِ على السمعِ والطاعةِ، في عُسرِنا ويُسرِنا ـ وذكرَ الحديثَ.

وهذه الروايةُ، تدلُّ على أنَّ هذه البيعةَ هي بيعةُ الحربِ، وأنَّ بيعةَ النساءِ كانتْ في العقبةِ الأُولى، قبلَ أن تفرضَ الحربُ.

---

(١) البخاري (٩/٩٦)، ومسلم (٦/١٦).
(٢) «المسند» (٥/٣١٦).

فهذا قد يُشعرُ بأنَّ هذه البيعةَ كانتْ بالمدينةِ، بعد فرضِ الحربِ، وفي هذا نظرٌ.

وقد خرجهُ الهيثمُ بنُ كليبٍ في «مسندهِ»، من روايةِ ابنِ إدريس، عن ابنِ إسحاقَ ويحيى بنِ سعيدٍ وعبيدِ اللَّهِ بنِ عمرَ، عن عبادةَ بنِ الوليدِ، أنَّ أباهُ حدَّثه، عن جدِّهِ قالَ: بايعنَا رسولَ اللَّهِ ﷺ في العقبةِ الآخرةِ على السمعِ والطاعةِ ـ فذكره.

وخرجهُ ابنُ سعدٍ من وجهٍ آخرَ، عن عبادةَ بنِ الوليدِ ـ مرسلاً.

وخرجَ الإمامُ أحمدُ من وجهٍ آخر[١]، عن عبادةَ، أنَّهم بايعُوا النبيَّ ﷺ هذه البيعةَ على السمعِ والطاعةِ ـ الحديث، وقال فيه ـ: وعلى أن ننصرَ النبيَّ ﷺ إذا قدمَ علينا يثربَ، فنمنعهُ مما نمنعُ منه أنفسَنَا.

وهذا يدلُّ على أن هذه البيعة كانتْ قبلَ الهجرةِ، وذلكَ ليلةَ العقبة.

وخرَّج ـ أيضًا[٢] ـ هذا المعنى من حديثِ جابرِ بنِ عبدِ اللَّهِ، أنَّ هذه البيعة كانتْ للسبعينَ، بشعبِ العقبةِ.

وهي البيعةُ الثانيةُ، وتكونُ سميتْ هذه البيعةُ الثانيةُ: «بيعةَ الحربِ»؛ لأن فيها البيعةَ على منعِ النبيِّ ﷺ، وذلكَ يقتضِي القتالَ دونَهُ، فهذا هو المرادُ بالحربِ، وقد شهدَ عبادةُ البيعتينِ معًا.

ويحتملُ أن النبيَّ ﷺ كانَ يبايعُ أصحابَه على بيعةِ النساءِ قبلَ نزولِ آيةِ مبايعتهنَّ، ثم نزلتْ الآيةُ بموافقةِ ذلكَ.

---

(١) «المسند» (٥/ ٣٢٥).

(٢) «المسند» (٣/ ٣٢٢ ـ ٣٢٣).

وفي «المسندِ»(١)، عن أمِّ عطيةَ، أنَّ النبيَّ ﷺ لما قدمَ المدينةَ جمع النساءَ، فبايعهنَّ على هذهِ الآيةِ، إلى قولِهِ: ﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ [الممتحنة:١٢].

وهذا قبلَ نزولِ سورةِ الممتحنةِ؛ فإنها إنَّما نزلتْ قبلَ الفتحِ بيسيرٍ. واللَّهُ أعلمُ بحقيقةِ ذلكَ كلِّه.

وأمَّا ما بايعهم عليه، فقد اتفقت رواياتُ حديثِ عبادةَ، من طرقه الثلاثةِ عنهُ، أنهم بايعُوه على أن لا يشركُوا باللَّهِ، ولا يسرقُوا، ولا يزنُوا، ولا يقتلُوا.

وفي بعضِ الروايات: لا يقتلُوا أولادَهُم، كما في لفظِ الآيةِ.

وفي بعضِهَا: لا يقتلُوا النفسَ التي حرَّم اللَّهُ.

وهذه روايةُ الصُّنابحي، عن عبادةَ.

ثم إنَّ منَ الرواةِ من اقتصرَ على هذه الأربعِ، ولمْ يزد عليهَا.

ومنهمْ من ذكرَ في روايةِ المبايعةِ على بقيةِ ما ذكرَ في الآيةِ، كما في روايةِ البخاريِّ المذكورةِ هاهنا.

ومنهم من ذكرَ خصلةً خامسةً بعد الأربعِ، ولكنْ لمْ يذكرْهَا باللفظِ الذي في الآيةِ.

ثم اختلفُوا في لفظِها:

فمنهم من قالَ: «ولا ننتهبُ».

وهيَ روايةُ الصنابحيِّ عن عبادةَ المخرجةُ في «الصحيحينِ».

(١) (٥/ ٨٥).

ومنهمْ مَنْ قالَ: «ولا يَعْضَهُ بعضُنا بعضًا».

وهي روايةُ أبي الأشعثِ، عن عبادةَ.

خرجها مسلم[١].

ومنهم من قالَ: «ولا يغتبْ بعضُنا بعضًا».

وهي روايةُ الإمامِ أحمد[٢].

وأما الخصلةُ السادسةُ، فمنهمُ من لم يذكرْهَا بالكليةِ، وهي روايةُ أبي الأشعثِ التي خرجها مسلمٌ.

ومنهُم من ذكرَها، وسمَّاها: «المعصيـة»، فقالَ: «ولا نعصِي»، كما في روايةِ الصنابحيِّ.

وفي روايةِ أبي إدريسَ: «ولا تعصُوا في معروفٍ».

فأمَّا الشركُ والسرقةُ والزنا والقتلُ، فواضحٌ.

وتخصيصُ قتلِ الأولادِ بالذكرِ في بعضِ الرواياتِ، موافقٌ لِمَا وردَ في القرآنِ في مواضعَ، وليسَ له مفهومٌ، وإنما خصص بالذكرِ للحاجةِ إليهِ، فإنَّ ذلكَ كان معتادًا بين أهلِ الجاهليةِ.

وأما الإتيانُ ببهتانٍ يفترونَهُ بين أيديهم وأرجلِهم، على ما جاءَ في روايةِ البخاريِّ، فهذا يدلُّ على أن هذا البهتانَ ليسَ مما تختصُّ به النساءُ.

وقد اختلفَ المفسرونَ في البهتانِ المذكورِ في آيةِ بيعةِ النساءِ:

---

(١) (٥/ ١٢٧).

(٢) «المسند» (٥/ ٣٢٠).

فأكثرهُم فسرُوه، بإلحاقِ المرأةِ بزوجِهَا ولدًا من غيرِه.

رواه عليُّ بنُ أبي طلحةَ، عن ابنِ عباسٍ.

وقاله مقاتلُ بنُ حيانَ وغيرُه.

واختلفُوا في معنى قولِه: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾ [الممتحنة:١٢]:

فقيل: لأنَّ الولدَ إذا ولدتهُ أمه سقطَ بين يديها ورجليها.

وقيلَ: بل أرادَ بما تفتريه بين يديها، أن تأخذَ لقيطًا فتلحقه بزوجها، وبما تفتريه بين رجليها، أن تلده من زنا، ثم تلحقه بزوجِها.

ومن المفسرينَ من فسرَ البهتانَ المُفترى بالسحرِ.

ومنهم من فسَّره بالمشي بالنميمةِ، والسعي في الفسادِ.

ومنهم من فسرهُ بالقذفِ والرمي بالباطلِ.

وقيل: البهتانُ المفترى يشملُ ذلك كلَّه، وما كانَ في معناهُ.

ورجحه ابنُ عطيةَ وغيرُه.

وهو الأظهرُ؛ فيدخلُ فيه كذبُ المرأةِ فيما ائتُمنتْ عليه من حملٍ وحيضٍ، وغيرِ ذلكَ.

ومن هؤلاءِ من قالَ: أرادَ بما بين يدَيها حفظَ لسانها وفمها ووجهها عمَّا لا يحلُّ لها، وبما بينَ رجليهَا حفظَ فرجِهَا، فيحرمُ عليها الافتراء ببهتانٍ في ذلك كلِّه.

ولو قيلَ: إنَّ من الافتراءِ ببهتانٍ بين يديها: خيانةُ الزوجِ في مالهِ الذي في بيتها، لم يبعدْ ذلكَ.

وقد دلَّ مبايعةُ النبيِّ ﷺ الرجالَ علَى أنْ لا يأتوا ببهتانٍ يفترونَه بينَ أيْديهم وأرجُلِهِمْ أنَّ ذلكَ لا يختصُّ بالنساءِ.

وجميعُ ما فُسِّر به البهتانُ في حقِّ النساءِ يدخلُ فيه الرجالُ ـ أيضًا ـ، فيدخلُ فيه استلحاقُ الرجلِ ولدَ غيرِهِ، سواءٌ كان لاحقًا غيره أو غيرَ لاحقٍ، كولدِ الزنا، ويدخلُ فيه الكذبُ والغيبةُ.

وقد قالَ النبيُّ ﷺ: **«إنْ كانَ في أخيكَ ما تقولُ فقد اغْتبتَه، وإنْ لم يكنْ فيه ما تقولُ فقد بهتَّهُ»**.

خرجهُ مسلمٌ[1].

وكذلكَ القذفُ، وقد سمَّى اللَّهُ قذفَ عائشةَ بهتانًا عظيمًا.

وكذلكَ النميمةُ من البهتانِ.

وفي روايةِ أبي الأشعثِ، عن عبادةَ: **«ولا يَعْضَه بعضُكُم بعضًا»**.

والعضِيهَة: النميمة.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[2]، عن ابنِ مسعودٍ ـ مرفوعًا ـ: **«ألا أُنبئُكُم ما العضْهُ؟ هي النميمةُ القَالَةُ بين الناس»**.

وروى إبراهيمُ الهَجَري، عن أبي الأحوصِ، عن ابنِ مسعودٍ، قالَ: كنا نسمِّي العضيهة السحرَ، وهو اليوم: قيلَ وقالَ.

وفسر إسحاقُ بن راهويه العضيهةَ في حديثِ عبادةَ بن الصامتِ، قال: لا يبهتْ بعضُكم بعضًا.

---

(١) (٨/ ٢١).

(٢) (٨/ ٢٨).

نقله عنه محمدُ بنُ نصرٍ.

وذكر أهلُ اللغة: أنَّ العضيهةَ: الشتيمة، والعضيهة: البهتانُ، والعاضهة، والمستعضهة: الساحرةُ والمستسحرةُ.

وفي روايةِ الصنابحيِّ: «ولا ننتهبُ»، والنُّهَبةُ من البهتانِ؛ فإنَّ المنتهبَ يبهتُ الناسَ بانتهابه منه ما يرفعونَ إليه أبصارَهُم فيه.

وكل ما بهتَ صاحبَه وحيَّره وأدْهشه من قولٍ أو فعلٍ لم يكنْ في حسابِهِ فهو بهتانٌ، فأخذُ المالِ بالنُّهْبى أو بالدعاوَى الكاذبةِ بهتانٌ.

وقد قالَ تعالى: ﴿**وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا**﴾ [النساء: ٢٠].

وفي «المسندِ» والترمذيِّ والنسائيِّ[(١)]، عن صفوانَ بنِ عسَّالٍ، أن اليهودَ سألوا النبيَّ ﷺ عن التسعِ آياتٍ البيناتِ التي أوتيها موسَى، فقالَ: «**لا تشركُوا باللَّهِ شيئًا، ولا تزنوا، ولا تقتلُوا النفسَ التي حرمَ اللَّهُ إلا بالحقِّ، ولا تسرقوا، ولا تسحرُوا، ولا تمشوا ببريءٍ إلى سلطانٍ فيقتلُه، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفُوا محصنةً، ولا تفرُّوا من الزحفِ، وعليكم اليهودَ خاصةً أن لا تعدُوا في السبتِ**».

فلم يذكرْ في هذا الحديث البهتانَ المفترى بلفظه، ولكن ذكرَ ممَّا فسر به البهتانَ المذكورَ في القرآنِ عدةَ خصالٍ: السحرَ، والمشيَ ببريءٍ إلى السلطانِ، وقذفَ المحصناتِ.

وهذا يشعرُ بدخولِ ذلك كلِّه في اسمِ البهتانِ.

---

(١) أحمد في «المسند» (٤/ ٢٣٩)، والترمذي (٢٧٣٣)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٤٩٥١).

وكذلك الأحاديثُ التي ذكرَ فيها عدَّ الكبائرِ، ذكرَ في بعضِها: القذفَ، وفي بعضِها: قولَ الزورِ، أو شهادةَ الزورِ، وفي بعضها: اليمينَ الغموسِ، والسحرَ، وهذا كلُّه من البهتانِ المفترى.

وأما الخصلةُ السادسةُ، فهي المعصيةُ، وتشملُ جميعَ أنواعِ المعاصِي، فهو من بابِ ذكرِ العامِّ بعد الخاصِّ.

وهو قريبٌ من معنى قولهِ تعالى: ﴿**وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [النور:٥٦]، وقولهِ تعالى: ﴿**وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ**﴾ [الممتحنة:١٢].

وفي بعضِ ألفاظِ حديثِ عبادةَ: «**ولا تعصُوا في معروفٍ**»، وفي بعضها: «**ولا تعصوني في معروفٍ**».

وقد خرجها البخاريُّ في موضعٍ آخرَ.

وكلُّ هذا إشارةٌ إلى أن الطاعةَ لا تكونُ إلا في معروفٍ، فلا يطاعُ مخلوقٌ إلا في معروفٍ، ولا يطاعُ في معصيةِ الخالقِ.

وقد استنبَط هذا المعنى من هذه الآيةِ طائفةٌ من السلفِ.

فلو كان لأحدٍ من البشرِ أن يطاعَ بكلِّ حالٍ، لكانَ ذلك للرسول ﷺ، فلمَّا خُصَّتْ طاعتُه بالمعروفِ، مع أنه لا يأمرُ إلا بما هو معروفٌ، دلَّ على أن الطاعةَ في الأصلِ للَّهِ وحدَه، والرسولُ مبلغٌ عنه، وواسطةٌ بينه وبينَ عبادِه.

ولهذا قالَ تعالى: ﴿**مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ**﴾ [النساء:٨٠].

فدخلَ في هذه الخصلةِ السادسةِ: الانتهاءُ عن جميعِ المعاصِي، ويدخلُ فيها ـ أيضًا ـ: القيامُ بجميعِ الطاعاتِ على رأي من يرى أن النهيَ عن شيءٍ

أمرٌ بضدِّه.

فلما تمتْ هذه البيعةُ على هذه الخصال؛ ذكرَ لهم النبيُّ ﷺ حكمَ من وفَّى بها، وحكمَ من لم يَفِ بها عندَ اللَّه عزَّ وجلَّ.

فأمـا مَن وفَّى بها، فأخـبرَ أن أجرَه على الـلَّهِ، كذا في روايةِ أبي إدريسَ وأبي الأشعثِ عن عبادةَ.

وفي روايةِ الصنابحيِّ، عنه: «فالجنةُ إن فعلنَا ذلك».

وقد قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [الفتح: ١٠].

وفُسرَ الأجرُ العظيمُ بالجنةِ ـ: كذا قالَه قتادةُ وغيرُه من السلفِ.

ولا ريبَ أن منِ اجتنبَ الشـركَ والكبائرَ والمعاصِي كلَّـها فله الجنةُ، وعلى ذلك وقعتْ هذه البـيعةُ وإن اخـتصرَ ذلكَ بعضُ الرواةِ، فـأسقطَ بعضَ هذهِ الخصالِ.

وأما من لم يوفِّ بها، بل نكثَ بعضَ ما التزم بالبيعةِ تركَه للَّهِ عزَّ وجلَّ ـ والمرادُ: ما عدا الشركِ منَ الكبائرِ ـ فقسمَه إلى قسمينِ:

أحدُهما: أن يعـاقَب به في الدنيا، فأخبـرَ أن ذلك كفارةٌ له. وفي رواية: «**فهو طهورٌ له**»، وفي روايةٍ: «**طهور له، أو كفارةٌ**» ـ بالشك.

ورواه بعضُهُم: «**طهورٌ وكفارةٌ**» ـ بالجمعِ.

وقد خرجَها البخاريُّ في موضعٍ آخرَ من «صحيحِه».

وروى ابنُ إسحـاقَ، عن الزهريِّ حديـثَ أبي إدريسَ، عن عبـادَةَ، وقال

فيه: «**فأُقيم عليه الحدُّ، فهو كفارةٌ له**».

وفي رواية أبي الأشعثِ عن عبادةَ: «**ومن أتى منكُم حدا، فأقيم عليه فهُوَ كفارةٌ**».

خرجه مسلم[1].

وهذا صريحٌ في أن إقامةَ الحدودِ كفاراتٌ لأهلِها.

وقد صرحَ بذلك سفيانُ الثوريّ.

ونصَّ على ذلك أحمدُ ـ في روايةِ عبدوس بنِ مالكٍ العطارِ، عنه.

وقال الشافعيُّ: لم أسمعْ في هذا البابِ أن الحدَّ كفارةٌ أحسنَ من حديثِ عبادةَ.

وإنما قالَ هذا؛ لأنه قد رُوي هذا المعنى عن النبيِّ ﷺ من وجوهٍ متعددة، عن عليٍّ، وجريرٍ، وخزيمةَ بنِ ثابتٍ، وعبد اللَّه بن عمرو وغيرهم.

وفي أسانيدِها كلِّها مقالٌ، وحديثُ عبادةَ صحيحٌ ثابتٌ.

وقد روى عبدُ الرزاقِ، عن معمرٍ، عن ابنِ أبي ذئبٍ، عن المقبريِّ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**ما أدرِي الحدودُ طهارةٌ لأهلها، أم لا؟**» وذكر كلامًا آخرَ.

خرجه الحاكمُ[2]، وخرج أبو داودَ[3] بعضُ الحديثِ.

وقد رواه هشامُ بنُ يوسفَ، عن معمرٍ، عن ابن أبي ذئب، عن الزهريِّ ـ مرسلاً.

---

(١) (٥/ ١٢٧).
(٢) «المستدرك» (٢/ ٤٥٠).
(٣) «السنن» (٤٦٧٤).

قال البخـاريُّ في «تاريخه»(١): المرسلُ أصحُّ. قـال: ولا يثبتُ هذا عن النبيِّ ﷺ، وقد ثبت عنه أن الحدودَ كفارةٌ. انتهى.

وقد خرجه البيهقيُّ(٢) من روايةِ آدمَ بنِ أبي إياسٍ، عن ابنِ أبي ذئبٍ، عن المقبريِّ، عن أبي هريرةَ ـ مرفوعًا ـ أيضًا.

وخرجه البـزارُ من وجهٍ آخرَ، فيه ضـعفٌ، عن المقبريِّ، عن أبي هريرةَ ـ مرفوعًا ـ أيضًا.

وعلى تقديرِ صحتهِ، فيحتملُ أن يكونَ النبيُّ ﷺ قال ذلك قبل أن يعلَمه ثم علِمه، فأخبرَ به جزمًا.

فإن كانَ الأمرُ كذلكَ فحديثُ عبادةَ إذنْ لم يكن ليلةَ العقبةِ بلا ترددٍ؛ لأن حديثَ أبي هـريرةَ متأخـرٌ عن الهجـرةِ، ولم يكنِ النبيُّ ﷺ علم حيـنئذٍ أن الحدود كفارةٌ، فلا يجوز أن يكون قد أخبرَ قبلَ الهجرةِ بخلافِ ذلك.

وقد اختلفَ العلماءُ: هل إقامةُ الحـدِّ بمجردِه كفارةٌ للذنب من غيرِ توبةٍ أم لا؟ على قولين:

أحدُهما: أن إقامةَ الحدِّ كفـارةٌ للذنبِ بمجردِه، وهو مرويٌّ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ وابنـهِ الحـسنِ، وعن مـجـاهدٍ وزيدِ بنِ أسلمَ، وهو قـولُ الثـوريِّ والشافعيِّ وأحمدَ، واختيارُ ابنِ جريرٍ وغيرِه من المفسرينَ.

والثاني: أنه ليس بكفارةٍ بمجـردِه، فلا بدَّ من توبةٍ، هو مرويٌّ عن صـفوانَ ابنِ سليمٍ وغيرِه.

---

(١) «الكبير» (١/ ١/ ١٥٣).

(٢) البيهقي في «السنن» (٨/ ٣٢٩).

ورجَّحه ابنُ حزمٍ وطائفـةٌ من متأخرين المفسرينَ، كالبـغويِّ وأبي عبدِ اللَّهِ ابنِ تيميةَ وغيرِهما.

واستدلُّوا بقـولهِ تعالَى ـ في المحاربينَ ـ: ﴿**ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا**﴾ [المائدة: ٣٣، ٣٤].

وقد يجابُ عن هذا، بأن ذكرَ عـقوبةِ الدنيا والآخرةِ لا يلزمُ اجتمـاعهُما، فقد دلَّ الدليلُ على أن عقوبةَ الدنيا تسقطُ عقوبةَ الآخرةِ.

وأما استـثناءُ الذينَ تابوا، فإنما استثـناهُم من عقوبةِ الدنيَا خـاصةً، ولهذا خصَّهم بما قبلَ القدرةِ، وعقوبةُ الآخرةِ تندفعُ بالتوبةِ، قبلَ القدرةِ وبعدَها.

ويدل على أن الحدَّ يطهرُ الذنبَ: قولُ ماعزٍ للنبيِّ ﷺ: إني أصبت حدًّا، فطهرني. وكذلك قالتْ له الغامديةُ[1] ولم ينكرْ عليهما النبيُّ ﷺ ذلكَ، فدلَّ على أن الحدَّ طهارةٌ لصاحبهِ.

ويدخلُ في قولِ النبيِّ ﷺ: «**من أصابَ شيئًا من ذلك، فـعوقبَ به في الدنيا فهو كفارتُه**» العقوباتُ القدريةُ، من الأمراضِ والأسقامِ.

والأحاديثُ في تكفيرِ الذنوبِ بالمصائبِ كثيرةٌ جدًّا.

وهذه المصائبُ يحـصلُ بها للنفـوسِ من الألمِ نظيرُ الألمِ الحاصلِ بإقـامةِ الحدِّ وربما زادَ على ذلكَ كثيرًا.

وقد يقـالُ في دخولِ هذه العقـوباتِ القدريةِ في لفظِ حديثِ عـبادةَ نظرٌ؛ لأنهُ قابلَ من عوقبَ في الدنيا سترُ اللَّهِ عليه، وهذه المصائبُ لا تنافي السترَ. واللَّه أعلمُ.

---

(١) (٥/ ١١٧).

والقسمُ الثاني:

أن لا يعاقبَ في الدنيـا بذنبهِ، بل سترَ عليـه ذنبه، ويعافَى من عقـوبتهِ، فهذا أمرُه إلى اللَّهِ في الآخرةِ، إن شاءَ عذَّبه، وإن شاءَ عفَا عنهُ.

وهذا موافقٌ لقولِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ [النساء:٤٨].

وفي ذلك ردٌّ على الخوارجِ والمعتزلةِ في قولِهم: إن اللَّه يخلِّدُه في النارِ إذا لم يَتُبْ.

وهذا المستورُ في الدنيا له حالتان:

إحداهُما: أن يموتَ غيرَ تائبٍ، فهذا في مشيئة اللَّهِ، كما ذكرنا.

والثانيةُ: أن يتوبَ من ذنبهِ.

فقال طائفةٌ: إنه تحت المشيئةِ ـ أيضًا.

واستدلُّوا بالآيةِ المذكورةِ، وحديثِ عبادةَ.

والأكثرونَ عـلى أن التائبَ من الذنبِ مغفـورٌ له، وأنه كمن لا ذنبَ له، كما قال تعالى: ﴿**إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾ [الفرقان:٧٠]، وقال: ﴿**أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا**﴾ [آل عمران:١٣٦].

فيكونُ التائبُ حينئذٍ ممن شاءَ اللَّهُ أن يغفرَ له.

واستدلَّ بعضُهم ـ وهو: ابنُ حـزمٍ ـ بحديثِ عبادةَ هذا على أن من أذنبَ ذنبًا، فإنَّ الأفضلَ له أن يأتيَ الإمامَ، فيعـترفَ عنده؛ ليقيمَ عليه الحدَّ، حتى

يكفَّر عنه، ولا يبقى تحتَ المشيئةِ في الخطرِ.

وهذا مبنِيٌّ على قوله: إن التائبَ في المشيئةِ.

والصحيحُ: أن التائبَ توبةً نصوحًا مغفورٌ له جزمًا، لكن المؤمنَ يتَّهِم توبتَه، ولا يجزمُ بصحَّتها، ولا بقبولها، فلا يزالُ خائفًا من ذنبِه وَجِلاً.

ثم إنَّ هذا القائلَ لا يرى أن الحدَّ بمجردِه كفارةٌ، وإنما الكفارةُ التوبةُ، فكيف لا يقتصرُ على الكفارةِ، بل يكشفُ سترَ اللَّهِ عليه؛ ليقامَ عليه ما لا يكفِّرُ عنه؟

وجمهورُ العلماءِ على أنَّ من تابَ من ذنبٍ، فالأفضلُ أن يسترَ على نفسِه، ولا يقرَّ به عند أحدٍ، بل يتوبُ منه فيما بينَه وبين اللَّه عزَّ وجلَّ.

روي ذلك عن أبي بكرٍ وعمرَ وابنِ مسعودٍ وغيرِهم.

ونصَّ عليه الشافعِيُّ.

ومن أصحابِه وأصحابِنا مَن قال: إن كان غيرَ معروفٍ بينَ الناسِ بالفجورِ فكذلكَ، وإن كان معلنًا بالفجورِ مشتهرًا به؛ فالأولى أن يقرَّ بذنبه عند الإمامِ؛ ليطهرَه منه.

وقد رُوِيَ، عن النبيِّ ﷺ، أنه قال لمعاذٍ: **«إذَا أحدثتَ ذنبًا فأَحدِثْ عنده توبةً، إن سرًّا فسرًّا، وإن علانيةً فعلانيةً»**.

وفي إسنادِه مقالٌ.

وهو إنما يدلُّ على إظهارِ التوبةِ، وذلك لا يلزمُ منه طلبُ إقامةِ الحدِّ.

وقد وردت أحاديثُ تدلُّ على أنَّ من سترَ اللَّهُ عليه في الدنيا، فإنَّ اللَّه

يسترُ عليه في الآخرةِ، كحديثِ ابنِ عـمرَ في النجوى، وقد خرَّجه البخاريُّ في «التفسيرِ».

وخرَّج الترمذيُّ وابنُ ماجه[١] عن عليٍّ - مرفوعًا: «**من أذنبَ ذنبًا في الدنيا، فستره اللَّهُ عليه، فاللَّهُ أكرمُ أن يعودَ في شيءٍ قد عفَا عنه**».

وفي «المسندِ»[٢] عن عائشةَ - مـرفوعًا -: «**لا يسترُ اللَّهُ على عـبدٍ ذنبًا في الدنيا إلا سترهُ عليه في الآخرةِ**».

ورُوي مثلُه عن عليٍّ[٣] وابنِ مسعودٍ، من قولِهما.

وقد يحملُ ذلك كلُّه على التائبِ من ذنبـهِ، جمعًا بين هذه النصوصِ وبينَ حديثِ عُبادةَ هذا.

وأصحُّ الأحاديثِ المذكورةِ هاهنا حديثُ ابنِ عـمَر في النجوى، وليس فيه تصريحٌ بأنَّ ذلك عامٌّ لكلِّ من سترَ عليه ذنبَه. واللَّهُ تعالى أعلمُ.

وقد قيل: إن البيعةَ سُمِّيت بيعةً؛ لأن صاحبَها باعَ نفسَه للَّه.

والتحقيقُ: أن البيعَ والمبايعةَ مـأخوذانِ من مدِّ الباعِ؛ لأنَّ المتبايعَينِ للسلعةِ كلٌّ منهمـا يمدُّ باعَه للآخرِ ويعاقـدُه عليها، وكذلك مَن بايعَ الإمـامَ ونحوَه، فإنه يمدُّ باعَه إليه ويعاهدُه ويعاقدُه على ما يبايعُه عليه.

وكـان النبيُّ ﷺ يبـايعُ أصـحابَه عند دخـولِهم في الإسـلامِ على التـزام أحكامِه، وكـانَ أحيـانًا يبايعُهم علـى ذلك بعد إسلامِـهم؛ تجديدًا للعـهدِ؛

---

(١) الترمذي (٢٦٢٦)، وابن ماجه (٢٦٠٤).

(٢) «المسند» (٦/ ١٤٥، ١٦٠).

(٣) «المسند» (١/ ٩٩، ١٥٩).

وتذكيرًا بالمقامِ عليه.

وفي «الصحيحين»(١) عن ابنِ عبـاسٍ، أنَّ النبيَّ ﷺ أتى النسـاءَ في يومِ عيدٍ، وتلا عليهنَّ هذهِ الآيةَ: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا**﴾ الآية [الممتحنة:١٢]، وقـال: «**أنتُـنَّ علـى ذلكَ؟**» فقالتِ امرأةٌ منهن: نعم.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»(٢) عن عـوفِ بنِ مـالكٍ، قال: كـنَّا عندَ النبيِّ ﷺ تسعةً أو ثمانيةً أو سبعةً، فقال: «**ألا تبايعونَ رسولَ اللَّه ﷺ؟**» وكنَّا حديثَ عهدٍ ببيعةٍ، فقلنا: قـد بايعناكَ يا رسولَ اللَّهِ، فقال: «**ألا تبايعـون رسول اللَّه ﷺ؟**» قلنا: بايعناك يـا رسول اللَّه، ثم قـال: «**ألا تبـايعونَ رسـولَ اللَّه ﷺ؟**»، فبسطْنا أيدينَا، وقلنا: قد بايعناكَ يا رسولَ اللَّهِ، فعلامَ نبايعُكَ؟ فقال: «**أن تعبدُوا اللَّهَ لا تشركوا به شـيئًا، والصلواتِ الخمسِ، وتـطيعُوا**»، وأسرَّ كلمةً خفيةً: «**ولا تسألُوا الناس شيئًا**».

وحديثُ عبـادةَ المذكورُ هاهنا في البيعـة قد سبقَ أنه يحتـملُ أنه كان ليلةَ العقبةِ الأولَى، فيكونُ بيعةً لهم على الإسلامِ والتزامِ أحكامِه وشرائعه.

وقد ذكرَ طائفـةٌ من العلماءِ، منهم: القاضِي أبو يعلَى في كـتابِ «أحكامِ القرآنِ» من أصحابِنا ـ أن البيعةَ على الإسلامِ كانتْ من خصائصِ النبيِّ ﷺ.

واستدلُّوا، بأن الأمرَ بالبيعةِ في القرآنِ يخصُّ الرسولَ بالخطابِ بها وحده، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا**﴾ [الممتحنة:١٢].

---

(١) البخاري (٢/ ١٢١٧)، ومسلم (٣/ ١٨).

(٢) (٣/ ٩٧).

ولما كانَ الامتحانُ وجَّه الخطابَ إلـى المؤمنينَ عمومًا، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٠].

فدلَّ على أنه يعمُّ المؤمنينَ.

وكذلكَ قولُه تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠].

وهذا أمرٌ يختصُّ به الرسولُ ﷺ، لا يشركُه فيه غيرُه.

ولكن قد رُوي عن عثمانَ، أنه كان يبايعُ على الإسلامِ.

قال الإمـامُ أحمدُ: حدثنا مـسكينُ بنُ بكيرٍ، قال: ثنا ثابتُ بنُ عـجلانَ، عن سليمٍ أبي عامرٍ(١)، أن وفدَ الحمراءِ أتوا عثمـانَ بنَ عفانَ، يبايعونَه على الإسلامِ، وعلى مَنْ وراءهم، فـبايَعهم على أن لا يشـركوا باللَّه شيـئًا، وأن يقيمُوا الصلاةَ، ويؤتُوا الزكاةَ، ويصومُوا رمضانَ، ويدَعُوا عيدَ المجوسِ، فلما قالُوا، بايعَهم.

وقـد بايعَ عبـدُ اللَّهِ بنُ حنظلةَ الناسَ يومَ الحَـرَّةِ على الموتِ، فذُكـرَ ذلك لعبدِ اللَّهِ بنِ زيدٍ الأنصـاريِّ، فقالَ: لا أبايـعُ على هذا أحدًا بعـدَ رسولِ اللَّهِ ﷺ.

خرجهُ البخاريُّ في «الجهاد»(٢).

وإنما أنكرَ البيعةَ على الموتِ، لا أصلَ المبايعةِ.

وقال أبو إسحـاقَ الفزاريُّ: قلتُ للأوزاعيِّ: لو أن إمامًا أتاه عدوٌّ كـثيرٌ،

---

(١) كذا، وإنما هو: سليم بن عامر ويكنى: «أبا يحيى».

(٢) البخاري (٤/ ٦١)، ومسلم (٦/ ٢٧).

فخافَ على من معه، فقال لأصحـابِهِ: تعالَوْا، نتبايعُ على أن لا نفرَّ، فبايعُوا على ذلكَ؟ قال: مـا أحسنَ هذا. قلتُ: فلو أن قومًـا فعلُوا ذلك بينهُم دونَ الإمامِ؟ قال: لو فعلُوا ذلك بينهم شبه العقدَ في غيرِ بيعةٍ[١].

* * *

(١) «الفتح» (١/ ٦١ ـ ٧٩).

سُورَةُ الصَّفِّ

قوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾

لَمَّا حاسَبَ المتَّقُون أنفسَهم خافوا من عاقبةِ الوعظِ والتَّذكير. قال رجلٌ لابن عبَّاسٍ: أريدُ أن آمرَ بالمعروفِ وأنهى عن المنكرِ. فقالَ لهُ: إنْ لم تخشَ أن تفضحكَ هذه الآياتُ الثلاثُ فافعلْ، وإلا فابدأْ بنفسكَ، ثم تلا: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤]، وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢، ٣]، وقوله حكايةً عن شُعيبٍ عليه السلام: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود:٨٨].

قال النَّخعيُّ: كانُوا يكرهُونَ القصص؛ لهذه الآياتِ الثلاثِ. قيل لمورِّق العجلي: ألا تعظُ أصحابَكَ؟ قال: أكرهُ أن أقولَ ما لا أفعل.

تقدَّمَ بعضُ التابعينَ ليصلِّي بالنَّاسِ إمامًا، فالتفتَ إلى المأمُومين يُعدِّلُ الصُّفوفَ، وقال: استوُوا، فُغشِيَ عليه، فسُئلَ عن سَببِ ذلكَ، فقالَ: لَمَّا قلتُ لهُم: استقيمُوا، فكَّرتُ في نفسِي، فقلتُ لهَا: فأنتِ، هل استقمتِ مع اللَّهِ طرفةَ عينٍ؟

مَا كُلُّ مَنْ وَصَفَ الدَّواء يستعملُه ... ولا كُلُّ مَنْ وَصَفَ التُّقَى ذو تُقَى
وَصَفْتُ التُّقَى حتَّى كأنِّي ذو تُقًى ... وريحُ الخَطَايا مِن ثِيابي تَعْبَقُ

ومع هذا كلِّه فلا بُدَّ للناسِ من الأمرِ بالمعروفِ والنَّهْيِ عن المنكرِ، والوعظِ

والتذكيرِ، ولو لم يعظِ النَّاسَ إلا مَعْصُومٌ مِن الزَّلَلِ، لم يعِظْ بعدَ رسولِ اللَّهِ ﷺ أحدٌ لأنَّه لا عِصْمَةَ لأحد بعدَهُ.

لئن لم يَعظِ العاصِينَ مَنْ هُوَ مُذْنبٌ   فَمَنْ يَعِظِ العَاصِينَ بَعْدَ مُحمَّدِ

ورَوى ابنُ أبي الدُّنيا بإسنادٍ فيه ضعفٌ، عن أبي هريرةَ، عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**مُروا بالمعروفِ وإن لم تعملُوا به كُلِّه، وانهَوْا عن المُنْكَرِ وإن لم تنتهوا عنه كُلِّه**»(١). وقيل للحسنِ: إنَّ فلانًا لا يَعِظُ، ويقولُ: أخافُ أنْ أقولَ ما لا أَفعلُ؟ فقال الحسن: وأيُّنا يفعلُ ما يقولُ؟! ودَّ الشيطانُ أنَّه قد ظفرَ بهذا، فلم يأمُرْ أحدٌ بمعروفٍ ولم ينهَ عن مُنْكَرٍ. وقال مالكٌ، عن ربيعة: قال سعيدُ بن جُبير: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهَى عن المنكرِ حتى لا يكونَ فيه شيءٌ، ما أَمَرَ أحدٌ بمعروفٍ ولا نَهَى عن مُنْكرٍ. قال مالكٌ: وصدَقَ، ومَن ذا الذي ليس فيه شيءٌ؟!

مَنْ ذا الَّذي ما ساءَ قَطْ   ومَنْ لَهُ الحُسْنَى فَقَطْ

خطب عُمَرُ بنُ عبد العزيز ـ رحمه اللَّه ـ يومًا، فقال في موعظته: إنِّي لأقُولُ هذه المقالَةَ وما أعلمُ عند أحدٍ من الذُّنوبِ أكثرَ ممَّا أعلمُ عندِي، فأستغفِرُ اللَّهَ وأتوبُ إليه. وكتبَ إلى بعض نوَّابِهِ على بعضِ الأمصار كتابًا يعِظُهُ فيه، فقال في آخره: وإنِّي لأعِظُكَ بهذا، وإنِّي لكثيرُ الإسْرافِ على نَفْسِي، غيرُ مُحكمٍ لكثيرٍ من أمْرِي، ولو أن المرءَ لا يعظُ أخاهُ حتى يُحكمَ نفسهُ إذًا لتواكلَ الناسُ الخيرَ، وإذًا لرُفِعَ الأمر بالمعروفِ والنَّهْيُ عن المُنْكَرِ، وإذًا لاستُحِلَّتِ المَحارِمُ، وقَلَّ الواعِظُونَ والسَّاعون للَّه بالنَّصِيحةِ في

(١) رواه الطبراني في «الأوسط»، و«الصغير» كما ذكره الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٢٧٧).

الأرض؛ فإنَّ الشيطان وأعوانَه يَودُّون أن لا يـأمُرَ أَحدٌ بمعروفٍ ولا يَنْهَى عن مُنْكَرٍ، وإذا أمَرَهُم أحدٌ أو نَهاهُم، عَابُوه بما فيهِ وبما ليس فيه. كما قيل:

وأُعْلِنَـتِ الفـواحِشُ في البـوادِي وصـارَ النَّاسُ أَعْـوَانَ المـريبِ
إذا مـا عِبْـتُـهُم عَـابُوا مَـقَـالِي لِمـا في القَـوْمِ مِـن تلكَ العُـيـوبِ
وَوَدُّوا لو كَـفَـفـنـا فـاسْتَـوَيْنا فـصَـارَ النَّاسُ كـالشـيءِ المشـوبِ
وكنَّـا نَسْـتَطِـبُّ إذا مَـرِضْـنَا فـصـارَ هلاكُنا بـيـدِ الطَّبِـيـبِ(١)

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾

عيسى آخرُ أنبياءِ بني إسرائيلَ، وقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

وقد كـان المسيحُ ـ عليه السَّـلامُ ـ يحُضُّ على اتِّباعِهِ، ويقـولُ: إنَّه يُبعَثُ بالسَّيفِ، فلا يمنعنَّكُم ذلـك منه. ورُوي عنه أنَّه قالَ: سوف أذهبُ أنا ويأتي الذي بعدِي لا يَتَحمَّدُكم بدعْواه، ولكنْ يَسُلُّ السَّيفَ فتدخلُونَه طَوْعًا وكُرْهًا. وفي «المسـند»(٢) عن أبي الدَّرْداء ﵁، عـن النَّبيِّ ﷺ، أنَّ اللَّهَ عـزَّ وجَلَّ أَوْحَى إلى عِيسى عليه السَّلامُ: «إنِّي باعثٌ بعدَكَ أُمَّةً، إن أصابهُمْ ما يُحبُّونَ حَمِدُوا

(١) «اللطائف» (٥٤ ـ ٥٧).
(٢) (٦/ ٤٥٠).

وشكرُوا، وإنْ أصابهُم ما يكرهُونَ، احتسبُوا وصبرُوا، ولا حِلمَ ولا عِلمَ. قال: يا ربِّ! كيفَ هذا ولا حِلمَ ولا عِلم؟ قال: أُعْطِيهم مِن حِلْمِي وعِلْمِي».

قال ابنُ إسحاق: حدَّثني بعضُ أَهْلِ العلْمِ أنَّ عيسَى ابنَ مريمَ ـ عليه السَّلام ـ قال: إنَّ أحبَّ الأُممِ إلى اللَّهِ عزَّ وجلَّ لأُمَّةُ أحمدَ. قيلَ له: وما فضلُهم الذي تذكرُ؟ قال: لم تُذلَّل «لا إلهَ إلا اللَّه» على ألسُنِ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ تذليلَها على ألسنتِهِم[1].

* * *

(١) «اللطائف» (١٧٠ ـ ١٧١).

سُورَةُ الْجُمُعَة

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾

قال تعالى: **﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾** [آل عمران: ١٦٤]، وقال سبحانه: **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾** [الجمعة: ٢-٤].

ومعلومٌ أنَّه لم يُبعث في مكَّةَ رسولٌ منهم بهذه الصفةِ غيرُ محمَّدٍ ﷺ، وهو من ولدِ إسماعيلَ، كما أنَّ أنبياءَ بني إسرائيلَ من ولدِ إسحاق. وذكر اللَّهُ تعالى أنَّه مَنَّ على المؤمنينَ بهذه الرِّسالةِ، فليسَ للَّهِ نعمةٌ أعظم من إرسال محمدٍ ﷺ يهدي إلى الحقِّ وإلى صراطٍ مستقيمٍ.

وقوله: **﴿فِي الأُمِّيِّينَ﴾** - والمرادُ بهم العَرَبُ - تنبيهٌ لهم على قدرِ هذه النِّعمةِ وعظمِها، حيثُ كانوا أمِّيِّينَ لا كِتابَ لهم، وليسَ عندَهم شيء من آثارِ

النُّبوَّاتِ، كما كان عندَ أهلِ الكتابِ، فمنَّ اللَّه عليهم بهذا الرسولِ وبهذا الكتاب، حتى صاروا أفضلَ الأمم وأعلمَهم، وعرفُوا ضلالةَ منْ ضلَّ من الأمم قبلَهم. وفي كونِه منهم فائدتان:

إحداهما: أنَّ هذا الرَّسولَ كان أيضًا أُميًّا كأمَّته المبعوثِ إليهم، لم يقرأْ كتابًا قطُّ، ولم يخُطهُ بيمينِه، كما قالَ اللَّه تعالى: ﴿**مَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ**﴾ الآيات [العنكبوت:٤٨]، ولا خرجَ عن ديارِ قومِه فأقامَ عندَ غيرِهم حتَّى تعلَّم منهم شيئًا، بلْ لم يزلْ أُميًّا بين أمَّةٍ أميَّةٍ، لا يكتُبُ ولا يقرأُ حتى كمَّلَ الأربعينَ من عُمرِه، ثمَّ جاءَ بعد ذلكَ بهذا الكتابِ المُبين، وهذه الشريعةِ الباهرةِ، وهذا الدِّينِ القيِّمِ، الذي اعترفَ حُذَّاقُ أهل الأرضِ ونُظَّارُهُم أنَّه لم يقرعِ العالمَ ناموسٌ أعظمُ منه. وفي هذا بُرهانٌ ظاهرٌ على صدقِه.

والفائدة الثانية: التنبيهُ على أنَّ المبعوثَ فيهم - وهم الأمِّيُّون خُصوصًا أهل مكَّةَ - يعرفُونَ نسبهُ، وشرفهُ، وصدقهُ، وأمانتهُ، وعفَّتهُ، وأنَّه نشأ بينهُم معروفًا بذلك كلِّه، وأنَّه لم يكذبْ قطُّ؛ فكيفَ كان يدعُ الكذبَ على النَّاسِ ثم يفترِي الكذبَ على اللَّه عزَّ وجلَّ، وهذا هو الباطلُ، ولذلك سأَلَ هرقلُ عن هذه الأوصافِ، واستدلَّ بها على صدقِهِ فيما ادَّعاهُ من النُّبُوَّةِ والرِّسالةِ.

وقوله: ﴿**يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ**﴾ [الجمعة:٢]، يعني: يتلُو عليهم ما أنزلَ اللَّهُ عليه من آياتهِ المتلُوةِ، وهو القرآنُ، وهو أعظمُ الكُتبِ السَّماويَّةِ، وقد تضمَّنَ من العلومِ والحكمِ، والمواعظِ، والقصصِ، والترغيبِ والترهيبِ، وذكرِ أخبارِ منْ سبقَ، وأخبارِ ما يأتي مِن البعثِ والنُّشور والجنَّةِ والنَّارِ، ما لم يشتملْ عليه كتابٌ غيرُهُ، حتَّى قالَ بعضُ العلماءِ: لو أنَّ هذا الكتابَ وُجِدَ مكتوبًا في

مُصحَف في فلاة من الأرضِ، ولم يُعلم منْ وضعهُ هناك، لشهدت العُقولُ السَّليمةُ أنَّه منزلٌ مِن عند اللَّهِ، وأنَّ البشرَ لا قدرةَ لهم على تأليف ذلك، فكيف إذا جاءَ على يديْ أصدقِ الخلقِ وأبرِّهم وأتقاهُم، وقال: إنَّه كلامُ اللَّهِ، وتحدَّى الخلقَ كلَّهم أن يأتوا بسُورةٍ من مثلِه، فعجزُوا. فكيف يبقى مع هذا شكٌّ فيه؟ ولهذا قال تعالى: ﴿**ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ**﴾ [البقرة:٢].

وقال تعالى: ﴿**أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ**﴾ [العنكبوت:٥١]. فلو لم يكنْ لمحمدٍ ﷺ منَ المعجزاتِ الدالةِ على صدقهِ غيرُ هذا الكتابِ لكفاهُ، فكيفَ ولهُ من المعجزاتِ الأرضيةِ والسماويةِ ما لا يُحصَى. وقوله: ﴿**يُزَكِّيهِمْ**﴾ [الجمعة:٢]: يعني أنَّه يُزكِّي قلوبَهم ويطهرُها من أدناسِ الشركِ والفُجورِ والضَّلالِ؛ فإنَّ النفوسَ تزكو إذا طهرتْ من ذلك كلِّه، ومن زكتْ نفسُه فقد أفلحَ، كما قال تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا**﴾ [الشمس:٩]، وقال: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ**﴾ [الأعلى:١٤].

وقوله: ﴿**وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾، يعني بالكتابِ القرآنَ، والمرادُ: ويعلِّمُهم تلاوةَ ألفاظِهِ. ويعني بالحكمةِ فهمَ معاني القرآنِ والعملَ بما فيه. فالحكمةُ هي فهمُ القرآنِ والعملُ به، فلا يُكْتَفى بتلاوةِ ألفاظِ الكتابِ حتَّى يُعلمَ معناهُ ويُعملَ بمقتضاهُ، فمن جُمعَ له ذلك كلُّه فقد أُوتيَ الحكمةَ. قال تعالى: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ [البقرة:٢٦٩].

قال الفضيلُ: العلماءُ كثيرٌ، والحكماءُ قليلٌ. وقال: الحكماءُ ورثةُ الأنبياءِ. فالحكمةُ هي العلمُ النافعُ الذي يتبعُه العملُ الصالحُ. وهي نورٌ يقذفُ في

القلب يُفهمُ بهـا معنى العلم المنزَّلِ من السَّماء، ويحُضُّ على اتِّبـاعه والعملِ به. ومَن قال: الحكمةُ السنةُ، فقولُه حقٌّ؛ لأنَّ السنةَ تفسِّرُ القرآنَ وتبينُ معانيه وتحُضُّ على اتباعِهِ والعـملِ به؛ فالحكيمُ هو العـالم المستنبطُ لدقـائقِ العلمِ المنتفعِ بعلمه بالعمل بهِ. ولأبي العتاهية:

وكَـيْفَ تُـحبُّ أنْ تُدْعَى حكيـمًـا وأَنْتَ لِكُـلِّ مـا تَهْـوَى رَكُـوبَ
وتَضْـحَـكُ دائبًـا ظَهْـرًا لِـبَطْنٍ وتَذْكُـرُ مَـا عَـمِلْتَ فَـلا تَتُـوبُ

وقوله: ﴿إِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، إشارة إلى ما كـان النَّاسُ عليه قـبلَ إنزالِ هذا الكتابِ من الـضلالِ، فـإنَّ اللَّهَ تعالـى نظرَ حينئـذٍ إلى أهلِ الأرضِ، فمقتهُم، عربهُم وعجمهُم، إلا بقايا مِن أهلِ الكتابِ تمسَّكُوا بدينهِم الذي لم يُبدَّلْ ولم يُغيرْ، وكانوا قليلاً جدًّا.

فأمَّا عامَّةُ أهل الكتابِ فكانوا قد بدَّلُوا كُتُبَهُم وغيَّرُوها وحرفُوها، وأدخلُوا في دينهم مـا ليسَ منه فضلُّوا وأضـلُّوا. وأمَّا غـيرُ أهلِ الكتـابِ فكانُوا على ضلالٍ مُبينٍ؛ فالأمِّيُّون أهلُ شركٍ يعـبدُونَ الأوثانَ، والمجوسُ يعبدُونَ النيرانَ ويقولون بإلهينِ اثنينِ، وكذلك غيـرهُم مِن أهلِ الأرضِ؛ منهم مَن كان يعبدُ النُّجومَ، ومنهم مَن كان يعـبدُ الشَّمسَ أو القمر، فـهدَى اللَّه المؤمنينَ بإرسالِ محمَّدٍ ﷺ إلى ما جـاءَ بهِ منَ الهُدى ودينِ الحقِّ؛ وأظهرَ اللَّـهُ دينهُ حتى بلغَ مشارقَ الأرضِ ومغاربَها، فظهرتْ فيهـا كلمةُ التَّوحيدِ والعَمَلِ بالعدْلِ بعد أن كانتْ الأرضُ كلُّهـا ممتلئةً من ظُلمةِ الشِّـركِ والظُّلم. فالأميُّـون هم العربُ، والآخرون الذين لم يلحـقُوا بهم هم أهلُ فـارسَ والرُّوم، فكانتْ أهلُ فارسَ مجوسًا، والرُّومُ نصارَى، فهدَى اللَّهُ تعـالى جميعَ هؤلاءِ برسالةِ محمَّدٍ ﷺ إلى التوحيدِ.

وقد رُئي الإمـامُ أحمدُ بعد مـوتهِ في المنامِ، فسُئلَ عن حالهِ، فـقال: لولا هذا النبيُّ لكنَّا مجـوسًا، وهو كما قـال، فإنَّ أهل العراقِ لولا رسالةُ مـحمدٍ ﷺ لكانوا مجوسًا، وأهلُ الشامِ ومصرَ والرومُ لولا رسالة محمدٍ ﷺ لكانوا نصارَى، وأهلُ جزيرة العرب لولا رسالةُ محـمدٍ لكانوا مشركينَ عبادَ أوثانٍ. ولكن رحمَ اللَّهُ عبـادهُ بإرسالِ محـمدٍ ﷺ فأنقـذهُم مِن الضَّلالِ، كمـا قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء:١٠٧]، ولهذا قال اللَّه تعالى: ﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ [الجمعة:٤]، فمن حصلَ له نصيبٌ من دين الإسلامِ فقد حصلَ له الفـضلُ العظيمُ، قد عظمتْ عليه نعمةُ اللَّهِ، فما أحوجـهُ إلى القيامِ بشكرِ هذه النعمةِ وسؤالهِ دوامَها والثَّـباتَ عليها إلى المماتِ، والموتَ عليها، فبذلكَ تتمُّ النِّعمةُ.

فإبراهيمُ ـ عليه السلامُ ـ هو إمامُ الحنفاء، المأمورُ محمَّدٌ ﷺ ومن قبلُه منَ الأنبياءِ ـ عليهم السلام ـ بالاقتداء به، وهو الذي جعلهُ اللَّهُ للنَّاسِ إمامًا، وقدْ دعا هو وابنُه إسـماعيلُ ـ عليـه السَّلام ـ بأن يبعثَ الـلَّهُ في أهلِ مكَّةَ رسولاً منهُم موصوفًا بهذهِ الأوصافِ، فاستـجابَ اللَّهُ لهما وجعلَ هذا النَّبيَّ المبعُوثَ فيـهم من ولدِ إسماعيلَ بن إبراهيمَ كـما دعيـا بذلك، وهو النَّبيُّ الذي أظهرَ دينَ إبراهيمَ الحنيفَ بعدَ اضمحلالهِ وخفائه على أهلِ الأرضِ فلهذا كان أولَى النَّاسِ بإبراهيمَ، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [آل عمران:٦٨].

وقال ﷺ: «**إنَّ لكلِّ نبيٍّ وليًّا مِن النَّبيينَ وإنَّ وليي إبراهيم**»(١)، ثم تلا هذه الآية.

---

(١) أخرجه: الترمذي (٢٩٩٥)، وأحمد في «المسند» (١/ ٤٠١)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٩٢).

وكان ﷺ أشبهَ ولدِ إبراهيـمَ بهِ صُورةً ومعنًى، حتى أنَّه أشبـهُهُ في خُلَّةِ اللَّهِ تعالى، فقال: «إنَّ اللَّه اتَّخذني خليلاً كما اتَّخذَ إبراهيمَ خليلاً»(١) .

* * *

قوله تعالى: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

[قال البخاري](٢): قَوْلُ اللَّـهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية [الجمعة:٩] .

صلاةُ الجمعةِ فريضةٌ من فرائِض الأعيانِ على الرجالِ دونَ النساءِ، بشرائطَ أُخرَ، هذا قولُ جمهورِ العلماءِ، ومنهم من حكاه إجماعًا كابنِ المنذرِ.

وشـذَّ من زعمَ أنها فـرضُ كفـايةٍ من الشـافعـيةِ، وحكاهُ بعـضُهم قـولاً للشافعيِّ، وأنكر ذلك عـامةُ أصحابه حتى قـال طائفةٌ منهم: لا تحلُّ حكايتُه عنه.

وحكاية الخطابيِّ(٣) لذلك عن أكـثرِ العلمـاءِ وهمٌ منه، ولعله اشتـبهَ علـيه الجمعةُ بالعيدِ.

وحكي عن بعضِ المتقدمينَ: أن الجمعةَ سنةٌ.

وقد روى ابنُ وهبٍ، عن مالكٍ، أن الجمعةَ سنةٌ.

وحملَها ابنُ عبدِ البرِّ على أهل القـرى المختلَفِ في وجوب الجمعةِ عليهمْ

(١) «اللطائف» (١٦٤ ـ ١٧٠).

(٢) البخاري (٢/ ٢).

(٣) في «معالم السنن» (١/ ٦٤٤ ـ هامش أبي داود» .

خاصةً، دون أهلِ الأمصارِ.

ونقلَ حنبلٌ، عن أحمدَ، أنه قال: الصلاةُ ـ يعني: صلاةَ الجمعةِ ـ فريضةٌ، والسعيُ إليها تطوعٌ، سنةٌ مؤكدةٌ.

وهذا إنما هو توقفٌ عن إطلاقِ الفرضِ على إتيانِ الجمعةِ، وأما الصلاةُ نفسُها، فقد صرَّح بأنها فريضةٌ، وهذا يدلُّ على أن ما هو وسيلةٌ إلى الفريضةِ ولا تتمُّ إلا به لا يطلقُ عليه اسمُ الفريضةِ؛ لأنه وإنْ كان مأمورًا به فليس مقصودًا لنفسه، بل لغيرِه.

وتأوَّل القاضِي أبو يعلَى كلامَ أحمدَ بما لا يصحُّ.

وقد دلَّ على فرضيتها: قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [الجمعة: ٩].

والمرادُ بالسعي: شدةُ الاهتمامِ بإتيانِها والمبادرةُ إليها. فهو من سَعْي القلوبِ، لا من سعي الأبدان، كذا قالَ الحسنُ وغيرُه، وسيأتي بسطُ ذلك فيما بعدُ ـ إن شاء اللَّهُ سبحانه وتعالى.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»(١) عن عبد اللَّهِ بنِ عمرَ وأبي هريرةَ، أنهما سمعا رسول اللَّهِ ﷺ يقولُ على أعوادِ منبرِه: «**لينتهينَّ أقوامٌ عنْ ودعهمُ الجمعات، أو ليختمنَّ اللَّهُ على قلوبهم، ثم ليكونُنَّ منَ الغافلين**».

وخرَّج الإمامُ أحمدُ وأبو داود والترمذيُّ والنسائيُّ وابنُ ماجه(٢) من حديثِ

(١) (٣/ ١٠).

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٤٢٤)، وأبو داود (١٠٥٢)، والترمذي (٥٠٠)، والنسائي (٣/ ٨٨)، وابن ماجه (١١٢٥).

أبي الجعدِ الضَّمريِّ ـ وكانتْ له صحبةٌ ـ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «مَن تركَ الجمعةَ تهاونًا ثلاثَ مراتٍ طُبعَ على قلبه».

وقال الترمذيُّ: حديثٌ حسنٌ. وخرجه ابنُ حبانَ في «صحيحِه»[1]. ورُوي معناهُ من وجوهٍ كثيرةٍ.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»[2] عن ابنِ مسعودٍ، أن النَّبي ﷺ هَمَّ أن يحرقَ على مَن يتخلفُ عن الجمعةِ بيوتَهم. وقد سبقَ ذكرُه.

وخرَّج أبو داود[3] بإسنادٍ صحيحٍ، عن طارقِ بنِ شهابٍ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «الجمعةُ حقٌّ واجبٌ في جماعةٍ، إلا أربعة: عبدٌ مملوكٌ، أو امرأةٌ، أو صبيٌّ، أو مريضٌ».

قال أبو داودَ: طارقُ بنُ شهابٍ رأى النبيَّ ﷺ، ولمْ يسمَعْ منه شيئًا.

قال البيهقيُّ: وقد وصلَه بعضُهم عن طارقٍ، عن أبي موسى الأشعرِي، عن النبيِّ ﷺ، وليس وصلُه بمحفوظٍ.

وخرجَ النسائيُّ[4] من حديثِ حفصةَ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «رواحُ الجمعةِ واجبٌ على كلِّ محتلمٍ».

وخرَّج ابنُ ماجه[5] من حديثِ جابرِ بنِ عبدِ اللَّهِ، أن النبيَّ ﷺ خطبَهم، فقالَ في خُطبته: «إن اللَّهَ فرضَ عليكمُ الجمعةَ في مقامي هذا، في يومِي هذا، في

---

(١) ابن حبان (٢٥٨)، (٢٧٨٦).
(٢) (٢/ ١٢٣).
(٣) «السنن» (١٠٦٧).
(٤) «السنن» (٣/ ٨٩).
(٥) «السنن» (١٠٨١).

شهـري هذا، من عامي هذا إلى يومِ القيـامةِ، فمن تركَها في حياتي أو بعـدي، وله إمامٌ عادلٌ أو جائرٌ، اسـتخفافًا بهـا أو جحودًا لها فلا جمعَ الـلَّهُ شملَه، ولا باركَ له في أمره، ألا ولا صلاةَ له، ولا زكاةَ له، ولا حجَّ له، ولا صومَ له، ولا بركةَ حتَّى يتوب، فمن تابَ تابَ اللَّهُ عليه».

وفي إسنادِه ضعفٌ واضطرابٌ واختـلافٌ، قد أشرْنا إلى بعضِه فيـما تقدَم في «أبواب الإمامةِ».

وفيـه: دليلٌ على أن الجمـعةَ إنما فُـرضتْ بالمدينة؛ لأن جابراً إنمـا صحبَ النبيَّ ﷺ وشهدَ خطبتَه بالمدينةِ، وهذا قولُ جمهورِ العلماءِ.

ويدلُّ عليه ـ أيضًا ـ: أن سورةَ الجمـعةِ مدنيةٌ، وأنه لم يثبتْ أنَّ النبيَّ ﷺ كان يصلِّي الجمعةَ بمكةَ قبلَ هجرته.

ونصَّ الإمـامُ أحمـدُ على أنَّ أولَ جمـعةٍ جُـمِّعَتْ في الإسـلامِ هي التي جمعتْ بالمدينةِ مع مصعبِ بنِ عميرٍ.

وكذا قالَ عطاءٌ والأوزاعيُّ وغيرُهما.

وزعم طائفةٌ من الفقهاء: أن الجمـعةَ فرضتْ بمكةَ قبلَ الهجرةِ؛ وأن النبيَّ ﷺ كان يصلِّيها بمكةَ قبل أن يهاجرَ.

واستدلَّ لذلكَ: بما خرَّجه النسائيُّ في «كـتاب الجمعةِ» من حديث المُعَافَى ابنِ عمرانَ، عـن إبراهيمَ بنِ طهمانَ، عن محـمدِ بنِ زيادٍ، عن أبي هريرةَ، قال: إن أولَ جمعةٍ جُمِّعَتْ ـ بعـدَ جمعةٍ جُمِّعَت معَ رسولِ اللَّه ﷺ بمكةَ ـ بِجُواثاءَ بالبحرينِ ـ قريةٍ لعبدِ القيسِ.

وقد خرَّجه الـبخاريُّ ـ كما سيأتي فـي موضعه[1] ـ من طريق أبي عـامر

(١) البخاري (٢/ ٦).

العَقديِّ، عن إبـراهيمَ بن طهمان، عن أبي جمـرةَ، عن ابنِ عباسٍ، أن أولَ جمعـةٍ جمعت ـ بعدَ جـمعةٍ في مسـجدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ ـ في مسجـدِ عبدِ القيسِ بجُواثى من البحرينِ.

وكذَا رواه وكيعٌ، عن إبراهيمَ بن طهمان، ولفظُه: إن أولَ جـمعةٍ جمعتْ في الإسلامِ ـ بعد جمعة جـمعتْ في مسجدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ بالمدينةِ ـ لَجُمُعَةٌ جمعتْ بجواثاءَ ـ قرية من قرى البحرينِ.

خرجه أبو داود(١) .

وكذا رواه ابنُ المباركِ وغيرُه، عن إبراهيمَ بنِ طهمان.

فتبيَّن بذلكَ: أنَّ المعـافى وهمَ في إسنادِ الحديثِ ومتنهِ، والصوابُ: رواية الجماعةِ، عن إبراهيمَ بنِ طهمان.

ومعنى الحديثِ: أن أولَ مسـجدٍ جمع فيه ـ بعدَ مسجـدِ المدينةِ ـ: مسجد جواثاءَ، وليس معناه: أنَّ الجمعةَ التي جمعت بجواثاء كانت في الجمعةِ الثانيةِ من الجمعةِ التي جمعت بالمدينةِ، كما قد يُفْهَم من بعضِ ألفاظِ الرواياتِ؛ فإن عبدَ القيسِ إنما وفَد على رسولِ اللَّه ﷺ عامَ الفتحِ، كما ذكرهَ ابنُ سعدٍ(٢)، عن عروةَ بنِ الزبيرِ وغيرِه.

وليس المرادُ به ـ أيضًـا ـ أن أولَ جمعـةٍ جمعتْ في الإسـلام في مسـجدِ المدينةِ، فإن أول جـمعةٍ جـمعتْ بالمدينةِ في نقيعِ الخَـضَماتِ، قـبل أن يقدمَ النبيُّ ﷺ المدينةَ، وقبل أن يبنيَ مسجدَه.

---

(١) «السنن» (١٠٦٨).

(٢) «الطبقات» (١/ ٢/ ٥٤).

يدلُّ على ذلك: حديثُ كعبِ بنِ مالكٍ، أنه كان كلَّما سمع أذانَ الجمعةِ استغفرَ لأسعدَ بنِ زرارةَ، فسأله ابنُه عن ذلكَ، فقال: كانَ أولَ مَن صلَّى بنا صلاةَ الجمعةِ قبل مقدمِ رسولِ اللَّهِ ﷺ من مكةَ في نقيعِ الخضماتِ، في هَزْم النَّبيتِ، من حرَّةِ بني بياضةَ. قيل له: كم كنتم يومئذٍ؟ قال: أربعين رجلاً.

خرجه الإمامُ أحمدُ وأبو داودَ وابنُ ماجه ـ مطوَّلاً[(١)] .

وروى أبو إسحاقَ الفزاريُّ في «كتاب السِّيَر» له، عن الأوزاعيِّ، عمَّن حدثَه، قال: بعثَ رسولُ اللَّهِ ﷺ مصعَب بنَ عميرٍ القرشيَّ إلى المدينةِ، قبل أن يهاجرَ النبيُّ ﷺ، فقالَ: **«اجمعْ مَنْ بها من المسلمين، ثم انظرِ اليومَ الذي تجمرُ فيه اليهودُ لسبتِها، فإذا مالَ النهارُ عن شطرِه فقم فيهمْ، ثم تزلَّفوا إلى اللَّهِ بركعتينِ»**.

قال: وقالَ الزهريُّ: فجمع بهم مصعبُ بنُ عميرٍ في دارٍ من دُورِ الأنصارِ، فجمع بهم وهُم بضعةَ عشرَ.

قال الأوزاعيُّ: وهو أولُ من جمعَ بالناسِ.

وقد خرج الدارقطنيُّ ـ أظنه في «أفراده» ـ من روايةِ أحمدَ بنِ محمدِ بنِ غالبِ الباهليِّ: نا محمدُ بن عبدِ اللَّهِ أبو زيد المدنيُّ: ثنا المغيرةُ بنُ عبدِ الرحمنِ: ثنا مالكٌ، عن الزهريِّ، عن عبيدِ اللَّهِ بنِ عبدِ اللَّهِ، عن ابنِ عباسٍ، قالَ: أذنَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بالجمُعةِ قبلَ أن يهاجرَ، ولم يستطعْ رسولُ اللَّهِ ﷺ أن يجمّعَ بمكةَ ولا يبيِّن لهم، وكتبَ إلى مصعبِ بنِ عميرٍ: **«أما بعدُ، فانظرِ اليومَ الذي تجمرُ فيه اليهودُ لسبتِهم، فاجمعُوا نساءَكُم وأبناءَكم، فإذا مال النهارُ عن شطرِه عندَ الزوالِ من يومِ الجمُعةِ فتقرَّبُوا إلى اللَّهِ بركعتينِ»**.

---

(١) أبو داود (١٠٦٩)، وابن ماجه (١٠٨٢)، وابن خزيمة (١٧٢٤)، والبيهقي (٣/ ١٧٦)، ولم أجده في «المسند».

قال: فهوَ أولُ من جمَّع مصعبُ بنُ عميرٍ، حتى قدمَ رسولُ اللَّهِ ﷺ المدينةَ، فجمَّع عند الزوالِ من الظهرِ، وأظهرَ ذلكَ.

وهذا إسنادٌ موضوعٌ، والباهليُّ هو: غلامُ خليلٍ، كذابٌ مشهورٌ بالكذبِ، وإنما هذا أصله من مراسيلِ الزهريِّ[١]، وفي هذا السياق ألفاظٌ منكرةٌ.

وخرج البيهقيُّ[٢] من روايةِ يونسَ، عن الزهريِّ، قال: بلغَنا أنَّ أولَ ما جُمِّعتِ الجمعةُ بالمدينةِ قبلَ أن يقدمَها رسولُ اللَّهِ ﷺ، فجمَّع بالمسلمينَ مصعبُ بنُ عميرٍ[٣].

وروى عبد الرزاق في «كتابه»[٤] عن معمر، عن الزهريِّ، قال: بعث رسول اللَّهِ ﷺ مصعبَ بنَ عميرٍ إلى أهلِ المدينة ليقرئَهمُ القرآنَ، فاستأذن رسولَ اللَّهِ ﷺ أنْ يجمِّع بهم، فأذنَ له رسولُ اللَّهِ ﷺ، وليس يومئذٍ بأميرٍ، ولكنه انطلقَ يعلِّمُ أهلَ المدينةِ.

وذكر عبدُ الرزاقِ، عن ابنِ جريجٍ، قال: قلتُ لعطاءٍ: مَن أولُ من جمَّعَ قال: رجلٌ من بني عبدِ الدارِ ـ زعموا ـ، قلتُ: أفبأمر النبيِّ ﷺ؟ قال: فَمَهْ؟!

وخرَّجه الأثرمُ من روايةِ ابنِ عيينةَ، عن ابنِ جريجٍ، وعندَه. قال: نعمْ، فمَه؟! قال ابن عيينةَ: سمعتُ مَن يقولُ: هو مصعبُ بنُ عميرٍ.

---

(١) أخرجه أبو داود في «المراسيل» (٥٣).
(٢) البيهقي (٣/ ١٧٩).
(٣) ووصله صالح بن أبي الأخضر، عن الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، عن ابن مسعود.
أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٧/ ٢٦٧). والصواب: المرسل.
(٤) «المصنف» (٣/ ١٦٠).

وكذلك نصَّ الإمامُ أحمدُ في ـ رواية أبي طالبٍ ـ على أنَّ النبي ﷺ هو أمر مصعبَ بنَ عميرٍ أن يجمِّعَ بهمْ بالمدينةِ.

ونصَّ أحمدُ ـ أيضًا ـ على أنَّ أولَ جمعةٍ جمِّعتْ في الإسلامِ هي الجمعة التي جمعتْ بالمدينةِ مع مصعبِ بنِ عميرٍ.

وقد تقدَّم مثلُه عن عطاءٍ والأوزاعيِّ.

فتبينَ بهذا: أنَّ النبيَّ ﷺ أمرَ بإقامةِ الجمُعةِ بالمدينةِ، ولم يُقمْها بمكةَ، وهذا يدلُّ على أنه كان قد فُرِضَت عليه الجمعةُ بمكةَ.

وممَّن قالَ: إن الجمعةَ فُرِضَت بمكةَ قبلَ الهجرةِ: أبو حامدٍ الإسفرايينيُّ من الشافعيةِ، والقاضِي أبو يعلَى في «خلافه الكبير» من أصحابِنا، وابنُ عقيلٍ في «عمد الأدلةِ»، وكذلك ذكرهَ طائفةٌ من المالكيةِ، منهم: السهيليُّ وغيرُه.

وأما كونُه لم يفعلْه بمكةَ، فيُحمَل أنه إنما أُمرَ بها أنْ يقيمَها في دارِ الهجرةِ، لا في دارِ الحربِ، وكانت مكةُ إذ ذاكَ دارَ حربٍ، ولم يكنِ المسلمونَ يتمكَّنونَ فيها من إظهارِ دينهم، وكانُوا خائفينَ على أنفسهم؛ ولذلك هاجرُوا منها إلى المدينةِ، والجمعةُ تسقطُ بأعذارٍ كثيرةٍ منها الخوفُ على النفسِ والمالِ.

وقد أشار بعضُ المتأخرينَ من الشافعيةِ إلى معنًى آخرَ في الامتناع من إقامتِها بمكةَ، وهو: أن الجمعةَ إنما يُقصدُ بإقامتِها إظهارُ شعارِ الإسلامِ، وهذا إنما يُتمكنُ منه في دارِ الإسلامِ.

ولهذا لا تقامُ الجمعةُ في السجنِ، وإن كان فيه أربعونَ، ولا يعلمُ في ذلك خلافٌ بينَ العلماءِ، وممَّن قالَه: الحسنُ، وابنُ سيرينَ، والنخَعيُّ، والثوريُّ،

ومالكٌ، وأحمدُ، وإسحاقُ وغيرُهم.

وعلى قياسِ هذا: لو كـانَ الأسارى في بلدِ المشركينَ مجـتمعينَ في مكانٍ واحدٍ؛ فإنهم لا يصلُّون فيه جمـعةً، كالمسجونينَ في دارِ الإسلامِ وأولَى؛ لا سيـما وأبو حنيـفةَ وأصحـابُه يرونَ أن الإقامـةَ في دارِ الحربِ - وإن طالتْ - حكمُهـا حكمُ السفرِ، فتـقصر فيهـا الصلاةُ أبدًا، ولو أقامَ المسلمُ باختـيارِه، فكيف إذا كانَ أسيرًا مقهورًا؟

وهذا على قولِ مَن يرى اشتراطَ إذنِ الإمامِ لإقامةِ الجمعةِ أظهرُ، فأمَّا على قولِ مَن لا يشـترطُ إذنَ الإمامِ، فقـد قال الإمامُ أحمدُ فـي الأمراءِ إذا أخَّروا الصلاةَ يومَ الجمُعةِ: فيصلِّيها لوقـتِها ويصليها مع الإمامِ، فحملَه القاضي أبو يعلى في «خلافه» على أنهم يصلونها جمعةً لوقتِها.

وهـذا بعيدٌ جدًّا، وإنمـا مـرادهُ: أنهم يصلون الظهرَ لوقتـها، ثـم يشهدونَ الجمعةَ مع الأمراءِ.

وكذلك كـانَ السلفُ الصالحُ يفـعلونَ عند تأخيـرِ بني أميـةَ للجمـعةِ عن وقتِـها، ومنهم مَن كـانَ يومئُ بالصلاةِ وهو جالسٌ فـي المسجدِ قـبلَ خروجِ الوقتِ، ولم يكنْ أحدٌ منهم يصلِّي الجمُـعةَ لوقتِها، وفي ذلك مفاسـدُ كثيرةٌ تسقطُ الجمعةُ بخشيةِ بعضِها.

وفي «تهذيبِ المدونةِ»[1] للمالكيةِ: وإذا أَتى من تأخيـرِ الأئمةِ ما يُسْتنكَرُ جمَّعَ الناسُ لأنفسِهم إن قدرُوا، وإلا صلَّوا ظهرًا، وتنفلُوا بصلاتِهم معَهم.

قال: ومَن لا تجبُ عـليه الجمـعةُ مـثلُ المرضَى والمسافرينَ وأهـلِ السجنِ

(١) انظر: «المدونة» (١/ ٦٨).

فجائزٌ أن يجمِّعُوا.

وأراد بالتجميعِ هنا: صلاةَ الظهرِ جماعةً، لا صلاةَ الجمعةِ؛ فإنه قال قبلَه: وإذا فاتتِ الجمعةُ من تجبُ عليهم فلا يجمِّعوا.

والفرقُ بين صلاةِ الظهرِ جماعةً يومَ الجمعةِ، ممَّن تجبُ عليه وممَّن لا تجبُ عليه: أن من تجبُ عليه يُتَّهمُ في تركِها، بخلاف من لا تجبُ عليه فإن عذرَهُ ظاهرٌ.

وقد رُويَ عن ابنِ سيرينَ، أن تجميعَ الأنصارِ بالمدينةِ إنما كان عنْ رأيهم، من غيرِ أمرِ النبيِّ ﷺ بالكليَّةِ، وأن ذلكَ كان قبلَ فرضِ الجمعةِ.

قال عبدُ اللَّه ابنُ الإمامِ أحمدَ في «مسائله»: ثنا أبي: ثنا إسماعيلُ - هو: ابنُ عليَّة -: ثَنا أيوبُ، عنْ محمدِ بنِ سيرينَ، قال: نُبِّئتُ أنَّ الأنصارَ قبلَ قدومِ رسولِ اللَّهِ ﷺ عليهم المدينةَ قالوا: لو نظرنَا يومًا فاجتمعنا فيه، فذكرنَا هذا الأمرَ الذي أنعمَ اللَّهُ علينا بهِ، فقالُوا: يوم السبتِ، ثمَّ قالوا: لا نجامعُ اليهودَ في يومِهم. قالوا: يوم الأحدِ، قالوا: لا نجامعُ النصارَى في يومِهم. قالُوا: فيوم العروبةِ. قال: وكانُوا يسمُّون يومَ الجمعةِ: يوم العروبةِ، فاجتمعوا في بيتِ أبي أمامةَ أسعد بن زرارة، فذبحت لهم شاةٌ، فكفتْهُمْ.

وروى عبدُ الرزاق في «كتابِه»(١) عن معمرٍ، عن أيوبَ، عن ابن سيرين، قال: جمَّعَ أهلُ المدينةِ قبلَ أن يقدمَ رسولُ اللَّهِ ﷺ، وقبلَ أن تنزلَ الجمعةُ، وهم الذين سمَّوُها الجمعةَ، فقالتِ الأنصارُ: لليهودِ يومٌ يجتمعونَ فيه كلَّ ستةِ(٢) أيامٍ، وللنصارَى - أيضًا - مثلُ ذلك، فهلُمَّ فلنجعلْ يومًا نجتمعُ فيه،

---

(١) «المصنف» (٣/ ١٥٩).

(٢) في «المصنف»: «سبعة»، وكذا هو في «الفتح» لابن حجر (٢/ ٣٥٥) نقلاً عن «المصنف».

ونذكرُ اللَّهَ عزَّ وجلَّ، ونصلِّي ونشكرهُ ـ أو كمـا قالوا ـ، فقالوا: يومُ السبتِ لليهـودِ، ويومُ الأحدِ للنصـارَى، فاجعلُوا يومَ العـروبةِ، وكانوا يسـمُّون يوم الجمعة: يومَ العروبةِ، فاجتـمعُوا إلى أسعدَ بنِ زرارةَ، فصلَّى بهم وذكَّرَهم، فسـمَّوه: يومَ الجمُعـةِ حينَ اجتمعـُوا إليه، فذبحَ أسعـدُ بنُ زرارةَ لهم شاةً، فتغدَّوْا وتعشَّوْا من شاةٍ واحدةٍ ليلتَهم[١]، فأنزلَ اللَّـهُ بعدَ ذلك: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة:٩].

فوقعَ في كلام الإمامِ أحمدَ: أن هذه هي الجمُعـةُ التي جمعَها مصعبُ بنُ عميرٍ، وهي التي ذكرَها كعبُ بنُ مالكٍ في حديثه، أنهم كانُوا أربعينَ رجلاً.

وفي هذا نظرٌ.

ويحتمـلُ أن يكونَ هذا الاجتماعُ منَ الأنصـارِ كانَ باجتهادِهـم قبلَ قدومِ مصعبٍ إليـهم، ثم لَمَّا قدمَ مصعبٌ عليهم جـمَّع بهم بأمرِ النبيِّ ﷺ، وكانَ الإسلامُ حينئـذ قد ظهرَ وفشَـا، وكان يمكنُ إقامةُ شعـارِ الإسلامِ في المدينةِ، وأما اجـتماعُ الأنصارِ قـبلَ ذلكَ، فكانَ في بيت أسعدَ بنِ زرارةَ قـبل ظهورِ الإســلامِ بالمدينةِ وفشـوِّهِ، وكانَ باجـتـهادٍ منهم، لا بأمـرِ النبيِّ ﷺ. واللَّهُ سبحانه وتعالى أعلمُ[٢].

* * *

[قال البخاري][٣]: بابٌ مِن أيْنَ تُؤتَى الجُمُعَةُ، وعلَى مَنْ تجِبُ؟

لـقـوْلِ اللَّـهِ عـزَّ وجـلَّ: ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة:٩].

(١) في «المصنف»: «القلتهم». (٢) «الفتح» (٥/ ٣٢٥ ـ ٣٣٤).
(٣) البخاري (٢/ ٧ ـ ٨).

وقالَ عطاءٌ: إذَا كُنتَ فِي قَريـةٍ جامعةٍ، فنُودِيَ بالصَّلاةِ مِن يومِ الجـمُعةِ، فحقٌّ عليكَ أن تشهدَهَا، سمعتَ النِّداءِ أو لمْ تسمعهُ.

وكانَ أنسُ بنُ مـالكٍ فِي قصرِهِ، أحيـانًا يُجمِّعُ، وأحيـانًا لا يُجمِّعُ، وهُو بالزَّاويةِ على فرسخينِ.

تضمنَ هذا الذي ذكرَه مسألتين:

إحداهُما: أنَّ مَن هو في قريةٍ تقامُ فيها الجمـعةُ، فإنه إذا نوديَ فيها بالصلاةِ للجمعةِ وجبَ عليه السعيُ إلى الجـمعةِ، وشهودُها، سواءٌ سمعَ النداءَ أو لم يسمعْهُ وقد حكاه عن عطاءٍ.

وهذا الذي في القريةِ، إن كـانَ من أهلِها المستوطنينَ بهـا، فلا خلافَ في لزومِ السعي إلى الجمعةِ لهُ، وسـواءٌ سمع النداءَ أو لم يسمعْ، وقد نصَّ على ذلك الشافعيُّ وأحمدُ، ونقلَ بعضُهم الاتفاقَ عليه.

وإن كانَ من غيـرِ أهلِها، فإن كانَ مسافـرًا يباحُ له القصرُ، فأكـثرُ العلماءِ على أنه لا يلزمه الجمعـةُ مع أهلِ القريةِ، وقد ذكرنَا فيمـا تقدّم أن المسافرَ لا جمعةَ عليه.

وحُكيَ عن الزهريِّ والنخعيِّ، أنه يلزمه تبعًا لأهلِ القريةِ.

ورُوي عن عطاءٍ - أيضًا -، أنه يلزمُه.

وكذا قال الأوزاعيُّ: إنْ أدركه الأذانُ قبلَ أن يرتحلَ فليجبْ.

وإن كانَ المسافرُ قـد نوى إقامةً بالقريةِ تمنعُه من قصـرِ الصلاةِ، فهلْ يلزمُه الجمعة؟ فيه وجهانِ لأصحابِنا.

وأوجبَ عليه الجمعةَ في هذه الحالِ: مالكٌ وأبـو حنيفةَ، و لم يوجبْها عليه

الشافعيُّ وأصحابُه.

المسألةُ الثانيةُ: إنَّ مَن كان خارجَ القريةِ أو المصرِ الذي تقـامُ فيه الجمعةُ، هل تلزمُه الجمعةُ مع أهلِ القريةِ أو المصرِ، أم لا؟ هذا مما اختلَف فيه العلماءُ:

فقـالتْ طائفةٌ: لا تلزمُ مَن كـانَ خارجَ المصرِ أو القـريةِ الجمـعةُ مع أهلِه بحالٍ، إذا كان بينَهم وبينَ المصرِ فرجةٌ، ولو كانُوا من رِبْضِ(١) المصرِ.

وهذا قولُ الثـوريِّ وأبي حنيفـةَ وأصحابِه، إلحـاقًا لهم بأهلِ القـرَى؛ فإنَّ الجمعةَ لا تقامُ عندَهم في القرَى.

وقال أكثرُ أهلِ العلمِ: تلزمُهم الجمعةُ مع أهلِ المصرِ أو القريةِ، مع القربِ دونَ البعدِ.

ثم اختلفُوا في حدِّ ذلك:

فقالتْ طائفةٌ: المعـتبرُ: إمكانُ سماعِ النداءِ، فمن كان من مـوضعِ الجمعةِ بحـيثُ يمكنُه سـمـاعُ النداءِ لزمَه، وإلا فَـلا. هذا قـولُ الشـافعـيِّ وأحمـدَ وإسحاقَ.

واستدلُّوا: بظاهرِ قولِ اللَّهِ تعالى: ﴿**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ [الجمعة: ٩].

ورُوِي عن عبـدِ اللَّهِ بنِ عَمرو بنِ العاصِ وسـعيدِ بنِ المسيبِ وعَـمرِو بن شعيب(٢).

ورُوِيَ عن أبي أمامةَ الباهليِّ ـ معناه.

---

(١) أي: من جماعتهم.

(٢) «المصنف» لعبد الرزاق (٣/ ١٦٢ ـ ١٦٣).

وخرجَ أبو داودَ[١] من حديثِ عـبدِ اللَّهِ بنِ عَمـرِو بنِ العاصِ، عنِ النبيِّ ﷺ: «**الجمعةُ علَى مَن سمعَ النداءِ**» ورُوِيَ موقوفًا، وهو أشبهُ.

وروَى إسماعيلُ، عن عـبدِ العزيزِ بنِ عبدِ اللَّهِ، عن محـمدِ بنِ عمرو بنِ عطاءٍ، عن عُبيدِ اللَّهِ بنِ كعبِ بنِ مالكٍ، عن أبيه ـ يرفعُه ـ، قال: «**لينتهينَّ أقـوامٌ يسمـعـونَ النداءَ يومَ الجـمعـةِ، ثم لا يَشْـهـدُونَهَا، أو لـيطبعنَّ الـلَّهُ على قلوبهم، وليكونُنَّ من الغافلين، أو ليكونُنَّ من أهلِ النارِ**»[٢]. عبدُ العزيزِ هذا، شاميٌّ تكلَّموا فيه.

وقالت طائفةٌ: تجبُ الجمُعـةُ على مَن بينَه وبينَ الجمعةِ فرسخٌ، وهو ثلاثةُ أميالٍ، وهو قـولُ ابنِ المسيبِ والليثِ ومالكٍ ومحـمدِ بنِ الحسنِ، وهو روايةٌ عن أحمدَ.

ومِن أصحـابِنا مَن قالَ: لا فرقَ بينَ هذا القولِ والذي قـبلَه؛ لأن الفرسخَ هو منتهَى مـا يسمعُ فيه النـداء ـ غالبًا ـ؛ فإن أحـمدَ قالَ: الجمـعة على من سمع الـنداءَ، والنداءُ يسمعُ من فـرسخٍ، وكذلكَ رواه جـماعةٌ عـن مالكٍ، فيكونُ هذا القولُ والذي قبلَهُ واحدًا.

وخرج الخلالُ من روايةِ مـندل، عن ابنِ جريجٍ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ مـحمدِ ابنِ عقـيلٍ، عن جابرٍ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**عسَى أحـدُكم أن يتخذ الصُّبَّة على رأسِ ميلين أو ثلاثة، تأتي عليه الجمعةُ لا يشـهدُها، ثم تأتي الجمعةُ لا يشهدُها ـ ثلاثًا ـ فيطبعُ على قلبهِ**». مندلٌ فيه ضعفٌ.

وخرجَ الطبرانيُّ[٣] نحوَه من حديثِ ابنِ عمرَ ـ مرفوعًا.

---

(١) «السنن» (١٠٥٦). (٢) أخرجه الطبراني «في الكبير» (١٩/ ٩٩).

(٣) في «الأوسط» (٣٣٦).

وفي إسنادِه: إبراهيمُ بنُ يزيدَ الخوزيُّ، وهو ضعيفٌ.

وروى معـدي بن سليمـان، عن ابنِ عجلانَ، عن أبيـهِ، عن أبي هريرةَ، عن النبي ﷺ قال: «**ألا هل عسَى أحدُكم أن يتخذَ الصُّبة من الغنمِ على رأسِ ميلٍ أو ميلين، فـيتعـذَّر عليه الكلأُ، فيـرتفعُ، ثم تجيءُ الجمـعةُ، فلا يجيءُ ولا يشـهدُها، وتجيءُ الجمعة، فلا يشهدُها، وتجيءُ الجمعةُ، فلا يشهدها حتى يُطبعَ على قلبهِ**».

خرجه ابنُ ماجه[(١)] .

وخرجه أبو بكر النجاد وابنُ عبدِ البرِ، وفي روايتهما: «**ميلين أو ثلاثة**».

ومَعْدي هذا، تكلم فيه أبو زرعةَ وغيرُه. وقال أبو حاتم: شيخ.

وقالت طائفةٌ: تجبُ الجـمعةُ على من بينَهُ وبينَهَا أربعـةُ أميالٍ، ورُويَ عن ابن المنكدرِ والزهريِّ وعكرمةَ وربيعةَ.

ورويَ عن الزهريِّ - أيضًا - تحديدُه بستةِ أميالٍ، وهي فرسخانِ.

وروي عن أبي هريرةَ، قالَ: تؤتَى الجمعةُ من فرسخينِ.

خرجه ابن أبي شيبة[(٢)] بإسناد ضعيف.

وروى عبد الرزاق[(٣)] بإسنادٍ منقطعٍ، عن معاذٍ، أنه كانَ يقومُ على منبرِهِ، فيـقولُ لـقومٍ بينهُم وبينَ دمـشقَ أربعُ فراسخٍ وخـمسُ فراسـخٍ: إن الجـمـعةَ لزمتْكُم، وأن لا جمعة إلا معنا.

وبإسنادٍ منقطعٍ، عن مـعاويةَ، أنه كانَ يأمرُ بشـهودِ الجمـعةِ مَن بينه وبينَ

(١) «السنن» (١١٢٧).

(٢) «المصنف» (١/ ٤٤١).

(٣) «المصنف» (٣/ ١٦٤).

دمشقَ أربعة عشرَ ميلاً.

وقالَ بقيةُ، عن محمدِ بنِ زيادٍ: أدركتُ الناسَ بحِمْص تبعثُ الخيلَ نهارَ الخميسِ إلى جُوسيةَ وحماة والرَّستن يجلبون الناسَ إلى الجمعةِ، ولم يكن يجمعُ إلا بحِمْص.

وعن عطاءٍ. إنه سئلَ: من كم يُؤتى الجمعةُ؟ قال: من سبعةِ أميالٍ(١).

وعنه، قالَ: يقال: من عشرةِ أميالٍ إلى بريدٍ(٢).

وعن النخعيِّ، قالَ: تؤتى الجمعةُ من فرسخينِ.

وعن أبي بكرِ بنِ محمدِ بنِ عمرِو بنِ حزمٍ، أنه أمرَ أهلَ قباء، وأهلَ ذي الحليفةِ، وأهلَ القرى الصغار حولهُ: لا يجمِّعُوا، وأن يشهدوا الجمعةَ بالمدينة.

وعن ربيعة ـ أيضًا ـ، أنه قالَ: تجبُ الجمعةُ على من إذا نودِيَ بصلاةِ الجمعةِ خرجَ من بيتِه ماشيًا أدركَ الجمعةَ.

وقالتْ طائفةٌ: تجبُ الجمعةُ على من آواه الليلُ إلى منزلِه.

قال ابنُ المنذرِ: رويَ ذلكَ عن ابنِ عمرَ وأبي هريرةَ وأنسٍ والحسنِ ونافعٍ مولى ابنِ عمرَ، وكذلكَ قالَ عكرمةُ والحكمُ وعطاءٌ والأوزاعيُّ وأبو ثور. انتهى.

وهو قولُ أبي خيثمةَ زهيرِ بنِ حربٍ وسليمان بن داود الهاشمي.

وحكى إسماعيلُ بنُ سعيدٍ الشالنجيُّ، عن أحمدَ نحوَهُ، واختاره الجوزجانيُّ.

---

(١) «المصنف» لابن أبي شيبة (١/ ٤٤١). (٢) «المصنف» لعبد الرزاق (٣/ ١٦٢).

وفيه حديثٌ مرفوعٌ، من حديثِ أبي هريرةَ.

وقد ذكره الترمذي[١]، وبيَّن ضعفَ إسنادِه، وأن أحمدَ أنكرهُ أشدَّ الإنكارِ.

وفيه ـ أيضًا ـ، عن عائشةَ، وإسنادُه ضعيفٌ.

وفيه ـ أيضًا ـ من مراسيلِ أبي قِلابَة، وفي إسنادِه ضعفٌ.

وقالتْ طائفةٌ: تُؤتَى الجمعةُ من فرسخينِ، قالهُ النخعيُّ وإسحاقُ، نقله عنه حربٌ.

لكنهما لم يصرِّحا بوجوبِ ذلكَ، وقد تقدَّم نحوُه عن غيرِ واحدٍ.

وخرجَ حربٌ من طريقِ ابنِ أبي عروبةَ، عن قتادةَ، عن أنسٍ، أنه كانَ يجمعُ من الزاويةِ، وهي فرسخانِ.

وروى عبدُ الرزاقِ[٢]، عن معمرٍ، عن ثابتٍ، عن أنسٍ، أنه كانَ يكونُ بينَهُ وبين البصرةِ ثلاثةُ أميالٍ، فيشهدُ الجمعةَ بالبصرةِ.

وقد ذكرَ البخاريُّ عنهُ أنه كانَ أحيانًا لا يجمعُ.

وكذلكَ رُويَ عن أبي هريرةَ، أنه كانَ بالشجرةِ ـ وهي ذو الحليفةِ ـ، فكانَ أحيانًا يجمعُ، وأحيانًا لا يجمعُ.

وقد رويَ عنه الأمرانِ جميعًا.

وكذلكَ سعدُ بنُ أبي وقاصٍ، كانَ في قصرِه بالعقيقِ، فكانَ أحيانًا يجمعُ، وأحيانًا لا يجمعُ، وكان بينهُ وبينَ المدينةِ سبعةُ أميالٍ أو ثمانيةٌ.

---

(١) «الجامع» (٥٠١).

(٢) «المصنف» (٣/١٦٣).

وكذلك رويَ عن عائشةَ بنتِ سعدٍ، أنَّ أباها كانَ يفعلُ[١] .[٢]

* * *

[قال البخاري][٣] : بَابُ: المشي إلى الجُمُعةِ :

وقولِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة:٩]. ومَنْ قالَ: السَّعيُ العملُ والذَّهابُ؛ لقولِهِ: ﴿وسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء:١٩].

وقالَ ابنُ عباسٍ: يحرمُ البيعُ حينئذٍ.

وقالَ عطاءٌ: تحرُمُ الصناعاتُ كلُّها.

وقالَ إبراهيمُ بنُ سعدٍ، عنِ الزهريِّ: إذا أذَّنَ المؤذِّنُ يومَ الجمعةِ وهوَ مسافرٌ، فعليهِ أن يشهدَ.

اشتملَ كلامُه ـ هاهنا ـ على مسائلَ :

إحداَها: المشيُ إلى الجمعة، وله فضلٌ.

وفي حديثِ أوسِ بنِ أوسٍ، عن النبيِّ ﷺ: «**من بكَّر وابتكرَ، وغسَّلَ واغتسلَ، ومشَى ولم يركَبْ**»[٤] . وقد سبقَ.

وفي حديثِ اختصامِ الملأ الأعلَى: «**إنهم يختصمونَ في الكفاراتِ والدرجاتِ، والكفاراتُ إسباغُ الوضوءِ في الكريهاتِ، والمشيُ على الأقدامِ إلى الجُمُعاتِ**».

وقد خرجه الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ[٥] من حديث معاذٍ.

---

(١) ابن أبي شيبة (١/ ٤٤٠). (٢) «فتح الباري» (٥/ ٤٠٢ ـ ٤٠٨).

(٣) البخاري (٢/ ٩).

(٤) أخرجه أحمد (٤/ ٩، ١٠، ١٠٤)، وأبو داود (١/ ٣٤٥)، والنسائي (٣/ ٩٥ ـ ٩٧)، والترمذي (٤٩٦)، وابن ماجه (١٠٨٧) وابن خزيمة (١٧٥٨).

(٥) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/ ٢٤٣)، والترمذي (٣٢٣٥).

وله طرقٌ كثيرةٌ، ذكرتُها مستوفاةً في «شرح الترمذيِّ».

وروى ابنُ أبي شيبةَ[١] بإسنادٍ فيه انقطاعٌ، أن عبدَ اللَّهِ بنَ رواحةَ كان يأتي الجمعةَ ماشيًا، فإذا رجعَ رجعَ كيف شاءَ ماشيًا، وإن شاء راكبًا.

وفي روايةٍ: وكان بين منزِله وبين الجمعةِ ميلانِ.

وعن أبي هريرةَ، أنه كان يأتي الجمعةَ من ذي الحليفة ماشيًا[٢].

وذكر ابنُ سعدٍ في «طبقاته»[٣] بإسناده، عن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، أنه كتب ينهَى أن يركبَ أحدٌ إلى الجمعةِ والعيدينِ.

وقال النخعيُّ: لا يُركبُ إلى الجمعةِ.

المسألةُ الثانيةُ: أنه يستحبُّ المشيُ بالسكينةِ مع مقاربةِ الخُطَا، كما في سائرِ الصلواتِ، على ما سبق ذكرُه في موضعه.

فأما قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ**﴾ [الجمعة:٩]، فقد حملَه قومٌ من المتقدمين على ظاهره، وأنكرَ ذلك عليهم الصحابةُ.

فروى البيهقيُّ[٤] من حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ الصامتِ، قال: خرجتُ إلى المسجدِ يومَ الجمعةِ، فلقيتُ أبا ذرٍّ، فبينا أنا أمشي إذ سمعتُ النداءَ، فرفعتُ في المشي؛ لقولِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿**إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ**﴾، فجذبني جذبةً كدت أن ألاقيَه، ثم قال: أو لسْنَا في سعيٍ؟

---

(١) «المصنف» (١/ ٤٦٧).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (١/ ٤٦٧).

(٣) «الطبقات» (٥/ ٣٦٧).

(٤) السنن للبيهقي (٣/ ٢٢٧).

فقد أنكرَ أبو ذرٍّ مَن فسر السعي بشدةِ الجري والعدْوِ، وبينَ أنَّ المشيَ إليها سعيٌ؛ لأنه عمل، والعملُ يُسمَّى سعيًا، كما قالَ تعالى: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ [الليل:٤]، وقال: ﴿مَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾ [الإسراء:١٩] ومثلُ هذا كثيرٌ في القرآن.

وبهذا فسَّرَ السعيَ في هذه الآية التابعونَ فمن بعدَهم، منهم: عطاءٌ، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، وقتادةُ، ومحمدُ بنُ كعبٍ، وزيدُ بنُ أسلمَ، ومالكٌ، والثوريُّ، والشافعيُّ وغيرُهم.

وروي عن ابنِ عباسٍ ـ أيضًا ـ من وجهٍ منقطع.

ومنهم مَن فسَّر السعيَ بالجري والمسابقةِ، لكنه حملَه على سعي القلوبِ والمقاصدِ والنياتِ دون الأقدامِ، هذا قولُ الحسنِ.

وجمع قتادةُ بين القولينِ ـ في روايةٍ ـ، فقال: السعيُ بالقلبِ والعملِ.

وكان عثمانُ وابنُ مسعودٍ وجماعةٌ من الصحابة يقرءونَها: «فامضُوا إلى ذكرِ اللَّهِ».

وقال النخعيُّ: لو قرأتُها ﴿فَاسْعَوْا﴾ لسعيتُ حتى يسقط ردائي.

ورُويَ هذا الكلامُ عن ابنِ مسعودٍ من وجهٍ منقطعٍ.

المسألةُ الثالثةُ: في تحريمِ البيعِ وغيرِه مما يشتغلُ به عن السعي بعدَ النداءِ.

وقد حُكي عن ابنِ عباسٍ تحريم البيعِ وغيرِه.

وروى القاضي إسماعيلُ في كتابه «أحكامِ القرآنِ» من رواية سليمانَ بنِ معاذٍ، عن سماكٍ، عن عكرمةَ، عن ابنِ عباسٍ، قال: لا يصلحُ البيعُ يومَ الجمعةِ حين ينادَى بالصلاةِ، فإذا قُضيتِ الصلاةُ فاشترِ وبِعْ.

وبإسناده: عن ميمونِ بنِ مِهـرانَ، قالَ: كانَ بالمدينةِ إذا نوديَ بالصلاةِ من يومِ الجمعةِ نادَوْا: حرُمَ البيعُ، حرُمَ البيعُ.

وعن أيوبَ، قـالَ: لأهـلِ المدينةِ سـاعـةٌ، وذلك عـندَ خـروجِ الإمـامِ، يقولون: حرُم البيعُ، حرُم البيعُ.

وعن عمـرَ بنِ عبدِ الـعزيزِ، أنه كانَ يمنعُ الناسَ منَ الـبيعِ يومَ الجمـعةِ إذا نودِي بالصلاةِ.

وعن الحـسنِ وعطاءٍ والضحـاكِ: تحريمُ الـبيعِ إذا زالتِ الشـمسُ من يومِ الجمعةِ.

وعن الشعبيِّ، أنه محرَّمٌ، وكذا قالَ مكحولٌ.

وحكى إسحاقُ بنُ راهويه الإجماعَ على تحريمِ البيعِ بعدَ النداءِ.

وحكى القاضي إسماعيلُ، عمَّن لـم يسمِّه، أن البيعَ مكرُوهٌ، وأنه استدل بقوله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [الجمعة:٩].

وردَّ عليه: بأن مَنْ فعل ما وجَب عليه وتركَ ما نُهِي عنه فهو خيرٌ له، كما قال تعالى: ﴿وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [النساء:١٧١].

وحُكي القولُ بأن البيعَ مردودٌ عن القاسمِ بنِ محمدٍ وربيعةَ ومالكٍ.

ورواه ابنُ عيينةَ، عن عبدِ الكريمِ، عن مجاهدٍ أو غيرِه.

وهو مذهـبُ الليثِ والثوريِّ وإسـحاقَ وأحمـدَ وغيـرِهم من فقـهاءِ أهلِ الحديثِ.

وخالف فيه أبو حنيفةَ والشافعيُّ وأصحـابُهما وعبيدُ اللَّه العنبريُّ، وقالوا:

البيعُ غيرُ مردودٍ؛ لأن النهي عن البيع هنا ليس نهيًا عنه لذاتهِ بل لوقتهِ.

والأولون يقولون: النهي يقتضي فسادَ المنهيِّ عنه، سواءٌ كان لذاتِ المنهيِّ عنه أو لوقتهِ، كالصومِ يوم العيدِ، والصلاةِ وقتَ النهيِ، فكذلك العقودُ.

وقال الثوريُّ ـ فيما إذا تصارفا ذهبًا بفضة وقبضا البعضَ، ثم دخل وقتُ النداءِ يوم الجمعةِ ـ: فإنهما يترادَّان البيعَ.

وهذا يدلُّ على أن القبضَ عنده شرطٌ لانعقادِ الصرفِ، فلا يتمُّ العقدُ إلا به، وهو الصحيحُ عند المحققينَ من أصحابنا ـ أيضًا.

وأما ما ذكره عن عطاء، أنه تحرُم الصناعاتُ حينئذٍ، فإنه يرجع إلى أنه إنَّما حرمَ البيعُ لأنه شاغلٌ عن السعي إلى ذكر اللَّه والصلاة، فكلُّ ما قطع عن ذلك فهو محرمٌ من صناعةٍ أو غيرِها، حتى الأكلُ والشربُ والنومُ والتحدثُ وغيرُ ذلك، وهذا قولُ الشافعيةِ وغيرهم ـ أيضًا.

لكن لأصحابنا في بطلانِ غيرِ البيعِ منَ العقودِ وجهانِ، فإنَّ وقوعها بعد النداءِ نادرٌ، بخلافِ البيعِ، فإنَّه غالبٌ، فلو لم يبطلْ لأدَّى إلى الاشتغالِ عنِ الجمعةَ بهِ، فتفوتُ الجمعةُ غالبًا.

وأكثرُ أصحابِنا حكَوُا الخلافَ في جوازِ ذلك، وفيه نظرٌ؛ فإنه إذا وجبَ السعيُ إلى الجمعةِ حرُمَ كل ما قطعَ عنْه.

وقد رُويَ عن زيدِ بنِ أسلمَ، قالَ: لم يأمرُهُمُ اللَّهُ أن يذرُوا شيئًا غيرَه، حرم البيع، ثم أذنَ لهم فيه إذا فرغُوا.

وهذا ضعيفٌ جدًّا؛ فإن البيعَ إنما خُصَّ بالذكرِ لأنَّه أكثرُ ما يقعُ حينئذٍ مما يُلهي عن السعي، فيشارِكُه في المعنى كلُّ شاغلٍ.

واستدلَّ بعضُ أصحابنا على جوازِ غيرِ البيعِ منَ العقود بالصدقةِ، وقال: قد أمرَ بها النبي ﷺ وهو يخطبُ.

وهذا لا يصحُّ؛ فإن الصدقةَ قربةٌ وطاعةٌ، وإذا وقعتْ في المسجدِ حيثُ لا يُكره السؤالُ فيه فلا وجْهَ لمنعها.

فإن ألحق بذلكَ عقدُ النكاحِ في المسجدِ قبلَ خروجِ الإمامِ كان متوجهًا، مع أن بعضَ أصحابِنا قد خصَّ الخلافَ بالنكاحِ، وهو ابنُ عقيلٍ.

وعن أحمدَ روايةٌ: إنه يحرم البيعُ بدخول وقتِ الوجوبِ، وهو زوالُ الشمسِ.

وقد سبقَ مثلُه عن الحسنِ، وعطاءٍ، والضحاكِ، وهو - أيضًا - قولُ مسروقٍ، ومسلمِ بنِ يسارٍ، والثوريِّ، وإسحاقَ.

وقياسُ قولهم: إنه يجبُ السعيُ بالزوال، ويحرمُ حينئذٍ كلُّ شاغلٍ يشغلُ عنه.

والجمهورُ: على أنه لا يحرُم بدونِ النداءِ.

ثم الأكثرونَ منهم على أنه النداءُ الثاني الذي بَين يدي الإمامِ؛ لأنه النداءُ الذي كان في عهد النبيِّ ﷺ، فلا ينصرفُ النداءُ عند إطلاقهِ إلا إليه.

وفي «صحيح الإسماعيليِّ» من حديثِ الزهريِّ، عن السائبِ بنِ يزيدَ، قال: كان النداءُ الذي ذكرَ اللَّهُ في القرآن يومَ الجمعةَ إذا خرجَ الإمامُ، وإذَا قامتِ الصلاةُ في زمنِ النبيِّ ﷺ وأبي بكر وعمرَ.

وعن أحمدَ روايةٌ: أنه يحرمُ البيعُ ويجبُ السعيُ بالنداء الأولِ.

وهو قولُ مقاتلِ بنِ حيَّانَ، قالَ: وقد كانَ النداءُ الأولُ قبلَ زوالِ الشمسِ.

ونقله ابنُ منصورٍ، عن إسحاقَ بنِ راهويه صريحًا.

وعن أحمدَ، أنه قال: أخافُ أن يحرمَ البيعُ، وإن أذن قبل الوقت.

ومجردُ الشروعِ في الأذانِ يحرمُ به البيعُ عند أصحابِنَا والشافعيةِ؛ لأنه صارَ نداءً مشروعًا مسنونًا من سنةِ الخلفاءِ الراشدين.

قال أصحابُنا: ولو اقتصر عليه أجزأ، وسقطَ فرضُ الأذانِ.

وعند أصحابِ الشافعيِّ: يحرمُ البيعُ بمجردِ الشروعِ في النداءِ الثاني بين يديِ الإمامِ، إذا كانَ قاطعًا عن السعي، فأما إن فعلَه وهو ماشٍ في الطريقِ ولم يقفْ، أو هو قاعدٌ في المسجد كُره ولم يَحرمْ.

وهذا بعيدٌ، والتبايعُ في المسجدِ بعدَ الأذانِ يجتمعُ فيه نهيانِ؛ لزمانِهِ ومكانِه، فهو أولى بالتحريمِ.

المسألةُ الرابعةُ: حُكِيَ عن الزهريِّ: أن المسافرَ إذا سمعَ النداءَ للجمعةِ، فعليه أن يشهدَها، وقد سبقَ ذكرُ ذلكَ عنه، وعن النخعيِّ والأوزاعيِّ وعن عطاءٍ: أن عليه شهودَها، سمعَ الأذَانَ أو لم يسمعْه، وأن الجمهورَ على خلافِ ذلكَ.

وهل للمسافرِ أن يبيعَ ويشتريَ في المصرِ بعدَ سماعِ النداءِ؟ فيه اختلافٌ بينَ أصحابِنا، يرجعُ إلى أنَّ من سقطتْ عنه الجمعةُ لعذرٍ، كالمريضِ: هل له أن يبيع بعد النداءِ، أم لا؟ فيه روايتانِ عن أحمدَ.

وأما من ليس مِن أهلِ الجمعةِ بالكلِّية، كالمرأة، فلها البيعُ والشراءُ بغيرِ خلافٍ، وكذا العبدُ، إذا قلنا: لا يجبُ عليه الجمعةُ[1].

* * *

(١) «فتح الباري» (٥/ ٤٣٠ ـ ٤٣٦).

[قال البخاري][(١)]: حدثنا آدمُ: ثنا ابنُ أبي ذئبٍ، عن الزُّهريِّ، عن السَّائبِ بنِ يزيدَ، قالَ: كانَ النِّداءُ يومَ الجمعةِ أوَّلُهُ إذَا جلسَ الإمامُ على المنبرِ، علَى عهدِ رسُولِ اللَّهِ ﷺ وأبي بكرِ وعُمرَ، فلمَّا كانَ عُثمانُ، وكثرُ النَّاسُ، زاد النِّداءَ الثَّالثَ على الزوراءِ.

قالَ أبو عبدِ اللَّهِ: الزَّوراءُ: موضعٌ بالسُّوقِ بالمدينةِ.

الأذانُ يومَ الجمعةِ قد ذكرَه اللَّهُ تعالَى في كتابه، في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة:٩]، وقد ذهب طائفةٌ من العلماء إلى وجوبهِ، وإنْ قيل: إن الأذان سنةٌ، وهو الذي ذكره ابنُ أبي موسى من أصحابنا، وقاله طائفةٌ من الشافعيةِ ـ أيضًا.

وقد دلَّ الحديثُ على أن الأذانَ الذي كان على عهدِ رسولِ اللَّه ﷺ وأبي بكرٍ وعمرَ هو النداءُ الذي بين يديِ الإمامِ عند جلوسهِ على المنبرِ، وهذا لا اختلافَ فيه بين العلماءِ.

ولهذا قال أكثرُهم: إنه هو الأذانُ الذي يَمنع البيعَ، ويوجبُ السعيَ إلى الجمعة، حيث لم يكن على عهدِ النبيِّ ﷺ سواه.

وما ذكره ابنُ عبد البرِّ عن طائفةٍ من أصحابِهم، أن هذا الأذانَ الذي يمنع البيعَ لم يكن على عهدِ النبي ﷺ وإنما أحدثه هشامُ بنُ عبدِ الملك، فقد بيَّن ابنُ عبدِ البرِّ أن هذا جهلٌ من قائلهِ؛ لعدم معرفته بالسنةِ والآثارِ.

فإن قال هذا الجاهلُ: إنه لم يكنْ أذانٌ بالكلِّية في الجمعة، فقد باهتَ، ويكذِّبهُ قولُ اللَّه عزَّ وجلَّ ﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا﴾ [الجمعة:٩].

---

(١) البخاري (٢/ ١٠).

وإنْ زعمَ أن الأذانَ الذي كـان في عـهـد النبيِّ ﷺ وأبي بكرٍ وعـمرَ هو الأذانُ الأولُ الذي قـبلَ خـروجِ الإمامِ، فـقـد أبطلَ، ويكذِّبه هذا الحـديثُ واجتماعُ العلماءِ على ذلكَ.

وقولُه في هذه الرواية: «أولُه إذا جلسَ الإمـامُ على المنبرِ»، معناه: أن هذا الأذانَ كانَ هو الأولَ، ثـم تليه الإقـامةُ، وتسُمَّـى: أذانًا، كما فـي الحديثِ المشهورِ: «بين كلِّ أذانينِ صلاةٌ»(١).

وخرجه النسائيُّ(٢) من روايةِ المعتمرِ، عن أبيه، عن الزهريِّ، ولفظُه: كان بلالٌ يؤذن إذا جلسَ رسولُ اللَّهِ ﷺ على المنبرِ يومَ الجمعةِ، فإذا نزلَ أقامَ، ثم كان كذلك في زمنِ أبي بكرٍ وعـمرَ، فلما زاد عثمـانُ النداءَ الثالثَ صار هذا الثالثُ هو الأولَ، وصار الذي بين يدي الإمامِ هو الثاني.

وقد خرج أبو داود(٣) هذا الحديثَ من طريق ابن إسـحاقَ، عنِ الزهريِّ، عن السائبِ، قال: كـان يؤذَّن بين يديْ رسولِ اللَّهِ ﷺ إذا جلسَ على المنبرِ يومَ الجمعةِ على بابِ المسجدِ، وأبي بكرٍ وعمرَ.

فـفي هذه الروايةِ: زيادةٌ: أنَّ هذا الأذانَ لـم يكنْ في نفسِ المسـجـدِ، بل على بابهِ، بحيث يسمعه مَنْ كان في المسجـدِ ومَن كان خارجَ المسجدِ، ليترك أهلُ الأسواقِ البيعَ ويسرعُوا إلى السعي إلى المسجدِ.

وقولُه: «فلما كان عثمـانُ» ـ يريد: لما وليَ عثمان ـ «وكثر الناسُ في زمنه زادَ النداءَ الثـالثَ على الزوراءِ»، وسـمَّـاه: ثالثًـا؛ لأنَّ به صـارتِ النداءات

---

(١) البخاري (١/ ١٦١)، ومسلم (٢/ ٢١٢).

(٢) النسائي (٣/ ١٠١).

(٣) أبو داود (١٠٨٨)، (١٠٨٩).

للجمعةِ ثلاثةً، وإنْ كان هو أولَها وقوعًا.

وخرَّجه ابن ماجه[١]، وعنده ـ بعد قوله: «على دارٍ في السوقِ، يقال لها: الزوراءُ» ـ: «فإذا خرجَ أذَّنَ، وإذا نَزلَ أقامَ».

وهو من روايةِ ابنِ إسحاقَ، عن الزهريِّ.

وروى الزهريُّ، عن ابنِ المسيبِ: معنَى حديثِهِ عن السائبِ بن يزيدَ، غيرَ أنه قال: «فلمَّا كان عثمانُ كثُرَ الناسُ، فزاد الأذانَ الأولَ، وأرادَ أن يتهيأ الناسُ للجمعةِ».

خرجه عبدُ الرزَّاقِ في «كتابه»[٢] عن معمرٍ، عنه.

وقد رواه إسماعيلُ بنُ يحيى التميميُّ ـ وهو ضعيفٌ جدًّا ـ، عن مِسعَرٍ، عن القاسمِ، عن ابن المسيبِ، عن أبي أيوبَ الأنصاريِّ، قال: ما كان الأذانُ على عهدِ النبيِّ ﷺ يوم الجمعة إلا قُدَّامَ النبيِّ ﷺ، وهو على المنبرِ، فإذا نزلَ أقامُوا الصلاةَ، فلما ولي عثمانُ أُمرَ أن يؤذَّن على المنارَة ليُسمعَ الناسَ.

خرجه الإسماعيليُّ في مسند مسعرٍ، وقال في القاسمِ: هو مجهولٌ.

قلت: والصحيحُ المرسلُ.

وقد أنكر عطاءٌ الأذانَ الأولَ، وقال: إنما زادَه الحجاجُ. قال: وإنما كانَ عثمانُ يدعو الناسَ دعاءً.

خرجه عبد الرزاقِ[٢].

---

(١) «السنن» (١١٣٥).

(٢) «المصنف» (٣/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦).

وقال عمرُو بنُ دينارٍ: إنما زادَ عثمانُ الأذانَ بالمدينةِ، وأما مكةُ فأوَّلُ من زادَه الحجاجُ. قال: ورأيت ابنَ الزبيرِ لا يؤذَّن له حتى يجلسَ على المنبرِ، ولا يؤذَّن له إلا أذانٌ واحدٌ يوم الجمعة.

خرجه عبد الرزَّاقِ - أيضًا[1] .

وروى مصعبُ بن سلامٍ، عن هشامِ بنِ الغازِ، عن نافعٍ، عن ابن عمرَ، قال: إنما كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ إذا قعدَ على المنبرِ أذنَ بلالٌ، فإذا فرغَ النبيُّ ﷺ من خطبتهِ أقام الصلاةَ، والأذانُ الأولُ بدعةٌ[2] .

وروى وكيعٌ في «كتابه»[3] عن هشامِ بنِ الغازِ، قال: سألتُ نافعًا عن الأذانِ يومِ الجمعةِ؟ فقال: قال ابنُ عمرَ: بدعةٌ، وكلُّ بدعةٍ ضلالةٌ، وإن رآه الناسُ حسنًا.

وقال عبدُ الرحمنِ بنُ زيدِ بنِ أسلمَ: لم يكن في زمانِ النبيِّ ﷺ إلا أذانَانِ: أذانٌ حين يجلسُ على المنبرِ، وأذانٌ حين تُقامُ الصلاةُ. قال: وهذا الأخيرُ شيءٌ أحدثه الناسُ بعدُ.

خرجهُ ابنُ أبي حاتمٍ.

وقال سفيانُ الثوريُّ: لا يُؤَذَّن للجمعةِ حتى تزولَ الشمسُ، وإذا أذنَ المؤذِّن قام الإمامُ على المنبرِ فخطبَ، وإذا نزل أقامَ الصلاةَ. قال: والأذان الذي كان على عهدِ رسولِ اللَّهِ ﷺ وأبي بكرٍ وعمرَ أذانٌ وإقامةٌ، وهذا الأذانُ الذي

(١) «المصنف» (٣/ ٢٠٦).
(٢) الجملة الأخيرة عند ابن أبي شيبة (١/ ٤٧٠) من طريق شبابة عن هشام.
(٣) وعنه ابن أبي شيبة (١/ ٤٧٠).

زادوه محدَثٌ.

وقال الشافعيُّ ـ فيـما حكاه ابنُ عبدِ البرِّ ـ: أحبُّ إليَّ أن يكون الأذانُ يومَ الجمـعةِ حـين يجلسُ الإمامُ على المنبـرِ بينَ يديه، فإذا قـعد أخـذَ المؤذنُ في الأذانِ، فإذا فرغَ قام فخطبَ. قال: وكـان عطاءٌ ينكرُ أن يكونَ عثمانُ أحدثَ الأذانَ الثاني، وقالَ: إنما أحدثَه معاويةُ.

قال الشافعيُّ: وأيُّهما كـانَ، فالأذانُ الذي كان على عهد النبيِّ ﷺ، وهو الذي يُنَهى الناسُ عنده عن البيع.

ولأصحابِهِ في أذانِ الجمعةِ ـ على قولِهم: الأذانُ سنةٌ ـ وجهانِ:

أحدُهما: أنه سنةٌ ـ أيضًا.

والثاني: أنه للجمعةِ خاصةً فرضُ كفايةٍ.

فعلى هذا: هل تسقطُ الكـفايةُ بالأذانِ الأولِ، أوْ لا تسقطُ إلا بالأذان بين يديِ الإمامِ؟ على وجهينِ ـ أيضًا.

ومنْ أصـحابِنا من قـالَ: يسـقط الفرضُ بـالأذانِ الأولِ، وفيـه نظرٌ واللَّه أعلم.

وقال القـاضِي أبو يعلَى: المستحبُّ أن لا يؤذَّن إلا أذانٌ واحـدٌ، وهو بعد جلوسِ الإمامِ على المنبرِ، فإن أذَّنَ لهـا بعدَ الزَّوالِ وقبلَ جلوسِ الإمامِ جازَ، ولم يُكْرَه.

ثم ذكرَ حديثَ السائبِ بنِ يزيدَ هذا.

ونقلَ حربٌ، عن إسحاقَ بنِ راهَويه: أن الأذانَ الأولَ للجـمعةِ محدثٌ، أحدثه عـثمانُ، رأى أنه لا يسـمعُه إلا أن يزيدَ في المؤذنين، ليُـعلمِ الأبعدِين

ذلك، فصار سنةً: لأن على الخلفاء النظرَ في مثل ذلك للناسِ.

وهذا يفهم منه أن ذلك راجعٌ إلى رأي الإمام، فإن احتاج إليه لكثرةِ الناس فعلَه، وإلا فلا حاجةَ إليه[١] .

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾

[قال البخاري][٢] : بابُ الخُطبةِ قائمًا :

وقالَ أنسٌ: بينَا النَّبيُّ ﷺ يخطبُ قائمًا.

حديثُ أنسٍ، هو الذي فيه ذكرُ الاستسقاءِ في الجمعةِ، وسيأتي ـ إن شاء اللَّهُ سبحانه وتعالى ـ فيما بعد[٣] .

حدثنا عُبيدُ اللَّهِ بنُ عمرَ القواريريُّ: نَا خالدُ بنُ الحارثِ: نَا عُبيدُ اللَّهِ بنُ عمرَ، عنْ نافعٍ، عن ابنِ عمرَ، قالَ: كانَ النَّبيُّ ﷺ يخطبُ قائمًا، ثمَّ يقعدُ، ثُمَّ يقومُ كمَا يفعلُونَ الآنَ[٤] .

وفي الخطبةِ قائمًا أحاديثُ أُخَر.

وخرج مسلمٌ[٥] من حديثِ سماكٍ، عن جابرِ بنِ سمُرةَ، قال: كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يخطبُ قائمًا، ثم يجلسُ، ثم يقومُ فيخطبُ قائمًا، فمن نبَّأكَ أنه

---

(١) «فتح الباري» (٥/ ٤٤٩ ـ ٤٥٣).

(٢) البخاري (٢/ ١٢).

(٣) البخاري (٢/ ٣٤).

(٤) البخاري (٢/ ١٢).

(٥) (٣/ ٩).

كان يخطبُ جالسًا فقد كذبَ، فقد - واللَّهِ - صليتُ معهُ أكثرَ من ألفي صلاةٍ.

وخرَّج مسلمٌ(١) بإسنادِه من حديثِ كعبِ بنِ عجرةَ، أنه دخلَ المسجدَ وعبدُ الرحمنِ بنُ أمِّ الحكمِ يخطبُ قاعدًا، فقالَ: انظرُوا الخبيثَ، يخطبُ قاعدًا، وقد قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: ١١].

وخرجَ ابنُ ماجه(٢) من حديثِ إبراهيمَ، عن علقمةَ، عن ابنِ مسعودٍ، أنه سُئِلَ: أكانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يخطبُ قائمًا أو قاعدًا؟ قال: أمَا تقرأُ: ﴿وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: ١١]؟

وهذا إسنادٌ جيدٌ.

لكن رُوي، عن إبراهيمَ، عن علقمةَ من قولِهِ. وعن إبراهيمَ، عن عبدِ اللَّه منقطعًا.

واستدلَّ بهذه الآيةِ على القيامِ في الخطبة جماعةٌ، منهم: ابنُ سيرينَ، وأبو عبيدةَ بن عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ.

وإنما احتاجوا إلى السؤالِ عن ذلك؛ لأنه كان في زمن بني أميةَ من يخطبُ جالسًا، وقد قيلَ: إن أولَ منَ جلسَ معاويةُ -: قاله الشعبيُّ والحسنُ وطاوسٌ.

وقال طاوسٌ: الجلوسُ على المنبرِ يومَ الجمعةِ بدعةٌ.

---

(١) (٣/ ١٠).

(٢) «السنن» (١١٠٨).

وقال الحسنُ: كان النبيُّ ﷺ وأبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ يخطبون قيامًا، ثم إن عثمانَ لما رقَّ وكبرَ كان يخطبُ، فيدركُه ما يدركُ الكبيرَ فيستريحُ ولا يتكلَّمُ، ثم يقومُ فيتمُّ خطبتَه.

خرجه القاضي إسماعيلُ.

وخرج ـ أيضًا ـ من رواية ابنِ جـريجٍ، عن عطاءٍ، أنه قال: أولُ من جعلَ في الخُطْبةِ جلوسًا عثمانُ، حين كبرَ وأخذته الرعدةُ جلس هنيَّةً. قيل له: هل كان يخطبُ عمرُ إذا جلسَ؟ قال: لا أدري.

وقد روي عن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، أنه كان يخطبُ الخطبةَ الأولَى جالسًا، ويقوم في الثانيةِ.

خرجه ابنُ سعدٍ[1].

والظنُّ به أنه لم تبلغهُ السنةُ في ذلك، ولو بلغتْه كان أتبع الناسِ لها.

وقد قيل: إن ذلكَ لم يصحَّ عنه؛ فإن الأثرمَ حكَى: أن الهـيثمَ بنَ خارجةَ قال لأحـمدَ: كان عمـرُ بنُ عبدِ العـزيزِ يجلسُ في خطبته؟ قـال: فظهر منه إنكارٌ لذلك.

وروايةُ ابنِ سعدٍ له عن الواقديِّ، وهو لا يعتمدُ.

وقد رُوي عن ابنِ الزبيرِ ـ أيضًا ـ الجلوسُ في الخطبةِ الأولى ـ أيضًا.

خرَّجه القاضي إسماعيلُ.

واختلف العلماءُ في الخُطبةِ جالـسًا: فمنهم مَن قالَ: لا يصحُّ، وهو قولُ

---

(١) «الطبقات» (٥/ ٢٦٦).

الشافعيِّ، وحكى روايته عن مالكٍ وأحمدَ.

وقال ابنُ عبدِ البرِّ: أجمعُوا على أن الخطبةَ لا تكونُ إلا قائمًا لمن قدرَ على القيامِ.

ولعلَّه أراد إجماعـهم على استحبابِ ذلك؛ فإن الأكـثرينَ على أنها تصحُّ من الجـالسِ، مع القدرةِ علـى القيـامِ، مع الكراهةِ. وهو قـولُ أبي حنيفـةَ ومالكٍ، والمشهورُ عن أحمدَ، وعليه أصحابُه، وقولُ إسحاقَ ـ أيضًا[1].

* * *

[قال البخاري][2]: حدثنا معاويةُ بنُ عـمرٍو: ثنَا زائدةُ، عن حصينٍ، عن سالمِ بنِ أبي الجعدِ: ثنا جابرُ بنُ عـبدِ اللَّهِ، قالَ: بينمَا نحنُ نُصلِّي معَ النبيِّ ﷺ إذْ أقبلتْ عيرٌ تحملُ طعامًا، فالتـفتُوا إليهَا حتَّى ما بقِي مع النبيِّ ﷺ إلا اثنا عشرَ رجلاً، فنزلتْ هذه الآيةُ: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: ١١].

وخرجه في «التـفسير»[3]، عن حـفصِ بنِ عـمـرَ، قـال: ثنا خـالدُ بنُ عبدِ اللَّهِ: أبنَا حصينٌ، عن سالمِ بنِ أبي الجعـدِ ـ وعن أبي سفيانَ، عن جابرِ ابنِ عبدِ اللَّهِ ـ فذكرَه بمعناه.

وفي هذه الروايةِ: متابعةُ أبي سفيـانَ لسالمِ بنِ أبي الجعدِ على روايته عن جابرٍ، وإنما خرَّج لأبي سفيان متابعةً.

وقد خرَّجه مسلمٌ[4] بالوجهين ـ أيضًا.

---

(١) «فتح الباري» (٥/ ٤٧٢ ـ ٤٧٤).

(٢) البخاري (٢/ ١٦).

(٣) البخاري (٦/ ١٨٩).

(٤) (٣/ ١٠).

وفي أكثرِ رواياتِه: أن النبيَّ ﷺ كانَ يخطبُ يومَ الجمُعَة.

وفي روايةٍ له: أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يخطبُ قائمًا يومَ الجمُعَة - فذكرَه بمعناه.

وفي روايةٍ له: فلم يبقَ إلا اثنا عشرَ رجلاً، أنا فيهم.

وفي روايةٍ له - أيضًا -: فيهم أبو بكرٍ وعمرُ - رضي الله عنهما -.

وقولُه في الروايةِ التي خرَّجها البخاريُّ: «بيْنَا نحنُ نصلِّي معَ النبيِّ ﷺ» لم يرِدْ به أنهمُ انفضُّوا عنه في نفسِ الصلاةِ، إنما أرادَ - واللَّهُ أعلمُ - أنهم كانوا مجتمعينَ للصلاةِ، فانفضُّوا وتركُوه.

ويدلُّ عليه: حديثُ كعبِ بنِ عجرةَ(١)، لما قال: انظُروا إلى هذا الخبيثِ يخطبُ قاعِدًا، وقد قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿**انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا**﴾ [الجمعة: ١١].

وكذلك استدلالُ ابنِ مسعودٍ وخلقٍ من التابعينَ بالآيةِ على القيامِ في الخطبةِ.

وروى عليُّ بنُ عاصمٍ هذا الحديثَ عن حصينٍ، فقال فيه: فلم يبقَ معه إلا أربعونَ رجلاً، أنا فِيهِمْ.

خرَّجه الدارقطنيُّ والبيهقيُّ(٢).

وعليُّ بنُ عاصمٍ، ليس بالحافظِ، فلا يُقبلُ تفردُه بما يخالفُ الثقاتِ.

وقد استدلَّ البخاريُّ وخلقٌ من العلماءِ على أن الناسَ إذا نَفروا عن الإمامِ وهو يخطبُ للجمعَةِ، وصلَّى الجمُعَةَ بمن بَقي، جازَ ذلك، وصحَّت جمعتُهم.

---

(١) أخرجه: مسلم (٣/ ١٠)؛ وتقدّم قريبًا.

(٢) الدار قطني (٢/ ١٤)، البيهقي (٣/ ١٨٢).

وهذا يرجع إلى أصلٍ مختلَفٍ فيه، وهو: العددُ الذي تنعقدُ به الجمعةُ، وقد اختُلِفَ في ذلك:

فقالت طائفةٌ: لا تنعقدُ الجمعةُ بدونِ أربعينَ رجلاً، رُوي ذلك عن عُبيدِ اللَّهِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ عتبةَ وعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، وهو قولُ الشافعيِّ وأحمدَ - في المشهورِ عنه - وإسحاقَ، وروايةٌ عن مالكٍ.

وقالت طائفةٌ: تنعقد بخمسينَ، رُويَ عن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ - أيضًا - وهو روايةٌ عن أحمدَ.

وقالت طائفةٌ تنعقد بثلاثةٍ، منهم: ابنُ المباركِ والأوزاعيُّ والثوريُّ، وأبو ثورٍ، ورُوي عن أبي يوسفَ، وحُكيَ روايةً عن أحمدَ.

وقالت طائفةٌ: تنعقد بأربعةٍ، وهو قولُ أبي حنيفة وصاحبَيه - في المشهور عنهما - والأوزاعيِّ ومالكٍ والثوريِّ - في رواية عنهما - والليثِ بنِ سعدٍ.

وحُكي قولاً قديمًا للشافعيِّ، ومنهم مَن حكاه أنها تنعقدُ بثلاثةٍ.

وقالت طائفةٌ: يعتبر أربعونَ في الأمصارِ وثلاثةٌ في القرى، وحُكيَ روايةً عن أحمدَ، صحَّحَها بعضُ المتأخرينَ مِن أصحابهِ.

وقالت طائفةٌ: تنعقدُ بسبعةٍ، وحُكيَ عن عكرمةَ، وروايةً عن أحمدَ.

وقالت طائفةٌ: تنعقدُ باثني عشرَ رجلاً، حُكيَ عن ربيعةَ.

وقد قالَ الزهريُّ: إن مصعبَ بنَ عميرٍ أولُ ما جمَّعَ بهم بالمدينةِ كانوا اثني عشرَ رجلاً[1].

(١) «المراسيل» لأبي داود (٥٣).

وتعلَّق بعضُهَم لهذا الحديثِ بحديثِ جابرٍ المخرجِ في هذا البابِ.

وقال طائفةٌ: تنعقدُ الجمُعةُ بما تـنعقدُ به الجماعةُ، وهو رجلانِ، وهو قولُ الحسنِ بنِ صالحٍ وأبي ثورٍ - في روايةٍ - وداودَ، وحُكيَ عن مكحولٍ.

وتعلَّق القائلـونَ بالأربعينَ بحديثِ كعبِ بنِ مـالك، أنَّ أولَ جمُعـةٍ جمَّع بهم أسعدُ بنُ زرارةَ، كانوا أربعينَ، وقد سبقَ ذكرُه في أولِ «كتابِ الجمُعةِ».

وقد ذكرَ القاضي أبـو يعلَى وغيرُه وجهَ الاستدلالِ به: أنَّ الجـمُعةَ فُرضت بمكةَ، وكان بالمدينةِ من المسلمينَ أربعةٌ وأكثـرُ ممَّن هاجر إليها وممَّن أسلم بها، ثم لم يصلُّوا كذلك حتى كملَ العددُ أربعينَ، فدلَّ على أنها لا تجبُ على أقل منهم، ولم يُثبتْ أبو بكرٍ الخلالُ خلافَه عن أحمد في اشتراطِ الأربعينَ.

قال: وإنما يُحْكَى عن غيرِه، أنه قال بثلاثةٍ، وبأربعةٍ، وبسبعةٍ، ولم يذهبْ إلى شيءٍ من ذلك، وهذا الذي قاله الخلالُ هوَ الأظهرُ. واللَّهُ أعلمُ.

وفي عددِ الجـمُعـةِ أحاديثُ مـرفوعـةٌ، لا يصحُّ فيـها شيءٌ، فلا مـعنى لذكرِها.

وإذا تقرَّر هذا الأصلُ، فـمَن قالَ: إن الجمُعـةَ تنعقدُ باثني عشـرَ رجلاً أو بدونِهم، فلا إشكالَ عنده في معنى حديـثِ جابرٍ؛ فإنه يحملُه على أن النبيَّ ﷺ صلَّى الجمُعَةَ بمَن بقي معَه، وصحتْ جمعتُهم.

ومَن قال: لا تصحُّ الجمعةُ بدون أربعينَ، فإنه يشكلُ عليه حديثُ جابرٍ.

وقد أجـاب بعضُهم: بـأن الصحيحَ أنهم انفـضُّوا وهو في الخطبـةِ. قال: فيحتملُ أنهم رجعُـوا قبلَ الصلاةِ، أو رجعَ مَن تمَّ به الأربعونَ، فجمَّع بهم. قال: والظاهرُ أنهم انفضُّوا ابتداءً سـوى اثني عشرَ رجلاً، ثم رجعَ منهم تمامُ

أربعينَ، فـجـمَّع بـهم، وبذلك يُجـمعُ بين روايةِ علـيٍّ بنِ عـاصمٍ وسـائرِ الروايات.

وهذا الذي قـاله بعيـدٌ، وروايةُ عليٍّ بنِ عـاصمٍ غلطٌ محضٌ، لا يُلتـفتُ إليها.

وسلكَ طائفةٌ مسلكًا آخرَ، وظاهرُ كلامِ البخاريِّ هاهنا وتبويبه يدلُّ عليه، وهو: أن انفضاضهم عن النبيِّ ﷺ كان في نفسِ الصلاةِ، وكان قد افتتحَ بهم الجمُعةَ بالعـددِ المعتبرِ، ثم تفرَّقوا في أثناءِ الصلاةِ، فأتمَّ بهـم صلاةَ الجمُعةِ؛ فإنَّ الاستدامَةَ يغتفرُ فيها ما لا يُغتفرُ في الابتداءِ.

وهذا قولُ جماعةٍ منَ العلماءِ، منهم: أبو حنيفةَ وأصحابهُ والثوريُّ ومالكٌ والشافعيُّ - في القديم - وإسحاقُ، وهو وجهٌ لأصحابِنا.

وعلى هذا؛ فمنهم مَن اعتبرَ أن يبقى معـه واحدٌ فأكثرُ؛ لأن أصلَ الجماعةِ تنعقـدُ بذلك، ومنهم مَن شرطَ أن يبـقى معه اثنانِ، وهو قـولُ الثوريِّ وابن المباركِ، وحُكيَ قولاً للشافعيِّ.

وقال إسـحاقُ: إن بَقيَ مـعه اثنا عشـرَ رجلاً جَمَّع بهـم وإلا فلا؛ لظاهر حديثِ جابرٍ.

وهو وجهٌ لأصحابِنا.

ولأصحابِنا وجهٌ أخرُ: يتمُّها الإمامُ جمُعةً، ولو بقيَ وحدَه.

وهذا بعيدٌ جدًّا.

وفرَّق مالكٌ بينَ أن يكـون انفضاضُهم قبلَ تمامِ ركـعةٍ فلا تصحُّ جمُـعتُهم ويصلُّون ظهرًا، وبينَ أن يكونَ بعد تمامِ ركعةٍ فيتمُّونَها جمعةً.

ووافقَه المُزَنيُّ، وهو وجهٌ لأصحابِنا.

وقالَ أبو حنيفةَ: إنِ انفَضُّوا قبلَ أن يسجدَ في الأولى فلا جمُعةَ لهم، وإنْ كان قد سجَدَ فيها سجدةً أتمُّوها جمعةً.

وقال صاحباه: بل يتمونَها جمعةً بكلِّ حالٍ، ولو انفضُّوا عقبَ تكبيرةِ الإحرامِ.

ومذهبُ الشافعيِّ ـ في الجديد ـ وأحمدَ والحسنِ بنِ زيادٍ: أنه لا جمعة لهم، حتى يكملَ العددُ في مجموعِ الصلاةِ.

قال أبو بكرٍ عبدُ العزيزِ بنُ جعفرٍ: لم يختلفْ قولُ أحمدَ في ذلك.

وقد وجدتُ جوابًا آخرَ عن حديثِ جابرٍ، وهو: أن النبيَّ ﷺ كانَ قد صلَّى بأصحابه الجمُعةَ، ثم خطبَهم فانفضُّوا عنه في خطبتِه بعدَ صلاةِ الجمُعةِ، ثم إنَّ النبيَّ ﷺ بعدَ ذلكَ قدَّم خطبَة الجمُعَة على صلاتِها.

فخرج أبو داودَ في «مراسيلِه»[١] بإسنادِه، عن مقاتلِ بنِ حيانَ، قال: كان رسولُ اللَّهِ ﷺ يصلِّي الجمُعَةَ قبل الخطبةِ مثلَ العيدِ، حتَّى إذا كان يومُ جمُعةٍ والنبيُّ ﷺ يخطبُ، وقد صلَّى الجمعةَ، فدخلَ رجلٌ، فقالَ: إن دحيةَ بنَ خليفةَ قد قدمَ بتجارتِه ـ و كان دحيةُ إذا قدمَ تلقَّاه أهلُه بالدفافِ ـ، فخرجَ الناسُ، لم يظنُّوا إلا أنه ليس في تركِ الخطبة شيءٌ، فأنزل اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا﴾ [الجمعة:١١]، فقدَّمَ النبيُّ ﷺ الخطبةَ يومَ الجمُعةِ، وأخرَ الصلاةَ.

وهذا الجوابُ أحسنُ مما قبلَه.

---

(١) «المراسيل» (٦٢).

ومن ظنَّ بالصحابةِ أنهم تركوا صلاةَ الجمُعَةِ خلفَ النبيِّ ﷺ بعد دخولِهم معه فيهـا، ثم خرجُوا مِنَ المسجدِ حتى لم يبقَ معه إلا اثنا عـشرَ رجلاً، فقد أساءَ بهم الظنَّ، ولم يقعْ ذلك بحمدِ اللَّهِ تعالى[١] .

* * *

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾

[قال البخاري][٢]: بابُ قولِ اللَّـهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ﴾ الآية [الجمعة:١٠] :

حدثنَا سعيدُ بنُ أبي مريمَ: ثنَا أبُو غسَّانَ: حدَّثَني أبُو حازمٍ، عنْ سهلِ بنِ سعدٍ، قالَ: كـانتْ فينَا امرأةٌ تجعلُ على أربعاءَ فِي مزرعَـةٍ لهَا سلقًا، فكانتْ إذَا كانَ يومُ الجمُعةِ تنزعُ أصولَ السِّلقِ، فتجعلُهُ فِي قدرٍ، ثمَّ تجعلُ عليه قبضةً مِن شعـيرٍ تطحنُـها، فتكونُ أصـولُ السِّلقِ عرقَـهُ، وكنَّا ننصـرفُ مِن صلاةِ الجمـعةِ فنسلِّمُ عليهَـا، فتُقرِّبُ ذلكَ الطـعامَ إلينَا، فنلعقُـهُ، فكنَّا نتمنَّى يومَ الجمُعةِ لطعامِهَا ذلكَ.

حدثنـا عبدُ اللَّهِ بنُ مـسلمةَ: نَا ابنُ أبـي حازمٍ، عن أبيهِ، عنْ سـهلِ بنِ سعدٍ ـ بهذَا، وقالَ: مَا كُنَّا نقيلُ ولا نتغدَّى إلا بعدَ الجمعَةِ.

المقصودُ من هذا الحديثِ هاهنا: أن الصحابة لم يكونوا يجلسونَ بعدَ صلاةِ الجمعةِ في المسجدِ إلى العصـرِ لانتظارِ الصلاةِ ـ كما ورد في الحديث المرفوعِ أنه يعدلُ [عـمرةً][٣] وقد خرَّجـه البيهقيُّ بإسنادٍ ضعيفٍ، وقـد سبقَ ذكرُه ـ

(١) «فتح الباري» (٥/ ٥٢٣ ـ ٥٢٨). (٢) البخاري (٢/ ١٦).
(٣) مكانها في الأصـل طمس، والحديث عند البيـهقي (٣/ ٢٤١)، وكـذا عند ابن عدي (٦/ ٢٦٢) =

وإنما كانوا يخرُجون من المسجدِ ينتشرُون في الأرضِ، فمنهم مَن كان ينصرفُ لتجارةٍ، ومنهم مَن كان يزورُ أصحابَه وإخوانَه، وكانوا يجتمعُون على ضيافةِ هذه المرأةِ.

وقد ذهبَ بعضُهم إلى أنَّ الأمرَ بالانتشارِ بعدَ الصلاةِ للاستحبابِ.

كان عراكُ بنُ مالكٍ إذا خرجَ من المسجدِ يومَ الجمعةِ قالَ: اللهمَّ، أجبتُ دعوتَكَ، وقضيتُ فريضتَك، وانتشرتُ كما أمرتني، فارزقني من فضلكِ، وأنتَ خيرُ الرازقينَ.

خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ وغيرُه.

وهذا يدلُّ على أنه رأى قولَه تعالى: ﴿**فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ**﴾ [الجمعة: ١٠] أمرًا على ظاهرِه.

وخرجَ - أيضًا - بإسنادِه، عن عمرانَ بنِ قيسٍ، قال: من باعَ واشترَى يومَ الجمعةِ باركَ اللَّهُ له سبعينَ مرةً.

قال بعضُ رواتِه: وذلك بعدَ صلاةِ الجمُعَةِ؛ لهذه الآيةِ.

وذهبَ الأكثرونَ إلى أنه ليس بأمرٍ حقيقةً، وإنما هو إذنٌ وإباحةٌ، حيث كان بعدَ النهي عن البيعِ، فهوَ إطلاقٌ من محظورٍ، فيفيدُ الإباحةَ خاصةً.

وكذا قالَ عطاءٌ ومجاهدٌ والضحاكُ ومقاتلُ بنُ حيان وابنُ زيدٍ وغيرُهم.

وروى أبو بكرٍ عبدُ العزيزِ بنُ جعفرٍ في كتاب «الشافي» بإسنادٍ لا يصحُّ، عن أنسٍ - مرفوعًا - في قوله تعالى: ﴿**فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ**﴾، قال: «ليسَ

= بلفظ: «أن لكم في كل جمعة حجة وعمرة: الحجة الهجير إلى الجمعة، والعمرة انتظار العصر بعد الجمعة».

بطلبِ دنيا، ولكن عيادةُ مريضٍ، وتشييعُ جنازةٍ، وزيارةُ أخٍ في اللَّه» .

وفي حديث سهلٍ: دليلٌ على زيارةِ الرجالِ للمـرأةِ، وإجابتِهم لدعوتِها، وعلى استحبابِ الضيافةِ يومَ الجمُعَةِ خصوصًا لفقراءِ المسلمينَ، فإطعامُ الفقراءِ فيه حسنٌ مُرغَّبٌ فيه.

وفيـه: أن فرحَ الفقيـرِ بوجودِ ما يأكلُ وتمنِّيـه لذلك غيرُ قادحٍ في فـقرِه، منافٍ لصَبْرِه، بل ولا لرضاه.

وفي الحديث ألفاظٌ تُستغرب:

فـ «الأربعَاء»: جداولُ الماءِ في الأرض، واحدُها: «ربيعٌ».

وقولُه: «فيكون أصولُ السِّلقِ عرقَهُ» ـ وفي روايةٍ: «عراقَهُ» ـ، وهو بالعين المهملةِ والقافِ، والعِرقُ والعِرَاقُ: اللحمُ.

والمعنَى: أن أصولَ السِّلقِ تصـيرُ في هذا الطعامِ كـاللحمِ لَمَّا يطبخُ باللحمِ الأطعمةِ.

ورواه بعضُهم: «غرفـه» ـ بالغين المعجمة والفاء ـ، وفسـر بـ «المرقةِ» فإنها تُغرَفُ باليد.

وهذا بعيدٌ؛ فإن أصولَ السِّلقِ لا تصير بغرفٍ.

وقولُه: «فنلعقُه» أي: نلحسُه، وهذا يدلُّ على أنه كان قد ثَخنَ.

وقيل: الفـرقُ بين اللحسِ واللعْقِ: أن اللحسَ يختص بـالأصبَعِ، واللعقَ يكون بالأصبعِ وبآلةٍ يلعقُ بها كالمِلْعَقة[1] .

---

(١) «فتح الباري» (٥/ ٥٤٥ ـ ٥٤٧).

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾

وقد رُوي عن محمدِ بنِ كعبٍ القُرظيِّ أنَّه استنبطَ ما في هذا الحديثِ ـ أعني: حديثَ: «آيةُ المنافقِ ثلاثٌ» ـ من القرآنِ، فقالَ: مصداقُ ذلك في كتابِ اللَّهِ تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ إلى قولِه: ﴿اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١]، وقالَ تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾ إلى قولِه: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [التوبة: ٧٥ ـ ٧٧]، وقالَ تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ﴾ إلى قولِه: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ﴾ [الأحزاب: ٧٢ ـ ٧٣].

ورُوي عن ابن مسعودٍ نحوُ هذا الكلامِ، ثُمَّ تلا قولَه تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ الآية[1] [التوبة: ٧٧].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾

وقد وردَ في القرآنِ تشبيهُ المنافقينَ بالخُشُبِ المسندةِ فنظرهم فقالَ: ﴿وَإِذَا

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٤٦).

رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون: ٤].

فوصفَهُم بحسنِ الأجسامِ وتمامِهَا، وحسنِ المقامِ والفصاحةِ حتَّى وإعجاب به، ومع هذا فبواطِنُهم خرابٌ ومعانئُهم فارغةٌ. فلهذا مثَّلَهم بالخشبِ المسندةِ التي لا روحَ لها ولا إحساسَ وقلوبُهم مع هذا ضعيفةٌ في غايةِ الضعفِ.

﴿ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ﴾ [المنافقون: ٤].

وهكذَا كلُّ مريبٍ يُظْهِرُ خلافَ ما يضمرُ يخافُ من أدْنى شيءٍ ويتحسَّرُ عليهِ.

وأما المؤمنونَ فبعكسِ هذه الصفاتِ حالُهم مستضعفونَ في ظاهرِ أجسامِهم وكلامِهم لأنَّهم اشتغلُوا بعمارةِ قلوبهِم وأرواحِهم عن عمارةِ أجسادهم. وبواطنُهم قويةٌ ثابتةٌ عامرةٌ فيكابدونَ بها الأعمال الشاقة في طاعةِ اللَّهِ من الجهادِ والعباداتِ والعلومِ وغيرِها ممَّا لا يستطيعُ المنافقُ مكابدتَه لضعفِ قلبِهِ، لا يخافونَ من ظهورِ ما في قلوبهِم إلا خشيةَ الفتنةِ على نفوسِهم وإنَّ بواطِنَهُم خيرٌ من ظواهرِهم وسرَّهم أصلحُ من علانيتِهم.

قال سليمانُ التيميُّ: أتَانِي آتٍ فِي مَنَامِي فقالَ: يا سليمانُ إنَّ قُوتَ المؤمنِ في قَلْبِه». فالمؤمنُ لَمَّا اشتغلَ بعمارةِ قلبِهِ عن عمارةِ قالبِهِ استُضْعِفَ ظاهرُهُ وربما أُوذي، ولو علمَ الناسُ ما في قلبه لما فعلُوا ذلكَ.

قال عليٌّ لأصحابه: «كونوا في النَّاسِ كَالنَحْلِ في الطَّيْرِ يستضعفُهَا ولوْ علمُوا مَا في جَوفِهَا مَا فعلُوا». من قوةِ قلبِ المؤمنِ وثباتهِ على الإيمانِ.

فالإيمانُ الذي في قلبِهِ مَثَلُه كمثَلِ شجرةٍ طيبةٍ أصلُها ثابتٌ وفرعُها في السماءِ فيعيشُ على الإيمانِ ويموتُ ويُبعثُ عليه، وإنَّما الرياحُ وهي بلايا

الدُّنيـا تقلِّبُ جسْـمَهُ يمنةً ويسـرةً، وكـذلك قلبُـهُ لا تصِلُ إليـه الرياحُ لأنَّه محروسٌ بزبرِ الإيمانِ.

والكافرُ والمنافقُ والفاجـرُ بعكسِ ذلكَ: جسمُه قـويٌّ لا تقلبُّه رياحُ الدنيا، وأما قلبُـه فإنَّه ضعيفٌ تـلاعبُ به الأهواءُ المضلَّةُ فتقلبُـه يمنةً ويسرةً، فكذلكَ كانَ مَثَلُ قلبـهِ كشجرةٍ خبيثـةٍ اجتثتْ من فوقِ الأرضِ ما لهـا من قرارٍ، كما شجرةُ الحنضلِ ونحوهِ مما ليسَ له أصلٌ ثابتٌ في الأرضِ.

وقال عليٌّ ﷺ في صـفةِ الهمجِ الرعاعِ: «أتـباعُ كلِّ ناعقٍ يميلونَ مَعَ كلِّ ريحٍ لمْ يستضيئُوا بنورِ العلْم ولـم يلجأوا إلى رُكنٍ وثيقٍ»(١) .

بهذا يظهرُ الجمعُ بين حديثِ تمثيل المؤُمنِ بالنَّخلةِ.

فإن التمثيلَ بالزرعِ لجسدِهِ لتوالى البلاءِ عليه.

والتمثيلُ بالنخلةِ لإيمانهِ وعملِه وقولِهِ.

يدلُّ عليـه قـولُه عـزَّ وجلَّ: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

فجـعلها مثلاً لكـلمةِ الشهادتينِ التـي هي أصلُ الإسلامِ في قلبِ المؤمنِ، كثـبوتِ أصلِ النخلةِ في الأرضِ، وارتفاعِ عـملِ المؤمنِ إلى السماءِ كـارتفاعِ النخلةِ، وتجددِ عملِ المؤمنِ كإتيانِ النخلةِ أكلَها كلَّ حينٍ.

وقـد رُوي عن أبي هريرة ﷺ: **«إنَّ المؤمنَ الضَّعيفَ قلبُهُ كزرعٍ والقـويَّ مثلُهُ كمثلِ النَّخلةِ»**. وخـرجه الـبزار وغـيـره. ولأن ثمـرةَ الزرعِ ـ وهو السنبلُ ـ

(١) جزء من حديث كميل بن زياد مع علي بن أبي طالب ﷺ.
أخرجه: أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٧٩، ٨٠).

يستضعفُ ويطمعُ فيه كلُّ أحدٍ لقربِ تناولِه فيطمعُ الآدمي في الأكلِ منهُ، وفي قَطْعِه وسرقتِه، والبهائمُ في رعيِه، والطيرُ في الأكلِ منهُ.

وكذلك المؤمنُ يُستضعفُ فيعاديه عمومُ النَّاسِ لأنَّ الإسلامَ بدأَ غريبًا ويعودُ غريبًا كما بدأَ فطوبَى للغرباءِ.

فعمومُ الخلقِ يستضعفُه ويستغربُه ويؤذيه لغربتهِ بينَهم وأمَّا الكافرُ والمنافقُ أو الفاجرُ الذين كالصنوبرِ فإنَّه لا يُطمعُ فيه فلا الرياحُ تزعزعُ بدنَه ولا يُطمعُ في تناوله ثمرتهِ لامتناعِها[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾

فكثرةُ العيالِ مما يوجبُ تعلقَ القلبِ بهم، فيُشغلُ ذلك عن محبَّته وخدمته للَّه، وقد قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩].

قالَ أبو حازمٍ: كلُّ ما شغلَكَ عنِ اللَّهِ من مالٍ أو ولدٍ فهو عليك شؤم[2].

* * *

(١) «غاية النفع» (٢٥ ـ ٢٩).

(٢) «شرح حديث: إنَّ أغبط أوليائي» (ق ٣/ب).

سُورَةُ التَّغَابُنِ

قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾

قال اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن: ١١]. قالَ علقمةُ: هي المصيبةُ تصيبُ الرَّجلَ، فيعلمُ أنَّها من عندِ اللَّهِ، فيسلِّمُ لها ويَرضَى.

وخرَّج الترمذيُّ من حديثِ أنسٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ اللَّهَ إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رَضِي، فله الرِّضَا، ومن سَخِط فله السَّخَطُ**»(١)، وكانَ النبيُّ ﷺ يقولُ في دعائه: «**أسألُكَ الرِّضا بعدَ القضاء**»(٢).

وممَّا يدعو المؤمنَ إلى الرِّضا بالقضاء تحقيقُ إيمانِه بمعنى قولِ النبيِّ ﷺ: «**لا يقضي اللَّهُ للمؤمنِ قضاءً إلا كانَ خيرًا له: إن أصابتْهُ سرَّاءُ شكر، فكان خيرًا له، وإنْ أصابتْهُ ضرَّاءُ صبرَ، فكان خيرًا له، وليسَ ذلك إلا للمؤمنِ**»(٣).

وجاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فسألَه أن يُوصيه وصيَّةً جامعةً موجَزةً، فقال:

---

(١) أخرجه: الترمذي (٢٣٩٦)، وابن ماجه (٤٠٣١).

(٢) أخرجه: النسائي (٣/ ٥٤ ـ ٥٥)، وابن حبان (١٩٧١)، والحاكم (١/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥).

(٣) هذا الحديث على الصواب حديثان، أدمجهما المؤلف.

فقوله: «**لا يقضى اللَّه للمؤمن قضاءً إلا كان خيراً له**»

أخرجه: أحمد (٣/ ١١٧ ـ ١٨٤)، (٥/ ٢٤)، وأبو يعلى (٤٢١٧)، (٤٢١٨)، وأما الجزء الباقي: «**إن أصابته..**» فأخرجه مسلم (٨/ ٢٢٧).

«لا تتَّهِم اللَّهَ في قضائِه»[1] .

قالَ أبـو الدرداءِ: إنَّ اللَّه إذا قضى قـضاءً أحبَّ أن يُرضى به. وقـال ابنُ مسعودٍ: إنَّ اللَّهَ بقسطِه وعدلِه جعلَ الرَّوحَ والفرحَ في اليقينِ والرِّضَا، وجعلَ الهمَّ والحزنَ في الشكِّ والسَّخَطِ؛ فالرَّاضي لا يتمنَّى غيرَ ما هو عليه من شدَّةٍ ورخاءٍ. كذا رُوِيَ عَنْ عمر وابنِ مسعود وغيرِهما. وقال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: أصبحتُ ومالي سرورٌ إلا في مواضعِ القضاءِ والقدرِ.

فـمن وصلَ إلى هذه الدرجةِ، كـان عـيشُـه كلُّه في نعـيمٍ وسرورٍ، قـالَ تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل:٩٧] قال بعضُ السَّلَفِ: الحياةُ الطيبةُ: هي الرِّضـا والقناعةُ. وقال عبدُ الواحدِ بنُ زيدٍ: الرِّضا بابُ اللَّهِ الأعظمِ وجنةُ الدُّنيا ومستراحُ العابدين.

وأهلُ الرِّضا تارةً يلاحظون حـكمةَ المبتلي وخـيرتَه لعبـدِه في البلاءِ، وأنَّه غيـرُ متّهم في قـضائِه، وتارةً يُلاحظون ثوابَ الرِّضا بالقـضاءِ، فيُنسـيهم ألمَ المقضي به، وتارةً يُلاحظون عظمـةَ المبتلي وجلالَه وكمـالَه، فيستـغرقُونَ في مشاهدةِ ذلك، حتَّى لا يشعـرُونَ بالألم، وهذا يصلُ إليه خواص أهل المعرفة والمحبَّةِ، حتَّى ربَّمـا تلذَّذوا بما أصابَهم لملاحظتهم صدُوره عن حبيـبهم، كما قالَ بعضُهم: أوجدَهم في عـذابِه عذوبةً. وسُئلَ بعضُ التابعينَ عن حالِه في مرضِه، فقالَ: أحبُّه إليَّ.

وسُئلَ السريُّ: هل يجدُ المحبُّ ألمَ البلاءِ؟ فقالَ: لا. وقال بعضُهم:

---

(١) أخرجـه: أحمـد في «المسند» (٥/٣١٨ ـ ٣١٩) من حديث عـبادة، بلفظ: «**لا تتهم اللَّه تبارك وتعالى في شيء قضى به**».

عــــذابُه فـــــيكَ عَــــذْبُ وبُعــــدُهُ فـــــيكَ قُـــرْبُ
وأَنْتَ عِـندي كـــــرُوحي بـل أنْتَ مِـنهــــا أَحَـبُّ
حـــسْـــبي مِنَ الحُـبِّ أنّي لِـمَـــــا تُـحِبُّ أُحِـبُّ[1]

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٥١٢ ـ ٥١٥).

سُورَةُ الطَّلاقِ

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾

وأمَّا حدودُ اللَّهِ التي نَهى عَن اعتدائِهـا، فالمرادُ بها جُملةُ ما أَذِنَ في فعلِه، سـواءٌ كانَ على طريقِ الوجـوبِ، أو الندْبِ، أو الإباحـةِ، واعتـداؤُها: هو تجاوزُ ذلك إلى ارتكابِ ما نَهى عنه، كـما قالَ تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [الطلاق:١]، والمرادُ: مَنْ طلَّقَ على غيرِ ما أمرَ اللَّه به وأذنَ فيه، وقـال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٢٩]، والمراد: مَنْ أمـسَكَ بَعـدَ أَنْ طَلَّق بغـيـرِ معروفٍ، أو سرَّح بغـيرِ إحسانٍ، أو أخَذَ ممَّا أعطَى المرأةَ شيئًـا على غيرِ وجهِ الفديةِ التي أذِنَ اللَّهُ فيها.

وقالَ تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٣-١٤].

والمرادُ: مَنْ تجاوزَ مَا فرضَه اللَّهُ للورثةِ، ففضَّلَ وارثًا، وزاد على حقه، أو نقصَه منه، ولهذا قال النبيُّ ﷺ في خُطبتهِ في حجَّةِ الوَداعِ: «إنَّ اللَّه قد أعْطَى كلَّ ذي حَقٍّ حقَّه فلا وصيةَ لوارث»[1].

(١) راجع: «التاريخ الكبير» (٣/ ٢/ ٣٠٤)، و«السنن الكبرى» للبيهقي (٦/ ٢٦٤).

وروى النَّوَّاسُ بنُ سمعانَ عن النبيِّ ﷺ قالَ: «ضرب اللَّه مثلاً صراطًا مستقيمًا، وعلى جنبتيِّ الصِّراطِ سُورَانِ فيهما أبوابٌ مُفتحةٌ، وعلى الأبوابِ ستورٌ مرخاةٌ، وعلى بابِ الصِّراطِ داعٍ يقول: يا أيُّها النَّاسُ، ادخُلوا الصِّراطَ جميعًا، ولا تُعرِّجوا. وداعٍ يدعو من جوفِ الصِّراط، فإذا أراد أن يفتحَ شيئًا من تلك الأبوابِ، قال: وَيحكَ لا تفتحه، فإنَّك إنْ تفتحْه تلجْه، والصِّراطُ: الإسلامُ، والسُّورانِ: حدودُ اللَّه، والأبوابُ المفتَّحةُ: محارمُ اللَّه، وذلك الداعي على رأس الصِّراطِ: كتابُ اللَّهِ، والدَّاعي من فوقُ: واعظُ اللَّهِ في قلبِ كلِّ مسلمٍ» خرَّجه الإمامُ أحمدَ، وهذا لفظُه، والنسائيُّ في «تفسيرِه»، والترمذيُّ وحسَّنه(١).

فضربَ النبيُّ ﷺ مثلَ الإسلامِ في هذا الحديثِ بصراطٍ مستقيمٍ، وهو الطريقُ السَّهلُ، الواسعُ، الموصلُ سالكَه إلى مطلوبِه، وهو - مع هذا - مستقيمٌ، لا عوجَ فيه، فيقتضي ذلك قربَه وسهولَته، وعلى جنبتي الصِّراطِ يَمْنةً ويسرةً سُورَانِ، وهما حدودُ اللَّه، فكما أنَّ السُّورَ يمنع مَنْ كان داخله مِنْ تعدِّيه ومجاوزته، فكذلك الإسلامُ يمنع من دخلَه من الخُروج عن حدودِه ومجاوزتِها، وليس وراءَ ما حدَّ اللَّهُ من المأذونِ فيه إلا ما نَهى عنه، ولهذا مدحَ سبحانَه الحافظينَ لحدودِه، وذمَّ من لا يعرفُ حَدَّ الحلالِ من الحرامِ، كما قالَ تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ [التوبة:٩٧]. وقد تقدَّم حديثُ القرآنِ وأنَّه يقولُ لمن عَمِلَ به: حَفِظَ حدودي، ولمن لَمْ يعملْ به: تعدَّى حدودي.

والمرادُ: أنَّ مَنْ لم يُجاوز ما أُذِنَ له فيه إلى ما نُهِي عنه فقد حفِظَ حدودَ

---

(١) أخرجه: أحمد (٤/ ١٨٢ - ١٨٣)، والترمذي (٢٨٥٩)، والنسائي في «التفسير» من «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (١١٧١٤).

اللَّهِ، ومن تعدَّى ذلك فقد تعدَّى حدودَ اللَّهِ.

وقد تُطلقُ الحدودُ، ويُرادُ بها نفسُ المحارمِ، وحينئذٍ فيقال: لا تقربُوا حدودَ اللَّهِ، كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا﴾ [البقرة:١٨٧]، والمرادُ: النَّهيُ عن ارتكابِ ما نهى عنه في الآيةِ من محظوراتِ الصِّيامِ والاعتكافِ في المساجدِ، ومن هذا المعنى - وهو تسميةُ المحارمِ حدودًا - قولُ النبيِّ ﷺ: «**مَثَلُ القائمِ على حدودِ اللَّهِ والمُدْهِنِ فيها، كمثلِ قومٍ اقتسموا سفينةً**» الحديثُ المشهور[١]، وأراد بالقائم على حدود اللَّه: المنكرُ للمحرَّمات والناهي عنها.

وفي حديثِ ابنِ عباسٍ عن النبيِّ ﷺ، قال: «**إنِّي آخِذٌ بحُجزِكُم، أقولُ: اتَّقوا النَّارَ، اتَّقوا الحدودَ**» قالها ثلاثًا، خرَّجه الطبراني والبزار[٢]، وأراد بالحدودِ، محارمَ اللَّهِ ومعاصيهِ، ومنه قولُ الرجلِ الذي قالَ للنبيِّ ﷺ: إنِّي أصبتُ حدًّا فأَقِمْه عليَّ[٣].

وقد تُسمى العقوباتُ المقدرةُ الرادعةُ عن المحارمِ المغلظةُ حدودًا، كما يقالُ: حدُّ الزني وحدُّ السرقةِ وحدُّ شُربِ الخَمرِ، ومنه قولُ النبيِّ ﷺ لأسامةَ: «**أتشفعُ في حَدٍّ من حدودِ اللَّهِ؟**»[٤] يعني: في القَطعِ في السَّرقةِ. وهذا هو المعروفُ من اسم الحدودِ في اصطلاحِ الفقهاءِ.

---

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ١٨٢).

(٢) أخرج: الطبراني (١١/ ٣٣)، والبزار (٣٤٨٠) من طريق ليث بن أبي سليم، عن طاوس، عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه: البخاري (٨/ ٢٠٦)، ومسلم (٨/ ١٠٢).

(٤) أخرجه: البخاري (٤/ ٢١٣)، (٥/ ٢٩)، (٨/ ١٩٩)، (٨/ ٢٠١)، ومسلم (٥/ ١١٤).

وأمَّا قولُ النبيِّ ﷺ: «لايُجلدُ فوقَ عشرِ جلدات إلا في حَدٍّ من حُدود اللَّه»[1] فهذا قد اختلف الناسُ في معناه، فمنهم من فسَّر الحدودَ هاهنا بهذه الحدودِ المقدّرةِ، وقال: إنَّ التَّعزيرَ لا يُزادُ على عشرِ جلداتٍ، ولا يُزادُ عليها إلا في هذه الحدودِ المقدَّرةِ، ومنهم من فسَّر الحدودَ هاهنا بجنس محارمِ اللَّه، وقالَ: المرادُ أن مجاوزةَ العشرِ جلداتٍ لا يجوزُ إلا في ارتكابِ محرَّمٍ مِنْ محارمِ اللَّه، فأمَّا ضربُ التَّأديبِ على غيرِ محرَّمٍ، فلا يتجاوزُ به عشر جَلْداتٍ.

وقد حملَ بعضُهم قولَه ﷺ: «وحدَّ حُدُوداً فلا تعتدوها» على هذه العقوبات الزَّاجرةِ عَنِ المحرَّماتِ، وقال: المرادُ النَّهيُ عن تجاوُزِ هذه الحدود وتعديها عندَ إقامتِها على أهلِ الجرائمِ. ورجَّح ذلك بأنَّه لو كانَ المرادُ بالحدودِ الوقوف عند الأوامرِ والنَّواهي، لكانَ تكريرًا لقولِه: «فرضَ فرائضَ فلا تُضيِّعُوها، وحرَّم أشياءَ، فلا تنتهكُوها» وليس الأمرُ على ما قالَه، فإنَّ الوقوفَ عند الحُدودِ يقتضي أنَّه لا يخرجُ عمَّا أذِنَ فيه إلى ما نَهى عنه، وذلك أعمُّ من كونِ المأذونِ فيه فرضًا أو ندبًا أو مباحًا كما تقدَّم، وحينئذٍ فلا تكريرَ في الحديثِ، واللَّهُ أعلمُ[2].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾

قال قتادةُ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢] قالَ: مِن الكربِ عندَ الموتِ، ومن أفزاعِ يوم القيامةِ.

وقال عليُّ بنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما في هذه الآيةِ: ننجيه من كلِ

---

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ٢١٥)، ومسلم (٥/ ١٢٦).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ١٥٨ ـ ١٦٢).

كربٍ في الدُّنيا والآخرةِ.

وقال زيدُ بنُ أسلمَ في قولهِ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [الأحقاف:١٣] قال: يُبشرُ في ذلك عند موتهِ، وفي قبرهِ ويومَ البعثِ، فإنه لفي الجنةِ، وما ذهبت فرحةُ البشارةِ من قلبه.

وقال ثابتٌ البناني في هذه الآية: بلغنا أنَّ المؤمنَ حينَ يبعثُه اللَّهُ من قبرهِ يتلَقاه ملكَاه اللذانِ كانا معه في الدُّنيا فيقولان له: لا تخفْ ولا تحزنْ، فيؤمِّنُ اللَّهُ خوفَه ويقرُّ عينَه، فما من عظمةٍ تغشى الناسَ يومَ القيامةِ إلا وهي للمؤمنِ قرةُ عينٍ، لما هداه اللَّه ولما كانَ يعملُ في الدنيا. خرَّج ذلك كلَّه ابنُ أبي حاتمٍ وغيرهِ.

وأمَّا من لم يتعرف إلى اللَّهِ في الرخاءِ، فليسَ له أنْ يعرفَه في الشدةِ لا في الدَّنيا ولا في الآخِرة.

وشواهدُ هذا مشاهدةُ حالِهم في الدُّنيا، وحالهُم في الآخرةِ أشدُّ، وما لهم من وليٍّ ولا نصيرٍ(١) .

* * *

قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٢-٣]، وقد قرأَ النبيُّ ﷺ هذه الآيةَ على أبي ذَرٍّ، وقالَ له: «لو أنَّ الناسَ كُلَّهم أَخَذوا بها لكفتهم»(٢) .

يعني: لو أنَّهم لو حقَّقوا التَّقوى والتوكلَ لاكتفَوا بذلك في مصالحِ دينهِم

(١) «نور الاقتباس» (٤٩ ـ ٥٠).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٥/١٧٨ ـ ١٧٩)، وابن ماجه (٤٢٢٠).

ودنياهم.

قال بعضُ السلف: بِحَسبِكَ من التوسلِ إليه أن يعلَمَ من قلبك حُسنَ توكُّلك عليه، فكَمْ من عبدٍ من عباده قد فَوَّضَ إليه أمرَه فكفاه منه ما أهمَّه، ثمَّ قرأ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، وحقيقةُ التوكُّلِ: هو صدقُ اعتمادِ القلبِ على اللَّهِ عزَّ وجلَّ في استجلابِ المصالحِ، ودفعِ المضارِّ من أمور الدنيا والآخرةِ كُلِّها، وكلَةُ الأمورِ كُلِّها إليه، وتحقيقُ الإيمانِ بأنَّه لا يُعطي ولا يمنعُ ولا يضرُّ ولا ينفعُ سِواه.

قال سعيدُ بنُ جُبير: التوكُّلُ جماعُ الإيمانِ.

وقال وهبُ بنُ مُنَبِّه: الغايةُ القُصوى التوكلُ.

قالَ الحسنُ: إن توكُّلَ العبدِ على ربِّه: أنْ يعلمَ أنَّ اللَّه هو ثقتُه.

وفي حديثِ ابن عباسٍ عن النبيِّ ﷺ، قال: «**مَنْ سرَّه أن يكونَ أقوى النَّاسِ فليتوكل على اللَّه**»[(١)].

ورُوي عنه ﷺ أنَّه كانَ يقولُ في دعائه: «**اللهمَّ إنِّي أسألُك صدْقَ التوكُّل عليك**»[(٢)]، وأنّه كان يقولُ: «**اللهمَّ اجعلْني ممَّنْ توكَّلَ عليك فكفيْتَه**»[(٣)].

واعلمْ أنَّ تحقيقَ التوكلِ لا يُنافي السَّعي في الأسباب التي قَدَّر اللَّهُ سبحانَه المقدوراتِ بها، وجرت سُنَّتُه في خَلْقِه بذلك، فإنَّ اللَّهَ تعالى أمرَ بتعاطي الأسباب مع أمرِه بالتوكُّلِ، فالسَّعيُ في الأسبابِ بالجوارحِ طاعةٌ له، والتوكُّلُ بالقلبِ عليه إيمانٌ به، قال اللَّه تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾

---

(١) أخرجه ابن عدي (٧/ ١٠٦)، والبيهقي في «الزهد» (٩٨٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢١٨)، و«أخبار أصبهان» (٢/ ٣٦٣).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٢٢٤).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في «التوكل» (٤).

[النساء:٧١]، وقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ [الأنفال:٦٠]، وقال: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة:١٠].

قالَ سهلٌ التُّستري: مَنْ طعنَ في الحركةِ ـ يَعْني: في السَّعيِّ والكَسْبِ ـ فقد طعنَ في السُّنَّة، ومن طَعَنَ في التوكُّلِ فقد طَعَنَ في الإيمانِ.

فالتوكُّلُ حالُ النبيِّ ﷺ، والكَسْبُ سنَّتُه، فمن عَمِلَ على حالِه، فلا يَتْرُكَنَّ سنتَه[1].

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٥٤ ـ ٥٥٦).

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾

روى شريكٌ، عن عاصمٍ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ، قال: «**أُوقِدَ على النَّارِ ألفُ سنة حتَّى ابيضتْ، ثم أُوقِدَ عليها ألفُ سنة حتَّى احمرَّتْ، ثمَّ أُوقِد عليها ألفُ سنة حتَّى اسودَّتْ، فهي سوداءُ كالليلِ المُظْلِمِ**» خرَّجَه ابنُ ماجه والترمذيُّ(1) وقال: حديثُ أبي هريرةَ في هذا موقوف أصح، ولا أعلمُ أحدًا رفَعه غيرُ يحيى بنِ أبي كثيرٍ عن شريكٍ.

وروى معنٌ، عن مالكٍ، عن أبي سهيلٍ، عن أبي هريرةَ، عن النبي ﷺ قالَ: «**أترونَها حمراءَ كنارِكم هذه لهى أشدُّ سوادًا من القارِ**» خرَّجه البيهقيُّ(2)؛ وخرَّجه البزارُ ولفظُه: «**لهي أشدُّ من دخانِ نارِكُم هذه سبعينَ ضعفًا**» ورُوي موقوفًا على أبي هريرة وهو أصحُّ، قالَه الدارقطنيُّ.

وقالَ الجوزجَانيُّ: حدثنا عبيدُ اللَّه الحنفي، حدثنا فَرْقَدُ بنُ الحجاجِ، سمعتُ عقبةَ اليماني يقولُ: سمعتُ أبا هريرةَ يقول: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «**إنَّ نارَ جهنمَ أشدُّ حرًا من نارِكم هذه بتسعة وتسعينَ جزءًا، وهي سوداءُ مظلمةٌ لا ضوءَ لها، لهي أشدُّ سوادًا من القطرانِ**» غريبٌ جدًّا.

---

(1) أخرجه ابن ماجه (٤٣٢٠)، والترمذي(٢٥٩١).

(2) أخرجه البيهقي في «البعث والنشور» (٥٠١).

وروى الكُديميُّ عن سهلِ بنِ حمادٍ، عن مباركِ بنِ فضالةَ، عن ثابتٍ، عن أنسٍ قال: تلا رسولُ اللَّهِ ﷺ ﴿نَاراً وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم:٦] قال: «**أُوقِدَ عليها ألفُ عامٍ حتَّى ابيضتْ، ثمَّ أُوقدَ عليها ألفُ عامٍ حتَّى احمرَّتْ، ثم أُوقِدَ عليها ألفُ عامٍ حتَّى اسودَّت، فهي سوداءُ لا يضيءُ لهبُها**» خرَّجه البيهقيُّ[1]، والكُديميُّ ليس بحجةٍ.

وخرَّج البزار[2] من حديثِ زائدةَ بنِ أبي الرقادِ عن زيادٍ النميريِّ، عن أنسٍ، عن النبيِّ ﷺ أنَّه ذكر ناركم هذه فقالَ: «**إنها لجزءٌ من سبعينَ جزءًا من نارِ جهنم، وما وصلتْ إليكُم ـ حتَّى أحسبه قال ـ: حتَّى نُضحتْ بالماءِ مرتينِ لتضيءَ لكُم، ونارُ جهنمَ سوداءُ مظلمةٌ**».

وفي حديثِ عديٍّ بن عديٍّ عن عُمَرَ مرفوعًا ذكرَ الإيقادَ عليها ثلاثةَ آلافِ عامٍ أيضًا، وقال: «**فهي سوداءُ مظلمةٌ لا يضيءُ جمرُها ولا لهبُها**» خرَّجه ابنُ أبي الدُّنيا والطبرانيُّ، وقد سبقَ إسنادُه والكلامُ عليه.

ورَوى ابنُ أبي الدُّنيا من طريقِ الحكمِ بنِ ظهيرٍ ـ وهو ضعيفٌ ـ، عن عاصمٍ، عن زرٍ، عن عبدِ اللَّهِ ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ [التكوير:١٢] قال: سُعِّرَت ألفَ سنةٍ حتَّى ابيضت، ثمَّ ألفَ سنةٍ حتى احمرَّتْ، ثمَّ ألفَ سنةٍ حتى اسودَّت، فهي سوداءُ مظلمةٌ.

الحكمُ بنُ ظهيرٍ ضعيفٌ، والصحيحُ روايةُ عاصمٍ عن أبي هريرةَ كما سبق.

وروى الأعمشُ، عن أبي ظبيانَ، عن سلمانَ، قال: النَّارُ سوداءُ مظلمةٌ لا يُطفأُ جمرُها ولا يضيءُ لهبُها، ثمَّ قرأَ: ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال:٥٠]،

(١) في «البعث والنشور» (٥٠٦).
(٢) «كشف الأستار» (٣٤٨٩).

خرَّجه البيهقي من طريقِ أحمد بنِ عبدِ الجبارِ، عن أبي معاويةَ، عن الأعمشِ مرفوعًا وقال: رفْعُه ضعيفٌ.

وقالَ أبو جعفرٍ الرازيُّ، عن الربيعِ بنِ أنسٍ، عن أبي العاليةَ، عن أُبيِّ بنِ كعبٍ: ضَرَبَ اللَّهُ مثلاً للكافرينَ قال: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ [النور: ٤٠]، فهو يتقلبُ في خمسٍ من الظلمِ: كلامُه ظلمةٌ، وعملُه ظلمةٌ، ومدخلُه ظلمةٌ، ومخرجُه ظلمةٌ، ومسيرُه إلى الظلماتِ إلى النَّارِ.

وقال أيضًا أبو جعفرٍ، عن الربيعِ بنِ أنسٍ: إنَّ اللَّهَ جعلَ هذه النَّار ـ يعني نارَ الدُّنيا ـ نُوراً وضياءً ومتاعًا لأهلِ الأرضِ، وإنَّ النَّارَ الكُبْرى سوداءُ مظلمةٌ مثلُ القيرِ ـ نعوذُ باللَّهِ منها.

وعن الضحاكِ قالَ: جهنمُ سوداءُ وماؤُها أسودُ وشجرُها أسودُ وأهلُها سودٌ.

وقد دلَّ على سوادِ أهلِها قولُه تعالى: ﴿كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس: ٢٧]، وقولُه تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٠٦].

وقد ثبتَ في الأحاديثِ الصحيحةِ أنَّ مِن عصاةِ الموحدينَ مَنْ يحترقُ في النارِ حتَّى يصيرَ فحمًا(١).

* * *

وقدْ وصفَ اللَّهُ الملائكةَ الذينَ على النَّارِ بالغلظِ والشدة قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

---

(١) «التخويف من النار» (٦٨ ـ ٧٠).

وروى أبو نعيم بإسناده عن كعبٍ، قالَ: إنَّ الخازنَ من خُزَّانِ جهنمَ مسيرةُ ما بينَ مَنْكِبيه سنةٌ؛ وإنَّ معَ كل واحدٍ منهم لعمودٌ له شعبتانِ من حديدٍ. يدفعُ به الدفعة فيكبُّ به في النارِ سبعمائةَ ألفٍ.

وروى عبدُ اللَّهِ بنُ الإمامِ أحمدَ بإسنادهِ عن أبي عمرانَ الجونيِّ قالَ: بلغنا أنَّ الملَكَ مِن خزنةِ جهنمَ ما بين مَنكِبَيه مسيرةُ خريفٍ، فيضربُ الرجلَ من أهلِ النارِ الضربةَ فيتركُه طحينًا من لدن قرنهِ إلى قدمهِ.

وفي روايةٍ أخرى له قالَ: بلغنا أنَّ خزنةَ النارِ تسعةَ عشرَ ما بينَ مَنكِبي أحدِهم مسيرة خريفٍ؛ وليسَ في قلوبهِم رحمةٌ إنَّما خُلقُوا للعذابِ.

ورَوى الجُوزَجانيُّ بإسناده عن صالحٍ أبي الخليل قالَ: ليلةَ أُسري بالنبيِّ ﷺ بَعثَ اللَّهُ إليه نَفرًا مِن الرُّسلِ فتلقَّوه بالفرحِ والبشرِ. وفي ناحيةِ المسجدِ مصلٍ يصلي لا يلتفتُ إليه؛ فقام إليه، فقال النبي ﷺ: **«ما منكُم من أحد إلا قد رأيتُ منه البشرَ والفرحَ غيرَ صاحبِ هذه الزاوية»** فقالوا: أمَا إنَّه قد فرحَ بك كما فرحْنا. ولكنَّه خازنٌ من خزَّانِ جهنمَ.

ورَوى بكرُ بنُ خنيسٍ، عن عبدِ الملكِ الجسري، عن الحسنِ أنَّ جبريلَ قال للنبيِّ ﷺ: **«لو أنَّ خازنًا من خزَّانِ جهنمَ أشرفَ على أهلِ الأرضِ لماتَ أهلُ الأرضِ مما يرونَ من تشويه خلقهِ»** مرسلٌ ضعيفٌ[1].

* * *

(١) «التخويف من النار» (١٧٦).

سُورَةُ المُلْكِ

قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾

وقال الفضيلُ في قولهِ تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك:٢]، قال: أخلصُه وأصوبُه. وقالَ: إنَّ العملَ إذا كانَ خالصًا، ولم يكنْ صوابًا، لم يقبلْ، وإذا كانَ صوابًا، ولم يكنْ خالصًا، لم يقبلْ حتَّى يكونَ خالصًا صوابًا، قالَ: والخالصُ إذا كانَ للَّهِ عزَّ وجلَّ، والصَّوابُ إذا كانَ على السُّنَّةِ.

وقد دلَّ على هذا الَّذي قاله الفضيلُ قولُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠].

وقالَ بعضُ العارفينَ: إنَّما تفاضَلُوا بالإراداتِ، ولم يتفاضَلُوا بالصَّومِ والصَّلاةِ[١].

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٣٦).

سُورَةُ الْقَلَمِ

قوله تعالى: ﴿عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ﴾

وفي «الصحيحين»[1] عن حارثةَ بنِ وهبٍ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**ألا أخبركم بأهلِ الجنَّة: كلُّ ضعيفٍ متضعفٍ لو أقسمَ على اللَّهِ لأبرَّهُ، ألا أخبركم بأهلِ النَّارِ كلُّ عتلٍّ جواظٍ مستكبرٍ**».

و«العتلُّ» قال مجاهدٌ وعكرمةُ: هو القويُّ؛ وقالَ أبو رزينٍ: هو الصحيحُ، وقال عطاءُ بن يسارٍ عن وهبٍ الذماريِّ قالَ: تبكي السماءُ والأرضُ من رجلٍ أتمَّ اللَّهُ خلقَه وأرحبَ جوفَه وأعطاه معظمًا من الدُّنيا، ثم يكونُ ظلومًا غشُومًا للناسِ، فذلك العتلُّ الزنيمُ.

وقال إبراهيمُ النخعيُّ: العتلُّ: الفاجرُ، والزنيمُ: اللئيمُ في أخلاقِ الناسِ.

ورَوى شهرُ بنُ حوشبٍ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ غنمٍ، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ، قالَ: «**لا يدخلُ الجنةَ جواظٌ ولا جعظريٌّ ولا العتلُّ الزنيمُ**» فقال رجلٌ من المسلمين: ما الجواظُ الجعظريُّ، والعتلُّ الزنيمُ؟ فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**الجواظُ: الذي جمعَ ومنعَ، وأما الجعظريُّ: فالفظُّ الغليظُ، قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾** [آل عمران: ١٥٩]»[2].

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ١٩٨) (٨/ ٢٤)، ومسلم (٨/ ١٥٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٢٧) مختصراً.

وأما العتلُ الزنيمُ: فشديدُ الخلقِ رحيبُ الجوفِ مصححٌ أكولٌ شروبٌ، واجدٌ للطعامِ، ظلومٌ للأنامِ.

ورَوى معاويةُ بنُ صالحٍ، عن كثيرٍ بن الحارثِ عن القاسمِ مولى معاويةَ، قال: سُئلَ رسولُ اللَّه ﷺ عن العتلِّ الزنيمِ قال: «**هو الفاحشُ اللئيمُ**».

وقال معاويةُ: وحدثني عياضُ بنُ عبدِ اللَّه الفهريِّ عن موسى بنِ عقبةَ، عن النبيِّ ﷺ بذلك خرَّجه كلَّه ابنُ أبي حاتمٍ.

وأمَّا المستكبرُ فهو الذي يتعاطَى الكبرَ على الناسِ والتعاظمَ عليهم، وقد قال اللَّه تعالى: ﴿**أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ**﴾[1] [الزمر: ٦٠].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ﴾

ورُوي عن أبي سنانَ، عن سعيدِ بنِ جبيرٍ، عن ابنِ عباسٍ في قولهِ تعالى: ﴿**وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ**﴾ [القلم: ٤٣] قال: نزلتْ في صلاةِ الرجل يسمعُ الأذانَ فلا يجيبُ.

ورُوي عن سعيدِ بنِ جبيرٍ من قولِهِ[2] .[3]

* * *

(١) «التخويف من النار» (٢١٨ ـ ٢١٩).
(٢) أخرجه ابن جرير في «تفسيره» (٢٩/ ٤٣).
(٣) «فتح الباري» (٤/ ٩ـ ١٠).

سُورَةُ الْحَاقَّة

قوله تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾

فالأشقياءُ في البرزخِ في عيشٍ ضنكٍ، قال اللَّه تعالى: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا**﴾ [طه: ١٢٤].

وقد رُوي عن أبي سعيدٍ الخدري، مرفوعًا وموقوفًا: أن المعيشةَ الضنكَ عذابُ القبرِ. يضيقُ عليه قبرُهُ حتى تختلفَ أضلاعُه، ويسلَّط عليه تسعةٌ وتسعونَ تنينًا.

وأمَّا عيشُهم في الآخرة فأضيقُ وأضيقُ فأمَّا من طاب عيشُه بعدَ الموتِ فإنَّ طيبَ عيشِهِ لا ينقطع بلْ كلَّما جاء تزايدَ طيبُه. ولهذا سُئِلَ بعضُهم: منْ أنعمُ الناس؟ فقال: أجسامٌ في الترابِ قد أَمِنَت العذابَ فانتظرت الثوابَ فهذا في البرزخِ في عيشٍ طيبٍ

ورُئي معروف في المنام بعد موتِهِ وهو ينُشد:

موتُ التقيِّ حياةٌ لا نفادَ لها ... قد ماتَ قومٌ وهم في الناسِ أحياءُ

وكان إبراهيم بنُ أدهم ينشدُ:

ما أحدٌ أنعم من مُفرد ... في قبرِهِ أعمالُه تؤنسُه

منعَّم الجسمِ وفي روضةٍ ... زيَّنها اللَّهُ فهي مجلسُه

رئي بعضُ الصالحين في المنامِ بعدَ موتِهِ، فقال: نحنُ بحمدِ اللَّه في برزخٍ محمودٍ، نفترشُ فيه الريحانَ ونوسدُ فيه السندسَ والإستبرقَ إلى يوم النشور.

رئي بعضُ الموتى في المنامِ فسُئلَ عن حالِ الفُضيل بنِ عياضٍ، فقال: كُسي حلَّةً لا تقومُ لها الدنيا بحواشِيها.

فأمَّا عيشُ المتقين في الجنَّة فلا يحتاج أنْ يسألَ عن طيبِهِ ولذتِهِ، ويكْفِي في ذلك قولُهُ تعالى: ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ [الحاقة:٢١-٢٤].

ومعنى راضية: أي: عيشةٌ يحصلُ بها الرِّضى.

وفسَّر ابنُ عباسٍ: هنيئًا: بأنه لا موتَ فيها يُشيرُ إلى أنَّه لم يهنهم العيشُ إلا بعد الموتِ والخلودِ فيها.

قال يزيدُ الرقاشيُّ: أمِنَ أهلُ الجنةِ الموتَ فطابَ لهم العيشُ، وأمِنُوا من الأسقامِ فهنيئًا لهم في جوارِ اللَّه طولُ المقام.

وقال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الذاريات:١٥]، ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ إلى آخرها [القمر:٥٤، ٥٥] أدنى أهلِ الجنةِ منزلةً من ينظرُ في ملكِهِ وسُرُرِهِ وقصورِهِ مسيرةَ ألفي عام، يرى أقصاه كما يرى أدناه، وأعلاهُم من ينظرُ إلى وجهِ ربِّه بكرةً وعشيا.

وقال طائفةٌ من السلفِ: إن المؤمن له بابٌ في الجنة من دارِهِ إلى دارِ السلامِ، يدخلُ على ربِّه إذا شاء بلا إذنٍ.

قال أبو سليمان الدارانيُّ: وإذا أتاه رسولٌ من ربِّ العزَّة بالتحية واللُّطف فلا يصل إليه حتى يستأذنَ عليه يقول للحاجبِ: استأذنْ لي على وليِّ اللَّه، فإني لستُ أصلُ إليه. فيُعلم ذلك الحاجبُ حاجبًا آخر حتى يصلَ إليه فذلك

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكًا كَبِيراً﴾ [الإنسان: ٢٠].

فللَّه ذاك العيشُ بينَ خيامها ... وروضاتِها والثغرُ في الروضِ يبسمُ
وللَّه كَمْ من خيرةٍ إنْ تبَسَّمتْ ... أضاءَ لها نورٌ من الفجرِ أعظمُ
وللَّه واديها الذي هو موعدُ الـ ... ـمزيدِ لوفدِ الحبِّ لو كنتَ منهمُ
بذيالكَ الوادي يهيمُ صبابةً ... محبٌ يرى أنَّ الصبابةَ مغنمُ
وللَّهِ أفراح المحبين عندَما ... يخاطبُهم مولاهُم ويُسلِّمُ
وللَّه أبصارٌ ترى اللَّهَ جهرةً ... فلا الغيمُ يغشاها ولا هي تسأمُ
فيا نظرة أهدت إلى القلب نظرةً ... أمِنْ بعدها يسلو المحب المتيمُ
فروحَك قرِّبْ إن أردتَ وصالَهم ... فما غلبتْ نظرةٌ تشري بروحِكَ منهمُ
وأقدِمْ ولا تقنعْ بعيشٍ منغَّصٍ ... فما فاز باللَّذاتِ منْ ليس يُقدمُ
فصُمْ يومَك الأدْنى لعلَّك في غدٍ ... تفوزُ بعيدِ الفِطْرِ والنَّاسُ صوَّمُ
فيا بائعًا هذا ببخسٍ معجَّلٍ ... كأنكَ لا تدري بلى سوف تعلمُ
فإن كنتَ لا تدري فتلكَ مصيبةٌ ... وإن كنتَ تدري فالمصيبة أعظمُ[1]

* * *

الصائمون على طبقتين:

إحداهُما: من ترك طعامَه وشرابَهُ وشهوتَه للَّه تعالى، يرجو عنده عوض ذلك في الجنةِ، فهذا قد تاجرَ مع اللَّه وعامَلَهُ، واللَّهُ تعالى لا يُضيع أجْرَ من أحسن عملاً، ولا يخيبُ معه من عامَلَهُ، بل يربحُ عليه أعظمَ الرِّبْحِ، وقال رسولُ اللَّه ﷺ لرجلٍ: «**إنَّك لن تدعَ شيئًا اتِّقاءَ اللَّه إلا آتاك اللَّهُ خيرًا منه**» خرَّجه الإمامُ أحمدُ[2]، فهذا الصَّائمُ يُعطى في الجنة ما شاء اللَّه من طعامٍ وشرابٍ

(١) «شرح حديث لبيك اللهم لبيك» (٧٦ ـ ٨٢). (٢) «المسند» (٥/ ٧٩).

ونساءٍ، قال اللَّه تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤] قال مجاهدٌ وغيرُه: نزلَتْ في الصائمين.

قال يعقوبُ بن يوسُف الحنفيّ: بلغنا أن اللَّه تعالى يقولُ لأوليائه يوم القيامة: يا أوليائي طالما نظرْتُ إليكم في الدُّنيا وقد قلَصَتْ شفاهُكم عن الأشربة، وغارت أعينُكم وخفقتْ بطونُكم؛ كونوا اليوم في نعيمكم، وتعاطَوا الكأس فيما بينكم، و﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾.

وقال الحسنُ: تقولُ الحوراءُ لولي اللَّه وهو متكئ معها على نهر العَسَلِ تُعاطيه الكأسَ: إنَّ اللَّه نظرَ إليك في يومٍ صائفٍ بعيدِ ما بين الطرفين، وأنت في ظمأ هاجرةٍ من جهدِ العطشِ، فباهَى بك الملائكةَ، وقال: انظروا إلى عبدِي تركَ زوجتَه وشهوتَه ولذَّته وطعامَه وشرابَه من أجلي، رغبةً فيما عندي، اشْهَدُوا أنِّي قد غفرتُ لَهُ؛ فغفر لك يومئذٍ وزوجنيكَ.

وفي «الصحيحينِ»[(١)] عن النبيِّ ﷺ قال: **«إن في الجنة باباً يقال له: الرَّيان، يدخل منه الصائمون، لا يدخلُ منه غيرُهُم»** وفي روايةٍ: **«فإذا دخلوا أُغْلِق»**، وفي روايةٍ: **«من دخلَ منه شرِبَ، ومن شرِبَ لم يظْمَأْ أبدًا»**، وفي حديثِ عبد الرحمن ابن سَمُرَةَ، عن النبيِّ ﷺ في منامِه الطويل، قال: **«ورأيتُ رجلاً من أُمَّتي يَلْهَثُ عطشًا، كلَّما ورد حوْضًا مُنِعَ منه، فجاءَه صيامُ رمضان، فسقاه وأرواه»** خرَّجه الطبرانيُّ[(٢)] وغيرُهُ.

وروى ابن أبي الدنيا[(٣)] بإسنادٍ فيه ضعف، عن أنسٍ مرفوعًا: **«الصَّائمون**

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ٣٠٢) (٤/ ١٤٥)، ومسلم (٣/ ١٥٨)، من حديث سهل بن سعد ﷺ.

(٢) راجع «مجمع الزوائد» (٧/ ١٧٩).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب «الجوع» (١٣٩).

يُنفَحُ من أفواهِهم ريحُ المسْكِ، ويوضَعُ لهم مائدةٌ تحتَ العرشِ، يأكلونَ منها والناسُ في الحسابِ».

وعن أنسٍ موقوفًا: «إنَّ للَّه مائدةً لم ترَ مثلَها عينٌ، ولم تسمعْ أذُنٌ، ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ، لا يقعدُ عليها إلا الصَّائمون».

وعن بعضِ السلفِ، قال: بلغنا أنه يوضَعُ للصُّوَّامِ مائدةٌ يأكلون عليها والناسُ في الحسابِ، فيقولونَ: يا ربِّ، نحن نحاسبُ وهُم يأكُلون؟ فيقال: إنهم طالما صامُوا وأفطرْتُم، وقامُوا ونمتم.

رأى بعضُهم بشرَ بنِ الحارثِ في المنامِ وبين يديه مائدةٌ وهو يأكل، ويقال له: كُلْ يا من لم يأكُلْ، واشرَبْ يا من لم يشرَبْ.

كان بعضُ الصالحين قد صام حتى انحنى وانقطعَ صوتُه، فماتَ فَرُئي بعضُ أصحابه الصالحين في المنام فُسئِلَ عن حالِه، فضحِكَ وأنشد:

قد كُسي حُلَّةَ البهاءِ وطافَتْ ... بأباريقَ حولَهُ الخُدَّامُ
ثم حُلِّي وقيلَ يا قارئ ارْقى ... فلَعَمْري لقد براك الصِّيامُ[1]

* * *

(١) «لطائف المعارف» (٢٩٥ ـ ٢٩٧).

سُورَةُ الْجِنِّ

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾

[قال البخاريُّ]: حدثنا مُسدَّدٌ: ثنا أبو عوانةَ، عنْ أبي بِشْرٍ - هو: جعفرُ ابنُ أبي وحْشيَّةَ - عن سعيدِ بنِ جبيرٍ، عن ابنِ عباسٍ، قال: انطلقَ النبيُّ ﷺ في طائفةٍ من أصْحَابِه، عامدينَ إلى سُوقِ عُكاظٍ، وقدْ حِيلَ بيْنَ الشياطينِ وبيْنَ خبرِ السماءِ، وأُرْسلتْ عليهم الشُّهُبُ، فرجعَتِ الشياطينُ إلى قومِهِم، فقالوا: ما لكُمْ؟ فقالُوا: حِيلَ بيْنَنا وبيْنَ خبرِ السماء، وأُرْسلتْ علينا الشُّهُبُ، قالُوا: ما حالَ بيْنكُم وبينَ خبرِ السماءِ إلا شيءٌ حدَثَ، فاضربُوا مشارقَ الأرضِ ومغاربَهَا، فانظروا ما هذا الذي حالَ بينكُمْ وبيْنَ خبرِ السماءِ، فانصرفَ الذين توجَّهُوا نحوَ تِهامَةَ إلى النبيِّ ﷺ وهُوَ بنخْلَةَ - عامدينَ إلى سُوقِ عُكَاظٍ، وهو يُصلِّي بأصْحَابِهِ صلاةَ الفجرِ، فلمَّا سمِعُوا القرآن استمعُوا له، فقالوا: هذا - واللّهِ - الذي حالَ بينكم وبينَ خبرِ السماءِ، فهنالكَ حينَ رَجَعُوا إلى قومِهِمْ، فقالُوا: يا قوْمَنا إنا سمِعْنا قرآنا عجبًا، يهْدي إلى الرُّشْدِ فآمنّا به، ولن نُشْرِكَ بربِّنا أحدًا، فأنزل اللّهُ على نبيِّه: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾ [الجن:١]، وإنَّما أوحي إليه قولُ الجنِّ (١).

هذه القصةُ كانت في أول البعثةِ.

---

(١) البخاري (١/ ١٩٥ - ١٩٦).

وهذا الحديثُ ممَّا أرسله ابنُ عباسٍ، ولم يسمِّ من حدَّثه به من الصحابة، ويحتملُ أنه سمعه من النبيِّ ﷺ يحكي عن نفسِهِ، واللَّهُ أعلم.

وسوقُ عُكَاظٍ نحو نخلة، كان يجتمعُ فيه العربُ، ولهم فيه سوقٌ، فكان النبيُّ ﷺ يخرجُ إليهم، فيدعُوهم إلى اللَّه عزَّ وجلَّ، وقد كانتِ الشهبُ يُرمَى بها في الجاهلية، وإنَّما كثرتْ عندما بعث النبيُّ ﷺ.

وقد قال السُّديُّ وغيرُه: إنَّ السماءَ لم تحرسْ إلا حيث كان في الأرضِ نبيٌّ أو دينٌ للَّه ظاهرٌ.

والمقصودُ من هذا الحديثِ هاهنا: أن الشياطينَ لما مرُّوا بالنبيِّ ﷺ وهو يصلِّي بأصحابه صلاةَ الصبحِ، وقفُوا واستمعُوا القرآنَ. وهذا يدلُّ على أنَّه ﷺ كان يجهرُ بالقراءةِ في صلاةِ الصبح، فلمَّا سمعُوا عرفوا أنَّه هو الذي حال بينهم وبين خبرِ السماءِ.

وظاهرُ هذا السياقِ: يقتضي أن الشياطينَ آمنُوا بالقرآنِ، وكذا قال السُّديُّ وغيرُه.

وقد اختُلِفُ في الجنِّ والشياطينِ: هل هم جنسٌ واحدٌ، أو لا؟

فقالت طائفةٌ: الجنُّ كلُّهم ولدُ إبليسَ، كما أن الإنسَ كلَّهم ولدُ آدمَ.

رُوي هذا عن ابن عباسٍ من وجهٍ فيه نظرٌ. وأنّهم لا يدخلون الجنةَ.

ورُوي - أيضًا - عن الحسنِ، وأنَّه قال: مؤمنُهم وليٌّ للَّه وله الثوابُ ومشركُهُم شيطانٌ له العقابُ.

وقالت طائفةٌ: بلِ الشياطينُ ولدُ إبليسَ، وهم كفارٌ ولا يموتون إلا معَ

إبليسَ، والجنُّ ولد الجانِّ، وليسوا شياطينَ، وهم يموتون، وفيهم المؤمنُ والكافرُ.

رُوي هذا عن ابن عباسٍ بإسنادٍ فيه نظرٌ ـ أيضًا.

وقولُه: «وإنَّما أوحي إليه قولُ الجنّ» يشيرُ ابنُ عباسٍ إلى أنَّ النبيَّ ﷺ لم يرَ الجنَّ، ولا قرأ عليهم وإنما أُوحي إليه استماعُهم القرآنَ منه وإيمانهم به.

وقد رُويَ ذلك صريحًا عنه، أنه قال في أولِ هذا الحديثِ: ما قرأ رسولُ اللَّه ﷺ على الجنِّ ولا رآهم ـ ثم ذكر هذا الحديث[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾

[قال البخاريُّ] : «بابٌ هل يُقَالُ: مَسْجِدُ بني فُلانٍ»:

ابتدأ البخاريُّ ـ رحمه اللَّهُ ـ من هنا في ذكرِ المساجدِ وأحكامِها، فأولُ ما ذكرهُ من ذلك: أنه يجوزُ نسبةُ المساجدِ إلى القبائلِ، لعمارتِهم إيَّاها، أو مجاورتِهم لها.

وقد كرهَ ذلك بعضُ المتقدمين، وتعلَّق بقوله تعالى: **﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾** [الجن:١٨].

والصحيحُ: أن الآيةَ لم يُرَدْ بها ذلك، وأنَّها نزلتْ في النهي عن أنْ يُشرك باللَّه في المساجدِ في عبادتِهِ غيره، كما يفعلُ أهلُ الكتابِ في كنائسِهِم وبيعِهِم.

(١) «فتح الباري» (٤/ ٤٦٠ ـ ٤٦٢).

وقيلَ: إن المرادَ بالمسـاجدِ الأرضَ كلَّها، فإنهـا لهذه الأمة مسـاجدُ، وهي كلُّها للَّه، فنهى اللَّهُ أن يُسجدَ عليها لغيرِه.

وقيلَ: إن المرادَ بالمساجدِ أعضاء السجودِ نفسُهَا، وهي للَّه، فإنه هوَ خلقها وجمعَها وألَّفها، فَمِن شُكْرِهِ على هذه النعمةِ أن لا يسجدَ بها لغيرِه.

وقد قيلَ: إنَّ قوله تعالى ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨] يدلُّ ـ أيضًـا ـ على أنَّه لا يجوزُ إضـافةُ المسـاجدِ إلى مـخلوقٍ إضافـةَ ملكٍ واختصاصٍ.

وأخذ بعضُ أصحابنا من ذلك كالوزير ابنِ هبـيرةَ: أنه لا يجوزُ نسبةُ شيءٍ من المساجدِ إلى بعضِ طوائفِ المسلمينَ للاختصاصِ بها، فيقالُ: هذه المساجدُ للطائفةِ الفلانيةِ، وهذه للطائفةِ الأخرى، فإنَّها مشتركةٌ بينَ المسلمينَ عمومًا.

وذكرَ بعضُ المتـأخرينَ من أصـحابِنا في صـحةِ اشتـراطِ ذلك في وقفِـهَا وجهين.

وأما إضافةُ المسجدِ إلى ما يُعرِّفه به فليسَ بداخلٍ في ذلك، وقد كانَ النبيُّ ﷺ يضيف مسجدَهُ إلى نفـسِهِ، فيقولُ: «مسـجدي هذا» ويضيفُ مسجدَ قُباء إليه، ويضيفُ مسـجدَ بيتِ المقدسِ إلى إيلياءَ، وكلُّ هذه إضافـاتٌ للمساجدِ إلى غيرِ اللَّه لتعريفِ أسمائِها، وهذا غيرُ داخلٍ في النهي. واللَّه أعلم[1].

* * *

---

(١) «فتح الباري» (٢/ ٣٦٠ ـ ٣٦١).

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾

قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ [المزمل:١٢، ١٣]، وقال: ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلاَّ مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لا يُسْمِنُ وَلا يُغْنِي مِن جُوعٍ﴾ [الغاشية:٦، ٧].

روى الإمامُ أحمدُ بإسنادِهِ عن عكرمةَ عن ابنِ عباسٍ في قولِهِ: ﴿طَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ قال: شوكٌ يأخذُ بالحلقِ لا يدخلُ ولا يخرجُ[1].

ورَوى عليُّ بنُ أبي طلحة عن ابنِ عباسٍ في قوله: ﴿مِن ضَرِيعٍ﴾ قال: شجرٌ في جهنمَ. وقال مجاهدٌ: الضريعُ: الشبرقُ اليابسُ، ورَوى أيضًا عن عكرمة وقتادةَ، ورواهُ العوفيُّ عن ابنِ عباسٍ: الشبرقُ: نبتٌ ذو شوكٍ لاطئٍ بالأرضِ، فإذا هاجَ سمِّيَ ضريعًا، وقال قتادة: من أضرعِ الطعامِ وأبشعِه.

وعن سعيدِ بن جبيرٍ في قوله: ﴿مِن ضَرِيعٍ﴾ قال: من حجارةٍ، وعنه قال: الزقومُ. وعن أبي الحواريِّ قال: الضريع: السَّلى شوكُ النخلِ، وكيف يسمنُ شوكُ النخلِ.

وخرَّجَ الترمذيُّ[2] من حديث أبي الدرداءِ عن النبيِّ ﷺ: «يُلْقَى على أهل

---

(١) عزاه السيوطي في الدر المنثور (٦/ ٣٠٩) لعبد اللَّه بن أحمد في زوائد الزهد.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٥٨٦).

النار الجوعُ، فيعدلُ ما هم فيه من العذابِ فيستغيثونَ، فيُغاثونَ بطعامٍ من ضريعٍ لا يسمنُ ولا يُغني من جوعٍ، فيستغيثونَ بالطعامِ فيغاثونَ بطعامٍ ذي غصة، فيذكرون أنهم كانُوا يجيزون الغصص في الدنيا بالشرابِ، فيستغيثون بالشرابِ، فيدفعُ إليهم الحميمُ كلاليبِ الحديدِ، فإذا دنتْ من وجوهِهم شوتْ وجوهَهُم، فإذا وصلتْ بطونَهُم قطعتْ ما في بطونِهم..» وذكر بقيةَ الحديثِ. وقد رُوي الحديثُ موقوفًا على أبي الدرداءِ، وقيلَ: وقفهُ أشبهُ.

وقال سبحانه وتعالى: ﴿فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلا طَعَامٌ إِلاَّ مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لا يَأْكُلُهُ إِلاَّ الْخَاطِئُونَ﴾ [الحاقة:٣٥-٣٧] رَوى عليُّ بنُ أبي طلحة، عن ابن عباسٍ من غسلين، قال: هو صديدُ أهل النارِ، وقال شبيبُ بنُ بشرٍ عن عكرمةَ عن ابنِ عباسٍ: الغسلينُ: الدمُ والماءُ يسيلُ من لحومِهِم وهو طعامُهُم.

وعن مقاتلٍ، قال: إذا سالَ القيحُ والدمُ بادرُوا إلى أكلِهِ قبلَ أن تأكله النارُ.

وقال أبو جعفرٍ عن الربيعِ بنِ أنسٍ: الغسلينُ: شجرةٌ في جهنَّم، وعن الضحاك مثلُه.

ورَوى خصيف عن مجاهدٍ عن ابنِ عباسٍ، قال: ما أدري ما الغسلينُ، ولكنِّي أظنُّه الزقومُ.

وقال أبو هلال عن قتادةَ: هو طعامٌ من طعامِ جهنَّم من شرِّ طعامِهِم.

وقال يحيى بنُ سلامٍ: هو غسالةُ أجوافهِم.

قال ابنُ قتيبةَ: هو فِعلين من غسلتُ، كأنَّه الغسالةُ.

قال شريحُ بنُ عبيدٍ، قال كعبٌ: يقولُ لو دُلِّي من غسلينٍ دلوٌ واحدٌ في

مطلعِ الشمسِ لغلت منه جماجمُ قومٍ في مغربِها. خرَّجه أبو نعيم.

وقد رُوي أن بعضَ أهلِ النارِ يأكلُ لحمه، وسنذكـرُ الحديثَ في ذلك فيما بعد إن شاء اللَّه.

وقال اللَّهُ تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠]. وقد روي في حديث: «إن أكلةَ الرِّبا يبعثونَ تتأججُ أفواهُهُم نارًا» ثم تلا هذه الآية. خرَّجه ابنُ حبـانَ في «صحيحه»[١] من حديثِ أبي برزةَ عن النبيِّ ﷺ[٢].

* * *

(١) «صحيح ابن حبان» (٥٥٦٦).

(٢) «التخويف من النار» (١١٥ ـ ١١٦).

سُورَةُ المُدَّثِّرِ

قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾

قال مجاهدٌ والشَّعْبيُّ وقتادةُ والضحاكُ والنخعيُّ والزُّهريُّ وغيرُهم - في قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر:٤]: إن المعنى: طهِّرْ نفسَك من الذنوب.

وقال سعيدُ بنُ جبيرٍ: وقلبَك ونيَّتَك فطهِّرْ.

وقريبٌ منه: قولُ مَنْ قال: وعملَك فأصلِحْ، رُوي عن مجاهدٍ وأبي رَوْقٍ والضحاكِ.

وعن الحسنِ والقرظيِّ، قالا: خُلُقَك حسِّنْه.

فكنَّى بالشيابِ عن الأعمالِ، وهي الدِّينُ والتقوى والإيمانُ والإسلامُ وتطهيرُه: إصلاحُه وتخليصُه من المفسداتِ له، وبذلك تحصلُ طهارةُ النفسِ والقلبِ والنيةِ.

وبه يحصلُ حسنُ الخُلُقِ، لأنَّ الدِّينَ هو الطاعاتُ التي تصيرُ عادةً ودَيْدنًا وخُلُقًا، قالَ تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

وفسَّرهُ ابنُ عباسٍ بالدِّينِ(١).

* * *

(١) «فتح الباري» (١/ ٩٣).

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾

وقوله ﷺ: «إنَّ أمنَّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبو بكرٍ»(١) .

قال الخطابيُّ: معنى قوله: «أمَنّ»، أي: أبْذَل لنفسه وأعْطَى لماله، والمنُّ: العطاءُ من غير استثابة، ومنه قوله تعالى: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ﴾ [ص:٣٩] ، وقوله: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر:٦] أي: لا تُعْطِ لتأخذ أكثر مما أعْطَيتَ، ولم يرد به المِنَّة؛ فإنها تُفسدُ الصَّنيعة، ولا مِنَّةَ لأحدٍ على رسولِ اللَّه ﷺ بل له المِنَّةُ على جميع الأُمَّة(٢) .

* * *

قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾

وروى درَّاجٌ عن أبي الهيثم عن أبي سعيدٍ، عن النبيِّ ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ [المدثر:١٧] قال: «جبلٌ من نارٍ يكلفُ أن يصعدَهُ، فإذا وضَعَ يدَهُ عليه ذابتْ، وإذا رفَعَها عادتْ، وإذا وَضعَ رِجلَه عليه ذابتْ، فإذا رَفَعها عادتْ، يصعدُ سبعينَ خرِيفًا، ثم هَوى مثلَها كذلك» وهذا الحديثُ خرَّجه الإمامُ أحمدُ وغيرُه بمعناه، وخرَّجه الترمذيُّ مختصرًا ولفظُهُ: «الصَّعود جبلٌ من نارٍ يصعدُ فيه الكافرُ سبعينَ خرِيفًا ويهوِي فيه كذلك أبدًا» . وقال: حديثٌ غريبٌ لا نعرفُهُ مرفوعًا إلا من حديثِ ابن لهيعةَ عن درَّاجٍ، ولكنْ رواه أيضًا عمرُو بنُ الحارثِ عن درَّاجٍ به، خرَّجه من طريقه الحاكمُ، وقال: صحيحُ الإسنادِ(٣) .

---

(١) أخرجه البخاري (١/١٢٦) (٥/٧٣)، ومسلم (٧/١٠٨) من حديث أبي سعيد الخدري ﵁.

(٢) «فتح الباري» (٢/٥٥٢).

(٣) أخرجه أحمد (٣/٧٥)، والترمذي (٢٥٧٦ ـ ٣١٦٤ ـ ٣٣٢٦)، والحاكم (٤/٥٩٦).

ورَوى هذا الحديثَ أيضًا شريكٌ عن عمارٍ الدهنيِّ عن عطيةَ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ. خرَّجه من طريقِه البزارُ، وقال: تفردَ برفعه شريكٌ، ووقفه سفيانُ على عمارٍ ـ يعني أنه وقفَهُ على أبي سعيدٍ ـ ولم يرفعْهُ، ورواه أيضًا عمرُو بنُ قيسٍ الملائي عن عطيةَ عن أبي سعيدٍ الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ.

ورَوى سماك عن عكرمةَ، عن ابنِ عباسٍ في قولِه: ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ قالَ: جبلٌ في النارِ. ورويناهُ من طريقٍ فيه ضعفٌ عن الضحاكِ عن ابنِ عباسٍ، قال: هو جبلٌ من النارِ زلقٌ كلما صعدَهُ الفاجرُ زلقَ فهوى في النارِ.

وعن ابن السائبِ قال: هو جبلٌ من صخرةٍ ملساءَ في النارِ يكلفُ أن يصعدَها، حتى إذا بلغ أعلاها رُدَّ إلى أسفلِها، ثم يكلفُ أيضًا أن يصعدَها فذلك دأبُهُ أبدًا، ويجذبُ من أمامِهِ بسلاسلِ الحديدِ ويضربُ من خلفِه بمقامع الحديدِ فيصعدُهَا في أربعين سنةٍ.

وقال أيوبُ بنُ بشيرٍ عن شفي بن ماتعٍ قال: في جهنَّم جبلٌ يُدْعَى صعودًا يطلعُ فيه الكافرُ أربعينَ خريفًا قبل أن يرقاهُ. خرَّجه ابنُ أبي الدنيا[(١)].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾

وذكر صاحب سيرة الوزير[(٢)] قال: وسمعته يقول في قوله تعالى: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر:٢٥] قال: العرب لا تعرفُ «ذا» ولا «هذا» إلا في الإشارةِ إلى الحاضرِ. وإنما أشارَ هذا القائلُ إلى هذا المسموع. فمن قال: إنَ المسموعَ

(١) «التخويف من النار» (١١٨، ١١٩).

(٢) هو: يحيى بن محمد بن هبيرة.

عبارةٌ عن القديم، فقد قال: هذا قول البشر.

قال مصنفُ سيرته: كثيرًا ما سمعتُه يقول: ليس مذهبُ أحمد إلا الاتباع فقط. فما قال السلفُ قاله: وما سكتُوا عنه سكتَ عنه؛ فإنَّه كان يكثُر أن يقالَ: لفظي بالقرآن مخلوق، أو غير مخلوق لأنه لم يقل. وكان يقولُ في آيات الصفات: تمرّ كما جاءت.

قال: وسمعته يقول: تفكرتُ في أخبار الصفاتِ، فرأيتُ الصحابةَ والتابعين سكتُوا عن تفسيرها، مع قوةِ علمهم، فنظرتُ السببَ في سكوتِهم، فإذا هو قوةُ الهيبة للموصوف، ولأنَّ تفسيرَها لا يتأتَّى إلا بضربِ الأمثالِ للَّه، وقد قال عز وجل: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤] قال: وكان يقول: لا يفسرُ على الحقيقة ولا على المجازِ؛ لأنَّ حملها على الحقيقة تشبيهٌ، وعلى المجاز بدعةٌ (١).

* * *

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾

قال اللَّه تعالى: ﴿**عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ [المدثر:٣٠، ٣١].

قال آدمُ بنُ أبي إياسٍ: حدثنا حمادُ بنُ سلمةَ، حدثنا الأزرقُ بنُ قيسٍ عن رجلٍ من بني تميمٍ: قال: كنَّا عندَ أبي العوامِ فقرأ هذه الآية: ﴿**عَلَيْهَا تِسْعَةَ**

(١) «طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٧٣).

عَشَرَ﴾ فقال: ما تقولون، تسعةَ عشرَ ملكًا؟ قلنا: بل تسعةَ عشرَ ألفًا، فقال: ومن أينَ علمتَ ذلك؟ قال: قلتُ لأنَّ اللَّه تعالى يقولُ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال أبو العوام: صدقتَ وبيدِ كلِّ واحدٍ منهم مرزبةٌ من حديدٍ لها شعبتانِ، فيضربُ بها الضربةَ يهوي بها سبعينَ ألفًا، بين منكبي كلِّ ملكٍ منهم مسيرةَ كذا وكذا، فعلى قولِ أبي العوامِ ومن وافقه، الفتنةُ للكفارِ، إنما جاء من ذكرِ العددِ الموهمِ للقلةِ حيثُ لم يذكرِ المميزَ له.

ويشبه هذا ما رَوى سعيدُ بن بشيرٍ عن قتادةَ في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر:٣١] أي: من كثرتِهم(١).

وكذلك ما رَوى إبراهيمُ بنُ الحكمِ بنِ أبانٍ وفيه ضعفٌ عن أبيه، عن عكرمةَ قالَ: إنَّ أولَ من وصلَ من أهلِ النار إلى النارِ وجدُوا على البابِ أربع مائة ألفٍ من خزنةِ جهنَّم مسودةٌ وجوهُهُم كالحةٌ أنيابُهم، قد نزعَ اللَّه الرحمة من قلوبِهِم، ليسَ في قلبِ واحدٍ منهم مثقالُ ذرةٍ من الرحمة لو طارَ الطائرُ من منكبِ أحدِهِم لطارَ شهرينِ قبلَ أن يبلغَ المنكبَ الآخرَ، ثم يجدونَ على البابِ التسعةَ عشرَ، عرضُ صدرِ أحدِهِم سبعونَ خريفًا، ثم يهوونَ من بابٍ إلى بابٍ خمسمائةَ سنةٍ حتى يأتُوا البابَ؛ ثم يجدونَ على كلِّ بابٍ منها من الخزنةِ مثلَ ما وجدُوا على البابِ الأولِ، حتى ينتهُوا إلى آخرِها. خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ.

وهذا يدلُّ على أنَّ على كلِّ بابٍ من أبوابِ جهنَّم تسعةَ عشرَ خزانًا هُمْ رؤساءُ الخزنةِ، تحتَ يدِ كلِّ واحدٍ منهم أربعمائة ألفٍ.

---

(١) أخرجه: ابن جرير في «تفسيره» (٢٩/ ١٦٢).

والمشهورُ بين السلفِ والخلفِ أنَّ الفتنةَ إنما جاءتْ من حيثُ ذكرِ عددِ الملائكةِ الذين اغترَّ الكفارُ بقلَّتِهِم، وظنُّوا أنهم يمكنُهُم مدافعتُهُم وممانعتُهُم، ولم يعلمُوا أن كلَّ واحدٍ من الملائكةَ لا يمكنُ البشرُ كلُّهم مقاومتُهُ، ولهذا قال اللَّه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ﴾ [المدثر:٣١].

قال السُّديُّ: إن رجلاً من قريشٍ يقالُ له أبو الأشدينِ قال: يا معشرَ قريشٍ لا يهولنَّكم التسعةَ عشرَ أنا أدفعُ عنكُم بمنكبي الأيمنِ عشرةً من الملائكة، وبمنكبي الأيسر التسعة الباقية ثم تمرونَ إلى الجنةِ ـ يقولُه مستهزئًا ـ فقال اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلاَّ مَلائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وقال قتادة: ذُكرَ لنا أنَّ أبا جهلٍ حينَ نزلتْ هذه الآيةُ قال: يا معشرَ قريش أما يستطيعُ كلُّ عشرةٍ منكم أن يأخذوا واحدًا من خزنة النارِ وأنتم الدُّهم، وصاحبُكم هذا يزعُمُ أنهم تسعة عشر[1].

وقال قتادةُ: في التوراةِ والإنجيلِ: إنَّ خزنةَ النارِ تسعة عشر[2].

ورَوى حريثٌ عن الشعبيِّ عن البراءِ في قولِ اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ قال: إن رهطًا من يهود سألُوا رجلاً من أصحابِ النبيِّ ﷺ عن خزنة جهنم، فقال: اللَّهُ ورسولُهُ أعلمُ. فجاء رجلٌ فأخبرَ النبيَّ ﷺ فأنزلَ اللَّه عليه ساعةَ إذن ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ فأخبر أصحابَهُ، وقال: ادعُهُم، فجاءوا فسألوه عن خزنة جهنم، فأهوَى بأصابع كفيه مرتين وأمسكَ الإبهامَ في الثانيةِ،

(١) أخرجه: ابن جرير في «التفسير» (٢٩/ ١٦٠).
(٢) أخرجه: ابن جرير في «التفسير» (٢٩/ ١٦١).

خرَّجه ابن أبي حاتمٍ، وحريثٌ هو ابنُ أبي مطرٍ ضعيف.

وخرَّجه الترمذيُّ(١) من طريقِ مجالدٍ عن الشعبيِّ، عن جابرٍ قال: قال ناسٌ من اليهودِ لناسٍ من أصحابِ النبيِّ ﷺ: هل يعلمُ نبيُّكم عددَ خزنة جهنَّم؟ قالُوا: لا ندري حتى نسأله، فجاء رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقالَ: يا محمدُ غُلِبَ أصحابُك اليومَ، قال: «**وما غُلِبُوا؟**» قال: سألتْهُم يهودُ: هل يعلم نبيُّكم عددَ خزنةِ جهنَّم، قال: «**فما قالوا؟**» قالوا: لا ندري حتى نسأل نبيَّنا ﷺ، فقال: «**يغلبُ قومٌ سئِلوا عمَّا لا يعلمون، فقالُوا: لا نعلمُ حتى نسأل نبيَّنا، لكنَّهم قد سألُوا نبيَّهم، فقالُوا: أرِنَا اللَّهَ جهرةً، عليَّ بأعداءِ اللَّه**» فلما جاءوا قالُوا: يا أبا القاسمِ كم عددُ خزنةِ جهنم؟ قال: «**هكذا أو هكذا**» في مرةٍ عشرةٌ وفي مرة تسعةٌ، قالُوا: نعم، وهذا أصحُّ من حديثِ حريثٍ المتقدمِ، قاله البيهقيُّ وغيرُه.

وخرَّج الإمامُ أحمدُ(٢) من حديثِ عبدِ اللَّهِ بنِ عمرِو بنِ العاصِ قال: خرجَ علينا رسولُ اللَّهُ ﷺ يومًا كالمودِّع، فقالَ: «**أنا محمدٌ النبيُّ الأُمّيُّ**» ثلاثًا، «**ولا نبيَّ بعدي، أوتيتُ فواتحَ الكَلِمِ وخواتِمه وجوامعَهُ، وعلمتُ كم خزنةُ النارِ وحملةُ العرشِ**» وذكر بقيةَ الحديث(٣) .

* * *

قال اللَّه تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾

---

(١) «الجامع» (٣٣٢٧).

(٢) «المسند» (٢/ ١٧٢ ـ ٢١٢).

(٣) «التخويف من النار» (١٧٣ ـ ١٧٥).

[التحريم:٦]، وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١]، وقال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل:١٤]، وقال تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر:١٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلاَّ ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ۝٣١ كَلاَّ وَالْقَمَرِ ۝٣٢ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ۝٣٤ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ [المدثر:٣١-٣٧].

قال الحسنُ في قوله تعالى: ﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ﴾ قال: «واللَّـهِ ما أنذرَ العبادَ بشيءٍ قط أدْهَى منها» خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ[١].

وقال قتادةُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ﴾ يعْني النار[١].

وروى سماكُ بنُ حربٍ، قال: سمعتُ النعمانَ بنَ بشيرٍ يخطبُ، يقولُ: سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقولُ: «أنذرتُكم النارَ أنذرتُكُمُ النارَ» حتى لو أنَّ رجلاً كان بالسوقِ لسمعَهُ من مقامِي هذا. حتَّى وقعتْ خميصةٌ كانتْ على عاتقِهِ عند رجليه، خرَّجه الإمامُ أحمدُ[٢]، وفي روايةٍ له أيضًا عن النعمان بن بشيرٍ، قالَ: قال رسول اللَّه ﷺ: «أنذرتُكُمُ النارَ، أنذرتُكُمُ النارَ» حتَّى لو كانَ رجلٌ في أقْصى السوقِ لسمعَهُ وسمعَ أهلُ السوقِ صوتَهُ، وهو على المنبرِ، وفي روايةٍ له عن سِماكٍ، قال: سمعتُ النعمانَ يخطبُ وعليه خميصةٌ، فقال: لقد سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقولُ: «أنذرتُكُمُ النارَ، أنذرتُكُمُ النارَ» فلو أنَّ

---

(١) أخرجه: ابن جرير في «التفسير» (٢٩/١٦٣).

(٢) «المسند» (٤/٢٦٨ ـ ٢٧٢).

رجلاً بموضعِ كذا وكذا، سمعَ صوتَهُ.

وعن عديِّ بنِ حاتمٍ قال: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «**اتَّقوا النارَ**» قال: وأشاحَ، ثم قال: «**اتَّقوا النارَ**»، ثم أعرَض وأشاحَ ثلاثًا حتَّى ظننَّا أنه ينظرُ إليها، ثم قالَ: «**اتَّقوا النارَ ولو بشقِّ تمرةٍ، فمن لم يجدْ فبكلمةٍ طيبةٍ**» خرَّجاه في «الصحيحين»[(١)].

وخرَّج البيهقيُّ[(٢)] بإسنادٍ فيه جهالةٌ عن أنسٍ عن النبيِّ ﷺ: «**يا معشر المسلمينَ ارغبُوا فيما رغَّبكم اللَّه فيه، واحذرُوا، وخافُوا ما خوَّفَكُمُ اللَّهُ به من عذابِهِ وعقابِهِ، ومن جهنَّم، فإنَّها لو كانتْ قطرةٌ من الجنةِ معكُم في دنياكم التي أنتم فيها حلَّتها لكُم، ولو كانتْ قطرةٌ من النارِ معكُم في دنياكم التي أنتُم فيها خبثَتْها عليكُم**».

وفي «الصحيحين»[(٣)] عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**إنَّما مثلي ومثلُ أُمَّتي كمثلِ رجلٍ استوقدَ نارًا، فجعلتِ الدوابُّ والفراشُ يقعْنَ فيها، فأنا آخذُ بحَجُزِكُم عن النارِ وأنتُم تقتحمون فيها**» وفي روايةٍ لمسلمٍ: «**مثلي كمثلِ رجلٍ استوقدَ نارًا، فلمَّا أضاءتْ ما حولَها جعلَ الفراشُ وهذه الدوابُّ التي في النارِ يقعنَ فيها، وجعلَ يحجزُهُنَّ ويغلبْنَهُ فيقتحمنَ فيها**» قال: «**فذلكم مَثَلي ومثلُكُم أنا آخذ بِحجُزِكُم عن النارِ، هلمَّ عن النارِ، هلمَّ عن النارِ، فتغلبُوني وتقتحمون فيها**».

وفي روايةٍ للإمامِ أحمدَ[(٤)]: «**مَثَلي ومثلُكُم أيتها الأُمَّةُ كمثلِ رجلٍ أوقدَ نارًا بليلٍ، فأقبلتْ إليها هذه الفراشُ والذبابُ التي تغشى النارَ، فجعل يذبُّها ويغلبْنَهُ إلا تقحُّمًا في**

---

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ١٣٩ ـ ١٤٤)، (٩/ ١٦٢ ـ ١٨١)، ومسلم (٣/ ٨٦).

(٢) «البعث والنشور» (٥٤٦).

(٣) أخرجه: البخاري (٤/ ١٩٨)، (٨/ ١٢٦)، ومسلم (٧/ ٦٣).

(٤) «المسند» (٢/ ٥٣٩).

النارِ، وأنا آخذ بحجزِكُم أدعوكُم إلى الجنةِ وتغلبوني إلا تقحُّمًا في النارِ» .

وخرَّج الإمامُ أحمدُ[1] أيضًا من حديثِ ابنِ مسعودٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ اللَّه لم يحرمْ حرمةً إلا وقدْ علمَ أنَّه سيطلعها منكم مطلعٌ، ألا وإنّي آخذُ بحجزِكُم أن تهافَتُوا في النارِ، كتهافُتِ الفراشِ والذبابِ» .

وخرَّج البزارُ والطبرانيُّ[2] من حديثِ ابنِ عباسٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «أنا آخذ بحجزِكُم فاتقوا النارَ، اتقوا النارَ، اتقوا الحدودَ، فإذا متُّ تركْتُكُم، وأنا فرطُكُم على الحوضِ، فمن وردَ فقد أفْلَحَ، فيؤْتَى بأقوامٍ ويؤخذُ بهم ذاتَ الشمالِ، فأقولُ: ربِّ أمتي، فيقولُ: إنَّهم لم يزالوا بعدَكَ يرتدونَ على أعقابِهِم» وفي روايةٍ للبزارِ، قال: «وأنا آخذ بحجزِكُم أقولُ: إيَّاكُم وجهنم، إيَّاكُم والحدودَ، إيَّاكُم وجهنم، إيَّاكُم والحدودَ، إيَّاكُم وجهنمَ، إيَّاكم والحدودَ» وذكر بقية الحديثِ .

وفي «صحيح مسلمٍ»[3] عن أبي هريرة قال: لما نزلتْ هذه الآية: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، دعا رسولُ اللَّه ﷺ قريشًا فاجتمَعُوا، فعمَّ وخصَّ، فقال: «يا بني كعبِ بنِ لؤيٍّ، أنقذوا أنفسكم من النارِ، يا بني مُرَّةَ بنِ كعبٍ، أنقذُوا أنفسكُم من النارِ، يا بني عبدَ شمسٍ، أنقذُوا أنفسكم من النارِ، يا بني عبدِ منافٍ، أنقذُوا أنفسكم من النارِ، يا بني هاشمٍ، أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب، أنقذوا أنفسكم من النارِ، يا فاطمةُ بنتُ محمدٍ، أنقذِي نفسك من النارِ، فإنِّي لا أملك لكم من اللَّه شيئًا» .

وخرَّج الطبرانيُّ[4] وغيرُه من طريقِ يعلى بن الأشدقِ عن كليبِ بنِ حزنٍ،

(١) «المسند» (١/ ٤٢٤).

(٢) أخرجه: البزار (١٥٣٦ ـ كشف)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٣٣)، (١٢/ ٧١).

(٣) (١/ ١٣٣).

(٤) «المعجم الكبير» (١٩/ ٢٠٠).

قال: سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقولُ: «**اطلبُوا الجنةَ جهدَكُم واهربُوا من النارِ جهدكم، فإن الجنة لا ينامُ طالبها، وإنَّ النارَ لا ينامُ هاربها، وإن الآخرةَ اليوم محفوفةٌ بالمكارِه، وإن الدنيا محفوفةٌ باللذاتِ والشهواتِ، فلا تلهينَّكُم عن الآخرةِ**» ويُروى هذا الحديثُ أيضًا عن يعلى بن الأشدقِ عن عبدِ اللَّهِ بن جرادٍ عن النبيِّ ﷺ، وأحاديثُ يعلى بنِ الأشدقِ باطلةٌ منكرةٌ.

وخرَّج الترمذيُّ(١) من حديثِ يحيى بن عبدِ اللَّه عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**ما رأيتُ مثلَ النارِ نامَ هاربُها، ولا مثلَ الجنةِ نامَ طالبُها**» ويحيى هذا ضعفُوه، وخرَّجه ابنُ مردويه من وجهٍ آخرَ أجودَ من هذا إلى أبي هريرة، وخرَّج الطبرانيُّ(٢) نحوَه بإسنادٍ فيه نظرٌ عن أنس عن النبيِّ ﷺ، وخرَّجه ابنُ عديٍّ بإسنادٍ ضعيفٍ عن عمرَ ؓ عن النبيِّ ﷺ.

وقال يوسفُ بنُ عطيةَ عن المعلى بنِ زيادٍ: كانَ هرمُ بنُ حيانَ يخرجُ في بعضِ الليالي وينادي بأعلَى صوتِهِ: عجبتُ من الجنةِ كيفَ نامَ طالبُها، وعجبتُ منَ النارِ كيف نامَ هاربُها، ثم يقول: ﴿**أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ**﴾ الآية [الأعراف:٩٧].

وقال أبو الجوزاءِ: لو وليتُ من أمرِ الناس شيئًا اتخذتُ منارًا على الطريقِ وأقمتُ عليها رجالاً ينادون في الناس: النارَ النارَ. خرَّجه الإمامُ أحمدُ في كتابِ «الزهدِ».

وخرَّج ابنُه عبدُ اللَّه في هذا الكتابِ أيضًا بإسنادِهِ عن مالكِ بنِ دينارٍ، قال: لو وجدتُ أعوانًا لناديتُ في منارِ البصرةِ بالليلِ: النارَ النارَ، ثم قال:

(١) «الجامع» (٢٦٠١).

(٢) «المعجم الأوسط» (١٦٣٨).

لو وجـدتُ أعوانًا لناديتُ فـي منارِ البصـرةِ بالليلِ: النارَ النارَ، ثم قـال: لو وجدتُ أعوانًا لفرقتهم في منارِ الدنيا: يا أيها الناس النارَ النارَ[١] .

* * *

سُورَةُ الْقِيَامَةِ

قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾

[قال البخاريُّ]: حدثنا الحُميديُّ: ثنا مروانُ بن مُعاويةَ: ثنا إسماعيلُ عن قيْسٍ، عن جريرِ بنِ عبدِ اللَّه، قال: كُنَّا عندَ النبيِّ ﷺ، فنظرَ إلى القمرِ ليْلَةَ البدْرِ، فقالَ: «**إنَّكم سترونَ ربَّكُم كما ترونَ هذا القمرَ، لا تُضامُون في رُؤيتِه، فإن استطعْتُم أن لا تُغْلبُوا على صلاةٍ قبْلَ طُلُوعِ الشمسِ وقبْلَ غُرُوبِها فافْعَلُوا**» ثمَّ قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾»[2] [ق:٣٩].

قال إسْماعيلُ: افعَلُوا لا تفُوتنَّكُمْ.

هذا الحديثُ نصٌّ في ثبوتِ رؤيةِ المؤمنينَ لربِّهم في الآخرةِ، كما دلَّ على ذلك قولهُ تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣]، ومفهومُ قولِه في حقِّ الكفارِ: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥].

قال الشافعيُّ وغيرُهُ: لما حَجَبَ أعداءَهُ في السخطِ دلَّ على أنَّ أولياءَه يرونَهُ في الرِّضا.

والأحاديثُ في ذلكَ كثيرةٌ جداً، وقد ذَكَرَ البخاريُّ بعضَها في أواخرِ «الصحيحِ» في «كتاب التوحيد» وقد أجمعَ على ذلكَ السَّلفُ الصالحُ مِنَ الصَّحابةِ والتَّابعينَ لهُم بإحسانٍ من الأئمةِ وأتباعِهِم.

---

(١) «التخويف من النار» (٨ ـ ١١).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ١٤٥ ـ ١٥٠)، (٦/ ١٧٣)، (٩/ ١٥٦)، ومسلم (٢/ ١١٣).

وإنَّما خالفَ فيه طوائفُ أهلِ البدعِ، من الجهميّةِ والمعتزلةِ ونحوِهم ممَّن يردُّ النصوصَ الصحيحةَ لخيالاتٍ فاسدةٍ وشبهاتٍ باطلةٍ، يخيلُهَا لهمُ الشيطانُ، فيُسرعونَ إلى قَبولِهَا منه، ويوهمُهُم أنَّ هذه النصوصَ الصحيحةَ تستلزمُ باطلاً، ويسميه تشْبيهًا أو تجْسيمًا، فينفرونَ منه، كمَا خيَّل إلى المشركينَ قبلَهُم أنَّ عبادة الأوثانِ ونحوِها تعظيمٌ لجنابِ الربِّ، وأنَّه لا يُتوصلُ إليه من غيرِ وسائط تعبدُ فتقربُ إليه زُلفًا، وأنَّ ذلك أبلغُ في التعظيم والاحترام، وقاسَهُ لهم على ملوكِ بني آدم، فاستجابُوا لذلكَ، وقبلوه منه.

وإنَّما بعثَ اللَّهُ الرسلَ وأنزلَ الكتبَ لإبطالِ ذلكَ كلِّه، فمن اتَّبع ما جاءوا به فقد اهتدى، ومنْ أعْرَضَ عنه أو عن شيءٍ منه واعترضَ فقد ضلَّ.

وقولهُ: «**كما ترونْ هذا القمرَ**» شبَّه الرؤية بالرؤيةِ، لا المرئي بالمرئي سبحانه وتعالى.

وإنَّما شبَّه الرؤية برؤية البدر، لمعنيين:

أحدهما: أنَّ رؤية القمرِ ليلةَ البدرِ لا يُشك فيه ولا يُمترى.

والثاني: يتسوى فيه جميعُ الناسُ من غير مشقةٍ.

وقد ظنَّ المريسيُّ ونحوُهُ ممَّن ضلَّ وافترى على اللَّه، أنَّ هذا الحديثَ يُرد؛ لما يتضمن من التشبيهِ، فضلَّ وأضلَّ. واتفقَ السلفُ الصالحُ على تلَقِّي هذا الحديث بالقبولِ والتصديقِ.

قال يزيدُ بنُ هارونَ: من كذَّب بهذا الحديثِ فهو بريءٌ من اللَّهِ ورسولِهِ.

وقال وكيعٌ: مَنْ ردَّ هذا الحديثَ فاحسبوه من الجهميَّةِ.

وكان حسينٌ الجعفيُّ إذا حدَّث بهذا الحديثِ، قال: زَعَمَ المريسي.

وقوله: «**لا تضامُّون في رؤيته**».

قال الخطابيُّ: «**لا تضامون**» رُوي على وجهين:

مفتوحةُ التاءِ، مشددةُ الميم، وأصلُهُ تتضامُّون، أي لا يضامُّ بعضكم بعضًا، أي: لا يُزَاحم، من الضمِّ، كما يفعلُ الناسُ في طلبِ الشيء الخفي، يريدُ أنكم ترونَ ربَّكم وكلٌّ واحدٍ منكم وادِعٌ في مكانِهِ، لا ينزاعه فيه أحدٌ.

والآخرُ: مخفف: تُضامُون ـ بضمِّ التاءِ ـ من الضَّيمِ، أي: لا يضيم بعضُكم بعضًا فيه. انتهي.

وذكرَ ابنُ السمعاني فيه روايةً ثالثةً: «**تُضامُّون**» ـ بضم التاء، وتشديدِ الميمِ ـ قال: ومعناها: لا تزاحِمُون، قال: ورواية ـ فتح التاء مع تشديدِ الميم ـ معناها: لا تزاحَمُون.

وقولُه: «**كما ترونْ القمرَ ليلةَ البدر**» يقوِّي المعنى الأولَ.

وجاء التصريحُ به في روايةِ أبي رَزينِ العُقيليِّ، أنّه قال: يا رسولَ اللَّه، أكلُّنا يَرَى ربَّه يومَ القيامةِ؟ وما آيةُ ذلك في خَلْقِهِ؟ قال رسولُ اللَّه ﷺ: «**أليس كُلُّكُمْ ينظرُ إلى القمرِ مُخْلِيًا به؟**» قال: بلى، قال: «**فاللَّه أعظمُ**».

خرَّجه الإمامُ أحمدُ[1].

وخرَّجه ابنُه عبدُ اللَّه في «المسندِ»[2] بسياق مطولٍ جدا، وفيه ذكرُ البعث والنشورِ، وفيه: «**فتخرجُون من الأصواء ـ أو: من مصَارِعكم ـ فتنظرُون إليْه وينظرُ**

---

(١) «المسند» (٤/ ١١ ـ ١٢).

(٢) (٤/ ١٣ ـ ١٤).

إليكُمْ» قال: قلتُ: يـا رسول اللَّه، وكيفَ ونحنُ مِـلْءِ الأرضِ وهُو شخْصٌ واحدٌ، يـنظُرُ إلينا وننْظُرُ إليه؟ قـال: **«أُنبـئك بمثلِ ذلك، الشَّـمْسُ والقَمَـرُ، آيةٌ منْهُ صغـيرةٌ، ترونَهُمـا ويريانكُمْ ساعةً واحـدةً، لا تضارون في رُؤيَتهـما، ولعَمْـرُ إلهكَ لَهُوَ أقْدرُ عـلى أنْ يراكُمْ وترَوْنَهُ من أنْ ترَوْنَهُمـا ويرَيانكُم، لا تُضـارُّون في رؤيتهـِما»** وذكر بقيةَ الحديثِ.

وخرَّجه الحاكم[1] وقال: صحيحُ الإسناد.

وقد ذكَرَ أبو عـبد اللَّه بنُ منده إجماعَ أهلِ العلمِ على قـبولِ هذا الحديثِ ونَقَلَ عبَّاسٌ الدُّوري، عن ابن معينٍ أنَّه استحسنه.

وقولُهُ: **«فإنِ اسْـتَطَعْتُمْ أن لا تُغْـلبُوا على صـلاةٍ قبْلَ طلُوعِ الشَّـمْسِ وقبْلَ غُـرُوبِها فافْـعَلُوا»** أمـر بالمحافظةِ على هاتينِ الـصلاتين، وهمـا صلاةُ الفـجرِ وصـلاةُ العصرِ، وفيه إشارةٌ إلى عظمِ قـدْرِ هاتينِ الصلاتينِ، وأنَّهُما أشرفُ الصلوات الخـمسِ، ولهذا قِـيل في كلٍّ منهُـمـا: إنّها الصـلاةُ الوسطى، والقـولُ بأنَّ الوسْطَى غيرُهما لا تعويلَ عليه.

وقد قـيل في مناسبـةِ الأمرِ بالمحـافظةِ على هاتينِ الصـلاتينِ عقـيبَ ذكرِ الرؤيةِ: أنَّ أعلى ما في الجنَّـةِ رؤيةُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، وأشرفُ مـا في الدنيا من الأعمالِ هاتان الصلاتانِ، فالمحافظةُ عليـهما يُرجى بها دخولُ الجنةِ ورؤيةُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ فيها.

كما في الحديثِ الآخرِ: **«منْ صلَّى البـردين دخل الجنَّة»**[2] وسيأتي - إن شاء

(١) «المستدرك» (٤/ ٥٦٠ - ٥٦٤).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ١٥٠)، ومسلم (٢/ ١١٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

اللَّه في موضعه.

وقيل: هو إشارةٌ إلى أنَّ دخولَ الجنةِ إنَّما يحصلُ بالصلاةِ مع الإيمانِ، فمنْ لا يصلِّي فليس بمسلمٍ، ولا يدخلُ الجنةَ بلْ هو من أهل النارِ، ولهذا قال أهلُ النارِ لما قيل لهم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾[المدثر:٤٢، ٤٣].

ويظهرُ وجهٌ آخرُ في ذلك، وهو: أنّ أعْلى أهلِ الجنَّة منزلةً من ينظر في وجْهِ اللَّه عزَّ وجلَّ مرتين بُكْرة وعشيا، وعُمومُ أهلِ الجنَّة يرونه في كلِّ جمعةٍ في يومِ المزيدِ، والمحافظةُ على هاتينِ الصلاتينِ على ميقاتِهِمَا ووضوئِهِمَا وخشوعِهِما وآدابهما يُرجى به أن يوجبَ النظرَ إلى اللَّه عزَّ وجلَّ في الجنَّة في هذين الوقتين.

ويدلُّ على هذا ما رَوى ثُوَيْرُ بنُ أبي فاختَة، قال: سمعتُ ابنَ عمرَ، يقول: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «إنَّ أدْنى أهلِ الجنَّة منزلةً لمنْ ينظرُ إلى جنانه وأزْواجه ونعيمه وخدَمِه وسرُرِه مسيرةَ ألفَ سنة، وأكْرَمُهُمْ على اللَّه منْ ينظرُ إلى وجهه غدْوَةً وعشيا» ثم قرأ رسولُ اللَّه ﷺ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة:٢٢، ٢٣].

خرَّجه الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ(١) وهذا لفظُهُ. وخرَّجه - أيضًا - موقوفًا على ابنِ عمرَ. وثُوَيْرٌ فيه ضعفٌ.

وقد رُوي هذا المعنى من حديث أبي بَرْزة الأسلميِّ مرفوعًا - أيضًا - وفي إسنادِهِ ضعفٌ.

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ١٣ - ٦٤)، والترمذي (٢٥٥٣ - ٣٣٣٠).

وقاله غيرُ واحدٍ من السَّلفِ منهم: عبْدُ اللَّه بنُ بُريدةَ وغيرُه.

فالمحافظةُ على هاتين الصلاتينِ تكون سببًا لرؤية اللَّه في الجنَّةِ في مثلِ هذين الوقتين، كما أنَّ المحافظةَ على الجمعةِ سببٌ لرؤية اللَّه في يومِ المزيدِ في الجنَّة، كما قال ابن مسعود: سارعُوا إلى الجُمُعات؛ فإنَّ اللَّه يبرز لأهل الجنَّة في كلِّ جمعةٍ على كثيبٍ من كافورٍ أبيضَ، فيكونونَ منه في الدنو على قدْرِ تبكيرهم إلى الجُمُعاتِ.

ورُوي عنه مرفُوعًا. خرَّجه ابنُ ماجه(١).

ورُوي عن ابن عباسٍ، قال: مَنْ دخلَ الجنةَ من أهلِ القُرى لم ينظر إلى وجْه اللَّه؛ لأنَّهم لا يشهدون الجمعة.

خرَّجه أبو بكر عبد العزيز بن جعفر في كتاب «الشافي» بإسنادٍ ضعيفٍ.

وقد رُوي من حديثِ أنس مرفوعًا: «**إنَّ النساءَ يريْنَ ربّهنَّ في الجنّة في يومي العيدين**».

والمعنى في ذلك: أنّهنَّ كُنَّ يشاركن الرجال في شهود العيدين دون الجُمع.

وقولُه: ثم قرأ: ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوب**﴾ [ق:٣٩] الظاهر أن القارئَ لذلكَ هو النبيُّ ﷺ.

وقد رُوي من روايةِ زيدِ بن أبي أُنَيْسة، عن إسماعيلَ بنِ أبي خالدٍ، عن جريرٍ البَجَلي في هذا الحديثِ: ثم قرأ رسولُ اللَّه ﷺ: ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ**﴾ الآية.

(١) «السنن» (١٠٩٤).

خرَّجه أبو إسماعيلَ الأنصاريُّ في كتابِ «الفاروقِ».

وقد قيل: إنَّ هذه الكلمةَ مدرجةٌ، وإنَّما القارئُ هو جرير بن عبد اللَّه البَجَلي.

وقد خرَّجه مسلمٌ في «صحيحِه»[1] عن أبي خيثمة، عن مروان بن معاوية فذكر الحديثَ، وقال في آخره: ثم قرأ جريرٌ: ﴿**وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ**﴾ [ق:٣٩].

وكذا رواه عَمْرُو بنُ زُرارة وغيرُه، عن مروان بن معاويةَ، وأدرجه عنه آخرون[2].

* * *

(٢٨٦) (٢/١١٣ ـ ١١٤).

(٢) «فتح الباري» (٣/١٣٣ ـ ١٣٨).

سُورَةُ الإِنْسَانِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾

قال اللّـه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ [الإنسان: ٢] وفسَّر طائفـةٌ من السَّلَفِ أمشـاجَ النُّطفـةِ بالعُروقِ التي فـيهـا. قال ابنُ مـسعـودٍ: أمشاجُها: عروقُها[١].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً﴾

قال اللَّه تـعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلاسِلَ وَأَغْلالاً وَسَعِيراً﴾ [الإنسان: ٤]، وقال اللَّهُ تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [سبأ: ٣٣]، وقال اللَّهُ تعالى: ﴿إِذِ الأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢]، وقال: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيماً﴾ [المزمل: ١٢، ١٣].

وقـرأ ابنُ عبـاسٍ: «وَالسـلاسِلَ يُسْـحَبُـونَ» بنصب السـلاسل وفـتحِ ياءِ يسحـبونَ، قـال: هو أشدُّ عليهم هـم يسحبـون السلاسلَ. خـرَّجه ابنُ أبي حاتم.

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٤٢).

فهذه ثلاثةُ أنواعٍ:

أحدها: الأغلالُ: وهي في الأعناقِ، كما ذكر سبحانه.

قال الحسنُ بنُ صالحٍ: الغلُّ تغلُّ اليدُ الواحدةُ إلى العنق، والصفدُ: اليدانِ جميعًا إلى العنقِ. خرجَّه ابنُ أبي الدنيا.

وقال أسباط عن السُّديِّ: الأصفادُ تجمعُ اليدينِ إلى العنق.

وقال معمـرٌ عن قتادةَ في قوله: ﴿**مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ**﴾ [إبراهيم:٤٩]، قال: مقرنين في القيودِ والأغلالِ.

قال عـيينةُ بنُ الغـصنِ عن الحسنِ: إنَّ الأغلالَ لم تُجـعلْ في أعناقِ أهلِ النارِ لأنَّهم أعجـزُوا الربَّ عزَّ وجلَّ، ولكنها إذا طُفِيءَ بهم اللهبُ أرسـتْهُم، قال: ثم خرَّ الحسنُ مغشيًّا عليه.

وقال سيَّارُ بنُ حاتمٍ: حدثـنا مسكينُ عن حوشبٍ عن الحسنِ أنه ذكرَ النارَ فقالَ: لو أنَّ غـلاً منها وُضِعَ على الجبالِ لقصمَـهَا إلى الماءِ الأسودِ، ولو أنَّ ذراعًا من السلسلة وُضِعَ على جبلٍ لرضَّه.

ورَوى ابنُ أبي حاتمٍ بإسنادِهِ عن موسى بنِ أبي عائشةَ أنَّه قرأ قولَهُ تعالى: ﴿**أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ [الزمر:٢٤]، قال: تشـدُّ أيديهم بالأغلالِ في الـنارِ، فيسـتقـبلونَ العذابَ بوجـوهِهِم قد شدتْ أيـديهم، فلا يقدرون على أن يتَّقوا بها، كلما جاء نوعٌ من العذابِ يستقبلونَ بوجوهِهِم.

وبإسنادِهِ عن فيضِ بنِ إسحاقَ عن فضـيلِ بنِ عياضٍ: إذا قال الربُّ تباركَ وتعالى: ﴿**خُذُوهُ فَغُلُّوهُ**﴾ [الحاقة:٣٠] تبدَّرهُ سبعونَ ألفَ ملكٍ كلُّهم يتبدرُ أيهم يجعلُ الغلَّ في عنقِهِ.

النوع الثاني: الأنكالُ: وهي القيودُ، قال مجاهدٌ والحسنُ وعكرمةُ وغيرُهم، قال: الحسنُ: قيودٌ من نارٍ، قال أبو عمرانَ الجونيُّ: قيودٌ لا تحلُّ واللَّه أبدًا، وواحدُ الأنكالِ: نكلٌ، وسميت القيودُ أنكالاً لأنه ينكلُ بها، أي يمنعُ.

وروى أبو سنانَ عن الحسنِ: أما وعزَّتِه ما قيدَهُم مخافةَ أن يعجزُوه، ولكن قيدَهُم لترسَى في النارِ.

وقال الأعمشُ: الصفدُ: القيودُ، وقولُهُ تعالى: ﴿**مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ**﴾ [إبراهيم:٤٩] القيودُ، وقد سبقَ عن أبي صالحٍ قولُهُ: ﴿**فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ**﴾ [الهمزة:٩]، قال: القيودُ الطوالُ.

النوع الثالثُ: السلاسلُ: خرجَ الإمامُ أحمدُ وغيرُه من طريقِ أبي السمحِ عن عيسى بنِ هلالٍ الصدفيِّ عن عبد اللَّه بن عمرٍو، قال: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «**لو أنَّ رصاصةً مثلَ هذه ـ وأشار إلى مثل الجمجمةِ ـ أُرسلت من السماءِ إلى الأرضِ وهي مسيرةُ خمسمائةِ عامٍ لبلغتِ الأرض قبل الليلِ، ولو أنَّها أُرسلتْ من رأسِ السلسلةِ لسارتْ أربعينَ خريفًا الليلَ والنهارَ قبل أن تبلغَ أصولَها**» غريبٌ، وفي رفعِهِ نظرٌ، واللَّه أعلم.

وفي حديثِ عديٍّ الكنديِّ عن عمرَ أنَّ جبريلَ قال للنبيِّ ﷺ: «**لو أن حلقةً من سلسلةِ أهلِ النارِ التي نعتَ اللَّهُ في كتابِهِ وُضِعَتْ على جبالِ الدنيا لانقضتْ ولم يردَّها شيءٌ حتى تنتهي إلى الأرضِ السابعةِ السفلى**» خرَّجه الطبرانيُّ، وسبق الكلامُ على إسنادِهِ.

وروى سفيانُ عن بشيرٍ عن نوف الشامي في قولِهِ تعالى: ﴿**ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ**﴾ [الحاقة:٣٢]، قال: إن الذراعَ سبعونَ باعًا، والباعُ

من هاهُنا إلى مكة! ـ وهو يومئذ بالكوفةِ.

وقال ابنُ المباركِ: أنبأنا بكّارُ عن عبدِ اللَّه سمعَ ابنَ أبي مليكةَ يحدِّثُ أنَّ كعبًا قال: إنَّ حلقة من السلسلة التي قال اللَّهُ: ﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ [الحاقة:٣٢]: إن حلقةً منها أكثرُ من حديدِ الدُّنيا.

وقال ابنُ جريجٍ في قولِهِ: ﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ قال: بذراعِ الملكِ.

وقال ابنُ المنكدرِ: لو جُمعَ حديدُ الدنيا كلُّه ما خلا منها وما بقي ما عدلَ حلقةً من الحلقِ التي ذكرَ اللَّهُ في كتابِهِ تعالى فقال: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ أخرجه أبو نعيم.

قال ابنُ المباركِ عن سفيانَ في قوله: ﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ قال: بلَغنا أنها تدخلُ في دُبُرِهِ حتى تخرج منه.

وقال ابنُ جريجٍ: قال ابنُ عباسٍ: السلسلةُ تدخلُ في إستِهِ ثمّ تخرجُ من فِيه، ثم يُنظمونَ فيها كما ينظمُ الجرادُ في العودِ حتَّى يُشْوَى. خرَّجه ابنُ أبي حاتم. وخرَّجه أيضًا من روايةِ العوفيِّ عن ابن عباسٍ، قال: تسلكُ في دُبُرِهِ حتَّى تخرج من منخريهِ حتى لا يقوم على رجليه.

وخرَّج ابنُ أبي الدنيا من طريقِ خلفِ بنِ خليفةَ عن أبي هاشمٍ قال: يجعلُ لهم أوتادٌ في جهنَّم فيها سلاسلُ فتلقَى في أعناقِهِم، فتزفرُ جهنَّمُ زفرةً فتذهبُ بهم مسيرةَ خمسمائة سنةٍ، ثم تجيءُ بهم في يومٍ، فذلك قوله: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧].

ومن طريقِ أشعثَ عن جعفرٍ عن سعيدِ بنِ جبيرٍ، قال: لو انفلتَ رجلٌ من أهلِ النارِ بسلسلةٍ لزالت الجبالُ.

وقال جويبرٌ عن الضحاكِ في قوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن:٤١]، قال: يجمعُ بين ناصيتِهِ وقدميهِ في سلسلةٍ من وراء ظهرهِ.

وقال السديُّ في هذه الآيةِ: يجمعُ بين ناصيةِ الكافرِ وقدميهِ، فتربطُ ناصيتُهُ بقدمِهِ وظهره ويفتلُ.

وذكر الأعمشُ عن مجاهدٍ عن ابنِ عباسٍ، قال: يؤخذَ بناصيته وقدميه ويكسر ظهرُهُ، كما يكسرُ الحطبُ في التنورِ.

وقال سيارُ بنُ حاتمٍ: حدثنا مسكينُ عن حوشبٍ عن الحسنِ، قال: إنَّ جهنمَ ليَغلي عليها من الدهرِ إلى يومِ القيامةِ يُحمى طعامُها وشرابُها وأغلالُها، ولو أنَّ غلاًّ منها وُضِعَ على الجبالِ لقصَمَهَا إلى الماء الأسودِ، ولو أنَّ ذراعًا من السلسلةِ وضعَ على جبلٍ لرضَّه، ولو أنَّ جبلاً كان بينه وبين عذابِ اللَّه عزَّ وجلَّ مسيرةَ خمسمائة عامٍ لذابَ ذلك الجبلُ، وإنَّهم ليُجمعونَ في السلسلةِ من آخرِهِم فتأكلُهُم النارُ وتبقى الأرواحُ.

ورواه ابنُ أبي الدنيا عن عبدِ اللَّه بن عمرَ الجشميِّ، عن المنهالِ بن عيسى العبديِّ، عن حوشبٍ، عن الحسنِ، عن النبيِّ ﷺ فذكرَهُ بمعناهُ، وزادَ في آخرِهِ: «**تبقى الأرواحُ في الحناجرِ تصرخُ**» والموقوفُ أشبهُ.

وقال عبدُ اللَّه بنُ الإمامِ أحمدَ: أخبرت عن سيَّارٍ عن ابنِ المعزِّي - و كان من خيارِ الناسِ. قال: بلغني أنَّ الأبدانَ تذهبُ وتبقى الأرواحُ في السلاسلِ.

وخرَّج الطبرانيُّ(١) وابنُ أبي حاتمٍ من طريقِ منصورِ بنِ عمار، حدثنا بشيرُ ابنُ طلحةَ، عن خالدِ بن الدريكِ، عن يعْلَى بنِ منيةَ رفعَ الحديثَ إلى النبيِّ

---

(٢٨٧) «المعجم الأوسط» (٤١٠٣).

ﷺ قال: «ينشيءُ اللَّهُ سبحانه لأهلِ النارِ سحابةً سوداءَ مظلمةً، فيقالُ: يا أهلَ النارِ، أيَّ شيءٍ تطلبون؟ فيذكرون بها سحابة الدنيا، فيقولون: يا ربَّنا الشرابُ، فتمطرُهم أغلالاً تزيدُ في أغلالهم، وسلاسلَ تزيدُ في سلاسلهم، وجمرًا يلتهبُ عليهم».
وخرَّجه ابنُ أبي الدنيا موقوفًا لم يرفعْهُ.

وروى أبو جعفر الرازيُّ عن الربيعِ بنِ أنسٍ عن أبي العاليةَ وغيرُه عن أبي هريرة، فذكرَ قصةَ الإسراء بطولها وفيها قال: «ثم أتى على وادٍ ـ يعني النبي ﷺ ـ فسمعَ صوتًا منكرًا ووجدَ ريحًا منتنةً، فقال: ما هذا يا جبريلُ؟» فقال: هذا صوتُ جهنَّم تقولُ: ربِّ آتني ما وعدتني، فقدْ كثُرَتْ سلاسلي وأغلالي وسعيري وحميمي وغساقي وعذابي، وقد برد قعري واشتدّ حرّي فآتني ما وعدتني، قال: لكِ كلُّ مشركٍ ومشركةٍ، وكافرٍ وكافرةٍ، وكل خبيثٍ وخبيثةٍ وكل جبارٍ لا يؤمن بيوم الحسابِ»[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا﴾

قال بعضُ السلفِ: إنَّ اللَّه تعالى وصفَ الجنَّة بصفة الصَّيفِ لا بصفة الشتاء، فقال تعالى: ﴿فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ [الواقعة: ٢٨ ـ ٣٢]. وقد قال اللَّهُ تعالى في صفةِ أهل الجنة: ﴿مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣] فنفَى عنهم شدة الحرِّ والبردِ. قال قتادةُ: علِمَ اللَّهُ أنَّ شدَّةَ الحرِّ

(١) «التخويف من النار» (٩٧ ـ ١٠٢).

تؤذي، وشدة البردِ تؤذي، فوقاهم أذاهما جميعًا[١] .

* * *

جاء في حديثٍ مرفوعٍ: «**إنَّ زمهريرَ جهنَّمَ بيت يتميزُ فيه الكافرُ من بردِهِ**» يعني: يتقطع ويتمزعُ.

ورَوى ابنُ أبي الدنيا من طريقِ الأعمشِ عن مجاهدٍ، قال: إنَّ في النارِ لزمهريرًا يغلونَ فيه فيهربون منها إلى ذلك الزمهريرِ، فإذا وقعوا فيه حطمَ عظامَهم حتى يُسمعَ لها نقيضٌ.

وعن ليثٍ عن مجاهدٍ، قالَ: الزمهريرُ الذي لا يستطيعون أن يذوقُوه من بردِهِ.

وعن قابوسِ بنِ أبي ظبيانَ عن أبيه، عن ابنِ عباسٍ، قال: يستغيثُ أهلُ النارِ من الحرِّ فيغوثونَ بريحٍ باردةٍ يصدعُ العظامَ بردُها فيسألون الحرَّ.

وعن عبدِ اللَّهِ بنِ عميرٍ، قالَ: بلغني أنَّ أهلَ النارِ يسألون خازنَها أن يخرجَهُم إلى جانبِهَا، فيخرجُهم فيقتلَهُم البردُ والزمهريرُ حتى يرجعُوا إليها فيدخلوها مما وجدوا من البردِ.

وروى أبو نعيمٍ بإسنادِهِ عن ابنِ عباسٍ أنَّ كعبًا قال: إنَّ في جهنَّم بردًا هو الزمهريرُ يسقطُ اللحمَ حتى يستغيثُوا بحرِّ جهنَّمَ.

ورُويَ عن ابنِ مسعودٍ قال: الزمهريرُ: لونٌ من العذابِ.

وعن عكرمةَ، قال: هو البردُ الشديدُ.

(١) «لطائف المعارف» (٥٦٥).

ورُوِيَ عن زبيدٍ اليـاميِّ أنه قامَ ليلةً للتهجـدِ فعمدَ إلى مطهـرةٍ له قد كان يتوضأ فـيها، فغسلَ يده ثم أدخلهـا في المطهرةِ، فوجدَ الماءَ الذي فـيها باردًا بردًا شديدًا، قد كاد أن يجمد، فـذكرَ الزمهريرَ ويدَه في المطهرةِ، فلم يخرجْ يدَهُ من المطهرةِ حتى أصبحَ فجاءتْهُ الجـاريةُ وهو على تلكِ الحالِ، فقالتْ: ما شأنُكَ يا سـيِّدِي لم تصلِّ الليلةَ كما كـنتَ تصلِّي، قال: ويحكِ إني أدخلتُ يدي في هذه المطهـرةِ فاشتـدَّ عليَّ بردُ الماءِ فذكرتُ به الزمـهريرَ، فـواللَّه ما شعـرتُ بشدةِ بردِهِ حتَّى وقفتِ علـيَّ، انظري لا تخبري بهذا أحـدًا ما دمتُ حيًا، فما علمَ بذلك أحدٌ حتى مات رحمه اللَّه(١) .

* * *

(١) «التخويف من النار» (٧٣ ـ ٧٤).

سُورَةُ المُرْسَلاتِ

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾

أي: نكفتُهم ونضمُّهم ونجمعُهم وهمْ أحياءٌ على ظهرِها، وإذا ماتُوا ففي بطنِها[1].

* * *

(١) «فتح الباري» (٥/١١٧).

سُورَةُ النَّبَأ

قوله تعالى: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا﴾

وروي عن ابنِ عباسٍ، قالَ: يستغيثُ أهلُ النارِ من الحَرِّ فيُغاثون بريحٍ باردةٍ يُصَدِّعُ العظامَ بَرْدُها، فيسألون الحَرَّ. وعن مجاهد، قال: يهربون إلى الزمهريرِ، فإذا وقعُوا فيه حطَّمَ عِظامهم حتى يُسمع لها نَقيضٌ، وعن كعْبٍ، قال: إنَّ في جهنَّم برداً هو الزَّمهريرُ، يُسقِطُ اللحمَ حتى يستغيثوا بِحَرِّ جهنَّم.

وعن عبدِ الملك بنِ عُميرٍ، قال: بلغني أنَّ أهلَ النارِ سألوا خازنَها أن يخرجَهُم إلى جانبها فأُخْرِجوا فقتلَهُم البَرْدُ والزمهريرُ، حتى رجعُوا إليها فدخلُوها ممَّا وجدُوا من البَرْدِ، وقد قال اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿لا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلاَّ حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢٤-٢٦]، وقال اللَّه تعالى: ﴿هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ [ص:٥٧].

قال ابنُ عباسٍ: الغسَّاقُ: الزَّمْهريرُ الباردُ الذي يُحرِقُ من بَرْدِهِ. وقال مجاهدٌ: هو الذي لا يستطيعون أن يذوقوه من بردِهِ. وقيلَ: إنَّ الغسَّاقَ الباردُ المنتنُ؛ أجارنا اللَّهُ تعالى من جهنَّم بفضلِهِ وكرمِهِ[1].

(١) «لطائف المعارف» (٥٦٨).

اعلم أن تفاوتَ أهلِ النارِ في العذابِ هو بحسبِ تفاوتِ أعمالِهِم التي دخلُوا بها النارَ، كما قال تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا﴾ [الأنعام:١٣٢]، وقال تعالى: ﴿جَزَاءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢٦]، قال ابنُ عباسٍ: وافقَ أعمالَهم، فليسَ عقابُ من تغلظ كفرُهُ وأفسدَ في الأرضِ ودعا إلى الكفرِ كمن ليسَ كذلك.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر:٤٦].

وكذلك تفاوتُ عذابِ عصاةِ الموحدينَ في النارِ بحسبِ أعمالِهِم، فليس عقوبةُ أهلِ الكبائرِ كعقوبةِ أصحابِ الصغائرِ، وقد يخفف عن بعضِهِم العذابُ بحسناتٍ أُخرَ له أو بما شاءَ اللَّهُ من الأسبابِ، ولهذا يموتُ بعضُهم في النارِ، كما سيأتي ذكرُهُ فيما بعدُ، إن شاء اللَّه تعالى.

وأما الكفار إذا كانَ لهم حسناتٌ في الدنيا من العدلِ والإحسانِ إلى الخلقِ فهل يخففُ عنهم بذلكَ من العذابِ في النارِ أم لا؟

هذا فيه قولان للسلفِ وغيرِهم: **أحدُهُما:** أنه يخففُ عنهم بذلك أيضًا، وروَى ابنُ لهيعةَ عن عطاءِ بنِ دينارٍ عن سعيدِ بن جبيرٍ معنى هذا القولِ، واختارَهُ ابنُ جريرٍ الطبريُّ وغيرُهُ.

وروى الأسودُ بنُ شيبانَ عن أبي نوفلٍ قال: قالتْ عائشةُ: يا رسول اللَّه أينَ عبدُ اللَّهِ بنُ جدعان؟ قال: «**في النارِ**» فجزعتْ عائشةُ واشتدَّ عليها، فلمَّا رأى رسولُ اللَّه ﷺ ذلك قال: «**يا عائشةُ ما يشتدُّ عليك من هذا؟**» قالت: بأبي أنتَ وأمِّي يا رسولَ اللَّه، إنه كان يطعمُ الطعامَ ويصلُ الرَّحمَ، قال: «**إنه يهونُ**

عليه بما قلت» خرَّجه الخرائطيُّ في كتابِ «مكارمِ الأخلاقِ» وهو مرسلٌ.

وروى عامرُ بنُ مدركٍ الحارثيُّ عن عتبةَ بنِ اليقظانَ عن قيسِ بنِ مسلمٍ، عن طارقِ بنِ شهابٍ، عن عبد اللَّه بنِ مسعودٍ قال: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: **«ما أحسنَ من محسنٍ كافرٍ أو مسلمٍ، إلا أثابَهُ اللَّه عزَّ وجلَّ في عاجلِ الدنيا أو ادخرَ له في الآخرةِ»** قلنا: يا رسول اللَّه، ما إثابَةُ الكافرِ في الدنيا؟ قال: **«إن كان قد وصلَ رحمًا أو تصدَّقَ بصدقة أو عملَ حسنةً أثابَهُ اللَّه المالَ والولدَ والصِّحة وأشباهَ ذلك»** قلنا: فما إثابةُ الكافرِ في الآخرةِ، قال: **«عذابًا دونَ العذابِ»** ثم تلا: ﴿**أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾ [غافر:٤٦]، خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ، والخرائطيُّ والبزارُ في «مسندِهِ» والحاكمُ في «المستدرك» وقالَ: صحيح الإسنادِ، وخرَّجهُ البيهقيُّ في كتابِ «البعث والنشور»[(١)] وقال: في إسنادِهِ نظرٌ انتهى، وعتبةُ بنُ يقظانَ تكلَّم فيه بعضُهُم.

وقد سبقتِ الأحاديثُ في تخفيف العذابِ عن أبي طالبٍ بإحسانِهِ إلى النبيِّ ﷺ. وخرَّج الطبرانيُّ[(٢)] بإسنادٍ ضعيفٍ عن أمِّ سلمة أنَّ الحارثَ بن هشامٍ أتى النبيَّ ﷺ يومَ حجةِ الوداعِ: فقال: إنَّكَ تحثُّ على صلة الرحمِ، والإحسانِ وإيواءِ اليتيم وإطعامِ الضعيفِ والمسكينِ، وكلُّ هذا كان يفعلُه هشامُ ابنُ المغيرة، فما ظنُّك به يا رسول اللَّه؟ قال: **«كلُّ قبرٍ لا يشهدُ صاحبُه أن لا إله إلا اللَّه فهو حفرةٌ من حفرِ النارِ، وقد وجدتُ عمِّي أبي طالبٍ في طمطامٍ من النارِ، فأخرجه اللَّه بمكانِهِ منِّي وإحسانِهِ إليَّ فجعله في ضحضاحٍ من النارِ»**.

والقولُ الثاني: أن الكافرَ لا ينتفعُ في الآخرةِ بشيءٍ من الحسناتِ بحالٍ،

---

(١) أخرجه: البيهقي في «البعث والنشور» (١٥)، والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٢٥٣).
(٢) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (٧٣٨٩).

ومن حجةِ أهلِ هذا القــولِ قولُهُ تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

وقولُهُ تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [إبراهيم:١٨]. ونحوُ هذه الآياتِ.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»(١) عن أنس عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ اللَّه لا يظلم مؤمنًا حسنةً يعطَى بها في الدنيا ويجزى بها في الآخـرةِ، وأمَّا الكافرُ فيطْعَمُ بحسنات ما عملَ بها للَّه في الدُّنيا حتَّى إذا أفضَى إلـى الآخرةِ لم تكنْ له حسنةٌ يُجزى بهَا» ، وفي روايةٍ له أيضًا(٢) : «إنَّ الكافرَ إذا عملَ حسنةً أطعمَ بها طعمةً في الدنيا، وأما المؤمن فإنَّ اللَّه يدخرُ له حسناتِه في الآخرةِ، ويعقبُ له رزقًا في الدنيا على طاعتِه»(١) .

* * *

(١) أخرجه: مسلم (٨/ ١٣٥).

(٢) السابق.

(٣) «التخويف من النار» (١٤٢ ـ ١٤٤).

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾

روى الإمامُ أحمدُ[1] بإسنادٍ فيه نظرٌ عن يَعْلى بنِ أميَّةَ، عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**البحرُ هو جهنَّمُ**» فقالُوا ليَعْلى، قال: ألا ترون أنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يقول: ﴿**نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا**﴾ [الكهف:٢٩]، والذي نفسُ يعْلى بيده لا أدخلُها أبدًا حتى أُعرَضَ على اللَّهِ عزَّ وجلَّ، ولا يصيبُني منها قطرةٌ حتَّى ألقى اللَّهَ عزَّ وجلَّ. وهذا إن ثبتَ فالمرادُ به أنَّ البحارَ تفجرُ يومَ القيامةِ فتصيرُ بحرًا واحدًا، ثم تسجرُ ويوقدُ عليها فتصيرُ نارًا وتزاد في نارِ جهنَّم.

وقد فسَّر غيرُ واحدٍ من السلفِ قولَه تعالى: ﴿**وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ**﴾ [التكوير:٦] بنحوِ هذا.

وروى المباركُ بنُ فضالةَ عن كثيرٍ أبي محمدٍ عن ابنِ عباسٍ، قال: تسجرُ حتى تصير نارًا.

وروى مجاهدٌ عن شيخٍ من بجيلةَ عن ابنِ عباسٍ ﴿**وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ**﴾ قال: تكورُ الشمسُ والقمرُ والنجومُ في البحرِ فيبعثُ اللَّهُ عليها ريحًا دبورًا فتنفخه حتى يرجعَ نارًا. خرَّجه ابنُ أبي الدنيا وابنُ أبي حاتمٍ.

وخرَّج ابنُ أبي الدنيا وابنُ أبي حاتمٍ أيضًا من طريقِ مجالدٍ، عن الشعبيِّ،

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/ ٢٢٣).

عن ابنِ عباسٍ في قولِه تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:٤٩] قال: هو هذا البحرُ تنتثرُ الكواكبُ فيه وتكوَّرُ الشمسُ والقمرُ فيكونُ هو جهنَّمُ.

ورَوى ابنُ جريرٍ بإسنادِهِ عن سعيدِ بن المسيبِ عن عليٍّ أنه قال رجلٌ من اليهودِ: أينَ جهنم؟ قال: البحرُ، قال عليٌّ: ما أراه إلا صادقًا، قال تعالى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور:٦] وقال: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦].

ورواه آدمُ بنُ أبي إياسٍ في «تفسيرِهِ» عن حمادِ بن سلمةَ عن داودَ بنِ أبي هندٍ عن سعيدِ بنِ المسيبِ، قال: قال عليٌّ ليهوديٍّ: أين جهنم؟ قال: تحتَ البحرِ، قال عليٌّ: صدق ثم قرأ: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ وخرَّجه في مواضعَ أُخرَ منه، وفيه ثمَّ قرأ ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾.

وخرَّج ابنُ أبي حاتمٍ بإسنادِهِ عن أبي العاليةَ عن أبيِّ بنِ كعبٍ ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦] قال: قالتِ الجنُّ للإنسِ: نأتيكُم بالخبرِ، فانطلقُوا إلى البحرِ فإذا هو نارٌ تأججُ.

وعن ابنِ لهيعةَ عن أبي قبيلٍ قال: إنَّ البحرَ الأخضرَ هو جهنَّمُ.

وروى أبو نعيمٍ بإسنادِهِ عن كعبٍ في قولِه تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ [إبراهيم:٤٨] قال: تبدلُ السماواتُ فتصيرُ جنانًا، وتبدلُ الأرضُ فيصير مكانَ البحرِ النارُ. وقد سبق عن ابنِ عباسٍ أنه قال: النارُ سبعةُ أبحرٍ مطبقةٌ.

وروى عن عبد اللَّه بن عمرٍو رضي الله عنهما أنه قال: لا يتوضأ بماءِ البحرِ لأنه طبقُ جهنَّمَ، وكذا قال سعيدُ بنُ أبي الحسنِ أخو البصريِّ: البحرُ طبقُ جهنَّمَ.

وفي «سننِ أبي داود»[1] عن عبدِ اللَّهِ بنِ عـمرٍو رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قال: **«لا يركبُ البحـرَ إلا حاجٌ أو معتمرٌ أو غازٍ في سبيلِ اللَّه، فإنَّ تحت البحرِ ناراً وتحتَ النارِ بحراً»**.

وخرَّج ابنُ أبي حاتمٍ بإسنادِهِ عن معاويةَ بن سعيدٍ، قال: إنَّ هذا البحرَ - يعني بحر الروم - وسطَ الأرضِ، والأنهارُ كلّها تصبُّ فيه، والبحرُ الكبيرُ يصبُّ فيه، وأسفلُهُ آبارٌ كلها مطبقةٌ بالنحاسِ، فإذا كان يوم القيامةِ أسجرَ.

وذكر ابنُ أبي الدنيا عن العباسِ بنِ يزيد البحراني، قال: سمعتُ الوليدَ ابنِ هشامٍ وقلتُ لهُ: عمن أخذتَ هذا؟ قال: عن رجل من أهلِ الكتابِ أسلمَ فحسنَ إسلامُهُ، قال: لَمَّا التقم الحوتُ يونسَ عليه السلامُ جالَ به الأبحرَ السبعة، فلمَّا كان آخر ذلك انْتهى به الحوتُ إلى قعرِ البحر، موضعٌ يلَي قعرَ جهنَّمَ، فسبحَ يونسُ في بطنِ الحوتِ، فسمعَ قارونُ تسبيحَهُ وهو في النارِ، وذكرَ بقية الخبر.

وروى قيسُ بنُ الربيعِ عن عبيدِ المكتبِ، عن مجاهدٍ، عن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ: **«إنَّ جهنَّم محيطةٌ بالدنيا، وإنَّ الجنةَ منَ ورائه، فلذلك كان الصراطُ على جهنّم طريقًا إلى الجنة»** غريبٌ منكرٌ.

وقد رُوي عن بعضِهم ما يدلُّ على أن النارَ في السماءِ، وروى مجاهدٌ قال في قولهِ تعالى: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢] قال: الجنةُ والنارُ، وكذا قال جويبرٌ عن الضحاكِ.

وروى عاصمٌ عن زر عن حذيفةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«أوتيتُ بالبراقِ فلم نزايلْ**

(١) أخرجه: أبو داود (٢٤٨٩).

طرفَه أنا وجبريلُ حتَّى أتينا بيتَ المقدس، وفُتحتْ لنا أبوابُ السماء، ورأيتُ الجنةَ والنارَ» خرَّجه الإمامُ أحمدُ وغيرُه(١)، قال في روايةِ المروذيِّ وفي حديثِ حذيفةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«رأيتُ ليلةَ أُسري بي الجنةَ والنارَ في السماءِ فقرأتُ هذه الآية: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾**[الذاريات: ٢٢] **فكأنِّي لم أقرأها قط»** وهو تصديقٌ لما قاله حذيفةُ، نقله عنه الخلاَّلُ في كتابِ «السنة»، وهذا اللفظُ الذي احتجَّ به الإمامُ أحمدُ لم نقفْ عليه بعدُ في حديثه وإنما رُوِيَ عنه ما تقدَّم.

ورُوي عن حذيفةَ أنه قال: والله ما زال البراقُ حتَّى فُتحتْ لهما أبوابُ السماء ورأيا الجنةَ والنارَ، ووعدَ اللَّهُ الآخرةَ أجمعَ ولم يرفعْهُ، وهذا كلُّه ليسَ بصريحٍ في أنَّه رأى النارَ في السماءِ كما لا يَخْفى.

وأيضًا فعلى تقدير صحةِ ذلك اللفظ لا يدلُّ على أنَّ النارَ في السماءِ، وإنما يدلُّ على أنه رآها وهو في السماءِ والميتُ يرى في قبرِه الجنةَ والنارَ وليستِ الجنةُ في الأرضِ.

وقد رأى النبيُّ ﷺ في صلاةِ الكسوفِ الجنةَ والنارَ وهو في الأرض(٢)، وكذلك في بعضِ طرقِ حديثِ الإسراءِ - حديث أبي هريرة - أنَّه مرَّ على أرضِ الجنةِ والنارِ في مسيرِه إلى بيتِ المقدسِ، ولم يدلَّ شيءٌ من ذلك على أنَّ الجنةَ في الأرض، فحديثُ حذيفةَ إن ثبتَ أنه رأى الجنةَ والنارَ في السماءِ، فالسماءُ ظرفٌ للرؤيةِ لا للمرئيِّ، واللَّه أعلمُ.

وفي حديثِ أبي هارون العبديِّ، وهو ضعيفٌ جدا عن أبي سعيد،

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٣٩٠، ٣٨٧، ٣٩٤)، والترمذي (٣١٤٧)، والنسائي في «الكبرى»، كما في «تحفة الأشراف» (٣٣٢٤).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ١٤، ١١٨)، (٢/ ٤٥)، ومسلم (٣/ ٣٤).

الخدريِّ في صفةِ الإسراءِ أنه ﷺ رأى الجنةَ والنارَ فوق السماواتِ، ولو صحَّ لحُمل على ما ذكرناه أيضًا.

وقد روى القاضي أبو يعْلى بإسنادٍ جيدٍ عن أبي بكر المروذيِّ أنَّ الإمامَ أحمدَ فسَّر له من القرآن آياتٍ متعددةً، فكانَ مما فسَّرهُ له قولهُ تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال: أطباقُ النيران ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾ [الطور:٦] قال: جهنَّم، وهذا يدلُّ على أنَّ النارَ في الأرضِ، بخلافِ ما رواه الخلاَّلُ عن المروذيِّ، واللَّه أعلم.

وأما المرويُّ عن مجاهدٍ، فقد تأوَّلَهُ بعضُهم على أنَّ المرادَ أن أعمالَ الجنةِ والنارِ مقدرةٌ في السماءِ من الخيرِ والشرِّ، وقد صرَّحَ بذلك مجاهدٌ في روايةٍ أخرى عنه.

وقد وردَ في بعضِ طرقِ حديثِ الإسراءِ أنه ﷺ رأى جهنم في طريقِهِ إلى بيتِ المقدسِ، ورُوي عن عبادةَ بنِ الصامتِ أنه وقفَ على سورِ بيت المقدسِ الشرقيِّ يبْكي، وقال: ها هُنا أخبرنا رسولُ اللَّهِ ﷺ أنه رأى جهنَّم[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾

قال تعالى: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير:١٢-١٤]، وقُرِئَ ﴿سُعِّرت﴾ و﴿سُعِرَت﴾ بالتشديدِ والتخفيفِ، قال الزجاجُ: المعنى واحدٌ، إلا أنَّ معنى المشددِ أوقدتْ مرةً بعد مرةٍ.

---

(١) «التخويف من النار» (٤٥ ـ ٤٩).

قال قتادةُ: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أوقدتْ، وقال السُّديُّ: أحميتْ، وقال سعيدُ بنُ بشيرٍ عن قتادةَ: يسعرُهَا غضبُ اللَّهِ وخطايا بني آدمَ. خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ.

وهذا يقتضى أنَّ تسعيرَ جهنَّم حيثُ سعرتْ إنما سعرتْ بخطايا بني آدمَ التي تقتضي غضبَ اللَّه عليهم، فتزدادُ جهنَّم حينئذٍ تلهبًا وتسعُّرًا، وهذا كما أن بناءَ دورِ الجنةِ غرس الأشجارِ يحصلُ بأعمالِ بني آدمَ الصالحةِ من الذكرِ وغيرِه، وكذلك حُسنُ ما فيها من الزوجاتِ وغيرهنَّ يتزايدُ بتحسينِ الأعمالِ الصالحةِ، فكذلك جهنَّم تسعرُ وتزدادُ آلاتُ العذابِ فيها بكثرةِ ذنوبِ بني آدم وخطاياهم وغضبِ الربِّ تعالى عليهم.

نعوذُ باللَّه من غضبِ اللَّه ومن النارِ وما قرَّب إليها من قولٍ وعملٍ بمنِّهِ وكرمِهِ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾

انخنستُ: أي: تواريْتُ، واختفيتُ منه، وتأخّرتُ عنه، ومنه: الوَسْواسُ الخنَّاسُ، وهو الشيطانُ، إذا غَفَلَ العبدُ عن ذِكْرِ اللَّهِ وَسْوَسَ له، فإذا ذَكَر اللَّه خنَسَ وتأخَّر.

ومنه سُمِّيتِ النجومُ خُنَّسًا، قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ﴾ [التكوير:١٥]،

(١) «التخويف من النار» (٧٧).

وانخِناسُها: رُجُوعُها وتوارِيها تحت ضوءِ الشَّمسِ، وقيل: اختفاؤها بالنهار[1].

* * *

(١) «فتح الباري» (١/ ٣٤٤).

سُورَةُ الانْفِطَارِ

قوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾

وقولُهُ ﷺ: «إنَّ خلقَ أحدِكُم يُجمعُ في بطنِ أمِّه أربعينَ يومًا نطفةً»(١) قد رُوي تفسيرُهُ عن ابنِ مسعودٍ، روى الأعمشُ عن خيثَمةَ، عن ابنِ مسعودٍ، قال: إنَّ النطفةَ إذا وقعتْ في الرَّحِمِ، طارتْ في كلِّ شعرٍ وظُفرٍ، فتمكثُ أربعينَ يومًا، ثم تنحدرُ في الرَّحِمِ فتكونُ علقةً، قال: فذلكَ جمعُها. خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ وغيرُهُ.

ورويَ تفسيرُ الجمع مرفوعًا بمعنى آخرَ، فخرَّج الطبرانيُّ(٢)، وابنُ منده في كتابِ «التوحيد» من حديثِ مالكِ بنِ الحويرثِ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**إنَّ اللَّه تعالى إذا أرادَ خلقَ عبدٍ، فجامعَ الرَّجُلُ المرأةَ، طارَ ماؤهُ في كلِّ عِرْقٍ وعضوٍ منها، فإذا كان يومُ السابعِ جمعه اللَّهُ، ثم أحضرَهُ كلَّ عرقٍ له دونَ آدم: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾**» [الانفطار:٨].

وقال ابنُ منده: إسنادهُ متصلٌ مشهورٌ على رسمِ أبي عيسى والنسائيِّ وغيرِهما.

وخرَّج ابنُ جريرٍ(٣) وابنُ أبي حاتمٍ، والطبرانيُّ من روايةِ مُطَهَّرِ بنِ الهيثمِ،

---

(١) أخرجه: البخاري (٤/ ١٣٥، ١٦١)، ومسلم (٨/ ٤٤).

(٢) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (١٩/ ٢٩٠)، و«الصغير» (١٠٠)، و«الأوسط» (١٦١٣).

(٣) أخرجه: ابن جرير في «التفسير» (٣٠/ ٨٧).

عن موسى بن عليّ بنِ رباحٍ، عن أبيه، عن جدِّه أنَّ النبيَّ ﷺ قال لجدِّه: «**يا فلانُ، ما وُلِدَ لك؟**» قال: يا رسولَ اللَّه، وما عَسَى أن يولَدَ لي؟ إمَّا غلامٌ وإمّا جاريةٌ، قال: «**فمَنْ يشبهُ؟**» قال: من عسى أن يشبه؟ يشبه أمَّه أو أباه، قال: فقال النبيُّ ﷺ: «**لا تقولنَّ كذا، إن النطفةَ إذا استقرتْ في الرَّحِم، أحضرها اللَّه كلَّ نسبٍ بينها وبين آدمَ، أما قرأت هذه الآيةَ: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾**» [الانفطار:٨]، قال: «**سلكك**» وهذا إسنادٌ ضعيفٌ.

ومطهرُ بنُ الهيثمِ ضعيفٌ جدا، وقال البخاريُّ: هو حديثٌ لم يصحَّ، وذكر بإسنادِهِ عن موسى بن علي عن أبيه أنَّ أباهُ لم يُسلِم إلا في عهدِ أبي بكرٍ الصدِّيقِ يعني: أنه لا صحبةَ له.

ويشهدُ لهذا المعنى قولُ النبيِّ ﷺ للذي قال له: ولَدتِ امرأتي غُلامًا أسودَ: «**لعله نزعه عرقٌ**»(١).

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/١٣٦ ـ ١٣٧).

سُورَةُ المُطَفِّفِينَ

قوله تعالى ﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾

روى عطيةُ عن ابنِ عباسٍ، قال: الجنةُ في السماء السابعةِ، ويجعلُها اللَّهُ حيثُ يشاءُ يومَ القيامةِ، وجهنَّم في الأرضِ السابعةِ، خرَّجه أبو نعيم.

وخرَّج ابنُ منده من حديثِ أبي يحيى القتاتِ عن مجاهدٍ، قال: قلتُ لابنِ عباسٍ: أين الجنَّةُ؟ قال: فوقَ سبعِ سماواتٍ، قلتُ: فأين النارُ؟ قال: تحتَ سبعِ أبحرٍ مطبقةٍ.

وروى البيهقيُّ بإسنادٍ فيه ضعفٌ عن أبي الزعراءَ عن ابنِ مسعودٍ، قال: الجنَّة في السماءِ السابعةِ العُليا، والنارُ في الآرضِ السابعةِ السفلَى، ثمَّ قرأ: ﴿إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ﴾ [المطففين:١٨] و﴿إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين:٧]، وخرَّجه ابنُ منده وعنده: «**فإذا كان يومُ القيامةِ جعلَها اللَّهُ حيثُ شاءَ**».

وقال محمدُ بنُ عبدِ اللَّه بن أبي يعقوبَ، عن بشرِ بنِ شغافٍ، عن عبدِ اللَّهِ بنِ سلامٍ، قال: إنَّ الجنَّةَ في السماءِ، وإنَّ النارَ في الأرضِ، خرَّجه ابنُ خزيمةَ وابنُ أبي الدنيا.

ورَوى ابنُ أبي الدنيا بإسنادِهِ، عن قتادة، قال: كانُوا يقولونَ: إنَّ الجنَّةَ في السمواتِ السبعِ، وإنَّ جهنَّم لفي الأرضينَ السبعِ.

وروى ورقاءُ عن ابنِ أبي نجيحٍ عن مجاهدٍ: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا

تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات:٢٢]، قال: الجنةُ في السماءِ، وقد استدلَّ بعضُهم لهذا بأنَّ اللَّهَ تعالى أخبرَ أنَّ الكفارَ يُعرضونَ على النارِ غدوًّا وعشيًّا - يعني في مدةِ البرزخِ - وأخبر أنه لا تُفتَّح لهم أبوابُ السماءِ، فدلَّ على أنَّ النارَ في الأرضِ، وقال تعالى: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ﴾ [المطففين:٧].

وفي حديثِ البراء بنِ عازبٍ عن النبيِّ ﷺ في صفةِ قبضِ الروحِ، قال في روحِ الكافرِ: «حتَّى ينتهُوا بها إلى السماءِ الدنيا فيستفتحونَ فلا يُفتحُ له» ثم قرأ رسولُ اللَّه ﷺ: ﴿لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف:٤٠]، قال: «يقولُ اللَّه تعالى: اكتبُوا كتابَه في سجين في الأرضِ السُّفلى» قال: «فتُطرحُ روحُه طرحًا» خرَّجه الإمامُ أحمدُ وغيرُه[(١)].

وعن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ في صفةِ قبضِ الروحِ وقال في روحِ الكافرِ: «فتخرجُ كأنتنِ ريحِ جيفةٍ، فينطلقونَ به إلى بابِ الأرضِ فيقولونَ: ما أنتنُ هذه الريحَ، كلما أتَوا على أرضٍ قالُوا ذلكَ، حتى يأتُوا به إلى أرواحِ الكفار» خرَّجه ابنُ حبانَ والحاكمُ وغيرُهما[(٢)].

وقال عبدُ اللَّهِ بنُ عمرِو بنِ العاصِ ﵄: أرواحُ الكفارِ في الأرضِ السابعةِ[(٣)].

* * *

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/ ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٧)، وأبو داود (٣٢١٢)، وابن ماجه (١٥٤٨).

(٢) أخرجه: النسائي (٤/ ٨)، وكذلك في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (١٤١٢٩٠)، وابن حبان (٣٠١٤)، والحاكم (١/ ٣٥٣).

(٣) «التخويف من النار» (٤٤ - ٤٥).

قوله تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾

وأعظمُ عـذابِ أهلِ النارِ حـجـابُهم عن اللَّه عـزَّ وجلَّ، وإبعـادُهم عنه، وإعراضُه عنهم، وسخطُه عليهم، كـما أنَّ رضوانَ اللَّه على أهلِ الجنة أفضلُ من كلِّ نعـيم الجنة، وتجليه لهم ورؤيـتهم إيَّاهُ أعظمُ من جـميعِ أنواع نعـيمِ الجنةِ، قال اللَّه تعالى: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [المطففين:١٤-١٧]، فذكر اللَّهُ تعـالى ثلاثةَ أنواعٍ من العذابِ: حجـابُهم عنه، ثم صليـهم الجحـيمَ، ثم توبيخُـهم بتكذيبِهم به في الـدنيا، ووصـفَهُم بالرانِ على قلوبِهِم، وهـو صدأُ الذنوبِ الذي سـوَّد قلوبَهُم، فلم يصلْ إليهـا بعدَ ذلك في الدنيا شيءٌ من معـرفةِ اللَّهِ ولا منْ إجلالِه ومهـابتِهِ وخشيتِهِ ومحبتِهِ، فكمـا حجبتْ قلوبُهم في الدنيا عن اللَّهِ حجبوا في الآخرةِ عن رؤيتِهِ، وهذا بخلافِ حالِ أهلِ الجنةِ.

قال اللَّه تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ﴾ [يونس:٢٦]، والذي أحسنوا هم أهلُ الإحـسانِ، والإحسانُ أن يعبـدَ العبدُ ربَّهُ كأنَّه يراهُ، كما فسَّره النبيُّ ﷺ لما سأله عنه جبـريلُ عليه السلامُ(١)، فجعلَ جزاء الإحـسانِ الحسنى: وهو الجنَّةُ، والزيادةُ: وهي النظرُ إلى وجـهِ اللَّه عزَّ وجلَّ، كما فسَّرهُ بذلك رسولُ اللَّه ﷺ في حديثِ صهيبٍ(٢) وغيرِه.

(١) أخرجه: مسلم (١/ ٢٨)، وأحمد (١/ ٢٨).
(٢) أخرجه: مسلم (١/ ١١٢)، وأحمد (٤/ ٣٣٢)، وابن ماجه (١٨٧).

قال جعفرُ بنُ سليمانَ: سمعتُ أبا عمرانَ الجونيَّ قال: إنَّ اللَّه لم ينظرْ إلى إنسانٍ قطُّ إلا رحِمَهُ، ولو نظرَ إلى أهلِ النارِ لرحمَهُم، ولكن قضَى أن لا ينظرَ إليهم.

وقال أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ: حدثنا أحمدُ بنُ موسى عن أبي مريمَ، قال: يقولُ أهلُ النارِ: إلهَنا ارضَ عنَّا وعذِّبْنا بأيِّ نوعٍ شئتَ من عذابِكَ، فإن غضبَك أشدُّ علينا من العذابِ الذي نحنُ فيه، قال أحمدُ: فحدثتُ سليمانَ ابنَ أبي سليمانَ، فقال: ليس هذا كلامُ أهلِ النارِ، هذا كلامُ المطيعينَ للَّه، قال: فحدثتُ به أبا سليمانَ، فقال: صدق سليمانُ بنُ أبي سليمانَ - وسليمانُ وهو ولدُ أبي سليمانَ الدرانيِّ، وكان عارفًا كبيرَ القدرِ رحمه اللَّهُ - وما قاله حقٌّ، فإنَّ أهلَ النارِ جهالٌ لا يتفطنونَ لهذا، وإن كان في نفسِهِ حقًّا، وإنَّما يعرفُ هذا مَنْ عرفَ اللَّهَ وأطاعَهُ، ولعلَّ هذا يصدرُ من بعضِ من يدخلُ النارَ من عصاةِ الموحدينَ، كما أن بعضَهُم يستغيثُ باللَّهِ لا يستغيثُ بغيرِهِ، فيخرجُ منها، وبعضُهم يخرجُ منها برجائِهِ للَّه وحدَهُ، وبعضُ من يؤمرُ به إلى النارِ يتشفع إلى اللَّه بمعرفتِهِ فينجيهِ منها.

قال أبو العباس بنِ مسروقٍ: سمعتُ سويدَ بنَ سعيد يقولُ: سمعتُ الفضيلَ بنَ عياضٍ، يقولُ: يوقفُ رجلٌ بين يدي اللَّهِ عزَّ وجلَّ، لا يكونُ معه حسنةٌ، فيقولُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: اذهبْ هل تعرفُ أحدًا من الصالحينَ أغفرُ لكَ بمعرفتِهِ، فيذهبُ فيدورُ مقدارَ ثلاثين سنة فلا يرى أحدًا يعرفُهُ، فيرجعُ إلى اللَّه عزَّ وجلَّ، فيقولُ: يا ربِّ لا أرى أحدًا، فيقولُ اللَّه عزَّ وجلَّ: اذهبُوا به إلى النارِ، فتتعلقُ به الزبانيةُ يجرُّونه، فيقولُ: يا ربِّ إن كنتَ تغفر لي بمعرفة المخلوقينَ فإني بوحدانيتِكَ أنت أحقُّ أن تغفرَ لي، فيقولُ اللَّهُ

للزبانية: ردُّوا عارفي لأنه يعرفني واخلعُوا عليه خلعَ كرامتي، ودعُوه يتبحبح في رياضِ الجنَّة، فإنه عارفٌ بي وأنا له معروف»(١).

* * *

قال اللَّه تعالـى في حقِّ الفجارِ: ﴿كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ فوصفَهُم بأنَّ كسبَهُم رانَ على قلوبِهِم، والرانُ هو ما يـعلُو على القلبِ من الذنوبِ من ظلمـةِ المعاصي وقـسوتهـا، ثمَّ ذكرَ جزاءَهُم على ذلكَ وهو ثلاثةُ أنواعٍ: الحجـابُ عن ربِّهم، ثم صَلْيُ الجحيمِ، ثم التوبيخُ.

فأعظم عـذابِ أهلِ النارِ حجابُهم عن ربِّهم عـزَّ وجلَّ، ولمَّا كانتْ قلوبُهم في الدنيا مظلمـةٌ قاسيةٌ لا يصلُ إليـها شيءٌ من نورِ الإيمانِ وحقائقُ الـعرفانِ كان جزاؤهم على ذلكَ في الآخرةِ حجابَهم عن رؤية الرحمنِ.

قال بعضُ العارفين: «من عـرفَ اللَّهَ في الدنيا، عرفَهُ بقدرِ تعـرُّفِهِ إليه، وتجلَّى له في الآخرةِ بقدرِ معرفتِهِ إياه في الدُّنيا فرأوه في الدنيا رؤيةَ الأسرارِ، ورأَوه في الآخرةِ رؤيةَ الأبصـارِ، فمنْ لا يراهُ في الدنيا بســرهِ لسرهِ، لا يراهُ في الآخرةِ بعينه» انتهى.

فخـوفُ العارفينَ في الدنيا من احـتجابِهِ عن بصـائرِهِم، وفي الآخرةِ من احتجابهم عن أبصارِهِم ونواظرِهِم.

وكتبَ الأوزاعيُّ إلى أخٍ له: «أما بعد: فإنَّه قدْ أحيطَ بك من كلِّ جانبٍ،

---

(١) «التخويف من النار» (١٥٥ ـ ١٥٦).

واعلمْ أنّه يسَارُ بك في كلِّ يومٍ وليلةٍ ، فاحذرِ اللَّهَ والمقامَ بين يديه، وأن يكونَ آخرَ عهدكَ به السلامُ».

وكان عتبةُ الغلامُ يبكي بالليلِ ويقولُ: «قطعَ ذكرُ العرضِ على اللَّهِ أوصالَ المحبينَ» ثم يحشرجُ البكاء حشرجةَ الموتِ ويقولُ: «تراك مولاي تعذِّبُ محبَّك وأنتَ الحيُّ الكريمُ» وباتَ ليلةً بالساحل قائمًا يردِّدُ هذه الكلمات لا يزيدُ عليها ويبْكي حتى أصبح: «إن تعذِّبْني فإنِّي محبٌّ لكَ، وإن ترحمْني فإني محبٌّ لك».

وكان كهمسُ يقولُ في الليلِ: «أتراكَ تعذِّبني وأنت قرةُ عيني يا حبيبَ قلبَاهُ».

وكان أبو سليمانَ يبْكي ويقولُ: «لئنْ طالبني بذنوبي لأطالبنَّهُ بعفوِهِ، ولئنْ طالبَني ببخلي لأطالبنَّه بجودِهِ، ولئنْ أدخلنِي النارَ، لأخبرنَّ أهلَ النارِ أنِّي كنت أحبُّه».

ومما يخافُه العارفونَ فواتَ الرِّضا عنهم، وإن وجَدُوا العفوَ أو تركَ العقوبةِ، فإنَّ الرِّضا أحبُّ إليهم من نعيمِ الجنةِ كلِّه مع الإعراضِ وعدمِ التقريبِ والزُّلفى، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ**﴾ [التوبة:٧٢] يعني: أكبرَ من نعيمِ الجنةِ.

وفي «الصحيحِ»(١) عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّ اللَّهَ يقولُ لأهلِ الجنةِ: ألا أُعْطيكُمْ أفْضَلَ من ذلكَ، قالوا: وما أفْضَلُ من ذلك؟ قال: أُحلُّ عليكُمْ رِضْواني فلا أَسْخطُ عليكم بعدَه أبدًا**»(٢).

* * *

(١) أخرجه: البخاري (٨/ ١٤٢)، ومسلم (٨/ ١٤٤).
(٢) «استنشاق نسيم الأنس» (١٦٢ ـ ١٦٧) باختصار.

قوله تعالى: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾

وقد قيل في تأويل قولِهِ تعالى: ﴿خِتَامُهُ مِسْكٌ﴾ [المطففين: ٢٦] إنَّ المُرادَ بالختامِ ما يَبْقى، في سُفْلِ الشـرابِ منَ الثُّفْلِ، وهذا يدلُّ على أنَّ أنهارَها تجْرِي على المسْكِ، ولذلك يرسُبُ منه في الإناءِ في آخرِ الشَّرابِ، كما يرسُبُ الطِّيْنُ في آنيةِ الماءِ في الدُّنيا[1].

* * *

(١) «لطائف المعارف» (٦٦).

سُورَةُ الْبُرُوجِ

قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾

يوم عرفة له فضائل متعددة:

منها: أنه قد قيلَ: إنَّه الشَّفْعُ الذي أقسَمَ اللَّه به في كتابِهِ، وأنَّ الوتْرَ يومُ النَّحْرِ، وقد رُوي هذا عن النبيِّ ﷺ من حديثِ جابرٍ، خرَّجَهُ الإمامُ أحمدُ[1] والنسائيُّ في «تفسيرِهِ» وقيل: إنَّه الشاهدُ الذي أقسمَ اللَّهُ به، في كتابِهِ، فقال تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج:٣] وفي «المسند»[2] عن أبي هريرة مرفوعًا وموقوفًا: «الشَّاهدُ يومُ عَرَفَةَ، والمشهودُ: يومُ الجُمُعَة» وخرَّجه الترمذيُّ[3] مرفوعًا. ورُوي ذلك عن عليٍّ من قولِهِ.

وخرَّجه الطبرانيُّ[4] من حديثِ أبي مالكٍ الأشعريِّ مرفوعًا: «الشاهد: يومُ الجُمُعةِ، والمشهودُ: يومُ عرفَة» وعلى هذا فإذا وقعَ يومُ عرفة في يومِ جُمُعة فقد اجتمع في ذلك اليوم شاهدٌ ومشهودٌ[5].

* * *

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٣٢٧).
(٢) «المسند» (٢/ ٢٩٨).
(٣) «الجامع» (٣٣٣٦).
(٤) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (٣/ ٢٩٨).
(٥) «لطائف المعارف» (٤٨٧ ـ ٤٨٨) بتصرف.

قوله تعالى: ﴿الْوَدُودُ﴾

قال عليٌّ بنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ في قولِهِ تعالى: ﴿الْوَدُودُ﴾ [البروج:١٤] قال: يقولُ: «الحبيبُ». خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ في «تفسيرِهِ»، وفي حديثِ أبي جعفر الرازيِّ عن الربيعِ بنِ أنسٍ عن أبي العاليةَ أو غيرِه عن أبي هريرةَ في قصةِ الإسراءِ الطويلةِ في ذكرِ سدرةِ المنتهى، قال[1]: «فغشاها نورُ الخالقِ وغشيتْها الملائكةُ مثلُ الغربانِ حينَ يقعْنَ على الشجرةِ من حبِّ اللَّهِ جلَّ ثناؤُه».

قال الجوزجانيُّ: حدثنا أبو صالحٍ أنَّ معاويةَ حدَّثه عن يزيد بنِ ميسرةَ أنه سمعَ أبا الدرداءِ يقولُ: لما أهبطَ اللَّهُ آدمَ إلى الأرضِ قال له: «يا آدمُ أحِبَّني وحبِّبني إلى خلقِي ولا تَسْتَطِيعُ ذلك إلا بي ولكنِّي إذا رأيتُك حريصًا على ذلك أعنتُك عليه، فإذا فعلتَ ذلك فخُذْ به اللذةَ و النضرة وقرةَ العينِ والطمأنينة.

قال خليدٌ العصريُّ: «يا إخوتَاهُ، هلْ منكُم من أحدٍ لا يحبُّ أن يلَقى حبيبَهُ؟ ألا فأحبُّوا ربَّكم عزَّ وجلَّ وسيرُوا إليه سيْرًا جميلاً لا مصعدًا ولا مميلاً».

وخرَّج ابنُ أبي الدنيا من طريقِ ابن لهيعةَ حدَّثني عبدُ الحميدِ بنُ عبدِ اللَّهِ ابنِ إبراهيمَ القرشيُّ عن أبيه قالَ: لما نزلَ بالعباسِ بنِ عبدِ المطلبِ الموتُ قال لابنِهِ عبدِ اللَّه: «إنِّي موصيكَ بحبِّ اللَّهِ وحبِّ طاعتِه، وخوفِ اللَّهِ وخوفِ معصيتِه، وإنَّك إذا كنتَ كذلك لم تكره الموتَ متى أتاك».

قال أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ: حدثنا أبو صالحٍ الخراسانيُّ، قال: حدثنا

(١) أخرجه: الطبري في «التفسير» (١٥/٦ ـ ١٠)، وهو جزء من أثرٍ طويل.

إسحـاقُ بنُ نجيحٍ عن إسـماعـيلَ الكنديِّ قال: جـاءَ رجلٌ من البـصرةِ إلى طاووسَ ليسمعَ منه فوافاهُ مريضًا فجلسَ عند رأسِهِ يبْكي، فقال: ما يبكيك؟ قال: «واللَّهِ ما أبْكي على قرابةٍ بيني وبينك ولا على دُنيا جئتُ أطلبُها منكَ، ولكنْ على العلمِ الذي جئتُ أطلبُه منكَ يفوتُني».

قال له طاووسُ: «إنِّي مـوصيكَ بثـلاثِ كلماتٍ إنْ حفظتَـهُنَّ علمتَ علمَ الأولينَ، وعلمَ الآخرينَ، وعلمَ ما كانَ، وعلمَ ما يكونُ: خَفِ اللَّهَ حتى لا يكونَ عندكَ شيءٌ أخـوفَ منـه، وارْجُ اللَّهَ حـتى لا يكونَ عندكَ شيءٌ أرجـا منه، وأحبَّ اللَّهَ حـتى لا يكـونَ شيءٌ أحبَّ إليك منه»، فـإذا فـعلتَ ذلك علمتَ علمَ الأولين والآخرِينَ، وعلمَ ما كانَ وعلمَ ما يكون» فقال: «لا جرم لا سألتُ أحدًا بعدك عن شيءٍ بقيتُ».

وعن إبراهيم بن الأشعثِ قـال: «سمعتُ الفـضيلَ بنَ عياضٍ يقـولُ: مرَّ عيسى عليه السلامُ بثلاثةٍ من الناسِ نحلتْ أجسامُهم وتغيرتْ ألوانُهم، فقال: ما الذي بلغَ بكُم مـا أرى؟ قالوا: الخوفُ من النيـرانِ. قال: مخلوقًا خِـفتُم وحقٌّ على اللَّهِ أن يؤمِّنَ الخائفَ، ثم جاوزَهُم إلى ثلاثـةٍ أُخر، فإذا هُم أشدُّ تغيـرًا وأنحلُ أجسامًا، فـقال: ما الذي بلغَ بكُم ما أري؟ قـالوا: الشوقُ إلى الجنَّةِ، قـال: مخلوقًـا اشتـقتُم وحقٌّ علـى اللَّهِ أن يعطيكم ما رجـوتُم، ثم جـاوزَهُم إلى ثلاثةٍ أُخـر فإذا هم أشـدُّ تغيرًا وأنحل أجسـامًا، كـأنَّ على وجوهِهِم المرَايا من النُّور، فقالَ: مـا الذي بلغَ بكُم ما أرى؟ قالوا: حبُّ اللَّهِ عزَّ وجلَّ، قال: أنتم المقربونَ، أنتم المقرَّبونَ، أنتُم المقربون».

وروى إبراهيمُ بنُ الجنيـدِ بإسنادِهِ عن كـعبٍ قال: أوحى اللَّهُ إلى مـوسى

عليه السلام: «**إن إبراهيم عليه السلامُ لم يحبَّني أحدٌ من خلقي كحبِّه إياي**».

وعن أبي حازمٍ القيساريِّ قال: مكتوبٌ في الإنجيلِ: «يا عيسى، الحقُّ والحقَّ أقولُ: إنِّي أحَبُّ إلى عبدِي من نفسِهِ التي بين جنبيه».

وعن ابنِ عيينةَ عن رجلٍ: عن يحيى بن أبي كثيرٍ اليمانيِّ، قال: نظرْنَا فلم نجدْ شيئًا يتلذذُ به المتلذذون أفضلَ من حبِّ اللَّهِ عزَّ وجلَّ وطلبِ مرضاتِهِ.

وعن سعيد بن عامرٍ عن محمدِ بنِ ليثٍ عن بعضِ أصحابِهِ قال: كان حكيمُ بنُ حزامٍ يطوفُ بالبيتِ ويقولُ: لا إله إلا اللَّه، نعم الربُّ ونِعْمَ الإلهُ، أحبه وأخشاه.

وعن بكرٍ المزنيِّ قال: ما فاقَ أبو بكرٍ أصحابَ محمدٍ ﷺ بصومٍ ولا صلاةٍ، ولكنْ بشيءٍ وقرَ في قلبِهِ.

قال إبراهيمُ: بلغني عن ابنِ عُلَيّة أنه قال: في عقيبِ هذا الحديثِ: الذي كان في قلبِهِ الحبُّ للَّهِ عزَّ وجلَّ، والنصيحةُ في خلقِهِ.

قال ابنُ أبي الدنيا حدَّثنا هارونُ بن سفيانَ حدَّثنا عبدُ اللَّهِ بن صالحٍ أخبرني بعضُ أهلِ البصرةِ، قال: لمَّا استقضى سوَّارٌ بالبصرة، كتبَ إليه أخٌ له كان يطلبُ العلمَ معه وكان ببعضِ الثغورِ: «أمَّا بعدُ، أوصيك بتقوى اللَّهِ الذي جعلَ التقوى عوَضًا من كلِّ فائتٍ منَ الدنيا، ولم يجعلْ شيئًا من الدنيا يكونُ عِوَضًا من التَّقوى، فإنَّ التقوى عقدةُ كلِّ عاقلٍ مستبصرٍ، إليها يستروحُ، وبها يستنُّ، ولم يظفرْ أحدٌ في عاجلِ هذه الدنيا وآجلِ الآخرةِ بمثلِ ما ظفرَ به أولياءُ اللَّه الذين شربُوا بكأس حبِّه، فكانتْ قرةَ أعينهم فيه،

ولكنهم أعملُوا أنفسهم في جسيمِ الأدبِ وأراضوها رياضةَ الأصحابِ الصادقينَ، فطلَّقُوها عن فضولِ الشهواتِ وألزمُوها القوتَ المقلق، وجعلُوا الجوعَ والعطشَ شعارًا لها برهةً من الزمان، حتى انقادتْ وأذعنتْ وعزفتْ لهم عن فضولِ الحطامِ، فلمَّا ظعنَ حبُّ فضولِ الدنيا من قلوبِهم، وزايلتْها أهواءُهم وانقطعتْ أمانيهم وصارتِ الآخرةُ نصبَ أعينهم ومنتهى أملِهم، ورَّثَ اللَّه قلوبَهم نورَ الحكمة، وقلَّدها قلائدَ العصمةِ، وجعلَهم دعاةً لمعالمِ الدين يلمُّون منه الشعثَ، ويشعبون منه الصدعَ. لم يلبثُوا إلا يسيرًا حتَّى جاءهم من اللَّهِ موعدٌ صادقٌ اختصَّ به العاملينَ له، والعاملينَ به دونَ من سواهم، فإذا سرَّك أن تسمعَ صفةَ الأبرارِ الأتقياءِ، فصفةُ هؤلاءِ فاستمعْ، وشمائلَهُم الطيبةَ فاتبعْ، وإياكَ يا سوارُ وبنياتِ الطريقِ والسلامُ».

وخرَّج أبو نعيمٍ بإسنادِهِ عن الربيعِ بنِ برةَ عن الحسنِ في قولهِ تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر:٢٧] قال: «النفسُ المؤمنة اطمأنَّتْ إلى اللَّه واطمأنَّ إليها، وأحبَّتْ لقاءَ اللَّه، وأحبَّ لقاءهَا، ورضيتْ عن اللَّهِ ورضي عنها، فأمرَ بقبضِ رُوحِهَا، فغفرَ لها وأدخلها الجنةَ، وجعلها من عباده الصالحين».

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسنادِهِ عن مسمعِ بنِ عاصمٍ عن نعيمِ بنِ صبيحٍ السعديِّ قال: «هممُ الأبرارِ متصلةٌ بمحبةِ الرحمنِ، وقلوبُهم تنظرُ إلى مواضعِ العزِّ من الآخرةِ بنورِ أبصارِهم».

وقال مسمعٌ: سمعتُ عابدًا من أهلِ البحرينِ يقول في جوفِ الليل: «قرةَ عيني وسرورَ قلبي، ما الذي أسقطني من عينكَ يا مانحَ العصمِ، ثم صرخَ وبكى، ثمَّ نادَى: طوبى لقلوبٍ ملأتْهَا خشيتُكَ، واستولتْ عليها محبَّتُكَ، فمحبتُكَ مانعةٌ لها من كُلِّ لذَّةٍ غيرَ مناجاتِكَ، والاجتهادِ في خدمتكَ،

وخشيتُك قاطعةٌ لها عن سبيل كُلِّ معصيةٍ خوفًا لحلول سخطكَ، ثم بكى وقال: يا إخوتاهُ، ابكوا على فوت خير الآخرةِ، حيث لا رجعةَ ولا حيلة.

وبإسناده عن أيوبَ بن حوطٍ عن قتادةَ قال: كان في حضرةٍ عتتْ، شيخٌ يقال له: سوادُ بنُ محمدٍ كان لا يقدر أن يسمعَ القرآنَ من شدةِ خوفه وكان يقولُ: سيدُ الأعمالِ التقوى. ثم البذلُ، ثم بعدَ البذلِ الشكرُ، ثم بعدَ الشكرِ الرِّضا، ثم بعدَ الرِّضا التعظيمُ، ثم بعد التعظيم الحبُّ للَّه والإجلالُ له». ومعنى هذا أن درجة الحبِّ المستحبةَ التي ذكرناها في أوَّلِ الكتابِ متأخرةٌ عن درجةِ الشكرِ والرِّضا والتعظيمِ والبذلِ.

أما الواجبةُ فإنها تدخلُ في التقوى كما سبقَ بيانُه[1].

* * *

(١) «استنشاق نسيم الأنس» (١٧٩ ـ ١٨٥).

سُورَةُ الْفَجْرِ

قوله تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾

في حديثِ ابنِ عُمَرَ المرفوعِ: «**ما مِنْ أيامٍ أعظمُ عندَ اللَّهِ ولا أحبُّ إليه العملُ فيهنَّ من هذه الأيامِ العَشْرِ**»[1] وفي «صحيح ابنِ حبانَ»[2] عن جابرٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «**ما مِنْ أيامٍ أفضلُ عندَ اللَّهِ من أيامِ عشْرِ ذي الحجَّةِ**»، ورويناه من وَجه آخرَ بزيادة، وهي: «**ولا ليالي أَفْضَلُ من لياليهنَّ**» ، قيل: يا رسول اللَّه، هُنَّ أفضلُ منْ عِدتهنَّ جهادًا في سبيل اللَّه؟ قال: «**هُنَّ أفضلُ من عِدتهنَّ جهادًا في سبيلِ اللَّهِ، إلا من عُفِّرَ وجهُه تعفيرًا، وما مِنْ يَومٍ أفضلُ من يومِ عرفة**» خرَّجه الحافظُ أبو موسى المدينيُّ منْ جهةِ أبي نُعيمٍ الحافظِ بالإسنادِ الذي خرَّجه به ابنُ حبَّانَ. وخرَّجه البزار[3] وغيرُه من حديثِ جابرٍ أيضًا عن النبيِّ ﷺ، قال: «**أفضلُ أيامِ الدنيا أيامُ العشْرِ**» ، قالُوا: يا رسول اللَّه، ولا مثلُهُنَّ في سبيلِ اللَّه؟ قال: «**ولا مثْلُهُنَّ في سبيلِ اللَّهِ، إلا مَنْ عُفِّرَ وجهُه بالترابِ**» . ورُوي مرْسَلاً وقيل: إنَّه أصحُّ، وقد سبق ما رُوي عن ابنِ عُمرَ: قال: ليس يومٌ أعْظمُ عندَ اللَّهِ من يومِ الجمعة، ليْسَ العشْرَ، وهو يدلُّ على أنَّ أيامَ العشْرِ أفضَلُ من يومِ الجُمُعة الذي هو أفضَلُ الأيامِ.

---

(١) أخرجه: أحمد (٢/ ٧٥، ١٣١).

(٢) أخرجه: ابن حبان (٣٨٥٣).

(٣) (١١٢٨ ـ كشف الأستار).

وقال سهيلُ بنُ أبي صالحٍ، عن أبيه، عن كعبٍ، قال: اختارَ اللَّهُ الزمانَ، فأحبُّ الزَّمانِ إلى اللَّهِ الشهرُ الحرامُ، وأحبُّ الأشهرِ الحُرُمِ إلى اللَّهِ ذو الحجَّةِ، وأحبُّ ذي الحجَّة إلى اللَّه العشرُ الأُوَلِ. ورواه بعضُهم عن سُهيلٍ عن أبيه، عن أبي هريرة، ورفعه، ولا يصحُّ ذلك، وقال مسروقٌ في قوله تعالى: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر:٢] : هي أفضلُ أيَّامِ السَّنةِ. خرَّجه عبدُ الرزاقِ(١) وغيرُهُ، وأيضًا فأيَّامُ هذا العشرِ يشْتملُ على يوم عرفة. وقد رُوي أنه أفضَلُ أيَّامِ الدنيا، كما جاء في حديثِ جابرٍ الذي ذكرناه وفيه: «يومُ النَّحْرِ». وفي حديثِ عبدِ اللَّه بنِ قُرْطٍ، عن النبيِّ ﷺ، أنه قال: «**أعظمُ الأيامِ عندَ اللَّه يومُ النَّحْرِ، ثمَّ يومُ القَرِّ**». خرَّجه الإمامُ أحمدُ وأبو داود وغيرُهما(٢)، وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ عشْرَ ذي الحجَّةِ أفْضلُ من غيرِهِ من الأيَّامِ منْ غيرِ استْثناءٍ، هذا في أيامِهِ.

فأمَّا لياليه فمنَ المتأخِّرينَ منْ زعمَ أنَّ ليالي عشْرِ رمضانَ أفضلُ منْ لياليه، لاشْتمالِهَا على ليلةِ القدرِ، وهذا بعيدٌ جداً.

ولو صحَّ حديثُ أبي هريرة: «**قيامُ كلِّ ليلةٍ منها بقيامِ ليلة القدر**» لكان صريحًا في تفضيلِ لياليه على ليالي عشْرِ رمضانَ، فإنَّ عشْرَ رمضانَ فُضِّلَ بليلةٍ واحدةٍ فيه، وهذا جميعُ لياليه متَساويةٌ لها في القيام على هذا الحديثِ. ولكنَّ حديثَ جابرٍ الذي خرَّجه أبو موسى صريحٌ في تفضيلِ لياليه كتفضيلِ أيَّامِهِ أيضًا، والأيَّامُ إذا أُطلِقَتْ دخلتْ فيها الليالي تبعًا، وكذلك الليالي تدْخُلُ

---

(١) «المصنف» (٤/ ٣٧٦).

(٢) «المسند» (٤/ ٣٥٠)، وأبو داود (١٧٦٥)، وابن خزيمة (٢٨٦٦، ٢٩١٧، ٢٩٦٦)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (١٩٧٧).

أيَّامُها تبعًا.

وقد أقسَمَ اللَّه تعالى بلياليه، فقال: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١، ٢]، وهذا يدلُّ على فضيلةِ لياليه أيضًا، لكنْ لم يثبُتْ أنَّ لياليه ولا شيئًا منها يعدلُ ليلةَ القدْرِ.

وقد زعمَ طوائفُ منْ أصحابِنا أنَّ ليلةَ الجمعة أفضلُ من ليلةِ القدْرِ، ولكنْ لا يصحُّ ذلك عن أحمد، فعلى قولِ هؤلاءِ لا يُسْتبْعَدُ تفضيلُ ليالي هذا العشْرِ على ليلةِ القدرِ.

والتحقيقُ ما قالَهُ بعضُ أعيان المتأخِّرينَ منَ العلماءِ، أنْ يقُال: مجموعُ هذا العشْرِ أفضلُ من مجموعِ عشْرِ رمضانَ، وإنْ كان في عشْرِ رمضان ليلةٌ لا يَفْضل عليها غيرُها، واللَّه أعلم.

وما تقدَّم عنْ كعبٍ يدلُّ على أنَّ شهرَ ذي الحجَّةِ أفضلُ الأشهرِ الحُرُمِ الأربعة، وكذا قال سعيدُ بنُ جبير، راوي هذا الحديثِ عن ابنِ عباسٍ: «**ما من الشهورِ شهرٌ أعْظمُ حُرْمةً منْ ذي الحجَّةِ**».

وفي «مسندِ البزَّارِ»[(١)] عن أبي سعيدٍ الخدريِّ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**سيِّدُ الشهورِ رمضانُ، وأعْظمها حُرْمةً ذو الحجَّةِ**». وفي إسنادِهِ ضعفٌ.

وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ»[(٢)]، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ أيضًا: أنَّ النبيَّ ﷺ، قال في حجة الوداع في خطبته يومَ النَّحْرِ: «**ألا إنَّ أحْرَمَ الأيامِ يومُكُم هذا، ألا وإنَّ أحْرَمَ الشُّهورِ شهرُكُم هذا، ألا وإنَّ أحرَمَ البلادِ بلدُكُم هذا**».

---

(١) (٩٦٠ ـ كشف الأستار).

(٢) «المسند» (٣/ ٨٠).

ورُوي ذلك أيضًا عن جابرٍ، ووابصةَ بنِ معبد، ونُبيطِ بنِ شَريط، وغيرِهم، عن النبيِّ ﷺ، وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ شهرَ ذي الحجَّة أفضلُ الأشهرِ الحُرُمِ، حيثُ كان أشدَّهَا حُرْمةً، وقد رُوي عن الحسنِ: أنَّ أفضلها المحرَّم، وسنذكرُهُ عند ذِكرِ شهرِ المُحَرَّم، إن شاء اللَّه تعالى.

وأمَّا من قال: إنَّ أفضلَها رجبٌ فقولُهُ مردُودٌ.

ولِعَشْرِ ذي الحجة فضائلُ أُخرُ غيرَ ما تقدَّم.

فمنْ فضائله: أنَّ اللَّه تعالى أقسَمَ به جُملةً، وببعضه خُصوصًا، قال تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١، ٢] فأمَّا الفجرُ فقيل: إنه أراد جنسَ الفجر، وقيل: المرادُ طلوعُ الفجر، أو صلاةُ الفجر، أو النَّهارُ كلُّه، فيه اختلافٌ بين المفُسِّرين، وقيلَ: إنه أريد به فَجْرٌ مُعَيَّنٌ، ثُمَّ قيل: إنه أُرِيدَ به فجرُ أوَّلِ يومٍ من عَشر ذي الحجَّة، وقيل: بل أُرِيدَ به فجرُ آخرِ يومٍ منه، وهو يومُ النَّحْرِ، وعلى جميعِ هذه الأقوالِ، فالعَشْرُ يشتملُ على الفجرِ الذي أقْسَمَ اللَّهُ به.

وأمَّا «الليالي العشر» فهي عشر ذي الحجَّة، هذا الصحيحُ الذي عليه جُمهور المُفسِّرين منَ السلفِ وغيرِهم، وهو الصحيحُ عن ابنِ عباسٍ، روي عنه مِنْ غيرِ وجهٍ والروايةُ عنه: «أنه عشرُ رمضان» إسنادُها ضعيفٌ.

وفيه حديثٌ مرفوعٌ خرَّجه الإمامُ أحمدُ، والنسائيُّ في «التفسيرِ»(١) منْ روايةِ زيدِ بنِ الحُبابِ حدَّثنا عيَّاشُ بنُ عُقبة، حدَّثنا خيرُ بنُ نُعيم، عن أبي الزُّبير، عن جابر، عن النبيِّ ﷺ قال: **«العَشْرُ عشرُ الأَضْحَى، والوَتْرُ يومُ عرفة، والشَّفْعُ يومُ النَّحْرِ»** وهو إسنادٌ حسنٌ.

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٣٢٧)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٢٧٠٤).

وكذا فسَّر «الشَّفْعَ» و«الوتْرَ» ابنُ عباسٍ في روايةِ عكرمةَ وغيرِهِ، وفسَّرهما أيضًا بذلك عكرمـةُ والضحاكُ وغيـرُ واحدٍ، وقد قـيل في «الشَّفْعِ» و«الوتْرِ» أقوالٌ كثـيرةٌ، وأكثرها لا يخرجُ عن أنْ يكونَ العـشرُ أو بعضُه مُشـتملاً على «الشَّفْعِ» و«الوترِ» أو أحدِهما، كقولِ من قـال: «هي الصلاةُ منها شفعٌ ومنها وترٌ»، وقد خرَّجه الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ[1] من حديث عمرانَ بن حُصينٍ، عن النبيِّ ﷺ وقولُ منْ قـال: هي المخلوقات منها شـفْعٌ ومنها وَتْر، يدخلُ فيـها أيامُ العَـشْرِ. وقولُ مَنْ قـال: الشفعُ الخلْقُ كلُّه، والوِتْرُ الـلَّه، فإنَّ أيامَ العشْرِ منْ جُمْلَةِ المخلوقاتِ.

ومنْ فضائِلِه أيضًا: أنه من جملة الأربعين التي واعـدها اللَّه عزَّ وجلَّ لموسى عليه السلام قال اللَّه تعالى: ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف:١٤٢]، ولكن هل عَشْرُ ذي الحجَّة خـاتمةُ الأربعينَ، فيكونُ هو العشْرُ الذي أُتِمَّ به الثَّلاثون، أمْ هو أوَّلُ الأربعين، فيكونُ مِنْ جُملةِ الثلاثينَ التي أُتِمَّتْ بعشر؟ فيه اختلافٌ بينَ المفسرين.

روى عبدُ الرزاقِ[2]، عن معـمر، عن يزيدَ بنِ أبي زيادٍ، عنْ مُـجاهدٍ، قال: ما منْ عـملٍ في أيَّامِ السنة أفضلُ منه في العَشْـرِ من ذي الحجَّة، وهي العشْرُ التي أَتَمَّهَا اللَّهُ لموسى عليه السلام».

ومنْ فضائِلِه: أنَّه خاتمةُ الأشهرِ المعلوماتِ، أشهـرُ الحجِّ التي قال اللَّه فيها: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة:١٩٧]، وهي شوَّالٌ، وذو القـعْدةِ، وعَـشْرٌ من ذي الحجَّةِ.

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٤/ ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٤٢)، والترمذي (٣٣٤٢).
(٢) «المصنف» (٤/ ٣٧٥).

وروي ذلك عن عُمرَ، وابنِه عبدِ اللَّه، وعليٍّ، وابنِ مسعودٍ، وابنِ عباسٍ، وابنِ الزُّبيرِ وغيرِهِم، وهو قولُ أكثر التابعينَ، ومذهبُ الشافعيِّ، وأحمدَ وأبي حنيفةَ وأبي يوسُفَ وأبي ثور وغيرِهم، لكنَّ الشافعي وطائفةً أخْرجوا منه يومَ النَّحْرِ، وأدخله فيه الأكثرون، لأنَّه يومُ الحجِّ الأكبرِ، وفيه يقعُ أكثرُ أفعال مناسكِ الحجِّ. وقالتْ طائفةٌ: ذو الحِجَّةِ كلُّه منْ أشهرِ الحجِّ، وهو قولُ مالكٍ، والشافعيِّ في القديمِ، ورواه عن ابنِ عمرَ أيضًا، وروي عن طائفةٍ من السلفِ، وفيه حديثٌ مرفوعٌ خرَّجه الطبرانيُّ، لكنّه لا يصحُّ. والكلامُ في هذه المسألةِ يطولُ، وليس هذا موضعه.

ومن فضائله: أنَّه الأيَّامُ المعلوماتُ التي شرع اللَّه ذكْرَه فيها على ما رزَقَ من بهيمةِ الأنعامِ، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ [الحج:٢٧، ٢٨] وجمهورُ العلماءِ على أنَّ هذه الأيامَ المعلوماتِ هي عشْرُ ذي الحجَّةِ، منهم ابنُ عمرَ، وابنُ عباسٍ والحسنُ وعطاءٌ ومجاهدٌ وعكرمةُ وقتادةُ والنَّخعيُّ، وهو قولُ أبي حنيفةَ والشافعيِّ وأحمدَ في المشهورِ عنه.

ورُوي عن أبي موسى الأشعريِّ: أنَّ الأيامَ المعلوماتِ هي تسْع ذي الحجَّة غير يومِ النحرِ، وأنَّه قال: لا يُرَدُّ فيهنَّ الدعاءُ. خرَّجه جعفر الفرْيابيُّ وغيرُه.

وقالتْ طائفةٌ: هي أيَّامُ الذبحِ. ورُوي عن طائفةٍ من السلفِ، وهو قولُ مالكٍ، وأبي يوسفَ، وجعلوا ذِكْرَ اللَّهِ فيها ذِكْرَه على الذبح، وهو قولُ ابنِ عُمرَ رضي الله عنهما، ونقل المرُّوْذيُّ عن أحمدَ أنه استحسنه، والقولُ الأولُ أظْهرُ.

وذكْرُ اللَّه على بهيمةِ الأنعامِ لا يختصُّ بحالِ ذبْحِها، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾ [الحج:٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ [الحج:٣٤]، وأيضًا فقد قال اللَّهُ تعالى بعد هذا: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج:٢٨، ٢٩].

فجعل هذا كلَّه بعْدَ ذِكْرِهِ في الأيام المعلوماتِ وقضاءِ التَّفَثِ، وهو شعثُ الحجِّ، وغبارُهُ ونصَبُهُ. والطَّوافُ بالبيتِ إنَّما يكونُ في يوم النحر وما بعدَه، ولا يكونُ قبْله وقد جعلَ اللَّه سبحانه هذا مُرَتَّبًا على ذِكْرِهِ في الأيَّامِ المعلوماتِ بلفظةِ «ثُمَّ» فدلَّ على أنَّ المرادَ بالأيَّامِ المعلوماتِ ما قبْل يومِ النَّحْرِ، وهو عشْرُ ذي الحجَّة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ﴾ [الحج:٢٨] فقيل: إنَّ المرادَ ذكْرُهُ عند ذَبْحِها، وهو حاصلٌ بذكْرِهِ في يوم النحر، فإنّه أفضلُ أيامِ النَّحْرِ، والأصحُّ أنه إنما أريد ذِكْرُه شُكْرًا على نعمة تسخيرِ بهيمة الأنعام لعباده، فإنَّ للَّه تعالى على عباده في بهيمة الأنعامِ نعمًا كثيرةً قد عدَّد بعْضها في مواضعَ منَ القرآنِ، والحاجُّ لهم خصوصية في ذلك عن غيرِهم؛ فإنَّهم يسيرونَ عليها إلى الحَرَمِ، لقضاءِ نُسُكهم، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج:٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ﴾ [النحل:٧]، ويأكلون من لحومِهَا، ويَشْربون من ألبانِها، وينتفعون بأصْوافِهَا وأوبارِها وأشعارِها.

ويختصُّ عشْرُ ذي الحجَّـة في حقِّ الحاجِّ بأنَّه زمنُ سَوْقِهِم للهَدْي الذي به يكمُلُ فضلُ الحجّ، ويأكلون منْ لُحُومه في آخر العشْرِ، وهو يومُ النَّحْر.

وأفضلُ سـوْقِ الهَدْي من الميـقاتِ، ويُشـعرُ ويُقلَّدُ عندَ الإحـرامِ، وتقارنُهُ التلبيةُ، وهي مِنْ الذِّكر للَّه في الأيَّام المعلومات.

وفي الحديث: «**أفضل الحجِّ العَجُّ والثَّجُّ**»(١) وفي حديثٍ آخر: «**عجُّوا التَّكْبيرَ عجًّا، وثُجُّوا الإبل ثجًّا**».

فيكون كثرةُ ذِكْر اللَّه في أيَّامِ العشْرِ شُكْرًا على هذه النّعـمة المختصَّةِ ببهيمة الأنعام، التي بعضُها يتعلَّق بدين الحاجِّ، وبعـضُها بِدُنياهم. وأفضلُ الأعْمالِ ما كثُرَ ذِكْرُ اللَّه تعالى فيها، منهـا خُصُوصًا الحجُّ، وقد أمر اللَّه تعالى بِذكْرِه كثيرًا في أيام الحجِّ، قال تعالى: ﴿**فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ [البقرة:١٩٨، ١٩٩] فهذا الذِّكْرُ يكونُ في عشْرِ ذي الحجَّةِ. ثمَّ قال تعالى: ﴿**فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا**﴾ [البقرة:٢٠٠]، وهذا يقعُ في يومِ النَّحْرِ، وهو خاتمةُ العشْرِ أيضًا. ثم أمرَ بذكْرِهِ بعد العشْرِ في الأيام المعدوداتِ، وهي أيَّامُ التشريق.

وفي «السُّنن»(٢) عن النبيِّ ﷺ قال: «**إنَّما جُعلَ الطَّوافُ بالـبيتِ، والسَّعْيُ بيْنَ الصَّفا والمروةِ، ورميُ الجمارِ، لإقامة ذكْرِ اللَّه عزَّ وجلَّ**».

---

(١) أخـرجـه: الترمـذي (٨٢٧)، وابن مـاجـه (٢٩٢٤)، والدارمي (١٨٠٤) من حـديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (٦/ ٦٤، ٧٥، ١٣٨)، وأبو داود (١٨٨٨)، والترمذي (٩٠٢).

وفي «مسند الإمامِ أحمدَ»[١] عن معاذِ بنِ أنس: أنَّ رجلاً قال: يا رسول اللَّه، أيُّ الجهادِ أعظمُ أجرًا؟ قال: «أكثرُهُم للَّه ذِكْرًا» قال: فأيُّ الصائمين أعْظَمُ أجْرًا؟ قال: «أكثرُهُم للَّه ذِكْرًا». قال: ثم ذكر الصلاة، والزكاة، والحجَّ، والصدقة كلُّ ذلك ورسولُ اللَّه ﷺ يقول: «أكثرُهُم للَّه ذِكْرًا»، فقال أبو بكر: يا أبا حفص، ذهب الذَّاكرون بكُلِّ خيرٍ، فقال رسولُ اللَّه ﷺ: «أجَلْ».

وقد خرَّجه ابنُ المباركِ، وابنُ أبي الدنيا من وجوهٍ أُخَر مُرْسلة، وفي بعْضِها: أي الحاجِّ خيرٌ؟ قال: «أكثرهم ذكرًا للَّه» وفي بعْضِها: أيُّ الحاجِّ أعظمُ أجْرًا؟ قال: «أكثرهُم للَّه ذِكْرًا» وذكر بقيةَ الأعمالِ بمعْنى ما تقدم، فهذا كُلُّه بالنسبةِ إلى الحاجِّ.

فأمَّا أهلُ الأمصارِ فإنَّهم يشاركون الحاجَّ في عشْرِ ذي الحجَّة، في الذِّكْر، وإعدادِ الهَدْي، فأمَّا إعدادُ الهَدْي فإنَّ العشْر تُعَدُّ فيه الأضاحي، كما يسُوقُ أهلُ الموسمِ الهَدْي، ويُشاركونهم في بعضِ إحرامِهِمْ، فإنَّ منْ دخلَ عليه العَشْرُ وأرادَ أنْ يُضحّي، فلا يأخُذْ منْ شعرِهِ ولا منْ أظفارِهِ شيئًا، كما روتْ ذلك أمُّ سلمة عن النبيِّ ﷺ. خرَّج حديثَها مسلمٌ[٢]، وأخذَ بذلك الشافعيُّ، وأحمدُ، وعامَّةُ فقهاءِ الحديثِ.

ومنهم منْ شرَطَ أنْ يكونَ قد اشترى هدْيَه قبْلَ العشْرِ، وأكْثرُهُم لم يَشْرُطوا ذلك.

وخالف فيه مالكٌ، وأبو حنيفة، وكثيرٌ من الفقهاءِ، وقالوا: لا يُكره شيءٌ

---

(١) «المسند» (٣/ ٤٣٨).

(٢) «صحيح مسلم» (٦/ ٨٣).

من ذلك، واستدلُّوا بحديث عائشةَ: «كُنْتُ أفتِلُ قلائدَ الهدْيِ لرسولِ اللَّه ﷺ فلا يُحَرَّم عليه شيءٌ أحلَّه اللَّهُ له»(١).

وأجابَ كثيرٌ منْ أهلِ القولِ الأولِ: بأنه يُجْمع بين الحديثين، فيؤخَذُ بحديثِ أمِّ سلمةَ فيمن يُريد أن يُضحِّي في مصرِهِ، وبحديثِ عائشةَ فيمن أرْسلَ بهَدْيه مع غيرِهِ، وأقام في بلدِهِ.

وكان ابنُ عمرَ إذا ضَحَّى يومَ النَّحْرِ حلَقَ رأسه، ونصَّ أحمدُ على ذلك(٢).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾

قال تعالى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر:٣] والشَّفْعُ ضدُّ الوتْرِ: فالوتْرُ: الفردُ والشَّفْعُ الزَّوْجُ.

ولهذا فُسِّرَ «الشَّفْعُ» في الآية بالخَلْقِ، لأنَّ الخلقَ كُلَّهُ زوجٌ، قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩]، وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ﴾ [يس:٣٦].

وفُسِّر «الوتْرُ» باللَّه ـ عزَّ وجلَّ ـ لأنَّه وِتْرٌ يُحبُّ الوِتْرَ(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ

(١) أخرجه: مسلم (٤/٨٩)، وأحمد (٦/٣٥، ٣٦، ٨٢، ٨٥).
(٢) «لطائف المعارف» (ص ٤٦٧ ـ ٤٧٥).
(٣) «فتح الباري» (٣/٤١١).

الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾

قال اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:٢١-٢٤]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾[النازعات:٣٤-٣٦].

قال الربيعُ بنُ أنسٍ في قولِهِ: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ قال: كُشِفَ عنْها غِطَاؤها.

وقال تعالى: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر:٥-٧].

وروى العلاءُ بنُ خالدٍ الكاهليُّ، عن أبي وائلٍ، عن ابنِ مسعودٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «يُؤتى يومئذٍ بجهنَّم لها سبْعون ألفَ زِمامٍ، مع كلِّ زمامٍ سبْعون ألفَ ملَك يجرُّونها»(١) خرَّجه مسلمٌ من طريقِ حفصِ بنِ غياثٍ، عن العلاءِ به، وخرَّجه الترمذيُّ من طريقِ سفيانَ عن العلاءِ موقوفًا على ابنِ مسعودٍ، ورجَّح وقْفه العقيليُّ والدارقطنيُّ.

وخرَّج ابنُ أبي حاتمٍ منْ طريقِ عُبيدِ اللَّه بنِ الوليدِ الوصافيِّ، عن عطيةَ، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ، قال: لما نزلتْ هذه الآية: ﴿وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ [الفجر:٢٣] تغيَّر لونُ النبيِّ ﷺ وعُرِفَ ذلك في وجْهِهِ حتَّى اشتدَّ ذلك على أصحابِهِ، فسألوه فقال: «إنَّه جاءني جبريلُ فأقْرأني هذه الآيَةَ» قال: «كيف يُجاءُ

(١) أخرجه: مسلم (٨/١٤٩)، والترمذي (٢٥٧٣).

بها؟ قال: يَجيءُ بها سبْعونَ ألفَ ملَك يقودونهـا بسبعينَ ألف زمامٍ تشرد مرة، لو تُركَتْ لأحرقتْ أهلَ الجمعِ ومَنْ عليه، ثم تُعْرضُ جهنَّم فتقول: ما لي وما لكَ يا محمد، لقد حرَّمَ اللَّه لحْمَك عليَّ، فلا يبقى أحدٌ إلا قال: نفْسِي نفْسِي، ومحمدٌ ﷺ يقول: أُمَّتي أُمَّتي» الوصافيُّ شيخٌ صالحٌ لا يحفظ فكثرتِ المناكيرُ في حديثِه.

وخرَّج أبو يعلى الموصليُّ(١) من حديثِ أبي الهيثم، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ قال: «إذا جَمَع اللَّهُ الناسَ في صعيدٍ واحد، يومَ القيامة أقبلت النارُ، يركبُ بعضُها بعضًا، وخزنتها يكفونها، وهي تقول: وعزةِ ربي لتخلُنَّ بيني وبين أزواجي أو لأغشينَّ الناسَ عنقًا واحدًا، فيقولون: مَنْ أزواجُك؟ فتقولُ: كلُّ متكبِّرٍ جبَّارٍ».

وخرَّج الإمامُ أحمدُ والترمذيُّ(٢) من حديثِ الأعمشِ عن أبي صالحٍ، عن أبي هُريرةَ عن النبيِّ ﷺ قال: «يخرجُ يومَ القيامةِ عنقٌ من النارِ لها عينانِ تُبْصران، وأُذنانِ تَسمعانِ، ولسانٌ ينطقُ، تقولُ: إني وُكِّلتُ بثلاثة: بكُلِّ جبارٍ عنيد، وبكلِّ مَنْ دعا مع اللَّه إلهًا آخرَ، وبالمصوِّرين» وصحَّحه الترمذيُّ وقد قِيل: إنه ليسَ بمحفوظ بهذا الإسناد، وإنَّما يرويه الأعمشُ عن عطيةَ عن أبي سعيدٍ، فقد روى الأعمشُ وغيرُ واحدٍ عن أبي سعيدٍ، عن النبيِّ ﷺ قال: «يخرجُ عنقٌ من النارِ يتكلمُ، يقولُ: وُكِّلتُ اليومَ بثلاثة: بكلِّ جبارٍ عنيدٍ، ومن جَعَلَ مع اللَّه إلهًا آخرَ، ومنْ قتَلَ نفْسًا بغير نفس، فتنطوي عليهم فتقذفهم في غمراتِ جهنَّم» خرَّجه الإمامُ أحمدُ(٣)، وخرَّجه البزارُ(٤)، ولفظُه: «يخرجُ عنقٌ من النارِ يتكلَّمُ بلسانٍ طلقٍ ذلقٍ،

(١) أخرجه: أبو يعلى (٢/ ١١٤٥).

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٣٣٦)، والترمذي (٢٥٧٤).

(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٤٠).

(٤) أخرجه: البزار (٣٥٠٠ ـ كشف).

لها عـينانِ تُبصرُ بهـما، ولهـا لسـانٌ تتكلَّم بـه، فـتقولُ: إني أُمـرتُ بِمَـنْ جعـلَ مع اللَّه إلهًا آخر، وبكُلِّ جبارٍ عنيد، وبِكُلِّ من قتل نفسًا بغير نفسٍ، فتنطلقُ بهم قبْلَ سائرِ الناسِ بخمسمائة عامٍ» وقد رُوي عن عطية عن أبي سعيدٍ موقوفًا.

وروى ابنُ لهيعةَ، عن خالدِ بنِ أبي عمرانَ، عن الـقاسمِ، عن عائشة عن النبيِّ ﷺ قال: **«يخرجُ عنقٌ من الـنارِ، فتنطوي عليهم وتـتغيَّظُ عليـهم، ويقول ذلك العنقُ: وُكِّلتُ بثـلاثةٍ، وُكِّلتُ بثـلاثةٍ، وُكِّلتُ بثـلاثةٍ، وُكِّلتُ بمن دعـا مع اللَّه إلهًا آخـر، ووكِّلتُ بمن لا يؤمن بيوم الحسابِ، ووكِّلتُ بكلِّ جبارٍ عنيدٍ، فتنطوي عليهم، فتطرحُهُم في غمراتِ جهنَّم»** خرَّجه الإمامُ أحمدُ.

ورُوي عن شـهرِ بنِ حـوشبٍ عن أسـماءَ بـنتِ يزيدَ عن النبيِّ ﷺ قال: **«يخرجُ عنقٌ من النارِ فيظلُّ الخلائق كلَّهم، فيـقولُ: أمرتُ بكلِّ جبارٍ عنيدٍ، ومن زعم أنَّه عزيزٌ كريمٌ، ومن دعا مع اللَّه إلهًا آخر»**.

ورواهُ أبو المنهالِ سـيارُ بنُ سـلامةَ عن شهـرِ بنِ حوشبٍ عن ابنِ عـباسٍ موقوفًا، قال: إذا كان يومُ القيـامة خرجَ عنقٌ من النارِ فأشرفتْ على الخلائقِ لهـا عينانِ تبـصرانِ ولسـانٌ فصـيحٌ تقولُ: إنـي وُكِّلتُ بكـلِّ جبـارٍ عنيـدٍ، فتلقُطُهم من الصفوفِ فـتحبسهم في نارِ جهنَّم، ثم تخرجُ ثانيًـا فتقولُ: إنِّي وكلتُ بمن آذَى اللَّه ورسولَه فلتقطُهم من الصفوف فـتحبسُهُم في نارِ جهنَّم، ثم تخـرجُ ثالثـةً، قال أبو المنهـالِ: أحـسبُ أنها قـالتْ: إني وُكِّلتُ اليـومَ بأصحابِ التصاويرِ فتلقطُهُم من الصفوفِ فتحبسهم في نارِ جهنَّم.

وفي حـديثِ الصورِ الطويلِ الذي خـرَّجـه إسحـاقُ بنُ راهويه وأبو يعْلَى الموصليُّ وغيرُهما بإسنادٍ فـيه ضعفٌ عن أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ : **«ثم يأمرُ**

اللَّهُ تعالى جهنَّم فيخرجُ منها عنقٌ ساطعة مظلمة فيقولُ: ﴿**وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ**﴾ إلى قوله: ﴿**أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ**﴾» [يس:٥٩-٦٢].

وخرَّج ابنُ أبي الدنيا من طريقِ الشعبيِّ، عن أبي هريرة، قال: «يُؤتَى بجهنَّم تقاد بسبعينَ ألف زمامٍ آخذٌ بكلِّ زمامٍ سبعونَ ألفَ ملك، وهي تمايلُ عليهم حتَّى توقف عن يمينِ العرشِ، ويلقي اللَّهُ عليها الذلَّ يومئذ، فيوحِي اللَّهُ إليها ما هذا الذلُّ؟ فتقول: يا ربِّ أخافُ أن يكونَ لك فيَّ نقمةٌ، فيوحي اللَّهُ إليها: إنما خلقتُكِ نقمة وليس لي فيك نقمةٌ، ويوحي اللَّهُ إليها فتزفرُ زفرةً لا تبقي دمعةً في عينٍ إلا جرتْ، ثم تزفرُ أخرى فلا يَبْقَى ملَكٌ مقربٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ إلا صعقَ، إلا نبيُّكم نبيُّ الرحمة ﷺ يقولُ: «**يا ربِّ أُمَّتي أُمَّتي**».

وروى عبدُ اللَّه بنُ الإمامِ أحمدَ بإسنادِهِ عن أبي عبدِ اللَّه الجدليِّ، عن عبادة بن الصامتِ وكعبٍ قالا: يخرجُ عنقٌ من النارِ فيقولُ: أمرتُ بثلاثة: بمَن جعلَ مع اللَّه إلهًا آخر، وبكلِّ جبارٍ عنيدٍ، وبكُلِّ معتدٍ، ألا إني أعرفُ بالرجلِ من الوالد بولدِهِ والمولودِ بوالدِهِ[(١)].

* * *

[قال البخاريُّ][(٢)]: حدثنا أبو اليمانِ: نا شُعَيْبٌ، عن الزُّهريِّ: أخبرني سعيدُ بنُ المسيب وعطاءُ بنُ يزيد الليثي، أنَّ أبا هريرة أخبرهما أنَّ الناس قالوا: يا رسول اللَّه: هل نَرَى ربَّنا يومَ القيامة؟ قال: «**هل تُمَارُون في القمر ليْلَةَ البدْرِ ليس دُونَه سحابٌ؟**» قالوا: لا يا رسول اللَّه، قال: «**هل تُمارُون في رؤيةِ**

(١) «التخويف من النار» (١٧٨ ـ ١٨٨).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ٢٠٤)، (٨/ ١٤٦)، ومسلم (١/ ١١٤).

الشمس ليس دونها سحابٌ؟» قالوا: لا.

قال: «فإنكم ترونه كـذلك، يُحْشرُ الناسُ يومَ القـيامةِ، فـيقولُ: مَنْ كـان يعبدُ شيئًا فليتَّـبعْهُ، فـمنهم من يتبعُ الشـمس، ومنهم من يتبع القـمر، ومنهم من يتـبع الطواغيت، وتبقى هذه الأُمَّةُ فيها منافقوها، فيأتيهم اللَّهُ، فيقولُ: أنا ربُّكم، فيقولون: هذا مكانُنا حتى يأتينا ربُّنا، فإذا جـاء ربُّنا عرفْنَاه، فيأتيهم اللَّه عـزَّ وجلَّ فيقول: أنا ربُّكم فـيقولون: أنت ربُّنا ، فيدعوهم، ويُضْربُ الصِّراطُ بيْنَ ظهـراني جهنَّم، فأكونُ أول من يجُوزُ من الرُّسُلِ بأُمَّـته، ولا يتكلَّمُ يومـئذ أحـدٌ إلا الرسل، وكلامُ الرُّسُـلِ يومئـذ: اللهم سلِّم سلِّم، وفي جهنَّم كلاليبُ مثلُ شوْكِ السَّعدانِ، هل رأيتُم شوْك السَّعْدان؟» قالوا: نعم.

قال: «فإنها مثلُ شوْكِ السَّعْدان، غير أنه لا يعلمُ قدرَ عظَمها إلا اللَّهُ، تخطفُ الناسَ بأعـمالهم، فـمنهم من يُوبـقُ بعمله، ومنهـم من يُخَرْدَلُ ، ثمَّ ينْـجُوا، حـتى إذا أراد اللَّه رحمـةَ من أرادَ منْ أهل النَّار، أمـرَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ الملائكةَ أنْ يُخْـرِجوا من النَّارِ مـنْ كان يعبُدُ اللَّه، فيُخْرِجُوهم ويعرفُونَهُم بآثارِ السجود.

وحرَّم اللَّهُ عـزَّ وجلَّ على النارِ أن تأكل أثر السجـودِ، فيخْـرُجون من النَّارِ، فكُلُّ ابنِ آدمَ تأكله النارُ إلا أثرَ السجودِ، فيخْرُجُون من النَّارِ قد امتحشوا، فيُصبُّ عليهم ماءُ الحياةِ فينبتونَ كما تنبُتُ الحبَّةُ في حميلِ السيل».

وفي الحديث: دلـيلٌ على أنَّ المشركينَ الذين كـانوا يعبدونَ في الـدنيا من دون اللَّه آلهة يتبعـون آلهتَهم التي كانوا يعبدون يوم القيـامة، فيردنهم النار، كما قال تعالى في حقِّ فرعون: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود:٩٨].

ويبقى من كان يعبدُ اللَّهَ وحدَه ظاهراً، مؤمنًا كان أو منافقًا، فهؤلاء

ينظرونَ من كانُوا يعبدونه في الدنيا، وهو اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له.

ففي هذا الحديث: أنَّ اللَّه يأتيهم أولَ مرةٍ فلا يعرفونه، ثم يأتيهم في المرة الثانية فيعرفونه.

وقد دلَّ القرآن على ما دلَّ عليه هذا الحديث في مواضعَ، كقوله ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ**﴾ [البقرة:٢١٠] وقال: ﴿**هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ**﴾ [الأنعام:١٥٨]، وقال: ﴿**وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾ [الفجر:٢٢].

ولم يتأولِ الصحابةُ ولا التابعونَ شيئًا من ذلك، ولا أخرجُوه عن مدلوله، بل رُوي عنهم ما يدلُّ على تقريرِه والإيمانِ به وإمرارِه كما جاء.

وقد رُوي عن الإمامِ أحمدَ، أنه قال في مجيئِه: هو مجيءُ أمرِه.

وهذا مما تفرَّدَ به حنبلٌ عنه.

فمن أصحابنا من قال: وهِمَ حنبلٌ فيما روَى، وهو خلافُ مذهبه المعروفِ المتواتر عنه.

وكان أبو بكر الخلاَّلُ وصاحبُه لا يثبتان بما تفرد به حنبلٌ، عن أحمدَ روايةً.

ومن متأخريهم من قال: هو روايةٌ عنه، بتأويلِ كلِّ ما كان من جنسِ المجيءِ والإتيانِ ونحوهما.

ومنهم من قال: إنَّما قال ذلك إلزامًا لمن ناظرَهُ في القرآن، فإنهم استدلُّوا

على خلقِهِ بمجيءِ القرآنِ، فقال: إنَّما يجيءُ ثوابُهُ، كقولِهِ: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ﴾، أي: كما تقولون أنتم في مجيءِ اللَّه أنه مجيءُ أمرِهِ.

وهذا أصحُّ المسالكِ في هذا المرويِّ.

وأصحابُنا في هذا على ثلاثِ فرقٍ:

فمنهم من يثبتُ المجيءَ والإتيانَ، ويصرحُ بلوازمِ ذلك في المخلوقاتِ، وربما ذكروه عن أحمدَ من وجوهٍ لا تصحُّ أسانيدُها عنه.

ومنهم من يتأول ذلك على مجيء أمرِهِ.

ومنهم من يقرُّ ذلك، ويُمِرُّه كما جاء، ولا يفسِّره، ويقولُ: هو مجيءٌ وإتيانٌ يليقُ بجلالِ اللَّه وعظمتِهِ سبحانه.

وهذا هو الصحيحُ عن أحمدَ، ومن قبلَه منَ السلفِ، وهو قولُ إسحاقَ وغيرِه من الأئمةِ. وكان السلفُ ينسبونَ تأويلَ هذه الآياتِ والأحاديثِ الصحيحةِ إلى الجهميةِ.

لأن جهمًا وأصحابَهُ أولُ منِ اشتُهِرَ عنهم أنَّ اللَّه تعالى منزهٌ عما دلتْ عليه هذه النصوصُ بأدلةِ العقولِ التي سمَّوْها أدلةً قطعيةً هي المحكماتُ، وجعلُوا ألفاظ الكتاب والسنة هي المتشابهاتُ، فعرضُوا ما فِيهَا على تلكَ الخيالاتِ، فقبِلُوا ما دلَّتْ على ثبوتِهِ بزعمهم، وردُّوا ما دلتْ على نفيه بزعمهم، ووافقَهم على ذلك سائرُ طوائفِ أهلِ الكلامِ من المعتزلةِ وغيرِهم.

وزعمُوا أنَّ ظاهرَ ما يدلُّ عليه الكتابُ والسنةُ تشبيهٌ وتجسيمٌ وضلالٌ، واشتقُّوا من ذلك لمن آمنَ بما أنزل اللَّهُ على رسولِهِ أسماءً ما أنزلَ اللَّه بها من

سلطان، بل هي افتراءٌ على اللَّه، ينفِّرون بها عن الإيمانِ باللَّه ورسولِه.

وزعمُوا أنَّ ما وردَ في الكتابِ والسنة مـن ذلك ـ مع كثرتِهِ وانتشارِه ـ من بابِ التوسعِ والتجـوزِ، وأنه يحملُ على مجازاتِ اللغةِ المستـبعدةَ، وهذا من أعظمِ أبوابِ القـدحِ في الشـريعةِ المحكـمة المطهـرةِ، وهو من جنسِ حـملِ الباطنيةِ نصوصَ الإخبارِ عن الغيوبِ كالمعادِ والجنَّة والنارِ على التوسعِ والمجازِ دونَ الحقـيقـةِ، وحملِهم نصـوصَ الأمرِ والنهي على مـثلِ ذلك، وهذا كلُّه مروقٌ عن دينِ الإسلام.

ولم ينهَ علماءُ السلفِ الصالحِ وأئمـةُ الإسلامِ كالشافعيِّ وأحمـدَ وغيرِهما عن الكلامِ وحذَّرُوا عنه، إلا خوفًا من الوقوعِ في مثلِ ذلك، ولو علمَ هؤلاءِ الأئمةُ أنَّ حملَ النصوصِ على ظاهرِها كفـرٌ لوجبَ عليهم تبيينُ ذلك وتحذيرُ الأُمَّة منه؛ فـإنَّ ذلك من تمامِ نصيحـة المسلمين، فكيفَ كان ينصحـونَ الأُمَّةَ فـيمـا يتعلقُ بالأحكامِ العـمليـة ويدَعُون نصـيحـتَهم فـيمـا يتعلقُ بأصـولِ الاعتقاداتِ، هذا من أبطلِ الباطلِ.

قال أبو عبد الرحمنِ السلميُّ الصوفيُّ: سمعتُ عبد الرحمن بن محمد بن جابر السلميَّ يقـول: سمعتُ محمـدَ بنَ عقيلِ بنِ الأزهرِ الفقيـهَ يقولُ: جاء رجلٌ إلى المزني يسأله عن شيءٍ من الكلامِ، فـقال: إنِّي أكرهُ هذا، بل أنْهى عنه، كما نهَى عنه الشـافعيُّ؛ فإنِّي سمعتُ الشافعيَّ يـقولُ: سئلَ مَالكٌ عن الكلامِ والتـوحيدِ، فـقال مـالكٌ: محـالٌ أن يُظنَّ بالنبيِّ ﷺ أنه علَّم أُمـته الاستنجاءَ ولم يعلِّمْهُمُ التوحيدَ، فالتوحيدُ ما قاله النبيُّ ﷺ: «**أُمرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتَّى يقولُوا: لا إله إلا اللَّه، فإذا قالُوها عصموا مني دماءَهم وأموالَهم**» فما عصَم

الدمَ والمالَ فهو حقيقةُ التوحيدِ. انتهى.

وقد صحَّ عن ابنِ عباسٍ أنه أنكر على من استنكرَ شيئًا من هذه النصوصِ، وزعمَ أنَّ اللَّه منزهٌ عما تدلُّ عليه.

فروى عبدُ الرزاقِ في «كتابِهِ»[1] عن معمر، عن ابنِ طاووسَ، عن أبيه، قال: سمعتُ رجلاً يحدِّثُ ابنَ عباسٍ بحديثِ أبي هريرة: «**تحاجَّتِ الجنةُ والنارُ**»، وفيه: «**فلا تمتلئُ حتَّى يضع رِجْله**» ـ أو قال: «**قدمَهَ فيها**» قال: فقامَ رجلٌ فانتفضَ، فقال ابنُ عباسٍ: ما فرقُ هؤلاءِ، يجدونَ رقةً عند محكمِهِ، ويهلكُون عند متشابهه.

وخرَّجه إسحاقُ بنُ راهويه في «مسندِهِ» عن عبدِ الرزاق.

ولو كانَ لذلكَ عندَهُ تأويلٌ لذكرهُ للناسِ ولم يسعْه كتمانُه.

وقد قابَل هؤلاءِ المتكلمينَ طوائف آخرون، فتكلَّموا في تقريرِ هذه النصوصِ بأدلةٍ عقليةٍ، وردُّوا على النفاةِ، ووسَّعوا القولَ في ذلك، وبيَّنوا أن لازَم النَّفْي التعطيلُ المحضُ.

وأما طريقةُ أئمة أهلِ الحديثِ وسلفِ الأُمَّة: فهي الكفُّ عن الكلامِ في ذلك من الطرفينِ، وإقرارُ النصوصِ، وإمرارِها كما جاءتْ، ونفي الكيفيةِ عنها والتمثيلِ.

وقد قال الخطابيُّ في «الأعلامِ»: مذهبُ السلفِ في أحاديثِ الصفاتِ: الإيمانُ، وإجراؤها على ظاهرِها، ونفيُ الكيفيةِ عنها.

---

(١) «المصنف» (١١/ ٤٢٣).

ومن قال: الظاهـرُ منها غيـرُ مرادٍ، قـيلَ له: الظاهرُ ظاهرانِ: ظاهرٌ يليقُ بالمخلوقينِ ويختصُّ بهم، فهو غـيرُ مرادٍ، وظاهرٌ يليقُ بذي الجلالِ والإكرامِ، فهو مرادٌ، ونفيهُ تعطيلٌ.

ولقد قال بعضُ أئمةِ الكلامِ والفلسفةِ من شـيوخِ الصوفيةِ الذي يحسنُ به الظنَّ المتكلمـونَ: إن المتكلمينَ بالغُوا في تـنزيهِ اللَّهِ عن مشـابهةِ الأجـسامِ، فوقعُـوا في تشبيهـه بالمعاني، والمعانِي محـدَثةٌ كالأجسامِ، فلم يـخرجُوا عن تشبيهه بالمخلوقاتِ.

وهذا كلُّه إنَّما أتى من ظنٍّ أن تفاصـيلَ معرفةِ الجائزِ على اللَّه والمسـتحيلِ عليه يُؤخذُ من أدلةِ العقولِ، ولا يُؤخذُ مما جاءَ به الرسولُ.

وأمَّا أهلُ العلمِ والإيمانِ، فيعلَمـون أنَّ ذلك كلَّه متلقًّى مما جاء به الرسولُ ﷺ وأنَّ مـا جاءَ به مـن ذلك عن ربِّه فهـو الحقُّ الذي لا مـزيدَ عليـه، ولا عدولَ عنه، وأنه لا سبيل لتلقي الـهُدى إلا منه، وأنه ليس في كتاب اللَّه ولا سنة رسولِه الصحـيحة ما ظاهرُه كفرٌ أو تشـبيهٌ أو مستحيلٌ، بل كـلُّ ما أثبته اللَّهُ لنفسِـه، أو أثبتـه له رسولُهُ ﷺ، فـإنـه حـقٌّ وصـدقٌ، يجبُ اعـتـقـادُ ثبوتِـه مـع نفْي التمثيلِ عنه، فكما أنَّ اللَّهَ ليس كمثلِه شيءٌ في ذاتِه، فكذلك في صفاتِه.

وما أُشكلَ فهـمُهُ من ذلك، فإنه يقالُ فيه مـا مدَح اللَّه الراسخينَ من أهل العلم، أنهم يقولون عند المتشابهاتِ: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧].

وما أمـر به رسولُ اللَّه ﷺ في متـشابِهِ الكتابِ، أنه يُـردُّ إلى عالمِه، واللَّهُ

يقول الحقَّ ويهدي السبيلَ.

وكلمةُ السلفِ وأئمة أهلِ الحديثِ متفقةٌ على أنَّ آياتِ الصفاتِ وأحاديثَها الصحيحةَ كلَّها تُمَرُّ كما جاءتْ، من غير تشبيهٍ ولا تمثيلٍ، ولا تحريفٍ ولا تعطيلٍ.

قال أبو هلالٍ: سأل رجلٌ الحسنَ عن شيءٍ من صفة الربِّ عزَّ وجلَّ، فقال: أمِرُّوها بلا مثالٍ.

وقال وكيعٌ: أدركتُ إسماعيلَ بنَ أبي خالدٍ وسفيانَ ومِسْعرًا، يحدِّثون بهذه الأحاديثِ، ولا يفسِّرون شيئًا.

وقال الأوزاعيُّ: سئلَ مكحولٌ والزهريُّ عن تفسيرِ هذه الأحاديثِ، فقالا: أمِرَّها على ما جاءتْ.

وقال الوليدُ بنُ مسلمٍ: سألتُ الأوزاعيَّ ومالكًا وسفيانَ وليثًا عن هذه الأحاديثِ التي فيها الصفةُ والقرآنُ، فقالوا: أمِرُّوها بلا كيفٍ.

وقال ابنُ عيينةَ: ما وصفَ اللَّهُ به نفسَهُ فقراءتُهُ تفسيرُهُ، ليسَ لأحدٍ أن يفسرَهُ إلا اللَّهُ عزَّ وجلَّ.

وكلامُ السلفِ في مثلِ هذا كثيرٌ جدًّا.

وقال أشهبُ: سمعتُ مالكًا يقولُ: إيَّاكم وأهلَ البدعِ. فقيلَ: يا أبا عبد اللَّه، وما البدعُ؟ قال: أهلُ البدعِ الذين يتكلمونَ في أسماءِ اللَّه وصفاتِهِ وعلمِهِ وقدرتِهِ ولا يسكتونَ عما سكتَ عنه الصحابةُ والتابعونَ لهم بإحسانٍ.

خرَّجه أبو عبد الرحمن السلميُّ الصوفيُّ في كتابِ «ذمِّ الكلامِ».

وروى ـ أيضًا ـ بأسانيدِهِ ذمَّ الكلامِ وأهلِهِ عن مالكٍ، وأبي حنيفةَ، وأبي يوسُفَ، ومحمدٍ وابن مهدي، وأبي عبيدٍ، والشافعيِّ، والمزنيِّ، وابن خزيمة.

وذكر ابنُ خزيمةَ النهيَ عنه عن مالكٍ والثوريِّ والأوزاعيِّ والشافعيِّ وأبي حنيفةَ وصاحبيهِ وأحمدَ وإسحاقَ وابنِ المباركِ ويحيى بنِ يحيى ومحمدِ بنِ يحيى الذُّهليِّ.

وروى السلميُّ ـ أيضًا ـ النهيَ عن الكلامِ وذمَّه عن الجنيدِ وإبراهيم الخواصِ.

فتبيَّنَ بذلك أنَّ النهي عن الكلامِ إجماعٌ من جميعِ أئمةِ الدين من المتقدمينَ من الفقهاءِ وأهلِ الحديثِ والصوفيةِ، وأنه قولُ أبي حنيفةَ ومالكٍ والشافعيِّ وأحمد وإسحاقَ وأبي عبيدٍ وغيرِهم من أئمة المسلمينَ.

ومن جملة صفاتِ اللَّه التي نؤمن بها، وتُمَرُّ كما جاءتْ عندهم: قولُه تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢] ونحو ذلك مما دلَّ على إتيانِهِ ومجيئهِ يومَ القيامة.

وقد نصَّ على ذلكَ أحمدُ وإسحاقُ وغيرُهما.

وعندهما: أن ذلك من أفعالِ اللَّه الاختياريةِ التي يفعلُها بمشيئَتِهِ واختيارِهِ.

وكذلك قالَه الفضيلُ بنُ عياضٍ وغيرُه من مشايخِ الصوفيةِ أهلِ المعرفةِ.

وقد ذكرَ حربٌ الكرْمانيُّ أنه أدركَ على هذا القولِ كلَّ مَن أخذَ عنه العلمَ في البلدانِ، وسمَّى منهُم: أحمدَ وإسحاقَ والحميديَّ وسعيدَ بنَ منصورٍ.

وكذلكَ ذكرَه أبو الحسنِ الأشعريِّ في كتابِهِ المسمَّى بـ «الإبانة»، وهو من أجلِّ كتبِهِ، وعليه يعتمدُ العلماءُ وينقلُون منه، كالبيهقيِّ وأبي عثمان الصابونيِّ

وأبي القاسمِ ابنِ عساكرٍ وغيرِهم.

وقد شرحَهُ القاضي أبو بكرِ ابنُ الباقلانيِّ.

وقد ذكرَ الأشعريُّ في بعضِ كتبِهِ أن طريقةَ المتكلمينَ في الاستدلالِ على قدَمِ الصانعِ وحدوثِ العالَمِ بالجواهرِ والأجسامِ والأعراضِ محرمةٌ عندَ علماء المسلمين.

وقد رُوي ذمُّ ذلك وإنكارُه ونسبتُه إلى الفلاسفة عن أبي حنيفةَ.

وقال ابن سريج: توحيدُ أهلِ العلمِ وجماعةِ المسلمين: الشهادتان، وتوحيدُ أهلِ الباطنِ من المسلمينَ: الخوضُ في الأعراضِ والأجسامِ، وإنَّما بُعِث النبيُّ ﷺ بإنكارِ ذلك.

خرَّجه أبو عبد الرحمن السلميُّ.

وكذلك ذكره الخطابيُّ في رسالتِهِ في «الغنية عن الكلامِ وأهلِهِ».

وهذا يدلُّ على أن ما يؤخذُ من كلامِهِ في كثيرٍ من كتبِهِ مما يخالفُ ذلك ويوافقُ طريقةَ المتكلمينَ فقد رجعَ عنه، فإن نفيَ كثيرٍ من الصفاتِ إنما هو مبنيٌّ على ثبوتِ هذه الطريقةِ.

قال الخطابيُّ في هذه الرسالةِ في هذه الطريقةِ في إثباتِ الصانعِ: إنما هو شيءٌ أخذهُ المتكلمونَ عن الفلاسفةِ، وإنما سلكتِ الفلاسفةُ هذه الطريقةَ لأنهم لا يُثبتون النبوَّاتِ ولا يرون لها حقيقةً، فكان أقوى شيءٍ عندَهم في الدلالةِ على إثباتِ هذه الأمورِ ما تعلَّقوا به من الاستدلالِ بهذه الأشياء، فأمَّا مثبتو النبوَّاتِ، فقد أغناهم اللَّهُ عن ذلك، وكفاهم كلفةَ المؤنةِ في ركوبِ هذه الطريقةِ المتعرِّجةِ التي لا يُؤمَنُ العنتُ على مَن ركبَها، والإبداعُ والانقطاعُ

على سالكها.

ثم ذكرَ أن الطريقَ الصحيحةَ في ذلك: الاستدلالُ بالصنعةِ على صانعها، كما تضمَّنه القرآنُ، وندب إلى الاستدلالِ به في مواضعَ، وبه تشهدُ الفطرُ السليمةُ المستقيمةُ.

ثم ذكر طريقتَهم التي استدلُّوا بها، وما فيها من الاضطراب والفسادِ والتناقضِ والاختلافِ.

ثم قال: فلا تشتغلْ ـ رحمكَ اللَّهُ ـ بكلامِهِم، ولا تغترَّ بكثرةِ مقالاتهم، فإنَّها سريعةُ التهافتِ، كثيرةُ التناقضِ، وما من كلامٍ تسمعُه لفرقة منهم إلا ولخصومِهِم عليه كلامٌ يوازيه ويفارقُه، فكلٌّ بكلٍّ معارضٌ، وبعضُهم ببعضٍ مقابلٌ.

قال: وإنَّما يكونُ تقدُّمُ الواحدِ منهم وفلجه على خصمِه بقدرِ حظِّه من الثباتِ والحذقِ في صنعةِ الجدالِ والكلامِ، وأكثرُ ما يظهرُ به بعضُهم على بعضٍ إنَّما هو إلزامٌ من طريقِ الجدلِ على أصولٍ مؤصلةٍ لهم، ومناقضاتٍ على مقالاتٍ حفظُوها عليْهم [...][1] تقودها وطردها، فمن تقاعدَ عن شيءٍ منها سمَّوْه من طريقِ [...][1] جعلوه مبطلاً، وحكموا بالفلج لخصمِه عليه، والجدلُ لا يقومُ به حقٌّ [...][1] به حجةٌ.

وقد يكون الخصمانِ على مقالتينِ مختلفتينِ، كلاهما باطلٌ، ويكونُ الحقُّ في ثالثٍ غيرهما، فمناقضةُ أحدهما صاحبَه غيرُ مصحِّحٍ مذهبَه، وإن كان مفسداً به قولَ خصمِهِ، لأنهما مجتمعان معًا في الخطأ،

---

(١) بياض بالأصل.

مشتركان فيه، كقول الشاعر:

حُجَجٌ تهَافَتُ كالزَّجاجِ(١) تخَالُها حقًّا وكُلٌّ واهِنٌ مكْسُورُ

ومتى كان الأمرُ كذلك، فإنَّ أحدًا من الفريقينِ لا يعتمدُ في مقالتِه التي نصرَها أصلاً صحيحًا، وإنَّما هو أوضاعٌ وآراءُ تتكافأ وتتقابلُ، فيكثر المقالُ، ويدومُ الاختلافُ، ويقلُّ الصوابُ، كما قال تعالى: ﴿**وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا**﴾ [النساء:٨٢]، فأخبرَ تعالى أنَّ ما كثرَ فيه الاختلافُ فليسَ من عندِه، وهو من أدلِّ الدليلِ على أنَّ مذاهبَ المتكلمين مذاهبُ فاسدةٌ، لكثرة ما يوجدُ فيها من الاختلافِ المفضي بهم إلى التكفيرِ والتضليلِ.

وذكرَ بقيةَ الرسالةَ، وهي حسنةٌ متضمِّنةٌ لفوائدَ جليلةٍ، وإنما ذكرْنا هذا القدرَ منها ليتبيَّن به أنَ القواعدَ العقليةَ التي يدَّعي أهلُها أنه قطعياتٌ لا تقبلُ الاحتمالَ، فتردُّ لأجلِها ـ بزعمِهم ـ نصوصُ الكتابِ والسنةِ وتصرفُ عن مدلولاتها، إنما هي عندَ الراسخينَ شبهاتٌ جهلياتٌ، لا تساوِي سماعَها، ولا قراءتَها، فضلاً عن أنْ يُردَّ لأجلها ما جاءَ عن اللَّه ورسولِه، أو يحرفَ شيءٌ من ذلك عن مواضعِه.

وإنَّما القطعياتُ ما جاءَ عن اللَّهِ ورسولِهِ من الآياتِ المحكماتِ البيناتِ، والنصوصِ الواضحاتِ، فتردُّ إليها المتشابهاتُ، وجميعُ كتبِ اللَّه المنزلةِ متفقةٌ على معنًى واحد، وإن ما فيها محكماتٌ ومتشابهاتٌ، فالراسخونَ في العلمِ يؤمنونَ بذلك كلِّه، ويردونَ المتشابهَ إلى المحكمِ، ويكِلُون ما أُشْكِلَ عليهم

---

(١) الزَّجاج: رعاع الناس.

فهــمُه إلى عالمِه، والذين في قلوبِهِم زيغٌ يتـبعونَ مـا تشابَهُ منه ابتغـاءَ الفتنة وابتـغاءَ تـأويلِه، فيـضـربونَ كـتابَ اللَّه بـعضَـه ببـعضٍ، ويردُّون المحكمَ، ويتمسكونَ بالمتشابهِ ابتغاءَ الفتنةِ، ويحـرِّفون المحكمَ عن مواضعِه، ويعتمدونَ على شـبهـاتٍ وخـيالاتٍ لا حـقيـقـةَ لها، بلْ هـي من وساوسِ الشـيطانِ وخيالاتِه، يقذفُها في القلوبِ.

فأهلُ العلمِ والإيمانِ يمتـثلون في هذه الشبهـاتِ ما أُمرُوا به من الاستـعاذةِ باللَّه، والانتهـاء عما ألقاه الشيطانُ، وقـد جعلَ النبيُّ ﷺ ذلك من علاماتِ الإيمانِ، وغـيرُهم فـيصـغـونَ إلى تلك الشبـهاتِ، ويـعبِّـرون عنها بألفـاظ مشتـبهاتٍ، لا حرمـةَ لها في نفسهـا وليس لها معنىً يصحُّ، فيـجعلون تلك الألفاظ محكمةً لا تقبلُ التأويلَ، فيردُّون كلامَ اللَّهِ ورسولِه إليها، ويعرضونه عليها، ويحرِّفونه عن مواضعِه لأجلها.

هذه طريقةُ طوائف أهلِ البدعِ المحضة من الجـهميـةِ والخوارجِ والروافضِ والمعـتزلةِ ومن أشـبَهـهُم، وقد وقعَ في شيءٍ من ذلك كـثيـرٌ من المتأخـرينَ المنتسبين إلى السنة من أهلِ الحديثِ والفقهِ والتصوفِ من أصحابِنا وغيرِهم في بعضِ الأشياءِ دونَ بعضٍ.

وأمَّـا السلفُ وأئمةُ أهـلِ الحديثِ ، فـعلى الطريقـةِ الأولى، وهي الإيمانُ بجميعِ ما أثبتَهُ اللَّهُ لنفسه في كتابِه، أو صحَّ عن رسولِ اللَّه ﷺ أنه أثبتَه له، مع نفي التمثيلِ والكيفيةِ عنه، كما قالَه ربيعةُ ومالكٌ وغيرُهما من أئمة الهدى في الاستـواء، ورُوي عن أمِّ سلمةَ أمِّ المؤمنين، وقـال مثلَ ذلك غـيرُهم من العلماء في النزولِ، وكذلك القولُ في سائر الصـفاتِ، واللَّهُ سبحانه وتعالى الموفقُ.

وقولُه ﷺ: «فأكون أولَ من يجوزُ بأُمَّته» حتى يقطع الجسرَ بأُمَّته، ورُوي: «يجيزُ»، وهما لغتان، يقال: جُزتُ الواديَ وأجزتُه، وهما بمعنىً.

وعن الأصمعيِّ، قال: أجزتُه: قطعتُه، وجُزتُه: مشيتُ عليه.

وقولُه: «منهم الموبَقُ بعملِه» أي: الهالكُ.

وقولُه: «ومنهم المخردلُ»، هو بالدالِ المهملةِ والمعجمةِ ـ: لغتانِ مشهورتان، والمعنى: المقطَّعُ، والمرادُ ـ واللّه أعلمُ ـ: أن منهم من يهلكُ فيقعُ في النارِ، ومنهم من تقطِّعه الكلاليبُ التي على جسرِ جهنَّم، ثم لا ينجوُ ولا يقعُ في النارِ.

وقيل: معناه أنه ينقطعُ عن النجاةِ واللحاقِ بالناجين.

والمقصودُ من تخريجِ الحديثِ بطولِه في هذا البابِ: أنَّ أهلَ التوحيدِ لا تأكلُ النارُ منهم مواضعَ سجودِهم، وذلك دليلٌ على فضلِ السجودِ عندَ اللّهِ وعظمتِه، حيث حرَّم على النارِ أن تأكل مواضعَ سجودِ أهلِ التوحيدِ.

واستدلَّ بذلك بعضُ من يقولُ: إنَّ تارك الصلاةِ كافرٌ، فإنَّه تأكلُه النارُ كلَّه، فلا يبقى حالُه حالَ عصاةِ الموحدينَ.

وهذا فيمَنْ لم يصلِّ للّه صلاةً قطُّ ظاهرٌ.

وقولُه: «امتُحِشُوا» أي: احترقُوا، وضُبطت هذه الكلمةُ بفتحِ التاءِ والحاءِ. وفي بعضِ النسخِ بضمِّ التاء وكسرِ الحاءِ.

و«الحِبَّةُ» بكسر الحاء، قال الأصـمعيُّ: كُلُّ نبتٍ له حبٌّ فاسْمُ جميع ذلك الحبِّ الحِبَّةُ، وقـال الفراء: الحِبةُ: بذور البـقلِ، وقال أبو عمروٍ: الحِـبَّةُ نبتٌ ينبت في الحشيش صغارٌ.

وقال الكسائيُّ: الحِبَّةُ بذرُ الرياحين، واحدتها حبَّةٌ، وأما الحِنطة فهو الحبُّ لا غير، يعني الفتح.

و«الحميل»: مـا حمله السيل من كل شيءٍ، فـهو حميلٌ بمعنى مـحمول، كقتيل بمعنى مقتولٍ[1].

* * *

(١) «فتح الباري» (٥/ ٩٥ ـ ١٠٧).

سُورَةُ الْبَلَدِ

قوله تعالى: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾

رَوى عطيةُ عن ابنِ عمـرَ في قولِهِ تعالى: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١]، قال: جبلُ زلزالٍ في جهنَّمَ.

وروى ابن أبي حاتم بإسناده عن كعب، قال: اقتحام العقبة في كتاب اللَّه ـ يعني: قوله: ﴿فَلا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ [البلد: ١١] ـ سبعين درجة في النار.

وعن ضمرة قال: سمعت أبا رجاء قال: بلغني أن العقبة التي ذكر اللَّه في كتابه: مطلعها سبعة آلاف سنة، ومهبطها سبعة آلاف سنة[١].

وعن عطية، عن ابن عمر، قال في العقبة: «جبل في جهنم، أفلا أجاوزه بعتق رقبة؟!»[٢].

وعن مقاتل بن حيان، قال: هي عـقبة في جهنم، قيل: بأي شيء تقطع؟ قال: رقبة.

وفي «الصحيحين»[٢]، ولفظه للبخاري عن ابن عمر قال: رأيت في المنام أنه جاءني ملكان في يد كل واحد منهما مقمعة من حديد، ثم لقيني ملك في يده مقمعة من حديد، قالوا: لن تُرَع، نِعْمَ الرجلُ أنت لو كنت

---

(١) أخرجه: ابن جرير في «التفسير» (٣٠/ ٢٠١).

(٢) أخرجه: البخاري (٢/ ٦١)، (٥/ ٣٠ ـ ٣١)، (٩/ ٥١)، ومسلم (٧/ ١٥٨).

تكثر الصلاة من الليل، فانطلقوا بي، حتى وقفوا بي على شفير جهنم، فإذا هي مطوية كطي البئر، لها قرون كقرون البئر، بين كل قرنين ملك بيده مقمعة من حديد، وإذا فيها رجال معلقون بالسلاسل رءوسهم أسفلهم، وعرفت رجالاً من قريش، فانصرفوا بي عن ذات اليمين، فقصصتها على حفصة، فقصتها حفصة على رسول اللَّه ﷺ، فقال: «إن عبد اللَّه رجلٌ صالحٌ»(٣).

* * *

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾

قال اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار:٦-٨]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك:٢٣]، وقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]، وقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد:٨-٩].

قال مجاهدٌ: هذه نعمٌ من اللَّه متظاهرةٌ يقرِّرُكَ بها كيما تشكر.

وقرأ الفُضيلُ ليلةً هذه الآية، فبكى، فسُئلَ عن بكائه، فقال: هل بتَّ ليلةً شاكرًا للَّه أن جعلَ لك عينينِ تُبصر بهما؟ هل بتَّ ليلةً شاكرًا للَّه أنْ جعلَ لك لسانًا تنطقُ به؟ وجعلَ يعدِّدُ من هذا الضَّرْبِ.

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسنادِهِ عن سلمانَ الفارسيِّ، قال: إنَّ رجُلاً بُسِطَ له

(١) «التخويف من النار» (ص/ ٧٦ ـ ٧٧ ـ ١١٩).

منَ الدنيا، فانتُزِعَ ما في يديه، فجعل يحمَدُ اللَّه عزَّ وجلَّ، ويُثني عليه، حتَّى لم يكنْ له فراشٌ إلا بوري[1] فجعلَ يحمدُ اللَّهَ، ويُثني عليه، وبُسطَ لآخرَ من الدنيا، فقال لصاحبِ البُوري: أرأيتك أنتَ على ما تحمدُ اللَّهَ عزَّ وجلَّ؟ قال: أحْمَدُهُ على ما لو أُعْطِيتُ به ما أُعْطِيَ الخلْقُ، لم أُعْطِهِمْ إيَّاه، قال: وما ذاك؟ قال: أرأيت بصرَك؟ أرأيتَ لسانَك؟ أرأيتَ يديك؟ أرأيتَ رجلَيْك؟

وبإسنادِهِ عن أبي الدرداءِ أنه كان يقولُ: الصِّحَّةُ غِنى الجسدِ.

وعن يونسَ بنِ عبيدٍ: أنَّ رجلاً شكا إليه ضيقَ حالِهِ، فقال له يونسُ: أيسُرُّك أنَّ لك ببصرِك هذا الذي تُبْصِرُ به مائةَ ألف درهمٍ؟ قال الرجل: لا. قال: فبرجليك؟ قال: لا، قال: فذكَّره نِعَمَ اللَّه عليه، فقال يونسُ: أرى عندك مِئين ألوفٍ وأنت تشكو الحاجةَ.

وعن وهبِ بنِ مُنبِّهٍ، قال: مكتوبٌ في حكمةِ آلِ داودَ: العافيةُ المُلك الخفيُّ.

وعن بكرٍ المزنيِّ، قال: يا ابنَ آدمَ، إنْ أردتَ أنْ تعلم قدرَ ما أنعم اللَّه عليك، فغمِّضْ عينيك.

وفي بعض الآثارِ: كم منْ نِعمَةٍ للَّه في عرقٍ ساكنٍ.

وفي «صحيحِ البخاريِّ» عن ابنِ عباسٍ، عن النبيِّ ﷺ، قال: «**نِعْمتانِ مغْبُونٌ فيهما كثيرٌ من الناسِ: الصِّحَّةُ والفراغُ**»[2] [3].

(١) البوري: هو الحصير المنسوج.
(٢) أخرجه: البخاري (٨/ ١٠٩).
(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٧ _ ٥٩).

سُورَةُ الشَّمْسِ

قال الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾

والمعنى قد أفلحَ من زكَّى نفسَهُ بطاعـةِ اللَّه، وخابَ من دسَّاها بالمعاصي، فالطاعةُ تُزكِّي النفسَ وتُطهرُها، فترتـفعُ، والمعاصي تُدسِّي النَّفْسَ، وتقمعُها، فتنخفضُ، وتصيرُ كالذي يُدسُّ في التراب[1].

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٥٨٤).

سُورَةُ الضُّحَى

قوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

وقال في سورةِ الضُّحى: لما توالى فيها قسمانِ، وجوابَانِ مثبتان، وجوابان نافيانِ، فالقسمانِ: **﴿وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾** [الضحى:١، ٢]، والجوابان النافيان: **﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ﴾** [الضحى:٣]، والجوابان المثبتان: **﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾** [الضحى:٤، ٥].

ثم قررَ بنعمٍ ثلاثٍ، وأتبعهنَّ بوصايا ثلاثٍ: كلُّ واحدةٍ من الوصايا شكرُ النعمةِ التي قوبِلَتْ بها.

فإحداهنَّ: **﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾** وجوابها: **﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾**.

والثانية: **﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾** فقابلها بقولِهِ: **﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾**.

وهذا لأنَّ السائلَ ضالٌّ يبغي الهُدى.

والثالثةُ: **﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾** فقابلَها بقوله: **﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾**.

وإنَّما قال: **﴿وَمَا قَلَىٰ﴾** ولم يقلْ: وما قلاكَ؛ لأنَّ القِلَى بغضٌ بعدَ حبٍّ،

وذلك لا يجوز على اللَّهِ تعالى. والمعنى: وما قلى أحدًا قط، ثم قال: ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى﴾ ولم يقلْ: خيرٌ على الإطلاقِ، وإنَّما المعنى خيرٌ لك ولمن آمن بك.

وقوله: ﴿فَآوَى﴾ ولم يقلْ: فآواك؛ لأنه أرادَ: آوى بك إلى يومِ القيامةِ(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾

وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾ [الضحى:٧]، والمرادُ وجدَك غيرَ عالمٍ بما علَّمَك من الكتابِ والحكمةِ، كما قالَ تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ﴾ [الشورى:٥٢]، فالإنسانُ يُولدُ مفطورًا على قبولِ الحقِّ، فإنْ هداه اللَّهُ سبَّبَ له منْ يعلمُهُ الهُدى، فصارَ مهتديًا بالفعلِ بعدَ أن كان مهتديًا بالقوَّةِ، وإنْ خذلَهُ قيَّضَ له من يعلمُهُ ما يُغيرُ فطرتَه، كما قال ﷺ: «كلُّ مولودٍ يولد على الفطرةِ، فأبواه يُهَوِّدَانه ويُنصِّرانه ويمجِّسانه»(٢) (٣).

* * *

(١) «الذيل على طبقات الحنابلة» (٣/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩).
(٢) أخرجه: البخاري (٢/ ١١٨)، ومسلم (٨/ ٥٢).
(٣) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ١٣).

سُورَةُ الشَّرْحِ

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾

وقولُهُ ﷺ: «فإنَّ مع العسرِ يُسرًا» هو مُنتزَعٌ من قولِهِ تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧]، وقولُه عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح:٥، ٦].

وخرَّجَ البزارُ في «مسندِهِ» وابنُ أبي حاتمٍ ـ واللفظُ له ـ من حديثِ أنسٍ عن النبيِّ ﷺ، قال: «لو جاءَ العُسْرُ، فدخلَ هذا الجُحْرَ، لجاءَ اليسرُ حتَّى يدخلَ عليه فيُخْرِجَه»، فأنزل اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾(١) [الشرح:٥، ٦].

وروى ابنُ جريرٍ وغيرُه من حديثِ الحسنِ مرسلاً نحوَه، وفي حديثِه: فقال النبيُّ ﷺ: «لن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسرينِ»(٢).

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسنادِهِ عن ابنِ مسعودٍ، قال: لو أنَّ العسرَ دخلَ في جحرٍ لجاءَ اليسرُ حتَّى يدخل معه، ثم قال: قال اللَّهُ تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾(٣) [الشرح:٥، ٦].

وبإسنادِهِ أنَّ أبا عبيدةَ حُصِرَ فكتبَ إليه عمرُ يقول: مهما ينزلُ بامرئٍ شدَّةٌ

---

(١) أخرجه: البزار (٢٢٨٨ ـ كشف)، وابن أبي حاتمٍ ـ كما في «التفسير» لابن كثير (٨/ ٤٥٣).

(٢) أخرجه: الطبري في «التفسير» (٣٠/ ٢٣٦).

(٣) السابق.

يجعلُ اللَّه له بعـدَها فرجًا، وإنَّه لن يَغْلِبَ عسرٌ يـسرينِ، وإنه يقول: ﴿**أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾(1) [آل عمران: ٢٠٠].

ومن لطائف أسرارِ اقـترانِ الفرجِ بالـكربِ واليُسرِ بالعـسرِ: أنَّ الكربَ إذا اشتـدَّ وعَظُمَ وتناهى، حصلَ للعـبدِ الإياسُ من كَشْـفِهِ من جـهةِ المخلوقين، وتعلَّقَ قلبُه باللَّه وحـدَهُ، وهذا هو حقيقـةُ التوكُّلِ على اللَّه، وهو من أعظمِ الأسبابِ التي تُطلَبُ بها الحوائجُ، فـإنَّ اللَّهَ يكفي من توكَّل عليه، كما قال: ﴿**وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ [الطلاق: ٣].

وروى آدمُ بنُ أبي إياسٍ في «تفسيرِهِ» بإسنادِهِ عن محـمدِ بنِ إسحاقَ قال: جاء مالكٌ الأشجعيُّ إلى النبيِّ ﷺ، فقال: أُسِرَ ابْنِي عوفٌ، فقالَ له: «**أرسل إليه: إن رسـول اللَّه ﷺ يأمـرُكَ أن تُكثـرَ من قولِ: لا حـول ولا قـوة إلا باللَّه**»، فأتاه الرسولُ فأخـبرَه، فأكبَّ عوفٌ يقول: لا حول ولا قـوة إلا باللَّه، وكانوا قد شدُّوه بالقدِّ فسقطَ القدُّ عنه، فخرجَ فإذا هو بناقةٍ لهم فركبَها، فأقبلَ فإذا هو بسَرحِ القومِ الذي كـانوا شدُّوه، فصاح بهم، فاتبعَ آخرُها أوَّلَهـا، فلم يفجأ أبويه إلا وهو ينادي بالبـابِ، فقال أبوه: عوفٌ وربِّ الكعـبةِ، فقـالتْ أُمُّه: واسوأتاه، عوفٌ كئيبٌ يألمُ لما فيه منَ القـدِّ، فاستبقَ الأبُ والخادمُ إليه، فإذا عوفٌ قدْ ملأ الفناءَ إبلاً، فقصَّ على أبيه أمرَه وأمرَ الإبلِ فأتى أبوهُ رسولَ اللَّه ﷺ فأخبره بخبرِ عـوفٍ وخبرِ الإبلِ، فقال له رسولُ اللَّه ﷺ: «**اصنع بها ما أحببتَ، وما كنتَ صـانعًا بإبلك**»، ونزل: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾ الآية [الطلاق: ٢، ٣].

(1) أخرجه: ابن أبي شيبة (٥/ ٣٣٥)، والحاكم (٢/ ٣٠٠ ـ ٣٠١).

قال الفُضيلُ: واللَّه لو يئستَ من الخلقِ حتَّى لا تريدَ منهم شيئًا، لأعطاكَ مولاكَ كُلَّ ما تُريد.

وذكرَ إبراهيمُ بنُ أدهم عن بعضِهم، قال: ما سألَ السائلون مسألةً هي ألحفُ منْ أن يقولَ العبدُ: ما شاء اللَّهُ، قال: يعني بذلك التَّفويضَ إلى اللَّه عزَّ وجلَّ.

وقال سعيدُ بنُ سالمٍ القداح: بلغني أنَّ موسى عليه السلامُ كانتْ له إلى اللَّهِ حاجةٌ، فطلبَها، فأبطأتْ عليه، فقال: ما شاء اللَّه، فإذا حاجتُه بيْنَ يديه، فعجبَ، فأوحى اللَّهُ إليه: أما علمتَ أنَّ قولَك: «ما شاءَ اللَّهُ» أنجحُ ما طُلبتْ به الحوائجُ.

وأيضًا فإنَّ المؤمنَ إذا استبطأ الفرَجَ، وأيسَ منه بعدَ كثرةِ دعائِه، وتضرُّعِه، ولم يظهرْ عليه أثرُ الإجابةِ يرجعُ إلى نفسِه باللائمةِ، وقال لها: إنَّما أُتيتُ من قِبَلِكِ، ولو كان فيكِ خيرٌ لأُجبتُ، وهذا اللومُ أحبُّ إلى اللَّه من كثيرٍ من الطَّاعاتِ، فإنَّه يُوجبُ انكسارَ العبدِ لمولاهُ واعترافَهُ له بأنَّه أهلٌ لما نزلَ به من البلاءِ، وأنه ليسَ بأهلٍ لإجابةِ الدعاءِ، فلذلك تُسرعُ إليه حينئذٍ إجابةُ الدعاء وتفريجُ الكربِ، فإنه تعالى عندَ المنكسرةِ قلوبُهم من أجلِه.

قال وهبٌ: تعبَّدَ رجلٌ زمانًا، ثمَّ بدت له إلى اللَّه حاجةٌ، فصامَ سبعينَ سبتًا، يأكلُ في كُلِّ سبتٍ إحدى عشرةَ تمرةً، ثم سألَ اللَّهَ حاجتَهُ فلم يُعطَها، فرجعَ إلى نفسِهِ فقال: منكِ أُتيتُ، لو كان فيكِ خيرٌ أعطيتِ حاجتَك، فنزلَ إليه عندَ ذلك ملَكٌ، فقال: يا ابنَ آدمَ ساعتُك هذه خيرٌ من عبادتِك التي مضت، وقد قضى اللَّه حاجتَك. خرَّجه ابنُ أبي الدنيا.

ولبعضِ المتقدمين في هذا المعنى:

عسى مـا ترى أن لا يدوم وأن ترى   له فـــرجًـــا ممَّـا ألحَّ به الـدَّهرُ
عـــسى فـــرَجٌ يـأتي به اللَّـهُ إنَّه   لهُ كُلَّ يـومٍ في خَليــقــتـه أَمْــرُ
إذا لاح عــســرٌ فـارْجُ يـســرًا فـإنَّه   قضى اللَّهُ أنَّ العُـسرَ يتبعُـهُ اليُسرُ[1]

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ٥٢٠ ـ ٥٢٤).

سُورَةُ التِّينِ

قوله تعالى ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾

وفي «الصحيحِ»: «أنَّ إبراهيمَ عليه السلامُ إذا شفَعَ في أبيه، قيل له: يا إبراهيمُ انظرْ ما وراءَك، فإذا هو بذيخٍ ملطَّخ فيُؤخَذُ بقوائِمِه ويُلقى في النَّارِ»[1]، والذيخُ: الضبعُ الذكرُ.

وقال أبو العالية في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾ [التين: ٥] قال: في النَّارِ في صورةِ خنزيرٍ، خرَّجه ابنُ أبي حاتمٍ.

قال ابنُ مسعودٍ: إذا أرادَ اللَّه تعالى أنْ لا يُخْرِجَ منها أحدًا غيَّرَ صورَهم وألوانَهم فلا يُعرفُ منهم أحدٌ[2].

* * *

(١) أخرجه: البخاري (٤/ ١٦٩).

(٢) «التخويف من النار» (١٣٨ ـ ١٣٩).

سُورَةُ الْعَلَقِ

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾

[قال البخاريُّ][1]: قال ابنُ عباسٍ: حدثني أبو سفيانَ في حديثِ هرقلَ، فقال: يأمرنا ـ يعني: النبيَّ ﷺ ـ بالصَّلاةِ والصِّدْقِ والعفافِ.

حديث أبي سفيانَ هذا قد خرَّجه البخاريُّ بتمامِهِ في أولِ كتابِهِ، وهو يدلُّ على أنَّ النبيَّ ﷺ كان أهمُّ ما يأمرُ به أُمَّتَه الصلاةَ، كما يأمرُهم بالصدق والعفافِ، واشتهر ذلك حتى شاعَ بين المللِ المخالفينَ له في دِينه، فإنَّ أبا سفيان كان حينَ قال ذلك مُشْرِكًا، وكان هِرقْلُ نَصْرانيًا، ولم يزلْ ﷺ منذ بُعث يأمر بالصدقِ والعفافِ، ولم يزلْ يصلي ـ أيضًا ـ قبل أن تُفْرَضَ الصلاةُ.

وأولُ ما أُنزل عليه سورةُ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق:١]، وفي آخرها: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾ إلى قوله: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق:١٩].

وقد نَزَلَتْ هذه الآياتُ بسببِ قولِ أبي جَهْلٍ: لئن رأيتُ محمدًا ساجدًا عندَ البيتِ لأطأنَّ على عنُقِهِ.

وقد خرَّج هذا الحديثَ مسلمٌ في «صحيحِه»[2]، وقد ذَكَرنا في أولِ كتابِ:

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ٩٧)

(٢) أخرجه: مسلم (٨/ ١٣٠).

«الوضوءِ» حـديثَ أسامـةَ، أن جبـريلَ نزَل على النبي ﷺ في أولِ الأمـرِ، فعلَّمه الوضوءَ والصلاةَ[١] .

وذكـر ابنُ إسحـاقَ: أنَّ الصلاةَ افـتُرضتْ عـليه حـينئذٍ، وكـانَ هو ﷺ وخديجةُ يُصلِّيان.

والمرادُ: جنسُ الصلاةِ، لا الصلواتِ الخمسِ.

والأحاديثُ الدالةُ على أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يصلي بمكةَ قبلَ الإسراءِ كثيرةٌ.

لكن قد قيلَ: إنَّه كان قـد فُرض عليه ركعتانِ في أولِ النَّهـارِ وركعتان في آخرِه فـقط، ثم افترِضَـتْ عليه الصلواتُ الخمس ليلـةَ الإسراءِ، قاله مُـقاتلٌ وغيرُه.

وقالَ قتادةُ: كان بدءُ الصلاةِ ركعتينِ بالغَداةِ، وركعتينِ بالعَشيِّ.

وإنَّما أرادَ هؤلاء: أنَّ ذلك كان فرضًا قـبل افتراضِ الصلواتِ الخمسِ ليلةَ الإسراءِ.

وقد زعم بعضُهم: أنَّ هذا هو مُرادُ عائشةَ بقولِها: فُرضَت الصلاةُ ركعتين ركعتين[٢] ، وقـالوا: إنَّ الصلواتِ الخـمس فُـرضَتْ أوَّلَ ما فُـرضَتْ أربعًـا وثلاثًا وركعتين على وجهِها.

وضعَّف الأكثرون ذلك، وقالُوا: إنما أرادتْ عائشةُ فرضَ الصلواتِ الخمس ركعتينِ ركعتينِ سِوى المغربِ.

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٥/ ٢٠٣).
(٢) أخرجه: البخاري (١/ ٩٨)، ومسلم (٢/ ١٤٢).

وقد ورد من حديثِ عَـفيفٍ الكنْديِّ، أنَّه رأى النبيَّ ﷺ يُصلي بمكةَ حين زالت الشـمسُ ومعه علـيٌّ وخديجةُ، وأنَّ العـباسَ قـال له: ليس على هذا الدِّينِ أحدٌ غيرُهم.

وقد خرَّجه الإمامُ أحمدُ والنسائيُّ في «خصائص عليٍّ»[١].

وقد طعن في إسناده البخاريُّ في «تاريخه» والعُقيليُّ وغيرُ واحدٍ.

وقد خرَّج الترمذي[٢] من حـديث أنسٍ، قـال: بُعـثَ النبيُّ ﷺ يومَ الاثنينِ، وصلى عليٌّ يومَ الثُّلاثاء.

وإسناد ضعيف.

وقد خرَّجه الحاكم[٣] من حديث بُريدةَ، وصحَّحَه.

وفيه دليلٌ على أنَّ الصلاةَ شُرعت من ابتداء النبوة، لكنَّ الصلواتِ الخمسِ لم تُفرض قبلَ الإسراء بغيرِ خلافٍ.

وروى الرَّبيعُ، عن الشافعي، قال[٤]: سمعتُ ممن أثق بخبره وعلمه يذكر أنَّ اللَّهَ تعالى أنزل فرضًا في الصلاة، ثم نسـخه بفرض غيره، ثم نسخ الثاني بالفرضِ في الصلواتِ الخمسِ.

قال الشافعي: كأنَّه يعني قولَ اللَّه عز وجل: ﴿**يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً ۝٢ نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ**﴾ [المزمل: ١-٤] ثم نسخه في

(١) أخرجه: النسائي في «الخصائص» (٥)، وأحمد في «المسند» (١/ ٢٠٩ - ٢١٠).

(٢) «الجامع» (٣٧٢٨).

(٣) (٣/ ١١٢).

(٤) «الأم» (١/ ٥٩).

السورةِ معهُ بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ﴾ الآية إلى قوله: ﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ﴾ [المزمل: ٢٠]، فنُسِخَ قيامُ الليل، أو نصفه، أو أقلَّ، أو أكثر بما تيسَّر.

قالَ الشافعيُّ: ويقال نُسخ ما وُصف في المزمل بقولِه اللَّهِ عزَّ وجل: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ ودلوكُ الشمس: زَوالُها ﴿إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ﴾ العَتمَة ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ الصبح ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٨-٧٩]

فأعلمه أنَّ صلاةَ الليل نافلةٌ لا فريضة، وأنَّ الفرائض فيما ذكرَ من ليلٍ أو نهارٍ.

قال: ويُقال في قولِ اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾ المغربُ والعشاءُ ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾ الصبحُ ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا﴾ العصرُ ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧-١٨] الظهرُ. انتهى.

وقد رُوي عن طائفةٍ من السَّلفِ تفسيرُ هاتينِ الآيتينِ بنحوِ ما قالَه الشافعيُّ، فكلُّ آيةٍ منهما متضمِّنةٌ لذكر الصلواتِ الخمسِ، ولكنَّهما نزلتا بمكةَ بعدَ الإسراءِ. واللَّهُ أعلم.

وقد أجمعَ العلماءُ على أنَّ الصلواتِ الخمسِ إنَّما فُرضَتْ ليلةَ الإسراءِ، واختلفوا في وقتِ الإسراء:

فقيل: كانَ بعدَ البعثةِ بخمسةَ عشرَ شهرًا، وهذا القولُ بعيدٌ جدًّا.

وقيل: إنَّه كان قبلَ الهجرةِ بثلاثِ سنين، وهو أشهرُ.

وقيل: قبلَ الهجرةِ بسنةٍ واحدةٍ.

وقيل: قبلَها بستةِ أشهرٍ.

وقيل: كـانَ بعدَ البعـثةِ بخمسٍ سنين، ورجَّـحه بعضُـهم، قال: لأنَّه لا خلاف أن خديجة صلَّت معه بعد فرض الصلاة، ولا خلاف أنها تُوفِّيَتْ قبل الهجرة بمدةٍ، قـيل: بثلاث سنين، وقيل: بخمس، وقـد أجمع العلماءُ على أن فرض الصلاة كان ليلةَ الإسراء.

قلت: حكايته الإجمـاعَ على صلاة خديجةَ معه بعـد فَرض الصلاةِ غَلَطٌ مَحْضٌ، ولم يَقُل هذا أحَدٌ ممن يُعْتَدُّ بقوله.

وقـد خرج أبـو يَعلَى الموصلي والطبـراني[(١)] من حـديث إسمـاعـيلَ بن مُجالـد، عن أبيه عن الشَّعبي، عن جـابر، أن رسولَ اللَّه ﷺ سُـئل عن خديجةَ؛ فإنها مـاتت قبل أنْ تَنزل الفرائض والأحكام؟ فقال: «**أبصرتهـا على نهر من أنهار الجنة، وفي بيت من قَصَبٍ، لا لغوٌ فيه ولا نَصَبٌ**».

وروى الزُّبيرُ بنُ بكَّارٍ، بإسـناد ضعيف، عن يُونُسَ عن ابنِ شـهابٍ، عن عُروَةَ، عن عائشةُ، قالت: تُوفِّيتْ خديجةُ قبل أن تُفرض الصلاةُ.

وقد فرَّق بعضهم بين الإسراء والمعراج، فـجعل المعراج إلى السماوات كما ذكره اللَّه في سـورة النَّجم، وجعل الإسراء إلى بيت المـقدسِ خاصةً، كـما ذَكَره اللَّـه في سورة ﴿**سبحان**﴾ وزَعَم أنهما كانا في ليـلتين مختلفتين، وأن الصلوات فُرضت ليلةَ المعراج لا ليلةَ الإسراء.

وهذا هو الذي ذكره محمدُ بن سَعْدٍ في «طبقاته»[(٢)] عن الواقديِّ بأسانيدَ له متعددةٍ، وذكَـر أن المعراج إلى السماء كان ليلةَ السبت لـسبعَ عشرةَ خلَتْ من شهر رمـضانَ قبل الهجرة بثمـانيةَ عشرَ شهرًا من المســجد الحرام، وتلك الليلةَ فـرُضت الصلواتُ الخـمس، ونزل جـبـريل فـصلى برسـول اللَّه ﷺ

(١) أخرجه: أبو يعلى في «مسنده» (٤/ ٤١)، والطبراني في «الأوسط» (٨١٥٣).
(٢) (١/ ١/ ١٤٣).

الصلوات في مواقيتها، وأن الإسراء إلى بيت المقدس كان ليلةَ سبعَ عشرةَ من شهر ربيعٍ الأولِ قبل الهجرة بسنةٍ، من شِعْبِ أبي طالب.

وما بوَّب عليه البخاري أن الصلوات فرضت في الإسراء يدل على أن الإسراء عنده والمعراج واحد. واللَّه أعلم(١).

* * *

قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾

قال اللَّهُ تعالَى: ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ۝١٧ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٧، ١٨] قال أبو هريرةَ: الزبانيةُ: الملائكةُ، وقال عطاءٌ: هم الملائكةُ الغلاظُ الشدادُ، وقال مقاتلٌ: هم خزنةُ جهنَّمَ، وقال قتادةُ: الزبانيةُ في كلامِ العربِ: الشرطُ، وقالَ عبدُ اللَّهِ بنُ الحارثِ: الزبانيةُ رؤوسُهُم في الأرضِ وأرجلُهُم في السماءِ، خرجهُ ابنُ أبي حاتمٍ وخرجَ أيضًا بإسنادِهِ عن المنهالِ بنِ عمرٍو قالَ: إذا قالَ اللَّهُ تعالَى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠] ابتدرهُ سبعونَ ألفَ ملكٍ، وإن الملكَ منهم ليقولُ هكذا، يعني: يفتحُ يديهِ، فيلقي سبعينَ ألفًا في النارِ(٢).

* * *

---

(١) «فتح الباري» (٢/ ١٠١ - ١٠٦).

(٢) «التخويف من النار» (١٧٧).

سُورَةُ الْقَدْرِ

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾

في «الصحيحينِ»[1] عن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، قالَ: كانَ رسولُ اللَّه ﷺ يعتكِفُ في العشرِ الأوسطِ من رمضانَ، فاعتكفَ عامًا، حتَّى إذا كانتْ ليلةُ إحدى وعشرينَ، وهي الليلةُ التي يخرُجُ في صبيحتِها من اعتكافِه، قال: **«من كانَ اعتكفَ معي فليعتكِفِ العشرَ الأواخرَ، وقد أُريتُ هذه الليلةَ ثم أُنسيتُها، وقد رأيتُني أسجدُ في ماءٍ وطينٍ من صبيحتِها، فالتمسُوهَا في العشرِ الأواخرِ، والتمسوها في كلِّ وترٍ»**.

فمطرتِ السَّماءُ تلكَ الليلةَ، وكان المسجدُ على عريشٍ، فوكفَ المسجدُ، فبصُرتْ عيناي رسولَ اللَّه ﷺ على جبهتِه أثرُ الماءِ والطِّينِ من صُبحِ إحدى وعشرين، هذا الحديثُ يدلُّ على أنَّ النبيَّ ﷺ كان يعتكفُ العشرَ الأوسطَ من شهرِ رمضانَ؛ لابتغاءِ ليلةِ القدرِ فيه، وهذا السِّياقُ يقتضِي أنَّ ذلكَ تكرَّر منه ﷺ.

وفي روايةٍ في «الصحيحينِ»[2] في هذا الحديثِ: أنه اعتكفَ العشرَ الأوَلَ،

---

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ٦٠)، ومسلم (٣/ ١٧١).

(٢) أخرجه: البخاري (١/ ٢٠٦ ـ ٢٠٧)، ومسلم (٣/ ١٧١).

ثم اعتكفَ العشرَ الأوسطَ، ثم قالَ: «**إني أُتيتُ، قيلَ لي: إنها في العشر الأواخر، فمن أحبَّ منكُم أن يعتكفَ فليعتكفْ**»، فاعتكفَ الناسُ معه.

وهذا يدلُّ على أنَّ ذلكَ منه قبلَ أن يتبين لهُ أنَّها في العشر الأواخر، ثم لَمَّا تبين له ذلك اعتكفَ العشرَ الأواخرَ حتَّى قبضَه اللَّه عزَّ وجلَّ، كما رواه عنه عائشة وأبو هريرة وغيرُهما.

ورُوي أنَّ عمرَ ﷺ جمعَ جماعةً من الصحابةِ، فسألهم عن ليلةِ القدرِ، فقالَ بعضُهم: كنَّا نراها في العشرِ الأوسطِ، ثم بلغنا أنها في العشرِ الأواخر.

وخرَّج ابنُ أبي عاصمٍ في كتاب «الصيام» وغيرُه من حديثِ خالدِ بن محدُوجٍ، عن أنسٍ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**التمسُوها في أوَّل ليْلَة، أو في تسعٍ، أو في أربع عشرةَ**»، وخالدٌ هذا فيه ضعفٌ، وهذا يدلُّ على أنَّها تُطلبُ في ليلتين من العشرِ الأوَل، وفي ليلةٍ من العشرِ الأوسطِ، وهي أربع عشرةَ، وقد سبقَ[1] من حديث واثلةَ بن الأسقعِ مرفوعًا: «**إن الإنجيلَ أُنزل لثلاثَ عشرةَ من رمضانَ**»، وقد ورد الأمر بطلب ليلةِ القدْر في النصفِ الأواخرِ من رمضانَ، وفي أفراد ما بقي من العشرِ الأوسطِ من هذا النصف، وهما ليلتانِ: ليلةُ سبعَ عشرةَ، وليلةُ تسعَ عشرةَ.

أمَّا الأولُ: فخرَّجه الطبراني[2]، من حديثِ عبدِ اللَّه بن أُنيسٍ، أنه سألَ النبيَّ ﷺ عن ليلةِ القدر، فقالَ: «**رأيتُها ونسيتُها، فتحرَّها في النِّصفِ الأواخرِ**»، ثم عادَ فسألهُ، فقال: «**التمسْها في ليلةِ ثلاثٍ وعشرين تَمضِي من الشهرِ**».

(١) «الأسماء والصفات» للبيهقي (ص ٢٣٤).

(٢) أخرجه بنحوه: مسلم (٣/ ١٧٣)، وأحمد (٣/ ٤٩٥).

ولهـذا المعنى ـ واللَّهُ أعلمُ ـ كان أبيّ بن كَعب يقنُتُ في الوتر في ليـالي النصف الأواخرِ؛ لأنَّه يُرجى فيه ليلةُ القدرِ.

وأيضًا فكُلُّ زمانٍ فاضلٍ من ليلٍ أو نهارٍ، فإنّ آخرَه أفضلُ من أوَّله، كيومِ عرفَةَ، ويومِ الجُـمعة، وكذلك اللَّيلُ والـنَّهار عمومًا؛ آخِـرُهُ أفضلُ من أوَّلِه، ولذلك كانتِ الصلاةُ الوسطَى صلاةَ العصرْ، كـما دلَّتِ الأحاديثُ الصَّحيحةُ عليه، وآثارُ السَّـلفِ الكثيرةُ تدلُّ عليـهِ، وكذلكَ عـشرُ ذي الحجـةِ والمحرمِ؛ آخرُهما أفضلُ من أوَّلِهِمَا.

وأمَّا الثاني: ففي «سننِ أبي داود»[1] عن ابنِ مسعـودٍ مرفوعًا: «**اطلُبُوها ليلةَ سبْعَ عـشرةَ مِن رَمـضانَ، وليلةَ إحدَى وعـشرين، وليلةَ ثلاث وعـشرين**»، ثم سكتْ، وفي روايةٍ: «**ليلةَ تسعَ عشرةَ**»، وقيلَ: إنَّ الصحيحَ وقْفُه على ابنِ مسعودٍ، فقد صحَّ عنه أنَّه قال: تحرُّوا ليلةَ القدْرِ ليلةَ سبعَ عـشرةَ، صباحيَّةَ بدرٍ، أو إحدى وعشرين، وفي روايةٍ عنه، قالَ: «**ليلةَ سبعَ عشرةَ، فإنْ لم يكن ففي تسعَ عشرةَ**».

وخرَّج الطبرانيُّ[2] من روايةِ أبي المُهـزِّم، وهو ضـعـيفٌ، عن أبي هريرةَ مرفوعًا، قال: «**التمسُوا ليلةَ القدْرِ في سبعَ عشرةَ أو تسعَ عشرةَ، أو إحدى وعشرين، أو ثلاثٍ وعشـرين، أو خمسٍ وعشرين، أو سـبعٍ وعشرين، أو تسعٍ وعـشرين**»، ففي هذا الحديثِ: التـماسُـها في أفرادِ النـصفِ الثاني كلِّها، ويُـروى من حديثِ عائشةَ ﵂: أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ إذا كان ليلةَ تسعَ عشرةَ من رمضانَ شدَّ المئزرَ وهجرَ الفراشَ حتى يُفطرَ.

قال البـخاريُّ: تفرَّد به عُمـرُ بن مسكينٍ، ولا يتابع عليـهِ، وقد رُويَ عن

(١) «السنن» (١٣٨٤).

(٢) «المعجم الأوسط» (١٢٨٤).

طائفةٍ من الصحابةِ أنَّها تُطلبُ ليلةَ سبعَ عشرةَ، وقالُوا: إن صبيحتَها كانَ يومَ بدرٍ، رويَ عن علي، وابنِ مسعـودٍ، وزيدِ بنِ أرقمَ، وزيدِ بنِ ثابتٍ، وعمرِو ابنِ حـريثٍ، ومنهم من رُويَ عنه، أنَّهـا ليلةُ تسعَ عشـرةَ؛ رُوي عن علي، وابنِ مسعودٍ، وزيدِ بن أرقمَ.

والمشهـورُ عندَ أهلِ السِّيرِ والمغـازي: أنَّ ليلةَ بدْرٍ كانتْ ليلةَ سبعَ عـشرةَ، وكانت ليلةَ جُمعةٍ، وروي ذلك عن علي، وابنِ عـباسٍ وغيرهما، وعن ابنِ عباسٍ، روايةٌ ضعيفةٌ أنَّها كانت ليلةَ الاثنين.

وكان زيد بن ثابتٍ لا يُحيي ليلةً من رمضان، كما يُحيى ليلةَ سبعَ عشرةَ، ويقول: إنَّ اللَّه فرَّق في صبيحتها بين الحقِّ والباطلِ، وأذلَّ في صبيحتها أئمةَ الكفرِ، وحكى الإمامُ أحمـدُ هذا القولَ عن أهل المدينة: أنَّ ليلةَ القدْر تُطلبُ ليلةَ سبعَ عـشرةَ، قال في رواية أبي داود فيمن قـال لامرأته: أنت طالقٌ ليلة القدر، قـال: يعتزلُها إذا دخلَ العـشرُ، وقبل العشـر، أهلُ المدينة يرونها في السبع عشـرةَ، إلا أنَّ المثبتَ عن النبي ﷺ في العشْـرِ الأواخر، وحكي عن عامر بن عبدِ اللَّهِ بن الزُّبيرِ: أنَّه كانَ يُواصِلُ ليلةَ سبعَ عشرةَ.

وعن أهلِ مكةَ أنَّهمُ كـانُوا لا ينامونَ فيـها، ويعتـمرونَ، وحُكِيَ عن أبي يوسُفَ ومحمد، صاحِبـي أبي حنيفةَ: أنَّ ليلةَ القدْرِ في النصفِ الأواخرِ من رمضانَ من غـيرِ تعيينٍ لها بليلةٍ، وإن كانتْ في نفسِ الأمـرِ عندَ اللَّهِ مُعينةً، ورويَ عن عبـدِ الرحمنِ بنِ الحـارثِ بنِ هشامٍ، قـالَ: ليلةُ القدْرِ ليلـةُ سبعَ عشرةَ، ليلةُ جمـعة، خرَّجه ابنُ أبي شيبـة، وظاهرُه أنَّها إنما تكونُ ليلةَ القدرِ إذا كانتْ ليلةَ جمـعةٍ؛ لتُوافق ليلةَ بدرٍ، وروَى أبو الشيخ الأصـبهاني بإسنادٍ

جيِّد، عن الحسنِ، قالَ: إنَّ غلامًا لعثمانَ بنَ أبي العاص، قالَ لهُ: يا سيِّدي، إن البحرَ يعذُبُ في هذا الشهر في ليلةٍ، قال: فإذا كانتْ تلك الليلةُ فأعلمني، قال: فلما كانتْ تلكَ الليلةُ أذنَه، فنظرُوا فوجدوه عذبًا، فإذا هي ليلةُ سبعَ عشرةَ.

ورُويَ من حديثِ جابرٍ، قالَ: كان رسولُ اللَّه ﷺ يأتي قُباءً صبيحةَ سبعَ عشرةَ من رمضانَ، أيَّ يومٍ كان. خرَّجه أبو موسى المدينيُّ.

وقد قيلَ: إنَّ المعراجَ كانَ فيها أيضًا، ذكرَ ابنُ سعدٍ، عن الواقديِّ، عن أشياخهِ: أنَّ المعراجَ كانَ ليلةَ السبتِ لسبعَ عشرةَ خلتْ من رمضانَ قبلَ الهجرة إلى السماءِ، وأنَّ الإسراءَ كان ليلةَ سبعَ عشرةَ من ربيع الأوَّل قبلَ الهجرةِ بسنةٍ إلى بيتِ المقدسِ، وهذا على قولِ مَن فرَّق بين المعراجِ والإسراءِ؛ فجعلَ المعراجَ إلى السَّماء، كما ذُكر في سورةِ النجمِ؛ والإسراءَ إلى بيتِ المقدسِ خاصَّةً، كما ذُكرَ في سورةِ سبحانَ.

وقد قيلَ: إنَّ ابتداءَ نبوَّةِ النبيِّ ﷺ كان في سابعَ عشرَ رمضان، قال أبو جعفر محمد بن علي الباقر: نزلَ جبريلُ على رسولِ اللَّهِ ﷺ ليلةَ السبتِ وليلةَ الأحدِ، ثم ظهر له بحراءَ برسالةِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ يومَ الاثنين لسبعَ عشرةَ خلتْ من رمضانَ، وأصحُّ ما روي في الحوادث في هذه الليلة أنَّها ليلةُ بدْرٍ، كما سبقَ أنَّها كانتْ ليلةَ سبعَ عشرَةَ.

وقيلَ: تسعَ عشرةَ، والمشهورُ أنَّها كانتْ ليلةَ سبعَ عشرةَ، كما تقدَّمَ، وصبيحتُها هو يومُ الفرقانِ، يوم التقى الجمعانِ، وسُمِّي يومُ الفرقانِ؛ لأنَّ اللَّهَ تعالى فرَّق فيه بينَ الحقِّ والباطلِ، وأظهرَ الحقَّ وأهلَهُ على الباطلِ وحزْبهِ،

وعلَتْ كلمةُ اللَّهِ وتوحيدُه، وَذُلَّ أعداؤهُ من المشركينَ وأهلِ الكتاب، وكان ذلكَ في السنةِ الثانيةِ من الهجرةِ؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ قدمَ المدينةَ في ربيعِ الأولِ في أوَّل سنةٍ من سني الهجرةِ، ولم يُفرضْ رمضان في ذلكَ العامِ، ثم صامَ عاشوراءَ، وفُرضَ عليه رمضانُ في ثاني سنةٍ، فهو أوَّل رمضان صامهُ وصامَه المسلمون معه. ثم خرَجَ النبيُّ ﷺ لطلبِ عيرٍ من قريش قدمتْ من الشامِ إلى المدينةِ في يوم السبتِ لاثنتي عشرةَ ليلةً خلتْ من رمضانَ، وأفطرَ ﷺ في خروجهِ إليها.

قال ابنُ المُسيَّب: قال عُمر: غزونَا مع رسولِ اللَّه ﷺ غزوتينِ في رمضانَ يومَ بدْرٍ، ويومَ الفتحِ، وأفطرنَا فيهما، وكان سببُ خروجه حاجةَ أصحابه، خصوصًا المهاجرين ﴿**الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾ [الحشر:٨]، وكانتْ هذه العيرُ فيها أموالٌ كثيرةٌ لأعدائِهم الكفار الذينَ أخرجُوهم من ديارهم وأموالِهم ظُلمًا وعُدوانًا، كما قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ**﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]، فقصدَ النَّبيُّ ﷺ أن يأخذ أموالَ هؤلاء الكفار الظالمين المعتدين على أولياءِ اللَّهِ وحزبه وجنده، فيردَّها على أولياءِ اللَّه وحزبِه المظلومينَ المخرجينَ من ديارِهم وأموالِهم ليتقوّوا بها على عبادةِ اللَّه وطاعته وجهادِ أعدائه، وهذا ممَّا أحلَّه اللَّهُ لهذه الأمَّة؛ فإنَّه أحلَّ لهم الغنائمَ، ولم تحلَّ لأحدٍ قبلَهم، وكان عدَّةُ من معهُ ثلثمائة وبضعةَ عشرَ، وكانوا على عدَّةِ أصحابِ طالُوتَ الذين جازُوا معه النهرَ، وما جازَه معه إلا مؤمنٌ.

وفي «سننِ أبي داودَ»(١) من حديثِ عبدِ اللَّهِ بن عمرو، قالَ: خرجَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يومَ بدرٍ في ثلاثمائةٍ وخمسةَ عشرَ من المقاتلةِ، كما خرجَ طالُوت، فدعا لهم رسولُ اللَّه ﷺ حينَ خرجُوا، فقالَ: **«اللهمَّ، إنَّهم حُفَاةٌ فاحْمِلْهُم، وإنَّهم عُراةٌ فاكسُهُم، وإنَّهم جياعٌ فأشبعْهُم»**. ففتحَ اللَّهُ يومَ بدرٍ، فانقلبُوا حينَ انقلبوا وما فيهم رجلٌ إلا وقد رجع بجملٍ أو جملين، واكتسوا وشبعُوا، وكان أصحابُ النبي ﷺ حين خرجُوا على غايةٍ من قلَّة الظهرِ والزَّاد؛ فإنَّهم لم يخرجوا مستعدِّين لحربٍ، ولا لقتالٍ، إنَّما خرجُوا لطلبِ العير، فكانَ معهُم نحو سبعينَ بعيراً يعتقبونها بينهم، كُلُّ ثلاثةٍ على بعير، وكان للنبيِّ ﷺ زميلان، فكانوا يعتقبونَ على بعيرٍ واحدٍ، فكان زميلاه يقولان لَهُ: يا رسولَ اللَّه، اركبْ حتَّى نمشيَ عنك، فيقولُ: ما أنتما بأقوَى على المشي منِّي، ولا أنا بأغنى عن الأجرِ منكُما، ولم يكنْ معهُمَا إلا فرسانِ، وقيلَ: ثلاثةٌ، وقيل: فرسٌ واحدٌ للمقدادِ.

وبلغَ المشركينَ خروجُ النبيِّ ﷺ لطلبِ العيرِ، فأخذَ أبو سُفيان بالعِير نحو الساحلِ، وبعثَ إلى أهلِ مكَّة يخبرُهُم الخبرُ، ويطلبُ منهم أن ينفروا لحمايةِ عِيرهم، فخرجُوا مستصرخين، وخرجَ أشرافُهم ورؤساؤُهم، وسارُوا نحوَ بدْرٍ، واستشارَ النبيُّ ﷺ المسلمينَ في القتالِ فتكلَّم المهاجرونَ فسكتَ عنهُم، وإنما كانَ قصدُه الأنصارَ لأنَّه ظنَّ أنَّهم لم يبايعوه إلا على نُصْرته على من قصدهُ في ديارِهم، فقام سعد بنُ عُبادةَ، فقالَ: إيَّانا تريدُ، يعني الأنصارَ، والذي نفسِي بيدِه، لو أَمرتَنا أن نَخِيضَها البحرَ لأخضناها، ولو أمرْتنا أن

(١) «السنن» (٢٧٤٧).

نضربَ أكبادَها إلى برك الغماد لفعلنا(١) ، وقال له المقدادُ: لا نقُول لكَ كمَا قالَ بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة:٢٤]، ولكن نقاتلُ عن يمينكَ وشمالك، وبينَ يديكَ، ومن خلفكَ، فسُرَّ النبيُّ ﷺ بذلك وأجمعَ على القتال(٢) .

وبات تلكَ الليلةَ، ليلةَ الجمعةِ سابعَ عشرَ رمضانَ قائمًا يُصلّي ويبكِي ويدعُو اللَّه ويستنصرُهُ على أعدائِه.

وفي «المسندِ»(٣) عن عليٍّ بنِ أبي طالبٍ، قالَ: «لَقَدْ رأيتُنا وما فينا إلا نائمٌ، إلا رسولُ اللَّهِ ﷺ تحتَ شجرةٍ يُصلِّي ويبكي حتَّى أصبحَ».

وفيه(٤) عنه أيضًا، قال: أصابنا طَشٌّ من مطرٍ، يعني ليلَةَ بدْرٍ، فانطلقنا تحتَ الشَّجرِ والحَجَفِ نستظلُّ بها من المطرِ، وبات رسولُ اللَّه ﷺ يدعو ربَّهُ، ويقول: «إن تُهْلكْ هذه الفئةَ لا تُعْبَدْ»، فلمَّا أن طلعَ الفجرُ نادى: الصلاةَ عبادَ اللَّهِ، فجاءَ الناسُ من تحت الشَّجر والحجفِ، فصلَّى بنا رسولُ اللَّه ﷺ، وحثَّ على القتال.

وأمدَّ اللَّهُ تعالى نبيَّهُ والمؤمنينَ بنصرٍ من عنده وبجند من جنده، كما قالَ تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ ۝ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾[الأنفال: ٩، ١٠].

---

(١) أخرجه: مسلم (٥/ ١٧٠)، وأحمد (٣/ ٢١٩، ٢٢٠، ٢٥٧)، وأبو داود (٢٦٨١).
(٢) أخرجه: البخاري (٥/ ٩٣).
(٣) «المسند» (١/ ١٢٥).
(٤) «المسند» (١/ ١١٧).

وفي «صحيحِ البخاريِّ»[(١)] أنَّ جبـريلَ قالَ للنبيِّ ﷺ: «ما تَعُـدُّون أهلَ بدرٍ فيكم؟ قال: « مِن أفْـضَلِ المسلمين» أو كلمـةً نحْوَهَا، قال: وكـذلك مَن شهِـدَ بدْرًا من الملائكة». وقال اللَّهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران:١٢٣]، وقال: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧]، ورُوي أنَّ النـبيَّ ﷺ لما رآهمُ قـالَ: «اللهمَّ، إنَّ هؤلاءِ قُـريشٌ قـد جاءتْ بخُيلائها يُكَذِّبون رسـولَك، فأنجِزْ لي ما وَعدْتَني»[(٢)] ، فأتاه جبريلُ، فقالَ: «خُـذْ قبـضةً من تُرابٍ فـارمهم بهـا»، فأخذَ قـبضةً من حصْبـاءِ الوادي فرمَى بها نحوَهم، وقالَ: «شاهتِ الوُجُوه» فلم يبقَ مُشـركٌ إلا دخلَ في عينيـهِ ومنْخرِه وفمه شيءٌ، ثم كانتِ الهزيمةُ، وقـال حكيمُ بنُ حزامٍ: سمعنا يومَ بدرٍ صوتًا وقع من السَّمـاء كأنَّه صوتُ حصاةٍ على طَسْتٍ، فـرمَى رسولُ اللَّه ﷺ تلكَ الرَّميةَ، فانهزمنا، ولما قدمَ الخـبرُ على أهلِ مكةَ قالُوا لمن أتاهُم بالخبرِ: كيفَ حالُ الناسِ؟ قالَ: لا شيءَ، واللَّهِ إن كانَ إلا أن لقـيناهُم فمنحناهُم أكتافنا، يقتلُونا ويأسرُونا كيفَ شاؤُوا، وايْمُ اللَّهِ، مع ذلكَ ما لمتُ النَّاسَ؛ لقينا رجالاً على خيلٍ بُلقٍ بين السَّماءِ والأرضِ ما يقومُ لها شيءٌ.

وقتلَ اللَّه صناديـدَ كفَّارِ قـريشٍ يومئذٍ، منهم عُـتبةُ بنُ ربيـعةَ، وشيـبةُ، والوليدُ بنُ عـتبةَ، وأبو جهلٍ، وغيـرُهم، وأسرُوا منهم سبعـينَ، وقصَّةُ بدرٍ يطولُ اسـتقصـاؤها، وهي مـشهورةٌ في الـتفسـيرِ وكـتبِ الصحـاحِ والسننِ والمسانيدِ والمغـازي والتواريخِ وغيرها، وإنما المقصودُ هـاهنا التنبيةُ على بعضِ مقاصدِها.

---

(١) «الصحيح» (٥/ ١٠٣).

(٢) أخرجه بنحوه: أحمد في «المسند» (١/ ٣٠، ٣٢).

وكان عدوُّ اللَّه إبليسُ قـد جاء إلى المشركينَ في صورةِ سُـراقةَ بن مالك، وكانت يدُهُ في يدِ الحارث بن هشامٍ، وجعل يُشجعهم ويعدُهم ويمنِّيهم، فلمَّا رأى الملائكةَ هربَ وألقى نفسه في البحر.

وقد أخبرَ اللَّهُ عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ **وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ [الأنفال: ٤٨].

وفي «الموطأ» حديثٌ مرسلٌ عن النَّبيِّ ﷺ، قال: «**ما رُؤِي الشَّيطانُ أحقرَ ولا أدحَر ولا أصغرَ من يوم عـرفةَ، إلا ما أُرِي يومَ بدر**»، قيل: وما رأى يومَ بدرٍ؟ قال: «**رأى جبـريلَ يزعُ الملائكة**»، فإبليس عـدوُّ اللَّهِ يسعَى جهـدَه في إطفاءِ نورِ اللَّه وتوحيـدِه، ويُغري بذلك أولياءَه من الكفَّـار والمنافقين، فلمَّا عـجزَ عن ذلكَ بنصرِ اللَّهِ نبيَّه وإظهـارِ دينه على الدِّينِ كُلِّه، رضِيَ بإلقاءِ الفتنِ بين المسلمينَ، واجْتَزَى منهُم بمحـقرَاتِ الذنوبِ حيثُ عجزَ عن ردِّهم عن دينهِم؛ كـما قالَ النبيُّ ﷺ: «**إنَّ الشيطانَ قـد أيسَ أن يعبـدهُ المصلُّونَ في جـزيرةِ العـربِ، ولكن في التحريشِ بينَهـمُ**»، خرَّجـهُ مسلمٌ[١] من حـديثِ جابرٍ، وخـرَّج الإمامُ أحـمدُ والنسائيُّ والترمـذيُّ وابنُ ماجه[٢] من حـديثِ عمـرِو بنِ الأحوصِ، قـالَ: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ في حـجةِ الوداعِ: «**ألا أنَّ الشَّيـطانَ قد أيسَ أن يُعـبدَ في بلدكُم هذا أبدًا، ولكنْ سـيكونُ له طاعةٌ في بعضِ مـا تحتـقرُون من أعـمالِكم، فـيرضَى بها**».

---

(١) أخرجه: مسلم (٨/ ١٣٨).

(٢) أخرجه: أحـمد في «المسند» (٣/ ٤٢٦)، والترمذي (٢١٥٩)، وابن مـاجه (٣٠٥٥)، والنسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (١٠٦٩١).

وفي «صحيحِ الحاكمِ»[(١)] عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ خطبَ في حجَّةِ الوداع، فقال: «**إنَّ الشيطان قد يئس أن يُعبدَ بأرضكم، ولكنَّه يرضَى أن يُطاعَ فيما سِوى ذلكَ؛ فيما تحاقرونَ من أعمالكم؛ فيرضَى بها فاحذَروا، يا أيُّها الناسُ، إنِّي قد تركتُ فيكم ما إنْ اعتصمتُم به فلن تضِلُّوا أبدًا: كتابَ اللَّه، وسنَّةَ نبيِّه ﷺ**»، ولم يعظم على إبليسَ شيء أكبرُ مِن بعثةِ محمد ﷺ، وانشارِ دعوته في مشارق الأرض ومغاربها؛ فإنَّه أيسَ أن تعودَ أمَّتُه كلُّهم إلى الشرك الأكبر.

قال سعيدُ بنُ جُبَير: لَّما رأى إبليسُ النبيَّ ﷺ قائمًا بمكَّةَ يصلِّي رَنَّ، ولَّما افتتح النبيُّ ﷺ مكَّةَ رَنَّ رنَّةً أخرى؛ اجتمعتْ إليه ذريته، فقال: ايئسوا أن تردُّوا أمَّة محمد ﷺ إلى الشرك بعدَ يومكم هذا، ولكن افتنُوهم في دينهم، وأفشُوا فيهم النوحَ والشِّعرَ، خرَّجه ابنُ أبي الدنيا.

وخرَّجَ الطبرانيّ بإسنادِه، عن مجاهدٍ، عن أبي هريرة، قال: «إنَّ إبليسَ رَنَّ لَّما أُنزلتْ فاتحةُ الكتابِ، وأُنزِلَتْ بالمدينة»، والمعروفُ هذا عن مجاهدٍ من قوله، قال: رنَّ إبليسُ أربعَ رنَّاتٍ: حينَ لُعنَ، وحينَ أُهبطَ من الجنَّة، وحينَ بُعثَ محمدٌ ﷺ، وحين أُنزلت فاتحةُ الكتاب؛ وأُنزلتْ بالمدينة، خرَّجه وكيعٌ وغيرُه.

وقال بعضُ التابعين: لَّما أُنزلتْ هذه الآيةُ: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ**﴾الآية [آل عمران:١٣٥]، بكى إبليسُ، يشيرُ إلى شدَّةِ حزنه بنزولِها؛ لما فيها من الفرحِ لأهلِ الذنوبِ، فهو لا يزالُ في همٍّ وغمٍّ وحُزنٍ منذُ بُعثَ النبيُّ ﷺ، لما رأى منه ومن أمَّتِه ما يُهمُّه ويُغيظُه.

---

(١) «المستدرك» (١/ ٩٣).

قال ثابتٌ: لَمَّا بُعثَ النبيُّ ﷺ، قال إبليسُ لشياطينه: لقد حدثَ أمرٌ فانظرُوا ما هُو، فانطلقُوا، ثم جاؤُوه، فقالُوا: ما ندري، قال إبليسُ: أنا آتيكم بالخبر، فذهبَ وجاءَ، قالَ: قد بُعثَ محمدٌ ﷺ، فجعل يُرسلُ شياطينَه إلى أصحابِ النبيِّ ﷺ، فيجيؤون بصُحفهم ليسَ فيها شيءٌ، فقال: ما لكُم لا تُصيبون منهم شيئًا؟ قالوا: ما صحِبْنا قوما قطُّ مثلَ هؤلاءِ؛ نُصيبُ منهم ثم يقومونَ إلى الصلاةِ، فيُمْحَى ذلك، قالَ: رُويدًا! إنَّهُم عسَى أَنْ يفتحَ اللَّهُ لهُمُ الدنيا، هنالكَ تُصيبُون حاجَتكم منُهم.

وعن الحسنِ، قالَ: قالَ إبليسُ: سوَّلتُ لأمَّةِ محمدٍ المعاصِي، فقطعُوا ظهرِي بالاستغفارِ، فسوَّلتُ لهم ذنوبًا لا يستغفرونَ منها، يعني الأهواءَ.

ولا يزالُ إبليسُ يرى في مواسمِ المغفرة والعتقِ من النار ما يسُوءُه؛ فيومُ عرفةَ لا يُرى أصغرَ ولا أحقرَ ولا أدحَر فيه منه؛ لما يرى من تنزُّلِ الرَّحمةِ وتجاوُزِ اللَّهِ عن الذُّنوبِ العظامِ، إلا ما رُؤي يومَ بدْرٍ.

ورُوِيَ أنَّه لَمَّا رأى نزولَ المغفرةِ للأمَّةِ في حجَّةِ الوداع يومَ النَّحرِ بالمزدلفة، أهوَى يحثِي على رأسِهِ الترابَ، ويدعوُ بالويل والثبور، فتبسَّم النبيُّ ﷺ مِمَّا رأى من جزعِ الخبيثِ، وفي شهرِ رمضانَ يلطفُ اللَّهُ بأمَّةِ محمدٍ ﷺ فيغلُّ فيه الشياطينَ ومردةَ الجنِّ حتَّى لا يقدروا على ما كانُوا يقدرونَ عليه في غيره من تسويل الذنوب، ولهذا تقلُّ المعاصي في شهر رمضان في الأمَّة لذلك، ففي «الصحيحين»(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال: «**إذا دَخلَ رمضانُ فُتحتْ أبوابُ السَّماءِ، وغُلِّقتْ أبوابُ جهنَّم، وسُلسلت الشَّياطينُ**»، ولمسلمٍ:

(١) أخرجه: البخاري (٣/ ٣٢)، (٤/ ١٤٩)، ومسلم (٣/ ١٢١).

«فُتحتْ أبوابُ الرَّحمةِ»، وله أيضًا عن أبي هريرة ﷺ، عن النبي ﷺ، قال: «إذا جاء رمضان فُتِّحت أبوابُ الجنَّةِ، وغُلِّقتْ أبوابُ النّار، وصُفِّدت الشياطينُ».

وخرَّج منه البخاري ذِكرَ فتحِ أبوابِ الجنَّةِ.

وللترمذي وابن ماجه[1] عنه عن النبيِّ ﷺ، قال: «إذا كان أوَّلُ ليلةٍ من شهر رمضانَ صُفِّدت الشَّياطينُ ومردةُ الجنِّ، وغُلِّقتْ أبوابُ النَّارِ، فلم يُفتحْ منها بابٌ؛ وفُتحت أبوابُ الجنَّة، فلم يُغلَقْ منها بابٌ؛ ويُنادي منادٍ: يا باغيَ الخيرِ أقبلْ، ويا باغيَ الشر أقصِرْ، ولِلَّه عُتقاءُ من النّارِ، وذلك في كُلِّ ليلةٍ»، وفي رواية للنسائي[2]: «وتُغَلُّ فيه مردةُ الشياطينِ».

وللإمامِ أحمد[3] عن أبي هريرةَ ﷺ عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «أُعطيتْ أمَّتي في رمضانَ خمسَ خصالٍ، لم تُعْطَه أُمةٌ قبلَهم: خُلُوفُ فم الصَّائم أطيبُ عندَ اللَّه من ريحِ المِسْك، وتستغفرُ لهم الملائكةُ حتَّى يُفطِروا، ويُزيِّنُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ كُلَّ يومٍ جنَّته، ثم يقولُ: يُوشِكُ عِبادي الصَّالحون أن يُلْقُوا عنهم المؤونَةَ والأذَى ويصيرُوا إليك، وتُصفَّدُ فيه مردةُ الشّياطينِ، فلا يخلُصُون فيه إلى ما كانوا يخلُصُون إليه في غيره، ويُغفرُ لهم في آخرِ ليلةٍ»، قيل: يا رسولَ اللَّه، أهِي ليلةُ القَدْرِ؟ قال: «لا، ولكنَّ العاملَ إنَّما يُوفَّى أجرَه إذا قضَى عملَه».

وفي ليلة القدر تنتشرُ الملائكةُ في الأرض، فيبطُلُ سُلطانُ الشَّياطِين، كما قال اللَّه تعالى: ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [القدر: ٤، ٥]، وفي «المسند»[4] عن أبي هريرة، عن النبي

(١) «الجامع» (٦٨٢)، وابن ماجه (١٦٤٢).
(٢) (٤/ ١٢٦، ١٢٨).
(٣) «المسند» (٢/ ٢٩٢).
(٤) «المسند» (٢/ ٥١٩).

ﷺ، أنه قال: «الملائكةُ تلك الليلة في الأرض أكثرُ من عددِ الحصَى»، وفي «صحيح ابن حبَّان»[١]، عن جابرٍ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، قال في ليلةِ القدْرِ: «لا يخرُجُ شيطانُها حتَّى يخرُجَ فجرُها»، وفي «المسند»[٢] من حديث عُبادةَ بن الصَّامت، عن النبيِّ ﷺ، أنَّه قال في ليلة القدر: «لا يَحِلّ لكوكَبٍ أن يُرْمَى به فيها حتَّى يُصبحَ، وأن أمارَتَها أنَّ الشَّمسَ تخرُجُ صبيحتَها مُستويةً ليس لها شُعاعٌ مثلَ القمرِ ليلةَ البدْرِ، لا يحلُّ للشَّيطانِ أن يخرُجَ معها يومئذٍ».

ورُوي عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما، قال: إنَّ الشيطان يطلُعُ مع الشَّمسِ كُلَّ يومٍ إلا ليلةَ القدرِ؛ وذلك أنَّها تطلُع لا شعاعَ لها.

وقال مجاهدٌ في قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾، قال: سلام أن يحدُثَ فيها داءٌ أو يستطيعَ شيطانٌ العملَ فيها، وعنه قال: ليلةُ القدْرِ ليلة سالمةٌ لا يحدثُ فيها داءٌ، ولا يُرسلُ فيها شيطان، وعنه قال: هي سالمةٌ لا يستطيعُ الشيطانُ أن يعملَ فيها سوءًا، ولا يُحدثُ فيها أذىً، وعن الضحَّاك عن ابن عباس، قال: في تلك الليلة تصفَّدُ مردةُ الجنِّ، وتُغَلُّ عفاريتُ الجنِّ، وتُفتحُ فيها أبوابُ السَّماءِ كلُّها، ويقبلُ اللَّهُ فيها التوبةَ لكُلِّ تائبٍ؛ فلذلك قال: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾، ويُروى عن أبيِّ بن كعبٍ رضي الله عنه، قال: لا يستطيعُ الشَّيطانُ أن يُصيبَ فيها أحدًا بخبلٍ أو داءٍ أو ضربٍ من ضُرُوبِ الفسادِ، ولا ينفُذُ فيها سِحرُ ساحرٍ.

ويُروى بإسنادٍ ضعيفٍ عن أنسٍ مرفوعًا: «أنَّه لا تَسْرِي نجومُها، ولا تنبحُ كلابُها»، وكلُّ هذا يدلُّ على كفِّ الشَّياطين فيها عن انتشارِهم في الأرض،

(١) أخرجه: ابن حبان في «صحيحه» (٨/ ٣٦٨٨)، وابن خزيمة (٢١٩٠).
(٢) «المسند» (٥/ ٣٢٤).

ومنعِهم من استراقِ السَّمع فيها من السَّماء.

ابنَ آدَم، لو عرفتَ قدْرَ نفسكَ ما أهنتَها بالمعاصِي، أنتَ المختارُ من المخلوقات، ولك أُعدَّت الجنَّة؛ إن اتقيتَ فهي أقطاعُ المتقين، والدنيا أقطاعُ إبليس؛ فهو فيها من المنظرينَ، فكيفَ رضيتَ لنفسكَ بالإعراض عن أقطاعكَ ومزاحمةِ إبليسَ على أقطاعه، وأن تكونَ غداً مَعَهُ في النَّار من جملة أتباعه؟ إنَّما طردناهُ عن السَّماء لأجلك حيثُ تكبَّر عن السُّجود لأبيكَ، وطلبْنا قربكَ؛ لتكونَ من خاصتنا وحزبنا، فعاديْتَنا ووالْيتَ عَدُوَّنا، ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾[1] [الكهف: ٥٠].

* * *

(١) «لطائف المعارف» (٣٢٥ ـ ٣٣٧).

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾

وخرجَ ابنُ أبي حاتمٍ من حديثِ ابنِ لَهيعةَ، قالَ: حدَّثني عطاءُ ابنُ دينارٍ، عن سعيدِ بنِ جُبيرٍ في قولِ اللَّه عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة:٧]، قالَ: كانَ المسلمونَ يرونَ أنَّهُم لا يُؤجرونَ على الشَّيْءِ القليلِ إذا أَعطوه، فيجيءُ المسكينُ، فيستقلُّون أن يُعطوه تمرةً وكِسرةً وجُوزةً ونحوَ ذلك، فيردُّونه، ويقولونَ: ما هذا بشيء، إنما نُؤجر على ما نُعطِي ونحنُ نحبُّه، وكانَ آخرونَ يرونَ أنَّهم لا يُلامونَ على الذَّنبِ اليسيرِ مثل الكذبةِ والنظرةِ والغيبةِ وأشباه ذلكَ، يقولونَ: إنَّما وعدَ اللَّهُ النارَ على الكبائرِ، فرغَّبهم اللَّهُ في القليلِ من الخيرِ أن يعملُوه، فإنَّه يُوشِكُ أن يكثُر، وحذَّرهُمُ اليسيرَ من الشرِّ، فإنَّه يُوشِكُ أن يكثُرَ فنزلتْ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ يعني: وزنَ أصغرِ النمل ﴿خَيْرًا يَرَهُ﴾ يعني في كتابِهِ، ويسُرُّهُ ذلكَ قال: يُكتب لكلِّ برٍّ وفاجرٍ بكلِّ سيئةٍ سيئةٌ واحدةٌ، وبكلِّ حسنةٍ عشرُ حسناتٍ، فإذَا كانَ يومُ القيامةِ، ضاعفَ اللَّهُ حسناتِ المؤمنِ أيضًا بكلِّ واحدةٍ عشرًا، فيمحُو عنه بكلِّ حسنةٍ عشرَ سيئاتٍ، فمن زادتْ حسناتُه على سيئاتهِ مثقالَ ذرَّةٍ، دخل الجنة.

وظاهرُ هذا أنه تقعُ المقاصةُ بين الحسناتِ والسيئاتِ، ثم تسقطُ الحسناتُ

المقابلةُ للسيئاتِ، ويُنظرُ إلى ما يفضُلُ منها بعدَ المقاصةِ، وهذا يُوافقُ قولَ منْ قال: بأنَّ من رجحتْ حسناتُه على سيئاته بحسنة واحدة أُثيبَ بتلكَ الحسنة خاصة، وسقطَ باقِي حسناتِه في مقابلةِ سيئاتِه، خلافًا لمن قالَ: يُثابُ بالجميعِ، وتسقُط سيئاتُه كأنَّها لم تكنْ.

وهذا في الكبائرِ، أمَّا الصغائرُ، فإنَّه قد تُمحى بالأعمالِ الصالحةِ مع بقاءِ ثوابِها، كما قالَ ﷺ: «**ألا أدُلُّكم على ما يمحُو اللَّهُ به الخطايا، ويرفعُ بهِ الدرجات: إسباغُ الوضوء على المكارهِ، وكثرةُ الخُطا إلى المساجدِ، وانتظارُ الصَّلاةِ بعدَ الصلاةِ**»[1]، فأثبتَ لهذهِ الأعمالِ تكفيرَ الخطَايا ورفعَ الدرجات.

وكذلكَ قولُه ﷺ: «**مَنْ قالَ: لا إلـهَ إلا اللَّهُ وحدَه لا شريكَ له مائة مرَّة، كُتبَ له مائةُ حسنة، ومُحيتْ عنه مائةُ سيئة، وكانتْ لهُ عدلَ عشرَ رقابٍ**»[2]، فهذَا يدلُّ على أنَّ الذكرَ يمحُو السيئاتِ، ويبقَى ثوابُه لعاملِه مضاعَفًا.

وكذلك سيئاتُ التائبِ توبةً نصُوحًا تُكفَّرُ عنهُ، وتبقى له حسناتُه، كما قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ**﴾ [الأحقاف: ١٥-١٦].

وقالَ عزَّ وجلَّ: ﴿**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا**

(١) أخرجه: مسلم (١/ ١٥١)، وأحمد (٢/ ٢٣٥).

(٢) أخرجه: البخاري (٤/ ١٥٣)، ومسلم (٨/ ٦٩).

وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٣-٣٥]، فلمَّا وصفَ هؤلاءِ بالتَّقوى والإحسانِ، دلَّ على أنَّهم ليسُوا بمصرِّين على الذُّنوبِ، بل هم تائبونَ منْهَا.

وقوله: ﴿**لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا**﴾ [الزمر:٣٥] يدخلُ فيه الكبائرُ، لأنها أسوأُ الأعمالِ، وقالَ: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا**﴾ [الطلاق:٥]، فرتَّبَ على التقوى المتضمنةِ لفعلِ الواجباتِ وتركِ المحرَّماتِ، تكفيرَ السيئاتِ وتعظيمَ الأجرِ، وأخبرَ اللَّهُ عَن المؤمنين المتفكِّرين في خلق السماواتِ والأرض أنَّهم قالُوا: ﴿**رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ**﴾ [آل عمران:١٩٣]، وأخبرَ أنَّه استجابَ لهم ذلكَ، وأنَّه كفَّر عنهم سيئاتِهم، وأدخلهم الجناتِ.

وقولُه: ﴿**فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا**﴾ فخصَّ الذنوبَ بالمغفرةِ، والسيئات بالتَّكفيرِ، فقد يقالُ: السيئاتُ تخصُّ الصغائرَ، والذنوبُ يرادُ بها الكبائر، فالسيئاتُ تكفر، لأن اللَّه جعل لها كفاراتٍ في الدنيا شرعيةً وقدريةً، والذنوبُ تحتاجُ إلى مغفرةٍ تقي صاحبَها مِنْ شرِّها، والمغفرةُ والتكفيرُ متقاربانِ، فإنَّ المغفرةَ قد قيل: إنها سَتْرُ الذُّنوبِ، وقيلَ: وقايةُ شرِّ الذنبِ مع سترِهِ، ولهذا يسمَّى ما سترَ الرأسَ ووقاهُ في الحربِ: مِغْفَرًا، ولا يسمَّى كلُّ ساترٍ للرأس مغفراً، وقد أخبرَ اللَّهُ عن الملائكةِ أنَّهم يدعونَ للمؤمنينَ التائبينَ بالمغفرةِ ووقايةِ السيئاتِ والتكفيرِ مِنْ هذا الجنس، لأنَّ أصلَ الكفرِ السترُ والتغطيةُ أيضًا.

وقد فرَّق بعضُ المتأخرينَ بينهما بأنَّ التكفيرَ محوُ أثرِ الذَّنب، حتَّى كأنَّه لم

يكنْ، والمغفرة تتضمن ـ مع ذلكَ ـ إفضالَ اللَّهِ على العبد وإكرامه، وفي هذا نظر[١].

* * *

دخلت امـرأةٌ على عائشـةَ، قد شُلَّـت يدُها فقـالتْ: يا أمَّ المؤمنينَ، بتُّ البارحةَ صحيحةَ اليدِ وأصبـحتُ شلاءَ!! قالتْ عائشةُ: وما ذاك؟ قالتْ: كان لي أبوانِ موسرانِ، كانَ أبي يعطي الزكـاةَ، ويُقْرِي الضيفَ، ويعطِي السائلَ، ولا يحقرُ من الخيرِ شيئًـا إلا فعلَهُ، وكانتْ أمِّي امرأةً بخيلةً ممسكةً، لا تصنعُ في مالِهَا خَـيرًا، فمات أبي ثم مـاتتْ أمِّي بعدَ شهرين، فـرأيتُ البارحةَ في منامِي أبي، وعندَهُ ثوبانِ أصفرانِ، بينَ يديه نهـرٌ جارٍ، قلتُ: يا أبته ما هذا؟ قال يا بنـية: من يعملُ في هـذه الدنيا خيـرًا يره، هذا أعطانيه اللَّـهُ تعالى، قلتُ: فمـا فعلتْ أمِّي؟ قالَ: وقـد ماتتْ أمُّك؟ قلتُ: نَعم، قالَ: هيـهات عُدلت عنا، فاذهبي فالتمسيها ذاتَ الشمالِ، فالتفتُّ عن شمالِي فإذا أنا بأمِّي قائـمةٌ عريانـةٌ مؤتزرةٌ بخـرقة، بيـدها شُحيـمةٌ تنـادي: وا لهفاه وا حـزناه وا عطشاه!! فإذا بلغَهَا الجـهدُ دلكتْ تلك الشحيمةَ براحتِهَـا ثم لحسَتْها، وإذا بينَ يديها نـهرٌ جارٍ، قلتُ: أيا أُمَّـاه! ما لكِ تنادينَ العطشَ وبين يـديك نهرٌ جارٍ، قالت: لا أتركُ أن أشربَ منه، قلتُ: أفلا أسقيك، قالتْ: وددتُ أنك فعلتِ، فغرفتُ لهـا غرفةً فسقيتُهـا، فلمَّا شربتْ نادَى منادٍ من ذاتِ اليمينِ: ألا من سَـقَى هذه المرأةَ شُلَّت يمينُهُ، مـرتينِ، فأصبـحتُ شلاءَ اليـمينِ، لا أستطيعُ أن أعملَ بيميني.

قالتْ لها عـائشةُ: وعرَفْتِ الخرقـةَ؟ قالتْ: نعم يا أمَّ المؤمنينَ، وهي التي

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/٤٥٦ ـ ٤٦٠).

رأيتُهـا عليْهَـا، ما رأيتُ أمي تصدَّقت بشيءٍ قـط، إلا أنَّ أبي نحرَ ذاتَ يومٍ ثورًا، فجـاءَهُ سائلٌ فعمـدتْ أمِّي إلى عظمٍ عليه شُحـيمةٌ فناولتهـا إياهُ، وما رأيتُها تصدقتْ بشيءٍ إلا أنَّ سائلاً جاء يسألُ، فعمدت أمِّي إلى خرقةٍ فناولتْها إياهُ.

فكبَّرتْ عائشةُ ﵂ وقـالتْ: صدقَ اللَّهُ، وبلَّغَ رسولُهُ ﷺ: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

أخرجه الحافظ أبو موسى المديني في كـتابه «الترغيب والترهيب» من طريق أبي الشيخ الأصبهاني الحافظ، بإسناد حسن[(١)].

* * *

(١) «شرح حديث: يتبع الميت ثلاث» (٣٦ ـ ٣٧).

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾

هذه النعم مما يُسئلُ الإنسانُ عن شكرها يومَ القيامة، ويُطالب به، كما قالَ عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨].

وخرَّج الترمذيُّ وابنُ حبَّانَ من حديث أبي هريرة عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**إنَّ أوَّلَ ما يُسألُ عنه العبد يومَ القيامـة مِن النعيم، فيقولُ له: ألم نصحَّ لك جِسمَك ونُرْويكَ من الماءِ البارِدِ؟**»(١).

وقال ابنُ مسعودٍ ﷺ: النعيمُ: الأمنُ والصحةُ، ورويَ عنه مرفوعًا.

وقال عليُّ بن أبي طلـحةَ عن ابنِ عبـاسٍ في قولِه: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر:٨]، قال: النعـيمُ: صحَّةُ الأبدانِ والأسماعِ والأبـصارِ، يسألُ اللَّهُ العبادَ: فيما استـعملُوها؟ وهو أعلمُ بذلك منهم، وهو قولُه تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء:٣٦].

وخرَّجَ الطبرانيُّ مِـن روايةِ أيوبَ بنِ عُتبةَ ـ وفيـه ضعفٌ ـ عن عطاء، عن ابنِ عمرَ، عن النبيِّ ﷺ: «**من قالَ: لا إلهَ إلا اللَّهُ، كـانَ لهُ بها عـهدٌ عندَ اللَّه، ومن قالَ: سبحانَ اللَّه وبحمده، كُتبَ له بهـا مائةُ ألف حسنة، وأربعةٌ وعشرونَ ألف حسنة**» فقـالَ رجلٌ: كيفَ نَهلِكُ بعدَ هذا يا رسـولَ اللَّهِ؟ قال: «**إنَّ الرجلَ ليـأتي يومَ**

---

(١) أخرجه: الترمذي (٣٣٥٨)، وابن حبان (٧٣٦٤).

القيامة بالعـملِ، لو وُضِعَ على جبلٍ لأثقله، فتقومُ النِّعمَةُ مِن نِـعمِ اللَّهِ، فتكاد أن تستنفدَ ذلك كلَّه، إلا أن يتطاول اللَّه برحمته»[1] .

وروى ابنُ أبي الدنيا بإسنادٍ فيه ضعفٌ ـ أيضًا ـ عن أنسٍ، عن النبيِّ ﷺ، قالَ: «**يُؤتى بالنعمِ يومَ القـيامةِ، وبالحـسناتِ والسيئـاتِ، فيقـولُ اللَّه لنعمةٍ مِنْ نعـمه: خذي حقكِ من حسناتِه فما تتركُ له حسنةً إلا ذهبتْ بِهَا**».

وبإسناده عن وهبِ بنِ منبهٍ، قالَ: عـبدَ اللَّهَ عابدٌ خمسينَ عـامًا، فأوحى اللَّهُ عزَّ وجـلَّ إليه: إنِّي قد غـفرتُ لكَ، قـال: يا ربِّ، وما تغـفرُ لي ولم أذنبْ؟ فأذِنَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ لِعرْقٍ في عنقه فضرب عليه، فلم ينم، ولـم يُصلِّ، ثم سكنَ وقـامَ، فأتاه مَلَكٌ، فـشكا إليه مـا لقيَ من ضربـان العرقِ، فـقالَ الملكُ: إنَّ ربَّك عزَّ وجلَّ يقولُ: «**عبادتُك خمسين سنة تعدلُ سكون ذا العرق**».

وخرَّج الحاكمُ هذا المعـنى مرفوعًا من روايةِ سليمـانَ بنِ هرمٍ القرشيِّ عن محمدِ بنِ المنكدرِ عن جابرٍ عن النبيِّ ﷺ: أن جبريل أخبرهُ أن عابدًا عبدَ اللَّهَ على رأسِ جـبلٍ في البحـرِ خمسَ مـائةِ سنةَ، ثم سألَ ربَّه أن يقـبضـهُ وهو ساجدٌ، قالَ: فنحنُ نمُرُّ عليـهِ إذا هبطْنَا وإذا عرَجنا، ونجدُ في العلمِ أنه يُبعث يومَ القيامةِ، فيوقف بينَ يدي اللَّـه عزَّ وجلَّ، فيقولُ الربُّ عزَّ وجلَّ: أدخلوا عبدي الجنةَ برحمتي، فيقـولُ العبدُ: يا ربِّ، بعملِي، ثلاثَ مرَّاتٍ، ثم يقولُ اللَّهُ للملائكةِ: قايسُوا عـبدِي بنعمَتي عليه وبعمله، فيجدونَ نعـمةَ البصرِ قد أحاطتْ بعبادَة خمسِ مائةِ سنةٍ، وبقيتْ نِعَمُ الجسدِ لهُ، فيقولُ: أدخلوا عَبْدِيَ النارَ، فـيُجـرُّ إلى النارِ، فينادِي ربَّه: بـرحمـتكَ أدخلني الجنةَ، برحمـتكَ،

---

(١) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» (١٥٨١).

فيدخلُه الجنةَ، قالَ جبريلُ: إنما الأشياء برحمةِ اللَّهِ يا محمدُ(١) .

وسُليمانُ بن هرمٍ، قال العقيليُّ: هو مجهولٌ وحديثُه غيرُ محفوظ.

وروى الخرائطيُّ بإسنادٍ فيه نظرٌ، عن عبدِ اللَّهِ بن عمرٍو مرفوعًا: «يُؤتَى بالعبدِ يومَ القيامةِ، فيُوقَفُ بين يدي اللَّهِ، فيقولُ لملائكته: انظرُوا في عملِ عبدِي ونعمتِي عليهِ، فينظرونَ فيقولونَ: ولا بقدْرِ نعمةٍ واحدةٍ من نعَمكَ عليه، فيقولُ: انظروا في عملِه سيِّئه وصالحِه، فينظرونَ فيجدونَ كَفَافًا، فيقولُ: عبدِي، قد قبلتُ حسناتِك، وغفرتُ لك سيِّئاتِكَ، وقد وهبتُ لكَ نعَمِي فيما بينَ ذلكَ»(٢) .

* * *

(١) أخرجه: الحاكم (٤/ ٢٥٠).

(٢) «جامع العلوم والحكم» (٢/ ٥٩ ـ ٦٢).

سُورَةُ الهُمَزَة

قالّ اللّه تعالّى: ﴿كَلاَّ لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾

قال محمدُ بنُ كعبٍ القرظيّ في قولِه: ﴿تَطَّلِعُ عَلَى الأَفْئِدَةِ﴾ قال: تأكُلُه النارُ إلى فؤادِه، فإذا بلغتْ فؤادَهُ أنشئ خلقُهُ.

عن ثابتٍ البنانيِّ أنه قرأ هذه الآيةَ ثم قال: تحرقُهُم إلى الأفئدةِ وهم أحياءٌ لقد بلغَ منهم العذابُ ثم يبكي.

وقال اللّه عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٢٧-٢٩] قال صالحُ بن حيانَ عن ابنِ بريدةَ في قوله: ﴿لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ﴾ قالَ: تأكلُ العظمَ واللحمَ والمخَّ ولا تذرُهُ على ذلك.

وقال السديُّ: لا تُبقي من جلودِهم شيئًا ولا تذرُهُم من العذابِ، وقالَ أبو سنانَ: لا تذرُهُم إذا بُدِّلُوا خلقًا جديدًا.

وقالَ أبو رزينٍ في قولِه: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ قال: تلفحُ وجهُهُ لفحةً تدعه أشدَّ سوادًا من الليلِ، قال قتادةُ ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾: حراقةٌ للجلدِ، خرجه كلَّهُ ابنُ أبي حاتم وغيره.

وقال اللَّهُ تعالَى: ﴿كَلاَّ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ [المعارج: ١٥-١٦] قال: تحرقُ كلَّ شيءٍ منهُ ويبقى فؤادُهُ يصيحُ، وعن ابنِ زيدٍ قالَ: تقطَّعُ عظامُهُم ثم

يجددُ خلقَهم وتبدلُ جلودُهم.

وروى ابنُ مهاجرٍ عن مجاهدٍ في قوله: ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ تنزعُ الجلدَ، وعنه قالَ: تنزعُ اللحمَ ما دونَ العظمِ[1].

* * *

قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾

وقد وصفَ اللَّهُ أبوابَها أنها مغلقةٌ على أهلِهَا فقالَ: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ [الهمزة:٨]، وقال تعالَى: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ﴾ [البلد:٢٠].

قال مجاهدٌ: هي بلغةِ قريشٍ: أصدَ البابَ أغلقَهُ يعني قولَهُ: ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ وقالَ مقاتل: يعني أبوابها مطبقةً عليهم، فلا يفتحُ لها بابٌ، ولا يخرجُ منها غمٌّ، ولا يدخلُ فيها روحٌ آخرَ الأبدِ.

وقد وردَ في ذلك حديثٌ مرفوعٌ خرجه ابنُ مردويه من طريقِ شجاعِ بنِ أشرسَ حدثنا شريكٌ، عن عاصمٍ، عن أبي صالحٍ، عن أبي هريرةَ، عن النبيِّ ﷺ ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ﴾ قال: «مطبقةٌ»، ولكنَّ رفعَهُ لا يصحُّ؛ وقد خرجهُ آدمُ بنُ أبي إياسٍ في «تفسيرِهِ» عن شريكٍ بهذا الإسنادِ موقوفًا عن أبي هريرةَ، ورواهُ إسماعيلُ بنُ أبي خالدٍ عن أبي صالحٍ من قولِه ولم يذكرْ فيهِ أبا هريرةَ، وكذا قالَ عطاءٌ الخراسانيُّ وغيرُه في «المؤصدة» أنها المطبقةُ.

وعن الضحاكِ قالَ: حائطٌ لا بابَ لهُ، ومرادُه - واللَّهُ أعلمُ - أن الأبوابَ أطبقتْ فصار الجدارُ كأنه لا بابَ لهُ، وقولُه تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة:٨، ٩] معناه: أطبقت عليهم بعمدٍ، قال قتادة: وكذلك

(١) «التخويف من النار» (١٤٦ - ١٤٧).

هو في قراءة عبدِ اللَّهِ بعمد بالبـاء، قال عطيةُ: هي عمدٌ من حديدٍ في النارِ، وقالَ مقـاتلٌ: أطبقتِ الأبوابُ عليهم ثم شدتْ بأوتادٍ من حـديدٍ حتى يرجعَ عليهم غمُّها وحرُّها.

وعلى هذا فقوله: ﴿مُّمَدَّدَةٍ﴾ صفة للعمـدِ يعني أن العمدَ التي أوثقتْ بها الأبوابُ ممددةٌ مطولةٌ، والممدودُ الطويلُ أرسخُ وأثبتُ من القصيرِ.

وفي «تفسيرِ العوفيِّ» عن ابنِ عباسٍ في قولِهِ: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ قالَ: هيَ عليهم مغـلقةٌ أدخلهُم في عمدٍ فمـدتْ عليهِم بعمادٍ وفي أعنـاقِهم السلاسلُ فسدتْ به الأبوابَ وقيلَ: إن الممددةَ صفةٌ للأبوابِ، رواه شبيبُ بنُ بشيرٍ عن عكرمـةَ عن ابنِ عبـاسٍ وقيلَ: المرادُ بالعـمدِ الممـددةِ: القيـودُ الطوالِ، رواهُ إسماعيلُ بنُ أبي خالدٍ عن أبي صالحٍ، ورواهُ أبو خبابُ الكلبيُّ عن زبيدٍ عن إبراهيمَ، قـالَ: قـالَ عبدُ اللَّهِ بنُ مسعـودٍ في قولـه تعالى: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ قالَ: هيَ الأدهمُ، وقد تقدَّم أنَّ عبدَ اللَّهِ كانَ يقرؤُهَا بعمدٍ والأدْهَمُ: القيدُ.

وكذا قـالَ ابنُ زيدٍ في قولِه: ﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ﴾ قالَ: في عمـدٍ من حديدٍ مغلولينَ فيه، وتلك العمدُ من نارٍ قد احترقتْ من النارِ فهي ممددةٌ لهم.

وقـيلَ: إن المرادَ بالعـمـدِ الممـددةِ: الزمـانُ الذي لا انقطاعَ له، قـاله أبو فاطمةَ.

وقال السديُّ: من قرأَهَا ﴿فِي عَمَدٍ﴾ يعني بالفتحِ فهيَ عمدٌ من نارٍ، ومن قرأَهَا في ﴿عُمُدٍ﴾ يعني بالضَمِّ فهو أجل ممدود.

وقال سعيدُ بنُ بشيرٍ عن قتادةَ: ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ أي: مطبقةٌ أطبقَهَا اللَّهُ عليهم فلا ضوءَ فيها ولا فرجَ ولا خروجَ منها آخرَ الأبدِ.

وهذا الإطباقُ نوعانِ:

أحدُهما: خاصٌ لمن يدخلُ في النارِ أو مَن يريدُ التضـييقَ عليه، أجارنا اللَّهُ من ذلكَ، قال أبو توبة اليزنـيّ: إنَّ في النارِ أقوامًا مؤصدةٌ عليـهم كما يطبقُ الحقُّ على طبقِهِ، خرجه ابنُ أبي حاتمٍ.

والثاني: الإطباقُ العامُّ وهو إطباقُ النارِ على أهلِها المخلدينَ فيهَا.

وقـد قالَ سـفيـانُ وغيـرُه في قولِه تعـالى: ﴿**لا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ**﴾ [الأنبياء:١٠٣] قالوا: هو طبقُ النارِ على أهلِها.

وفي حديثِ مسكينَ أبي فاطمةَ عن اليمانِ بنِ يزيدِ، عن محمدِ بن حميرٍ، عن محمـدِ بنِ عليٍّ، عن أبيهِ، عن جدِّهِ عن النبيِّ ﷺ في خروجِ الموحدينَ من النارِ، قالَ: «**ثم يبعثُ اللَّهُ ملائكةً معهمُ مساميرُ من نارٍ وأطباقٌ من نارٍ، فيطبقونَهَا على من بقي فيـها ويسمرونَهَا بتلكَ المـساميرِ، يتناساهمُ الجـبارُ على عرشِهِ من رحـمته، ويشـتغلُ عنهـم أهلُ الجنةِ بنعيـمـهم ولذاتِهِم**» خرجـهُ الإسماعيليُّ وغـيره، وهو حديثٌ منكرٌ؛ قاله الدارقطنيُّ.

وروى ابنُ أبي حاتمٍ بإسنادِهِ عـن سعيـدِ بنِ جبيـرٍ، قالَ: ينادي رجلٌ في شعبٍ من شعابِ النارِ مقدارَ ألفِ عـامٍ، يا حنَّان يا منَّان، فيقولُ اللَّهُ تعالى: يا جبريلُ أخـرجْ عبدِي، فيجدُها مطبـقةٌ، فيقولُ: يا رب إنَّها عليـهم مطبقةٌ مؤصدةٌ.

وقال قتـادةُ عن أبي أيوبَ العتكيُّ عن عبدِ اللَّهِ بنِ عـمرٍو: إذَا أجابَ اللَّهُ أهلَ النارِ بقـوله: ﴿**اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ**﴾ [المؤمنون:١٠٨] أطبقتْ عـليهم، فبئسَ القومُ بعدَ تلكَ الكلمةِ، وإن كانَ إلا الزفيرُ والشهيقُ.

وقال أبو الزعراء عن ابنِ مسعودٍ: وإذا قيلَ لهمُ: ﴿اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ أطبقتْ عليهم فلم يخرجْ منهم أحدٌ.

وقال أبو عمرانَ الجوني: إذا كانَ يومَ القيامةِ أمرَ اللَّهُ بكلِّ جبارٍ عنيدٍ، وكلِّ شيطانٍ مريدٍ، وبكلِّ من يخافُ في الدنيا شره العبيدِ، فأوثقُوا بالحديدِ، ثم أمرَ بهم إلى جهنَم التي لا تبيدُ، ثم أوصدَهَا عليهم ملائكةُ ربِّ العبيدِ، قالَ: فلا واللَّه لا تستقرُّ أقدامُهم على قرارٍ أبدًا، ولا واللَّهِ لا ينظرونَ فيها إلى أديمِ سماءٍ أبدًا، ولا واللَّهِ لا تلتقي جفونُ أعينِهم على غمضِ نومٍ أبدًا، ولا واللَّهِ لا يذوقونَ فيها باردُ شرابٍ أبدًا.

وفي معنى إطباقِ النارِ على أهلِهَا يقولُ بعضُ السلفِ ﷺ:

ألبسُوا النضيجَ من النحاسِ، ومنعوا خروجَ الأنفاسِ، فالأنفاسُ في أجوافِهِم تترددُ، والنيرانُ على أبدانِهم توقدُ، قد أطبقتْ عليهم الأبوابُ وغضبَ عليهم ربُّ الأربابِ، وأنشدَ بعضُهم في هذا المعنى:

لو أبصرتْ عيناكَ أهلَ الشَّقَا ... سِيقُوا إلى النارِ وقدْ أُحرِقُوا
يَصْلَونَهَا حينَ عَصَوا ربَّهُم ... وخالفُوا الرسلَ وما صدَّقُوا
تقولُ أُخرَاهُم لأولاهُمُ ... في لجِجِ المهلِ وقد أغْرِقُوا
قد كنتمُ حذرتمُ حرَّهَا ... لكنْ من النيرانِ لم تَفْرَقُوا
وجيءَ بالنيرانِ مزمُومةً ... شَرَارُهَا مِنْ حولِهَا محرقُ
وقيلَ للنيرانِ أنْ أحرِقي ... وقيلَ للخزانِ أنْ أطبقُوا

وقد وردَ في بعضِ أحاديثِ الشفاعةِ فتحُ بابِ النارِ، فخرجَ الطبرانيُّ(١) من

(١) أخرجه: الطبراني في «الأوسط» :كما قال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٣٧٩).

روايةِ العباسِ بنِ عـوسجةَ، حدثني مطرٌ أبو مُـوسى مولَى آلِ طلحةَ، عن أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ: «إنِّي آتي جهنَّم فأضربُ بابَها، فيـفتحُ لي فأدخُلها، فأحمدُ اللَّهَ بمحامد ما حمَدهُ بها أحدٌ قبلي مثلَهَا ولا يحمدُه أحدٌ بعدي، ثم أخرجُ منها من قالَ: لا إلهَ إلا اللَّهُ مخلصًـا، فيقـومُ إليَّ ناسٌ من قريشٍ فـينتسبـونَ إليَّ، فأعرف نسـبَهُم ولا أعرفُ وجوهَهُم فأتركهم في النارِ» إسنادُه ضعيفٌ[1].

* * *

(١) «التخويف من النار» (٦١ ـ ٦٤).

سُورَةُ الْفِيلِ

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾

كانت قصَّةُ الفيلِ توطِئةً لنبـوَّتِه وتقدمَةً لظُهورِه وبعثته ﷺ، وقد قصَّ اللَّه تعالى ذلك في كتـابه فقال: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ**﴾ [الفيل: ١-٥].

فقوله: ﴿**أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ**﴾ استفهامُ تقريرٍ لِمنْ سمع هذا الخطابَ، وهذا يدُلُّ على اشتهارِ ذلكَ بينهم ومـعرفتِهم به، وأنَّه ممَّا لا يخفَى علمُـه على العربِ، خـصوصًا قـريش وأهل مكَّةَ، وهذا أمـرٌ اشتهـرَ بينهم وتعارفُوه، وقالوا فيه الأشعارَ السَّائرةَ.

وقد قالتْ عائشةُ ﵂: رأيتُ قائدَ الفيلِ وسَائِسَهُ بمكَّةَ أعميينِ يستطعمان، وفي هذه القصَّة ما يدلُّ على تعظيمِ مكَّةَ، واحتـرامِها واحترامِ بيتِ اللَّه الذي فيها، وولادةُ النَّبيِّ ﷺ عقيبَ ذلك تدلُّ على نبـوَّته ورسالته؛ فإنَّه ﷺ بُعثَ بتعظيمِ هذا البيتِ وحجِّه والصَّـلاة إليه، وكانَ هذا البلدُ هو موطنه ومولده، فاضطرَّه قومُهُ عندَ دعوتِهـم إلى اللَّهِ تعالى إلى الخُروجِ منه كُرهًا بما نالوه منه

مِنَ الأذَى، ثم إنَّ اللَّه تعالى ظفَّرهُ بهم، وأدخلهُ عليهم قهرًا، فملكَ البلدَ عنوةً، وملكَ رقابَ أهلِه، ثمَّ منَّ عليهِم وأطلقهم وعفا عنهم، فكانَ في تسليطِ نبيِّه ﷺ على هذا البلدِ وتمليكه إيَّاه ولأمَّته منْ بعدِه ما دلَّ على صحَّة نبوَّته، فإنَّ اللَّهَ حبسَ عنه من يُريدُه بالأذى وأهلكهُ، ثم سلَّطَ عليه رسولهُ وأمَّتهُ كما قال ﷺ: «**إنَّ اللَّه حبسَ عن مكَّةَ الفيلَ وسلَّطَ عليها رسولهُ والمؤمنينَ**»(١).

فإنَّ الرسولَ ﷺ وأُمته إنَّما كان قصدُهم تعظيمَ البيتِ وتكريمهُ واحترامَهُ، ولهذا أنكرَ النبيُّ ﷺ يومَ الفتحِ على منْ قال: اليومَ تُستحلُّ الكعبةُ، وقال: «**اليومَ تُعظَّمُ الكعبةُ**»(٢)، وقد كان أهلُ الجاهليةِ غيَّروا دينَ إبراهيمَ وإسماعيلَ بما ابتدَعوه من الشِّركِ وتغييرِ بعضِ مناسكِ الحجِّ، فسلَّطَ اللَّهُ رسولهُ وأُمته على مكَّةَ فطهَّرُوها مِن ذلك كلِّه، وردُّوا الأمرَ إلى دينِ إبراهيمَ الحنيفِ، وهو الذي دعا لهم مع ابنه إسماعيلَ عند بناءِ البيت أن يبعثَ اللَّه فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمةَ، فبعثَ اللَّهُ فيهم محمَّدًا ﷺ من ولدِ إسماعيلَ بهذه الصِّفةِ، فطهَّرَ البيتَ وما حولَه من الشِّركِ، وردَّ الأمرَ إلى دينِ إبراهيمَ الحنيفِ، والتوحيدِ الذي لأجله بُنيَ البيتُ، كما قال تعالى: ﴿**وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لاَّ تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾ [الحج:٢٦].

وأمَّا تسليطُ القرامطةِ على البيتِ بعد ذلك، فإنَّما كانَ عقوبةً بسببِ ذنوبِ النَّاسِ، ولم يصلُوا إلى هدمِه ونقضِه ومنعِ النَّاسِ من حجِّه وزيارتِه، كما كان يفعلُ أصحابُ الفيلِ لو قدرُوا على هدمِه وصرفِ النَّاسِ عن حجِّه،

---

(١) أخرجه: البخاري (١/ ٣٩)، ومسلم (٤/ ١١٠).

(٢) أخرجه: البخاري (٥/ ١٨٦ ـ ١٨٧).

والقرامطةُ أخذُوا الحجرَ والبابَ، وقتلوا الحاجَّ وسلبُوهم أموالَهم، ولم يتمكَّنُوا من منعِ النَّاسِ من حجِّهِ بالكُليَّة، ولا قدرُوا على هدمه بالكلية، كما كانَ أصحابُ الفيلِ يقصدُونهُ، ثم أذلَّهم اللَّهُ بعدَ ذلكَ وخذلَهم وهتكَ أستارَهُم، وكشفَ أسرارَهُم.

والبيتُ المُعظَّمُ باقٍ على حالِهِ من التَّعظيمِ، والزِّيارة، والحجِّ والاعتمارِ، والصَّلاةِ إليه، لم يبطُلْ شيءٌ من ذلك عنه بحمدِ اللَّهِ ومنِّه، وغايةُ أمرِهم أنَّهم أخافُوا حاجَّ العراقِ حتَّى انقطعُوا بعضَ السِّنين، ثم عادُوا، ولم يزلِ اللَّهُ يمتحنُ عبادَهُ المؤمنينَ بما يشاءُ من المحن، ولكن دينه قائمٌ محفوظٌ لا يزالُ تقومُ به أُمَّةٌ من أُمَّةِ محمدٍ ﷺ لا يضرُّهُم منْ خذلَهم حتَّى يأتِيَ أمرُ اللَّهِ وهُمْ على ذلك، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٢، ٣٣].

وقد أخبرَ النَّبيُّ ﷺ أنَّ هذا البيتَ يُحجّ ويُعتمرُ بعدَ خروجِ يأجوجَ ومأجوجَ[١]، ولا يزالُ كذلك حتَّى تُخرِّبهُ الحبشةُ[٢]، ويلقونَ حجارتَهُ في البحر، وذلك بعدَ أنْ يبعثَ اللَّهُ ريحًا طيِّبةً تقبضُ أرواحَ المؤمنينَ كلِّهم، فلا يبقى في الأرضِ مؤمنٌ[٣]، ويسرَى بالقرآنِ من الصُّدُورِ والمصاحِفِ، فلا يبقَى في الأرضِ قرآنٌ، ولا إيمانٌ، ولا شيء مِن الخيرِ، فبعدَ ذلك تقومُ السَّاعةُ، ولا تقومُ إلا على شرارِ النَّاسِ.

* * *

(١) أخرجه: البخاري (٢/ ١٨ ـ ١٨٣).
(٢) أخرجه: البخاري (٢/ ١٨٢).
(٣) أخرجه: مسلم (٨/ ١٨٢).

سُورَةُ المَاعُون

قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾

وقد وردتْ آثارٌ كثيرةٌ عن السلفِ في تـاركِ الصلاةِ عمدًا، أنَّه لا تُقبلُ منه صلاةٌ، كما رُوي عن الصديقِ ﷺ، أنَّه قالَ لعُمرَ في وصيتِهِ له: إنَّ للَّهِ حقًّا باللَّيلِ لا يقبلُهُ بالنهارِ، وحقًّا بالنهارِ لا يقبلُهُ باللَّيلِ.

يشيرُ إلى صلواتِ اللَّيلِ والنهارِ.

وفي حديثٍ مرفوعٍ: **«ثلاثةٌ لا يُقبـلُ لهُمْ صلاةٌ»**، ذكرَ منهم: **«الذي لا يـأتي الصلاةَ إلا دبارًا»** ـ يعني: بعدَ فواتِ الوقتِ.

خرَّجه أبو داود وابنُ ماجه(١) من حديثِ عبدِ اللَّه بن عمرو ـ مرفوعًا.

وفي إسنادِهِ ضعفٌ.

ولكن مجرد نفي القـبولِ لا يستلزمُ عدمَ وجوبِ الفـعلِ، كصلاةِ السَّكرانِ في مدةِ الأربعينِ، وصلاةِ الآبقِ والمرأةِ التي زوجُها عليها ساخطٌ.

فإنْ قِـيلَ: فقد قـالَ تعالى: **﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾** [الماعون: ٤، ٥]، وفسَّره الصحابةُ بإضاعةِ مواقيتِها.

وكـذَا قـالَ ابنُ مسـعـودٍ في المحـافظةِ على الصـلاةِ: أي المحـافظة على مواقيتِها، وأنَّ تركَها كفرٌ.

---

(١) أبو داود (٥٩٣)، وابن ماجه (٩٧٠).

ففرقُوا بين تركِها وبينَ صلاتِها بعدَ وقتِها.

وقدْ أمرَ النبيُّ ﷺ بالصلاةِ خلفَ منْ أخبرَ أنه يضيعُ الصلاةَ ويُصلِّيها لغيرِ وقتِها، وهذا يدلُّ على أنَّ صلاتَهم صحيحةٌ.

وقد سُئِلَ عنِ الأمراءِ وقتَالِهم؟ قالَ: «**لا، مَا صَلَّوا، وكانتْ علَى هذا الوجهِ**»، فدلَّ على إجزائِها.

قيل: السهوُ عن مواقيتِ الصَّلاةِ لا يستلزمُ تعمدَ التأخيرِ عنِ الوقتِ الحاضرِ؛ فإنَّه قدْ يقعُ على وجهِ التهاونِ بتأخيرِ الصلاةِ حتَّى يفوتَ الوقتُ - أحيانًا - عن غيرِ تعمدٍ لذلك، وقد يكونُ تأخيرُها إلى وقتِ الكراهةِ، أو إلى الوقتِ المشتركِ الذي يجمعُ فيه أهلُ الأعذارِ عندَ جمهورِ العلماءِ، وغيرُهم على رأيِ طائفةٍ من المدنيين.

وهذه الصلاةُ كلُّها مجزِئةٌ، ولا يكونُ المصلِّي لها كالتاركِ بالاتفاقِ.

وقد سُئِلَ سعيدُ بنُ جُبير، عن قوله: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾ فدخلَ المسجدَ، فرأَى قومًا قد أخَّروا الصلاةَ، لا يُتمُّونَ رُكُوعًا ولا سجُودًا، فقالَ: الذي سألْتَني عنهم هُم هؤلاء.

وهذه الصلاةُ مثلُ الصلاةِ التي سمَّاها النبيُّ ﷺ: «**صلاة المنافقين**».

وهكذا كانتْ صلاةُ الأمراءِ الذين أمرَ النبيُّ ﷺ بالصلاة خلفهم نافلةً، فإنَّهم كانوا يُؤخِّرُون العصرَ إلى اصفرارِ الشَّمسِ، وربَّما أخَّرُوا الصلاتينِ إلى ذلك الوقتِ، وهو تأخيرٌ إلى الوقتِ المشتركِ لأهلِ الأعذارِ، وكغيرِهم عندَ طائفةٍ من العلماءِ.

فليسَ حُكمُهُم حكمَ منْ تركَ الصلاةَ؛ فإنَّ التاركَ هو المُؤخِّرُ عمدًا إلى

وقتٍ مُجمعٍ على أنَّه غيرُ جائزٍ، كتأخيرِ صلاةِ اللَّيلِ إلى النهارِ، وصلاةِ النهارِ إلى اللَّيلِ عمدًا، وتأخيرِ الصبحِ إلى بعدِ طلوعِ الشمسِ عمدًا[1] .

* * *

(١) «فتح الباري» (٣/٣٥٨ ـ ٣٦٠).

سُورَةُ النَّصْرِ

قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾

جاءَ في حديثٍ أنَّها: «**تعْدل ربعَ القرآن**»(١).

وهيَ مدنية بالاتفاقِ؛ بمعْنَى: أنَّهَا نَزلَتْ بعْدَ الهِجْرَةِ إلى المدينةِ، وهِيَ مِنْ أواخرِ ما نَزَلَ.

وفي «صحيحِ مسلمٍ»(٢) عَن ابنِ عبَّاسٍ قالَ: آخرُ سورةٍ نَزَلَتْ من القرآنِ جميعًا: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾.

واختُلفَ في وقتِ نزولِهَا، فقيلَ: نزلتْ في السَّنَةِ الَّتي تُوفِّيَ فيهَا رسولُ اللَّهِ ﷺ.

وفي «مسندِ الإمامِ أحمدَ» عَنْ محمدِ بنِ فُضيلٍ عَنْ عطاء عَنْ سعيد بنِ جبيرٍ عَنْ ابنِ عباسٍ قالَ: لما نزلَتْ: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾ قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**نُعيَتْ إليَّ نفسي**» بأنَّه مقبوضٌ في تلكَ السنةِ. عطاءٌ هو ابنُ السائبِ اختلطَ بآخرةٍ(٣).

---

(١) جزء من حديث طويل، أخرجه: الترمذي (٢٨٩٥).

(٢) أخرجه: مسلم (٨/ ٢٤٣).

(٣) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٧).

ويشهدُ لهُ مَا أخرجَهُ البزارُ في «مسندِه» والبيهقيُّ مِنْ حديثِ موسى بنِ عبيدةَ عَنْ عبدِ اللَّه بنِ دينارٍ وصدقةَ بنِ يسارٍ عَنْ ابنِ عُمَرَ قالَ: نزلتْ هذه السورةُ علَى رسولِ اللَّه ﷺ بمنًى، وهوَ في أوسطِ أيامِ التشريقِ في حَجَّةِ الوداعِ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فَعَرفَ أنَّه الوداعُ، فأمرَ براحلتِه القصواءَ، فرُحلتْ لَهُ، ثمَّ ركبَ، فوقفَ للناسِ بالعقبةِ، فحمدَ اللَّهَ وأثنَى عليهِ ـ وذكرَ خطبةً طويلةً[1].

هذا إسنادٌ ضعيفٌ جدًّا، ومُوسى بنُ عبيدةَ قالَ أحمدُ: لا تحلُّ عِنْدِي الروايةُ عنْهُ.

وعنْ قتادةَ قالَ: عاشَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَهَا سنتينِ[2].

وهذا يَقْتَضِي أَنَّها نزلتْ قَبْلَ الفتحِ، وهذا هو الظاهرُ لأنَّ قولَهُ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ يَدُلُّ دلالةً ظاهرةً على أنَّ الفتحَ لم يكنْ قَدْ جاءَ بعدُ، لأنَّ «إذَا» ظرفٌ لِمَا يُستقبلُ مِنَ الزَّمانِ، هذا هو المعروفُ في استعمَالِهَا، وإنْ كانَ قَدْ قِيلَ: إنَّها تَجيءُ لِلماضِي كقولِه: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾ [الجمعة:١١]. وقوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة:٩٢].

وقدْ أُجيبَ عَنْ ذلكَ بأنَّه أُريدَ أَنَّ هذا شأنُهم ودأبهُم، لم يُرِدْ بِهِ الماضي بخُصُوصِهِ، وسنذكرُ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ بعد نزولِ هذهِ السورةِ: «جاءَ نصرُ اللَّهِ والفتح، وجاءَ أهلُ اليمنِ». ومجيءُ أهْلِ اليَمَنِ كانَ قبلَ حَجَّةِ الوداعِ.

---

(١) أخرجه: البزار (١١٤١ ـ كشف الأستار).

(٢) أخرجه: الطبري في «التفسير» (٣٠/ ٣٣٥).

قولُه تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾.

أمَّا نصرُ اللَّهِ فهُوَ معونتُه علَى الأعداءِ حتَّى غَلَبَ النبيُّ ﷺ العربَ كلَّهم، واستولَى عليهِم مِنْ قريشٍ وهوازنَ وغـيرِهم، وذكرَ النقَّاشُ عنْ ابنِ عبَّاسٍ أنَّ النصرَ: هو صُلْحُ الحديبيةِ.

وأمَّا الفتحُ فقـيلَ: هُوَ فتحُ مكةَ بخصوصِهَا، قالَ ابنُ عـبَّاسٍ وغيرُه: لأنَّ العربَ كانتْ تنتظرُ بإسلامِهَا ظهورَ النبيِّ ﷺ على مكةَ.

وفي «صحيحِ البـخاريِّ» عَنْ عمرِو بنِ سلمةَ قـالَ: لَمَّا كانَ الفتحُ بادَرَ كُلُّ قومٍ بإسلامِهِم إلى رسولِ اللَّهِ ﷺ، وكانتِ الأحياءُ تلوَّمُ بإسـلامِهَا فتحَ مكةَ فيقولونَ: دعُوهُ وقومَه، فإنْ ظهرَ عليهِم فهوَ نبيٌّ[(١)].

وعن الحسنِ قالَ: لَمَّا فتحَ رسولُ اللَّهِ ﷺ مكةَ، قالتِ العربُ: أمَّا إذا ظَفَرَ محمدٌ بأهلِ مكةَ، وقدْ أجـارَهُمُ اللَّهُ مِنْ أصحابِ الفيلِ فليسَ لَكُم به يدانِ، فدخلُوا في دينِ اللَّهِ أفواجًا.

وقيلَ: إنَّ الفـتحَ يَعُمُّ مكةَ وغيرَهـا مما فُتِحَ بَعْدَهَا من الحـصونِ والمدائنِ، كالطائفِ وغـيرِها مِنْ مُـدنِ الحجازِ واليـمنِ وغيرِ ذلـكَ، وهُوَ الذي ذكرهُ ابنُ عطيةَ.

وقولُهُ: ﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ [النصر:٢].

المرادُ بالنَّاسِ العمومُ على قولِ الجمهورِ، وعَنْ مقاتلٍ: أنَّهم أهلُ اليمنِ.

وفي «مسندِ الإمـامِ أحمـدَ» مِنْ طريقِ شعبـةَ عَنْ عمـرِو بن مرةَ عَنْ أبي البَخْتَريِّ عن أبي سـعيدٍ الخدريِّ عن النبيِّ ﷺ قالَ: لَمّا نزلـتْ هذه السورةُ:

(١) أخرجه: البخاري (٥/ ١٩١).

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ﴾، قال: قرأها رسولُ اللَّه ﷺ حتَّى ختَمَها فقالَ: «**الناسُ حيِّزٌ وأنا وأصحابي حيِّزٌ**»، وقال: «**لا هِجْرَةَ بعد الفتحِ، ولكنْ جِهادٌ ونيةٌ**»[١]، وأنَّ مروانَ كذَّبه فصدَّق رافعُ بنُ خديجٍ وزيدُ بنُ ثابتٍ أبا سعيدٍ على ما قالَ.

وهذا يُستدلُ بِهِ علَى أَنَّ المرادَ بالفتحِ فتحُ مكةَ، فقدْ ثبتَ في «الصحيحينِ» منْ حديثِ ابنِ عباسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ يومَ الفتحِ: «**لا هجرةَ، ولكنْ جهادٌ ونيةٌ**»[٢].

وأيضًا فالفتحُ المطلقُ هوَ فتحُ مكةَ كَمَا في قولِه: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ [الحديد: ١٠]، ولهذا قالَ: «**الناسُ حيِّزٌ، وأنا وأصحابي حيِّزٌ**».

وروى النسائيُّ منْ طريقِ هلالِ بنِ خبَّابٍ عنْ عكرمةَ عنْ ابنِ عباس قالَ: لَمَّا نزلتْ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلَى آخرِ السورةِ قال: نُعِيَتْ لرسولِ اللَّه ﷺ نفسُهُ حينَ أُنزلتْ فأخَذَ في أشدِّ مَا كانَ اجتهادًا في أمرِ الآخرةِ، وقالَ رسولُ اللَّه ﷺ بعدَ ذلكَ: «**جاءَ الفتحُ، وجاءَ نصرُ اللَّه، وجاءَ أهلُ اليمنِ**»، فقالَ رجلٌ: يا رسول اللَّهِ، ومَا أهلُ اليمنِ؟ قالَ: «**قومٌ رقيقةٌ قلوبُهم، لينةٌ قلوبهم، الإيمانُ يمانٍ، والحكمةُ يمانيةٌ، والفقهُ يمانٍ**»[٣].

وروى ابنُ جريرٍ منْ طريقِ الحسينِ بنِ عيسى الحنفيِّ عنْ معمرٍ عنْ الزهريِّ عنْ أبي حازمٍ عن ابنِ عباسٍ قالَ: بينما رسولُ اللَّه ﷺ في المدينة إذْ قالَ: «**اللَّهُ أكبرُ اللَّهُ أكبرُ، جاءَ نصرُ اللَّهِ والفتحِ، جاءَ أهلُ اليمنِ**»، قيل: يا رسولَ اللَّه،

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٢٢).

(٢) أخرجه: البخاري (٢/ ١٨٠)، (٤/ ١٢٧)، ومسلم (٤/ ١٠٩).

(٣) أخرجه: النسائي في «الكبرى» كما في «تحفة الأشراف» (٦٢٣٨).

وما أهلُ اليــمنِ؟ قالَ: «**قومٌ رقيقةٌ قلوبُهم، لينةٌ طباعُهُم، الإيمانُ يمانٍ، والفقهُ يمانٍ، والحكمةُ يمانيةٌ**»(١) .

ورواه أيضًا مِنْ طريقِ عبدِ الأعْلَى عَنْ معمرٍ عَنْ عكرمةَ مرسَلاً(٢) ، وكذا هُوَ في «تفسيرِ عبدِ الرزاقِ»: عَنْ معمرٍ أخبرَنِي مَنْ سَمِعَ عكرمةَ فأرسَلَهُ.

وهذَا لا يدلُّ على اختصاصِ أهلِ اليــمنِ بالنَّاسِ المذكورينَ في الآيةِ وإنَّما يدلُّ علَى أنَّهُم داخلونَ في ذلكَ فإنَّ الناسَ أعمُّ مِنْ أهلِ اليمنِ.

قال ابنُ عَبْدِ البرِّ: لــم يَمُتْ رسولُ اللَّهِ ﷺ وفي العَرَبِ رجُلٌ كـافرٌ بَلْ دَخَلَ الكُلُّ في الإسْلامِ بعد حُنين والطائـفِ، منهم مَنْ قَدِمَ، ومنهم مَنْ قدمَ وافدُهُ، ثُمَّ كانَ بعدُ من الردةِ ما كانَ، ورجَعُوا كُلُّهم إلى الدينِ.

قالَ ابنُ عطيــةَ: المرادُ ـ واللَّهُ أعلمُ ـ: العربُ عبدةُ الأوثانِ، وأمَّـا نصارَى بني تغلبٍ فمَا أراهُم أسلَمُوا قط في حياةِ رسولِ اللَّهِ ﷺ لكنْ أَعْطوا الجزيةَ.

والأفواجُ: الجماعةُ إثْرَ الجماعَةِ كَمَا قالَ اللَّهُ تعالَى: ﴿**كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ**﴾ [الملك:٨]، وفي «المسندِ» مِنْ طريقِ الأوزاعيِّ حــدَّثَني أبو عمَّـارٍ حدَّثَنــي جارٌ لجابرِ بنِ عبدِ اللَّهِ قــال: قَدِمْتُ مِنْ سَفَـرٍ فَجَـاءَنِي جابرُ بنُ عبـدِ اللَّهِ يُسلِّمُ عليَّ، فجعلتُ أحدِّثُه عَنْ افتراقِ النَّــاسِ ومَا أحْدَثُوا، فجعَلَ جابرٌ يَبْكِي، ثُمَّ قَالَ: سمــعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقــولُ: «**إنَّ النَّاسَ دخلوا في دينِ اللَّه أفــواجًا، وسيخرجونَ منهُ أفْواجًا**»(٣) .

(١) أخرجه: الطبري في «التفسير» (٣٠/ ٣٣٢).
(٢) السابق (٣٠/ ٣٣٣).
(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ٣٤٣).

وقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

فيه قولانِ حكاهُمَا ابنُ الجَوزِيِّ.

أحدُهُما: أنَّ المرادَ به الصلاةُ، نَقَلَهُ عَنْ ابنِ عَبَّاسٍ.

والثاني: التسبيحُ المعروفُ.

وفي الباءِ في «بحمدِ» قولانِ:

أحدُهُما: أَنَّها للمُصَاحبةِ فالحمدُ مُضافٌ إلى المفعولِ، أَيْ فسبِّحْهُ حامدًا لَهُ، والمعْنَى: أجْمعُ بينَ تسْبيحِهِ وهُوَ تنزيهُهُ عمَّا لا يليقُ بِهِ مِنَ النَّقَائِصِ، وبين تحميدِهِ وهوَ إثباتُ ما يليقُ بِهِ مِنَ المَحَامِدِ.

والثاني: أَنَّها للاستعانَةِ، والحمدُ مُضَافٌ إلى الفَاعِلِ، أي سَبِّحْهُ بما حَمِد به نفسَهُ إذْ ليسَ كُلُّ تسبيحٍ بمحمودٍ كَمَا أنّ تسبيحَ المعتزلةِ يقْتَضِي تعطيلَ كثيرٍ من الصفاتِ، كَمَا كانَ بشرُ المَرِيسيُّ يقولُ: سبحانَ ربي الأسْفَل.

وقولُه: ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾.

أي اطلبْ مغفرتَهُ، والمغفرةُ هِيَ وقايةُ شَرِّ الذنبِ لا مجردُ سَتْرِهِ.

والفرقُ بَيْنَ العفوِ والمغفرةِ أنَّ العفْوَ محوُ أثرِ الذنبِ، وقدْ يكونُ بَعْدَ عقوبةٍ بخلافِ المغفرةِ فإنَّها لا تكونُ مَعَ العقوبةِ.

وقولُه: ﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾.

إشارةٌ إلى أنَّه سُبْحَانَهُ يَقْبَلُ توبةَ المستغفرينَ المنيبينَ إليهِ، فَهُوَ ترغيبٌ في الاستغفارِ، وحَثٌّ على التوبةِ، وقَدْ فَهِمَ طائفةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ أُمِرَ بالتسبيحِ والتحميدِ والاستغفارِ عندَ مجيءِ نصرِ اللَّهِ والفتحِ، شكرًا للَّهِ

على هذهِ النعـمةِ، كَمَـا صَلَّى النبيُّ ﷺ يومَ فتـحِ مكةَ ثماني ركـعاتٍ[١]، وكذلكَ صَلَّى سعدٌ يومَ فتحِ المدائنِ، وكانتْ تُسَمَّى: صلاةُ الفتحِ.

وأمَّا عُمَرُ وابنُ عـباسٍ فقَالا: بلْ كانَ مجيءُ النَّصرِ والفتحِ عـلامةَ اقترابِ أجلهِ، وانقضاءِ عُمرِه، فأُمرَ أنْ يختمَ عملَه بذلكَ، ويتهيأَ للقاءِ اللَّهِ، والقدومِ عليهِ على أكْمَلِ أحـوالِه وأتمِّها، فإنَّه لمَّا جاءَ نصرُ اللَّهِ والفـتحُ بحيثُ صارتْ مكة دارَ إسلامٍ، وكذلكَ جزيرةُ العربِ كُلُّها، ولمْ يبْقَ بِهَا كافرٌ، ودخلَ الناسُ في دينِ اللَّهِ أفواجًا.

وقد بلَّغ رسـولُ اللَّهِ ﷺ رسالاتِ ربِّه، وعلَّمَ أمتَـهُ مناسكَهُم وعباداتِهم، وتركَهُم على البيضـاءِ، ليلُها كنهارِهَا، ولم يبقَ لهُ من الدُّنيا حاجـةٌ، فحينئذ تهيّأَ للنَّقلةِ إلى الآخرةِ فإنَّـها خيرٌ لَهُ مِنَ الأُولى، ولهذَا نزلتْ: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾ [المائدة:٣] بعرَفةَ.

وعلَّمَ الأمةَ مناسكَهُم، وقالَ لَهُم: «**لَعَلِّي لا أراكم بَعْدَ عامي هَذا**»[٢].

وقالَ لَهُم: «**هَلْ بَلَّغتُ؟**»، قالُوا: نَعَـمْ، وأشهدَ اللَّهَ عليـهم بذلكَ، وودَّعَ النَّاسَ فقالُوا: هذه حَجَّةُ الوداعِ[٣].

وقدْ خُيِّرَ ﷺ بينَ الدنيـا وبين لقاءِ ربِّه، فكانَ آخـرَ ما سُـمِعَ مِنهُ: «**اللَّهمَ الرفيقَ الأعْلَى**»[٤].

ونظيرُ هذا الفـهمِ الذي فهمَهُ عمـرُ مِنْ هذهِ السورةِ ما فهـمَهُ أبو بكرٍ مِنْ

(١) أخرجه: البخاري (١/ ٧٨)، (٨/ ٤٦)، ومسلم (١/ ١٨٢)، (١٥٧).
(٢) أخرجه: مسلم (٤/ ٧٩) من حديث جابر.
(٣) أخرجه: البخاري (٢/ ٢١٦ ـ ٢١٧)، ومسلم (٥/ ١٠٨ ـ ١٠٩).
(٤) أخرجه: البخاري (٨/ ٩٣)، ومسلم (٧/ ١٣٧).

قولِ النبيِّ ﷺ في خطبتهِ: «إنَّ عبدًا خُيِّر بينَ الدنيا وبين لقاءِ ربِّه، فاختارَ لقاءَ ربِّه»(١)، وقدْ سبَقَ مِنْ حديثِ ابنِ عباسٍ ما يدلُّ على ذلكَ.

وفي «صحيحِ البخاريِّ» مِنْ حديثِ سعيدِ بنِ جبيرٍ عنْ ابنِ عبَّاسٍ قالَ: كانَ عمرُ يُدخِلُني مَعَ أشياخِ بدرٍ فكأنَّ بعضَهُم وجَدَ في نفسهِ فقالَ: لِمَ تُدْخلُ هذا مَعَنَا ولنا أبناءٌ مثلُه؟ فقالَ عمرُ: إنَّه ممَّن قَدْ علِمتم، فدعاهُم ذاتَ يومٍ فأدْخَلَهُ معهُم، فما رأيتُ أنَّه دعَاني فيهم يومئذٍ إلا ليُريَهم، فقالَ: ما تقولونَ في قولِ اللَّهِ عزَّ وجلَّ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقالَ بعضُهُم: أُمرنا أنْ نحْمدَ اللَّهَ ونستَغْفره إذا جاءَ نصرُنا وفُتِحَ علينَا، وسكتَ بعضُهُم فلمْ يَقُل شيئًا! فقال لي: أكذاكَ تقولُ يا ابنَ عبَّاسٍ؟ فقلت: لا، قال: ما تقولُ؟ قلتُ: هو أجلُ رسولِ اللَّهِ ﷺ أعْلَمَهُ لهُ قالَ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذاكَ علامَةُ أَجَلِكَ، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فقالَ عمرُ بنُ الخطاب: ما أعلمُ منها إلا ما تقولُ(٢)، وقد رُويتْ هذه القصةُ عن ابن عباسٍ منْ غيرِ وجهٍ.

وفي «المسندِ» عنْ أبي رزينٍ عن ابنِ عباسٍ قالَ: لَمَّا نزلتْ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ علِمَ النبيُّ ﷺ أنَّه قد نُعيتْ إليه نفسُهُ(٣).

وقد سَبَقَ منْ حديثِ ابنِ عباسٍ أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا نَزَلتْ هذه السورةُ أخذَ في أشدِّ ما كانَ اجتهادًا في أمرِ الآخرةِ(٤).

---

(١) أخرجه بنحو هذا اللفظ أحمد في «المسند» (٣/ ٤٧٨)، والترمذي (٣٦٥٩) من حديث أبي المعلَّى الأنصاري.

(٢) أخرجه: البخاري (٤/ ٢٤٨)، (٦/ ٢٢٠).

(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (١/ ٣٤٤، ٣٥٦).

(٤) سبق تخريجه قريبًا.

وروى الخرائطيُّ في «كتابِ الشُّكْرِ» مِنْ طريقِ شاذ بنِ فياضٍ عَن الحارثِ بنِ شبلٍ عنْ أمِّ النُّعمانِ الكنديةِ عنْ عائشةَ قالتْ: لَمَّا نزلتْ هذه الآيةُ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح:١] اجتهدَ النبيُّ ﷺ في العبادةِ فقيلَ لهُ: يا رسولَ اللَّهِ، ما هذا الاجتهادُ؟ أليسَ قدْ غفَرَ اللَّهُ لكَ ما تقدَّم من ذنبكَ وما تأخَّرَ؟! قالَ: «**أفَلا أكونُ عَبْداً شكُوراً**»، إسنادُه ضعيفٌ(١).

وروى البيهقيُّ مِنْ طريقِ سعيد بنِ سليمانَ عَنْ عبَّادِ بنِ العوَّامِ عَنْ هلالِ بن خبَّابٍ عنْ عكرمةَ عَن ابنِ عباسٍ قالَ: لَمَّا نزلتْ: ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ**﴾ دعَا رسولُ اللَّهِ ﷺ فاطمةَ، وقالَ: «**إنَّهُ قد نُعِيَتْ إليَّ نفسي**»، فَبكَتْ، ثُمَّ ضَحِكَتْ، وقالتْ: أخبرني أنه قد نُعيَ إليه نفسه فبكيتُ، ثُمَّ أخبرَنِي بأنَّكِ أوَّلُ أهلي لِحاقًا بي فَضحِكْتُ(٢).

وكان النبيُّ ﷺ يكثرُ من التسبيحِ والتحميدِ والاستغفارِ بعدَ نزولِ هذهِ السورةِ، ففي «الصحيحينِ» عَنْ مسروقٍ عَنْ عائشةَ قالتْ: كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يكثرُ أنْ يقولَ في ركوعِهِ وسجودِهِ: «**سبحانكَ اللهُمَّ ربَّنا وبحمدِكَ اللهمَّ اغفرِ لِي**» يتأولُ القرآنَ.

وفي «المسنَد» و «صحيحِ مسلمٍ» عنها قالتْ: كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يكثرُ في آخرِ أمرِهِ مِنْ قولِ: «**سبحانَ اللَّهِ وبحَمْدِه، أَستغفرُ اللَّهَ وأَتُوبُ إليه**»، وقالَ: «**إنَّ ربي كانَ أخبَرَني أنِّي سأَرَى علامةً في أُمتي، وأمَرَني إذا رأَيتُها أنْ أُسبِّحَ بحمدِهِ**

(١) أخرجه: الخرائطي في «كتاب الشكر» (٥٢).

(٢) أخرجه: الدارمي (١/ ٣٧)، والطبراني في «الكبير» (١١/ ٣٣٠)، وفي «الأوسط» (٨٨٣)، والبهيقي في «دلائل النبوة» (٧/ ١٦٧). وأصله عند البخاري (٤/ ٢٤٧)، ومسلم (٧/ ١٤٢ ـ ١٤٣).

وأستغفرهُ إنَّه كانَ توَّابًا، فقَدْ رأيتُها: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾» السورةَ كلَّها[١].

ورَوى ابنُ جريرٍ مِنْ طريقِ حفصٍ ثنا عاصمٌ عَنِ الشعبيِّ عَنْ أمِّ سلمةَ قالتْ: كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ في آخرِ أمرِهِ لا يقومُ ولا يقعدُ ولا يذهبُ ولا يجيءُ إلا قالَ: «سبحان اللَّهِ وبحمدِهِ»، فقُلْتُ: يا رسولَ اللَّهِ، إنَّكَ تُكثرُ مِنْ: «سبحان اللَّهِ وبحمدِهِ»، لا تذهبُ ولا تجيءُ ولا تقومُ ولا تقعدُ إلا قلتَ: «سبحان اللَّهِ وبحمدِهِ» قالَ: «إني أُمرْتُ بِهَا»، فقالَ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ إلى آخرِ السورةِ. غريبٌ[٢].

وفي «المسندِ» عن أبي عبيدةَ عنْ عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ قالَ: لَمَّا نزلتْ علَى رسولِ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ كانَ يُكثرُ إذَا قرأَهَا وركعَ أنْ يقولَ: «سبحانكَ اللهمَّ ربنا وبحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغفرْ لي، إنَّكَ أنتَ التوابُ الرحيمُ» ثلاثًا[٣].

واعلمْ؛ أنْ التسبيحَ والتحميدَ فيهِ إثباتُ صِفَاتِ الكمالِ، ونفيُ النقائصِ والعيوبِ.

والاستغفارُ يتضمنُ وقايةَ شرِّ الذنوبِ.

فذاكَ حَقُّ اللَّهِ، وهذَا حقُّ عبدِهِ، ولَهذا في خطبةِ الحَاجَةِ: «الحمدُ للَّهِ نحمدُهُ ونسْتعينُهُ ونسْتغفرُهُ»[٤].

وكانَ رجلٌ في زمنِ الحسنِ البصريِّ مُعتزِلٌ النَّاس فسألهُ الحسنُ عَنْ حالِهِ؟

---

(١) أخرجه: أحمد في «المسند» (٦/ ٣٥)، ومسلم (٢/ ٥٠).

(٢) أخرجه: ابن جرير في «التفسير» (٣٠/ ٣٣٥).

(٣) أخرجه: أحمد في «المسند» (١/ ٣٩٢، ٣٩٤، ٤١٠، ٤٣٤، ٤٥٥، ٤٥٦).

(٤) أخرجه: مسلم (٣/ ١١).

فقالَ: إني أُصبحُ بين نعمةٍ وذنْبٍ فأُحْدِثُ للنعـمةِ حَمْدًا، وللذنبِ استغفارًا، فأنا مشغـولٌ بذلكَ، فقالَ الحسنُ: الزمْ مَا أنتَ عليهِ، فـأنتَ عنْدِي أفقهُ مِنَ الحسَنِ.

والاستغـفارُ: هوَ خاتمةُ الأعمالِ الصالحـةِ، فلِهَذَا أُمرَ النبيُّ ﷺ أنْ يجعلَهُ خاتمةَ عُمْرِهِ.

كما يُشرَعُ لمصلِّي المكتوبةِ أنْ يستغفرَ عقِبَها ثلاثًا(١) ، وكَمَا يُشرَعُ للمتهجِّدِ منَ الليلِ أنْ يسـتغْـفِرَ بالأسْـحَارِ قالَ تعـالَى: ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٨]، وقـالَ: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧]، وكَمَـا يُشرَعُ الاستغفارُ عُقَيْبَ الحجِّ قالَ تعالَى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٩٩].

وكمـا يُشْرَعُ ختمُ المجَـالسِ بالتسبـيحِ والتحمـيدِ والاستِـغْفَارِ وهُوَ كـفارةُ المجلسِ(٢) ، وروي أنه يَخْتِمُ بِهِ الوضوءَ أيضًا(٣) .

وسببُ هَذَا أنَّ العبادَ مُقصِّرُونَ عن القيـامِ بحقوقِ اللَّهِ كَمَا يَنبغِي، وأدائِهَا على الوجهِ اللائـقِ بجلالهِ وعظمتِـهِ، وإنَّما يؤدُّونَها علَـى قَدْرِ مَا يطيـقُونَهُ، فالعـارفُ يَعْرِفُ أنَّ قَدْرَ الحقِّ أعلَى وأجلُّ مِنْ ذلكَ، فـهُوَ يَسْتَـحِي مِنْ عملِهِ ويستغـفرُ مِنْ تقصيرِهِ فـيهِ كَمَا يستغـفرُ غيرُهُ مِنْ ذنوبِهِ وَغفَـلاتِهِ، وكُلَّما كانَ الشخصُ باللَّهِ أعرفَ كانَ له أخوفَ، وبرؤيةِ تقصـيرِهِ أبصرُ، ولهذا كانَ خاتمُ المرسلينَ وأعرفُهم بربِّ العالمينَ ﷺ يجتهـدُ في الثناءِ على ربِّهِ، ثُمَّ يقولُ في

---

(١) أخرجه: مسلم (٢/ ٩٤).

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٤٩٤)، وأبو داود (٤٨٥٨)، والترمذي (٣٤٣٣).

(٣) أخرجه: النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨١)، والطبراني في «الأوسط» (١٤٥٥).

آخرِ ثنائه: «**لا أُحْصِي ثناءً عليكَ أنتَ كمَا أثنيتَ على نفسكَ**»[١] .

ومنْ هذَا قولُ مالكِ بنِ دِينارٍ: لقدْ هَممْتُ أنْ أُوصِيَ إذَا متُّ أنْ أُقيَّد، ثُمَّ يُنْطلقُ بي كما يُنطلقُ بالعبدِ الآبقِ إلى سيِّدِه، فإذا سَألَني؟ قلتُ: يا ربِّ، لم أرضَ لكَ نفسِي طَرفةَ عينٍ.

وكان كَهْمَسُ يُصَلِّي كُلَّ يومٍ ألفَ ركْعَةٍ، فإذَا صَلَّى أخذَ بلحيتِهِ، ثُمَّ يقولُ لنفسِهِ: قُومِي يا مَأْوى كُلِّ سوءٍ، فواللَّهِ مَا رضيتُك للَّهِ طَرْفَةَ عينٍ.

فائدة:

الاستغفارُ: يَرِدُ مجردًا، ويردُ مَقْرونًا بالتوبةِ، فإنْ وَردَ مجرَّدًا دَخلَ فيه طلبُ وقايةِ شرِّ الذنبِ الماضِي بالدعاءِ، والنَّدمِ عليهِ، وشرُّ وقايةِ الذنبِ المتوقعِ بالعزمِ علَى الإقلاعِ عنهُ.

وهذَا الاستغفارُ الَّذي يمنعُ الإصْرارَ بقولِهِ: «**ما أَصرَّ مَن اسْتغفَر ولَو عادَ في اليوم سبعينَ مرَةً**»[٢] ، وبقولِهِ: «**لا صَغيرةَ مع الإصرارِ، ولا كبيرةَ مع الاستغفارِ**» خرَّجهما ابنُ أبي الدُّنيا.

وكذا في قولِهِ تعالَى: ﴿**الَّذينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ**﴾ [آل عمران:١٣٥]، وفي «الصحيحِ»: «**أَذنبَ عبدٌ ذنبًا...**»[٣] الحديثَ.

وهوَ المانعُ من العقوبةِ في قولِهِ: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾

---

(١) أخرجه: مسلم (٢/ ٥١).

(٢) أخرجه: أبو داود (١٥١٤)، والترمذي (٣٥٥٩).

(٣) أخرجه: البخاري (٩/ ١٧٨)، ومسلم (٨/ ٩٩).

[الأنفال:٣٣]، وإنْ وردَ مقرونًا بالتوبةِ اختصَّ بالنوعِ الأولِ، فإنْ لم يصحبْهُ الندمُ على الذنبِ الماضِي، بلْ كانَ سُؤالاً مُجرَّدًا فهو دعاءٌ محضٌ، وإن صَحِبَه ندمٌ فهو توبةٌ.

والعزمُ على الإقلاعِ من تمامِ التوبةِ، والتوبةُ إذا قُبلتْ فهلْ تُقبلُ جَزْمًا أم ظاهرًا؟ فيه خلافٌ معروفٌ.

فيقالُ: الاستغفارُ المجردُ هو التوبةُ مَعَ طلبِ المغفرةِ بالدعاءِ، والمقرونُ بالتوبةِ: هوَ طلبُ المغفرةِ بالدعاءِ فَقَط.

وكذلك التوبةُ إنْ أُطلقتْ دخلَ فيها الانتهاء عن المحظورِ، وفِعْلُ المأمورِ ولهذا علَّقَ الفلاحَ عليْهَا، وجعلَ مَنْ لم يَتُبْ ظالمًا، فالتوبةُ حينئذٍ تشملُ فعلَ كُلِّ مأمورٍ، وترك كُلِّ محظورٍ ولهذا كانتْ بدايةُ العبدِ ونهايتُهُ هي حقيقةُ دينِ الإسلامِ.

وتارةً يُقرنُ بالتَّقْوَى، أو بالعملِ فتختصُّ حينئذٍ بتركِ المحظورِ واللَّهُ أعلمُ.

وفي فضائلِ الاستغفارِ أحاديثُ كثيرةٌ منْها:

حديثُ: **«جِلاءِ القلوبِ تلاوةُ القرآنِ والاستغفارُ»**(١).

وحديثُ: **«فإن تابَ واستغفرَ ونَزَعَ صُقِلَ قَلْبُهُ»**(٢).

وحديثُ: **«ابنَ آدمَ إنَّك لو بلَغَتْ ذنوبُك عنَانَ السماءِ، ثُمَّ استغفرتَني على ما كانَ**

---

(١) أخرج أبو نعيم في «الحلية» (٨/ ١٩٧) لفظًا مقاربًا له ومن حديث ابن عمر قال: قال رسول اللَّه ﷺ: **«إن هذه القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد»** قالوا: يا رسول اللَّه، فما جلاؤها؟ قال: **«تلاوة القرآن»**.

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (٢/ ٢٩٧)، والترمذي (٣٣٣٤)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤١٨)، وابن ماجه (٤٢٤٤).

منْكَ، غفرتُ لكَ ولا أُبَالِي»(١) .

وحديثُ ابنِ عمرَ: كنَّا نَعُدُّ لرسولِ اللَّهِ ﷺ في المجلسِ الواحدِ: «ربِّ اغفرْ لي، وتُبْ عليَّ، إنَّكَ التوابُ الغفورُ» مائةَ مرةٍ(٢) .

وحديثُ أبي هريرةَ مرفوعًا: «إنِّي لأستغفرُ اللَّهَ في اليومِ أكثرَ من سبعينَ مرةً، وأتوبُ إليه» خرَّجه البخاريُّ(٣) .

ومنْ حديثِه مرْفُوعًا: «لَو لَم تُذنبُوا لَذَهبَ اللَّهُ بكُم، ولجاء بقومٍ يُذنبونَ ثم يستغفرون فيغفرُ لَهُمْ» خرَّجه مسلم(٤) .

وفي «المسندِ» من حديث عطيةَ عَنْ أبي سعيد عن النبيِّ ﷺ: «مَنْ قالَ حين يَأوي إلى فَراشه، أَستغفرُ اللَّهَ الذي لا إله إلا هُو الحيَّ القيُّومَ وأتُوبُ إليه، غَفرَ اللَّه له ذُنُوبهُ، وإنْ كانتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرَ، وإن كانت مثل رَملِ عَالج، وإن كانت عدد ورق الشَّجَر»(٥) .

وحديثُ: «منْ أَكثرَ منَ الاستغفارِ جعلَ اللَّهُ لهُ منْ كلِّ همٍّ فرجًا» خرَّجه أحمدُ منْ حديثِ ابن عباسٍ(٦)، ويعضدُهُ قولُه تعالَى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح:١٠]، وقولُه: ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾ [هود:٣].

---

(١) أخرجه: الترمذي (٣٥٤٠).

(٢) أخرجه: أحمد في «المسند» (١/ ٢١)، وأبو داود (١٥١٦)، والترمذي (٣٤٣٤)، وابن ماجه (٣٨١٤).

(٣) أخرجه: البخاري (٨/ ٨٣).

(٤) أخرجه: مسلم (٨/ ٩٤).

(٥) أخرجه: أحمد في «المسند» (٣/ ١٠)، والترمذي (٣٣٩٧).

(٦) أخرجه: أحمد في «المسند» (١/ ٢٤٨)، وأبو داود (١٥١٨)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٤٥٦).

قالَ رياحٌ القيسيُّ: لي نيفٌ وأربعونَ ذنبًا، قدِ استغفرتُ لكلِّ ذنبٍ مائةَ ألفِ مرَّةٍ.

وقال الحسنُ: لا تملُّوا من الاستغفارِ.

وقال بكرٌ المُزَنيُّ: إنَّ أعمال بني آدمَ ترفعُ فإذا رفعت صحيفةٌ فيها استغفارٌ رُفعت بيضاءُ، وإذا رُفعتْ ليس فيها استغفارٌ رفعت سوداء.

وعن الحسنِ قالَ: أكثرُوا مِن الاستغفارِ في بيُوتِكم، وعلَى موائِدكم، وفي طُرُقِكم، وفي أسواقِكُم، فإنَّكم ما تدرُون متى تَنْزِلُ المغفرةُ.

وقال لقمان لابنه: أيْ بُنيَّ؛ عوِّد لسانَكَ: اللهَمَّ اغفرْ لِي، فإنَّ للَّهِ ساعاتٍ لا يردُّ فيهنَّ سائلاً.

ورُئِيَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ في النَّومِ فقيلَ لهُ: ما وجدَّتَ أفضلُ؟ قالَ: الاستغفار[1].

* * *

(١) رسالة «تفسير سورة النصر».

سُورَةُ الإخْلاصِ

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

قال ابنُ رجبٍ ـ رحمه اللَّه تعالى ـ: «الكلامُ على سُورةِ الإخْلاصِ».

وفي موضعِ نزولِهَا قولانِ: **أحدهما:** أنها مكيةٌ.

والثاني: مدنيةٌ، وذلك في فصولٍ في فضائِلِهَا وسببِ نزولِهَا وتفسيرِهَا.

أمَّا فضائلُهَا فكثيرةٌ جدًّا.

منْهَا: أنَهَا نِسْبَةُ اللَّهِ عَزَّ وجلَّ.

خرَّج الطبرانيُّ[1] منْ طريقِ عثمانَ بنِ عـبدِ الرحمنِ الطرائفيِّ عَنْ الوازعِ ابن نافعٍ عن أبي سلمةَ عنْ أبي هريرةَ قـال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**لكُلِّ شيءٍ نسبةٌ، ونسـبةُ اللَّهِ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، ليسَ بأجـوفَ**»، الوازعُ ضعيفٌ جدًّا، وعثمانُ يروي المناكيرَ، وسيأْتي في سببِ نزولِهَا ما يشهدُ لَهُ.

ومنها: أنَّها صـفةُ الرحمنِ، وفي صـحيحِ البخـاريِ ومسلمٍ[2] من حـديثِ عائشةَ، أنَّ النبيَّ ﷺ بعثَ رجُلاً على سريةٍ فكان يقرأُ لأصحابِه في صَلاتِهِم فيَختمُ بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فلمَّا رجَعوا ذكروا ذلك للنبيِّ ﷺ فقال: «**سلُوهُ: لأيِّ شيءٍ يصنعُ ذلك؟**»، فسألُوهُ، فـقال: لأنَّها صِفَـةُ الرَّحمنِ، وأنا أُحبُّ أن

---

(١) «المعجم الأوسط» (٧٣٢).

(٢) أخرجه: البخاري (٩/ ١٤٠)، ومسلم (٢/ ٢٠٠).

أَقرأَ بِهَا، فقالَ النبيُّ ﷺ: «أخبروهُ أن اللَّه يُحبُّهُ».

ومنهَا: أَنَّ حُبَّها يُوجبُ محبةَ اللَّه، لهذا الحديثِ المذكورِ آنفًا، ومنهُ قولُ ابنِ مسعودٍ: «مَنْ كانَ يحبُّ القرآنَ فهُوَ يحبُّ اللَّهَ»[1] .

ومنها: أن حُبَّها يُوجبُ دُخولَ الجنَّةِ؛ ذكرَ البخاريُّ في «صحيحه»[2] تَعْليقًا وقالَ: عبيدُ اللَّهِ عنْ ثابتٍ عن أنسٍ قالَ: كانَ رجُلٌ مِنَ الأنصارِ يؤُمُّهم في مسجدِ قُباءَ، وكانَ كلَّما افتتحَ سورةً يقرأُ بِهَا لهمْ في الصلاةِ ممَّا يقرأُ به، افتتح بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتّى يفرُغَ مِنْها، ثُمَّ يقرأُ سُورةً أُخرَى مَعَها، وكانَ يصنعُ ذلكَ في كلِّ ركعةٍ، وذكرَ الحديثَ، وفيه: فقالَ النبيُّ ﷺ: «يا فلانُ، ما حملكَ على لزومِ هذهِ السورةِ في كلِّ ركعةٍ؟»، فقال: إني أُحبُّها، فقالَ: «حُبُّكَ إياهَا أدخلكَ الجنَّةَ»، وخرَّجه الترمذيُّ في «جامعه»[3] عن البخاريِّ عَنْ إسماعيلَ ابنِ أبي أويسٍ عنَ الدَّارَوَرْدِيِّ عَنْ عبيدِ اللَّهِ بنِ عبدِ الرحمنِ عنْ عبيدِ اللَّهِ بنِ عمرَ وغرَّبه، وقال: روى مباركُ بنُ فضالةَ عنْ ثابتٍ عنْ أنسٍ أن رجلاً قالَ: يا رسولَ اللَّهِ إنِّي أحبُّ هذه السورةَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقالَ: «إن حُبّكَ إياها أَدخلكَ الجنَّة» وقدْ خرَّجه أحمدُ في «المسندِ»[4] عن أبي النضرِ عن مباركِ بنِ فضالَة به.

وروى مالكٌ عنْ عبيدِ اللَّهِ بنِ عبدِ الرحمنِ عنْ عبيدِ بنِ حُنينٍ قالَ: سمعتُ أبا هريرةَ يقولُ: أقبلتُ مع النبي ﷺ، فسمعَ رجُلاً يقرأُ: ﴿قُلْ هُوَ

(١) أخرجه: الطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٤٢).
(٢) (١/ ١٩٦ ـ ١٩٧).
(٣) «الجامع» (٢٩٠١).
(٤) «المسند» (٣/ ١٤١ ـ ١٥٠).

اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال رسولُ اللَّه ﷺ: «**وجَبَتْ**» قلت: وَمَا وجـبَت؟ قالَ: «**الجنَّةُ**»، وأخرجَـهُ النسائيُّ والترمـذيُّ وقالَ: حسنٌ صـحيحٌ لا نعرفُـه إلا مِنْ حديثِ مالكٍ[1].

وروَى أبو نعيمٍ منْ طريقِ عمرِو بنِ مرزوقٍ عنْ شعـبةَ عن مهاجرٍ سمعتُ رجلاً يقولُ: صـحبتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ في سفرٍ، فسـمِعَ رَجُلاً يقرأُ: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ**﴾، فقالَ: «**قد بَرِيءَ من الشِّرْكِ**»، وسمعَ آخرَ يقرأُ: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ فقالَ: «**غُفِرَ لهُ**»[2].

ومنْهَا: أنَّها تعدِلُ ثـلثَ القرآنِ ففي «صحيـحِ البخاريِّ»[3] منْ حـديثِ أبي سعيدٍ أَنَّ رجلاً سمعَ رجُلاً يقرأُ: ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ يُردِّدُها، فلمَّا أصبحَ جاءَ إلى النبيِّ ﷺ فذكرَ ذلكَ لهُ ـ وكـأنّ الرجلَ يتقالُّها ـ فـقال رسول اللَّه ﷺ: «**والذي نفسي بيـده إنَّها لتعـدلُ ثُلُثَ القرآنِ**»، وقدْ رُوِيَ عنْ أبي سعـيدٍ عن أخي قتادةَ بنِ النعمانِ به.

وفي «صحيحِ البخاريِّ»[4] أيضًـا مِنْ طريقِ الأعمشِ عنْ إبراهيمَ النخـعيِّ والضَّحَّاكِ المشرقيِّ عنْ أبي سعيدٍ قال: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ لأصحابِهِ: «**أيعجزُ أحدُكُم أنْ يَقْرَأَ ثلثَ القرآنِ في ليلة؟**» فشقَّ ذلكَ عليهِم وقالُوا: أيُّنا يطيقُ ذلك يا رسول اللَّه، فقالَ: «**اللَّهُ الواحدُ الصَّمدُ ثلثُ القرآنِ**».

وفي «المسندِ»[5] منْ طريقِ ابنِ لهيـعةَ عن الحارثِ بنِ يزيدَ عنْ أبي الهـيثمِ

---

(١) أخرجه: مالك في «الموطأ» (ص ١٤٦)، والنسائي (٢/ ١٧١)، والترمذي (٢٨٩٧).

(٢) وهو عند الدارمي (٢/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩)، والنسائي في «عمـل اليوم والليلة» (٧٠٩) من طريق آخر عن شعبة.

(٣) (٦/ ٢٣٣)، (٨/ ١٦٣)، (٩/ ١٤٠).

(٤) (٦/ ٢٣٣).

(٥) (٣/ ١٥).

عنْ أبي سعيدٍ قال: باتَ قتادةُ بنُ النعمان يقرأُ الليلَ كُلَّهُ بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فذُكِرَ ذلك للنبيِّ ﷺ فقالَ: «والذي نفسي بيدِه لَتعْدِلُ نصفَ القرآنِ أو ثُلُثَه».

وفي «المسندِ»(١) أيضًا مِنْ طريقِ ابنِ لهيعةَ، حـدَّثَنَا حُيَيُّ بنُ عبدِ اللَّهِ عن أبي عبـدِ الرحمنِ عنْ عـبدِ اللَّه بنِ عـمرٍو: أنَّ أبا أيوبَ الأنصـاريَّ كانَ في مجلسٍ وهوَ يقولُ: ألا يستَطيعُ أحدُكُم أنْ يقومَ بثُلُثِ القرآنِ كلَّ ليلةٍ؟ فقالُوا: وهل يستطيعُ ذلكَ أحدٌ؟ قال: فإنَّ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثُلُثُ القرآنِ، قالَ: فجاءَ النبيُّ ﷺ وهو يسمعُ أبا أيوبَ، فقالَ: «صَدَقَ أبو أيوبَ».

ورَوَى يحيى بنُ سعيدٍ عنْ يزيدَ بنِ كيسانَ عنْ أبي حازمٍ ـ قالَ الترمذيُّ: اسمُهُ سلمانَ ـ عنْ أبي هريرةَ قالَ: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ: «احشُدُوا، فإنِّي سأَقْرَأُ عليكُم ثُلُثَ القُرآنِ»، فحشدَ من حشدَ، ثُمَّ خرجَ نبي اللَّه ﷺ فقَرَأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثُمَّ دخلَ فقـالَ بعضُنَا لِبعضٍ: قـال رسول اللَّه ﷺ: «فإنِّي سأَقْرَأُ عليكُم ثُلُثَ القرآنِ»، إنِّي لأرى هذا خبرًا جاءَهُ من السـماءِ، ثُمَّ خرجَ نبي اللَّه ﷺ فقال: «إني قُلْتُ: سـأَقـرأُ عليكُم ثُلُثَ القـرآنِ، ألا وإنهـا تعـدِلُ ثُلُثَ القُـرآنِ»، أخرجَهُ مسلمٌ(٢).

وروى الإمامُ أحـمدُ عنْ عبدِ الرحـمنِ بنِ مهديّ عنْ زائدةَ بنِ قـدامةَ عنْ منصورٍ عن هلالِ بنِ يسـافٍ عن الربيعِ بنِ خثيمٍ عـنْ عمرِو بنِ ميـمونٍ عنْ عبدِ الرحمنِ بن أبي ليلَى عنْ امرأةٍ مِنَ الأَنْصَارِ عنْ أبي أيوبَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «أيَعْـجزُ أحـدُكُم أنْ يقرأَ ثلثَ القـرآنِ في ليلةٍ؟ فإنه مَـنْ قرأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ في ليلةٍ فقدْ قرأَ ليـلتئذٍ ثلثَ القرآنِ»، ورواهُ النسائيُّ والترمذيُّ

(١) (٢/ ١٧٣).

(٢) «صحيح مسلم» (٢/ ١٩٩ ـ ٢٠٠).

عنْ بندار(١) .

وروى الترمذيُّ عنْ قتيبةَ أيضًا عَنْ ابنِ مهـديّ، فَهُوَ لَهُمَا عُشَاري ولأحمد تُسَاعي، وفي روايةِ الترمـذيِّ عَنْ امرأةِ أبي أيوبَ عَنْ أبي أيوبَ بِـهِ، وذكرَ اختلافًا في إسنادِهِ.

وروى أحمـدُ(٢) عن هُشَيـمٍ عنْ حـصينٍ عن هلالِ بـنِ يـسافٍ عـنْ عبدِ الرحـمنِ بن أبي ليلَى عنْ أبيِّ بنِ كعـبٍ أو رجـلٍ منَ الأنـصارِ قـالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «منْ قرأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنَّما قرأَ بثلث القرآن»، ورواهُ النسائيُّ في «اليومِ والليلة»(٣) منْ طريقِ هُشيمٍ عنْ حصينٍ عن ابن أبي ليلَى بهِ منْ غيرِ ذكـرِ هلالِ بنِ يسافٍ، وروى الإمامُ أحـمدُ أيضًا(٤) عنْ وكـيعٍ عن سفيانَ عن أبي قـيسٍ عن عمرِو بن ميمونٍ عنْ أبي مسعـودٍ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدِلُ ثلثَ القرآنِ» ورواهُ ابن ماجـه والنسائيُّ في «اليومِ والليلةِ»(٥) منْ طُرُقٍ، وفي بعضِ طرقِهِ وقفُهُ.

ورواه أبُو نعيمٍ منْ طريقِ مـسعرٍ عنْ أبي قـيسٍ عَنْ عمرِو بنِ ميـمونٍ عنْ أبي مسعودٍ الأنصاريِّ، كَذا قالَ.

ومنْ طريقِ شعبةَ عنْ أبي إسحاقَ عنْ عمرِو بنِ ميمونٍ عنْ ابنِ مسعودٍ.

وروَى أبو نعيمٍ منْ طريقِ عليِّ بنِ عـاصمٍ عنْ حصينٍ عنْ هلالِ بنِ يسافٍ

---

(١) أخرجه: أحمد (٥/ ٤١٨ ـ ٤١٩)، والترمذي (٢٨٩٦)، والنسائي (٢/ ١٧٢).

(٢) «المسند» (٥/ ١٤١).

(٣) «عمل اليوم والليلة» (٦٩٠).

(٤) «المسند» (٤/ ١٢٢).

(٥) أخرجه: النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٩٨)، وابن ماجه (٣٧٨٩).

عنْ ربيعِ بنِ خُثَيمٍ عنْ ابنِ أبي ليلَى عنْ كعبِ بنِ عجرةَ عنْ النبيِّ ﷺ قالَ: «منْ قرأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في يومٍ وليلةٍ ثلاثَ مراتٍ كانتْ تعدلُ ثلثَ القرآنِ».

ورواهُ شعبةُ عنْ عليِّ بنِ مدركٍ عنْ إبراهيمَ النخعيِّ عنْ الربيعِ بنِ خثيمٍ عن ابنِ مسعودٍ عن النبيِّ ﷺ(١).

وروى أبو نعيمٍ حدَّثَنَا إبراهيمُ بنُ محمدِ بنِ يحيى، ثنَا أحمدُ بنُ حمدونَ ابنِ رستم، ثَنَا عليُّ بنُ إشْكَاب، ثنَا شجاعُ بنُ الوليدِ، ثنَا زيادُ بنُ خيثمةَ، عنْ محمدِ بنِ جحادةَ، عنْ الحسنِ عنْ أبي هريرةَ عن النبيِّ ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلثُ القرآنِ»، قالَ إبراهيمُ: هكذا حدَّثَني بهِ وكتبهُ لِي بخطهِ وإنَّما يحفظُ الإسناد قراءةُ يس.

وروى يوسفُ بنُ عطيةَ الصفارُّ: ثنَا هارونُ بنُ كثيرٍ، عنْ زيدِ بنِ أسلمَ عنْ أبيهِ عنْ أبي أمامةَ عنْ أبيِّ بنِ كعبٍ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «منْ قرأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنَّما قرأَ ثلثَ القرآنِ، وكُتبَ لهُ منَ الحسناتِ بعددِ منْ أشْركَ باللَّهِ وآمنَ بِهِ».

وفي «صحيحِ مسلمٍ»(٢) منْ طريقِ قتادةَ عنْ سالمِ بنِ أبي الجعدِ عنْ معدان بنِ أبي طلحةَ عنْ أبي الدَّرْداءَ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: «أيعجزُ أحدُكُم أنْ يقرأَ كلَّ يومٍ ثلثَ القرآنِ؟» قالُوا: نعم، قالَ: «إنَّ اللَّه جزَّأَ القُرآنَ ثلاثةَ أجزاءٍ، فقل هو اللَّه أحد ثلثُ القرآنِ».

ورَوَى أميةُ بنُ خالدٍ عَنْ ابنِ أخِي ابنِ شهابٍ عنْ عَمِّه عَنْ حميدِ بنِ

---

(١) أخرجه: النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٦٨٠).

(٢) «صحيح مسلم» (٢/ ١٩٩).

عبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ عَنْ أمهِ أمِّ كُلْثوم بنتِ عقبةَ بنِ أبي مُعَيْطٍ قالَتْ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلثُ القرآنِ»، رواه أحمدُ والنسائيُّ في «اليومِ والليلةِ»[(١)].

ورواهُ أيضًا مِنْ طريقِ مالكٍ عَنِ الزُّهريِّ عَنْ حميدٍ مِنْ قولِه، ورواهُ أيضًا مِنْ طريقِ ابنِ إسحاقَ عَنِ الحارثِ بنِ فُضَيلٍ عَنِ الزهريِّ عَنْ حميدٍ أنَّ نَفرًا مِنْ أصحابِ محمدٍ ﷺ حدثُوه عَنِ النبيِّ ﷺ أنَّهُ قالَ: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدلُ ثلثَ القرآنِ لمن صلَّى بهَا»[(٢)].

وروى الحافظُ أبو يَعْلَى[(٣)] عَنْ قطنِ بنِ نُسيرٍ عنْ عبيسِ بنِ ميمون عنْ يزيدَ الرقاشيِّ عَنْ أنسٍ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: «أمَا يستطيعُ أحدُكُم أنْ يقرأَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلاثَ مرَّاتٍ في ليلةٍ فإنَّها تعدلُ ثلثَ القرآنِ» إسنادُه ضعيفٌ.

ويُستدلُّ بِهِ على أنَّ المرادَ بكونِهَا تعدلُ ثلثَ القرآنِ، أجرَهُ وثوابَهُ، كما يُستدلُّ بحديثِ أبي الدرداءَ المتقدمِ علَى أنَّهَا جزءُ التوحيدِ مِنَ القرآنِ، وأنَّه ثلاثةُ أجزاءٍ: تَوحيدٌ، وتَشْريعٌ، وقَصَصٌ.

ومِنْها: أنَّ قراءَتَهَا تكفِي مِنَ الشرِّ، وتمنعهُ، وقدْ ثبتَ في «صحيحِ البخاريِّ»[(٤)] عنْ عائشةَ: «أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ إذَا أَوَى إلى فِراشِهِ قرأَها مع المعوذتينِ ومَسَحَ ما استطاعَ مِنَ جسدِه».

وروى أبو داودَ والترمذيُّ والنسائيُّ[(٥)] مِنْ طريقِ معاذِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ

---

(١) أخرجه: أحمد (٦/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٧٠٠).

(٢) أخرجه: النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٧٠١).

(٣) «المسند» (١٤٨١ ـ ٤١١٨ ـ ٤١٣٦).

(٤) أخرجه: البخاري (٦/ ٢٣٣).

(٥) أخرجه: أبو داود (٥٠٨٢)، والترمذي (٣٥٧٥)، والنسائي (٨/ ٢٥٠).

خُبيبٍ عنْ أبيهِ عَنِ النبيِّ ﷺ قالَ لهُ: «قُلْ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتينِ حينَ تُمسي وحينَ تُصْبِحُ ثلاثًا تكفيكَ كُلَّ يومٍ» وصحَّحهُ الترمذيُّ.

ورواهُ النسائيُّ[(١)] مِنْ طريقٍ أُخرَى عنْ معاذٍ عنْ عبدِ اللَّهِ بنِ خُبيبٍ عنْ أبيهِ عَنْ عقبةَ بنِ عامرٍ فذكرهُ ولفظُه: «تَكْفِكَ كلَّ شيءٍ».

وقالَ البزارُ في «مسندِه»[(٢)]: حدَّثنا إبراهيمُ الجوهريُّ: ثَنا غسانُ بنُ عبيدٍ، عنْ أبي عمرانَ الجونيِّ، عنْ أنسِ بنِ مالكٍ قالَ: قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «إذَا وضعْتَ جنبكَ على الفراشِ، وقرأتَ فاتحةَ الكتابِ، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقدْ أَمنتَ مِنْ كلِّ شيءٍ إلا الموتَ».

ومنْهَا: أنَّها أفضلُ سورِ القرآنِ، فروى الدارميُّ في «مسندِه»[(٣)] عنْ أبي المغيرةَ عَنْ صفوانَ عنْ أيفعَ بنِ عبيدٍ الكلاعيِّ قالَ: قالَ رجلٌ: يا رسولَ اللَّهِ، أيُّ سورِ القرآنِ أعظمُ؟ قالَ: «﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾».

وفي «المسندِ»[(٤)] منْ طريقِ معاذِ بنِ رفاعةَ عنْ عليِّ بنِ يزيدَ، عنْ القاسمِ، عنْ أبي أمامةَ، عنْ عقبةَ بنِ عامرٍ قالَ: قالَ لي رسولُ اللَّهِ ﷺ: «ألا أُعلِّمُكَ خيرَ ثلاثِ سورٍ أنزلَتْ في التوراةِ والإنجيلِ والزَّبورِ والقُرآنِ العَظيمِ؟» قلتُ: بلَى، قالَ: «فَأَقْرَأَني: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾» ثُمَّ قالَ لِي: «يا عقبةُ، لا تنسَهُنَّ ولا تَبتْ ليلةً حتَّى تقرأَهُنَّ»، وروى الترمذيُّ[(٥)] بعضَ هذا الحديثِ وحسَّنهُ، ورواه أحمدُ[(٦)] أيضًا بطولِهِ منْ طريقِ

---

(١) «السنن» (٨/ ٢٥١).

(٢) (٣١٠٩ ـ كشف الأستار).

(٣) «السنن» (٢/ ٤٤٧).

(٤) (٤/ ١٤٨).

(٥) «الجامع» (٢٤٠٦).

(٦) «المسند» (٤/ ١٥٨).

أُسيدِ بنِ عبدِ الرحمنِ الخثعميِّ عنْ فروةَ بنِ مجاهدٍ عنْ عقبةَ بنِ عامرٍ بِهِ.

ومنْهَا: أنَّ الدعاءَ بهـا مستجابٌ؛ فـفي السنَن الأربعة[١] عنْ عبـدِ اللَّهِ بنِ بريدةَ عنْ أبيهِ أنَّ النبيَّ ﷺ سَمِعَ رجلاً يصلِّي يَدْعُو يقولُ: اللهُمَّ إني أسألُك بأنّي أشهَدُ أن لا إله إلا أنتَ الأحَدُ الصّمدُ الذي لمْ يلدْ ولم يُولد، ولم يكن له كفوًا أحدٌ، قالَ: «**والّذي نفْسي بيدِهِ لقدْ سألَهُ باسمِهِ الأعظمَ، الَّذي إذا سُئِلَ به أعطى، وإذا دُعِيَ بهِ أجابَ**»، وقال الترمذي: حسن غريب.

وفي «المسندِ»[٢] عن محجنِ بنِ الأدرعِ أنَّ النبيَّ ﷺ دخلَ المسجدَ، فإذَا هو برجلٍ قـدْ قَضَى صـلاتَه وهوَ يتشـهدُ وهُـو يقولُ: اللهمَّ إنِّي أسـألُكَ بأنّكَ الواحدُ الأحـدُ الصّمدُ الَّذي لمْ يلدْ، ولمْ يولدْ، و لم يكنْ لهُ كُـفُوًا أحدٌ، أن تغفرَ لي ذنوبِي إنَّكَ أنتَ الغفورُ الرحيمُ.

فقالَ نبيُّ اللَّهِ ﷺ ثلاثَ مراتٍ: «**قدْ غُفِرَ لَهُ، قدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ**».

وقدْ وردَ في تكرير قـراءَتِها خمسينَ مـرةً أو أكثرَ منْ ذلكَ، وعشـرَ مراتٍ عقـيبَ كُلِّ صلاةٍ أحاديثُ كـثيرةٌ فـيهَا ضـعفٌ، وكذلكَ حديثُ مـعاويةَ بنِ معاويةَ الليثـيِّ خرَّجَهُ الطبراني[٣]، وأبو يَعْلى من طرقٍ كُلِّـها ضـعـيفـةٌ فلم نذكُرْهَا.

وأمَّا سـببُ نزولِهَا: ففي «المسندِ» والتـرمذيِّ[٤] عنْ أبي سعيـدٍ الصَّاغَانِي

(١) أخرجه: أبو داود (١٤٩٣ ـ ١٤٩٤)، والترمذي (٣٤٧٥)، والنسائي في «الكبري» كما في «تحفة الأشراف» (٢/ ٩٠)، وابن ماجه (٣٨٥٧).

(٢) «المسند» (٤/ ٣٣٨).

(٣) أخرجه: الطبراني في «الكبير» (١٩/ ٤٢٨).

(٤) أخرجه: أحمد (٥/ ١٣٣ ـ ١٣٤)، والترمذي (٣٣٦٤).

محمدِ بنِ مبشرٍ عن أبي جعفرٍ الرازيِّ عَنْ الربيعِ بنِ أنسٍ عنْ أبي العاليةَ عَنْ أبيِّ بنِ كعبٍ أنَّ المشركينَ قالُوا للنبيِّ ﷺ: انسبْ لنَا ربَّكَ يا محمدُ؟ فأنزلَ اللَّهُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ورواه الترمذيُّ[1] من طريق عبيد اللَّه بن موسى، عن أبي جعفر عن الرَّبيعِ عن أبي العاليةِ مرسلاً. وقالَ: هذا أصحُّ من حديث أبي سعيد.

ورواه أبو يعْلَي الموصليُّ والطبرانيُّ وابن جرير[2] من طريق شريح بن يونسَ عن إسماعيل بن مجالدٍ عن مجالدٍ عن الشعبيِّ عن جابر: أنَّ أعرابيًّا جاءَ إلى رسولِ اللَّه ﷺ فقال: انسبْ لنا ربَّكَ؟ فأنزلَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرِهَا، ورُوِيَ مُرْسَلاً.

وروى عبيدُ بنُ إسحاقَ العطَّارُ عنْ قيسِ بنِ الربيعِ عنْ عاصمٍ عنْ أبي وائلٍ عَن ابنِ مسعودٍ قالَ: قالتْ قُرِيشٌ لرسولِ اللَّه ﷺ: انسُبْ لنَا ربكَ فنزلتْ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قالَ الطبرانيُّ: ورواه الفريابيُّ وغيرُه عَنْ قيسٍ عنْ عاصمٍ عنْ أبي وائلٍ مُرْسَلاً.

وروى ابنُ أبي حاتمٍ في «تفسيرِه»: حدَّثنا أبو زرعةَ: ثنا العباسُ بنُ الوليدِ: ثنا يزيدُ بنُ زريعٍ: ثنا عليُّ بنُ الحسينِ: ثنا أبو عبدِ اللَّهِ الحرشيُّ: ثنا أبو خلف عبدُ اللَّهِ بنِ عيسى: ثنا داودُ بنُ أبي هند، عنْ عكرمةَ، عن ابنِ عبَّاسٍ أنَّ اليهودَ جاءتْ إلى النبيِّ ﷺ منهم حُيَيُّ بنُ أخطبَ وكعبُ بنُ الأشرفِ فقالُوا: يا محمدُ، صفْ لنا الذي بَعَثَك؟ فأنزلَ اللَّه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ﴾ فيخرجُ منه الولدُ، ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ فيخرجُ

---

(١) «الجامع» (٣٣٦٥).

(٢) أخرجه: أبو يعلى في «مسنده» (٢٠٤٤)، وابن جرير في «تفسيره» (٣٠/ ٣٤٢).

مِـنْ شيءٍ.

وأما التفسيرُ:

فقولُه: ﴿قُلْ﴾ هذا افتتاحٌ للسورةِ بالأمرِ بـالقولِ، كما في المعوذتينِ وسورةِ الجنِّ.

وقدْ سُئلَ النبيُّ ﷺ عنِ المعوذتينِ فقالَ: «**قِيلَ لي فقلتُ**»(١) وذلكَ إشارةٌ منهُ إلى أنَّه ﷺ مُبلغٌ مَحْضٌ لِمَا يُوحَى إليهِ، ليسَ فـيه تصرفٌ لِمَا أوحاهُ اللَّهُ إليهِ بزيادةٍ ولا نقصٍ، وإنَّما هُوَ مُبَلِّغٌ لكلامِ ربِّه كَمَا أوحاهُ إليهِ فإذا قالَ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ كانَ امـتثـالاً للقولِ الذي قـيلَ لهُ بلفظِهِ لا بمعناهُ، و﴿هُوَ﴾: اسمٌ مضمرٌ قيل إنَّه: ضميرُ الشأنِ، وقيل: لا.

و﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إنْ قيلَ: هو ضميرُ الشأنِ، فالجـملةُ مبتدأٌ وخبرٌ، وإنْ قيلَ: لا، ففيه وجـهانِ، أحدهما: أنَّ ﴿هُوَ﴾ مبتدأٌ، و﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مبتدأ وخبرٌ، وهما خبرٌ للمبتدأ الأولِ، ولا حاجةَ فيه إلى رابطٍ لأنَّ الخبرَ هو المبتدأُ بعينِهِ.

والثاني: أنَّ ﴿هُوَ﴾ مبتدأٌ و﴿اللَّهُ﴾ خبرُه و﴿أَحَدٌ﴾ بدلٌ منه.

و﴿أَحَدٌ﴾: اسمٌ مِنْ أسماءِ اللَّه يُسمَّى اللَّهُ به، ولا يُسمَّى غيرُه من الأعيانِ به.

فلا يسمَّى شيءٌ من الأشياءِ أحدًا في الإثباتِ إلا في الأعدادِ المطلقةِ.

وإنما يُسمَّى به في النفْي وما أشبهَهُ من الاستفهامِ والنهيِّ، والشرطِ كقولِه: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، وقولِهِ: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [مريم:٩٨]، وقولِهِ:

---

(١) أخرجه: البخاري (٦/ ٢٢٣) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

﴿فَلا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن:١٨]، وقولِه: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة:٦]، ونحوِه.

والأحدُ: هو الواحدُ في إلاهيتهِ وربُوبيته، وفسَّرهُ أهلُ الكلامِ، بما لا يتجزأُ ولا ينقسمُ، فإنْ أُريدَ بذلكَ أنَّه ليسَ مؤلفًا مركَّبًا منْ أجزاءٍ متفرقةٍ فصحيحٌ، أو أنَّه غيرُ قابلٍ للقسمةِ فصحيحٌ، وإنْ أُريدَ أنَّه لا يتميَّزُ منه شيءٌ عن شيءٍ، وهو المرادُ بالمجسمِ عندهم فباطلٌ.

قال ابنُ عقيلٍ: الذي يَصِحُّ من قولِنا معَ إثباتِ الصفاتِ أنه واحدٌ في إلاهيتِهِ لا غيرُ.

والأحدُ هو الواحدُ. قالَ ابنُ الجوزيِّ: قالَهُ ابنُ عباسٍ وأبو عبيدةَ، وفرَّقَ قومٌ بينهما.

قال الخطابيُّ: الفرق بين الأحدِ والواحدِ: أنَّ «الواحد»: هو المتفرد بذاته فلا يضاهيه أحدٌ.

و«الأحدُ»: المنفردُ بصفاتِهِ ونعوتِهِ فلا يشاركُهُ فيها أحدٌ.

وقيلَ: بينهما فرقٌ آخرُ، وهو أنَّ الأحدَ في النفي نصٌ في العمومِ، بخلافِ الواحدِ فإنه محتملٌ للعمومِ وغيرِهِ فتقولُ: ما في الدارِ أحدٌ، ولا يقالُ: بل اثنانِ، ويجوزُ أنْ يقالَ: ما في الدارِ واحدٌ، بل اثنانِ.

وفرَّقَ بعضُ فقهاءِ الحنفيةِ بينهُما وقالَ: الأحديَةُ لا تحتملُ الجزئيةَ والعدديةَ بحالٍ.

والواحدُ يحتملُها لأنَّه يقالُ: مائةٌ واحدةٌ وألفٌ واحدةٌ، ولا يُقالُ: مائةٌ أحدٌ ولا ألفٌ أحدٌ.

وبُنِيَ على ذلك مسألةُ محمدِ بنِ الحسنِ التي ذكرَهَا في «الجامعِ الكبيرِ»: إذا كان لِرجلٍ أربعُ نسوةٍ فقالَ: واللَّهِ لا أقربُ واحدةً منْكُنَّ صارَ مُوليًا منهنَّ جميعًا، ولم يَجُزْ أن يقربَ واحدةً منهن إلا بكفارةٍ، ولوْ قالَ: واللَّهِ لا أقربُ إحداكُنَّ لم يصِر مُوليًا إلا منْ إحداهُنَّ والبيانُ إليه.

وقال العسكريُّ: أصلُ أحدٍ أوحَدُ مثلُ أكبرِ، وإحْدى مثل كُبْرى، فلمَّا وقَعَا اسمينِ وكانا كثيرَي الاستعمالِ هرَبُوا إلى الكسرةِ ليخفَّ، وحذفُوا الواوَ ليفرقُوا بين الاسمِ والصفةِ، وذلك أنَّ أوحدَ اسمٌ وأكبر منه.

والواحدُ فاعلٌ منْ وحَدَ يَحِدُ وهو واحدٌ مثل: وَعَدَ يَعِدُ فهو واعدٌ.

سؤالٌ: قوله: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ولم يقل الأحد كما قال: ﴿الصَّمَدُ﴾؟

جوابه: أنَّ الصمدَ يُسمَّى به غيرُ اللَّهِ كما يأتي ذكرُهُ، فأتى فيه بالألفِ واللامِ ليدلَّ على أنَّه ـ سبحانه ـ هو المستحقُ لكمالِ الصَّمَديّةِ، فإنَّ الألفَ واللام تأتي لاستغراقِ الجنسِ تارةً، ولاستغراقِ خصائصَ أخرى، كقولِه: زيدٌ هو الرجلُ أي: الكاملُ في صفاتِ الرجولةِ فكذلكَ قولُهُ: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ أي: الكاملُ في صفاتِ الصمديّةِ.

وأما الأحدُ فلم يَتَّسِمْ به غيرُ اللَّهِ فلمْ يحتجْ فيه إلى الألفِ واللامِ.

قولُهُ: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ أعادَ الاسمَ المبتدأ تأكيدًا للجملةِ وخبرُهُ الصمدُ. وقيلَ: هو نعتٌ والخبرُ ما بعدَهُ.

والصمدُ: اختلفتْ عباراتُ السَّلفِ في معناه، وهي متقاربةٌ أو متفقةٌ والمشهور منها قولان:

أحدُهما: أنَّ الصمدَ هو السَّيدُ الذي تصْمُدُ إليه الخلقُ في حوائجِهِم

ومطالبِهِم وهو مرويٌّ عَنْ ابنِ عباسٍ وغيرِه من السلفِ.

قالَ ابنُ الأنباريِّ: لا خلافَ بينَ أهلِ اللغـةِ أنَّ الصمدَ: السيدُ الذي ليس فوقَه أحدٌ، الذي يصمُدُ إليه الناسُ في حوائجِهِم وأمورِهِم.

وقالَ الزَّجَّاجُ: هو الذي ينتهِي إليه السُّؤددُ، فقدْ صَمَدَ له كلُّ شيءٍ. أي: قصدَ قصْدَهُ. وأنشدُوا:

لقدْ بكَّرَ النَّـاعي بِخَيْـرِ بني أسَـدْ بعمرِو بنِ مَسْعودٍ وبالسَّيدِ الصَّمَدْ

وأنشدوا أيضًا:

عَلَـوْتُـهُ بُحسـامٍ ثُـمَّ قُـلْـتُ لَـهُ خُذْها حُذَيْفُ فأنتَ السَّيِّدُ الصَمَدُ

وفي «تفسيرِ ابنِ أبي حاتمٍ» بإسنـادِهِ عن عكرمةَ عنِ ابنِ عـباسٍ قـال: الصمدُ: الذي تصمدُ إليه الأشياءُ إذا نزلَ بهم كربةٌ، أو بلاءٌ.

وعن إبراهيمَ قال: الذي يَصْمُدُ إليه العبادُ في حوائجِهِم.

وعنْ عليٍّ بنِ أبي طلحةَ عنْ ابنِ عـباسٍ، قالَ: الصمدُ: السـيدُ الذي قدْ كَمُلَ في سؤدَدِهِ، والشَّرِيفُ الذي قدْ كَمُلَ في شرفِهِ، والعظيمُ الذي قدْ كَمُلَ في عظمـتِهِ، والحليمُ الذي قـدْ كَمُلَ في حِلْمِـهِ، والعليمُ الذي قدْ كَـمُلَ في عِلْمِـهِ، والحكيمُ الذي قدْ كَـمُلَ في حكمتِـهِ، وهو الذي قدْ كَـمُلَ في أنواعِ الشرفِ والسُّؤددِ. وهو اللَّهُ ـ سـبحانه ـ هذه صفتُـهُ لا تنبغِي إلا له، ليس له كفوٌ وليسَ كمثلِهِ شيءٌ، سبحان اللَّهِ الواحدِ القهارِ[١].

والقولُ الثاني: أنَّ الصمدَ الذي لا جوفَ له، وأنَّه الذي لا يأكلُ ولا يشربُ

(١) راجع «تفسير ابن جرير» (٣٠/٣٤٦).

والذي لا حشوَ له، وأنَّه الذي لا يدْخلُ فيه شيءٌ، ولا يخرجُ منه شيءٌ، ونحوُ هذه العباراتِ المتقاربةِ في المعنى، ورُوي ذلك عنْ ابنِ مسعودٍ، وقدْ سبقَ في حديثِ أبي هريرةَ المذكورِ في أوَّلِ تفسيرِ السورةِ: والصمدُ الذي ليسَ بأجوفَ.

وروى ابنُ جريرٍ وابنُ أبي حاتمٍ منْ طريقِ عبيدِ اللَّهِ بنِ سعيدٍ - قائد الأعمشِ -: حدَّثني صالحُ بنُ حيانَ عنْ عبدِ اللَّهِ بنِ بريدةَ عنْ أبيه، قال: لا أعلمُ إلا أنَّه قدْ رفعَهُ: قال: «**الصمدُ الذي لا جوفَ له**».

وعنْ أبي عبدِ الرحمنِ السُّلَمِيِّ عنْ ابنِ مسعودٍ قال: الصمدُ ليسَ له حشاءٌ.

ورُوي عن ابن عباسٍ أيضًا وعكرمةَ: الصمدُ الذي لا يَطْعَمُ.

وعنه: الصمدُ: الذي لم يخرجْ منه شيءٌ.

وعنِ الشعبيِّ: الصمدُ: الذي لا يأكلُ ولا يشربُ.

وعنْ مجاهدٍ: هو المصْمَتُ الذي لا جوفَ له.

وقال طائفةٌ: الصمدُ: الذي لم يلدْ ولم يُولدْ، كأنَّهم جَعَلُوا ما بعدَهُ تفسيرًا له، وهو مما تقدَّم أنَّه الذي لم يَنْفَصِلْ منه شيءٌ. ورويَ ذلك عن أبيِّ بنِ كعبٍ والربيعِ بنِ أنسٍ[(١)].

وتوجيهُ ذلك: الولادةُ والتوليدُ إنما يكونُ من أصلينِ، وما كانَ عينًا قائمًا بنفسه منَ المتولداتِ فلا بدَّ له من مادةٍ يخرجُ منها، وما كانَ عرَضًا قائمًا بغيرِهِ فلا بدَّ له منْ محلٍّ يقومُ به، فالأولُ: نفاهُ بقولِهِ: «أحدٌ» فإنَّ الأحدَ هو

(١) أخرجه: ابن جرير في «تفسيره» (٣٠/ ٣٤٥) وغيره من أقوال أهل العلم.

الذي لا كفوَ له ولا نظيرَ فيمتنعُ أنْ يكونَ له صاحبةٌ.

والتـولُّدُ إنما يكونُ بين شيـئينِ، وكونُه تعـالى أحَدًا، ليسَ أحـدٌ كفـوًا له يستلزمُ أنَّه لـم يلدْ ولم يولدْ ، لأنَّ الوالدَ والولدَ متمـاثلانِ متكافـئانِ، وهو تعالى أحدٌ لا كفوَ له.

وأيضًا فـالتولُّد يحتاجُ إلى زوجـةٍ وهي مكافئةٌ لزوجِهَـا مِنْ وجهٍ، وذلك أيضًا ممتنعٌ.

ولهذا قال تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام:١٠١]، وقد فَسَّر مجاهدٌ «الكفوَ» هَاهُنا بالصَّاحبةِ.

وأما الثاني؛ وهو: انفصالُ المادة فنفاهُ ـ سبحانه ـ بأنَّه الصمدُ، وهُوَ المتولدُ مِنْ أصلينِ، ربما يتكونُ منْ جزئينِ يَنْفصلانِ منَ الأصلـينِ، كتولُّدِ الحيوانِ منْ أبيه وأمِّـه بالمنيِّ الذي ينفصلُ منهُـما، وكالنَّارِ المتـولدةِ منْ بينِ الزِّنْدينِ سواءٌ كانا خشبينِ أو حجَرَينِ أو حَجَرًا وحديدًا.

وهو ـ سبحانه ـ صمدٌ لا يخرجُ منهُ شيءٌ منفصلٌ عنه.

والحيوانُ نوعانِ: متوالدٌ: وهوَ ما ولَدُهُ منْ جنسِه، وهو الإنسانُ وما يُخلقُ منْ أبوينِ منَ البهائمِ والطيرِ وغيرِهما.

ومتـولِّدٌ: وهوَ ما يُخْلَقُ منْ غيـرِ جنسِه كدودِ الفـاكِهَةِ والخلِّ، وكـالقَمْلِ المتولدِ من الوَسَخِ، والفارِ والبراغـيثِ وغيرِ ذلكَ ممَّا يُخلَق منَ التُّرابِ والماء، وإنَّما يتولدُ منْ أصلينِ أيْضًا كما خُلِقَ آدمُ من ترابٍ وماءٍ.

وإلا فالتـرابُ المحضُ الذي لم يَخْتَلِطْ به ما لا يُخلقُ منه شيءٌ لا حـيوانَ ولا نباتَ، والنباتُ جميعُه إنَّما يتولدُ منْ أصلينِ أيْضًا.

والمسيحُ ـ عليـه السلامُ ـ خُلِقَ من مريمَ ونفـخة جبـريلَ، وهيَ حملتْ به كمَـا تحملُ النساءُ وولدتْه، فـلِهَذا يقالُ لهُ: ابنُ مـريمَ، بخلافِ حواءَ فـإنَّها خُلِقَتْ من ضِلْـعِ آدمَ، فلا يُـقالُ: إنَّـه أبوهَا ولا هيَ ولدُهُ. وكـذلك سـائرُ المتولداتِ من غيرِهِما.

كما أنَّ آدمَ لا يُقالُ: إنَّه ولدُ التـرابِ ولا الطينِ، والمتولِّدُ منْ جنسِهِ أكملُ من المتولدِ من غيرِ جنْسِهِ، ولهذا كان خلقُ آدمَ أعجبَ منْ خَلْقِ أولادِهِ.

فإذا نُزِّهَ الربُّ عنِ المادةِ العَـلَقِ وهيَ التولدُ منْ النظيرِ، فـتنزُّهُهُ عنْ تولدِهِ من غيـرِ نظيرٍ أولى، كـما أنَّ تنزيهَـهُ عنِ الكفوِ تنزيهٌ له عنْ أنْ يكونَ غـيرُهُ أفضلَ منه بطريقِ الأولى.

فتبيَّنَ أنَّ ما يُقالُ: إنَّه متولدٌ من غيـرِهِ منَ الأعْيانِ القائمة بنفسِهَا لا يكونُ إلا منْ مادةٍ تخرجُ مـنْ ذلكَ الوالدِ، ولا تكونُ إلا منْ أصلينِ، والربُّ تعالى صمَدٌ، فيمتنعُ أنْ يخرجَ منه شيءٌ وهو ـ سبحانه ـ لمْ يكنْ له صاحبةٌ فيمتنعْ أن يكونَ له ولدٌ.

وأمَّا تولدُ الأعْـراضِ كتولدِ الشعاعِ، وتـولدِ العِلْمِ عنِ الفكرةِ والشبعِ عنِ الأكْلِ، والحرارةِ عن الحركةِ ونحوِ ذلك.

فهذا ليسَ من تولدِ الأعْـيانِ معَ أنَّ هذا لا بدَّ لهُ منْ محلٍّ، ولا بدَّ له من أصلينِ كالشعاعِ فإنَّه يحتاجُ إلى محاذَاةِ جسمٍ نُوريٍّ لجسمٍ آخرَ يقابلُهُ فينعكِسُ عليه شعاعُهُ.

فقد تَضَمَّنتْ هذه السورةُ العظيمةُ نفْيَ نوعينِ عنِ اللَّهِ تعالى:

أحدُهُما: المماثلةُ، ودلَّ على نفيهَا قولُهُ تعالى: ﴿**وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ مع

دلالةِ قولِه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ على ذلكَ؛ لأنَّ أحَدِيَّتَـهُ تقتضِي أنَّه متـفردٌ بذاتِه، وصفاتِه، فلا يشاركُهُ في ذلكَ أحدٌ.

والثاني: نفْيُ النقائصِ والعيوبِ، ، وقد نفَى منها التولُّدَ منَ الطرفينِ.

وتضَمَّنتْ إثباتَ جمـيعَ صفاتِ الكمالِ بإثباتِ الأحديّة، فـالصمديّةُ تُثبتُ الكمالَ المنافيَ للنقائصِ، والأحديّةُ تُثْبتُ الانفرادَ بذلك. فإنَّ الأحديةَ تَقْتضِي انفرادَهُ بصـفاتِهِ وامتيـازَهُ عَنْ خَلْقِهِ بذاتِه وصفـاتِهِ، والصمديةُ إثباتُ جـميعِ صفـاتِ الكمالِ ودوامِهَا وقِـدَمِهَا، فإنَّ الـسيدَ الذي يُصْمَـدُ إليه لا يكونُ إلا مُتَّصِفًا بجميع صفـاتِ الكمالِ الَّتي استحقَّ لأجْلِهَا أنْ يكونَ صَمَدًا، وأنَّه لمْ يزلْ كذلك ولا يزالُ، فإنَّ صمديتَهُ مِنْ لوازمِ ذاتِه لا تنفكُّ عنهُ بحالٍ.

ومنْ هُنا فُسِّرَ الصمدُ بالسيدِ الذي قَدْ انتهى سؤْدُدُه، وفَسَّرَهُ عكرمةُ: بالذي لَيسَ فوقَهُ أحدٌ.

ورُوِيَ عَنْ عَليٍّ وعنْ كَعْبٍ أَنَّه: الَّذي لا يكافئُه أحدٌ في خَلْقِه.

وعنْ أبي هريرةَ قالَ: هو المُسْتَغنِي عَنْ كُلِّ أَحَدٍ، المحتاجُ إليه كُلُّ أحدٍ.

وعنْ سعيدِ بن جبيرٍ قالَ: هو الكاملُ في جميعِ صفاتِهِ وأفعالِهِ.

وعَنِ الربيعِ قالَ: هوَ الذي لا تعتْريهِ الآفاتُ.

وعنْ مقاتلِ بنِ حيانَ قالَ: هوَ الذي لا عَيْبَ فِيهِ.

وعنْ ابنِ كيسانَ: هوَ الذي لا يُوصفُ بصفَتِه أحدٌ.

وعنْ قتادةَ: الصمدُ: البَاقِي بَعْدَ خَلقِه، وعَنْ مجاهدٍ ومَعْمَرٍ: هُوَ الدائمُ.

وعَنْ مُرَّةَ الهمدانيِّ: هوَ الَّذي لا يَبْلى ولا يَفْنى.

وعنه أيضًا: هو الذي يحكمُ ما يريدُ، ويفعلُ ما يشاءُ؛ لا مُعَقِّبَ لحكمِهِ ولا رادَّ لقضائِهِ.

فقد تَضَمَّنَتْ هذه السورةُ العظيمةُ إثباتَ صفاتِ الكمالِ، ونفيَ النقائصِ والعيوب مِنْ خصائصِ المخلوقينَ مِنْ التولدِ والمماثلةِ.

وإذا كانَ منزَّهًا عنْ أنْ يخرجَ منهُ مادةُ الولدِ الَّتي هي أشرفُ الموادِ فَلأنْ نُزِّهَ عَنْ خروجِ مادةِ غَيرِ الولدِ أَوْلَى.

وكذلكَ تنزيهُهُ نفسَهُ عَنْ أنْ يُولَدَ فلا يكونُ مِنْ مثلِهِ تنزيهٌ لهُ عَنْ أنْ يكونَ مِنْ سائرِ الموادِ بطريقِ الأَوْلَى.

فمنْ أثبتَ للَّهِ ولداً فقدْ شتَمَهُ وقدْ ثبتَ في «صحيح البخاريِّ»[(١)] عنْ أبي هريرةَ عنِ النبيِّ ﷺ قالَ: **«يقولُ اللَّهُ ـ عزَّ وجلَ ـ كذَّبَني ابنُ آدمَ ولم يكنْ له ذلكَ، وشتَمني ولم يكنْ لهُ ذلكَ، فأمَّا تكذيبُهُ إيَّايَ فقولُه: لن يُعيدَني كما بدأني وليسَ أولُ الخلق بأهَونَ عليَّ من إعادته، وأمَّا شَتمُهُ إيايَ فقوله: اتَّخذ اللَّه ولداً، وأنا الأحدُ الصمدُ، لم أَلِدْ ولم أُولَدْ ولم يكن لي كُفُواً أَحد»**.

وفي «صحيح البخاري»[(٢)] أيضًا عن ابنِ عبَّاسٍ عَنِ النبيِّ ﷺ قالَ: **«قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: كذَّبَني ابنُ آدمَ ولَم يكنْ له ذلكَ، وشتمني ولم يكنْ لَه ذلك، فأمَّا تكذيبُهُ إيايَ فزعَم أنِّي لا أقدرُ أن أُعيدَهُ كما كان، وأمَّا شتمهُ إيايَ فقوله: لي ولد، فسُبحاني أن أتَّخذَ صاحبةً أو ولَداً»**.

وقد ردّ اللَّهُ علَى من زعمَ أنَّه لا يعيدُ الخلقَ، وعلَى منْ زعمَ أنَّ لهُ ولداً

---

(١) (٦/ ٢٢٢).

(٢) (٦/ ٢٤).

كما تَضَـمَّنَهُ هذا الحديثُ في قوله: ﴿وَيَقُولُ الإِنسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم:٦٦]، إلى قوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ [مريم:٨٩].

وفي «صحيح البخاريِّ»[1] أيضًا عن النبيِّ ﷺ قالَ: «لا أحَدَ أصبرُ على أذيً سمعهُ مِنَ اللَّه، إنَّهُم يجعلونَ لهُ ولَدًا وهو يرزقُهُم ويُعافيهم».

فهذه السـورةُ الكريمةُ تَضَمَّنتْ نَفْيَ مَا هوَ من خصـائصِ آلهةِ المشركين عنْ رب العالمينَ؛ حيثُ جـاءَ في سببِ النزولِ أنَّهُم سألُوا النبيَّ ﷺ عنْ ربِّه منْ أيِّ شيءٍ هوَ؟ أمِنْ كذا، أم من كَذَا؟ أو ممَّن وَرِثَ الدنيـا؟ ولمن يُوَرِّثُها؟ حيثُ كانوا قـد اعتادُوا آلـهةً يلدونَ، ويولدونَ، ويرِثُون ويُوَرِّثونَ، وآلهـةً من مواد مصنوعةٍ منها، فأنزلَ اللَّهُ هذه السورةَ.

وفي «المسندِ»[2] من حديثِ أبيٍّ بنِ كعبٍ بعـدَ ذكرِ نزولِها: لأنَّه ليسَ أحدٌ يولدُ لا يموتُ ولا أحدٌ يرِثُ إلا يُورَث، يقولُ: كلُّ مَنْ عُبِدَ منْ دونِ اللَّهِ وقدْ وُلِد مـثلُ المسيحِ والعـزيرِ وغـيرِهمـا من الصالحـينَ، ومثلُ الفـراعنةِ المدعين الإلهية، فـهذا مولودٌ يموت وهو وإنْ كانَ قـد ورثَ من غيرِه ما هو فـيه فإذا ماتَ وَرِثَهُ غيرُه واللَّه سبحـانه حيٌّ لا يموتُ ولا يُورَثُ سبحانه وتعالى، واللَّهُ أعلمُ.

سؤالٌ: نفى سـبحانـهُ الولادةَ قبلَ نفي التولدِ، والتـولد أسبقُ وقـوعًا من الولادِ في حقِّ مَنْ هو متولدٌ؟

وجوابه: أنَّ الولادةَ لم يَدَّعِها أحدٌ في حقِّـه سبحانه وإنَّما ادّعَوا أنَّه ولَدَ، فلذلكَ قَدَّم نفيَه لأنَّه المهمُّ المحتاجُ إلى نَفْيِه.

(١) (٨/ ٣١)، (٩/ ١٤١) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.
(٢) «المسند» (٥/ ١٣٣ ـ ١٣٤).

سؤالٌ آخرُ: كيفَ نَفَى أنْ يكونَ مولودًا ولم يعتقدْه أحَدٌ؟

جوابُهُ: مِنْ وجهينِ، **أحدُهُما:** أَنَّهم سألوا عَمَّن وَرِثَ الدنيا ولِمَنَ يورِّثُها، وهذا يُشعرُ بأنَّ منهُم منْ اعتقدَ ذلكَ.

والثاني: أنّه نفى عَنْ نفسِهِ سبحانه خصائصَ آلهةِ المشركينَ فإنَّ منْهمُ مَنْ عبدَ المسيحَ، ومنْهُم منْ عبَدَ العزيزَ وهُمَا مولودانِ، ومنْهُم مَنْ عبدَ الملائكةَ والعجلَ وهيَ متولداتٌ، وقد تقدَّم أنَّ نفيَ الولادةِ تدلُّ علَى نفي المتولدِ بطريقِ الأَوْلى.

فائدةٌ: قالَ ابنُ عطيةَ: ﴿كُفُوًا﴾ خبرُ كانَ، واسمُهَا ﴿أَحَدٌ﴾، والظرفُ مَلغي، وسيبويه يستحسن أنْ يكونَ الظرفُ إذا تقدَّم خبرًا.

ولكنْ قَدْ يجيءُ مُلْغى في أماكنَ يقتَضِيَها المعنى كهذِهِ الآيةِ، وكقولِ الشاعرِ أنشدَهُ سيبويه:

ما دامَ فيهنّ فَصيلٌ حيًّا

ويُحتملُ أن يكونَ: ﴿كُفُوًا﴾ حالاً لما قُدِّمَ مِنْ كونِهِ وصفًا للنكرةِ كمَا قالَ كثيرٌ لعزَّةَ:

لمِيةَ موحِشًا طَلَلُ

قالَ سيبويه: وهذا نَقْلٌ في الكلامِ وبابُهُ الشِّعرُ.

فهذه السورةُ تتضمنُ انفرادَهُ ووحدانيتَهُ، وأنَّه منقطعُ النظيرِ، وأنَّهُ إنما نُزِّهَ عن أنْ يكونَ من أجناسِ المخلوقاتِ، لأنَّ أفرادَ كُلِّ جنسٍ مِنْ هذه الأجناسِ متكافئةٌ مماثلةٌ، فالذهبُ يكافيءُ الذهبَ، والإنسانُ يكافيءُ الإنسانَ ويزاوجُهُ، ولهذا قالَ تعالَى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ [الذاريات:٤٩]، فمَا مِنْ مخلوقٍ

إلا وله كفوٌ، هو زوجُهُ، ونظيرُهُ، وعـدلُهُ، ومثيلُهُ، فلوْ كانَ الحقُّ مِنْ جنسِ شيءٍ منْ هذهِ الأجناسِ لـكانَ له كـفوٌ وعـدلٌ، وقـدْ عُلِمَ انتـفـاؤُهُ بالشـرعِ والعقلِ.

فهذه السورةُ هِيَ نسبُ الرحمنِ وصـفتُه، وهيَ الَّتي أنزلَهَا اللَّهُ في نفي مَا أضافَ إليه المبطلونَ من تمثـيلٍ،وتجسيمٍ، وإثباتِ أصلٍ وفرعٍ، فدخَلَ فـيها ما يقولُه مَنْ يقولُ من المشركينَ، والصابـئةِ، وأهلِ الكتابِ، ومن دخلَ فيهم من منافِقِي هذهِ الأمةِ من تولدِ الملائكةِ أوِ العقولِ، أوِ النفوسِ، أوِ بعضِ الأنبياءِ، أو غيرِ الأنبياءِ.

ودخلَ فيهـا ما يقولُه مَنْ يقولُ من المشـركينَ وأهلِ الكتابِ من تولدِهِ عن غيرِه كالذينَ قالُوا في المسيحِ: إنَّه اللَّهُ، والذينَ يقولونَ في الدجالِ: إنَّهُ اللَّهُ، والذين يقولون ذلك في عليٍّ وغيرِه.

ودخلَ ما يقولُه من يقولُ من المشركـينَ وأهلِ الكتابِ من إثباتِ كفوٍ له في شيءٍ من الأشياءِ، مثل من يجعلُ له بتشبيهِهِ، أو بِتَجْسيمِهِ، كفوًا له أو يجعلُ لَهُ بعبادةِ غيرِه كُفوًا، أو يجعلُ لَهُ بإضافـةِ بعضِ خلقِهِ إلى غيرِه كُفوًا فلا كفوَ لهُ في شيءٍ من صفاتِهِ، ولا في ربوبيتِهِ ولا في إلاهيته.

فتضمنتْ هذه السورةُ تنزيهُهُ، وتقديسُهُ، عَنِ الأصولِ والفروعِ، والنظراءِ، والأمثالِ.

وليسَ في المخلوقـاتِ شيءٌ ألا ولا بدَّ أنْ يُنسبَ إلى بعـضِ هذهِ الأعيـانِ والمعانِي، فالحيوانُ من الآدمي وغيرِه لا بدَّ أنْ يكونَ له إما والدٌ، وإمَّا مولودٌ، وإمَّا نظيرٌ هو كـفؤُه، وكذلك الجنُّ، والملائكةُ، كمـا قالَ تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ

شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُم تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩].

قالَ بعضُ السلفِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمـونَ أنَّ خالقَ الأزواجِ واحدٌ، قالَ تعالَى: ﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ﴾ [الفجر:٣] قالَ مجاهدٌ: كلُّ شيءٍ خـلَقَهُ اللَّهُ فهو شفعٌ قـالَ تعالَى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات:٤٩] الكفـرُ والإيمانُ، والهدى والضـلالة، والشقاوةُ والسـعادةُ، والليلُ والـنهارُ، والسماءُ والأرْضُ، والبرُّ والبحـر، والشمسُ والقمرُ، والجنُّ والإنسُ، والوترُ اللَّهُ تباركَ وتعالَى.

وهو الذي ذكرهُ البخاريُّ في «صحيحه» فإنَّه يعتمدُ قولَ مجاهدٍ لأنَّه أصَحُّ التفسيـرِ، قالَ الثوريُّ: إذا جاءَكَ التفسـيرُ عَنْ مُجاهدٍ فحسـبُكَ به، واختارَهُ الشيخُ مجدُ الدينِ بنِ تيميةَ.

وحقيقةُ الكفؤ: هُوَ المُسَـاوِي والمُقَاومُ؛ فلا كفوَ لَهُ تعالَى في ذاتِه، ولا في صِفَاتِه، ولا في أسـمائِهِ، ولا في أفعالِهِ، ولا في ربوبيتِـه، ولا فِي إلاهيتِه، ولهذا كـانَ الإيمانُ بالقدرِ نظامَ التوحـيدِ، كَمَـا قالَ ابنُ عبَّـاسٍ، لأنَّ القدريةَ جعلُوا له كُفُوًا في الخلقِ.

وأمَّا توحـيدُ الإلَهـيةِ فـالشركُ فيـهِ تارةٌ يوجبُ الكفرَ والخـروجَ مِنَ الملةِ، والخلودَ في النارِ، ومنهُ مَا هُو أصغرُ كالحلفِ بغيرِ اللَّهِ والنذرِ لهُ، وخشيةِ غيرِ اللَّهِ ورجائِهِ والتوكلِ عليهِ والذلِّ لَهُ وقولِ القائلِ: ما شاءَ اللَّهُ وشئْتَ.

ومنهُ ابتغاءُ الرزق مِنْ عندِ غـيرِ اللَّهِ، وحَمْدُ غيـرِهِ علَى ما أعطَى، والغنيةُ بذلكَ عَنْ حمدِهِ، ومنهُ العملُ لغيرِ اللَّهِ وهو الرياءُ، وهوَ أقسامٌ.

ولهذا حرَّم التَّشَبهَ بأفْعَالِهِ بالتصـويرِ، وحرَّمَ التسمي بأسمَائِهِ المخـتصةِ به

كاللَّهِ والرحمنِ والرَّبِّ.

وإنما يجوزُ التسميةُ بِهِ مُضَافًا إلى غَيرِ مَنْ يعقلُ، وكـذلك الجبَّارُ والمتكبرُ والقهارُ ونحوُ ذلكَ كـالخلاقِ والرزّاقِ والدائمِ، ومنه ملكُ الملوكِ، وقدْ جَعلَ ابنُ عقيلٍ التسميةَ بهذا مكروهَةً.

قال ابنُ عـقيلٍ: كُلُّ مـا انفردَ بِهِ اللَّـهُ كَـ: «اللَّهِ» و«رحمـانٍ» و«خالقٍ» لا يجوزُ التَّسمي بِهِ، وكلَّما وُجِدَ معنَاهُ في الآدَمِي فإنْ كانَ يوجدُ تكبرًا، كالملكِ العظيمِ والأعظمِ، وملكِ الملوكِ والجبارِ فمكروهٌ، والصوابُ الجزمُ بتحريمِهِ.

فأمَّا مَا يتسمَّى بِهِ المخلوقونَ مِنْ أسمـائِهِ كالسميعِ والبصيرِ والقديرِ والعليمِ والرحيمِ، فإنَّ الإضافةَ قاطعةُ الشركةَ، وكـذلكَ الوصفيةُ، فقولنا: زيدٌ سميعٌ بصيرٌ لا يُفيدُ إلا صـفةَ المخلوقِ وقولُنا: اللَّهُ سميعٌ بصيرٌ يفيـدُ صفتَهُ اللائقةَ بِهِ، فانقطعتْ المـشابهةُ بوجْـهٍ من الوجوهِ، ولهذا قـالَ تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سمِيًّا﴾ [مريم:٦٥].

وفيه قولان: **أحدُهُما**: نَفْيُ التسميةِ.

والثاني: نَفْيُ المساواةِ وقدْ نَفَى سبحانه عن نفسهِ المثلية بقولِهِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، ونفى عنه العدلَ والتـسويةَ بقولِهِ: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]، وقولِهِ: ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٦ - ٩٨]، ونَفَى عنـه النِّدَ بقولِهِ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]، وقـولِهِ: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا﴾ [فصلت:٩].

وفي الحديث: أيُّ الذَّنْبِ أعظمُ؟ قالَ: «**أن تجعل للَّه ندًا وَهُوَ خلقكَ**»[١]، وقالَ للذي قالَ لهُ: ما شاءَ اللَّه وشئتَ: «**أجعلتني للَّه ندًا؟**»، وفي رواية: «**أجعلتني للَّه عدلاً**»[٢].

وقالَ كعبٌ: السماواتُ السبعُ، والأرضونَ السبعُ، أُسِّسَتْ عَلَى هذه السورةِ ﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾.

ومعنى هذا ـ واللَّهُ أعلمُ ـ أنَّ السماواتِ، والأرضَ، إنما خلقتْ بالحقِ، والعدلِ، والتوحيدِ؛ كمَا قالَ: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ (٣٨) مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ**﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

ومِنْ شعرِ أميةَ بنِ أبي الصلتِ:

وسبحانَ ربيِّ خالقِ النورِ لم يَلد ... ولم يكُ مُولُودًا بذلكَ أَشْهَد
وسبحانَهُ مِنْ كُلِّ إفكٍ وباطلٍ ... وكيفَ يلدْ ذو العرشِ أمْ كيفَ يُولَد
هو اللَّهُ بارِيء الخلقِ والخلقُ كُلُّهم ... إِمَاءٌ لَهُ طَوْعًا جميعًا وأَعْبَد
هو الصمدُ اللَّهُ الذي لَمْ يكُنْ لَهُ ... مِنَ الخلقِ كفوٌ قَدْ يُضَاهيه مخلد
وأَنَّى يكونُ الخلقُ كالخالقِ الَّذي ... يدومُ ويَبْقَى والخليقةُ تَنْفَد
وليسَ بمخلوقٍ على الدَّهْرِ جده ... ومَنْ ذا عَلَى مَرِّ الحوادث يَخْلُد
وَتفْنَى ولا يبْقَى سِوى القاهرِ الَّذي ... يُميتُ ويُحيي دائِبًا ليس يَمْهَد

آخرُه والحمدُ للَّه ربِّ العالمين[٣].

---

(١) أخرجه: البخاري (٦/ ٢٢ ـ ١٣٧)، (٨/ ٩ ـ ٢٠٤)، (٩/ ٢ ـ ١٨٦ ـ ١٩٠)، ومسلم (١/ ٦٣) من حديث عبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه: أحمد (١/ ٢١٤ ـ ٢٢٤ ـ ٢٨٣ ـ ٣٤٧)، والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٩٩٥).

(٣) «تفسير سورة الإخلاص».

الفهارس

الآيـــة القرآنية	رقمها	المجلد / الصفحة
• سورة الفاتحة •		
• الحمد للَّه رب العالمين	٢	١/ ٦٧ ـ ٦٨ ـ ٦٢٥
• الرحمن الرحيم مالك يوم الدين	٣ - ٤	١ / ٦٧ ـ ٦٨
• إياك نعبد وإياك نستعين	٥	١ / ٦٧: ٧٠ ـ ١٦٧
• اهدنا الصراط المستقيم	٦	١ / ٦٧ ـ ٦٨ ـ ٧٥
• صراط الذين أنعمت عليهم	٦	١ / ٦٧ ـ ٦٨ـ٧٥
• غير المغضوب عليهم ولا الضالين	٧	١ / ٦٧ـ ٦٨ـ ٧٠
• سورة البقرة •		
• الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه	١ - ٢	١ / ٣٦١، ٢ / ٤٢٨
• هدى للمتقين . الذين يؤمنون بالغيب	٣ - ٤	١ / ٣٦١
• أولئك على هدى من ربهم	٥	٢ / ٢٧٣
• ومن الناس من يقول آمنا باللَّه وباليوم الآخر	٨	١ / ٢١٠
• أو كصيب من السماء	١٩	١ / ٩٣
• فلا تجعلوا للَّه أنداداً وأنتم تعلمون	٢٢	٢/ ٦٧٧
• فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار	٢٤	١ / ٩٧ ـ ١٠٠ ـ ١٠١
• ولهم فيها أزواج مطهرة	٢٥	١ / ١٠٣
• كيف تكفرون باللَّه وكنتم أمواتًا فأحياكم	٢٨	٢ / ١٠١
• وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم	٤٠	٢ / ٢٧١ ـ ٣١٠
• أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم	٤٤	٢ / ٤٢٢
• واستعينوا بالصبر والصلاة	٤٥	٢ / ٥ ـ ١٥٧
• واتقوا يومًا لا تجزي نفس عن نفس شيئًا	٤٨، ١٢٣	١ / ٣٦١
• وقالوا لن تمسنا النار إلا أيامًا معدودة	٨٠	١ / ٣٧٤
• بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته	٨١	١ / ١٠٤

الآيـــة القرآنية	رقمها	المجلد / الصفحة
• ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم	١١٩	١ / ٦٨٣
• ولقد نصركم اللَّه ببدر وأنتم أذلة	١٢٣	٢ / ٣٩١ ـ ٦١٢
• واتقوا النار التي أعدت للكافرين	١٣١	١ / ٣٦١، ٢ / ٥١٢
• وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة	١٣٣: ١٣٦	١ / ٥٦٠ ـ ٥٦٤، ٢ / ١٨٠ ـ ٢٠٧ ـ ٢٠٨
• والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم	١٣٥	١ / ١٥٠ ـ ٢٠٧ ـ ٢٠٩ ـ ٥٦٤ ـ ٦١٤ ـ ٦٥٠ ـ ٥٦٧ ـ ٧١٩
• ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون	١٣٥	١ / ٢٠٩ ـ ٢١٣ ـ ٣٣١
• أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم	١٣٦	٢ / ٤١٦
• وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل	١٤٤	٢ / ١١٦
• فأتاهم اللَّه ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة	١٤٨	٢ / ١٣٤
• فبما رحمة من اللَّه لنت لهم	١٥٩	١ / ٢٢٠ ـ ٢٢١ ـ، ٢ / ٤٩١
• أفمن اتبع رضوان اللَّه كمن باء بسخط	١٦٢ ـ ١٦٣	١ / ٣٦٨
• لقد مَنَّ اللَّه على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً	١٦٤	١ / ٢٢٢، ٢ / ٤٢٦
• الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم	١٧٣	٢ / ٢٧١ ـ ٢٧٢
• ولا يحسبن الذين يبخلون بما أتاهم اللَّه	١٨٠	١ / ٥١٤
• كل نفس ذائقة الموت	١٨٥	١ / ٢٦٧ ـ ٢٦٨
• لتبيننَّه للناس ولا تكتمونه	١٨٧	١ / ١١
• لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون	١٨٨	١ / ٢٧٢ ـ ٢٧٥ ـ ٥٢٩

الآيـــة القرآنية	رقمها	المجلد / الصفحة
• يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه	٥٤	١/ ٤٣٥
• يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه	٥٤	١/ ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١
• فسوف يأتي اللَّه بقوم يحبهم ويحبونه	٥٤	٢/ ٢١٦
• الذين يقيمون الصلاة	٥٥	٢/ ٢٧٤
• وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعبًا	٥٨	١/ ٤٤١، ٤٤٢
• قل يا أهل الكتاب لستم على شيء	٦٨	٢/ ١١٠
• ما المسيح ابن مريم إلا رسول	٧٥	٢/ ١١٦
• يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل	٨٧ ـ ٨٨	١/ ١٠٨
• ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم واحفظوا أيمانكم	٨٩	٢/ ٣٠٨
• إنما الخمر والميسروالأنصاب والأزلام رجس	٩٠ ـ ٩١	١/ ٤٤٥
• ليعلم من يخافه بالغيب	٩٤	٧٠٢
• اتقوا اللَّه الذي إليه تحشرون	٩٦	١/ ٣٦٠
• يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء	١٠١	١/ ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١
• يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم	١٠٥	١/ ٤٦١، ٤٦٢
• يا أيها الذين آمنوا شهادة بينكم	١٠٦:١٠٨	١/ ٤٠٩، ٤١٠
• قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون	١١١	١/ ٧٧
• إن تعذبهم فإنهم عبادك	١١٨	٢/ ٢٦٥
• سورة الأنعام •		
• وأوحي إلي هذا القران لأنذركم به	١٩	٢/ ١١٦
• ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي	٥٢	٢/ ١٩٠، ١٩١

الآيـــة القرآنية	رقمها	المجلد / الصفحة
• وجادلهم بالتي هي أحسن	١٢٥	٢/ ١٧٨ ـ ١٨١
إن اللَّه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون	١٢٨	١/ ٣٦٧ ـ ٦٩٣
• سورة الإسراء •		
• سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام	١	١/ ٦٢٦
• وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً	٨	١/ ٤٨١
• إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم	٩	١/ ٥٥
• وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل	١٢	١/ ٥٣٠
• من أراد الآخرة وسعى لها سعيها	١٩	٢/ ٤٤٨ ـ ٤٥٠
• ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها	٢٩	١/ ٦٢٧
• إن السمع والبصر والفؤاد	٣٦	٢/ ٣٠٩ ـ ٦٢٤
• وإن من شيء إلا يسبح بحمده	٤٤	١/ ١٦٣ ـ ٦٢٩
• وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين	٤٥	١/ ٦٢٩
• وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن	٥٣	٢/ ١٧٨
• إن ربك أحاط بالناس	٦٠	١/ ١٣٩
• وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس	٦٠	٢/ ٢٤٧
• والشجرة الملعونة في القرآن	٦٠	٢/ ٢٤٨
• واستفزز من استطعت منهم بصوتك	٦٤	٢/ ٧٧ ـ ٨٠
• يوم ندعو كل أناس بإمامهم	٧١:٧٢	١/ ٦٣٠
• ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئًا	٧٤:٧٥	١/ ١٤٧ ـ ١٤٨
• أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل	٧٨	١/ ٦٣١ ـ ٦٣٢
• وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهوداً	٧٨	١/ ٦٣٢ ـ ٦٣٧ ـ ٦٣٨

الآيـــة القرآنية	رقمها	المجلد / الصفحة
• رب إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان	٤٤	٢/ ٣٠٠
• وأسلمت مع سليمان للَّه رب العالمين	٤٤	١/ ٧٧
• إنك لا تسمع الموتى	٨٠	٢/ ٩٧ ـ ٩٨
• من جاء بالحسنة فله خير منها	٨٥	٢/ ٦١ ـ ٦٢ ـ ٦٤
• سورة القصص •		
• فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون	٥٠	١/ ٢٠٢
• ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى	٥٠	٢/ ٢٥٤
• فأما من تاب وآمن وعمل صالحًا	٦٧	١/ ٥٦٥ ـ ٥٦٦
• قل أرأيتم إن جعل اللَّه عليكم الليل سرمدًا	٧١:٧٢	٢/ ٦٥
• وقال الذين أوتوا العلم	٨٠	٢/ ٦٥
• تلك الدار الآخرة نجعلها	٨٣	١/ ٣١٦ ـ ٣١٧، ٢/ ٦٦
• كل شيء هالك إلا وجهه	٨٨	١/ ٢٤١ ـ ٢٤٢
سورة العنكبوت		
• الم. أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا	١:٣	٢/ ٢١١
• ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن	٤٦	٢/ ١٧٨
• ما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه	٤٨	٢/ ٤٢٧
• أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب	٥١	١/ ٥٣، ٢/ ٢٤٨
• سورة الروم •		
• يعلمون ظاهرًا من الحياة الدنيا	٧	١/ ٤٢٠
• فسبحان اللَّه حين تمسون وحين تصبحون	١٦:١٧	١/ ٦٣٥ ـ ٦٣٦،

الآيــــة القرآنية	رقمها	المجلد / الصفحة
• وإنا لنحن الصافون	١٦٥	٢/ ١٤٦ ـ ١٤٧
• سورة ص •		
• ص والقرآن ذي الذكر. بل الذين كفروا	١، ٢	١/ ٥٥
• ولا تتبع الهوى فيضلك	٢٦	١/ ٢٠٣ ـ ٢٥٤
• أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين	٢٨	٢/ ١٣٠
• كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته	٢٩	١/ ٧
• هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب	٣٩	٢/ ٥٠٦
• هذا فليذوقوه حميم وغساق	٥٧	٢/ ٥٣٣
• هذا فليذوقوه حميم وغساق وآخر من شكله	٥٧:٥٨	٢/ ٣٣٤
• وآخر من شكله أزواج	٥٨	٢/ ٢٣٩
• هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبًا بهم	٥٩:٦٤	١/ ١٠٠
• عذابًا ضعفًا في النار	٦١	١/ ٦١٣
• وما من إله إلا اللَّه	٦٥	٢/ ١٠٩
• ما كان لي من علم بالملأ الأعلى	٦٩	٢/ ١٤٨
• قال فإنك من المنظرين	٨٠	٢/ ٢٢٠ ـ ٢٢١
• سورة الزمر •		
• أمن هو قانت آناء الليل ساجدًا وقائمًا	٩	٢/ ١٥ ـ ١٢١
• إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب	١٠	١/ ١٣١ ـ ١٣٥، ٢/ ٢٢٢
• لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل	١٦	١/ ٣٦٩، ٢/ ٥١٢
• فويل للقاسية قلوبهم	٢٢:٢٣	٢/ ١٥ ـ ٣٧٨

فهرس
الموضوعات والفوائد

فهرس الموضوعات والفوائد

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
• صفوف المسلمين في الصلاة تشبه صفوف الملائكة	١٤٦
• كيفية صف الملائكة عند ربهم	١٤٦
• صفوف المسلمين في الصلاة من صفتهم في الكتب السالفة	١٤٧
• تفسير سورة ص •	
• ذكر ما يختصم فيه الملأ الأعلى	١٤٨
• لم يكن من عادته ﷺ تأخير صلاة الصبح	١٤٩
• حكم من أخَّر صلاته لآخر الوقت لعذرٍ	١٥٠
• من رأى رؤيا تسره فليقصها على إخوانه وأصحابه	١٥٠
• نفي التمثيل عن صفات اللَّه	١٥١
• استغفار الملائكة للمؤمنين واعتناؤهم بأعمالهم	١٥٢
• ما جاء في ذكر الكفارات	١٥٢
• ثلاثة أسباب يكفر اللَّه بها الذنوب	١٥٣
• تعريف تمام النعمة	١٥٣
• حصول ثواب للوضوء زيادة على تكفيره للذنوب	١٥٦
• تعريف إسباغ الوضوء	١٥٦
• الطهور شطر الإيمان	١٥٧
• تعريف إسباغ الوضوء على الكريهات	١٥٧
• الوضوء طاعة للَّه يكتب به أجر وترفع به الدرجات	١٥٧
• ذكر ما ينشأ عن الرضا بما يصيب الإنسان من ألم	١٥٨
• ذكر حال السلف وما يصيبهم حال وضوئهم	١٥٩
• المحبة تهون الأثقال	١٦٠
• إسباغ الوضوء على المكاره من علامات المحبين	١٦١

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
	٢٥٥

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة
• البرزخ أول مـا يبدأ فيه بـالمحاسبة والعـقاب	٣٦٢
• إنقاذ الوضـوء لصاحبه من عـذاب القبر	٣٦٢
• ذكر أمـور أخرى منجيـة من عذاب القـبر	٣٦٣
• الشـهيـد لا يفتن في قبـره	٣٦٣
• أنواع عذاب القبر:	
• الضـرب بمطراق أو غـيـره	٣٦٤
• تسليط الحيـات والعقـارب وغـيرهمـا	٣٦٦
• عـذاب القبـر يكون حـتى البـعث	٣٦٦
• تفسير مـعنى «المعيشة الضنك»	٣٦٦
• عـذاب الشاتم للصـحـابة في قبـره	٣٦٨
• تضيـيق القبر علـى صاحبـه حتى تختلف أضـلاعه	٣٦٩
• ضـغطة القبـر عامـة للمؤمن والكافـر	٣٧٠
• لا أحد يعـفى من عذاب القـبر وضمـته	٣٧٠
• تذكّـر النبي ﷺ ابنته زينب ضعـفها وضغطة القبـر عليها	٣٧١
• وصـف النـبـي ﷺ لسعـد بن عبادة بالعـبد الصالح عند قـبره	٣٧٢
• أصل ضـمـة القـبـر	٣٧٣
• منديل من مناديل سعد خير من الدنيـا وما فـيهـا	٣٧٤
• يُكسى الكـافـر في قـبـره ثـوبين من نار	٣٧٤
• هل يرفع عـذاب القـبر فـي بعض الأوقات الشـريفـة؟	٣٧٥
• فـضل من مات يـوم الجمـعة أو لـيلتهـا	٣٧٥
• المؤمن في قـبـره في روضـة خضـراء ويرحب له قـبـره	٣٧٥
• شفـاعة القـرآن لصاحـبه حـال وفاته	٣٧٦

الموضوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة
• تفسير سورة الحشر •	
• حكم الأرض المعنوة في آية الغنيـمة	٣٨٨
• الأصناف المستحقـة للفيء	٣٨٩
• إجلاء يهـود بني النضـير	٣٨٩
• اختـصاص الـنبي ﷺ بنخل بني النضيـر	٣٩٠
• ذكر علة اخـتصاصه ﷺ بنخل خيبر	٣٩٠
• الغنيـمـة رخـصـة ورحـمـة من اللَّه	٣٩١
• هل يقوم الإمـام مقام الرسول في تقسيم الفيء؟	٣٩٢
• ذكر سبب نزول قوله: ﴿مـا أفاء اللَّه على رسوله من أهل القرى﴾	٣٩٢
• مـا لم يذكر فـيـه الإيجـاف الأولى حمله عـلى القتـال	٣٩٣
• مـصـرف الخُمْس مـصـرف الفيء	٣٩٣
• جـواز وقف بعـض أراضي بيت المال عـلى بعض المسـلمين	٣٩٥
• حـصـر الفـلاح في وقـاية شـح النفس	٣٩٥
• عين الفلاح قـهر النفس وقـصرها على مـا أبيح لها وأذن فـيه	٣٩٥
• سلامـة الصدر من الشـحناء أفضل الأعـمال	٣٩٦
• تفـسيـر مـخمـوم القلب	٣٩٦
• سخـاوة النفوس وسلامـة الصدور تبلغ بأهلهـا ما لا تبلغـه صلاة ولا صيـام	٣٩٧
• الموت أعظم الشـدائد نزولاً بالعبـد	٣٩٧
• الاسـتـعداد للموت ومـا بعده حال الصـحة	٣٩٧
• من نسي اللَّه حـال صحتـه نسيه اللَّـه في الشدائد	٣٩٧
• فـرح المؤمن بلقـاء اللَّه بما قدمـه	٣٩٧

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة
• تفسير قوله ﴿وإذا الجحيم سعرت﴾	٤٨٧
• النار سوداء لا يطفىء جمرها ولا يضيء لهبها	٤٨٧
• تمثيل اللَّه الكافرين ببحر لجّي	٤٨٨
• كل ما في جهنم أسود ماؤها، وأهلها، وشجرها	٤٨٨
• وصف ملائكة النار بالغلظ والشدة	٤٨٨
• وصف خلقة خزنة النار التسعة عشر	٤٨٩
• تفسير سورة الملك •	
• عدم قبول العمل الخالص ما لم يكن صوابًا	٤٩٠
• مقصود العمل الخالص الصواب	٤٩٠
• تفاضل أهل الآخرة بالإرادات	٤٩٠
• تفسير سورة القلم •	
• تفسير العتل الزنيم	٤٩١
• معنى «الجعظري» و«الجواظ»	٤٩١
• معنى المتكبر	٤٩٢
• ذكر من يدعى إلى السجود فيرفض	٤٩٢
• تفسير سورة الحاقة •	
• حال الأشقياء في حياة البرزخ	٤٩٣
• تفسير المعيشة الضنك	٤٩٣
• صفات وحال أنعم الناس	٤٩٣
• طيب عيش المتقين في الآخرة	٤٩٤
• أهل الجنة في جوار اللَّه طول المقام	٤٩٤
• أدنى أهل الجنة منزلاً	٤٩٤

الموضـــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

• تفسير سورة المدثر •

الموضوع	الصفحة

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
• نظر اللَّه لأي إنسان رحمة	٥٤٩
• ذكر من يغفر اللَّه له برجائه فيه	٥٤٩
• تجلي اللَّه لعبده يوم القيامة يكون بقدر معرفة العبد للَّه	٥٥٠
• المقام بين يدي اللَّه آخر العهد به	٥٥٠
• ذكر العرض على اللَّه بقطع أوصال المحبين	٥٥٠
• رضوان اللَّه أكبر من نعيم الجنة	٥٥٠
• أنهار الجنة تجري على المسك	٥٥١
• تفسير سورة البروج •	
• فضائل يوم عرفة	٥٥٢
• ذكر ما اجتمع فيه عرفة والجمعة	٥٥٢
• تفسير قوله تعالى: ﴿الودود﴾	٥٥٣
• أمر اللَّه آدم بحب اللَّه وتحبيب الخلق فيه	٥٥٤
• أمثلة لوصية بعض السلف والصالحين بحب اللَّه	٥٥٤
• المحبون هم المقربون	٥٥٥
• إبراهيم ـ عليه السلام ـ أشد خلق اللَّه حبًّا له	٥٥٦
• تقوى اللَّه عوض من كل فائت من الدنيا	٥٥٦
• تفسير «النفس المطمئنة»	٥٥٧
• اتصال همم الأبرار بمحبة الرحمن	٥٥٧
• محبة اللَّه مانعة من كل لذة غير مناجاته	٥٥٧
• البكاء على فوت خير الآخرة حيث لا رجعة	٥٥٨
• التقوى سيد الأعمال	٥٥٨
• درجة المحبة متأخرة عن الشكر والرضا	٥٥٨

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

• تفسير سورة الهمزة •

• تفسير سورة الفيل •

الموضوع	الصفحة

• تفسير سورة الماعون •

• تفسير سورة النصر •

الموضـــوع	الصفحة
• تبليغ النبي ﷺ أمته الرسالة وأمور الدين كلها	٦٤٥
• اختيار النبي ﷺ لقاء ربه الرفيق الأعلى	٦٤٥
• ما جاء في منزلة ابن عباس رضي الله عنهما بين الصحابة	٦٤٦
• إخبار النبي ﷺ فاطمة أنها أول بيته لحوقًا به	٦٤٧
• إكثار النبي من «سبحان اللَّه وبحمده، أستغفر اللَّه وأتوب إليه» آخر أمره	٦٤٧
• في التسبيح والتحميد إثبات صفات الكمال للَّه	٦٤٨
• تضمن الاستغفار وقاية شر الذنوب	٦٤٨
• من فقه الرجل حمده للنعمة واستغفاره للذنب	٦٤٩
• الاستغفار خاتمة الأعمال الصالحة	٦٤٩
• ذكر مواضع يشرع فيها الاستغفار	٦٤٩
• سبب تشريع الاستغفار للمؤمنين	٦٤٩
• معرفة المؤمن باللَّه تزيده خوفًا منه	٦٤٩
• الاستغفار نوعان	٦٥٠
• الاستغفار المجرد يمنع الإصرار	٦٥٠
• العزم على الإقلاع عن الذنب من تمام التوبة	٦٥١
• إطلاق التوبة يدخل فيها الانتهاء عن المحظور	٦٥١
• أحاديث في فضائل الاستغفار	٦٥١
• كثرة الاستغفار تجعل من كل هم فرجًا	٦٥٢
• صحيفة أعمال بني آدم ترفع بيضاء بالاستغفار	٦٥٣
• ذكر سبب لكثرة وملازمة الاستغفار	٦٥٣

الموضوع	الصفحة

• تفسير سورة الإخلاص •

تمت فهارس موضوعات التفسير

والحمد للَّه رب العالمين